الهلال

العام المائة

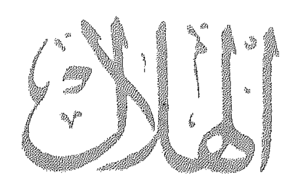
أغسطس ١٩٩٢ ● الثمن ١٠٠ قرش

الراعي
والجائز

٤٠ عاما على سقوط الملك فاروق



انتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

General Org... -an-

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع ، مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢١٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ٢٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ ج.س.

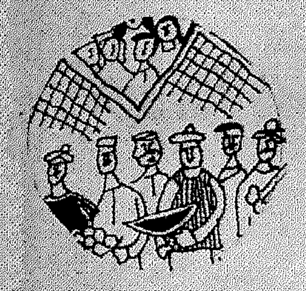
الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع ، تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

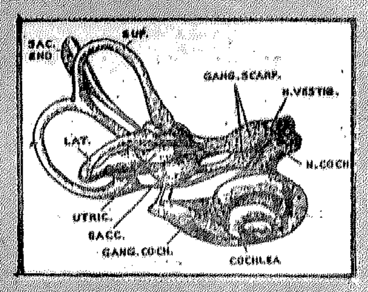
فكر وثقافة :

دائرة الحوار :

قصة وشعر



فنون





د . على الراعى

الدكتور على الراعى والذى كرمته الدولة أخيـرا ومنحتـه جائزة الـدولة التقـديرية فى الآداب ، يعد من أبرز النقـاد المعـاصرين الذين تميزوا بالحس الوجدانى والشـفافية فى كل ما يقـدمه للقـارئ وهو أحد الذين تولوا رئاسـة تحـرير الهلال فى أوائل السبعينيات وكان يحلم بتقـديم فكر مبـدع متميز من خـلال « الهلال » . حياته رحلة رائعة منذ تخرج فى كلية الآداب جامعة فـؤاد الأول عـام ١٩٤٣ وحصل على درجة الدكتـوراة من جامعـة برمنجهـام عن الكاتب المسرحى برنارد شو .

ويعتبـر د . على الـراعى مؤسـس المسرح المصرى المعاصر بأجمل ما فيه وأفضل فترات ازدهاره حينما تولى مؤسسة المسرح .

اعتمد كاتبنا وناقدنا الكبير على حلمه وثقافته ، وتنوع مواهبه ، ولم يعتمد على شئ آخر ، وكانت ومازالت خبرته العلمية والأدبية والمسرحية موضع التقدير .

ومازال عطـاء الرجل بلا حدود وهو يفكر الآن فى إصدار كتاب يتضـمن تجـاربه فى عالم المسرح ليضـاف إلى كتبه الهامة التى ألفها طوال حيـاته وكان آخـرها الرواية فى الوطن العربى .. وتهنئة خاصة لأستاذنا الكبير الذى يعمل ويعطى للثقافة بلا حدود .

المحـــرر

عزيزى القارىء

اللقـــاء مـــع شهـــر الأمـبراطور أغسطس

بين شهرى يوليو وأغسطس - تموز وآب - منافسة قديمة ترجع إلى أكثر من ألفى سنة ، فقد كان عدد أيام أغسطس ثلاثين يوما فقط ، وكان عدد أيام يوليو واحدا وثلاثين يوماً ، فغضب الإمبراطور الرومانى أغسطس الذى حكم الرومان من عام ٢٧ قبل الميلاد إلى عام ١٤ بعد الميلاد ، وقال الامبراطور الغاضب لرجال دولته : كيف يكون شهر يوليو المسمى باسم يوليوس قيصر واحداً وثلاثين يوما ، ويكون شهرى أنا - شهر أغسطس - ثلاثين يوما لاغير ؟! .

وعلى الفور تغيرت أرقام الأيام فى شهور السنة وصار أغسطس واحدا وثلاثين يوما مثل يوليو تماما ! .

ومنذ ذلك العهد صار أغسطس توأماً ليوليو ، كأنهما خرجا من بطن أم واحدة ، وإنهما لكذلك ، فهما إبنان توأمان لموسم الاصطياف كل عام ، بحيث لايمكن فصل أحدهما عن الآخر ، ولايمكن أن يبدأ التصييف الحقيقى إلا ببداية يوليو ، ولاينتهى إلا بنهاية أغسطس ..

وفى يوليو كان لنا - ياعزيزى القارىء - لقاء على النسمات الأولى المنبعثة من البحر معلنة بداية موسم التصييف أو الاصطياف وهانحن أولاء فى أغسطس نلتقى وقد اشتد هبوب النسيم من البحر ، داعيا الجميع إلى

اللقاء السنوى مع الصيف على الشاطىء ، يستروحون العطر الندى الهائم فوق السحائب الزرقاء والبيضاء فى السماء الراقدة على صدر البحر فى الأفق البعيد ! ..

إن أغسطس هو الربيع الأزرق - كما سمّاه بعض كبار الأدباء - لأن البحر فى هذا الشهر يبعث من زرقة مائه ربيعاً مطلولا بالأنداء كأنه فى بهائه وصفائه الربيع الأخضر الذى ينبعث من خضرة الحقول حين ترتوى من رحيق الحياة فى أبريل ومايو، أو نيسان وآيار ..

عزيزى القارىء

يُطلق على أغسطس باللغة السريانية القديمة وهى من أخوات اللغة العربية ، شهر «آب» ومعناه نضج الفاكهة والثمر ، ويقابله فى الشهور المصرية القديمة التى يحفظ الفلاحون المصريون أسماءها إلى اليوم كما يحفظون أسماء آبائهم وأمهاتهم وأولادهم .. يقابله شهر « مسرى » وهو الشهر الذى يرث الحرارة والصهد من شهر «بؤونة» .. ويتلقى أول نفحات الخريف من شهر «أيلول» ! ..

هكذا الحياة ، تتواصل وتتشابك شهرا بشهر ، ولا انقطاع لها .. وتتصاعد وتتطور ، أو تتبعثر وتتدهور ، وتواجه الحياة أبناءها الأحياء بقوانينها الراسخة ، ويواجهونها بعملهم الدائم وكفاحهم الذى لاينقضى ! ..

عزيزى القارىء

ليست الأسطر القلائل السابقة جنوحا إلى «الفلسفة» ولكنها إيماءة من كثب ، وتحية من قريب إليك وإلى كل قارىء عربى يصل « الهلال » فى أيامه « المتوية » بينما نحن العاملين فى الهلال نقضى أغسطس كما قضينا يوليو نعد العدة للتلاقى إن شاء الله !.

« المحرر »

بقلم : د . شكرى محمد عياد

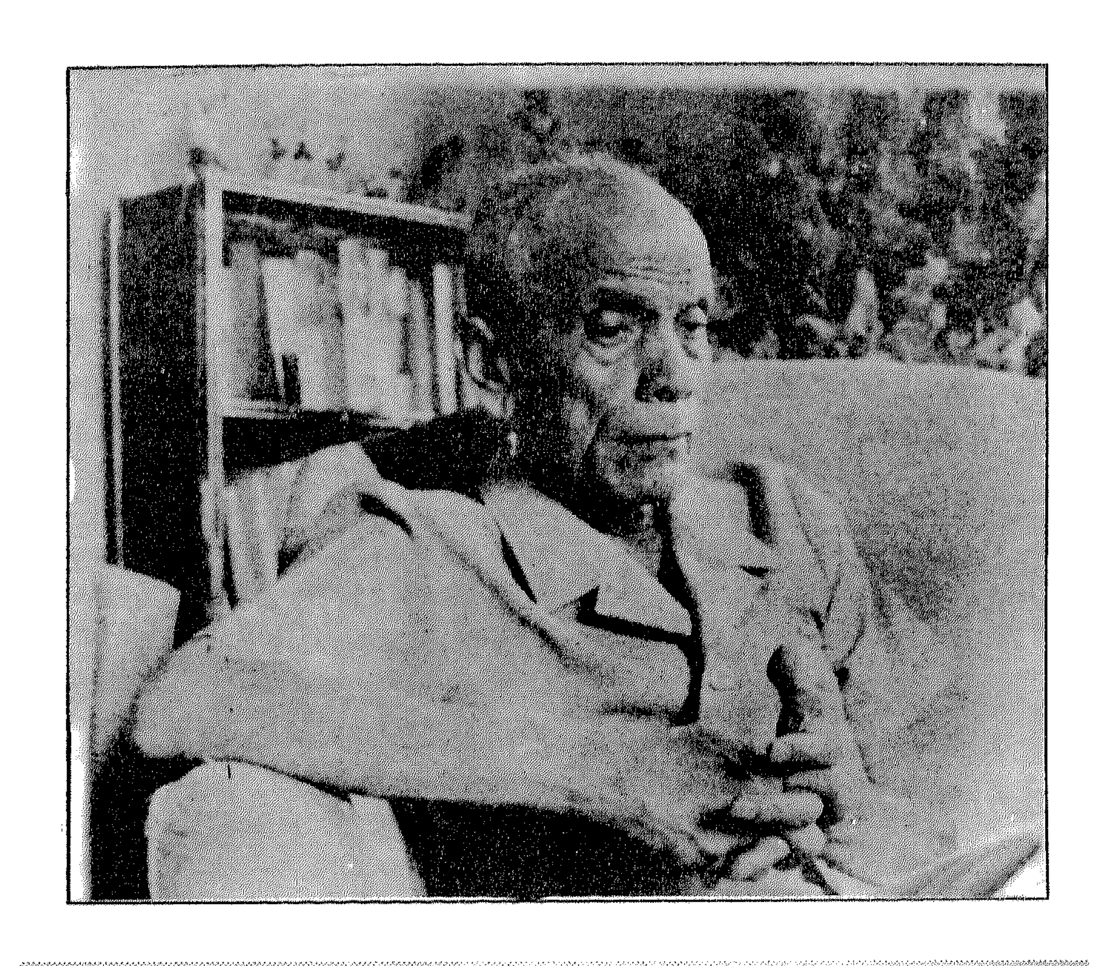


على الراعى والرواية العربية

تاهت جائزة الدولة التقديرية سنين كثيرة قبل أن تهتدى إلى مكان على الراعى ! وجائزة الدولة التقديرية حدث سنوى مهم يجب أن يشغل الرأى العام العلمى والفنى والأدبى وأن تستغله أجهزة الإعلام لنشر الثقافة الرفيعة بين جماهيرنا، ولكن يبدو أن الترشيح للجائزة ومنحها والاحتفال بها ، كل ذلك أصبح يخضع لما تخضع له سائر شئون حياتنا من عشوائية غابت فيها المعايير .

على الراعى ناقد من طراز فريد فى وقتنا هذا ، وإن يكن هو الطراز العظيم الذى يسود الساحة الأدبية فى كل عصر غنى بالإبداع وفى كل أدب حى ، طراز سنت بيف وهازلت وهنرى بوردو وادموند ولسن وبريستلى ومورجان . وهو أيضا طراز العقاد والمازنى وطه حسين ومحمد مندور ومارون عبود . كل هؤلاء كانوا فنانين بالسليقة ، ومعظمهم مارسوا فنون القصص أو المسرح أو الشعر أو جمعوا بينها جميعا وبين النقد ، واذا كان النقد قد استأثر بعلى الراعى ، فقد كان فى نقده فنانا ، وهذا أحدث كتبه « الرواية العربية » (١٩٩١) لو أطلقنا عليه اسم « رواية الرواية العربية » لما عدونا الحقيقة .

المقالة النقدية نوع من أنواع المقالة



الفنية ، والمقالة الفنية عمل إبداعي يأسر القارىء بإحكام بنائه ولطف مدخله وبراعة أسلوبه. ولكن من سوء حظ المقالة النقدية أن سيطر عليها في الآونة الأخيرة اتجاهان غريبان عن الفن : الإيديولوجية من ناحية والأكاديمية من ناحية أخرى . وعلى الراعي أكاديمي ودكتور وأستاذ وهو كذلك متعمق في فهم الماركسية ولكنه أديب وفنان قبل أن يكون أكاديميا أو ماركسيا ، ولأنه غير بعيد عن الأكاديمية والماركسية فهو أقدر الناس على أن ينقذ المقالة النقدية منهما ، أو على الأصح من سوء استخدامهما . إنه يأبى أن يخضع العمل الفنى للتصنيفات الأكاديمية أو ينكته ليخرج مضمونه الطبقي ، فهو أعلم بطبيعة الفن وأرهف ذوقاً من أن يصنع

النقـــــز
على الأشواك

هذا أو ذاك . إنه يتعامل مع كائن شديد التركيب ، ذابت في داخله المضامين الطبقية وتآلفت الأساليب الفنية وانصهرت كلها في مزاج الكاتب واتحدت مع مشاعره الإنسانية ورؤيته الكونية حتى خرج هـــذا « الكائن » متميزاً عن كل كائن آخر من جنسه . وعلى الراعي يعرف كائناته جميعا معرفة حميمة ، ولذلك يستطيع أن يتحدث عن تركيب كل منها كما يتحدث عن تركيب كائن حي ، لا عن أجزاء آلة . والمعرفة الحقيقية لا تكون إلا عن طريق الحب . حتى عالم الحشرات يحب حشراته ويمكن أن يصفها بالجمال ، ولعلها جميلة فعلاً ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك جمالها إلا إذا كان لدينا مثل علمه غير أننا يمكن أن نشترك جميعا في إدراك جمال الرواية ، لأنها تحدثنا عن كائنات نعرفها جيدا ، أو يخيل إلينا أننا نعرفها ، وهي أنفسنا . ونحن نحبها أكثر حين يكشف لنا عقل ذكي ونفس حساسة عن مدى قربها منا ، لأنه استطاع أن يقترب منها أكثر مما نستطيع ذلك ، ولأنه حدثنا عن تجربته معها حديث إنسان لإنسان ، لا حديث أستاذ لتلميذ .

لقد كان من المغالطات التي أقدم عليها بعض الأكاديميين ، وتلقاها عنهم تلاميذهم وحاولوا ترويجها بين الناس ، وصفهم المقالة النقدية (الفنية) بأنها نقد انطباعي، وموضع المغالطة أن « الانطباعية » لا تعد عيباً أو نقصا في التصوير أو القصص أو الشعر ، فلماذا تعد مأخذا - بل سبة - في النقد ؟ ولكن هؤلاء النقاد الأكاديميين زعمـــوا أنهم يهـــدوننا نقداً « علميا » ، ولكن كيف يكون النقد « علميا»؟ هل نملك «قوانين» ثابتة نستطيع أن نطبقها على كل عمل أدبي ؟ وإذا كان لكل عمل أدبي تفرده الخاص ، أي قانونه الخاص فهل يمكننا أن نقدم وصفا «علميا» لهذا العمل إلا إذا اقتربنا من خصوصيته ؟ وهل يمكننا الاقتراب من هذه الخصوصية إلا بطـريق « انطباعي » ، أو - بعبارة أدق - إلا إذا تلقيناه كشئ جديد ، متلمسين طريقنا إليه باستخدام جميع حواسنا ومداركنا ؟ هذه الطريقة في المعرفة هي نفس الطريقة التي يسلكها المصور أو الروائي في التعامل مع موضوعاته ، وسواء سمينا هـــذا التعامل « معرفة » في حالة المصور أو الروائي أم بحثنا له عن اسم آخر ، فإنه في حالة الناقد « معرفة » بدون أدنى شك ، ومن ثم فإن العمل الذي يقوم به عمل علمي ، وعمل فني أيضا ، وعلى عكس ما يزعمه أولئك الأكاديميون من أن «الانطباعية» في النقد تناقض « العلمية » ، فإننا نقول إن الانطباعية هي السبيل الوحيد للعلمية الصحيحة في النقد.

ولكن المقالة النقدية لا يكتمل لها جمالها الفني إلا إذا استطاع الناقد أن يصور لنا « انطباعه » تصويراً دقيقاً


العقـاد


المـازني

وأميناً وأعنى بذلك أن يكون « تكنيك » المقالة النقدية مناسباً للتجربة التى يمر بها الناقد فى اكتشاف العمل الأدبي . وقد تختلف التجربة من عمل إلى عمل ، بل لابد أن يقع مثل هذا الاختلاف . وقد يختلف التكنيك من ناقد إلى ناقد ، ولابد أن يقع مثل هذا الاختلاف .

ولعلى الراعى تكنيك يبدو للناظر المتعجل شديد البساطة . ولكنها عند التأمل بساطة الفن المكتمل ، التى لا تصدر إلا عن « حرفية » متمكنة .

يتوهم القارئ المتعجل أن على الراعى « يعرِّفه » بالرواية ، لا أكثر ، أي أنه يقدم له ملخصا لما يسمى « حبكة » الرواية ، مع وصف مختصر للشخصيات المهمة ، وربما أضاف جملة أو جملتين فيهما حكم نقدى على قيمة الرواية ، وكأنه لا يريد بهذه الإضافة أكثر من أداء مهمة لابد منها ، رغم علمه بأنها قد تكون ثقيلة على قارئه ، وربما على كاتب الرواية أيضا .

ولكن حقيقة ما يفعله على الراعى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف .

يتحدد الخط الرئيسى للمقالة النقدية - أو محور حركتها إن شئت - ككل عمل إبداعى بنقطة البداية . وكما أن كاتب الرواية لا يلزم أن يبدأ روايته من بداية الأحداث - بل قلما يفعل ذلك - فكذلك على الراعى لا يبدأ مقالته من بداية الرواية ، بدايته دائما نقطة متميزة كاشفة فى الرواية ، قد تكون مشهداً أو جملة من حوار ، تبرز فى ثنايا القراءة ويمكن أن تبقى متشبثة فى خيال القارئ لأنها توحى أكثر من غيرها بكينونة الرواية : بالرواية كلها كنسيج وبناء و« معنى » كلى كامن فى أعماقها . ومن هذه النقطة المضيئة يتقدم الناقد بسرعة ورشاقة نحو ما ينبغى أن نسميه بؤرة الرواية : نحو نقطة المركز التى تلتقى عندها كل الخطوط ، كما يمكنك أن تقف فى الميدان الرئيسى فى وسط المدينة فتعرف أو تصف لغيرك اتجاهات الشوارع المهمة التى تبدأ من الميدان والأحياء التى يمر بها وتلك التى ينتهى إليها كل شارع . هكذا تصبح المدينة « مفهومة » لا لمن يزورها لأول مرة فقط ، بل ربما لمن عاش فيها طوال عمره أيضا ، ولكن دون أن يراها على هذه الصورة .

ربما بدا هذا الوصف « جغرافيا » أكثر مما ينبغى ، وهو كذلك فعلاً ، ولذلك ينبغى أن ابتعد عن أسلوب التشبيه لأصف لك بطريقة مباشرة ما يصنعه الناقد على الراعى حين يصل بك إلى هذه البؤرة أو النقطة المركزية . إنه يجعلك تعيشها كما

عاشها هو . تعرف روحها كما تعرف جسمها . لا تهمّ التفاصيل ، تكفى منها تلك السمات أو الملامح التى تشف عن الروح ، هذه السمات أو الملامح هى أصابع المبدع على جسم الرواية ، يتحدث عنها الناقد بلغة اصطلاحية تجمعت من تجارب المبدعين فى مختلف أنماط الإبداع وعصوره ، ولكن الناقد الذى عايش العمل وأحبه يجعلها لغة شفافة لأنها لا « تعرّف » أو « تصنّف » فقط ولكنها تصف لك كيف تخلّق العمل على هذه الصورة الجميلة . وأخيراً يأتى « الحكم » النقدى : كلمات قليلة يحدد الناقد مكان « هذه » الرواية بالذات فى عالم الرواية الفسيح . وعندى أن القارىء لم يكن بحاجة إلى هذا الحكم ، فقد عرفه بصورة تلقائية من ثنايا المقال ، ولم يعد أمامه إلا أن « ينزل إلى البحر » ، يسبح وحده فى العالم الذى وصفه له الناقد .

فقراءة « نقد » لرواية ما ، تجربة مختلفة عن قراءة الرواية نفسها . إنك فى النقد تبحث عن « معنى » الرواية ، ولكنك فى الرواية تعيشها . فكتابة الرواية أو قراءتها ليس لها من مبرر سوى عشق الحياة . وإذا لم يجد الكاتب نفسه غارقا حتى أذنيه فى حياة شخصياته فليس له أن يفكر فى كتابة رواية ، وإذا لم يجد القارىء نفسه مفتوناً بحياة شخصيات الرواية فلا داعى لأن يعذب نفسه بقراءتها . وقد يوجد قارىء لا يهمه النقد ولا يحب أن يقرأه إنه يريد فقط أن يعيش حياة أبطال الرواية ، هذا هو القارىء الذى يقال عنه إن الروايات أفسدت مخه ، وأبعدته عن الحياة الحقيقية . وقد يوجد قارىء للنقد لا يصبر على قراءة رواية . هذا غالباً قارىء متزمت ، يرى الخيال ضرباً من العبث ، ويجب أن يفهم الحياة أكثر من أن يعيشها . ولكن نقد على الراعى لون خاص من النقد ، يعطى - حتى لهذا القارئ المتزمت - جرعة طيبة من الحياة ! فلا تزال « الرواية » نفسها موجودة فى نقد على الراعى ، ولذلك يمكننا أن نقول إنها تصبح روايته هو ، حقيقة لا مجازا . فمن المسلم به أن القصة الواحدة ، بشخصياتها الرئيسية ، يمكن أن يتداولها مؤلفون كثر ، ويكون كل واحد منهم « مؤلّفها » يفضل الصورة التى يعرضها بها . ولعلى الراعى فنه الخاص فى رواية الرواية ، وإن كان فناً مرتكزاً على استخلاص « المعنى » من الحياة ، كما هو شأن النقد . ولذلك نجده يختلف مع المؤلف الأصلى أحيانا حول بناء الرواية ، فقد أصبح فى الحقيقة مالكا لها ، وأصبح من حقه أن يتصرف فيها ، لا بمنطق الناقد التقليدى الذى يطبق القواعد ، ومن ثم يمكنه أن يلفت الروائى إلى « خطأ » ، بل بمنظور المبدع الجديد ، الذى يعيد - فى الواقع - صياغة الرواية .

هل تريد بعض الأمثلة ؟ ما أكثرها !

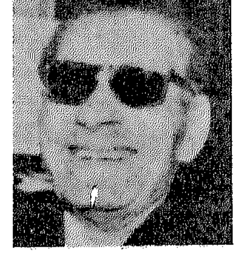
ولكننى سأكتفى بواحد أو اثنين .

فى مقالته عن « الطوق والأسورة » ليحيى الطاهر عبد الله ، يبدأ على الراعى ، كعادته ، بنقطة مضيئة : فهيمة بطلة الرواية تناجي عريسها المقبل ، ولكنها فى الحقيقة تتشوق إلى أخيها الغائب مصطفى ، صورته لم تبرح خيالها ، وذكرياتها معه مفعمة بعشق خفى مكبوت .

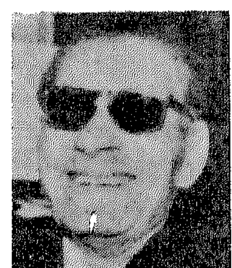
وتنضم إلى هذه النقطة نقطة أخرى فى الرواية ، فتتسع الدائرة . إنها متجهة إلى المعبد القديم سعيا إلى الإخصاب ، تسأل نفسها وهى تنظر إلى الكباش التى كانت بشراً فى القديم فسخطها الله : كيف يتزوج الأخ من أخته ؟

« ولما عادت من المعبد ، بعد أن جرى لها ما جرى ، رقدت على سرير أبيها الميت ، مريضة بالحمى ، وأخذت تشتهى الأشياء الحلوة النوم الطويل المقبل ، والبلح الرطب وجعلت تشم رائحة عرق مصطفى ، والبول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر العطن وتقول : أشتهيه : أنت أخى وأنا بنت الأم والأب . هاك حضنى ... خذنى .. تعال » .

هل لاحظت أن على الراعى عندما يعطينا هذه البقعة المضيئة الثانية يصطنع أيضا حيل الروائيين فيلغز حول المعبد القديم وما جرى لفهيمة فيه ، ويعطينا ، من خلال هذيان الشابة المحمومة ، حقيقة قديمة وهى موت الأب ، وخطراً مهدداً وهو الشهوة المحرمة ؟



طه حسين



محمد مندور

ولكننا أصبحنا مهيئين الآن للانتقال إلى بورة الرواية :

فهيمة عذراء مسلمة فى رواية فرعونية القرار ، تمتزج فيها أحداث الماضى وشخصياته وأعرافه الوثنية بدين الحاضر وقرآنه وكرامات أوليائه والمزاج عضوى ينوب فيه كل شئ فى كل شئ . الماضى السحيق تعلوه طبقات التاريخ المختلفة وتكون وحدة عضوية متماسكة تماسك صخور الجيولوجيا » .

ومن بؤرة المركز يمكن أن تلقى الأضواء على تفاصيل بارزة وعميقة الدلالة ، تقوم منها صورة شديدة التكثيف لأحداث القصة وشخصياتها وجوّها أيضاً ومن بين هذه التفاصيل خاتمة الرواية ، التى لا تقدم كحلقة أخيرة فى سلسلة من الأحداث المرتبة زمنيا ، بل كواحدة من التفاصيل التى تعرفنا بجسم الرواية ، حسب المنطق الخاص بالمقالة ، الذى يضم أجزاء المعنى بعضها إلى بعض ، وفقا لما يتطلبه المعنى نفسه .

لقد انهار مصطفى كما ينهار بطل

تراجيديا إغريقية ، وهاهو ذا يحمل مشلولا إلى داره ، حيث لم يبق إلا أمه العجوز ولا يبقى أمام المؤلف إلا أن يسدل الستار على هذه المأساة المروعة ، على وقع الكلمات الجنائزية التالية :

الدمع جف في العينين ، وها أنت يا حزينة بعد مرور الزمان مع الإبن المقعد داخل المكان . رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدادة الشامتة . ولا ضوء ولا نار بموقد . وما الحاجة للنار والموقد ؟

كلمات تصلح تماما لإنشاد الكورس في مسرحية إغريقية . لقد دار الزمن دورة كاملة وعادت حزينة تعيش مع رجل آخر مقعد » .

ويسجل الناقد للكاتب الروائي أنه استطاع من خلال حبه لأهله وناسه أن يصور مأثوراتهم الشعبية وخيالهم الأسطوري تصوراً دقيقاً ولكنه يضيف انتقادا لما يعده إضافات متطفلة أو نتوءات لا علاقة لها بجسم الرواية ، وهي تلك الإشارات إلى بعض أحداث التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الثانية ، ومأساة اغتصاب فلسطين ، وكفاح المناضلين المصريين ضد الإنجليز في القناة ، وأحداث إلغاء المعاهدة .

وقد يدافع ناقد آخر عن هذه الإضافات ، باعتبارها إطارا زمنياً معاصرا يؤكد - بدلا من أن ينقد - الجو الأسطوري الذي يسيطر على الرواية ولكن المهم أن هذا التصور لا مكان له في الرواية التي يعيد الناقد خلقها . ومثل ذلك يمكن أن يلاحظ في مقالته عن رواية فتحي غانم « حكاية تو » . لقد وضع أيدينا - من خلال عدد من النقط المضيئة - على الفكرة المحورية في الرواية ، وهي « مسئولية الكاتب الذي يخاف السجن والتعذيب ويدفعه خوفه إلى أحضان الشلل » فلا يبقى أمامه إلا أن يدفع الشاب « تو » إلى قتل مدير السجن « زهدي » الذي تولى تعذيب أبيه حتى الموت - أو هذا ما يقنع نفسه بأنه قد قام به فعلا . وفي خلال ذلك « يستمع الكاتب إلى آراء عديد من الناس في الاشتراكية والتأميم والفلسفة الجدلية والعنف المصاحب للثورات ، وهي آراء يجدها الناقد منفصلة عن جسم الرواية ، لأنها لا تقدم حلا لمشكلة الكاتب » .

ولكن « رواية الرواية العربية » التي يكتبها على الراعي ليست هي هذه الفصول التي يعيد فيها « تأليف » روايات كتبها غيره (أكثر من ثمانين رواية) بل هي الكتاب في مجموعه ، الكتاب الذي يعرض محنة الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج ، وأمله في غد أكثر إشراقا .

تحية للصديق الناقد العظيم الدكتور على الراعي ، الذي خدعني طويلا بتحفظه الظاهري ، فرأيت في نقده - رغم إعجابي به - الجانب العلمي ، والجانب الإيديولوجي ، وكاد يغيب عني أجمل ما فيه : الإنسان الفنان .

أقوال معاصرة

★ « الارهاب محكوم عليه بالفشل لأن للعقلاء رصيدا كبيرا فى امتنا »

الشيخ محمد الغزالى

★ « عدو المتطرفين الأول هو الثقافة والمثقفون »

الكاتب الجزائرى رشيد ميمونى

★ « الحضارة الانسانية تحتضر أمام العالم المتحضر »

الشيخ صالح أحمد جولا كوفيتش
رئيس المشيخة الاسلامية بالبوسنة والهرسك

★ « الارتفاع بالمستوى الحضارى للانسان يتمثل فى عدم تلوث المياه والهواء »

الدكتور مصطفى كمال طلبه
المدير التنفيذى لبرنامج الامم المتحدة للبيئة

★ « الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا من خلال تاريخه »

المؤرخ الأمريكى فيلهلم ديلثى

★ « نبذ رؤية الآخرين وعلومهم بمجرد أن تقول لهم « كذبتم » ظلامية جديدة »

المستشرق الفرنسى جاك بيرك

★ « مسرحنا يتحول إلى كباريه ويموت »

الممثل جميل راتب

★ « التجربة الشعرية لن تموت ، مادام هناك عطش كيانى لا يرتوى»

الشاعر اللبنانى فؤاد رفقة

★ « الفرق بين الأفلام والقصص ، أنما يكمن فى التأثير الداهم للوهم فى التصوير الفوتوغرافى »

ريتشارد سلوتكين
الاستاذ بجامعة ويزليان بالولايات المتحدة

★ « عندنا اصولية من نوع خطير تهدف إلى خلق مجتمع معلّب»

المنجى بوسنينة
وزير الثقافة التونسى


محمد الغزالى


رشيد ميمونى


مصطفى كمال


جميل راتب

يابنات اسكندرية

وادوار الخراط وترانيم طويلة فى معبد الجسد !

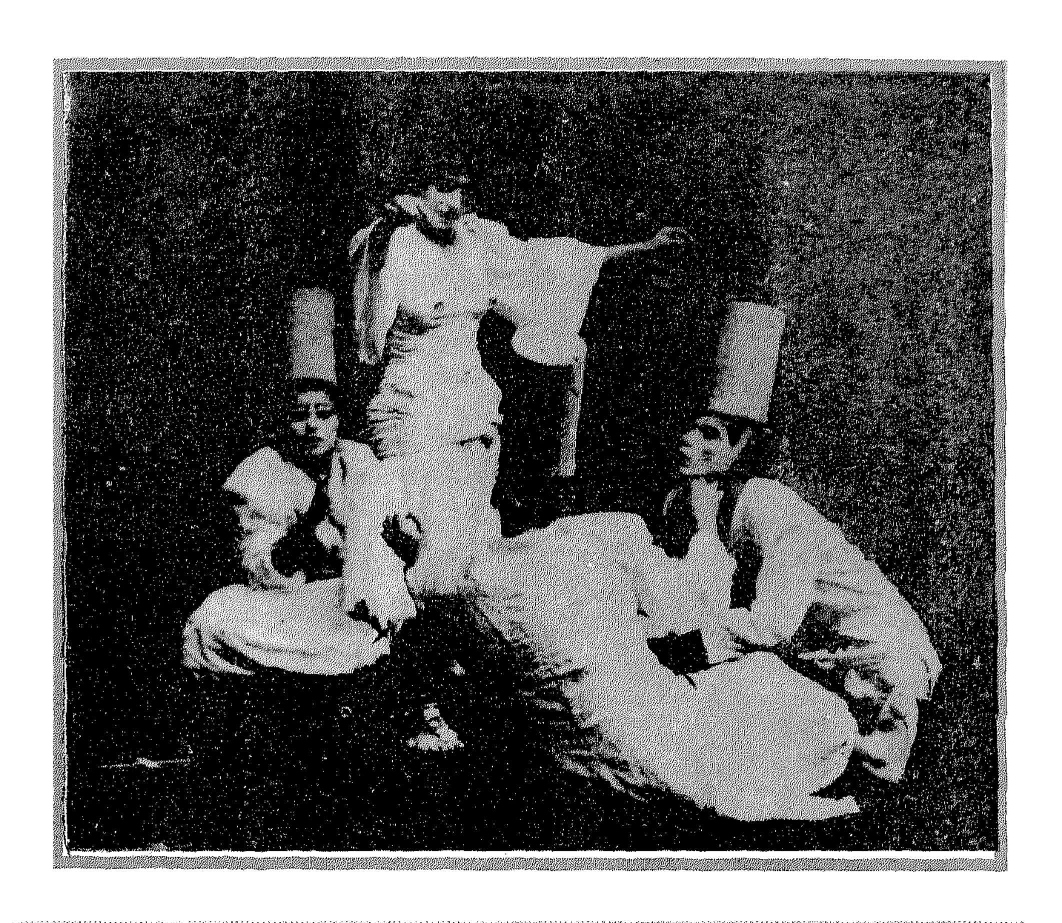
د . على الراعى

قال لنفسه وهو يحاورها : العودة هَوَسٌ مقيم ، وما من عودة ابداً .

وقال : التفجع سهل ومبتذل . ولكن الفاجعة ليست كذلك .

الفاجعة هى أن « الآن » عنده حدث مُنقض ، والذى مات دائم القيام .

عاشق متيم هو من عشاق الفرسان القدامى ، نعيمه المتيم أن ينعم بعذاب من لا يرحمــه ولا يتركـه . توقــه الدائم إلى « الحضور » فى الماضى ، جعله يعجن كل من عرف من نســاء حقيقيات كن أم خارجات من بطون الكتب وشاشات السينما فى امرأة واحدة : ليلى العامرية ، سافو ، هند التى لا تنجز ماتعد ، جريتا جاربو ، لوريتا يونج ، ميمى قشطة ، بهيجة حافظ ، سيلفانا ، سعاد السماحى ، دسبينا الدقيقة الجسم ، زيزى ، منى المعابثة .. إلى آخر قائمة تشغل أربع صفحات . كلهن امرأة واحدة . كلهن يُذَكِّرنَه بنات الاسكندرية كلهن بنت الاسكندرية كلهن بنت واحدة مهما كُنَّ كثيرات . المرأة النخلة التى كان يراها جالسة على الشاطئ المزدحم فى المعمورة . لم تكن تراه ولا عرفت انه يراها . حواليها رجالها ، سمر مفتولو العضلات ، تسيطر عليهم جميعا بالأنوثة المتفجرة من كل مسام جسدها . يرى فيها النخلة السلطانى ، سامقة ملساء الساق ، سمرتها



صافية ، خُصَل الشعر مدببة طويلة ، أسنة العيون الناعمة فيها شراسة ، وهى وادعة فى حضنه تتلمس الأمان . نهداها المدوران محملان بأسباط البلح الرُطَب الأسود المسكر الحلاوة لا تشبع شفتاه من امتصاص سكره . شماريخها العظمية المستديرة تنبثق عنها غدائر الغواية . جمالها دائم . عقيم .

★★★

« كلية » الأشخاص و « كلية » الأشياء - قد يصلح هذا وصفا لهذا العمل الجميل : لأناسه وأحداثه ووسائل الحكى . هذه « الكلية » تتخلق عن طريق تداخل كل شئ فى كل شئ . الماضى فى الحاضر . الصوفى والشاعرى فى الواقعى الأرضى ، و... طريق هذا التداخل يحقق ادوارد الخراط بعضا من أعمق مؤثراته الأدبية يخطر على البال فوراً واقعة اللقاء العاصف بين منى ونفيسة فى أول العمل . يبدأ اللقاء بداية مدوية ، ونفيسة تصرخ بالصوت الحيًانى ، تشهد أهل الحارة جميعا على ما حدث من

منى من عدوان عليها . نفيسة تحب محروس ومنى تشاركها هذا الحب . ومن ثمّ وجب أن تُشَهِّرَ نفيسة ، ملكة الحارة فى فن الردح ، بغريمتها منى . بعد المقدمة التقليدية للردح تصل البذاءة إلى منتهاها ، ثم تشب نفيسة على جسد غريمتها وحبيبتها ، وتصرخ صرخة تلجم الحارة دهشة وفزعا ، وهى تتلوى بجسدها الدقيق البارع ، فى تباريح المخاض ، وتعوى بوجع الآلام التى تكابد خروج الوليد ، ويخيل إليها أنها تحمل الوليد ، رقيقا مغمض العينين أحمر الجلد ، « فتخرج له ثديها الصغير وتلقمه الوليد وهى تنادى : ننه هوه . ننه هوه » .

قد تَلَبَّس جسد نفيسة جسد منى فى التحام جنسى واضح ، نفيسة فيه هى الأنثى التى اندلقت على تراب الحارة ، وهى تتأوه وتنادى محروس بصوت يذوب طلبا وغلمة . ومنى هى المتهمة باخفاء طفل منى من محروس . خيال فى خيال ، ولكنه يرفع الواقعة المبتذلة - واقعة الردح والتشهير - إلى مرتبة أعلى .

تتحدث فيه الرواية عن الاختراق والتشنج وذروة المتعة والنداء الذى يخفت فى راحة وهمود . وتتحدث أيضا عن حس الذكورة الذى يملأ الحارة كلها .

★★★

ينطح الراوى احجار جدار صلد ، يريد ان يُحدث فيه صدعا ، أو شقا يخرج منه . يجرى وراء منى ، يلاحقها ، يريد ان يثبت ذاته بإزائها ، فتنفيه منى من واقعها ، وتلغيه . لا تدرى ماذا تفعل بغرام هذا التلميذ « ابن الجماعة القبط اللى فوق » كلامه حلو ، تستعذبه حينا ، وحينا لا تفهم ما يقول . الرومانسى الذى يقرأ قصيدة كيتس : « المرأة الجميلة الفاقدة الرحمة » ، يريد ان يتخطى الحواجز . فتلغيه الحواجز واختلاف الاديان وتفاوت الثقافات .

جرب أن يقفز من وراء جدران الحبس إلى رحابة الحب الإنسانى المتبادل . عرف التلميذة سوسو ، واقترب قلباهما وروحاهما . تلاقيا مرات وحماها بسترته من مطر هطل فجأة فاحتميا منه فى كابينة على الشاطئ ، وزاد اقترابهما . وحين كف المطر ، سألته عن اسمه ، فَرنَّ الاسم القبطى فى سمعه هو - وليس فى سمعها هى وحدها - غريبا غير مبرر . لم تقل شيئا ولم يتغير تعبير وجهها . خرجا صامتين وحين بلغت الترام ، خلعت السترة وردتها إليه . دون شكر ، ودون لوم . لم تخرج من السترة وحدها ، بل خرجت من حياته أيضا . ورغم وجع الفراق ، ورغم ان الحكاية كانت مقطوعة منذ البداية ، فقد أصبحت « سوسو » تعيش معه فى كل الاماكن المستحيلة التى يسكنها فى خياله : بحيرات وجبال شُم وحصون وقلاع وغابات يراها ، ولا وجود لها الا فى روحه .

★★★

ويبرز « الثدى » فى هذا العمل الجميل بروزا خاصا . ويكتسب أكثر من معنى . هو رمز التوق إلى الارتواء . يراه يضئ بجسديه انثوية تمس شفتيه وتنسال على وجهه . يرى نهدى الفتاة يتلاقيان ، خصبهما خمران ، كأنما ينفحان اللبن الساخن الواعد بالزُبد . ويثير خريره الذى يملأ العالم توقا غامضا . تتحول صورة اللبن الآدمى إلى صورة لبن الجاموسة . ارسلته أمه يشترى اللبن من عم أنيس اللبان . يدخل بيت الرجل ويلقى امرأته الشابة . كان مقرورا ، فأخذته المرأة إلى حضنها ، وقبلته على خده وضمته بحنو وثيق . اغمض عينيه وشم رائحتها الأنثوية مختلطة برائحة اللبن الدسم الطازج . احس تحت فمه مباشرة الجزء اللين السفلى من نهديها : لحظة اغتصاب خاطف ، ناعم ، ثم تركته . وصبت له اللبن بصوت خرير مُشبع . كأنما من ضرع منتفخ .

ورأى الصبى الأم الشابة تحمل طفلا صغيرا جدا . وفى العتمة الخفيفة رأى صدر الجلابية الكستور مبتلاً ، وشم رائحة لبن الأم لا يخطئه الحس ، خصيبا ونفاذا وفيه آثار من حلاوة . قالت له الأم انها كانت تحمل طفلها بالقطار فى الطريق إلى دمنهور ، فمرض الطفل وأوشك على الهلاك . لم يكن الولد قد تنَصرّ بعد ، وأمَضّى الأم ان يموت فلا يذهب ابدا إلى الملكوت ولا يرى قط وجه المسيح . إذ ذاك خلعت الأم ملابس طفلها جميعا حتى اصبح عاريا تماما ، ثم جرحت ثديها ، وعندما تقطر الدم رشت على وجهه قطرات منه وهى ترسم علامة الصليب . استراح الولد . ولما ذهبت به من بعد ليتعمد بالماء المقدس ، قال لها القسيس ان الولد قد تعمد بالفعل ، ولم يعد فى حاجة إلى المزيد . كانت هذه احدى معجزات يسوع . وتلك كانت الست نجية ، ذات الثعبان الكامن بين النهدين .

كان الولد قد رأى ثعبانا ينزلق ببطء على أرض الفسحة الترابية الواسعة . ينسال مطمئنا ، واثقا ان البيت له وان أهل البيت ضيوف عابرون . فجأة يتحول اللبن الذى رضعه الطفل إلى لبن حزن وغضب يأتى من نهد خئون ، فيظل الفم ظامئا إلي اللبن والخمر والدم النقى الطهور . وتظهر الكوبرا الملكية ناشرة جناحيها فى حنان . عصير النهدين يصبح سلافة قاتلة هى ثمن الالوهية وسُم الخلود .

حين سلمت الست نجية على الولد لآخر مرة ، لاحظ فجأة الزرقّة الباهتة فى وشم الصليب القبطى المورق الاطراف على رسغها الاسمر الناعم . كان الطفل فى حضنها – كما فى السابق – وكان نهدها فى فم الثعبان . الثعبان هائل ، له جناحان عريضان ، يشب من أعلى السلم الخشبى ويحط على ذروة نخلة عريقة ، قائمة وحدها فى عتمة الحوش الترابى . ملامح وجه

الولد مطبوعة على حدقتى عينى الثعبان الزجاجيتين . هل قتل الولد اليفةَ الثعبان ، فهى لاتزال تبعث حية ؟ وهل تظل تتكرر بلا انتهاء ؟ ألا يمكن أبدا ان تمـوت ؟ ما دلالة الثعبان ؟ لا يفصح العمل ولا يبين .

★★★

حين يسـتعرض حيـاته شـاعرا ، وثوريا ، ثم عبثيا يهيم فى تأملات مبهمة عن غـواية المـوت وعبثيته واسـتحالة الحياة ، يبدو وكأنه يبحث عن تنين فاتح الشـدقين بألسـنة اللهب ، كأنه يريده ، كأنه واجد فيه نوعا مبهما من الخلاص . اتراه كان يبحث عن التنين ، أم أن التنين كان يبحث عنه ؟ ما معنى التنين ؟ جمال الموت ؟ الرغبة فى الخلاص ؟ فناء الجسد فى الجسد ؟

ثم يُسَلِّم - أواخر ايامه - بأن كل شئ يعدل كل شئ ، وان حياته كانت محكومة بالمصادفة ، وان الحب هوس ، والصداقة بين الرجال تبادل حسابات . وأنه نَهَل وظن انه سيرتوى ، ولكنه ظل ظمآنا ، على شفتيه طعم مر لا يزول علقمه وقال : ان العدالة خرافة عريقة ، والجمال ورقة شجرة ذاوية ، والفن سعى عقيم ، وكل شئ باطل . وقال . هذا افتراء وبطر بالنعمة . فطالما نعم بمغانم الجسد وثمل بنشوات الروح . ولكن احبوكات الشيخوخة والصبا أيضا كلها حق وليس فيها شئ واحد حقا .

ظل يجهد فى العودة إلى أماكن الصبا والشباب : اسكندرية الثلاثينات وقاهرة الخمسينات وبطرسبرج دستويفسكى وأخميم الأربعينية وباريس موباسان وموسكو تشيخوف وبرادى جوجول ولندن ديكنز وثاكرى وبحيرات وردزورث والبساتين الصـوفية فى بنغـال طاغور . ثم عرف من بـعد فى كهـولته انه قاتل بضراوة طول عمره وصنع حياة حافلة بأكملها بالتحققات ، وترك الاشياء الحقيقية تمر من بين اصابعه دون ندم : الثروة والسطوة والنسوان . عَبَر الحياة كأنما فى حلم وابتغى ما ليس موجودا . وكهلاً ، كان الصبى صنوه وغريمه !

وينتهى العمل والراوى يناجى حبيبة له التقاها وود لو ذاب فى هواها : « شفتاك القرمزيتان شفتاى . احدق فى عينيك المكرولتين بسواد غويط فأجد نفسى فى غورهما . وحس شعرك الوثير على جانبى وجهى . ثقل النهدين وحجمهما المحسوس على صدرى والذراعان البضتان متملكتان تلتفان بى » . يرى فى الاندماج فيها موته وبعثه معا . يريد ان يصبحا معا : « الأنا - الأنت » . يجهد بكل ما فيه من طاقة إلى إلى الفناء فى جسدها ليصبحا جسدا واحداً بلا انفصام . الآن تحبس احلامه انفاسها . ويسأل : أفى العالم كل هذا الفرح ؟ يشرب ولا يرتوى من خمرتها .

فى نور هذا الفرح تبوح له البيوت القديمة بأسرارها . يستطيع بسهولة ان

يحل شفرتها . يجد العساكر قد اقاموا خيامهم فى مدرسة الاسكندرية الثانوية ونصبوا مدافعهم فيها . يحس ان المدافع موجهة إلى قلبه . كانت ثورة يوليو قد انفجرت .

★★★

تتعدد طبقات هذا العمل الفنى الجميــل . يعـزف الكاتب نغمات الحب الشبقى ، والحب الصوفى وينزل إلى الواقع الأرضى بكل ما فيه من وحل وتراب ، تتقلب عواطفه بين الفرح الطفولى بشئ يناله أو يظن انه ناله ، وبين الاحباط لأن ما وقع فى يده ليس الا وهماً ملوناً . تظل المرأة شغله الشاغل . تَطّلّع عليه المدرسـة التى يطلق عليها « المادونا » فجـأة ، فتذهب رؤية الأشياء . لا يرى الاها . هى السيدة العذراء أم النور وهى ست دميـانة سانت كاترين معا . ورغم قداسة الانتماء يراها جسـدا . ساقاها عمودان متينان مجللان بالتاج الخفى المكنوز . حوض المعمدانية ومنهل الماء الحى ، يشرب منه فلا يعطش ابدا . ونهـداها باهران كأنهما مقدســـان ، يرضُعان العالم لبن الحنان .

والاديان والثقافات والحضارات ترقد فوق بعضها البعض . فى طفولة الراوى كان صوت الشيخ محمد رفعت يترقرق من صناديق الراديو الكبيرة ذات العيون الواسعة المنيرة ، فى الدكاكين والقهاوى والبيوت المفتوحة الشبابيك قبل مدفع الافطار :

صوت سلسال وجميل ، ومنذر بحزن من عذابات الخيانات والكفران بالنعيم . صوت أبوى وعجوز وحنون ومتعب من عبء الرحمة للخاطئين .

وتطفو الاحداث الآنية ، يومية أو تاريخية إلى السطح من هذا البناء المتين المتماســك . الكفاح ضد الإنجليز . المظـاهرات الاخوانية . رصاص المعتدين الذى يجندل « جمالات » جارة الصبى القديمة . « شعار ارفع رأسك يا أخي » . يقول الراوى : كم رفعناه وكم نكسناه ! الكفاح الخفى من أجل الاشتراكية ، بما فيه من مطابع سرية ، وملاحقات واخطار توشك ان تحيط بالراوى . ثم التخلى عن هذا كله والمضى إلى السراب الدائم الظهور ، الدائم الاختفاء : المرأة ، وجسد المرأة ، وعذاب الحياة وعذوبتها ، وفناء الموت ديمومته ، واختفاء الحياة وعودتها الدائمة ، الدائبة .

قصيدة طويلة جميلة تترنم بها هذه السيرة الذاتية ، التى لم تعد ذاتية ، بل هى تتعدى الذات لتصبح سيرة للحياة والموت ، فى زمن بعينه ، وفى كل الازمان . هنا ، وفى العمل السابق : « ترابها زعفران » ، يسمو فن ادوار الخراط إلى مستوى رفيع من التعبير الفنى الأصيل ، تعذبنا حلاوته ، ويمتعنا ويرهقنا أيضا تعدد معانيه .

من ريو دى جانيرو إلى ميونيخ
مشاكل «الأرض» بين قمتين

بقلم : عبد الرحمن شاكر

الأول منهما حضره ، أو كان من المفروض أن يحضره كل رؤساء دول العالم . أما الثانى فقد حضره رؤساء الدول الصناعية الكبرى فحسب : الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وبريطانيا العظمى وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وكندا ، ولحق بهم - ليقف على بابهم حتى يفرغوا له من مداولاتهم - رئيس روسيا بوريس يلتسين !

الأول ، وهو مؤتمر ريو دى جانيرو ، يمكن أن يوصف بأنه « مجلس عموم » الكرة الأرضية ، الذى انعقد لأول مرة . أما الثانى ، فقد أطلق عليه اسم « مجلس إدارة الاقتصاد العالمى » ! حيث يضم « أعيان » العالم من الدول الصناعية الكبرى ، التى تتحكم فى اقتصادها ، وخاصة بعد سقوط المعسكر الاشتراكى ، وانحلال الاتحاد السوفييتى ، وكان چورچ بوش يطمع فى أن يضم روسيا إلى هذا المؤتمر ، باعتبارها قوة صناعية كبرى فى الأخرى - رغم كل شئ ولكن رفاقه فى المؤتمر رفضوا ذلك ، بدعوى أن روسيا لم تتأهل بعد للحاق بهم ، فاقتصادها لم يستكمل تحوله إلى اقتصاد السوق ، أو الاقتصاد الرأسمالى ، ولا يزال أمامها أن تتفق مع صندوق النقد الدولى ليعطيها شهادة صلاحية اقتصادها للاندماج فى « الاقتصاد العالمى » وتلقى المساعدات التى تحتاج إليها بصورة ملحة . ومن المحتمل كذلك أن يكون « بوش » قد أراد أن يجعل من روسيا يلتسين، بعد التطورات التى لحقتها، حليفا له ، فى مواجهة منافسيه الجدد ، وخاصة اليابان وألمانيا ، ولكنهم رفضوا أن يبلعوا هذا « الطعم » واحتجت اليابان بأن على روسيا أن تعيد إليها جزر الكوريل الأربع أولا ، وهى الجزر التى احتلها « الاتحاد السوفييتى » السابق خلال الحرب العالمية الثانية ، والتى كانت موضع نزاع قديم ما بين اليابان والامبراطورية الروسية ، وتعرض اليابان أن تشترى من الروس الذين أقاموا فى بعضها حق الإقامة فيها بألوف الدولارات لكل منهم ، وتعرض على الحكومة الروسية ، مليارات الدولارات أيضا كمعونة اقتصادية ، إذا ما قبلت بدورها التخلى عن هذا الجزء من « أرض الوطن »، كما

شهدت « الأرض » فى هذا الصيف مؤتمرين ، أحدهما فى يونيو والآخر فى يوليو ، الأول منهما أطلق عليه اسم « قمة الأرض » ، وعقد فى ريو دى جانيرو العاصمة السابقة للبرازيل واسمه الرسمى هو مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية ، والثانى الذى عقد فى يوليو ، هو مؤتمر الدول الصناعية السـبع الكبرى فى مدينة ميونيخ ، قلعة الصناعة الألمانية ، وبين المؤتمرين مداخلات كثيرة فى دوائر اهتمامهما والمواضيع التى طرحت أمامهما ، وإن اختلفا اختلافا بينا فى التركيب .

يفكر القوميون الروس المتعصبون ، وخاصة المستوطنين منهم لتلك الجزر !

ونعود إلى المؤتمر الأول : لنجده قد انعقد ليبحث أساسا مشكلة تلوث البيئة الناتج عن زيادة الإنتاج والاستهلاك الصناعى ، والمفاعلات النووية ونفاياتها ، وزيادة نسبة غاز ثانى أوكسيد الكربون فى الجو ، بسبب عوادم الاحتراق ، مما يهدد بارتفاع درجة حرارة الأرض ، واحتمال ذوبان الجليد فى المناطق الشمالية والجنوبية من الكرة الأرضية بحيث تفيض مياهها وترفع منسوب المياه فى كافة البحار والمحيطات والأنهار ، ويهدد باختفاء كثير من المدن الساحلية بما فيها نيويورك ولندن وأمستردام ومرسيليا ونابولى والاسكندرية ! وكذلك نسبة زيادة « غاز الكلوروفلوروكربون » الناتج عن كثير من المواد الكيميائية المستعملة فى تشغيل الثـلاجات ومكيفـات الهـواء وأنواع « السبراى » المختلفة ، وهلم جرا ، وهو يهدد بتوسيع ثقب الأوزون فى الغلاف المحيط بالكرة الأرضية والذى يحميها من أشعة الشمس فوق البنفسجية ، وقد بلغ هذا الثقب حاليا مساحة تعادل مساحة الاولايات المتحدة الأمريكية ، ومعنى أن يزداد اتساعا أن تزداد الكرة الأرضية تعرضا لتلك الأشعة التى تهدد بانتشار أمراض العيون وسرطان الجلد بين البشر ، ونفوق الماشية التى يعتمد الإنسان فى معيشته على لحومها وألبانها وجلودها ، وجهودها كطاقة محركة بدائية !

ومن مشاكل البيئة التى لا تنتهى نفاد الطاقة ونضوب مواردها ، وقلة الغذاء إزاء الزيادة السكانية المطردة فى العالم ، وخاصة فى بلدان العالم الثالث ، وتلوث البحار والأنهار بسبب النفايات الصناعية ، وبالتالى موت الأسماك ، واختفاء كثير من الأنواع الهامة ، منها الأعشاب الطبية التى تنبت فى المناطق الاستوائية والتى تستهلكها شركات الأدوية بشكل مفرط ، وكثير منها مهدد بالانقراض نتيجة لقطع الغابات الاستوائية ، والغابات بدورها قضية هامة ، لأنها رئات الأرض التى تزودها بالأوكسجين ، وتعادل بذلك زيادة نسبة غاز ثانى أوكسيد الكربون ، ولكن هذه الغابات يجتثها سكان تلك المناطق

تلبية لحاجة الصناعات الخشبية وصناعة الورق وما إلى ذلك ، ولزراعة الأرض بدلا منها لتوفير الغذاء . وبعض تلك الغابات ، وخاصة فى الشمال الأوربى والأمريكى يذهب ضحية مجانية دون أن يقطعه أحد ، وذلك لسقوط الأمطار الحمضية عليها ، المحملة بالكثير من الغازات الصناعية ونواتج الاحتراق ، كما حدث فى ألمانيا وهولندا وكندا .

ولقد طالب مؤتمر « قمة الأرض » الدول الصناعية الكبرى بأن تتحمل هى المسئولية الكبرى فى عمليات حماية البيئة ومكافحة التلوث ، فهى صاحبة النصيب الأكبر فى الإنتاج والاستهلاك الصناعى ، وعليها أن تضع سقوفا معقولة لهذا الإنتاج والاستهلاك ، وأن تتحول عن أكثر أشكاله إضرارا بالبيئة ، وهى التى تملك الطاقة الصناعية والمعرفة التكنولوجية والمال اللازم لهذا التحول ، وعليها ، أكثر من ذلك أن تساعد الدول النامية على مكافحة تلوث البيئة فى بلادها من ناحية ، وأن تدعم اقتصادياتها من ناحية أخرى لكى تكف عن قطع الغابات كى تبيع أخشابها ، أو تزرع مكانها ، ولأن رفع مستوى المعيشة فى تلك البلدان النامية ، هو الطريق الوحيد الناجح للحد من الانفجار السكانى فيها ، على غرار ما هو حادث فى البلدان الصناعية الغنية ، حيث تتطلع الأسرة الصغيرة إلى الاستمتاع بمباهج الحياة ، خلاف إنجاب الأطفال ، على نحو ما صور أديبنا الراحل يوسف إدريس فى قصة « أرخص ليالى » ، وحيث الأطفال وكثرة عددهم لدى الأسرة الفقيرة ، هو نوع من رأس المال ، حيث تباع قوة عملهم . كأنهم من رقيق الأرض !

ويقترح المؤتمر أن تقدم الدول الصناعية الغنية مبلغ ١٢٥ مليار دولار فى العام للدول النامية لمساعداتها على تحقيق هذا البرنامج ، وتتحمس اليابان لهذا الاقتراح وتؤيدها فيه الدول الأوربية ، ولكن الرئيس الأمريكى بوش ومعاونيه يعترضون رغم أن هذا المبلغ لا يزيد على ١ ٪ من الدخل القومى للدول الصناعية المتقدمة !

ويقولون إن هذا البرنامج يعنى توريط الولايات المتحدة الأمريكية فى برنامج « اشتراكى » على مستوى العالم ! وأن من وراء ذلك الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوربا المخالفة مع « الخضر » ، أو دعاة حماية البيئة ، وأن الراية الخضراء قد حلت محل الراية الحمراء لتؤدى نفس الغرض ! مشيرين بذلك إلى أن المؤتمر قد استند إلى تقرير لجنة الأمم المتحدة لحماية البيئة والتنمية ، وهو الذى أشرفت على إعداده زعيمة « اشتراكية » هى « جروهارلم برونتلاند » رئيسة وزراء النرويج ورئيسة حزب العمل بها ، وكان عنوان التقرير « مستقبلنا المشترك » !

استنكار دولى

وحتى بالنسبة لفرض حماية البيئة فحسب .. دعك من حكاية معاونة البلدان النامية على بناء اقتصادها ، فقد أعلن الرئيس بوش أنه لن ينفذ برامج تؤدى إلى زيادة البطالة فى بلاده عن طريق توقف بعض الصناعات التى يقال إنها ضارة بالبيئة ! وكان إعلانه هذا سابقا على عقد

المؤتمر ، بحيث قوبل باستنكار دول العالم بمن فيهم حلفاؤه الأوربيون ، وقوبل الرئيس ذاته عند وصوله إلى المؤتمر الذى راجت إشاعات بأنه لن يحضره لولا أن مستشاريه نصحوه بالحضور أقول قوبل بمظاهرات معادية أوشكت أن تفتك به لولا الحراسة المشددة !

ويهذا اعتبر مؤتمر « قمة الأرض » فاشلا ، وإن كان قد نجح على الأقل فى إرساء مبدأ أن يعقد هذا المؤتمر ، عساه أن يصل إلى حلول للمشاكل التى تهم الجنس الانسانى ككل فى سنوات أو عقود مقبلة .

❄ ❄ ❄

ويأتى دور المؤتمر الثانى فى يوليو ، وهو مؤتمر القمة الصناعية للعالم ، ويناشد الدكتور بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة المؤتمرين ألا ينسيا مشكلة العالم الثالث ، وضرورة تخفيض أعباء الديون عن الدول النامية ، ومساعدتها فى تطوير اقتصادياتها ، خاصة وأن المؤتمر يعقد تحت شعار تنمية الاقتصاد العالمى ، ولكن معظم مناقشات المؤتمر تدور حول اتفاقيات التجارة ، حيث تدور حرب تجارية خفية ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الأوربيين ، حول المعونات التى تقدمها الحكومات للمزارعين للمساعدة على تصريف فوائض انتاجهم الزراعى ، وحول حجم المساعدات المقترحة لدول المعسكر الاشتراكى السابق ، أو الديمقراطيات الجديدة فى شرق أوربا وكومنوث الدول المستقلة ، التى انبثقت من انحلال الاتحاد السوفييتى ، وخاصة جمهورية روسيا الاتحادية لمساعدتها على التحول إلى اقتصاد السوق ، وتريد الولايات المتحدة الأمريكية أن تتحمل أوربا واليابان العبء الأكبر فى هذه المساعدات باعتبار أن الولايات المتحدة ذاتها تعانى مع عجز كبير فى ميزانيتها الاتحادية وفى ميزان مدفوعاتها ، وذلك لأنها - كالأتحاد السوفيتى السابق سواء بسواء - كانت متورطة فى الحرب الباردة ، ونفقات سباق التسلح الباهظة ، التى أعفيت منها سائر الدول الصناعية الكبرى ، وخاصة ألمانيا واليابان اللتين تتمتعان بالحماية العسكرية الأمريكية ، دون أن تتحملا فى ذلك مصاريف تذكر ، وهما صاحبا أكبر فائض فى ميزان المدفوعات .

ولكن ألمانيا واليابان ، بدأت كل منهما تعانى الآن ، الأولى منهما بسبب تكلفة توحيد ألمانيا ، وبالأحرى انضمام ألمانيا الشرقية ، باقتصادها المتخلف إلى ألمانيا الغربية ، والمساعدات الضخمة التى قدمتها ألمانيا الموحدة إلى الأتحاد السوفييتى السابق ليسـحب جيـوشه من ألمانيا الشرقية ، بما فى ذلك تكاليف انشاء مساكن بديلة للقوات المنسحبة ، بدلا من تلك التى كان يسكنها الضباط والجنود وعائلاتهم فى ألمانيا الشرقية !

أما اليابان فقد بدأ التدهور فى إنتاجها المزدهر ، وشرعت البطالة تطل برأسها فى صفوف العمال اليابانيين المشهورين بالكفاءة وارتفاع الانتاجية والولاء للمؤسسة التى يعملون فيها بنسبة ٣٪ على الأقل من مجموع هؤلاء العاملين ، ولعل السبب فى ذلك هو التدهور العام فى الاقتصاد العالمى ، بما فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت أكبر

مســـــتورد للمنتجات اليابانية ، وأكبر مستقبل لاستثماراتها الخارجية ، وكان ذلك موضوع شكوى الساسة الأمريكيين ، وهو الذى دفع الرئيس بوش منذ فترة إلى زيارة اليابان ، لمطالبة حكومتها بزيادة وارداتها من السلع الأمريكية وخاصة السيارات .

ويفشل المجتمعون فى ميونيخ فى التوصل إلى نتائج محددة « لتطوير الاقتصاد العالمى » ويكتفون باصدار بيانات عامة ، بعضها له طابع سياسى ، مثل استنكار ما يحدث فى « البوسنة والهرسك » دون الإقدام على فعل حقيقى لانقاذ سكان تلك الجمهورية الوليدة من المذبحة التى تدور هناك ، ومثل الحث على التوصل إلى سلام عادل فى الشرق الأوسط ، دون ممارسة الضغط السكانى على الحكومة الاسرائيلية الجديدة للشروع فى مبادلة الأرض بالسلام ، بدءا من التوقف كلية عن استيطان الأرض العربية المحتلة .

فإذا عدنا إلى الغرض الاقتصادى ، فإن بعض زعماء العالم الثالث ، ومنهم الرئيس المصرى قد قدموا النصيحة إلى المؤتمرين فى ميونيخ من قادة الدول الصناعية الكبرى ، بأن تنمية اقتصاد العالم لا يمكن أن تتجزأ ، وأن معنى أن تبقى الدول النامية غارقة فى ديونها أن تعجز عن استيراد المنتجات الصناعية من الدول المتقدمة ، مما يزيد الأزمة الاقتصادية ومعدلات البطالة فى هذه الأخيرة ، وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة ، وأفول نجم صناعة السلاح التى كانت تستهلك الجانب الأكبر من موارد الدول المتقدمة ، والنامية معا ، والتى أحدثت ازدهارا مصطنعاً فى الدول الرأسمالية الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن انكشف عواره وزيفه فى النهاية ، وكانت أحـــداث لوس انجيلوس وسواها من المدن الأمريكية منذ شهور قليلة أصدق شاهد على ذلك !

بغض النظر عن استبشاع الساسة الأمريكيين احتمال أن يطالبهم أحد بتنفيذ برنامج اشتراكي على مستوى العالم ، فقد سبق للاقتصادى البريطانى « جون مينارد كينز » أن أكتشف أن أفضل وسيلة لحماية النظام الرأسمالى من أزمات الأنتاج ، هى زيادة الطلب الفعال ، عن طريق رفع أجور العمال ، حتى يتمكنوا من استهلاك المنتجات الصناعية ، وبالتالى تستمر العملية الانتاجية دون توقف ، ودون أزمات تلقى بالملايين إلى البطالة وتفتح البـاب واســـعا أمام الاضطرابات الاجتماعية .

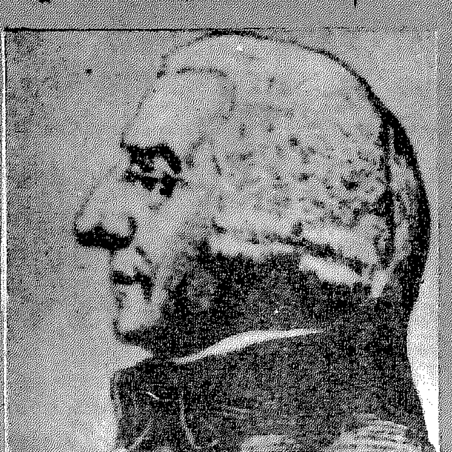
وقد آن أن يفتح قادة العالم الصناعى عيونهم على أن الاقتصاد العالمى قد أصبح بحاجة إلى « كينزية » على المستوى الدولى ، لزيادة الطلب الفعال على إنتاج الدول الصناعية المتقدمة من جانب الدول النامية ، فهل يفعلون أم لابد من انتظار أنواع أخرى من المشاكل والاضطرابات الاجتماعية ، حتى يأتى جيل جديد من الساسة يدرك طبائع الأمور ؟ !

خمسة قرون

من فكر التنمية

فكر التنمية بين السابق والمسبوق

بقلم : د . جلال أمين



أدم سميث

● استمر المذهب التجارى ، الذى دعا إلى تدخل الدولة تدخلا حاسما فى النشاط الاقتصادى ، وإلى فرض الحماية ضد السلع الأجنبية ، وإلى درجة عالية من الاعتماد على النفس ، استمر سائدا فى أوربا طالما استمر مستوى النمو فى البلاد الأوربية متقاربا إلى حد كبير ، وهو ماظل عليه الحال حتى نحو منتصف القرن الثامن عشر . ولكنه لم يستطع الصمود والاستمرار بمجرد أن ظهر تفوق دولة بعينها تفوقا ملحوظا عن بقية الدول .

خمسة قرون من فكر التنمية



فحينما يكون مستوى النمو متقاربا ، يكون التنافس شديدا ، وتقوى غريزة الدفاع عن النفس ، وتشتد الدعوة إلى الدفاع عن البقاء فى مواجهة الأجنبى ، وينهض من المفكرين من يستثيرون فى شعوبهم الحمية الوطنية والرغبة فى إثبات الذات ، ومن ناحية أخرى لا يكون فى مصلحة أحد الدعوة إلى الحرية الاقتصادية وفتح الأبواب على مصاريعها للتجارة الدولية ، إذ لا تناسب هذه الدعوة إلا دولة واثقة من تفوقها ، ومن قدرتها على الصمود أمام المنافسة الأجنبية وعلى غزو أسواق غيرها .

من الشائق إذن أن نلاحظ أن الدعوة إلى الحرية الاقتصادية ، وإطلاق حرية التجارة الدولية من القيود ، نشأت أول ما نشأت فى دولتين كانتا هما المرشحتين للسبق فى الثورة الصناعية من بين كافة الدول الأوربية : وهما فرنسا أولا ثم بريطانيا . نشأت أولاً فى فرنسا قرب منتصف القرن الثامن عشر ، على يد مدرسة الطبيعيين أو الفيزيوقراط (Phys-iocrats) ، ثم سرعان ما خبت وانطفأت عندما ظهرت حاجة فرنسا إلى الحماية ، وعلى الأخص ضد غزو السلع البريطانية . يقول الأستاذ شومبيتر عن مدرسة الطبيعيين ، إنها لم يكن لها وجود فى ١٧٥٠ ، وفيما بين ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ كان كل الناس فى باريس وفرساى يتكلمون عنها ، أما فى ١٧٨٠ فكانت قد نسيت تماما انتقلت الدعوة إلى الحرية الاقتصادية إلى بريطانيا على يد آدم سميث الذى رفع لواءها بكتابه الشهير « ثروة الأمم » فى ١٧٧٦ ، واستمرت بريطانيا هى حاملة لواء هذه الدعوة طوال القرن التالى ، طالما استمرت تحمل أيضا لواء التفوق الاقتصادى على العالم بأسره.

★★★

إن عنوان كتاب آدم سميث نفسه يدل على أن الكتاب مهتم ، بصورة أساسية ، بقضية النموّ والتنمية ، فعنوانه الكامل هو: « بحث فى طبيعة ومسببات ثروة الأمم » . "An Inquiry into The nature and Causes of the Wealth of Nations"

وتحليلى لهذه المسببات يقوده خطوة بخطوة إلى أن يستخلص أن النجاح والفشل فى التنمية مرهونان بعاملين أساسيين : أولهما حظ الدولة من الغنى أو الفقر فى الأراضى الزراعية ، وثانيهما : نوع السياسة الاقتصادية التى تتبعها ، وبالذات من حيث اتباعها أو عدم اتباعها لمبدأ الحرية الاقتصادية .

فالدولة سعيدة الحظ هى تلك التى

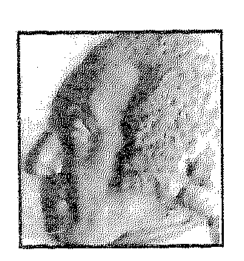
حبتها الطبيعة بموارد زراعية غنية وخصبة، وتتمتع بسياسة اقتصادية حكيمة تترك الأفراد يمارسون نشاطهم الاقتصادى دون قيود ولا تتدخل فى مجرى التجارة الدولية .

كان التأكيد على هذين العاملين يناسب ظروف بريطانيا فى ذلك العصر على نحو رائع . بل ظهر ذلك بوضوح أكثر فأكثر مع مرور الأيام بعد ظهور كتاب آدم سميث، فلا عجب أن تمتع كتابه بتلك المكانة العالية ، وإن زادت هذه المكانة علواً طوال القرن التاسع عشر . فبريطانيا كانت دائما تلك الجزيرة ذات الإمكانيات الزراعية المحدودة ، والتى عبَّر مالثس، البريطانى أيضا ، وبعد ظهور كتاب سميث بقليل ، عن تشاؤمه البالغ بمستقبل سكانها إزاء التزايد البطىء فى إنتاج الغذاء بالمقارنة بتزايد السكان السريع . لم يكن لا سميث ولا مالثس ، وإن كانا قد رأيا بداية الثورة التكنولوجية فى وضع يسمح لهما بالتنبؤ بما يمكن أن تحققه هذه الثورة لحل مشكلة الغذاء والانتاج الزراعى . وقد ظل الخوف من هذا السباق بين السكان والغذاء ، الذى عبر عنه آدم سميث برقة ، ومالثس بشدة ، يسيطر على بقية الاقتصاديين التقليديين حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ومن ثم ظل « قانون الغلة المتناقصة » هو القانون الأساسى الحاكم للفكر الاقتصادى طوال القرن ، يطبق أولا فى نظرية الانتاج والسكان على يد مالثس ، ثم تستخلص منه نظرية الريع وتوزيع الدخل على يد ريكاردو ، ويبنى عليه التقليديون جميعا نظرية التنمية وتنبؤهم المفرط فى التشاؤم بحلول حالة من الركود المستديم (Sttionary State) قبل أن تستخلص منه المدرسة الحديَّة فى الثلث الأخير من القرن صورة طبق الأصل لتطبقها على نظرية الاستهلاك ، وهذه الصورة هى قانون تناقص المنفعة الحدية .

الدعوة للحرية الاقتصادية

أما الدعوة إلى الحرية الاقتصادية ، فكانت كما أشرنا ، تناسب هى بدورها الظروف الجديدة فى بريطانيا مناسبة تامة . فإذا ظهر أن بريطانيا هى أول دولة أوربية تقوم بثورتها الصناعية بنجاح ، أصبحت هى أقدر دولة على تطبيق مبدأ الحرية الاقتصادية دون أن تخشى منافسة من هو أقوى منها ، إذ لم يكن هناك من هو أقوى منها . كما أن من صالحها أن تقنع الآخرين بصواب مبدأ الحرية الاقتصادية ، وفتح أبواب الاستيراد والتصدير ، إذ أن فى ذلك ضمان وصول السلع البريطانية إلى الأسواق الخارجية .

كانت فرنسا قد حاولت تطبيق مبادىء الطبيعيين فى الحرية الاقتصادية فى السبعينات من القرن الثامن عشر ، عندما تسلم أحد رجالهم (تيرجو) وزارة المالية ، ففشلت سياسته فشلا ذريعا ، وعزل تيرجو من منصبه فى نفس السنة التى



خمسة
قرون
من
فكر
التنمية

ظهر فيها كتاب آدم سميث فى بريطانيا . وسرعان ما أدركت فرنسا أن الحرية الاقتصادية ، على الأقل بالنسبة لها ، لم يحن وقتها بعد ، وأن الحماية أولى بها وأنفع .

★★★

إنما يرجع الفضل الأكبر فى تأصيل الدعوة إلى الحماية ونبذ مبدأ الحرية الاقتصادية ، فى ظروف دولة لم تحقق ثورتها الصناعية بعد ، وتواجه بمنافسة شديدة من دول متفوقة عليها إلى الاقتصاد الألمانى الشهير « فردريك ليست » . والحقيقة أنه كلما أمعن المرء فى قراءة «ليست» وتأمل أفكاره ، تبين إلى أى حد تظلم الدول النامية الآن نفسها إذ تتخذ من أفكار آدم سميث دليلا لها ومرشدا بدلا من أفكار « فردريك ليست » . إن ليست كان يكتب عن وطنه ألمانيا فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، وكأنه جالس الآن فى دولة من دول العالم الثالث ينصح أهلها بما يجب عليهم عمله . وهو ينتقد أفكار سميث وإطلاقه التعميمات حيث لا يجب التعميم ، وكأنه اقتصادى مصرى يكتب فى هذه الأيام رداً على مبادىء صندوق النقد الدولى الذى يحاول الصندوق أن يصوّرها بصورة المبادىء الصالحة لكل زمان ومكان .

يفصح كتاب ليست عن هدفه دون مواربة ، فاسم كتابه « الأساس القومى للاقتصاد السياسى » . " The National System ot Political Economy " الذى نشره فى ١٨٤١ ، يشير إلى أن الرجل يريد أن يبين أثر الظروف الخاصة ببلده وقومه على التحليل الاقتصادى والسياسة الاقتصادية الواجبة الاتباع ، وهو ما نجح بالفعل فى بيانه ببلاغة ومنطق ناصعين .

كان آدم سميث قد بنى دعوته إلى حرية التجارة الدولية على أن فيها مصلحة المستهلك ، فإذا فرضت ألمانيا مثلا تعريفات جمركية ضد السلع الصناعية البريطانية حماية لصناعتها ، وفرضت بريطانيا تعريفات جمركية ضد السلع الزراعية الألمانية حماية لزراعتها ، أدى ذلك إلى أن يدفع المستهلك الألمانى أسعارا أعلى للسلع الصناعية ، وأن يستهلك سلعا أقل جودة من ذى قبل ، بينما يضطر المستهلك البريطانى إلى دفع أسعار أعلى للسلع الزراعية أضف إلى ذلك أن إطلاق حرية التجارة الدولية من شأنه أن يوسع السوق أمام كلا الطرفين المشتركين فى التجارة ، إذ تتيح هذه الحرية لكل دولة سوقا أوسع لمنتجاتها مما كان متاحا لها فى ظل القيود التجارية . وتوسيع السوق

يسمح لكل دولة بدرجة أعلى من التخصص وتقسيم العمل ، وتقسيم العمل يرفع الكفاءة (يقلل من نفقات الإنتاج) ومن ثم تعود حرية التجارة بالنفع على المستهلكين الذين يستطيعون الآن أن يحصلوا على أفضل أنواع السلع بأقل الأسعار . من هذا نرى أن تدخل الدولة بحماية سلعة وطنية من منافسة الواردات تؤدى إلى إساءة استخدام الموارد الوطنية، إذ يشجع عناصر الانتاج على الاتجاه إلى إنتاج سلع لا تتمتع فيها الدولة بأية ميزة ، ويحرم السلع التى تتمتع فيها هذه الدولة بميزة أو كفاءة خاصة ، من التوسع والنمو . الحماية مرفوضة إذن ، سواء كانت بفرض تعريفات جمركية ضد الواردات ، أو منح إعانات للتصدير ، أو أى صورة أخرى ، طالما حولت عناصر الانتاج والتجارة الدولية عن مسارها الطبيعى ، واضطرت المستهلك إلى أن يدفع ثمنا لسلعة هو أعلى من المتاح له لو تركت الأمور دون تدخل .

أخطاء سميث

كان طريفا أن يصدر هذا الكلام من رجل كآدم سميث قضى الثلاثة عشر عاما الأخيرة من حياته مديرا لإدارة التعريفات الجمركية فى اسكتلندا . ولكن هذا فى حد ذاته لا يدل بالطبع عما إذا كان الرجل على صواب أم على خطأ . وإنما الذى بيَّن أخطاء سميث هو فردريك ليست . لقد نظر ليست فرأى أن بريطانيا متفوقة على ألمانيا فى الصناعة ولكنه لم يجد سببا مقنعا للاعتقاد بأن هذا التفوق لابد أن يستمر إلى الأبد . نعم ، إن ليست يرى بوضوح لا يقل عن رؤية سميث لمزايا اتساع السوق ، ولكن فتح السوق الألمانية أمام السلع الصناعية البريطانية ، وإن كان يؤدى حقا إلى توسيع السوق أمام الصناعة البريطانية فإنه فى نفس الوقت ، وبنفس القدر ، يؤدى إلى تضييق السوق أمام الصناعة الألمانية ، إذ ستقتطع السلع البريطانية لنفسها جزءا من هذه السوق . المسألة إذن ليست هى مزايا اتساع السوق أو ضيقه وإنما هى ما إذا كنت ستأخذ التفوق الحالى دليلا على التفوق إلى الأبد، أما ستحاول أن تحول التخلف الحالى إلى تفوق فى المستقبل .

هذه هى بالضبط النقطة المحورية فى قضية ليست : فلتحم ألمانيا صناعتها من المنافسة حتى تقف على قدميها ، طالما أن لديها أسبابا قوية للاعتقاد بأنها قادرة بالفعل على هذا النهوض ، وبعد هذا فلتطلق حرية التجارة كما تشاء ، ولتترك حلبة الصراع للمتنافسين ، لينتصر منهما الأجدر بالانتصار . ولكن حذار كل الحذار من أن تترك رجلا بالغا يصارع طفلا صغيرا ، فأنت بذلك تحكم على الطفل بالموت دون أن يستحقه .

ويندفع فردريك ليست فيوجه اتهاما بعد آخر إلى ادم سميث : إن سميث فى نظر ليست ، يزعم لنظريته العمومية والتجرد ، وهى ليست إلا نظرية «بريطانية» تستهدف صالح بريطانيا . وسميث يصب غضبه على كولبير (Colbert) وزير مالية لويس الرابع عشر ، الذى حمل



لواء المذهب التجارى فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، ويتهمه بأنه « ظن أن صناعة وزراعة دولة عظيمة يمكن أن تدار كما تدار مصلحة حكومية » ولكن سميث يفصح بذلك عن عجزه عن فهم الدور الرائع الذى لعبته سياسة كولبير الاقتصادية فى تقدم فرنسا ، والخدمة التى أدتها الحماية للصناعة الفرنسية فى عهده . بل إن بريطانيا نفسها اعتمدت فى فترة سابقة على الحماية لتشجيع صناعاتها على النمو أما عن الولايات المتحدة فيقول ليست إن ما احتاج إنجازه إلى عدة قرون فى أوربا ، يراه يتحقق أمام عينيه فى الولايات المتحدة بفضل ما فرضته الولايات المتحدة لصناعتها من حماية ضد السلع البريطانية .

إن إطلاق آدم سميث لوصف « التجاريين » على كولبير ومدرسته ، فيه الكثير من الظلم ، إذ أن هذا الوصف ، فى نظر ليست ، أكثر انطباقا على آدم سميث نفسه وأتباعه . إن سميث وأتباعه هم « التجار » ، بالمعنى الدقيق ، إذ أن كتاباتهم تبدو وكأنهم قد نقلوها من مذكرات كتبها أحد التجار ، فهم لا هم لهم إلا البحث عن أنجح الوسائل للشراء من أرخص الأسواق والبيع فى أعلاها سعراً ! إن التجاريين قد يكونون قد أخطأوا حين أعماهم تمسكهم بالقومية وحماسهم لأوطانهم عن أن يفطنوا إلى أن الهدف فى النهاية هو الوصول إلى نوع من العالمية ، ولكن سميث ومدرسته قد أخطأوا بدورهم إذ صرفتهم نظرتهم العالمية وتفكيرهم فى « العالم ككل » ، عن إعطاء القومية والشعور بالانتماء لوطن معين ما يستحقانه من اهتمام .

إن ليست يرى أنه يوجد بين مستوى الفرد ومستوى الانسانية مستوى متوسط هو « الأمة » . وإهمال هذا البعد القومى ، على النحو الذى يظهر فى كتابات آدم سميث ، يجرد « الاقتصاد السياسى » من جانبه « السياسى » ، وهو ما لا يجوز ، إذ أن الفرد هنا ليس مجرد منتج أو مستهلك بل هو أيضا مواطن ، والدولة القومية لها دور لايستهان به فى تحقيق المجتمع ونهوضه .

إن ليست يميز بين مايسميه « نظرية » القيمة « وما يسميه » نظرية « القوى المنتجة » ، الأولى تبحث فى مشاكل الانتاج عن طريق استخدام الموارد الموجودة بالفعل ، بينما تبحث الثانية فى وسائل زيادة هذه المواد نفسها . الأولى تبحث فى زيادة الانتاج والثانية فى زيادة القدرة على الانتاج . وسميث ومدرسته يركزون على الأولى ولا يعطون اهتماما كافيا للثانية ، بينما هذه النظرية الثانية هى الجديرة بالاهتمام .

إن هذا التميز الذى يجريه ليست يذكرنا بلا شك بالتميز الذى نجريه الآن بين النمو (growth) والتنمية

(development) ، حيث نفهم النمو على أنه مجرد زيادة الانتاج من السلع والخدمات ، والتنمية على أنها النمو المقترن بتغيرات أساسية فى الهيكل الاقتصادى ، مما يضمن استمرار النمو فى المستقبل . وبهذا لا أعتقد أن من الخطأ اعتبار فردريك ليست الأب الحقيقى لاقتصاديات التنمية فهو ليس فقط أول من أشار بوضوح إلى هذا التميز بين زيادة الانتاج وزيادة القدرة على الانتاج ، بل هو أيضا أول من عالج مشكلة التنمية من وجهة نظر دولة « جاءت متأخرة بعض الشيء late) (coner ، فأدرك أهم المشاكل المتولدة عن محاولة اللحاق بمن سبق إلى النمو . أضف إلى ذلك أن فردريك ليست هو بلاشك أول من أدرك وأكد على أهمية الجوانب غير الاقتصادية للتنمية .

القوة المنتجة للفرد

إن « القوة المنتجة » للفرد لا تتأثر فقط ، كما ذهب سميث ، بدرجة تقسيم العمل واتساع السوق وحجم رأس المال ، إلخ ، بل تتوقف أيضا ، فى نظر ليست ، على الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للدولة ككل . وقد يكون دور الحكومة محدوداً فى مساعدة الفرد على زيادة ما ينتجه باستخدام موارد موجودة بالفعل ، ولكن لها دورا أساسيا فى تنمية هذه الموارد المنتجة نفسها ، ومن ثم فى زيادة القوة المنتجة لكل فرد . فإذا كان الفرد يملك مصنعاً بالفعل ، فقد يكون من الأفضل أن تتركه الحكومة وشأنه ، ولكن الحكومة لها دور مهم فيما إذا كان الفرد سينشيء مصنعاً جديداً أو لا ينشئه .

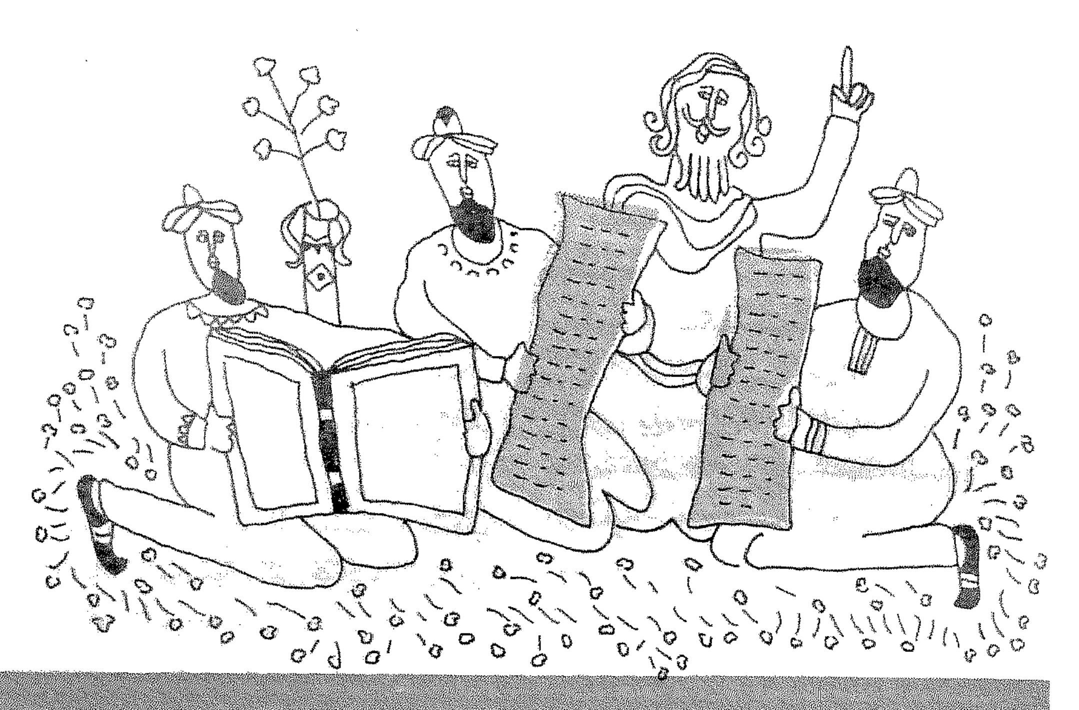
قد يكون للحماية مضارها فى الأفق القصير ، وقد تضر حقا بالمستهلك ، ولكن منافعها جمة فى المدى الطويل ، والمستهلك هو المستفيد فى النهاية. قد تكون سياسة الحرية الاقتصادية أكثر جدوى فى تنمية فروع معينة من فروع الانتاج ، ولكن سياسة الحماية هى التى تضمن للدولة تنمية متوازنة تشمل كل أنواع النشاط الاقتصادى ، فلا تبقى إلى الأبد بلداً زراعية لمجرد أنها لا تستطيع الآن أن تنتج السلع الصناعية بكفاءة . وتنمية الصناعة بالذات لا غنى عنه للدولة ، ليس فقط لارتفاع انتاجيتها ، ولأنها تمدّ الزراعة بسوق لمنتجاتها وبوسائل الانتاج المتقدمة، ولكن لأنها أيضا ترسخ فى المجتمع بأسره قيما وتقاليد جديدة تقوم على احترام حرية الفرد ، كما أنها تساهم فى توسيع الأفق وتساعد على تقدم العلوم والفنون . فترة من الحماية إذن ضرورية ، ليس فقط لتحقيق تقدم اقتصادى بل ولتحقيق نهضة اجتماعية وثقافية عامة .

أى النوعين من الكلام أقرب ياترى إلى ظروف البلاد النامية اليوم ؟ كلام آدم سميث الذى يأخذ الواقع كمعطى من المعطيات ، ويحاول تعظيم النفع العائد من هذا الواقع على العالم بأسره منظورا إليه ككل أم كلام فريدريك ليست الذى يتخذ نقطة إنطلاق له الرغبة فى تغيير الواقع ، ويحاول تعظيم النفع المتحقق عبر فترة زمنية ممتدة وتعظيم العائد على دولة معينة يشعر نحوها بنوع خاص من الولاء ؟

البديل الإسلامي للمعرفة المادية

بقلم : د . محمد عمارة

لم يكد ينتهى القرن الهجرى الأول ، حتى كانت الفتوحات الإسلامية قد وصلت بحدود الدولة الإسلامية مابين الأندلس والصين .. وأصبحت كل الديانات ، السماوية والوضعية ، وكل الملل والنحل ، وجميع المؤسسات اللاهوتية والمدارس الفكرية والفلسفية ، قائمة ونشطة فى دولة الإسلام .. فالفتح قد أقام الدولة ، لكن المسلمين ظلوا أقلية عددية فى رعية هذه الدولة لعدة قرون [1] ؟! .. إذ (لا إكراه فى الدين) [2] .. وإذا كان للفتح أن يقيم « الدولة » فليس له من سبيل إلى إقامة الإيمان «بالدين» ، لأن الإيمان تصديق قلبى ، يبلغ مرتبة اليقين .. والإكراه قد يثمر «نفاقا» ، لكنه لا يثمر « إيمانا » بحال من الأحوال !

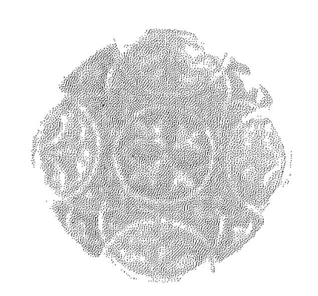


وفى خضم التدافع الفكرى ، الذى شاع وازدهر بين الاسلام وبين الديانات والنحل والفلسفات غير الإسلامية ، تخلقت للحضارة الإسلامية علوم ومذاهب كانت بعض أداتها فى الحوار الفكرى والتدافع المذهبى مع هذه الديانات والفلسفات .. تخلقت العقلانية الإسلامية ، التى أعملت العقل فى النقل وحكمت العقل بالنقل ... فكانت نموذجا للمعرفة الإسلامية التى أرسى القرآن قواعدها - وتخلق علم آداب البحث والمناظرة ، الذى جعل حتى من قصور الخلفاء (٣) ، أحيانا ، ميادين تدافع فكرى بين علماء الإسلام وبين أحبار وعلماء الديانات والفلسفات الأخرى .. وكان ذلك امتدادا وتطويرا لمنهج النبوة ولدور مسجد المدينة المنورة ، على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ..

ولقد واجه المسلمون ، ضمن ما واجهوا، خلال هذا التدافع الفكرى ، مذاهب المعرفة غير الإسلامية ، تلك التى افتقدت توازن معرفتنا الإسلامية .. واجهوا :

● العقلانية اليونانية ، التى لم تعرف الوحى والنقل ، فلم تعترف بهما .. فقامت معرفتها على ساق واحدة ، هى البرهان العقلى .. حتى لقد اقتربت كثيرا من نموذج المعرفة الحسية .

● والعرفان الغنوصى الباطنى ، الذى



اعتمد « الحدس » و« الذوق » ، فأهمل «الواقع» وغض من شأن «العقل» و النقل جميعا ! ..

● وواجهوا « المعرفة الحسية » لمذاهب الديانات الوضعية ، التى كانت منتشرة فى البلاد الآسيوية التى دخلت فى دولة الإسلام أو اتصل أهلها بالإسلام والمسلمين ..

وأمام هذه «المقالات» غير الإسلامية ، وفى مواجهتها ، وفى خضم التدافع الفكرى معها شهدت حضارتنا فن التأليف فى (مقالات الإسلاميين) ؟! .. ورأينا ، ونحن نراجع عناوين مؤلفات سلفنا فى تلك القرون تلك الثروة العظيمة من المؤلفات التى تخصصت فى الرد على « مقالات » أهل تلك الديانات والمذاهب والنحل والفلسفات ..

وعلى سبيل المثال :

● فالذين أرخوا لقائد المعتزلة : أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م) . يقولون إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد فرغ من الرد على كل المخالفين ؟! .. ومن عناوين الكتب التى ألفها : (كتاب الألف مسألة) .. وجميعها فى الرد مذهب « المانوية » الفارسية ! .

ومما تذكره كتب هذا الفن .. فن (مقالات الاسلاميين) من وقائع التدافع الفكرى بين « إسلامية المعرفة » ، التى بلورها الإسلام ، وبين مذهب الديانات الوضعية - غير السماوية - فى « المعرفة الحسية » تلك الحوارات التى دارت بين علماء الإسلام وبين علماء فرقة « السُّمَنِيَّة » - وهى مذهب من مذاهب الديانة الوضعية الهندية .. ينكر أهله الوحى والنبوة والرسالة .. ويقولون :

« لاطريق للعلم سوى الحس : » (٤)

كان « السمنية » يرون أن المعرفة والعمل هما ثمرة للواقع المحسوس وحده .. ويرون الحواس الخمس وحدها سبيل المعرفة الحقة .. وماعدا ذلك خيال - وبتعبيراتهم فى ذلك العصر : « مجهول » ! . أى غير « معلوم » .. أى ليس من المعارف والعلوم ، التى يصدق عليها هذا الاصطلاح ! ..

ولقد دارت بين بعض علماء « السمنية » وبين واحد من علماء المسلمين ، وزعيم لإحدى الفرق الإسلامية - وهو الجهم بن

صفوان (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) – مناظرة حول هذه القضية .. قضية « حسية المعرفة » .. عجز فيها الجهم عن تقديم مذهب الإسلام فى المعرفة للسمنيين .. فلما بعث إلى واصل بن عطاء بمقالة السمنية ، لفت واصل نظره إلى مذهب الإسلام فى المعرفة .. مصادرها ووسائل تحصيلها .. فعاود الجهم محاورة السمنيين ، الذين انتهى بهم المطاف إلى اعتناق الاسلام على يد واصل بن عطاء ! ..

أما النص الذى يذكر هذه الواقعة ، ذات الدلالة الهامة – هو الذى بقى لنا ضمن مابقى من أقدم كتاب بلغنا أنه أُلف تحت عنوان (مقالات الإسلاميين) – لأبى القاسم البلخى (٣١٩ هـ ٩٣١ م) – أما هذا النص فإنه يقول : « ذكر أبو الحسن ابن فرزويه : أن قوما من السمنية أتوا جهم بن صفوان فقالوا له :

– هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟

فقال : لا .

– قالوا : فحدثنا عن معبودك الذى تعبده ، أشىء وجدته فى هذه المشاعر ؟! .

– قال : لا ! .

– قالوا : فإذا كان المعروف لايخرج عن ذلك ، وليس معبودك منها ، فقد دخل فى المجهول ؟! . فسكت جهم ؟! »

هنا ، فى هذا الجزء من هذا النص ، نرى مذهب السمنية فى « المعرفة الحسية » التى لامصدر لها سوى « الواقع المحسوس » ولاسبيل إليها إلا « بالحواس الخمس » .. فهم يرون .. أن « المعروف » – أى المعرفة – « لا تخرج عن المشاعر الخمسة » – أى الحواس الخمس – ! .. ولما كان الله ، سبحانه وتعالى ، لا تدركه – تجده – هذه المشاعر الخمسة .. فلا سبيل إلى معرفته .. لقد خرج من « المعروف » ودخل – حسب مذهبهم – « فى المجهول » ؟! ..

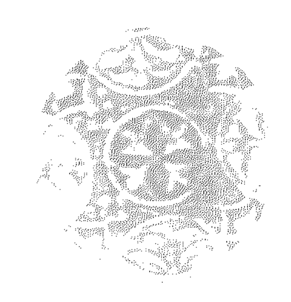
على هذا النحو كان مذهب الديانات الوضعية فى المعرفة الحسية ..

فكيف واجهها المسلمون ؟ . وكيف ردت على هذه المعرفة الحسية مقالات الإسلاميين ؟!

لنستكمل قراءة النص .. فهو يقول :

إن الجهم بن صفوان – الذى عجز عن الرد على السمنية – كتب ، بوقائع هذه المناظرة ، « إلى واصل بن عطاء . فكتب إليه واصل :

إن المعروف لايخرج عن المشاعر الخمسة وعن الدليل .. فارجع إليهم الآن ، وقل لهم : هل تفرقون بين الحى والميت ؟! وبين العاقل والمجنون ؟! فإنهم يعترفون بذلك وإنه يُعرف بالدليل لابغيره ! .. »



هنا فى هذا الجزء ، من هذا النص ، يقدم واصل بن عطاء الإضافة الاسلامية فى نظرية المعرفة .. فهو لاينكر المعرفة الحسية ولكنه لا يقتصر عليها ، وإنما يضيف إلى أدواتها – المشاعر – الحواس الخمس – يضيف « الدليل » .. والدليل ليس حاسة مادية ، وبه يدرك الإنسان المعارف والعلوم غير المادية ، والتى لاتخضع لتجارب الحس والحواس ..

فالدليل – لغة – : هو المرشد والمنبه – واصطلاحا – : هو الذى يلزم من العلم به العلم بشىء آخر .. هو الذى يقود الذهن إلى التسليم بحقيقة قضية كانت موضع شك ، ومن قبل ، قد يكون : مجرد أمارة أو ظاهرة معينة ، أو شهادة شاهد ، أو ضربا من الاستدلال المنطقى (٥) .

فالدليل ، ليس فقط الحاسة التى تدرك المحسوس ، بل قد يكون : لازم العلم بالمحسوس .. والادراك به ليس مباشرا ، كحال الإدراك بالحواس .. ومثاله : أن يلزم من العلم بالمصنوع البديع – وهو محسوس – العلم بوجود الصانع المبدع – وهو معلوم غير محسوس ، لاتدركه الحواس .

لقد أضاف واصل بن عطاء «الدليل» إلى «الحواس الخمس » فعبر عن الرفض الاسلامى للمعرفة الحسية ، التى تقف بالمعروف عند «الواقع المحسوس» وبأدوات الادراك عند الحواس الخمس ..

ونحن عندما نتأمل الأمثلة التى طلب واصل من الجهم بن صفوان أن يتحدى بها السمنية نجد نماذج المعرفة الإسلامية، التى واجه بها الإسلاميون خصومهم فى هذا الميدان ..

لقد طلب منه أن يقول لهم : « هل تفرقون بين الحى والميت ؟ وبين العاقل والمجنون ؟؟ » وإذا كان جوابهم – ولابد أن يكون – بـ« نعم » لزمتهم الحجة ، لأن هذه التفرقة لاسبيل إليها إلا بـ« الدليل» ! .. « فالحياة » : ليست مادة تدرَك بالحواس .. و «الموت» : ليس مادة .. وكذلك «العقل» و «الجنون» .. جميعها ليست مادة محسوسة ، تدركها الحواس . وواصل بن عطاء يصدر هنا عن الحقيقة القرآنية التى ضل عنها العلم الغربى الذى أثمرته موجه الفلسفة المادية والوضعية فظن أن العقل هو مادة الدماغ وأن الفكر والادراك والوعى ماهو إلا إنعكاس لهذه المادة .. واصل بن عطاء يصدر عن الحقيقة القرآنية التى رأت «العقل» : فعل التعقل ، وليس عضوا من أعضاء جسم الإنسان المادية .. والتى هى ، لذلك تحدثت عنه باعتباره «اللب» –

الجوهر لإنسانية الإنسان - تارة .. ثم باعتباره «القلب» ، لابمعنى : «اللحمة» الصنوبرية الشكل ، المستقرة فى التجويف الأيسر من الصدر .. وإنما بمعنى أن «القلب » - الجوهر - اللب - النهى - الذى يعقل ويفقه .. والذى - أيضا - يُخْتَم ويُطْبَع عليه بالغشاوات والأقفال ، هو : « لطيفة ربانية ، لها بالقلب الجسمانى تعلق .. وهى حقيقة الإنسان .. التى يسميها الفلاسفة : النفس الناطقة ! » (٦)

لقد صدر واصل بن عطاء ، فى حديثه عن «المعروف غير المادى» - من مثل الحياة والموت .. والعقل .. والجنون - الذى يُدرَك بـ «الدليل» - وليس بالحواس الخمسه لقد صدر عن الحقيقة القرآنية .. وعن النمط الإسلامى فى المعرفة ، ذلك الذى لايقف بالمعروف عند «المحسوس» ، ولابأدوات المعرفة عند «الحواس» ! ..

أما خاتمة هذا النص التراثى ، الذى رواه أبو القاسم البلخى ، فى كتابه (مقالات الاسلاميين) عن أبى الحسن بن فرزوية .. فإنها تقول :

إن جواب واصل بن عطاء لما جاء إلى الجهم بن صفوان « رجع به على السمنية ، فقالوا له :

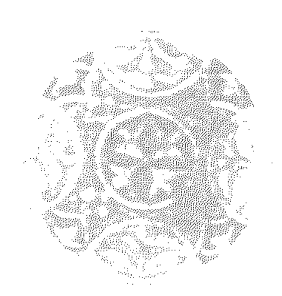
- ليس هـذا من كلامك ؟! فمن أين لك ؟!

- قال : كتب به إلىّ رجل من العلماء، بالبصرة ، يقال له : واصل . فخرجوا إليه (إلى واصل) - وكلموه ، فأجابوه إلى الإسلام ؟! .. » (٧)

ذلك مثال - مجرد مثال لمنهج «إسـلامية المعـرفة» الذى واجه به الاسلاميون ، بعد الفتوحات، مذاهب «المعرفة الحسية» التى كانت سائدة فى دوائر الفكر لدى أهل الديانات الوضعية ، التى تنكر «مصدر الوحى» وتقف بالمعرفة وأدواتها ومصادرها عند المحسوس المُدْرَك بالحواس ..

* * *

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت الترجمة لعلوم اليونان بـ « علوم الصنعة» - أى علوم التمدن المدنى - التى هى «مشترك إنسانى عام» - وذلك منذ مشروع الأمير الأموى العالم خالد بن يزيد (٩٠ هـ ٧٠٨ م) .. فإنها قد عرفت ، فى مجرى انفتاحها على هذه العلوم اليونانية ، إنسانيات ، بل وإلهيات اليونان .. ومنذ القرن الهجرى الثالث أصبحت الفلسفة اليونانية معروضة على العقل العربى .. فبدءا من الكندى ، يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ . ٨٧٣ م) أصبح أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق .م) حاضرا فى المكتبة الإسلامية .. فأصبح لـ «المعلم الأول » - اليونانى - «المعلم الثانى» - العربى الذى كتب - ضمن ماكتب - : (إلهيات أرسطو) والذى قال عنه ابن جلجل ، أبو داود



سليمان بن حسان الأندلسى : « .. ولم يكن فى الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو أرسطاليس .. » .. فلقد إجتهد لإثبات « التوحيد » و « النبوة » بمنهج اليونان فى المعرفة .. مذهب « أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان .. » [8] فكان أن أنفتح فى ساحة الفكر الإسلامى باب جديد ، وواسع ، لمقالات غير الاسلاميين !

ولقد كان طبيعيا أن تستنفر هذه « المقالات » لغير الاسلاميين ، « مقالات الاسلاميين » .. فشهدت الحياة الفكرية الإسلامية ، غير (مقالات الاسلاميين) للبلخى الذى سبقت الاشارة إليه - كتاب الأشعرى ، أبو الحسن (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٧٦ م) الذى حمل ذات العنوان .. وكتابه العامرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف (٣٨١ هـ ٩٩٢ م) : (الإعلام بمناقب الإسلام) ، والذى يعد أول أثر فكرى ، عثرنا عليه في مقارنة الأديان - الاسلام - واليهودية - والنصرانية - والزرادشتية - والوثنية - والصابئة .. وهو الكتاب الذى أجاب فيه على سؤال : « لماذا أقبلُ الإسلامَ وأرفضُ غيره من الأديان ؟؟ .. » .

ثم مشهد هذا التدافع الفكرى بين المنهج الاسلامى فى المعرفة ومناهج المعرفة لدى الملل والنحل غير الاسلامية ، تلك الأعمال الفكرية البارزة فى المقارنة والموازنة والمفاضلة بين الأديان (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسى (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) . و (الملل والنحل) و (مصارعات الفلاسفة) للشهر ستانى ، محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣ م) . والبناء الفكرى الذى أقامه حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م) لتمييز المنهج الاسلامى عن كل من المنهج اليونانى والمنهج الغنوصى الباطنى - (تهافت الفلاسفة) و (مقاصد الفلاسفة) و (فضائح الباطنية) و (ميزان العمل) و (القسطاس المستقيم) و (معيار العلم) و (إحياء علوم الدين) .. إلخ فلما جاء شيخ الاسلام ، ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) كان جهاده على جبهة تميز المنهج الاسلامى فى المعرفة الوجه الآخر المكمل لجهاده بالسيف ضد أعداء دولة الإسلام وأمته وحضارته ؟! .. فكما زاد ، بالسيف ، عن ديار الاسلام زاد ، بالقلم ، عن عقيدته ، وعن منهاج هذه العقيدة فى تحصيل المعارف والعلوم ،

فكان من عطائه على هذه الجبهة : (الجمع بين النقل والعقل) - درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول ونقض المنطق) - الذى حاول فيه بناء منطق إسلامى لعقيدة التوحيد ، مرتبط بالعربية - لسان الإسلام - بديل لمنطق أرسطو - الخـاص بلغة اليونان ، ووثنيتها - .. وكذلك : (الرد على ابن عربي والصـوفية) و (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم) ... الخ .. الخ ..

وفى سياق هذا الجهد الفكرى .. الذى استهدف تميز منهاج المعرفة الاسلامى عن منهاج المعرفة الحسية ، شهدت المكتبة الاسلامية العديد والعديد من الكتابات .. والتى يبرز فيها كتاب ابن الوزير اليمنى ، محـمد بن ابراهيم (٧٧٥ - ٨٤٠ هـ ١٣٧٣ - ١٤٣٦ م) : (ترجيح أساليب القرآن على قوانين المبتدعة واليونان) .. ذلك الذى أحيا فيه منهج المعرفة القرآنى .. منهج إسلامية المعرفة فى مواجهة ومقارنة ونقد مناهج المعرفة الحسية ، غير الاسلامية ...

وهكذا ، كانت المواجهة بين إسلامية المعرفة وبين مناهج المعرفة الحسية ، والغنوصية بدءا بالمواجهة القرآنية لمناهج الشرك والدهرية فى المعرفة .. والتى واصل الفكر الإسلامى مسيرتها عندما تصدى لمناهج المعرفة الحسية والغنوصية ، تلك التى سادت فى دوائر الفكر لأهل الديانات الوضـعية التى تدافعت مـع مقولاتهـا « مقالات الإسلاميين » ! ..

لقد ظل « البديل الإسلامى » فى المعرفة ، مرفوعة راياته ، فى هذا التدافع الفكرى ، عبر تلك القرون ! .

هوامش

(١) أنظر فى الانتشار التدريجى للإسلام : هارى . و . و هازارد (أطلس التاريخ الإسلامى) ص ٥ ، ٦ ترجمة ابراهيم زكى خورشيد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ . و : د . حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام) ص ٢٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م و : أرنولد . سير توماس . و (الدعوة إلى الإسلام) ص ٩٨ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . وآدم ميتز (الحـضارة الاسلامية فى القرن الرابـع الهجـرى) المجـلد الأول ص ٧٥ ، ٨٤ ، ١٠٥ ، ترجـمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٢) البقرة : ٢٥٦ .

(٣) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ١٠٣ .

(٤) التهانوى (كشاف اصطلاحات طبعة الهند سنة ١٨٩٢ .

(٥) أنظر الجرجانى (التعريفات) و المعجم الفلسفى) وضع مجمع اللغة العربية . القاهرة .

(٦) الجرجانى (التعريفات) .

(٧) البلخى ، والقاضى عبد الجبار بن أحمد ، والحاكم الجشمى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٦ . تحقيق : فؤاد سيد طبعة تونس ١٩٧٢ م

(٨) أنظر ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) ص ٧٣ ، ٧٤ تحقيق فؤاد سيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

دائرة حوار

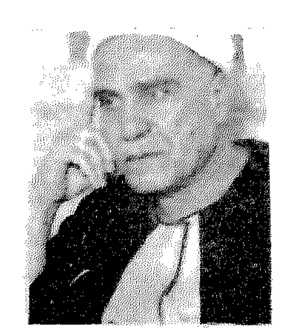
الجامعة الأهلية

بين تكافؤ الفرص وإصلاح التعليم

بقلم د . شبل بدران *

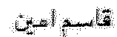
« يعد التعليم الخاص من أبرز مظاهر عدم المساواة أمام فرص التعليم . ففى معظم المجتمعات لايتناسب المعروض من أماكن الدراسة فى التعليم الرسمى والطلب الاجتماعى على التعليم . ومن ثم يستطيع القادرون ماليا التغلب على تلك المشكلة بادخال ابنائهم فى التعليم الخاص ، والذى يتطلب نفقات مالية لايستطيع عليها إلا أبناء الفئات الميسورة ، وأبرز علامات عدم المساواة الناتجة عن وجود التعليم الخاص تتمثل فيما يوفره هذا التعليم من نوعية ممتازة من التعليم فى معظم الحالات ، الأمر الذى يترتب عليه أن ينافس خريجى التعليم الرسمى وخاصة فى أنظمة التعليم التى تتخذ مستوى النجاح فى الامتحانات المدرسية معياراً لمواصلة التعليم فى المستويات الأعلى ، ومعنى ذلك أن الفئات الميسورة التى توفر لابنائها تعليماً خاصاً حتى مستوى الثانوى ، تستأثر بقدر كبير من أماكن التعليم الرسمى على مستوى الجامعة على حين تحتل الفئات الأخرى عدداً من الأماكن لا يتناسب وثقلها فى التركيب السكانى ، وبتعبير آخر يتعلم أبناء الفئات الميسورة على حساب ما يدفعه أباء الآخرين من ضرائب للخزانة العامة .

* أستاذ أصول التربية المساعد . كلية التربية - جامعة طنطا .



مصطفي عبد الرازق





قاسم امين

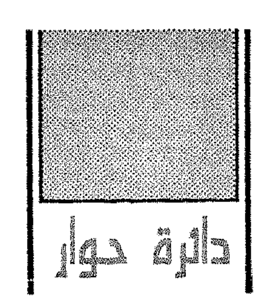


محمد فريد

الجامعة والمجتمع

إن العلاقة بين الجامعة والمجتمع علاقة جدلية فى أساسها ، بمعنى أن ما يصيب الجامعة من تدهور قيمى وعلمى وبحثى ، هو نتاج طبيعى لما يفرزه المجتمع من سلبيات على الجامعة ودورها كمؤسسة اجتماعية تلعب دوراً وطنياً وطليعياً فى بلدان العالم الثالث ، وكذلك يناط بها مهام ثورية محورية فى مواجهة قضايا مجتمعية عديدة منها : العدل الاجتماعى والحريات العامة والديمقراطية ، وشيوع المناخ الملائم لتطور وتقدم المجتمع بما يحقق مصالح الغالبية العظمى من المواطنين .

لذلك كانت نشأة أول جامعة فى مصر (الجامعة الأهلية ١٩٠٨) ، نشأة وطنية فى الاساس ، وفى ظل صعود الطبقة الوسطى المصرية ، والحركة الوطنية التى وضعت أمامها هدفا أساسيا ، تكرس فى الاستقلال السياسى عن القوى الأجنبية والاستعمارية ، والاحتلال البريطانى خصوصا ، والدفاع عن الثقافة الوطنية فى مواجهة طغيان الثقافة الانجليزية والفرنسية والدليل على ذلك المعارك الوطنية التى خاضتها الجامعة المصرية - بعد دمجها فى الجامعة الحكومية (عام ١٩٢٥) متمثلة فى معارك طه حسين ومصطفى عبد الرازق فى الثلاثينات ومعارك أحمد أمين عميد كلية الآداب ، واستقالته احتجاجا على نقل بعض الأساتذة ، ولقد لعبت الجامعة المصرية دورا كبيرا فى الصراع السياسى والاجتماعى الذى شهدته البلاد فى الثلاثينات والاربعينات ، بل إن تكوين الجماعات الوطنية - اللجنة الوطنية للعمال والطلبة - تم داخل اسوار الجامعة .



ولقد غاب هذا الدور الوطنى والسياسى بعد تأميم دور النقابات المهنية والجامعات والمنظمات بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وللآن ، وللدرجة التى بارك فيها رؤساء بعض الجامعات وأصحاب الرأى نقل ٦٤ أستاذاً من الجامعة إلى وظائف خارجها عام ١٩٨١ ، مما دعم دور السلطة السياسية فى احتواء وقمع الحريات العامة والحريات الاكاديمية بوجه خاص .

ولا شك إنه فى ظل ظروف المجتمع المصرى الحالية ، والذى يواجه التبعية بكافة أشكالها للغرب الرأسمالى ، والتخلف المعرفى والاقتصادى ويعانى من سوء أحوال معيشة الغالبية العظمى من أبناء الشعب ، عماله وفلاحيه ومثقفيه ، ومن النشاط الطفيلى الواسع الذى تكون ثماره على حساب الغالبية الساحقة من أبناء الوطن ، لا تستقيم الدعوة بانشاء جامعة أهلية للفاشلين علميا والميسورين ماليا . لأن الشواهد المجتمعية تؤكد إخفاق خطط التنمية فى استيعاب الخريجين الجدد ، وزيادة معدل البطالة والذى بلغ حوالى ٢٠٪ بما يعادل ٣ ملايين عاطل ، وتدهور العملية التعليمية فى التعليم الجامعى الحالى . ومن هنا فإن استقامة الدعوة يكون بتوجيه الجهود نحو تطوير وتدعيم التعليم الجامعى الرسمى وحث رأس المال الخاص على تقديم الدعم المادى لعملية التطوير .

فكرة الجامعة الأهلية

على الرغم من أن التعليم الجامعى فى مصر يمكن رده إلى ألف سنة مضت منذ بدأت الدراسة فى الجامع الأزهر ، فإن ما اصطلحنا على تسميته بالتعليم الجامعى لا ترتبط خيوطه ارتباطا وثيقا بالماضى ، لا من حيث مواد الدراسة ، ولا من حيث منهج التدريس ، ولا من حيث الأهداف والغايات المنشودة من التعليم الجامعى ، وذلك لاختلاف الزمان وتطور الواقع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للمجتمع المصرى .

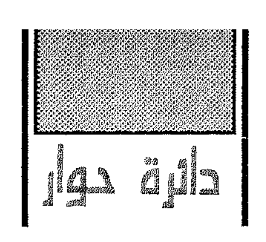
ففى يوم ١٢ اكتوبر عام ١٩٠٦ اجتمعت نخبة من أهل الرأى والفكر والوطنية معتزمة إنشاء جامعة أهلية ، وكان القائم عندئذ من التعليم العالى مدارس تتبع وزارة المعارف ، ولم يمض عام منذ ذلك التاريخ حتى افتتحت الجامعة الأهلية ، وأرسلت البعوث العلمية إلى أوروبا ليعود أعضاؤها فيضطلعوا بالتدريس فيها ، كما دعت نفرا من أساتذة الجامعات الأوروبية فنظموا مع طائفة من الاساتذة المصريين دراسات فى التاريخ والادب العربى والفلسفة والاقتصاد .

وفى عام ١٩١٧ فكرت الحكومة المصرية فى إنشاء جامعة على أن تضم المدارس العالية القائمة وقتئذ إلى إدارة واحدة تكون هى الجامعة ، وفى عام ١٩٢٣ تم الاتفاق بين الحكومة والجامعة الأهلية ، على ادماج الجامعة الأهلية فى الجامعة الجديدة ، على أن تكون الجامعة القديمة نواة لكلية الآداب ، وفى ١١ مارس ١٩٢٥ صدر مرسوم بقانون بانشاء الجامعة الحكومية باسم « الجامعة المصرية » مكونة من كليات أربع هى : كلية الآداب ، كلية العلوم ، كلية الطب ، كلية الحقوق . وبعد عشر سنوات فى عام ١٩٣٥ أدمجت فى الجامعة مدرسة الهندسة ومدرسة الزراعة العليا ، ومدرسة التجارة العليا ، ومدرسة الطب البيطرى وحل اسم « كلية » محل اسم « مدرسة » بالنسبة إليها جميعا .

ولعل إنشاء الجامعة الأهلية ، كان يرتبط بحركة القوى الوطنية والسياسية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وكان على رأسها نفر غير قليل من المناضلين السياسيين الذين تبنوا القضية الوطنية فى مواجهة القوى الاستعمارية من أمثال مصطفى كامل ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، ومحمد فريد وقاسم أمين ، وغيرهم ، ومن الوطنيين المصريين الذين حاولوا الدفاع عن الثقافة الوطنية والهوية المصرية فى مواجهة طغيان الوجود الإنجليزى والفرنسى ثقافيا وسياسيا وعسكريا فى مصر .

ومنذ مطلع السبعينات وتحديداً ، بعد سياسة الانفتاح الاقتصادى وتَخلُّق شرائح وفئات اجتماعية جديدة ارتبطت مصالحها بتلك السياسة ، وفكرة إنشاء جامعة أهلية (خاصة) بمصروفات تراود الرأسمالية المصرية ، محاولة إيجاد قناة تعليمية توفر لابنائها - الفاشلين دراسيا - فرصا للالتحاق بالتعليم الجامعى لتولى المناصب العليا ، وإدارة شئون المجتمع ومنذ ذلك التاريخ والفكرة يعلو ضجيجها حينًا ، وتَقَاوَم شعبيا ، ثم يخفت الضجيج ، لكن سرعان ما تعاود الكَرَّة مرة أخرى .

ولكن الجدل من قِبَلِ المعارضين بسبب المخالفة الدستورية والايديولوجية والمؤيدين الذين يحاولون الاستناد للدستور لدعم حجتهم بأن التعليم مجانى فقط فى المؤسسات التعليمية التى تشرف عليها الدولة . أما بالنسبة لموقف مؤسسات الدولة فقد اتسم بالتخبط البين وهو ما يتضح من موقف مجلس الشعب ووزارة التربية والتعليم ورئاسة الحكومة ، إضافة لعدم حسمه داخل المجالس القومية المتخصصة ، ورغم ان الجدل قد توقف نسبيا لعدة أعوام بسبب موقف الرئيس الراحل السادات فى عام ١٩٨٠ الداعى لإرجاء إتخاذ قرار بشأن هذا الموضوع .



إلا إنه عاد مرة أخرى منذ منتصف الثمانينات وذلك عندما طَرَحت وزارة التعليم العالى عام ١٩٨٦ فكرة إقامة جامعة تكنولوجية ، وعندما وافق المجلس الأعلى للجامعات فى عام ١٩٨٨ - بعد إقرار استراتيجية تطوير التعليم فى مصر ، فى يوليو ١٩٨٧ على إقامة جامعة أهلية وكانت آخر المواقف فى هذا الشأن موافقة وزير التربية والتعليم . فى أغسطس ١٩٨٩ على اقتراح تقدمت به جمعية « اقرأ ؟ !! » لإنشاء جامعة للعلوم التكنولوجية .

والشئ الأكيد أن سياسة التعليم الحالية والواردة « باستراتيجية تطوير التعليم » والتى طُرِحت فى يوليو ١٩٨٧ عازمة على المضىّ بخطوات أكيدة فى إنشاء تلك الجامعة وذلك استكمالا للمشروع الذى تدور فى فلكه مصر منذ مطلع السبعينات ، وهو التزواج بين رأس المال المصرى والأجنبى ورفع الدعم عن التعليم كما تم رفعه عن السلع الضرورية للمواطن المصرى ، والتعامل مع التعليم بوصفه سلعة فى السوق يشتريها من يستطيع ان يدفع ثمنها ، والجديد فى الموقف الراهن هو تقديم حُجَجٍ واهية للدفاع عن تلك الجامعة ، وهو فى حقيقته دفاع لفكر فى مواجهة الفكر الوطنى الذى مازال يؤمن بأن التعليم حق للمواطن ولا سيما الفقراء والكادحين ، وأن الدولة التى تشرف عليه وتنفق عليه لابد أن توفره لانها هى المستهلك الوحيد للخريجين فى سوق عملها .

مشاكل التعليم الجامعى

يواجه التعليم الجامعى فى مصر مثله مثل كثير من بلدان العالم الثالث على تعدد مستوياتها الاقتصادية ، مشاكل ومطالب متعددة ومختلفة ، لعل من أبرزها ما يطلق عليه بظاهرة الأعداد الكبيرة والراغبة فى التعليم الجامعى . ومع الزيادة فى أعداد الطلاب الراغبين فى التعليم الجامعى وقلة الأماكن المتاحة والمحددة ، مهما زادت ، أمام الرغبات المتزايدة ، فإن الاتجاهات فى مصر تتضارب من أجل البحث عن حل فى فترة من التاريخ أبرز ما فيها الأزمة الاقتصادية والديون وتبعاتها ، وترتفع أصوات من يرون للحل فى ضرورة إنشاء جامعة أهلية - خاصة - تستوعب أبناء القادرين الراغبين ليتركوا أماكنهم لغيرهم فى الجامعات التابعة للمجلس الأعلى للجامعات ، ومنهم من يرون إعادة النظر فى مجانية التعليم - وترشيده - والتى سمحت للكثيرين من الفقراء بالتطلع لهذا التعليم العالى ، وهناك من يشهرون سلاحهم من زاوية أخرى حيث


طه حسين أحمد أمين

يطالبون بالربط بين التعليم واحتياجات سوق العمل ، وبهذا يتم تقليل الأعداد الملتحقة بالتعليم العالى ، ولا شك فى ان كل تلك الرؤى تعبر بجلاء عن الإطار الفكرى والايديولوجى لاصحابها ، وهى تنتسب إلى منظومة المشروع التبعى برمته والذى طرح فى مصر بشدة منذ مطلع السبعينات .

قوى التأييد

تستند تلك القوى الاجتماعية فى تأييدها لإنشاء جامعة أهلية بمصروفات إلى حجج أهمها :

– إن هناك العديد من الطلاب يسافرون إلى خارج الوطن لمواصلة التعليم الجامعى والعالى .. وينفقون الكثير من الأموال والدولارات فى سبيل ذلك ، وان توفير تلك المبالغ سيعود على الوطن بالخير الوفير .

– إن التعليم فى مصر الآن ، لم يعد مجانيا ، ولكنه أصبح بمصروفات طائلة على رأسها الدروس الخصوصية والمصروفات المدرسية ... إلخ .

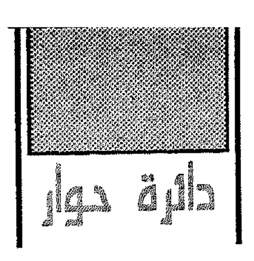
– إن هناك الجامعة الأمريكية والمدارس الخاصة والأجنبية فى مراحل التعليم قبل الجامعى ، ومن هنا فما الضرر من مد الخط على استقامته ومواصلة تلك الاشكال والصيغ فى التعليم الجامعى والعالى .

– إن مصر الآن تدعو وتنتهج طريق « الخصخصة » وتحرير الاقتصاد ، فلماذا لا يحرر التعليم والثقافة أولاً ، حتى تكتمل حلقات الدائرة فى الخصخصة المجتمعية ؟

ومما سبق يتضح أن مبررات الإنشاء لا تستند إلى أى مبرر تربوى أو تعليمى أو فنى ولكن المبرر الوحيد هو مبرر فئوى ، أى أن هناك جماعات أو فئات ، ترى أنها ما دامت تملك الثروة بكافة أشكالها ، فلا يجب ان يحول عائق فنى أو تربوى دون تعليم أبنائها – تعليما جامعيا ، ما دامت تملك القدرة المالية ، بغض النظر عن تكافؤ الفرص أو ديمقراطية التعليم .. ومن هنا فبدلا من الدعوة إلى ترسيخ المساواة والعدل ، يتم الشروع فى الدعوة إلى التفاوت وتكريس كل ما هو سلبى وضد مصالح الغالبية العظمى .

قوى الرفض

تنطلق تلك القوى فى رفضها لإنشاء جامعة أهلية بمصروفات من منطلقات على رأسها ان التعليم الخاص بكافة صوره



وأشكاله ومستوياته ، يقوض تكافؤ الفرص ويكرس التفاوت الاجتماعى والثقافى داخل بنية المجتمع . وان التعليم حق للراغبين فيه والقادرين عليه معرفيا وبدون عوائق مادية أو جغرافية أو عرقية .. ويسوقون مبررات عديدة لذلك أهمها :

– ان التعليم بنص الدستور (المادة ٢٠) مجانى وتشرف عليه الدولة فى كافة مراحله . وان ذلك يعد صمام أمان اجتماعى وسياسى ، وعامل هام من عوامل تضييق الفوارق الإجتماعية والطبقية بين أبناء الوطن الواحد .

– إن بمصر أربع عشرة جامعة ، بها العديد من الكليات فى كافة التخصصات العلمية والفنية ، إلى جانب المئات من المعاهد العليا الفنية بكافة تخصصاتها ، وليس المجتمع فى حاجة إلى جامعات جديدة أو كليات جديدة ، بقدر ما هو فى حاجة إلى دعم وتطوير ما هو قائم فعلا .

– إن التعليم العالى والجامعى فى مصر يعانى من مشكلات جمة فى التمويل والانفاق والتجهيزات وضيق الأماكن . بل ندرتها سواء للطلاب أو لأعضاء هيئة التدريس والذين يعانون ظروفا معيشية قاسية ، والأجدر بالدولة ورأس المال الخاص الذى يستفيد من مخرجات التعليم العالى والجامعى ، أن يدعم ويوفر المال اللازم لتحسين أداء العملية التعليمية فى الجامعات المصرية . وان كان هناك أهل خير يريدون دعم التعليم العالى والجامعى فان الفائدة ستعود على المجتمع بكافة فئاته وطبقاته الاجتماعية .

– إن نسب البطالة ارتفعت بشكل مخيف وفى تخصصات يندر أن توجد فى مجتمع نام مثل الزراعة والهندسة والتجارة وغيرها .

فأعلى معدل للبطالة يقع فى الفئة العمرية ما بين ١٥ – ٢٩ سنة ، وتبلغ نسبتهم ٣٦٪ ومعنى هذا أن ربع شباب وشابات مصر القادرين على العمل والراغبين فيه لا يجدونه ، وكذلك ارتبط مستوى التعليم فى مصر بمستوى البطالة بطريقة مخالفة للمنطق فزيادة درجة التعليم تؤدى إلى زيادة احتمال التعرض للبطالة . والاحصائيات لعام ١٩٨٦ تؤكد أن نسبة البطالة بين الاميين ٤٪ والملمين بالقراءة والكتابة ٥ر٤٪ وترتفع بين حملة المؤهلات أقل من المتوسطة – الإعدادية – مثلا إلى ٢ر١١٪ ، وترتفع للغاية بين حملة المؤهلات المتوسطة وأقل من الجامعية إلى ٧ر٢٨٪ وبين المؤهلات الجامعية والأعلى إلى ٢ر٢٥٪ . وهذا أمر مفزع ، فالمفروض أن الشخص يجتهد فى تحصيل العلم لكى يجد فى النهاية فرصة عمل ، لا العكس . والسؤال : هل نحن فى حاجة إلى جامعة جديدة بمصروفات تكرس البطالة

وتفاقمهــا ؟! . أليس في هــذا تغـليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، والمفروض في التعليم أن يحقق التوازن بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة ؟! .

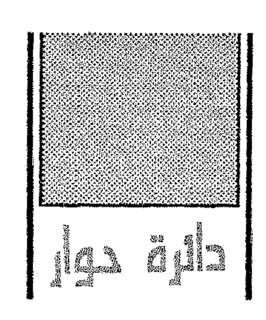
إذا كان أعضــاء هيئــة التـدريس بالجامعــات المصرية يعــانون من ســوء الأحــوال وتدنى مستوى المعيشة . فهل ستكون الجامعة الأهلية حلما أمامهم وبديلا عن السـفر والإعارة ؟ ونزفا للامكانات البشرية المتــوافرة بالجامعات الحكومية والتى انفقت الدولة على تعليمها وتدريبها الكثير من الأموال . لصالح الجامعة الأهلية المزعومة . والسؤال : من أين سيأتون بأعضاء هيئة التدريس ؟ هل بالاستقدام من الخــارج ؟ وذلك مكلف ماليا ومرهق ثقافيا وقيميا واجتماعيا .. هل بالإعارة من جامعــات الدولة ؟ وذلك سيكون على حساب جامعاتنا التى تعانى مشكلات جمة باعتراف الكثيرين ..

تظل مشـكلة التمويل رئيسية أمام إنشــاء تلك الجـامعـــة . فما تم الإعلان عنه للآن من تبرعات لا يتجاوز ٢٥ مليون جنيه ، وإنشاء جامعة علمية ذات تخصصات فريدة وحديثة ، كما يدعون تحتاج مالا يقل عن خمسة أو عشرة مليارات من الجنيهات للإنشـــاء والتجهيز فى المبانى والمعامل وغيرها والسؤال : هل ستدعم الدولة ذلك ماديا ؟ أم معنويا كما هو حادث الآن ؟ فتبنى وزير الإسكان المشروع وحديث وزير التعليم يعد دعما معنويا لذلك الأمر ويعد إطارا للمشروعية المجتمعية .. لأن الحديث عن الإنشاء لم يأت فقط من أصحاب رأس المــال أو المتحمســين للمشروع . بل هو حديثهم وحديث رجالات الدولة على حد سواء ..

إن هذه الجامعة لن يلتحق بها الا أصحاب المجاميع المنخفضة ، لأن أصحاب المجاميع المرتفعة . ليس لديهم الدافع للالتحاق بها ودفع مصروفات تربو على ٢٥ ألف جنيه مبدئيا ، وأمامهم فرصة الالتحاق بالجامعات المصرية ذات المكانة العالية والسمعة العلمية الطيبة إذن سيلتحق بتلك الجامعة الفاشلون دراسيا والقادرون ماليا ، وتلك حقيقة لا جدال فيها ، وذلك يعد هدرا للديمقراطية فى التعليم وتكافؤ الفـرص وسيكون لذلك التمايز المادى آثاره المدمرة اجتمــاعيا واقتصــاديا وســياسيا فى المستقبل القريب .

ومادامت الخصخصة هى مشروع اليوم فى تحــرير الاقتصــاد المصرى ، فان خريجى تلك الجامعة سيجدون فرص العمل بعد التخرج بشكل أفضل من نظرائهم فى الجامعات الحكومية ولا سيما فى مجال القطاع الخاص والمشروعات التى سوف تتبنى أبنــاء تلك الجــامعة بحكم أنهم أبناؤهم .. مما سيكون له مردود إجتماعى وسياسى سيئ فى المستقبــل القــريب أيضا .

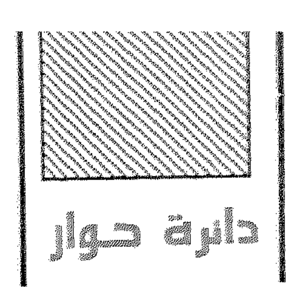
إن الدعاوى التى يسوقها أصحاب ومؤيدو الجامعة الأهلية الخاصة ، هى جد



متهافتة ، ولا تعبر عن ضرورة تربوية أو علمية ، بقدر تعبيرها عن رغبة فى التمايز الاجتماعى والمعرفى ، وخلق نتوءات فى جسد التعليم المصرى وإتاحة الفرصة لأبنائهم لكى يحصلوا على ما يرغبون فيه بأموالهم فقط ، وليس بقدراتهم وإمكاناتهم العلمية والمعرفية . فبدلا من تطوير وتحديث وتدعيم ما هو قائم - بحكم حاجته للدعم - فى جامعاتنا ، وفتح شعب جديدة متطورة لمواكبة العصر كما يزعمون ، وبدلا من أن تلعب الرأسمالية المصرية الوطنية دورها الوطنى والحقيقى فى البناء الثقافى والتعليمى والتربوى - كما سبق للبرجوازيات الأوربية أن لعبته - فهى تختار دور التمايز والتشويه .

نحن إذن .. أمام اقتراح - أخذ شكل التنفيذ الفعلى - بإنشاء جامعة أهلية من المتعذر قيامها فى ضوء الخبرات التاريخية وطبيعة الرأسمالية الطفيلية التى تدعو إلى ذلك ، وكذلك من المتعذر فى حالة قيامها أن يلتحق بها سوى الطلاب الفاشلين دراسيا ، والذين يجرون وراء جامعات بيروت والخرطوم وتركيا ورومانيا وغيرها . لكى يحصلوا على شهادات جامعية يستكملون بها الشكل الاجتماعى ، على عكس المتفوقين من أبناء الطبقات الوسطى وما دونها ، وعلى هذا فإن هذه الفكرة تطرح عاكسة بذلك الإفرازات التى افرزتها سياسة الانفتاح الاقتصادى وخلق طبقة من أصحاب الدخول العليا ، وتسعى إلى تقويض المكتسبات الشعبية والوطنية فى مجانية التعليم وتكافؤ الفرص . وخلق التناقض الطبقى وتأكيد عدم المساواة بين فئات وطبقات الشعب المختلفة .

وأخيرا علينا الا ننسى دروس التاريخ من أن فكرة إنشاء جامعة أهلية فى مصر ، تمت فى احضان الحركة الوطنية وكفاح الشعب المصرى ضد القوى الأجنبية المسيطرة عسكريا وثقافيا وتعليميا . كانت الفكرة إنشاء جامعة لتخريج كوادر وطنية من المصريين يتبنون الدفاع عن وطنهم وقضاياهم المصرية فى مواجهة أعتى استعمار غربى شهدته مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . كانت الجامعة الأهلية (١٩٠٨) مشروعا وطنيا مستقلا للدفاع عن الهوية الثقافية المصرية والعربية . أما مشروع الجامعة الأهلية اليوم (١٩٩٢) فهو يتخلق فى أحضان الهيمنة الرأسمالية العالمية . وعبء الديون وسياسات البنك والصندوق الدوليين ، والنظام العالمى الجديد ذى القطب الواحد . العبرة واضحة والدرس جلى ، فهل من مستفيد ؟! ..



حول اعتقال الغرب فى علم الاستغراب

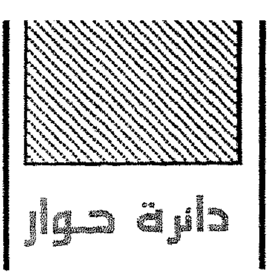
نعم .. يجب أن ندعو إلى الاستغراب

بقلم : د . ابراهيم عوضين



إذا كان المخلصون العقلاء من أبناء أمتنا يسعدون حين يجدون مجلة أو صحيفة تفسح الميدان لتجلية الآراء الفكرية والأدبية على اختلاف اتجاهاتها ، من غير تعصب أو تحزب ، فإنهم أكثر سعادة وتفاؤلا حين تفسح المجلة ميدان الحوار الهادىء الرزين بين المفكرين وأصحاب الأقلام ؛ فذلك هو أقصر الطرق الموصلة إلى إنضاج الفكر وثرائه .

ولقد نجحت مجلة الهلال - على مدى مائة عام - فى أن تكون واحدة من أبرز المجلات العربية التى تفسح صفحاتها للرأى والرأى الآخر ، فحققت هذا التمكن والتغلغل فى عقول كل المثقفين العرب المعاصرين ووجدانهم ! .



وفى العدد الصادر فى أول مايو سنة ١٩٩٢ قدمت لقرائها الدكتور صلاح قنصوه فى مقاله (اعتقال الغرب فى علم الاستغراب) الذى يحاور فيه صديقه الدكتور حسن حنفى ، حول كتابه (مقدمة فى علم الاستغراب) حوارا علميا هادئا ، أقنعنى بأن كاتب المقال أستاذ يغلب عليه طابع الأستاذية فى حواره المستقصى ، الذى يعتمد على المناقشة المفندة .. إذا استثنينا تلك الغمزات التى طويت عليها بعض عباراته .

وقبل أن أقدم تعليقى .. أود أن أقرر أمرين مهمين :

فأولا : أنا لا أتقدم بتعليقى هذا دفاعا عن الدكتور حسن حنفى ، فعلاقتى بالدكتور حنفى تساوى علاقتى بالدكتور قنصوه ... لاتتجاوز المعرفة العامة من خلال إطلاعى على مقالة هنا أو هناك .

وثانيا : أنا لا أتقدم بتعليقى هذا عن كتاب الدكتور حسن حنفى فى موضوعه أو منهجه ، لأننى لم أتمكن بعد من قراءة هذا الكتاب .

فتعليقى إنما يدور حول بعض الأفكار والآراء العامة ، التى قدمها الدكتور قنصوه فى حواره .. ليس غير . !

الخداع بالعالمية

فى الفقرة الأولى ألمح الدكتور قنصوه إلى اختلافه مع الدكتور حسن حنفى حول قيمة الفكر الغربى ؛ فذكر – متهكما– أن الدكتور حنفى يدعو إلى إثبات خصوصية المذاهب الغربية ، وعدم إنسانيتها .

ولاشك فى أن مفهوم المخالفة يقرر أن الدكتور قنصوه لايسلم بهذه الخصوصية .. وسواء كان ذلك رأيه أم كان اختلافا مع رؤية الدكتور حنفى ، فإن الحكم على إنسانية الفكر وعالميته من أخطر الأحكام التى لابد من تجليتها، وتجديد المفاهيم فيها ، قبل الدخول فى أى حوار فكرى ؛ حتى لاينشط بنا الحوار لاختلاف المفاهيم .

إن ماأصابنا من ضعف فى هذا العصر وماسبقه فرض علينا التسليم بكثير مما أعلنه السيد المنتصر ، ومن أبرز هذه المفروضات : التسليم بأن ارتفاع الصوت وسرعة الانتشار يستلزم منا الخضوع ؛ لأن ارتفاع الصوت وسرعة الانتشار من مظاهر الحقيقة ، وعنوان العالمية والإنسانية . !

وبواسطة ما يملكه السيد الغربى من أصوات عالية ، وإمكانات تضمن سرعة الانتشار .. أصبحنا ورقة فى مهب رياحه تلك ... يطلع علينا جماعة غربيون بمذهب يلحون به على أسماعنا فلا نملك إلا متابعته ، ونفاجأ بمذهب آخر مناقض

للسابق ، يلحون به علينا ، فلا نجد مفرا من متابعته ، ثم يفاجئنا مذهب ثالث يناقض المذهبين السابقين ، فلانملك إلا أن نلهث وراءه - كذلك - حرصا منا على أن نضمن لأعمالنا وأفكارنا قسطا من العالمية، أو على أقل تقدير .. لنتعلق فى أذيال تلك العالمية المنشودة .

وبذلك أصبحنا قرودا ممسوخة ، قصاراها تقليد السيد ومتابعته ، إيمانا منا بأن فى التقليد تحقيق التحقيق الخير الذى لاخير غيره .

ولو أننا تمهلنا قليلا ، وأعدنا النظر فيما يحقق العالمية ، أو فيما تعنيه العالمية .. لوقفنا على مدى أهم الذى ران علينا ، والخداع الذى استبد بنا ؛ فليس الصوت المرتفع هو عنوان العالمية ، وليست سرعة الذيوع والانتشار هى أمارة العالمية ، وليس توالى طبعات الكتاب ، واستهلاك الملايين من النسخ هو علامة العالمية .

إن كلمة العالمية تشير إلى أن هذا الفكر أو المذهب يتضمن ما يلتقى عليه أبناء العالم من مشتركات ، فأبناء آدم جميعا تجمعهم مشتركات فطرية ، وتفرق بينهم خصوصيات نابعة من الظروف البيئية .

فإذا أردنا أن نصف بالعالمية مذهبا أو رؤية فكرية ، فلا بد من أن يكون هذا المذهب أو الرؤية الفكرية نابعة من القيم الإنسانية المشتركة التى لا يختلف فيها إنسان عن إنسان آخر !


د. طه حسين   سلامة موسى

أين نضع المذاهب الغربية ؟

ومن ثم ...إذا أردنا أن نقوم الفكر الغربى ونتعرف على مكان المذاهب الفكرية الغربية من العالمية ، فإن علينا أن نتعرف على أصول هذا الفكر ، وننظر فى الملابسات التى قامت فى ظلالها هذه المذاهب الفكرية ، ونقف على غايات هؤلاء المفكرين ومقاصدهم ؛ حتى تكون رؤيتنا محايدة صادقة .

ولاشك فى أن المجال - هنا - لايتسع لاستعراض المذاهب الغربية كلها ، فهى أكثر من أن يحيط بها مقال أو عشرات المقالات ؛ ولذلك فلسوف أقتصر هنا على التمثيل بمنشأ أحد هذه المذاهب ، وليكن هو المذهب - أو الاتجاه - الرومانسى ؛ ولذلك المذهب الذى استحوذ على مفكرينا وأدبائنا ونقادنا وفنانينا ، حتى أصبحت كلمة (رومانسى) من الكلمات التى تجرى على ألسنتنا فى وصف كل سلوك وجدانى، أيا كان هذا السلوك . !



أظن أن كل مبتدىء فى الدراسات الفكرية العصرية يعرف أن الاتجاه (الرومانسى) كان فى نشأته رد فعل للغط السياسى والاجتماعى المتسربل بسربال (الكلاسيك) ، حيث تولدت فى نفس الانسان الأوربى ثورة على (الكلاسيكية) وما جرته على الانسان هنالك من متاعب .. فوجهته ثورته تلك لمناهضة دعامة (الكلاسيك) - وهو العقل الأرسطى أولا . والعقل فى عمومه ثانيا - ولكن ثورة الأوربى تلك دفعت به بعيدا عن التوازن الانسانى ، فانتقل من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ؛ ليقع فيما وقع فيه أسلافه الكلاسيكيون من الفرار من ظلم إلى ظلم ، وليتحول من الخضوع للعقل التبريرى ، إلى الخضوع للقلب السلبى ، الواهن الخانع ، الهائم فى عالم الأحلام ، الهارب من موروثه الذى أنهكه وأتعبه فى ظل الحياة الاجتماعية .. !

فالرومانسى - كما تعلم - ثائر ، أخرجته ثورته عن حد الاعتدال ، بما صورته له ثورته أنه تحرير للنفس ، حين اختلط عليه الأمر ، وتوهم أن ماكان يسود الكنيسة فى ذلك الوقت هو دين الله ، وأن مثل هذا الدين غريب عن الانسان الحر ، وأن المقصود بالدين تخدير الانسان وخداعه لتمكين السادة من التحكم فيه والسيطرة عليه ... ولم يستطع - بثورته تلك - أن يميز بين الدين ومبادئه وقيمه ، وبين أفكار رجال الدين ونزواتهم .

ومن ثم ... ثار الأوربى على الدين والعقل ، وأخضع نفسه وتصوره للقلب والعاطفة ؛ ولأن القلب فى تقديره هو وحده منبع الهام ، وهو أصدق وسيلة للرؤية الصحيحة المتحررة . فالرومانسية - كما ترى - تعنى بإحدى قوى الإنسان على القوى الإنسانية الأخرى ... كما كانت الكلاسكية ، ثم الواقعية ، البراجماتية ، والوجودية ، غير ذلك من المذاهب الغربية .. سواء تلك المذاهب الحديثة ، والمذاهب القديمة .

إن هذه المذاهب - فى مجملها - لم تكسب عالميتها من اشتمالها على المقومات الإنسانية الفطرية بنسبها المتوازنة ، ولكنها كسبت تلك العالمية من إعلاء صوتها ، والإلحاح على العالم بها في ظل التسلط الاستعمارى الأوربى على الكثير من بقاع العالم - خصوصا عالمنا الإسلامى - فهى شهرة وذيوع ، وليست عالمية كما نرى؛ لأن العالمية إنما تعنى ارتباط الفكر بالعالم ، أى بالإنسان ، شرقيا كان أم غربيا ، معاصرا كان أم طواه الماضى ، أم مازال رهن المستقبل الآتى ...

فالفكر الإنسانى يتعامل مع الإنسان فى مختلف بيئاته ، وفى شتى ظروفه ... وهذا هو الذى يميز تعامل الدين السماوى مع الانسان ، وتعامل مفكر ذائع الشهرة - مثل أفلاطون وأرسطو - مع الانسان ؛ فأفلاطون كان يتعامل بفكره مع إنسان

بعينه كان يعيش معه فى زمن واحد ، وعلى أرض واحدة ، وفى ظل ظروف واحدة أما الدين السماوى فإن صدوره عن خالق الإنسان والكون يجنب فكرة الوقوع فى هذه الخصوصية التى يقع فيها الفكر البشرى الصادر بعيدا - أو مبتعدا - عن الوحدة الإسلامية الشاملة .

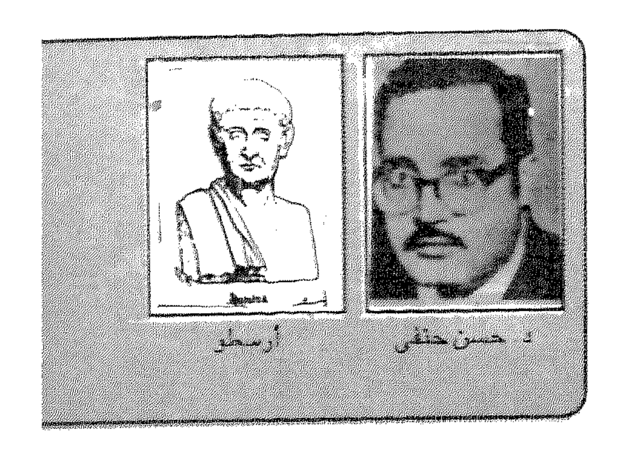
وإلا فقل لى بربك أين هذا المفكر أو المصلح الذى يؤمن اليوم بفكر أفلاطون ، أو أرسطو ، أو ابيقور مثلا يراه فكرا جديرا بالالتزام من أبناء العصر الحديث ليقود المسيرة ، ويصلح مافسد . ؟!

إن الدعوة إلى التعرف على فكر الغرب هذا التعرف ، دعوة إلى حقيقة يؤيدها الواقع المستمد من النظر المتأنى فى منشأ هذه المذاهب الفكرية . !

الجديد فى هذه الدعوة

ولكن الدكتور قنصوه يرى أن لا جديد فى هذه الدعوة . بحجة إتخام المكتبات العربية بالدراسات والرسائل الجامعية التى تبحث فى المذاهب والشخصيات والقضايا الفلسفية الغربية .. وتتصدى لها بالعرض والتحليل والنقد . فضلا عن مقارنتها بالفكر الإسلامى والعربى والشرقى بوجه عام .

ويبدو أن الدكتور قنصوه قد اختلط عليه الأمر ، فظن أن مثل هذا الجهد يغنى عن الدعوة إلى التبصر فى منشأ الآراء والأفكار والمذاهب الغربية ، مقدرا أن على الدارسين العرب والمسلمين أن يقصروا

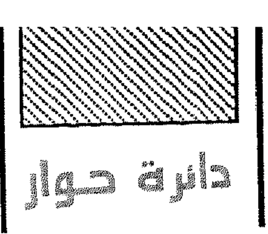


د. حسن حنفى — أرسطو

جهدهم على الدوران فى محور الفكر الغربى - على القائم فعلا - من عرض وتحليل ونقد ومقارنة بالفكر الإسلامى ، بحثا عن نقاط التقاء الفكر الإسلامى بالفكر الغربى .

ولاريب فى أن هذا الذى قدره الدكتور، هو أمل الغربيين وغايتهم التى يحققون بها إحكام ربطنا بعجلتهم ، وتوطيد تبعيتنا لهم ، حتى يصبح قصارانا .. أن نرصدهم ، فإذا دخلوا جحر ضب خرب دخلناه وراءهم ، من غير تمييز ولاتحفظ .. على نحو ماسبقت إليه دعوة الدكتور طه حسين فى (مستقبل الثقافة) حين دعا إلى أن نسير « سيرة الأوربيين لنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها ومايكره ومايحمد منها وما يعاب » ... هذا الذى كان دافعا لمثل سلامة موسى إلى أن يعلن تبرأه من شرقيته ، وأمله فى أن يرتبط بالغرب .!

وعلى نحو ماهو واقع اليوم من دعوة دائمة دائبة إلى استسلامنا للدوران فى



المحور الغربى استسلاما يدفع بنا إلى المتابعة العمياء - كما أراد طه حسين - ليس فى ميدان الفكر فحسب ، بل تعدى الفكر إلى السلوك والأزياء ، وغير ذلك ، فقد أصبح كل مايصدر عن الغرب هو الصواب الذى لايناقش - حتى لو كان شذوذا وانحلالا - فإذا أبطرت المعيشة بعض الشباب هناك ، فخلعوا أنفسهم من تلك المعيشة الناعمة ، وقذفوا بأنفسهم عراة أوشبه عراة فى الميادين العامة ، ينامون على الأرصفة أو فى الحدائق العامة، مرسلين شعورهم فى غير نظام ولانظافة تحت اسم (الهيبز) ... تلحظ طائفة من شبابنا لمسايرتهم ، لأنهم يسايرون فى النموذج يتوهمون أنه النموذج .. أليسوا يتابعون شباب الغرب الرائد ؟!

أما الجديد الذى يجب أن تقوم عليه صلتنا بالفكر الغربى ودراستنا له (الاستغراب) فهو أن نغير طريقة التعامل مع هذا الفكر ، بأن نضعه فى حجمه المحدود ، بيئته التى نبت فيها ، وظروفه التى دفعت إليه ، ووسطه الذى رحب به يوما ما وهذا لن يتحقق بطبيعة الحال إلا إذا أسقطنا عنه ثوب القداسة الذى كساه أصحابه ومن حذا حذوهم . !

الحقيقة التى يجب أن تقوم عليها يقظتنا اليوم - والتى أرجو أن تكون مقصد الدكتور فى كتابه - هى أن الفكر الغربي محدود ناقص ، وأنه تشويه للفكر الإنسانى أو تزييف له ؛ لأن الفكر الإنسانى الحقيقى بذلك الوصف يجب أن يشمل كل المقومات الفطرية للإنسان من عقل وعاطفة ووجدان ومادة وروح .. وليس كما قرره هؤلاء الأسياد فى أذهاننا .. من أنه الفكر الإنسانى فى العالم . الذى لايعدله فكر ، والذى يجب أن نظل مبهورين به ونفسح له مكان الريادة ، ونجعله محور دراستنا العلمية التى لايصح أن تتجاوز النظر فيما لدينا من فكر على ضوء الفكر الغربى ، لنقرر مدى قرب فكرنا من هذا الفكر السيد .. فإذا بالغ الدارس أضاف إلى ذلك ما يثبت أن هذا الفكر الغربى ليس جديدا ، وإنما هو مسبوق بما يماثله فى فكرنا القديم .

فالفارق إذن واضح جلى بين ما عليه الدراسة القائمة فعلا ، وبين مانرجو أن تصبح عليه دراستنا للفكر الغربى والتى أرى أن الدكتور حسن حنفى يدعو إليه اليوم ، على ماوضح فيما نقله الدكتور قنصوه من كتابه .

بين الاستشراق والاستغراب*

والدكتور قنصوه فى تفريقه بين الاستشراق والاستغراب - يذكر أن الأستشراق ضرب من إعادة الاكتشاف لما توارى عن التداول من تراثنا ، وتقديمه لنا وللعالم أجمع .

ولا أدرى إن كان الدكتور - فى قصره دور الاستشراق على ذلك - يغالط لينتصر

على الدكتور حنفى أم هو حقيقة لايعرف عن الاستشراق إلا ذلك الوجه المشرق الوضاء؟!

إن الاستشراق – فى مبتدئه – إنما كان نشاطا عربيا صليبيا ، قصد به التعرف على مالدى المسلمين من علوم ومعارف مكنت لهم هذا التمكن ، ونقل ما أمكن نقله من ذلك إلى أوربا ، على نحو ما هو معروف مشهور من استغلالهم سماحة الإسلام وغفلة المسلمين فى السطو على الكثير من التراث الإسلامى ، والذى تنطق به الكثير من مكتبات أوربا اليوم . !

ثم أضيف إلى هذين المقصدين بعد ذلك مقصد آخر ، هو العمل على تشكيك المسلمين في قوتهم وقدرتهم وتشويه مالديهم من فكر موروث فى محاولة مسعورة لإفراغ الكيان الإسلامى ، تمهيدا لملئه بالفكرالغربى بعد ذلك ، وحتى يتم لهم النصر ، وحتى يؤازر الانتصار الفكرى والعقيدى الانتصار السياسى ... على مانحن فيه الآن ، حيث نجحوا فى إفقادنا هويتنا فى مجالات الحياة المختلفة ، وفرضوا أنفسهم ميزانا تقوم على أساسه أخلاقنا وأحلامنا وأفكارنا وآدابنا وسلوكياتنا .. الخ كل ذلك .؟

فإذا كان الغرب ليس فى حاجة إلى استغرابنا ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى أن نكتشفه ، فهل ترى أننا كنا فى حاجة إلى من يكتشفنا إبان الحروب الصليبية والعصور الأوروبية المظلمة .. ولذلك تفضل علينا ساداتنا المستشرقون فأنعموا علينا بهذه المنة ؟!

إذا كان الغرب ليس فى حاجة إلى من يكتشفه – حتى إنه ليحاول أن يضلل من يسعى إلى ذلك ويصرفه عنه فإننا نحن العرب فى أمس الحاجة إلى اكتشاف الغرب ، ومعرفته على حقيقته ، حتى نأخذ منه ماينفعنا وما نحن في حاجة إليه بالفعل، بعد أن ظللنا نحو قرنين من الزمان نعرفه من خلال مافرضه هو علينا .. حتى كان جل ماعرفناه عنه – أو كله – ليس له بالحقيقة أية صلة فكان دافعا لأن نفقد هويتنا ونظل نلهث وراءه ... كما كان الغرب من قبل فى حاجة إلى اكتشافنا . !

وبعد .. فأرجو أن تكون غايتى من هذا التعليق واضحة ، وأن أكون بذلك قد أزلت لبسا ، رأيت أن الحاجة إلى إزالته ماسة .

كما أرجو أن يكون الدكتور قنصوه قد تبين أن ماخشيه على طلابنا وشبابنا من كسل وجهل إذا هم اتجهوا إلى التعرف على حقيقة الفكر الغربى هذا الذى خشيه على طلابنا وشبابنا لاوجود له وإنما (الاستغراب) فى الحقيقة خير دافع إلى الوقوف على أرض صلبه ، حتى ننهض لمواصلة المسيرة الحضارية الإنسانية التى بدأها آباؤنا فى ظلال الإسلام . والله من وراء القصد .



بقـــلم :

د . سيد كريم

لم تترك معجزات الحكيم الساحر متعدد المواهب التى وصفت بانها تعبير صادق لما وصفته العقيدة التى نادى بها بسر الوجود والعيش فى الحقيقة ، لم تترك معجزات أعماله ناحية من علوم المعرفة المرتبطة بحياة المجتمع لم يطرقها فشقت طريقها إلى أقرب الفنون إلى حياة المجتمع .. وهى الموسيقى .

يقول المؤرخ (ك . سيتا) أن إيمحوتب ساحر الموسيقى الذى اطلق بعض مؤرخى الدولة القديمة لقب إله الموسيقى بأنه كان يتلقى وحى الالحان من

السماء وقد وصف الموسيقى بأنها لغة الالهة أو لغة الملائكة فى قبة السماء وانها هبة اله السماء إلى البشر نقلها من الجنة إلى المؤمنين برسالته التى حملها إيمحوتب إلى أهل الأرض مع رسالة التوحيد التى كان ينادى بها .

فكان إيمحوتب أول من لحن كلام الاله ليستمع اليه البشر ويرتلونه فى صلواتهم وفى متابعة طقوس عقيدتهم ، وهى الموسيقى التى علا صداها وارتفع رنينها فى المعابد المصرية فى الدولة القديمة لتخرج من مصر بمصاحبة الرسل والانبياء فى مختلف الأديان ليتردد صداها فى جميع بيوت العبادة ومعابد الاله فى جميع انحاء المعمورة إلى يومنا هذا . ولازمت ذكر اسم الاله فى طقوس جميع المناسبات الدينية والحيوية .

لدراية ايمحوتب العميقة بلغة الأنغام وسر الألحان التى يستمدها من وحى السماء وأدرك تأثيرها على حياة الكائنات كما ورد فى برديات - امنحتب اله الطب. كان أول من عالج الأمراض بالموسيقى وكانت تعد من الأسرار السحرية التى اشتهر بها فى مجال الطب وأعد لها معهدا خاصا فى معبد « أون » قبل انتقاله إلى معبد منف حيث أطلق عليه اسم ساحر الطب العظيم .

وقد نسج كتاب الاغريق الذين اتخذوه الها للطب عندهم .. نسجوا حوله الكثير من الأساطير حول دور الموسيقى التى يعالج بها الأمراض سواء فى الطب العضوى أو النفسانى أو الروحانى أو التنويم المغناطيسى أو التخدير فى الجراحة . واستمد ايمحوتب من التأثير النفسانى للموسيقى على البشر الى وضع مبادىء نواة الموسيقى المتعلقة بمشاعر حياة المجتمع واحاسيسه سواء الخاصة منها بالحرب والقتال والموسيقى العسكرية أو موسيقى السلام والمناسبات الرسمية والعامة وموسيقى الاعياد الشعبية والدينية وموسيقى الرقص التوقيعى .. والتى كل منها بتأثيرها النفسانى لاداء الغرض والتى اعتبرها امتدادا لدور الموسيقى فى العلاج .

بتعدد انواع الموسيقى والحانها تعدد ظهور الالات الموسيقية التى تقوم بادائها وابرازها سواء آلات النفخ أو الآلات الوترية أو الطبول .

قام أحد الباحثين فى تاريخ الموسيقى بعمل حصر لمختلف انواع الآلات الموسيقية التى ظهرت فى الدولة القديمة عصر إيمحوتب ، فوجد انها تزيد على خمسين آلة مختلفة ابتداء من قيثار الهارب إلى الصاحبات .

وهى الآلات التى صاحبت الحضارة المصرية فى جميع مراحل تطورها عبر جميع عصورها ولم يطرأ عليها سوى اختلافات طفيفة فى تصميم اشكالها .



وتعتبر جميع انواعها وأشكالها المرجع والمصدر الرئيسى لجميع الآلات الموسيقية التى صاحبت مختلف الحضارات العالمية .

● بردية الملك انتف ٢١٤٠ ق . م

تحية دعاء إلى الأمير العظيم

تحية إلى من سيرحل جسده إلى عالم الخلود ويترك تراث ثروته وهم ذريته الصالحه وابناؤه الذين تستمر بها حياته .

إن الملوك والعظماء يرقدون فى اهراماتهم الضخمة وقبورهم الغنية والمنيعة .

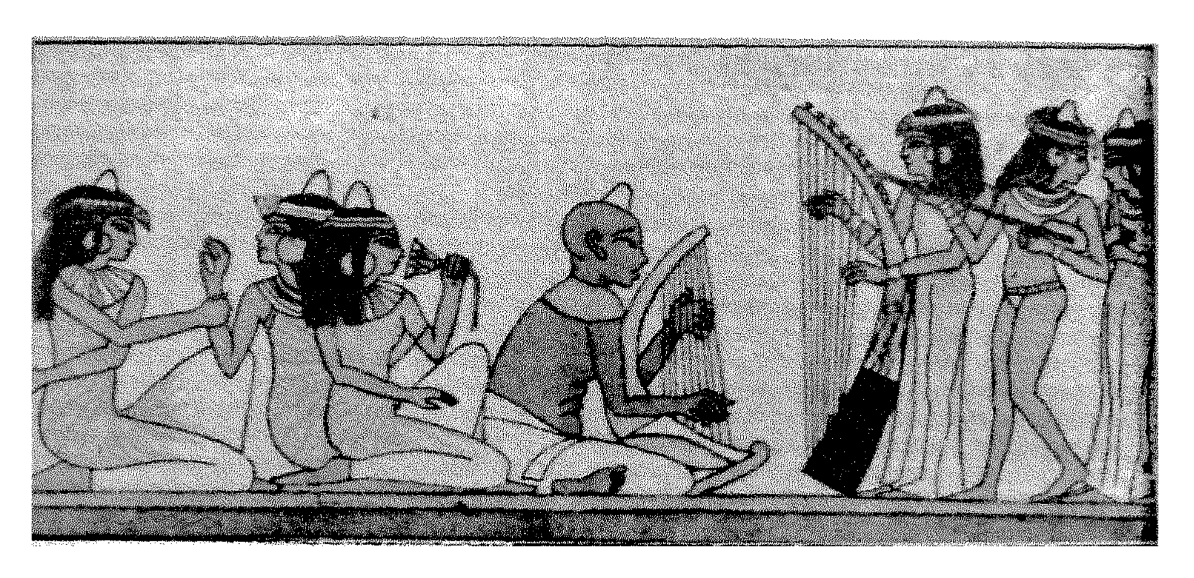
كذلك يرقد عامة الشعب من الاغنياء والفقراء فالقبر لا يميز بين ما يرقد به من أجساد.

إنى استمع إلى صوت إيمحوتب العظيم وهو يتساءل عن حظ كل منهم من الحياة وما ناله كل منهم من أملاك وثروات أن اسوار أملاكهم وحوائط ديارهم قد تحولت إلى أطلال وما شيدوه من قصور اختفت من الوجود لتحفظ بمكانها فى الاساطير مع اسماء من شيدوها وعاشوا فيها .

لم يعد أحد منهم من القبر ليخبرنا ويصف لنا ما يدور هناك .

أن من تصعد أرواحهم تبتلع الأرض اجسادهم ولن يعود منها إلى الأرض أحد لم يعد أحد ليطمئن على ما ترك من أملاك لم يبق شىء من كنوزها وأثاثها ومقتنياتها إلا ما نقلوه على سبيل الذكرى لزخرفة قبورهم التى تركوها ولم يتمكنوا من اصطحابها معهم فى رحلة المجهول لم يعد احد منهم ممن رحلوا ليروى لنا حقيقة الغيب ويصف لنا ما يطمئن قلوبنا .

فالمصير هو ما وصفه لنا اوزير عن المصير ومحكمة الآخرة وعالم الخلود .



أو الانتقال من حياة عالم التجربة إلى حياة عالم الخلود عش فى الحقيقة التى تقول أن اليوم فقط ملك يديك .. والغد ملك الغيب .

عش ليومك بما يرضى قلبك ولغدك بما يرضى الاله إن كنت قد دخلت الحياة عاريا فكساك الاله ورعاك بان أنعم عليك جميع خيرات الحياة .

عش ليومك بتحقيق رغبات قلبك بجمال نعم الحياة ، اكس جسدك بأرقى الثياب من التيل والحرير وعطره باطيب العطور التى وهبتها السماء للزهور لتمتعك بها لتنضر مائدتك بأشهى الاطعمة وأطيب المشروبات دع الموسيقى اليوم تملأ جو المجلس وتحلق فى سمائه انغام عازف القيثار .

متع مجلسك باصوات غناء المطربات والمطربين قبل أن يأتى الغد أو اليوم الذى لن تسمع فيه إلا صوت الندابات وعويل النائحات .

فكل ما ستتركه من بعدك من ثروة مادية مصيره الزوال ولن يبق خالدا إلا روحك التى ستغادر القبر حاملة ثروة لا تزول من اعمالك الحسنة .

التى يذكرها لك كل من عاشرك واحبك ودعا لك بالخير فدعاء الأوفياء يزيد رصيد أعمالك الحسنة التى ستحملها معك إلى عالم الخلود .

لن تسمع أذناك صوت الندابات وعويل النائحات في القبر .. بل لن تسمع اذناك إلا اجمل الالحان الحان دعاء الخير لمن يحفظون لك جميل اعمالك .

ولا تدع انفاسك تستقبل من الروائح ما يحمل الغدر والخيانة .

لا تقدم لاختك (حبيتك) سوى زهرة اللوتس المقدسة التى يحمل عبيرها الحب والود والوفاء فجسد اختك رفيقة حياتك التى تجلس بجانبك يسكن قلبها قلبك



عازفة القيثار فى بحيرة
النوتر الدولة الحديثة

فسعادتك من سعادتها ، متع نفسك بالنعم التى وهبها لك الآله وضعها امام عينيك والق خلف ظهرك ما يعكر صفو الحياة ويغضب الاله فمثلك من كان طاهر القلب مطمئن النفس نظيف اليد مستريح الضمير .

تبقى روحه مضيئة تنير له طريق رحلة المصير ويبدد نورها ما يعترض الطريقين من مخاوف واخطار فلنعش ليومنا فإننا لا نعلم ما يأتى به الغد أو ما يخبئه لنا الغيب لم يعد احد ممن رحلوا ليخبرنا برؤيا المصير فلنعش اليوم لنتمتع بما وهبه الاله لنا من نعم وخيرات ولتملأ الموسيقى والغناء وأجمل الالحان جو المكان اكس جسدك بإجمل الثياب . وعطر جسمك بأزكى العطور ولتحو مائدة طعامك اشهى الاطعمة وأطيب الشراب ليشع نور سعادتك على من حولك وينعم بجميل عطائك من يشاركون افراح مجلسك وما خلف من ذرية .

قو قلبك ومتع نفسك بنعم الحياة التى وضعها الاله بين يديك لتنسى ما يخبئه لك الغيب فى الغد حقق رغبات قلبك مادام ينبض بالحياة التى تعيشها لا تكتنز خيرات الحياة فتحرم نفسك من التمتع بها وتحبسها عن الاخرين فالاله يوزع خيراته على الجميع .

متع نفسك فى الحياة بما نلته من نعم فلن يدخل شيئ منها معك فى القبر وان تحمل روحك فى رحلة المصير من متاع سوى اعمالك فى الحياة عش ليومك .. فليس هناك من يضمن غده ، استقبل يومك بتحقيق رغبات قلبك ، اكس جسدك باجمل الثياب وتزين باروع المصاغ وتعطر بأزكى العطور متع نفسك باشهى الطعام واطيب الشراب قبل ان يأتى اليوم الذى تحرم فيه من جميعها متع روحك بانغام الموسيقى وعزف القيثار وصوت الغناء قبل أن يأتى اليوم الذى لا تسمع فيه إلاصوات الندابات وانت عار من الثياب مفتقدا جميع الملذات التى يشتهيها قلبك .

استمع إلى عازف القيثار وهو يردد الحكمة الخالدة اليوم ملك يديك والغد ملك الغيب .

قبيل الرحيل

شعر : أنس داود

إنهُ الحب سيدتى
فاصنعى المستحيلْ
يدخل النور بيتى
ويصحو الربيعُ الجميلْ

***

ربما يا صديقة هذا الخريف الرهيفْ
ربما .. فى ابتسامةِ ثغرٍ
ولفتة جيدٍ لطيفْ
ورقةِ هدبين .. فوق اخضرار الكرومِ
ولمحِ الحنان الوريفْ
تجئ العصافير قبل الغروب
ويأتى إلى النهرِ سحرُ العزيف

***

وإن سألتك الرياح
لمن ترسلين العبير
اضحكى .. اضحكى
فالورود التى تنهلُ العطر
منذ نزلت الخميلْ
والطيور التى تشعل النار
فى شفق المستحيلْ
وحتى السنابلُ
فى بوحها .. لنسيم الأصيلِ العليلْ
يعذبها ..
عشقُ هذى الروح بعينيك
يفتنها .. اخضرارُ الحقولْ
وصفصافة تستريح بشاطئ نهرٍ
تحدثنى .. عن وعود الفصولِ
قبيل الرحيل

٤٠ عاما على



بقلم : جلال السيد

أعطيت ملكا فلم تحسن سياسته

كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

مرت أربعون سنة على قيام ثورة ٢٣ يوليو ، وعلى عزل الملك السابق فاروق الذى تنازل عن العرش لابنه - الطفل - أحمد فؤاد الثانى وذلك فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ .

وفى ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية وأسقطت الملكية ، وأسدل الستار على أسرة محمد على التى ظلت تحكم مصر منذ عام ١٨٠٥ ، وكانت تجربة حكم محمد على أمام أبنائه وأحفاد . وأفراد أسرته تجربة فريدة .

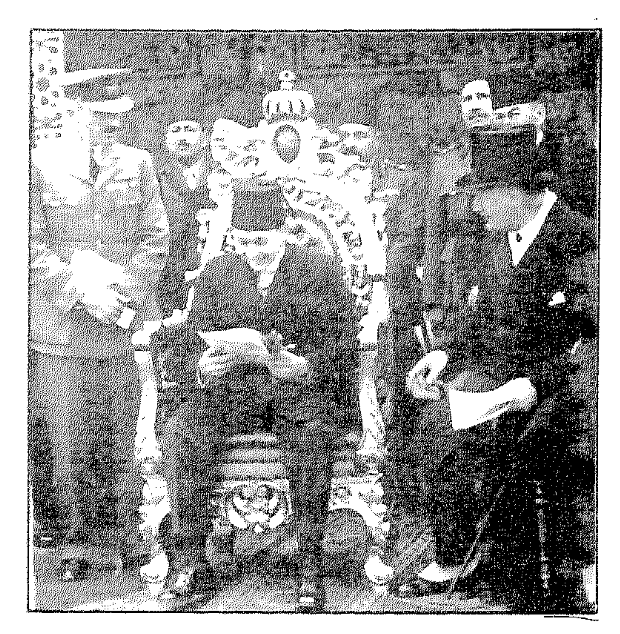
لم يقفوا عند إنجازاته وما حققه ، بل توقفوا عند معاهدة ١٨٤٠ وما نتج عنها من تقلص لنفوذ محمد على ورضوخه لمطالب الأوروبيين ، فاختاروا جميعا وبلا استثناء حمايتهم من الدول الأوروبية ، وحين اختار الخديوى عباس حلمى الثانى مشاركة الحركة الوطنية فى بداية حكمه ، كان هذا بسبب موقفه من اللورد كرومر ، وما أن نقل كرومر وجاء جورست إلى مصر حتى عاد الخديوى عباس إلى الموقف العام ، موقف أسرة محمد على من الأوروبيين ومن الاحتلال بعد ذلك . وقد تزايد نفوذ المستعمرين فى مصر من خلال حكام مصر السابقين ، وكانت السيطرة



على اقتصاد مصر ثم احتلالها ، واستطاعت بريطانيا التى انفردت بالسيطرة على مصر أن تعزل الخديوى اسماعيل عام ١٨٧٩ ، ثم الخديوى عباس حلمى الثانى عام ١٩١٤ ، ونصبت من أرادته من أسرة محمد على ، كما حدث فى حالة الخديوى توفيق ، والسلطان حسين كامل والسلطان أحمد فؤاد ، ورغم ما كان يعانيه الشعب المصرى من سيطرة واستبداد أسرة محمد على والاحتلال ، فقد استطاع أن يشق طريقا لحركته الوطنية ، التى كانت مطالبها استقلال البلاد والمطالبة بالدستور ، ثم بعد ذلك حماية هذا الدستور ، هذا مع التفكير المستمر فى التخلص من حكام أسرة محمد على وإعلان الجمهورية .

أعلان الجمهورية .. فكرة قديمة

فلم تكن فكرة إعلان الجمهورية بعيدة عن أفكار بعض قادة الثورة العرابية ، فكثيرا ما ناقشوا هذه الفكرة ، وطالب بها عبد الله النديم ، وتحدثت عنها صحيفة «المؤيد » وأصبحت فكرة قيام الجمهورية متداولة بين قطاعات الرأى العام المشتت ، حتى كان قيام أول حزب علنى عام ١٩٠٧ - الحزب الجمهورى - يدعو للجمهورية بديلا عن الخديوية ، وكان الداعية لهذا الحزب ورئيسه محمد غانم ، والذى كان متأثرا بالثورة الفرنسية ، وكان يحضر هو وأعضاء حزبه احتفالات الجالية الفرنسية



فى الحفل الرسمى لسلاح الطيران ١٩٣٤ نائب عن جلالة الملك والده

فى القاهرة بعيدهم الوطنى - ١٤ يوليو - كما كتب محمد غانم فى جريدة الأحرار التى كان يصدرها محمد وحيد عدة مقالات عن فظائع أسرة محمد على وذلك فى عام ١٩٠٨ .

وفى أثناء ثورة ١٩١٩ المجيدة ، طرحت فكرة الجمهورية ، وجاء هذا على لسان خصوم الزعيم سعد زغلول حين طرح على أعضاء الوفد المصرى فكرة عزل السلطان فؤاد واستنتجوا أنه يريد أن يكون بديلا عن السلطان ، وإن كان سعد زغلول لم يؤكد فكرة إعلان الجمهورية ، لكنه عبر عن رغبته فى عزل السلطان أحمد فؤاد أما عن الملك المعزول فاروق ، فقد فكر حزب الوفد فى خلعه مرتين ، الأولى عام ١٩٣٧ ، وقد استشير السفير البريطانى فى ذلك من خلال مكرم عبيد ، ولم يكن فى ذهن رجال الوفد إعلان الجمهورية ، أما فى المرة الثانية ، فكانت عام ١٩٤٣ ، حيث رأى كبار الوفديين - كما جاء فى كتاب الأستاذ صلاح شاهين : « ذكرياتى فى عهدين » - أن الملك وحاشيته وفى مقدمتهم أحمد حسنين باشا سائرون فى سياسة غير وطنية وغير كريمة بحيث أصبح رمز البلاد مضغة فى الأفواه بسبب مباذله وسهراته التى شاعت فى مصر وخارجها ، وعرض الأمر على مجلس الوزراء فأقر هذا الاتجاه وعهد إلى أحمد نجيب الهلالى بأن يصوغ مبررات خلع الملك فأعد بياناً وسلمه إلى محمود سليمان غنام وزير التجارة أخذ فى تبييض مسودة الهلالى ، ولما انتهى ذهب إلى منزل النحاس باشا حيث كان الوزراء لا يزالون موجودين وتم توقيعهم جميعا على البيان كقرار صادر من مجلس الوزراء بخلع فاروق وإعلان الجمهورية وعندما علم النحاس أن السفارة البريطانية علمت بالموضوع طلب النحاس مسودة القرار التى كتبها الهلالى وحرقها أما قرار مجلس الوزراء المكتوب بخط سليمان غنام فقد احتفظ به ، وقد أكد هذه الواقعة الأستاذ إبراهيم فرج فى كتاب «ذكرياتى السياسية » الذى أعده الزميل الكاتب حسنين كروم .

وفى ١٢ فبراير عام ١٩٤٦ وبمناسبة وضع حجر الأساس للمدينة الجامعية هتف طلبة الجامعة - جامعة فؤاد - لأول مرة بسقوط فاروق ومزقت صورته .

وتتصاعد الكراهية لفاروق وأسرته حتى تبلغ ذروتها فى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٥١ ، وفى أعقاب إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ ورفضها فكرة الدفاع المشترك الرباعى (بريطانيا - الولايات المتحدة الأمريكية - فرنسا - تركيا) يوم أن عين فاروق حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى ، والذى كانت تسبقه سمعته بموالاته الكاملة للإنجليز ودفاعه عن مشروع صدقى بيفن وتصريحاته الودية تجـــاه دولة الاحتلال ، يومها فى ٢٤ ديسمبر ومنذ الصباح انطلقت المظاهرات فى المدارس الثانوية والجـــامعات وشاركت طالبات المدارس الثانوية فى هذه المظاهرات وانضمت فئات الشعب فى معظم المدن الكبرى لهذه المظاهرات الصاخبة ضد حافظ عفيفى وفاروق ونازلى وفتحية ، وكان استفتاء شعبيا ضد فاروق والأسرة المالكة وفى بعض التجمعات كانت هناك هتافات تنادى بإعلان الجمهورية ..

تطورات ما قبل الثورة

كانت البلاد فى حالة غليان وحماس ضد الاحتلال وأعوانه وخشى فاروق من غضبة الجماهير التى أعلنت كراهيتها الشديدة له وبدلا من الوقوف إلى جانب



سمو الأمير فاروق ولى عهد مصر المحبوب يغادر القاهرة

القوى الوطنية ، اختار فاروق كما اختار الخديوى توفيق من قبل ، وتصور أن الإنجليز سيقدمون له الحماية ، ومن هنا كان استفزازه اليومى للحركة الوطنية والقوى الشعبية حتى تصطدم بقوات الاحتلال التى تصور أنها ستعيد الوضع كما كان قبل إلغاء المعاهدة . ولم تكن قوات الاحتلال فى حاجة إلى تحريض لضرب المواطنين ونسف منازلهم ، فالحركة الفدائية فى منطقة القنال بدأت أعمالها فى اعقاب إلغاء المعاهدة ، وتم سحب العمال المصريين الذين كانوا يعملون فى المعسكرات البريطانية ، كما توقف المتعهدون والموردون عن تقديم المواد

التموينية لقوات الاحتلال وكانت المعارك مستمرة طوال شهر ديسمبر ١٩٥١ ، ففى ٣ ديسمبر كانت معركة السويس والتى استشهد فيها ٢٨ من المصريين وبلغ عدد الجرحى ٧٠ جريحا ، كما بلغ عدد القتلى من البريطانيين ٢٢ كما أصيب منهم ٤ بجراح ، وفى ٨ ديسمبر قامت القوات البريطانية بنسف كفر عبده - حى بمدينة السويس - حيث نسف ١٥٦ منزلا بالقنابل تحت حماية الدبابات والمدافع ، وأزيل كفر عبده من الوجود بهذه الطريقة الهمجية واجتمع مجلس الوزراء فى ١١ ديسمبر احتجاجا على ما حدث فى كفر عبده . ، وكان من قراراته استدعاء سفير مصر فى بريطانيا - عبد الفتاح عمرو - والذى وصل فى ٢٠ ديسمبر .

ومن هنا جاء عزل فاروق فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، تلبية لمطالب الملايين من أبناء الشعب المصرى وقياداتها الوطنية ، كما جاءت ثورة ٢٣ يوليو امتدادا للحركة الوطنية المصرية وتعبيرا عن مطالبها ، والتى عجزت الاحزاب السياسية التى شاركت فى الحكم عن تحقيقها ، وبعد عزل فاروق بدأ نقاش على صفحات الجرائد اليومية والمجلات حول أى النظامين أصلح للبلاد : الملكى أم الجمهورى ، وكما يقول الدكتور وحيد رأفت فى كتابه فصول من ثورة ٢٣ يوليو - كان الاتجاه الأقوى هو إلى النظام الجمهورى ، ويشير إلى ندوة اشترك فيها مع آخرين ، ويقول « كنت الوحيد الذى دافع وقتها عن النظام الملكى بينما أجمع المتحدثون الآخرون على إيثار النظام الجمهورى » وقد فسر موقفه بقوله إن المقارنة يجب أن تكون بين الملكية الصالحة والجمهورية الصالحة ، لا بين ملكية فاسدة وجمهورية صالحة . ومع موقف الدكتور وحيد رأفت مع الملكية كنظام للحكم ، فقد علق على عزل فاروق بقوله : « من كان يتصور أن هذا الفتى الوسيم الذى تولى الحكم وهو دون الثامنة عشرة من عمره ، والذى أطلق عليه شعبه فى بداية سنى حكمه لقب «الملك الصالح» سوف يحمل معه بعد ستة عشر عاما فقط وهو ذاهب إلى منفاه غير مأسوف عليه فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وصف «الملك الفاسد » وأضاف أن ملايين المصريين رحبوا بهذه النهاية .

الدستور .. وأهداف الثورة

وفى ١٣ يناير عام ١٩٥٣ ، صدر مرسوم بتأليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد ، يتفق وأهداف الثورة ، وقد ألفت اللجنة من خمسين عضوا ، وانتخبت على ماهر رئيسا لها ، كما انتخبت لجنة فرعية من ١٥ عضوا سميت لجنة الخطوط الرئيسية لمشروع الدستور ، وانتخبت لجنة الخطوط لجنة من خمسة أعضاء ، هم : الدكتور عبد الرازق السنهورى - عبد الرحمن الرافعى - مكرم عبيد - الدكتور

السيد صبرى - الدكتور عثمان خليل ، وذلك لبحث نظام الحكم أولا ، وهل يكون ملكيا أو جمهوريا ، وقدمت اللجنة الخماسية تقريرها وهو يضمن قرارها بالإجماع بأن يكون نظام الحكم جمهوريا على أن يكون تقرير هذا النظام عن طريق استفتاء الشعب ، وجاء فى تقرير اللجنة :

« قامت الملكية فى أصلها التاريخى على زعم أن الملوك يستمدون سلطتهم من عند الله ، وأنهم خلفاء الله فى أرضه ، ومن ثم نبتت نظرية الحق الإلهى للملوك ، ولم تتهذب الملكية لتماشى تطور الحضارة ولتلائم مقتضيات هذا التطور إلا فى كثير من المشقة والعسر وإلا بعد مراحل متدرجة تخللها كثير من أعمال العنف ، انتهت فى الغالب إلى ثورات دامية رفعت لواءها الشعوب فى وجه النظام الملكى .

وقد نبه علماء الدستور إلى ما بين النظام الملكى والحكم الديمقراطى من مجافات وتعارض ، والنظام الملكى أصبح غير صالح لمصر ، بعد أن تعذر عليها ترويضه ، فلم تستطع أن تجعله نظاما رمزيا ، أو على الأقل نظاما متوازنا ، وقد وثب الشعب المصرى فى تاريخه الحديث وثبات حاول فيها هذا الترويض فلم ينجح ، فى أواخر حكم اسماعيل وفى أوائل حكم توفيق ، فلم تجار الأسرة المالكة وثبة الشعب ، بل تخلفت دونه ، لا بل هى استندت إلى الأجنبى واستعانت به فى إخماد ثـورة الشعب ، وسلمت البلاد للاحتلال البـريطانى ممـا زاد الثورة اضطرابا فى النفـوس . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، حينما اشتعلت الثورة الشعبية المصرية فى وجه الأجنبى وضد الحكم الملكى وهنا أيضا لم تماش الأسرة المالكة وثبة الشعب ، والوثبة الأخيرة - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - جاءت بعد أن ضاق الشعب بما انتشر من فساد فى الحكم وانتهت باقتلاع الملك عن عرشه .

هذه الهزات العنيفة التى تتابعت على البلاد فى مراحل متعاقبة تدل على أن النظام الملكى فى مصر استشرى فساده واستعصى على العلاج ، وليس من حسنات هذا النظام أن الأجنبى منذ وضع قدمه فى البلاد كان دائما يستند إلى العرش فى توطيد سلطانه ، وليس من حسانه أنه كان مـوئلا للرجعيين من جميع الطـوائف والهيئات .

على أن أحداث التاريخ تتضافر جميعها فى الدلالة على أن النظام الملكى إذا فقـد هيبته فى بلد مضى إلى غير رجعة . »

من أجل ذلك رأت اللجنة بإجماع الآراء ترك النظام الملكى والأخذ بالنظام الجمهورى ويسـرها أن تتلاقى فى هذه النتيجة مع ما تحـس أنه هو الاتجاه الشعبى الواضح .

وفى مسـاء ١٨ يونيو ١٩٥٣ قرر مجلس قيادة الثورة إعلان الجمهورية ،



بالـزى الرسـمى المـلك الشـاب
فى إحدى الحفلات

وجاء فى القرار :

« إن تاريخ أسرة محمد على فى مصر، كان سلسلة من الخيانات التى ارتكبت فى حقوق الشعب ، وقد فاق فاروق كل من سبقوه ، فأثرى وفجر وطغى وتجبر وكفر ، فخط بنفسه نهايته ومصيره ، فآن للبلاد أن تتحرر من كل أثر من آثار العبودية التى فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع ، فنعلن اليوم باسم الشعب : إلغاء النظام الملكى وإنهاء حكم أسرة محمد على مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة . وإعلان الجمهورية ويتولى الرئيس اللواء « أركان حرب » محمد نجيب قائد الثورة رياسة الجمهورية » .

واليوم وبعد أربعين عاما ، نعيد إلى الأذهان الكلمات التى جاءت بأول كتاب صدر عن الملك المعزول والكتاب الرائد «فاروق ملكا » للكاتب الكبير أحمد بهاء الدين والذى صـــدر بعد شـــهر من عزل فاروق ، فى السطور الأولى من الكتاب ، يقول الكاتب : « ليس هذا الكتاب الذى نقدمه لك عن الملك السابق فاروق إلا بداية، فلا شك فى أن كتبا كثيرة سوف تصدر متناولة كل ناحية من مأساته ومأساة شعبه معه ، بل إن كتبا كثيرة سوف توضع عن كل فرد من أفراد حاشيته التى صنعت مصير سيدها ودور كل واحد فيهم من أحمد حسنين إلى كريم ثابت وإلياس أندراوس وبوللى وناهد رشاد .

إما الضرورة التى دعت إلى الإسراع فى إصدار هذا الكتاب فواضحة ، ففى هذا الخضم الهائل من القصص والروايات والحقائق والأكاذيب والكلام المغرض والكلام البرىء ، شعر الناس بالحاجة إلى كلمة حق واضحة ، إن الأكاذيب التى نشرت كثيرة وأكثر منها الحقائق التى رويت بطريقة معينة ، يراد بها الباطل وقد قرأنا الكتاب الكبار يتبارون فى تفسير المأساة ، فيقول واحد أن فاروق مجنون ، ويقول آخر إنه كان يعانى من نقص جسدى أو عقدة نفسية ويقول ثالث إن ظروفه العائلية هى التى أدت به إلى هذه النهاية ، إن هذا الكلام برغم ما فيه من جوانب الصحة ليس إلا دفاعا عن الملك السابق ، كما يدافع المحامى عن موكله القاتل بأنه مجنون لينقذ عنقه من حبل المشنقة .

فالذى أطاح بالملك السابق ليس مجرد جنونه وحماقته وعقده النفسية ، إنما أطاح به أنه حاكم مستبد . ونحن اليوم فى حاجة لا إلى أن نكره شخص فاروق فحسب ، بل وأن نكره أيضا الأوضاع التى صنعت فاروق واتـــــاحت له أن يكـــون مستبداً .

كتب هاجمت الملك !

وصدقت نبوءة الكاتب الكبير وصدرت عشرات الكتب عن فاروق منذ عام ١٩٥٣ ، كان أولها « ليالى فاروق » – جزءان – للأستاذ مصطفى أمين ، ومنها قصــة ملك و ٤ وزارات للأستاذ موسى صبرى ، وكذلك كتاب « غرائب من عهد فاروق وبداية الثورة المصرية » للأستاذ أحمد مرتضى المراغى وزير الداخلية فى عهد فاروق والذى اشترك فى المؤامرة التى ضبطت عام ١٩٥٧ لإعادة الملكية والتى مولتها المخابرات البريطانية – كما يقول الأستاذ الرافعى فى كتابه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ – واشترك فيها الضابط السابق حسين خيرى ومحمود نامق والأول من أصهار العائلة المالكة السابقة والثانى من ذرية العائلة السلطانية السابقة ، وقد عرض حسين خيرى على ضابط طيار مصرى – عصام الدين خليل – الاشتراك فيها فتظاهر بالقبول ووثق به حسين خيرى إذ كان زميلا سابقا له فى القوات الجوية المصرية وقد تسلم لحسابها ١٦٢ ألف جنيه سلمها إلى جمال عبد الناصر ، وقد نظرت القضية أمام المحكمة العسكرية العليا بالقاهرة وأصدرت فيها حكمها فى ٢٨ أبريل ١٩٥٨ بالاشغال الشاقة المؤبدة على المراغى وحسين خيرى وبالاشغال الشاقة ١٥ سنة على محمود نامق .

فى كتاب مرتضى المراغى – صدر فى بيروت ١٩٧٦ – وأعيد نشره فى حلقات فى مجلة أكتوبر منذ سنوات قليلة – نجده يقول : « إن فاروق كان ضحية المرض ، وضحية الخلاف العائلى وضحية والد لا يحب المصريين وضحية تنصيبه ملكا وهو فى طراوة الصبا وضحالة التعليم وكذلك ضحية مستشاريه للقصر أحدهما يزين له النزوات والآخر يعلمه انتهاك الدستور وما جاء بالكتاب إدانة كاملة لفاروق مثل الكتب السابقة التى أشرنا إليها ، وجاءت فى مذكرات حسن يوسف « القصر ودوره فى السياسة المصرية » وهى فى نفس السياق وإن كان كاتبها أخفى الكثير مما يعلمه .

كتب موضوعية عن حكم فاروق

أما الكتب التى ناقشت فترة حكم فاروق بموضوعية ، بالوقائع والوثائق والتى عبرت عن الفهم الحقيقى لما حدث ، فبعضها قدم إلى الجـــامعات كرسائل علمية ، مثل كتاب الدكتور سامى أبو النور « دور القصر فى الحياة السياسية فى مصر » وكذلك ما صدر من الكتب حول هذا الموضوع ، للمؤرخين والاساتذة والكتاب ، نذكر منهم – ليس على سبيل الحصر – الدكتورة لطيفة سالم – عبد العظيم

رمضان - يونان لبيب رزق - أحمد حمروش - حلمي سلام - طارق البشرى - على الدين هلال - عبد الرحمن الرافعي - وحيد رأفت - محسن محمد - أحمد فوزى عطا الله - كمال عبد الرءوف وعشرات من الكتاب وحتى عام ١٩٨٩ لم نجد كاتبا واحدا ، أو كتابا واحدا صدر دفاعا عن فاروق ، فالجميع أدانوا مسلكه وتصرفاته فى الحكم والعبث بالدستور والقانون والحياة السياسية - إن اختلفت وجهات النظر أو محاولة إيجاد بعض المبررات - النفسية والعائلية - لما وصل إليه ، لكن كان هذا فى إطار الإدانة ، واتهامه بالفساد وإفساد الحياة السياسية ، فبعيدا عن نزواته التى سجلتها بعض الكتب وسرقاته وعمولاته من الشركات ، وضمه أراضى الأوقاف إلى أملاكه وتهريب أمواله للخارج منذ منتصف الأربعينات ، نقف عند مواقفه السياسية ، فنجد أن حفاظا على عرشه لعب مع الأطراف المتصارعة أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاتصل سرا بألمانيا وإيطاليا كما كانت علاقته طيبة ببريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، وظل طوال حكمه معاديا للحركة الوطنية كما كان معــاديا للحيــاة البرلمانية والدستور .

فقد حكم مصر ١٥ عاما - منذ ٢٩ يوليو ١٩٣٧ حتى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ - شكلت فى هذه الفترة ٢٤ وزارة ، اغتيل فى تلك الفترة رئيسان للوزارة (أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى) وتوفى حسن صبرى رئيس الوزراء وهو يلقى خطاب العرش ، ومعظم رؤساء الوزراء أقيلوا بشكل مهين أو أجبروا على الاستقالة ، والمثال الواضح موقفه من حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس وهو الحزب الذى كان يقود الحركة الوطنية والحزب الأكثر تشددا مع دولة الاحتلال والحزب المتمسك بالديمقراطية وتشكيل الوزارة على أساس الانتخاب ، وكان من المعروف أنه حزب الأغلبية ويحظى بتأييد واسع من الجماهير ، هذا الحزب الذى كان يأتى للحكم من خلال اكتساحه فى الانتخابات لم يستكمل خمس سنوات فى الحكم طوال الخمسة عشر عاما ، وأقيلت وزاراته الثلاث عام ١٩٣٧ ، عام ١٩٤٤ ، ١٩٥٢ ، وحلت برلماناته التى جاء من خلالها ، وطوال حكم فاروق لم يستكمل البرلمان دوراته ، سوى دورة واحدة (١٩٤٥ - ١٩٤٩) وكانت انتخابات مزيفة شهد بتزييفها المؤرخون ، وعاشت البلاد تحت الاحكام العرفية ٩ سنوات . ولم يقف فاروق عند هذا الحد فى عدائه للوفد ، فقد كان وراء جميع الانقسامات التى خرجت من الوفد فى عهده ، خروج أحمد ماهر والنقراش وتكوين الهيئة السعدية ، ثم خروج مكرم وكتابه الأسود وتكوين الكتلة الوفدية ، ثم اختــراق مجلس الوزراء الوفدى ١٩٥٠ - ١٩٥٢ بأمثال الدكتور حامد زكى .



بعد العرش .. الملك فاروق محاطاً بنساء من كل الأجناس

وأخطر من هذا ما حدث فى حرب فلسطين وتجارته فى الاسلحة ، وقتل الأبرياء من الضباط والجنود بواسطة الأسلحة الفاسدة ، وأكثر خطورة ما شكله من تنظيمات لتصفية خصومه السياسيين وضرب رموز الحركة الوطنية ، فشكل البوليس الخاص ، والحرس الحديدى ، وكان فاروق وراء اغتيال أمين عثمان ، والشيخ حسن البنا ، والضابط عبد القادر طه ، وكان وراء محاولات اغتيال الزعيم مصطفى النحاس عدة مرات بالقنابل والمدافع وسيارة مليئة بالديناميت ، كما كان وراء محاولة اغتيال رفيق الطرزى عضو الهيئة الوفدية وعضو مجلس النواب عام ١٩٥٠ .

الدفاع الوحيد عن الملك

وفوجيء القراء عام ١٩٨٩ بكتاب غريب كتبه أحد أقارب فاروق وهو عادل ثابت وصدر الكتاب عن دار اخبار اليوم تحت اسم « فاروق .. الذى غدر به الجميع» ومن المعروف أن مؤلف الكتاب قد اتهم فى قضية تخابر فى بداية الستينات ، ولم يمر الكتاب فى هدوء ، فقد تصدى له عشرات الكتاب ، ولم يدافع عنه أحد ، لكن الهدف من الكتاب لم يكن محاولة رد الاعتبار لفاروق فقط ، بل كان بداية لتقديم أحمد فؤاد الثانى والذى بدأ يظهر فى الصحف العربية ، وفى نفس الوقت طرحت قضية

قتل فاروق ، ولم تكن مصادفة أن ظهرت ثلاثة كتب خلال شهر واحد : أحمد فؤاد – الملك الذى عاد ١٩٩١ – للزميل فاروق فهمى ، الملك أحمد فؤاد الثانى – الملك الاخير وعرش مصر – ١٩٩١ – للزميل عادل حموده ، إبراهيم بغدادى . كيف قتلت الملك فاروق ! – ١٩٩٢ – للزميل محمود فوزى .

واختلف الثلاثة فى التناول ، وإن اتفقوا فى الدعاية والترويج لأحمد فؤاد فمثلا كتاب الزميل محمود فوزى ، لم أجد فيه اعترافاً أو شبه اعتراف من الاستاذ إبراهيم بغدادى بقتله فاروق ، كما جاء فى عنوان الكتاب ، بل على العكس تماما ، رغم محاولات المؤلف المستمرة فى استنطاقه ، وأنا هنا لا أناقش قتل فاروق، لكن أناقش ما جاء بالكتاب من أنه اعتراف من القاتل ، ولا أجد أى أعتراف بل نفيا قاطعا ليس فقط فى حوار إبراهيم بغدادى مع محمود فوزى بل فى أحاديث صحفية أخرى ، أما كتاب الزميل فاروق فهمى فيبعد تماما عن الحقائق التاريخية ، بل يتبنى موقف أحمد فؤاد تجاه والده ، من أن والده مظلوم ولم يفعل كل الجرائم التى أشيعت عنه لتشويه سمعته ، ولا أدرى كيف سمح الكاتب أن يطلق على أحمد فؤاد – الملك الذى عاد ، وكأن الدستور لم يتغير وكأننا ما زلنا فى عصر الملكية ولم نعلن الجمهورية منذ أربعين عاما ، والمؤلف هنا مبهور بملكه الذى عاد والذى رآه «تلوح على وجهه سمات الملوك» وكنت أود من الزميل فاروق أن يحدد لنا هذه السمات وكيف عرفها ؟ ولا أدرى لماذا لم يشر المؤلف إلى أن زوجة أحمد فؤاد كانت يهودية وقيل إنها أسلمت وقد أشار إلى ذلك الزميل عادل حمودة فى كتابه والذى يختلف عن كتاب الزميل فاروق فهمى ، حيث حاول أن يتعامل مع التاريخ والحقائق وإن سقط فى فخ الإثارة باختياره الموضوع وأسلوب التناول .

وقد حاول الزميل فاروق فهمى أن يجعل من نفسه مدافعا عن ملكه العائد فتصدى لمن أسماهم خصومه وكان أولى به أن يقدم اعتراضاته أو رفضه لثورة يوليو بشكل واضح ، لقد تعامل بعض الكتاب مع تاريخنا الوطنى بمنطق الإثارة والتجارة ، ولم يهتم هؤلاء بالحقائق التاريخية والواقع الذى يعيشه المجتمع الآن ، وأى نظرة موضوعية للخريطة السياسية فى مصر تؤكد العداء الدائم للفترة التى حكمها فاروق ، وقد تخطى الجميع هذه الفترة وأصبحنا نواجه مشاكل مختلفة ، بعيدة كل البعد عن الترويج لأحمد فؤاد العائد أو تبرئة فاروق من جرائمه ، إننا نسعى لتدعيم الديمقراطية ونطالب بالعدل والحرية لجميع الأفكار من خلال الحوار المستمر لتحقيق الهدف الأسمى الذى عملت من أجله الحركة الوطنية المصرية وهو العمل على رفعة الوطن وسعادة المواطنين .

كتاب الهلال

يقدم

الحملة الفرنسية

بين الأسطورة والحقيقة

بقلم

د. ليلى عنان

يصدر

٥ اغسطس ١٩٩٢

روايات الهلال

تقدم

جامع الفراشات

تأليف

جون فاولز

ترجمة

عبد الحميد فهمي الجمال

تصدر

١٥ أغسطس ١٩٩٢



بقلم : د. محمد حسن عبد الله

كتاب «فضائل مصر» لمؤلفه عمر بن محمد بن يوسف الكندى، ينطوى على كثير من الحقائق التاريخية ، والدلالات النفسية ، والرموز الروحية ، لمصر وشعبها عبر العصور ، والكندى - مؤلف الكتاب - مصرى، شديد الاعتزاز بوطنه ، يراه أجمل الأوطان ، وأسخاها ، وأطيبها طبيعة وبشرا .

ومع هذا فإنه يستحق مكانة فى سياق الاهتمام بمصر ، كما تتجلى فى التراث ، الذى ينبغى أن يستمد أفكاره وصوره من كتابات غير المصريين ، ذلك لثلاثة أسباب : أنه لا يخترع القول من وحى عاطفته الوطنية ، وإنما يورد أقوال القدماء من العرب وغيرهم ، التى تعلى من شأن مصر وطبائع أهلها وعظمة تاريخها وعمرانها ، لم يستشهد بأقوال المصريين فى بلدهم ، لأن هذا - بالطبع - أمر مقرر . وثانيا فإن كتاب «فضائل مصر» - على صغر حجمه - كان مرجعا مؤثرا فى عدد من الدراسات الهامة التى كتبها مصريون أعلام فى عصور تالية ، فى مقدمتهم : القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، والسيوطى مؤلف حسن المحاضرة ، والنويرى «من إقليم



بنى سويف» مؤلف نهاية الأرب ، وابن تغرى بردى ، صاحب النجوم الزاهرة وابن ظهيرة ، مؤلف كتاب الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، وهذا الأخير من مواليد القدس - بفلسطين - غير أنه أنتقل إلى القاهرة عام ٨٤٢ هـ ، فكان حبه لها ، وتآليفه عنها ، ونقله - مثل سابقيه - عن كتاب الكندى . إن هذا النقل يدل على الاطمئنان إلى المعلومات الواردة ، كما يدل على أن عوامل الحب لمصر ذات أساس موضوعى ، ولها طابع الاستمرارية والاستقرار فى الوجدان المصرى العام ، ومن ثم تتحول مع التقادم والرسوخ إلى غريزة ، أو خليقة متأصلة . قد يدهش غير المصريين إذ يجدون الأقوال نفسها تتردد - دون تغيير - عبر مئات السنين ، ولكن المصرى العادى يتلقى هذه الأقوال فى مراحل عمره فتستقر فى وعيه ، وفى لا وعيه أيضا ، وتصبح من سماته النفسية والعقلية ، لا يتنازل عنها ، وإن قهرته ظروف مرحلية على أن يخفض صوته ، أو يكتفى بالهمس بها لنفسه .

مصر أم الدنيا ..

إننا - على سبيل المثال - لا نزال نردد عبارة مألوفة ، هى عندنا إعلان عن الاعتزاز بالتاريخ ، عبارة : «مصر أم البلاد» أو «مصر أم الدنيا» وحين غنى سيد درويش نشيده الحماسى إبان ثورة ١٩١٩ غلب على الاعتقاد أن هذه العبارة التى جاءت به من صنع مؤلف - فرد أو



جماعة – لكن الحقيقة أنها جملة «تاريخية» ، نجدها بنصها فى كتاب «فضائل مصر» الذى ألف فى عصر الدولة الأخشيدية (منتصف القرن الرابع الهجرى) ينسبها الكندى إلى سعيد بن أبى هلال، أحد علماء عصره ، إذ روى عن نافع ، وروى عنه الليث ، وتوفى عام ١٤٩ هـ ، إنه قال العبارة التى غناها سيد درويش ، ورددها المصريون ، وأصبحت نشيدهم القومى مؤخرا ، ونصها : «مصر أم البلاد ، وغوث العباد» وذكر أيضا «أن مصر مصورة فى كتب الأوائل ، وسائر المدن مادة أيديها إليها تستطعمها» !! أوليست أما لجميع المدن ؟ فدورها الطبيعى إذن أن تحمى وتطعم وتعطف ، كما ينقل الكندى عن عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، وأول ولاتها فى عصرها الإسلامى ، قوله : «ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة» . وهى عبارة خطيرة ، تكفى لعزل والى مصر ، ولعلها تفسر لنا جانبا مما نقلق له فى قراءتنا لعلاقة المصريين بالخلافة فى دمشق ، ثم فى بغداد ، لمئات السنين ، والبحث عن جواب لسؤالين حائرين : لماذا كان والى مصر لا يبقى فيها طويلا ، وإنما يتم تغييره بعد وقت قصير ، قد لا يكمل عاما أو عامين فى مرات ليست قليلة ؟ ولماذا لم يستخدم الخلفاء وجوه المصريين فى حكم ولايات الخلافة ، وقد استخدموا الفرس والتـرك والصـقالبة والأكراد والأحبـاش ، والأحرار ، والعبيد ، ولكنهم لم يولوا المصريين ؟

إن هذا يوصلنا إلى السبب الثالث الذى جعلنا نقبل شهادة الكندى فى «فضائل مصر» ، وهو مصرى ، على موقع مصر فى التراث العربى ، ونظرتهم التاريخية إليها . فقد ألف الرجل كتابه تلبية لرغبة حاكم مصر كافور الإخشيدى، يقول عن مناسبة تأليفه : «هذا الكتاب أمر بجمعه ، وحض على تأليفه الاستاذ أبو المسك كافور ، أطال الله بقاءه ، يذكر فيه أخبار مصر، وما خصها الله تعالى به من الفضل والبركات والخيرات ، على أكثر البلدان» .

إن «أخبار مصر» تعنى فى لغة عصر المؤلف – تاريخ مصر ، بوجه عام ، ولسنا الآن بصدد تصنيف الكتاب ، وإن يكن الطابع التاريخى هو الغالب عليه ، ويهمنا أن الدعوة إلى تأليف كتاب يختص بأخبار مصر وإبراز شخصيتها ، وفضلها ، جاءت من حاكم عايش تجربة الاستقلال الأولى ، عن سلطة الخلافة فى بغداد ، تلك التجربة التى بدأها أحمد بن طولون ، وورثها الأخشيد ، وأورثها لكافور ، ليتسلمها الفاطميون بعد ذلك . ألم يقل عمرو ابن العاص إن ولاية مصر تعدل الخلافة !! ماذا تعنى هذه العبارة ؟ إن حجم مصر

الهائل : حضارة وثروة وسكانا وعمرانا ، وتاريخا ، وتميزا ، لا يطيق أن تكون «ولاية» تابعة ، وإنما يليق أن تكون قائدة ، ومركزا، وحامية . لهذا فرح المصريون باستقلال ابن طولون ، وأعانوه ، واتسع سلطانه حتى شمل الشام ، وشمال العراق ، وكان الحزن الأكبر يوم هزيمة ولده والقضاء على الاستقلال بدخول جيش محمد بن سليمان. كان كافور حكيما عاقلا - استاذا كما دعاه أهل زمانه - هذا على المستوى الشخصي ، ولكنه يفترق عن سادته الذين مهدت الظروف أن يخلفهم في حكم مصر ، أنه أفريقي ، فشعور القرابة ، أو عدم الغربة ، متمكن فيه ، وليس مثل ابن طولون أو الأخشيد . من هنا كانت التفاتته إلى ما فات غيره ، لم يكن يريد أن يسعرف» -فقد كان استاذا ، وكان من اليسير عليه أن تصله المعرفة في مجلسه ، لكنه أراد -فيما نرجع - أن يدعم الشعور الوطني بالشخصية ، ويقوى روح الاستقلال ، ويؤصل الإحساس بالتفرد ، ويمسح عن بعض النفوس الوهم بأن قبول العقيدة الإسلامية ينطوى على التسليم بأن أهل الجزيرة أعلى درجة بالطبيعة فى الدين والدنيا .

الإيمان الديني

يشغل فضل مصر ، أو فضائلها ، على أسس دينية مساحة كبيرة فى هذا الكتاب. وهذا يعنى أن المؤلف يدرك جيدا أبعاد القضية التى يترافع فيها ، فمصر ليست مهبط الإسلام ، ولم تكن أول البلاد التى تلقته أو دافعت عنه ، مع هذا لن يعدم أسبابا «دينية» لا مجال للطعن فيها ، يقيم عليها «حيثيات» الفضائل المصرية ، غير أنه سيبقى لدى المؤلف حدس قوى بأن «التاريخ» و«ثراء الطبيعة واتساع العمران» هما الحجة الأقوى ، ولهذا سيكون الكندى رائعا حقا ، ومقنعا تماما لجميع من يتوجه بكتابه إليهم ، حين يجعل أسباب التفضيل التاريخي والعمراني قائمة على أسس دينية ، أو هى على وفاق مع هذه الأسس الدينية ، بحيث تنتهى إلى نتيجة أن الإيمان الدينى يستلزم التسليم بفضائل مصر التاريخية والإنسانية والطبيعية !!

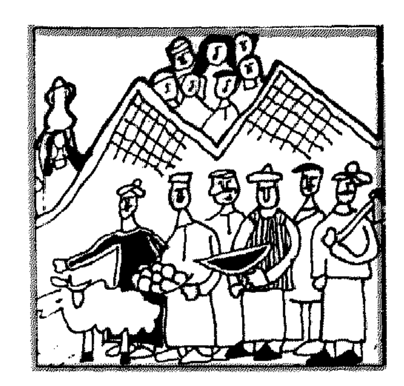
كيف توصل إلى هذا ؟

بعد أن أقر مبدأ «التفضيل» فى ذاته ، وأنه من الله ، وأنه يشمل البلدان ، كما يشمل الناس ، والأيام ، ويقول : «والفضل على ضربين : فى دين ، أو دنيا ، أو فيهما جميعاً» .

سينتهى الكندى إلى أن مصر ذات فضائل ، لم يقل فى هذه المرحلة من كتابه إنها «الأفضل» على الإطلاق ، ومع هذا فإن السياق سيدل على أن هذا مقصده . البدء بالقرآن ، وبالحديث النبوى مدخل مهم لإثارة الانتباه ، وإرساء الدعوى على أساس لا يجحد :

«وقد فضل الله مصر وشهد لها فى كتابه بالكرم ، وعظم المنزلة ، وذكرها باسمها ، وخصها دون غيرها ، وكرر ذكرها ، وأبان فضلها فى آيات من القرآن العظيم ، تنبئ عن مصر وأحوالها ، وأحوال الأنبياء بها ، والأمم الخالية ،

المسلم ، ذو العصبية القبلية الضاربة بجذورها فى كندة (إحدى أهم قبائل اليمن العريقة) يدافع بحرارة عن التاريخ الفرعوني ، وعن فضل أقباط مصر ، وانتماء العرب إليهم ، وليس العكس ، وإن كان هذا العكس تولى سبكه وصياغته تاريخ مصر الإسلامية عبر عصوره .



والملوك الماضية ، والآيات البينات ، يشهد بذلك القرآن ، وكفى به شهيدا ، ومع ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مصر ، وفى عجمها خاصة ، وذكره لقرابتهم ورحمهم ، ومباركته لهم ولبلدهم ، وحثه على برهم» .

يذكر القرآن فى هذا الاقتباس ثلاث مرات ، شاهدا على ما خصها به «دون غيرها» ويربط هذا التفضيل إلى العقيدة : «أحوال الأنبياء بها» والتاريخ «الأمم الخالية والملوك الماضية» ، ويلتقى الدين والتاريخ والطبيعة فى «الآيات» أى المعجزات . ثم يتدرج إلى الرسول ، ومع أن الكندى - كما هو واضح من اسمه ونسبته - عربى مسلم، فإنه يذكر أو يذكر بوصيته بالقبط - ومباركته صلى الله عليه وسلم - لهم ، ولبلدهم ، وحثه على برهم. إن هذا الانتقاء فى الموضوع والصياغة ليدل على أن أهل مصر - منذ ألف ومائتى عام- كانوا قد صاروا إلى ما نطلق عليه الآن «الوحدة الوطنية» ، ولم يعد منهم عربى فاتح ، أو حتى مهاجر ، وقبطى خاضع يدفع الجزية ، أو صاحب بلد ، لقد أصبح الجميع مصريين وحسب ، وهذا المؤلف

حكاية فرعون

القرآن دليله فى الدفاع عن فرعون وقومه ، لأنه يضع القارئ المسلم فى اعتباره كما ذكرنا ، فقد قال تعالى حكاية عن فرعون : «قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم» يعقب الكندى على هذه الآيات من صورة الشعراء بقوله : «فهل فى الدنيا جلساء ملك أرجح عقلا ، وأحسن محضرا منهم ، حيث أنصفوا ، وأمروا أن يمتحن بمثل ما وقع لهم إنه يشبه ما جاء به ؟ ولم يكونوا فى المنزلة وقبح المحضر كوزراء نمرود ، حين شاورهم فى إبراهيم عليه السلام . قال تعالى حكاية عنهم : «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» .

وفى هذا السياق عن استقرار حاسة العدالة والإنصاف ، حتى فى معاملة الخصم أو العدو ، فى الوجدان المصرى ، لا يفوته أن يشير - بالقرآن - إلى أن السحرة لم يصروا على الكفر ، بل آمنوا ، وقالوا : «آمنا برب العالمين» ! ونضيف إلى

إشارة الكندى عن إنصاف جلساء فرعون ورجاحة عقولهم ، قدرة فرعون نفسه على ضبط ثورته تجاه من جاء يطالبه بتغيير معتقداته ، والتنازل عن مكتسباته التاريخية ، إن الفرعون - بكل ما ينسب إليه من تجبر واستعلاء ، يقول لحاشيته أو مستشاريه ، بعد أن يعرض الأمر من وجهة نظره : «فماذا تأمرون ؟» ، وقد أخذ برأيهم وأرسل فى المدائن حاشرين ، واجتمع السحرة غير أنه رفض التسليم بنتيجة التحكيم ، واتهم الجميع بالتآمر على النظام - كما نقول فى عصرنا - فكان ما كان .

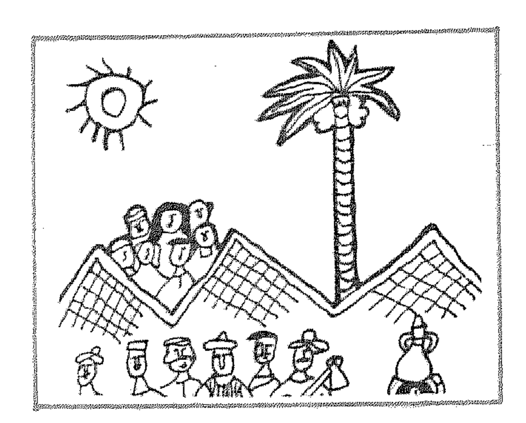
ويقدم الكندى صفحة ناصعة من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وحقائق التاريخ كما يقره العرب عن أصولهم ، وكما يعتقده المسلمون مستمدا من كتابهم ، وكلها تضع أقباط مصر فى المنزلة القريبة الحميمة ، إذ ينقل عن صحيح مسلم الحديث الشريف : «ستفتح عليكم مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لكم منهم صهرا وذمة» . ثم يأتى بحديث آخر ، يسند روايته إلى عمر ابن الخطاب ، وفى سياقه يتساءل أبو بكر، فياله من حديث جمع بين النبى وصاحبيه فى الشهادة لمصر بفضيلة الجهاد والرباط فى سبيل الله ، فقد روى عن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض» . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة» .

والصهر - أو الرحم فى بعض روايات الحديث الأول - إشارة إلى هاجر ، أم إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وهى من قرية الفرما (العريش) فهى أم العرب ، أما الذمة فلأن الرسول تسرى بمارية ، أم ولده إبراهيم ، وهى من الصعيد . يقول الكندى فى عبارة حارة معتزة :

«فالعرب والمسلمون كافة لهم نسب بمصر ، من جهة أمهم ، مارية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن أزواج النبى ، صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ، والقبط أخوالهم» .

ويعود ليؤكد أن المصريين أخوال العرب مرتين ، لهذه التى أشار إليها ، ولأن العرب كافة من مصر (وليس العكس) بأمهم هاجر، لأنها أم إسماعيل ، وهو أبو العرب» .

وكما استمد الكندى آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، لتأكيد عروبة مصر ، ومصرية العرب معا ، وليدافع عن تاريخ مصر ، وشعب مصر ، يستخلص من القرآن ، ومما يروى عن الصحابة والتابعين من أقوال ، ما يدافع به عن حضارة مصر ، وأخلاق شعبها . يذكر قول الله تعالى ، عن فرعون وقومه بعد هلاكهم : «كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين» ثم يعقب على الآيات بقوله :



«فهل يعلم أن بلدا من البلدان ، فى جميع أقطار الأرض ، اثنى عليه الكتاب ، بمثل هذا الثناء ، أو وصفه بمثل هذا الوصف ، أو شهد له بالكرم ، غير مصر ؟!».

ويقول كعب الأحبار عن مصر : إنى لأحب مصر وأهلها ، لأنها (هذا هو التعليل) بلدة معافاة من الفتن ، وأهلها أهل عافية (أى يؤثرون المسالمة والبعد عن الشقاق) فهم بذلك يعافون (سلمت لهم وحدتهم الوطنية وسلمت بلادهم من قلق الانتماء) ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه (نتيجة متوقعة لوحدة الأمة واستقرار النظام العام) وهو بلد مبارك لأهله فيه .

محاسن مصر

هذه بعض النصوص الدينية التى قيلت أو نزلت فى مصر ، وقد قدم المؤلف ثبتا كاملا بالأنبياء ، والحكماء ، والعلماء ، والشعراء .. و .. الذين ولدوا بمصر ، أو عاشوا فيها وقتا . ليتفرغ بعد ذلك لإبراز محاسن مصر الطبيعية ، فيذكر ما هو معروف عن جوها وأرضها وزروعها ، غير أن «النيل» لابد أن يحظى بعناية خاصة : إنه أحد أنهار أربعة «من الجنة» وهذا حديث ينسب إلى الرسول ، والمجاز يفسره، غير أن المؤلف لا يكتفى بهذه المشاركة ، وهو يبحث عن «انفراد» الشخصية فى الطبيعة المصرية ، فينبهنا إلى حقيقة أن النيل «ليس فى الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال إلا هو .. وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على نيل مصر ، ولا يجبى من خراج نهر من أنهار الدنيا ما يجبى من خراج النيل» .

يستطرد الكلام إلى أقاليم مصر ، وما يتميز به كل منها ، فأطيب عسل فى بنها ، وأهل مريوط أطوال الناس أعمارا ، ونخيل الفرما يطيب بعد أن ينتهى موسم التمور فى كل الأقاليم فيكون وحده مددا لمن يشتهى إلى الربيع التالى . وإقليم الفيوم يتكون من ثلاثمائة وستين قرية ، تستطيع كل قرية أن تطعم مصر كلها يوما واحدا فى زمن الأزمة ، فتجتاز محنتها على مدار العام . ليصل إلى النسيج المطرز والمقصب الذى اشتهرت به تنيس وتفوقت به فى العالم ، ويذكر الثوب الدبيقى (نسبة إلى دبيق وهى من قرى مصر) والمرعز العسلى، وهو نسيج خاص من شعر الماعز ، لا تنتجه غير مصر ، وقد كانت دمياط تنافس تنيس فى جودة أقمشتها ، وإن

تفوقت تنيس بغزارة الإنتاج حتى إنه يقال ليس فى الدنيا منزل إلا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة !! .

إذا كانت هذه مكانة مصر الروحية ، وقيمتها الحضارية ، وقدرتها الإنتاجية .. فمن أين جاء تدهور أحوالها فى عصر الولاة ؟ مما يفسر لنا نزعتها إلى الاستقلال المبكر ، ومنافستها للخلافة العباسية ، ثم احتواءها لتلك الخلافة عقب سقوطها فى بغداد بعد الغزو المغولى ؟

يقر الكندى بوجود التدهور ، وهبوط مستوى الإنتاج ، معتمدا على أرقام ما تقدمه مصر إلى الخلافة من خراج ، وسيذكر السبب أيضا ، وإن لم يسم الأشياء بأسمائها «توقيرا» للتاريخ !!.

يقول إن عمرو بن العاص جباها أول سنة فتحها عشرة آلاف ألف دينار (أى عشرة ملايين دينار) ثم ارتفعت إلى اثنى عشر ، ثم عزل عمرو ، وجباها ابن أبى سرح أربعة عشر مليونا ، ويبدو أن هذه الزيادة لم تكن ثمرة زيادة فى الإنتاج ، بل كانت استنزافا لأرزاق الناس ، بل لم تؤد هذه الزيادة إلى إجراء إصلاحات يجب القيام بها فى الأراضى الزراعية والطرق إلخ ، ومن هنا كان تعليق عمرو بن العاص الشهير «نعم ، وهلكت فصالها» أى أن مصر تقدم أموالها للخلافة ويموت أبناؤها . لقد كانت الأربعة عشر مليونا التى جباها ابن أبى سرح إيذانا بالهبوط الاضطرارى، إذ بدأ التدهور فى الدخل العام ، فجبيت أيام بنى أمية ، وبنى العباس دون الثلاثة الآلاف ألف دينار (أى أقل من ثلاثة ملايين) . غير أن الدخل أخذ يميل إلى الارتفاع مع الاستقلال ، والنظر إلى الفسطاط أو القطائع على أنها «عاصمة» ، وعبارة الكندى واضحة دالة ، تقول : «وولاية بنى طولون ، فإنهم بالغوا فى عمارتها ، فجباها أبو الجيش (يقصد خمارويه بن أحمد بن طولون ، وقد قتل عام ٢٨٢ هـ) أربعة آلاف ألف دينار» !!

إن تعهد مصر بالإصلاح والتجديد أساس فى تنمية قدرتها على الإنتاج ، ومن ثم تقديم الأموال الوفيرة للخلافة فى دمشق ، ثم بغداد ، وقد أدرك بعض ولاتها ذلك ، وعلموا أنها لا تساس بأساليب حكم البوادى أو البلاد الحراجية التى تعيش على المطر . وهذا واضح فى خبر يسوقه الكندى ، من أن المنصور (الخليفة العباسى) كتب إلى محمد بن سعيد ، وكان يلى خراج مصر ، يستحثه بالخراج ، فكتب إليه يشكو اختلالها ، وأنها تحتاج إلى إنفاق فإنها ترد أضعاف ما ينفق !!

ولكن هذا لم يحدث . وهنا نجد أنفسنا نعود عن النتائج إلى الأسباب .. وأهمها - فيما نرى ونستنتج أيضا من كتاب فضائل مصر - سببان : اعتقاد من بيدهم أمور الدولة (الخلافة) أن الأمصار ، أو الولايات مجرد أدوات لإمدادها بالمال ، وكان أهم ما



يعنيهم من أمور تلك الولايات خضوعها للسلطة المركزية ، وتقديم الخراج هو الدليل المعلن على هذا الخضوع ، بل ربما تخوف الخلفاء من ثراء بعض الولايات ، وتنمية قدراتها ، بما يغريها - ربما - بالتفكير في الاستقلال .

ونورد هنا خبرا - على طوله - لأهميته فيما نحن بصدده ، يرجع إلى عصر سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموى) وقد ولى الخراج أسامة بن زيد (وهو غير الصحابى بالطبع) فكتب الخليفة إلى عامله يقول : احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم !! يقول الكندى «فذلك أول شدة أصابت أهل مصر» . ويستمر متعقبا هذه الإشارة الرهيبة لواحد من أعاظم خلفاء البيت الأموى ، فيذكر أن سليمان قال يوما - وقد أعجبه ما فعل أسامة (حل الدر ، والدم حتى أهلك الناس) : هذا أسامة لا يرتشى دينارا ولا درهما ، فقال له ابن عمه عمر بن عبد العزيز : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى دينارا ولا درهما ؟ قال : ومن هو ؟ قال : ذلك عدو الله إبليس ، فغضب سليمان وقام من مجلسه ، فلما توفى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وولى عمر بن عبد العزيز وجه فى عزل أسامة قبل دفن سليمان !!

التوجس من قوة مصر حين تجتمع حضارة التاريخ ، وقوة الاقتصاد ، ووفرة العمران ، وكثرة العدد ، كان يعمل عمله العكس فى نفوس الخلفاء والولاة ، فى أكثر مراحل التاريخ الوسيط ، (والقديم أيضا) .

السياسة والعاصمة

أما السبب الثانى ، وهو لا يقل أهمية فهو الموقف السياسى لمصر ، الذى تغلب عليه العاطفة ، ودوافع الإيمان الدينى ، ولا يضع اعتبارا للمصلحة ، أو التنسيق بين الاحتمالات . لقد وقفت مصر فى جانب على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وكان هذا استمرارا لموقفها فى الثورة على عثمان ، رضى الله عنه ، إذ شارك بعض أبنائها فى حصاره ، ثم قتله .. وقد كان ما هو معروف من تغلب معاوية ، واستقرار الخلافة فى بنى أمية . ومن الطبيعى ، فى حكم قام على العصبية ، وأعلن «الثأر» لعثمان شعارا ، ألا ينظر إلى مصر من موقع الرضا لا يمنع هذا أنه كان فى البيت الأقوى نفسه جناح يعشق مصر ، ويؤمن بفضلها وقوتها المنخورة ، على رأس هذا الجناح عمر بن عبد العزيز ، وقد رأينا

تعليقه الحاد ، وقراره الحاسم فى التعامل مع الوالى الذى قسا على أهل مصر ، واستنزف أموالهم ولعمر بن عبد العزيز (خامس الراشدين) موقف آخر ، كان الطرف الثانى فيه الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك ، فقد أمر هذا الخليفة باستحضار الخيول من كافة الأمصار ، وجلس يستعرضها قبل أن تجرى فى المضمار ، فلم تعجبه خيل مصر ، قال عنها : «هذه خيل ما عندها طائل ، فقال له عمر بن عبد العزيز – وهو جالس معه – وأين الخير كله إلا لهذه ، وعندها ! فقال له : ما تترك تعصبك يا أبا حفص لمصر ، على كل حال !!

ويصرف النظر عن نتيجة السباق ، وقد كانت لصالح الخيل المصرية ، التى جاءت كلها سابقة ، ما خالطها غيرها ، فإننا نكتشف أن هذا الاعتزاز بمصر كان موقفا شاملا لكل ما ينتمى إليها (حتى الخيل) ومعلنا معروفا عند الخليفة . وليس من شك فى أن موقف الخليفة الراشد الخامس كان مترتبا على خبرة مباشرة بمصر ، ومشاركة عملية لأهلها ، إذ كان والده : عبد العزيز بن مروان ، واليا على مصر عدة أعوام .

موقف عمر بن عبد العزيز استثناء ، أما مصر التى رحبت دائما باللائذين بها من أهل بيت النبى ، فقد كانت تغذى فى الأمويين ، والعباسيين معا ، الإحساس بأنها ليست معهم بقلبها ، وأن عواطفها مع غيرهم . حدث هذا ابان ثورة عبد الله بن الزبير ، فقد دخلت مصر فى دولته ، وحدث فى عصر المنصور، حين ثار عليه بالمدينة محمد النفس الزكية (من نسل الحسن بن على) وقد سبقت الإشارة إلى أن والى مصر محمد بن سعيد كتب إلى المنصور – حين استحثه على إرسال خراجها – بأنها تحتاج إلى إنفاق ، وأنها إذا أنفق عليها «ترد أضعاف ما ينفق» ، ولكن هذا لم يحدث ، فقد تصادف أن ثار «النفس الزكية» وقلق المنصور على مصير الخلافة ، واتجه القلق إلى مصر (رغم أن الثورة فى المدينة والبصرة) فكتب إلى واليه يمنعه من إجراء أية إصلاحات .

هذه بعض فضائل مصر، قبل الأزهر ، ومجاهدة الصليبيين ، ومحاربة التتار ، لم يحصها الكندى ، وإن ذكر أهمها ، لا يغيب عنه أن الحرمين ، أحق بالتقدم والفضل ، ولكنه يستبعد المقارنة ، كما يقرر حق وطنه إذ يقول :

«للحرمين (يقصد مكة والمدينة) فضلهما الذى لا يدفع ، وما خصهما الله به مما لا ينكر من موضع بيته الحرام ، وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، وليس ما فضلهما الله به بباخس فضل مصر ، ولا بناقص منزلتها ، وإن منافعها فى الحرمين لبينة ، لأنها تميرهما بطعامها وخصبها وكسوتها وسائر مرافقها ...» .



ونقمة التحديث

بقلم : د. محمد شرابى *

نادي السيارات المصرى
بشارع قصر النيل

جمعية المهندسين بشارع رمسيس

ميدان التحرير ١٩٥٥

* أستاذ العمارة فى جامعة دار مشتات بألمانيا

في الغربة ، وبينما أعيش وأعمل في وسط أوربا ، أخذت أبحث عن أصلي وبيتي .. عن بيتي ومدينتي ، وجعلت هذا البحث هو جوهر فعاليتي الحضارية وكفاءتي العلمية .

عدت إلى مدينتي القاهرة التي عشت فيها قرابة عشرين عاماً ، والتي امتزج فيها الشرق والغرب ، وأخذت أبحث عن هويتها وعمارتها ومجتمعها ، تجولت في شوارعها أتأمل عمارتها ، أرسم وأسجل وأصور كل ما يشدني إلى عاصمتي ..

وبعد سنوات من البحث والدراسة ، ها هي القاهرة ، المدينة المعاصرة التي تأرجحت عمارتها بين الشرق والغرب ، بين العقل والنقل ، بين التراث والمعاصرة .



عندما غادرت القاهرة في عام ١٩٥٧ متجها شمالاً إلى ألمانيا للدراسة ، كان عدد سكانها حوالي مليونين من البشر ، واليوم يقدر عدد سكانها بحوالي عشرين مليون نسمة يعيشون في أحياء مكتظة ، وصل الازدحام إلى حد احتلال البعض للمقابر ! .

وما يؤدي إليه الإزدحام من تلوث البيئة وظهور غمامة تخفي القاهرة الفاطمية خلف عمارات أوربية شاهقة وتوارت القاهرة القديمة خلف هذا الازدحام وخلف المباني الأوربية واختفت القاهرة الفاطمية ومن قبلها تلك الفرعونية الإغريقية اليونانية ، ثم القاهرة الإسلامية ، وظهرت القاهرة الحديثة .

وقد مرت القاهرة الحديثة بمراحل ثلاث : ما قبل الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ ، والمرحلة الثانية حتى عام ١٩٥٢ ، والمرحلة المعاصرة . أي ما بعد عام ١٩٥٢ حتى الآن .

تجسيد الفكرة الاسلامية

وسنتناول هنا القاهرة الإسلامية التي نشأت في القرن العاشر الميلادي ، والتي

خططت على أربعة أجزاء أو أحياء باستعمال محورين هما : الشرق غرب والشمال جنوب ، وهذا التقسيم أتاح إمكانية وجود السوق ، على المحورين ، خاصة محور الشمال الجنوب بين أبواب المدينة الرئيسية ، وعلى هذا المحور أيضا أقيمت أهم مبانى المدينة من مساجد ومدارس وقصور ، وأصبح هذا المحور هو قلب المدينة النابض الذى يجسد الفكرة الإسلامية بعدم وجود فارق بين الدين والدنيا ..

والملاحظ هنا أن التخطيط المعمارى يسمح بتنوع الأنشطة ويتميز بالمرونة وإمكانية تغير الوظيفة تبعا لتغير الظروف .

وظهر فى القاهرة الفاطمية نوع متفرد من المبانى الذى يجمع بين السكن والتجارة يسمى « الوكالة » أو « الربع » ، ويوجد وسط السوق أو على أطرافه ، والذى يتكون من عدة طوابق ، يوجد فى الدور الأرضى المحلات والمخازن التجارية أما الطوابق العليا فتتكون من ساكن الغرباء وهى عبارة عن غرف منفردة ، أما مساكن الأقرباء فتتكون من غرف وطوابق متعددة ، أى تتكون من عدة « فيلات » ذات فناء مشترك ، مثل وكالة (ذى الفقار) فى الجمالية . ولهذه الوكالات عادة مدخلان مدخل عام ومدخل خاص .

وتقوم هذه الوكالة علاوة على تميز عمارتها ، مراعاتها الأوضاع الاجتماعية فتضم السلاملك والحرملك فضلا عن أنها راعت ظروف المناخ ، فهى تتيح الحماية من حرارة الشمس عن طريق الظل وتراعى فى الوكالة كلا من الوظيفة والشكل والمناخ، والشكل المعمارى .

ويلاحظ أن الشارع النافذ هو القائم وسط المدينة ، أما الحارة المغلقة ، فهى أساس تخطيط الأحياء السكنية كأماكن خاصة للأهالى .

القاهرة ونابليون

وبدأت هذه الرؤية التخطيطية الدقيقة فى التغير التدريجى منذ سبعينات القرن التاسع عشر ، فرغم وصول الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ومحاولات نابليون تتم لتغيير المدينة المصرية ، ورغم توسيعه لشارع الموسكى وتسميته « رى نوف » ولكن ذلك ظل جزءاً غريبا عن نسقها ، وسرعان ما تغير واكتسب الطابع الشرقى وسمى بالموسكى .

وإذا كانت الحملة الفرنسية قد عجزت عن تغيير نسق القاهرة القديمة ، إلا أنه زرع بذرة التغيير الأساسية عندما غير النظام الإدارى والاجتماعى القائم الذى يلعب الدور الرئيسى فيه شيوخ الحارات ، واختصر نابليون الحارات من ٤٠٠ حارة إلى ثمان فى نظام إدارى جديد ، كما

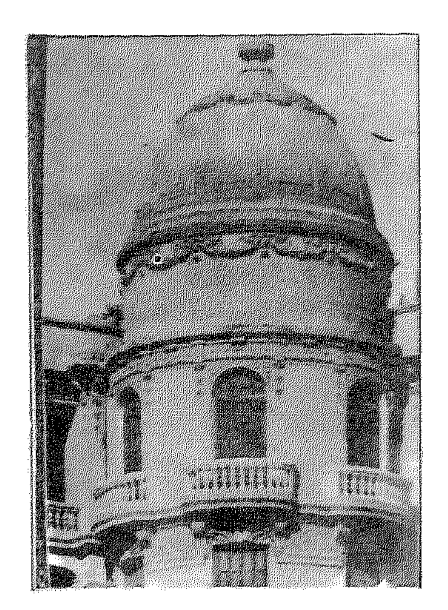
استبدل الشرطة بشيوخ الحارات ، وتحول شيخ الحارة من مساعدة الأهالى إلى مراقبتهم ، وكان ذلك بداية تغيير المجتمع الشـــرقى مما أدى إلـى تغيير طبيعة المدينة .

وتمضى الأيام ويتولى محمد على الولاية على مصر طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويسير فى العلم والفن والإدارة على النهج الأوربى ، ودعا العديد من الأوربين للعمل فى مصر ، وأوفد البعثات إلى أوربا فى كل من فرنسا وايطاليا وانجلترا ، وأقام المدارس على النمط الأوربى .

حى الأزبكية

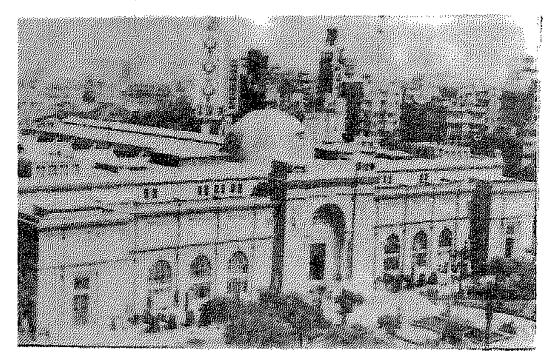
نافس محمد على نابليون وبدأ فى شق طريق على النمط الأوربى طوله حوالى كيلو مترين . يوصل ما بين القلعة مقر الحكم وحى الأزبكية الذى كان يقطنه علية القوم وبدأت تتشكل بؤرة عمرانية جديدة بجانب القاهرة القديمة .

ورغم ما أحدثه هذا الشارع من تغيير فإنه لم يمس طابعها القديم ، ومضى عهد إبراهيم باشا ، وعباس حلمى الأول وسعيد، ولم تتغير القاهرة ، حتى عصر الخديو اسماعيل ، الذى تعلم فى باريس فى كلية سانت كير ، وكان يتكلم اللغة الفرنسية أفضل من اللغتين التركية والعربية ، والذى كانت تربطه بالبارون

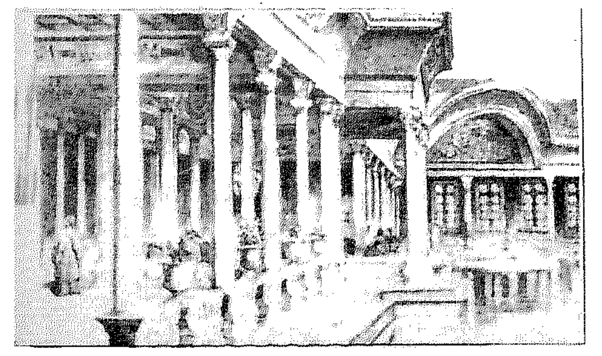


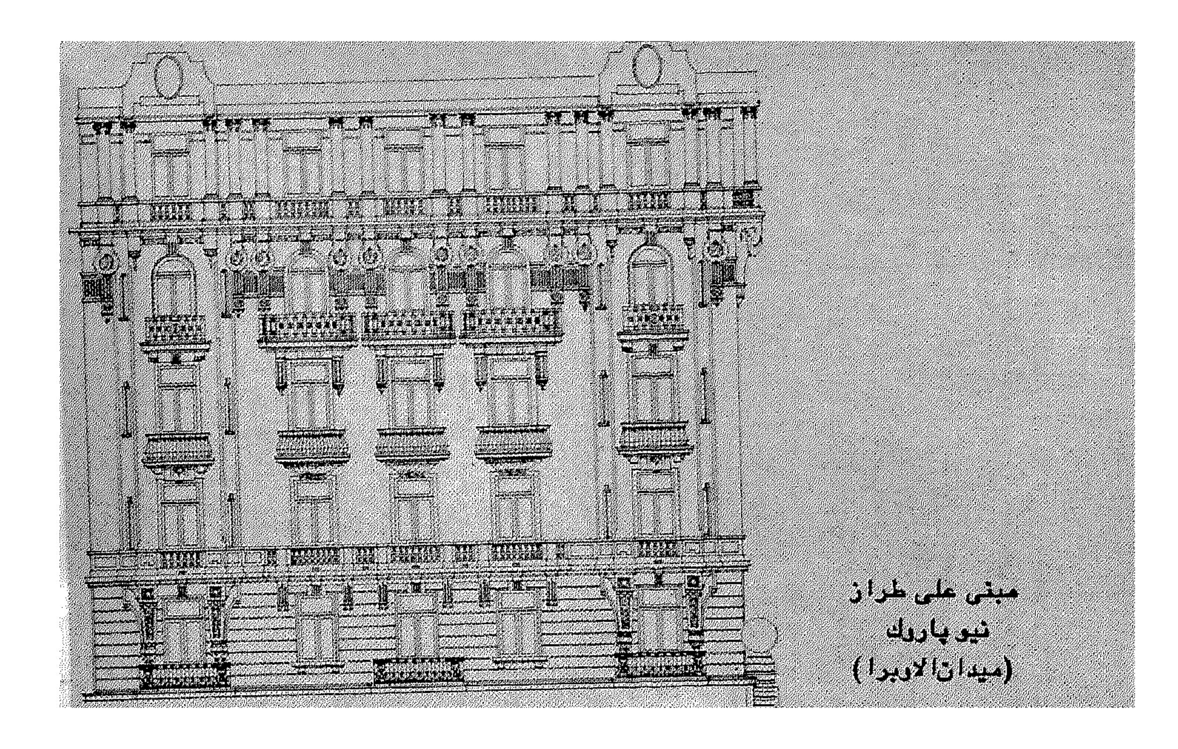
عمارة بشارع محمد مظلوم

المتحف المصرى ▽



قصر شبرا رسم سنة ١٨٧٩




مبنى على طراز
نيو باروك
(ميدان الاوبرا)

هاوسمان علاقة شخصية حميمة ، والذى صاحبه فى جولة لمشاهدة باريس الحديثة خلال المعرض العالمى عام ١٨٦٧ .

وقرر الخديو بناء قاهرة جديدة تصبح « باريس الشرق » وكلف اسماعيل المهندس الفرنسى باريلى دى شمب تخطيط المدينة الجديدة ، والتى أطلق عليها الاسماعيلية ، وأهدى الأراضى إلى من يريد البناء على الطريقة الأوربية ، وحتى سنة ١٨٧٠ لم يتم فى المدينة الجديدة سوى بعض المساكن والمحلات التجارية حول حديقة الأزبكية ، وحتى نهاية عهد اسماعيل لم يتم بناء ما يزيد على حوالى ٢٠٠ بيت فى التخطيط الجديد . كان المصريون يملكون القليل منها . وأسقط الأوربيون اسماعيل وعزلوه سنه ١٨٧٩ رغم كل ما قدمه لهم . وفى عام ١٨٧٦ تم إعلان إفلاس الحكومة المصرية .

وحكم الإنجليز مصر بعد هزيمة الثورة العرابية ، وازدهرت الزراعة وتدهورت الصناعة ، ولم يهاجر أهل الريف إلى القاهرة ، وكان يقدر عدد سكان القاهرة فى أواخر القرن الماضى بحوالى ٦٠٠ ألف نسمة ، وتزايد عدد الأوربيين والأجانب فى العاصمة وكان يقدر عددهم بحوالى ٣٠ ألف نسمة ، والذين فضلوا السكن فى المدينة الحديثة ، فى كل من حى الاسماعيلية وحى التوفيقية الذى أقامه توفيق ، والتى أقيمت مبانيهما على الطراز الأوربى ، وأقامها مهندسون فرنسيون وايطاليون وانجليز ، وأصبحت هذه الأحياء

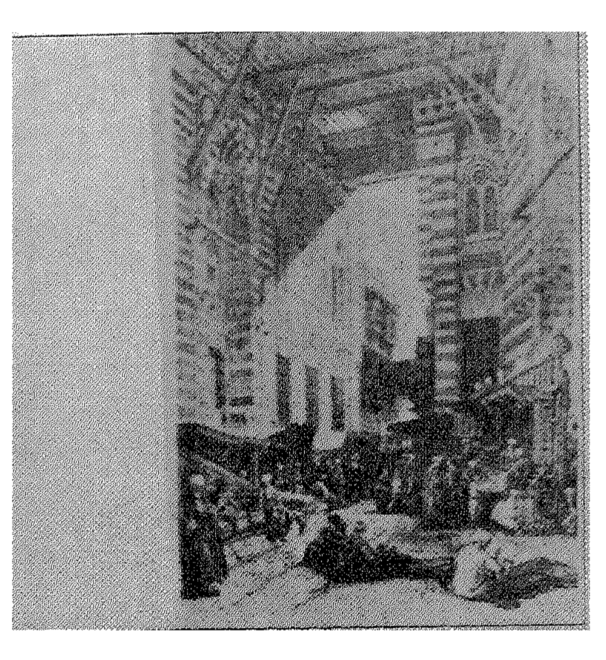
تقارن فى عمارتها وتنافس ماكنا نراه فى فرنسا وايطاليا وتكونت القاهرة الأوربية للأجانب ومساعديهم من المحليين وسكن معظم الأهالى القاهرة الفاطمية أو مصر القديمة ، واختلف الوضع منذ الخمسينات، عندما تزايد عدد سكان العاصمة ، وعقب إقامة أحياء سكنية جديدة على أطراف القاهرة والتى ربطت قلب العاصمة بالترام أو الحافلات وتخلى أعيان وأغنياء القاهرة عن أحيائهم ومنازلهم القديمة لعدم توفر المرافق الحديثة مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحى .

فتدهورت الأحياء القديمة ، وتساقطت مبانيها ، وهى الصورة المحزنة التى تتكرر فى معظم العواصم الشرقية .

ورغم حصول البلاد على إستقلالها ، فإن الآثار الاستعمارية الاقتصادية والسياسية والحضارية ، جعلت المجتمع المصرى يتأرجح ولا يستقر بين كل من الغرب والشرق وقامت مدينة ثالثة ليست القديمة الاسلامية وليست الأوربية الحديثة ، وتضم كلتيهما وإن كانت أبعادها الحضارية غير ملموسة ، ولا يمكن تعريفها وتحديد معالمها مثل القاهرة الفاطمية أو تلك الأوربية .

وتضـم القـاهرة اليوم ما يزيد على ٣٠ ٪ من سكان البلاد ، وهى تحتاج إلى رؤية جديدة ومرافق جديدة ، وهى ليست بالقطع التقليد الأعمى لطرق تخطيط المدن الأوربية أو الأمريكية !

لقد كانت القاهرة حتى حوالى عام

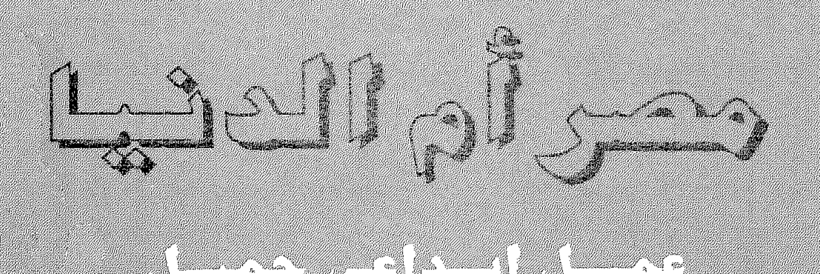


سوق الحرير رسم ١٨٣٩

١٨٧٠ مدينة متكاملة ومحددة المعالم والطراز تضم مجتمعاً قديماً عريقاً ، ثم نشأت مدينة جديدة على الطراز الأوربى ، ولخدمة أغراض الأوربيين تمثل التخطيط والعمارة الأوربية الناتجة عن الفكر القائم فى القرن التاسع عشر .

ومنذ منتصف القرن العشرين إضطربت الأحوال واختلط القديم والجديد وتدهورت المدينة القديمة ، وتلوثت المدينة الأوربية وتغيرت معالمها وعمارتها ، أى انقرضت القديمة أو كادت ، وتغيرت الحديثة .

وحان الوقت للتفكير فى قاهرة القرن الواحد والعشرين بأسلوب جديد وتصور حديث .



مصر أم الدنيا

عمل إبداعى جميل

بقلم : عبده جبير

جامع ابن طولون في لقطة دالة : لا تعزله عن المحيط ولا عن المدينة التي هي جزء منها، وهنا تميز هذه اللقطة

فتياتنا وفتياننا الذين هم بين سن ١٢ إلى ١٦ سنة هم أكثر الناس ظلما فى مجتمعنا العربى الهمام ، ليس فقط لأنهم يعانون من التسلط الأبوى الذى يكبس على أنفاسهم بسبب تحلل قيمة الحوار بين جميع أطراف هذا المجتمع العربى ، وأصحاب هذه السن هم أكثرنا حساسية ورقة ، فهى فترة المراهقة التى إما أن تنتهى بالنعيم أو بالجحيم ، بل وأيضا لأن الاهتمام الثقافى بهم يكاد يكون معدوما .

الغريب أن الأطفال ، من سن ٥ إلى ١٢ ، لهم عشرات من المجلات ، والكتب وبرامج التليفزيون والإذاعة ، أما أصحاب هذه السن فليس لهم (على الأقل فى مصر) شئ يذكر ، وأكاد أجزم ، على الإطلاق ، على الرغم من أن أعضاء هذا الفريق يشاركون فى كثير من برامج التليفزيون بالتمثيل ، لكنهم يتوجهون بكلامهم إلى من هم أصغر سنا ، لا لأقرانهم . وهو أمر مدهش لو تأملناه .

لم هذا الإجحاف ؟

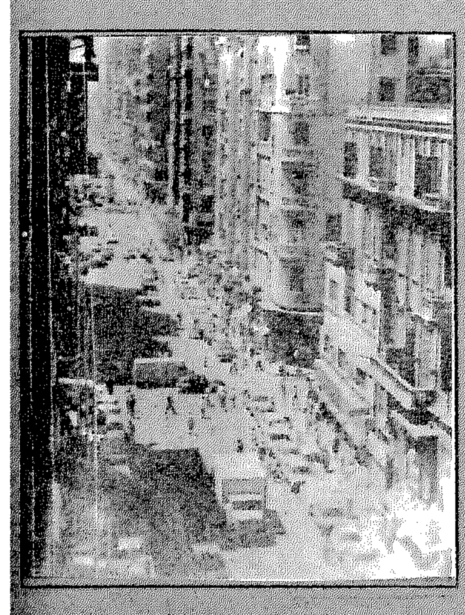
هل لأن هذه السن تحتاج إلى كتابة حساسة جدا ، وأصحاب هذه الكتابة الحساسة جدا ، نادرون عندنا ، أم لأن ذكاء هذه الفئة يستعصى على الأقلام ، ففى هذه السن لا يمكنك أن «تفشر» أو تشطح ، كما أنك إذا لم تراع الدقة تعرضت لنقد مراهق صريح وقد يكون جارحا .



أحد شوارع الجمالية : هنا أيضا الطابع الإسلامى للحى القديم مع اللمسة الإنسانية التى ترفرف بها أعلام الطيبة المعلقة بين البيوت .

على أى حال أشير هنا إلى مجهود خاص تبذله دار الفتى العربى ، إذ تتوجه لهؤلاء المراهقين بعدة سلاسل ، على رأسها سلسلة روايات عالمية ، وروايات علمية ، هذه السلسلة الجديدة «المدن العربية» التى تفتتح بكتاب أول عن مدينة القاهرة ، وقصتها عبر ١٣٠٠ عام .

فى هذا الكتاب لجأت الدار إلى الأسلوب العلمى الصحيح ، الذى يبدأ باختيار الكاتب ، فلجأت للدكتورة «نللى حنا» التى كرست عمرها كله لتاريخ القاهرة المعمارى والثقافى والفنى ، وهى بالتالى قادرة على الوصول إلى المعلومات الصحيحة الدقيقة ، كما امتازت بلغة علمية بسيطة لا تلجأ للبهرج اللغوى ، أو «الأسلوب الإنشائى» الفارغ ، بل إلى الأسلوب المباشر الواضح لتعرض قصة القاهرة ضمن منطق واضح ومختصر ، مما جعل للكتاب قواما حيا مشدودا ، أى أصبحت الكتابة هنا عملا إبداعيا وإضافة . لا مجرد تلخيص لما كتبه الآخرون ، أو إستعراضا لمادة جافة تدفع للنفور ، والمقياس لهذه الجاذبية العلمية والإبداعية كان واضحا ، حين عرضت الكتاب على فتى فى الرابعة عشرة ليتصفحه ، فإذا به يتنحى جانبا بالكتاب ويلتهمه ، ورأيت الشوق فى عينيه . والاستغراق فى ملامح وجهه ولم يتركه حتى انتهى منه تماما ، ونطق كلمة الإعجاب التى تلخص الموضوع برمته : الله .



شارع عماد الدين : قاهرة العصر الحديث، لا تزال هذه المبانى تشكل ما تطورت إليه العاصمة المصرية فى القرن الماضى

نعم ، نقول للكاتبة سلمت يداك ، وللدار أحسنت الاختيار ، وكانت الصور (بالأبيض والأسود) المصاحبة للكلام : صور مبدعة حقا ، علاوة على قيمتها التاريخية ، إلتقطتها عينا فنانة حساسة من زوايا خاصة ودافئة ، وبهذا أضافت راندا شعث بعدستها الحميمة بعدا جديدا على هذا العمل الفنى ذى القيمة الكبيرة ، وهنيئا لفتياتنا وفتياننا بهذا العمل البسيط الجميل المتفرد ، ولنتأمل بعض هذه اللوحات البارعة .

ضريح الظاهر بيبرس بالجمالية : مرة أخرى ، الأثر ليس معزولا عن البشر ، والعمارة والناس في تضافر فريد



أمين سامى وتقويم النيل

بقلم : على بركات(*)

أغسطس هو شهر « وفاء النيل » اعتاد المصريون منذ قديم الزمان على تقديم القرابين والهدايا ، حتى يفيض النيل وتمتلىء جنبات الوادى بمياهه رمزا للخير والنماء .

نقدم على صفحات « الهلال » أهم كتاب مصرى صور النيل وفيضان النيل ورصد أحوال النيل على مر العصور .

« الهلال »

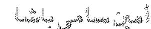
فى عام ١٨٧٥ أنشئت الجمعية الجغرافية للعناية بالأبحاث الجغرافية ، والأبحاث العلمية بشكل عام ، وكان من باكورة أعمالها نشر بحوث تاريخية وأثرية لمؤرخين وأثريين مصريين من أمثال محمود الفلكي وأحمد كمال .

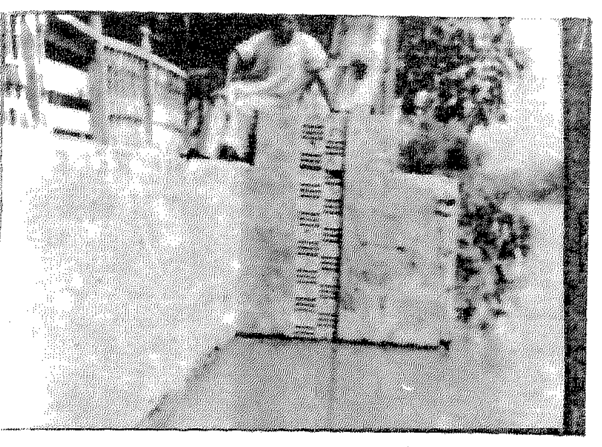
(*) أستاذ التاريخ الحديث بجامعة المنصورة .



تمثال النيل - متحف الفاتيكان




أمين سامي باشا


مقياس النيل بالروضة

وشهد القرن التاسع عشر كتابات تاريخية تختلف من حيث المنهج عن كتابات المؤرخين السابقين ، كما ظهر نوع جديد من الكتابة التاريخية يمكن أن يصنف ضمن المذكرات السياسية كتبها بعض الذين عاشوا تجربة الثورة العرابية وعاشوا أحداثها من أمثال أحمد عرابى وعبد الله نديم والشيخ محمد عبده ومحمود فهمى .

فى هذا المناخ الفكرى والثقافى ولد أمين سامى من أب ينتمى الى تلك الشريحة الاجتماعية الصاعدة فى القرن التاسع عشر وهى شريحة أعيان الريف التى قدمت لمصر أبرز قادتها ومفكريها من أمثال أحمد عرابى وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد .

ولد أمين سامى حسب رواية الزركلي - بقرية البرادعة من قرى القليوبية وكان أبوه محمد حسن شيخا لهذه القرية كما كان جده الشيخ حسن البرادعى شيخا لهذه القرية من قبل .

وليس لدينا كثير من المعلومات عن طفولة أمين سامى ومراحل تعليمه الأولى لأن أمين سامى لم يترك ترجمة لحياته وان كان يمكن القول أنه تلقى تعليمه المبكر فى كتاب القرية مثل غيره من أبناء أعيان الريف خلال تلك الفترة ، ثم التحق بالمدارس الحديثة بمعنى أنه لم يتلق تعليمه فى الأزهر بحيث تشير المصادر الى أنه التحق بمدرسة الهندسة بالقاهرة بعد أن أتم تعليمه الثانوى ، وبعد تخرجه من مدرسة الهندسة عين مدرسا بمدرسة المساحة ببنى سويف خلال عصر اسماعيل ومكث بهذه الوظيفة خمس سنوات ، ثم نقل خلال عصر توفيق الى مدرسة الناصرية بالمبتديان والتى كانت تقبل أبناء الصفوة والأعيان ، وكان مستواها من حيث التعليم أفضل من غيرها باعتبارها مدرسة نموذجية . وما لبث أن أصبح أمين سامى مديرا لهذه المدرسة وهو المنصب الذى ظل يشغله لمدة

ربع قرن ، ثم أصبح لفترة من الوقت مديرا لدار العلوم وبالتالى ارتبط بالصفوة ودوائر المثقفين فى مصر .

وقد بذل أمين سامى جهدا فى اصلاح التعليم الابتدائى والثانوى فى عهد توفيق وفى عهد عباس حلمى الثانى كما بذل جهدا فى اعادة تنظيم دار العلوم التى تسلم ادارتها من مصطفى فهمى (شغل مصطفى فهمى منصب رئيس مجلس الوزراء بعد ذلك) .

ويبدو أنه قد حصل على رتبة الباشوية خلال تلك الفترة حوالى عام ١٩١٠ عندما كان لا يزال يشغل منصب ناظر المدرسة الناصرية بالمبتديان .

ويشير الزركلى الى أن أمين سامى قد أصبح لفترة من الوقت عضوا فى مجلس المعارف الأعلى ويبدو أن شغله لهذا المنصب قد مكنه من أن يلعب دورا فى اصلاح التعليم .

وفى أعقاب الاستقلال ناصر أمين سامى فكرة تعليم المرأة وفتح باب التعليم العالى أمامها وهى الفكرة التى كان أحمد لطفى السيد متحمسا لها . وقد ظل أمين سامى نشطا فى الحياة العامة ومن ثم تم اختياره عضوا بمجلس الشيوخ لهيئتين برلمانيتين الأولى ١٩٢٤ - ١٩٣٠ والثانية ١٩٣١ - ١٩٣٤ .

وفى المجال الاقتصادى كان أمين سامى من أنصار بذل أقصى الجهود للنهوض بالزراعة المصرية لأهميتها فى الاقتصاد المصرى ويبدو أن هذا الاهتمام كان وراء انجازه لكتاب « تقويم النيل » وهو تسجيل لتاريخ النيل والجهود المبذولة للسيطرة على النهر وفيضانه .

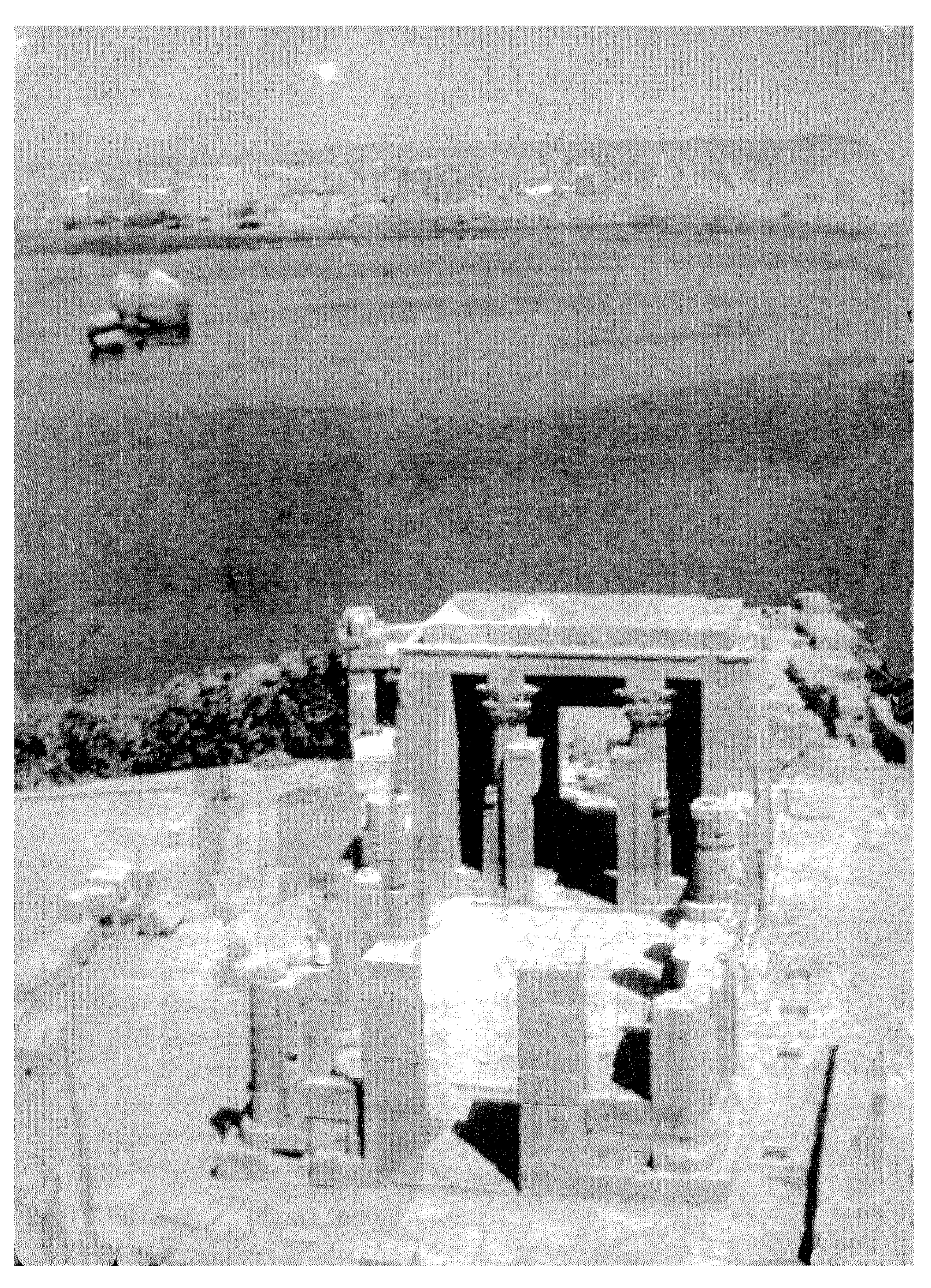
وقد استغرق اعداد تقويم النيل أكثر من ٢٥ عاما من حياة أمين سامى كما جاء فى مقدمة هذا العمل .

تقويم النيل

يقع تقويم النيل فى حوالى ٢٧٣١ صفحة من الحجم الكبير بخلاف الفهارس والمقدمات .

ويتكون من مقدمة وثلاثة أجزاء وخاتمة .

وتتضمن المقدمة التى تقع فى ١٣٤ صفحة جداول احصائية لفيضان النيل والتحاريق منذ العام الأول البحرى الذى يوافق عام ٦٤٠ م وحتى عام ١٩١٥ م ، وعلاقة الفيضان كل عام بحالة البلاد الاقتصادية من حيث الرخاء والقحط وما أورده المؤرخون عن ذلك ، كذلك تشمل المقدمة تفاصيل عن جغرافية مصر ومناخها ورياحها . ثم متابعة تاريخية لخراج مصر وارتباط ذلك بفيضان النيل مع التعرض للأحداث الهامة المرتبطة بهذا الموضوع خلال عصر الولاة ثم العصر الفاطمى ثم العصر الأيوبى والمملوكى كما تتعرض لعملية مسح الأرض خلال العصر المملوكى وخاصة الروك الناصرى وروك السلطان شعبان . وتتناول المقدمة العصر العثمانى فى عجالة ثم عملية مسح الأرض فى عصر محمد على ونتائجها ، وتطور تعداد السكان منذ الحملة الفرنسية وخلال عصر محمد على ونتائج تعدادات ١٨٨٢ ، ١٨٩٧ و ١٩٠٧ ، ١٩١٥ . ثم زمام الأراضى الزراعية عام ١٩١٤ م ، ومن



الواضح أن الموضوعات التى طرحها أمين سامى فى المقدمة كانت هى الموضوعات التى سوف تحظى باهتمامه فى الأجزاء التالية .

ويتضمن الجزء الأول الذى يقع فى ٢٥١ صفحة عرضا لتاريخ مصر منذ عام ٦٢٢ م تاريخ فتح العرب لمصر حتى عام ١٥١٦ م تاريخ الفتح العثمانى لمصر . مركزًا على فيضان النيل ووقت التحاريق فى كل عام ، وأسماء من تولوا حكم مصر مع معلومات تاريخية عن كل سنة فى شكل حوليات وقد صدر الجزء الأول والمقدمة فى كتاب واحد عام ١٩١٦ . وقد اعتمد أمين سامى فى هذا الكتاب على المصادر الاسلامية المعروفة .

ويسير أمين سامى فى هذا الجزء على أساس تخصيص صفحة لفيضان النيل وأسماء الولاة ومدة حكمهم . ثم أهم الأحداث التاريخية فى عهد كل حاكم ولا يزيد الجزء الأول عن كونه اعادة عرض لمادة علمية معروفة بعد مراجعتها باستثناء المعلومات التى أوردها عن النيل .

ويتناول الجزء الثانى : تاريخ مصر والنيل منذ الفتح العثمانى وحتى نهاية عصر محمد على وجاء تحت عنوان تقويم النيل وعصر محمد على ، ويقع فى ٦٢١ صفحة من الحجم الكبير ونشر عام ١٩٢٨م . وفى هذا الجزء يشير أمين سامى الى المصادر والمراجع التى استقى منها مادته العلمية بشكل أكثر شمولا ووضوحا مثل كتابات ابن اياس ونيقولا ترك والجبرتى . كما يشير أمين سامى الى أنه استفاد من كتابات بعض المصادر الإوربية مثل كتاب كلوت بك لمحة عامة عن مصر وكتاب المستشرق النمساوى «يوسف فون هيمر» « من تاريخ الدولة العثمانية » .

وتلقى فترة حكم محمد على عناية خاصة فى هذا الجزء ويظهر فيها الاعتماد بشكل واضح على الوثائق . كما تظهر الوقائع من بين المصادر التى استعان بها أمين سامى فى هذا الجزء ، ويقدم هذا الجزء معلومات عن الزراعة والرى وتعداد السكان وأسعار القطن وتطوير القوة العسكرية البرية والبحرية . والبعثات التى أرسلها محمد على وأسماء طلابها والتعريف بهم . فضلا عن أخبار فيضان النيل الذى يشير اليها الكتاب فى شكل حوليات وينتهى الكتاب بملخص لأعمال محمد على فى كل النواحى .

والوثائق التى أوردها أمين سامى فى هذا الجزء مرت دون تعليق من جانبه .

أما الجزء الثالث فيقع فى ثلاثة مجلدات تغطى الفترة من ١٨٤٨ - ١٨٧٩ ويقع فى ١٥٧٥ صفحة خصص المجلد الأول منها لعصرى عباس وسعيد وخصص المجلدين الثانى والثالث لعصر اسماعيل .

وقد صدرت المجلدات الثلاثة عام ١٩٣٦ م . ويعتمد هذا الجزء على الوثائق الأصلية التى عمل المؤلف عليها بشكل متصل ابتداء من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩٢٨ م فى دار المحفوظات بما فيها من وثائق عربية وتركية والمجلد يتناول الى جانب أخبار النيل ومشروعات الرى أخبار التعليم فى مصر والحرف وأسماء مديرى

المديريات وكبار موظفى الدولة والإدارة العليا .

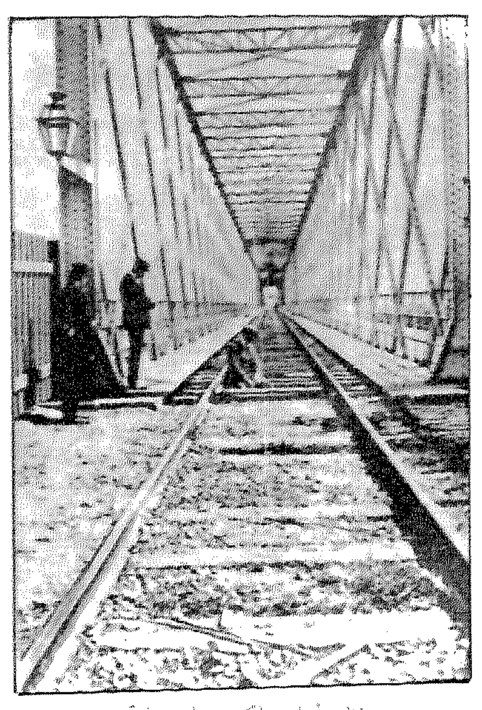
والوثائق التى يعرضها أمين سامى فى هذه الأجزاء تمر بدون تعليق مثل الجزء السابق . ويسير التأريخ فى هذا الجزء أيضا بنظام الحوليات .

أما الخاتمة فقد جاءت فى شكل ملحق يقع فى ١٥٠ صفحة صدر عام ١٩٣٦ تتبع فيه المؤلف محاولات التحكم فى النهر منذ أقدم العصور من خلال تناول الجسور والقناطر والخزانات التى تمت اقامتها على النيل وفروعه في مصر والسودان مدعمة بالصور والخرائط ابتداء من عهد محمد على على الرغم من أن عنوان الكتاب يشير الى أنه منذ أقدم العصور .

ويبدو أن أمين سامى كان ينوى أن تمد الفترة الزمنية التى أرخ لها حتى عام ١٩١٤ م ، فمن ناحية يذكر فى المقدمة أنه وضع تقويما للنيل ابتداء من أول التاريخ الهجرى حتى سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، كما أن الجداول التى وضعها للنيل تستمر حتى ١٩١٤ م ، وكما حدد ذلك فى صفحة الغلاف ، ومن ناحية ثانية يقول أمين سامى فى نهاية المجلد الثالث من الجزء الثالث : « انتهى المجلد الثالث من الجزء الثالث من كتاب تقويم النيل ويليه الجزء الرابع وأوله ولاية سمو محمد توفيق باشا على مصر » .

إعادة التنظيم

لكن من الواضح أن الجهد الذى بذله أمين فى الجزء الثالث الذى جاء فى ثلاثة



منظر أمامى لكوبرى امبابة القديم على النيل فى القاهرة

مجلدات بلغت أكثر من ١٥٧٥ صفحة من الحجم الكبير قد استغرق جهدا ووقتا أكثر مما قدر المؤلف كما أن أمين سامى انتهى من هذا الجزء عام ١٩٣٦ م وكان قد بلغ من العمر ٧٩ عاما ، وبالتالى أصبح غير قادر على مواصلة هذا الجهد الخارق الذى بدأه ، حقيقة نشر أمين سامى كتاب أخر عام ١٨٣٨ أسماه « مصر والنيل » لكن الحقيقة أن هذا الكتاب لا يقدم الكثير عما قدمه سامى فى كتابه السابق تقويم النيل بل ان بعض مادته العلمية مأخوذة بشكل مباشر من تقويم النيل كما أشار الى ذلك فى أكثر من موضع مع اعادة تنظيمها وجدولتها باستثناء الاضافات التى قدمها

حول التعليم .

وقد أوضح أمين سامي في أكثر من موضع جوانب من الصعوبات التي واجهته خلال اعداد كتاب تقويم النيل فهو يقول في المقدمة : « هذا الكتاب ضمنته حصيلة جهدي مدة ربع قرن من الزمان كاتبا ومنقبا في جمع الحقائق التي تهم الناس معرفتها مقتحما كلما اقتضت الحالة مشقة الأسفار الى خزائن الكتب في حواضر أوربا وغيرها » .

ثم يقول في موضع آخر : « ان تكوين عناصر الجزئين الأول والثاني من الكتاب اقتضت منه التردد على دار المحفوظات خلال الفترة ما بين عامي ١٨٨٠ م و ١٩٢٨ م وكذلك على مصلحة المساحة ، وفي هذا الاتجاه يذكر أنه حصل على المادة العلمية اللازمة للكتاب من خلال استمرار بحثه في دار المحفوظات (الدفتر خانة) ابتداء من عام ١٨٨٠ م بموجب أمر من أحمد خيري باشا رئيس ديوان الخديوي توفيق لاستجماع الأوامر الصادرة بتنظيم أمور حكومة مصر في عهد محمد علي باشا ، وثانيا بموجب أمر من ناظر المالية بتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٩١٠ م بالتصريح بالبحث عن كل ما يحتاجه تقويم النيل من الوجهة العلمية والتاريخية .

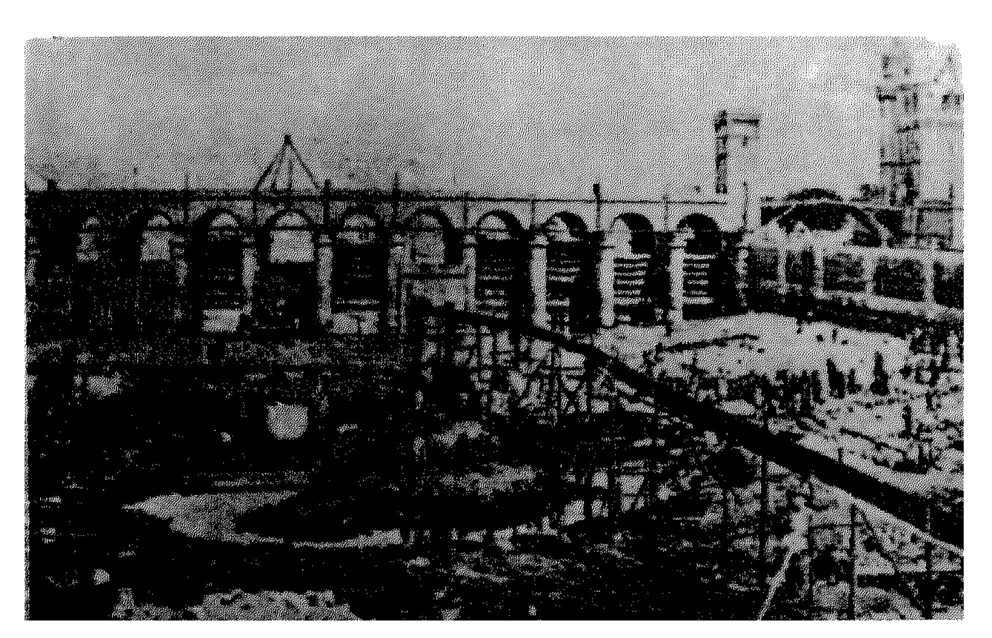
ويقول أمين سامي أن بيان تطور القوة العسكرية المصرية الذي أورده في نهاية الجزء الثاني من تقويم النيل قد استغرق إعداده ستة شهور من واقع دفاتر قيودات الأوامر العلية ودفاتر تحريرات وقيد الكشوفات بالمعية من بعض جرايد قيودات الجهادية بدار المحفوظات وشارك فيه ستة ناسخين ممن يعرفون العربية والتركية عملوا تحت اشراف رئيس قلم تركي الدفترخانة وقتئذ .

كما يقرر أمين سامي أنه استعان بالمستشرق كاتريمر في نقل بعض المعلومات التي تتعلق بالنيل عن الفترة من عام ٢٠ هـ الى عام ٨٥٦ هـ .

كما استعان بأحمد زكي (كاتب سر رياسة مجلس الوزراء عام ١٩٠٤) في مراجعة بعض البيانات عن الفترة من ٢٠ – ٣٦٥ هـ في المكتبة الوطنية في باريس .

ومن حيث المصادر حاول أمين سامي الاستفادة من أرشيف بعض الأسر التي تولى مؤسسوها الادارة الهندسية في بداية عهد محمد علي للحصول على معلومات تتعلق بفيضان النيل خلال الفترة ما بين عامي ١٨٠١ – ١٨٢٤ م من أمثال لينان باشا وثاقب باشا ومحمد عبد الرحمن بك ، كما يفهم مما كتبه أمين سامي أنه استفاد من الرواية الشفوية في كتابه تقويم النيل .

فهو يقول تعليقا على موضوع تنبؤ رفاعة رافع الطهطاوي وهو في السودان بنهاية الوالي « عباس الأول » عقب انتهاء رفاعة من ترجمة رواية « تليماك » يقول أمين سامي : « وقد سمعت ذلك من صهري المرحوم ابراهيم سالم بك الذي كان أحد المدرسين معه في الخرطوم وسمعت ذلك من رفاعة بك بمنزله بمهمشة بضواحي القاهرة » .



صورة للبوابات القديمة المستعملة بفرع رشيد على النيل

علاقة مصر بالنيل

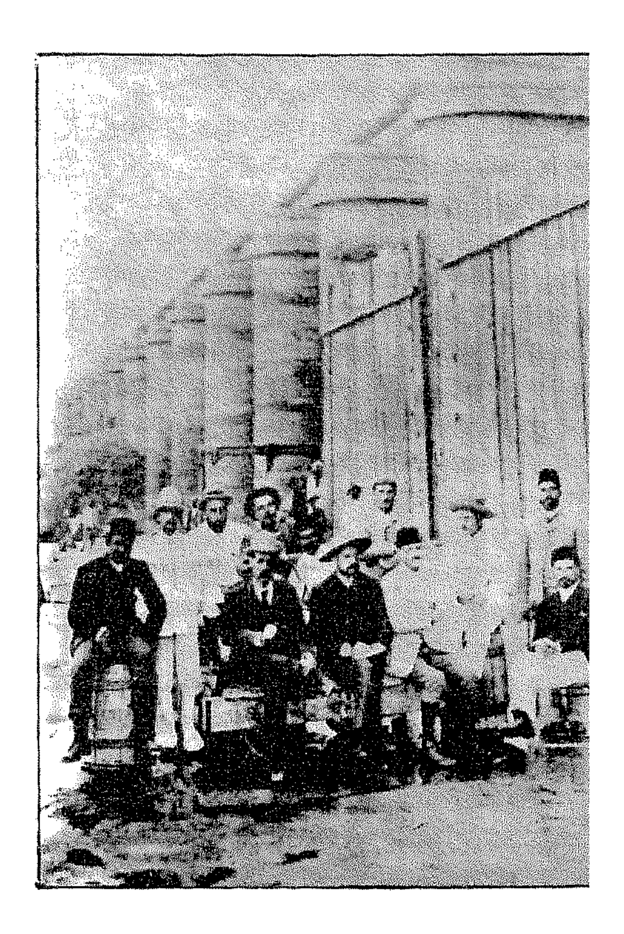
وهكذا يكون أمين سامي قد رجع الى كل المصادر المعروفة في كتابة التاريخ من الكتب المنشورة الى الوثائق ، ثم أرشيف الأسر ، وأخيرا الروايات الشفوية .

وفي تقويم النيل تابع أمين سامي من خلال الوثائق والمصادر عددا من القضايا المحورية .

أولها : علاقة مصر بالنيل من خلال عرض تاريخي غير مسبوق للمعلومات الواردة عن النيل وفيضانه ومستوى كل فيضان وعلاقة الفيضانات برخاء مصر أو ازدهارها أو تدهورها وانحلالها اذ ما جاء الفيضان ضعيفا وما ترتب على ذلك من قحط ومجاعة ، وأثرها على أوضاع مصر الاقتصادية وتعليقات المؤرخين في شتى العصور على ذلك . ويبدو أن الاهتمام بالنيل ومناسيبه ومقاييسه كان نابعا من طبيعة تخصصه ودراسته كمهندس ، فضلا عن أهمية الماء في مجتمع يعتمد على الزراعة كمصر .

ثانيا : تاريخ التعليم وهو اهتمام يرجع الى الدور الذي لعبه أمين سامي في التعليم وفي هذا الاتجاه قدم معلومات مستفيضة عن النظام التعليمي في عصر محمد على والبعثات التي أرسلت الى أوربا والتعريف بأعضائها .

ثالثا : متابعة الصفوة الحاكمة من خلال عرضه لأسماء مديري المديريات وكبار القادة وشاغلي المناصب العليا في الجيش والادارة سنويا خلال الفترة من



المهندسون الذين قاموا
بتقوية القناطر الخيرية

نهاية حكم محمد على وحتى نهاية حكم اسماعيل .

رابعا : رصد عملية إحلال المصريين فى المناصب الادارية خلال عصر سعيد بدلا من الأتراك والشراكسة بدءاً بمناصب نظار الأقسام ثم مديرى المديريات .

خامسا : تطور تعداد سكان مصر وتطور مواردها وعمليات مسح الأرض ومحاولة ايجاد شكل من العلاقة بين مساحة الأرض وتعداد السكان .

سادسا : تطور القوة العسكرية المصرية خلال عصر محمد على وحتى قرار سلطات الاحتلال حل الجيش المصرى فى سبتمبر عام ١٨٨٢ م عقب احتلال الانجليز للقاهرة ، الى غير ذلك من القضايا التى تمتد أحيانا الى أسعار الحاجيات والعملة المتداولة فى فترات مختلفة .

أما القضية الأخيرة التى يمكن مناقشتها فى هذا السياق فهى منهج أمين سامى فى إعداد هذه الموسوعة من تاريخ مصر .

منهج أمين سامى فى كتابه تقويم النيل

حدد أمين سامى فى المقدمة ثلاثة أهداف دفعته الى كتابة تقويم النيل :

١ - وضع تقويم للنيل يتضمن تحاريقه وفيضانه كل عام ابتداء من العام الأول للهجرة (٦٢٢ م) وحتى عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، معتمدا فى ذلك على ما دونه مؤرخو مصر « ألا ما عز وجوده » على حد قوله .

٢ - ذكر شذرات عن الأحداث الصحيحة التى حصلت بمصر منذ أواخر العصر الرومانى وحتى التاريخ السابق ، ومعنى ذلك أنه لن يتناول كل الأحداث التى وقعت خلال تلك الفترة ، أى أنه سوف يتبنى منهجا يقوم على الانتقاء .

٣ - علاقة مصر بالنيل والنتائج التى يمكن أن تترتب على هذه العلاقة وأثرها سلبا أو ايجابا على مصر وسكانها بما فى ذلك عمليات ترويض النهر . وهو هدف يكمل الهدف الأول . وفى موضع آخر حدد أمين سامى المنهج الذى اتبعه فى تناول الأحداث التاريخية مؤكدا على عدم سلوكه سلوك المؤرخين السابقين الذين قسمهم الى ثلاث مدارس :

١ - التراجم وهى المدرسة التى تقوم على كتابة تراجم للأعيان وأهم أعمالهم وتاريخ مولدهم ووفاتهم دون تناول الخلفية التاريخية التى عاشوا فيها .

٢ - كتابة التاريخ بطريقة القصة أو الرواية « من غير نظر الى ترتيب سلسلة الحوادث التى يقتضى بعضها بعضا » .

٣ - مدرسة ابن خلدون - وان كان لم يشر اليها صراحة - والتى تقوم على ربط الأسباب بالنتائج وضرب لذلك مثلا بقيام الدولة العباسية وازدهارها حيث ذكر أمين سامى أن الدولة العباسية انتصرت عندما كان العباسيون حديثى عهد بالمدنية فلما انغمسوا فى الترف وتركوا الجهاد انهارت دولتهم ، ويقول أمين سامى انه استفاد من هذه المدارس الثلاثة فى كتابه تقويم النيل مركزا على العصر الحديث ، والتاريخ عند أمين سامى هو محاولة لاسترداد الماضى بطريقة عقلية حيث يقول :

« وقد فصلت فى تلك الشذرات الحوادث المهمة من التاريخ بطريقة تترك أثرا مطبوعا على صفحات قلوب المطلعين وتبعث أولئك الذين طواهم اللحد منذ قرون مضت فتدب بهم الحياة والقوة وكأنك بهم يشخصون على مسرح التخيل أفعالهم السابقة » . فتطبع ذكرى الشهيد منهم المستحق الذكر على مرآة المخيلة .

من هنا فالتاريخ عند أمين سامى هو تاريخ عظماء الرجال ومشاهيرهم « خصوصا فى بلاد لا يعرف الرجل صاحب المواهب فيها المستحيل » .

ثم يستدل على ذلك بما فعله « ساكن الجنان محمد على باشا » الذى انتشل مصر من وهدة الانحطاط ثم هو يؤكد هذه الجزئية مرة أخرى حيث يقول : « ما من انقلاب ميمون الا كان منبعثا عن حرب متوجا باسم فاتح فان أعظم الرجال الذين تركوا من بعدهم من جميل الذكر ما يبهر العقول والفكر مثل الاسكندر وقيصر وشارلمان ونابليون كانوا قبل كل شىء محاربين » . ومن هذه الزاوية نجده يدافع عن حروب محمد على ومشروعاته الخارجية .

والحقيقة أن تقويم النيل من هذه الزاوية يعتبر شكلا من أشكال الكتابة التاريخية التسجيلية ، ويقوم على تسجيل كم هائل من المعلومات التاريخية الموثقة والمستقاة من مصادرها الأصلية والتى قد يصعب على الباحثين فى الوقت الحاضر العثور عليها ، نظرا للتطورات التى مرت بها الوثائق المصرية فى الفترة الأخيرة ويكفى أن نعلم أن أمين سامى كان أول مصرى يطلع على هذا الكم من الوثائق ويقوم بنشرها وبذلك يكون تقويم النيل عملا مرجعيا على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للباحثين فى التاريخ المصرى ، فضلا عن كونه عملا موسوعيا لا يشاركه فى ذلك سوى الخطط التوفيقية .



رحلة إلى روح وأرض مصر [١٨٥٠]

بقلم : ماجدة الجندى

أوقعنى ماكسيم دى كامب Maxime Du Camp فى حيرة ما بعدها حيرة .. فعند أى من سطوره أتوقف وعن أيها أتغافل وكل مكتون كتابه « النيل » يشى « ببصيرة » نفاذة - فى غير خدش - للب ما يراه عبر النيل وعين تستشرف الجميل والنيل بغير أن تخاصم الصدق وحدس يجيد الإصغاء حتى « لوشوشات » الطيور و « غمغمات » « النيل » حقيقة كان النيل هو « الدرج » و « الطريق ».

منذ وصل ماكسيم دى كامب من مرسيليا إلى الإسكندرية لكن « مصر » : الضفتان .. المروج والصحراوات البشر والأبنية والآثار هى ما سعى إليه .

فى عداد الرحالة والمسافرين الذين اجتذبهم الشرق سبقه كثيرون لكن حنين ماكسيم دى كامب إلى بلاد الشمس والدفء كان مغايراً تحركه مالم يملكه غيره وما لا قد يفهمه سواه صحيح هو أثرى .. مؤرخ .. رحالة .. أستاذ .. مصور وكلها حيثيات لا تجعل من المستغرب على « دى كامب » أن يشد الرحال إلى حيث سعى غيره من الشعراء والكتاب لكن السفر إلى الشرق وبالذات إلى مصر عند الشاب دى كامب كان يعنى شيئا آخر .. ربما كان عودة إلى الأصل وحنينا « إلى المنبع أو ارتداداً إلى حيث كان النبت الأول .. فها هو يكتب فى كتاب له يحمل عنوان «ذكريات أدبية» (عائلتى استقرت منذ أمد بعيد فى فرنسا لكنها أبدا لم تنس جذرها الإسبانى . ومألوف لدينا الاعتراف بأن دماء عربية تنساب فى عروقنا .. ولذا فأنا لا أستغرب تلك الراحة التى تنتابنى حين تظللنى خيمة نائما ولا يفاجئنى ائتلاف



قدمي لرمال الصحراء ولا يدهشني سعي لما قد يبدو من البحث عن سعادة مجهولة . فلعلها عودة إلى الجذور » .

قرب الثلاثين من العمر وبالتحديد في الثامنة والعشرين حصل السيدان ماكسيم دى كامب وجوستاف فلوبير على موافقة صادرة فى باريس بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٨٤٩ على أن يكونا فى بعثة رسمية تدعمها وزارتا المعارف والتجارة معا يرتحلان بكفالتها إلى بعض بلدان الشرق وبعد عامين كان الحصاد وفيرا متفردا .. « فالنيل » ثمرة ليس مجرد نص رحالة أو زاد أثرى لكن له خصوصية أوجدها انقلاب تكنولوچى كان من حظ دى كامب أن يكون رسوله فى الشرق فإذا كانت عين دى كامب نفذت إلى الجوهر فعين الكاميرا أكدت وأيدت وأتت بالبراهين لكل حرف سطره الكاتب دى كامب ..

دى كامب .. مكانة متفردة

فمن بين المصورين الفوتوغرافيين يحتل دى كامب مكانة متفردة بألبوم أعماله المصورة عن مصر فى فترة مبكرة نسبيا من عمر الكاميرا ١٨٤٩ - ١٨٥١ وقد خرجت هذه الصور إلى حيز الوجود فى ٢٦ ابرايل ١٩٥٢ بباريس تحت عنوان « مصر .. النوبه .. فلسطين .. سوريا رسوم مصورة » والحق به دى كامب نصاً مكتوبا » نافس الكاميرا فى شيئين أولهما الدقة ثم الاقتراب من الأشياء دون الذوبان فيها .

على أثر ظهور العمل منحت أكاديمية الفنون والآداب فى باريس « ماكسيم دى كامب الأثرى ورئيس تحرير مجلة باريس الميدالية الذهبية عن أعماله المصورة وشهادة الدبلوم عن نصه رحلة إلى مصر .

مائة وخمس وعشرون صورة بكراً لمعالم أثرية بيئية اجتماعية من بقاع شتى فى مصر « حوت صدقاً بالغاً » ووفاء نادرا للحقيقة وقيمة معرفية أثرية تضافرت مع القيمة الأدبية للكتاب « النيل » وارتقى العاملان برؤية حانية متفهمة من مسافر ولد مسافرا ورحالة ظل دوماً يبحث عن أفق مغاير لما ولد فيه وقبلة لمشواره فى الحياة وجدها فى شرقنا

★★★

« النيل » عمل ينتمى لإبداع من نوع فريد .. إنه السهل الممتنع .. رشيق الصياغة .. ليس صياغة المعالم . ولكن صياغة الرؤية .. المشاعر المعايشة .

خطه ماكسيم دى كامب على شكل رسائل إلى صديقه « ثيوفيل چوتئيه » ويقدر انسياب أسلوبه فى سلاسة بقدر ماحوى قيمة فنية أدبية وضعته فى مصاف أرقى الأعمال الأدبية لصدقه وتميزه فكاتبه ليس من أصحاب منهج الاستسهال وما أشد ضنه بالكتابة فهى نعم تمتعه لكنها أيضا تعذبه يقول فى استهلال النيل .

« عزيزى ثيوفيل » ..

كثيراً ما عاتبتنى لأننى لا أروى رحلاتى .. ولا أكتب ما رأيته فى تلك

البقاع المضيئة مسجلا طبائع أصحابها لقد نبهتني دوماً إلى أن « موهبة » الآداب الحديثه يكمن جزء منها أساسا في أن تكون مسافراً وكل حسب طاقته من بين أنصاف آلهتنا الكتاب حاول أن يقول فها هو بيرون . شاتو بريان لامرتين ارتحلوا وتأملوا وعادوا بأغنيات الطريق والقلق الذى يغزونا منذ ما يقرب القرن يحثنا على البحث عن بدايات جديدة لحقائق جديدة تغطي هذه الأرض وتدفعنا لفرد أجنحة البحث عن الحقيقة التى لا يمكن أن يحتكرها أرضنا وحدها نحن مدعوون لمد الأيدى ووضعها على قلوب بشر أخرين وقوميات مغايرة نجس ايقاعات حياتها نتنسم عبق حضاراتها ففى مواجهة كل حضارة حية كانت أو منطوية ماضية أو مستقبلة لابد وأن تتقافز الأسئلة عن أحلام أصحابها وأحزانهم .. عن معتقداتهم ومشاعرهم .

أبدا لن تواتينا الحقيقة ياعزيزى ثيوفيل . لو ضمرنا ويقينا فى بيوتنا .

هل بإمكان ما اكتبه عن رحلاتى أن يغزل خيطا من نور ؟ لا أدرى لكنك يوم جاوبتنى : حاول أن تشرك أخرين .. إرو ماشاهدت ودع للآخرين عبأ وصل خبط بأخر .. انشد أغنيتك أيا كانت حتي ولو لم تكن تدرى لمن تغنيها وستجد طريقها أنت محق يا عزيزى ثيوفيل .. فاليك سأتوجه بأغنيتى عن مصر والنوبة

★★★

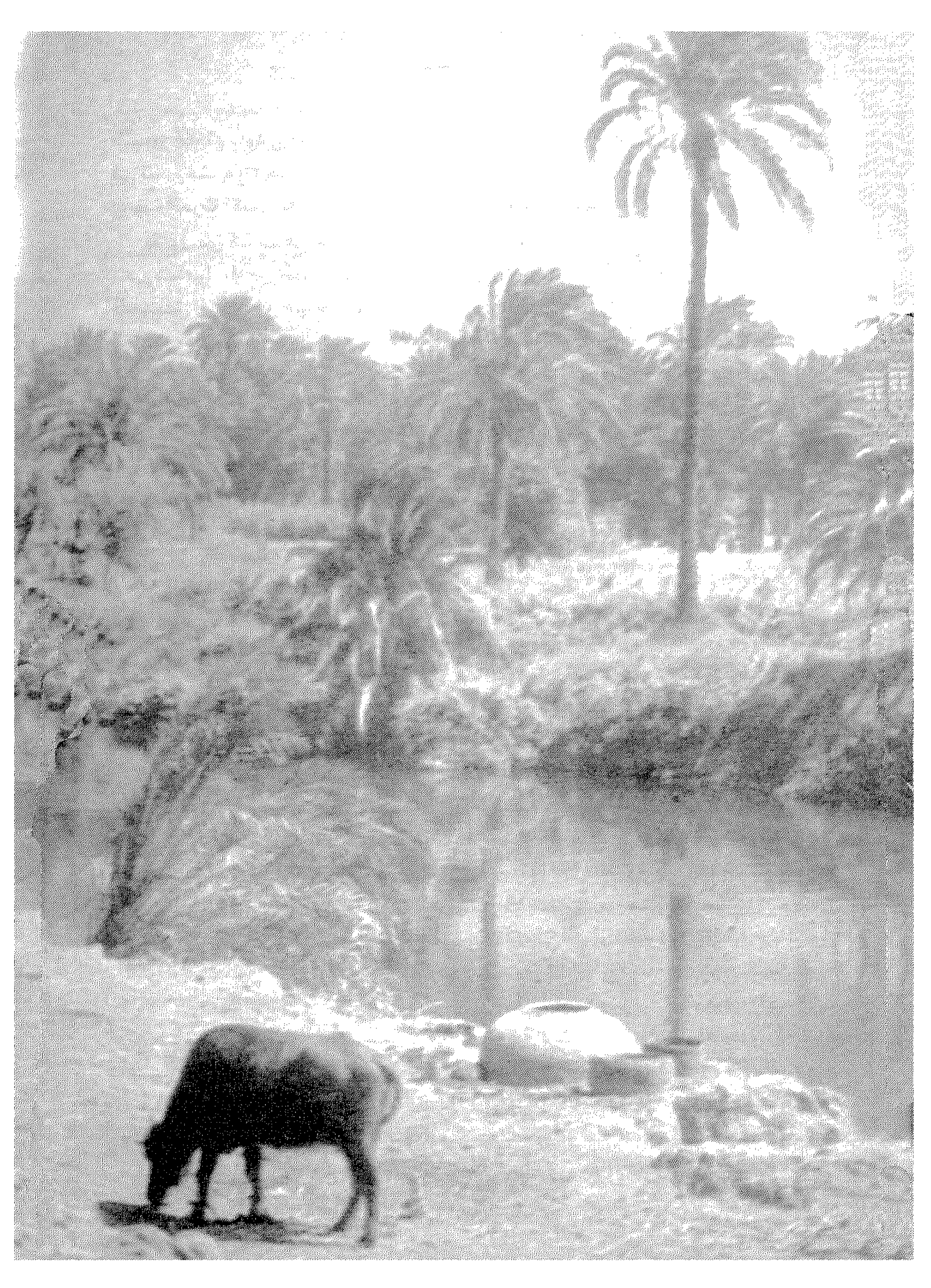
ولم يكن « النيل » مجرد أغنية من دى كامب فخمسة أبواب ضخمة من القطع الكبيرة حوالى مائتى وخمسين صفحة حوت أكثر من مائتى فكرة أو مائتى رؤية للحياة فى مصر اجتماعيا وسياسياً كل ذلك ليس مجرد أغنية لكنه ديوان أشعار كامل دفع باثنين من أكبر باحثى علم المصريات إلى التوقف والتحليل :Danid oster الكاتب المتخصص فى ابداعات القرن التاسع عشر وزميله Michel DewQ chter أستاذ المصريات الباحث .. كلاهما رأى فى « النيل » لماكسيم دى كامب ما يتجاوز نص الرحاله وأبرزا قيمته فى الكشف والتسجيل الأثرى .. فى الخصوصية والتميز الأدبى .. فى التاريخ وأيضا فى التوثيق .

حاول الباحثان أن يجيبا .. ولماذا « النيل » بالذات وأى نكهة خاصة اكتسبتها رؤية دى كامب لما اختار « النيل » معبراً ومعراجاً للولوج إلى أرض مصر من الاسكندرية إلي النوبة والصعيد .. لقد رأت ماكسيم دى كامب مالم يره براس دافان Prisse D' Avenes برغم أسبقية الثانى على الأول وبرغم أنه كان « الأستاذ » .

لقد طرح هذا الشاب ذو الأعوام الثمانية والعشرين أدباً جديداً تشرب منجزات حضارة نبدأ فى التأجج متجاوزه عصر البخار إلى الكهرباء والتلغراف والتصوير وسرعة الاتصال .. فالوجه الثانى لهذه المنجزات هو أن أحلام وأحزان وحقوق البشر فى الحياة سرعان ما



خريطة النيل كما رسمها بطليموس الأسكندري (القرن الثاني الميلادي)



تتجاوز لتلتئم .. وهذا دور جديد للمبدع . فى تلك الفترة إنه حامل لرسالة التقدم ووحدة الحركة الانسانية .

يقول دى كامب فى مرة « تصوروا معى شاعرا » له من الحكمة ما يكفى ومن الصدق الزاد يدقق البصر فى الأيام القادمة وهو يعيش زمن الكهرباء والآلات .. إنه قادر ليس على أن يكتب كتاباته بل يحدث ثورة . »

كان دى كامب مشغولا كغيره بعلاقة الفن بتقدم الآلة ولعلها معادلة مستمرة حتى أيامنا ولكنه كان مهموماً أكثر بالإجابة أيهما سيخضع للآخر من أجل مزيد من الحقيقة الانسانية .. مزيد من السعادة .

فى ٣ نوفمبر ١٨٤٩ بدأ سعى ماكسيم دى كامب (٢٨ سنة وجوستاف فلوبير - ٢٧ سنه - بشعار غير مدون المعرفة عبر المتوسط - جمع الكاتبان لكن جنوناً مختلفاً كان يأخذ بدى كامب جنون أو ولع أو شغف أو سمه ماشئت من الكلمات التى تعكس العشق .. عشق « النيل » .. من المنبع إلى المصب حتى أنه كتب قرب نهاية عمره « كم اندم إنى لم أعد مرة أخرى إلى حيث جنونى أعاود النظر على مافات من الأيام .. على عتبة شيخوختى اتمنى العودة إلى منابع النيل ومجراه لأموت هناك .. »

عام ١٨٥٩ بعد خمس سنوات من صدور كتابه « النيل » وفى إحدى الصالونات الأدبية سألوه يوما : لما الولع بالذات بالنيل وما يحف به قال دى كامب ما يشبه الشعر الصوفى « حين يعجز الانسان عن الوصول إلى إجابات نبيلة فى الفلسفة والدين والسياسة فإنه يلوذ بالطبيعة يتلقى الإلهام من حقل .. أو نهر .. إنه حتى يخلق لروحه وطناً عابراً والجبال والبحار ليستقر حيث تأمن الروح إنه يحمل أحزانه بين بشر لا يعرفهم .. ينام تحت سماوات جديدة .. أنه يفر من الحاضر الغريب أو حيث هو غريب إنه يلوذ بالانسانية ويجد السكينة المنقذة متأملا وقد وجدت ذلك فى النيل » .

★★★

التقطت كاميرا دى كامب صورا لمقبرة السلطان الغورى - ١٨٤٩ - والأهرام وابى الهول والقناطر الخيرية ومعابد الكرنك ونساء النوبة وكتراكت وابى سمبل وسجلت معالم « فيله » ومعابد إيزيس وكلابشه ونخيل أسيوط فاحتفظت لنا بذاكره تاريخية فنية أضافت لها رؤية عين دى كامب صفة الموسوعية المعرفية فلم يترك قلمه أغنية ولا خطأ معماريا ولا عادة إجتماعية ولا نقداً سياسيا ، ولا أسطورة فنية أو رقصة ولا حتى ملحوظة مناخية إلا ودونها .. اعتبر دى كامب « الكاميرا » فن « الإجلاء » أما ما دونه فنقول إنه كان « التجلى » .. أو القدرة على الخروج بالمكنون من الباطن إلى الظاهر . طوع تقدماً علميا نسبيا فى عصره - الكاميرا - لجماليات رؤية البشر وظل وفيا « للصدق وأخضع الآلة - الكاميرا » لتقاوم فناء الواقع أو المكان لكنه أغفل الإنسان إلا فيما ندر من الصور أو لعله ادخره لقيمة ليحفر بأحرفه فمن ينس معالم « الريس إبراهيم » ؟

إنها ليست مجرد رؤية لبشر على ضفاف النيل بل كشف عن الدخائل دون نويان .. اقتراب دون وسيط لكن مع الاحتفاظ بحد معقول من المسافة مدينتان شدتا دى كامب على مدى عمره : القاهرة وباريس الأولى أوحت له بكتاب ثم أحدث الكتاب تحولا فى حياته والثانية بدلت حياته فكتب عنها كتابا » .

ولعل الخيط الواصل بين المدينتين حتى وإن توارى كان سؤالا مترددا حول استمرارية أو عدم استمرارية المجتمعات . وكانت الإجابة تكمن على ضفاف النيل ..

★★★

« النيل » عشق كامن من البدايات وحرس للنهايات وتجلى : يقول عنه أو لقائه الأول دى كامب .

« ما أن رأيته حتى ألقيت بنفسى فى قارب .. أعزقت يداى فيه .. منفردتين ثم متلاحمتين .. مددت رأسى شربت شربة طويلة طويلة .. من مائه .

كنت وكأنى أؤدى طقساً دينيا .. ألمس بعض من أحلامى كنت شجيا .. منفعلا .. ها أنا أرى النيل لأول مرة تذكرت نفسى صغيراً .. أنام فوق خرائط مصر وبأصبعى أتبع خطاً أسود صغيراً يشير إلى مسار النيل .. طالما تخيلته طويلا .. غير محدود .. شديد الجمال .. مغطى بالجزر ..

ولم يخدعنى خيالى ..

لقد عشت فيه .. صعدت معه ونزلت .

رأيته فى غروب الشمس وعند مشرقها تأملته غزيراً غنيا .. واسعا حتى تخاله بحرا قرب المعابد .. سخيا يطعم أرض النخيل والحقول حانيا واعداً كأنه كما قال القدماء ينبع من الجنة » .

★★★

ألم أقل لكم حيرتنى سطور ماكسيم دى كامب إنها أيضا جعلتنى أشعر بالغيره .. أ أحب دى كامب نيلنا أكثر منا ؟ لقد منحه النيل أيضا سره ، فأتت رحلته كأنها « وشوشات » ما بين دى كامب والنيل .. حكايات رفيعتين معاً يجوبان أرض مصر يتوقفان عند أبى الهول أو محمد على .. اسكندرية أو أسوان .. مسجد عمرو بن العاص أو كنيسة ليستقبلان موكب المحمل أو يصفان عرساً أو طهوراً المهم أن سعيهما فى اتجاه واحد .. أرض الشمس ..

★★★

و آخر رسائل ماكسيم دى كامب إلى ثيوفيل جوتيه قال « ثق عزيزى ثيوفيل إنه حين تضنينا المعاناة فى أوطاننا الباردة .. حين نشتاق إلى التواصل فليس أمامنا إلا أن نعبر المتوسط ..

فإن شعرت بذلك اتجه إلى أرض مصر العتيقة .. أصعد وانزل مع النيل .. تأمل قنواته ومساراته أغرف من ضفافه ..

انصت إلى انشوداته الرائعة التى لا تصل إلا لمن يجيدون الإصغاء .

سر فى صحراوات الوحدة . ساعتها ستحس أنك أكثر امتلاء .. أكثر قوة أكثر اثماراً ... أكثر قرباً من الله



هل هناك فن يهودى ؟

بقلم : د. عبدالوهاب المسيرى

عبارة «الفن اليهودى» شأنها شأن عبارات أخرى ، مثل الثقافة اليهودية والأدب اليهودى ، تفترض وجود هوية يهودية محددة مستقلة وثابتة ومنفصلة عن التشكيلات الحضارية التى توجد فيها ، وشخصية يهودية لها خصوصيتها المتميزة ، ونحن نذهب إلى أنه لا توجد هوية يهودية واحدة وإنما هويات عديدة تختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف التشكيلات الحضارية التى يعيش أعضاء الجماعات اليهودية فى كنفها .

ومن ثم ، لا يوجد فن يهودى ولا حتى فنون يهودية بشكل عام ، وإنما يوجد فنانون عبرانيون وفنانون يهود تختلف طرقهم فى الإبداع باختلاف التشكيلات الحضارية التى ينتمون إليها .



عودة المتطوع اليهودى
للفنان موريتس دانيال (١٨٠٠ - ١٨٨٢)

ويظهر هذا فى فن العمارة على سبيل المثال .. وكانت مبانى العبرانيين تتبع النمط السائد ، ولذا كانت كنعانية فى البداية ثم هيلينية ورومانية . وفى العالم الإسلامى ، شيدت المعابد اليهودية حسب الطراز المعمارى الإسلامى ، كما تشيد الآن فى العالم الغربى حسب الطرز المعمارية السائدة فيه .

وقد أثار اكتشاف معبد ديورا أوروبوس ، الذى بنى فى العصر الهيلينى ، قضية تحريم اليهودية للتصوير والتماثيل (كما وردت فى الوصية الثانية من الوصايا العشر) ، ويبدو أن هذا التحريم لم ينفذ إبان حكم الممالك العبرانية ، فتماثيل الكروب (الملائكة) فيه تدل لا على تقبل التصوير وحسب وإنما تدل على بناء التماثيل أيضا ، كما أن تماثيل العجول التى كانت فى هيكل المملكة الشمالية تدل على أن الكروب لم تكن استثناء فريداً وإنما نمطا متكرراً . ولكن بعد العودة من بابل صدقت محاولة لتنغير هذا الخطر وإن تم الاحتفاظ بتماثيل الكروب . وبمرور الوقت ، ازداد تشبع اليهود بالحضارة الهيلينية ، وبالتالى بدأ الاهتمام بالتماثيل إلى أن نسى الحظر الدينى تماماً ، فنجد أن معبد ديورا أوروبوس تظهر فيه لوحات فسيفساء تمثل أنبياء العهد القديم وبعض الشخصيات الأخرى ، وهناك لوحة تمثل ميلاد موسى وقد حملته أفروديتى



(فينوس) آلهة الجمال ، فى حين ظهر هارون فى لوحة أخرى وقد تبعه أحد الكهنة اللاويين ، يسير وراءهما عبد .

ولكن ، من خلال التأثر بالحضارة ، الإسلامية اكتسب الخطر شرعية جديدة ونجد أن يهود الحضارة الاسلامية ابتعدوا عن التصوير . أما فى إيطاليا ، مثلاً ، حين ازدهر فن النحت ، فإننا نجد أن جيتو روما كان يزينه تمثال نصفى لموسى. كل هذا يبين أن عبارة فن يهودى بلا مضمون ، وأن هناك فناً يبدعه فنانون يهود ، أو فناناً ذا مضمون يهودى ، أو فناً موجهاً إلى جمهور يهودى يتبع التقاليد الحضارية السائدة .

الدين والفن

ويمكن القول إن مساهمة اليهود فى الفن الغربى ظلت ضئيلة حتى القرن التاسع عشر باعتبار أنهم كانوا جماعة وظيفية وسيطة منعزلة عن أعضاء المجتمع، لها لغتها الخاصة على الصعيدين اللغوى والحضارى ، كما أن الدين كان مرتبطاً بالفن ، فى المجتمعات التقليدية ، ارتباطه بمعظم نشاطات الإنسان الأخرى ، مما كان يعنى استبعاد اليهود كمنتجين لهذه الفنون ، وتحولهم إلى مستهلكين لها وحسب .

وقد تغير هذا الوضع تماماً ، مع القرن التاسع عشر ، بعد علمنة المجتمع الغربى ، ونلاحظ منذ ذلك التاريخ ظهور عدد من الفنانين الغربيين من أصل يهودى ، ومن أهمهم الفنان الانطباعى بيسارو (الفرنسى) والفنان مارك شاجال (الروسى) وبن شان (الولايات المتحدة) وموديليانى (الفرنسى) وسوتين ، وكلهم من الرسامين . وأهم النحاتين اليهود جاك ليبشيتس (الأمريكى) . ويوجد عدد كبير من تجار الأعمال الفنية ونقاد الفنون من أصل يهودى . ولكن تظل نشاطات أعضاء الجماعات اليهودية ، كفنانين مبدعين أو ناقدين للفن أو تجار فيه ، لاتكتسب إلا استقلالا عن محيطها الحضارى ، فهى تعبير عن المجتمعات التى ينتمى إليها اليهود وعن تفاعلهم معها ، وهذه المجتمعات هى التى تحدد موضوعات هذه الفنون ولغتها الفنية .

ولننظر الآن إلى بعض الأعمال الفنية التى توصف بأنها « يهودية » وهى أعمال محفوظة فى المتحف اليهودى فى نيويورك

باعتبارها نماذج من « الفن اليهودى » . من هذه الأعمال هذا الوعاء النحاسى من العصر المملوكى ، وهو مطعم بالفضة والذهب . والوعاء مقسم إلى مساحات طولية عليها كتابة بالعربية يظهر منها فى الصورة عبارة « من صبر قد نال » تقطعها أشكال دائرة تحوى زخارف . داخل هذه الزخارف يلاحظ وجود نجمة داود وكتابات بالعبرية . ويبدو أن هذه الآنية قد صممها حرفى عربى يهودى من سوريا (ومن هنا معرفته بالحروف العربية) . ولكن طريقة الصناعة والطراز والبنية الجمالية كلها إسلامية ، أى أن صانع هذا الوعاء قد يكون حرفياً يهودياً ولكن ذوقه إسلامى مملوكى .

ومن المقتنيات الأخرى ، لوحة رمبرانت « اليهود فى المعبد اليهودى » ولن نحاول الخوض فى تحليل هذه اللوحة الرائعة (وهى حفر على الورق) التى تبين رؤية رمبرانت للجماعة اليهودية فى عصره . فعلى الرغم من أن اليهود كانوا أقلية صغيرة ، فإنه هو ذاته كان يعيش فى حارة اليهود . ويقول النقاد الفنيون إن رمبرانت فى هذه اللوحة يدرس موضوع الغربة ، وهو موضوع إنسانى عام ، فمركز اللوحة هو اليهودى الجالس على قطعة من الحجر ، وقد أعطى المشاهد ظهره . ويلاحظ أن كل الأشخاص الآخرين فى الصورة يتحدث الواحد منهم مع الآخر وجميعهم غير مكترث بوجوده بل ونجد أنهم ينظرون بعيداً عنه . وبرغم أنه يوجد فى بقعة التوتر (فى الوسط تماماً) فإن وجهه متجه نحو الظلمة . ويبدو أن أزياء اليهودى قد اجتذبت انتباه رمبرانت (وهى أزياء لم تكن هولندية فقد جاء الأشكناز من بولندا ، أما السفارد فقد جاءوا من إسبانيا) ، وقد أحضرت كل جماعة منهما الأزياء المحلية .

محاولات مشوبة بالتوتر

وإذا تركنا عصر النهضة والباروك والركوكو ووصلنا إلى عصر العقل والفن يشار إليه باسم « نيو كلاسيكى » ، فإننا سنجد لوحة لفنان أمريكى يهودى يسمى توماس سللى (١٧٨٣ - ١٨٧٢) ، اللوحة عبارة عن بورتريه لسالى إتينج أى صورة شخصية لها . والواقع أن الفن النيو كلاسيكى يحاكى الفنون الرومانية واليونانية بشكل واع ، وهو بهذا يعد امتداداً لفن عصر النهضة الغربى ، وهنا . فإن بطلة الصورة قد رسمت على هيئة إحدى بطلات الرومان - فهى ترتدى زيا رومانياً ، بل ونجد أن تسريحة شعرها على الطريقة الرومانية ، ومن الواضح أن انعكاس الضوء على وجهها وجسدها يهدف إلى تأكيد جمالها الجسدى ومثاليتها الخلقية - وستظل هذه هى أهم معالم الفن العلمانى حيث يحاول أن يصل إلى قيم مطلقة من خلال الجسد الإنسانى والظاهرة الإنسانية وقد كانت مثل هذه المحاولات مشوبة دائما بالتوتر ، فهى تعبير عن نزعة مثالية ولكنها تظل حبيسة الجسد والمادة ، ولا ندرى هل نجح الفنان هنا فى حفظ التوازن بين الحسى والمثالى ولكن وأيا ما



● بورترية للفنان الامريكى اليهودى توماس سلى من ١٧٨٣ - ١٨٧٢

كانت نتيجة المحاولة ، إيجاباً أو سلبا ، فالفن الذى نشاهده فن غربى نيو كلاسيكى ، كما أن المشكلة التى يواجهها الفنان هى على وجه الحصر مشكلة لا يمكن أن توصف بأنها يهودية وإلى جانب ذلك ، فإن المعالجة الجمالية الأخلاقية تنتمى إلى قواعد ذلك العصر ، بل إننا ، ابتداءً من الميدالية والكتوباه ، نلاحظ بداية القيم العلمانية والموضوعات الوثنية فى الفنون الغربية ، ومن هنا ، يمكننا القول إنه ، مع شيوع الفن النيو كلاسيكى ، انتصر العنصر الوثنى ، مما أفضى إلى اختفاء القيم المسيحية والدينية ، وقد حدث نفس الشئ بالنسبة للفنان اليهودى ، إذ اختفت الحروف العبرية كما توقفت أية محاولات ، مهما كانت واهية واهنة ، تتعلق باقحام عنصر يهودى على العمل الفنى ، فنحن هنا فى حضرة عمل فنى غربى خالص ، لا يوجد فيه حتى ادعاء اليهودية.

ومن أشهر اللوحات التى وصفت بأنها يهودية اللوحة المسماة «عودة المتطوع اليهودى من حروب التحرير إلى أسرته التى لاتزال تعيش حسب العادات القديمة» للفنان موريتس دانيال أوبنهايم (١٨٠٠ - ١٨٨٢) ، وهى تنتمى إلى الأسلوبين الرومانتيكى والواقعى فى القرن التاسع عشر ، فأسلوب اللوحة رومانتيكى من حيث تأكيده على العواطف وعلى البعد المثالى بالمنظر ولكنه واقعى من حيث اهتمامه المفرط بالتفاصيل ، واللوحة تعبر عن هذه النقطة التى بدأت فيها اليهودية التقليدية (الأرثوذكسية) تتفكك وتحل محلها الصيغ اليهودية الجديدة المخففة والتى لا يعترف بها الأرثوذكس ، مما أدى إلى طرح مشكلة من هو اليهودى ، فالأسرة لا تزال أرثوذكسية ، تقيم شعائر السبت كما هو واضح من الكأس والخبز على المائدة ، والأب يقرأ من كتاب هو فى الغالب كتاب دعوات وصلوات ، ولكن الأسرة ، مع هذا ، بدأت تفقد شيئا من أرثوذكسيتها ويدل على ذلك ، وجود صورة فى المنزل ووصول الابن فى ذلك اليوم ، يعنى أنه سمح لنفسه بالسفر فى يوم السبت ، وهو الأمر الذى تحرمه الشريعة اليهودية ، ومن الواضح أن هؤلاء اليهود قد بدأوا يفقدون هويتهم الإثنية الدينية ويتحولون إلى مواطنين ألمان، ومن هنا فخرهم بقوميتهم ، وربما كان وجه الأب الذى ينظر بشغف وزهو وحيرة إلى صدر ابنه وهو رمز فى هذه اللحظة ، فالأب ينظر إلى الصليب





الحديدى ، وهو رمز مسيحى قومى وموضوع «رحيل المتطوعين» موضوع أساسى فى الفن الرومانتيكى فى « القرن التاسع عشر» ، وإن كان أوبنهايم قد جعله «عودة» المتطوع ، ربما متأثرا بلوحة «عودة الأبناء» للفنان الألمانى فيليب أوتورانج .

وقد كان النقاد الفنيون اليهود يتحدثون ، حتى عهد قريب عن يهودية حاييم سوتين (١٨٩٤ - ١٩٤٣) ، ولكن الاتجاه الآن نحو دراسة صوره يتم داخل إطار تاريخ الفن فى القرن العشرين ومشاكل الحداثة ، وقد كونوا هو وموديليانى وأوتريللو وياسين جماعة تسمى «الملاعين» أو «سيئى الحظ» (بالفرنسية : مودى Maudit) وكلهم يهود ماعدا ياسين ، ولكن ، هل لعبت يهوديتهم دوراً فى تحديد رؤيتهم وأسلوبهم ؟ أم أن تجربتهم هى تجربة أفراد يشعرون بالضياع والغربة فى عالم القرن العشرين العلمانى ؟ (ولعل يهوديتهم تزيد من حدة هذا الإحساس بالاغتراب ، فمعدلات العلمنة بين اليهود ، خصوصا المثقفين ، كانت أعلى منها بين بقية المجتمع) وقد رسم سوتين لوحته «وعاء زهور» عام ١٩٣٠

وقد اشتهر باللون الأحمر الذى استخدمه فى هذه اللوحة وفى لوحاته الأخرى التى رسم فيها لحم حيوانات مخضبا بالدماء (ويقال إن هذه اللوحات احتجاج على قوانين الطعام اليهودية) ويتضح توتر سوتين وجرأته فى هذه اللوحة ، التى تعد إرهاصاً للتعبيرية التجريدية .

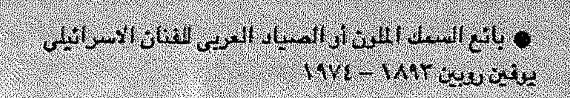
ومن أهم الأعمال الفنية التى يقال لها «يهودية» النصب التذكارى الذى نفذه جورج سيجال المولود عام ١٩٢٤ عن ضحايا الهولوكوست أو الإبادة النازية ، بناء على طلب بلدية سان فرانسيسكو وتماثيل النصب مصنوعة من قالب جصى بالحجم الطبيعى لعدة جثث مرتبة على هيئة نجمة داود وتمسك إحدى الجثث بتفاحة رمزا لحواء كما أن جثة أخرى تمد ذراعها رمزا للمسيح المصلوب وهناك رجل عجوز وبجواره صبى ، وهو يرمز إلى ابراهيم وإسحق ، أما الرجل الواقف ، فهو رمز البقاء (بقاء الشعب اليهودى) ولكنه فى حالة ذهول ولذا فهو يمسك بالسلك الشائك دون أن يشعر بالوخز ، وربما كان رمزاآخر للمسيح ، والموضوع هنا موضع يهودى بالمعنى الإثنى لا الدينى ، لكن التناول

صهيونى ، وهو يؤكد بلا شك مركزية واقعة الإبادة النازية ويتحدث عن تاريخ يهودى ، وعن معاناة يهودية ، ولكن العمل مع هذا يظل عملا أمريكيا غربياً حديثاً ، لا يمكن فهم قيمه الجمالية إلا بالعودة إلى اللغة الفنية السائدة فى الولايات المتحدة وهى لغة تدخلها الرموز المسيحية ، وهذا أمر طبيعى ، فقد صاغه فنان أمريكى ليعرضه على جمهور أمريكى وإذا كان الموضع يهوديا والفنان الذى تناوله يهوديا فإن هذا لا يثير شيئا من أمريكية العمل ، إذ تظل اللغة الفنية هى لغة أمريكية غربية حديثة .

وفى عرضنا حتى الآن لما يسمى بـ «الفن اليهودى» وجدنا أنفسنا ننتقل من الحضار الاسلامية إلى الحضارة الغربية ولو انتقلنا إلى الحضارة الصينية لندرس معمار المعبد اليهودى هناك ، لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن معمار المعابد الكونفوشيوسية ، وفى دراستنا للأعمال الفنية اليهودية المختلفة ، وجدنا أنفسنا نشير إلى فن عصر النهضة وفن عصر العقل وفن عصر الرومانسية وفن العصر الحديث وفى محاولة فهم هذه الأعمال ، كان علينا أن نعود دائما إلى تطور الفكر والفن الغربيين ، ولم نجد عناصر يهودية إلا فى الموضوع ، وهو عنصر فرعى لا يحدد القيم الجمالية أو طريقة التناول ومن هنا ، نجد أنه من الصعب التحدث عن «فن يهودى» على حين يمكننا أن نتحدث عن فن غربى فى الأعمال التى نشاهدها .

فن لا شخصية له

وإذا نظرنا إلى الفن الاسرائيلى ، فإننا نجد أن الأمر لا يختلف كثيرا عما يسمى بـ «الفن اليهودى» فهو فن ليست له شخصيته المستقلة ، ولا معجمه الخاص ، يمكننا أن ننظر إلى لوحة الفنان الاسرائيلى ريوفين روبين (١٨٩٣ - ١٩٧٤) المولود فى رومانيا والذى هاجر إلى فلسطين واستوطن فيها واللوحة من مقتنيات المتحف اليهودى فى نيويورك ، ولها عنوانان : «بائع السمك الملون» أو «الصياد العربى» والواقع أن إعطاء اللوحة اسمين أمر له دلالة عميقة فى السياق الصهيونى ، فعنوان «الصياد العربى» محاولة أولية لتجريد العربى بحيث يصبح جزءا من الطبيعة ويظهر هذا فى تشكيل اللوحة ذاته فالصياد قد تحول إلى شكل هندسى يقف متوازنا بين السمكة التى فى يده والسمك الذى فى الوعاء الذى يحمله ، وعيونه ذاتها تشبه السمكة وتجعله هو ذاته يشبه السمك ، ويداه : واحدة تمسك بسمكة ملوية بحيث تصبح متوازية مع جسده والأخرى ممسكة بالوعاء وإن كانت أصابعه تكاد تسبح فى الماء كالسمك ، وذراعاه تشبهان الإطار ، بحيث يأخذ الصياد شكل المربع ، ولكنه مربع ملئ بتموجات تذوب وتندمج فى الخلفية المتموجة بحيث يندمج الفرد فى الطبيعة تماماً وثمة غنائية عميقة فى اللوحة على الرغم من ألوانها ، ولكنها على كل ألوان أرض فلسطين التى يسميها الصهاينة ارتس يسرائيل .



● بائع السمك الملون أو الصياد العربي للفنان الاسرائيلي
يوفين روبين ١٨٩٣ - ١٩٧٤

● وعاء زهور .. للفنان سوتين ١٩٣٠



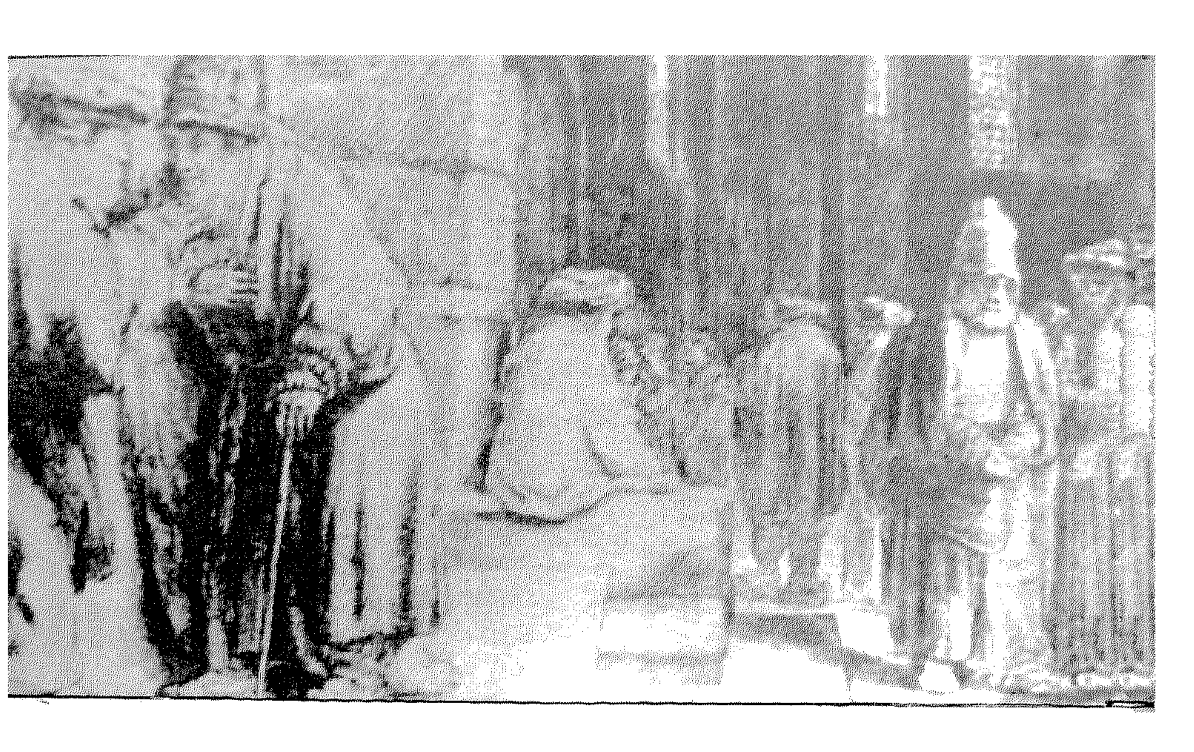
● لوحة لرمبرانت «اليهودى فى المعبد اليهودى» حفر على الورق

وموضوعه العربى موضوعة اساسية في الفن الصهيونى فمع أن الصهاينة طرحوا فكرة «أرض بلا شعب» أى فكرة أن العــرب لا وجود لهــم ، ولتفـــسير هذا التنــاقض لابد أن نشير إلى عنصرين :

١ - وجود المستوطنين الصهاينة الذين عاشوا فى هذه الأرض وجدوا العربى فى كل مكان ، يسير حولهم ويعمل فى الأرض قبل وبعد استيلائهم عليها ، آثاره فى كل مكان حتى بعد أن طرد منها ولذا كان لابد وأن يظهر العربى على شاشة الوجدان الصهيونى ، مهما حاولت الأيديولوجية المجردة أن تغيبه .

٢ - يرفض الفكر الصهيونى يهود المنفى (أى كل يهود العالم ما عدا المستوطنين الصهاينة) على أساس أنهم شخصيات هامشية هزيلة تعمل بالربا والتجارة ولا يمكنها أن تقوم بالأعمال اليدوية المنتجة وقد كانوا يضعون العربى فى مقابل يهودى المنفى باعتباره شخصية حيوية منتجة تعيش فى وئام مع الطبيعة ، فالعربى هنا هو نقيض يهودى المنفى ، وعلى المستوطن الصهيونى أن يعيد صياغة شخصيته بحيث يكون مثل هذا العربى ، ومن هنا كتبت مسرحيات وقصص كثيرة تدافع عن هذه الرؤية حتى اشتكى أحد النقاد الصهاينة فى أوائل القرن من أنه لا يوجد عمل أدبى واحد يكتب فى فلسطين إلا وفيه تمجيد للعرب وقد كان الصهاينة يرتدون زى العرب ويحاولون أن يتصرفوا مثلهم .

ولوحة «الصياد العربى» هى نتاج هذا الموقف الذى استمر حتى أواخر العشرينيات ، ثم اختفى بعد ذلك مع بداية انتفاضات العرب ، الأمر الذى حولهم من شخصيات رومانسية مندمجة فى الطبيعة ملتحمة معها ، ومن موضوع للتأمل إلى شخصيات حقيقية تدافع عن أرضها ولم يعد العربى مجرد مربع يشبه السمكة ينظر فى السمكة ويحمل الأسماك ويذوب فى الأمواج ، وأصبح من الصعب تجريده ،



ولعل هذا هو ما أدى إلى اختيار العنوان الثانى «بائع السمك الملون» فهنا تتحول عملية التجريد إلى تغييب كامل ، فيصبح العربي مجرد بائع سمك ملون وتصبح فلسطين أرضاً بلا شعب واللوحة متأثرة بفن موديليانى والفن الساذج أو البدائى وتحليلنا لمضمونها العقائدى العنصرى لا ينفى عنها أنها عمل فنى جميل ، لكن الجمال ليس له على كل علاقة كبيرة بالأخلاق فالأعمال العنصرية والإباحية يمكن أن تكون على مستوى عال من الجمال والإبداع الفنى .

وهذه الحركات الفنية داخل المستوطن الصهيونى ، تبدو كما لو كانت تنبع من حركة فنية أمريكية وجدت أصداء لها بين الفنانين الاسرائيلين وقد يمكن القول إنهم قد أضافوا نغمة اسرائيلية خاصة إلى أعمالهم ، وإنهم جزء من حركة فنية عالمية هى حركة الحداثة (والتجريد والتجريب) وأنهم فى هذا لا يختلفون عن معظم الفنانين فى العالم .

قصة من الحياة

دموع الغسق

عـرض وتحليل :
عبد المنعم الجـداوى



● هذه الجريمة مكتوبة بقلم القدرة . رسمت شخصياتها بدقة إلهية . فكانت أولى ضحاياها الجانى ، وهو طالب فى الثانوية .. ثم الشابة التى تلقت الرصاصات، وهى عصير جيلها ، وبنت زمان الانفتاح .. اخطأت عناوين الحياة قراءة ، وهى التى تحترف التعليم، والأب الذى حاول ان يعب من نهر النشوة قبل الجفاف .. حينما ملئت كفه بالمال، وامتلأت كأس عمره بأيامه .. فأفزعته المعادلة ، وأم وقفت ترقب مأساتها وهى صامدة . شامخة . شموخا . استفز نخوة الابن ، واستقطب حماقته فأقدم على فعلته ، وهو على يقين أنه المنقذ من الضلال . وسوف يحقق الممكن من صخور المحال . فأضاف إلى هموم أمه احزان الثكالى .. كلهم كانوا يريدون الحصول على شىء ما .. دون أن يفكر أحدهم فى التضحية بشىء ما ، ومن هنا كان تصاعد المأساة إلى ذروتها .. !!

إذا ما وجدتم أخطاء فى الكتابة أوصادفتكم صعوبة فى تركيب العبارات فالتمسوا لى الأعذار . فأنا كما نشرت الصحف لم أبرح بعد الصف الثانى الثانوى ولكن الذى عبرته ، ووقع لى ما كان ليحدث لعجوز فى السبعين . ولكن لا يسمح لى عمرى ، ولا قلة تجاربى . بالوصول إلى السبب ، ولا الأسباب التى دفعت بى إلى الورطة التى غرقت فيها ، وأحاطت بى . كأن أمى لم تلدنى إلا لأرتكب ذنبى ، وأتلقى عقابى المجهول الذى لم يصل بعد ..

إن كنت أتلقى الآن بعض العقاب أو مقدماته .. فأنا داخل زنزانة . أو داخل قبر من الصمت أبدى السكون الذى يبدو الموت من مفرداته .. وهذا هو وجه الشبه بين الصمت ، والموت ، والظلمة التى بلا نهاية .. كل منها يمتزج بالآخر ، وأنا مع الهواجس . ضائع . منهك . أحيانا أتحسس أعضائى ليتأكد لى وجودى .. فوسط هذا العدم يخيل لى أن حواسى لا تعمل ، وأننى تحولت إلى لا شىء ، وتحللت فى العدم .. !

ورغم الهول الذى يطوقنى . فإننى أجد الفرصة لأسأل نفسى . لماذا كل هذه المعاناة ؟ ومن أين جاء الذنب ، وكان لابد أن يجىء فى إثره العقاب .. ؟ كل الآباء منذ آدم وحواء يعطون أبناءهم كل ما هو حسن ، وجميل ، ويحميهم من نوائب الدهر. إلا أنا فقد وهبنى والداى .. ما أنا ضحيته الآن .. مع أننى لم أعصهما ، ولم اخالف لهما رأيا .. كل الحقيقة هى أننى أحببت أمى ، وأمعنت فى حبها ، ومن فى الخلق لم يحب أمه .. وحبى لها دفعنى إلى محاولة الدفاع عنها ، والوقوف بجانبها ، ويخيل الى أن كل أبن لابد أن يقف إلى جانب أمه .. فإذا كانت مظلومة . كان رفع الظلم عنها فريضة لابد أن تؤدى . وهكذا كان انحيازى إلى جانب أمى .. لكن مصيبتى أن ظالمها كان أبى ، ومن هنا كانت الورطة .. كانت البؤرة التى نبعت منها محنتى .. ! فأبى كان ملاكا قبل أن يصاب بهذا الداء الوبيل الذى جعله يظلم أمى ، وكان يمكن أن يمضى كل شىء فى طريقه ، ولا يحدث ما حدث . لولا أنى لاحظت أن أمى تموت أمامى يوما بعد يوم ، وتضمحل ، وتركبها سلسلة من الأمراض ، والكل مجند لخدمتها وعلاجها ، إلا أن مقاومتها تضعف ، والمرض يفترسها فى عنف ، وأبى لايدخر وسعا فى علاجها بقدر ما تسمح له ظروفه، فقد كان عمله كتاجر يستغرق كل وقته ..

وكنت إلى عهد قريب أحبهما معا بالتساوى بل أحيانا كنت أشعر بأننى

أقرب إلى أبى من أمى التى كانت عنيفة فى بعض المواقف ، وكانت شامخة ، سامقة لاتتزحزح عن رأيها تضع احترامها مع كل العالمين فى الدرجة الأولى .. بعكس أبى الذى كان مرنا كمعظم التجار الناجحين لا يعيبه أن يرجع فى عهد أو كلمة ارتبط بها، وأحس أنها سوف تصيبه بالخسارة .. أما أمى فكانت على عكسه تماما ، ولعل الجميع كانوا ينظرون إليها بإكبار من تلك الزاوية حتى أبى نفسه كان يبدو أمامها إذا ما فاجأته مخطئا غير قادر على جمع ذاته أو محاولة خداعها .. وعلمت فيما بعد أن سطوتها عليه كانت لأنها صاحبة الفضل بعد الله عليه فيما هو فيه من نعمة فهى لم تقف بجانبه فقط ، وإنما كان لها الجزء الضخم من رأس ماله بعد حصولها على الميراث من أسرتها المتيسرة .. إذ كان يحصل عليه منها فى شبه قروض غير مردودة .. وكانت عزة نفسها تمنعها من طلب استرداده .. !

ولم تكن تكشف لأحد قط عن أوجاعها، ولعل ذلك ما جعلها مهابة منا رغم حنانها ومرهوبة محبوبة نخشى من غضبها أضعاف ما نخاف من عقابها ، وكنا بناتا وأولادا نحاول أن نتعلم منها أو نأخذ عنها الشموخ على الألم ، والوقوف فوق المصاعب مهما كان حجمها بقدر ما تتحمل نفوسنا الغضة ، وذواتنا الخضراء ..

وحينما ضربها المرض فى الصميم ، وتدهورت صحتها ، وكأنها تتدحرج من القمة إلى السفح فى قسوة مريرة أفزعتنا، واحتار أطباء البدن فى علتها .. حاولت مع شقيقتى التى تصغرنى بعام أن نصل إلى سرها ، لكنها لم تفصح ، وقالت لها شقيقتى وهى منفعلة تجاوبا مع عذابها .. أن السبب مادام لا يكمن فى الجسد ، فلابد أنه قادم من جهة أبى .. ؟! .. فلوحت بيدها رافضة ، وهمست .. تحذرنا من أن يقودنا الغضب إلى ظلم والدنا .. فقد يكون هو الآخر مجنيا عليه ، وتحت سيطرة لايدركها لدقة تزييفها عليه ، وإلا كان معنا الآن .. ! وانتبهنا على إشارتها العظيمة .. لسنا ندرى إذا كانت تقصدها أم أننا التقطناها على النحو الذى كنا نفكر فيه .. أين هو الآن ؟ ونظرت إلى شقيقتى ، كأنها توجه إلىّ تهمة مؤكدة .. فلولا أن هذه المدرسة التى اخترتها ودخلت بيتنا لكى تعطينى دروسا خصوصية ، ماحدث أن قامت صداقة بينها وبين والدى .. تلك العلاقة التى اتجهت إلى العمق ، بشكل أصابنا بالذهول ، وشل قدراتنا على المقاومة والوقوف فى وجه السيف الذى سلط علينا بعد أن ألقى أبى بنفسه فى ساحة هواها بتكتم شديد كان يظنه

كافيا لستر غرامه الذى كانت تكشفه محاولات ستره الرعناء والنعمة التى ظهرت على المدرسة ، وتمردها على الجميع وفرض سياستها فى وقاحة على البيت ، بل والتحكم فى خلفيات تخص أبى ، لم نكن نراها بحكم موقعنا فى الأسرة ، لكن والدتى كانت تلمسها وتسترها بعذاب مضاعف تعانيه حتى لا تكشف عن عورة زوجها ، وفشلها فى أن تحميه من اغراء ، مطلقة متقفة ، ومازالت معارك النفقة وقضايا ابنائها الثلاثة من مطلقها مستمرة ، ورغم ذلك راحت تلقى بشباكها حول الأب ، والزوج الذى وثق فيها وفتح لها بيته ، لتعطينى درسا ، وعطفت عليها أمى فتضاعف لها الأجر أول الأمر لأنها تواجه مصاعب الحياة ، وفى عنقها أبناء تخلى عنهم والدهم فى دناءة منقطعة النظير .. !

هذه الإنسانة التى كانت موئل عطفنا جميعا ، لاسيما والدتى ماذا دهاها ؟ وجعلها تنصب الشراك لتستولى على قلب الرجل الذى لم يحدث أن غابت مسئولياته كأب وزوج عن قلبه طرفة عين .. ؟ أو نفس السؤال مطروحا على الوجه الآخر ماذا حدث فى كيان أبى وأجهزته الواعية وغير الواعية حتى ينزلق إلى هذا المنزلق الخطر؟ ولولا أن والدتى تحتضن القصة كلها فى صدرها على حساب صحتها لذاعت على كل لسان ورغم كل الأسوار العالية التى صنعتها أمى ، ألا أن كثيرين من النساء ، والرجال فى عائلتنا تملأ عيونهم ، وملامحهم أسئلة صامتة تقف على أطراف قسماتهم كالدموع التى تقف فى أحداق العيون لاتغيض ولا تفيض .. ؛ وأمى تقاوم فيصرعها المرض ، ولكنها لا تتكلم ، ولا تفصح حتى لنا نحن أولادها لا رغبة فقط فى أن تظل صورة الأب فى أذهاننا غير مهزوزة ، ولكن حتى لا تصبح هى فى أنظار الجميع المرأة المهزومة التى عدت عليها امرأة أخرى فحطمت مملكتها وأصبحت فى حاجة إلى الرثاء والعطف .. وهى القوية الأبية التى لم تعرف الضعف ، ولا الخذلان ، تحت أى ظرف !

ورفضت فى كبرياء بإشارة من يدها أن نسترسل فى الحوار أو تستمع إلينا واحترمنا ذلك ولم نكن نملك إلا الصمت وبقينا لحظات حول سريرها ، وفى صدرينا اضطرابات ، وصراعات تفوق عمرنا وانسحبنا كالمهزومين فى معركة صعبة غير متكافئة .. وقلت لشقيقتى أذهب إلى أبى فى متجره ، واستمد من حبى لأمى قوة أواجهه بها فأقول له إن شفاءها فى يده ، وأنه لابد أن يتخلى عن هذه المدرسة ، وأعلن أننى مستغن عن دروسها ، وعن التعليم كله فى سبيل إنقاذ والدتى .. ؟

وقفت شقيقتى مذهولة ، كأن كلامى كان مفاجأة لها .. فوالدتنا لم تطلب منا ذلك .. بل نهتنا عن مجرد الكلام عنه بلهجة غير محترمة ، فكيف استبيح لنفسى أن أواجهه ، وأقول له أنه مخطئ ، وأن عليه أن يصحح خطأه بكذا ، وكذا .. مواجهة فوق طاقاتى ، وقد لا يتقبلها والدى ، ويؤولها تأويلا ليس فى صالحى ، وما كان يحرص على ستره قد يكشفه دون مواراة أو خجل ويصير الموقف كله ضد والدتى ، وأكون كالدبة التى قتلت صاحبها بحجر لكى تطرد الذبابة من على وجهه .. !

طالت وقفتى أمام شقيقتى التى تعاقبت على ملامحها كل ألوان الطيف ، ولم تجب بل حملقت فىّ ثم انسحبت لست أدرى أهى مشفقة على ؟ أم غاضبة منى ؟ أم أنها ترى أن الأب لا يجب أن يُعاتب أو يُعارض فيما يفعل .. ؟ فالأب دائما هو الأكبر ، فحسنته كبرى ، وسيئته كبرى وشاعت فى خاطرى رغبة فى البكاء وانتابتنى لحظة ضعف مريحة فبكيت فى لذة تمنيت معها ألا أكف عن البكـــاء ، وألا تغـــادرنى تـــلك الموجـــة التى تمســك بى فى حالة من عدم التجميع ، والتركيز والتكثيف .. !

ولاحت لى صورة أبى فى وجدانى تتراقص كأنها على صفحة أمواج ، ولكنه شديد الحزن بادى التفكك مغلوب على أمره .. اقتنصته هذه المدرسة فى لحظة ضعف وغضب من والدتى ، ثورة لكرامته أو بحثا عن كينونة يظن أنها مفقودة مع سيدة .. شامخة دائما .. تضع أنفها عاليا ، وترى نفسها فوق الجميع لاسيما داخل مملكتها ولعله كان راضيا قانعا بما يحصل عليه أو لعله ألفه ، ولم تكن لديه فرصة ليفطن إلى قلته أو كثرته إلى أن جاءت هذه السيدة ، واخترقت حياته وهو يعبر مرحلة من أخطر مراحل عمره .. فقد تربع فوق رشده الاقتصادى بشكل أو بآخر ، وتسربت من بين يديه سنواته الأربعون ، وشغلته ذاته لكى يؤكد نفسه بالخروج على روتين حياته مع أم أولاده التى شغلتها أمور الأبناء عن العناية به ، وعز عليه أن يستجدى منها الاهتمام بعد عشرين عاما من الزواج وما كان لها أن تفطن وهى مستغرقة كشهيدة فى توفير الاستقرار والأمان لأولاده وله ، وحينما فطنت كبر عليها أن تبذل أو يكون عطاؤها بناء على إلحاح أو تحت شرط أو لقاء مقابل وهالها أن تتدنى المدرسة المطلقة التى فتحت لها بيتها لتعطينى مع شقيقتى دروسا لم نكن فى حاجة إليها .. لكن أمى كانت تريد أن تساعدها من أجل أولادها القصر .. إلا أن المدرسة بشبابها ، وفراغها ، وظروفها أغرت والدى ،

وأغراها، وقامت بينهما صداقة مبعثها الرغبة هنا ، والحاجة هناك ، والفراغ العاطفى الذى كان يعتصر والدى ، وانسحبت المدرسة ، ولم تعد فى حاجة إلى أن تجيئ بيتنا .. لأن أبى كان يقضى معها كل وقته فى الخارج ، وراجت الشائعات بأنهما يستعدان للزواج .. وحاولت أمى أن تتكتم الأخبار فى عزة وشموخ لكن الأمراض صرعتها ، وألزمتها الفراش .. !!

أمى لم تخطئ حينما استدعتها لتدرس لى الانجليزية أنا وشقيقتى كانت تستهدف عملا نبيلا وأبى أيضا أراه مجنيا عليه تضافرت عليه ظروفه ، وأعتقد انه لو التقى بها قبل ذلك أو بعد لما وقع ما وقع بينهما .. فقد كان أضعف من أن يقاوم شبابها الفياض ، وشعرها الذهبى ، وعينياها الخضراوين .

من الممكن أن أكون جاملت أبى وأمى .. وحتى لا أكون ظالما مع المدرسة فكرت طويلا فى أن أذهب إليها ، وأحذرها من أن تستمر فى الاستعداد للزواج من والدى لأنها بذلك سوف تقضى على أمى وتقتلها كمدا ، ولن أسمح لها ، ولا حتى لوالدى بذلك .. !

ولم أشأ أن أستشير أحدا فى ذلك حتى ولا شقيقتى .. فقد رأيت أن ذلك واجبى الذى يملى على الموقف أن أقوم به، وارتديت ملابسى ، ومضيت نحو مسكنها قبل أن تتراجع موجة حماسى ، وحينما فتحت لى الباب ، واحتوتنى ببصرها ضاع منها أمرها لحظة المفاجأة .. ثم جمعت أمرها ، ودعتنى إلى الدخول وأغلقت الباب، ووجدتها تسألنى عن والدى .. فقلت لها أننا نحن الذين نسألها عنه .. ؟! وأحسست من نبرة الصوت واللهجة أننى أحاكمها أو أعاتبها أو ألومها ، فهبت تقول أننى يجب ألا أتكلم إلا فى دروسى وأن على أن أتذكر أنها مدرستى ، وأن أمور الأباء الكبار لا يناقشها الأولاد الصغار .. !!

وأثارنى ذلك فكنت عنيفا ، وأنا أرد عليها بأننى لست صغيرا ، وأن الصغير هو الذى يصنع الصغائر ، وخطف الأزواج من الصغائر .. ولم أكن جلست بعد فاتجهت صوب الباب ، وأغلقته خلفى فى عنف .. لم يستغرق كل ذلك سوى دقائق ، وحينما هبطت إلى الشارع كنت أرى فقط، حتى بقية أعضائى لم أشعر أنها معى .. بعثرتنى كأنما فجرت فى قنبلة .. أشعر بأننى أتلاشى أقاوم التبدد ، وأمعنت البصر فى أول مرآة طالعتنى لكى أتأكد أننى مازلت داخل ملابسى ، وأننى قادر علي عمل الأفعال التى يأتيها الأدميون .. ورحت أسير بلا هدف .

مشيت طويلا على الكورنيش .. وقفت أرقب الشمس ، وهى تغرب فى قلب البحر ورأيت وجه والدتى ، والصفرة التى تسبق الموت فى ملامحها ، ورأيتها وهى تموت ، والأيدى تتسابق لتغطى وجهها ، ورأيتها وهى تدفن ، وتغيب فى الأرض ، كما غابت الشمس العظيمة فى قلب الأمواج !!

أكذب إذا قلت إننى كنت أبكى ، وأنا مأخوذ بهذا المشهد .. إلا أننى أحسست بدمعة ساخنة ، وقفت بين جفونى طويلا .. ثم انزلقت على خدى ، ولذ لى أن أتابع رحلتها فوق خدى .. فلما أوشكت أن تسقط على الأرض .. أشفقت عليها فدفنتها بين خدى ومنديلى حتى لا تسقط وتدوسها الأقدام .. واتجهت صوب البيت وفى عينى بقايا دموع .. !

كان علىّ أن ألتقى بها فى اليوم التالى فى المدرسة فهى تعطينا الحصة الرابعة ، وفكرت فى أن أتغيب ذلك اليوم .. ثم فكرت إذا حلت حصتها خرجت ، وقلت للنـــاظر أننى لا أريد حضـــور حصـتها لأنها خطفــت والدى ، وأسبب لها فضيحة انتقاما منها .. لكننى نمـت قبل أن أستقر على حل .. !

فى الصباح كنت أعد حقيبتى للذهاب إلى المدرسة ، وغصت داخل الدولاب أبحث عن قميصى ، ولكنى لم أجده وقلبت كل الأدراج ، وفجأة أصطدمت يدى بمسدس أبى .. ماذا جعلنى أعثر عليه .. ؟ لماذا لم أدعه أمضى فى البحث عن القميص .. ؟ بل حدث العكس أننى تناولته ، ونسيت ماكنت أبحث عنه .. ! وحشرته فى حقيبتى ولم تتحدد بعد فى خاطرى المهمة التى سوف استعمله فيها .

لكن شيئا ما تجمد داخلى .. أنهيت كل شئ على عجل ، وهبطت الشارع أتطلع إلى المعالم التى أراها كل يوم ، وكأنى أراها لأول مرة .. بى شوق كبير إلى المألوف الذى أمارسه كل يوم .. نزعة هروب عارمة تنازعنى حتى لكأنى أريد أن أخلع ملابسى ، وانزلق منها هاربا حتى لا يعرفنى أحد .. كلما نسيت الكارثة التى فى الحقيبة عادت تدق رأسى بعنف كأننى حملت المسدس فى رأسى ..

وتمنيت لو أنها لم تجئ اليوم .. يحدث لها مايعطلها .. ودق الجرس ، ودخلنا الفصـــول ، وكلى رغبــة فى أن أفــر من الجميع .. وكلما حاولت أن أشغل نفسى فشلت ، ومضت الحصة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، ودخلت هى ، وقبل أن تقع عليها عينى .. فتحت الحقيبة ، واخرجت المسدس وصوبته نحوها وأطلقته .. ولم أشعر بما حدث بعد ذلك ..

لماذا امتنعت قرينة طه حسين عن تعلم اللغة العربية؟!

بقلم : د . محمد الدسوقى

كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين - رحمه الله - قبل أن يسافر إلى فرنسا يتخذ من أبى العلاء المعرى مثله الأعلى فى عدم الزواج ، وقد علل لهذا بقوله : كان مذهبى هو مذهب أبى العلاء فى العزوف عن الزواج ، لأني مثله فى العاهة ، ولأنى أحببته ، وكتبت عنه رسالتى للدكتوراه التى تقدمت بها للجامعة الأهلية ..

وقلت للعميد : يبدو أن زوجتكم كانت من وراء عزوفكم عن مذهب أبى العلاء ، قال : إن زوجتى كانت تقرأ لى فى الجامعة بأجر ، فأعجبنى صوتها وطريقة حديثها ، فأحببتها ، وغلب حبها على مذهب أبى العلاء ، فطلبت منها الزواج فاستشارت بعض أهلها فأشاروا عليها بعدم الزواج منى ، لأنى أجنبى ، ولأنى مكفوف ، ولكنها لم تأخذ بمشورتهم . قلت : لو كان قدر لكم الزواج بامرأة أخرى فهل كان سيؤثر هذا عليكم ؟ قال : بالطبع ، لقد قرأت لى زوجتى الأدب الكلاسيكى الفرنسى وعاونتنى فى دراسة اللغة اللاتينية ، وفتحت أمامى آفاقا فكرية ، وأثرت فى ثقافتى وأدبى تأثيرا واضحا .

إن طه حسين قبل أن يوفد للدراسة فى الخارج لم يكن ليتاح له أن يلقى امرأة أو يتحدث إليها ، اللهم إلا والدته أو شقيقته ، فلما سافر إلى فرنسا كانت زوجته أول امرأة لا تمت إليه بصلة الرحم يجلس معها ، ويتحدث إليها ، وتساعده فى دراسته وتنقلاته ، فلا غرو أن أحبها ذلك الحب الذى جعله ينكر مذهب أبى العلاء ، وحمله على أن يطلب الزواج منها ، وكانت



هذه الزوجة من الذكاء وبعد النظر ، فلم تأخذ برأى من نصحها بعدم الزواج من العميد ، فقد آنست فيه إرهاصات العبقرية ، وآيات النبوغ ، وأدركت أن مثله سيكون له فى وطنه شأن مرموق ، فآثرت أن ترتبط به ، وأن تكون زوجة له ، وهى فى هذا قد خضعت - فيما أرى - لمنطق العقل قبل منطق العاطفة .

ولكن هذه الزوجة التى أحبها العميد وأثرت فى حياته ، وكانت عونا له فى دراسته وتنمية ثقافته ، والتى حنت عليه حنوا بالغا حتى وصفها فى آخر الجزء الأول من الأيام بأنها ملك بدل بؤس الحياة وشقاءها نعيما وسعادة - هذه الزوجة لم تنس يوما أنها فرنسية ، فظلت طوال حياتها فى مصر والتى بلغت ثلاثة أرباع القرن تقريبا لا تتكلم إلا الفرنسية ، فلم تعرف العربية قراءة أو كتابة ، أو مخاطبة ، ولم تكن تعرف منها إلا بضع كلمات عامية تنطقها فى لكنة اعجمية ، وتتحدث بها مع الذين يعملون فى البيت كالطباخ وسائق السيارة .

ولم تكن فرنسية هذه الزوجة مقصورة على عدم التحدث بغير لغتها القومية وإنما تجلت أيضا فى كل مظاهر البيت ، فهى تكاد تكون صورة للمظاهر الغربية ، فأثاث البيت واللوحات التى تزين الجدران كلها غير عربية ، وكان الشيخ محمود أبو رية وهو أحد أصدقاء العميد الذين حافظوا على مودته وزيارته يضيق بما يشاهده من هذه اللوحات ، ويتهم زوجة العميد بأنها تأنف أن تعيش فى جو عربى مع أنها زوجة لعميد الأدب العربى .

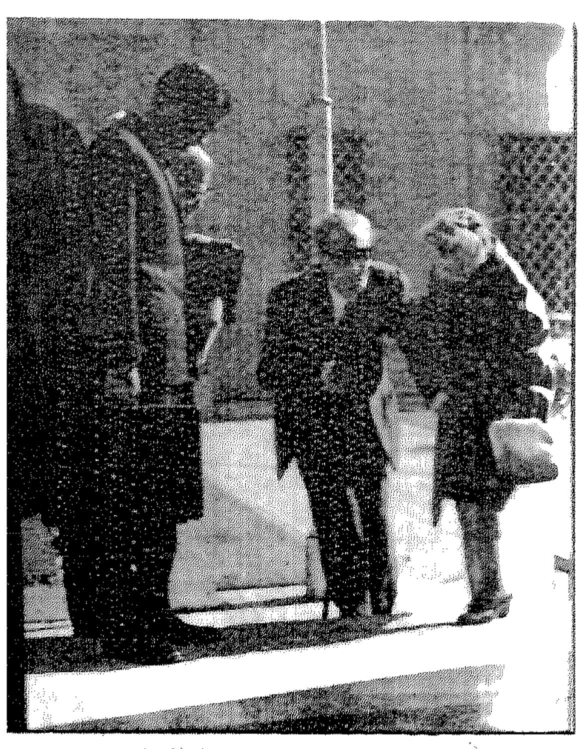
وكانت زوجة العميد إلى جانب محافظتها على لغتها الفرنسية ، ومحاولتها إضفاء الجو الغربى وبخاصة الفرنسى على رامتان تصطفى من يزورونها من الأجانب أو المصريين الذين يتحدثون الفرنسية ونشئوا ثقافيا نشأة غربية .

وإذا كانت زوجة العميد قد ظلت فرنسية لغة وعادات فإنها ظلت أيضا مسيحية تحافظ على الذهاب إلى الكنيسة كل أحد لا تتخلف عن هذا إلا لضرورة قاسية ، وما جاء فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٧/٢٨ من أن السيدة سوزان قد أعلنت إسلامها بعد زواجها من عميد الأدب العربى غير صحيح .

وهذه الزوجة على ضوء ما لاحظته فى العقد الأخير من حياة العميد كانت لها الكلمة الأولى فى كل شئون البيت ، وكذلك فى تنظيم رحلة الصيف وما كان العميد يعارضها أو يناقشها ، كما عرفت هذه الزوجة بصرامتها فى معاملة من يعملون فى البيت حتى السكرتير الخاص لزوجها ، وكان الأستاذ فريد شحاته الذى عمل مع العميد نحو أربعين عاما يذكر بعد أن ترك العمل مع العميد أن زوجته كانت تعامله معاملة الخدم ، وأن هذه المعاملة كانت من

أسباب ترك فريد العمل مع العميد ، وإن كان هذا قد قال لمن حدثه ليعود فريد إلى عمله إن على فريد إذا أراد أن يعمل معى أن يحسن معاملة الست .

وفى شهر مايو سنة ١٩٧٢ كانت صحة العميد سيئة جداً ، ولجأت الزوجة إلى أن تستعين بممرضة تقيم معها ، فقد عجزت عن القيام بما يحتاجه زوجها من رعاية ، وكانت المشكلة التى تقلق الزوجة هى أن توفق فى اختيار شخص مناسب يسافر مع العميد فى رحلة الصيف ، فقد أزف الوقت ، وهى حريصة كل الحرص على أن تسافر فى كل عام ، وكانت فى بعض الأعوام تتهم زوجها بالتمـــارض ، حتى لا يسافر ، وقد استقر الرأى أخيرا - على أن يسـافر مع العميـد الأسـتاذ محمد عبد الحميد الموظف بالعـــلاقات العامة بوزارة التربية والتعليم ، ولجأت إدارة المجمع اللغوى - دون علم العميد - إلى مخاطبة الوزارة تطلب إعارة الأستاذ عبد الحميد لمدة عام ، وتحدث الدكتور إبراهيم مدكور مع الوزير الأستاذ على عبد الرازق موضـحا له الغرض من هذه الإعارة ، ووافق الوزير على طلب المجمـع ، وأخذ هذا الأستاذ يهيئ نفسه للسفر ، وكان بسبب ذلك يتأخر أحيانا فى الحضور إلى رامتـان ، وعاتبتـه زوجـة العميد فى رفق أولا ، ثم ثارت فى وجهه ثورة عارمة ، فرفض السفر ، وألغى الإعارة ، واستمر فى عمله بالوزارة .



طه حسين وقرينته .. قبل الوداع

وكان أصدقاء العميد قد انفضوا عنه فى العقد الأخير من عمره ، لا يزوره منهم إلا عدد قليل ، ويعزو الأستاذ أحمد حسن الزيات - صديق العميد منذ أيام الطلب فى الأزهر والجامعة الأهلية - سبب ذلك إلى تسلط الزوجة وفرض إرادتها على علاقته بأصدقائه ، فقد سألته عن أسباب فتور العلاقة بينه وبين العميد - وكنت أعمل مع الأسـتاذ الزيات فى لجنة المعجم الوسيط - بالمجمع - فقال : إن العلاقة لم تفتر بينى وبين الدكتور طه ، ولكن زوجة الدكتور

هى المسئولة عن ابتعاد أصدقائه عنه ، وأنت تعلم أنه لا يستطيع اغضابها . فقلت : كيف تكون زوجة الدكتور مسئولة ؟ قال : كانت تحول بينه وبين لقاء من يود ، وكنا إذا ذهبنا إليه ورغبنا فى اصطحابه معنا فإنها كانت لا تمكنه من ذلك ، بحجة أن صحته لا تساعده على الخروج ، ولهذا ابتعد أصدقاء الدكتور عنه شيئا فشيئا ، حتى انقطعت صلته بهم تقريبا .

وكان العميد فى الفترة التى سعدت بلقائه فيها ينفق كل شهر أربعمائة جنيه ، تأخذ الزوجة منها ثلاثمائة لمصروف البيت ، والمائة الباقية يعطى العميد منها راتب السكرتير ، ويحتفظ معه بما تبقى من هذا الراتب لما قد يحتاج إليه من إرسال برقية أو رسالة ، أو تصدق على من كانوا يطرقون بابه يطلبون الإحسان ، وما كان العميد يرد من يسعى إليه دون أن يقدم له شيئا مهما يكن قليلا .

وكان المبلغ الذى تأخذه الزوجة إذا لم ينفق كله فإنها كانت تضع ما لم ينفق فى حسابها الخاص فى البنك ، وكان العميد يهدى لزوجته فى بعض المناسبات هدايا فى صورة مبالغ نقدية أحيانا ، وقد ذكر لى أنه فى عهد الملك فاروق رشح لجائزة أدبية مقدارها ألف جنيه ، غير أن الملك عارض فى منح هذه الجائزة للعميد ، ثم أمر بعد ذلك بمنحها له ، ويقول العميد : وقلت لمصطفى النحاس أنا سأرفض هذه الجائزة ، ولكن النحاس رجانى الا أرفضها حتى لا أكون سببا فى أزمة بين السراى والوفد ، وقبلت الجائزة ، وقدمتها هدية لزوجتى . فزوجة العميد كان لها حسابها الخاص فى البنك وكان فى الفترة التى أتيح لى أن ألقى العميد فيها يتجاوز عشرة آلاف جنيه .

وزوجة العميد مع هذا كانت تضيق بما ينفق على بعض أقاربه ، أو أن يمنح بعض العاملين فى البيت أكثر من راتبه ، ومن ثم كان يخفى عنها مايعطيه لهؤلاء أو أولئك ، وحدث مرة أن طلب منى أزيد فى الشيك الذى يصرف فى مستهل كل شهر مبلغ خمسين جنيها ، وأن أعطى له هذا المبلغ دون أن تعرف الزوجة عنه شيئا ، بيد أنى فوجئت بعد عودتى من البنك بأن طلبت منى الزوجة أن أقرأ لها رقم المبلغ الذى صرف ، وكنت قد دونته فى كعب الشيك ، وما كادت تعرفه حتى وجهت الكلام فى انفعال للعميد ، ولاذ بالصمت فلم يرد عليها حتى انتهت من حديثها الغاضب ، وخرجت من الحجرة .

على أن هذه الزوجة مع ذلك كانت تهتم كل الاهتمام برعاية زوجها ، فضلا عن دقتها فى تنظيم وقته ، وأن تقرأ له كل يوم فى الأدب الفرنسى وكان ذلك بعد العشاء وقبل النوم .

إن العميد فى العقد الأخير من عمره كان يعانى من اضطراب فى صحته ،

وكانت زوجته ترعاه أصدق رعاية ، فهى تقدم له الغذاء والدواء فى مواعيد محددة ، ووفق قواعد صارمة ، ولما عجزت عن القيام بهذه الرعاية كما ينبغى أحضرت ممرضة تساعدها .

لقد كان العميد بسبب قلة حركته يشعر بآلام فى أمعائه ومعدته ، وكان يحاول التغلب على هذه الآلام بالاقلال من الطعام ، فزاده هذا ضعفا على ضعف ، ومن ثم كانت زوجته تكرهه على الطعام فى بعض الأيام اكراها ، وكان أحيانا يخضع لإرادتها ، وأحيانا أخرى لا ينزل عند رأيها ، ولا يستجيب لها فتغضب منه أو تثور عليه ، وقد تمسك عن تناول الطعام ، حتى يأكل زوجها كما ترغب لا كما يريد .

وكانت إذا خرجت لزيارة ، أو لدخول إحدى دور السينما تطلب من السكرتير أن يظل مع العميد حتى تعود ، وإن تأخرت عن الموعد المألوف لانتهاء عمل السكرتير فى الفترة المسائية وهو الثامنة والنصف ، لانها ما كانت تطمئن أن تترك العميد مع بعض العاملين فى البيت ، فهم قد لايحسنون مواجهة أى ظرف صحى طارئ يقتضى اسعافا عاجلا .

وبعد فإن زوجة طه حسين أحسنت إليه كل الإحسان بلا مراء ، غير أنها على مابذلت نعمت بحياتها معه ، وأخذت أكثر مما أعطت ، فقد دخلت التاريخ بزواجها من العميد وبحديث العميد عنها فى بعض ما كتب ، وحديثها عن العميد فى كتابها « معك » كما أنها زارت من البلاد ولقيت من الشخصيات ما لم يكن ليتاح لها لو تزوجت غير العميد ، ولكن السؤال الذى يفرض نفسه بالنسبة لهذه الزوجة ، لماذا أعرضت عن تعلم العربية ، وحافظت على لغتها القومية مع أن زوجها مكفوف ، وقد تفرض عليها الظروف ، وهى تعيش فى بلد عربى ، أن تكتب بالعربية أو تقرأ أو تتحدث بها ؟ أكان ذلك استهانة بهذه اللغة ، وعدم اعتراف بأنها لغة جديرة بالدراسة والتعلم ، أو أنه التعصب والشعور بالفوقية ؟!

وإذا كانت زوجة العميد قد أخلصت لزوجها وحنت عليه ، وكانت عونا له فيما أطلع عليه من تراث غربى ، فإنها مع هذا عاشت فى مصر سفيرة مخلصة لوطنها ، حافظت على لغته وثقافته ، وربما كان لها دورها فى نشر تلك اللغة وهذه الثقافة ، ويقتضى الانصاف القول بأن هذه المرأة كانت صادقة مع نفسها فى علاقتها بزوجها وتقديرها له ، كما كانت صادقة فى ولائها لوطنها واعتزازها به ، وإن كنت لا أدرى هل عاشت السيدة سوزان فى مصر بجنسيتها الفرنسية ، أو أنها جمعت بين هذه الجنسية ، والجنسية المصرية ؟

القصة القصيرة

الجزء الثاني

من السبعينات إلى التسعينات

بقلم : د. سيد حامد النساج

ننشر الجزء الثانى من بحث د. سيد حامد النساج ، حيث رصد فى الجزء الأول منه والذى نشر فى العدد الماضى المعايير التى سارت عليها القصة القصيرة خلال الثلاثين سنة الماضية ، وفي ظل الظروف التى يمر بها المجتمع المصرى .

أسباب تقلص القصة

لا يغيب عنا أن لجوء الكتاب الشباب إلى طبع قصصهم بطريقة « الماستر » أو فى كتب رديئة الإخراج والورق ؛ قليلة العدد ، على نفقتهم الخاصة ؛ أو هروبهم للنشر فى صحف ومجلات عربية ، جاء نتيجة ظروف سياسية فرضت على الصحافة طوال السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، مما جعل القصة القصيرة تتقلص ، وتضيق فرص النشر أمامها .

وتتوسل فى التعبير عما نريد التعبير عنه بأدوات ووسائل فنية معقدة أو مسطحة أو غريبة .

ليس من شك فى أن هذا الوضع يفرض ضرورة البحث عن القصة القصيرة المصرية فى صحف ومجلات عربية أقبلت على نشرها بطرق متفاوتة ، وفى أوقات متباعدة، تحددها المجلة أو الصحيفة ؛ وفقاً لسياستها . ومعروف أن موضوع القصة ، وبناءها الفنى ، يخضعان خضوعاً سافراً لما قد تمليه إدارة المجلة ومصالحها الخاصة . وهذا بدوره يستتبع وعياً وذكاءً وثقافة عند دراسة هذه القصص التى كتبها مصريون ونشروها فى الخارج ، ويظفر الباحث بأمثلة كثيرة لذلك فى مجلة (الأقلام) العراقية . فيها تقرأ لكل من : جمال الغيطانى وسعيد الكفراوى وضياء الشرقاوى ، وأمجد توفيق، ومجيد طوبيا ، ومحمد الراوى ،



محمود تيمور — يوسف جوهر

ومحمد يوسف القعيد ، وخيرى شلبى ، وسعيد سالم ،وسحر توفيق ،وعبد الوهاب الأسوانى، وعبده جبير ،ومحمد مستجاب، وعبد الحكيم قاسم ، ومحمد البساطى ، ويحيى الطاهر عبد الله . ليس من بينهم واحد من جيل الأربعينيات أو الخمسينيات .

وعندما كان رجاء النقاش رئيساً لتحرير مجلة (الدوحة) انحاز – على صفحاتها – لشباب كتاب القصة القصيرة، استمراراً للدور الذى أداه فى مصر قبل أن يعار إلى هناك . وسبق هذه الخطوة بإتاحة الفرصة لهم فى صحيفة (الراية) القطرية . أما مجلة (الفيصل) فإنها سمحت بنشر قصص قصار لكل من مجيد طوبيا ورستم كيلانى وهدى جاد ونادية كامل ، وحسن محسب ، وعلى درويش ، وغبريال وهبه ، وأحمد الشيخ ،ومجلة (المعرفة) السورية لم تبتعد عن مجال إهتمام الكتاب بالنشر فيها ؛ فرحبت بكاتب مثل ضياء الشرقاوى قاصاً وناقداً .

هذا يفرض المتابعة النقدية . ولا تكتمل دراسة علمية إلاّ بالسعي وراء إنتاج الكاتب هنا وهناك وهنالك . كما أن الحكم على قصص الكاتب لايصبح صادقاً وموضوعياً إذا افتقد هذا الجانب . لابد من معرفة حركة الصحافة بعامة ، والأدبية بخاصة ، قبيل البحث والتنقيب عن القصص القصيرة المنشورة فيها .

وفيما يتعلق بالصحافة المصرية بدءاً من ١٩٦١ ، فإنه لايغيب دورها ثقافياً وأدبياً وقصصياً إلاّ على كسالى الباحثين ، أو أولئك الذين ينكرون على الثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كل فعل إيجابى ، وكل تخطيط ثقافى . فقد أصدرت الثورة عدداً كبيراً جداً من المجلات والصحف والدوريات : القصة – نادى القصة – المجلة – الكاتب – المساء – الجمهورية – الشعب – الطليعة – الثقافة – الرسالة – الشعر – المسرح – الفنون الشعبية – الفكر المعاصر – إبداع . وكانت قد أصدرت فى الخمسينات « التحرير » و« كتب للجميع » و« الهدف » و« الثورة » . وكان الحرص على أن يكون رؤساء تحرير معظم المجلات من المتخصصين .

ومن حيث الدراسة المتابعة المتأنية الموضوعية ، فيما يتصل بعلاقة القصة القصيرة بالصحافة فى فترة بحثنا ، فإنا نلاحظ مايلى :

١ - بدأت مجلة (القصة) - العدد الأول صدر فى يناير ١٩٦٤ - بالاحتفال بالكتاب الراسخين والرواد ، مثل محمود تيمور أول رئيس تحرير لها ، ومحمود البدوى وإبراهيم المصرى ، ومحمد عبدالحليم عبدالله وأمين يوسف غراب وعبدالحميد جودة السحار ويوسف جوهر وسهير القلماوى والدكتور محمد كامل حسين وجاذبية صدقى . لكنها - مع ذلك - التفتت لما يكتبه الشباب . ففى العدد الثانى - فبراير ١٩٦٤ - نشرت القصة الفائزة بالجائزة الأولى فى مسابقة نادى القصة ، وهى لمحمد البساطى بعنوان (الهروب) صفحة ١٢٧ . وفى العدد الثالث - مارس ١٩٦٤ - نشرت لأحمد هاشم الشريف قصة بعنوان (الذباب لايموت فى الطين) صفحة ١٣٥ ، وأشارت المجلة إلى أنه فاز بالجائزة الأولى لعام ١٩٦٣ . كما نشرت له قصة (القمة) فى العدد العاشر - اكتوبر١٩٦٤ . وكانت هى الأخرى قد فازت باحدى جوائز المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . بينما يأتى العدد التاسع - سبتمبر ١٩٦٤، ليقدم عدداً كبيراً من ذوى الاتجاهات الجديدة ، وممن كانوا - آنذاك - فى بداية الطريق ، وفى مرحلة الشباب .

يؤكد ذلك تلك الكلمة التى كتبها محمود تيمور ، ثم ماسجله ثروت أباظة ، من حيث إن المجلة ، ترحب بالكتابات الشابة التى يبدعها الأدباء الجدد . وهو بالفعل ماأقدمت عليه المجلة بعد فترة . وكانت الجودة الفنية هى المعيار الوحيد الذى تنتقى فى ضوئه القصص التى تنشرها .

أقبل عدد لا بأس به من كتاب القصة القصيرة فى الستينيات على النشر فى هذه المجلة المتخصصة . وإن زعم بعضهم - الآن - غير ذلك ، بدعوى الاختلاف العقدى أو الفكر أو السياسى أو الطبقى . وليس ثمة مبرر لادعاءات يفضحها الواقع والتاريخ والحقيقة . كما قال عز الدين نجيب - وهو واحد من المجددين أبناء هذا الجيل - فى مجلة (الطليعة) العدد التاسع - سبتمبر ١٩٦٩ ، إن مثل هذه المزاعم تتم على الورق فقط ، لكنهم يسمحون لأنفسهم - واقعياً - بالتقاط المزيد من اللقيمات : (وقد لاحظت ظاهرة غريبة فى الحياة الأدبية والفنية ، وهى أن كل القديم سىء فى نظر الجديد على صفحات الورق فقط ، أما على المكاتب والمقاهى فتنطلق قصائد المديح وسط دخان السجائر المتبادلة . ويستمر الجديد فى تمثيلية قذف الطوب من تحت النوافذ طلباً للمزيد من اللقيمات) .

ذلك أن الباحث يجد قصصاً لكل من : جمال الغيطانى وقاسم مسعد عليوة وإبراهيم أصلان وفتحى عبدالفتاح وعبدالرحمن أبو عوف وضياء الشرقاوى ويوسف أبو رية وأحمد الخميسى وأحمد

الشيخ ومحمد مستجاب وصلاح عبدالسيد ومحمد جبريل وعشرات من الكتاب على امتداد تاريخها ورغم تعدد رؤساء تحريرها . وقصة محمد حافظ رجب (الكرة ورأس الرجل) التى تعتبر مناقضة تماماً لما كان سائداً ، نشرتها المجلة فى العدد السابع - يوليو ١٩٦٤ . وقدم العدد الثامن عشر - يونيو ١٩٦٥ عدداً من قصص كتاب الجيل الجديد ، تولى نقدها وتحليلها عدد من النقاد ، يقف فى مقدمتهم الدكتور محمد مندور والدكتور على الراعى والدكتور عبدالقادر القط والدكتور محمد غنيمي هلال .

وما إن تولى ثروت أباظة رئاسة تحريرها حتى حافظ على نفس المنهج ، وأعلن أن المجلة تفتح صدرها كي يتنفس كل الكتاب الجدد ، وهى لاتتخذ موقفاً من أحد .

٢ - وقد واصلت مجلة (نادى القصة) مايو ١٩٧٠السير فى ذات الإتجاه ، وضمت هيئة تحريرها بعض الكتاب المبدعين فى القصة القصيرة هم : أنوار الخراط وبهاء طاهر وزهير الشايب وسعد حامد وسليمان فياض وعبد الحكيم قاسم لكنها لم تصمد طويلاً .

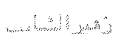
٣ - ورغم أن مجلة (المجلة) قد تناوب على رئاسة تحريرها أربعة من أبنائنا الكبار ، هم د. حسين فوزى ثم د. على الراعى ، ويحيى حقى ، ود. عبد القادر القط ؛ فإن القصة القصيرة لم تلق ماهى أهله من العناية والرعاية إلاَّ فى عهد يحيى حقى .

٤ - ومع أوائل الستينيات ، وبالتحديد فى إبريل ١٩٦١ صدر العدد الأول من مجلة (الكاتب) ، وهى تعلق شعراً لها بأنها «مجلة الثقافة الإنسانية» . ولما كانت تتبنى قضية الفكر الاشتراكى ، وتطبيق مبادئ الإقتصاد الإشتراكى تحقيقاً للعدالة الإجتماعية ؛ فإنها فى ميدان الأدب حرصت على أن تكون القصص التى تنشرها قصصاً واقعية إجتماعية . فأخذت تنشر ليحيى حقى وسعد مكاوى وشكرى عياد ويوسف إدريس ومحمود السعدنى ولطفى الخولى وعباس الأسوانى وأحمد حمروش وعبد السميع الرسام ومحمد سالم وعبد المنعم سليم وعبد الفتاح رزق .

وما إن تولى يوسف إدريس مسئولية الإشراف على باب القصة ، حتى أخذ يقدم لنا الكتّاب الجدد ، من خلال قصصهم ؛ بكلمات تبين عن إنحيازه لهم ، وتفاؤله بمستقبل مثمر ومؤثر فى ميدان القصة القصيرة .

٥ - لم تحظ القصة القصيرة بعناية فى المجلة العريقة (الهلال) فى ظل رئاسة على أمين هيئة تحريرها فى أول يناير ١٩٦٢ . وظل الأمر كذلك على يد كامل زهيرى الذى إهتم بالسياسة والإشتراكية والقومية ، ومما يلفت النظر أن





خيرى شلبى — زهير الشايب

العدد الثانى عشر من السنة الثالثة والسبعين كان من الأعداد الممتازة ، وكانت المجلة قد دونت تحت عنوان « كلمات عاشت » كلمة لمحمود تيمور يقول فيها ص٢ : (أصبحت القصة سلطة ذات سيادة فى الأدب العربى) فإنا لانجد القصة القصيرة المصرية .

ثم أولى الدكتور على الراعى القصة القصيرة المصرية جانباً من إهتمامه ، فنشر لجمال الغيطانى ونوال السعداوى ، وأعدت المجلة فى أغسطس ١٩٦٩ عدداً خاصاً بالقصة القصيرة . وفى أول فبراير ١٩٧٠ أصدر رجاء النقاش عدداً عن نجيب محفوظ أتبعه فى أول أغسطس من نفس العام بعدد آخر عن القصة القصيرة، كان من بين كتابها عشرة ممن أصبحت لهم ملامحهم المميزة فى هذه الفترة . واعتباراً من يناير ١٩٧٢ لم يعد للإنتاج القصصى الجديد وجود فى ظل إشراف الشاعر صالح جودت . مما دفع بعضهم إلى الإتجاه نحو ملحق صغير صدر بعنوان « الزهور » فى يناير ١٩٧٣ . كتب محمد يوسف القعيد وحمدى الكنيسى ومحمد مستجاب ومحمد جبريل وإبراهيم عبد المجيد وعبد الوهاب الأسوانى وزهير الشايب وحسن محسب وإدريس على وعماد الدين عيسى ومحمد حسن الشرقاوى .

ولما كان الدكتور حسين مؤنس لايعترف بمن جاء بعد طه حسين من الكتاب ، وخصوصاً أبناء الستينيات والسبعينيات ؛ فإنا لم نعثر على قصة قصيرة واحدة لأحدهم ، وإذا اضطرت المجلة لنشر قصة قصيرة ؛ فلا بأس من أن يكتبها هذا الواحد أيضاً . ولاننسى أن هذا كله قد حدث فى السبعينيات ، التى دفعت الكتاب إلى أن ينشروا على نفقتهم الخاصة إن كانوا قادرين مادياً . أو أن يلجأ إلى مجلات المهجر . الأهم أن القصة القصيرة كانت تحظى بإهتمام حينا ، ثم إضمحلال حيناً آخر ، وفقاً لسياسة رئيس التحرير ، ورؤيته ، وطموحه ، وإيمانه بكتابها المعاصرين من الشباب . وإن كنا نلاحظ أنه مع منتصف الثمانينيات أصبح ينظر إلى هذا الفن نظرة موضوعية تنتخب، وتختار ، مع حرص واضح على دفع الجديد الجيد ، دون إغفال لرواد هذا الفن ، بإصدار الأعداد الخاصة بهم .

٦ - محصول القصة القصيرة فى مجلة (الطليعة) التى صدر عددها الأول فى يناير ١٩٦٥ قليل جداً . لم تظهر إلاّ

فى أغسطس ١٩٧٣ حين نشرت قصة لعبد الحميد هواس بعنوان (ليلة عيد القيامة) . وكان علينا أن ننتظر عاماً آخر حتى سبتمبر ١٩٧٤ لنقرأ قصة يحيى الطاهر عبد الله « عودة إلى الحقائق القديمة » فهى ماتزال صالحة لإثارة الدهشة » . وفى سبتمبر ١٩٧٥ « فصل من رواية حكاية التاجر والنقاش » لمحمد البساطى . وفى يونيو ١٩٧٦ قصة لمحمود الورداني «الأشجار عند البحيرة » . وفى آخر العام نشرت قصة قصيرة لعبد الحكيم قاسم «الموت والحياة» ديسمبر ١٩٧٦ . بمعنى أنها تقدم قصة قصيرة واحدة أو قصتين إثنتين فى العام كله . حتى كان عدد مارس ١٩٧٧ ، حيث نجد قصة لسحر توفيق ، ثم تتوارى القصة القصيرة ، وتختفى المجلة فى وقت واحد .

٧ – وقد جعلت مجلة (الثقافة) – منذ أول أعدادها فى اكتوبر ١٩٧٣ حتى أكتوبر ١٩٧٨ – للقصة القصيرة مساحة تماثل تلك التى خصصتها مجلة (الكاتب) فى عهد صلاح عبد الصبور فى السبعينات . فلا نظفر بأقل من عشر قصص فى العدد الواحد .

٨ – وإذا كانت مجلة (الثقافة) القديمة قد أعيد إصدارها فى ٢٣ يوليو ١٩٦٣ فإنها لم تحتفل قط بالقصة القصيرة ، وكذلك الحال بالنسبة لمجلة (الرسالة) التى أعيد إصدارها فى ٢٥ يوليو ١٩٦٣ . فهى الأخرى قلما تنشر القصة ذرا للرماد فى العيون ، مرة فى أكتوبر ١٩٦٤ وثانية فى ديسمبر ١٩٦٤ وهكذا .

٩ – وتلعب صحيفة « المساء » دوراً مهماً فى الفترة التى أعقبت صدورها حتى الآن . ونخص بالذكر ماقام به عبد الفتاح الجمل حين تحمل مسئولية الإشراف على صفحة الأدب . اهتم بالقصة القصيرة إبداعاً ونقداً وترجمة . وأسهم إسهاماً مباشراً فى تبنى كتابها الجدد طوال الستينيات ثم فى السنوات الأولى من السبعينيـــات .

١٠ – وتسلط مجلة (إبداع) بدءاً من يناير ١٩٨٣ الضوء على القصص التى يكتبها أبناء الثمانينيات و السبعينيات . بالإضافة إلى مايكتبه أبناء الستينيات . فإذا العدد الواحد يجمع هذه الكتابات معاً وربما أضاف إليها قصصاً كتبها أولئك الذين كانوا ينشرون فى منتصف الخمسينيات . وأتاحت لكاتبات الثمانينيات أن يسهمن بإبداعهن بشكل واضح .

١١ – وهنا تلزم الإشارة إلى المجلات التى صدرت فى الأقاليم ، ولم يكن يشغلها إلاّ فن القصة القصيرة ؛ فى محاولة لإقتحام أزمة النشر ، والتعبير عن هموم بيئية مشتركة ، وعن حتمية إثبات وجودهم وتأثيرهم . ومع كون بعضها لم يصمد طويلاً ؛ فإنها – جميعاً – ساعدت فى نمو

وتطور وازدهار القصة القصيرة فى كل الأنحاء .

كانت هناك « الكلمة الجديدة » فى السويس . و « فاروس » بالأسكندرية . و «أقلام » فى سوهاج . و « الزهور » فى القليوبية و « الشرنقة » فى الغربية . و «رواد » فى دمياط . و « النهار » فى الدقهلية . و « خطوة » فى القاهرة . و «نادى القصة » فى الأسكندرية أيضاً . و « اشراقة » فى كفر الشيخ . و « البحر » فى الغردقة . و « فيروز » فى العريش . و «الرافعى » فى طنطا و « بداية » فى المنيا . و « ضفاف » فى كفر الزيات . و «عروس الشمال » فى دمياط . كما كانت « سنابل » و « آفاق » و « الشارع » و «أدب المستقبل » و « التمام » وغيرها وغيرها. لون آخر من النشر أقبلت عليه الهيئة المصرية العامة للكتاب أواخر التسعينيات وأوائل السبعينيات ؛ عندما أصدرت سلسلة « كتابات جديدة » رفعاً لما يكتبه ذوو التجارب الحديثة . ومعظمهم يشغل الساحة الأدبية الآن ، وقد مضى على ممارستهم الكتابة القصصية أكثر من ربع قرن . وتواصل هيئة الكتاب إصدار بعض هذه الدوريات فى « قصص عربية » و «إشراقات أدبية » . وتنحو نفس المنحى الهيئة العامة لقصور الثقافة « أصوات أدبية » . أضف إلى ذلك صحف «الجمهورية» و « الأخبار » و « الأهرام» وغيرها .

هذه الأمثلة تجعل الباحثين والدارسين ملزمين بالاعتماد على الصحف والمجلات أولاً وقبل كل شئ . لمعرفة الخطوات ، ولتحديد الأصوات ، ودراسة الإتجاهات ، والإحاطة بالظروف والملابسات ، الخاصة بالفن والعامة المتعلقة بالمجتمع . بعيداً عما يثار من مسائل هامشية قد لاتدخل فى باب النقد . وقد تبين أن القصة القصيرة فى مصر كانت تتأثر بالسياسة العامة للمجلة أو الصحيفة ، وبرأى رئيس التحرير على نحو خاص ، ونظرته إلى فكر الكتاب أو موقعهم بالنسبة للمشاهير مرة والجماهير القارئة مرة أخرى .

إن معظم ما أشرنا إليه قد جاء من قبيل ما أصدرته الدولة . فإن ذلك - فى رأينا - من مسئولياتها الأساسية . أما ماقام بإصداره الأفراد مجتمعين أو منفردين ؛ فإنه بالغاً مابلغ لم يتخذ سمة الإستمرار ، ولم يصل تأثيره إلاّ إلى عدد محدود جداً . وفوق ذلك كله فإن الفترة التى ازدهرت فيها تلك الدوريات من قبل الدولة ، تزايد عدد الإنتاج المطبوع من المجموعات القصصية . وتوافد عدد كبير من كتاب القصة القصيرة ، وأقبل الجمهور القارئ عليها . وسعت الصحف من أجل نشرها . وتنوع محصولها الفنى . ووجدت نقاداً متخصصين فيها . مما يدعو إلى رفض أية دعوى تحاول النيل من الفترة بقصد رفض كل مايتصل بسنوات حكم

الرئيس جمال عبد الناصر . ومع أهمية هذا المصدر الرئيسي – الصحافة – فإن الدراسات التى تعرضت للقصة القصيرة المصرية قد أغفلته .

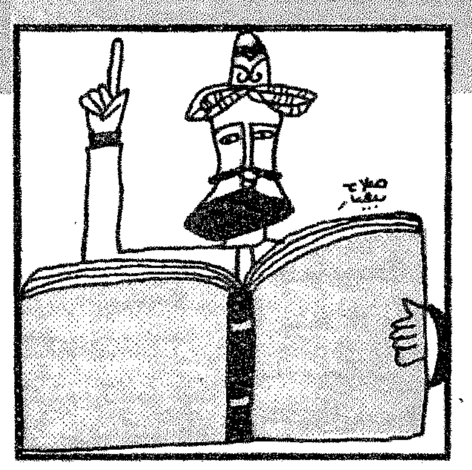
* * *

ونحن فى هذه الدراسة سوف نتبع ما التزمنا به فى الجزئين الأول والثانى ؛ من حيث المنهج ، وإن كنا نعطى « للشكل » نفس العناية التى نوليها للمضمون ، إنطلاقاً من أن القصة القصيرة شكل ومضمون فى وقت واحد .

قد نقف عند آحاد من الكتاب ممَّن نعتبر قصصهم القصيرة ذات تفرد فى الشكل والمضمون . لأنه لايمكن لنا – عملياً – تتبع كل كاتب . نظراً لكثرة عددهم . ولغزارة الإنتاج . كما أن مجموعات منهم كانوا يسيرون فى إتجاه واحد فى الموضوع، وفى زواية الرؤية ، وفى طريقة المعالجة . وهنا تكون دراسة الجماعة واجبة . فهى أقرب إلى طبيعة ما أنتج . وأهدى إلى معرفة الملامح المشتركة . مادامت السمات الفنية الخاصة بكل لاتشكل تفرداً وتميزاً .

بعدئذ تصبح تساؤلات كثيرة بلا معنى ، وربما تكشف عن قصور فهم ، وعن مراوغة مقصودة . كأن يسأل أحدهم : لماذا لم تشر إلى هذا الكتاب وكانت له قصص كثيرة ؟ وفلان عاش المرحلة وماقبلها فلم يكن ثمة وقوف عنده ؟ الكل أجمع على ريادة فلان وأنت لم تفكر فى الكتابة عنه ؟ فلن يملأ الحياة الأدبية صياحاً وإعلاناً لكنك لاتعترف به ولاوجود له عندك ؟! مثل هذه التساؤلات لامعنى لها ، مادمنا نعتمد « الانتخاب » و«الاختيار» ، ومادام هدفنا ليس تقديم عمل ببليوجرافى يحصى عدد القصص والمجموعات ، ويحصر عدد الكتاب .

وليس منطقيا أن يطالب ناقد واحد ، أو باحث واحد ، بعمل كل شئ ، وبدراسة كل كاتب ، والإشارة إلى كل قصة أو كل مجموعة قصصية ؛ وبالإجابة عن كل سؤال ؛ ثم الحكم على كل من كتبوا فى هذا الفن . أين من يزعمون أنهم نقاد عاصروا هؤلاء الكتاب ، وعرفوا أساليبهم ، وهاجوا وماجوا دفاعاً عن هذا وإعلاناً عن ذاك ؟ ولاتحلو لهم الكتابة الموضوعية ؛ وإنما تستهويهم الأحكام الجاهزة ، والنعوت غير العلمية يطلقونها فى المقاهى والندوات والإذاعة والتليفزيون . حسبنا أننا نستهدف تقديم حركة القصة القصيرة المصرية من خلال بعض كتابها الذين لم يكتب عنهم من قبل . أو الذين أسهموا – فعلاً وعملاً لا دعاية وإعلاناً – فى تطور هذا الفن . إذ إنهم أحق بالدراسة ممن تناولتهم من قبل أو ممن تناولتهم مقالات ودراسات سابقة .



التصحيحُ اللغوىّ

وضرورة التّحرّى

بقلم : د. محمود الطناحى

«من عَرف كلام العرب لم يكد يُلحَّن أحداً» تذكرت كلمة الأصمعى هذه وأنا أقرأ صفحة «لغويات» فى عدد مايو الماضى من الهلال ، فقد جاء فى هذه الصفحة «توفى فلان إلى رحمة الله فهو «مُتوفى» بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير . وهذا من بديهيات اللغة التى كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية ، ولكن إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت فى صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة «مُتوف» بكسر الفاء وتنوينها بدلا من «متوفى» التى بيناها ، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه ، ولم يتوفه الله تعالى !» .

وهذا الكلام صواب ، ولكنه ليس الصواب الذى لا صواب غيره ، ولأهل العلم فى ذلك كلام طريف يصححون فيه الوجه الآخر لذلك الاستعمال الذى يأتى على ألسنة العامة هذه الأيام ، وهو الاستعمال الذى خطأه الكاتب الفاضل ، مع أنه ضارب فى العربية بعروقه ، فإنه يقال : «توفى فلان فهو مُتَوَفٌّ» بفتح التاء والواو والفاء فى الفعل ، وكسر الفاء فى اسم الفاعل ، ويكون المعنى على هذا الضبط أنه استوفى أجله ، واستنفد أيامه فى هذه الحياة الدنيا ، وعلى ذلك جاءت القراءة المروية عن على بن أبى طالب ، وعن المفضل عن عاصم : «والذين يَتَوَفَّونَ منكم ويذرون أزواجاً» – سورة البقرة ٢٣٤ – بفتح الياء فى «يَتَوفَّون» قال ابن مجاهد «ولا يُقرأ بها» . وقال ابن جنى فى المحتسب ١/١٢٥ «هذا الذى أنكره ابن مجاهد عندى مستقيم جائز ، وذلك أنه على حذف المفعول ، أى : والذين يَتَوَفَّوْنَ أيامهم أو أعمارهم أو آجالهم ، كما قال سبحانه : «فلما توفَّيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» و «الذين تتوفاهم الملائكة» وحذف المفعول كثير فى القرآن وفصيح الكلام ، وذلك إذا كان هناك دليل عليه ، قال الله تعالى : «وأُوتيتْ من كلِّ شئ» « أى شيئا » . انتهى كلام ابن جنى . وقد رُوى أيضا عن الأعمش أنه قرأ قوله تعالى : «ومنكم من يَتَوَفَّى» سورة الحج ٥ – بفتح الياء ، وحكاه أبو حاتم السجستانى ، كما ذكر ابن خالويه فى شواذ القراءات ص ٩٤ . فهذا الذى يجرى على ألسنة العامة ليس خطأ محضاً ، وإن لم يكن هو الأفصح . قال ابن هشام اللخمى : «وإذا كان فى الكلمة لغتان وكانت إحداهما أفصح من الأخرى فكيف تُلَحَّن بها العامة وقد نطقت بها العرب ، وإنما تُلَحَّن العامة بما لم يُتكلم به» .

على أن هذا التوجيه الذى يُسوغ استعمال «تَوَفَّى» مبنيا للفاعل لا ينبغى أن يُقبلَ إلا من عارفٍ به مُطيقٍ لوجه الكناية فيه . قال الإمام السكاكى فى مفتاح العلوم ص ٩٨ «فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة ، لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو .. ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها ، والراغب فيها خبيرا بمكانها ، وثمن الكلام أن يوفى من أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه ، وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه ، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام ،معتقداً بأن المتكلم تعمدها فى تركيبه للكلام عن علم منه ، فإن السامع إذا جهلها لم يُميز بينه وبين ما دونه ، وربما أنكره ، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه فى تركيبه ذاك إلى الخطأ ، وأنزل كلامه منزلة

ما يليق به من الدرجة النازلة ، ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن على رضى الله عنه أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل : من المتوفى ؟ بلفظ اسم الفاعل ، سائلا عن المتوفى . فلم يقل : فلان ، بل قال : الله ، ردا لكلامه عليه مخطئاً إياه ، منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول : من المتوفىَّ ، بلفظ اسم المفعول .. وما فعل ذلك كرم الله الله وجهه إلا لأنه عرف من السائل إنه ما أورد لفظ «المتوفِّى» على الوجه الذى يكسوه جزالة فى المعنى وفخامة فى الإيراد ، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه «والذين يَتَوَفَّون منكم ويذرون أزواجاً» بلفظ بناء الفعل للفاعل ، من إرادته معنى : والذين يستوفون مُدَدَ أعمارهم» .

قضية لغوية

وهذا الذى رأيته من تسويغ «تَوَفَّى» وإخراجه من دائرة الخطأ المحض يقودنا إلى قضية لغوية كبيرة شغلت اللغويين قديماً وحديثا ، وهى قضية التصويب اللغوى ، وقد بدأ التصنيف فيها مواكباً لجمع اللغة وتدوينها ، على نحو ما نرى عند الكسائى (١٨٩هـ) فى الكتاب المنسوب إليه «ما تلحن فيه العامة» . وتحت هذا العنوان كتب كثير من علماء اللغة الأوائل ، مثل الفراء (٢٠٧هـ) وأبى عبيدة (٢١٠هـ) والأصمعى (٢١٦هـ) ومن فى طبقتهم ومن جاء بعدهم ، بل إن حركة التصحيح اللغوى هذه قد شارك فيها بعض علماء الترك فى الدولة العثمانية الذين اتخذوا العربية قلماً ولساناً ، فرأينا ابن كمال باشا (٩٤٠هـ) يؤلف كتابه «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» ثم جاء على بن بالى القسطنطينى (٩٩٢هـ) فصنف كتابه «خير الكلام عن أغلاط العوام» .

ومعلوم أن حركة التصحيح اللغوى قد تغيت غاية كبيرة ، هى المحافظة على سلامة اللغة ، فى أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وإعرابها ودلالة ألفاظها . ومعلوم أيضا أن التنبه للخطأ اللغوى قديم ، وأن محاصرته والتوقى منه مما جاءت به السُّنة والأثر ، فقد رُوِى أن رجلا لحن بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «أرشدوا أخاكم» وروى عنه عليه السلام أنه قال : «أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد ، فأنَّى لى اللحن ؟» . وقال أبو بكر رضى الله عنه : «لأن أقرأ فأُسقط أحب إلىَّ من أن أقرأ فألحن» . وكتب كاتِب لأبى موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : «من أبو موسى» فكتب إليه عمر : «أما بعد فاضرب كاتبك سوطاً واحدا وأخِّر عطاءَه – أى راتبه – سنة» . ومن أصدق وأدق ما قيل فى استنكار اللحن واستبشاعه ما رُوِى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه «إن الرجل لَيكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن فأردُّه عنها ، وكأنى أقضم حَبَّ الرمان الحامض ، لبغضى استماع اللحن ، ويكلمنى آخرُ فى الحاجة لايستوجبها فيُعرب – أى يتكلم

كلاماً صحيحاً - فأجيبه إليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه» . وروى عنه أيضاً أنه قال : «أكاد أضرس إذا سمعت اللحن» . وقال عبد الملك بن مروان : «اللحن فى الكلام أقبح من الجُدرى فى الوجه» .

وينتهى عصر الراشدين واللسان العربى لا يزال صحيحا محروساً لم يتداخله الخلل ولم يتطرق إليه الزلل ، وتأتى الدولة الأموية ، ومن بعدها العباسية ، وتكثر الفتوح ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، فتختلط الألسنة ، وتتداخل الأصوات واللهجات ، ويستعمل العربى ما لابُد له منه فى الحوار والخطاب اليومى ، من أجنبى ودخيل ، فيضاف إلى عامل «اللحن» القديم عامل آخر ، هو هذا الدخيل ، فينهض له علماء اللغة ، فتكثر الجهود والتصانيف فى حركة التنقية اللغوية .

وفى عصرنا الحديث يطرأ عامل ثالث : هو الاستخفاف باللغة والنحو والصرف ، وإشاعة أن الاشتغال بمثل هذه العلوم مضيعة للوقت والجهد الذى ينبغى أن يُصرف إلى الفكر وحده ، ثم ظهرت بدعة «التفكير الموضوعى» الذى يرفض الاحتفال بهذه الشكليات من حركات الإعراب وأبنية الأسماء والأفعال ، والرسم «الإملاء» ، ثم يكون التخليط فى هذه القواعد والضوابط سمة من سمات التحرر والانعتاق من ربقة التخلف وأكفان الموتى ورمائم القبور !

ويفزع لهذه الغاشية طائفة من علماء اللغة والنحو المحدثين ، فيتصدون لهذا الانحراف عن سنَن العربية ، فيما عُرف بالتأليف فى الأخطاء الشائعة . ومن أبرز ما كتب فيها «لغة الجرائد» لإبراهيم اليازجى ، التى نشرها مقالات فى مجلة الضياء التى أنشأها بمصر سنة ١٨٩٨م ، و«حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب» لأحمد أبى الخضر منسى . و«تذكرة الكاتب» لأسعد خليل داغر . و«أخطاؤنا فى الصحف والدواوين» لصلاح الدين سعدى الزعبلاوى . و«الكتابة الصحيحة» لزهدى جار الله . ثم كتب العلامة النحوى الشيخ محمد على النجار عدة مقالات فى مجلة الأزهر ، باسم «لغويات» نشرها بعد ذلك مجموعة بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية . وكتب العالم العراقى الدكتور مصطفى جواد عدة مقالات أيضا بمجلة عالم الغد البغدادية ، بعنوان «قل ولا تقل» نشرها بعد ذلك فى كتاب ، إضافة إلى ما ذكره فى كتابه : «مباحث لغوية فى العراق» .

على أن هذه الجهود التى بُذلت فى التنقية اللغوية وتصحيح اللسان العربى ، قد تعرضت فى القديم والحديث لحركة نقدية واسعة ، تبعاً لمقياس الصواب اللغوى وعلى أى صورة يكون ؟ وهل يقتصر القياس على المشهور الشائع دون القليل النادر كما يرى البصريون ، أم

يقاس على الشاهد الواحد والشاهدين ، كما يقول الكوفيون ؟ وهل نقف عند أفصح اللغات ونُلغى ما سواها ، أم نجعل الشاذ والفصيح واحداً ؟ وقد كان بعض اللغويين يتشدد ويحكم بالخطأ على ما لم يكن فصيحا وإن جاءت به لهجة من لهجات العرب ولو كانت ضعيفة ، وكذلك يعد صحيحاً كل ما رواه لغوى ولو كان منفرداً بروايته . ولعل أعدل منهج فى القبول والرد هو ما أثر عن أبى عمرو بن العلاء ، وقال له أحدهم : «أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقال : كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : اعمل على الأكثر ، واسمى ما خالفنى لغات» . فهذا منهج يقوم على اعتبار الأكثر ، وعدم إنكار الأقل ، فهو يقبله ولكنه يضعه فى دائرة اللغات . واللغات عندهم تعنى ما نسميه نحن الآن : لهجات .

ومن أشهر كتب نقد مؤلفات التصحيح اللغوى قديما : ما صنفه ابن هشام اللخمى الإشبيلى (٥٧٧هـ) فقد ألف كتابه : المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان» وعرض فيه بالنقد لكتابين تقدماه فى لحن العامة : هما لحن العامة ، لأبى بكر الزبيدى الإشبيلى (٣٧٩هـ) وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكى الصقلى (٥٠١ هـ) . وقد ذكر ابن هشام أن الزبيدى «تعسف على عامة زمانه فى بعض الألفاظ، وأنحى عليهم بالإغلاظ ، وخطأهم فيما استعمل فيه وجهان وللعرب فيه لغتان»، وأن ابن مكى الصقلى أنكر على العامة ما يحتمل التأويل أو يكون عليه من كلام العرب دليل» .

لغة الجرائد

وفى عصرنا الحديث أيضا تعرض مؤلفو الأخطاء الشائعة إلى كثير من النقد والمراجعة ، ومن ذلك ما كُتب من نقد حول «لغة الجرائد» لليازجى ، وما أثير حول «قل ولا تقل» لمصطفى جواد . وقد دارت معظم هذه النقود والتعقبات حول معيار الحكم بالخطأ والصواب على هذا الاستعمال أو ذاك . ويكشف عن اختلاف معايير الحكم بالخطأ والصواب هذان المثالان : خطأ أبو بكر الزُبيدى العامة فى قولهم : امرأة سكرانة ، وبين أن الصواب : سكرى ، ثم ذكر أن بنى أسد كانوا يقولون : سكرانة . فرد عليه ابن هشام اللخمى : «فإذا قالها قوم من بنى أسد ، فكيف تُلحن بها العامة ، وإن كانت لغة ضعيفة ، وهم قد نطقوا بها كما نطقت بعض قبائل العرب» . ورُوى عن ابى عثمان المازنى أنه قال : «دخلت بغداد فألقيت على مسائل ، فكنت أجيب فيها على مذهبى ، ويخطئوننى على مذهبهم» مغنى اللبيب (مبحث إذا) .

على أن أعظم ما تعرض له الذين كتبوا فى التصحيح اللغوى فى القديم

والحديث : هو التسرع وعدم الاستقصاء والتحرى ، والوقوف عند حدود القاعدة اللغوية والنحوية ، دون التفات إلى المسموع والمأثور المتناثر فى كتب العربية على اختلاف علومها وفنونها ، فالمعاجم على تنوعها واتساع بعضها لم تُحص اللغة كلها ، وآية ذلك ما تراه فى فهارس أئمة تحقيق النصوص ، من تلك الألفاظ والتراكيب التى جاءت فى أشعار العرب وكلام أهل العلم من السابقين الأولين ، مما لم يُذكر فى المعاجم اللغوية المتداولة ، ومن ذلك ما ذكره شيخنا محمود محمد شاكر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت فى بيانها» .

وما تراه فى فهارس أستاذنا عبد السلام هارون رحمه الله ، البيان والتبيين ، والاصمعيات والمفضليات ومقاييس اللغة .

وليس غريبا أن تغيب بعض الألفاظ والتراكيب عن معاجمنا اللغوية ، فإن لغتنا العربية أوسع من أن تحيط بها المعاجم وحدها ، وقد قال الإمام الشافعى : «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى» . وعلى هذا فإن اللغة ينبغى أن تُلتَمس من كتب العربية كلها ، لأنك واجد فى كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافية وسائر فنون التراث ، من اللغة ما لا تجد بعضه فى كتبها المصنفة فيها المقصورة عليها ، وذلك لأن العربية كتاب واحد .

وإذ قد ثبت هذا - إن شاء الله - فإنه من الواجب على من يتصدى للتصحيح اللغوى أن يتحلى بالأناة والتوقف والصبر ، وألا يهجم على التخطئة دون سند قوى وحُجة غالبة .

نماذج

وقد كنت عُنيت فى مطالع الشباب بتلك الكتب المصنفة فى اللحن والأخطاء الشائعة ، وكنت أحفظ منها مسائل ذوات عدد ، أديرها على لسانى فى مجالس المذاكرة والمطارحة ، مزهوا بما أحفظ ، إذ كان عندى هو الصواب الذى لا صواب غيره . وحين أذن الله - وهو الذى بيده الخير كله - أن أتصل بما كتبه أهل العلم فى كتب العربية ، وبخاصة شروح الشعر وغريب القرآن والحديث ، والأمالى والمجالس ، وكتب التراجم والطبقات ، ووقفت على تصرف أهل البيان فى الأبنية والألفاظ والتراكيب ، حين تم لى ذلك - على ضعفى وقلة حيلتى - أيقنت أن ليس الطريق هنالك ، وأن التخطئة والتصويب لا يُصار إليهما إلا بعد عناء وجهد ، لأن الأفق رحب والمدى واسع ، والشوط بعيد ، وبخاصة أننا فى زمن انقطعت دونه الرواية ، وغاب الأشياخ ، فلوصد بغيابهم باب ضخم من أبواب العلم ، لأننا أبناء أمة قام تراثها على الرواية والتلقى والمشافهة

والتوقيف ، والكتب وحدها لا تصنع عالماً ، وقد قال أبو الفتح بن جنى فيما وقع له من كلام شيخه أبى على الفارسى : «ولمثل هذه المواضع يُحتاج مع الكتب إلى الأستاذين» - شرح تصريف المازنى ١/٢١٠ - وقال ابن قيم الجوزية : «ولمثل هذه الفوائد التى لا تكاد توجد فى الكتب يُحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء» بدائع الفوائد ١/١٠١ وإذ قد وضح لى بعض الطريق جمعت طائفة من تلك الألفاظ والتراكيب التى خطّأها الناس ، ورأيت صوابها أو استعمالها عند بعض أهل العلم قديما ، واكتفى من ذلك هنا ببعض النماذج التى تمهد لما أردته من ضرورة التحرى والمراجعة أمام كل تخطئة أو تضعيف :

١- يُخطئ بعضهم استعمال «النفس» فى غير التوكيد ، يريدون أنك تقول : «الشئ نفسه ، ولا تقول : نفس الشئ

وقد وجدت استعمال هذا الذى يخطئونه فى كتاب سيبويه ١/٢٦٦ - وحسبك به - وذلك قوله : «وتجرى هذه الأشياء التى هى على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام» وقوله أيضا فى ٢/٣٧٩ «وذلك قولك : نزلتُ بنفس الجبل ، ونفس الجبل مقابلى» . وقال الجاحظ فى الحيوان ١/٧٦ «ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة» . وقال ابن جنى فى الخصائص ١/٣٤٨ «وإنما جاز ذلك فى هذا الموضع لا لشئ رجع إلى نفس «أو» بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى أو» . وقال المرزوقى فى شرح الحماسة ص ٨٩٢ « وأشار بقوله الأبد إلى نفس الدهر» . بل إن هذا الاستعمال قد ورد عند من هو أقدم من هؤلاء جميعا ، وهو الخليل بن أحمد ، شيخ العربية وشيخ سيبويه ، وذلك قوله فى كتاب العين ٨/١١٧ «والترباء : نفس التراب» .

٢- يُخطئ بعض النحويين استعمال «قد لايكون» لأن «قد» لا تدخل على النفى ، والصواب أن يقال : «ربما لا يكون» . وقد وجدته فى كلام لابن جنى ، قال فى الخصائص ١/٢٠ «كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره» وفى كلام للمرزوقى ، قال فى شرح الحماسة ص ٥٧ «والاكتفاء به قد يقع وقد لا يقع» . ثم وجدته كذلك عند المالقى ، فى كتابه : رصف المبانى فى شرح حروف المعانى ص ٤٥٥ ، قال فى (مبحث قد) «إن نفيت فقلت قد لا يقوم ، توقعت العدمَ» .

٣- يرى بعضهم أن كلمة «مجاناً» مبتذلة وغير فصيحة وتوشك أن تكون عامية ، وأن الصواب أن يستعمل مكانها «بدون مقابل» ونحوه . وقد رأيتها عند ابن فارس ، فى مقاييس اللغة ٥/٢٩٩ ، قال : «والمجان : هو عطية الرجل شيئا بلا ثمن» . وقد استعملها ابن خلدون فى مقدمته ص ٥٥٧ ، قال : «فليست اللغات وملكاتها

مجانا» .

٤- يستسقط بعضهم تركيب «عبارة عن كذا» وقد رأيتُه في كلام ابن جني ، قال في كتابه الخاطريات ص ٥٨ «ويؤكد ذلك أن لفظ الجبال قد وضع عبارة عما لا تُدركه المعاينة» . وقد رأيت هذا التركيب كثيرا في كلام الفقهاء ، وكُتُب التعريفات .

٥- منع بعض النحويين دخول «أل» على «بعض» ، فلا يجوز أن تقول : أحبوا بعضهم البعض ، وإنما تقول : أحب بعضهم بعضاً . وقد أدخل سيبويه «أل» على بعض ، وذلك قوله في الكتاب ٥١/١ «وربما قالوا في بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه» . وكذلك صنع ابن جني في الخصائص ٦٤/١ ، قال : «فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض» ، وكذلك استعملها ثلاث مرات في الخصائص ٣٣٤/٣ ، ومن قبل سيبويه وابن جني دخلت «أل» على «بعض» في الشعر الجاهلي ، وذلك قول المرقش الأصغر ، في إحدى رواياته ، يصف فرسه :

شـــهدتُ بـه عن غــارة مُســـبطرة

يطاعن بعض القوم والبعض طوَّحوا

٦- وكذلك منع بعضهم دخول «أل» على «غير» ، لكني وجدتها في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٩٨/٢ ، وكتاب الهوامل والشوامل ، لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ص١١٧ ، ثم رأيتها قديماً في كلام لصاحب القاموس في موضع غاب عني الآن .

٧- يخطئ بعضهم استعمال الفعل «ساهم» بمعنى «شارك» على أساس أنه لم يأت في المعاجم إلا : ساهم فلان القوم : أي دخل معهم في القرعة فقرعهم وغالبهم لكنه قد جاء بمعنى «شارك» في شعر ينسب لزهير ولأبي الأسود الدؤلي ، وهو قوله :

أبا ثابت ساهمت في الحزم أهله

فرأيك محمـــود وعهـــدُك دائم

وعلى ذلك جاء في المعجم الوسيط ، الذي أصـــدره مجمـع اللغـة العـربية بالقـاهرة .

وهكذا نتبين صدق كلمة الأصمعي السابقة «من عرف كلام العرب لم يكد يُلحن أحداً» .

لكن هذه الكلمة على صدقها لا ينبغي أن تُتخذ سبيلا للفوضى اللغوية أو الحرية في استعمال ما نشاء ، وارتكاب الضرورات والمحظورات اللغوية ، بدعوى أن من الأوائل من ارتكب الضرورة واستعمل الشاذ ، ثم بزعم أننا يجب أن نرفع العوائق ونحطم الحواجز أمام الإبداع والمبدعين ... ولهذا وأشباهه حديث آخر ..



رسالة

قالت الوعدُ ؟ إنه مستحيلُ .·. قلتُ : هذا الدلالُ منك دليلُ
ملء ساقيك غَنَجٌ وعد لطيف .·. يَهَبُ الملك للهوى ويَنيلُ
تحت إبْطيكَ خلوة .. تتغنى .·. أيها الآكلُ استوى المأكولُ
وبعينيكِ واديان .. لماذا .·. لك في الواديينْ صمت طويل
خصلة فوق خصلة فوق رأسٍ .·. هو أشهى الرؤوس حين يميلُ
وتجاهلْتِ أنَّ قلبيَ حقَلٌ .·. ربما تُنبت القلوب حقولُ
يتعالى بلفتةٍ .. منك طيرُ .·. عبقرى بين الطيور أصيلُ
شجر الحب أخضر اللون ينمو .·. كل يوم .. لايعتريه الذبول
فاكتبى لي سطراً بخمْس لغات .·. ليس يدرى بما كتبت الرسولُ
من حروفٍ لم تنقرِضْ ورموزٍ .·. إنا - أنت - الوجود - نحن - الشمولُ
وإذا ضجتِّ الورودُ .. وحارتْ .·. واعتراها بين الزوايا ذهولُ



شعر : سليم الرافعى

فانظرى مرة إلى الشرق عفواً .'. وانشقيه .. ففى السماء كحولُ
وإذا ماسكرت من ذكريات .'. جاز فيها التسليمُ والتأويلُ
فأعيدى الحياة .. شرقاً وغرباً .'. لفتة منك كهرباء تسيلُ
عبق الكونُ من لحاظ وشبّتْ .'. روضةٌ بعد روضة ونخيلُ
كل شىء يصحّ .. كلُّ زمانٍ .'. ومكان كل الفروع أصولُ
من لقاء يبنى الوجودُ ويهوى .'. صنم الشك منه أو يستقيلُ
أيها البلبلُ احتواك قضاءٌ .'. ممطر .. ملهم .. كريم .. بخيلُ
فى زواياه وعدها .. وشموس .'. ونجوم .. وثغرها المعسولُ
.. ..'. .. ..

وإذا قلتِ لىِ : أعدْ .. سأغنى .'. أيها النبل .. هل يصدُّ النبيلُ ؟

سينما

مهمة فى تل أبيب وأخرى فى الخليج

بقلم: مصطفى درويش

منذ منتصف السبعينات ، وبالتحديد منذ ظهور «نادية الجندى» فى «بمبة كشر» (١٩٧٤) ، ونجمها فى صعود . وهى الآن ، وكما يحلو لها أن تسمى نفسها فى أى اعلان عن أفلامها ، نجمة الجماهير ، بلا جدال .

ومما لوحظ أخيرا ، أنه ، ومنذ «جبروت إمرأة» أى قبل ثلاثة أعوام أو يزيد ، وأفلامها تزداد عنفا، وانفصالا عن الواقع .

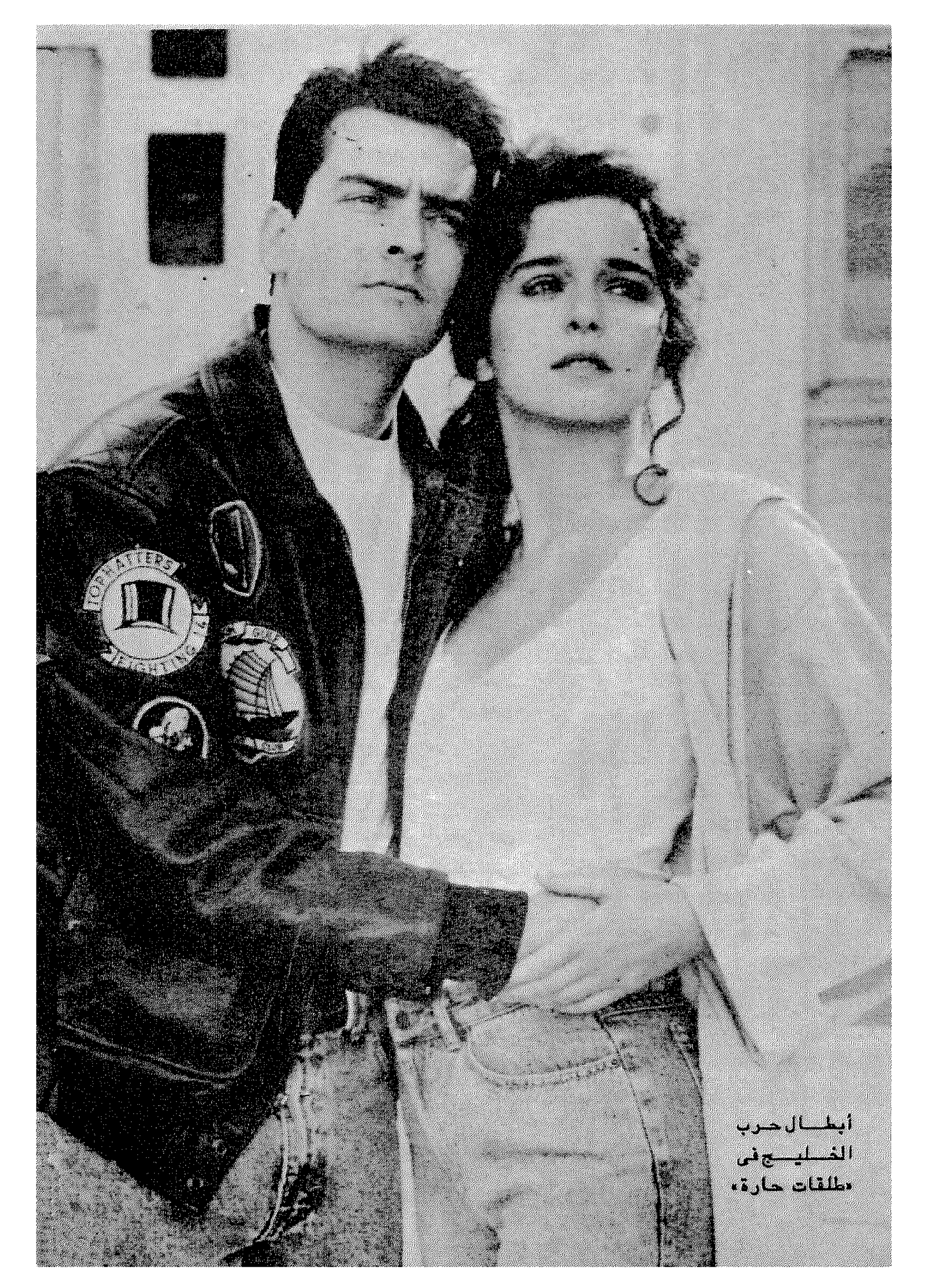
وهاهو ذا «مهمة فى تل أبيب» فيلمها الاخير يؤكد ذلك الانفصال بشكل قاطع .

وعلى كل ، فأول مايستدعي الانتباه فى ذلك الفيلم ، بدءا من العناوين ، هو إسناد بطولة الرجال فيه «لمحمد مختار» زوج نجمة الجماهير ، ومنتج أفلامها على امتداد عقد من عمر الزمان .

وما أن تنتهى العناوين بسلام ، حتى تظهر النجمة فى لباس غريب ، وهى تقول لسفير مصر فى باريس إنها جاءت إليه لأمر «مهم وخطير» .

وسرعان ماتعترف أمام سيادته ، ولسانه منعقد من هول مايسمع ، إنها جاسوسة ذباحة للرجال ، تعمل لحساب مخابرات إسرائيل «الموساد» ، وتريد بعد أن تابت وأنابت أن تعود إلى أرض الوطن العزيز ، حيث ابنها الوحيد .

وعقب مشهد اللقاء هذا ، يسرع سيادة



أبطال حرب
الخليج فى
«طلقات حارة»

السفير بإبلاغ المخابرات المصرية التى تسرع هى الأخرى بإرسال أحد رجالها الاشداء للالتقاء بالجاسوسة الحسناء .

وتشاء المصادفة البحتة أن يكون الرجل الذى وقع عليه الاختيار لهذه المهمة الصعبة والجليلة فى آن واحد ، ليس إلا «محمد مختار» زوج ومنتج أفلام نجمة الجماهير .

وطبعا يتم اللقاء بين الاثنين فى برج ايفيل ، حتى يفهم من لم يستطع أن يفهم بعد ، أن الكاميرا إنما تصورهما حقيقة وليست وهْما ، وهُما فى عاصمة الفرنسيس .

وتنتقل الأحداث بالنجمة ، ومايدور فى فلكها من رجال أقرب إلى الكومبارس منهم إلى أى شىء آخر ، بين مدن باريس والقاهرة وبروكسل وتل أبيب والقدس ومطار لارنكا وأحراش جمهورية اسمها «بادنجو» بغرب أفريقيا .

الوهم والحقيقة

غير أننا بفضل إمعان النظر فى اللقطات ، نكتشف أن مطار بروكسل ليس إلا مطار باريس ، وأن كنيسة القدس حيث التقت نجمة الجماهير بأحد رجال الدين الفلسطينيين المنخرطين فى صفوف مقاومة الاحتلال ، هى فى حقيقة الأمر كنيسة الدير المعلق «العذراء» بمصر القديمة ، وأن الفندق حيث قامت بإغراء أكبر رأس فى هيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلى ، إن هو إلا فندق «سياج» القريب من سفح أهرام الفراعين ، وان المطعم الذى تسلمت من صاحبته ، بعد أن أفضت لها بكلمة السر «خالتى بتسلم عليك» ، مفاتيح هيئة الأركان الاسرائيلية ، مما اتاح لها الدخول فى قدس اقداسها ، ومن ثم الاستيلاء على خطة بنى اسرائيل الحربية بالكامل ، ذلك المطعم ليس فى اورشليم ، وإنما فى القاهرة وبالتحديد مدينة المهندسين حيث تنتشر المطاعم كمش الغراب .

حديث الباذنجان

أما جمهورية بادنجو فليس لها وجود إلا فى مخيلة صانعى «مهمة فى تل أبيب» .

والأكثر غرابة من ذلك كله ، غلاف مجلة «باريس ماتش» الموضوعة على المنضدة أمام نادية الجندى فى إحدى اللقطات تأكيدا من صانعى الفيلم لوجودها فى باريس فالعناوين على ذلك الغلاف عن موت ملك الصحافة «ماكسويل» الذى وجدت جثته فى اليمّ بالقرب من يخته الفخم ، وأزمة الجزائر مع غلاة السلفيين ، وكلاهما من أحداث شتاء ١٩٩١ ، وليس شتاء ١٩٧٣ ، حيث تجرى وقائع الفيلم كما قيل لنا فى أولى اللقطات .

الحية الرقطاء

ومع ذلك فهذه الأخطاء التى ترج عادة إلى اهمال المخرج وهو فى هذ الحالة «نادر جلال» ، تهون أمام تصوير الفيلم لرجال المخابرات الاسرائيلية ، بلهاء

أغبياء ، يسيل منهم اللعاب ما إن تتلوى وتتثنى أمام أعينهم الظامئة ، حتى يفرطون في كل شيء ، بما في ذلك أسرار أمنهم العسكري في مواجهة الأعداء .

إذ لو كان الاسرائيليون بمثل هذه البلاهة ، وبمثل هذا الغباء والاشتهاء لجسد النساء البيض ، فبماذا تفسر حروب العرب الخمس ضدهم على امتداد خمسين عاما إلا قليلا ! .

وبماذا يفسر بقاء اسرائيل حية رقطاء حتى تاريخ انتهاء «بشير الديك» صاحب «ناجي العلي» من كتابة سيناريو «مهمة في تل أبيب» ، ومن بعد ذلك ظهوره بلحمة ودمه في أحد مشاهد الفيلم يؤدي دور مناضل فلسطيني «أبو ضياء» .

تشويه الصورة

ففي هذا المشهد تدعي «نادية الجندي» أن ساقها التوت .

ويبدأ «الديك» بتدليك قدمها ، وهو يقول لها «هون» فتجيبه بصوت يقطر إغراء «لافوق» وتتسع ابتسامة «الديك» ، أسف المناضل الفلسطيني ، ثم يصعد باصابعه متسائلا «هون» فتزداد لاءاتها اغراء ، ويزداد هو إقداما .

(يلاحظ هنا أن مخرج الفيلم ظهر هو الآخر في احدى اللقطات متقمصا شخصية مناضل فلسطيني يسيل على نجمة الجماهير) ومن غرائب الفيلم الأخرى أنه يقول من بين مايقول إن نجمة الجماهير في عمر الزهور، لها ابن صغير



نادية الجندى فى مهمة تل أبيب

ليس له من العمر إلا ست سنوات . وإنها ماخانت مصر ، إلا لأنها توهمت أن حكامها قتلوا زوجها الطيار غدرا ، لثورته على الفساد الذي أدى بالبلاد إلى هزيمة نكراء .

هراء وبلاء

وإنها ماعادت إلى حب مصر إلا بعد أن سمعت في اجتماع حاشد بباريس قصيدة لصلاح جاهين «ورق .. ورق» عن أطفال مدرسة بحر البقر الذين قتلتهم قنبلة اسرائيلية في إحدى الغارات الوحشية ؛ فكان أن تذكرت مصر المنسية، و«تامر» إبنها الوحيد .

وغني عن البيان أن كل ذلك مما يدخل

فى باب الهراء ، ولا أقول ، التخليط المحطم للقلوب .

والحق ، أنه لو كانت الأشياء تسمى بمسمياتها الحقيقية ، لكان الأولى بفيلم نجمة الجماهير الأخير أن يسمى « مهمة فى القاهرة » بدلا من «مهمة فى تل أبيب » فالفيلم ليس له مهمة فى واقع الأمر ، سوى تحقيق أعلى الايرادات فى الشباك ، وذلك باستغلال اختلاط الحابل بالنابل ، واستباحة كل شيء بلا خشية أو حياء والآن من هراء المهمة الناجحة التى قامت بها نجمة الجماهير فى « تل أبيب » ، أو بمعنى أصح فى القاهرة ، انتقل إلى الخليج .

كما لم نر « تل أبيب » فى أى مشهد من مشاهد فيلم نجمة الجماهير ، فإنه لم تتح لنا فرصة أن نرى الخليج العربى ، ولو فى لقطة واحدة من الفيلم الأمريكى « طلقات حارة » المخرج «جيم ابراهامز» ، وهو أحد أفراد الثلاثى المكون منه ومن الأخوين «زوكور» ، والمعروف تحت اسم « زاز »

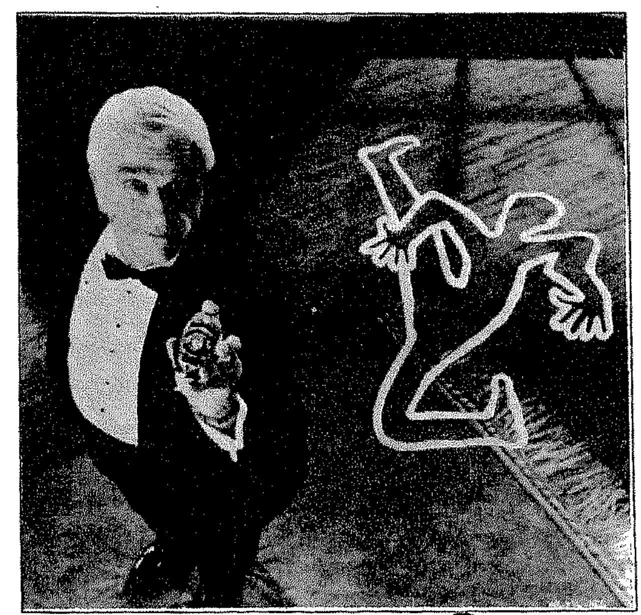
يوم الحساب

ولقد شاءت الأقدار لفيلم آخر مخرجه واحد من هذا الثلاثى «دافيد زوكور» ، وهو البندقية العارية جزء ثان ونصف ، رائحة الخوف ، وشاءت له أن يعرض فى القاهرة مع «طلقات حارة» فى وقت واحد وكلا الفيلمين معاد لإدارة الرئيس «جورج بوش » .

وكلاهما قصد به ، فى أغلب الظن أن يلعب دورا فى حملة الانتخابات الرئاسية الامريكية التى تشتد ضراوة كلما اقترب يوم الادلاء بالاصوات فى صناديق الاقتراع وكلاهما من ذلك النوع الفكاهى المرح الساخر سخرية لاذعة لاتقيم وزنا لاى مقام و لأى اعتبار .

والبندقية العارية « جزء ثان ونصف» ، والحق يقال لم يترك كبيرة ، ولاصغيرة فى المجتمع الامريكى حتى أعلى المستويات ، بما فى ذلك البيت الأبيض وسيدته الأولى جدة الامريكيين ، إلا وسخر منها على وجه غير مسبوق – حتى فى أكثر أفلام مصنع

ليزلى نيلسن فى البندقية العارية
جزء ثان ونصف



الاحلام جرأة ، ولا أقول تطاولا ولاغرابة في هذا ، فمبدعه «دافيد زوكور» واحد من تلك الفئة القليلة من المخرجين التي تستطيع أن تجعل المتفرج يستلقي على قفاه من الضحك ، وأن تفعل ذلك بغير مبالغة واسفاف ، بل وأن تسمو بالاضحاك إلى مستوى فني رفيع .

وفوق كل هذا يدور الفيلم حول مشكلة اجتماعية تؤرق الناس .

التلوث .. لماذا ؟

وتلك المشكلة في «البندقية العارية» هي التلوث الناجم عن استمرار استعمال النفط وقودا للسيارات .

هذا إلى وجود جماعات ضغط قوية ، يصل نفوذها إلى أهل القمة ، من مصلحتها وقف التقدم بالحيلولة دون استغلال الكهرباء في تحريك جميع وسائل الأنتقال .

والغريب من أمر هذا الفيلم أنه ، ورغم إسناد بطولته إلى «بريتشيللا بريسلي» زوجة « الفيس بريسلي » المغنى الراحل الذائع الصيت .

و« لزلي نيلسن» الممثل المرح الذي ما أن يظهر على الشاشة ، حتى يشيع البهجة في القلوب .

ورغم إسناد الادوار الثانوية إلى كوكبة من كبار الممثلين أذكر من بينهم «جورج كيندي» الفائز باوسكار افضل ممثل مساعد قبل خمسة وعشرين عاما (١٩٦٧) والممثل الانجليزي والشكسبيري البدين «ريتشارد جريفيث» الذي قام بأداء دوري العالم الخيِّر والمجرم الشرير ، ومع ذلك لم يمنح عن الدورين إلا اجرا واحدا !! .

فالفيلم رغم كل ذلك ، لم يحقق في القاهرة نجاحا . والأكثر غرابة أن فيلم «طلقات حارة» ، وهو لايختلف عنه في قليل أو كثير ، قد حقق نجاحا منقطع النظير .

خيانات وبطولات

ومهما يكن من الأمر فإذا كان «البندقية العارية» يسخر من أعلى سلطة في أمريكا ، وبمناسبة النفط المفسد للبيئة والنفوس ، فإن «طلقات حارة» هو الآخر يسخر من أعلى سلطة ، ولكن في القوات المسلحة ، وبالتحديد سلاح الطيران .

واحداثه تدور قبل حرب الخليج بقليل ، بل بعضها ، والفيلم يقترب من الختام ، يدور على ظهر حاملة طائرات ينطلق منها البطل «شارلي شين» بطائرته الآيلة للسقوط بفعل المخربين في الادارة الامريكية والبحرية والشركات المتاجرة في السلاح والارواح .. ينطلق إلى أين ؟

إلى المكان المحدد له في العراق ، حيث يصيب بصواريخه كل الأهداف في ثوان معدودات .

وكأن الفيلم يريد بهذا أن يقول إن انتصار أمريكا في حرب الخليج رغم كل هذا الفساد والتخريب ، إنما سببه شجاعة وتضحية الرجال ، وبالذات فرسان سلاح الطيران .

الناس والقراءة فى الصيف

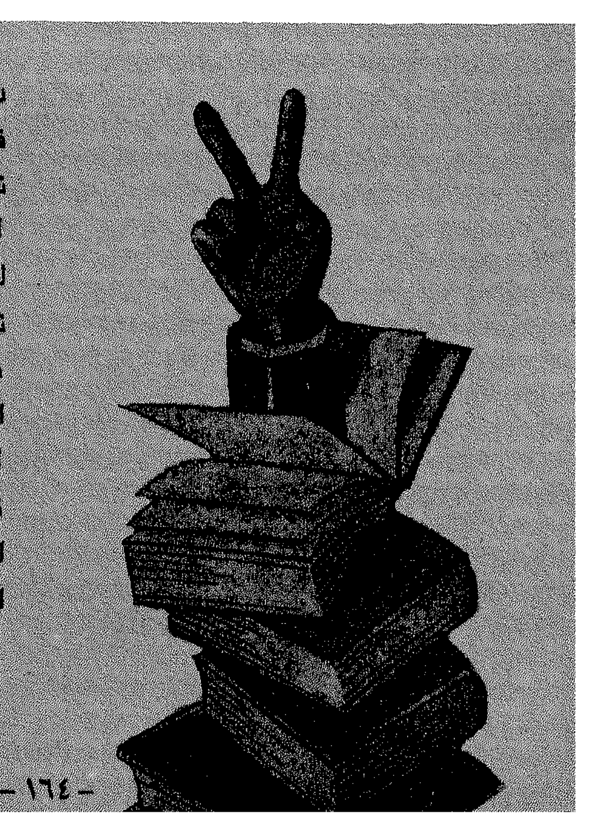


بقلـــم : محمود قاسم

أصبح الحديث عن علاقة إنسان نهاية القرن العشرين بالقراءة مرنا ، ويتسم بأن هذه العلاقة ذات سمة مطاطية ، خاصة أن القراءة مرتبطة بمتغيرات عديدة منها أذواق الناس وقابليتهم للقراءة ومسائل النشر ووجود وسائل عديدة تلعب أدوارا مؤثرة فى جذب الناس من دنيا القراءة إلى الرؤية والاستماع والتسلية .

ومثل هذه العلاقات تحتاج إلى قياس دورى ودائم لتعكس مدى التغير الذى نراه فى مجتمعاتنا من ناحية ، وفى العالم من ناحية أخرى فقبل أكثر من شهر ، بدأ على المستوى الرسمى المهرجان الصيفى للقراءة للجميع ، وهو فى المقام الأول نشاط موجه للأطفال والشباب بإعتبارهم نواة القراءة الأساسية فى المجتمع ولأنهم الأكثر عددا . فحسب الاحصاءات المنشورة أخيرا فإن ٧٥ ٪ من سكان مصر قد ولدوا بعد عام ١٩٦٧ مما يعكس أبعاد المساحة العريضة التى توجه إليها هذه الأنشطة .

ولسنا هنا بصدد تقييم مهرجان



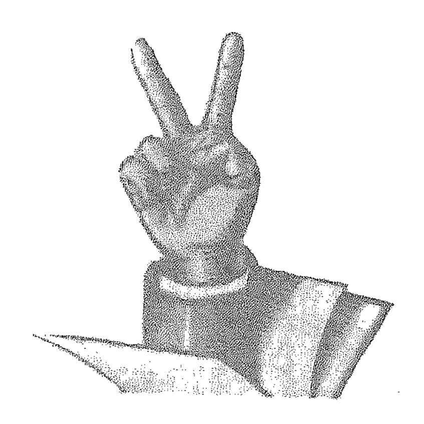


القراءة للجميع الذى أقيم فى العام الماضى أو التنبؤ بما يمكن أن يحصده مهرجان هذا العام فليس بين أيدينا ما يشير إلى نتائجه بالأرقام والاحصاءات حتى يمكن أن نفهم مدى صعود أو هبوط إحدى الظواهر ، وذلك لأن مؤسسة ثقافية واحدة من المؤسسات العديدة التى ساهمت فى المهرجان لم تهتم بالقيام بهذا الدور .

نسوق هذه الملاحظة بمناسبة ذلك التحقيق الهام الذى نشرته مجلة «لوبوان» الفرنسية فى عددها الصادر فى ٣٠ مايو الماضى تحت عنوان «انقذوا القراءة» .. ويهمنا قبل أن نستعرض هذا التحقيق الهام أن نشير إلى أن المجلة السابق الإشارة إليها تعتبر أبرز المجلات السياسية الفرنسية ، وفى مثل هذا النوع من المجلات يمكن أن نجد مراجعات للكتب الجديدة وأحدث العروض السينمائية والمسرحية .

وليس غريبا على مجلة سياسية أن تنشر مثل هذا التحقيق عن «انقاذ القراءة» فى اثنتى عشرة صفحة كاملة فهذا من صميم السياسة حيث راحت مجموعة من المحررين والمفكرين يتتبعون أحوال القراءة فى بلدان عديدة ، ومن خلال زوايا متباينة .

فللوهلة الأولى يمكن أن نلمس مدى الجدية التى تناولت بها المجلة موضوع



«انقاذ القراءة» فليس القارئ هنا أمام مجموعة من الاراء التى قد تعبر عن أهواء خاصة لا تستند إلى أسس علمية مثلما نرى فى تحقيقات مشابهة فى بعض صحفنا ومجلاتنا ولكن هذا التحقيق يعتمد أساساً على الأرقام والاحصاءات الدقيقة .

القراءة .. أزمة عالمية

أهم ما جاء فى مجلة «لوبوان» هو أن أزمة القراءة قد أصبحت عالمية ولم تعد مقصورة على بلد دون آخر ، وإن كنا نؤكد أن هذه الظاهرة تتفاقم أزمتها فى بلاد الجنوب أكثر من الشمال وللمرء أن يتخيل أحوال القراءة فى بلد يعج بأناس تزيد نسبة الأمية بينهم على أكثر من ٧٥ ٪ وترتفع الأمية الثقافية إلى درجة أعلى من هذه الدرجة بكثير ففى التحقيق المشار إليه هناك تأكيد على أن ٧٠ ألفا من الشباب الفرنسيين يتركون الدراسة وهم فى سن السادسة عشرة سنويا ، وهم بالكاد يعرفون القراءة ولاشك فى أن مثل هؤلاء لايستطيعون قراءة الكتب الحقيقية وكل ما يمكنهم عمله هو مشاهدة برامج التليفزيون .

وتقول الاحصاءات أن فى بلد كفرنسا ، يمكن أن يتخذ كمقياس فى ارتفاع نسبة القراءة ، فإن شخصا من كل فردين يشاهد التليفزيون طيلة ساعات النهار وفي عام ١٩٩٢ شاهد ٣٦٪ من الفرنسيين برامج التليفزيون أكثر من عشرين ساعة إسبوعيا ، بينما كانت هذه النسبة لا تزيد على ٢٣٪ فى العام الماضى وفى احصائية أخرى فإن عدد التلاميذ الذين تضاعف عددهم فى العشرين سنة الأخيرة قد صرحوا بأنهم يقرأون كتابا واحداً فى الشهر ، وهناك احصاءات تقول أن ٢١٪ من القراء كانوا يقرأون أكثر من عشرين كتابا سنويا وأن هذه النسبة قد انخفضت إلى ١٧ ٪ فى عام ١٩٨٩ .

وليست هناك علاقة بين ما يشتريه الناس من كتب ، وبين مايقرأونه فلا شك أن الكثير منا يشترون الكتب ويحتفظون بها دون أن يقرأوها ولديهم النية أن تتيح لهم الظروف أن يحدث ذلك يوما لكن الكثيرين من المؤسسات يهمها أن تنشط حركة بيع الكتاب ، فحسب احصائية حول إحدى المكتبات بباريس فإن عدد المترددين عليها يوميا يصل إلى ثلاثة عشر ألف شخص أى ما يعادل أربعة ملايين فى السنة وقد دفع هذا بوزير الثقافة الفرنسى جاك لانج إلى إقامة مهرجان ضخم تحت اسم «حمى القراءة» بدأ فى عام ١٩٨٩ وقد ساعد هذا المهرجان فعلا على

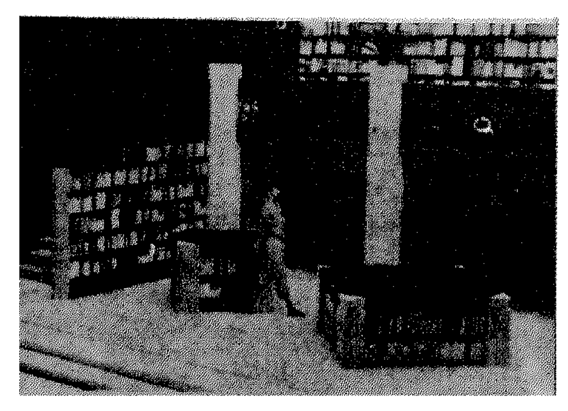
ارتفاع نسبة شراء الكتب لكن بينما الأمور تتحسن فإن انخفاض أسعار أشرطة الفيديو كان كفيلا أن يشكل تهديداً للمشروع بأكمله .

الكتب أرخص .. من السينما

ولاشك أن تطور صناعة الوسائل المرئية قد لعب دوراً فى منافسة الكتاب ليس فقط فيما يتعلق بالقراءة بل أيضا فيما يخص الشراء ، فقد كانت نسبة الأشخاص الذين اشتركوا فى القنوات الخاصة عام ١٩٧٣ تبلغ ٨٪ ارتفعت هذا العام إلى ٥٦٪ ، وقد أثر هذا بالتالى على علاقة النشء والشباب بالقراءة ، هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم أمام نوع جديد من المنافسة ، حيث إنه سرعان ما ابتعدوا حتى عن التليفزيون ، الذى أصبح وسيلة تقليدية ، كى يتحولوا إلى منافس جديد يسمى بألعاب الفيديو .

وهناك دائما أطروحة يطرحها الناس كلما ناقشت مسألة القراءة ألا وهى أسعار الكتب العالية ، والجواب فى أغلب الأحوال موجود لدى الناشرين الذين يرون أن سعر الكثير من الكتب أقل الآن كثيرا عن أسعار تذاكر السينما ، أما الكتب الغالية حقا فإنها تقارب سعر ثلاث تذاكر .. وغالبا ماينظر هؤلاء الناشرون إلى الأمر بمنظور رقمى فهم ينشرون الكتاب الذى يعرفون أن القارئ سوف يدفع فيها الثمن المطلوب مهما كان مرتفعا .

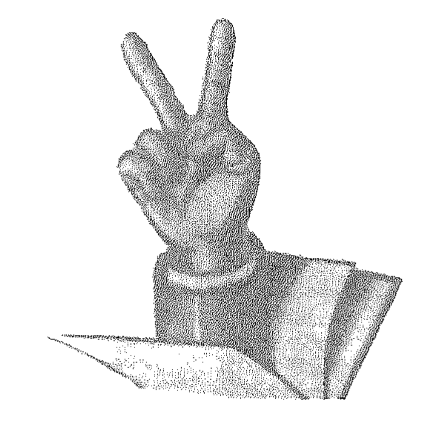




الرعب فوق سلم المبيعات

إذا كانت هذه بعض ملامح الصورة فى فرنسا ، فماذا عن بلاد أخرى ؟

حسب ما تقول مجلة لوبوان فإن متوسط مايخص كل مواطن أمريكى عام ١٩٩٢ من ساعات البث التليفزيونى يبلغ ٢٤٦٣ساعة و ٧٣٠ ساعة من البث الاذاعى . بالاضافة إلى أن هذا المواطن يستهلك ٦١ ساعة من الثرثرة الهاتفية . كما أن متوسط عدد الصحف التى يقرؤها فى العام تصل



إلى ١٠٠ صحيفة ، و ٣٠ مجلة .

وحسب الاحصاءات التى نشرها معهد جالوب فان خريجى الجامعة يقرأون ٢٥ كتابا فى السنة مقابل ١٥ كتابا فى مختلف المعارف لمن تلقوا تعليما غير جامعى ولذا فإن عدد الدقائق التى يخصصها المواطن الامريكى يصل إلى ٣٤ دقيقة لقراءة الصحف ، و١٤ دقيقة للمجلات ، و ٢٣ دقيقة للكتب .

وتقول دراسات المعهد أن ٨٩ ٪ من الامريكيين يؤكدون أنهم يدفعون أولادهم للقراءة ، وذلك لأن فيروسات القراءة يجب أن تصيب الاطفال فى سن مبكرة . وتقول أيضا أن معدل القراءة يزداد كلما وجد القراء أنفسهم أمام عناوين متعددة تدفعهم للاختيار .

ورغم هذا ، فإن القراءة قد قلت بشكل ملحوظ . وفى مجتمع تبلغ نسبة الأمية ١٣٪ فإن الكاتب المقروء دائما فى الولايات المتحدة هو ستيفن كنج ، المشهور برواياته المرعبة . فى نفس الوقت الذى يجىء ترتيب أدباء مرموقين فى ذيل قائمة المقروئين ..

وفى بريطانيا لايختلف الأمر كثيرا . كما أنه لم يتغير منذ أعوام . فمن المعروف أن الاثرياء هم أكثر من يشترون الكتب . ويعتمد البريطانيون كقراء على الصحف ، فالجريدة اليومية توزيع ١٥ مليون نسخة ، وفى يوم الأحد توزع ١٨ مليون نسخة .

ويقول الناقد الفرنسى إنه فى انجلترا يوجد أحسن برامج تليفزيونية فى العالم . ومع ذلك فإن البرامج الثقافية تكاد تكون منعدمة . ولكن هذا لايمنع أن فى بريطانيا مجموعة جيدة من المجلات الأدبية المتخصصة .

وفى ايطاليا فإن أكثر من ٦٢ ٪ من السكان يقرأون أقل من كتاب فى العالم . ولذا انخفضت أرقام مبيعات الكتب فى السنة الماضية بشكل ملحوظ .

الناس يتحدثون عن كتب ، لم يقرأوها ؟

ورغم مايقال عن « إنقاذ القراءة فى هذه البلاد ، وأيضا فى بلادنا ، فلاشك أن شكل المكتبات قد تغير كثيراً فى النصف الثانى من القرن العشرين . فقد أصبح الكتاب صناعة مثل بقية الصناعات . أنشئت من أجله أسواق كبرى - سوبر ماركت - ففيما قبل كانت الكتب تباع فى المكتبات إلى جوار كراسات وأدوات المدارس . لكن الآن هناك أسواقا عملاقة .

لبيع كل أنواع الكتب . لقد أصبحت الكتب تعرض في هذه الأسواق بنفس الكيفية التي تعرض بها البضائع الاخرى في المحلات المجاورة وعلى المستهلك أن يشترى مايشاء من كتب كأنه الطعام مثلا والله وحده يعلم هل سيلتهمه تواً . أم سيحتفظ به في الثلاجة لحين الحاجة !

في رأيي الشخصي . فإن أهم ماجاء في هذا التحقيق الضخم . وهو ماجاء على لسان برناربيفو . واحد من كبار صناع الثقافة في فرنسا . فهو صاحب مجلة «لير» الشهرية التي صدر عددها رقم ٢٠٠ في مايو الماضي . وهي مجلة متخصصة في متابعة وتحليل الاصدارت الجديدة . كما أنه صاحب أشهر برنامج ثقافي يذيعه التليفزيون الفرنسي والمعروف تحت اسم « ابستروف » . كما أنه شخص متعدد المواهب . فهو مؤلف وممثل . وقد صنع نجومية عشرات الأدباء في السنوات الأخيرة .

تتهم المجلة البرامج التليفزيونية الثقافية بأنها تدفع الناس لشراء الكتب ولكنها لاتجلعهم يقرءونها . إلا أن بيفو يرد قائلا إن مثل هذا إزدراء . فلاشك أن بعض المشاهدين يشترون الكتب . ومع ذلك يدعون قراءتها لأنهم سمعوا عنها دردشة في برنامج تليفزيوني . أما الذين اشتروا الكتاب فإنهم يتابعون البرامج التي تعد عنه بدافع معرفة أشمل . وذلك كي يكون للقراءة طعم مختلف .

ولاشك أن ما قاله بيفو يثير نقاشا حول نوع من البرامج غير موجود في بلادنا فالبعض منا ينظر إلى متابعة الكتب الجديدة على أنها دعاية .. للكتاب ، كما أن أغلب البرامج التليفزيونية يعتمد في المقام الأول على حوارات جامدة خالية من الحياة بينما البرامج الثقافية الفرنسية أقرب إلى المنوعات كما تشاهدها مبثوثة على القنوات الفضائية .

حاولنا في السطور السابقة ، ونحن مع بداية أشهر الصيف ، أن نلقي بعض الأضواء على أحوال القراءة في العالم : مشاكلها وأبعادها ولا شك أننا في حاجة إلى دراسة مهرجاناتنا الثقافية بأشكالها المختلفة بعد أن ننتهي من اقامتها ، وكم نحن في حوج إلى هيئة أو مؤسسة (مثل معهد جالوب) تقوم بدراسة التغييرات الحادثة والطارئة لدى القراء ، ودراسة التنافس بين القراءة والمشاهدة ، وأيضا ألعاب الفيديو ، ومعرفة إلى أي حد أصبحت القراءة فعلا للجميع وكيف سارت ليس فقط طوال اشهر الصيف ، ولكن طوال العام ، فلاشك أن من تذوق «لذة» القراءة مرة لا يمكن أن ينسى حلاوتها ، فليست القراءة كالنزول إلى البحر تتم في الصيف فقط بل هي « غريزة » إنسانية أساسية كلما أشبعها المرء احتاج إلى المزيد منها .

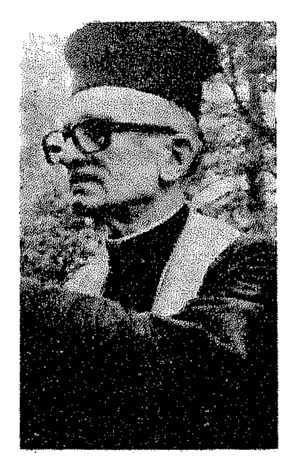
بوخارست

عقارب الساعة عند الخامسة والعشرين

اكتسبت رواية «الساعة الخامسة والعشرين» شهرة كبيرة بين اوساط المثقفين العرب خاصة المصريين ، رغم أن الرواية لم تترجم على مدى واسع حيث صدرت فى سوريا ابان الستينات .

تجدد الحديث هذه الأيام عن هذه الرواية بمناسبة رحيل كاتبها الرومانى فرجيل جورجيو فى اوائل الشهر الماضى

لقد عاش هذا الروائى فى الظل سنوات طويلة سواء قبل أن ينشر روايته الرائعة «الساعة الخامسة والعشرين» أو بعدها ..



فرجيل جورجيو

ورغم أن جورجيو قد بدأ حياته شاعراً ، ورغم أنه حصل على الجائزة الملكية للشعر فى رومانيا عام ١٩٤٠ إلا أنه سيظل دائما مقرونا بهذا الرواية التى ترجمت إلى أكثر من ٣٠ لغة .

ورث فرجيل وظيفته كقس عن أبيه . ولكنه أصبح شاعراً بمفرده ، سافر إلى ألمانيا واعجب كثيرا بالكاتب هايلد برج ، ثم توجه إلى باريس من أجل أن يستكمل تعليمه .

لم يتمرد فرجيل ابداً على وظيفته. الكهنوتية ، بل أحس أنها يمكن أن تساعده فى أن يكون شاعراً ، ويقول النقاد إن أى كاتب لم يكن له أن يقدم رواية «الساعة الخامسة والعشرين» إلاصاحب نفس راضية ، فالرواية تدور أحداثها فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، حيث يجيء بعض الجنود للقبض على مزارع ، لايعرف أحد السبب .. ويجد نفسه ينتقل من معسكر لأخر دون أن يعرف السبب ، فلا هو باليهودى كى يدخل معسكر الاعتقال ، ولا هو بالمحارب كى يتم أسره وطوال سنوات يغيب فيها المزارع عن بلده تظل امرأته تنتظره .. حتى تفاجأ به يوما وقد عاد بعد أن أذبلتها

السنون .. ولا أحد أيضا يعرف .. لماذا تم اعتقال المزارع ..

الغريب أن فرجيل جورجيو قد نشر أكثر من ستين كتابا . منها فى أواخر حياته كتاب يحمل عنوان «السماء تقيم فى لبنان» قال فيه إنه كم يتمنى لو يدفن فى لبنان كى تنتهى الحرب الأهلية هناك .

فى عام ١٩٦٨ قامت السينما الفرنسية بتحويل رواية «الساعة الخامسة والعشرين» إلى فيلم اشترك فى بطولته انطونى كوين فى دور المزارع وفيرنا ليزى فى دور الزوجة وأخرج الفيلم هنرى فرنوى .. وحور الفيلم قصة الرواية وحشاها بقصص كثيرة عن اضطهاد اليهود فى معسكرات النازى .

تيرانا :

إسماعيل .. علمنا الأدب

لكل مرحلة سياسية كاتبها . ولكل جيل مبدعون .. ولن تقف البانيا عند كاتبها الكبير إسماعيل قدرى الذى اختار أن يعيش فى فرنسا منذ ثلاث سنوات .

الآن تتم المراهنة على كاتب شاب يحظى بنفس الأهمية التى حظى بها قدرى . إنه بسنك مصطفى وهو روائى . وكاتب مقال . نشر فى الشهر الماضى رواية أكدت موهبته المتدفقة تحت عنوان «بين جرائم وخيالات» .. ولأن الكاتب القريب من الناس غالبا ما يقف ضد الحاكم الطاغية . فإن مصطفى قد وقف ضد رامز عاليا . وهو عضو فى الحزب الديمقراطى فى البانيا .

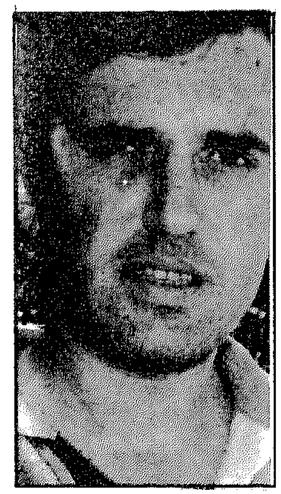
ورواية «بين جرائم وخيالات» تدور فى عالم غريب . ففى إحدى مناطق البلقان هناك امرأة تدعى سناء . تنتظر عودة خطيبها جورى منذ سنوات طويلة . إنها امرأة عند كلمتها فقد وعدته أن تنتظره مهما طالت غيبته . وأخيرا يعود جورى . ولكن الفتاة تفاجأ بأن حبيبها قد تغير كثيراً . وأنه ليس الشخص الذى سافر . تحس أن عليها أن تتعامل مع هذا الرجل على أنه بديل لـ «جورى» .. وأن جورى لابد قد مات وأرسل بدلاً عنه شبحا باهتاً .

وبمناسبة صدور روايته أجرت مجلة «حدث

الخميس» حواراً مع الكاتب قال فيه إن أوروبا الآن مشغولة باشياء كثيرة ولاتعرف أن نهضة إسلامية تنبعث فى البانيا التى يسكنها ٧٠ ٪ من المسلمين . «نحن نقدم الكثير من النقود من أجل أن نبنى المساجد . وكى نساعد أنفسنا أن نمشى فى الركب الإنسانى » .

ويقول بسنك مصطفى عن بطلته سناء إنها امرأة من الماضى . فليس هناك فى عصرنا وفاء بهذا الشكل . طالما أن فترة غياب جورى قد طالت إلى هذا الحد . فطول الغياب يصيب الحب بالبرود .

وقد تمنى الكاتب أن يسير على نهج إسماعيل قدرى الذى وقف دائما ضد الديكتاتورية فى رواياته . ويقول إنه ليس



بسنك مصطفى

الوحيد الذى يتمنى أن ينال نفس الأهمية والشهرة وأن يكتب بنفس الأسلوب . ولكن الكثير من أبناء الجيل الجديد فلاشك أن إسماعيل قدرى قد ساعد كثيرا على أن يخلص البلاد من الديكتاتورية بكتاباته .

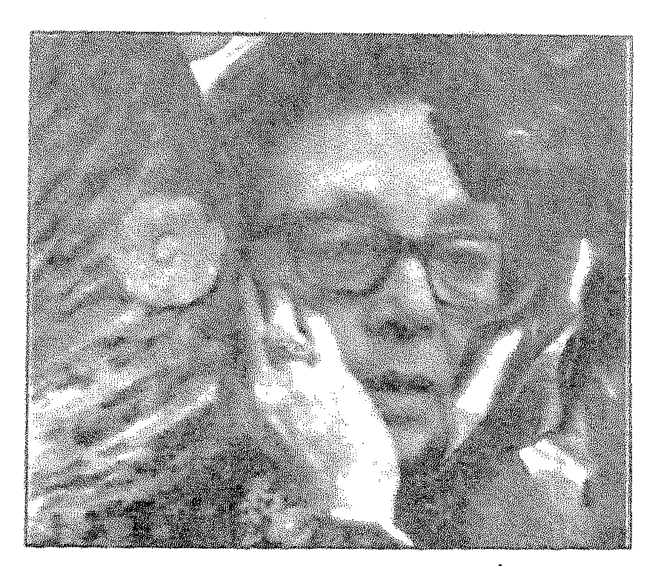


باريس

الأديبة تحب .. كى تكتب وتنسى

مرجريت دوراس كاتبة لاتكف عن العمل . وفى كل عمل فنى جديد تثير حولها النقاش ليس فقط لأنها لم تكف عن الكتابة وهى التى تقترب من الثمانين (مولودة عام ١٩١٤) بل لانها جربت تقريبا كافة أنواع الإبداع . فهى تكتب الرواية والمسرحية . والسيناريو. وتخرج قصصها للمسرح أو للسينما .

والجديد فى دوراس أنها يمكن أن تأتى بسيناريو فيلم كتبته قبل سنوات لتحوله إلى رواية أو إلى مسرحية . كما يمكن أن تفعل ذلك بين


مرجريت دوراس

فنون الكتابة التى مارستها بكل سهولة وآخر هذه المحاولات هى أنها حولت أخيرا سيناريو فيلمها - الذى أخرجته عام ١٩٧٢ - يان اندريا شتاينر إلى رواية صغيرة الحجم بنفس الاسم .

وبالنظر إلى النص الجديد لايمكن التكهن هل نحن أمام رواية أم شعر، أم سيناريو سينمائي ، أم مسرحية . وذلك بكُل بساطة لان مرجريت دوراس قد مزجت بين كل هذه الفنون الكتابية كلها فى نص ابداعى واحد .

ولم تقع مرجريت دوراس أسيرة للنص . ولكنها قامت بتجريده وصبغته بصبغة جديدة تناسب كاتبة فى التسعينات . فقد التقت ذات يوم وهى خارجة من عرض فيلمها «أغنية هندية» بشاب كان يكتب لها خطابات من وقت لآخر . وعندما بدأ اللقاء تولدت قصة حب ، وترى مرجريت أن الحب لايدوم سوى من أجل كتابة عمل جديد . وعليه أن ينتهى . لذا فهو يولد كي يموت .

أما الحب الأزلى عند الكاتب . فهو ارتباطه بأدباء آخرين فهى تحب راسين صاحب مسرحية «فيدرا» . وفى روايتها تحفظ الشاب الذى قابلته بشبابه بشكل ابدى .. فلاشك أنه الأن قد عرف الشيب . لكنه لايزال الشاب فى ذاكرة الكاتبة.

وتقول مجلة لوبوان - ٢٧ يونيه ١٩٩٢ - أن مرجريت دوراس كتبت روايتها بعبارات قصيرة . مرنة . وكأنها مجموعة من التعليمات المكتوبة فى روشتة .

الأذن الداخلية

التوازن الدقيق

بقلم : د . محمد بهائى السكرى

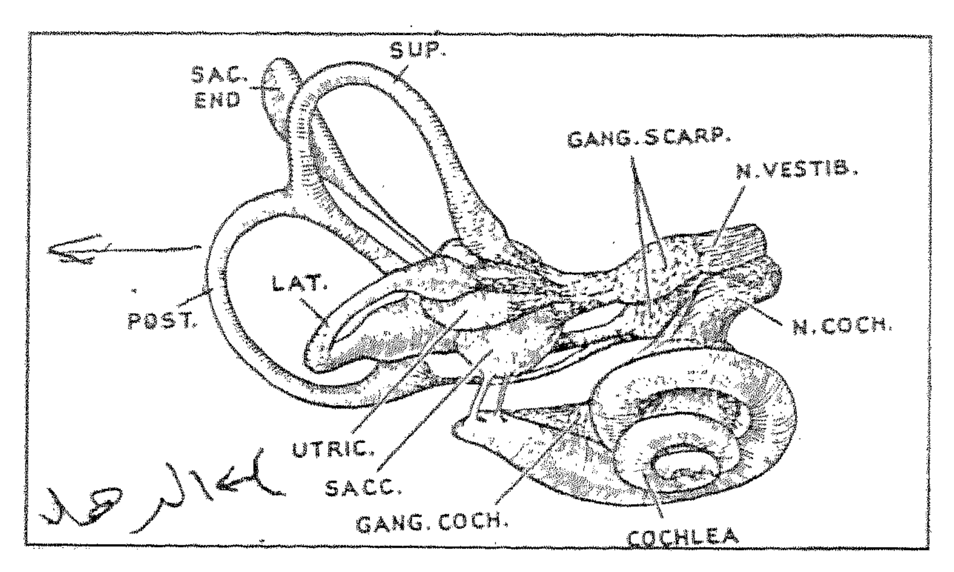
تعلقت أنظار المشاهدين فى المسرح الكبير باللاعب الرشيق الواقف على منصة مرتفعة وأمامه حبل ممدود إلى منصة أخرى وهو يعصب عينيه بمنديل أسود ثم يبدأ يتحسس طريقه بقدميه فوق الحبل المشدود ويسير فى أناة ثم يتوقف عند منتصف الحبل ليقفز قفزة دائرية فى الهواء يعود بعدها إلى نفس النقطة التى كان عندها فى منتصف الحبل المتأرجح تحت وقع خطواته ، ثم يسير فى ثقة ليصل إلى المنصة الأخرى ويرفع العصابة عن عينيه وسط تصفيق الناظرين .

أى اتزان دقيق وقدرة على معرفة وضع الجسم فى الفضاء دون الاستعانة بالبصر مع التحكم الفائق فى انقباض عضلات الجسم المختلفة على البدن من السقوط !

إن كل هذه القدرة على الإبهار لتتلاشى لو تعرض اللاعب لمرض أصاب عضوا حسيا خاصا يقبع فى تجاويف عظام الجمجمة فى حيز صغير لا يتجاوز سنتيمترات معدودة يعرف بالأذن الداخلية يختص بوظيفتين مزدوجتين مترابطتين : السمع ، والاتزان (شكل «١»)

* * *

وتتكون الاذن الداخلية من جزءين أساسيين : القوقعة وبها مستقبلات حسية خاصة بالسمع ، والدهليز والقنوات الهلالية المتصلة به حيث توجد مستقبلات معينة تختص بالتوازن .



شكل ٥٥ : الأذن الداخلية
بأجزائها المختلفة القوقعة والدهليز والقنوات الهلالية .

وتقوم الأذن الخارجية المكونة من صوان الأذن وقناة السمع الخارجية وطبلة الأذن بتجميع الموجات الصوتية ونقلها الى الأذن الوسطى التى تحملها بدورها عن طريق عظمات دقيقة ثلاث إلى الأذن الداخلية وتحدث الموجات الصوتية تذبذبا فى سائل موجود بالأذن الداخلية ويتسبب ذلك فى تنشيط مستقبلات سمعية فى قوقعة الأذن .

أما التوازن فله قصة أخرى ومسار آخر .

فالمؤثرات الخاصة بحاسة الاتزان تختلف عن المؤثرات الخاصة بحاسة السمع . فمؤثرات السمع هى موجات التضاغط والتخلخل التى تحدثها الأصوات المختلفة وتنتشر فى كل اتجاه على هيئة ذبذبات .

أما المؤثرات الخاصة بحاسة الاتزان فتشمل الجاذبية الأرضية ، وتزايد السرعة أو تناقصها فى خط مستقيم أو أثناء دوران الجسم . أما السرعة الثابتة المنتظمة فلا يشعر بها الإنسان وأبسط دليل على ذلك أننا لا نشعر بدوران الأرض حول نفسها ليل نهار لأنها تتحرك بسرعة ثابتة منتظمة وهذا من رحمة الله وإلا لأصابنا الفزع والهلع مع دوران الأرض .

والمستقبلات الحسية فى الأذن الداخلية الخاصة بالاتزان تتكون من مجموعتين أساسيتين :

المجموعة الأولى فى دهليز الأذن الداخلية وهى تختص بتسجيل وضع الرأس فى الفضاء المحيط بالجسم ، وبالاحساس بحركة الجسم فى خط مستقيم بسرعة متزايدة أو متناقصة .

والمجموعة الأخرى فى مداخل القنوات الهلالية وهى تختص بالاحساس بحركة الجسم فى خط دائرييبسرعة متغيرة .

تثبيت الرأس

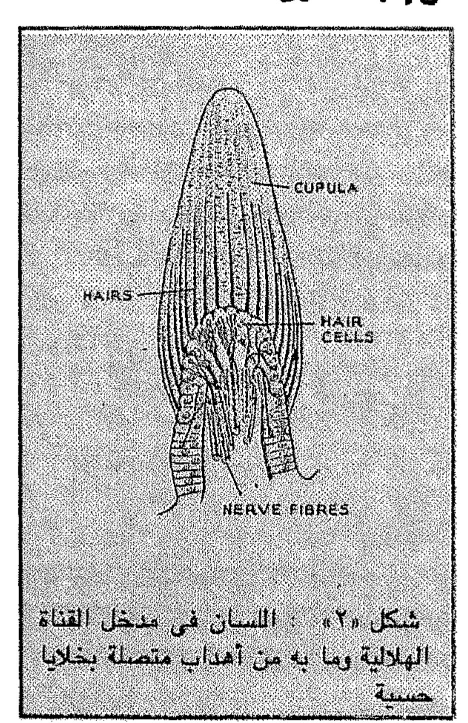
ونبدأ بالمجموعة الأولى فلها وظائف بالغة الأهمية أولها تسجيل وضع الرأس في الفضاء وهذا التسجيل بالغ الأثر لأنه الخطوة الأولى من أجل تثبيت الرأس - غرفة التحكم العليا فى الجسم - فى وضع سليم ، ويستتبع ذلك تعديل وضع البدن كله لينتظم مع الرأس فى وضع سليم وهو فى قمته .

ويتم تسجيل وضع الرأس لحظة بلحظة عن طريق جسيمات بلورية دقيقة تهتز بتأثير جاذبية الأرض عندما يميل الرأس فى أى اتجاه وتحدد اتجاه الميل مثل البوصلة فتجذب أهدابا دقيقة متصلة بخلايا حسية خاصة جذبا معينا يتناظر مع درجة ميل الرأس عن الوضع المعتدل ، ويؤدى ذلك إلى تنشيط تلك الخلايا الحسية المجاورة للبللورات فترسل إشارات محددة على هيئة نبضات كهربائية فى عصب الإتزان المتصل بالأذن الداخلية ليخطر المخ بالوضع الجديد للرأس طالبا تعديله .

فإذا تحرك الانسان فى خط مستقيم بسرعة متزايدة تدحرجت تلك البللورات إلى الخلف فيشعر المرء بتزايد السرعة إلى الأمام ، وإذا تناقصت السرعة أو توقف الانسان فجأة تندفع تلك البللورات إلى الأمام فيشعر المرء بالتغير الطارىء الجديد ، وهكذا دواليك .

أما إذا تحرك الإنسان فى خط دائرى أو دار حول نفسه بسرعة متزايدة أو متناقصة فهنا يبدأ دور المجموعة الثانية من المستقبلات الحسية وهى الموجودة فى مداخل القنوات الهلالية .

ففى مدخل كل قناة هلالية توجد أهداب طويلة مغموسة فى مادة چيلاتينية ممتدة على هيئة لسان (شكل «٢») فى فوهة القناة ويحيط بذلك اللسان سائل ليمفوى تتسبب حركتة عند دوران الجسم في تحريك اللسان وما به من أهداب فتنشط خلايا حسية متصلة بتلك الأهداب وترسل إشارات عصبية للمخ تفيد التحرك فى إتجاه دائرى .



شكل «٢» : اللسان فى مدخل القناة الهلالية وما به من أهداب متصلة بخلايا حسية

ويساعد شكل القنوات الهلالية ووضعها متعامدة على بعضها فى تنشيط حركة السائل واللسان عند مدخلها أثناء الحركة الدائرية فى أي إتجاه .

بشرط أن يكون هناك تزايد أو تناقص فى سرعة الحركة لأن الحركة المنتظمة تؤدى إلى سكون السائل الداخلى وتوقف حركة اللسان فى مدخل القناة الهلالية .

دقة متناهية ومعجزة

ونعود إلى اللاعب السائر على الحبل معصوب العينين كيف يحفظ توازنه ؟ . إنه يتحسس الحبل بقدميه . وتنبعث إشارات حسيه من أنحاء جسمه لتخطر المخ بوضع أجزاء الجسم المختلفة ودرجة الشد والتوتر فى العضلات . ويتلقى المخ أيضا إشارات من الأذن الداخلية تحدد وضع الرأس فى الفضاء ودرجة الميل عن الوضع المعتدل مثل ما يبين ميزان الماء للمهندس درجة ميل الحائط فى البناء ، أو كما تبين الأجهزة الدقيقة للطيار فى غرفة قيادة طائرته وضع الأجنحة وميلها عن خط الأفق .

وتقوم مراكز دقيقة فى المخ بعمل الحاسوب الآلى « الكمبيوتر » فتراجع البيانات المختلفة الواردة من أنحاد الجسم وتقارن بين معدلات الأداء الحركى والأوامر الصادرة لأجزاء الجسم المختلفة حتى تتضح مدى دقة التنفيذ ، فإذا كان هناك خطأ فى الأداء يؤدى إلى فقد التوازن يقدر بدقة مدى هذا الخطأ ، وتصدر الأوامر بسرعة من أجل تداركه قبل استفحاله . ويتم ذلك كله فى لمح البصر وبصورة تكاد تكون لا شعورية فهى محصلة ميزات موروثة وتدريب شاق .

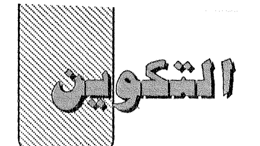
إن المشى على الحبل مهارة مكتسبة ولكنها تعتمد على استخدام وتدريب أجهزة دقيقة أمد الخالق سبحانه الإنسان بها وهى موجودة فى كل البشر ولها فائدة جمة فى حفظ توازن الانسان العادى اثناء سيره على الأرض قبل أن يتدرب على استخدامها بصورة أدق إذا سار على الحبل .

وإذا كان حفظ توازن الجسم المادى أثناء السير على حبل مشدود فى الهواء يحتاج إلى تدريب شاق طويل فإن أيضا حفظ توازن الإنسان النفسى يحتاج إلى مران منتظم .

وأغلب الظن أن الاتزان النفسى يحتاج إلى آليات تشابه تلك الآليات الخاصة بالتوازن الجسمى تشمل وجود مستقبلات حسيه تشعر المرء بالميل أو الانحراف عن الوضع المعتدل ، وتحسب له مقدار الخطأ فى معدلات الأداء ، وتبين له ما ينبغى عمله من أجل استعادة التوازن .

وإذا فقدت هذه الأجهزة المعنوية كفاءتها اختل توازن المرء فى الحياة وهوى كما يهوى لاعب السيرك من على السلك المشدود اذا أخطأ الحساب .

هاجمنى أستاذى فأصبحت صحفيا!





التكوين الثقافى لى لم يجىء وليد الصدفة ، ولكن الحياة التى عشناها سهلت لنا كثيرا أن ننهل من المعرفة والأدب سواء فى المدرسة أو بين جدران الجامعة ..

على أننى وأنا أمارس أنشطتى الثقافية عشقت الصحافة ، ودخلتها من أوسع أبوابها وكنت أصغر رئيس تحرير يعين فى مجلة أسبوعية وجريدة يومية بعد ذلك .

وأنا لست صاحب فضل فى تكوينى الثقافى فى الصفر ، ولكن هذا يعود للنظام الفكرى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت حيث كانت توجد الجمعيات والنوادى الثقافية ، وكان من أشهرها الموسم الثقافى الذى تنظمه جامعة القاهرة ، وكان إسمها فى ذلك الوقت جامعة فؤاد .. وكان هذا الموسم الثقافى يقام بالجمعية الجغرافية وأمامها مباشرة قاعة «إيوارت» التى تنافسها فيما تقدمه من ندوات ومحاضرات ..

كانت مى زيادة تحاضر فى هذه القاعة عن الموسيقى والفن والأدب وبهدف اجتذاب الشباب ، ولكى تتغلب الجامعة على ذلك كانت تستقدم العلماء والمفكرين من الخارج فى إطار هذه المنافسة ، ومن بين من شاهدناهم الشاعر الهندى العظيم طاغور والذى قام وقتها بإثبات أن النبات يتأثر بالموسيقى .

ولنا أن نتصور أن أديبا مثل الدكتور طه حسين جاء ليفتتح الموسم الثقافى - فى الثلاثينات - وكان وقتها عميدا لكلية الآداب وأذكر أن زوجته حضرت قبله بقليل فاستقبلها جميع الوزراء الذين جاءوا لحضور هذا الافتتاح وصافحوها وأفردوا لها مكانا فى الصف الأول ، ولفرط ذكائها وحينما لمحت زوجها يدخل القاعة وقفت وصفقت له ، فقام الوزراء وأكثر من ألف شخص كانوا فى القاعة ، وبدأ التصفيق ، حتى صعد طه حسين إلى المنصة وألقى محاضرة الافتتاح .

وهذا يوضح لنا كيف كان الاهتمام بالثقافة .. ولم يتوقف اهتمامى عند هذا الجانب ، فقد كان لنا بيت وقف فى حى السيدة زينب وكنت طالبا بالثانوى ، فاستأذنت أبى فى أن أخذ غرفة لكى تصبح جمعية أدبية أجتمع فيها مع زملائى من محبى الأدب ، ووافق الرجل على الفور محدثا نفسه بأن ذلك أجدى وأنفع من اللعب فى الحارة واشترى لنا بعض الكراسى فتحولت الغرفة إلى قاعة للمحاضرات وكنا مازلنا فى أوائل المرحلة الثانوية عام ١٩٢٩ .

كان الجو العام فى مدارسنا يوحى بالثقافة حيث كانت هناك العديد من الجمعيات : جمعية للشعر وأخرى للأدب وثالثة للتمثيل وللموسيقى وللصحافة .. ولم نكن نلاحق هذا الجو المفعم بالثقافة والفكر وأذكر أننا أنا ومجموعة من زملاء الدراسة كنا ذات يوم نمثل إحدى الروايات فى



شارعنا وكان معى المرحومان أحمد حسين وفتحى رضوان وفى تلك الأثناء مر نبيل الكردانى ناظر مدرسة الخديوية الثانوية وكان أول ناظر مصرى بعد النظار الإنجليز يتسلم عمله بتلك المدرسة واختبأنا، ولكنه طلب منا أن نستكمل عرضنا المسرحى ، وفى اليوم التالى أمر بإنشاء فرقة مسرحية بالمدرسة فى عام ١٩٢٩ وعظمة الجانب التربوى لدى هذا الرجل أنه لم يطلب من وزير التربية أن يفتتح أولى حفلات المدرسة المسرحية ، بل جعل تلميذا من المدرسة اسمه حافظ محمود يفتتح الحفل، بدلا من الوزير ! وكتبت الصحف عن ذلك الموقف الشجاع لناظر المدرسة .

كانت الروح الأدبية منتشرة فى ذلك الوقت ، وكانت الصحف تشجع هذه الحركات الأدبية ، ولذلك شجعتنا الصحف ، حيث كانت تنشر الأخبار التى كنا نبعث بها عن نشاطنا المتنوع .

وأما هوايتى وحبى للصحافة فقد جاء نتيجة قراءتى لجريدة السياسة الأسبوعية والتى ظهرت فى مارس ١٩٢٦ ، وكانت توزع وقتها ثلاثة أضعاف الأهرام ، وبالرغم من فضل «السياسة» فإننى أعجب لماذا لاينكرونها الآن ، فقد كانت أول جريدة أسبوعية لها مكاتب فى دمشق وبيروت والخرطوم وبغداد ، وكان المشرفون على هذه المكاتب كبار الأدباء والمثقفين ، وكان التوزيع فى الخارج لجريدة السياسة أعلى منه داخل البلاد ..

لقد تتلمذت على هذه الصحيفة ، وتعلمت الصحافة منها . وهناك حادث مهم فى أول عشقى وحبى للصحافة ، ربما كان وراء نجاحى فى الصحافة ، فقد طلب منى الدكتور أحمد ضيف رحمه الله عمل بحث ويعلق عليه ، وأعطانى أقصى الدرجات فى النجاح ، بعدها قال لى لقد تحدثنا فى العلم ، ولكننى أود الحديث معك فى شىء آخر .. فأسلوبك لايصلح لكى تكون كاتبا أو صحفيا ولاحتى أديبا .. أسلوبك علمى زيادة عن اللزوم ! هذه الكلمات المتنى وجعلتنى أتعلق بالصحافة وأعشقها ، بعد أن أصبحت صحفيا زارنى الدكتور أحمد ضيف وهو يعتذر عما بدر منه فقلت له : على العكس مما تقول ، فأنت صاحب الفضل ، ولولا كلامك لى لما أصبحت صحفيا ولا كاتبا .

بدأت أتجه إلى الصحافة وأنا صغير السن نحيل الجسم ، حينما كنت أذهب إلى أى صحيفة لمقابلة مسئول فيها كان يقول لى : يابنى اذهب وذاكر دروسك بلا لعب عيال ! .

وصممت من باب العناد على أن أنشر فى أكبر جريدة فى ذلك الوقت وهى السياسة الأسبوعية ، وكان مقرها بجوار



حافظ محمود فى اجتماعات دراسة أول مشروع دائم للدستور

مبنى دار الهلال ومازال مبناها موجودا حتى الآن ، وللأسف فإنه يستخدم كمخزن ! ..

كان يوضع بجوار باب الجريدة صندوق لتلقى المقالات ، وكنت أذهب لكى أضع مقالتى فى هذا الصندوق وأنصرف ، وبالفعل نشرت لى مقالة وعلى أثرها هاجموا الدكتور محمد حسين هيكل ، وقالوا كيف ينشر مقالا لولد صغير ، وأساتذته لم يحصلوا على نفس الفرصة وبحث عنى د . هيكل ولما ذهبت إليه ضحك حينما رآنى وقال« والله لهم حق أنت طلعت أقل مما يجب » .. صغير جسما وسنا

قلت له : يابك أنا آسف !

قال لى : آسف إزاى !

قلت : لأنك تدافع عنى

قال : أنت لم تر الهجوم الذى حدث لى بسببك

قلت : وماذا أفعل

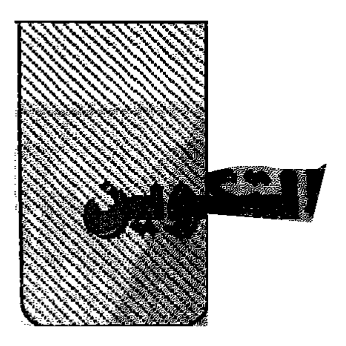
قال تكتب مقالا أفضل من مقالك السابق وأنشره حتى يعملوا أننى لا أنشر كلاما فارغا !

وبدأت الصلة بيننا إلى أن كتبت سلسلة مقالات بعنوان «إلى خطيبتى فى الخيال» .. وجاءت ردود واستدعانى الدكتور هيكل ليقول لى : «هو الجرنال ده مكتب غرام لحضرتك».

قلت : لماذا ؟!

قال : اتفضل لتشاهد بنفسك خطابات ملونة ومعطرة ، وكانت الرومانسية فى ذلك الوقت هى السائدة فى حياتنا .

قلت : أعتذر لك بشدة لأننى أسبب لك المتاعب وحاولت الانصراف فقال : تعال هنا .. أين أنت ذاهب .. خذ هذه الخطابات وإذا استطعت أن تخرج منها تحقيقا صحفيا ، فسوف أعينك فى



الجريدة وإذا لم تستطع فدعنى لا أرى وجهك مطلقا !

لم أنم طوال الليل وقمت بعمل التحقيق وفى الصباح قرأه الدكتور هيكل وأعجب به ، وعلى الفور نادى محمد زكى عبد القادر وكان سكرتير التحرير وقال له خذ هذا «الوليد» واعتبره إبننا وضمه للأسرة كمتمرن ..

كل ذلك حدث وأنا مازلت طالبا بكلية الآداب قسم الفلسفة ، وظللت أعمل بهذه الجريدة متمرنا ، وحينما تخرجت كانت «السياسة» قد أغلقت ثم اعاد الدكتور هيكل إصدارها من جديد ، وبحث عن كل من كان يعمل بها من قبل واستدعانى وقال لى سوف تعمل معى «واللى فى الدست تطلعه المغرفة» فأنا وأنت شركاء وكان وقتها زعيما للمعارضة والظروف المالية الخاصة بالجريدة كانت محدودة للغاية ، لهذا قرر أن نكون شركاء وماتدره الجريدة نقتسمه سوياً وبعد عام عين وزيرا فتفاءل بى وقال لى لا أعرف كيف أكلفك فأنا لا أملك شيئا ولكن الشيىء الوحيد الذى أملكه ، هو أن أصدر لك قرارا بأن تصبح رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية .

عينت رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية وعمرى ٢١ عاما ، كما عينت بعد ذلك رئيسا لتحرير السياسة اليومية وعمرى لما يتجاوز السابعة والعشرين ، وكونى أخلف رئاسة التحرير بعد الدكتور هيكل ، كان بالنسبة لى شرفا كبيرا ، خاصة أنه كان مصرا على أن الصحافة للصحفيين ويرفض تماما تعيين حفنى محمود قائلا إنه تربيتى وسوف ترون مايمكن أن يحققه من نجاحات وبالفعل كنت عند حسن ظنه بى . الطريف أن الصحف فى ذلك الوقت كانت كثيرة جدا وأى صحفى كان ينتقل بين الصحف لتحسين ظروفه المالية - مثلا - وقد يذهب إلى أكثر من صحيفة أو مجلة ، لكننى على مدار عملى فى الصحافة لم أعمل سوى فى السياسة الأسبوعية ثم اليومية وبعد عام ١٩٥٢ وبعد أن أغلقت مجلة «القاهرة» المسائية التى عملت رئيسا لتحريرها ، ثم رئيسا لمجلس إدارتها ، عملت فى الجمهورية حتى الآن ، وأذكر بعد أن أغلقت القاهرة لظروف خاصة بعد موت صاحبها ، قال لى الدكتور عبد القادر حاتم أن الرئيس جمال عبد الناصر طلب بأن أعمل فى الجمهورية ، ولم أنفذ هذا القرار إلا بعد ان عمل كل زملائى الذين وصل عددهم إلى ثلاثمائة ..

وأذكر تلك الحادثة بالضبط : فحين طلب منى د . عبدالقادر حاتم هذا الطلب قلت له إذا كان عبد الناصر يعرف إسمى ، فكيف يذهب ٣٠٠ إنسان مسئولون عن



فى العيد المئوى للصحافة المصرية يتحدث حافظ محمود نقيب الصحفيين وفى الخلف د . حلمى مراد وعبدالخالق حسونة وصالح جودت ود . خليل صابات

أسرهم ، وقلت : لا أستطيع أن أنفذ هذا القرار وزملائى فى الشارع ..

قال : التعليمات الموجودة عندى خاصة بك فقط .

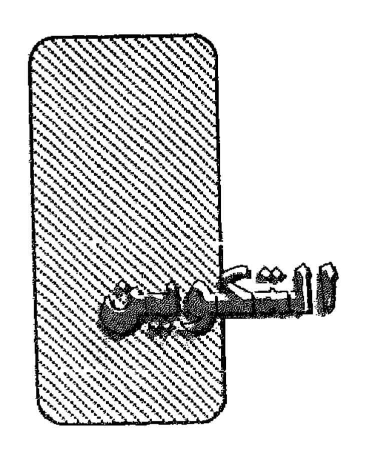
قلت : هذا شىء لاتحتمله عواطفى إطلاقا أن أناسا كنت أرعاهم ومسئولا عنهم ، ثم فجأة يجدون أننى اشتغلت وقبضت ، ومازالوا هم فى الشارع بلا عمل ، وظل هذا القرار معلقا لفترة سنة كاملة وكتبت وقتها فى الهلال كثيرا ، ولم يكن لى مورد سوى الهلال فى أوائل عام ١٩٦٠ التقيت بصلاح سالم ، وكان رئيسا لتحرير الجمهورية وهو فى نفس الوقت إبن حارتنا فى السيدة زينب ..

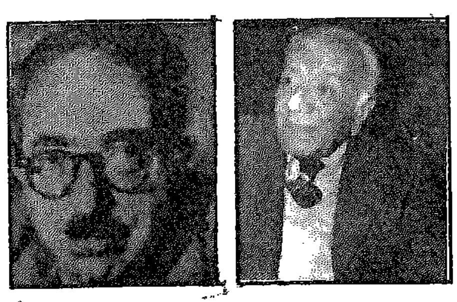
قال : نفسى قبل أن أموت أن تعمل معى فى الجمهورية ، وإزاى عبد الناصر كل يوم يسألنى حافظ جاء أو لم يجىء ، وبالفعل ذهبت للجمهورية بعد اطمئنانى على كل زملائى فى جريدة القاهرة المسائية وتعيينهم فى وظائف مناسبة .

قد يتساءل البعض عن أسلوبى فى حياتى الصحفية ..

وأقول : أنا الوحيد بين الصحفيين الذى لايلتزم فى الكتابة بوقت معين ولا شكل معين ولا حتى مكتب معين .

قديما كنت حينما أبدأ فى الكتابة أطلب فنجان قهوة وأدخن سيجارة وحتى هذه العادة أقلعت عنها الآن ، وقبل أن





محمد زكي عبد القادر   د . حسين هيكل

أكتب هذا الكلام صباح اليوم وأنا أتناول إفطارى وأشرب الشاى جاءتنى فكرة مقال وعلى الفور تركت افطارى وبدأت كتابة المقال ، ومعنى هذا أننى لا ألتزم بوقت محدد فى الكتابة ليلا أو نهارا كما أننى أكتب مرة واحدة وهذه تسبب لى مشكلة ورداءة الخط ، فضلا عن ضعف البصر فى هذه السن المتقدمة ..

وأذكر أن خطى كان جيدا أثناء الدراسة ، ولكن مع ممارسة العمل الصحفى والسرعة فى الكتابة ، وصل إلى ماوصل إليه الآن .

أنا والهلال

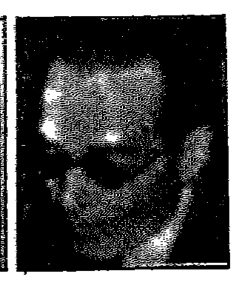
أذكر حينما تعلقت بالصحافة فى بداياتى الأولى بعثت مقالا لمجلة الهلال وفوجئت بشىء ياليت كل الصحف تفعله الآن ..

وصلتنى بروفة للمقال مرفق بها ورقة مكتوب بها .. رجاء مراجعة هذه التجربة والإمضاء عليها ، ومعها شيك بعشرة جنيهات ، وكان ذلك فى الثلاثينات ..

هذه الجنيهات العشرة كان يحصل عليها طه حسين وهيكل باشا وعباس العقاد ، وكان أقصى أجر .. ذهلت حينما رأيت المبلغ الكبير ، فقد ظنوا أننى كبير فى السن وفى العلم ! ولكن وراء ذلك قصة .. فالبحث الذى تقدمت به للدكتور أحمد ضيف وقال لى إن أسلوبه علمى بحت . كان عن ألف ليلة وليلة ، وهذا البحث نشرته مجلة الجامعة ، والتى كانت تختارالبحوث الجادة ، بما فى ذلك محاضرات الأساتذة ، والأديب محمود تيمور حين قرأه ظن أنه لأستاذ جامعى ونشر البحث وعلق عليه ضمن مقدمة طويلة أن الدكتور حرص على نشر الأدب المحلى بشكل جيد ..

وبعثت خطابا للأديب الكبير قائلا .. أنا لست بأستاذ ولا بدكتور جامعى بل أنا طالب أحب الأدب وأهوى الصحافة .. وكانت تلك بداية صداقة بينى وبين هذا الرجل النبيل .

نشرت مقالات كثيرة فى الهلال ..





محمود تيمور   اميل زيدان

لكنني لا أنسى لقاءً بيني وبين إميل زيدان رحمه الله .. كنا قد كونا جمعية إسمها المصرى للمصرى لمقاومة البضائع الأجنبية انضم لهذه الجمعية طلاب وأساتذة من الجامعة وكان صاحب هذه الفكرة سلامة موسى ، وكان يعمل بدار الهلال . ثم اختلف معهم ، ولأنه وجد نفسه زعيما فى ذلك الوقت بدأ يهاجم دار الهلال ، والتى أصدرت ضده عددا من مجلة «الدنيا المصورة» .. وزعته مجانا .. بعد هذا العدد أعدنا انتخاب مجلس إدارة الجمعية واخترنا رئيسا آخر غير سلامة موسى وصاحب الفضل فى قيام الجمعية حيث لم نحتمل الهجوم الذى وجهته ضده دار الهلال . وعلى أثر ذلك التقيت بإميل زيدان والذى عرض علىّ أن أعمل بدار الهلال فقلت له « أنا أعمل سكرتير جمعية المصرى للمصرى ، ولاترضى لى أن أصبح موظفا عندك ، فالمعنى واضح أن البعض سوف يقول إنها رشوة » .

قال الرجل معك حق .. ومادام هذا رأيك فأنا أحترمه .

★★★

إننى أقول فى مناسبة احتفالات الهلال بمرور ١٠٠ سنة على صدورها أن تلك وحدها شهادة ، شهادة كبيرة وكتبت مقالات نشرتها فى الجمهورية حول هذا الحدث الهام فى حياتنا الثقافية والصحفية لم يعش فى مصر على مدى مائة عام سوى الهلال والأهرام والجازيت مع أن مصر شهدت مئات الصحف ، وزمان كانت تصدر صحف جديدة فى كل يوم ، لكنها لم تعش وكون مجلة تتماسك بانتظام إلى درجة الحياة لمدة ١٠٠ سنة فهذه شهادة ودليل على عمق ماتقدمة من فكر وأصالة المنهج الذى تسير عليه على أننى هنا وأرجو أن يذكر شىء عن جرجى زيدان وآثاره العظيمة وروايات وتاريخ الإسلام .. فضلا عن أنه كان رجلا جادا فى عمله ، واستطاع أن ينهض بالهلال ومن بعده أبناؤه ..

فتحية للهلال ولمنشئه متمنيا أن يواصل مسيرته الهامة فى حياتنا الثقافية والفكرية .

● ديكارت .. وديسكارتس ●

● تهنئة من القلب للاحتفال بالعيد المئوى لصدور مجلة الهلال .أرجو لسيادتكم كل التوفيق ولمجلة الهلال التقدم وأود أن أوضح نقطة بسيطة وهى أنه جاء فى مقال الدكتور محمد بهائى السكرى « الجهاز العصبى مفتاح الصحة والمرض » صفحة ٥١ من هلال يونيو الماضى : واعتقد ديسكارتس Descartes ....

والمعروف كما قال لنا أساتذتنا سواء كان الدكتور بدوى أو الدكتور عثمان أمين وهو الذى كتب وترجَم لديكارت ، أنه ديكارت رغم وجود حرف « S » فى الكلمة الفرنسية ولكن الشائع هو نطق ديكارت ، ولو رجع سيادته إلى قاموس لاروس لوجد بجوار ديكارت النطق السليم للاسم وهو بدون حرف أل S . إلا إذا كان الدكتور يقصد عالما آخر عاش فى القرن السابع عشر وقال إن مكان النفس هو الغدة الصنوبرية .

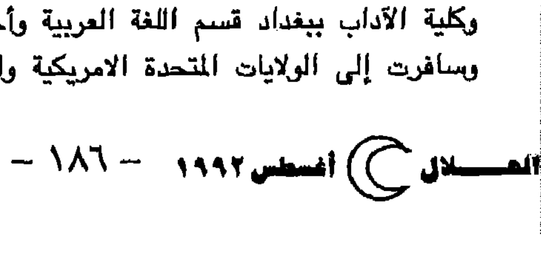
شاكر هيكل

مدير السياحة بمجلس مدينة القناطر الخيرية

● الشاعرة نازك الملائكة ●

● فى التاسع عشر من ابريل الماضى من هذا العام ١٩٩٢ وفى أحد منازل بغداد أسلمت الشاعرة د . نازك الملائكة روحها إلى بارئها . وهى شاعرة تميزت بالثقافة الواسعة والموهبة وبالجرأة فى التفكير والتعبير وتصدرت دواوين شعرها واجهات المكتبات فساوت فى المنزلة مشاهيرالشعراء من الرجال .

نشأت فى بيت أدب ولغة ، فأمها « رباب » ابنة الشاعر العربى الكبير عبد المحسن الكاظمى وأم نزار ونازك الملائكة ولقد وجدت فى بيتها مكتبة تضم شتى ألوان الأدب العربى والأوربى ودرست فى دار المعلمين العليا ببغداد وكلية الآداب ببغداد قسم اللغة العربية وأجادت الانجليزية قراءة وكتابة وسافرت إلى الولايات المتحدة الامريكية واستكملت الدراسة فى جامعة



وسكونسن وحصلت على درجة الماجستير والدكتوراة فى الأدب المقارن ، وترجمت كثيرا من القصائد الافرنجية شعرا إلى اللغة العربية ، ودرست الموسيقى فى معهد الفنون الجميلة ببغداد وقدمت للمكتبة العربية أكثر من عشرين كتابا للدراسات النقدية من الأدب العربى المعاصر أهمها قضايا الشعر المعاصر وللشاعرة خمسة دواوين :

١ – عاشقة الليل ١٩٤٧

٢ – شظايا ورماد ١٩٤٩

٣ – قراءة الموجة ١٩٥٧

٤ – شجرة القمر ١٩٦٨

٥ – مأساة الحياة وأغنية للإنسان

رجب عبد الحكيم البيومى

خط حلوان – المعصرة – القاهرة

● شكوى وأرجوزة ●

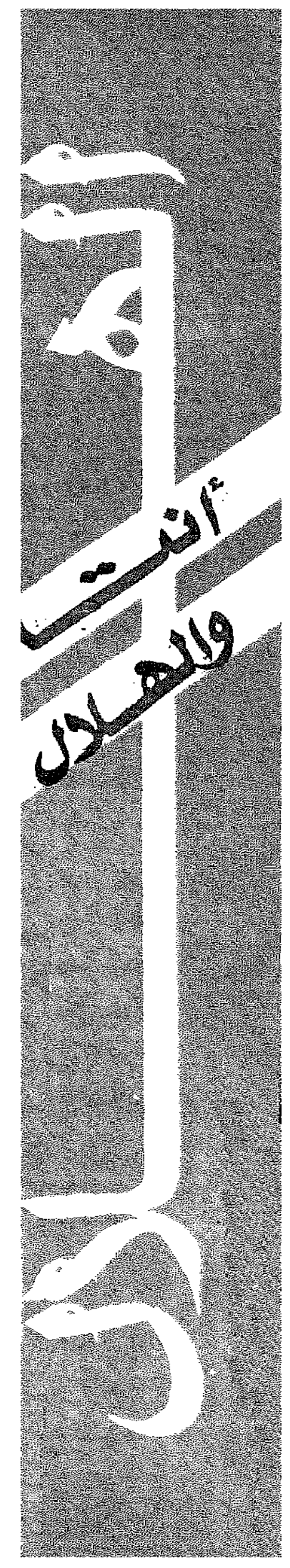
عندما قرأت الهلال عدد يونيو ١٩٩٢ فوجئت برد المجلة على قصيدتى المعنونة بـ « سوق عكاظ » ؟ ولست أدرى بأى لسان أعقب على ما ثار فى النفس من أحزان ، وما أصابنى من هذيان ، فباب « أنت والهلال» بمثابة المعبر الأوّل للأديب الشاب وعند الأديب الحقيقى لايهم المكان الذى يوضع فيه إبداعه إن كان فى صدر المجلة أو فى آخرها ، ولكن رد المجلة العجيب أو رد المحرِّر العجيب هو الذى أتعسنى بحق ، فهو بعد أن يشكر السادة الأصدقاء الشعراء يجمعهم فى سلة واحدة ، ويقول مامعناه أن هناك :

١ – أخطاءً لغوية ؟ فى النحو والصرف

٢ – أخطاء إملائية

٣ – أخطاء فى العروض

ثم يقرر أن القصائد تدل على مواهب متنوعة ومتفاوتة فى النضج !! وممَّا أصابنى بالغضب هذا الردّ ، ولذلك أكتب هذه الرسالة . وأسأل فى حدود ما أرسلت إلى الهلال من قصائد وخلافه فى المدة السابقة ، وفى حدود



قصيدة (سوق عكاظ) التى كان التعقيب عليها من الهلال ، هذا التعليق المجحف بحق الأديب ، أسأل ما هى الأخطاء التى جاءت فى القصيدة سواء كانت نحوية أو إملائية أو عروضية ؟! .... هذا السؤال العام أتمنى رداً عليه ، لأن ماجاء فى رد الهلال بمثابة اتهام لشاعرية الأديب ، الذى هو أنا . واتهام فى اللغة ، وأقول : لقد بلغ كاتب هذه السطور إلى الحد الذى لايمكن أن يقنعه رد بسيط كهذا ؟ ولست أدّعى الفصاحة ولا البيان ؟ ولا أقول إننى كقيس بن ساعدة ولا سحبان ، ولكن أقول سبحان الله ، فالقصيدة التى أرسلتها ، وقانى الله شر الغرور ، تخلو من الأخطاء النحوية والإملائية والعروضية ، هذا ببساطة شديدة هو ردى ، وإذا شاء الأستاذ محرر باب « أنت والهلال » أن أرسل إليه تقطيعاً عروضياً للقصيدة لأرسلت إليه ذلك ، وإن كانت الأذن هى المعيار الحقيقى للشعر ومن ناحية أخرى أقول : بأى مقياسٍ تقيس ياأيها المحرِّر العـزيز ؟! بأى مقياس تقيس الشعر الذى يصل إلى يديك ؟! إن الأديب الشاعر الشاب اليوم يعانى من أجل أن يبدع وينتج ، هذه المعاناة كيف تسقطها برد سريع فتتهم الشاعر فى شاعريته وفى لغته وإذا كان ذلك كذلك ، كان لابد لكاتب هذه السطور أن يأخذ من هذه النقطة المظلمة ركيزةً للانطلاق للدفاع عن نفسه ، وإن كان ماكتبه من قبل ، ومانشره من قبل ، يكفيه عناء الرد على هذا التجنى الهلالى العجيب ، ومن ناحية ثالثة نقول : ماهى الشاعرية لدى المحرر الأستاذ ؟!! .

إن للمجلة كل الحرية فيما تنشره وفيما لا تنشره ، ولكن هناك خطأً آخر أشد خطورة من حرية المجلة ، وهو أن هذه الحرية لاتعنى إهمال حرية الكاتب أو الأديب !! فالمجلة ، أى مجلة ، فى البداية وفى النهاية ، هى ملك للمُبدِع وللقارىء لقد ملَّ الأدباء الشبان من الخداع والمكر الثقافى ، ملوُّا من الواجهات اللاقائلة ، الواجهات المبحرة فى اتجاه وهم فى اتجاه، ملوُّا من القنوات الثقافية التى أعرضت عنهم واعرضوا عنها ، ملوّا من الأوثان الفكرية ، ملوُّا وعادوا إلى الكلمة ، لايبغون من ورائها أجراً ولامرتباً ولاحوافز ، ملوُّا ، ولذلك أقول : انشروا أو لاتنشروا ، ردّوُا أو لاتردوا ، اغضبوا أو لاتغضبوا ، فالكلمة الحقيقية الصادقة هى الباقية ، ولاحول ولاقوة إلا بالله !!

عزيزى المحرر :

ما اتخذت أسلوب الواعظ ولا الخطيب ، ما أتخذت فى خطابى إليك إلاّ

لغة الحق التى هى لغة العقل ، وفى نهاية هذه الرسالة لك منى كل الود والحب ، ورحم الله القائل : التمس لأخيكَ عُذْراً .

وهذه أرجوزة من نظمى أختم بها رسالتى :

● أرجـــــــوزة ●

لاشــىءيسـْتدعى الغـضبْ ∴ فى دهـــرٍ كان الإنفعـــالْ
كـُنْ فاعـــلاً .. لامنفعــلْ ∴ يأتيك حـــالٌ بعد حــــالْ
ولاتعـــاُتبْصـــاحـــباً ∴ إنْ خـــان عَهْدَهُ بالفعـــال !
وأطــبْ حــياتكَ بالصــّيام ∴ عن الفضـــالة والسـّـؤال
أكـــرمْ فـــإنَّك ذاهــبٌ ∴ ويظـلُّ ربٌّ ذو جــــلال !
وقــــلَ الحـــقيقة لاتخــفْ ∴ والصـــّدقُ مصداقُ الحلال !
لاتقـــتربْ من نـــاقصٍ ∴ واحـــذرْ أشباهَ الرِّجـال ..
يعُطـيكَ حـــلوَلســـانهِ ∴ والمـــرُّ منهُ والخــــبال !!

رمضان الهجرسى السنبلاوين

● تعليق الهلال :

– نحن لم نجمع بعض الشعراء الناشئين بطريقة جمع البيض فى سلة واحدة ، بل جمعناهم كطبقة واحدة من الشعراء الذين يخطئون فى الأوزان وفى النحو والصرف والإملاء ، وقد كنت يابنى – لسوء الحظ – واحدا من أولئك الذين ضاق المقام عن الرد عليهم واحدا .. واحدا ، فرددنا عليهم مجتمعين لأنهم – كما قلنا – طبقة واحدة من الشعراء تجمعهم صفات أو مواصفات واحدة ، وهذا يحدث كثيرا حتى فى البحوث الأدبية المستفيضة ..

أما أنت بالذات فإن لك أخطاء نحوية ولغوية وإملائية فى رسائلك الكثيرة التى نتلقاها ، وليس هذا عيبا مادمت تحاول أن تستزيد من العلم بلا انقطاع حتى تدرأ عنك هذه الأخطاء ، وبعضها ظاهر فى أرجوزتك هذه التى تختم بها شكواك منا .

فالشطرة الأولى من البيت الأول هى فعلا من بحر الرجز ، وكذلك الشطرة الثانية وكذلك شطرتا البيت الثانى ، وكذلك الشطرة الأولى من البيت الثالث ،

أما شطرته الثانية فإنها مكسورة عند كلمة (عهده) ولو جعلتها (عهدا) لصحت واستقامت ..

وأما الأبيات رقم ٤ و ٥ و ٦ و٧ و٨ فكلها ليست من بحر الرجز ، وإنما هى من مجزوء بحر الكامل ، وكلها - بصفتها من مجزوء الكامل - صحيحة الوزن ، إلا قولك « واحذر أشباه الرجال » فهذا ليس من الرجز ولا من مجزوء الكامل وإنما هو نثر بحت ! .. وهكذا خلطت فى أرجوزتك بين وزنين ..

ولانتحدث عما فى هذه (الأرجوزة) من هنات النحو واللغة ، كما لانتحدث عما فى خطابك الطويل الذى لم نستطع أن ننشره كاملا لضيق المكان .

بقى أن قول لك ولكل زملائك من (شعراء الشباب) كما تسمون أنفسكم : إن نضج الإنتاج هـو جواز المرور إلى صفحات الهلال بغض النظر عن السن ، فقد يكون شاب فى العشرين أشعر وأنضج من شيخ فى التسعين ، وكل مايقـال غير ذلك هو تعلاتُ إفلاسٍ وغبار يُثار فى العيون لحجب الحقيقة ! ..

● صورة على الحائط ●

أقصوصة :

● جدى رجل عجوز جاوز الثمانين بقليل .. لكنه دائب الحركة يذهب ويجىء ، يوزِّع النظرات على الجالسين ثم يذهب ليعود ..

عندما نجتمع لنشاهد التليفزيون يجلس لبرهة أمامه بطريقة تجعلنا لانرى غيره وعندما يجدنا ننظر إليه فى ضجر يسارع بالقيام ..

إذا نظفنا البيت وفرشناه نجده يبصق على الأرض يشعل سيجارة ثم يبادر بإطفائها على أغلى السجاجيد جدى كثير الأسئلة ومعظم أسئلته إجاباتها واحدة إذ أنه شديد النسيان ..

وفجأة .. مات جدى .. فاجتمعنا نسترجع آثاره الطيِّبة .. ثم صممنا على تكبير إحدى صوره وبعد تنقيب وبعث عثرنا على صورة لجدى .. والغريب فى أمر هذه الصورة أنها لم تكن فى ألبوم صور أو مع مجموعة من الصور ولكنها كانت ضمن أوراق حكومية قديمة ترجع إلى ماقبل خروجه من العمل الحكومى ..

كبرّنا الصورة ووضعناها فى أجمل إطار ثم علقناها على الحائط ..

عبد العزيز الشراكى - المنصورة

« قدرة الله »

أرى فى السما قمراً نيرًا ∴ وتلك البحار وذاك الثرى
وعيناً من الصخر – نضاخة ∴ فمن خلق الماء من فجَّرا ؟
عبابٌ .. عجاج .. وملحٌ أجاجٌ ∴ وآخر يبدو لنا كوثرا
ومن أنزل الغيث رمز الحياة ∴ وشم الرواسى وتلك الذُرا ؟
وليلٌ .. نهار .. ربيعٌ.. خريف ∴ ويقظة قلب بحضن الكرى
وسحر الجنان ونور البيان ∴ فمن أنزل الذكر من سطَّرا ؟
ومن أحسن الخلق من قوَّم ؟ ∴ ومن خلق العقل إذ فكرا ؟
ومن يبعث الكل بعد الفناء ؟ ∴ فَسَعْى آدم سوف يُرَىَ
ومن ألهم الطير تسبيحه ؟ ∴ وخلَّد فى الدهر «أم القرى»
فسبحان من صاغ هذا الوجود ∴ ومن خلق الكون ... من صورا

عبد العاطى موسى عبد العاطى – مهندس
الصف – جيزة

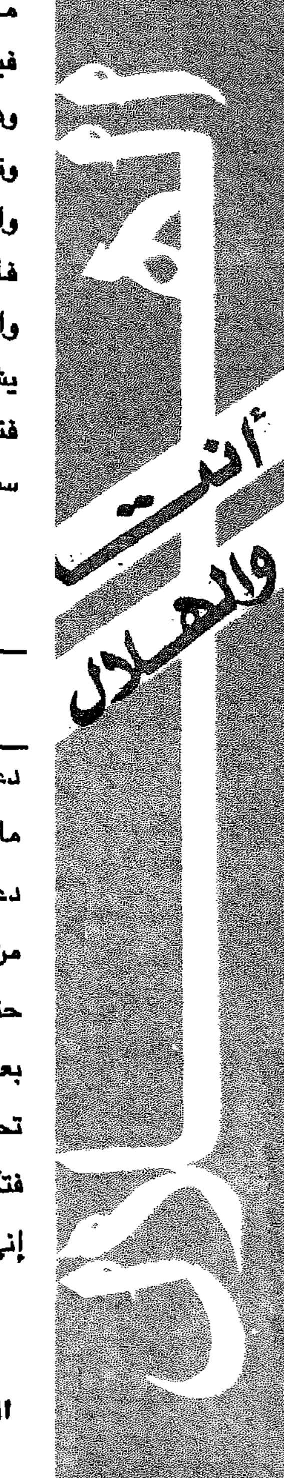
● ظلال النور ●

ظلال النور تغرى بالظلام ★ وضوء الشجو يسرى للقتام
كأنى فى مدى الأحلام روح ★ تدثره أراجيف الغمام
فما بين التنائى من وهادى ★ أداهن وجه آمال سقام
وأنسج فى ذرى الأوهام حدسى ★ حنينا للمدى نزق المرام
ولست أنا المهاجر من خريف ★ فما للطير ندت عن سلامى

رحاب محمد عابدين
مدرس لغة عربية

يا قريتى

ياقريتى عن مهجتى لاتغربى ∴ فلقد ولدت على ثراك الطيب
وضممتنى طفلا صغيرا حابيا ∴ وخطوت فيك فكنت خير الملعب
وأظل مهموما إذا فارقتها ∴ حتى أعود إليك عند المغرب



ماجت بألـوان الجمـال تـزفها ... في مـوكب (كالكرنفال) الصـاخب

فيهـا النخيـل يـزينه عـرجونه ... كالتـاج يلمـع فى جبين معصـب

وهنـالك الجميـز تحت ظـلاله ... نحكى ونـأخذ فى حـديث مسـهب

وترى بها الكـافور ينصب قامة ... وقد اسـتعد كحـارس متـأهب

والنيل يحتضن الحقـول مقبـلا ... مشـتاقة لعطـائه المخصـوصب

فأخضـوضر الزرع البديع بمـائه ... والـزهر بـان بكل شـكل معجـب

والطير سقسق فى الفضـاء مسبحا ... لله فى الكـون الفسـيح الارحب

يشجى بها صوت المؤذن مسـمعى ... والكون يسـبح فى سكون ضارب

فتقـت أمـالى وأحـلامى بهـا ... عند الصبـا وقضيت جـل المأرب

سر الجمال بها بسـاطة عيشـها ... أحبب بذاك العيش فيهـا أحبب

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع – منـوفية

رويدا .. رويدا

دعنى فى قلب التجربة الأولى..

مابين البحر وبين الغيب

دعنى أتهجى .. حرفا .. حرفا

من قاموس الحب ..

حتى تتكون فى آفاق حياتى

بعض من كلمات حيرى

تحبو فى هذا الدرب

فتكلم .. قل .. كرر .. حتى أهمس لك

إنى أحببتك من أعماق القلب

ماهر محروس محمد – طنطا

مع الأصدقاء

محمود عبد العزيز عبد المجيد - كفر الشيخ

-أنت تقول في قصيدتك « قالت بعد صمت لو تحكى لى الحكايا » « وهل يشفى الجرح الدامى لمسه بيدايا » .. وهذا نثر لاوزن فيه ، وقولك «الحكايا» جمع حكاية خطأ لأن جمع « حكاية » هو «حكايات» .. أما «حكايا» فهو من غلطات شعراء هذه الأيام ! .. وقولك «بيدايا» خطأ وصوابه «بيديا» .. وفى قصيدتك أغلاط أخرى مثل قولك : «بداية أو نهايا» .والصواب «نهاية» واذا اردت الجمع فهو نهايات، وجملة القول أن قصيدتك نثر لاشعر ، والنحو والصرف فيها يحتاجان إلى مراجعات كثيرة ..

سوسن محمد خميس - شبراخيت :

قصيدتك : «لا كبرياء مع العشق» تحتاج إلى إصلاح كثير فى الصرف والنحو والإملاء ، أما الأوزان فهى مشكلتك يابنيتى ، فأنت تحتاجين إلى أن تتعلميها كما تحتاجين إلى أن تتعلمى اللغة ، ونرجو لك التوفيق .

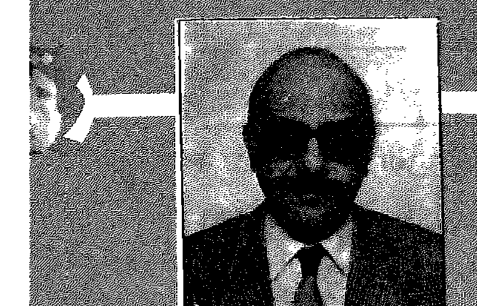
دكتور عماد الدين ناصر يوسف - أستاذ الفقة الاسلامى بمعهد طهطا سابقا :

- وصلتنا رسالتان باسمك ، ولاندرى أأنت كاتبهما فعلا أم أن غيرك قد انتحل اسمك ، فالرسالتان طافحتان بالشتائم المقذعة لرجال ونساء فى مصر والخارج ، مما يقع تحت طائلة القانون ولانستطيع نشره فضلا عن أن رسالتيك تعلنان بصراحة تكفير الناس وتهددان بأن قتل الدكتور فرج فودة هو - على حد تعبيرك - «نموذج مصغر لرأى الدين فى هذا العلمانى الكافر ، صاحب الكتب التى جاءت تقطر كفرا » ! .. وهذا كلام مُلقىً على عواهنه يدل على منتهى الهوس والجهل ونستغرب صدوره من رجل يصف نفسه بأنه «دكتور وأستاذ فى الفقة الإسلامى » ! .. فهل أنت ذلك الدكتور أم أن أحد الجهلاء انتحل اسمك ؟! ..

علاء العوانى - طنطا :

- نحمد لك تواضعك ، فأنت تصف قصيدتك التى عنوانها «عين زين هاء» بأنها «محاولة شعرية» .. وإنها لكذلك ، لأن نصفها موزون ، ونصفها الآخر غير موزون ، ونرجو أن يجيىء يوم تتمكن فيه من الاوزان بحيث لايختلّ منك وزن أى بيت ! ..

الكلمة الأخيرة



الغربة

بقلم : محمود أحمد

كيف يمكن تعريف الغربة ؟ !

وهل يمكن صياغة هذه الحالة الإنسانية الفريدة أو التعبير عنها في كلمات أو عبارات محددة ؟

طالما طافت بذهني هذه التساؤلات ، وغيرها ، وأنا أشاهد وأعايش المغتربين المصريين والعرب في أماكن تجمعهم - أو بالأحرى اغترابهم - على مدى ما يقرب من عشرين عاما .

وأبادر فأقر بأنني وجدت الإجابة بالغة الصعوبة . فالغربة ، أو الاغتراب ، تجربة حياة .. وحالة نفسية وعاطفية ومعاناة عملية وشخصية يتعذر حصرها في تعريف واحد محدد أو التعبير عنها بعبارات لغوية مهما أوتى المرء من بيان أو قدرة بلاغية . كما أن المغتربين حالات شتى تستحيل بلورتها في تعريف جامع ، حتى إذا حاولنا أن نحصر هذا التعريف في معناه الضيق ، فقصرناه على بلد معين أو مجموعة بذاتها من المغتربين .

ومع ذلك ، فإنني وجدت - من معايشتي للمئات من المغتربين - قاسما مشتركا يجمعهم دون أن يعوا ذلك أو يشعروا به بوضوح . إنه ذلك الحنين الممض إلى الوطن الذي خلفوه وراءهم .. وهو حنين لا يخبو ولا يهدأ أواره مع الأيام ، بل هو في حقيقة الأمر يشتد ويستعر كلما مر الزمن . وقد حاول أستاذ اجتماع عربي مهاجر إلى الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة ، وصف حالة « المهاجر » بشئ أقرب إلى التأمل منه إلى الدراسة - فقسمها إلى مراحل ثلاث عرضها من خلال حديث إذاعي حول الموضوع (أذيع الحديث من محطة إذاعة عربية تعلن أن من أهدافها تخفيف الغربة عن المهاجرين) . وقال إن المرحلة الأولى هي مرحلة الحماس والاندفاع إلى العمل والرغبة في الاندماج في الحياة الجديدة .. والثانية مرحلة محاولة الاستقرار والتأقلم ، أيا كان القدر الذي حققه المغترب من النجاح والاقتراب من الهدف الذي يكون قد حدده لنفسه في البداية .. أما المرحلة الثالثة ، فهي الاستكانة إلى شعور بالحنين الممزوج بالحزن الكامن في الأعماق ، والتمني لو أن المقادير أو الظروف لم تلق به إلى هذه الأرض التي يتعذر على جذوره أن تضرب في أعماقها .

ليس مدهشا ، بعد ذلك ، أن تجد « حالة الغربة » لدى المهاجر تعبر عن نفسها إما بتقلصات غير طبيعية قد تنعكس سلبيا عليه وعلى أسرته ، أو في أنماط من التصرفات قد لا يدرك هو لها تفسيرا .. كأن يصر على ألا يتزوج ابنه إلا من وطنه الأصلي ، أو أن يستعين بأفلام « فيديو » يفرضها على أولاده فرضا في محاولة للإبقاء على خيط اتصال مع « روح » الوطن ..

أو أن يصدر أحدهم مجلة موجهة إلى أقرانه .. فإذا به يسميها : « غربة » !



مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا ...

بطاقة وشيكات
الأهلى كارد

بطاقة من البنك لضمان شيكات الأهلى كارد
الصادرة من العميل لأى من المتاجر أو الفنادق أو المحال

إلى عملاء البنك الحاليين والجدد

- تضمن سداد قيمة مشترياتك من المتاجر والمحال والفنادق .
- تجنبك مخاطر حمل الأموال .
- تحقق لك الطمأنينة أينما ذهبت فهى مضمونة السداد من البنك الأهلى المصرى .
- تتيح لك الصرف النقدى بموجب الشيكات الخاصة بها من أى فرع من فروع مصرفنا فوراً وبدون أية عمولات .

لا تتردد ... أطلب الأهلى كارد ستجدها فى أى فرع من فروع البنك الأهلى المصرى

إلى أصحاب المتاجر والفنادق والمحال

- تنشط مبيعاتك .
- تجنبك مخاطر الأحتفاظ بالأموال فى خزينتك

أطلع على البطاقة ... ولا تتردد فى تقبول شيكات الأهلى كارد ... فهى مضمونة السداد من أى فرع من فروع البنك الأهلى المصرى

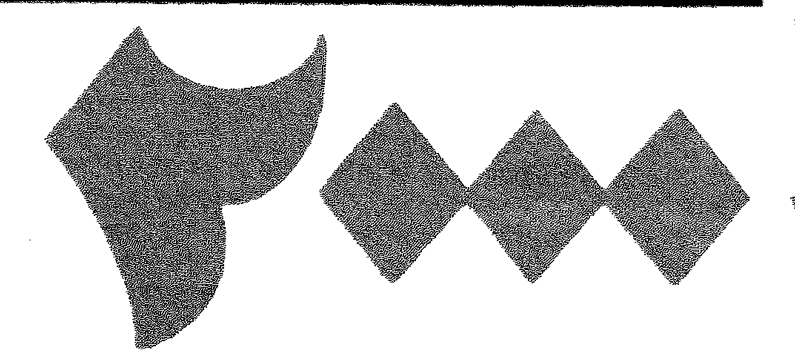
لمزيد من الأستفسار يرجى الأتصال بقطاع التسويق المصرفى
٨ ش إبراهيم نجيب - جاردن سيتى ت : ٣٥٤٤١١٨ - ٣٥٤٥١٤٠
وكذا أى فرع من فروع البنك المنتشرة بجميع أنحاء مصر

الأهلى كارد
الضمان .. والأمان



البنك الأهلى المصرى
٩٤ عاماً فى خدمة إقتصاد مصر

الهلال



القرن الحادى والعشرون

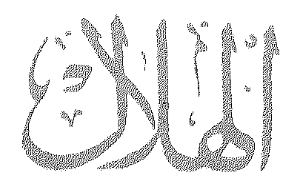
سبتمبر ١٩٩٢ ● الثمن ١٠٠ قرش

ندوة الهلال : مائة عام من التنوير والتحديث

● حديث الصور والذكريات

● سيد درويش والنور الأبيض


المنظف الصناعى
نيول ..٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
إنتاج:
شركة اسكندرية للزيوت والصابون



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

General Org

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج . م . ع ، مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢١٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٢٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٢٥ دولارا

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

فكر وثقافة :

القرن الحادى والعشرون :

(جزء خاص) :

القرن الحادى والعشرون
٢٠٠٠

فنون :





القرن الحادى والعشرون

نستقبل القرن الحادى والعشرين ، ونحن نبذ قصارى جهدنا فى أن تتبدل صورة الماضى إ غد مشرق جميل ، ولا تتوقف طموحات الإنسان الذى يعمل ويجتهد لتحسين صور الحياة وتجميلها

وفى هذا العدد المتمم لمائة عام من عمر الهلال ، نقدم جزءاً خاصاً نناقش فيه قضا القرن الحادى والعشرين وفى مقدمتها قضية السكان ، خاصة وإن الإنسان هو محور التنم وعاملها الأساسى ، ونحن نواجه زيادة رهيبة ف عالمنا الثالث ، حيث من المتوقع أن تصل [illegible] إلى ٨٥٠ مليونا كل عشر سنوات ، وبهذا يزد الفقراء فقرا ، ويزداد الأغنياء غنى ، وتتعاظ الفجوة بين الأغنياء والفقراء .. ومثل قضية السك تبرز قضايا الإسكان فى مصر ، والخطر الذ يواجهنا ، فضلا عن طرح قضايا عديدة تشد الاقتصاد والثقافة وأفريقيا فى القرن الحاد والعشرين .

وتبرز قضايا ملحة فى مقدمتها بلورة الرؤ المستقبلية لمصر والأسس الموضوعية التى تحة أهدافنا ، وتضعنا على الطريق المنشود للتط والإرتقاء وبلا شك يؤكد ذلك دور « الهلال » ف طرح قضايا المستقبل وحرصا منها على أد دوريها الثقافى والريادى المعروف عنها منذ نشأتا حتى اليوم .

المحرر

مائة عام بالكلمة والصورة

فى مثل هذا الشهر – سبتمبر ١٨٨٢ – وقعت هزيمة التل الكبير التاريخية الأليمة ، ودخل الإنجليز مصر ، وذهب قائد المصريين فى التل الكبير – أحمد عرابى باشا – إلى منفاه فى جزيرة سيلان ..

وفى مثل هذا الشهر أيضا – سنة ١٩٠١ – عاد عرابى من غربة المنفى ، فاستقبله خصومه بالتنديد الشديد ، بصفته المسئول عن الهزيمة وإحتلال الإنجليز لمصر .

وتبارت بعض الصحف حينذاك فى هجاء العائد من المنفى ، ونظم أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة فى استقبال عرابى يهجوه بها قائلا فى مطلعها :

[صَغَارٌ فى الذهاب وفى الإيابِ
أهـذا كل شانك ياعرابى ؟ !]

والصَّغَار – بفتح الصاد – بمعنى الهوان والذل !.. وقد نشر مصطفى كامل باشا هذا الهجاء فى جريدته اليومية «اللواء» .. ثم نظم شوقى قصيدة أخرى ونشرها فى «اللواء» أيضا ، يعزز بها قصيدته الأولى فى هجاء عرابى ..

واشتد الجدل – بعد تسعة عشر عاما من المعركة – بين من لم يشهدوها إلا من بعيد، وبين عرابى الذى اكتوى بنارها ودفع ثمن فشله فيها ..

وتعليقا على ذلك كتب عرابى فى مذكراته التاريخية يقول : «إن رجوعنا إلى وطننا العزيز لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء ظناً منهم أننا بعنا الوطن للإنجليز ، فأوعزوا إلى بعض الجرائد المأجورة للتنديد بنا ، فوجهت إلينا سهام جهلها وضغنها » .

هذه المذكرات التى كتبها عرابى كانت من الوثائق التاريخية التى نشرتها «الهلال» فى حينها ثم أعادت نشرها ..

واليوم يلعب التاريخ نفس اللعبة ، أو يُعيد نفسه كما يقال ، ولكن فى صورة أخرى ، فيحتدم الجدل بين المصريين حول هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ والمسئولين عنها ..

لقد تلقت ثورة يوليو هزيمة عسكرية كالهزيمة التى تلقتها من قبل ثورة عرابى ، وقد انتهى الجدل حول ثورة عرابى وهزيمتها ، لأن الحياة تصحح نفسها بلا انقطاع ولو بعد عشرات أو مئات من السنين ، فلا يبقى إلا المثل الأعلى الذى ترفعه الحياة كالسراج فى ثبج الصحارى يرشد التائهين ، ولاتقدر على إطفائه العواصف ، أو كما قال شوقى نفسه بعد ذلك وهو واقف على قبر البطل يوسف العظمة الذى هزمه

الفرنسيين في معركة ميسلون على مشارف دمشق قبل سبعين عاما :

[سـراجُ الحـق فى ثَبَـجِ الصحارى
تَـهـابُ العـاصـفاتُ لـه ذُبـالاَ]

فلنستبق العبرة المفيدة ، والمثل الصحيح ، من عثرات نضالنا ! ..

عزيزى القارئ :

لم نكد نفرغ من طباعة عدد « الهلال » الذى تطالعه حتى شرعنا فى وضع اللمسات الأخيرة فى « سجل الهلال المصور » ، .. وهو مجلد ضخم يحوى مئات الصفحات النادرة التى تضم حشدا من الكلمات والبيانات والصور التاريخية لمائة سنة من التنوير والتطوير فى جميع مجالات الحياة بمصر ..

ولانريد أن نسبق الأيام فنقول إنك ستجد هذا السجل عملا ثقافيا غير مسبوق فى الصحافة المصرية ..

فلنرتقب معا صدور هذا السجل الكبير ..

عزيزى القارئ :

تواكب سجل الهلال فى الصدور « موسوعة الكتب العربية المائة » التى كان لها أكبر الأثر فى تفكير الانسان المصرى والعربى منذ صدور « الهلال » سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٩٢ وهى موسوعة ضخمة حافلة اشترك فى تحريرها عشرات من أكبر الكتاب والأدباء والصحفيين ، وتتحدث عن عشرات من أمهات الكتب ، وتعرضها عرضا دقيقا شاملا ..

وقد تزايد الطلب على طبعات مجلدات الهلال المائة ، مما حفزنا إلى طبع مجلد السنة الأولى (سنة ١٨٩٢) وطرحه مع الموسوعة وسجل الهلال ..

عزيزى القارىء :

فى الأسبوع الثانى من هذا الشهر تنعقد الندوة الاحتفالية الكبيرة ذات الأهمية الخاصة ، التى تقيمها «دار الهلال» احتفالا بمائة عام من التنوير والتحديث فى مصر .. وسوف ينبثق من هذه الندوة التاريخية الفريدة فى بابها ، ضوء جديد يغمر الطريق التى تسير فيها مواكب التنوير والتحديث ، على مشارف القرن العشرين ، وما يتلوها من عقود السنين المترامية على آفاق المستقبل ..

ونحن وإياك – ياعزيزى القارىء – على لقاء متجدد إن شاء الله ..

«المحرر»

ندوة الهلال

هذا هو مشروع ورقة عمل لندوة الهلال التى ستعقد فى النصف الثانى من سبتمبر المقبل ويدعى إليها قادة الفكر من كل أنحاء العالم .. وموضوعها ..

«نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث»

مائة عام انقضت على ميلاد مجلة «الهلال» . وهى ليست مائة عام من حياة مجلة هى أقدم المجلات العربية نشأةً واستمراراً ، وإنما هى كذلك مائة عام من حياة الثقافة العربية ، التى كانت ولاتزال مجلة «الهلال» سجلا أمينا لأبرز اجتهاداتها وإبداعاتها ، ومنبرا رفيعا لألمع كتابها ومفكريها ، ولقد كانت مجلة «الهلال» مصرية النشأة ، ولكنها منذ البداية كانت تحتضن الثقافة العربية فى مختلف تجلياتها ، وتتابع منجزات عصرنا الراهن فى مختلف مجالاتها ، تعرض لها وتتحاور معها ، ولهذا فمجلة «الهلال» عبر أعدادها المتتالية التى لم تتوقف منذ سبتمبر عام ١٨٩٢ ، وبتنوع دراساتها وموضوعاتها ، تكاد تعبر عن الأسئلة الرئيسية التى فجّرها المثقف العربى طوال هذه السنوات ، من أجل الخروج بالثقافة العربية وبالواقع العربى عامة ، من وهدة التخلف الفكرى والتشتت القومى إلى آفاق التنوير والتحديث والنهضة والتوحد ، تأكيدا وتطويرا للهوية العربية الخاصة ، ولحاقا وتفاعلا مع حضارة العصر .

ولهذا كان حرصنا على الاحتفال بمرور مائة عام على صدور مجلة «الهلال» ، ليس حرصا على الاحتفال فحسب بما تمثله هذه المجلة من قيمة ثقافية وتاريخية ، وإنما هو حرص كذلك على الاستفادة من هذه المناسبة ،

لإعادة قراءة الهموم والاسئلة ، الرئيسية التى عبرت عنها الثقافة العربية طوال هذه السنوات المائة التى تعد بحق أهم سنوات التنوير فى تاريخنا العربى الحديث .

وإعادة القراءة لا تعنى الرصد المجرد لما تم إنجازه ، أو الرفض المتعالى له ، وإنما تعنى دراسته دراسة تحليلية نقدية لتحديد دلالته – سلبا وإيجابا – فى مسيرة التنوير .

على أن إعادة القراءة لا تعنى كذلك مجرد الوقوف عند منجزات هذه السنوات المائة ، وإنما تعنى أساسا الانطلاق من هذه الدراسة التحليلية النقدية لها ، لاستشراف آفاق الحاضر والمستقبل والتصدى لما تثيره من تحديات وأسئلة جديدة ، وما تفرضه من مسئوليات وواجبات ملحة .

على أن الأمر المثير للتأمل والدهشة ، هو أنه بعد مائة عام من التنوير والتحديث ، نتبين أن أغلب الأسئلة التى فجرها رجال عصر النهضة منذ أواخر القرن التاسع عشر بوجه خاص ، لاتزال فى الجوهر هى نفس الأسئلة التى تحتدم بها الثقافة العربية فى أيامنا هذه ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين . ونتساءل بحثا عن تفسير ذلك :

كيف تظل نفس الأسئلة دون تغيير رغم ما تحقق فى البلاد العربية عامة من تغيير وتحديث وتنوير بدرجات متفاوتة طوال هذه السنوات ؟ هل معنى هذا أن التغيير والتحديث الذى تحقق هو تغيير وتحديث سطحى برانى لا يمس جوهر الأوضاع العربية ، وأن التنوير الذى انتشر هو تنوير محدود بحدود بعض النخب المتعلمة والمثقفة ، ولم يبلغ الهياكل والجذور الشعبية والاجتماعية الأساسية ؟ على أن الذى لا شك فيه ، أن أغلب أسئلة عصر النهضة ، لاتزال معلقة تنتظر إجاباتها العملية الموضوعية التى لم تتحقق بعد ، ولا نقول إنها قد أجهضت .

* فلاتزال قضية الدولة المدنية والدولة الدينية مثار خلافات ونزاعات فكرية وسياسية ، وتكاد تمزق بعض المجتمعات العربية ، برغم أنها لم تبلغ هذه الحدة الخلافية فى البدايات الأولى لعصر النهضة .

* ولاتزال الدعوة إلى الإصلاح والتجديد الدينى ، شعارات عامة لم ترتفع إلى مستوى المشروع المتكامل الذى كان قد بدأه باقتدار وجسارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، بل ما أكثر ما تهبط هذه الشعارات إلى مظاهر وأفكار متخلفة .

* ولاتزال قضية الوحدة العربية معلقة ، بل لعلها قد أخذت تفقد بريقها وحرارتها هذه الأيام وخاصة بعد حرب الخليج ، وأخذت تستشرى بعض الاتجاهات القطرية والانعزالية .

* ولاتزال قضية التنمية الاقتصادية - الاجتماعية الشاملة ، مفتقدة فى كل بلد عربى ، وعلى المستوى العربى عامة ، فضلا عن اختلاف الاجتهادات بشأنها بين البلاد العربية مايضعف من إمكانية التنسيق والتكامل فى عصر أخذت فيه مختلف التجمعات الاقليمية فى العالم تتجه إلى التكامل والتواحد .

* ولاتزال قضية العلاقة بين التراث والعصر ، بين التقليد والتحديث ، بين النقل والعقل ، قضية خلافية حادة تتجسد فى العديد من الظواهر والتقاليد الفكرية والأدبية والفنية والحياتية . مما يفقد حياتنا الاجتماعية والقومية طابع التجانس ، ويضعف فى كثير من المجالات روح العقلانية والتجديد والإبداع .

* ولاتزال العلاقة بين الأنا القومى والآخر الغربى موضع تفسيرات ومواقف مختلفة تتراوح بين الدعوة إلى الاندماج المطلق على حساب خصوصيتنا القومية ، أو الرفض المطلق على أساس طائفى يكاد يصل أحيانا إلى حد صياغة رؤية صليبية جديدة لهذه العلاقة ، أو محاولة التوفيق والتلفيق المظهرى بين خصوصية الهوية العربية وبين الآخر الغربى ، أو محاولة استيعاب حقائق العصر والتفاعل معها وخاصة فى منجزاته العلمية والتكنولوجية والديمقراطية والبيئية دون التخلى عن هويتنا القومية

وخصوصيتنا الثقافية .

* ولاتزال قضايا الحرية والديمقراطية والاستنارة العقلية وحقوق الإنسان تعانى من أشكال مختلفة من الحصار والتسلط والقمع ، ويكاد الموقف من المرأة - بوجه خاص - أن يرتد عما سبق أن اكتسبته من حقوق ومكانة اجتماعية ومدنية منذ أوائل عصر النهضة ، فتشيع مفاهيم وقيم حول المرأة تكاد تعود بنا إلى عصر الحريم .

هذه هى أبرز أسئلة عصر النهضة التى حاول المثقفون العرب - طوال المائة عام الماضية - اكتشاف إجابات وحلول لها على المستوى النظرى والعملى ، على أنها لاتزال أسئلة معلقة محتدمة فى ثقافتنا العربية الراهنة .

فهل نستطيع أن نجعل من احتفالنا بهذه السنوات المائة من حياة مجلة «الهلال» ومن حياة تجارب التنوير والتحديث فى ثقافتنا العربية ، وقفة لتأمل هذه الأسئلة تأملا نقديا شاملا فى ضوء خبرة الماضى ، ومتطلبات واقعنا العربى الراهن ، وفى إطار عالم اليوم الزاخر بالتحولات الكبرى ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ؟! .

هل نستطيع أن نجعل من هذا الاحتفال نقطة انطلاق ثقافية نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث ؟

إننا لا نطمع أن يصل هذا الاحتفال وخاصة فى الندوة التى نريد أن نخصصها لهذا الموضوع إلى إجابات حاسمة جديدة لهذه الأسئلة المعلقة . على أننا نتطلع على الأقل إلى أن يكون هذا الاحتفال ، وهذه الندوة خطوة فى هذا الطريق ، تتحرك بها الثقافة الراكدة ، وتنقشع بها حالة الإحباط واليأس التى ترين على بعض العقول والنفوس ، وتتوحد فيها الطاقات الثقافية والإبداعية العربية المختلفة من أجل مائة عام جديدة من التنوير والتحديث .

حديث الصور والذكريات

بقلم : مصطفى نبيل

كثيراً ما يقف المرء لاهثا أمام صورة فوتوغرافية ، يشعر كأنها تحدثه ، تثير لديه شحنة من الحنين والذكريات ، تقوده تلك الصورة الى ألبومه الخاص ، يتابع الصور النابضة بالحياة ويلاحظ تدفق واستمرار حركة الأحداث ، تعيش فيها الذاكرة لحظة حاضرة تستند الى ماضى حى ومتوهج ..

ترسم الصورة بالضوء والظلال وتجسم الموقف والفكرة ، تقدم ما صورته الكلمة وتخيله المصور ، تمثل الكلمة والصورة معا ما بين الموسيقى والشعر ..

وأصبحت الصورة جزءاً هاماً من حياتنا ، نراها فى كل مكان ، ونستعملها لأكثر من هدف ، فيضاف الى الحاجة اليها فى الكثير من الأعمال الرسمية ، ذكريات الماضى التى كثيرا ما نضعها فى مكان أمين ، نعود اليها بين وقت وآخر ، فتغسل هموم المرء ومشاغله.

وبعض الصور لها مكانة كبيرة وخاصة تلك التى تجسد استعادة اللحظة والحدث والعصر بكل ما فى ذلك من نبض ، ولا تقل أهمية عدسة المصور عن قلم الكاتب ، وكثيرا ما تفصح أكثر مما يفصح القلم ، ونافست الصورة فى زمن قصير الكلمة بل وكثيراً ما تفوقت عليها ، بعد أن أصبحت مسجلاً أميناً للتعبير عن المشاعر ، فكثيراً ما تقتنص العدسة البسمة وتضبط التقطيبة والدمعة ، وهى تحمل ما فى الوقائع المحسوسة من ماء الحياة .

من هنا جاءت فكرة أن يقدم «الهلال» فى عيده المئوى فى مجلد كبير سجل الهلال المصور، ننقل خلاله للقارىء العربى أهم وأجمل اللقطات خلال مائة عام، والتى ستصدر قريباً.. ويقول السجل: «لا يدهش أكثر من الحقيقة»، تلك الحقيقة المتمثلة فى لقطات حية تراكمت فى أرشيف الهلال على مر الأيام والسنين، ويضم السجل أفضل اللقطات التى سجلتها عدسات مصوريها، يعيش القارىء فى الأيام القديمة بخيرها وشرها، وتنعش ذاكرته البصرية والتاريخية فى لقطات بديعة تدهش من يراها، بعضها لوحات تلقائية بديعة تريح العين، وتنقل طعم الحياة وملامحها حتى تكاد تعيش العصر، وتشم رائحته.

وأقمنا فى هذا السجل مصالحة تاريخية بين مراحل التاريخ المختلفة، باعتبارها مراحل بدأت وانتهت، ونظرنا الى مراحل التاريخ من وجهة نظر محايدة تحتفى بما هو ايجابى، وتحتفى بكل ما هو تعبير عن تطلعات أبناء الوطن فى العدل والتقدم، وهذه النظرة نحن فى أشد الحاجة إليها فى نهاية قرن وعلى مشارف قرن جديد.

وشد انتباهنا فى هذا السجل، الماضى البعيد الذى أصبح تاريخاً، وحياة الرواد الأوائل فى المجالات المختلفة، وحتى إذا كان ذلك على حساب الماضى القريب والزمن المعاصر، على أمل أن يأتى جيل بعدنا يكون أقدر منا على تقديم أحداث هذا الزمن بعد أن تصبح تاريخا، والتزمنا بمنهج الانتقاء وليس الحصر، بعد أن وجدنا أن تقديم كل الشخصيات والأحداث أمر يصعب تحقيقه ويحتاج الى الكثير من الصفحات.

كما التزمنا بالمنهج التاريخى والتتابع الزمنى فى العناوين التى قدمناها.

وأعطينا الإهتمام الأكبر لملامح الحياة الاجتماعية والفكرية ونقل نجوم الأدب والفكر والفن على أن يأتى بعدها الملامح السياسية والاقتصادية، حتى يتمكن القارىء من متابعة قرن غنى بالأحداث والصور والظلال، فى صور ناطقة يرى خلالها تفاصيل العمارة والأزياء، وكافة ملامح وتفاصيل كثيراً ما يغفل عنها المؤرخون.

وقدمت لنا الكاميرا صور الحياة الإجتماعية المختلفة، وسجلت صور الرواد والكثير من الأحداث التاريخية، وفرضت الكاميرا وجودها مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وأخذت الصحف والمجلات المصرية تسجل صور الشخصيات والأحداث المتتابعة، وما أكثر اللقطات التى اكتسبت مع الأيام قيمة تاريخية كبرى.

فلقطة المصور هى الحقيقة ماثلة بعيدة عن التجريد، وهى جزء من الواقعية ومنهجها الإبداعى، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن العمل الفنى المتمثل فى عدد هذه اللقطات أشبه بمنجم غنى بكنوز لا تنضب.

ونواصل تقليب سجل الصور فى مختلف مناحى الحياة المصرية.

ونقدم الى القارىء سجلا مصورا تذكارا للماضى وبشرى للمستقبل، بعد أن انعقدت بين الكاميرا والصحافة علاقة حميمة، فالصورة هى الوجه الثانى للكلمة،

وتتضافر فى هذا السجل الكلمة المكتوبة التى اخترعها الانسان مع الكاميرا ، التى التقطت الصورة الضوئية منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاما .

والكلمة والصورة تمضيان مع الانسان الى مستقبله ويشكلان سلاحه فى التعبير أمس واليوم وغدا .

ويظهر « سجل الهلال المصور » المجتمع المصرى فى تطوره ، نجاحه وإخفاقه ، وترى من خلاله الحياة اليومية فى وجوهها المختلفة ، فجهودنا تتجه الى أن نحفظ لأحفادنا تصويراً حياً للقرن الماضى ١٨٩٢ - ١٩٩٢ عن طريق تقديم تلك اللقطات التى تمنح الحياة اتصالها .

وبينما تقلب صفحات « سجل الهلال التذكارى » يغيب المكان والزمان وتستحضر فى لحظات أزمنة مختلفة ، كما ترى العديد من الأماكن وأنت لم تبرح مكانك ، وينقل اليك العالم بل الكون كله .

وكنا ونحن نعد « سجل الهلال المصور » نكمل دور مجلة الهلال ورسالتها للأجيال العربية المتعاقبة ، فعلى كل جيل أن يسلم الراية والخبرة والذاكرة البصرية للجيل الذى يليه .

وأن « الهلال » أقدم دار صحفية أولت إهتماما بالغا بالصورة ، هى المؤهلة لكى تقدم هذا العمل الكبير والجليل .

فاذا كانت السنوات هى اتصال الزمن ووحدة الحياة ، إلا أن مائة عام من الهلال فرصة كبيرة يراجع المرء فيها قرنا مضى ، ويستعد لقرن مقبل ، ومن حقه أن يتطلع للأجمل .

ولن يتمكن أحد من السير الى الأمام إذا اكتفى بالنظر الى الخلف ، ولم يتطلع الى المستقبل بهدف اقتحامه .

وباقى من الزمن ثمان سنوات ونجد أنفسنا فى سنة ٢٠٠٠ ونخرج من القرن العشرين لكى ندخل القرن الحادى والعشرين ، ولم يعد أمامنا سوى الرهان على المستقبل ، ولن نكتفى بالنظر الى الماضى على أنه الزمان الجميل ولن نغرق فى الحاضر ، ولكن على المجتمع كله أن يقرر اقتحام المستقبل .

ونحن أمام فرصة تاريخية لا تتكرر ، فعدد قليل من المجلات الشهرية ، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، عاشت مائة عام ، تجذب اليها القارىء وتثير اهتمامه ، ومن هذه المجلات « مجلة الهلال » .

واستمر الهلال مصدر الاشعاع الثقافى يتلألأ فى سماء القاهرة ، يلتف حول هذا المصدر العرب جميعا ، وكثيرا ما يعيش الرمز أكثر مما يعيش أصحابه ، ويتحور معنى الرمز ولكنه لا يفقد دلالته ، ومجلة « الهلال » عند صدورها كان اسمها رمزًا للأرض التى نعيش فوقها ، ومضمونها رمزا لاتجاه جديد فى صحافة الثقافة العربية .

مما يلقى على عاتقها مسئولية كبيرة .

وقد دأبت مجلة « الهلال » على مواجهة المتغيرات من حولها ، وكانت احدى أدواتها تطوير المادة الثقافية ، واستخدام أحدث التقنيات فى الصورة الفوتوغرافية ، فقفزت مع أشقائها فى « دار الهلال » فى فن التصوير الصحفى ، وأصبحت رائدة فى فن جميل ساحر ، وقدمت عدسة الهلال صوراً لمناحى الحياة المختلفة ، ونقلت

العدسة القارىء ليرى بالألوان والأبيض والأسود أماكن يصعب عليه الوصول اليها. وكما يقول المثل الصيني « الصورة خير من ألف كلمة » .

وأدى تطوير طباعة المجلة الى كسب قراء جدد ، ومكنتها الطباعة الحديثة والاخراج الحسن من الوقوف أمام منافسة التليفزيون ووسائل الاتصال الحديثة الأخرى ، وأثبتت تجربتها أن الحاضر والمستقبل مازالا للتحالف بين كلمات الكاتب وعدسة المصور وريشة الرسام مع تطور فن الطباعة الحديثة .

فالمجلة تقرأ بالعقل وترى بالعين ، ويكسر الإخراج الجيد الرتابة ، وينوع الايقاع ، ويقطع الصورة مجرى الكلمات فتضيف الى معمارها معنى ومغزى ، وجمعت المجلة فى فترات كثيرة الإجادة فى كل من التحرير والتصوير والإخراج ، وأخذت قارئها الى آفاق جديدة وجعلته يسافر على الورق فى ربوع العالم المختلفة ، وقدمت للقارىء جوانب من ثقافات الشعوب وفنونهم ، كما تنقل اليه شخصية المكان وتاريخه وتطوره .

وتصحب القارىء الى آفاق العلم الجديدة وتأثيراته على مستقبل الانسان ، وتجذب القارىء بفتنة الاكتشاف ، وتزيح الستار عن كل غامض ومجهول ، وتتوقف عند كل غريب وفاتن وجميل .

وكان أكبر إنجازاتها هو فن التبسيط ، مما ساعد المجلة على الوصول الى قارئها ، وأحدثت المجلة تأثيرات عميقة على كل من الادراك والخيال بصورة تجذب وتشبع .

وكانت مناسبة الاحتفال فرصة سانحة لتجميع كل هذه الجهود بين دفتى كتاب واحد يختزل الزمان ويقدم فرصة لإعادة التأمل والتفكير .

فنحن أمة تبحث عن المستقبل ، تراثنا يمتد وراءنا آلوف السنين ، ولكنه سوف يذهب أدراج الرياح إذا جمدناه ولم نتخطاه . إن ماضى مصر والبلدان العربية يمتد الى أعماق آلوف السنين التى خلت ، ولكن ماذا يجدى هذا الماضى إذا كان حاجزاً يقف بيننا وبين مستقبلنا .

القرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه، ولا يجوز لنا أن ننكص نحن على أعقابنا عائدين الى ماض سحيق .

ونتمنى عندما نقلب هذا السجل أن يدفعنا الى تغيير الكثير فى صورة الأمة العربية ، وأن تنتقل من التفكك والانقسام الى التكامل والوحدة ، ونتمنى أن تحقق الحد الأدنى من الأهداف العربية الحيوية ، لأنها بدون تحقيقها لا تستطيع أن تواجه عالما يتغير ويتطور ويتجه الى المستقبل بأعمال وأفكار وخطط ومشروعات تتخلف الأمة العربية عنها ..

ونتمنى لمن يقلب صفحات هذا السجل أن يجيب على السؤال التالى : ما الذى يجعل شعبا ينهض ويتقدم ؟.. وما الذى يجعل شعبا ما ، يكون متقدما ناهضا ، يضمحل ويتقهقر ؟.. ويلاحظ أنه كثيرا ما يحدث هذا لنفس الشعب فى عصور مختلفة .

والجواب الذى تؤكده كل لقطات السجل ، أن ايمان الشعب بدوره ورسالته هو الذى يجعله يصنع المعجزات ، وغياب هذا الايمان هو الذى يجعله ينزلق الى التدهور والإضمحلال .



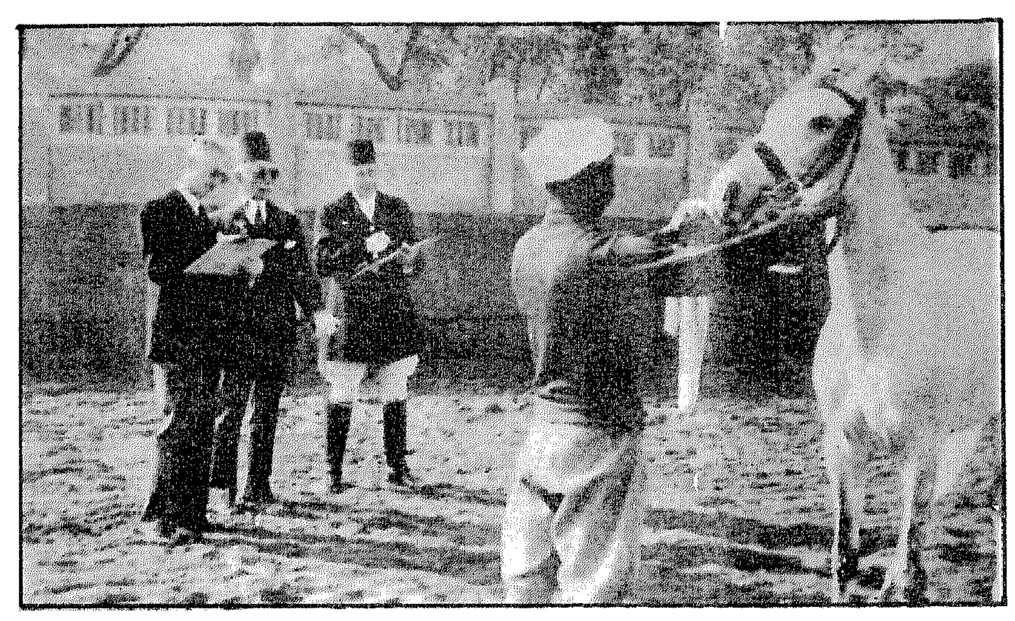
شفق نور هانم ، عباس ومحمد على من جدتهم أم الخديو توفيق



برنارد شو في مصر

عزيز المصري عندما كان ضابطا بالجيش التركي





الامير يوسف كمال مؤسس مدرسة الفنون الجميلة

قسم النحت بمدرسة الفنون الجميلة



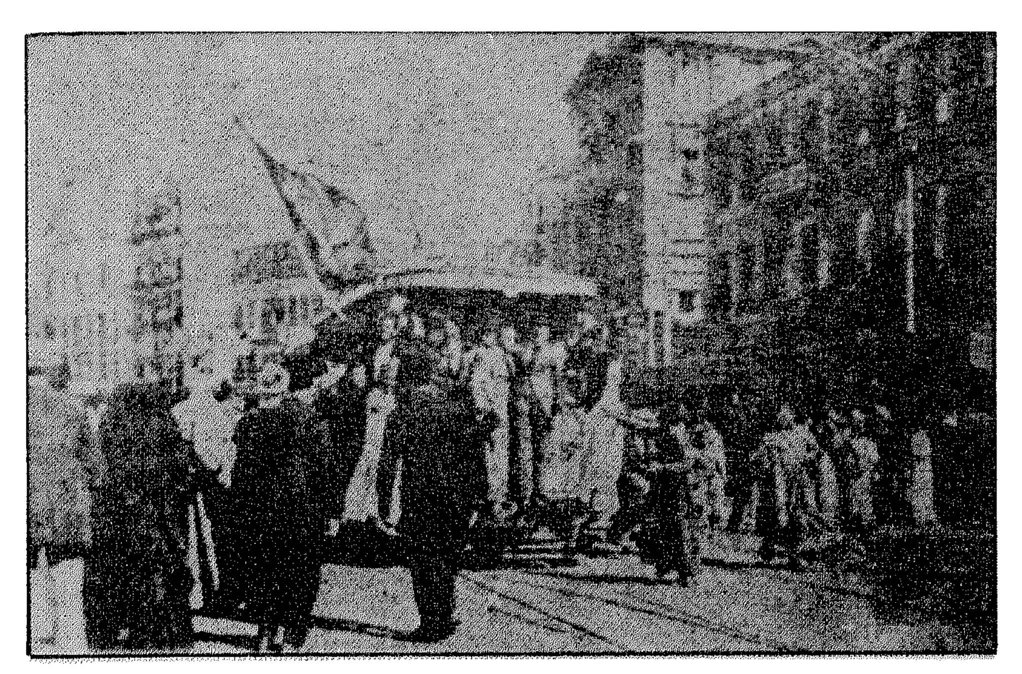
تلميذات المدرسة السنية منذ الثلاثينات بالبرقع والحبرة



عرابى بين أولاده وأحفاده

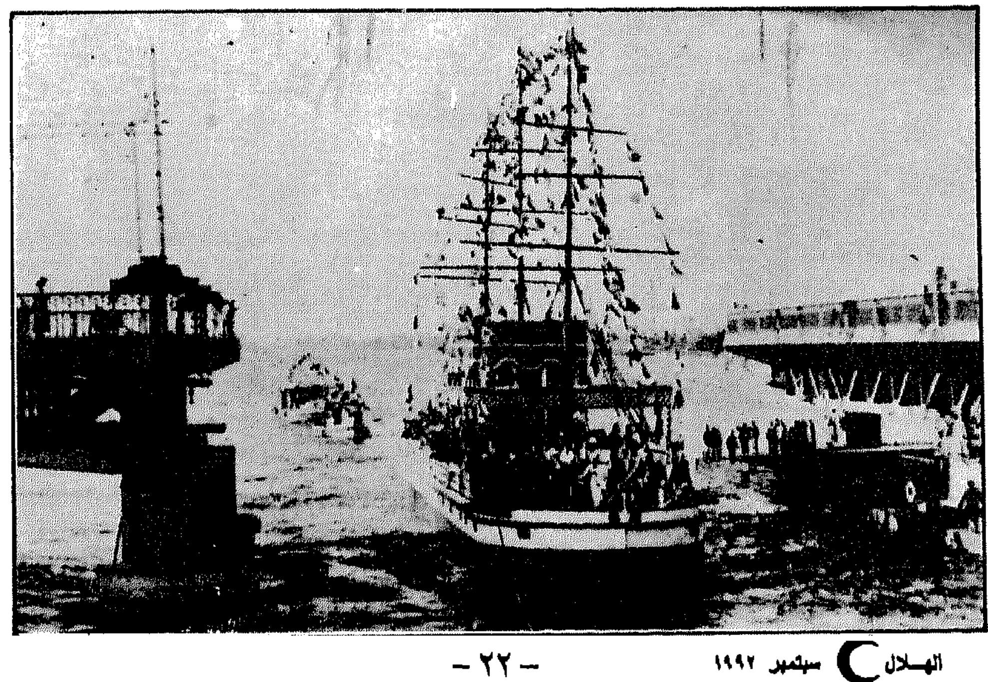


سعد زغلول مع بعض أفراد الشعب بعد عودته من المنفى



جماهير الشعب المصرى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩

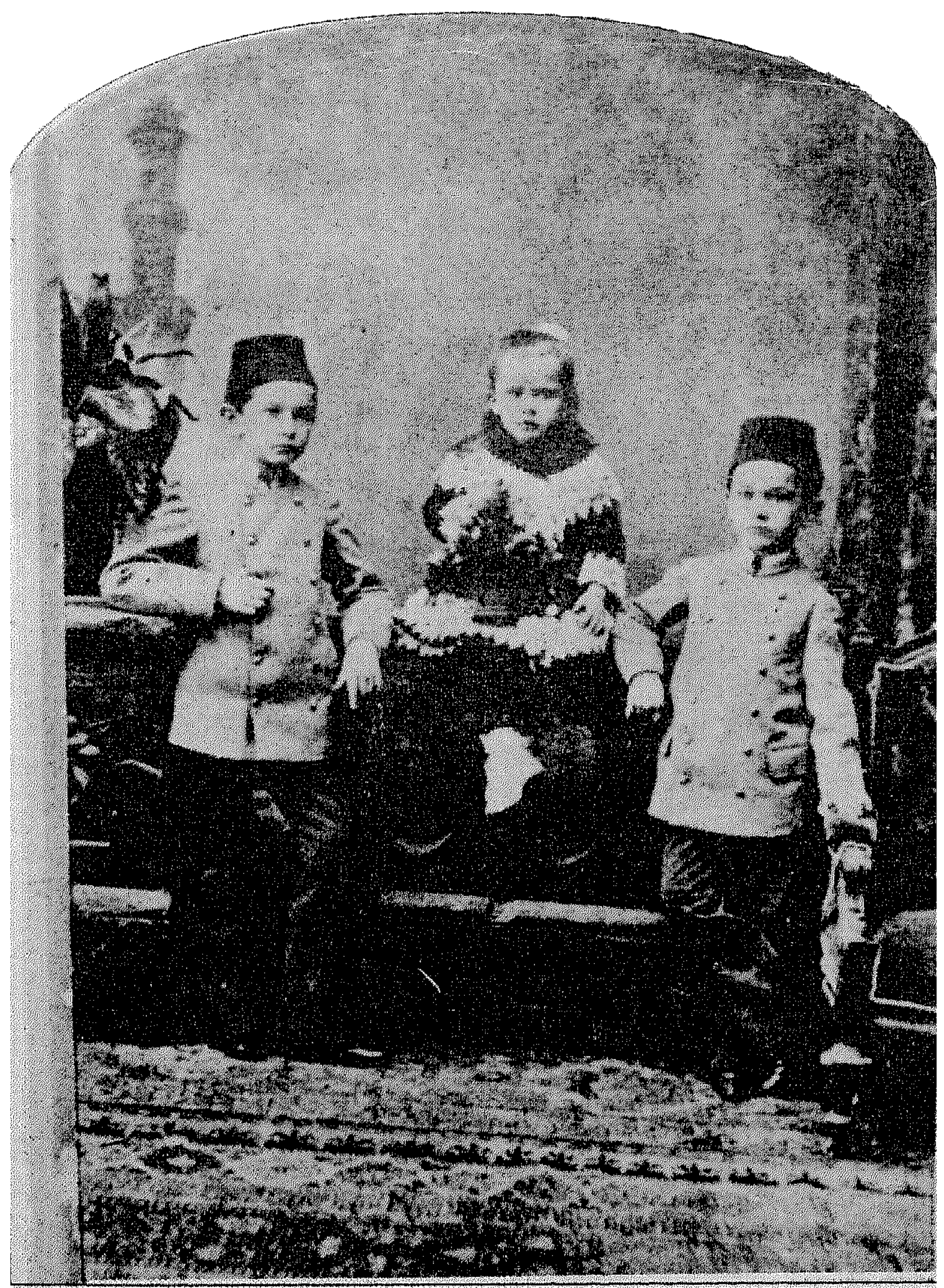
الاحتفالات بوفاء النيـــل

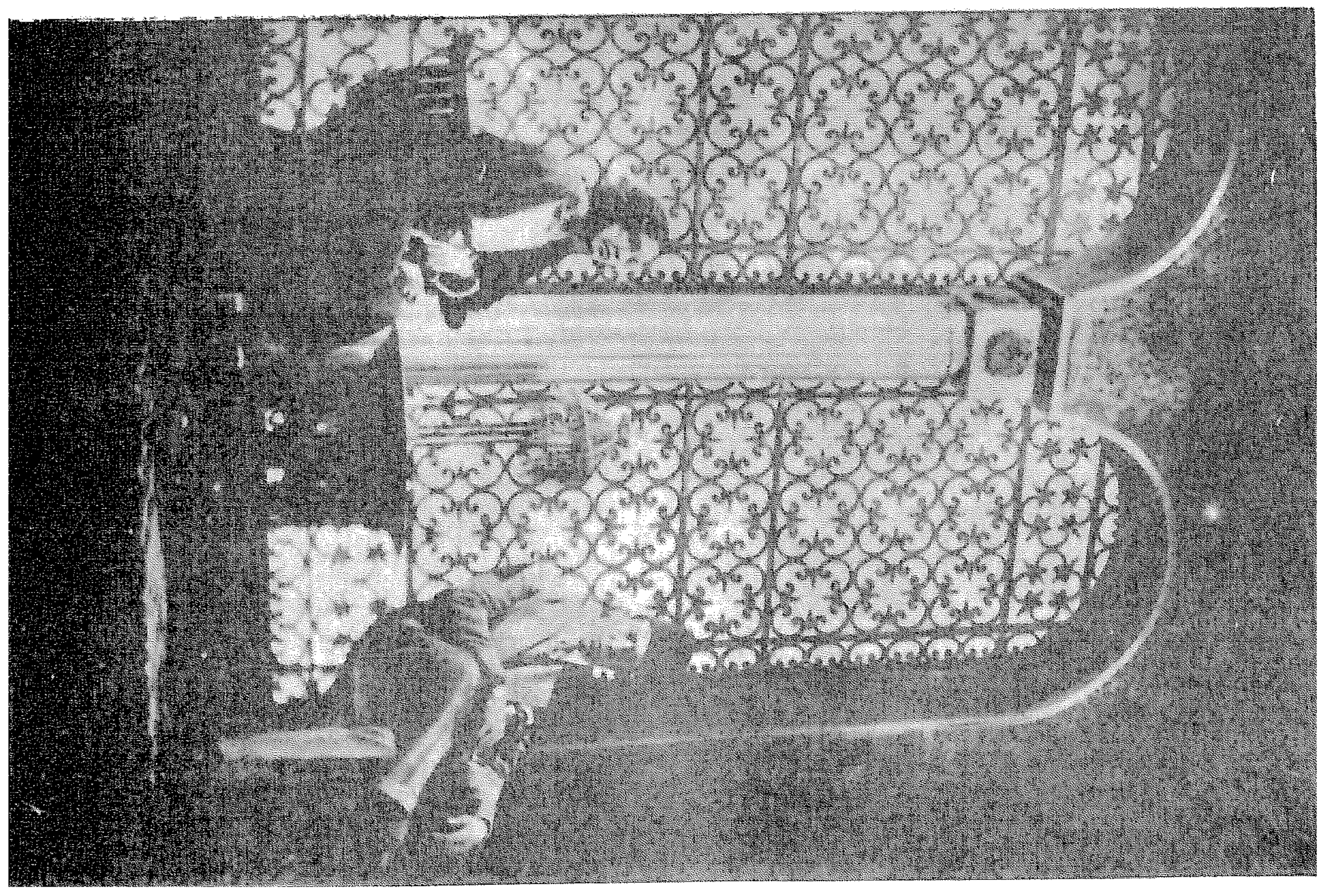




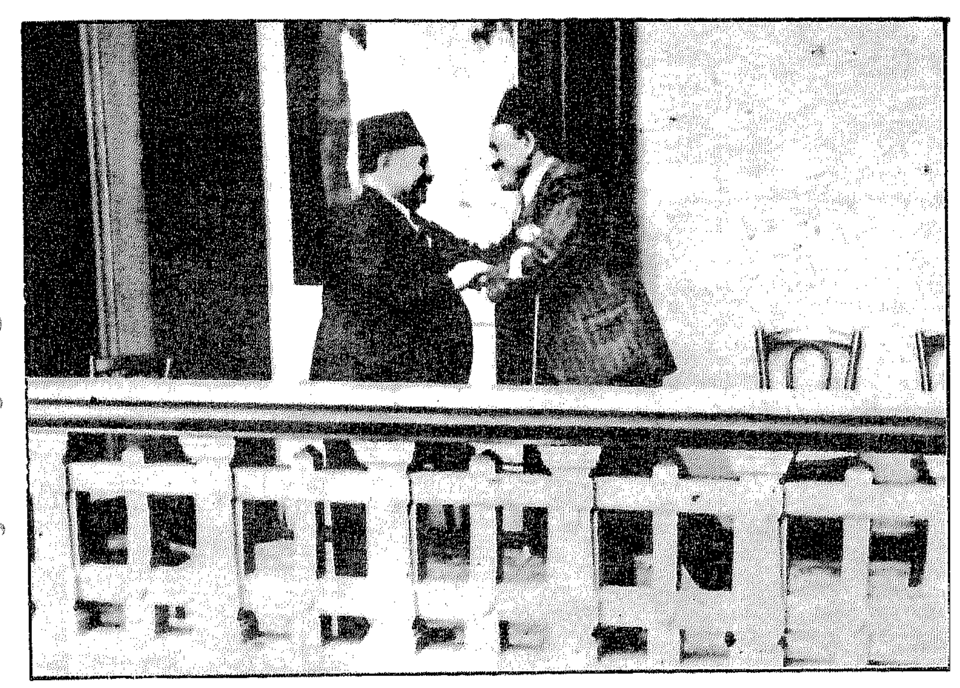
مهندسو القناطر الخيرية

من اليسار الى اليمين : الخديو عباس فالأميرة خديجة فالأمير محمد على



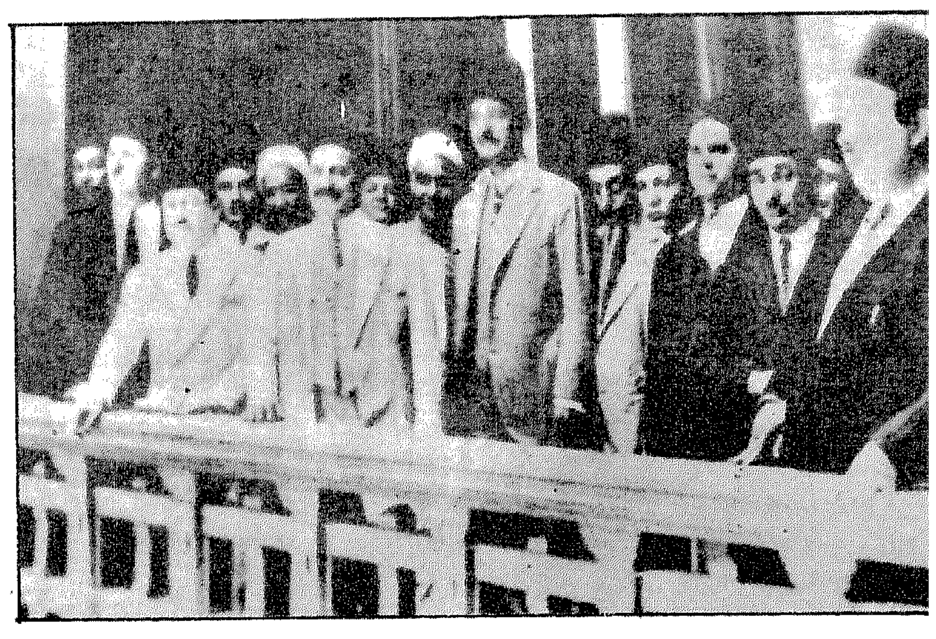


يوسف وهبي وأمينة رزق في لقطة من فيلم «أولاد الذوات»



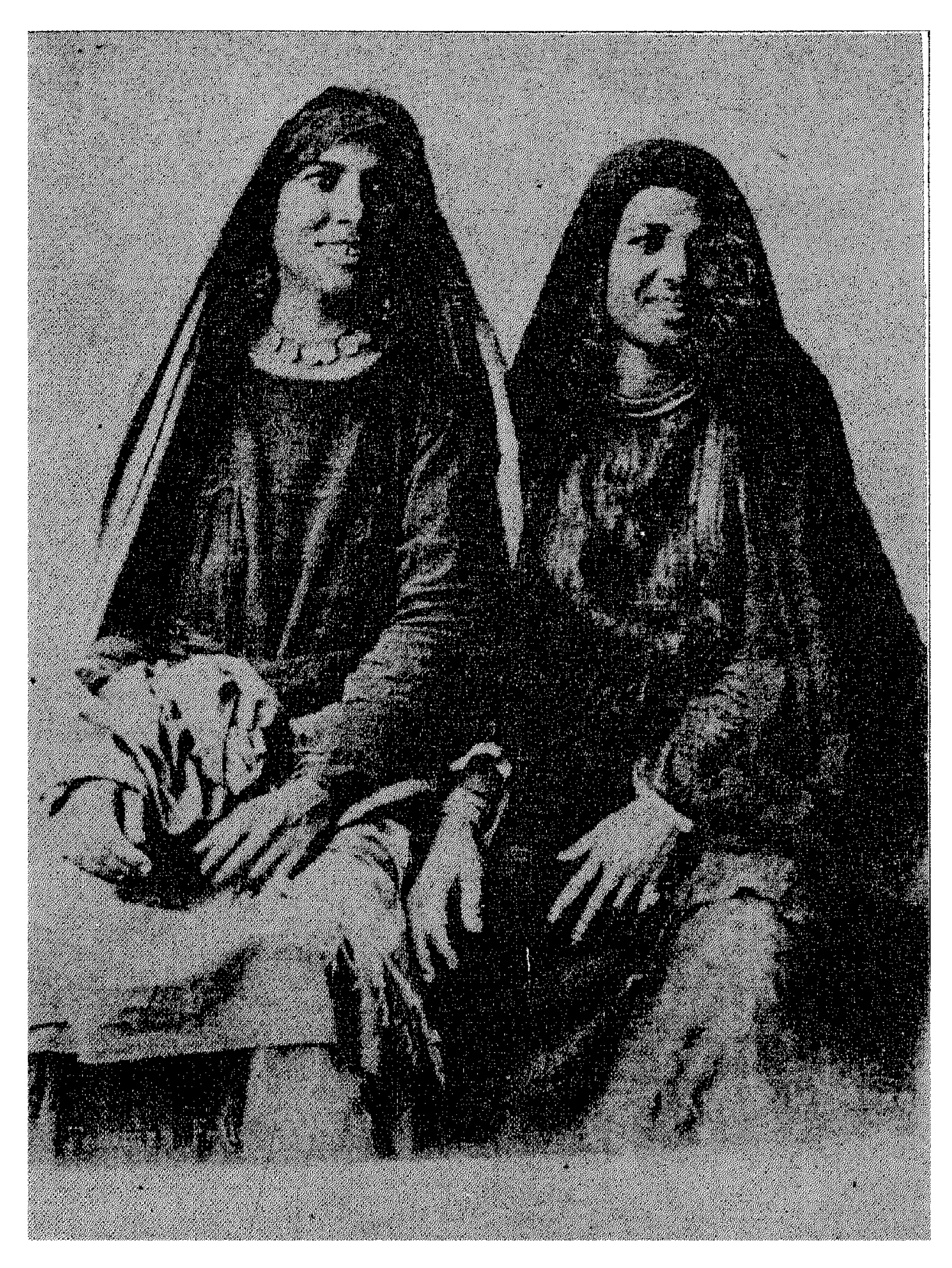
النحاس باشا وأحمد ماهر

عباس محمود العقاد عند خروجه من السجن مع النحاس باشا





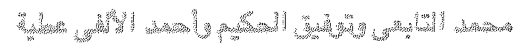
بطلا حادث ٤ فبراير سير مايلز لامبسون وأمين عثمان باشا



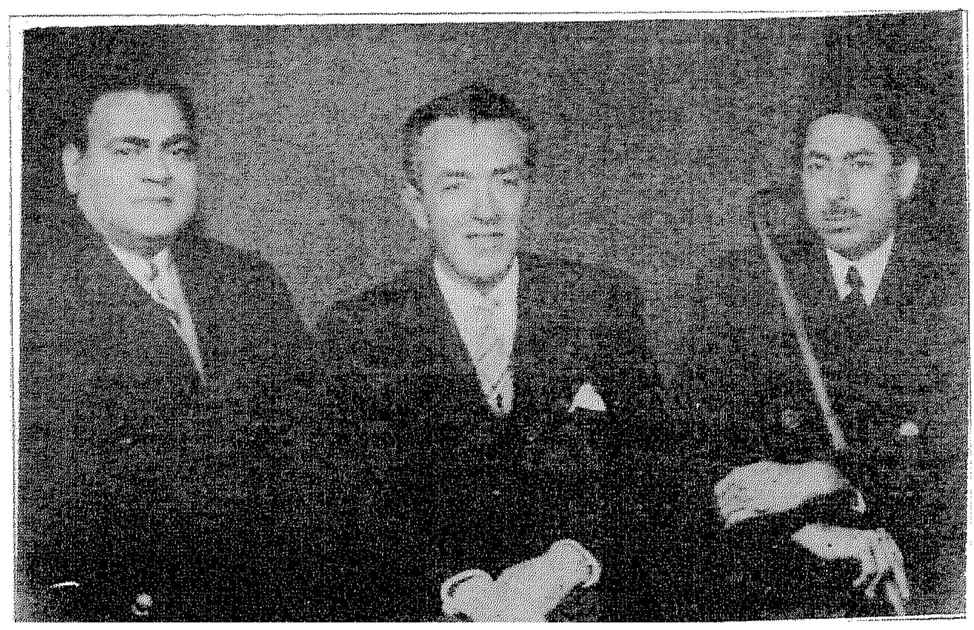
فلاحتان مصريتان سنة ١٨٨٦



طلبة السنة الرابعة بمدرسة الحقوق ١٨٩٢ يتوسطهم أحمد لطفى السيد وتوفيق نسيم



محمد التابعى وتوفيق الحكيم وأحمد الألفى عطية

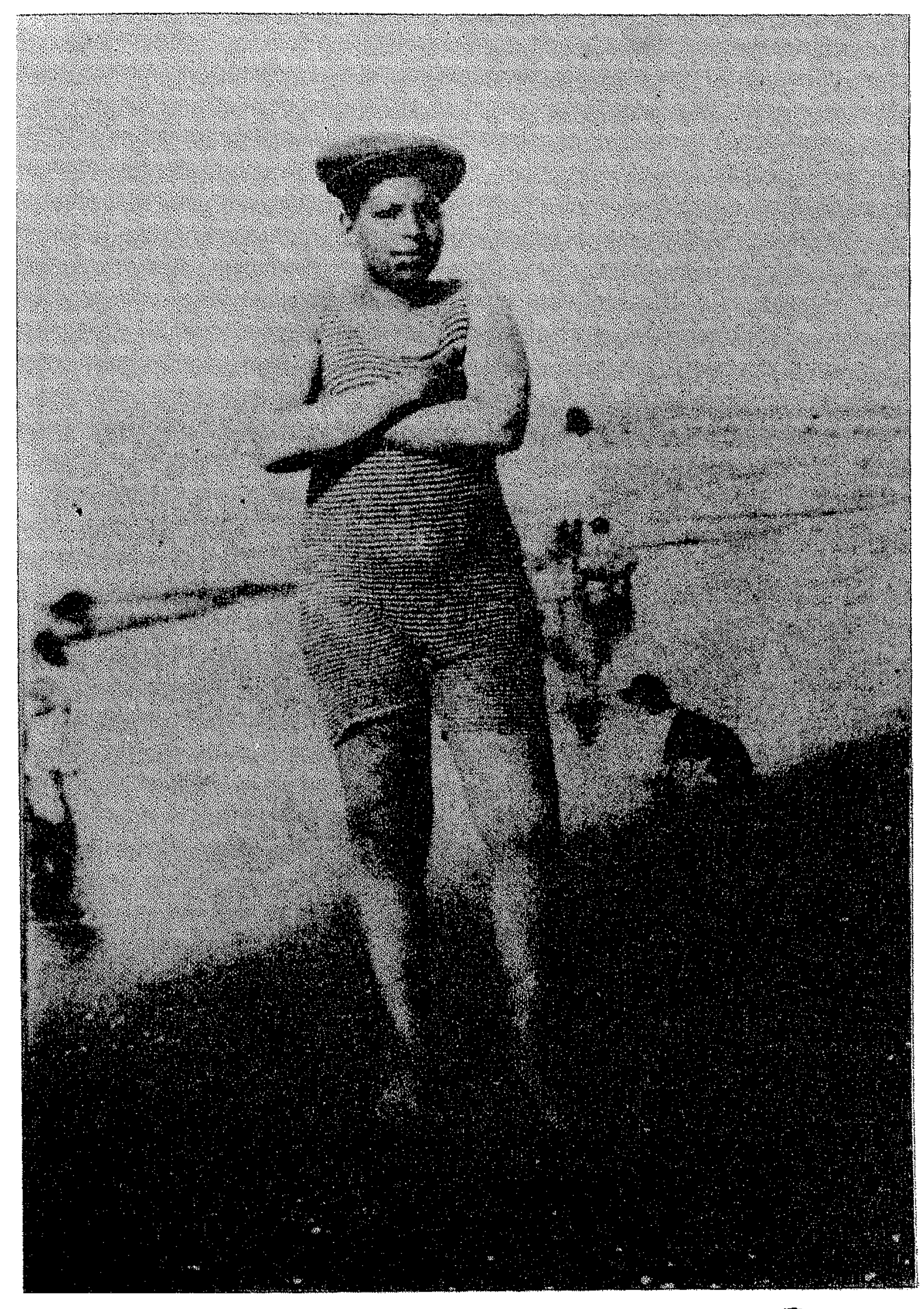




المحمل الشريف فى موكب أكتوبر ١٩٤٦ أيام الملك فاروق



اليوزباشي محمد نجيب الضابط بسلاح الحدود



صالح عبد الحى فى شبابه على البلاج


حريق القاهرة



الأميرة فوزية



الأطفال في زيارة لقاعدة جوية يصحبهم الفريق أول طيار محمد حسنى مبارك قائد الطيران

بقلم : د شكرى محمد عياد

قراءات الشباب

إذا كان لك ابن أو بنت فى سن المراهقة، فماذا تقدم إليهما ليقرآه ؟
إن كنت قد واجهت هــــذه المشكلة ، فسوف توافقنى - فى أغلب الظن - على أنها مشكلة فعلا .

قليلون فى هذه السن ، من يتذوقون أدب نجيب محفوظ . وربما وجدتهم أكثر إقبالا على يوسف إدريس أو الحكيم . ولكن ماذا بعد ذلك ، والصبى أو الصبية إذا جربا لذة القراءة - وما أطيبها من لذة ! - وجدتهما يلتهمان الكتاب الكبير فى بضع ساعات ؟

أظنك تجد الاختيار عملية صعبة جدا .

وأنا لا أتكلم هنا بلسان الناقد ، والناقد وإن أبى أن يقيم من نفسه حكما على الأعمال الأدبية ، واختار بتوضيح أن يكون مفسراً لهذه الأعمال . فإنه يصطفى من هذه الأعمال ما يراه جديراً بالتفسير لأنه أقرب إلى حقيقة الفن ، ويعرض عما عداه إن نال أصحابه الشهرة العريضة فى حياتهم أو بعد مماتهم .

ولكنى كما قلت لك ، لا أتكلم بلسان الناقد بل بلسان المربى . ولذلك لا أجد حرجاً فى القول إن معظم ما أنتجه كتابنا المعاصرون لا يصلح للشباب ، وأعنى بالتحديد تلك الفترة الحرجة بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة ، أى سن المدرسة الثانوية على وجه التقريب ، ولا أحسبنى أصدر فى هذا القول عن تزمت أخلاقى أو نظرة ضيقة إلى العلاقة بين الفن والأخلاق - وليس هنا مجال الخوض فى ذلك - إنما أنظر إلى طبيعـــة تلك السن ، ففى مرحلة المراهقة والبلوغ تفور العواطف وتتعلق بالمثل العليا فيكون ما يبدو على الفتى أو الفتاة من ارتباك يشبه البلاهة أو هياج يعزى إلى سوء الأدب تعبيراً - فى حقيقة أمره وكنه مصدره - عما يجده من صعوبة




توفيق الحكيم


نجيب محفوظ

فى التعامل مع الواقع . وهنا يكتشف قيمة القراءة الأدبية فهى تشبع شوقه إلى المثل العليا فى حب الوطن أو حب المرأة أو حب الإنسانية أو حب العظمة ، وتكشف له برفق أن للنفس الإنسانية أو المصير الإنسانى حدوداً قد تتخطاها الأحلام ولكن تنقطع دونها القدرة . ويوافق هذا النزوع الطبيعى إلى المثل العليا وهذه العاطفة المتقدة التى لا تجد إشباعاً كافيا فى واقع الحياة - أو يلازمهما ويكملهما - حس فطرى متفتح للجمال فى كل شئ : فى الطبيعة الحية والجامدة ، فى الناس والأشياء ، فى الأصوات والألوان والأشكال ، وفى الكتابة الفنية بجرسها وصورها وموسيقاها التى تحيل فوضى العالم إلى نظام .

الشبان فى هذه السن يحبون أن يقرأوا القصص التى تثير الخيال وتحرك العواطف بأحداثها وشخصياتها وأسلوبها ، وترسم لهم أجواء بعيدة عن حياتهم المألوفة ، وقد يتجاوزون فى سبيل ذلك عن كثير من المبالغة ، والسطحية فى التفكير والشعور . أى أنهم قد يقبلون على ما يعده الكبار الناضجون رومنسية زائفة أو رخيصة ، والرومنسية الزائفة هى بذاتها الواقعية الزائفة التى تخلع على أحلام اليقظة تفاصيل الواقع ، وتفتح باباً سهلا للتفريج عن الانفعالات المكبوتة دون أن تأخذ بيد الناشىء إلى النضج العاطفى والوجدانى ، ولكن هناك أدبا كثيرا جيداً يشبع خيال الشباب وعواطفه ويساعده فى الوقت نفسه على فهم ذاته وفهم الحياة من حوله ، بل وفهم « الحياة » فى صورة أوسع وأعمق مما يحتويه عالمه الصغير ، « الحياة » بمعناها الكبير ، معناها المثالى إن شئت ، ولكن المثالية هنا لا تعنى البلاهة ولا التفاؤل عما يشتمل عليه الواقع من دمامة .

حب روايات الخيال

هذا الأدب الكبير يقرؤه الشباب كما يقرأه الراشد ، ولكن ربما كان الشاب أشد تأثراً لأنه يتقبله باقتناع خيالى أقوى من اقتناع الراشد . فالشاب أقل استعدادا لنقد ما يقرأ . وربما قرأ رواية من روائع الأدب بين روايات أقل قيمة بكثير فلا يكاد يشعر بامتياز الأولى إلا حين تتسع قراءاته وتتنوع فتتبين له الفروق . على أن الروايات



القفز على الأشواك

المغرقة فى الخيال كروايات الكسندر ديماس الأب وأنتونى هوب وريدر هاجرد قد تستهويه فى أول عهده بالقراءة أكثر من روايات بلزاك أو دكنز . هذا فضلاً عن الروايات البوليسية وروايات الخيال العلمى.

وقد امتلأ صبانا الباكر بهذه الأصناف من الروايات ، وكثير من أفاضل الأدباء الذين تحدثوا عن « تكوينهم » على صفحات الهلال لم يستنكفوا أن يشيروا إليها ، والحق أنها كانت ذات فائدة كبيرة فى تلك المرحلة من العمر ، وليس أقل فوائدها أنها جعلت اللغة العربية المكتوبة طبيعة فينا مثل لغة الكلام . وأغلب ظنى أن ما نشكوه اليوم من ضعف عام فى اللغة العربية راجع فى معظمه إلى افتقاد الأجيال الجديدة لهذا اللون من القراءةالسريعة الغزيرة ، فما دامت اللغة العربية « الفصحى » كما نسميها لغة كتابة لا لغة كلام ، فليس لها إلا سبيل واحد لتبقى لغة حية ، وهو سبيل القراءة الكثيرة. ولاشك أن للصحف والمجلات دورهما ، ولكنه لا يكفى .

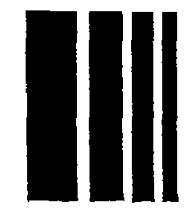
وقد كانت هذه القراءات ، بطبيعة الحال ، تتم خارج المدرسة ، وأحيانا داخل الفصل، فى غفلة من المدرس ، ومع ذلك فقد كان بين الكتب التى تصرفها لنا المدرسة كتاب تعود الكثيرون من جيلى أن يقرءوا فيه للمتعة ، غير آبهين لقلة ما كان يقرر منه للامتحان ، ولعله كان أستاذنا الحقيقى الذى علمنا تذوق الشعر . كان كتاباً من جزأين ، عنوانه « المنتخب من أدب العرب » ، وقد اختار هذه المنتخبات وشرحها طائفة من خيرة أدباء عصرهم ، ولعلى لا أنسى منهم أحداً وإن كنت قد فقدت الكتاب نفسه من عهد بعيد : طه حسين ، عبد العزيز البشرى ، حنفى ناصف ، أحمد ضيف .

العودة لمنابع الجمال

وقد أساءت وزارة التربية والتعليم صنعا عندما ألغت هذا الكتاب وعمدت إلى مزج تاريخ الأدب بالنصوص فى سلسلة من الكتب جعلت عنوانها « الأدب والنصوص » . كتب تمثل لك درس الأدب العربى فى أقبح صوره (ويمكنك أن تستمتع بنماذج من هذه الدروس فى الإذاعة والتليفزيون) . فاختيار النصوص غالبا غير موفق ، وكثيراً ما تتحكم فيه المناسبات الحماسية على عادتنا فى وضع القول موضع الفعل ، أما الشرح فهو الغثاثة ذاتها ، لأنه شطران : نثر لمعانى النص الشعرى يفضح ما فيهـا من تفاهة (وكأن هؤلاء الشراح لم يسمعوا قط أن

جمال الشعر كله فى صياغته) ، وبعد ذلك سرد لما يسمونه « الصور البيانية » من تشبيه واستعارة الخ . ولا أدرى هل ألوم هؤلاء أم أعذرهم ، فهم مسخرون وتلاميذهم لشىء اسمه الامتحان ، ودرجة امتحان النصوص الأدبية تقسم بحساب دقيق على المعنى العام والصورة البيانية ، لعل الأفضل ألا أعذر أو ألوم ، بل أطالب و وزارة التربية والتعليم بأن تعيد كتاب المنتخب أو كتاباً آخر يضاهيه ، كما أطالب دور النشر الحكومية والأهلية بأن تعود إلى إصدار ذلك النوع من السلاسل التى تستهوى الشباب بوجه خاص . فعادة القراءة للمتعة إذا لم تتكون فى هذه السن فإنها لا تتكون أبداً ، وما أظن كساد « الكتاب الثقافى » كما يسميه الناشرون ، أى الكتاب غير المرتبط مباشرة بالدراسة أو المهنة ، إلا راجعاً إلى إهمال هؤلاء الناشرين أنفسهم ، ومعهم أو قبلهم وزارة التربية والتعليم ، فى تنمية الجمهور القارىء بإضافة اعداد جديدة ممن تذوقوا لذة القراءة حتى أدمنوها وهم فى سن الشباب .

ومعلوم أن هناك عدداً من السلاسل التى تصدرها النشر الحكومية والمؤسسات الصحفية . ولكن الشباب لا يقبلون على هذه السلاسل ، فهى ليست موجهة لهم بل لقارىء عام مبهم : هو غالبا قارىء الجريدة أو المجلة الذى لا يهتم بغير الموضوعات الجارية أو المعلومات الطريفة ، وهذه لا يهتم بها الشاب كثيرا لأن انشغاله الأكبر مركز حول ذاته ، والتغيرات الداخلية العنيفة التى تمور فيها ، فهو يلتمس فى الأدب الخيالى من شعر أو قصص ما يسكن فورة انفعالاته ، وينير له بعض جوانب ذاته وهذا يقودنا إلى السلاسل الإبداعية التى تشتمل على شعر وقصص وتمثيل : ولابد هنا من كلمة صريحة : فالطابع الغالب على هذه الإبداعات هو أنها أعمال تجريبية أو طليعية ، لا تعنى بها إلا قلة القلة ، أى الفئات الطبيعية من بين هواة الأدب أو محترفيه أو أولئك الذين يتأرجحون بين الهواية والاحتراف . وليس هذا هو كل ما تقتضى الصراحة أن نقوله . فالاتجاه الغريب الذى تتخذه هذه السلاسل لايرجع فقط إلى افتقارها لسياسة واضحة ، ونسيانها لوجود جمهور قارىء فعلى أو محتمل ، ينبغى أن تراعى رغباته وحاجاته ، بل إلى أن هذه السلاسل قد صدرت ، من أول الأمر ، نتيجة لجهود « جماعات ضغط » مشكلة من هذه الفئات التى أشرنا إليها ، والتى نحب أن نسميها كتاباً طليعيين ، وفقا لمكاناتهم ، والا فإن كثرتهم كتاب مبتدئون لا يحسنون صوغ جملة ، ولكنهم يتوهمون أنهم سيصعدون سلم الشهرة وثبا إذا صدر لهم كتاب (وبالطبع يجب على النقاد أن يكتبوا عنه المقالات الضافية) ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يجتازوا الحدود (أى يصبحوا عالميين) ، وكل ما يلزمهم



القفز على الأشواك

لتحقيق هذا الهدف الأخير هو أن يكتبوا كلاماً غير مفهوم ، لأن هذه - كما يتوهمون - هى أحدث طريقة فى الكتابة ابتدعها الغرب ، والمشرفون على هيئات النشر الحكومية يهمهم أن يداروا هؤلاء ، ما داموا لا يخسرون شيئا من جيوبهم .

وتبقى قضية المختارات ، وقضية تدريس الأدب فى المدارس الثانوية أو ما فى مستواها ، وهما وثيقتا الارتباط كل بالأخرى ، فإذا وجدت بين يدى المعلم والمتعلم ذخيرة طيبة من الشعر الجيد والنثر الجيد ، المناسب لميول الطلاب ومستواهم الفكرى ، فإن حصة النصوص الأدبية يمكن أن تصبح متعة خالصة ، إذ سيقتصر الشرح على تحليل المفردات والتراكيب ، وبيان خصوصيتها الفنية بالمقارنة بين معانيها القاموسية أو النحوية ومعانيها فى النص الأدبى ، وهنا لا بأس باستخدام مصطلحات البلاغة بشرط ألا يكون فرز « المحسنات » هدفاً فى ذاته ، ثم يكون باقى الدرس ومعظمه - مباراة بين الطلاب فى إلقاء النص إلقاء يعبر عن روحه ، وهذا يقتضى التشبه بموقف قائل النص ذاته ، أى نوعاً من التمثيل ، والطلاب فى هذه السن يحبون التمثيل ، ويتنافسون على الانضمام إلى فرق التمثيل فى المدرسة ، ويستطيع المدرس أيضا أن يلقى شيئا من الضوء على موقف قائل النص باستخدام بعض المعلومات التى عرفها الطلاب فى درس تاريخ الأدب .

ولكن افتقار المكتبة العربية الحديثة إلى كتب المختارات فضيحة كبرى ، وهو سبب ونتيجة فى الوقت نفسه لكون جمهور قراء الأدب محدوداً جداً ، وقد تكون معظمه بطريقة شيطانية ، أى بالاعتماد على الذات ، والتخبط فى مطالعات غير منتظمة . هذا مع أن المكتبة العربية عرفت كتب المختارات منذ أول عصر التدوين .

جسر الثقافة

وإذا كنت أزعم أن كتب المختارات وثيقة الارتباط بتدريس الأدب ، فهذا لا يعنى أنها « كتب مدرسية » بالمعنى التقليدى الضيق ، بل هى فى الواقع جسر بين الثقافة المنظمة والثقافة الحرة ، وأداة للتثقيف الذاتى والتعليم المنهجى فى وقت واحد . والمعلم - فى نهاية الأمر - ليس إنسانا معزولاً عن الحياة الأدبية ، أو محصوراً فى قاعة الدرس ! وبعض كتب المختارات القديمة كانت مما جمعه علماء الأدب لمن وكل إليهم تثقيفه من أبناء الخلفاء ، وكان « المؤدب » فى بلاط الخليفة أو الأمير (والمراد بالأدب هنا المعنى الثقافى العام لا المعنى الأخلاقى الضيق) يختار من بين علماء الأدب ، كما أن كثيرا من الكتب الجامعة التى تتألف من

مختارات من الشعر والنثر واللغة كانت دروساً تلقى فى المساجد ، ومن أشهرها كتاب « الأمالى » لأبى على القالى وقد أحيا الشيخ الإمام محمد عبده هذا التقليد العظيم حين كان يفسر القرآن ويدرس بلاغة عبد القاهر فى محاضرات عامة للجمهور ولئن كان التعليم « الحديث » المنظم قد عزل المؤسسة التعليمية – إلى حد كبير – عن الحياة الثقافية العامة ، لقد شهد الجيل الماضى من أكابر الأدباء من سلخوا الشطر الأكبر من حياتهم فى التعليم العام (لأننى لا أتحدث هنا عن التعليم الجامعى أو الأكاديمى) ، وأذكر من هؤلاء : محمد سعيد العريان ، ومحمد فريد أبو حديد ، ودرينى خشبة .

ولا شك أن تقوية الروابط بين تدريس الأدب فى المدارس الثانوية وبين الحياة الأدبية العامة يمكن أن يبعث مزيداً من النشاط فى كليهما . وأول ما يقتضيه ذلك أن يكون لأستاذ الأدب نشاطه الأدبى خارج قاعات الدراسة . والمشاهد اليوم أن أدباءنا الذين يبدءون حياتهم العملية بمهنة التعليم كثيرا ما يفرون منها إلى العمل فى الصحافة أو فى أجهزة الاعلام المختلفة . وعندى انهم مخطئون ولاشك أن المجتمع مخطىء أيضا إذ لا يعطى مهنة التعليم حقها .

لقد سررت سروراً كبيراً عندما رأيت مؤلفا يعرف بنفسه ، على ظهر غلاف كتاب ، بأنه « من خبراء اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم » (وما دام المفترض أن التعريف هو من وضع الناشر ، فلا بأس إذا أضيفت كلمة « كبار » إلى كلمة « خبراء » . وعلى كل حال فالمؤلف – الأستاذ عبد العزيز النعمانى – قد تخرج فى دار العلوم منـــذ – أكثر من ثلاثين سنة) . والكتاب نفسه وسيط جيد بين دروس « تاريخ الأدب ونصوصه » فى المدارس الثانوية وبين القضايا التى تثار فى حياتنا الأدبية حول الشعر الجديد والقديم ، وقد جعل المؤلف عنوانه « فن الشعر بين التراث والحداثة » .

أجود ما فى الكتاب فى نظرى هو المختارات ، وقد انبسطت على عصور الشعر كلها ، مع أن الكتاب صغير الحجم نسبيا ، وإنما ساعد المؤلف على هذا الامتداد حسن اختياره للنصوص (وهو نفسه شاعر رقيق كما تدل القصيدة التى اختارها من شعره) ، مع توخيه الاقتصاد فى الشرح . ولكن المؤلف لم يستطع أن يخلص من آفة المزج بين تاريخ الأدب والنصوص . والذى أرجوه أن يثابر على التأليف للشباب ، فهو يقف على أرض قد يحسـده عليهـــا الكثيرون (لو كانوا يعلمون) .

إنها ربوة عالية تشرف على التعليم المدرسى من ناحية ، وعلى الثقافة الحرة من ناحية أخرى .

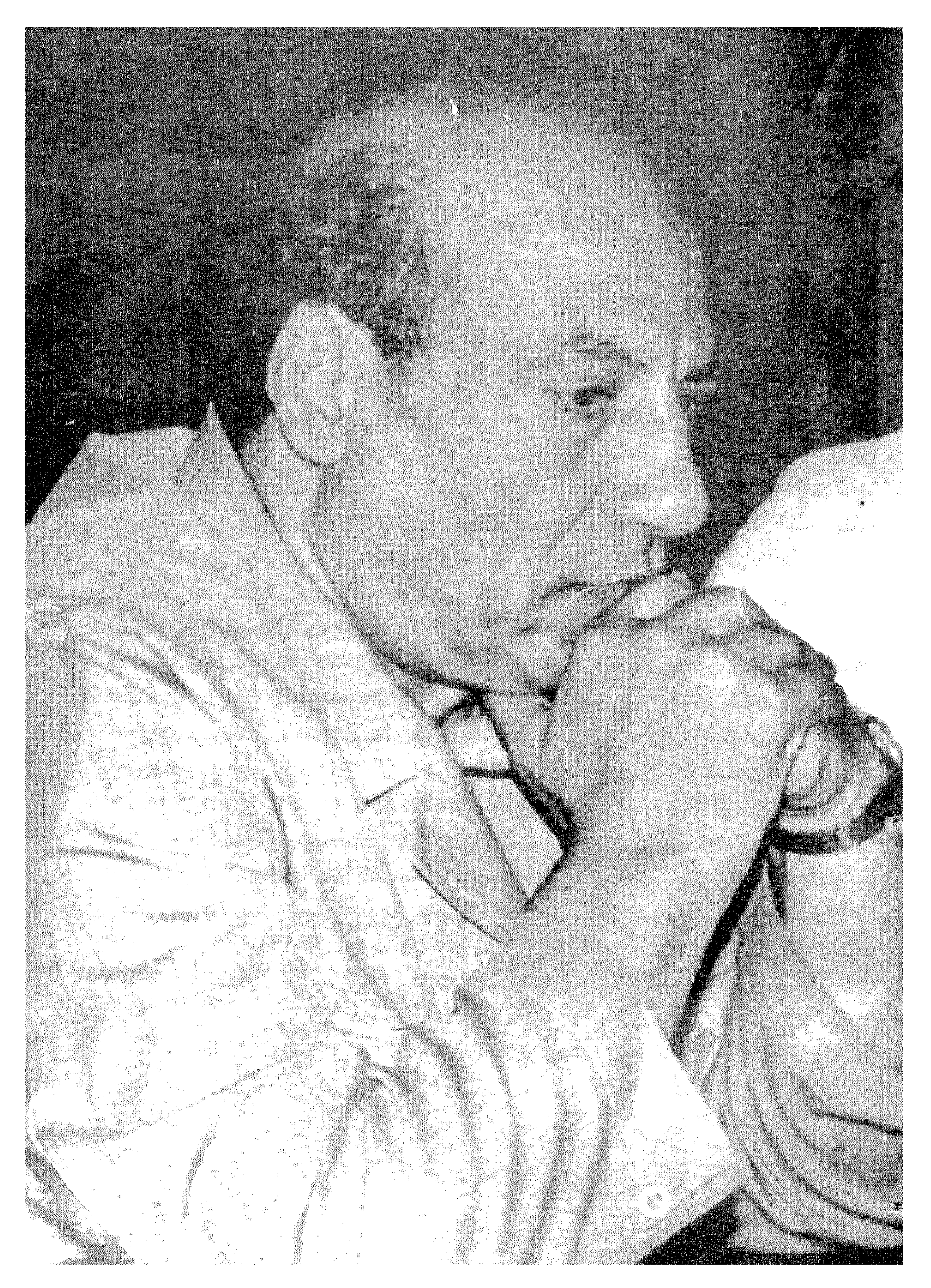


قصاص مآسى الفقراء

بقلم : د .صبرى حافظ

لا شك فى أن فقدان الحركة الأدبية للقصاص الفنان محمد الصادق روميش (١٩٣١-١٩٩٢) يشكل خسارة فادحة للقصة المصرية . صحيح أننا كنا قد فقدناه ، منذ بداية عقد السبعينات الكئيب ، حينما عزف عن الكتابة ، وكسر قلمه ، كما كسر أخيل حريته ، حينما فسدت الساحة ، وضاعت قيم الجودة والأصالة والتنافس النظيف ، وزحفت جحافل الظلام ، وبدأت عمليات الطعن فى الظهر والانقضاض على جل قيم العقل والاستنارة .

ومحمد روميش في هذا المجال ابن سلالة طويلة من كتاب مصر الموهوبين المرهفين الذين لا يحتملون عقوق الحركة الأدبية فينصرفون عن مواصلة الكتابة وتخسرهم وهم فى ذروة العطاء ، من مصطفى عبدالرازق الرائد القصصى والعقل المحرك لمجلة (السفور) في العقد الأول من هذا القرن ، إلى أحمد خيرى سعيد عمدة جماعة المدرسة الحديثة ومؤسس (الفجر : صحيفة الهدم والبناء) فى العقد الثانى منه، إلى حسن محمود وعادل كامل ومحمد يسرى أحمد فى الثلاثينات والأربعينات والخمسينات على الترتيب . وكأن على مصر أن تخسر فى كل جيل واحدا من كتابها الموهوبين ، وكان روميش هو ضريبة هذا التراث فى جيلنا . لكن بقى بيننا روميش الإنسان . يعرف حفنة قليلة من الأصدقاء الذين يخلص لهم الود ويخلصون له المعزة ، وكأنما قد انتقاهم واحدا واحداً من مختلف



أجيال الثقافة المصرية ، ليؤكد هذا الانتقاء نوعاً من الشهادة الضمنية على منهجه فى الفن والحياة معا . كان حريصا على أن تتصل حبال الود مع أستاذنا الكبير يحيى حقى الذى أهدى إليه روميش مجموعته الثانية (الشمس فى برج المحاق) التى لم تظهر بعد، وكأن اسمها الدال على مرحلة بأكملها فى الثقافة المصرية كان نبوءة صادقة فهل يمكن لشمس قصص روميش الساطعة أن تطلع فى برج المحاق . لكن إهداء هذه المجموعة « إلى يحيى حقى : الأب والأستاذ والصديق » يسجل واحـدة من القيم الأسـاسية فى هـذا الانتقاء/ الانتماء، انتماء الإبن الكاتب محمد روميش إلى يحيى حقى : الأب الحقيقى للكتابة القصصية الصادقة والمترعة بالحب والتجربة ، وأستاذ كل الذين وعوا درس هذه الكتابة الصادقة السلسة وصديقهم .

وكان روميش يشعر بنوع من التواصل الحميم مع فنان آخر من كتاب التجربة القصصية الصادقة وعشاق الحياة فى ريف مصر هو ابن جيله عبد الحكيم قاسم. ويحس بأنه وإن كف عن الكتابة عن القرية المصرية فى الدلتا قبل عقدين من الزمان ، فإن لها قاسماً الذى يحس عن حق بأنه يكتب ما لم يكتبه وما أراد أن يكتبه . وكانت قدرة عبد الحكيم قاسم الخارقة على التواصل وبذل أعماله ونفسه لأصدقائه هى عزاء روميش فى الانقطاع عن الكتابة ، وكانت هذه الصلة الحميمة بين الكاتبين هى التى جعلت رزء روميش فى عبد الحكيم قاسم كبيرا وثقيلا . فقد كان روميش أكثر الذين تأثروا بمرض عبد الحكيم إلى حد مشاركته الألم العضوى لا النفسى فحسب، بدرجة جعلت مأساة قاسم ورحيله بداية لمرض روميش ورحيله . فقد كانت الصلة بين روميش وقاسم من تلك الصلات العميقة التى تتحقق فاعليتها على عدة مستويات . انطلقت من ذلك التشابه الذى يصل إلى حد التماثل فى تكوينهما الاجتماعى والثقافى ، فقد ولدا ونشآ فى القرية . ولد روميش فى تلبانة مركز المنصورة عام ١٩٣١ ، وولد قاسم بعده بأربع سنوات (١٩٣٥) فى قرية مماثلة هى البندرة فى محافظة أخرى من محافظات الدلتا هى الغربية . وتلقى كل منهما تعليمه الابتدائى والثانوى فى محافظته ، ولم يتركها إلى المدينة الكبيرة إلا للدخول إلى الجامعة لدراسة الحقوق . فذهب روميش إلى جامعة القاهرة وتخرج فى كلية الحقوق بها عام ١٩٥٨ ، بينما اتجه قاسم إلى الاسكندرية ليتخرج هو الآخر فى كلية الحقوق بها بعد ذلك بسنوات . وعمل كل منهما بعد تخرجه بوزارة المالية ، وإن انتقل روميش بعد عدة سنوات للعمل فى بنك ناصر الاجتماعى الذى ظل يعمل به حتى رحيله ، بينما ترك قاسم مصلحة التأمينات والمعاشات للسفر إلى ألمانيا ثم عمل بعد عودته بهيئة الكتاب .

أخوة الروح

لكن هذا التماثل الظاهرى فى الخلفية الريفية والتكوين الثقافى والدراسة والعمل لم يكن هو مصدر تلك الصلة الحميمة التى ربطت بين أقدار الكاتبين الراحلين ، وإنما كان مصدرها أخوة الروح ، ورفقة الطريق ووحدة الرؤية والرؤيا . فقد كانت علاقة كل منهما بالأرض الريفية وطقوس الحياة اليومية فى القرية أقرب إلى علاقة العشق الصوفى التى تجمع فى رحابها أبناء الطريقة الواحدة . وهى الطريقة

التى أفنى فى محرابها كثير من المريدين أعمارهم ، وبذلوا كل جهدهم فى التعبير عن جموع الصامتين من فلاحى مصر الفقراء . التقيا فى ساحة النشر فى قاهرة الستينات ، وهى الساحة التى التقى فيها جل أبناء جيلنا الذين جاءوا إلى القاهرة من كل فجاج الأرض المصرية الولود يطرحون على الحركة الأدبية رؤاهم واجتهاداتهم وأحلامهم وكشوفهم . وكان فى الحركة الأدبية كعادتها دائما شىء من «لوع» المدينة وقسوتها ، ومن طرقها المراوغة الصعبة التى لا يجيد الفلاحون التعامل معها ، ولكن سرعان ما اكتشف روميش طريقه إلى المنبرين الخاليين من كل «لوع» والتواء فيها : إلى مجلة (المجلة) التى كان يرأس تحريرها فى هذا الوقت أستاذنا الكبير يحيى حقى الذى كان يكتشف المواهب الجديدة ويشجعها ، والذي يعود له الفضل فى تقديم كل من روميش وقاسم وعدد كبير من أبناء جيلنا إلى الواقع الأدبى ، والذى أتاح لهم فرصة النشر فى أهم مجلة ثقافية فى مصر وقتها بالرغم من أنهم لم ينشروا من قبل شيئا . وإلى الصفحة الأدبية لجريدة (المساء) التى كان يشرف عليها عبد الفتاح الجمل فى هذا الوقت وكان له فضل مماثل فى وضع إنتاج أبناء هذا الجيل الموهوبين فى دائرة النور . وفى (المجلة) و (المساء) نشر روميش جل أعماله مع استثناءات قليلة نادرة .

اختزان المرارة والألم

كان فى صداقة روميش وقاسم شىء من مباهاة الريفى بنجاحات ابن بلده ، واعتزازه بقدرته . وكان هذا الاعتزاز متبادلا لأن قاسم كان ، كأستاذنا الكبير يحيى حقى - أطال الله عمره ، من أكثر المتحمسين لإبداع روميش الأدبى وأشد المدافعين عنه والمذكرين دوما بأهميته . وكان فيها من جانب روميش وحده هذه المرة شىء من الإعجاب بقدرة قاسم على غزو المدينة التى لم يشعر روميش أبدا بالألفة معها . لذلك كان رزؤه فى عبد الحكيم قاسم كبيرا ، وكانت مرارته الناجمة عن عجزه وعجز الجيل باكمله عن انقاذ ابن طريقته التى يتناقص أبناؤها يوماً بعد يوم ، وعن عقوق مصر وحركتها الأدبية إزاء قاسم من العوامل التى استكنت فى النفس ، وعملت فعلها فيها . كان روميش كالجمل الصبور الذى يختزن المرارة والألم، لكنه أبدا لم ينفجر، فسرت فى الدم تفت فيه وتفعل فعلها الخبيث الذى أودى به .

أذكر أننى خرجت مع روميش من مستشفى المعادى إثر زيارة لعبد الحكيم قاسم إبان مرضه العضال بها وما أن بدأت الحديث مستبشرا بتحسن صحته ، وموضحا الخطوات الفساح التى قطعها فى طريق الشفاء ، حتى قال روميش فى شىء من الغضب المهذب الكظيم « ازاى ياأخى مش عارفين نسفر عبد الحكيم » . فقد كان متألما لإخفاقنا فى تسفير عبد الحكيم للعلاج بالخارج ، متألما لعقوق مصر فى حق واحد من أنجب أبنائها . وكان الإخفاق فى تسفير عبد الحكيم للعلاج بالخارج ، وهو واحد من ألمع كتاب جيل الستينات وأثراهم عطاء ، هو المقدمة لإخفاق هذا الجيل المكلوم فى تسفير محمد روميش نفسه للعلاج بالخارج ، حيث مات وهو ينتظر توقيع رئيس الوزراء على قرار سفره الذى تعثر فى أروقة مكتبه لأكثر من شهرين . فى الوقت الذى تعالج فيه مصر على حسابها ومن عرق بنيها

من يقل عطاؤهم لها عن روميش وقاسم كثيرا .

مآسي الفقر .. والريف

وعطاء روميش لمصر كبير بأى معيار من المعايير ، لأنه كان حلقة وصل فى سلسلة كبيرة من كتاب مصر الكبار الذين كرسوا أدبهم للتعبير عن مآسي الفقراء في الريف المصرى ، من طه حسين ويحيي حقى ومحمود البدوى حتى يوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى ، بالرغم من أنه لم ينشر فى كتاب إلا مجموعة واحدة هى (الليل ... الرحم) . صحيح أنه نشر فى (المجلة) و (المساء) كل قصص مجموعته الثانية (الشمس فى برج المحاق) ، لكن هذه المجموعة لم تصدر حتى الآن فى كتاب ، وقد انتظرت النشر طويلا ، وأرجو أن يكون أقل ما يمكن أن نقدمه للراحل الكبير ، بعد عجزنا عن علاجه بشكل كريم ، هو إصدارها فى كتاب فى أقرب وقت ممكن . ومع ذلك فإن مجموعته اليتيمة استطاعت أن تلفت النظر إلى لغته المتميزة ومنطقه الفريد فى التعامل مع الواقع والشخصيات ، وقدرته الفذة على أن يرسم بالكلمات أدق الصور الريفية المتوهجة بالحياة والحركة وأشدها رقة وشاعرية . ومع أن روميش ينتمى فى هذا المجال إلى هذا الرتل الكبير من كتاب مصر الأماجد ، ومع أنه كان صنو عبد الحكيم قاسم ورفيق رحلته وطريقته ، لكنه كان نسيجاً وحده فى الكتابة والإبداع ، له لغته الخاصة التى تحمل فى مفرداتها وتراكيبها عبق الريف وسخونة الحياة فيه ، وله بنيته القصصية المتفردة التى تنطوى تشكلاته السردية على بنية الواقع العميقة وعلى رؤية الكاتب المتميزة له .

كاتب متمكن

ففى قصص روميش المشغولة بأفراح الفلاحين وأتراحهم ، بلحظات سعادتهم وتفاصيل مآسيهم ، يجد القارىء نفسه أمام كاتب متمكن من مادته وأدواته معا . يعرف عالمه أوثق معرفة، ويعى كل ما يمور فيه من تناقضات . وهى معرفة لا يفرضها الكاتب على التجربة من علٍ ، ولكنه يشيعها بحب حميمية فى كل تفاصيل العالم المحكى بطريقة قادرة على إحالة هذه المعرفة الألفة إلى قيم جمالية وفنية رائعة ، توثق عراها بألق مواويل الفلاحين وملامحهم وحكمتهم . ويعرف من خلالها القارىء مهما كانت جنسيته ، ومهما كانت طبيعة موقفه الفكرى ، التركيبة الاجتماعية فى القرية المصرية على حقيقتها ، وعلاقات القوى الفاعلة فيها . يعرفها عن حق لأنه يراها واضحة ناصعة فى ضوء معالجة روميش المقتدرة التى يضج فيها المشهد بالحركة والعنفوان ، ويتدفق فيها الدم فى عروق الشخصيات المكتوبة على الورق فتدب فيها حياة حقيقية لا مماراة فيها . فيرى القارىء بنفسه كيف تبهظ هذه التركيبة الاجتماعية القديمة قدم الريف المصرى ، الجديدة جدة أحدث ما انتابته من تغيرات ، بثقلها الفادح أبناء القاع الاجتماعى فى الريف المصرى ، وكيف يستغل الجميع طيبتهم ، بما فى ذلك رجال الدين أنفسهم ، وكيف تطحنهم الأوبئة والأمراض . ولكنهم مع هذا كله يستطيعون استقطار لحظات من السعادة والتواصل الإنسانى الحميم ، يحافظون على كرامتهم ويعتزون بكبريائهم كما حافظ روميش نفسه على

كبرياء الفلاح الأصيل وإبائه وسط عالم يموج بالزيف والمرض فى هذا الزمن الردىء .

و (الليل .. الرحم) هى درة روميش اليتيمة ، حرص عليها كما يحرص الصائغ على أغلى جواهره، ونقاها من أى أثر للحوشية أو النهنهات الرومانسية ، وصقلها بالتشكلات الجمالية الفريدة فى التعبير عن التجربة الإنسانية الثرية عنده ، وبلور ملامحها الصلدة فى بناء القصة المتميز لديه ، ونحت قسماتها من أديم مادة الحياة الريفية وتفاصيلها الخاصة ، وصاغ لغتها المتميزة العذبة بمفرداته التى تحمل فى كل لفظة عبق الريف وتوهج صوره وإيقاع حركته . وأسس من خلال صلابة التجربة وعمق الوعى الرهيف السارى فى كل أنحاء المجموعة قيمة مغايرة للقيمة السائدة: قيمة الكيف القليل الذى لا يصمد فى مواجهة الكم والإسهال الكتابى فحسب، ولكنه يكتسحه أمامه بصلادته وتماسكه وقدرته على إضاءة التجربة وإرهاف الوعى وإمتاع القارىء فى آن واحد . ولذلك أصدر روميش مجموعته اليتيمة تلك مرتين . أصدرها أولا فى طبعة صغيرة ضمن سلسلة « أدب الجماهير » ، وكان هذا الإصدار هو إصدار الانتماء وتحديد الموقف الرافض الأبى . فقد كانت هذه السلسلة الصغيرة التى تصدر من المنصورة مركزه وعاصمة محافظته ، هى سلسلة أدباء القرى الذين يطمحون إلى أن يفرضوا من القرية وجودهم على العاصمة. فلما تحقق هذا الوجود أعاد إصدارها ، بعد أن أضاف إليها قصتين هما : « طرح المجد » و « عين الحياة .. نظيرة » ، ضمن سلسلة (روايات الهلال) فى ديسمبر ١٩٨٦ بعد إصدارها الأول بخمسة عشر عاما ، وكان هذا الإصدار الثانى هو إصدار الوصول إلى القارىء العريض فى مصر وفى العالم العربى من ورائها .

وإصدار روميش لمجموعته الأولى مرة أخرى ، وبعد هذه السنوات الطويلة ، وبالرغم من أنه كانت لديه مجموعة ثانية هى (الشمس فى برج المحاق) كتبت قصصها فى الفترة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٨ ، ونشرت كلها فى (المجلة) و (المساء) باستثناء قصة واحدة هى «قصة لا تنتهى» نشرت بمجلة « الكاتب » عام ١٩٦٥ ، هو الذى يكسب هذه المجموعة أهميتها فى عالم روميش القصصى . فقد أدرك روميش قبل غيره أن هذه المجموعة لم تأخذ حقها فى الإصدار الأول . وحرص على أن يطرحها من جديد على القارىء الواسع لأنها تشكل حجر الزاوية فى عالمه القصصى . عالم القرويين الذى تشويه الشمس ، ولكن ما أن تهب عليه نسمة رخية حتى يتوارى الجحيم كما تقول الكلمات الأولى فى مجموعته ، وتستحيل الحياة القاسية الخشنة إلى تجربة مترعة بالحب والفرح . وإن كانت لحظات الفرح فى حياة الإنسان الريفى عنده قصيرة بقدر ما هى صادقة وباهرة ، وبقدر ما تكشف قصص روميش عن عمق الفرحة فى عالمه ، بقدر ما توضح لنا أسباب عمرها القصير وطبيعة التناقضات التى تغتالها فور ميلادها ، ولا تسمح لها بالتطور والنمو . وهو عالم حاول أن يجعله خالصا لتجارب الحياة فى الريف المصرى ولمآسى الفقراء فيه ، فروميش لا يتألق ككاتب ويبلغ ذروة الإبداع القصصى إلا عندما يتناول الحياة فى القرية . ولهذا قال أستاذنا يحيى حقى عنه : « من قصص روميش أشم رائحة تراب القرية، وأرى أهلها أحياء ، وعلى المستوى الإنسانى لا المحلى فحسب . وقد بقيت فى ذهنى من قصصه صورة

امرأة قروية لن أنساها . هذا هو الامتحان الكبير للقصصى ، أن تدب فى شخصياته نبضات الحياة وسمة التخصص والانفراد، بحيث إذا ذكر الكاتب ذكرت على الفور أسماء هذه الشخصيات . إذا قلت مثلا عطيـــل أو هاملت ، قلت على الفــور شكسبير ، والعكس صحيح » . وأظن أن المرأة التى يتحدث عنها يحيى حقى هى «هانم» بطلة قصة « الليل .. الرحم » التى لا يستطيع القارىء أن ينسى منظرها والاكف تنهال عليها ضربا دون ذنب أو جريرة ، اللهم إلا المقادير العابثة التى ألقت بها ، كقدر أغريقى ، فى طريق الست جواهر وقد غاظها أنها لم تضبط زوجها الزناوى ، فحثت الأولاد على تجريس هانم بغل ووحشية دفعت ابنها نفسه إلى إنكار أن هذه أمه . ولن ينسى القارىء مشهد الحب الرقيق الأخير وقد جاءها فتح الله يمرضها بعد أن هدتها إصابتها بالكوليرا ، وهو غير عابىء بالعدوى فى نوع من التكفير الانتحارى عن الذنب الجماعى الذى اقترفته القرية فى حق هذه الزهرة الرقيقة .

والواقع أن معالجة روميش لهذه الشخصية ، ولغيرها من الشخصيات الريفية البسيطة التى يعج بها عالمه ، هى التى ترتفع بها من المستوى المحلى إلى المستوى الإنسانى العام دون أن تنفصم عرى علاقتها الوثيقة مع واقعها المحلى . فإغراق شخصياته وأحداثه ومشاهده فى المحلية هو الذى يرقى بها إلى المستوى الإنسانى العام ، لأنه يحيل الواقع المحلى تحت وقع معالجته الحاذقة له إلى صور من الشعر الشفيف الخالص ، قادرة على النفاذ من العرضى إلى الجوهرى . فقد اتخذت قصص روميش من التعبير بالصورة منهجا سرديا لها . وهذا التعبير بالصورة المرسومة بدقة ومهارة ، والتى تستقى كل مفرداتها من عالم القرية بالصورة التى تبدو معها جمالياتها فى الصياغة والتشكيل جماليات قروية خالصة هى السمة الأساسية للكتابة القصصية عند روميش .

وحتى نتعرف على طبيعة هذا المنهج السردى المتميز فلنقرأ هذه الكلمات التى يفتتح بها قصته الأولى « النشيد من الأفق الغربى » : ثم توارى الجحيم . كانت تصبه الشمس ، فتصنع الحقل ، حقل الوسية الواسع ، فرنا كبيرا ، يشوى ما به من ناس . ومن بعيد ... من حيث تلتقى السماء بحقل القطن ، أقبلت نسمات ... تجفف العرق ، تعانق رءوس الشجيرات ، تموج اللوزات المتفتحة بلونها الشاهى ، فيبدو القطن بحرا كبيرا صاخبا ، يغطى الزبد صفحة مائه » (ص٧) . هنا نجد أنفسنا أمام رسام يستخدم الكلمات مادة لصياغة لوحاته الحية الفياضة بالحركة . فهذا الجحيم الذى تصبه الشمس ، والذى يؤذن بالجحيم الآخر الذى ستنفتح بواباته عن هذا الشقاء الأبدى الذى اغتال لحظة السعادة القصيرة فى القصة ، تجسد لنا الكلمات الحادة والإيقاع السريع ثقله الذى يبدو لنا كسيل من السعير المصهور الذى يحيل حقل الوسية الواسع إلى فرن كبير سرعان ما يتبدد أمام النسمات الرخية التى تجفف العرق وتهتز لها لوزات القطن فينقلب لهب السعير إلى أمواج بحر يغطى الزبد القطنى صفحة مائه . وهذا التحول السريع من اللهب إلى الماء لا يدرك حقيقته إلا من عاش بحق تجربة جمع القطن فى عز الحر ، وخبر وقع تلك النسمات الرخية التى ما أن تهب فجأة حتى يتبدد اللهب فى لحظة ويستحيل إلى ماء وزبد .

وما أن تقترب ساعة الغروب حتى تتغير طبيعة الصورة كما هو الحال فى قصته «الليلة الجاية » : « الشمس هناك ، على مدد الشوف ، كحفرة مملوءة بالأوالح المتوهجة . وهى لقربها ، تستطيع – كما يقول عم زناتى – أن تخطفها بيدك ... أبو قردان عائد ليقضى ليلة فوق أشجار الجميز العجوز حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كأثواب القماش الدبلان تحملها الرياح » (ص٤٣) . هذه الشمس هى نفسها التى أحالت الحقل إلى سعير ، ولكنها استحالت هنا إلى حفرة من الأوالح المتوهجة . ولذلك كان طبيعيا أن يقول عم زناتى أن قرب الشمس وقد صورها الكاتب كحفرة من الأوالح المتوهجة يمكن الإنسان من لمسها بيده . كل مفردات الصورة مصاغة ، كما ترى ، من تفاصيل الحياة فى الريف، الشمس حفرة من الأوالح المتوهجة وأسراب الطيور العائدة إلى شجرة الجميز العجوز كالقماش الدبلان الذى لا يعرف الفلاح غيره . أما الدقة المتناهية فى رسم الصورة والتى تشف عن ملاحظة بالغة الرهافة والعمق فى آن ، فسنجدها فى مفتتح قصة العنوان : « الليل .. الرحم » : « الأظلاف الستة عشر تضغط وجه الأرض فى قبلات متلاحقة ، ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الأقواس الهلالية . سلاح المحراث يشق سطح الأرض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط المشقوق يسقط وسطه سرسوب منتظم من حبات الذرة فيلتئم عليها– كالرحم – يتهيأ لميلاد جديد » (٥٣) .

هذه الصورة الدقيقة الثرية لعملية الحرث بما فيها من بذر لحياة جديدة فى رحم الأرض هى التى جعلت حركة أظلاف البهيمتين نوعا من التقبيل الخافت المتلاحق الثقيل والسريع معا ، لا تقبيل أظلاف البهيمتين فحسب ، لكل ثمانية أظلاف لأن أظلاف بهائم الحرث من بقر أو جاموس مشقوقة ، ولكن تقبيل شفيرتا الأرض التى يشق بطنها المحراث لحبوب الذرة التى يسقط سرسوبها فى الجرح قبل أن يلتئم عليه فى تحنان رحم يتطلع إلى ميلاد جديد . وهى أيضا التى ترتفع بالمشهد اليومى المتكرر إلى آفاق الشعر والفن الإنسانى القادر على استيعاب كل تفاصيل المشهد فى عملية الخصب والنبات. لكن قصص روميش لا تكتفى بهذا المنهج التعبيرى الثرى وحده، ولكنها تضيف إليه الولع بالمفارقات فى بناء العمل القصصى ككل ، لأن قصة « الليل .. الرحم » التى تبدأ بهذا المشهد الشاعرى تنتهى بموت كل البذور الواعدة بالميلاد فيها . موت هانم ضحية لمرض الكوليرا ، وموت فتح الله بعد فقدانه هانم بتلك الرصاصة التى تدوى فى نهاية القصة المفتوحة فلا يستطيع القارىء منها فكاكا .

فوداعا أيها الصديق العزيز : عشت وحدك ، وتحملت عبء المرض وجهل أطباء هذا الزمن الردىء وحدك ، وعانيت عسف البيروقراطية والفساد وحدك . وهذا هو قدر الفلاحين فى المدن القاسية . ولكن العزاء أنك حشرت فى زمرة الكتاب الكبار الذين صاغوا من مآسى الفقراء فنا عذبا جميلا. وأن رسالتك الأدبية القيمة التى حملت لواءها مع مجايليك يحيى الطاهر وقاسم لا تزال تتواصل فى الأجيال التى وفدت إلى الساحة بعدكم من سعيد الكفراوى ويوسف أبو رية حتى عبد الحكيم حيدر وخيرى عبد الجواد .

الطبقة الوسطى المصرية

بين الوعى الطبقى والوعى الاجتماعى

بقلم : د . رءوف عباس

يتطلب الوعى الطبقى عند طبقة ما إحساسا وإدراكا جمعيا لمصالحها يدفعها إلى التضامن للدفاع عن تلك المصالح فى مواجهة الطبقات الأخرى التى تنازعها تلك المصالح ، أو حماية لمصالحها تلك وحرصا على تنميتها على حساب غيرها من الطبقات . أما الوعى الاجتماعى فنقصد به إدراك الطبقة لأهمية الاستقرار الاجتماعى للحفاظ على بنية المجتمع الذى حققت من خلاله وجودها ومصالحها حتى تتجنب تعريض تلك المصالح للخطر . ولعل الطبقة الوسطى المصرية عبر تاريخها الذى قارب القرنين من الزمان - كانت من الطبقات الاجتماعية التى انفردت بوعى طبقى غريزى ولكنها افتقرت - على نحو ما سنرى - إلى الوعى الاجتماعى .

وقد تكونت الطبقة الوسطى المصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نتيجة تطور الملكية الزراعية تدريجيا حتى استقرت الملكية الفردية قبيل نهاية القرن ، فكانت زراعية أساسا تستمد مصالحها من الملكيات التى حصلت عليها فى ظروف التطور السياسى والاقتصادى الذى شهدته مصر فى تلك الحقبة ، وتمتعت بنفوذ كبير على الفلاحين بحكم امتلاكها لأداة الانتاج الزراعى (الأرض) ، وإن سكنت المدن إلى جوار الارستقراطية الحاكمة ممثلة فى أسرة محمد على ومن لاذ بها من كبار



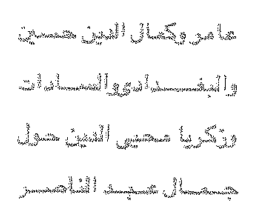
محمد على

الخديو إسماعيل



عرابى





عامر وكمال الدين حسين
والبغدادي والسادات
وزكريا محيى الدين حول
جمال عبد الناصر

الموظفين ذوى الأصول التركية والشركسية. وانضمت إلى تلك الطبقة شريحة أخرى تمثلت فى أولئك الذين أتيحت لهم فرصة التعليم الحديث فى مدارس محمد على واسماعيل . والذين جاءوا من بين صفوف الفلاحين (حيث كان التعليم مجانيا حتى بداية عصر اسماعيل) ، والذين دعت الحاجة إلى تعليمهم لتوفير الكوادر اللازمة للادارة المصرية ، فاتسع التعليم حينا وانكمش حينا آخر فى حدود حاجة دواوين الحكومة إلى الموظفين ، وهى سياسة استمرت تحت حكم الاحتلال البريطانى وإن فقد التعليم مجانيته عندئذ ، فسد الطريق أمام فرصة الحراك الاجتماعى لأبناء الفلاحين . على كل أصبح المتعلمون من موظفى الحكومة (كبارهم وصغارهم) يعبرون عن الطبقة الوسطى المصرية ، واستطاع بعضهم أن يدخل شرائحها العليا عن طريق هبات الاراضى التى منحها اسماعيل على وجه الخصوص للبارزين منهم ، وعن طريق المصاهرة ، وغير ذلك من روابط جعلت شريحة المتعلمين (أو الأفندية) تلتصق بالطبقة الوسطى وتتنكر لأصولها الفلاحية.

مواجهة الهيمنة الأجنبية

ولما كانت الطبقة الوسطى المصرية قد تكونت فى مرحلة تاريخية اتسمت بالهيمنة الأجنبية على الاقتصاد المصرى ، وربطه بالاقتصاد الأوربى بروابط التبعية ، فقد برز وعيها الطبقى فى وقت مبكر عندما كونت الجبهة الوطنية التى تصدت للتدخل الأجنبى فى النصف الثانى من سبعينات القرن الماضى ، تلك الجبهة التى ساندت ثورة ١٨٨١ (التى عرفت بالثورة العرابية). غير أن وقوع الاحتلال البريطانى وهزيمة الثورة عام ١٨٨٢ ، جعلاها تتراجع عن مواجهة الهيمنة الأجنبية دفاعا عن مصالحها وحرصا عليها ، وخاصة أنها بحكم كونها من كبار ملاك الأراضى ، كانوا كبار منتجى القطن الذى لا تشتريه إلا بريطانيا وبعض الدول الأوربية الأخرى، ومن ثم مالوا إلى التعاون مع الاحتلال مادامت سياساته لا تمس مصالحهم وانما تعمل على تنميتها من خلال سياسة زراعية وضعها الاحتلال لخدمة مصالحهم ورعايتها . ولذلك صرفوا جهودهم فى المجالس النيابية التى أقامها الاحتلال إلى الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية فى حدود الإطار الذى رسمه الاحتلال البريطانى . ولكن شريحة « الأفندية » المتعلمين الذين تلقوا تعليمهم فى أواخر عهد اسماعيل ومطلع عهد الاحتلال ، كانوا أكثر معارضة للاحتلال البريطانى ، غير أن هذه المعارضة لم تتخذ شكلا واضحا إلا فى أعقاب أزمة ١٩٠٧ الاقتصادية التى أضرت بالشرائح الدنيا

من الطبقة الوسطى ، فأصبحت معارضة الأفندية الذين التفوا حول الحزب الوطنى بزعامة محمد فريد تتخذ طابعا احتجاجيا واضحا .

وقد ترتب على نمو المدن المصرية ، ونشوء مدن جديدة بمنطقة قناة السويس ، والتوسع النسبى فى التعليم بعد صدور دستور ١٩٢٣ ، والظروف الاقتصادية التى شهدتها مصر فى الحربين العالميتين التى أتاحت الفرصة أمام صغار التجار وبعض أصحاب الحرف لتحقيق قدر محدود من الثراء ، أدى ذلك كله إلى اتساع قاعدة الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى . وجاء الكساد العالمى الكبير فى مطلع الثلاثينات وما ترتب عليه من آثار أضرت بتلك الشريحة الاجتماعية بقدر ما زادت من بؤس الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين، ليقع التناقض الكبير بين شريحة كبار الملاك المحدودة التى استأثرت بجانب كبير من الدخل القومى ، وبين الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ممثلة فى الأفندية وصغار التجار وصغار المنتجين الحرفيين (أصحاب الورش) ، وأصبح هؤلاء دعامة حركات الرفض السياسى والاجتماعى التى عرفتها مصر منذ أواخر العشرينات فجاءت من بين صفوفهم كوادر الحركة الشيوعية المصرية و« الإخوان المسلمون » ومصر الفتاة ، كما خرجت من صفوفهم جماعة « الضباط الأحرار » التى أشعلت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وأدت سياستها الاجتماعية والتعليمية إلى توسيع نطاق قاعدة الطبقة الوسطى المصرية وخاصة الشريحة الدنيا منها .

وعلى مر تاريخ الطبقة الوسطى المصرية كانت تعبر عن وعيها الطبقى بالدفاع عن مصالحها عن طريق التشريع بحكم وجودها وسيطرتها على المجالس النيابية وتربع ممثليها على كراسى الحكم ، كما أقامت الهيئات التى ترعى مصالحها مثل الجمعية الزراعية الخديوية (السلطانية ثم الملكية فيما بعد) التى وقفت حارسا على مصالح كبار الملاك وراعيا للانتاج الزراعى ، ثم اتحاد الصناعات الذى تولى رعاية مصالح القطاع الصناعى . وتولى رئاسة الهيئتين بعض الشخصيات الهامة المعروفة بدفاعها عن مصالح ملاك أدوات الانتاج سواء فى الصناعة أو الزراعة .

افتقار الوعى الاجتماعى

ورغم وعى الطبقة الوسطى بمصالحها وتصديها للدفاع عنها ، إلا أنها كانت تفتقر إلى الوعى الاجتماعى من حيث إيجاد الضوابط التى تكفل تحقيق الاستقرار الاجتماعى الذى يضمن - بالضرورة - استمرار وجودها وتنمية مصالحها ، ويتجلى ذلك فى عزوفها عن تبنى السياسات الاجتماعية التى تخفف



من وطأة المسألة الاجتماعية التى تمثلت فى ثالوث : الفقر ، والجهل ، والمرض ، والتى كانت ترجع إلى سوء توزيع الملكية الزراعية، وتدنى الأجور فى قطاعى الزراعة والصناعة على السواء ، وارتفاع إيجارات الأراضى الزراعية ،وعدم الاهتمام بمحو الأمية ، وانتشار الأمراض المتوطنة وغياب السياسات الخاصة بالرعاية الصحية ، وانتشار البؤس والفاقة فى الريف والمدن على السواء .

ومن عجب أن سلطات الاحتلال البريطانى – وهى تتحمل جانبا كبيرا من مسئولية صياغة النظام الاقتصادى الذى استمر بصورة أو بأخرى حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ – كانت تعى تماما خطورة استمرار ظاهرة سوء توزيع الثروات بين المصريين من زاوية سياسية محضة ، فقد كانت تنظر دائما بعين القلق إلى ما قد يترتب على استمرار تلك الظاهرة من قلاقل اجتماعية ، قد تتخذ طابع العمل السياسى المعادى للوجود البريطانى فى مصر . لذلك تبنت سياسة ترمى إلى توسيع نطاق الملكيات المتوسطة وتشجيعها وتثبيت الملكيات الصغيرة والحيلولة دون استمرار

تفتتها ، فحاولت أن توفر مصادر الائتمان لصغار ومتوسطى الملاك ، وتدخلت بالتشريع فى محاولة لحل مشكلة ديون الفلاحين باصدار قانون الأفدنة الخمسة (١٩١٣) ، وإذا كانت تلك المحاولات قد باءت بالفشل ، فإن ذلك يرجع إلى عدم المساس بالبنية الاقتصادية التى أفرزت الظاهرة المطلوب علاجها .

وفيما عدا تلك المحاولة التى تمت على يد الاحتلال البريطانى لا نجد اهتماما من جانب السلطات الحاكمة برسم سياسة اجتماعية تهدف إلى تخفيف أعباء الحياة عن عاتق الطبقة الكادحة الفقيرة ، وبالتالى التخفيف من حدة التناقضات الاجتماعية ، فترك الحبل على الغارب لرأس المال الزراعى والصناعى دون ضابط أو رابط ، فإذا تدخلت الحكومة بالتشريع كان ذلك لمصلحة الأغنياء وحماية لمصالحهم كما حدث بالنسبة لتدخل الحكومة لتنظيم تجارة القطن خلال الحربين العالميتين التى أنقذت كبار المزارعين من خسائر محققة كانوا عرضة لها لولا تدخل الحكومة لحمايتهم .

ظلم الفقراء

أما بالنسبة للفقراء ، فلا تتحرك الحكومة إلا إذا احتدمت الأمور وهددت بالانفجار أو كادت ، عندئذ تضع النظم التى تفتقر إلى القوة الرادعة التى تضمن تنفيذها لصالح الفقراء ، مثلما حدث بالنسبة للأوامر العسكرية التى صدرت خلال الحرب العالمية الثانية ووضعت حدودا لإيجارات الأراضى الزراعية ، ولكنها لم تنص على عقاب الملاك الذين يخالفونها ، فلم يلتزم بها أحد . ولعل لجان التوفيق والتحكيم التى شكلت عام ١٩١٩ لفض المنازعات بين العمال وأصحاب الأعمال تقدم نموذجا آخر للاستهانة بمصالح الطبقة الكادحة والاهتمام بمصالح رأس المال ، فلم تكن تلك اللجان ملزمة لأحد . ولم تصدر التشريعات العمالية التى صيغت على مدى النصف الأول من القرن العشرين إلا تحت ضغط الحركة العمالية ، وبصورة تقل كثيرا عما كان يطمح إليه العمال . وحتى هذه التشريعات الهزيلة تضمنت النص على عدم سريانها على عمال الزراعة زيادة فى الحرص على مصالح كبار الملاك الذين يجلس ممثلوهم فى سدة الحكم ويشغلون مقاعد النيابة عن الشعب فى البرلمان دون أن يعوا أن استمرار تفاقم التناقضات الاجتماعية يهدد تلك المصالح بالخطر .

وقد يتبادر إلى أذهان البعض أن السلطة الوطنية كانت عاجزة عن التدخل بالتشريع لوضع السياسات الاجتماعية الواجبة ، بسبب الامتيازات الأجنبية وضرورة تصديق الجمعية العمومية للمحاكم المختلطة على التشريعات حتى تسرى على المؤسسات الأجنبية والملاك الأجانب (وما

أكـثـرهم !) . ولكن ذلك لم يكن واردا عند صناع القرار فى مصر ، فهناك سياسات اجتماعية كان يمكن رسمها دون المساس بمصالح الأجانب ، ودون حاجة إلى المرور عبر المحاذير التى تمثلها الامتيازات مثل مشروع تزويد القرى بمياه الشرب النقية ونشر التعليم الأساسى ، وتوفير الرعاية الصحية للمواطنين ، والاهتمام بالاسكان الصحى فى الريف والمدن ، وكلها مطالب رفعتها فصائل مختلفة داخل الحركة السياسية ونادت بها أقلام الكتاب الذين كانوا ينشدون الاصلاح من أبناء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى مثل مريت غالى وابراهيم مدكور وغيرهما .

ومن يتتبع المناقشات التى دارت فى المؤتمر الزراعى الثالث الذى عقدته الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة (مارس - ابريل ١٩٤٩) يدرك مدى غياب الوعى الاجتماعى عند نخبة الطبقة الوسطى المصرية . ففى محاضرة ألقاها حامد جودة بك - رئيس مجلس النواب السعدى وأحد كبار الملاك - أمام المؤتمر ، طالب زملاءه كبار الملاك بتحسين أحوال عمال الزراعة بإقامة مساكن صحية لهم كتلك التى يعنون باقامتها لمواشيهم ، وأن يهتموا بعلاج الفلاح كما يهتمون بعلاج مواشيهم إذا أصابها المرض . وطرح نفس الفكرة فى مجلس النواب فلم يلق آذانا صاغية ، بل اتهموه بأنه يريد أن يفتح الطريق أمام أصحاب المبادىء الهدامة ، ولم يستمعوا لتحذيره لهم من أن استمرار البؤس والشقاء فى الريف هو الذى سيفتح الطريق أمام المبادىء الهدامة وليس الإصلاح الاجتماعى .

وحدث نفس الشىء عندما تقدم بعض من توافر لديهم الوعى الاجتماعى من أبناء الطبقة الوسطى بمشروع تحديد الملكية الزراعية إلى البرلمان مثل محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ (عام ١٩٤٤) ، وابراهيم بيومى مدكور الذى تقدم لمجلس الشيوخ (١٩٤٥) بمشروع قانون تنظيم الملكية والإيجار والعمل فى الزراعة ، وابراهيم شكرى الذى تقدم لمجلس النواب (عام ١٩٥٠) بمشروع قانون للإصلاح الزراعى ؛ فقد ووجهت كل تلك المحاولات الاصلاحية بموجة عارمة من المعارضة من جانب النواب والشيوخ وكان مصيرها الرفض . وراح مريت غالى - عضو مجلس النواب - يدق ناقوس الخطر فى كتابه «الاصلاح الزراعى» (١٩٤٤) داعيا البورجوازية المصرية إلى التضحية من أجل وطنهم ومواطنيهم ، وعدد تجارب الإصلاح الزراعى التى عرفتها الأمم الأخرى ، وأشار إلى التجربة الروسية التى رأى أن فيها نذيرا بالخطر « إذا أهملنا الاصلاح اللازم أو تغلبت علينا نظريات سياسية لا قبل لنا بها (ص ١٣) » .

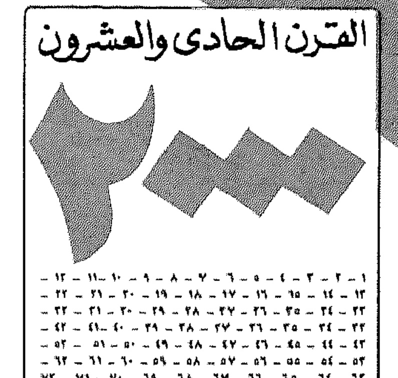
ونظرة إلى المناقشات التى دارت

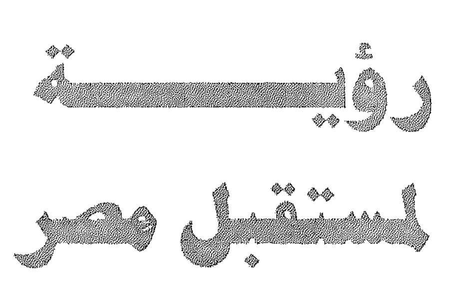
بالبرلمان عند نظر مشروع قانون التعليم الأولى (مايو ١٩٣٣) ، حيث اعتبر بعض النواب أن تعليم أبناء الفقراء « خطر اجتماعى هائل لا يمكن تصور مداه ، لأن ذلك لن يؤدى إلى زيادة عدد المتعلمين العاطلين ، بل يؤدى إلى ثورات نفسية » . وطالبوا بأن يقتصر التعليم على أبناء الموسرين من أهل الريف ، وعبر نائب آخر عن خشيته من أن يفسد التعليم أبناء الفلاحين ويجعلهم يعتادون حياة المدينة ، ويخرجون إلى حقولهم بالبلاطى والأحذية ، ويركبون الدراجات ويتطلعون إلى ركوب السيارات .

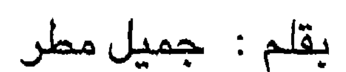
وعندما طرح قانون التعليم الإلزامى للمناقشة بالبرلمان (١٩٣٧ - ١٩٣٨) تجدد الحديث حول خشية إفساد التعليم للفلاح ، وعدم جدوى تعليم أبناء الفلاح الجغرافيا والتاريخ . وأبدى أحد النواب مخاوفه من أن يجد الفلاحين وقد ارتدوا « جلاليب مكوية أو طواقى بالاچور وأحذية ملونة » ، حتى « لا يتحول أصحاب الجلاليب الزرقاء إلى أصحاب جلاليب مكوية » .

وضع المسكنات

وتكشف تلك المناقشات عن مدى غياب الوعى الاجتماعى عند نخبة الطبقة المتوسطة المصرية الذى جعلهم يرون فى ابقاء الطبقات الكادحة تعيش فى فقر وجهل ومرض أضمن لمصالحها . وبالتالى وقفت ضد كل علاج يطرح لحل بعض جوانب المسألة الاجتماعية من خلال وضع مسكنات لها ، فضلا عن التفكير فى الحلول الجذرية . وزاد من حدة هذا الاتجاه أن الأحزاب السياسية التى تعاقبت على الحكم - على اختلاف اتجاهاتها - كانت ترى أن أمامها مسألة تفوق ماعداها أهمية هى المسألة المصرية ونعنى بها تحقيق الاستقلال التام وإجلاء قوات الاحتلال عن أرض الوطن ، أما المسائل الأخرى اجتماعية وغير اجتماعية فعليها أن تنتظر حتى تحين ساعة الاستقلال ، عندئذ يبحث القوم عن حل لها . وهكذا تقاعست كل تلك الأحزاب عن محاولة إيجاد حلول للمسألة الاجتماعية التى ازدادت تفاقما . ولكن ذلك لم يمنع الفصائل السياسية المعبرة عن الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى من أن تستجيب للرفض الاجتماعى من جانب الطبقات المسحوقة ، وتطرح تصورات لحل بعض جوانب المسألة الاجتماعية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ساهمت فى صياغتها الجماعات الشيوعية وحزب العمال المصرى (١٩٣١) ، وحزب الفلاح (١٩٣٨) ، وجماعة النهضة القومية (١٩٤٤)، واستفادت «مصر الفتاه» من كل ما طرح من أفكار عند صياغة برنامج الحزب الاشتراكى (١٩٤٩) ، وشكل ذلك كله الاطار المرجعى للسياسات الاجتماعية التى تبنتها ثورة يوليو ١٩٥٢ .







تحتاج كل الأمم فى مراحل معينة من تطورها إلى مشروع كبير يعيد صياغة أهدافها ، ويوحد صفوفها ، ويعبىء مواردها ، ويحفز قياداتها ، ويجدد الثقة فى مستقبلها . وقد يتخذ هذا المشروع أحيانا شكل العقيدة الدينية ، وأحيانا أخرى شكل الثورة السياسية والإقتصادية والإجتماعية ، وأحيانا ثالثة يتبلور فى شكل تصور فكرى يستند إلى واقع ودروس وطموحات ممكنة التحقيق .

وقد تعددت فى مصر تجارب ومحاولات بناء هذا المشروع الكبير على مدى القرنين الماضيين ، وخلف كل تجربة ومحاولة كانت هناك رؤية ما . كانت هناك رؤية خلف تجربة محمد على لبناء مؤسسات الدولة الحديثة ، وكانت هناك رؤى خلف تجارب النضال من أجل تحقيق الاستقلال ، رؤى عند احمد عرابى ورفاقه فى ثورة١٨٨٢ ، وأخرى لدى مصطفى كامل ومحمد فريد وقيادات الحركة الوطنية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، وثالثة لدى سعد زغلول وقادة ثورة ١٩١٩ ، ورابعة عند جمال عبد الناصر وثورة ١٩٥٢ ، وكذلك كانت هناك رؤى لمفكرين إصلاحيين وتيارات سياسية عديدة مارست دورها فى تكوين العقل المصرى الحديث .

وقد كانت هذه الرؤى نتاج عصرها وظروفها ، ومن ثم فقد تأثرت بالواقع الذى نشأت فى إطاره وتفاعلت معه ، كما أنها عكست تطور المجتمع وفئاته الإجتماعية وقواه السياسية ، وعكست كذلك مفاهيم متجددة للنهضة ، وهذه بحكم تعريفها ليست

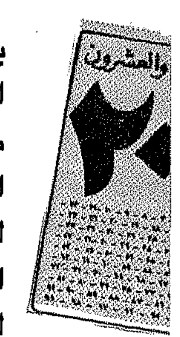
★ مصر فى حاجة إلى رؤية جديدة مشتقة من أهداف هذا الشعب عبر ثوراته وطموحاته وتجاربه

★ أصبحنا نعيش عصر الاقتصاد العالمى، حيث لم يعد الاكتفاء الذاتى فيه أمرا ممكنا

عملا فرديا يقوم به أحد المبدعين أو العباقرة ولا هى برنامج لحزب من الأحزاب ، ولكن النهضة كمفهوم حضارى متكامل يتجاوز المفاهيم المتداولة فى العلوم الإجتماعية مثل التنمية الإقتصادية أو التحديث أو التغير الإجتماعى ، فالنهضة هى كل ذلك وقد انخرط فى نسيج متكامل من العلاقات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية . وعندما تسرى روح النهضة فى مجتمع ما ، تدب الحركة فى كل أوصاله ، فهى إذن حركة مجتمع بأسره يتحرك صوب مثل أعلى ، أو تحركه رؤية لمستقبل أفضل .

ونحن عندما نتطلع إلى رؤية للمستقبل على أساس النهضة ، فإننا لانستطيع أن ننفصل عن الخبرة التاريخية ، بل يجب أن نستفيد منها ونطورها فى سياق المعطيات الجديدة والمستجدة ، ومن هنا علينا ونحن نبحث عن رؤية جديدة لمستقبل مصر ، أن ننظر إلى تاريخها القديم والحديث بمنظور التواصل والاستمرار .

هذا وقد تعرضت مصر خلال العقود الاخيرة إلى تحولات جذرية شملت منظومة القيم واساليب الحياة وشكل الخريطة الإقتصادية والإجتماعية ، وأسس الأمن الوطنى والعلاقات الخارجية . والمؤكد أن هذه التحولات لم تكن متناغمة أو متناسقة ، ولم تؤد إلى خلق هيكل إجتماعى واضح المعالم بقدر ما أدت إلى ما يمكن وصفه بحالات « إنقلاب » واهتزاز عنيف فى نسق القيم والمعايير الموجهة للسلوك الاجتماعى ، كما أدت إلى عدم الاستخدام الأمثل للموارد والفرص المتاحة ، الامر الذى حال دون إيجاد ظروف التراكم التنموى اللازم .



إن قراءة لتاريخ مصر الحديث تبين أن عملية التطور الإجتماعي فيه قد اتسمت بسمتين رئيسيتين : أولاهما ، أن إدخال الأنماط الجديدة في المؤسسات ومسالك الحياه المختلفة لم يكن الغاء للقديم ، وإنما تزامن القديم والجديد وتطور كل منهما في مجاله ، يتصارعان أحيانا ، ويتعايشان أحيانا أخرى ، ولا يستطيع أحد أن يفهم هذا الشعب دون الإمساك بتلك العلاقة بين القديم والجديد في شخصيته ونفسيته وإدراكه للأمور . فمصر التي نعيش في ظلها اليوم هي امتداد لمصر الأمس . وتمثلت السمة الثانية في الانقطاعات المتتالية في مسار عملية التطور ، فنتيجة للتوقع السريع للنتائج وعدم إعطاء الفرصة الزمنية اللازمة لأي سياسة لأن تؤتي ثمارها ، فإن الأخطاء التي أفصحت عنها كل تجربة لم تؤد إلى تقويمها وإصلاحها ، وإنما إلى هجرها والبدء في طريق جديد .

إن تفاعل هاتين السمتين أدى إلى تبلور حالة ذهنية ونفسية متميزة في لحظات التحول أو الأزمة أو الشعور بالخطر ، أبرز معالمها قدرة المجتمع على استدعاء مختلف الافكار والمفاهيم التي اثرت في تاريخه وتعبئتها في مواجهة هذه اللحظة .

فالقديم في بلادنا لا يزوى تماما ، وانما يظل جزءا منه يعيش وسطنا ، ويستطيع المصريون الدفع به إلى مقدمة الصفوف عندما تقتضي الظروف ذلك ، ولعل هذا يفسر « بانوراما » الأفكار والتيارات السياسية التي تشهدها مصر اليوم ، والتي نهلت من منابع مختلفة ونشأت في ظروف تاريخية متباينة ، وهو ما يخلق مشكلة في التعامل مع المستقبل وما يحمله من جديد ، فمن خلال السعي – غير المنتظم – نحو الجديد سحب المجتمع المصري وراءه كل القديم ، وبدلا من أن يرتبط هذا المجتمع برؤية مستقبلية يتسلح فيها بكل ما هو إيجابي في القديم والجديد ، تعلق برؤى « ماضوية » حمل فيها كل ما هو قديم لمواجهة الجديد ، فكانت النتيجة حاضرا يخترقه الماضي وأفكاره وثاراته ورواسبه وأساطيره ، ولا يترك مجالا – إلا ضئيلا – ينفذ فيه المستقبل أو ينفذ منه إلى المستقبل .

فهم معطيات المستقبل

إن مصر اليوم في حاجة إلى رؤية جديدة ، رؤية يقتنع بها الرأي العام ، ويتبناها أهل الفكر والرأي والقرار . رؤية تكون مشتقة من اهداف هذا الشعب عبر ثوراته وطموحاته وتجاربه وإخفاقاته ، رؤية تستند إلى تقدير صحيح لحجم مشاكل الحاضر ولقدرات المجتمع الكافية والقادرة على مواجهتها ، ويتم بلورتها في ضوء فهم معطيات المستقبل وعالم الغد الذي يتشكل حولنا . نحن في حاجة إلى رؤية لا تبحث في الماضي الا بالقدر الذي يضع أساسا للمستقبل ، ولا تنشغل بالدخول في صراعات

ومعارك فات أوانها ، ولا تنطلق من مفاهيم وأفكار تجاوزتها الاحداث ، وانما تنطلق من الاقتناع بالإمكانات الكامنة لهذا المجتمع ولهذا الشعب ، وبقدرة المصريين على تجاوز مشكلاتهم الراهنة إلى مستقبل مغاير .

إن هناك اعتبارات كثيرة نابعة من ظروف المجتمع المصرى تحتم بلورة مثل هذه الرؤية الجديدة ، فهناك حاضر يتسم بعدد من الاختلالات والمشكلات التى تبدو أحيانا وكأنها لا نهاية لها ، والتى تسفر عن كثير من التوترات النفسية والإجتماعية . فهناك توترات ناتجة عن الفجوة بين الزيادة المطردة فى السكان والنقص فى قدرة المؤسسات الإجتماعية والإقتصادية على الإستجابة للحاجات المتزايدة فى مجالات التعليم والغذاء والإسكان . وهناك أيضا توترات ناتجة عن التغيرات السياسية السريعة فى العقود الثلاثة الأخيرة وما صاحبها من قيم مختلفة فى مضمون التنشئة السياسية والقيم الفكرية الأخرى ، بما أدى فى النهاية لوجود « أزمة انتماء » وما واكبها من اهتزاز لدور القوة الاجتماعية والسياسية . وبالإضافة لهذه الإعتبارات المحلية هناك أسباب أخرى عالمية ودولية منها : تزايد الاهتمام العلمى والسياسى فى مختلف دول العالم بالمستقبل ، وضرورة الإعداد له والتخطيط لمشاكله من الآن ، ويظهر ذلك فى عشرات التقارير والمؤتمرات والكتب والدراسات التى تتناول شكل عالم المستقبل والقوى الفاعلة فيه .

وهناك عدد من الضوابط التى يمكن أن تؤخذ فى الإعتبار عند صياغة مثل هذه الرؤية المستقبلية لمصر :

أولها : الشمول ، بمعنى النظرة المتكاملة لحركة المجتمع فى كلياتها وتحليل سلوك ومواقف الأجزاء فى سياق تلك الشركة الإجمالية .

ثانيها : التاريخية ، فهى تدرس المستقبل فى ضوء الحاضر والماضى ، وهى تتحسب الإحتمالات والآفاق الجديدة التى يتضمنها عالم الغد ، ودون أن تنفصل عن خصوصية المجتمع المصرى وتاريخه وتجاربه ، كما يشمل مفهوم التاريخية أيضا معنى أن دراسة مستقبل مصر لاتتم بمعزل عن السياق الإقليمى والدولى .

ثالثها : التركيز على القضايا والعناصر الحاكمة ، والأكثر تأثيراً على شكل المستقبل ومسيرته ، فلا يجب أو ينبغى أن تتجه الرؤية إلى تبنى إسلوب السرد والحصر لكل القضايا .

رابعها : الأخذ بروح الجماعة أو العمل الجماعى ، فالرؤية الفردية عادة تتحكم فيها عناصر ايديولوجية وذاتية ، فضلا عن محدودية إدراك أى فرد لكافة العوامل التى تؤثر فى شكل المستقبل ، ومن هنا ، فإن بلورة هذه الرؤية يجب أن تتم من خلال

العمل الجماعي من اللحظة الأولى .

خامسها : التركيبية ، أي أن تكون من حيث المضمون خلاصة تركيبية لأفضل ما قدمه الفكر المصرى الحديث وتجربة الشعب المصرى فى هذا القرن .

معطيات المستقبل : المعطيات الدولية

لا شك أن التعرف على سمات العالم الذى يتبلور من حولنا إنما يمثل المقدمة المنطقية والضرورية لفهم المستقبل المصرى . فهذا العالم هو السياق التاريخى للجهد المصرى ، وهو الذى سوف يتيح للمصريين فرصا جديدة أو يفرض عليهم قيودا مستحدثة ، وفى الحالتين لا تملك مصر سوى الفهم الدقيق لهذا الواقع وتحديد أفضل السياسات للتعامل معه ، تعظيما لمنافعه وتقليلا لأضراره وفيما يلى نتناول ما نتصور أنه يشكل المعطى الدولى .

١ - الاتجاه إلى العالمية :

إن العالم لم يعرف درجة من التداخل والترابط الإقتصادى كما يعرفها الآن . أصبحنا نعيش فى عصر الإقتصاد العالمى ، حيث لم يعد الإكتفاء الذاتى فيه أمرا ممكنا ، وقد أصبحت العلاقات الدولية مظهرا من مظاهر فكرة الإقتصاد العالمى وليس مجرد علاقات اقتصادية خارجية بين الدول للبحث عن الاسواق أو توفير الموارد الطبيعية . وقد ارتبط ظهور الإقتصاد العالمى بتطورات مقابلة فى الصناعة وفى التكنولوجيا المتاحة فضلا عن تطور المؤسسات والمنظمات المؤثرة فى العلاقات الإقتصادية الدولية . فالصناعة الحديثة لا تتميز فقط بامكانياتها التكنولوجية والتسوية العالمية ، وانما أيضا باتجاهها العالمى فى كافة مراحلها ، وتدخلت صور العلاقات الإقتصادية الدولية فى تبادل السلع والخدمات فى مختلف مراحل الانتاج وأصبحت التجارة فى السلع نصف المصنعة والوسيطة ومكونات الانتاج تجاوز تجارة السلع النهائية .

وقد صاحب هذا التطور فى طبيعة الصناعة الحديثة واتجاهها إلى العالمية ظهور دور متميز لعدد من الوحدات الانتاجية العملاقة والتى تتحكم فى تكنولوجيات مختلف الصناعات وتباشر سياسات واستراتيجيات صناعية عالمية تتجاوز الحدود السياسية .

ولا يقتصر الاتجاه إلى العالمية على هذه النواحى التكنولوجية وما ارتبط به من دور متزايد تلعبه هذه الوحدات الإنتاجية العالمية ، بل إن إتجاهات العالمية تفرض


محمد فريد


سعد زغلول

عبد الناصر

نفسها على مختلف نواحى الصناعة الحديثة ، كذلك فان النظم القانونية للمعاملات لم تعد دائما نظما وطنية ، فقد ظهر نوع من القواعد العالمية لتنظيم هذه المعاملات سواء فى مجال البيوع الدولية أو الإستشارات أو العقود الدولية .

٢- ثـورة المعلومـات والإتصالات :

عندما نتحدث عن « ثورة المعلومات » انما نشير إلى تغيير وانقطاع كيفي فى لتكنولوجيا والآفاق المتاحة . وإذا كان ظهور الزراعة قبل حوالى عشرة آلاف سنة قد مثل ثورة وانقطاعا كاملا بين نمط الحياة السابقة واللاحقة ، وأيضا إذا كانت الثورة الصناعية قبل قرنين قد مثلت انقطاعا آخر غير فى نمط الحياة وأساليب الإنتاج ، فإنه يمكن القول إننا على فاتحة عصر جديد يمثل انقطاعاً وتغييرا فى نمط الحياة والتكنولوجيا فنحن نعاصر الآن تغييرا نوعيا فى الصناعة والتكنولوجيا المستخدمة ، ولم يعد الأمر متعلقا بإنتاج « أكبر » أو «أكثر» وإنما أصبح يشير إلى شيء « آخر» وإلى أمر « مختلف » ، وأصبحنا نعيش مرحلة تتميز بغلبة المعلومات والإتصالات لدرجة تبرر وصـــفها بـ « ثـورة المعلـومات والإتصالات » ولم تعد الآلة الجديدة تحل محل قوة الانسان وعضلاته إنما أصبحت تقوم بدور عقله وذكـــائه بل ومضاعفة ذكائه .

ولعل من أهم آثار هذه الثورة الجديدة فى المعلومات والإتصالات هو ذلك التقارب والاندماج بين مختلف أجزاء العالم ، حتى بات البعض يتحدث عن « القرية العالمية » وأصبح العالم نتيجة هذه الثورة المعلوماتية يتقارب ويتجه نحو التماثل وتزول مختلف الحواجز بين أجزائه ، ولكن هذا التقارب وهذا التماثل لا يحولان دون أن يتمكن هذا العالم – وبفعل هذه الثورة – من إيجاد أشكال جديدة من التنوع والتفرد .

٣ - الثورة المالية :

لم تعد النقود أمرا وطنيا بحتا بل أصبحت تتأثر . وكثيرا ما تتوقف على ما يحدث خارج الحدود . كما لم تعد النقود تصدر فقط عن البنك المركزى والبنوك التجارية ، وإنما أصبحت هناك أشكال أخرى للمديونية تشارك النقود وظائفها مثل كروت المديونية التى تصدرها المؤسسات التجارية والسياحية ، بل إن العديد من هذه المديونيات لم يعد تحت سيطرة الدولة . كما أن زيادة حجم التبادل الدولى قد جعل مسألة النقد مرتبطة باعتبارات دولية ، فالدولار يلعب دورا أساسيا ليس فقط فى الولايات المتحدة الامريكية ولكن فى معظم الدول الغربية واليابان وعدد غير قليل من بقية دول العالم . وفى نفس الوقت بدأت تظهر ترتيبات نقدية بين الدول سواء فى النظام النقدى الأوروبى EMS أو فى ظهور حقوق السحب الخاصة SDR أو الوحدة الأوروبية ECU . ومن هنا يمكن القول بأن النظام النقدى قد انفصل بعض الشىء عن علاقته الوطنية لكل دولة ليصبح له وجود وحياة مستقلة تتأثر بما يحدث فى مجموع العلاقات الدولية .

وإذا تركنا النقود إلى بقية الأدوات المالية نجد ثمة تطورا أكثر وضوحا يتمثل فى تحرر هذه الأدوات من القيد الإقليمى لتصبح عالمية ، وقد عمد الكثير من الدول إلى تحرير أسواقه المالية وبحيث أصبحت الأسهم تتداولها فى معظم الأسواق المالية العالمية دون قيود ، وانتقل العالم إلى نوع من الاقتصاد الرمزى تحركه هذه الأصول المالية تنتقل من مكان إلى آخر ومن عملية إلى أخرى فى لحظات ودون أن تدركها عين أو تعوقها سلطة . وهكذا أدت الثورة المالية فى أدوات وأساليب التمويل إلى تجاوز الحدود السياسية للدول ، وقيدت بالتالى من قدوة السياسة الإقتصادية الوطنية فى مواجهة هذه الثروات المالية الهائمة .

وأخيرا ، فــان كل مهتم بمستقبل مصر، أيا كان موقعه أو مكانه ، وسواء من الأجيال الأقدم سنا أو الأحدث ، عليه أن يساهم فى بلورة هذه الرؤية المستقبلية لمصر، رؤية تختزن الماضى لتنطلق منها إلى المستقبل ، فالماضى فى مصر فيه الصحيح والإيجابى ، وفيه الخاطىء والسلبى ، وهناك من القديم والماضى ما يمكن البناء فوقه ، وما يمكن البناء إلى جانبه ، وعلينا جميعا - ونحن بصدد بلورة هذه الرؤية - التمييز بين هذا وذاك من أجل تكوين رؤية مستقبلية يكون فيها الماضى نبعا للأصالة والصلابة ، وعاصما من احتمالات التشويه الثقافى ، ويعتبر فيها الجديد سلاحا أكيدا وفعالا لمواجهة المستقبل وسبر أغواره .

أقــوال معــاصرة

● « اعطاء الحق لكل فرد فى تغيير المنكر بيده فوضى يكرهها الإسلام » .

الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

● « صربيا لن تسمع الكلام ، إلا إذا أجبرت على السمع والطاعة » .

مارجريت تاتشر
رئيسة وزراء بريطانيا السابقة

● «أغلب الأنظمة العربية الحاكمة تنظر للثقافة بارتياب» .

المفكر العربى حسام الدين الخطيب

● « الثقافة ضيف ثقيل على الصحافة » .

الدكتور على الراعى

● « مصر هى قلب الثقافة العربية » .

الأديب السورى حنا مينا

● « كل شيء مباح فى ديمقراطية أمريكا بما فى ذلك صناعة الفضائح للمرشحين » .

ميشيل دوكاكيس
المرشح السابق لرئاسة الولايات المتحدة

● « الشاعر لا يكتب أصلا فى الغرف المكيفة الهواء والشعر يكتب فوق خط الاستواء » .

الشاعر نزار قبانى

● « المسألة وصلت إلى أن نموت أو نكون أحرارا » .

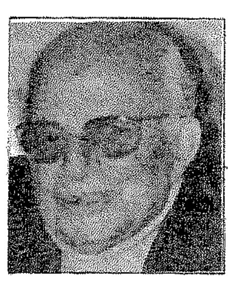
عادل إمام

● « حرية التعبير فى بعض الدول العربية محدودة » .

جورج عطية
رئيس دائرة الشرق الأوسط
وأفريقيا فى مكتبة الكونجرس الأمريكى

● « الفنان وحده - دون سائر الناس - قد يذوق الموت مرتين » .

الأديب الكبير يحيى حقى


يحيى حقى


مارجريت تاتشر


عادل امام

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

١ – ٢ – ٣ – ٤ – ٥ – ٦ – ٧ – ٨ – ٩ – ١٠ – ١١ – ١٢ –
١٣ – ١٤ – ١٥ – ١٦ – ١٧ – ١٨ – ١٩ – ٢٠ – ٢١ – ٢٢ –
٢٣ – ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ – ٢٩ – ٣٠ – ٣١ – ٣٢ –
٣٣ – ٣٤ – ٣٥ – ٣٦ – ٣٧ – ٣٨ – ٣٩ – ٤٠ – ٤١ – ٤٢ –
٤٣ – ٤٤ – ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ – ٤٨ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ –
٥٣ – ٥٤ – ٥٥ – ٥٦ – ٥٧ – ٥٨ – ٥٩ – ٦٠ – ٦١ – ٦٢ –
٦٣ – ٦٤ – ٦٥ – ٦٦ – ٦٧ – ٦٨ – ٦٩ – ٧٠ – ٧١ – ٧٢
– ٧٣ – ٧٤ – ٧٥ – ٧٦ – ٧٧ – ٧٨ – ٧٩ – ٨٠ – ٨١ –
٨٢ – ٨٣ – ٨٤ – ٨٥ – ٨٦ – ٨٧ – ٨٨ – ٨٩ – ٩٠ – ٩١
– ٩٢ – ٩٣ – ٩٤ – ٩٥ – ٩٦ – ٩٧ – ٩٨ – ٩٩

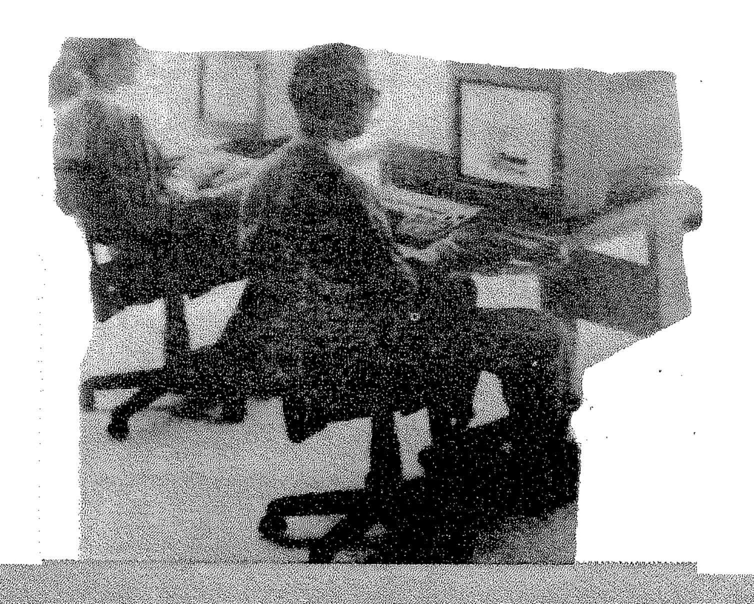
ثورة المعلومات والمنظومة القومية للمعرفة

بقلم د . السيد نصر الدين

يكتسب الحلم جدواه من قابليته للتحقيق والتنفيذ ، ويكتسب شرعيته من كونه أداة لتصور المستقبل وتلمس صورته ، ويكتسب ضروريته من قدرته على ملاحقة ومواكبة التغيير . هذا التغيير الذى تسارعت إيقاعاته وتلاحقت آثاره حتى بتنا نقف أمامه بعقول لاهثة ونفوس مضطربة ونحن نعانى من صدمة المستقبل ، هذا المستقبل الذى يندفع نحونا حاملا لنا فرصة تكنولوجية علنا نقتنصها حتى لا تخرج أقدم أمة فى التاريخ من التاريخ .. !؟؟ فنحن ، فى تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ البشرية ، نقف شهودا لأكبر «تبدل للقوى» يحدث فى تاريخها فنحن نشهد ميلاد عصر تصبح فيه «المعرفة هى السلاح الرئيسى فى صراع القوى المصاحب لإقتصاد عصر مابعد الصناعة» وتصبح «السيطرة على تدفق وتداول والتوصل إلى المعرفة هى محور الصراع» وذلك على حد قول ألفين توفلر A. Toffler فى أحدث كتبه «تبدل القوى» Powershift فلقد أصبحت المعرفة هى المورد الرئيسى الذى يقوم عليه مجتمع ما بعد الصناعة لتلعب بذلك الدور الذى لعبه رأس المال والطاقة المولدة فى عصر المجتمع الصناعى والذى لعبته المواد الخام والقوى الطبيعية فى عصر مجتمع ماقبل الصناعة .

والمعرفة ، فى عرف أهل الصنعة من المعلوماتيين (+) ، هى : رؤيتنا ، أفرادا ومجتمعات ، لعالم الواقع وهى الرؤية التى تشمل مجموع الإستنتاجات العقلية والخبرات المكتسبة والأحكام الشخصية التى تنشأ نتيجة للتعقل والتجريب و الممارسة

(+) هم الأفرادالمشتغلون بالمعلوماتيات والمعلوماتيات Informatics هى مجموع النظم العلمية المختلفة التى تعنى بالدراسة النظرية والتطبيقات العملية لكافة الجوانب الفنية والإنسانية والإقتصادية والاجتماعية المتعلقة بإستخدام وتوظيف تكنولوجيا المعلومات ، وذلك مثل : علوم الحاسب ، العلوم الإدراكية .



العملية والتجارب الذاتية ويمكن تمثيلها بواسطة وإختزانها و تقديمها للآخرين من خلال وسائط التمثيل والإتصال المختلفة (مثل : اللغة الطبيعية ، الأصوات ، الصور ، الأشكال ..) وذلك طبقا لقواعد محددة (منطقية جمالية) وللمعرفة ، كمورد من موارد القوة ، خصائص تميزها عن غيرها من موارد القوة الأخرى كالثروة أو العنف فهى مرنة يمكن تحويلها بيسر إلى الأشكال الأخرى لموارد القوة ، وهى لا تقل بالإستخدام على عكس الموارد الأخرى فقراءة كتاب أو ورقة علمية أو إسترجاع المعلومات المختزنة فى أحد بنوك المعلومات لا تنقص من كمية المعرفة الموجودة بأى منها وهى تتميز بجماعية الإستخدام إذ يمكن لأكثر من فرد أو جماعة الإستفادة منها ، فى نفس الوقت وأخيرا هى متاحة للفقراء و الضعفاء الواعين ، ولم يكن لهذا المورد أن يأخذ مكان الصدارة بين الموارد الأخرى لولا ظهور تكنولوجيا المعلومات بتقنياتها المادية والذهنية تلك التكنولوجيا التى حققت خلال سنوات عمرها التى لا تتجاوز الخمسين تقدما فاق كل التصورات فرأيناها وهى تتحول من معالجة البيانات إلى معالجة الأفكار ورأيناها وهى تنتقل من مرحلة تخزين البيانات فى صورتها الأولية الرقمية إلى مرحلة تخزين المعرفة وتعليب الخبرة البشرية بشتى صورها وأشكالها ، وشهدنا قدراتها تتطور من مجرد التنفيذ الآلى للعمليات الحسابية والمنطقية الأولية إلى محاكاة للذكاء البشرى بشتى صوره وإلى تمثيل القدرات الإدراكية المخ البشرى ، كما أدى تزاوج تكنولوجيا الحواسب مع تكنولوجيا الإتصالات إلى إيجاد «فضاء إلكترونى» حل محل «الفضاء الجغرافى» فضاء لا توجد به حدود سياسية تحكم التنقل بين أرجائه ولاقيود رقابية تحد من تبادل المعرفة بين أطرافه المختلفة وهو فضاء لا يتطلب التجوال فيه إنتقالا بالجسد بل يكفى أن تجلس أمام الحاسب لتصبح أقصى الأماكن

على بعد لمسة إصبع ، وهكذا يمكنك وأنت جالس فى الإسكندرية التوصل إلى المعلومات التى ترغب فى الحصول عليها من مكتبة الكونجرس فى واشنطن وذلك من خلال «منظومات إسترجاع المعلومات» ويمكنك تبادل الرسائل مع رفاق العمل فى السويد أو فى فرنسا عبر «البريد الإلكترونى» أو عقد مؤتمر عالمى بإستخدام منظومات «الإتمار عن بعد» Teleconferencing كما يمكنك العمل سويا مع فريق عمل موزع على أنحاء المعمورة بواسطة منظومات «الجماعيات» Gruopware .

كانت هذه بعضا من ملامح التقنيات المادية لتكنولوجيا المعلومات المعاصرة وهى تقنيات لا يتطلب تنفيذها وإستخدامها إستثمارات مالية ضخمة ولكنها تتطلب إستثمارات عقلية مكثفة حتى تؤتى بثمارها لذا نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى إطار مفهومى عام ينظم وتنتظم فيه كافة الأفكار المتعلقة بكيفية تحين تلك الفرصة التكنولوجية المتمثلة فى توفر تكنولوجيا متقدمة ذات تكلفة منخفضة نسبيا ولا تتطلب حيازة أسرار صنعتها Know - How جهدا فوق العادة فهى فى متناول الجميع ممن يقرءون فيعون ويعملون من هنا جاء حلم المنظومة القومية للمعرفة لتكون بنية أساسية للتنمية المعرفية للأمة أفرادا وكيانات وهو البعد التنموى اللازم و الضرورى لتحقيق التنمية الشاملة بكافة أبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

والمنظومة القومية للمعرفة هى : المنظومة الشاملة والمتكاملة التى تعنى بـ :

– الحفاظ على :
– زيادة وتنمية .
– بث ونشر

الرصيد المعرفى للأمة متمثلا فى :

– الإنتاج المعرفى القومى
– التراث الثقافى للأمة .
– الإنتاج المعرفى العالمى

وذلك بإستخدام التقنيات المادية والذهنية لتكنولوجيا المعلومات [مثل منظومات الحواسب ، البرمجيات ، شبكات الإتصال ونقل البيانات ، نظرية المنظومة العامة General System Theory السيبرنيطيقا Cybernetics ......]

وذلك بالتعاون والتنسيق والتكامل مع :

– مراكز الإنتاج والإبداع المعرفى [جامعات ، مراكز بحوث ....]
– مراكز حفظ ومعالجة المعرفة والمعلومات [بنوك المعلومات المحلية و الدولية ، المكتبات المحلية والدولية ، منظومات المعلومات القطاعية والمركزية ...] .
– وسائل بث ونشر المعرفة والمعلومات [شبكات الإتصال ، الصحف ، الإذاعة التليفزيون ، دور النشر ...] .

إنها إذن المنظومة التى تربط بين منتجى المعرفة ، أيا كان شكلها وأيا كان موقع إنتاجها ، وبين مستهلكيها أيا كان موقعهم وهى أيضا تحقق التواصل وتيسر التحاور بين منتجي المعرفة بعضهم بالبعض فنرى ، فى إطارها ، العامين فى أحد مراكز الإنتاج المعرفى وهم يعملون على «تعليب الخبرة» المتقدمة فى أحد المجالات الزراعية أو الصناعية فى «منظومات خبيرة» Expert Systems ويحفظونها فى «قواعد معرفة» Knowledge - base لتتاح بعد ذلك لمستهلكيها من زراع وصناع أفرادا كانوا أو مؤسسات وأيا كان موقعهم على أرض الوطن ، ونرى الخبرات الطبية المتخصصة والتى تحتكرها القاهرة والإسكندرية ، نراها وقد توفرت لدى كل وحدة صحية فى أصغر نجوع صعيد مصر وذلك على هيئة منظومة خبيرة على حاسب شخصى أو من خلال خط إتصال مع إحدى قواعد المعرفة الطبية ونرى تراثنا الشعبى وقد إختزن صوتا وصورة ، على منظومات «الإعلام المتنوع» Multimedia وأصبح فى متناول الجميع من مفكرين ومثقفين وهنا نكبح جماح الرغبة فى الإستطراد ونتوقف عن التجوال فى جنبات الحلم الرحبة .. نتوقف لنتساءل عن جدواه ... وعن قابليته للتنفيذ ...؟ فإذا نظرنا داخل حدود الوطن لرأينا العديد من الجهود المبذولة فى تجسيد بعضا من مكوناته ولكنها جهودا متناثرة ومبعثرة لا يلمها إطار عام أو استراتيجية شاملة فهناك على سبيل المثال ، الشبكة القومية للمعلومات العلمية والتكنولوجية التابعة لأكاديمية البحث العلمى والتى توفر للمتعامل معها فرصة إسترجاع المعلومات المتوفرة فى العديد من المصادر العالمية ونجد أيضا شبكة الجامعات المصرية التابعة للمجلس الأعلى للجامعات والتى تتيح لأعضاء هيئات التدريس قدرة التحاور مع أقرانهم فى العالم من خلال خدمة البريد الإلكترونى ، أما إذا نظرنا خارج حدود الوطن لوجدنا على سبيل المثال ، المنظومة الطبية الخبيرة DXPLAIN المتخصصة فى تشخيص أكثر من ٢٠٠٠ مرض والتى يستطيع أكثر من عشرة آلاف طبيب من أعضاء الجمعية الطبية الأمريكية الإتصال بها فى أى وقت ومن أى مكان فى الولايات المتحدة ، وذلك لمساعدتهم على تشخيص ما قد يقابلونه من أعراض مرضية .

كانت هذه لمحات مما يمكن أن تقدمه المنظومة القومية للمعرفة وذلك على مستوى العلاقة بين منتج المعرفة ومستهلكها ، ويبقى بعد ذلك ما يمكن أن تقدمه تلك المنظومة لمنتجى المعرفة أنفسهم وهو أمر لا يتسع له المكان ولنا له عود قريب .

وفى النهاية فإن قضيتنا هى قضية تحين فرصة تكنولوجية سانحة وكان حلمنا هو وسيلتنا للفت الأنظار إليها وإلى إثارة الإهتمام بها حتى لا تفلت من بين أيدينا ونكون من الخاسرين .



عصر الليزر

بقلم :د . محمد بهائى السكرى

ورد ذكر الياقوت فى القرآن الكريم وشبهت به الحور العين فى الجمال والبهاء ، وذكر النبى عليه السلام أنه من أحجار الجنة وعشق الكثير من البشر الياقوت حجرا نادرا ذا لون أحمر خلاب يزين الكثير من الحلى الثمينة .

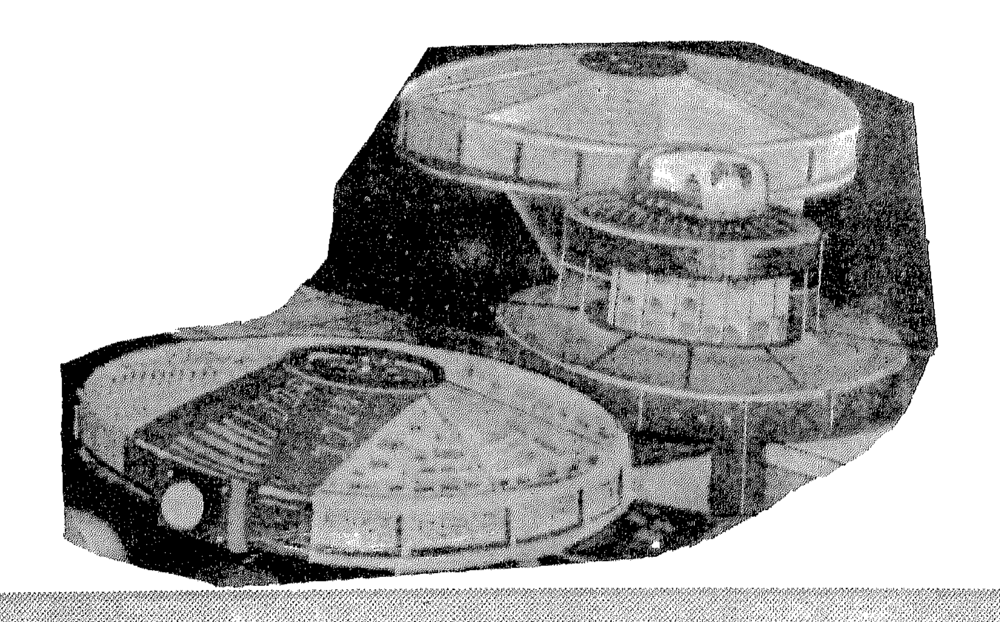
ولم يكن هذا كل قدر الياقوت ففى عام ١٩٦٠ كان له موعد مع العلم ليهدى البشرية كشفا جديدا على هيئة شعاع ضوئى مميز نفاذ عرف بإسم « الليزر » .

ففى شهر يوليه سنة ١٩٦٠ نجح العالم ثيودور هـ . ميمان Theodore H. Maiman فى توليد شعاع ضوئى قوى نفاذ من ياقوتة حمراء فى حجم الأصبع الصغير لسيدة رقيقة تغطى الفضة طرفى الياقوتة ، ويسقط عليها ضوء غامر من مصباح أنبوبى زجاجى يحيط بها . فعندما سقط ضوء المصباح على الياقوتة أهاج ذراتها فانبعث منها وميض انتشر إلى طرفيها ليصطدم بالفضة هناك فعكسته كالمرآة فتردد ذهابا وإيابا فزادت قوته وتركيزه وتغيرت صفاته حتى أنبعث من طرف الياقوت شعاعا جديدا فى العلم أسمه مشتق من جملة باللغة الإنجليزية معناها « تكبير الضوء عن طريق قذف منشط للإشعاع » .

Light Amplilication Stimulated Gy Emission of Radiation.

ويتميز الضوء الجديد بالخصائص التالية :

– توحد طول الموجة (شكل ١) خلافا للضوء العادى الذى يحتوى على



موجات متعددة (شكل ٢) .

– تحرك كل الموجات المنبعثة بطول ثابت فى إتجاه واحد فى وقت واحد بصورة متوافقة تزيد من طاقة الشعاع وتركيزه تماما كما تزيد كفاءة كتيبة من الجند تتحرك بإنتظام وإيقاع موحد على كفاءة مجموعة من الغوغاء تجرى فى كل إتجاه .

– بقاء الموجات المتحركة متوازية بإستمرار لا يبتعد بعضها عن بعض ولا تتفرق مهما طالت المسافة التى سارتها مما يزيد من قوتها وتركيزها .

وبالتالى يستطيع شعاع من الليزر أن يذيب أقسى المعادن بسهولة إنه الضوء القاهر الذى لا تصمد له صلابة الأشياء .

وبعد أن أستخدم الياقوت فى توليد الليزر بدأت محاولات أخرى من أجل الحصول على تلك الإشعاعات بنفس الأسلوب عن طريق تنشيط مواد أخرى صلبة وسائلة وغازية .

وبدأ عصر جديد فى العلم يمكن أن تسميه «عصر الليزر» الشعاع الضوئى القوى ذى الطاقة العالية الذى يستطيع أن ينفذ فى الفضاء من الأرض إلى القمر دون أن ينحرف عن مساره كثيرا وينعكس من على سطح القمر ليعود مرة أخرى إلى سطح الأرض . !

وأنطلق المارد من قمقمه ووقف بين يدى العلماء يقول لهم « لبيكم أنا طوع أيديكم ماذا تريدون » .

الليزر فى خدمة السلم

وبدأت الاستخدامات الواسعة لأشعة الليزر فى مجالات السلم والحرب ، وفى

ميادين الصناعة والطب .

وتساءل الأطباء بم يفيد هذا الشعاع بعد أن أستؤنس الوحش الكاسر فيه وأصبح قابلا للسيطرة والتحكم ؟ ولا غرو فهذا الشعاع منشاه تحول جزء من الطاقة الداخلية فى الذرات والجزيئات إلى موجات بالغة القصر عظيمة الخطر .

وبدأ استخدام أشعة الليزر فى مجال من أدق مجالات الطب والعلاج وهو جراحة العيون .

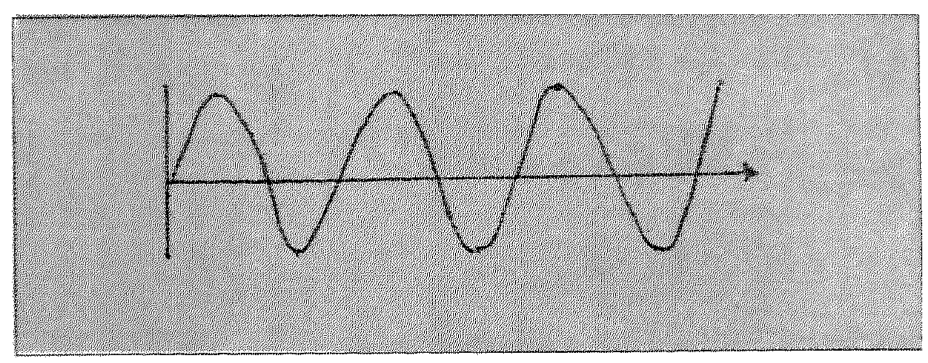
فمن المعروف أن مرض السكر يؤثر على شبكية العين وشعيراتها الدموية الدقيقة فتصبح الشبكية قابلة للنزف والانفصال عن مهدها فى قاع العين .

وكان العلاج من قبل صعبا بل يكاد يكون مستحيلا فى بعض الأحيان والعين مهددة بالعمى .

وجاء الشعاع الجديد ليستخدم بدقة وبجرعات محسوبة فى مناطق محددة من الشبكية ينطلق صوبها ويحدث بها نوعا من الكى Phatocagulation يوقف النزيف ويمنع تشعب الشعيرات الدقيقة غير المرغوب فيها . ويحدث قدرا من التليف المحدود يؤدى إلى تثبيت الشبكية فى مكانها فلا تنفصل عنه . وفى مجال علاج قصر النظر (حيث تتجمع الأشعة الضوئية الساقطة على العين فى بؤرة أمام الشبكية بعيدا عنها مما يؤدى إلى قلة وضوح الرؤية إلا مع استخدام عدسات خاصة تجمع الأشعة فى بؤرة على الشبكية) أمكن حديثا استخدام أشعة الليزر من أجل تقليل سمك قرنية العين الشفافة بواسطة إزالة بعض الأنسجة الزائدة من على سطحها فتقل قدرة العين على إحداث إنكسار فى الضوء وتتجمع الأشعة الضوئية على الشبكية دون الحاجة إلى استخدام نظارة .

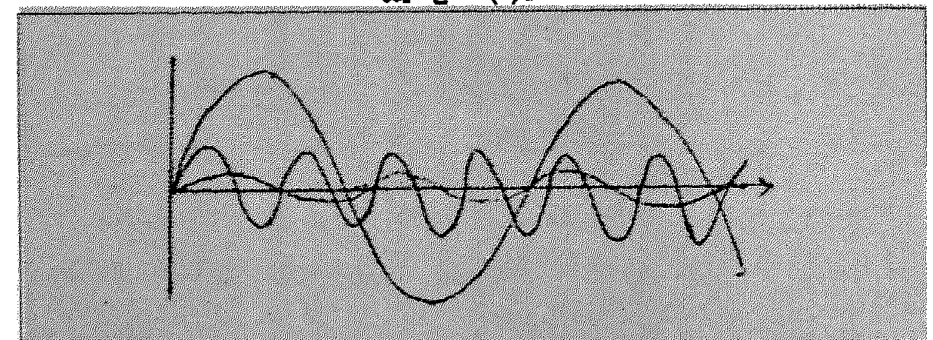
وفى ميدان الجراحة بصفة عامة تم إعداد شرط خاص من أشعة الليزر يتيح للجراح إحداث قطع فى الأنسجة دون نزيف دموى حيث تقوم تلك الأشعة بإحكام إغلاق الأوعية القابلة للنزف عن طريق الكى فى نفس الوقت الذى يتم فيه قطع الأنسجة أى من أجل إجراء جراحة دون فقد للدم Bloodless Surgovy .

وفى مجال علاج إنسداد الشرايين أصبح من الممكن إدخال قساطر (أنابيب) دقيقة من فتحة فى الجلد إلى داخل الأوردة والشرايين وبتلك القساطر الياف زجاجية تحمل الأشعة المكثفة إلى مناطق الإنسداد لإذابة الجلطات الدموية وتوسيع بعض





شكل(١) شعاع الليزر



شكل(٢) شعاع الشمس

الشرايين الضيقة المتصلبة من الداخل فيعود الدم للسريان فيها بصورة طبيعية وأصبحت أحلام مؤلفي قصص الخيال العلمي حقيقة . ولم يعد من الضروري كما ورد في بعض تلك الروايات إجراء تصغير متناه لغواصة تحمل فريقا من الأطباء كي تحقن في وريد أحد المرضى لتسرى مع الدم إلى شريان مسدود فتذيب جلطة فيه ، فهناك الآن من يقوم بذلك الدور دون هذا العناء المستحيل والخيال الجامح ، إنه المارد الجديد الذى انطلق في سماء العلم والطب ، الشعاع الجديد ، شعاع الليزر ! ..



قضايا القرن الحادى والعشرين

بقلم : د. محمد القصاص

يبدأ كل حديث عن القرن الحادى والعشرين بإبراز قضية السكان . ذلك لأن «الإنسان» هو محور التنمية وعاملها الأساسى والمستفيد الرئيسى منها ، فإذا تجاوزت معدلات الزيادة السكانية معدلات التنمية وزيادة الإنتاج تدهورت مستويات الدخول والمعيشة وذهبت جدوى التنمية . هذه القضية هى المشكلة الأولى فى دول العالم الثالث وشعوبه الفقيرة وإذا استمرت الزيادة السكانية على النحو الحالى فسيزداد سكان العالم ألف مليون فى كل عشر سنوات منهم ٨٥٠ مليونا فى العالم الثالث الفقير و١٥٠ مليونا فى العالم المتقدم الغنى ، بهذا يزداد الفقراء فقرا ويزداد الاغنياء غنى ، وتتعاظم الفجوة بين الأغنياء والفقراء مما يعرض المجموع البشرى والعالم جميعه للمخاطر السياسية والاجتماعية .

★ الف مليون يتزايدون كل عشر سنوات من بينهم ٨٥٠ مليوناً فى العالم الثالث الفقير !

★ زحف السكان إلى الحضر تضاعف ، مما أثقل الحمل على البنية الأساسية .

وعندما يستهدف المجموع البشرى مكافحة الفقر والحرمان فى العالم جميعه ، وهو هدف إنسانى نبيل ، فإن السبيل هى تحقيق التوازن بين السكان وتنمية الموارد . بدون هذا ستظل المجاعات التى هددت أفريقيا فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين تستشرى فى أفريقيا وغيرها من أقاليم الفقر ، وستظل جموع اللاجئين تزحف بحثاً عن الغوث . وقد بلغ عدد اللاجئين الذين هجروا أوطانهم إلى معسكرات الغوث فى إفريقيا ما يزيد على عشرة ملايين إنسان فى منتصف الثمانينات .

يتفرع عن مشكلة السكان واعدادهم المتزايدة ، عدة أمور :

الأول هو معدلات الاستهلاك خاصة فى مجتمعات الدول الغنية . فاستهلاك الطاقة والمواد فى تلك المجتمعات بلغ حد الاسراف الزائد ، وأصبح ترشيد الاستهلاك هدفا أقتصادياً واجتماعياً ، وهو كذلك من أهداف حماية البيئة . فالاستهلاك الزائد يعنى استنزاف موارد البيئة ، ويعنى كذلك زيادة فى المخلفات والنفايات وهى مصادر تلوث البيئة .

الأمر الثانى هو تعاظم الحضر وتضخم المدن وزيادة معدلات هجرة الناس من الريف إلى الحضر .

فى عام ١٩٥٠ كان ٢٩٪ من سكان العالم يسكنون الحضر ، والباقى يسكنون الريف . فى عام ١٩٩٠ كان ٤٥٪ يسكنون الحضر . فى عام ١٩٥٠ كان عدد سكان مدن العالم ٧٣٤ مليوناً وفى عام ١٩٩٠ أصبح ٢٣٩٠ مليوناً . ويتصل بهذا أن كان فى العالم عام ١٩٥٠ مدينتان (لندن ونيويورك) يزيد عدد سكان الواحدة منهما على

٨ ملايين ، وفى عام ١٩٩٠ أصبح عدد هذه المدن الكبيرة ٢٠ منها ١٤ مدينة فى دول العالم الثالث . هذا التحول الديمغرافى ذو الدوافع الاجتماعية والاقتصادية أدى إلى اكتظاظ المدن مما أثقل الحمل على بنيتها الاساسية (شبكات المواصلات والطاقة والمجارى والمياه والخدمات) ، وأدى إلى نشأة نطاقات السكن العشوائى حول المدن وهى نطاقات تتدنى فيها مستويات المعيشة وأحوال البيئة والظروف الاجتماعية . ولو استمرت معدلات التضخم الحضرى على هذا النحو لشهد العالم فى القرن الحادى والعشرين مشكلة عسيرة الحل .

لعلنا نذكر فى هذا المجال تضخم المدن المصرية وخاصة مدينة القاهرة ، وقد اقتضى علاج قصور البنية الاساسية أن انفقت مصر جزءا بالغا من اعتمادات خطط التنمية فى تطوير شبكات المواصلات والاتصالات والمجارى ومياه الشرب فى مدينة القاهرة وغيرها من العواصم . كذلك تغول العمران الحضرى والريفى على أجود الاراضى الزراعية بمعدلات كانت تبلغ ٣٠ - ٥٠ ألف فدان فى العام فى غضون السبعينات والثمانينات . وقد توجهت مصر إلى إقامة المدن الجديدة فى خارج الوادى، وهو توجه رشيد . والمأمول أن يستكمل هذا التوجه فى القرن الحادى والعشرين وتصبح هذه المدن مستقرات للسكان والمجتمعات الجديدة كما أصبحت مستقرات عظيمة للصناعات .

وتمثل مصر نموذجا كاملا لجملة قضايا السكان. تضاعف عدد السكان فى غضون المائه .. عام الماضية من حوالى ٩,٧ مليون عام ١٨٩٧ إلى حوالى ٥٥ مليوناً حاليا ، ولكنا نلاحظ كذلك تعاظم معدلات الزيادة ، فى الخمسين سنة الأولى (١٨٩٧ - ١٩٤٧) زاد عدد السكان من ٩,٧ مليون إلى ١٩ مليوناً أى بمعدل حوالى ٢٠٠ ألف نسمة كل عام . والآن تبلغ الزيادة السنوية حوالى ١,٢ مليون نسمة . ولو استمر الحال كما هو فإن معدلات الزيادة السكانية فى القرن القادم ستتجاوز حد الخطر البالغ .

كذلك نلاحظ فى مصر زيادة معدلات استهلاك الفرد من مياه الشرب ومواد الغذاء والادوات المنزلية والسيارات والطاقة . أى أن الناس يزدادون عددا وتتعاظم معدلات استهلاكهم، وهى أمور تمثل الضغط الزائد على موارد البيئة الطبيعية ، وتبهظ الاقتصاد القومى والقدرة الوطنية على التنمية الاقتصادية والاجتماعية . النتيجة التى لامفر منها تتمثل فى الازمات الاقتصادية ، وتراكم الديون الخارجية ، وتدهور مستوى الخدمات الاساسية فى مجالات التعليم والصحة . ولو استمر الحال على ما هو عليه فإن التوازن بين الانتاج والطلب الاستهلاكى سيواجه خللا خطيرا .

التنمية المتواصلة

يثنى كل حديث عن القرن الحادى والعشرين بإبراز قضايا التنمية المتواصلة ، أى التنمية التى تحقق التوازن بين النمو الاقتصادى والبيئة . والتعريف البسيط لمصطلح التنمية المتواصلة هو أنها التنمية التى تشبع الحاجات الاساسية للجيل الحالى دون أن تخل بقدرة الموارد على أن تهيىء الاشباع للحاجات الاساسية للاجيال القادمة . وبهذا المفهوم يصبح لمعايير التنمية بعد أخلاقى يتصل بمسئولية الجيل الحاضر تجاه الاجيال المقبلة ، ولا يكون الهدف هو تعظيم الانتاج إلى أقصى حد إنما يكون الهدف هو مراعاة المدى الزمنى الممتد لقدرة الموارد الطبيعية ، أى قدرة البيئة ، على العطاء .

البيئة هى خزان الموارد الطبيعية ، والتنمية هى حصيلة جهد الإنسان فى تحويل هذه العناصر البيئية إلى ثروة أى إلى سلع وخدمات تفى باحتياجاته . والموارد الطبيعية قسمان : الموارد المتجددة ، وهى نظم بيئية منتجة (مصايد الاسماك - الغابات - المراعى - حقول الزراعة) انتاجا يتجدد . الموارد غير المتجددة وهى مخزونات تجمعت فى عصور جيولوجية سابقة ويجعل منها الإنسان خامات يحولها بجهده إلى سلع تفى بالكثير من احتياجاته (خامات الفحم والبترول والمعادن والمياه الجوفية) .

التنمية المتواصلة للموارد المتجددة تستلزم المحافظة على سلامة العمليات الحيوية والبيئية التى تعتمد عليها البيئة المائية التى تنتج الاسماك والاسفنج والمحاريات ، والتى تهيىء للمراعى النمو النباتى الذى يعوض ما يأكله الحيوان ، والتى تحفظ على أرض المزرعة خصبها وصحتها . وتستلزم كذلك أن يكون الحصاد (ما يأخذه الإنسان من الحيز البيئى) متوافقا مع قدرة النظام البيئى على الحمل ، أى قدرته على العطاء دون أن يتدهور . صيد الاسماك فى حدود قدرة الكتلة المائية على الحمل أى قدرة المجموعة السمكية على التكاثر والنمو بما يعوض ما أخذه الصيد ، فإذا تجاوز الصيد هذا الحد أصبح صيدا جائرا تتدهور به مصايد السمك كما حدث فى مصايد الجمبرى فى مياه الخليج ، ومصايد بحيرة ناصر . مثل هذا يقال عن قدرة المرعى الطبيعى على الحمل أى عدد الحيوانات التى تحتملها وحدة المساحة من المرعى دون أن تتدهور الانتاجية ، ويقال عن قدرة الغابات والاحراش على تعويض ما يقطعه الإنسان من الخشب والحطب ، ويقال عن حقول الزراعة وقدرتها على العطاء المتواصل ، وصون هذه القدرة يستلزم أن يتوازن الرى مع الصرف ، وأن تمتد فترات البور لراحة الارض بما يمكنها من استعادة الخصوبة . ونضيف إلى ذلك حماية

النظام البيئى المنتج من التلوث الذى يضر العمليات الحيوية (البناء الضوئى فى النباتات الخضراء - التنفس فى الكائنات الحية - تدوير العناصر فى التربة - الخ) وهى أساس الانتاج .

تنمية الموارد غير المتجددة (الناضبة) تنمية غير موصولة بالطبع ، لان حقول البترول وطبقات الفحم ورواسب الفوسفات وتكوينات المعادن وحقول المياه الجوفية ، الحفرية مواد مختزنة فى باطن الارض ، ما يؤخذ منها لايتجدد . نذكر حقول البترول فى جمصة والغردقة فى مصر ، والتى كانت أول حقول تنتج البترول فى الشرق الادنى، وقد نضبت مواردها . وكذلك نذكر العديد من آبار المياه فى واحات الصحراء الغربية فى مصر وقد توقف تدفقها . التنمية الموصولة هنا تعنى استنباط الوسائل التكنولوجية التى تزيد من كفاءة استخدام المورد (ليس كذلك استخدام المياه الجوفية فى زراعة الارز فى الواحات) ، والتى تزيد من قدر مايستخلص من المورد (بعض حقول البترول التى توقف تدفقها يمكن أن تحقن ببخار الماء فتعطى من مخزونها قدرا إضافيا لم يتح بالتكنولوجيات المعتادة) . نرجو أن تتيح التكنولوجيات الحديثة إمكان أستخلاص الذهب من ركام المناجم القديمة كمناجم السكرى بالصحراء الشرقية المصرية . ويعمل التطور العلمى والتكنولوجى على أستكشاف مصادر جديدة للموارد غير المتجددة فى قيعان البحار والمحيطات وفى المناطق التى لم تستغل مواردها بعد ، وكذلك يتجه هذا التطور إلى استنباط بدائل صناعية تحل محل المعادن التى تدخل فى الصناعة (أنماط من اللدائن الصناعية تحل محل الحديد وغيره من أجزاء من السيارات وغيرها) . وهذه جميعا جهود تقصد إلى تطويل المدى الزمنى لاستغلال الموارد غير المتجددة .

موارد الطاقة

ولعلنا نشير هنا إلى قضية موارد الطاقة ، خاصة الموارد غير المتجددة وهى الفحم والبترول والغازات الطبيعية ، وهى جميعا من الموارد الناضبة على اختلاف بينها فى المدى الزمنى للكميات التى تم حصرها . موارد الفحم فى العالم قد تكفى عدة مئات من السنين ولكن موارد البترول المعروفة قد تكفى عدة عشرات من السنين . ولاستخدام هذه الموارد جميعا آثار بيئية متعددة ، بعضها موضعى يتصل بتلوث البيئة ، وبعضها عام يتصل بتغير مناخ الكرة الأرضية جميعا . لذلك تتجه الجهود العلمية والتكنولوجية إلى استنباط وسائل تكنولوجية لموارد بديلة للطاقة . من ذلك موارد الطاقة الشمسية والرياح ، وتتابعات المد والجزر فى النطاقات الساحلية ، وتدفق الأمواج فى البحار ، وغيرها من الموارد المتجددة . وكذلك يسعى التقدم

التكنولوجى إلى التوسع فى تنمية موارد الطاقة من جوف الأرض والتوصل إلى تكنولوجيات أمنة لموارد الطاقة النووية (طاقة الاندماج النووى) . وهذه جميعا ستكون من سمات التطور فى القرن الحادى والعشرين .

التنمية المتواصلة التى هى صيحة ختام القرن العشرين ، والتى انعقد لها أكبر تجمع لرؤساء الدول فى ريو دى جانيرو فى شهر يونيو ١٩٩٢ (مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية) ، ستكون من مشاعل الطريق فى غضون القرن الواحد والعشرين. وتقضى التنمية المتواصلة الأخذ بالوسائل التكنولوجية المتقدمة فى عمليات الإنتاج وترشيد الاستهلاك وتقليل الفقد وتدوير المخلفات ، إلى غير ذلك ، ولكنها تقتضى قبل هذا تحولات اجتماعية وثقافية . ولعل صعوبات التحولات الاجتماعية أعسر من التطبيقات التكنولوجية . من هذه التحولات :

١ - أن تتضمن سياسات التنمية توجهات تتصل بالسكان ومعدلات تزايدهم ونمط توزيعهم بين المدن والقرى . الزيادة البالغة فى عدد السكان وتعاظم معدلات استهلاك الأفراد تذهب بجدوى كل تنمية أقتصادية . وعلى مجتمعات العالم الثالث - على وجه الخصوص - أن تترسم سياسات سكانية واضحة المعالم وأن تضع برامج عمل ناجز لتوقى مخاطر الأنفجار السكانى . وهذه قضية تحتاج - إلى جانب الوسائل التكنولوجية لتنظيم الأسرة - الوسائل التشريعية والجهود الاجتماعية والسياسية والبرامج الثقافية والإعلامية ، إلى غير ذلك من أدوات التطوير الاجتماعى .

٢ - أن تترسم السياسات الوطنية وظائف التعليم والتأهيل والتدريب بأعتبارها أدوات لتنمية الموارد البشرية ، أى أن يكون هدف التعليم ووظيفته تحويل أفراد المجتمع إلى موارد لهذا المجتمع باعتبار أن الانسان هو عامل التنمية الرئيسى . والحاصل فى كثير من مجتمعات العالم الثالث هو أن التعليم يحول الأفراد إلى عبء اجتماعى . أنظر إلى قضية توظيف الخريجين فى مصر وكيف أصبحت احد الشواغل الرئيسية للدولة . وفى هذا الصدد تتكون المنظومة التعليمية من عناصر متعددة : المدارس والكليات والجامعات بعض هذه العناصر ، وسائر وسائل الإعلام والمؤسسات الجماهيرية والأحزاب السياسية والجمعيات الأهلية والنوادى الرياضية وغيرها عناصر هامة فى هذه المنظومة .

٣ - أن توضع خطط تنمية الموارد الطبيعية المتجددة وغير المتجددة فى إطار زمنى يحقق متطلبات الجيل الحاضر الأساسية ويأخذ فى الاعتبار متطلبات الأجيال القادمة . أى أن توضع برامج التنمية الخمسية فى إطار خطط طويلة المدى

وواضحة المعالم . إن سياسات تعظيم الإنتاج - وخاصة إنتاج الموارد غير المتجددة كالبترول والرواسب المعدنية - سياسات قصيرة النظر ، والتحول إلى سياسات أرشد تحتاج إلى تغير فى النظر السياسى والقبول الاجتماعى .

٤ - أن تترسم السياسات الوطنية حفز المشاركة الجماهيرية أى إسهام الرجال والنساء فى سائر الجهود التى تستهدف وضع سياسات التنمية، وخططها وبرامج تنفيذها ، وأن يكون للمؤسسات الجماهيرية دور فى النقاش والفكر ، ليكون القبول والإسهام الإيجابى فى الإنجاز . هذا هو جوهر الديمقراطية ومقصدها الإيجابى . إن نجاح التنمية المتواصلة وقبول تكاليفها الاجتماعية مرهون بالإسهام العام للناس جميعا . والقرن الحادى والعشرون هو قرن المشاركة العامة فى جهود التنمية وفى حصاد ثمارها .

التنمية المتواصلة تعتمد على التكامل بين الظروف البيئية الطبيعية ، والتكنولوجيا، والمجتمع . الظروف البيئية الطبيعية هى جزء من المحيط الحيوى الفطرى على نحو ما جعله خالقه وليس للإنسان عليه من سبيل إلا ترشيد الاستغلال ، والتكنولوجيا تتخذ سمتها القيمى بتوجيه المجتمع ، والعلاج هو التطوير الاجتماعى ، أى تطوير الأدوات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يدير بها المجتمع علاقاته الداخلية وعلاقاته مع الموارد الطبيعية .

التغير المناخى

المجتمع الدولى مشغول بمجموعة من القضايا المتصلة بالبيئة والمستقبل وخاصة فى القرن الحادى والعشرين . منها قضية التغير المناخى بتزايد الدفء ، إذ يتوقع الباحثون أن تزداد معدلات الحرارة فى النصف الثانى من القرن القادم (١.٥ - ٤ م) وهى زيادة بالغة سيكون لها آثار على عناصر المناخ الأخرى كالبخر والمطر والرياح ، وآثار على موارد المياه وعلى الزراعة ، وتمدد مياه البحار بما يرفع من مستواها ، إلى غير ذلك من التوابع البيئية. ومنها أثر بعض الملوثات من مركبات الكلور على طبقة من طبقات الجو العليا (الاستراتوسفير : ١٥ - ٥٠ كيلومتراً فوق سطح الأرض) وما تحويه من الأوزون . وهى طبقة تمنع نفاذ الأشعات فوق البنفسجية إلى محيط الأرض وما عليها من الحياة ، وتدهور طبقة الأوزون يعرض الإنسان والكائنات الأخرى لمخاطر بالغة . ومنها فقد الكثير من أنواع النبات والحيوان نتيجة تدهور الأحوال البيئية والاستغلال الباهظ للموارد الطبيعية ، وفقد هذه الأنواع يعنى فقد موارد وراثية وبيولوجية لها دورها فى التوازن البيئى ، وقد يكون لها نفع فى

المستقبل فى استنباط سلالات جديدة ، أو استخراج مواد للأدوية والصناعة تكشف عنها البحوث والدراسات العلمية . وفى هذا المجال يعنى المجتمع الدولى بمستقبل الغابات فى العالم ، لأن للغابات دوراً فى توازن الأحوال المناخية ، وفى توازن دورة الماء فى الكرة الأرضية ، وفى صيانة الأراضى المدارية من التدهور ، وهى كذلك من خزائن التنوع الوراثى والبيولوجى الثرية . هذه المسائل وغيرها تبينت معالمها فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين ، وستبقى بارزة فى ثبت اهتمام العالم فى القرن الواحد والعشرين .

ولكن القرن الواحد والعشرين سيطرح عددا من القضايا لم تحظ بالاهتمام الكافى فى القرن العشرين ، وهى قضايا تضاف إلى تلك الهموم التى برزت فى القرن العشرين وأشرنا إلى بعض منها . الموضوع الأول قضية الماء العذب . إذا نظرنا إلى كوكب الأرض نجد أن المياه تغطى أكثر من ثلثى (٧٠٪) من سطح الكرة الأرضية . ويقدر حجم الماء بحوالى ١٤٠٠ مليون كيلو متر مكعب ، معظمه (٩٦,٥٪) ماء ملح فى المحيطات والبحار . وتوزيع الجزء الباقى (المختزن خارج البحار) على النحو التالى :

مياه أرضية جوفية ٢٣٤٠٠ ألف كيلو متر مكعب .

(منها ١٠٥٣٠ ألف كيلو متراً مكعباً ماء عذباً) .

جليد وجمد ٢٤٠٦٠ ألف كيلو متراً مكعباً .

(منها ٢١٦٠٠ ألف كيلو متراً مكعباً فى القارة القطبية الجنوبية) .

مياه فى البحيرات ١٧٦ ألف كيلو متر مكعب .

(منها ٩١ ألف كيلو متر مكعب ماء عذب) .

مياه مختزنة فى الأنهار ٢,١ ألف كيلو متر مكعب .

مياه فى الهواء الجوى ٢١,٩ ألف كيلو متر مكعب .

(عن شيكلومانوف ، ١٩٩٠) .

خلاصة هذه الأرقام أن جملة الماء العذب فى محيط كوكب الأرض حوالى ٣٥ مليون كيلو متر مكعب ، أى ٢,٥٪ من مياه الكوكب ، وأن أغلب هذه المياه (٢٤ مليون كيلو متر مكعب) جمد وجليد فى المناطق القطبية ، وأن البحيرات العذبة والأنهار تحوى ٩٣٠٠٠ كيلو متر مكعب أى ما يعادل ٠,٢٧٪ من جملة المياه العذبة ، وهى كمية تعادل ٠,٠٠٧٢٪ من جملة مياه الكرة الأرضية .

ونضيف أن جملة ما يجرى من ماء عذب فى أنهار الكرة الأرضية جميعا حوالى ٤٧٠٠٠ كيلو متر مكعب . وتقدر جملة المياه التى يستخدمها الإنسان (عام ١٩٩٠) حوالى ٤١٣٠ كيلو متراً مكعباً .

منها ٢٦٨٠ كيلو متراً مكعباً فى الزراعة المروية .

و ٩٧٣ كيلو متراً مكعباً فى الصناعة .

و ٣٠٠ كيلو متر مكعب فى الاستهلاك المنزلى .

و ١٧٠ كيلو متراً مكعباً فى الخزانات .

أى أن ما يتاح للاستخدام البشرى من الماء العذب يمثل قطرة من المياه الغزيرة الموجودة على الكرة الأرضية .

نذكر فى مقابل هذا أن ٤٠٪ من سطح اليابسة أراضٍ جافة تتراوح بين الصحارى الشديدة الجفاف ، والأراضى شبه الجافة أو التى تصحرت بفعل الاستغلال الجائر ، وهى أراضٍ قليلة الانتاج . ونذكر نوبات الجفاف – أى شح المطر – فى نطاقات واسعة من القارة الإفريقية ، وما أحدثته من جدب وما خلفته من مجاعات شملت أكثر من عشرين دولة إفريقية فى ١٩٨٤ – ١٩٨٥ .

نذكر كذلك أن العالم فى سعيه لعلاج مشكلة التغير المناخى وزيادة الدفء ، يحتاج إلى استزراع مساحات واسعة من الأرض بالأشجار بقصد زيادة طاقة المحيط الأرضى على امتصاص غاز ثانى أكسيد الكربون وهو الغاز الرئيسى من مجموعة الغازات التى تسبب حبس الحرارة قرب الأرض ومن ثم زيادة الدفء. وليس بين يدى العالم من مساحات تتاح لبرامج التوسع فى زراعة الغابات إلا تلك الصحراوات الشاسعة فى القارات جميعا .

العامل المحدد والذى يعقد بالجنس البشرى عن أن ينهض بمشروعات مكافحة التصحر وإعمار المناطق الجافة وزراعة كساء أخضر يكفى لتوسيع طاقة المحيط الأرضى على امتصاص ملوثات الهواء التى قد تسبب تغير المناخ ، هو نقص الماء العذب .

أضف إلى ذلك أن نقص الماء العذب فى كثير من مناطق العالم أصبح من أسباب التوتر السياسى بين الدول المجاورة وخاصة الدول التى تشترك فى أحواض الأنهار الدولية ، أو التى تشترك فى أحواض المياه الجوفية . إن الخريطة السياسية لمنطقة الشرق الأوسط نموذج لهذه القضية . والدول التى تشارك فى الأنهار الكبرى كدجلة والفرات والنيل ، والأنهار الصغرى كالأردن ، والليطانى واليرموك ، يقع بينها التوتر

السياسي بسبب التنازع على موارد المياه . ومن أسف أن العالم لم يدرج بعد هذه القضية ضمن قائمة الاهتمام الذى توجه إليه البحوث والدراسات العلمية والتكنولوجية ، سعيا لزيادة حصة البشر من الماء العذب . أن الاعتمادات التى تخصص لهذا الجهد محدودة ، ولو قد زاد الاهتمام لاستطاع العلم أن يجد السبيل فى الاتجاهات التالية ، وفى غيرها .

١ - إيجاد تكنولوجيات اقتصادية لإعذاب الماء الملح ، على نحو يكون استخدام الماء فى الزراعة والتشجير اقتصاديا. توجد تكنولوجيات لإعذاب الماء الملح بقصد الاستخدام المنزلى والاستزراع المحدود على نحو ما نجده فى دول الخليج وحوض البحر الأحمر ، وهى تكنولوجيات عاون عليها وجود مصادر للوقود ميسرة ، ولعل المستقبل يتمخض عن تكنولوجيات للطاقة الشمسية أو الطاقة النووية أو غيرهما .

٢ - إيجاد تكنولوجيات اقتصادية لضخ المياه الجوفية لإمكان الإفادة من مواردها العظيمة . فى مصر مناطق شاسعة فى الصحراء الجنوبية الغربية (منطقة شرق العوينات وامتداداتها إلى تخوم منخفضات الواحات) بها إمكانات زراعية كبيرة اعتمادا على ضخ المياه الجوفية . وما تزال التكنولوجيات المتاحة - بما فيها المضخات الشمسية ومضخات الرياح - غالية التكاليف .

٣ - إيجاد تكنولوجيات الإفادة من كتل الثلج الموجودة فى تخوم القارة القطبية الجنوبية . جرت تجارب فرنسية سعودية لسحب كتل الثلج إلى شواطئ المملكة العربية السعودية . ولكن الدراسة ما تزال فى حاجة إلى المزيد من الجهد العلمى .

المأمول أن تكون القضايا المتصلة بموارد الماء العذب وزيادة حصة الإنسان من موارد مياه الأرض ، ضمن اهتمامات العلم والتكنولوجيا فى القرن الحادى والعشرين .

اغتيال الخضرة

سيطرح القرن الحادى والعشرون مجموعة من القضايا المتصلة بالحلل السكنية . أولى هذه القضايا يتصل بتضخم الحضر بزيادة السكان العامة والزيادة الناتجة عن الهجرة من الريف إلى الحضر. وتضخم المدن - وخاصة فى دول العالم الثالث - تصاحبه عدة مشاكل ، منها تعاظم نمو نطاقات السكن المتدهورة والعشوائية التى لا تتوافر فيها الخدمات الأساسية (الصرف الصحى - مياه الشرب - الكهرباء -



التخطيط السليم – الخدمات الصحية – خدمات التعليم ..إلخ) ، وتقدر الدراسات التى أعدتها المجالس القومية المختصصة (القاهرة) سكان الإسكان العشوائى بثلث جملة سكان مدينة القاهرة ، ومنها تدهور بنية الخدمات لزيادة الضغط السكانى الذى يتجاوز قدرتها على الحمل . ومنها التدهور الاجتماعى الذى تبدو مظاهره فى تفشى العنف والجريمة (الخطف – السرقات .. إلخ) ، ونلاحظ أن هذا التدهور الاجتماعى متفشٍ فى المدن الكبرى فى الدول المتقدمة والدول المتخلفة على تباين فى نوعية الجريمة خاصة جرائم الشارع . ذلك لان اتساع المدينة واكتظاظها بالسكان يجعل أجهزة الضبط غير قادرة على تحقيق الأمن للسكان .

ومن مشاكل المدن البالغة تناول المخلفات والنفايات الصلبة (القمامة) والسائلة (مياه الصرف الصحى) . وقصور أجهزة الجمع والمعالجة والتخلص تترك كميات من القمامة فى شوارع المدن – وخاصة مدن العالم الثالث – مما يمثل ظاهرة من ظواهر التدهور البيئى . وعجز شبكات الصرف الصحى ومحطات معالجة المخلفات ووسائل الإفادة من المياه المعالجة وما يتبع ذلك من طفح المجارى تمثل أيضا صورة من صور تدنى حالة البيئة (التلوث).

ثانية هذه القضايا المتصلة بالحلل السكنية تتصل بتوسع العمران وتغوله على المساحات الخضراء فى داخل المدن وعلى الأراضى الزراعية فى تخوم المدن والقرى. وتبرز هذه المسألة بوضوح فى الدول ذات الأراضى الزراعية المحدودة مثل مصر . وقد تغولت كل قرى مصر ومدنها على الأراضى الزراعية ، وتقدر جملة الأراضى الزراعية الخصبة التى تحولت إلى استخدامات غير زراعية (مبانٍ سكنية – مراكز صناعية – شبكات الطرق ..إلخ) فى خلال الخمسين سنة الماضية بأكثر من مليون فدان . وهذا خلل يتصل بمسألة السياسة الوطنية لاستخدامات الأرض وتحديد أولويات هذا الاستخدام . ومن حسن الطالع أن خطط التنمية فى مصر اتجهت فى السنوات الأخيرة إلى الخروج بالعمران إلى تخوم الدلتا والوادى ، ونشأت المدن الجديدة فى ربوع الصحارى (السادات – العاشر من رمضان – السادس من أكتوبر ...إلخ) .

زحفت العمارة على المساحات الخضراء (الحدائق والمتنزهات) فى المدن ، على نحو ما يشاهد فى مدينة القاهرة وغيرها من المدن الكبرى فى كثير من دول العالم الثالث ، يمثل تضييقا لقدرة المدينة كنظام بيئى على تنقية الهواء من الملوثات. المساحات الخضراء هى رئات المدينة ، وتحويلها إلى الاستخدامات الأخرى (المبانى – ساحات وقوف السيارات ..إلخ) يمثل وجها من أوجه التدهور البيئى .

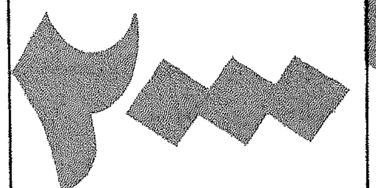
ثالثة القضايا تتصل بتخطيط الحلل السكنية فى القرى وفى المدن ، وتصميم وحدات البناء ، واختيار مواد البناء . فى كثير من مدن العالم الثالث ، خاصة فى المناطق المدارية والحارة ، لم تراع فى التخطيط والبناء أحوال البيئة السائدة وسادت فى تلك المدن أنماط العمارة المنقولة من عمارة المناطق المعتدلة والباردة . أنظر إلى عمارة المبانى فى مدن الاقليم الصحراوى الجاف الممتد من المحيط إلى الخليج العربى، تجد أنها فى الأغلب الأعم أشبه بعمارة المدن الأوربية . وانظر إلى اجتهادات المعماريين العرب والمسلمين القدامى فى اليمن والعراق ومصر وشمال إفريقيا ، تجد فيها توافقاً مع البيئة بما يحقق الراحة للساكن . ولقد سعى المغفور له المهندس حسن فتحى أن يبصر أهله بأهمية التوافق بين أحوال البيئة والمناخ وتصميم وحدة البناء .

رابعة القضايا تتصل بالآثار البيئية الإقليمية للمدن الضخمة التى زاد عددها فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين ، ويبدو أنها إلى زيادة وتعاظم . المدينة كتلة من عمارات السكن والورش والوحدات الصناعية ومحطات القوى ، تجرى فى شوارعها وسائل النقل المتعددة ، وهذه جميعا عناصر تستهلك الطاقة فى التدفئة والتبريد وطهو الطعام وتشغيل الآلات ، أى أنها وحدات تخرج عنها كميات من الطاقة ومن مخرجات الاحتراق . لذلك يمكن تصور المدن كأنها بؤر ساخنة (تتصاعد منها الملوثات الغازية والغبار) فى حيز المحيط الحيوى أو فى حيز المعمور من سطح الأرض .

تشير الدراسات عن المدن والبيئة ، إلى أن المدينة أشبه بالبركان (تسمى البركان البشرى) يتصاعد من وسطها عامود من المخرجات التى تجمع الغازات والدقائق الدخانية (الغبار) والحرارة . وأن بين المدينة ونطاق الريف المحيط بها تبادلات حرارية أشبه ما تكون بتبادلات نسيم البر والبحر فيما بين اليابسة والبحر . وزيادة عدد المدن الكبيرة قد تجعل منها أحد العوامل المؤثرة على المناخ الإقليمى أو العالمى .

لو اتصل تعاظم هذه القضايا في خلال القرن الحادى والعشرين لأصبحت المدن واحدة من المشاكل الكبرى التى تقلق البشر . ذلك لأن مجموعة القضايا التى أشرنا إلى أطراف منها ، قضايا معقدة ومتداخلة وذات تأثيرات مباشرة على صحة الإنسان (تلوث بيئة المدينة) أو تأثيرات اجتماعية تتصل بالتدهور الاجتماعى (الجريمة والعنف) ، أو تأثيرات اقتصادية واجتماعية تتصل بكفاءة استخدام الطاقة والراحة التى يهيؤها السكن ، أو تأثيرات بيئية مناخية عامة . والسبيل إلى توقى الكثير من هذه المتاعب العمل على تصويب التوجه .

القرن الحادى والعشرون



العلوم النفسية بين حاضر يمضى ومستقبل يقترب

بقلم : د. مصطفى سويف

دلالة العلوم النفسية بالنسبة للإنسان بالغة القيمة، فهى الطريق الى فهم الفعل البشرى ، وتفسيره ، بدءاً من الوحدة الأساسية فى حياتنا الانسانية ، ألا وهى الفرد ، وصعودا منها الى شبكة التعاملات والتفاعلات التى تصل بينه وبين سائر الوحدات فى محيطه المباشر حيث الأفراد الذين يؤثر فيهم ويتأثر بهم وجها لوجه ، وفى محيطه غير المباشر حيث الآخرون الذين يتعامل معهم ويحسب حسابهم رغم البُعد فى المكان وفى الزمان. وهى فى الوقت نفسه مصدر لتطبيقات لا حصر لها فى ميادين الحياة الاجتماعية المختلفة ، كالتربية ، والصناعة ، والإعلام ، والأمراض النفسية، والأمراض الجسمية ذات المكونات النفسية ، والجريمة .

● الاعتماد المنهجى على لغة التحليل الإحصائى سوف يزداد كثافة فى المستقبل .

● لدينا أساس لا بأس به للإسهام الإيجابى فى تحقيق الصورة المستقبلية للعلوم النفسية .

وما بين الجريمة والمرض ، كجناح الأحداث وإدمان المخدرات . ولما كان حفظ البقاء فى عالمنا الحديث (على مستوى الأفراد والأمم) يزداد مع الأيام اعتمادا على العلم ، مفاهيمه وأساليبه وتطبيقاته (سواء فى ذلك العلم الطبيعى والبيولوجى والاجتماعى) فقد أصبح لزاما علينا من حين لآخر أن نجدد العهد بيننا وبين هذا العلم ، فنعيد النظر فى تصوراتنا التى تنتمى الى فروعه المختلفة ، ونرصد موقعنا على خريطة تطبيقاته المتحققة والممكنة .وفى هذا المقال نقدم للقارىء صورة مجملة وموجزة للعلوم النفسية بين حاضر يمضى عنا ، ومستقبل يقترب منا .

نشوء العلوم النفسية وتطورها :

شهد القرن التاسع عشر مولد العلوم النفسية كمنظومة فكرية مستقلة عن الفلسفة، حوالى سنة ١٨٥٠ ، من خلال مجموعة من البحوث التجريبية كان يجريها عدد من العلماء الألمان ، على رأسهم فخنر وهلمهولتز ، حول عدد من العوامل الموضوعية التى تؤثر فى الإدراك . ثم شهدت بداية الربع الأخير من القرن نفسه تأسيس أول معمل لعلم النفس مستقل عن علم وظائف الأعضاء ، كان ذلك فى ليبزج بألمانيا سنة ١٨٧٩ . مع رحيل القرن التاسع عشر وقدوم القرن العشرين كانت البوادر الأولى لعدة أحداث كبرى فى نمو هذه العلوم تفصح عن نفسها ؛ فمن ناحية بدأت تتخلق فروع جديدة ، على رأسها ثلاثة هى : فرع علم نفس النمو والارتقاء، حيث محور الاهتمام هو الكشف عن قوانين نمو الوظائف النفسية المختلفة (كاللغة والتفكير) فى مراحل العمر المتوالية . وفرع علم النفس الاجتماعى ، حيث تتجه العناية الى دراسة عمليات التفاعل بين الشخص وبيئته الاجتماعية . وفرع قياس

الوظائف النفسية ، من قبيل قياس الذكاء ، وقدرات العقل العامة والخاصة ، وسمات الشخصية . وفى الوقت نفسه أخذ أساتذة علم النفس يتزايدون وينتشرون فى عدد من الدول بالاضافة الى ألمانيا ، وكان على رأس هذه الدول انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك بدأوا ينشئون أقساما ومعامل للعلوم النفسية فى جامعاتهم ، ويؤسسون الجمعيات الخاصة بهذا العلم الجديد لدعم وجوده الاجتماعى ، وينشرون المجلات المكرسة له لإذاعة بحوثه ومنجزاته بين الخاصة والعامة ، وفى الربع الثانى من هذا القرن بدأت تطبيقات هذا العلم بفروعه المختلفة تحتل مكانة متميزة ، خاصة فى ميدانى التربية والصناعة . جاء هذا نتيجة لمشاركة عدد من علماء النفس فى جهود الحرب العالمية الأولى ، فكانت مشاركتهم تلك فرصة لتنشيط البحوث التى أعطت ثمارها فيما شهدناه من تطبيقات فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، وعاد علماء النفس الى الاسهام فى انجاز متطلباتها ، وفى هذه المرة كان الإسهام أشد غزارة وتنوعا مما حدث فى الحرب الأولى ، فكانت النتيجة دفعة هائلة لأسرة العلوم النفسية فى جميع جبهاتها ؛ بمعنى أنه ما من فرع من فروع أسرة علم النفس الأساسية أو التطبيقية إلا أصابه قدر كبير من النمو كمًّا وكيفا ، فقد أخذت أعداد الباحثين النفسيين وأعداد البحوث المتنوعة المنشورة تنمو بمعدلات متزايدة على امتداد النصف الثانى من القرن ، كما أخذت مناهج البحث وأدواته المعملية والميدانية تتطور نحو مزيد من طلب الدقة فى الرصد والقياس، ومزيد من الإحكام فى خطوات التحليل والتطبيق .

ومن ثم فقد أصبح لزاما على من يتصدى لوصف تقدم علم النفس فى النصف الثانى من القرن العشرين أن يرصد هذا التقدم من زاويتين : زاوية المضمون الفكرى نفسه ، وزاوية الإطار المنهجى الذى يكشف عن مكونات هذا المضمون . صحيح أن رصد تقدم هذا العلم (متمثلا فى فروعه المختلفة) منذ نشأته يحتاج كذلك الى أن نضع الزاويتين فى اعتبارنا ، فهناك دائما المعلومات أو النتائج التى يخرج بها الباحث من بحثه لتضاف الى رصيد المعلومات المتراكمة فى خزانة المعرفة العلمية ، وهناك أيضا الأدوات وطرق التحليل التى استعان بها هذا الباحث أو ذاك للوصول الى هذه المعلومات ، غير أن الطرق والأدوات التى استعان بها الباحثون فى بداية نشأة العلم كانت ساذجة نسبيا اذا قورنت بالطرق والأدوات التى استُحدثت فى العقود والمراحل التاريخية التالية .

وتتمثل أهم أحداث التقدم الذى أحرزته العلوم النفسية فى النصف الثانى من هذا القرن فى أربعة أحداث كبرى ، هى بترتيب ظهورها التاريخى : ظهور فرع علم

النفس الإكلينيكي أو العيادى ، وهو يعنى باستخدام جميع مكتشفات العلوم النفسية وأساليبها لخدمة أغراض التشخيص الدقيق للحالات المرضية النفسية وتناولها بالعلاج والتوجيه . وقد حدث ذلك مع بداية خمسينات القرن . وظهور فرع علم النفس الفارماكولوجى ، وهو يهتم بما للمواد الكيميائية التى تدخل الجسم (كالكحوليات والمخدرات) من تأثير على السلوك ، وقد حدث ذلك فى أوائل الستينات . ثم تلا ذلك ظهور فرع علم النفس العصبى ، وهو يهتم بالكشف عن القوانين العلمية التى تحكم علاقة المخ بسلوكنا فى جميع جوانبه الحركية والفكرية والوجدانية . ثم ظهور تصميمات التجارب والتحليلات الاحصائية اللازمة لاجراء التجارب المنضبطة على الفرد الواحد واستخلاص قوانين السلوك البشرى من هذا التجريب على الفرد الواحد ، وقد وقع الحدثان الأخيران فى توقيتين متقاربين ، حوالى منتصف السبعينات .

هذا وصف موجز أشد الايجاز لمسار التقدم الذى انتهجه علم النفس بتفريعاته المختلفة خلال عمر ناهز قرنا ونصف قرن. فإذا أردنا أن نستخلص من وصفنا هذا مجموعة السمات الكبرى لتوجُّه هذا المسار فهى على النحو الآتى :

- مزيد من التفريع داخل أسرة العلم .
- ومع التفريع مزيد من التشابك مع علوم أخرى قائمة فعلا ؛ مثال ذلك : علم النفس الاجتماعى وهو يمثل تشابكاً بين علمى النفس والاجتماع . وعلم النفس الفارماكولوجى ويمثل تشابكا بين علم النفس والفارماكولوجيا . وعلم النفس العصبى ويمثل تشابكا بين علم النفس وعلم الأعصاب .
- مزيد من العناية بالأمور المنهجية ، ويتمثل ذلك بوجه خاص فى زيادة الاعتماد على علم الإحصاء ، مع عناية متميزة بالتحليلات الإحصائية المتقدمة ، وتصميمات التجارب .
- ثم مزيد من العناية بالمعمل والأدوات المعملية .

هذا هو ماضى علم النفس وقد وصل بتراكماته الى الشكل الحاضر ، قدمناه لأنه يدخل حتما فى حساباتنا حول المستقبل .

مصير العلوم النفسية فى المستقبل المنظور :

نعنى هنا بالمستقبل المنظور ذلك الجزء من المستقبل الذى يقع فى حدود الربع الأول من القرن الحادى والعشرين ، أو ما يزيد على ذلك قليلا . وسؤالنا الذى نجيب

عليه فى هذا الجزء من المقال هو : ماذا عن تطور العلوم النفسية فى المستقبل المنظور ؟

١ - يخيل الينا أن الاعتماد المنهجى على لغة التحليل الإحصائى وتصميمات التجارب سيزداد كثافة . ومعنى ذلك أن الحاسب الإليكترونى سيتعاظم دوره ، وهذا بالتالى سيجهل بإمكان الباحثين إجراء تحليلات على درجة عالية من التعقد أو التركيب مع الاعتماد على مخزون كبير من المعلومات بحيث تقرب صيغة العمل العلمى من حقيقة التشابك بين معطيات الحياة النفسية ، فنبتعد بشكل ملحوظ عن بعض صيغ التبسيط المصطنع التى لانزال نضطر اليها فى بحوثنا الراهنة . وفى الوقت نفسه سوف تزداد الروح التجريبية للعلم رسوخا ، وسيتجلى ذلك فى مزيد من نشاط البحوث الميدانية والمعملية على السواء . وتشير كثير من الدلائل الراهنة الى أن معامل علم النفس سوف تزداد تشابكا مع معامل علم وظائف الأعضاء وعلم الأعصاب والفارماكولوجيا دون أن يهدد ذلك حدود الهوية العلمية للعلوم الأربعة . لكن هذه الخطوة قد تستدعى إدخال تعديلات جذرية فيما يدرَّس لطلاب علم النفس داخل الجامعات ، وفى الآليات التربوية التى من خلالها هذا التدريس . وربما ارتبط بذلك ادخال تعديلات مقابلة فيما يدرَّس لبعض طلاب الطب والعلوم .

٢ - يخيل الينا كذلك أن الاهتمام سوف يزداد بصورة ملحوظة بالبناء النظرى للعلم ؛ فعلى طول امتداد تاريخ علم النفس تأرجحت عناية العلماء بين الاتجاه الى التنظير على حساب التجريب من ناحية ، الاتجاه الى التجريب على حساب التنظير من ناحية أخرى . وقد كانت فترة العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة فترة اهتمام زائد بالتجريب (المعملى والميدانى) بحيث يمكن القول بأنه آن الأوان لأن تتجه حركة البندول الى طرف التنظير . ومن أوضح العلامات على ذلك فيما نرى علامتان : الأولى هى بدء صدور مجلة سيكولوجية مخصصة للبحوث النظرية ، وهى بعنوان « النظرية وعلم النفس » . وقد صدر المجلد الأول منها فى العام الماضى ، عام ١٩٩١ . وجدير بالذكر أن المجلات العلمية المتخصصة لا تصدر إلا بناء على شعور متزايد بين أهل الاختصاص بالحاجة الى نوع معين من النشاط البحثى المكثف يسد ثغرة نشأت كنتيجة جانبية لتطورات علمية (فى التنظير أو فى التجريب) أخذت مجراها فى الماضى القريب . أما العلامة الثانية فهى ظهور أسلوب جديد للتحليل الاحصائى يعرف باسم « ما بعد التحليل » أو « تحليل التحليل » ، يمكن عن طريقه تجميع نتائج التجارب المتعددة التى أجريت حول موضوع بعينه سواء أكانت متعارضة فيما بينها أم متلاقية ، وإعادة تحليلها فى مجملها للكشف عن اتجاه عام

لهذه النتائج رغم ما بينها من تباينات أو تضاربات . ولا يخفى على القارىء أن خطوة التجميع هذه ضرورية لحسن التنظير ، لأن أبسط شرط لكفاءة النظرية فى العلم أن تكون قادرة على تفسير ما تجمَّع من حقائق حول الموضوع . وقد كان العلماء المنظرون يؤدون خطوة التجميع هذه فعلا ، ولكن دون ضبط أو إحكام ، بل على أساس أقرب ما يكون الى النظرة الانطباعية . أما الآن فأسلوب « تحليل التحليل » يمكنهم من إدخال درجة عالية من الدقة والضبط على مهمتهم . ومع ذلك فهذا الأسلوب كما نقول لا يوفر إلا أدنى شرط لكفاءة النظرية . أما الشرط الأهم من ذلك والذى له أكبر الوزن فى حساب كفاءة النظرية فهو التنبؤ ، وهذا يقتضى (بالاضافة الى اتقان تكنيكات البحث والتجميع) مستوى رفيعا من التفكير الابداعى عند العالم ، وهو أمر لن تغنى عنه جميع طرق التحليل ولا أدواته حتى ولو زادت على ما هى عليه الآن أضعافا مضاعفة .

٣ – ومع مزيد من التنظير يبدو أن الجيل التالى من علماء النفس سوف يشهد نهوضا للاهتمام « بفلسفة علم النفس » . ولا يجوز الخلط هنا بين هذا الكيان الجديد وبين التأملات ذات الطبيعة السيكولوجية التى كانت ترد ضمن كتابات الفلاسفة منذ أفلاطون وأرسطو حتى أوائل القرن التاسع عشر ، والتى لايزال بعضها يرد ضمن كتابات عدد من الفلاسفة المعاصرين . فهذه التأملات كانت ولاتزال تقوم خارج نطاق المنجزات الفعلية للعلوم النفسية الحديثة . أما « فلسفة علم النفس » فيقدمها عدد من علماء النفس الذين أمضوا الجزء الأكبر من أعمارهم فى تعامل بحثى فعلى مع مفاهيم علم النفس ومناهجه ونظرياته ، وهم الآن يتخذون من المواقع التى انتهوا اليها فى معاملهم نقاط انطلاق لرحلة فكرية جديدة ، قوامها تعميق المناقشة نحو مزيد من النقد ومزيد من التعميم . وجدير بالذكر أن خطوة التفلسف هذه تأتى كتتويج طبيعى لمستوى معين من التقدم أحرزه العلم . وقد حدثت فعلا ولاتزال تحدث فى مجال العلوم الطبيعية ، والبيولوجية ، والرياضيات .

وجدير بالذكر أيضا أن أكبر وأقوى جمعية لعلماء النفس فى العالم ، وهى الجمعية الأمريكية ، تضم بين أقسامها الآن قسما للمشتغلين بفلسفة علم النفس .

مرة أخرى ، هذه خلاصة شديدة الإيجاز والتكثيف لما نتصور أن العلوم النفسية ستتجه اليه فى المستقبل القريب . وقد فرض علينا هذا الايجاز أن نلتزم بالاشارة الى المعالم الكبرى لهذا المستقبل.

نحن فى مصر :

يبقى الآن السؤال الذى لابد من اثارته ، وهو : أين نحن ، فى مصر ، من هذه المسيرة ؟ والاجابة ، وهى أيضا شديدة الايجاز ، أننا بدأنا محاولاتنا بخطوات

متواضعة قبيل الحرب العالمية الثانية ، ولكن لم تقم لدينا أقسام جامعية مستقلة لعلم النفس إلا ابتداء من أواسط السبعينات . وتوجد الآن أعداد لا بأس بها فى هذه الأقسام من الطلاب وأعضاء هيئات التدريس . وتوجد لدينا كذلك جمعية مصرية للدراسات النفسية على قدر معقول من النشاط الذى يتجلى فى عقد الندوات والمؤتمرات العلمية وإصدار بعض المنشورات العلمية . كما أن هناك أكثر من مجلة مصرية متخصصة فى العلوم النفسية . ومعنى ذلك أن لدينا أساسا مجتمعياً لا بأس به لكى نعلق عليه الآمال فى حمل رسالة اللحاق بالركب العالمى والإسهام الايجابى فى تحقيق الصورة المستقبلية للعلوم النفسية .

إلا أن هذا الأساس فى واقع الأمر يعانى من كثير من نقاط الضعف الخطيرة ؛ فرغم وجود أفراد ذوى كفاءات علمية عالية المستوى ، ورغم أن لهؤلاء الأفراد انجازاتهم ذات القيمة العلمية الرفيعة فلاتزال جهود هؤلاء الأفراد محدودة بحدود كياناتهم الفردية ، وهى حدود شديدة الضيق اذا قورنت بما نرجوه ونتوقعه على أساس حسابات أخرى غير الكيانات الفردية ، وأعنى هنا على أساس حسابات الكيانات المؤسسية . هؤلاء الأفراد يعملون فى ظل مناخ مشحون بالعناصر المعاكسة، بدءاً من ظروف الأزمة الاقتصادية الطاحنة ، وامتداداً الى عناصر أخرى لا تقل عنها قدرة على شل الارادات والعزائم، نذكر من ذلك على سبيل المثال : ما يستشعره الباحث المجتهد فى معظم ما حوله ومن حوله من هوان شديد لقيمة البحث العلمى والمشتغلين به ، وما يلمسه بنفسه شاهداً على ذلك فى سياسة انفاق الدولة على البحث ، وما يصطدم به من سلطات بيروقراطية عاتية كل همها الاحتفاظ بمكانتها ضمن شبكة علاقات القوى .. الى آخر هذه العوامل التى نعرفها جميعا ، ونعيد اكتشافها جميعا ، كلٌ من زاوية نظره واهتمامه . ثم يضاف الى هذا كله نزيف العقول الى البلاد النفطية أساسا ، والى بلاد ومواقع أخرى فرعاً ، وهو النزيف الذى أوشك الآن أن يسلبنا كل غرس جديد بمجرد أن يشتد عوده .

هذه عينة من العناصر المعاكسة التى يزخر بها المناخ الاجتماعى الذى يعمل فى ظله قلة قليلة من الأفراد المجتهدين الذين أوتوا مناعة خاصة ضد تأثير هذا المناخ . فإذا استمر الحال هو الحال فلا يمكن التنبؤ بإسهامات مصرية لها وزن مؤسسى فى تحقيق العلوم النفسية فى المستقبل القريب . ولكن ، رغم كل ذلك يظل الباب مفتوحاً أمام إسهامات الأفراد المجتهدين ، فى حدود كياناتهم الفردية . ولا يعنى ذلك أننا نرسم صورة متشائمة لمستقبل دورنا فى تحقيق الصورة العالمية للعلم ، ولكن يعنى أننا نشهد شهادة صدق . فإن يكن الصدق مؤلما فإن شهادة الزور مدمرة . أما فيما يتعلق بالصدق فقد يؤذن الألم بصحوة تكون فيها العافية .

مع الاحتفال بالعيد المئوى
للهلال تصدر

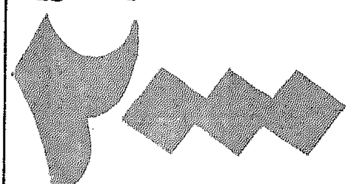
موسوعة عصر التنوير

١٠٠ كتاب
فى ١٠٠ عام



السنة الأولى من الهلال

القرن الحادى والعشرون



١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ -
١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ -
٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ -
٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ -
٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ -
٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ -
٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢
- ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ -
٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١
- ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩

الفكر الإقتصادى في القرن الحادى والعشرين

بقلم : د . جلال أمين

حينما طُلب إلىّ أن أكتب فى مستقبل الفكر الإقتصادى فى القرن القادم رأيت أن يكون مدخلى للتفكير فى الأمر تأمّل مسار الفكر الإقتصادى فى الماضى ، على أمل أن يكون ماحدث فى الماضى مرشدا لما يمكن أن يحدث فى المستقبل . وعندما استعرضت تطور الفكر الإقتصادى منذ نشأته وجدت أن نقطة التحول الحاسمة فى هذا التطور حدثت منذ نحو خمسمائة عام أى حوالى سنة ١٥٠٠ ، فقلت لنفسى أنه مع نهاية القرن العشرين ، قد نكون فى مطلع خمسمائة سنة أخرى لها سمات مختلفة تماما عن الفكر الإقتصادى خلال الخمسمائة سنة الماضية .

الذى أعنيه هو أن الفكر الإقتصادى قبيل سنة ١٥٠٠ ، أى قبل بداية عصر النهضة الأوربية ، كانت له سمات وملامح مختلفة تماما عن سماته خلال القرون الخمسة الماضية (أى منذ سنة ١٥٠٠) . كان الفكر الدينى قبل ١٥٠٠ خلال ماعرف بالعصور الوسطى يسيطر ، كما نعرف جميعا ، على كل نواحى الفكر والحياة ، ولم يكن

☆سمات الفكر الاقتصادى فى المستقبل شبيهة بالفكر الاقتصادى فى العصور الوسطى

☆ تضاعفت كميات وسائل الإنتاج وتطورت وزادت معها الوفرة والرخاء

☆علينا أن ننتقل من مناقشة مشكلة الندرة إلى مناقشة مشكلة الوفرة

« علم الإقتصاد » بالمعنى الذى نعرفه اليوم قد ولد بعد . ولكن هذا لم يمنع من وجود « فكر إقتصادى » ، أى بعض الأفكار المتعلقة بالمسائل الإقتصادية والتى لم تكن قد ارتقت بعد الى مستوى العلم . وكان لهذا الفكر الإقتصادى ثلاث سمات أساسية :

السمة الأولى : تتعلق بالندرة والوفرة . نحن نُعرّف علم الإقتصاد الآن بأنه علم الندرة . أى العلم الذى يبحث المشاكل الناجمة عن ندرة الموارد بالنسبة للحاجات الإنسانية ، ولكن من الشيق أن نلاحظ أن مشكلة الندرة لم تكن تشغل الناس قبل ١٥٠٠ ، كما تشغلهم الآن. لم يكن الشعور قويا بأن حاجات الناس كثيرة بالنسبة للموارد بل ربما كان العكس هو الصحيح ، أى الشعور بأن الموارد التى أعطاها الله للناس كثيرة بالنسبة للحاجات . وقد يبدو هذا غريبا فى مجتمع لم يكن يستطيع أن يلبى مانعتبره الآن أبسط الحاجات الإنسانية ، وكانت الموارد فيه محدودة للغاية والإمكانيات التكنولوجية بدائية إلى أبعد الحدود ، ومع هذا فلم يكن الإنسان يشعر بحدة مشكلة الندرة بالدرجة التى يشعر بها الآن . ربما كان السبب أن حاجات الإنسان كانت بدورها قليلة جدا ، وكان إنسان العصور الوسطى سهل الإرضاء شديد القناعة ومن ثم لم يبد له أن هناك مشكلة ملحة اسمها مشكلة الندرة . ليس غريبا إذ أن علم الإقتصاد لم ينشأ قبل سنة ١٥٠٠ .

تغير الأمر مع بزوغ عصر النهضة ، إذ بدأ التقدم التكنولوجى يسير بخطى متسارعة حتى بلغت السرعة أقصاها مع الثورة الصناعية وتضخمت الموارد المتاحة للإنسان ، وكلما تضخمت الموارد تضخمت الحاجات الإنسانية بسرعة أكبر ، فكلما حقق الإنسان رغبة استبدت به رغبتان أو ثلاث رغبات جديدة ، وإذا بالقناعة التقليدية تزول ، والرضا بالقليل يذهب الى غير رجعة ، وتحل محلهما رغبة عارمة فى المزيد .

ولعل هذا هو الذى خلق علم الإقتصاد الذى يقوم كما ذكرنا على فكرة ندرة الموارد بالنسبة للحاجات ومن ثم كان وجوده يحتاج الى شعور الإنسان الحادّ بالندرة . إن غياب فكرة الندرة (أو على الأقل غياب الشعور الحادّ بوجودها) قبل سنة ١٥٠٠ له علاقة وثيقة ببعض الأفكار الأساسية التى سادت الفكر الإقتصادى فى العصور الوسطى مثل تحريم الربا .

إذ كان حصول شخص على فائدة مقابل اقراضه لبعض المال لغيره أمرا مكروها ومرفوضا ، فكان يتخذ دليلا على الطمع والجشع اللذين لا يبدو لهما مبرر ، فلماذا الرغبة فى المزيد وحاجات الإنسان محدودة ومتناهية ؟ وقل مثل ذلك على النظرة السائدة وقتئذ الى الإدخار والإكتناز ، حيث كان الميل الى إكتناز المال مكروها لنفس السبب ، فلماذا الإدخار والإكتناز مادامت حاجاتك فى المستقبل وحاجات أولادك محدودة ومتناهية ؟

بينما كان السلوك الإقتصادى الحميد هو سلوك الرجل الذى يقرض المحتاج دون فوائد ، والرجل الذى ينفق ماعنده دون أن يدخر ويكتنز .

السمة الثانية : للفكر الإقتصادى قبل سنة ١٥٠٠ ، وهى وثيقة الصلة بالأولى ، هى عدم الفصل بين الإقتصاد والأخلاق . فقد كان الفكر الإقتصادى فى العصور الوسطى ، بعكس الحال فى القرون الخمسة التالية ، جزءا لا يتجزأ من الفكر الدينى والأخلاقى ، وكان أهم مفكر إقتصادى فى العصور الوسطى (فى أوربا) هو سانت توماس الأكوينى ، وكانت أفكاره الإقتصادية تدور حول مسائل من نوع : ماهو الثمن العادل وماهو الأجر العادل ؟ ولماذا كان الربا محرما ؟ وكلها مسائل تنتسب الى الأخلاق بقدر ماتنتسب الى الإقتصاد . كان كلاما فيما يصح ومالا يصح ، مايجوز أخلاقيا ومالايجوز ، وليس كلاما فيما هو قائم بالفعل . لم يكن حديثا فيما هو كائن بل فيما يجب أن يكون . تغيّر الأمر ببزوغ علم الإقتصاد إبتداء من القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث رأينا اشخاصا يكتبون كتبا ومقالات فى الإقتصاد دون أن تتعرض لأى موضوع آخر . كان الموضوع يسمى فى البداية الإقتصاد السياسى (Political Economy) حتى انتهى فى أواخر القرن التاسع عشر إلى اسم الإقتصاد (Economics) أو علم الإقتصاد البحت (Pure Economics) المنفصل تماما ليس فقط عن الأخلاق بل وعن السياسة أيضا . وتطور علم الإقتصاد مستقلا الى أبعد الحدود عما عداه من علوم إجتماعية .

السمة الثالثة : للفكر الإقتصادى قبل سنة ١٥٠٠ تتعلق بغياب « الإقتصاد القومى » . ذلك أن الدولة بالمعنى الحديث لم تكن قد نشأت بعد فكان

يسافر من روما إلى باريس إلى لندن فلا يشعر أنه انتقل من دولة الى دولة ، أو أنه يعبر إقليما اقتصاديا معينا الى إقليم إقتصادى آخر ، ومن ثم كان من يقوم بالتعبير عن أفكار اقتصادية يخاطب الإنسان بوصفه إنسانا وليس بوصفه إيطاليا أو فرنسيا أو إنجليزيا ، وكانت المصلحة المرجوّة هى مصلحة الإنسان كإنسان وليس مصلحة ماسمى فيما بعد بالإقتصاد القومى . تغيّر هذا أيضا ببزوغ عصر النهضة ، فعرفنا نشأة الدولة القومية .

وظهرت فرنسا كدولة موحدة وانجلترا ثم إيطاليا والمانيا ، كوحدات إقتصادية وسياسية وليس كمجموعة من المقاطعات التى تتمتع بدرجة عالية من الإستقلال أو الإكتفاء الذاتى . وأخذت كل دولة تقيم حواجز جمركية فى مواجهة الدول الأخرى ، بل وتدخل خمس حروب فى منافسة فيما بينها على المستعمرات .

المستقبل

لماذا أتكلم عن سمات الماضى ، والمطلوب هو الحديث عن المستقبل ؟ لقد تعمدت هذا لأنى سوف أزعم فى بقية هذا المقال أن هناك من الشواهد مايجعل من المحتمل جدا أن نكون مقبلين على عصر جديد من الفكر الإقتصادى له سمات أقرب إلى سمات الفكر الإقتصادى الذى ساد فى العصور الوسطى منه إلى سمات الفكر الذى ساد فى الخمسمائة سنة الماضية ، حيث يقل الكلام عن الندرة ومشاكلها ويحل محله الكلام عن الوفرة ومشاكلها ، وتقل بشدة حدة الفصل بين الإقتصاد والأخلاق أو بين الأخلاق والسياسة وغيرها من العلوم الإجتماعية ، ونعود إلى الجمع بينها ، وتضعف بشدة النزعة القومية فى الفكر الإقتصادى ، ويصبح علم الإقتصاد أكثر إنسانية وأكثر عالمية وأوسع أفقا من أفق الدولة القومية .

قد يبدو هذا غريبا وغير مقبول ، إذ كيف تكون سمات الفكر الإقتصادى فى المستقبل شبيهة بالفكر الإقتصادى فى العصور الوسطى مع كل ماحدث من تقدم فى التكنولوجيا والعلم ووسائل الإنتاج ؟ كيف يكون الفكر الإقتصادى فى عصر الكمبيوتر وغزو الفضاء وثورة المعلومات والإتصالات وعصر مابعد الصناعة ... الخ ، شبيها بالفكر الإقتصادى الذى ساد فى عصر لم يكن يعرف إلاّ الزراعة بأساليب بدائية صناعة محدودة جدا بأساليب بدائية أيضا ولا يكاد يستطيع أن ينتج أكثر من الحد الأدنى الضرورى للحياة ؟

قد يكون الرد على ذلك هو المعنى المقصود فى المثل الشعبى المشهور إذا الشىء عن حدة إنقلب الى ضده وقد يكون هذا بالفعل ماحدث . لقد تضاعفت

كميات وسائل الإنتاج وتطورت ، وزادت معها الوفرة والرخاء (أو على الأقل إمكانيات تحقيق الرخاء) إلى درجة جعلت فكرة " الندرة " مهددة بالإختفاء ، والى حد كاد يجعل الكلام عن الموارد المحدودة بالمقارنة بالحاجات غير المحدودة ، الذى دأب الإقتصاديون على ترديده ، سخيفا ، وغير مقبول . الندرة كما نعرف تتعلق بعلاقة الموارد بالحاجات ، وقد بدت فكرة الندرة فى العصور الوسطى سخيفة لأن حاجات الناس كانت محدودة ، والآن تكاد تصبح فكرة الندرة سخيفة مرة أخرى لأن الموارد زادت الى حد فاق كل التصورات . بعبارة أخرى ، كان الإنسان فى العصور الوسطى يقول ويعتقد فعلا أن الغنى هو " غنى النفس" ، وكانت هذه هى طريقته فى القول بأن الماديات لاتهم كثيرا ، وكان يقول ذلك لأن حاجاته كانت محدودة . والآن يمكن أن يشرع الإنسان فى أن يقول من جديد أن " الغنى هو غنى النفس " وأن الماديات لاتهم كثيرا ، لأنه زاد من إنتاجه وسلعه أضعافا مضاعفة واكتشف أنها لم تجلب له ماكان يحلم به من سعادة .



قد يؤيد هذا الذى أقوله ماذهب اليه الإقتصادى الشهير كينز منذ نحو ستين عاما ، ففى سنة ١٩٣٠ كتب كينز مقالا مشهورا اسمه " المستقبل الإقتصادى لأحفادنا " (Economic Possibilities For our Grandchildren) عبّر فيه عن فكرة شبيهة جدا بما أقوله الآن ، وهو أن الإنسان منذ وجد كان يعانى من مشكلة ندرة الموارد ، ولكنه الآن يتوقع أن أحفادنا (أو أحفاده) ستكون مشكلتهم الأساسية هى مشكلة الفراغ ، أى كيف يقضون أوقات الفراغ دون سأم فعندما لايحتاج المرء الى أن يعمل أكثر من ثلاث ساعات فى اليوم ، لن يجد أن من السهل عليه أن يقضى بقية اليوم دون عمل . ويقول كينز إن قليلا جدا من الناس من يستطيعون حل مشكلة الفراغ دون أن يصيبهم إنهيار عصبى . وأنا أعتقد أن كينز كان على حق تماما ، وأن جزءا كبيرا من شعوب العالم المتقدم (بل ونسبة لا يستهان بها من شعوبنا نحن) يعانى من أنه لم يستطع حل مشكلة الفراغ حلاً مرضيا . حاول عن طريق التليفزيون وعن طريق الرياضة فلم يفلح ، وحاول عن طريق شرب الخمر أو السياحة أو الإباحية الجنسية أو حتى الشذوذ الجنسى ولم يفلح ، ولم يحصل على السعادة بعد .

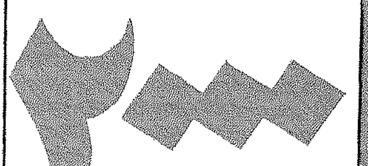
إذا كان هذا صحيحا فيجدر بنا ألا نتعجب من أن تعود السمة الثانية أيضا من سمات الفكر الإقتصادى للعصور الوسطى ، أى عودة الوحدة بين الإقتصاد والإخلاق . فمشكلة الندرة قد تؤدى بطبيعتها إلى إنفصال علم الإقتصاد البحت عن غيره ، فهى مشكلة مادية بحتة ، أما مشكلة الفراغ والوفرة والرخاء فلا بد أن تثير مشاكل أخلاقية وفلسفية بالدرجة الأولى ، ومن ثم لابد أن نعود إلى الجمع بين الإقتصاد والأخلاق أو بين الإقتصاد والفلسفة .

أما عن السمة الثالثة : وهى " العالمية والإنسانية "، فلا نكاد نحتاج الى تدليل على أنها ستعود أو لعلها بدأت تعود بالفعل . نحن نسمع أكثر فأكثر عن أن العالم أصبح قرية واحدة كبيرة ، وأن سكان الكرة الأرضية ليشبهون ركاب السفينة الواحدة ، وأن التلوث الذى ينشأ فى دولة يصيب دولا أخرى ، وأن كارثة تقع فى طرف من أطراف الأرض تؤثر فى أقصى الأطراف الأخرى . هنا أيضا نجد أن الشيء إذا زاد عن حده إنقلب الى ضده . كانت النزعة العالمية والإنسانية فى العصور الوسطى ترجع بدرجة أو بأخرى الى أن التكنولوجيا كانت بدائية أكثر من اللازم ، ومن ثم كانت العلاقات الإقتصادية محدودة بحدود القرية أو المقاطعة ، وكانت هذه العلاقات محلية جدا وإنسانية جدا فى نفس الوقت . ثم تقدمت التكنولوجيا وأزدهرت التجارة واتسعت حدود الإقتصاد حتى بلغت حدود الدولة القومية ، أو بالأحرى حتى خلقت حدود الدولة القومية خلقا . أما الآن فإن التقدم التكنولوجى وتقدم العلاقات التجارية قد تجاوزا الدولة القومية وانفتحت القوميات بعضها على بعض ، وإذا بالإقتصاد تصبح حدوده هى حدود العالم بأسره ، وإذا بالعلاقات تعود ، أو هى على وشك أن تعود فتصبح محلية جدا وإنسانية جدا فى نفس الوقت . إنى لهذا السبب لاأجد تناقضا بين نمو النزعة الإنسانية ونمو العصبيات المحلية فى نفس الوقت . الأمم تنفتح على بعضها البعض أكثر فأكثر ، ولكن تتمسك كل أمة وكل مجتمع صغير بثقافتهما وتراثهما أكثر فأكثر .

هذا هو مستقبل الفكر الإقتصادى كما أراه ، وأنا أجده داعيا للتفاؤل لا للتشاؤم . من المفيد أن ننتقل من مناقشة مشكلة الندرة الى مناقشة الوفرة ، ومن الجميل أن تعود الوحدة بين الإقتصاد والأخلاق ، ومن الجميل أيضا أن تحل النزعة الإنسانية محل النزعة القومية دون أن يقضى ذلك على التراث الخاص بكل أمة .

صحيح أن الإقتصاديين قد يشعرون بقلق حقيقى ، فقد يعنى هذا كله إختفاء علم الإقتصاد من الوجود ، ويحل محلهم بعض الفلاسفة وبعض علماء الإجتماع بالمعنى الواسع لعلم الإجتماع . ولكنى أنا شخصا لاأشعر بالقلق من هذا ، إذ أنّ هذا إن حدث فلن يحدث فى أثناء حياتى ، ولا أثناء حياة أولادى فيما أظن ، بل ربما حدث أثناء حياة أحفادى ، فهنيئا لهم .

القرن الحادى والعشرون



١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ -
١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ -
٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ -
٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ -
٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ -
٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ -
٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢
- ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ -
٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١
- ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩

تريـيف المـدن وبنـدرة القريـة

بقلم : د. ميلاد حنا

عندما تذهب لمدينة أو قرية فى أى جهة من العالم ، وتمر بين شوارعها مشيا بتؤده وتأمل أو جريا بسرعة داخل سيارة ، أنت لا تدخل البيوت ولا تتحدث مع أهلها ولا تدرس إقتصادياتها أو أحوالها السياسية ، ولكنك إن وجدت بيوتا نظيفة متراصة ، شكلها متقارب ثم لمحت لكل بيت حديقة صغيرة أو كبيرة ، لأدركت منطقيا أنك فى حى راق ، وإذا مررت بحى ثان وثالث ووجدتها تقارب وتناظر ما رأيت فى حى سابق ، أدركت أن الفروق الاقتصادية والحضارية بين أهلها ليست كبيرة ، وربما يمتد بك الخيال لتقول بأنه مجتمع ينعم بالديمقراطية وأن الصراع الطبقى ليس حادا.

ومن قراءاتى غير المتخصصة لتاريخ مصر ، أشعر بأن أحوالها المعيشية لم تختلف اختلافا جوهريا منذ عهد الفاطميين فى القرن العاشر إلى بداية القرن الثامن عشر عندما خرج الفرنسيون من مصر وبدأ حكم محمد على ، وكان تعداد مصر وقتها نحو ٥ مليون نسمة ، فحدثت تغيرات ملحوظة فى التقدم العمرانى ، إذ تم إنشاء القناطر الخ وشقت الترع والرياحات وأنشئت صناعات جديدة ، ومن ثم فلابد أن كان لذلك مردود على

● فى المستقبل يُنتظر أن تتحول القاهرة الكبرى إلى كتلة عمرانية رهيبة .

● مطلوب فورا بحث المشكلات السكانية وربط مشاكل الإنسان بالبيئة .

الإسكان فى مصر ، وكانت العلاقة التالية فى القرن التاسع عشر هى عهد إسماعيل فرغب فى أن تكون مصر «قطعة من أوربا» وفى منتصف هذا القرن دخلت السكك الحديدية ثم الكهرباء وأنشئت الكبارى على النيل وافتتحت دار الأوبرا حيث عرضت أوبرا عايدة والتى ألفها ولحنها فيردى خصيصا لهذه المناسبة ، ومن ثم فلابد أن كان هناك عمران واضح فى القاهرة وفى اثنائها أنشئت العديد من القصور للخديو وللأثرياء بطرز معمارية أوروبية إلى أن جاء القرن العشرون ، فكانت مصر وقتها تحت سيطرة الإستعمار البريطانى وهو الأمر الذى أدخل شركات تقوم بخدمات المياه للمنازل ثم الكهرباء والغاز وشركة للنقل بالترام وأدخلت خدمة الصرف الصحى قبل الحرب العالمية الأولى فى القاهرة ولأول مرة فى مصر ، وتم تخطيط مناطق سكنى الانجليز والأثرياء فى المعادى وجاردن سيتى ، والعديد من القصور فى حى الزمالك ومن ثم شاهد القرن العشرون حركة عمران هائلة فى المدن الكبرى وبالذات فى القاهرة والاسكندرية .

كان عدد سكان مصر فى بداية القرن نحو عشرة ملايين نسمة وكانت الغالبية العظمى تعيش فى الريف ، ولم تتغير أحوال الحياة والسكن فى الريف فى النصف الأول من القرن العشرين عما كان عليه الحال لقرون طويلة مضت ، البيوت كلها من الطمى ، والفلاح هو ذاته الذى «يضرب» الطوب طوب حريق واستخدم فى ذلك طمى النيل مع إضافة نسبة بسيطة مناسبة من التبن تكفى لعدم تشقق الطين عند جفافه فى الشمس ، واختار للطوبة مقاسا حسب حجم كفه ، لكى يتحكم فى وضعها فى مداميك فوق بعضها بعضا ، أما المونة فكانت من ذات الخامة أى من الطين أو الطمى مع التبن ، وقد تزيد نسبة التبن أو قد تقل حسب نوع

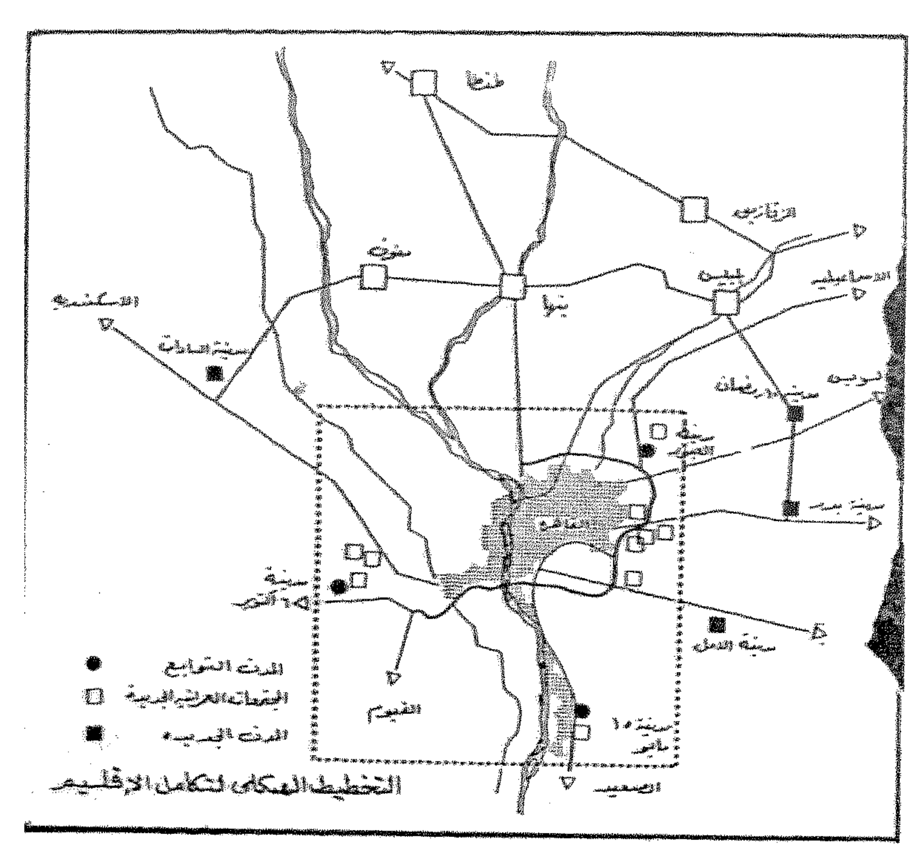


التربة التى تحت قدمه والمتوافرة لديه ثم يعود عند انتهاء المبنى ببياضه أو لياسته بذات اللون والمونة والتبن وبذلك كان الفلاح هو البناء وغالبا هو النجار الذى يصلح الساقية الخشبية عندما تعطب وهو الذى يشكل نوافذ وأبواب بيته البسيط ، كان الريف ينمو ويبنى دون تدخل لامن الدولة ولا من المهندسين ولا المخططين المعماريين ، كان اختيار الموقع أى المكان للقرية أو العزبة أو الكفر غالبا فوق ربوة عالية قليلاً أو كثيراً حسب الطبيعة ، إذا كان الموقع فى الوجه القبلى حيث الرى بطريقة الحياض ، فإن مجموع الفلاحين بقيادة العمدة أو كبار السن يدركون من خبرتهم أن يتم إختيار موقع القرية مرتفعا عن منسوب مياه الرى أثناء غمر الأحواض بمياه الفيضان ، وكانوا يعرفون من خبرتهم أن الأمر قد يتغير من سنة إلى أخرى وفق حالة الفيضان ، ولأن الثروة الرئيسية للفلاح هى الأرض الزراعية وهى مورد الرزق للكافة ، لذلك كان يحتجز لجملة الحيز المخصص لسكنى أهل القرية أقل قدر من الأرض ، ولذلك كانت مساكن الفلاحين فى وادى النيل قليلة المسطح جدا بخلاف بيوت الفلاحين فى الواحات حيث الأرض رملية ومتسعة بلا نفع.

وكذلك كانت طرق ومدقات الطرق فى القرية ضيقة وغالبا متعرجة حتى لايكون إختراقها سهلا أو ميسرا للإنسان الغريب ، سواء كان من قرية أخرى ، أو غازيا أجنبيا يأتى دون أن يصلهم الخبر ، وكانت مبانى القرية متلاصقة وحوائطها مشتركة حتى صارت كسكانها يتساندون على بعضهم البعض ، ولأن الكتف فى الكتف فى العمل بالحقل ومقاومة الفيضان كذلك فالجدار يسند الجدار ، ولذلك ماسمعنا فى العصور القديمة أو الحديثة عن حادث واحد لانهيار مبانٍ فى الريف فى مصر ، ولذا فهى ظاهرة غريبة عن تراث الريف المصرى وتزعج جميع المصريين ويشعرون أنها أمر مخجل فبناة الأهرامات تهدم بيوتهم فوق أهلها .

• نظر متشابه

هكذا كانت القرى المصرية ، كتلة متراصة من المبانى ذات اللون البنى أى لون الأرض والتربة ، ولايمكن أن تفرق مسكنا من آخر لأنها متلاصقة ومتشابهة ، ومن بعيد ترى القرية موازية لخط الأفق من دور واحد ، وفوق هذه الأسقف حطب القطن وعيدان الذرة المجففة لتستخدم فى طهو الطعام كوقود ، وبعض الصوامع الصغيرة من الطين حيث تخزن الغلال من ذرة أو قمح تكفى الأسرة طوال العام ، وعلى الأطراف الخارجية لمحيط البيت يكون سور وهى



سوف تمتد القاهرة لتلتحم مع المدن الجديدة لتصبح أكبر كتلة عمرانية في أفريقيا...
ترى هل يمكن التحكم فيها عندئذ

من أقراص الجلة (أى الأقراص التى تعمل من التبن مخلوطاً مع روث البهائم) وكان ذلك أفضل أنواع السماد لتقوية الأرض ، وكثيرون كانوا يفضلونه على السماد الكيماوى وأحيانا يستخدم كوقود ، ولكن مع ارتفاع سعر التبن كعلف للبهائم ، تغيرت اقتصاديات استخدامه والتى سادت لقرون .

وإذا نظرت أى قرية مصرية من بعيد تجدها خطاً أفقياً له هذا المنظر المتشابه ، ويكسر هذا الخط وجود مئذنة متعانقة مع منارة كنيسة إذا كان عدد الأقباط وأحوالهم الاقتصادية يسمح بذلك .

● مجتمع مسالم

إن هذه الصورة كانت موضع إلهام لكثير من الشعراء والأدباء والمبدعين من الفنانين التشكيليين ، بعضهم رآها صورة شاعرية لمجتمع وديع طيع مسالم ، وآخرون رأوها صورة لتخلف وقهر واستغلال للأثرياء بالعيش فى رفاهية على حساب الفقراء ، وربما كانت تلك الصورة المختلفة للريف المصرى ولحالة الفلاح الذى عانى من الفقر والمرض والجهل ، كانت أحد أسباب انفعال شباب الضباط الأحرار الذين قادوا انقلابا عسكريا فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تحول مع تأييد الفلاحين إلى ثورة ومما يؤكد ذلك أن قانون الإصلاح الزراعى صدر فى ٩ سبتمبر فى ذات العام مما يعنى أن آلام الفلاح وحالته كانت تلهب ضمائرهم بتغير هذا الوضع وقد تغير بالفعل كثيراً إبان فترة حكم عبد الناصر وهو الأمر الذى سنأتى إليه فيما بعد .

ومما هو جدير بالتسجيل هنا هو أن نمط حيازة السكن فى الريف كان إما ملكا ، أى أن الفلاح أو المزارع الصغير كان يمتلك بيته ويتوارثه أبا عن جد ، أو يكون منحة من مالك الأرض ، وهو الأمر الذى كان متبعا فى العزب والملكيات الكبيرة عندما كان مالك الأرض ملزما – ولأجل أن تتوفر له اليد العاملة وترتبط به بأن يوفر له المسكن – وكان فى الأغلب الأعم مجرد مأوى أكثر منه مسكناً مسكن وأصبح الفلاح الأجير مرتبطا بالأرض والمأوى وكلها ملك للإقطاعى صاحب الأرض .

● نمط قريب التشابه

أما المدن المصرية – وفيما عدا القاهرة والإسكندرية والعواصم للمديريات – هكذا كان اسمها «المديرية» قبل أن تتحول إلى مسمى «المحافظة» فكانت فى معظمها لاتختلف كثيراً عن نمط الريف فيما عدا أنها أكبر من ناحية المسطح وربما تتضمن أنشطة أوسع من التجارة المرتبطة بالزراعة وبعض الحرف التى تحتاج إلى إتقان وتلبى حاجات الفقراء ومتوسطى الحال .

وللإسكندرية والقاهرة وضع خاص متميز ، إذ اتسعت وتوسعت لتشمل أنشطة الدولة والتجارة والتعليم والمحاكم الكبرى وبعض أنواع الصناعة وكان بها دائما خدمات أكبر وأرقى تلبى احتياجات الاثرياء والحكام فضلاً عن الجاليات من الأجانب وبالذات الانجليز والفرنسيين،

أما الجاليات الأقل من الايطاليين واليونانيين فكانوا فى الأغلب الأعم متعايشين فى أحياء الطبقة المتوسطة واختلطوا مع المصريين واكتسبوا اللغة العربية نطقا ولكن بلكنة واضحة يمكن التعرف من نطقها على اللغة الأم . ولذلك دخلت هذه اللكنات فى بعض الكوميديات المسرحية التى تعبر عن العصر .

ورحل أثرياء الريف إلى المدن الكبرى أى العواصم الكبيرة للمديريات مثل طنطا والمنصورة ودمنهور وبنى سويف والمنيا وأسيوط وغيرها واستعان بعضهم ببعض المهندسين أو البنائين من الأجانب فبنى كل منهم لنفسه قصرا كبيرا أو صغيرا حسب الأحوال ، تعبيرا عن الثراء والجاه ، وهكذا أصبحت تلك القصور من معالم هذه المدن إلى يومنا هذا على الرغم من أن بعضها قد تحول فى مرحلة عبد الناصر إلى قصر الثقافة أو مقر للاتحاد الاشتراكى ثم الحزب الوطنى الديموقراطى بعد ذلك . وتدريجيا انتشرت مبانى العمارات المتوسطة الارتفاع والحجم فى المدن ، لتناسب سكنى الطبقة المتوسطة وبالذات فئة الموظفين والتجار فى تلك المدن ، وكان النمط الغالب هو عمارات على مسطح يتراوح بين ١٠٠ : ٢٥٠ متراً مربعاً وبارتفاع من ثلاثة إلى خمسة طوابق .

وهنا – ومن مطلع القرن – بدأ نظام الإيجار يعرف فى المدن حيث كان الاستثمار فى إنشاء عمارة سكنية أحد أوجه النشاط الاقتصادى المشروع فضلا عن أنه تعبير عن الثراء للطبقة الوسطى .....

وهكذا قسمت المدينة إلى أحياء سكنية محددة المعالم كل منها مخصص لسكنى فئة اجتماعية بذاتها وأصبح اسم الحى السكنى معبراً ضمنياً عن مستوى الدخل والثقافة ومازالت آثار تلك الحقبة واضحة على الطبيعة فى أغلب المدن فى الأحياء التى تكونت فى الحقبة من مطلع القرن حتى نحو الستينات وقد جمدت هذه الإيجارات القديمة حتى الآن ويمثل ذلك أحد أسباب تفاقم أزمة الإسكان وسببا فى غلق كثير من هذه الشقق وعدم تداول إيجارها . وفى عهد عبد الناصر ، رغب النظام فى أن يرفع من أحوال معيشة السكن للطبقة العاملة والموظفين ، فأنشأوا ماأصبح يعرف بمناطق «المساكن الشعبية» .

● طريقة الهيكل الإنشائى

وفى تلك المرحلة كان إنشاء المساكن – وبالذات بعد الحرب الثانية – والعمارات بطريقة الهيكل الانشائى من الخرسانة المسلحة ، قد صار من الأمور المعروفة والتى تم تنفيذها فى

يسر ، فهناك الأعمدة المسلحة مرتكزة على قواعد ترسو على الأرض ، أما السقف فبلاطه سمكه غالبا ١٠سم وترتكز على كمرات فى الجوانب الأربعة للبلاط تنقل أحمال الأسقف إلى الأعمدة ومنها إلى الأساسات والتربة ، وصار هذا الطراز معروفا ورخيصا ، فكانت تكلفة المتر المسطح من المساكن لهذا النوع الشعبى يتكلف نحو ٨ جنيهات عام ١٩٦٢ ، أصبح نحو ١٦٠ جنيها/م٢ عام ١٩٨٢ أى زاد نحو ٢٠ ضعفا فى بحر عشرين سنة وقد أدى ذلك إلى خلل اقتصاديات الإسكان ، فأكثر الملاك من القطاع الخاص إلى هجرة الإنشاء والاستثمار بهدف التأجير كما كان ذلك هو الوضع السائد فى المدن منذ مطلع القرن إلى نحو منتصف السبعينات ، وتحول الناس إلى نمط «التمليك» أى شراء وحدة سكنية فى عمارة .

★★★

هكذا تطور الإسكان فى المدن عبر القرن العشرين وهكذا تغيرت أحوال المبانى فى الريف ، ففى العديد من المدن المصرية ظهر ما أصبح يعرف «بالإسكان العشوائى» وهى أحياء بعيدة عن المناطق المركزية المخططة .

وفى الخفاء وبعيدا عن رقابة الدولة وبدون تخطيط هندسى يتم إنشاء مساكن على قطع أرض قليلة المسطح يتراوح بين ٧٠ ، ١٥٠ متراً مربعاً ويتم إنشاء المبنى على مراحل فى الغالب ، ونظرا لتعود العمال الانشاء بطريقة هياكل الخرسانة المسلحة كما سبق التوضيح ، فإن أغلب هذه العمارات تكون من شقق صغيرة وبها صالة وحجرة أو صالة وحجرتان وتكون التشطيبات متقشفة حتى تكون التكلفة أقل مايمكن ولذلك فإن هذه المبانى لا يتم بياضها أى كسوتها بطبقة مونة تسمى البياض من الخارج ، وتترك واجهاتها بذات ألوان الخرسانة الرمادية والطوب الأحمر ولذلك فهى قبيحة المنظر ولاتحمل أى قيم جمالية ، وقد اضطر الناس لإنشاء هذا النوع من الإسكان غير المرخص لإمكان توفير المساكن للطبقات محدودة الدخل وابتكروا أنظمة اقتصادية غير معروفة أو مسبوقة فى القانون المتبع فى المساكن المرخصة فى الأحياء التى تناسب الطبقات المتوسطة والثرية ، كأن يدفع المستأجر «مقدم إيجار» كبيراً يعتبر مساهمة منه فى رأس المال المطلوب لإنشاء الوحدة السكنية وحتى يكون عندئذ الإيجار الاقتصادى المتفق عليه مناسبا للدخل ، ولذلك يطلق عليه عادة «نصف تمليك» أو «ربع تمليك» حسب الأحوال ، ولولا هذا النوع من الإسكان لتوقفت الحياة ولما أمكن للفئات الشعبية أن تكون حياة أسرية ، ولذلك فلا عجب أن الدولة تغمض العين عن الإنشاء لهذه المساكن بدون تخطيط أو ترخيص ، لأنها غير قادرة من خلال طرقها الشرعية أن توفر المسكن بإيجار يتناسب مع الدخل لهذه الفئات المطحونة من صغار الموظفين أو العمال المهاجرين من الريف والذين يعملون فى وظائف هامشية يمكن توفيرها فى مجتمعات المدن الكبرى .

وكان طبيعيا فى هذه البيئة من الإسكان العشوائى أن تنمو الجريمة ويزداد العنف الاجتماعى ، وقد أكد كل المراقبين وجود صلة بين الإسكان العشوائى وإنتشار التطرف الدينى ، فقد أمكن للأصوليين أن يسيطروا على بعض هذه المناطق والتى يصعب على الشرطة الوصول اليها ، لأنها لم تخطط على هذا النحو ، ولعدم وجود الخدمات بها مثل : الشرطة – الاسعاف – المدرسة – النادى – المستوصف ... ولذلك تقوم الجماعات الأصولية بتقديم هذه الخدمات للأهالى بما فيها الفصل فى المنازعات بين الأسر .



وحدثت تغيرات اجتماعية هائلة مقابلة فى الريف المصرى ، فاختفى المنظر «الرومانسى» للقرية المصرية بالطريقة التى سبق أن قدمناها ، وحل محلها ذات النمط من الإسكان العشوائى والذى ساد فى الأحياء المتطرفة فى المدن وبذات طرق الإنشاء ، وتغيرت ملامح القرية المصرية ، فقد وجد بها نمط العمارات الصغيرة التى تتكون من عدة طوابق وبذلك تكون الفوارق الشديدة التى كانت سائدة بين الحضر والريف عبر القرون الطويلة قد قلت كثيراً، ومع إنتشار الإسكان العشوائى فى المدن والريف على حد سواء ، يمكن القول بأن المدن قد تريفت ، ويقابل ذلك أن الريف قد تبندر أى أصبح قريبا من الإسكان فى البندر أو المدينة .

★★★

وخلال القرن العشرين زاد سكان العالم زيادة ضخمة وسوف تستمر هذه الزيادة بشكل واضح فى دول العالم الثالث كما هو معلوم ومنشور فى دوريات الأمم المتحدة وكل تلك الأنفس الجديدة تصبح مطالبة بحقها فى السكن الصحى المعقول وبإيجار يتناسب مع الدخول المتواضعة التى لازالت سائدة فى تلك الدول وهى معضلة رهيبة ، فالأجور هزيلة إذا قورنت بالوظائف المماثلة فى الغرب ، ولكن الإيجارات تتقارب مع ماهو سائد فى الغرب .

وفى حالة مصر زاد عدد السكان من ١٠ ملايين نسمة فى بداية القرن كما سبق القول إلى ٢٠ مليون نسمة عام ١٩٥٠ أى تضاعف عدد السكان فى بحر نصف قرن ، ولكنه وصل إلى ٤٠ مليوناً عام ١٩٧٨ أى تضاعف مرة آخرى فى بحر ٢٨ سنة، ولكن الدولة – تساعدها معونات أجنبية – تعمل كل ماتستطيع لإيقاف هذا التفجر السكانى ، وتؤكد الدراسات المتوافرة حاليا من الجهات المسئولة أن سكان مصر سيظلون فى زيادة فى السنوات القادمة ولكنه سوف يستقر عند رقم يتراوح بين ٩٠ ، ٩٥ مليون نسمة عند نحو من عام ٢٠٢٥ إلى ٢٠٣٠ .

ومن هذا المنطلق فإن أمام أى حكومة فى مصر أن توفر من الآن وفى بحر الخمس وثلاثين سنة القادمة ، المساكن لنحو ٣٥ مليون نسمة على الأقل ، أى أن هناك «دولة» أو شعباً

جديداً يحتاج إلى كافة أنواع الخدمات بدءاً من المسكن وهو تحدٍ صارخ يحتاج لعقول جبارة وعزيمة حديدية وتعبئة شعبية حتى يمكن عبور هذا المأزق الضخم .

● المدن الجديدة

وقد بدأت الحكومة - ومن منتصف السبعينات - سياسة الخروج من الوادى الأخضر حول النيل والدلتا إلى الصحراء ، وكانت البداية فى إنشاء بعض المدن والمجتمعات الجديدة ، ورغم أن الوقت الذى مضى على إنشائها ليس كافيا لتقييم النجاح أو الفشل لهذه المشاريع المكلفة ، ولكن المشاهد هو أن التوجه السريع كان بإنشاء جمله مدن قريبة من القاهرة ، فى العاشر من رمضان على الطريق بين القاهرة والإسماعيلية ثم مدينة ١٥ مايو جنوبا وفى الصحراء قرب حلوان ثم مدينة ٦ أكتوبر فى الصحراء شرق أهرامات الجيزة ، فضلا عن مدن العبور وبدر وغيرها ، وتقوم الحكومة بإنشاء ١٠ تجمعات سكنية توابع للقاهرة حول الطريق الدائرى ، وهذه فى مجملها قريبة من أو فى إطار القاهرة بحيث ينتظر أن تتحول القاهرة الكبرى إلى كتلة عمرانية رهيبة عندما تلتحم هذه المدن مع جسم القاهرة ذاته والذى يمتد ويتسع بسرعة رهيبة .

وحول الإسكندرية يتم تكتل عمرانى آخر قد توقف شرقا عند أبى قير والمعمورة وإدكو ، ولكنه ينمو غربا وأصبحت العجمي وتوابعها حياً كاملاً ، ولسوف يستمر العمران إلى أبو تلات ثم جنوبا لتلتحم مع منطقة العامرية والنوبارية وسوف يستمر الامتداد جنوبا وغربا ، لتكون ايضا تجمعاً عمرانياً ضخماً لا يفوقه إلا تجمع القاهرة ، وأتصور أن هذه الكتل العمرانية فى القاهرة والإسكندرية ستكون أكبر تجمعات فى إفريقيا والشرق العربى ومن أكبرها فى العالم لأن الدول المتحضرة قد خططت لعدم تفجر عدد سكانها وخططت لعدم زيادة مسطح مدنها الكبيرة .

وأتوقع فى القرن القادم أن تتحول مصر إلى فريقين أو مجتمعين :

الأول : هو مواطنو الدرجة الأولى فى القاهرة والإسكندرية ثم مواطنو الدرجة الثانية والثالثة فى باقى أنحاء مصر ، وسيحدث ذلك تغيرات اجتماعية ليست بسيطة ، لها آثار سياسية ، والتى لايمكن رؤيتها من الآن .

★★★

من كل هذا نخلص إلى أن لمصر وضعاً خاصاً بالنسبة لتراكم التراث المعمارى والحضارى قد لايتكرر فى مدن أو عواصم أخرى ، فالقاهرة بها حى مصر القديمة يحمل رائحة الماضى من خلال حصن بابليون من بقايا العهد الرومانى ، وبه كنائس قديمة تعود إلى عصور ماقبل دخول العرب إلى مصر ، وبها مجموعة كنائس أثرية يندر أن يوجد لها مثيل فى

أوروبا ليس من ناحية العظمة المعمارية ، ولكنها انعكاس لاضطهاد ، فالكنائس فى حارات ضيقة ومعظم مبانيها تحت الأرض ولكنها تحتوى نمطا معماريا خاصا وتحفا فنية ذات قيمة تاريخية يعتز بها المصريون .

وهناك قاهرة الفاطميين وماتلاها من عصور ، الطولونية والأخشيدية ثم عصر المماليك ثم القاهرة العثمانية وهى رقعة متميزة يفوح منها كل التاريخ الإسلامى ، ويتربع فى وسطها الجامع الأزهر ممثلا قلعة فكرية بأروقته التى قدمت الفقه والاجتهادات للمدارس الفكرية المتعاقبة للأئمة والعلماء العظام ، وهناك القلعة تطل من جبل المقطم على القاهرة القديمة مؤكدة سيطرة الجالس على الحكم وعلوه على باقى سكان المدينة ، ثم حى الغورية بكل شوارعه وأزقته القديمة وجوامعه التى تحمل كل تراث الحقبة الإسلامية فى مصر ، وأتصور أن القرن القادم – بكل مايحمل من تغيرات عالمية – سيقرر المحافظة على إحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية والغورية والقلعة ، وسيخصص لها مبالغ هائلة للمحافظة على هذا التراث والذى يتحول إلى تاريخ مع تقدم الأيام .

وحتى فى مناطق وسط القاهرة وأحياء الزمالك وجاردن سيتى والمعادى تلمس وجود سرايات وعمارات تحمل طابع العمارة فى فرنسا أو إيطاليا فى عصور النهضة ، وهى قطع فنية لن تتكرر الآن وينبغى المحافظة عليها ، وينتابنى حزن شديد كلما مررت بهذه الأحياء الآن لأرى كيف يقتل بعض المستثمرين الجهلاء هذا التراث ويقومون بهدم هذه التحف الفنية فتنتهى قيمتها الفنية ، وتتحول زخارفها الى «أكوام من التراب» وقطع من الحجر أو الطوب تباع بأبخس الأسعار ، لكى يتم بناء عمارات «تمليك» مكانها تقدم الملايين للمستثمرين – وكان آخر تلك المآسى ماتم منذ سنوات عندما تقرر هدم قصر شريف باشا المطل على النيل فى جاردن سيتى وفي مواجهة فندق مريديان ،. وهاهى ذى مبانيه تتعثر بعد أن فقدنا هذه الجوهرة والتى كان يمكن أن تتحول إلى مكتبة عامة أو قاعة لمتاحف .



خلاصة القول ، هو أن القرن العشرين قد شهد تغيرات عمرانية هائلة فى كافة أنحاء مصر نتيجة زيادة السكان وتفجر تطلعات البشر مع الاستقلال والتغيرات الاجتماعية والسياسية ، وسيظل هذا التغيير مستمراً نتيجة استمرار زيادة السكان إلى نحو عام ٢٠٣٠ ، وما لم يتم ربط مشاكل الإسكان بالبيئة وطموحات البشر والتوسع فى الصحراء وحسن توزيع السكان على كل أنحاء التنمية على شواطىء البحر المتوسط والبحر والأحمر ، فإن مصر ستواجه مشاكل مختلفة حتى السياسية ولذلك وجب عرض هذه المسائل والتى تبدو فنية وهندسية على بساط البحث .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

الخـــيال وقراءة المستقبل

بقلم : محمود قاسم

هل يمكن قراءة القرن الواحد والعشرين من وقائع السنوات الأخيرة للقرن الحالى .. ؟ للرد على هذا السؤال ، يجب أن نعرف أن هناك فروقا حادة بين حدود الخيال التى يصل إليها أدباء الخيال العلمى ، وبين ما يمكن للمستقبل أن يأتى به فالتخيل دائما يقوم على قراءة المستقبل من خلال الخيوط المنسوجة من الواقع لدرجة أن البعض يرون أن كتابات الخيال العلمى ، ليست سوى روايات واقعية كتبها مؤلفوها قبل سنوات من حدوثها ..

وللإجابة على السؤال أيضاً ، يجب أن نعرف أن حدود التغير فى نهاية القرن العشرين سريعة للغاية وحادة بشكل لايمكن أن يتوقعه ، ليس فقط فى مجال دون آخر، بل فى أغلب مظاهر الحياة الاجتماعية والانسانية ، وقد تأتى هذه التغييرات السريعة بأحداث لم تكن متوقعة بالمرة ، مثل تفكك المعسكر الشرقى فى أقل حيز زمنى ممكن ، هذا التفكك الذى تخيله الأدباء دوما على أنه لن يحدث إلا من خلال حروب نووية سوف تأتى على الأخضر واليابس ، وتدمر كل المعسكرات والتيارات البشرية المتصارعة ، وأيضا مثل ظهور وتكتلات سياسية وعقائدية جديدة خرجت من وسط الركام ، ولم يكن



لأحد أن يتصور ظهورها أيضا بمثل هذه السرعة ..

وقراءة المستقبل تختلف تماماً عن صناعته . فالله عز وجل هو وحده الذى بيده ملكوت كل شىء وهو وحده صانع مستقبل البشرية . لكن البشر يسعون إلى قراءة هذا المستقبل من خلال خريطة الواقع من ناحية . وأيضا من خلال رغبة الانسان فى تغيير هذا الواقع . وتحسين صورته . وتفادى أخطاره المتعددة كالحروب والمجاعات وتكدس السكان ..

وقد سعت جهات عديدة إلى قراءة المستقبل ، منها مؤسسات البحوث ، والمجلات المتخصصة . بالاضافة إلى الأدباء ، والمفكرين . وقد تباينت خطوط صفحات المستقبل فى أعين الكثير من أفراد هذه المؤسسات ، كما تشابهت فى بعض النقاط .

ولايمكن أن نحصر هذه الرؤى . والقراءات فى مقال واحد . ولكننا أخترنا هنا محاولة جادة وهامة قامت بها مجلة فرنسية تسمى «حدث الخميس» ، حاولت التساؤل عما يمكن أن يأتى به الغد . وبالاخص فى القرن الواحد والعشرين ، للبشرية . ليس فقط على المستوى السياسى . بل أيضا على المستوى الانسانى فى أنشطة عديدة . وذلك تحت عنوان بارز هو «الغد ماذا ؟»

حشمة مادونا

أطرف مافى هذا التحقيق الضخم الذى قدمته المجلة فى أربعين صفحة من القطع الكبيرة هو قراءة المستقبل . ليس من وقائع الحاضر . ولكن من دلائ الماضى . فنحن لسنا أول البشر الذين اهتموا بصورة القرن الواحد والعشرين . بل



أثارت هذه الصورة الكثير من أبناء القرون الماضية ، خاصة القرن التاسع عشر . وترى المجلة أنه لو أن الاقدمين قرأوا ماضيهم لامكنهم معرفة أن عصر ازدهار العلم سوف يأتى بقوى دولية متعددة تحاول الاستفادة من منجزات هذا العلم من ناحية . ثم السيطرة على العالم وثرواته من خلال هذا العلم . وأن حروب البشرية سوف تكون متغيرة عن حروب ماقبل عصر العلم .

ورغم أن أغلب قراءات الماضى للمستقبل الذى نعيشه الآن كانت ساذجة قياسا إلى ماحققناه نحن أبناء العقد الأخير من القرن العشرين . فإن قراءات المستقبل بالنسبة لنا ستكون أكثر سذاجة لجيل العقد الاخير من القرن القادم . لأن الحياة تتحرك بسرعة أكبر ، وستكون التغييرات حادة للغاية فى فترات زمنية وقياسية . ولذا فمهما حاولنا استشراف هذا المستقبل بصورة موضوعية وعقلانية وعلمية . فإن أغلب المستقبل سيجيء مختلفاً عما تصورناه الآن .

وعلى سبيل المثال . فإن الفنان الذى تخيل صورة أزياء المرأة فى القرن الواحد والعشرين ، وهو ينتمي إلى عام ١٩٠٠ لم يكن يتصور أن المرأة يمكنها أن تخلع «المشد» الذى انتهى تماما فى العقد الثانى من القرن العشرين . ومع نهاية القرن وقفت مطربة مثل مادونا شبه عارية أمام ملايين المشاهدين تغنى لهم وهى ترقص . ولم يأبه الناس لجسدها . بل راحوا يتغنون بكلماتها .

أما جراهام بل الذى أجرى أول اتصال هاتفى على مسافة بعيدة فى عام ١٨٩٢ – عام صدور الهلال ، فلم يكن يتصور أنه بعد مائة عام سوف يتكلم الناس إلى بعضهم عبر مسافات أبعد من خلال أجهزة فيديوصوتية ، فيرى المرء من يحادثة على الطرف الآخر من خلال شاشة صغيرة ملحقة بهاتفه .

كوارث رفاهية البشر

ولو أخذنا هاتين النقطتين السابقتين فماذا يمكن أن نتصور أن يحدث فى مجال الأزياء والنساء خلال المائة عام القادمة . لايمكن أن نتوقع أن تعود النساء إلى عصر «المشد» . ولا أن تخلع ملابسها أكثر مما فعلت مادونا .. ومن المرجح أنها ستظل على نفس الدرجة من «الحشمة !! » مع تغيير فى التنويعات ، كما يصعب تخيل صورة هاتف المستقبل بعد الهاتف الفيديو صوتى . كل مايمكن تخيله أن مثل هذه الأجهزة ستتحول إلى أجهزة صغيرة للغاية يمكن للمرء أن يستعملها فى السيارة والشارع . والنزهات . بمعنى أن العلم سوف يزيد من احتمالات رفاهية البشر ، بعد أن وفر لهم الكثير من الضرورات . هذا بالطبع اذا افترضنا أن موارده ستظل كما هى . وأن عدد سكانه لن يزيدوا . أما إذا حدث هذا . وهو بالطبع سيحدث بشكل كوارثى مخيف ، فإن كل هذه الرفاهية ستختفى . وستستخدم هذه الأشياء من أجل

القضاء على البشرية ، وفى نوع جديد من الحروب ، هى حروب الثقافات . وسيطرة أصحاب المعلومات الأوفر على من لايملكون القدر الكافى من المعرفة . أو الذين يسيرون فى أماكنهم . أو يتطلعون كثيرا إلى الخلف دون الاستفادة منه للمساهمة فى بناء المستقبل .

عمر قصير . للنظام الجديد

الآن ، وفى نهاية القرن العشرين ، لدينا علم للمستقبل يسمى بنفس الاسم . ومادام أن كلمة علم قد ارتبطت بـ « مستقبل » Futrologie . فإن هناك حقائق بين يدى العلماء ، وحقائق يمشون عليها وهم يقرءون هذا المستقبل . ففى الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، يهتم علماء المستقبل بتصور ماذا يمكن أن يحدث لو خلا منصب الرئيس فجأة . قد يكون هذا أمراً صعباً لكن احتمال حدوثة واردة خاصة فى ظل المتغيرات . ولذا فإن من أهمية هذا العلم أنه لايترك شيئا فريسة للمصادفة . بل هو يضع إحتمالاتها حتى لايفاجىء بحدوثها مهما كانت حدتها .

وفى الولايات المتحدة مجموعة من معاهد البحوث معروفة تحت اسم Think TANKS يعمل فيها متخصصون فى كل المجالات الاقتصادية والتاريخية والعلمية والاكاديمية والسياسية ، والعسكرية . وفى واشنطن وحدها ، بؤرة السياسة العالمية الآن ، أكثر من عشرين فرعاً لهذه المعاهد .

وتتباين قراءات هذه المعاهد من المستقبل القريب إلى المستقبل البعيد . وفى النصف الثانى من الثمانينات كانت تلعب دوراً بارزاً فى متابعة واستشراف آفاق التغيير فى الاتحاد السوفييتى وهم يقرءون الآن نهوض قوميات أخرى فى المانيا واليابان . والتجمعات الجديدة فى أوربا والعالم الاسلامى . وهذه المعاهد لاتغلق أبداً ملفات الماضى . فلا يزال المعسكر الشرقى يحمل اخطاره بما هو موجود فيه من رءوس نووية . ويرون أن عمر النظام العالمي الجديد ، المعروف حاليا ، قصير للغاية ولعل هذا يرجع إلى أنواع المواجهة فى المستقبل .

حروب سوبر

ترى مجلة «حدث الخميس» فى عددها المنشور فى ٣ يناير ١٩٩١ أن حروب القرن الواحد العشرين ستكون تجارية فى المقام الأول فالاتحاد الأوربى الجديد يشكل خطراً على التجارة الامريكية . كما أن اليابان تتزعم هذه الحرب . وستدخلها الصين مع عام ١٩٩٧ عقب استعادتها لهونج كونج . وتقول قراءات المستقبل فى حرب الاقتصاد هناك بؤر تجارية صغيرة تظهر فى شرق آسيا . من المتوقع أن تشكل اتحاداً فيما بينها فى القرن الواحد والعشرين لمجابهة عمالقة الاقتصاد ، هذه البؤر موجودة الآن فى كوريا وتايوان وفيتنام ، ويمكن أن يحدث فى المستقبل مايسمى بالعملاق الاسيوى حين تنضم الصين واليابان إلى هذه البؤر أو بالعكس .

ولاشك أن ظهور العملاق الاسيوى ، فى شرق القارة ، سيهدد العملاق الاقتصادي في الولايات المتحدة وأوربا . وسيكون هذا العملاق هو الأقوى . ليس فقط لأنه يملك المال . بل أيضا التقنيات والغلبة العددية . ولاشك أن مثل هذه الحرب ستكون بين العملات . وسترتفع العملة . كلما انتصر فريق الحرب الاقتصادية التي سترتبط بلاشك بتفوق فى المعلومات والتقنيات وأيضا فى الأسلحة .

والطريف أن الحروب الاقتصادية سوف تفتح الآفاق والحدود ، وذلك على عكس الحروب العسكرية التى تقطع العلاقات وتغلق الحدود . فأصحاب التكتلات الاقتصادية سيعملون على تحسين علاقاتهم مع الدول المستهلكة لبضائعهم وتقديم تسهيلات كثيرة . والعمل أيضا على كسب المزيد من المستهلكين مهما كانت الأفكار والأيدولوجيات الجديدة مختلفة . إنها حرب مصالح فى المقام الأول . ليست من أجل الارض ولكن أيضا من أجل المزيد من العملات الأقوى .

صدمة المستقبل .. للعرب

ووسط تشاؤم شديد بأن البطالة ستزيد مع القرن الواحد والعشرين أو عصر العلم السوبر فإن الحروب الاقتصادية قد تقضى على الكثير من معالم هذه البطالة .. ولعلها قد تزيد من نسبتها . ويرجع ذلك إلى الموارد الاقتصادية التقليدية والجديدة من ناحية . وأيضا إلى أساليب تفكير أبناء القرن ٢١ فى كل ما يتعلق بأمور الحياة .

وفى قراءتها للمستقبل رأت مجلة «حدث الخميس» أن الحروب الأهلية سوف تسود فى الاتحاد السوفيتى . وذلك قبل انحلاله بعشرة أشهر لا غير . ولكن كانت التغييرات السريعة جدا فى هذه المنطقة الهامة من العالم أكثر حدة من تخيلات علماء المستقبل وتقاريرهم المبنية على الوقائع والحقائق . ولذا فإن الكثير من هؤلاء العلماء يتوقعون الآن عودة الشيوعية فى صورة مختلفة بعد أن فشلت تجربة الانفتاح فى الاتحاد السوفييتى . ولكن أحداً من هؤلاء العلماء لم يتوقع أن تكون روسيا من دول العالم العظمى فى القرن الواحد والعشرين . والسبب كما أشرنا واضح للغاية . وهو أن روسيا قد فقدت ولسنوات عديدة مقبلة قوتها الاقتصادية . وفى وقت تزداد فيه ثروات التكتلات الجديدة بشكل يدعو للنظر ..

ولعل هذا يدعو علماء المستقبل فى العالم العربى إلى محاولة قراءة دور العرب فى هذه الحروب الاقتصادية . فلاشك أن البترول ، وثروات عربية عديدة . سوف تتقلص فى القرن القادم . وسيكون على العرب أن يصنعوا تكتلا اقتصادية خاصاً بهم . ولعل هذا التكتل يكون كفيلا بتجميع كلماتهم التى لم تتم بشكل حقيقى فى صراعات القرن العشرين . وعلى كل ، فنحن نرى أن العرب سوف تحدث لهم صدمة مؤثرة فى مواجهة هذه التغييرات وعند الخروج منها ستكون العقلية العربية قد تغيرت تماماً فى مواجهة مؤثرات الواقع الراهن للقرن القادم .

زمن القرى العملاقة

إذا كنا قد تحدثنا عن صور السياسة والاقتصاد ، فإن أخطر ما سيحدث فى نهاية القرن الواحد والعشرين هو تحويل القرية إلى مدينة عملاقة . أى أن المدينة بعمارتها وتقاليدها سوف تزحف إلى القرى المعروفة حاليا . وستكون البنايات البرجية سمة لهذه القرى . وسيختفى الافق تماما في المجتمعات السكنية ، ومع ارتفاع معدل السكان في القرن القادم ، سيكون التوسع رأسياً فى كل شىء . ليس فقط فى الابنية التى يسكنها البشر . بل أيضا فى إنتاج هؤلاء البشر من محاصيل وأطعمة . فمن أجل مواجهة هذه الزيادة يجب على البشر أن ينتجوا المحاصيل العملاقة فوق نفس قطـع الأرض أو فوق قطع أقل مساحة ، بعد أن تم اقتطاع الكثير منها للمدن العملاقة .

وترى مجلة «حدث الخميس» على طريقة مالتوس أنه رغم تقدم الطب . فإن الكوارث المرضية سوف تحصد البشر فى القرن الحادى والعشرين بشكل وبائى ، وجماعى . فليس ظهور مرض عدم المناعة إلا مفرخة لظهور أمراض أخرى أكثر شراسة وغموضا . وفيروسات ، أو أسباب هذه الأمراض ستروح تغير من طبيعتها كلما حاول البشر ايجاد أساليب لمعالجتها كى تصبح أكثر شراسة .

وقد توقع البشر أن تكون أمراض إنسان القرن الواحد والعشرين نفسية فى المقام الأول . ولكن من الواضح أن الامراض العضلية ستعمل على اندثار امراض النفس التى سميت بالامراض الحضارية .

القراءة .. بالاشتراك

لاشك أنه فى وسط عالم مزدحم . وملىء بالصراعات التى لاضمير لها ولاعقـل ، فإن الفنون والآداب سوف تأخذ أشكالا مختلفة فى القرن الواحد والعشرين . وليس من المتوقع أن يضمحل أثر الكلمة المكتوبة فى بداية القرن القادم . لكن أساليب البرمجة المتطورة ستجعل كافة الكلمات المكتوبة مطبوعة على شاشات باحجام وأنماط مختلفة . فيمكنك قراءة أى صحيفة فى العالم عن طريق .. «كابل» مثلما يحدث الآن فى قنوات التلفاز العالمية . وذلك بالاشتراك السنوى فيها . وسوف ينعكس هذا أيضا من خلال الكتب . حيث من المتوقع ، وليس هذا من قبيل الخيال المحض ، أن يكون ناشر الغد هو الشخص الذى يجعلك تقرأ كتبه من خلال أيضا «كابل» خاص . فللمرء أن يقرأ الصفحات وهو فى الحالة النفسية التى يريدها استرخاء مثلا ، وعن طريق الكابل هذا يمكن للمرء القراءة .. لن تنتهى القراءة فى حياة البشر إبان القرن الواحد والعشرين . ولكنها ستأخذ شكلا مغايراً لما اعتدناه .. ليس إلا لأن القراءة من غرائز البشر التى يجب اشباعها دائما .



مستقبل اللغة العربية

الهلال وارتقاء الأسلوب الأدبى

بقلم د. محمد رجب البيومى

لابد لمؤرخ النثر العربى فى هذا القرن أن يرجع إلى مجلدات مجلة الهلال فى تعاقبها المتصل ، ليرى كيف تدرج الأسلوب فى سلم الارتقاء الأدبى تدرجا محمودا على صفحات هذه المجلة الممتازة ، لأن منشئها قد جعل من همه الأول أن يرتقى بأسلوب الكتابة المعاصرة جهد المستطاع ، إذ كانت الحقبة التى ابتدأ فيها الهلال بالظهور مجال تردد متذبذب بين أنصار الصناعة اللفظية ، ودعاة التحرر الأدبى من قيود المحسنات ، حتى تمت الغلبة للأسلوب المسترسل ، وأخذ هذا النمط الجيد من أنماط البيان يستقل بنفوذه الكاسح شيئا فشيئا ، حتى استقام على منهجه الأصيل .

ولا أنكر أن الهلال لم يكن وحده ذا انفراد فى المحيط الأدبى ، فقد كانت هناك الجرائد اليومية مثل المؤيد واللواء والأهرام والمقطم والجريدة ، وكانت هناك المجلات الأسبوعية مثل مصباح الشرق والإصلاح والطائف والنيل ، والشهرية مثل المقتطف ومجلة المجلات والمنار والآداب ولكن مجلة الهلال هى التى استمرت فى كفاحها المتصل حتى اليوم ، وهى فى كل عام تزداد تألقا وازدهارا ، وكان كتابها من صفوة أعلام البيان فى الشرق العربى كافة ، بل إن الظهور البراق لم يكن ليتاح لأكثر هؤلاء لولا سطوع أسمائهم على صفحات الهلال ، وقد كنا فى كل وطن عربى نترقب

★ حرصت الهلال على أن يكون كتاب الفكرة من دعائم بنائها

★ مجلدات الهلال على مدى قرن كامل تعد مرجعا دقيقا للحياة السياسية والعلمية .

ظهور الهلال فى شوق ، كما يترقبه أبناء العروبة فى المهاجر النائية والأصقاع المترامية ، وبهذه السيرورة المنتشرة أدت المجلة رسالتها فى شتى الميادين الفكرية ومن أهمها ميدان الأسلوب الأدبى الذى أصبح مضرب المثل فى القوة والازدهار .

وإذا كانت المجلة ذات أبواب متعددة ، فإن أهم ما احتفلت به فى هذا العمر المديد هو الدعوة إلى ارتقاء الأسلوب ، حيث تناوب كبار الكتاب على معالجة هذا المنحى ، فأخذ كل مفكر يعرض ما يراه مؤديا إلى ازدهار الفصاحة البيانية ، بعيداً عن الزخرف اللفظى والتكلف البديعى ، ولا أستطيع فى هذا المجال المحدود أن ألم بما دبجه هؤلاء الأفذاذ ، ولكنى أكتفى بالإشارة إلى مقالات كانت ذات تأثير نافذ فى تحديد الهدف وإصابة المرمى .

ولعل أول ما يفد على الذهن من هؤلاء الكبار هو رائد النثر الأدبى المعاصر السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، حيث تحدث على صفحات الهلال عن نهجه الأسلوبى فى الكتابة الأدبية ، فنشر فصلا وافيا عن الأسلوب البيانى مهدت له مجلة الهلال بقولها (١) .

المنفلوطى .. أمير البيان

«ليس بين كتابنا من هو أجدر بالتكلم عن البيان من أمير البيان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى . وإننا لنود أن يطلع على هذا المقال البديع كل أديب من أدبائنا» .

---

(١) أعيد نشر هذا المقال بالعدد الماسى من مجلة الهلال الذى صدر فى مفتتح سنة ١٩٦٧م ص ٢٧ .

وقد كانت الفترة التى ظهر فيها مقال المنفلوطى على صفحات الهلال فترة تذبذب حائر بين الكتاب ، إذ دخل فى صفوف الكاتبين من ينتسبون إلى علوم اللغة والبلاغة دون أن يكونوا من ذوى الموهبة ، وكان لهم من المناصب العلمية ما يزيد من بريقهم المؤثر ، فأراد الكاتب الكبير أن يوضح رأيه الصريح دون لبس فقال :

«ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون ، والحفاظ ، أيهم أكثر مادة فى اللغة ، وأوسع اطلاعا على مفرداتها وتراكيبها ، وأقدر على استظهار نوادرها وشواردها ، ولا متحفا يصور الأساليب وأنواع التراكيب ، ولا مخزناً لحقائب المجازات والاستعارات ، وأحمال الشواهد والأمثال ، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره .. أما البيان فهو تصوير المعنى القائم فى النفس تصويراً صادقاً يمثله فى ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه ولا يزيد عن ذلك شيئا ، فإن عجز الشاعر والكاتب مهما كبر عقله ، وغزر علمه ، وذكا ذهنه عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء ، أو أفضل الفضلاء ، ولكنه ليس بالشاعر ولا الكاتب» .

وقد يكون هذا الكلام بدهياً الآن ، ولكن فى زمنه السالف كان مجال أخذ وشد ، وما اتجه المنفلوطى إلى نقد هؤلاء العلماء حين يزجون بأنفسهم فى ميدان ليسوا من فرسانه إلا ليوجه الأنظار إلى نمط من الأسلوب يراه أجدر بالاحتذاء ، والهلال حين دعا كل أديب من أدبائنا إلى الإطلاع ، إنما كان يؤيد منحى المنفلوطى فى اتجاهه البيانى ، وقد يكون بين المتعصبين من لا يرتفع بالمنفلوطى إلى الذروة التى يحله فيها المنصفون ، ولكن الجادين من مؤرخى الأدب المعاصر يحفظون له مكان الرائد فى مضماره ، حيث كان بنظراته الأدبية حدا فاصلا بين أسلوب وأسلوب وحسبه ذاك .

وإذا كان نصيب الديباجة فى أسلوب المنفلوطى أقوى من نصيب الفكرة ، فإن مجلة الهلال حرصت على أن يكون كتاب الفكرة من دعائم بنائها ، وفسحت المجال للحديث عن الأفكار العلمية وأثرها فى ارتقاء الأدب العربى ، ولا أعنى بالأفكار العلمية ما يتصل بالعلوم التجريبية كعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والتشريح فإن هذه العلوم قد وجدت مسرحها الفسيح على صفحات مجلة المقتطف ، ولكنى أعنى هنا العلوم الإنسانية مثل علوم التاريخ والنفس والتربية والاجتماع والسياسة حيث حظيت هذه العلوم بعناية مجلة الهلال ، فكانت وسيلة إلى ارتقاء الأسلوب إذ أوجدت نوعاً أدبياً كان حديث العهد بالصحافة المصرية ، وهو ما يسمى بالأسلوب العلمى المتأدب ، وهو الوسيلة الأولى للتثقيف العام بين القراء ، وفى سبيل ارتقاء هذا النوع اتسع ميدان النقاش الفكرى فى مسائل الترجمة والتعريب ، وأذكر أن من أهم ما نشرته الهلال حينئذ ما أكده الاستاذ الكبير أحمد لطفى السيد من ضرورة الاهتمام بالترجمة عن أدباء الغرب وعلمائه وفلاسفته ، لأنها الطريق الطبيعى لنقل العلوم إلى بلادنا ، وهى الطريق الذى سلكته كل مدنية من مدنيات الأمم الماضية ، ولا يمكن أن تقوم معارضة بين الترجمة والتأليف ، لأن التأليف يتجه إلى نقد المذاهب المعاصرة ، ولن

نقدر على هذا النقد إلا إذا عرفنا حقيقة هذه المذاهب عن طريق الترجمة ، والأمم المتقدمة الآن في أوربا تنقل عن غيرها ، فما يجد كتاب «في لغة انجليزية أو ألمانية أو فرنسية حتى يترجم إلى كل لغة هناك ، فإذا كانت أوربا تحتفل بالترجمة هكذا ، ولها السبق في التأليف فإننا في خطواتنا الأولى أولى وأجدر بالاهتمام بهذه الترجمة) ثم رأى الكاتب الكبير أن يجيب عن سؤال وجه إليه هو هذا : «أيهما أولى في مجال الترجمة بالتقديم أهي الآداب أم العلوم» فقال (١) :

«الواقع أن الحركة الأدبية تتقدم الحركة العلمية دائما ، كذلك كانت سنة الأولين فإن الآداب اليونانية قد تقدمت العلم اليوناني ، والآداب العربية قد تقدمت العلم العربي والنهضة العلمية الحديثة في أوربا بدأت بالآداب ثم ثنت بالعلوم ، فلسنا إذن مختارين في أن نبدأ بأيهما شئنا ، والواقع من الأمر أننا بدأنا فعلا في درس الآداب ، وبلغنا في ذلك مستوى أرفع بكثير من المستوى العلمي فلست تجد في علمائنا من يساوي في علمه مستوى أحمد شوقي في شاعريته» .

ومع احتفال الأسلوب الأدبي على صفحات الهلال بخاصة ، وعلى صفحات المجلات المتناظرة في العالم العربي بعامة بالفكرة الصائبة ، فإن المفكر الشهير الاستاذ سلامة موسى قد هاجم على صفحات الهلال كثيرا من أعلام الأدب المعاصر ، وقال إنهم يتجهون إلى الصنعة اللفظية ، وقال فيما قال :

«إن المنفلوطي لم يبلغ ما بلغه من الشهرة إلا لجمال صنعته ، وتوخيه دس العبارات القديمة في ثنايا إنشائه ، والرافعي والمازني كلاهما لا يبالي بشي بمقدار ما يبالي بالصنعة ، ولو كانت هذه الصنعة في توخي الدقة لما كان يمكن الاعتراض عليها ، فإن دقة التعبير هي في اعتقادي غاية الغايات من اللغة ، وهي هم كل كاتب مخلص يود أن يفضي إلى القارئ بحقيقة فكره ، وإنما كان القصد هو الإغراق في الصنعة وهو لا يزال إلى الآن قائما على الزينة (٢)» .

وهذا كلام يحمد من ناحية الدعوة إلى الاهتمام بالفكرة ، ومحاولة التدقيق في عرضها عرضا واضحا محددا لا اتساع فيه فوق المعتاد ، ولكنه ينقد من ناحية التمثيل إذا استشهد الكاتب بالمنفلوطي والمازني والرافعي وجعلهم جميعا من أنصار الصنعة اللفظية ، التي تهدف إلى الشكل دون الاهتمام بالموضوع ، وهذا موضع النقد ، فإن نصيب الموضوع في مقال المنفلوطي لا يُنكر ، وإن احتفل بالديباجة احتفالا كبيرا ، لأنه رائد في مجاله ، أما المازني فإن نصيب الفكرة من أسلوبه قدر نصيب التعبير . ولم يقل أحد إنه من أدباء الزينة اللفظية وكتبه بين أيدينا تعطي الشهادة الصحيحة على صواب ما نقول ، وقد غاب عن الناقد أن الرافعي يمضي بالخيال في مقالات وجدانية نصيب العاطفة منها أبلغ من نصيب الفكرة ، فإذا اتجه الرافعي إلى بحث تاريخي فإن نصيب الفكرة يتعادل لديه مع نصيب التعبير كما نرى

---

(١) مجلة الهلال ، مجلد عام ١٩٢٤ جـ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) أعيد نشر هذا المقال بالعدد الماسي من مجلة الهلال وقد صدر في مفتتح سنة ١٩٦٧ ص ١٧٣ .

فى كتابه «تاريخ الأدب العربى» بأجزائه الثلاثة ! ويهمنى أن أؤكد أن الاحتفال بالفكرة لا يكون على حساب التعبير الأدبى ، وإلا فإن العلماء جميعاً يصبحون أدباء لأن لديهم أفكارا يذيعونها فى مؤلفاتهم ، والفرق بين العالم والأديب أن الأول يحصر نطاقه فى مجال البحث النظرى دون أن يسمح لعواطفه بالتنفيس عن إتجاهها الخاص ، أما الثانى فإن عاطفته مصدر إلهامه ، ونبع بيانه ، والعقل يمدها بالنظر الصائب والتعليل الموفق ! وقد اتسع النقاش حول هذه الأفكار أمداً طويلاً ، ولكنه حسم الآن بما وصلنا إليه من الارتقاء الفكرى فى الأسلوب المتداول ، وإن كنت أنعى على بعض من يزاولون الكتابة فى صحف العالم العربى قلة احتفالهم بالتعبير المشرق ، كما كنا نجد لدى زعماء الأدب المعاصر من أمثال طه حسين والمازنى ومحمد حسين هيكل والعقاد والرافعى والبشرى والزيات ، ونرجو أن يكون لنا فى ارتقائهم الأدبى وإبداعهم التصويرى نموذج للاحتذاء .

وحين أنشئ المجمع اللغوى بمصر سنة ١٩٣٣ ، وخاض الكتاب فى جدوى رسالته الأدبية بين مؤيد ومعارض ، كانت مجلة الهلال من أسبق الصحف إلى تسجيل آراء الكبار من ذوى الرأى تأييداً وتفنيدا ، فقد أفردت عدة صفحات لاقتراحات أئمة الفكر الأدبى فى مصر والعالم العربى ، حيث أدلوا بآرائهم فى مستقبل اللغة العربية ، ومهمة المجمع اللغوى كما يرجى لها أن تكون ، وبمراجعة هذه الآراء نجد بعض التباين وفق المشارب الخاصة ، إذ ذهب الاستاذ الدكتور طه حسين إلى مهمة المجامع اللغوية هى التسجيل والتنظيم ، لأن من الخير أن ترقى اللغة على أيدى الكتاب لا على أيدى من يضعون الألفاظ الجديدة للمخترعات .

يقول الدكتور طه حسين (١) :

ومن هنا يظهر أن الذين يظنون أن المجامع اللغوية تستطيع أن تضع للناس ألفاظاً أو مصطلحات يستعملونها فى أغراضهم المختلفة لا يفهمون عمل المجامع على وجهه ، إنما عمل المجامع هو أن تسجل تطور اللغة ، وتطورها فيما تضعه من المعاجم ، وفيما تؤلفه من كتب النحو ، وقد تعمل المجامع اللغوية للترقية الأدبية فى اللغة حين تقترح موضوعات على الكتاب والشعراء ليعالجوها» .

فالدكتور طه كان يرى أن المجمع لا يختص بوضع المصطلحات العلمية حين أبدى هذا الرأى عند إنشاء المجمع ، وقد خالفه الاستاذ محمد كرد على حين قال (٢) :

«اللغة فى حاجة إلى وضع المصطلحات إما بالأخذ مما خلفه العرب من مدوناتهم من المعاجم وغيرها ، أو بالنحت والاقتباس على الصورة التى جرى عليها القدماء ، وهذا الاصطلاح لا ينهض به فى الحقيقة غير مجمع لغوى يؤلف من رجالات

---

(١) مجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٤ ص ٢٧٤ .

(٢) مجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٤ ص ٢٧٦ .

العلم واللغة والأدب على اختلاف أمصارهم ، ومصر أحق البلاد بذلك لأن ما تقرره مصر يكون موضع القبول» .

وقد توسط الدكتور منصور فهمى (١) بين الرأيين ، فرأى أن يكون للمجمع أن يختار مما يتخذه كبار الكتاب من الألفاظ الجديدة تارة ، وألا يكتفى بدور المختار المسجل بل ينشئ ما يراه ضرورى الاستعمال تارة أخرى ، بينما نحا الاستاذ على عبد الرازق منحى الاستاذ كرد على فقال (٢) :

«إننا فى عصر كثرت فيه المخترعات والمستحدثات ، وهذه تحتاج إلى أسماء جديدة لم تعرفها اللغة ، واستحدثت فيه أيضا مباحث جديدة فى الفلسفة والتشريح والفنون وغيرها ، وكل هذه أمور تشعرنا بحاجتنا إلى التعبير عنها ، لأننا لا نجد فى اللغة التى وصلت إلينا طرقا موروثة للدلالة عليها ، فنحن من هذه الجهة بحاجة إلى ما يكفل للأمة العربية التعبير عن هذه الأمور الجديدة فى حياتها» .

هكذا كان الهلال مسرحا للأفكار الداعية لأنهاض الأسلوب لغة وأدبا ، وقد اختير الدكتور طه حسين رئيسا للمجمع أمداً غير قصير ، وكأنه عدل عن رأيه السابق حين وافق على أن يكون للمجمع الحق الكامل فى وضع الاصطلاح العلمى فى شتى الفنون ، ومن يراجع مجلات المجمع يرى هذا الجهد الضخم فى هذا المجال الفسيح».

والذى تستطيع أن تباهى به مجلة الهلال أنها لم تترك فى مدى قرن كامل قضية من قضايا الأدب واللغة إلا خصتها بالدراسة والتحليل ، وحين دب النزاع بين أنصار الفصحى والعامية ، اتسعت صفحات الهلال لعرض الآراء المختلفة ، ولكنها وقفت فى جانب الفصحى تؤيد دعاتها ، وتفسح لهم مجال الرد المقنع ، ولعلى أذكر أن الاستاذ محمود تيمور قد دعا فى العشرينات إلى اتخاذ العامية فى الحوار القصصى تارة ، وفى التعبير عما ليس له أصلٌ فى العربية تارة أخرى ، ثم بدا له فى الأربعينات والخمسينات أن يعارض ما ارتآه من قبل ، وأن يجعل الفصحى السنن الوحيد للتعبير القويم ، وهذان الرأيان المقابلان قد أذيعا على صفحات الهلال مع آراء أخرى ظلت موضع المناقشة والرد حتى انتصرت اللغة الفصيحة ، ذات الأسلوب السلس الخالى من التوعر والاستكراه .

وقد أكون مصيبا حين أؤكد أن مجلدات الهلال فى مدى قرن كامل قد أصبحت مرجعا دقيقا للحياة السياسية والعلمية والأدبية والاجتماعية فى الوطن العربى ، وإذا كنت قد قصرت هذا البحث على أثر الهلال فى ارتقاء الأسلوب الأدبى وحده ، فلست بغافل عن أثرها البعيد فى شتى الاتجاهات وهو أثر يحفظ لصحائفها الخلود عبر سنوات التاريخ المقبل ، ويكفى الهلال أن يكون وحده ذا الصوت المرتفع بين المجلات الراقية منذ مائة عام .

---

(١) ، (٢) العدد نفسه ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ .

القرن الحادى والعشرون

٢٠٠٠

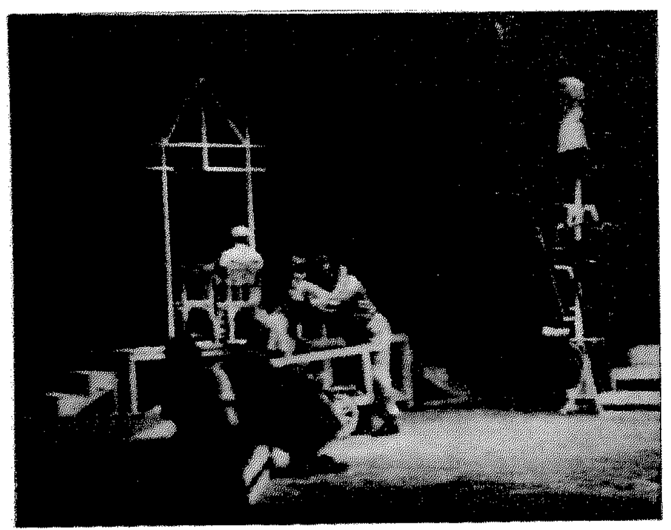
١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ -
١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ -
٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ -
٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ -
٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ -
٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ -
٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢
٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ -
٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١
- ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩

مستقبل الإنتاج المسرحى فى مصر

بقلم : مهدى الحسينى

حسنا فعلت دراما الإذاعة والتليفزيون والمسرح التجارى والعروض المحلية الدارجة ، إذ رفعت عن كاهل الفن المسرحى ركام الكلمات ولجاجة النثرية روحا وقالبا ، فخلصته من عبء الركاكة ، ومغبة العناية بالتفاصيل التافهة والثرثرة والتزيد ، أعفته فاعادته إلى بنيته الأصلية : روح الشعر وجوهر الفكر ، دُرّ الكلام وعميق المعانى وساحر الخيال وعوالم الجمال ، هذا إنْ نثراً وإنْ شعراً ، عامية أو فصحى ، مهما كانت مدرسته أو اتجاهه أو أسلوبه أو طابعه ، فالأمر لن يختلف : الشعر والتفلسف معاً ، وأنوه أن هذا الأمر لن يقتصر على « النص » وحسب ، بل يتجلى فى كل مفردات العرض كلها : الظل والنور والكتلة والملمس والفراغ واللون والزى والأداة والحركة والأداء والنغم والمؤثر ، وفى كل العلائق بين هذه جميعا ، أى التكوين الشامل الذى ينسجه مزاج المخرج وذوقه ووعيه .

هذا الأمر إنما يعنى « انفراد » فن المسرح عن غيره من وسائل الاتصال والفنون الأخرى ، بأنه يشملها حين يكثفها ويعمقها كأب لكل الفنون ، ولا يعيد ترديدها كما هى . وهكذا يعود لهذا الفن سمته القديم الذى رأيناه فى « مأساة أوزوريس وانتصار حورس » ملحمتنا المصرية القديمة وفى أعمال عمالقة المسرح الإغريقى: اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس وأريستوفانيس وفيما خلفه لنا وليم شكسبير وابسن وتشيكوف وشو وآرثر ميللر ،، من حيث كونهم شعراء ومسرحيين



المسرح القومي المصري

ومفكرين .

وكذا كان الأمر عندنا حين حمل المسرحيون المصريون لواء هذا الفن منذ يعقوب صنوع .. وحتى مصطفى بهجت مصطفى الذى رحل مبكراً عن دنيانا دون أن يعرف عطاءه ، كان أغلبهم يعون هذه السمة المميزة لفن المسرح - روح الشعر والفكر - التى تمنحه الخلود ، حتى أن أعمالا لصنوع وتيمور وعثمان جلال وشوقى مازالت قادرة على الوقوف على المسرح حتى اليوم مخاطبة لأجيال جديدة ، هذا إذا ما أحسن تفسيرها وتقديمها .

إلا أن هذا يبدو حلما بعيد المنال ، فاليوم لا يقدم مسرحنا أعمال الحكيم ونعمان والفريد ورومان وعبد الصبور وادريس وسرور ودياب والشرقاوى وبهجت ، اللهم فى مسارح الثقافة الجماهيرية ولبضع ليال وأمام جمهور محدود ، وهكذا أدار مسرح الدولة ظهره لهؤلاء المبدعين الكبار ومضى يقدم أعمالا لمؤلفين بلا تاريخ وبلا مستقبل ، إلا اسماء قليلة تشقق على نفسها من الكتابة لحركة فنية مندثرة ، ومسارح خاوية ، وإدارة لامبالية . بل مضى مسرح الدولة ليصبح ظلا شاحبا لمسرح آخر ، نمت بذرته فى حضانة تسمى مسرح التليفزيون الذى أشرف على انشائه « سيد بدير » جاعلا هدفه إنتاج مسرحيات مسلية وخفيفة (هكذا ظنوا) لتمد الارسال التليفزيونى ، وتشغل فراغا فيه ، فسحب هذا (الكم) المسرحى البساط من تحت أقدام الفرق المستقلة كالمسرح الحر وفرقة الريحانى وأنصار التمثيل ، ومنه نشأ مسرح النجوم والقطاع الخاص الذى قدم أولى روائعه باسم

« مجنون بطه » (!!!) هذا المسرح الذى يهز عروش التقاليد المسرحية ويتأفف من المؤلفين والمخرجين الجادين ويشترى بمئات الألوف العشرات من النجـوم والممثلين وتصل تذكرته إلى ٦٠ جنيها .

إذن فمسرحنا اليوم تتنازعه قوتان إنتاجيتـان : الأولى هى قوة البيرقراطية المهيمنة على فرق : القومى ، الطليعة ، الحـديث ، الكوميـدى ، الاسـتعراضى ، والثـانية قوة رأس المال لمنتجين مستقلين أهمهم سمير خفاجى ، والابيارى ، ومحمد فوزى ، وسمير عبد العظيم ، وأوسكار ، وبين هاتين القوتين يحار عشاق المسرح الحقيقيون من مشاهدين أحجموا عن المشاهدة ، وكتاب وفنانين بلغ بهم الضيق وأحيانا اليأس مداه .

إنقاذ مسرح الدولة

إذن لننظر إلى ما يملكه مسرح الدولة بعد أن نضيف اليه الفرق المسرحية الغنائية الاستعراضية : حوالى ١٠٠ مليون جنيه سنويا كميزانية إنتاج ، فضلا عن أبواب ثابتة كالمرتبات والتجهيزات والانشاءات ، ومئات من الفنانين الموظفين وما يزيد عنهم من الاداريين والمهنيين والحرفيين ، ممن يحتاجهم العمل ومن لا حاجة للعمل إليهم أى عمالة زائدة . وتمتلك الدولة ٨ دور للعرض هى : القومى والجمهورية (مغلق منذ سنوات) والسلام والشباب ومحمد فريد والطليعة والبالون (تابع للقطاع الاستعراضى) والسامر (تابع للثقافة الجماهيرية) وفى الاسكندرية داران هما سيد درويش ومحمد عبد الوهاب ، بالاضافة إلى دور عرض متراوحة الاتساع والاستعداد - وتتبع الثقافة الجماهيرية فى الأغلب - تصل إلى ٢٠ داراً تقريبا . وهذه الدور جميعا يجب أن تظل ملكا للدولة ، على أن تمتد إليها يد التحديث والتجميل ، وظيفة وذوقا ، كى تصبح صالحة باستمرار لكل أنواع العروض مصرية وأجنبية ، سواء من الإنتاج المباشر للدولة أو بالمشاركة أو بالاستضافة أو بالإيجار غير المستديم (فقط لعرض أو موسم) لعروض ذات قيمة فنية حتى لا تهدر سمعة دار العرض إذا ما قدمت عروضا مبتذلة أو ضعيفة ، إذن فملكية الدولة لدور العرض هو الجانب الذى يجب أن نحرص جميعا على عدم التفريط فيه وبلا مناقشة ، أما الجانب الذى يجب مناقشته هو الأطر الإنتاجية لمسرح الدولة ونوعية الأعمال المطلوبة .

فبعد النجـاح البـاهر للدورة الثانية لمهرجان الجماعات المسرحية الحرة ، التى دعت إلى تحـرير الإنتاج المسرحى من البيرقراطية فى مقابل عدم رضـوخه لسيطرة رأس المال الطفيلى ، وحين طالب الناقد « حازم شحاتة » المتحدث باسم هذه الجماعات بأن تقدم الدولة ، ويمثلها

صندوق التنمية الثقافية ، العون المادى لفرق جديدة مستقلة عن القطــاعين المهيمنين ، أثارت إحدى الصحف اليومية حملة عنوانها الأغلب « بيع مسارح القطاع العام » أو «تصفيته» واستجاب العشرات لهذه الحملة. بعضهم يعبر عن منظور يعتقده ومصلحة سوف يجدها ، وبعضهم تعبيراً عن يأسه من تحسن الاوضاع فى مسرح الدولة ، بينما عارض البعض هذا الاتجاه حفاظا على مقعده البيرقراطى الذى لن ينال مثله فى حال التصفية ، وعارض البعض الآخر أملا فى أن يستيقظ المسئولون عن هذا القطــاع فيســتجيبون للنقــد ويأخذون بالمقترحات البناءة ، غير أن ثمة خشــية حقيقية من أن يسعى « المصفون » باسم صندوق النقد أو البنك الدولى ، أن يدخلوا هذا المسرح ضمن قائمة طلباتهم بـ «الخصخصة» ، وثمة موقفان إزاء هذه الأخطار ، إما المزيد من التمسك بالاوضـاع الراهنة فى قطاع المسرح والمسرح الاستعراضى ، والإبقاء على كل المزايا وكل العيوب ، وإما إعادة النظر ، مثلما طالب الفنان « محمود الحدينى » مدير المسرح القومى فى كلمته بندوة « مستقبل الثقافة العربية فى عالم متغير » الذى عقدته هيئة الكتاب بفندق الميرديان أخيراً حين قال إن الصيغة الإنتاجية الحالية فى مسرح الدولة غير صالحة ويجب إعادة النظر فيها جذرياً .

وفى ظنى أن إصلاح مسرح الدولة لابد وأن يأخذ أحد اتجاهين لا ثالث لهما ، اما المزيد من المركزية ، وإما المزيد من الديمقراطية واللامركزية ، وعن الصيغة الأولى للإنتاج المسرحى لقطاع الدولة فهى أن تعين مجلسا للمسرح يضم صفوة من كبار المثقفين والفنانين والخبراء الذين يعبرون عن المنظور الفكرى المستقر للدولة ازاء الثقــــافة والفنون ووفقا للدستور والقــــوانين العامة والمستقرأ من تاريخ المسرح المصرى ، ويتولى هذا المجلس وضع خطة سنوية للعروض وأنواعها - مستنيرا بآراء الكتاب والنقاد والمبدعين - حيث يقوم بالتعاقد على أعمال بعينها وفقا لتوقيتات وشروط محـــددة ، مع كتاب ومخرجين ومصممين وموسيقيين وممثلين ومهنيين ، لتنفيذها بشرط التفرغ التام لمدة عام على الأقل ويتجدد إذا لزم الأمر .

هذا ويساعد (مجلس المسرح) المقترح خمس إدارات تنفيذية : للإنتاج ، وللشئون الهندسية والتجهيزات والصيانة ، وللاتصال والدعاية والعلاقات العامة ، ولدور العرض ، ثم إدارة قانونية ، ويرأس هذه الإدارات جميعا عضو بالمجلس ، أما بالنسبة للفنانين فإننا نجد أنفسنا ازاء أحد حلين :

١ - الاحتفــاظ بهــم تحــت إدارة سادسة ، مع تجميد أجورهم فى حالة

التعاقد معهم ، مع عدم تعيين دفعات جديدة .

٢ - نقلهم إلى وزارات التربية والتعليم، والتعليم العالى ، والشباب ، والشئون ، والعمل والإعلام ، والثقافة الجماهيرية ، كخبراء فى المسرح أو كأخصائيين كل حسب درجته وأقدميته وخبرته .

وبالنسبة للفائض الإدارى والعمالة غير المتخصصة فيمكن أن يشكل بهم مع زملائهم من العمالة الزائدة فى كل الوزارات وقطاعات الدولة نواة لوزارة جديدة هى وزارة لمحو الأمية وتعليم الكبار والخدمة العامة .

وبالتجاوز عن التحفظات المبدئية حول الطبيعة الحقيقية للتقسيم الإدارى الحالى للفرق وموضوعيته ، فليس المسرح القومى كلاسيكيا ، ولا الفنانين الموزعين على مسرح الطليعة فنانون مهتمون بالتجريب ، ولا المعينون فى المسرح الحديث مهتمون بالحداثة ، ولا مسرح الشباب مسرح يخاطب الشباب ، ولا كل المعينين بالمسرح الكوميدى يستطيعون إضحاكك !!! لذا يكون تقسيم الفنانين على هذا النحو تقسيما إعتباطياً جزافيا لا يخلو من سخف ، بل السؤال الآن هل هذه فرق مسرحية حقا ؟ فرق بالمعنى المفهوم للفرقة ؟ تضم كفايتها من الفنانين : فتيات وفتية أوائل ، وكوميديانات وجراندات .. إلخ ، هل هناك فرقة واحدة من هذه الفرق تشكل تكاملا ذاتيا لا زائد .. ولا ناقص ؟ وهل هناك فارق جوهرى (مدرسى أو أسلوبى أو فنى أو فكرى) بين هذه الفرق ؟ وما ينطبق على الممثلين يسرى على المخرجين والمصممين . ان غياب النسق يعنى غياب الفن . لذا يكاد الأمر لا يعدو أكثر من لافتات ترفعها القوى البيرقراطية المسيطرة لتظل سيطرتها قائمة بغض النظر عن حاجات الجمهور ومتطلبات الفن وقدسية المال العام . غير أننا إذا اضطررنا للتعامل مع ما هو قائم ، فان التحسين النسبى للأوضاع الحالية يمكن أن يقوم على ما يلى :

١ - رفع العبء المالى والادارى المركزى عن كاهل الدور المسرحية (الفرق) باعطائها الأولوية والاستقلالية فى وضع خططها الفنية والانتاجية ، على أن تمنح كل فرقة الحق والحرية فى تسويق عروضها وبيع أشرطتها المسجلة بصريا وصوتيا وكذا تحريك أسعار التذكرة وفقا للسوق ، على أن تعد الاسعار الحالية حداً أدنى :

٢ - تعديل الوضع الراهن فى قيادات المسارح (الفرق) فلا تصبح سلطات المدير (المخرج غالبا) مطلقة ، حيث يجب أن يشاركه مكتب فنى من ٤ فنانين نقابيين ينتخبهم سنويا أعضاء الفرقة النقابيون ، ويعين نائب مدير ينوب عنه فى كل سلطاته فى حالة غيابه ، ويشاركه

فيها باختصاصات محددة فى حالة حضوره ، ثم سكرتيراً عاماً للشئون الفنية ، ومديراً لدار العرض ، وبذلك يكون مجلس ادارة الفرقة مكونا من ثمانية أعضاء ، وعند التصويت المتساوى يرجح الجانب الذى يكون فيه صوت المدير .

٣ - إعادة النظر فى أسس تشغيل الفنانين واستثمار طاقاتهم ، بما يكفل تفرغهم للعمل المسرحى فى حال تكليفهم به ، ومنع الطفيليين وغير المؤهلين فنيا (لا يقصد بهم غير الحاصلين على مؤهلات) ووضع نظام واقعى للأجور والحوافز تشجيعا للفنانين ، على أن تربط الحوافز بايرادات الشباك حتى يصبح للجميع (مصلحة) فى النجاح .

٤ - أن يقتصر عمل قيادة الهيئة على دورها القيادى فى رسم السياسة العامة والتخطيط والرقابة الفنية ، ومنع المخالفات، والمتابعة فقط ، فضلا عن التمثيل الإعتبارى الرفيع لمسرح الدولة وفنانيه .

ترشيد مسرح القطاع الخاص

مع التسليم بأن هناك جانباً من هذا القطاع يسعى لحل المعادلة الصعبة : كيف تكون فنانا مخلصا ورائجا ورابحا ، فى وقت واحد ، ولابد من التسليم بأن هذا القطاع نجح فى جذب عدد من ألمع العناصر الفنية فى حياتنا المسرحية ، وبأنه تخلص بروحه العملية وحسه التجارى من المعوقات البيرقراطية والعمالة الزائدة التى طالما عوقت مسرح القطاع العام ، ففى حين يكون البيروقراطى هو البطل فى القطاع العام ، يكون رأس المال هو بطل القطاع الخاص ، أما الفنان فليس له السيادة فى أى من القطاعين بينما هو صاحب القضية وهو أصل الموضوع !! إلا أن الوقت لم يفت لتدارك الأمر مع هذا القطاع ، لذا يمكن النظر فيما يلى :

١ - اعتبار إنتاج القطاع الخاص عملا تجاريا بحتا ، يخضع للقوانين المنظمة للشركات والأعمال التجارية .

٢ - تسليط النقد الموضوعى البناء على أعماله ، ومناقشة اعماله بجدية على نطاق واسع ، بهدف جذبه من وهدة الترخص والابتذال التى وجدها بعض منتجيه أسهل وسيلة للكسب غير المشروع بالمعنى الأدبى والفنى والفكرى بل والحرفى أيضا .

٣ - تطبيق القوانين على إنتاجه دون تقصد أو تعسف ، ودون التضييق عليه مهنيا أو رقابيا .

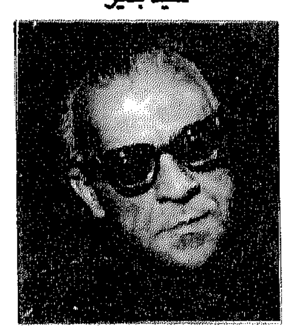
٤ - العمل على منافسته - لا تقليده - منافسة شريفة باعمال جماهيرية من إنتاج القطاع العام ،٠أو من إنتاج تجمعات الفنانين الواعين ، وهو الأمر الذى حققه المثقفون والنقاد فى عشرينيات هذا القرن

عندما أنشئوا فرقة عبد الرحمن رشدى لمواجهة أسلوب الفودفيل المبتذل ونجحوا فى القضاء عليه وجذب اصحابه إلى الكوميديا الرفيعة .

٥ - انشاء جائزة كبرى لمسابقة مسرحية بين الفرق المحترفة - كل عامين - توضع لها مواصفات فنية وموضوعية ، تنالها المسرحية الفائزة ، وكذا مجموعة نوعية من الجوائز لكتاب العروض والمخرجين والممثلين والمصممين والمؤلفين الموسيقيين ، بدلا من جوائز التأليف الورقية الحالية . إن المنافسة على نيل هذه الجائزة سوف تخلق مقاييس حقيقية لرقى الفن المسرحى فى وطننا .

القطاع الثالث

قبل أن تفرض الدولة هيمنتها الكاملة على الإنتاج المسرحى خاصة بعد تأميمها للصحافة ودور النشر المستقلة واحتكارها لمنابر الرأى وتسليط موجاتها الإذاعية القوية وقنواتها التليفزيونية الباهرة ، كانت هناك مساحة لقيام مسرح مستقل تعينه الدولة وتقدم له الخدمات بالمجان أو بمقابل رمزى أو زهيد ، وأذكر بالذات جمعية أنصار التمثيل وفرقة يوسف وهبى وفرقة رضا وفرقة المسرح الحر التى كان لها شرف تقديم أول أعمال الراحل نعمان عاشور (المغماطيس - الناس اللى تحت) وكذا إعداد ثلاثية نجيب محفوظ وتقديم عمل لرشاد رشدى وغير ذلك ، ولكن تلك الفرق المستقلة لم تصمد أمام جبروت الدولة حينها حيث كانت لا تريد أن تسمع صوتا غير صوتها ، فلم تتمكن أى من هذه الفرق من تقديم أعمالها ، حيث شغلت فرق التليفزيون العشرة بقيادة سيد بدير - جميع دور العرض المسرحية ، وجذبت أعضاء هذه الفرق المستقلة بمغريات المال والشهرة والارسال التليفزيونى ، فلم تستطع أنصار التمثيل والمسرح الحر مجاراة هذه الموجة التليفزيونية الجديدة خاصة وأن إيجارات المسارح والخدمات بل وأجور الممثلين أصبحت أبهظ من أن


سيد بدير


نعمان عاشور


الريحانى

تغطيها إعانة الشئون الإجتماعية الضئيلة وعائدات شباكهم . ولم تتمكن أى فرقة من تقديم عروضها ، اللهم إلا فرقة الريحانى وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وفرقة يوسف وهبى الذى اعتمد على ما تبقى لديه من مال ونفوذ ، غير أن الفرقة تحللت برحيله ، وها هو ذا القطاع الخاص - فى صورته الجديدة - يرد الكيل لهيمنة الدولة على المسرح كيلين أو أكثر ، فيحول القطاع العام إلى بقرة حلوب ، فيسلبها نجومها وفنانيها بل وحرفييها ، ويعزل كتابها الجادين ، ويحتضن كتابا متهاونين متفاهمين ينطبق عليهم القانون القائل بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وهكذا يكون « القطاع الخاص » مصدر شكوى كل ذى ضمير فى هذه البلادا .

إذن ما الحل ؟ الحل فى ظنى هو أن يعمل المثقفون والفنانون الشرفاء على إقامة ما يسمى بـ « القطاع الثالث » فى ظل مساندة الدولة مسترشدين بروح الدستور ملتزمين بالقوانين العامة . ويتخذ هذا المسرح صيغة المسرح المستقل المعلن كما كان الحال مع فرقة « أنصار التمثيل » وفرقة « المسرح الحر » وغيرهما قبل قيام مسرح القطاع العام ، بل وأثناء بدايته وحتى عام ١٩٦٢ ، ويمكن تطوير هذه الصيغة كالتالى :

١ - تشجيع إشهار جمعيات ثقافية مستقلة يكون أبرز مهامها إنتاج الفن المسرحى الرفيع مع منح كل منها إعانة إنتاج مسرحى لا تقل عن عشرة آلاف جنيه لكل مسرحية .

٢ - ترتيب لائحة تسمح بإقراض هذه الجمعيات من صندوق التنمية الثقافية فى الإنتاج الأكثر تكلفة ، بضمان الشباك وشريط الفيديو الماستر ، ووفقا للشروط والضمانات البنكية المعروفة .

٣ - تخصص هيئة المسرح دورها - إلى جانب برامجها - لعروض هذا القطاع الجديد الثالث ، عن طريق الايجار الرمزى مع تقديم كافة الخدمات الإنتاجية مقابل التكلفة الفعلية دون شبهة ربح أو تكسب ، ووفقا للائحة سعرية محددة وتفصيلية .

٤ - دراسة صيغ للإنتاج المشترك بين الدولة وفرق هذا القطاع الثالث (الجمعيات الثقافية المشهرة) حيث تقدم فيه هذه الفرق المستقلة إمكاناتها الفنية والبشرية ، وتقدم فيه الدولة خدماتها الفنية وباقى مستلزمات الإنتاج ، على أن يتم إقتسام إيراد الشباك .

٥ - يخضع إنتاج هذا القطاع الثالث لقانون الجمعيات ويحظى بكافة امتيازاته .

وهكذا يمكن تحقيق التناغم بين القطاعات الثلاثة عن طريق المنافسة - بالفن - على اجتذاب ٥ ملايين مشاهد مصرى أحجموا عن مشاهدة المسرح المصرى يأساً منه وقنوطاً .



سينما المستقبل بين الواقع والخيال

بقلم : مصطفى درويش

يوم صدور الهلال كانت الصورة على وشك أن تتحرك ، وكانت لغة جديدة وفنا سابعا قاب قوسين أو أدنى من الميلاد .

فلم يمض على أول ظهور للهلال سوى سنتين وسبعة شهور ، الا ويسجل الاخوان لويس وأوجست لوميير براءة اختراعهما لما أسمياه « السينماتوجراف » ، وهو عبارة عن جهاز يتيح عرض الصور المتحركة علي شاشة بيضاء أمام حشد من الناس .

بعد ذلك التسجيل بحوالى ثمانية شهور ، وبالتحديد يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من ديسمبر لسنة ١٨٩٥ ، دعا الأخوان لوميير نفرا من علية القوم والعلماء الأجلاء الى المقهى الكبير المطل على شارع كابوسين ، وسط باريس ، حيث جرى أول عرض سينمائى على ملاءة بيضاء .

الدهشة الأولى

وكان من بين الأفلام المعروضة ، وكلها تسجيلية قصيرة لا تزيد مدة الواحد منها عن دقائق معدودات ، فيلم لقطار يدخل احدى محطات السكك الحديدية « لاسيوتا » ، فاذا بأحد من المدعوين يتوهم أن القطار انما يتحرك متجها نحوه، وطلبا للنجاة يهم بالفرار .



وهنا فى القاهرة ، بعد أقل من سنة من عرض المقهى الكبير بمدينة النور ، وبالتحديد فى الثامن والعشرين من نوفمبر لسنة ١٨٩٦ ، جرى عرض السينماتوجراف لأول مرة أمام صفوة المجتمع القاهرى داخل صالة حمام شنيدر.

وعن هذا الحدث التاريخى ، كتبت جريدة المقطم ، بعد العرض بثلاثة أيام ، تقول وهى فى حالة انبهار شديد :

« من أبدع ما تتمتع به الأنظار فى هذا الشتاء من المخترعات والألعاب التى يأتينا بها الأوربيون كل عام الصور المتحركة ، فقرّاء المقتطف يعلمون أن المصورين بالشمس توصلوا الى تصوير الصور وضم بعضها الى بعض بحيث اذا مرت أمام عينى الناظر رآها تتحرك كأنها الأجسام الحية تماما .

وقد ظفر حضرة المسيو «دلستروبلوجو» بامتياز عرض هذه الصور فى القطر المصرى .. وعرضها مساء السبت الماضى فى حمام شنيدر بجانب دائرة البرنس حليم باشا على جماعة من أهل الذوق ورجال الأدب ، يتقدمهم سعادة محافظ العاصمة ، فراقهم ما رأوه من الصور المتحركة ، حتى خيِّل لهم أنهم يرون أمامهم أشباحا متحركة وأجساما حية لا ينقصها الا الصوت .

فيرى الانسان فى صورة القطار قادما من بعيد ، ثم يكبر كلما دنا منه حتى يقف فى المحطة ، وتنفتح أبوابه ويخرج الركاب منه ويدخل الناس اليه ، وكلهم مهتم بأمره كما يشاهد فى كل محطة .

ويرى فى أخرى البحر هائجا وأمواجه تعلو كالجبال ثم تتنفس على الصخور ، فيتطاير زبدها فى الهواء ، ويسقط على اثنين يركضان ويستغيثان ، وفى أخرى كوكبة من الفرسان تعدو فى الميدان من بعيد ثم تدنو » .

النبوءة

وتمر الأيام بعد هذا العرض الأول أعواما بعد أعوام ، وتنشر الهلال فى عددها الصادر فى الأول من يونيه لسنة ١٩٠٥ ما معناه أن بعض العلماء يشتغلون فى اصطناع صور تتحرك وتتكلم فى وقت واحد باستخدام السينماتوغراف والفونوغراف معا .

وتستطرد قائلة ، وكأنها تقرأ الغيب : « فستأتى أيام نرى فيها العالم وحوادثه رأى العين ، ونحن جلوس فى غرفنا ، وذلك كله من معجزات هذا التمدن » .

وفى السادس من أكتوبر لسنة ١٩٢٧ تحقق جزء من تلك النبوءة عندما تكلمت السينما لأول مرة فى الفيلم الأمريكى « مغنى الجاز » .

ولم يكن قد مضى على عرض هذا الفيلم فى نيويورك الا ستة شهور ، حتى أعلن عن عرض فيلم أمريكى آخر ناطق على شاشة سينما الهمبرا بالاسكندرية (١٩٢٨/٣/١٤) .

بعد ذلك بتسعة شهور (١٢/٢٠) جرى عرض فيلم « مغنى الجاز » فى سينما أمريكان كوزموجراف بالاسكندرية ، ومن مفاجآته غناء ممثله الأول « آل جولسون » فى معبد يهودى بأحد أحياء مدينة الشيطان الأصفر « نيويورك » ، وما هى الا خمس سنوات على تعلم السينما الكلام ، حتى كان يوسف وهبى يتكلم هو الآخر فى النصف الأول من فيلم « أولاد الذوات » ، ومطرب الملوك والأمراء يغنى لوردة الحب الصافى فى « الوردة البيضاء » .

اختراعات بالجملة

وقبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية بقليل ، أخذت نبوءة الهلال فى التحقق باختراع التليفزيون .

وفى أثناء السنوات التالية لالقاء تلك الحرب سلاحها (١٩٤٥) ، وهى السنوات التى شهدت تحولات عميقة فى حياة الشعوب ، تحققت اختراعات أخرى ، أذكر ، من بينها ، الڤيديو واستعمال الأقمار الصناعية فى نقل المعلومات ، ونحن على مشارف الربع الأخير من القرن العشرين .

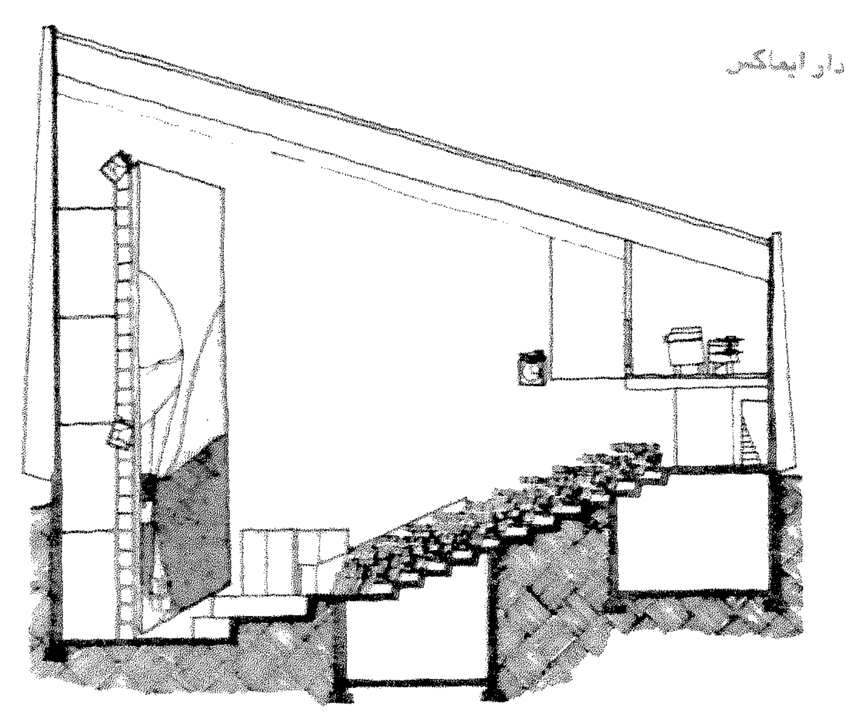
وفى ظن المخرج « جان لوك جودار » رائد الموجة الجديدة الفرنسية ، أن هذه الاختراعات تؤذن بتغييرات عميقة فى حياة الناس ، وهى تغييرات من شأنها حتما محتوما أن تنتهى الى صورة حضارية جديدة نراها الآن فى طريق التكوين .

العبور العظيم

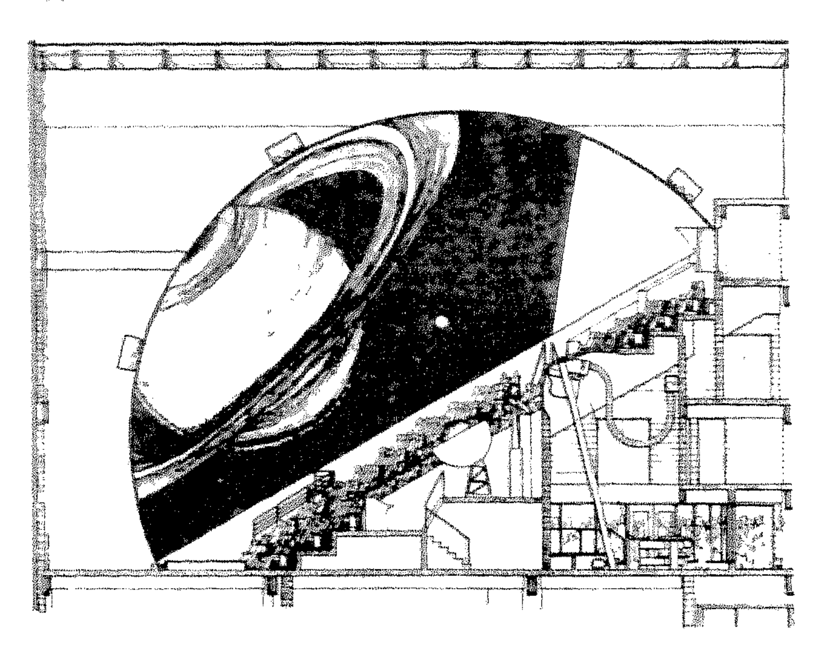
فمعرفتنا بالعالم الذى داخلنا ، وذلك الذى من حولنا ، تزداد على مرّ الأيام عمقا واتساعا .

وثورة الڤيديو انما تؤيد ذلك وتؤكده .

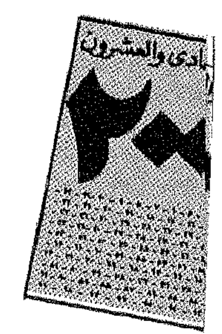
دار ايماكس



Typical IMAX theatre

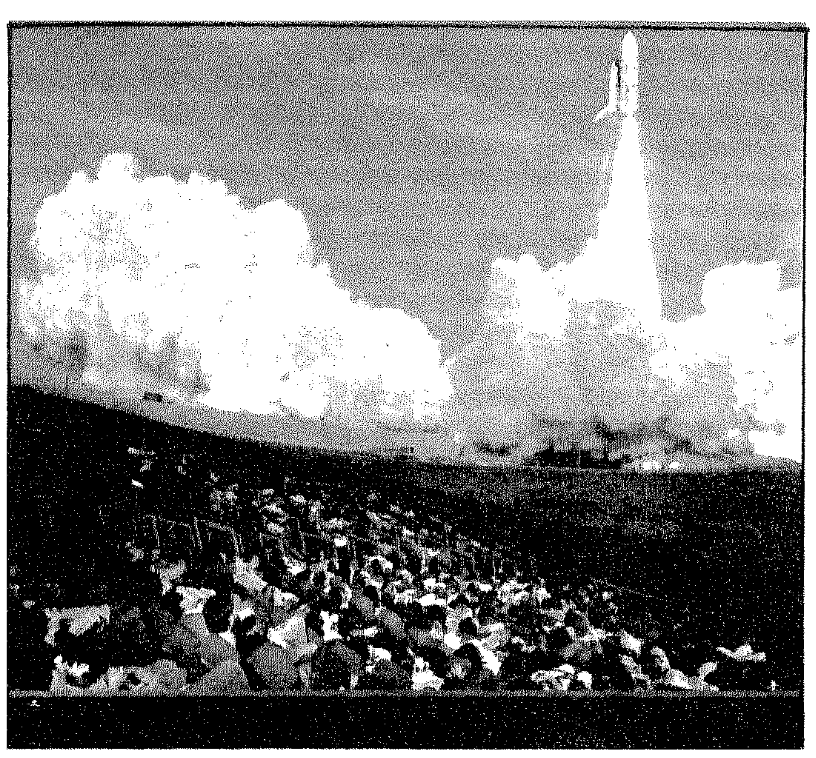


دار اومنيماكس









فبفضلها ، وبفضل ثورات أخرى تؤدى الى مزيد من الاختراعات المثيرة ، لن فودع القرن العشرين ، الا وقد تحول كل بيت فى الغرب وأنحاء من الشرق الى مركز اليكترونى كامل شامل للترفيه والتعليم .

وطبعا لا يستطيع شخص عاقل ، فى مواجهة هذا الحدث الكبير التأثير على مصير الانسان ، أن يتظاهر ، وقد تحصن وراء نظارة سوداء ، انه لا يرى حقائق الحياة (بالمناسبة « ڤيديو » تعنى لغويا « أرى ») .

فالعلم قد نجح فى العبور بنا نحو آفاق جديدة وعلينا أن نعبر معه ونستفيد ».

ولقد ظن البعض أن هذه الاختراعات بدءا بالتليفزيون ، ومرورا بالڤيديو ، وانتهاء بالارسال عن طريق الأقمار الصناعية ، لابد وأن تؤدى الى اختفاء دور السينما .

اليائسون

ومما ساعد على انتشار هذا الظن ، انخفاض عدد دور العرض السينمائى فعلا أمام زحف التليفزيون الذى أصبح مع اقتراب عقد الخمسينات من نهايته جزءا لا يتجزأ من أسلوب حياة الأسرة الأمريكية على جميع المستويات .

فمثلا عدد تلك الدور على امتداد الولايات المتحدة سنة ١٩٤٦ كان قد ارتفع الى عشرين ألف دار .

وعدد المتفرجين فيها كان قد وصل الى تسعة وسبعين مليونا ، وازدادوا أربعمائة ألف متفرج .

غير أنه بعد سبع عشرة سنة من التاريخ الأخير ، اذا بعدد المتفرجين ينحدر الى النصف ، ويتكرر الانحدار بنفس النسبة بعد مدة مماثلة ، وذلك رغم أن السكان كانوا طوال تلك الحقبة من عمر الزمان ، فى ازدياد مستمر وعلى وجه لا مثيل له فى تاريخ الولايات .

وما حدث فى أمريكا ، حيث يوجد أكبر وأغنى سوق ترفيه فى العالم ، حدث وبشكل أسوأ بكثير فى جميع البلاد ، لاسيما ما كان منها فقيرا ، متخلفا ، تعربد فيه الرقابة وتعيث فسادا .

ولعل انخفاض عدد دور العرض وتدهور مستواها فى مصر ، وهى من مراكز الاشعاع القليلة فى دنيا الأطياف ، باغلاق بعضها ، وبتحويل بعضها الآخر الى مسارح ، وأحيانا الى خرابات ، لعله يؤكد وجهة النظر الجانحة الى القول بأن دور السينما الى زوال .

واذا كان هذا هكذا ، فلن تبدأ سنوات القرن الحادى والعشرين ، الا وتكون دور السينما قد اختفت من كوكب الأرض نهائيا ، وأصبحت خبرا قديما يدرس فى كتب التاريخ .

ولكن هذا الاستخلاص أراه استخلاصا غير سائغ ، يكذبه واقع الحال .

التجديد والتجلى

فثمة عود على الأقل فى الغرب الى بناء دور عرض كبيرة مجهزة بشاشات عريضة شبيهة بتلك التى انتشرت ابان عقد الخمسينيات .

فمعروف أنه ما إن ظهر التليفزيون واشتد الاقبال عليه قبل أربعين سنة أو يزيد ، حتى أصيب مصنع الأحلام فى هوليوود بذعر شديد .

وفى مواجهة هذا الخطر المميت ، لجأ المصنع الى انتاج أفلام ضخمة ، مع عرضها على شاشات كبيرة ، عريضة ، كانت على مر السنين تزداد ضخامة وابهارا .

ومن هنا التوسع فى تجهيز دور العرض بشاشات السينما سكوب والسينيراما ، وما الى ذلك من ابتكارات ذلك الزمان .

والآن ، ها هو ذا مصنع الأحلام يجد نفسه ، ازاء انتشار سوق الڤيديو ، مضطرا الى اللجوء مرة أخرى الى الشاشة العريضة ، وذلك بتصوير الأعمال السينمائية الضخمة على فيلم خمسة وستين مللى ، وعرضها بعد ذلك فى دور مجهزة بمعدات عرض سبعين ميللى ، ونظم صوت متعددة القنوات أذكر من بينها نظام « تى

ايتش اكس » الذى ابتكره جورج لوكاس مخرج فيلم « حرب النجوم » ، والاسم مستوحى من أول فيلم لهذا المخرج ، وكان بنفس العنوان .

ولعل خير مثل على هذا النوع من الأفلام المعد خصيصا للعرض فى مثل هذه الدور « الآفاق البعيدة » لصاحبه المخرج « رون هوارد » ، وهو فيلم أسندت بطولته الى « توم كروز » أمام زوجته الجميلة « نيكول كيدمان » .

وبعرضه خارج المسابقة على شاشة سبعين ميللى ، انتهى مهرجان « كان » الأخير .

بل ربما يلجأ مصنع الأحلام الى الانتقال بأفلامه الى دور مجهزة بشاشات عريضة تعرض عليها الأفلام تليفزيونيا ، بواسطة الارسال عن طريق الأقمار .

وشىء كهذا يعنى توفير المبالغ الطائلة التى تنفق على عمال العرض ، وعلى طبع نسخ الأفلام ، وعددها بالمئات ، ولا أقول بالآلاف فى بعض الأحيان .

اذ يكفى أن تعرض نسخة واحدة فى هوليوود ، ثم يجرى ارسال معلومات تلك النسخة الى قمر صناعى يكون همزة الوصل بين الفيلم وبين شاشات العرض فى وقت واحد ، وبوضوح رؤية غير مشوبة بأى عيب .

سينما المستقبل

والأهم من ذلك كله دور عرض أخرى يجرى تشييدها منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ، بمواصفات تقنية ، منقطعة الصلة بالمواصفات التى كانت تبنى دور السينما بموجبها فى سالف الزمان .

وهذه الدور الجديدة مهيأة لعرض الأفلام المصورة بطريقتى ايماكس (الصورة الأقصى) وأومنيماكس ، بل هى لا تستطيع أن تعرض الا مثل هذا النوع من الأفلام .

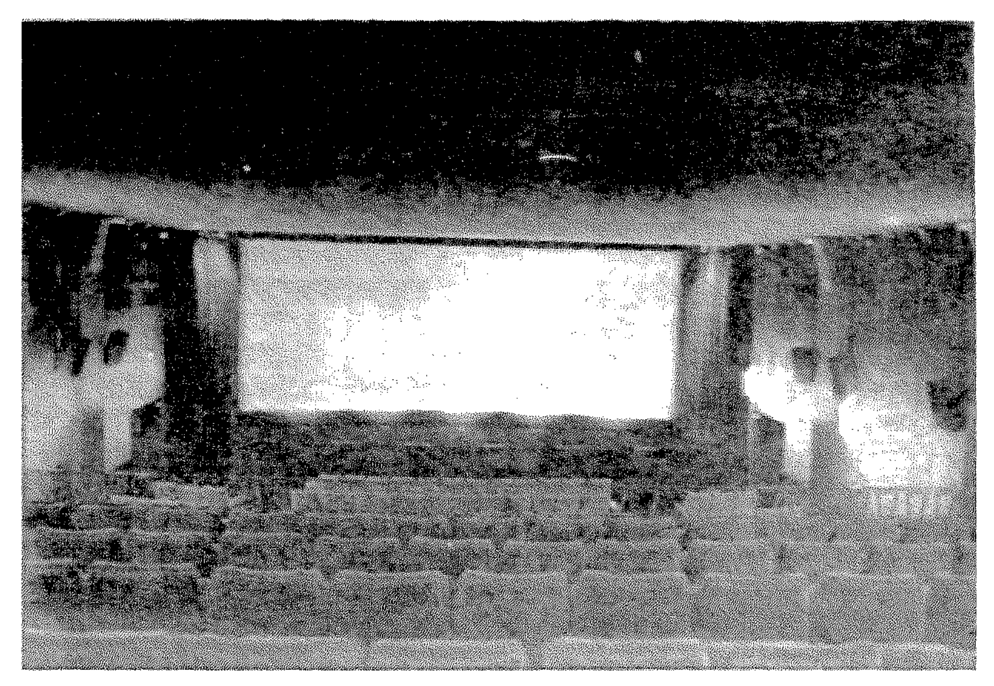
ولقد سبقتها ، قبل أن تصل الى صورتها الحالية المتكاملة ، ارهاصات ، بداياتها كانت فى معرض مونتريال الدولى بكندا (١٩٦٧) .

وفى السنوات الثلاث اللاحقة لهذا المعرض ، كان مشروع انتاج أفلام تصور وتعرض بتلك الطريقة يتخلق ويتشكل ، وكأنه جنين فى مراحله الأولى .

ومما ساعد على سرعة تكونه نهائيا ، تحديد موعد لابداع فيلم مصور بطريقة ايماكس ، غايته معرض أوزاكا الدولى باليابان (١٩٧٠) .

فضلا عن اكتشاف رجل فى أستراليا اسمه « رون جونز » ، نجح فى اختراع آلة تعرض الفيلم أفقيا بسرعة أربع وعشرين صورة فى الدقيقة ومائة ومترين فى الدقيقة .

وعلى كل ، فبدءا من سنة ١٩٧١ ، ومن مدينة تورونتو بكندا . أتيح لسينما جديدة



عود الى الشاشة الضخمة العريضة

أن تولد ، سينما تعرض أفلامها ، كما هو الحال فى سينما جييود بمدينة العلوم والصناعة باحدى ضواحي باريس ، على شاشة تبلغ مساحتها ألف متر مربع ، مع اثنى عشر مكبر صوت بقوة اثنى عشر ألف كيلووات .

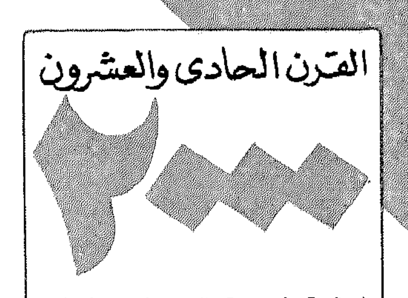
وحتى الآن ، جميع الأفلام التى أنتجت بتلك الطريقة من ذلك النوع المسمى بالأفلام التسجيلية ، وذلك فيما عدا استثناء وحيداً ، ألا وهو فيلم « أكتب فى الفضاء » للمخرج الفرنسى « بيير ايتى ».

فهو عمل روائى عرض في العاشر من يوليه لسنة ١٩٨٩ فى صالة جييود ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائتى سنة على العصف بالباستيل .

وحضر حفل الافتتاح الرئيس فرانسوا ميتران .

وأغرب ما يعجب له كل من شاهد هذا الفيلم أو غيره من أفلام تلك السينما الجديدة ، هو الشعور بنفس الدهشة التي شعر بها المشاهدون الأوائل ، وقطار الأخوين لوميير يدخل محطة « لاسييوتا » قبل مائة سنة الا قليلا .

وكأن التاريخ يعيد نفسه ، وكأن الانسان لا يكف عن الاندهاش .



العرب وأوربا في نهايات القرن العشرين بين الندية والاستجداء

بقلم : نادر فرجانى

نعالج هنا موضوع العلاقات بين العرب وأوربا في هذا العام الذى يشهد خطوة جوهرية على سبيل إنشاء أوربا الموحدة ، بعد أربعين عاما كاملة من الخطوة الأولى على طريق الوحدة الأوربية (مجمع الحديد والفحم ١٩٥١) . ونلاحظ مرورا ، هنا أن هذه العقود الأربعة أقصر من عمر جامعة الدول العربية بسبع سنوات .

ولكن مجرد صوغ الموضوع ، من منظور عقلانى ، يثير مقارنات ، بين العرب وأوربا فى سياق العالم تؤدى إلى تبصرات تلقى ظلالا كثيفة على إمكانية قيام علاقات فى صالح العرب ، إن استمرت أوضاعهم على ماهى عليه .

وتتبنى هذه المساهمة فى بحث الموضوع منظور أن العلاقات الاقتصادية والسياسية تقوم على المصالح ، وأن المصالح تتحقق بقدر درجة الوعى بها من ناحية ويمقدار توافر القدرات اللازمة للضغط من أجلها فى معترك العلاقات الدولية من ناحية أخرى وتوظيف هذه القدرات بفعالية من ناحية ثالثة .

العالم الراهن

يقارب القرن العشرون على الانتهاء والعالم يموج بعمليات تغير بعيدة المدى

- بانهيار الاتحاد السوفييتى انتهى التوازن النووى الذى ساد العالم عدة عقود
- نظم الحكم التى لاتخضع لمساءلة الشعب كفيلة بانتاج أسوأ مايمكن من النظام الجديد

ستحدد مستقبل البشرية بوجه عام وسيكون لها إنعكاسات قوية على العلاقات بين أجزائها بوجه خاص.

ولعل على رأس هذه التغيرات طفرة التقانة المعروفة بالموجة الثالثة، خاصة فى مجال المعلوماتية والاليكترونية الدقيقة.

لقد أدت هذه الطفرة إلى تغيير مفاهيم الموارد والانتاج فى النشاط البشرى، بل وعلاقات الانتاج، بحيث أصبح العنصر البشرى عالى التأهيل، والمبدع أهم عناصر الانتاج قاطبة، من ثم المعيار الأساسى للتقدم عند المستويات الأرقى من الوجود الانسانى، وبذلك تشكل الطفرة التقانية، وتبعاتها، بحق نقلة حضارية جوهرية يمكن مقارنتها بطفرات الزراعة المستقرة وبالثورة الصناعية كنقاط تحول حاسمة فى تاريخ البشرية ككل.

وتتسم الموجة الثالثة من التطور التقانى البشرى بالسرعة الهائلة لتشكل معالمها من ناحية، وبالحاجة إلى إمكانات بشرية ومؤسسية غاية فى الرقى لتتبوأ مكانة متقدمة فى مضمارها من ناحية أخرى.

ويأتى بعد ذلك انهيار الاتحاد السوفييتى والكتلة «الاشتراكية». لقد مثل هذا الحدث الجلل الحلقة الأخيرة فى سيادة الطور الراهن من الحضارة الغربية على العالم

أجمع وأقول الحلقة الأخيرة لأن أهم حلقة فى هذا الصدد كانت فى تقديرى هى تنازل الصين عن محاولة خلق «الإنسان الاشتراكى» .

وليس من تلك السيادة مناص الآن وإن دفعت البشرية كلها الثمن فيما بعد هل تكون الفلية بداية النهاية ؟ وهل يصبح الطور الحالى من تاريخ البشرية ، والرأسمالية مظفرة ، بمثابة الرحلة العذرية للباخرة «تيتانيك» التى بدأتها فى أبهى حلة وانتهت بأكبر كارثة فى سجل البحرية المدنية ؟

لقد ترتب على انهيار الاتحاد السوفييتى أن انقضى التوازن النووى الذى ساد العالم عدة عقود . وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية القوة العسكرية العظمى دون منازع بسبب الضعف الاقتصادى البالغ لأكبر مابقى من فتات الاتحاد السوفييتى (روسيا) . ويرتبط بهذا أن تعاظمت الهيمنة السياسية للولايات المتحدة على العالم ، وإن كان إقتصادها ضعيفا ويستشرى فيها الفقر المدقع رفق الثراء الفاضح مما يؤجج التناقض الاجتماعي بين الفقراء والأغنياء الذى يثور فى انفجارات متعاظمة كما حدث فى لوس انجيلوس مؤخرا . ومع ذلك فما زالت عملة الولايات المتحدة تلعب دور الاحتياطى العالمى .

غير أن القمة الاقتصادية والتقانية للعالم تشهد تنافسا يتوقع له أن يشتغل بين أقطاب ثلاثة : الولايات المتحدة واليابان وأوربا المتحدة . ويسعى كل طرف لاكتساب أسباب القوة فى هذه المنافسة بما فى ذلك الأسواق (مع ملاحظة أن البلدان المتخلفة لا تمثل أسواقا مغرية في هذا المجال نتيجة لضعف قدراتها الشرائية) . وقد يكون لهذا التنافس التقانى والاقتصادى عواقب سياسية ، وربما عسكرية ، فى المستقبل . أنظر مثلا فى التناقض الذى تبلور بين أمريكا وباقى الدول المتقدمة فى (قمة الأرض) حديثا حول التعهد بحماية البيئة فى العالم .

إعادة تشكيل العالم

وقد استتبعت كل هذه التغييرات أن استشرت محاولات إعادة تشكيل العالم على النمط الغربى عامة ، والأمريكى خاصة ، ثقافيا واقتصاديا وسياسيا ، شريطة ألا ينتقص ذلك من مصالح المراكز المهيمنة على «النظام العالمى الجديد» بالطبع .

ويبدو أن التشكيل الثقافى لمجتمعات العالم المتخلف قد وصل مرحلة متقدمة ، وإن كانت متأزمة ، بفعل الجاذبية الخادعة لنمط الحياة الغربى ، وتغرب فئة المثقفين فى هذه المجتمعات ، وإضعاف البنى الثقافية المحلية بواسطة هياكل القوة التابعة

المسيطرة ، فى تناقض واضح مع الثقافات المحلية ، خاصة الإسلامية منها ‏ وينذر هذا التطور بشرخ ثقافى خطير فى بنية هذه المجتمعات بين أقلية متغربة وأغلبية أصولية يتوقع أن يجلب مواجهات إجتماعية وسياسية مدمرة .

كذلك تزداد محاولات إعادة تشكيل البنية الاقتصادية للمجتمعات المتخلفة قوة بسبب الأزمات الاقتصادية التى تعيشها ، من خلال ما يسمى برامج «الاصلاح الاقتصادى والتكيف الهيكلى » التى يقوم عليها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، وتقوم هذه البرامج على تبنى منظومة السوق الحر ، فى العلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية بشكل لاتطبقه حتى الدول الرأسمالية المتقدمة (أنظر فى مدى تدخل الدولة فى هذه الأخيرة وفى محاولة فرض القيود على التجارة الخارجية بفرض حماية الانتاج المحلى) . كذلك وجد الغرب فى بقايا الكتلة الاشتراكية مجالا رحبا للاستثمار والانتاج والتسـويق فى مجتمعات أقرب حضاريا وأجدى اقتصاديا ، من الدول المتخلفة .

والمؤكد أن هذه البرامج قد تؤدى إلى تحسن ظاهرى فى بعض المقاييس الاقتصادية بالمعنى الضيق ، ولكنها تجر ويلات اجتماعية واقتصادية تتمثل فى إستشراء البطالة وانتشار الفقر مع زيادة سوء توزيع الثروة والدخل مما يترتب عليه تفاقم الصراع الاجتماعى . وليست هذه توقعات نظرية ، بل هى النتيجة الفعلية لسنوات غير قليلة من تطبيق هذه البرامج فى مجتمعات أفريقيا وأمريكا اللاتينية كما تشهد بها تقارير الأمم المتحدة . ولا أستر هنا موقفا أيديولوجيا . ولكن إضافة إلى العيوب المستقرة علميا لقوى السوق الطليقة ، فإن نظم الحكم غير الممثلة والفاسدة والتى لا تخضع لمساءلة الشعب ، القائمة فى أكثرية البلدان المتخلفة لكفيلة بانتاج أسوأ ما يمكن من النظام الجديد ، كما أخلفت شر سوءات تدخل الدولة .

أما فى المجال السياسى ، فتتجمع الآن قوى تستهدف المعاونة فى تطوير مؤسسات «المجتمع المدنى» فى المجتمعات المتخلفة ، ولاريب أن هذا التطور سيساهم فى إضعاف الدولة القائمة . ولا أسف على صنف الدولة التى وصفنا فى الفقرة السابقة . إلا أن المعاونة الخارجية ، بالنصح والتدريب والتمويل ، فى إطار التغيرات التى أشرنا إليها أعلاه ، ستخلق مجتمعا مدنيا على الصورة الغربية على أقل القليل، مرتبطا بالغرب جذريا فى الأغلب ، فى تناقض مع القوى الأصولية التى تستمد زادا من التـأزم الاجتماعى والسياسى فى كثير من هذه المجتمعات خاصة حيث يسود

الإسلام . فماذا سيكون حال مثل هذه المجتمعات ؟ هل ستتمزق عنيفا بين مجتمع مدنى غربى النزعة وأصولية محلية في كنف دولة ضعيفة ؟

ويدخل فى هذا السياق أيضا ما يسمى بالمشروطية الجديدة لبرامج العون الاقتصادى المقدم من الدول الغربية . فالمشروطية الجديدة تقوم على ربط العون الاقتصادى باحترام حقوق الانسان والديمقراطية ، كما تفهمها الدول الشارطة إلا عندما تتناقض هذه الاشتراطات مع مصالحها ، حتى وإن اقتضى الأمر التعاون السافر مع أنظمة قمعية .

الخلاصة إذن أنه يجرى إلحاق المجتمعات المتخلفة بنسق عالمى واحد بشكل متزايد . إن هذا النسق غير عادل فى الجوهر . وأن فرصة المجتمعات المتخلفة فى التنافس على أسباب القوة والرفاهة فى هذا العالم قليلة . ويتوقع أن تستغل وحدة العالم المستجدة هذه فى تفاقم استنزاف موارد البلدان المتخلفة من هذه الأسباب على شاكلة هجرة الكفاءات ، لصالح مراكزه المتقدمة . وأن تتدهور إمكانات البلدان المتخلفة فى المعترك العالمى فتتحول ، على حد تعبير أحد الاقتصاديين العرب البارزين « من الاستغلال إلى الاستغناء » . بل يرى البعض أن مصير المجتمعات المتخلفة هو أن تصطف أمام الدول المتقدمة فى صفوف تلقى الإحسان !

العرب وأوربا فى المنظور المقارن

العرب شعب توحده ، بالقوة ، ثقافة وتاريخ ، ويقطن متصلا جغرافيا فسيحا وإن جزأه المستعمر الأوربى فى التاريخ الحديث إلى كيانات لا يعدو بعضها أن يكون مسخا تاريخيا ، وأوربا قارة تسكنها شعوب متفرقة .

غير أن السمة الفارقة جوهريا بين العرب وأوربا عام ١٩٩١ هى سعى الثانية الحثيث نحو الوحدة بينما تتوطد القطرية فى المنطقة العربية ، فى ظلال الهيمنة الغربية ، بقيادة الولايات المتحدة ، التى تقارب الاحتلال المباشر لبعض الأقطار العربية ، خاصة بعد كارثة الخليج التى أنشأت كراهيات مريرة بين الحكام بل وأقسام من الشعب العربى ، قد يصعب تجاوزها بسرعة .

وإن كان هناك من مساع توحيدية داخل المجموعة العربية فتتمثل فى محاولة توحد مجلس التعاون الخليجى ، أو مجلس التعاون المغاربى ، من منظورين مختلفين ، فى التفاوض مع أوربا ، بغض النظر عن باقى العرب .

بل تتعرض أجزاء من البلدان العربية القائمة للتفتت . أنظر فى حالتى العراق والصومال .

بالمعايير السائدة ، والتى يتوقع أن تزداد رسوخا ، أى نوعية البشر ، تتربع أوربا على قمة التقدم البشرى والعرب متخلفون ، بل يزدادون تخلفا فى المنظور المقارن .

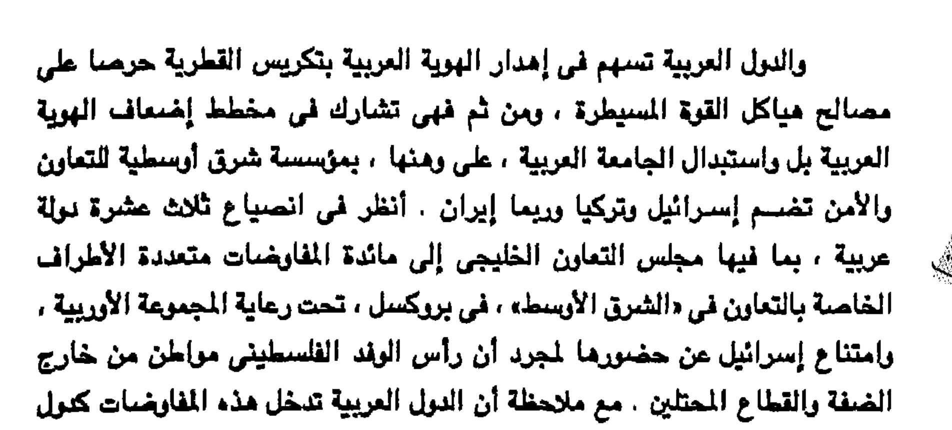
يكفى أن قرابة ٤٠ بالمائة من رجال العرب ، وثلثى نسائهم ، مازلوا ، فى أخريات القرن العشرين ، أميين بمعنى فقدان القدرة على أوليات القراءة والكتابة والحساب ، وهو مفهوم للتعلم عفا عليه الزمن ، ولاتكفى الجهود الحالية فى مجال التعليم الأساسى لسد منابع الأمية فى المستقبل المنظور . بل إن الموقف النسبى للعرب ، بالمقارنة بباقى الدول المتخلفة ، قد تدهور فى هذا المضمار عبر العقود الثلاثة الماضية . أما التعلم على مستوى راق يؤهل لامتلاك ناصية العلم والتقانة ، المعيار الأساسى للتقدم فى عالم اليوم والغد ، فضرب من الخيال .بينما أوربا الموحدة تتنافس على قمة التقانة الحديثة فى العالم كله ، وقد كان سبيلها إلى ذلك إنشاء العديد من مؤسسات البحث والتطوير الأوربية الموحدة .

وحتى بالمعايير الانسانية الدنيا ، من غذاء وكساء ومسكن وتعليم وعمل ، فالعرب فى حالة يرثى لها . ولنعتبر فقط الفجوة الغذائية التى تزداد اتساعا فى الوطن العربى . فمجمل البلدان العربية غير قادر على إنتاج الغذاء الأساسى للعرب ، وبعض الدول العربية يستجدى بل غذائه الأساسى معونة من الغرب ، بينما يتشدق بفخيم الشعارات المفرغة من أى مضمون .

أوربا ديمقراطية فى الجوهر ، وتتدعم ديمقراطيتها مع التوحيد بفضل مؤسسات أوربية موحدة أرقى من تلك القطرية مثل البرلمان الأوربى والمحكمة الأوربية .

بينما الدول العربية ، بدرجات استبدادية وقهرية مما أدى إلى إنهاك الحيوية السياسية للشعب العربى ، وإلى سيطرة نظم حكم غير ممثلة للشعب وغير مسئولة أمامه بجدية ، حتى وإن ارتدت أحيانا مسوح ديمقراطية شكلية . وتحكم هذه النظم سيطرتها عن طريق توليفة من الامساك بمقاليد العائد الاقتصادى والمكانة الاجتماعية من جانب ، وتزييف الوعى من خلال نظم التعليم والإعلام المدارة من جانب آخر ، والقهر المباشر من جانب ثالث .

أوربا تبنى هوية أوربية موحدة ، ومؤسسات أوربية فاعلة ، تكون أساسا لوحدة حق جابهت ولا شك صعوبات كثيرة ، وستواجه لاريب صعوبات أخرى ، ورغم ذلك فالمسيرة تطرد وترقى .



والدول العربية تسهم فى إهدار الهوية العربية بتكريس القطرية حرصا على مصالح هياكل القوة المسيطرة ، ومن ثم فهى تشارك فى مخطط إضعاف الهوية العربية بل واستبدال الجامعة العربية ، على وهنها ، بمؤسسة شرق أوسطية للتعاون والأمن تضم إسرائيل وتركيا وربما إيران . أنظر فى انصياع ثلاث عشرة دولة عربية ، بما فيها مجلس التعاون الخليجى إلى مائدة المفاوضات متعددة الأطراف الخاصة بالتعاون فى «الشرق الأوسط» ، فى بروكسل ، تحت رعاية المجموعة الأوربية ، وامتناع إسرائيل عن حضورها لمجرد أن رأس الوفد الفلسطينى مواطن من خارج الضفة والقطاع المحتلين . مع ملاحظة أن الدول العربية تدخل هذه المفاوضات كدول منفردة ، أو على أكثر تقدير ، كمجموعات عربية فرعية (الخليج ، المغرب ، ...)

وليس العرب الرسميون فقط هم العاملون على تفتيت الهوية العربية وإحلال هوية «شرق أوسطية» محلها . فهناك فئة من المثقفين فى البلدان العربية تشارك فى هذه الموجة الجديدة ، خدمة للحكومات القائمة وللغرب ، وضد مصالح الشعب العربى . أنظر مثلا فى مشروع «المبادرة من أجل السلام والتعاون فى الشرق الأوسط» المتبناة أمريكيا لإنشاء قناة غير حكومية ، وإن كانت وثيقة الصلة بالحكومات ، تكون حافزا ومكملاً ، بل وبديلا إذا اقتضى الأمر ، للمفاوضات الرسمية الجائرة القائمة الآن ، والذى يتمركز حول فئة معروفة من المثقفين فى البلدان العربية .

على الساحة الدولية ، أوربا إحدي قوى ثلاث تتنافس على زعامة «النظام الدولى الجديد» فى القرن الواحد والعشرين من خلال التقانة والاقتصاد ، بعد انهيار الكتلة الشرقية . بينما العرب ، كدول ودويلات فرق ومتخلفة ، هامشيون .

بين أوربا والوطن العربى ، كدار للإسلام ، اتصال حضارى سابق منكور من أوربا ، وانطراح حضارى ، واسع النطاق ومتعاظم من قبل عرب اليوم .

وأخيرا ، بين أوربا والعرب عداء ايديولوجى ، ومن ثم سياسى ، مبطن دينيا منذ الحروب الصليبية ، يتأجج أواره بصعود المد الاسلامى السلفى فى الوطن العربي وبرواج التيارات الرجعية والفاشية فى مجتمعات الوفرة الأوربية .

بين الندية والاستجداء

ماذا يريد العرب من أوربا ؟ وماذا يمكنهم تقديمه فى المقابل ؟ وبالتالى ماذا يتوقع أن يحصلوا عليه فى ضوء موازين القوى الراهنة ، فى سياق العالم القائم الذى وصفنا إجمالا ، وبينا وضع العرب وأوربا فيه ؟

عندى أن استقراء معطيات القسمين السابقين من هذا المقال ، بفرض استمرار الاتجاهات الأساسية القائمة ، يفضى إلى أن العلاقة بين العرب وأوربا ستنزع ، اطراداً نحو الاستجداء عوضا عن الندية .

فليس لدى العرب من أسباب القوة ، ومن ثم الندية الكثير ، ولا يتوقع لها أن تزداد .

وتدل خبرة العقود الأربعة الأخيرة على أن العرب قد تفننوا فى إهدار مالديهم من أسباب القوة خاصة عن طريق قهر نظم الحكم القائمة لإمكانات البشر والتمترس وراء أسوار القطرية الموهنة .

وبالمقابل يطلب العرب من أوربا كل شىء من الغذاء الأساسى ، معونة فى أحيان كثيرة ، إلى سلع الرفاهة المادية ، إلى السلاح الذى يحارب به بعضهم بعضاً ويستخدمه جميع الحكام فى مواجهة الشعب .

ولن ينقذ كثيرا ، وحال العرب كذلك ، اللعب على عقد الذنب الأوربية ، على التنافس بين الأقطاب المستجدة فى العالم الغربى ، أو حتى الارهاب أو التهديد به .

لن ينقذ العرب من هذا المصير التعس ، فى التحليل الأخير ، إلا أن يغيروا ما بأنفسهم .

لكن هناك تمايزات إجتماعية مهمة داخل هذه الصورة الاجمالية تنبنى على تحديد من نقصد بالعرب ؟

هل نقصد عرب تخلف النفط أم عرب تخلف الفقر ؟

وبين الفصيلين فروق وتمايزات ، رغم شركة التخلف ، أشرنا إلى بعضها أعلاه.

ثم هل نقصد العرب الحكام أو الشعب ؟

فللعرب حكام يتعاملون نيابة عنهم مع الأطراف الخارجية رغم أن النيابة كما أسلفنا فاسدة . وإن كان النمو المتوقع للمجتمع المدنى ، على الشكل الذى قدمنا ، يمكن أن يدخل مع الزمن عنصـر تناقص بين الحكام والأجانب ، ولكن من منظور غربى .

وحتى داخل الشعب تتفاوت التطلعات والإمكانات بين فئات الشعب المختلفة بما ينعكس على طبيعة العلاقات مع الأجانب عموما ، وأوربا على وجه التحديد .

باختصار ، مناقشة العلاقات بين العرب وأوربا دون اعتبار للانقسامات

الداخلية بين الدول العربية من ناحية ، وبين الشرائح الاجتماعية للشعب العربي من ناحية أخرى ، تنطوى على تبسيط مخل للأمر .

فالمرجح ، إن استمرت أحوال العرب على ماهى عليه ، أن تستمر الفئات الاجتماعية المسيطرة فى السعى إلى علاقات قوية مع أوربا ، لامفر من أن تكون تابعة، وإن تسربلت بمظاهر تفخيم كاذبة . ففى أوربا ستجد هذه الفئات أمنا مزعوما، وأسبابا للرفاهية المادية ، وملاذا لأموالها ، بل مستقرا ومتاعا إذا دارت الدوائر . وستقدم هذه الفئات المسيطرة لأوربا قرابين هذه العلاقات على حساب الشعب العربى .

كذلك يتوقع أن تقوى اللحمة بين النخب المثقفة المغربة ، وبين المراكز الثقافية الأوربية ، التى تسترجع مرة أخرى دور المراكز الاقتصادية والسياسية للبلدان العربية ، حتى ليكاد يصبح حصاد عقود الاستقلال هشيما . وفي هذا المنظور سيصبح هم النخب المثقفة المغربة فى البلدان العربية الالتحاق بمراكز الغرب ، إما مباشرة إن كانوا يملكون ما يغرى الغرب من مال أو ملكات ، أو من الباب الخلفى المتمثل فى القطاع الاجنبى فى النشاط الاجتماعى والاقتصادى ، بل والسياسى .

أما الغالبية المستضعفة من الشعب فالمنتظر أن تكون هامشية فى العلاقة مع أوربا كما هى مهمشة فى بلدانها . وإنما سيبقى أمام بعض قليل منها فرصة الفرار إلى جنة الغرب ، فى الداخل أو الخارج ، عند المستويات الأدنى من القبول والمزايا .

ولاريب أن هذا التمايز الاجتماعى فى العلاقة بين العرب وأوربا ، بما تحمله من توترات ، فى إطار الاستقطاب الاجتماعى المتعاظم ، سيحمى التنقاض الاجتماعى فى البلدان العربية .

وعليه ، ينتظر أن تنحى العلاقات بين العرب وأوربا بعيدا عن الندية بسبب موقف القوى الحاكمة والنخب المثقفة المغربة ، إلى أن يتسبب المأزق الاجتماعى فى البلدان العربية فى إضعاف هيمنة الفئات المسيطرة حاليا على مقدرات هذه البلدان وعلى غالبيتها المستضعفة .

وحينذاك لن يكون البديل حميدا .

كما لن يكون الطريق إليه إلا عسيرا .

كتاب الهلال
يقدم

شكسبير في مصر

بقلم
د. رمسيس عوض

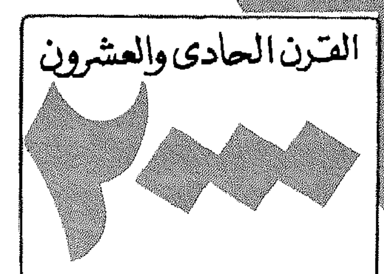
يصدر
٥ سبتمبر ١٩٩٢

روايات الهلال
تقدم

سراج

تأليف
رضوى عاشور

تصدر
١٥ سبتمبر ١٩٩٢



القرن الواحد والعشرون يـــــدخل أفريقيـــا

بقلم : د . عبد الملك عودة

يتهيأ القرن العشرون للرحيل من حياة القارة الأفريقية دولا وشعوبا ، بعد أن ترك بصماته ومواريثه على مجمل أوضاع الحياة فى المجتمعات الأفريقية . ومنذ فترة من الزمن بدأت مراكز الابحاث والجامعات والدراسات المستقبلية فى مناقشة ونشر تصورات وسيناريوهات لتطور الأوضـــاع فى القرن القـــادم أو التنبؤ بما سيكون، ومثل هذه الرياضة الفكرية المستحبة لا تقتصر فقط على القارة الأفريقية وانما نجدها ايضا بالنسبة لأوضاع ومستقبل مناطق وأجزاء منوعة من العالم المعاصر . وفى هذا المقال نختار عددا من القضايا والمشكلات والأوضاع التى نعتقد أن أزمنة وأحداث القرن القادم سوف تجدها وتتفاعل معها فى حياة البشر والدول بالقارة الافريقية :

١ - قضايا الدولة المستقلة : فى النصف الثانى من القرن العشرين تحولت القارة والجزر المحيطة بها إلى دول مستقلة بعد تبعية وإدارة استعمارية منوعة ، وتحولت الخطوط الإدارية الفاصلة بين نفوذ الدول الاستعمارية إلى حدود سياسية بمفهوم القانون الدولى المعاصر . وانضمت هذه الدول إلى عضوية المنظمات العالمية والاقليمية المنوعة . ولكن مازالت بعض الجيوب الإستعمارية التى لم يحسم مصيرها بعد مثل سبتة ومليلية فى شمال المملكة المغربية ، وجـــزيرة مايوت فى دولة الكـومور

استاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة

- تعداد اللاجئين المشردين فى افريقيا وصل الى ٧½ مليون انسان !
- الصراع والتنافس سيزداد للسيطرة على مجالات الإذاعة والتليفزيون .
- التوجه العام هو التحول الديمقراطى واحترام حقوق الإنسان .

(القمر) . وهذا الوضع الاستقلالى يطرح قضايا نظام الحكم والمؤسسات السياسية فى هذه الدول ، فقد بدأت أغلب الدول بنظم سياسية أقرب إلى الصورة السياسية الأوروبية والأمريكية ، ثم تحولت إلى نظم الحزب الواحد أو نظم عسكرية ، وأخيرا تتعرض القارة لموجة من التحول الديموقراطى وحماية حقوق الانسان تحت ضغط الدول المانحة . وهذه القضايا سوف يشهدها القرن القادم لأن بناء النظم السياسية وتشغيلها وحمايتها والتوصل إلى النتائج المرجوة منها سوف يستغرق وقتا طويلا ، وممارسة زمنية واجتماعية لسنوات كثيرة قادمة .

٢ - تصفية النظم العنصرية : شهد النصف الثانى من القرن العشرين تصفية النظم السياسية العنصرية فى الجزائر وكينيا وزيمبابوى ، وتشهد دولة جنوب أفريقيا الغاء النظام العنصرى بأسلوب التغيير الدستورى والتحول الديموقراطى الداخلى بعد تاريخ من الكفاح السياسى والعسكرى الاقليمى والعالمى ، وقبل دخول القرن ٢١ فى حياة المجتمعات الأفريقية سوف يتم التغير السياسى وقبول دولة جنوب أفريقيا عضوا فى منظمة الوحدة الأفريقية وبنك التنمية الأفريقى وغير ذلك من المنظمات الاقليمية . لكن سيبقى القرن القادم مشكلات وتعقيدات التفرقة العنصرية واللونية على المستوى الثقافى والمستوى الاجتماعى بدرجات متنوعة ، وهذه المشكلات لا توجد فقط فى افريقيا وانما تظهر أيضا فى دول أوروبا وأمريكا الشمالية وسوف تأخذ وقتا طويلا لعلاجها والتخلص منها .

٣- قضايا العلاقات الدولية : هذه مشكلة عويصة سوف تمتد إلى القرن



القادم حتى تتوصل الدول الافريقية إلى أنماط ومعايير تحكم العلاقات المتبادلة بين الدول الافريقية ودول العالم المعاصر خاصة دول النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، ويرجع هذا إلى أن الدول الافريقية ولدت وعاشت فى مناخ الحرب الباردة والاستقطاب الدولى وما صاحبهما من قضايا الانحياز والمعسكرات والاحلاف والاختراق والتطويق .. الخ ، وأن هذه الاوضاع الدولية تركت آثارها العميقة على تركيب المجتمعات والنظم السياسية وتوجهات النخب الحاكمة والمسيطرة مدنيا وعسكريا ، ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفييتى والمعسكر الشرقى من الخريطة السياسية والعسكرية للعلاقات الدولية ، بدأت الدول فى تعديل وتجريب سياسات خارجية جديدة مع الدول الكبرى والمتقدمة ومع الدول الافريقية المجاورة والمتاخمة ..

ومن ناحية ثانية فإنه على الدول الأفريقية فيما تبقى من هذا القرن وإلى أزمنة طويلة فى القرن القادم - أن تحاول التكيف والتعايش مع التحول العالمى الجديد أو النظام العالمى الجديد ، والذى نراه يتبلور فى إعلان قمة نيويورك الصادر عن مجلس الأمن فى فبراير ١٩٩٢ - وخاصة المبادىء والسياسات التى ترغب الدول الكبرى فى تطبيقها مثل التحقق من تطبيق حقوق الانسان ، ومراقبة الانتخابات النيابية والبرلمانية فى الدول الصغرى ، وتسوية النزاعات الاقليمية بالوسائل السلمية والتفاوض ، والالتزام بالاتفاقات الدولية فى مجالات الرقابة على التسلح عامة ونزع أنواع من السلاح ومنع انتشارها ، والربط بين المعونات والقروض والتسهيلات المالية وبين التحول الديموقراطى كما تراه سياسات الدول المانحة .

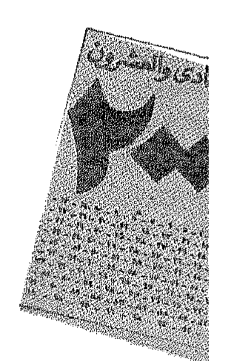
٤ - قضايا الوحدة الافريقية : شهد القرن الحالى قيام منظمة الوحدة الافريقية على أساس جغرافى يجمع دول القارة والجزر المحيطة بها ، ووصل عدد الدول الأعضاء حاليا إلى (٥١) دولة ، وهذا الرقم لا يشمل دولة جنوب أفريقيا والجمهورية الصحراوية (الصحراء الغربية) . وتاريخ المنظمة يسجل كثرة المنازعات بين الدول الأعضاء ، وتفاقم الحروب الأهلية والنزاعات المسلحة فى داخل الدول الأعضاء ، ولكن المنظمة أقدمت على محاولة انشاء جماعة اقتصادية على نمط الجماعة الاوروبية ، وقد نجحت أخيرا فى توقيع اتفاقية الجماعة الاقتصادية الافريقية فى مؤتمر القمة الافريقية فى أبوجا عام ١٩٩١ . ومخطط الانشاء يمتد إلى ٣٤ عاما مقسمة على ست مراحل ، وتهدف إلى تكثيف التنمية وتعبئة الموارد والتعاون والتكامل الاقتصادى لدول القارة جمعاء ، بواسطة أساليب تحرير التجارة البينية وحريات التنقل والغاء الرسوم



التمييز العنصرى فى أفريقيا أحد القضايا الهامة

الجمركية وانشاء سوق افريقية مشتركة . واذا ســـار المخطط طبقا للمتصور فسوف تقوم هياكل وبنايات الجماعة الاقتصادية عام ٢٠٢٥ ، وفى هذا المقام يتوزع التفكير والآمال عندى بين التفاؤل والتشاؤم ، ويرجع هذا إلى أن أجتماع القمة الأفريقية عام ١٩٩٢ دعا الدول الاعضـاء إلى سرعة المصـــادقة على الاتفاقية حتى تدخـل حيز التنفيذ ، حيث أن ١٣ دولة افريقية فقط هى التى صادقت على الاتفاقية بعد التوقيع عام ١٩٩١ .

٥ – قضايا الجفاف والتصحر واللاجئين : غضبت الطبيعة وانقطع المطر وساد الجفاف سنوات طويلة فى مناطق عديدة شمال خط الاستواء ، ثم انتقل هذا الوضع فى عام ١٩٩١ إلى دول كثيرة جنوب خط الاستـواء ، وهذا خطر فـادح يهدد الانتاج الزراعى ويهدد حياة البشر وقطعان الماشية والإنتاج الحيوانى ، ويؤثر تأثيرا سلبيا فادحا فى حياة المجتمعات الأفريقية على مستوى الحضر والريف ومناطق الرعى والغـابات . وتقـارير الأمم المتحـدة منشـورة بشـأن هذا الوضع ونتائجهالسياسية والاقتصـادية والاجتماعية والبشرية . وهذه الأوضاع سوف تمتد إلى



القرن القادم كما أن لها آثارا سياسية على مستوى العلاقات الخارجية مع الدول المانحة والمنظمات الدولية والاقليمية . ومن ناحية ثانية فإن قضايا اللاجئين والمشردين والنازحين عن مناطق اقامتهم ترتبط بمشكلات الجفاف والتصحر والقحط كما ترتبط بالحروب الاهلية والنزاعات المسلحة المنتشرة فى عدد من الدول الأفريقية . ولسنا فى حاجة إلى الافاضة فى مشكلة اللاجئين فهى معروفة تطالعنا كل يوم فى وسائل الاعلام، وأن تعداد اللاجئين والمشردين فى افريقيا وصل إلى $\frac{١}{٢}$ ٧ مليون انسان ويمثلون $\frac{١}{٣}$ تقديرات اللاجئين على مستوى العالم .

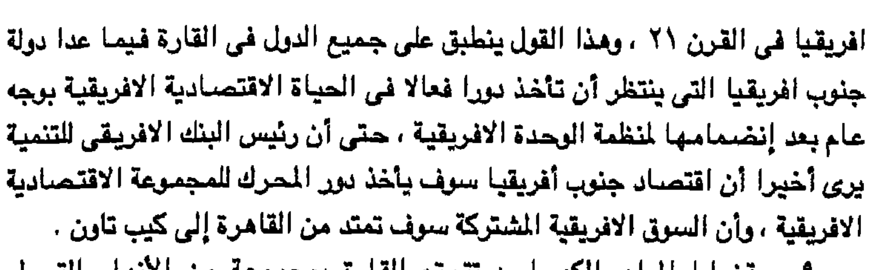
٦ - قضايا السكان ومرض الايدز : كان فى تقديرات واحصاءات السكان والدراسات الديموغرافية العالمية أن أفريقيا سوف تواجه انفجارا سكانيا متزايدا بنهاية القرن الحالى . على أساس أن عدد سكان العالم حاليا حوالى ٥,٤ بليون نسمة وانهم سوف يزيدون إلى ٦,٣ بليون نسمة سنة ألفين ، وان الرقم سوف يرتفع إلى ٨,٥ بليون نسمة عام ٢٠٢٥ ، وأن نصف هذه الزيادة سيكون فى قارة افريقيا . ولكن هذه التقديرات الآن تخضع للمراجعة واعادة النظر حيث أن تقارير منظمة الصحة العالمية تكشف أن عدد الافارقة المصابين أو الحاملين لمرض الايدز سيصل فى نهاية القرن الحالى ومطلع القرن القادم إلى حوالى ٢٠ مليون نسمة ، وإنه من المتوقع أن يموت منهم سنويا حوالى مليون نسمة ، وأن عدد الشباب المصابين بمرض الايدز فى الدول الافريقية جنوبى الصحراء حوالى ٦,٥ مليون شاب (أى واحد من كل أربعين فى سن الشباب) . ونضيف إلى هذا سوء الأحوال الصحية وارتفاع معدلات الوفيات (الموت جوعا) بين اللاجئين والمشردين ونتيجة لاستمرار النزاعات المسلحة فى بعض الدول الافريقية مثل ليبريا والسودان والصومال ورواندا وبوروندى وموزمبيق ... إلا إذا توصلت الاطراف المتحاربة إلى تسويات سياسية سلمية وبدأت تتحول إلى البناء ومعالجة تدميرات الحرب وآثار الجوع والمرض والفقر وسوء التغذية ونقص الطعام وانتشار المجاعة .

٧ - قضايا اللغة والثقافة والاتصال : من مواريث الحكم الاستعمارى السابق على عهد الاستقلال ، انتشار اللغات الأوروبية (انجليزى - فرنسى - برتغالى - اسبانى) على مستوى النخبة ووسائل الاعلام ونشر المؤلفات والانتاج الفكرى والتعليم فى المدارس والجامعات بجوار اللغات القبلية والقومية . ووصل الأمر إلى تقسيم افريقيا إلى مناطق انجلوفون وفرانكوفون ولوزيفون بجوار

الـــــدول والشعوب الناطقة بالعربية ، ويضاف إلى هذا انتشار لغات افريقية على نطاق واسع فى التعامل والحياة مثل السواحيلى فى شرق افريقيا والهاوسا فى غرب افريقيا وتكتب حاليا بالابجدية اللاتينية . هذه القضايا سوف تنتقل إلى القرن ٢١ ومعها صراع وتنافس يتنامى ويشتد للسيطرة على مجالات الاذاعة والتليفزيون بين الانجلوفون والفرانكوفون ، وقد استعدت للدخول فى حلبة المنافســـة اسبانيا والبرتغال حيث توجد (٦) دول افريقية ناطقة بهاتين اللغتين (لوزيفون) علما بانه لا يدخل فى حساب هذه الدول الجمهورية الصحراوية (الصحراء الاسـبانية سابقا). وتجدر الاشـــارة إلى وجود عديد من الدراسات والبحوث العلمية الموثقة عن هذا التنافس والتدفق الاعلامى الذى يرتبط بالتنـافس السـيـاسى والاقتصـــادى والاجتماعى بين الدول الاوروبية والامريكية فى ميادين الاتصال المنوعة .

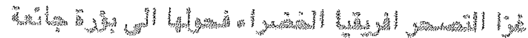
٨ – قضايا الديون والانتاج : تعانى الدول الافريقية من عبء ديون قيمتها هذا العام حوالى ٢٧٥ مليار دولار وأن أقساط الدين والفوائد (خدمة الدين) تصل إلى ٣١ ٪ سنويا من إجمـالى دخل وايرادات هذه الدول ، وعلى الرغم من أن قيمة الدين العام على افريقيا قد تبدو أقل من قيمة الدين العام المستحق على دول امريكا اللاتينية ، فإن ضعف الانتاجية وتذبذب أسعار الصادرات والارتفاع المتزايد فى أسعار الواردات بالنسبة للدول الافريقية يجعل عب ء الدين وخدماته ثقيلا للغاية على اقتصاديات دول افريقيا الفقيرة ، وبالاضافة إلى هذا الفقر فهناك الفساد وسوء الادارة وعدم الاستقرار السياسى وفشل خطط التنمية وتدميرات الحروب والنزاعات المسلحة فى أغلب الدول الافريقية ، وتأكيدا لهذا القول نورد جدولا نشره البنك الـــــدولى ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية عن افقر عشرين دولة فى العالم عام ١٩٨٩ ويتبين منه أن ١٥ دولة من بينها موجودة فى افريقيا ، كما تشير الاحصاءات الحديثة عام ١٩٩١ – ١٩٩٢ أن عدد الدول الافريقية ازداد إلى ١٦ دولة . والجدول كالتالى على أساس معدل دخل الفرد بالدولار :

موزمبيق – اثيوبيا – تنزانيا – لاوس – نيبال – الصــومال – بنجــلاديش – غينيابيساو – مـلاوى – بوتان – تشاد – فيتنام – جامبيا – مدغشقر – نيجيريا – مالى – زائير – بوركينافاسو – رواندا – النيجـر . والحل الوحيد لمشكلات الدين الخارجى وانخفاض مستويات المعيشة والدخل الفردى والخدمات الاساسية هو زيادة الانتاج للاستهلاك والتصدير . وهذا هو التحدى الأول الذى يواجه دول ومجتمعات



افريقيا فى القرن ٢١ ، وهذا القول ينطبق على جميع الدول فى القارة فيما عدا دولة جنوب افريقيا التى ينتظر أن تأخذ دورا فعالا فى الحياة الاقتصادية الافريقية بوجه عام بعد إنضمامها لمنظمة الوحدة الافريقية ، حتى أن رئيس البنك الافريقى للتنمية يرى أخيرا أن اقتصاد جنوب أفريقيا سوف يأخذ دور المحرك للمجموعة الاقتصادية الافريقية ، وأن السوق الافريقية المشتركة سوف تمتد من القاهرة إلى كيب تاون .

٩ - قضايا المياه والكهرباء : تتمتع القارة بمجموعة من الأنهار التى لم تستثمر طاقاتها كاملة فى مجالات الرى وتوليد الكهرباء .. الخ ، ولكن هناك بعض التجارب الناجحة فى مجال إقامة السدود وضبط المياه وتوليد الكهرباء على مستوى اقليمى أو بين الدول المشاركة فى حوض النهر ، وتشير إلى ما تم من تنظيم قانونى ومائى وكهربائى لنهر الزمبيزى ونهر السنغال على مستوى حوض النهر باكمله ، وإلى توليد الكهرباء على مساقط شلالات أوين فى أوغندا وتوزيع الكهرباء بين أوغندا وكينيا . وهذه الامثلة تشير إلى أن القرن القادم سوف يشهد التحول الافريقى إلى التعاون فى مجالى المياه والكهرباء نتيجة الضغوط الشديدة الواقعة على الدول لكى



غزا التصحر افريقيا الخضراء فحولها الى بؤرة جائعة



تؤمن لمواطنيها الغذاء والخدمات والتوسع فى الانتاج الزراعى والتحول إلى الزراعة المروية ومكافحة التصحر ، وهذا يتطلب من الدول الافريقية والنخب الحاكمة فى القرن القادم التحول إلى مفاهيم جديدة بشأن السيادة وتهدئة اوضاع التوتر على الحدود السياسية المشتركة والإقرار بمبادىء التعاونية المتبادلة على المستويات الاقليمية والعالمية .

١٠ - قضايا الديموقراطية والمشاركة السياسية وحقوق الانسان : هناك اجماع بين الدارسين للشئون الافريقية أن الجذر الأول للتدهور العام الذى تشهده دول ومجتمعات القارة هو غياب الديموقراطية ، وفرض النظم الديكتاتورية وسيطرة العسكر والحزب الواحد ، وحكم المجتمعات بالقوة واستعمال ادوات الردع والعنف الحكومى للسيطرة على شعوب هذه الدول . وصاحب هذه الفترة الزمنية انتشار الفساد بكل انواعه ، وعدم الانتماء والنزاعات المسلحة والحروب الاهلية . لذلك فإن التوجه العام هو التحول الديموقراطى واحترام حقوق الانسان والاقرار بالتعددية السياسية والثقافية واللغوية والقومية فى الدول متعددة القوميات والاقليات . ولكن لا يوجد حتى الآن نمط واحد يطبق بالكامل أو بالتفاصيل على هذه الدول والمجتمعات التى تتصف بالتنوع الشديد فى أغلب اوضاع الحياة ، ولكن الموجود هو توجه عام وإطار عام للتحول نحو الديموقراطية التعددية واقامة أجهزة ومؤسسات للحكم وللرقابة ولحماية المواطن ، وأن هذا التوجه العام للتحول الديموقراطى يتطلب وقتا وزمنا ليس بالقصير ، ويتطلب جهداً ليس باليسير ، ويحتمل خطوات التقدم للأمام وخطوات الإنتكاس للخلف ، كما يحتمل نماذج وتطبيقات شكلية أو جزئية بسبب أنه ليس من السهل أو المقبول عند النخب الحاكمة مدنية أو عسكرية أن تتنازل أو تتراجع طوعا عن امتيازاتها وسلطانها ومراكزها الاجتماعية والمالية المتولدة عن الإمساك بالسلطة واستثمارها واستغلالها ، ولكن دور الدول المانحة هام ومؤثر فى هذا الميدان فقد أعلنت إنها تربط بين المعونات والقروض والتسهيلات البنكية والمالية المطلوبة من جانب الدول الافريقية وبين خطوات التحول الديمقراطى التعددى وحقوق الانسان كما تؤكد الاشارة السابقة إلى ما ورد باعلان القمة الصادر عن مجلس الأمن بشأن مراقبة الانتخابات وحقوق الانسان وتسوية النزاعات الاقليمية وحاليا تنتشر الموجة فى القارة الافريقية على مستويات منوعة وفى إطار تصورات متباينة ، ولهذا فإن هذه القضايا وتعقيداتها سوف تكون الشغل الشاغل لأزمنة واحداث وتطورات القرن الواحد والعشرين ....

سيد درويش والثور الأبيض !

بقلم : كمال النجمى

عاش سيد درويش مائة عام على صفحات التاريخ حتى الآن ، فقد ولد سنة ١٨٩٢ ، وهاهى ذى سنة ١٩٩٢ تقف على حافة الثقب الأسود الأبدى الذى تسقط فيه أوراق السنين الجافة ! ..

ومن بداية عامنا هذا إلى قرب نهايته ، شهدنا احتفالات وندوات ومسرحيات ، وقرأنا قصائد ومقالات وتعليقات ، عن سيد درويش صاحب العيد المئوى ، بل الأوحد من أهل الفن الذى قيضت له الأقدار من أهل «المسئولية» من أقام له ذكرى مئوية امتدت عاما ، فشملت ذكرى مولده فى مارس (آذار) وذكرى وفاته فى سبتمبر (أيلول) .. وبين الذكريين ، وقبلهما ، وبعدهما ، قرعت الطبول تحية لفنه ، وضجت المواكب باسمه ، وصعد الكلم الطيب إلى روحه فى علاه ! ..

كأنما أراد المحتفلون بذكرى سيد درويش أن يحتفلوا بذكرى الغناء العربى نفسه ، فقد انقطع هذا الفن الجميل العريق وخلت الساحة من أربابه ، ونعقت الغرابيب فوق أطلاله ، مصداقا لما قرره الشيخ ابن خلدون قديماً من أن صناعة الغناء المتقن أول ماينقطع من «صنائع» الأمة عند انقطاع سيرها فى الحياة ودخولها فى التيه ! ..

وكنا - والعهد غير بعيد - نقول : ياقومنا .. حاذروا أن تنقطع بين أيديكم صناعتان : الشعر والغناء ، فإن



انقطاعهما نذير الخراب والتباب ! ..

فها نحن هؤلاء انقطعت بين أيدينا الصناعتان : مات الشعر العربى منذ ثلاثين سنة فانفطر عليه قلب العربية ، وانصدعت كبدها ، وبات أهلها فى العقد الأخير من القرن العشرين كأسلافهم «الموريسكيين» أو العرب المدجنين فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر فى أيدى القشتاليين ..

ولم يكن بعد موت الشعر مناص من موت الغناء ، فقد علقت به المخالب التى علقتْ قَبْلُ بالشعر ، فكيف ينجو ؟!

الآنَ إذ عَلَقتْ مخالبهم به
يرجو النجاةَ ولاتَ حِينَ مناَصِ

فالاحتفال الآن بذكرى سيد درويش يقام فيما يشبه سرادق العزاء ، والكلام عنه يبدو أضخم من معناه تارة ، وتارة يبدو بلا معنى ! ..

ويكاد الحجم المجسم لسيد درويش يسد الفضاء فى تهاويل عبادتنا للفنان الفرد الذى لبسته شخصية هذا الفنان المصرى الفريد ! ..

وأبلغ الإنصاف لسيد درويش أن يقدمه محبوه وعارفوه إلى الأجيال الجديدة فى حجمه الطبيعى ، ملحنا ومغنيا ومفكرا موسيقيا .. ويخلّصوا سيرته ومآثره الفنية من شهوات الإعجاب ، فإنها كثيراً ماتنقلب إلى تشويهات ! ..

ومن ذلك قولهم : لو لم يمت فى ريعان شبابه لصنع من الألحان ما لم يصنعه أحد فى القرن العشرين ! ..

بلى .. قد كان جديرا أن يصنع ذلك وأكثر منه ، ولكن الحى لا ينصف الميت إذا حكم عليه بما كان مرتقبا أن يصنعه لو عاش كذا من السنين فوق العمر الذى عاشه .. ولا ينتقص من سيد درويش من يقول إنه - فى ميزان الفن - يساوى بالضبط ما أتيح له أن يساويه فعلا خلال عمره الخاطف العاصف ! ..

ولو عاش لكان ممكنا أن يبلغ نهاية جهده بعد شوط قصير ، فيدور فى حلقة مفرغة ، ويسبقه الزمن ، ويتفوق عليه ملحنون جدد ، وينقلب سيد درويش المجدد إلى سيد درويش المحافظ المتزمت ، فإن هذا الفنان لم يكن ثمرة ناضجة سقطت فجاة من الفضاء ، بل كان ثمرة نبتت فى الأرض وأنضجتها الشمس فى زمانه ومكانه ، وقد عوجل عن استكمال فنه ، ولكن فنه هذا الذى لم يكتمل ، هو فنه كاملا غير منقوص !

لمسة التعبير

لقد نشأ سيد درويش فى نهاية عصر الشيخ محمد المسلوب والمطرب عبده الحمولى والملحن محمد عثمان وحين بدأ يلحن ويغنى كان هؤلاء قد تركوا المكان ، ولكنهم لم يتركوه فارغا ، بل تركوه مترعا ، ففن الدور قد بلغ على أيديهم غايته ، وكذلك الموشح ، فضلا عن القصيدة والموال، فلم يزد سيد درويش على ذلك كله

إلا لمسة من التعبير بدت ظاهرة قوية ، وكانت عندهم خافية تحت وشي الصناعة وزخرفها وإعجابها بذاتها ..

إن سيد درويش هو أول ملحن أفصح بالألحان عن معاني الدور والموشح ، وكانت هذه مأثرته الكبيرة ، فقد صارت الأغنية الفردية والمسرحية على يديه كيانا فنيا متراكبا – وإن كان لحنا ميلوديا مفردا بسيطا – وذلك هو الأساس الفنى الصحيح للغناء العربى المتقن «الكلاسيكى» كما نراه مسطورا فى كتب الأسلاف منذ العصرين الأموى والعباسى ..

ولسيد درويش أدوار كبيرة لاتقل براعة عن أدوار أستاذ الأدوار محمد عثمان ، فى تشكيلها المقامى والإيقاعى وفكرها الموسيقى ، ولكن أدوار سيد درويش أقرب إلى التعبير منها إلى التطريب ، وإن لم تخل بعض أدوار محمد عثمان ومعاصريه من التعبير مع الطرب بلا خفاء ..

ولانستطرد وراء أعمال سيد درويش فى المسرح وفى القوالب الغنائية المتنوعة ، وحسبنا أنه أنجز خـلال خمس سنوات فقط – عاشها فى القاهرة – ما لم ينجزه أحد من معاصريه .. فبين سنة ١٩١٨ و ١٩٢٣ لحن سبعا وعشرين مسرحية غنائية لفرقته الخاصة وفرق الريحانى والكسار وجـورج أبيض وأولاد عكاشة ومنيرة المهدية ..

وفى تلك السنوات التى انقضت كلمحة بارق سجل سيد درويش بصوته وأصوات المطربات والمطربين عشرة أدوار كبرى وتسعين لحنا ما بين أهازيج مسرحية وطقاطيق ومونولوجات وأناشيد ..

وكان يغنى ويحيى الليالى كمطرب محترف مع أن صوته لم يكن شديد الجاذبية ، إلا أن قوة روحه وعمق إحساسه فى أداء الألحان ، كان لهما فى صوته أثر يهز السامعين ..

وقد رحل سيد درويش فى عصر الأسطوانة الذى شهد فى مصر المد الوطنى الشعبى منذ ظهورها سنة ١٩٠٥ إلى ثورة ١٩١٩ وماتلاها ، فكانت اسطوانات سيد درويش تسجيلا لتلك المرحلة التاريخية بما انطوت عليه من بأساء ونعماء ! ..

وبعد وفاته بخمس سنوات تقريبا بدأت الإذاعات الأهلية فى القاهرة ، ثم جاءت الإذاعة الحكومية وازدهرت الأصوات فى عصر ميكروفون الإذاعة ثم فى عصر السينما ، وهما عصران متداخلان كأنهما عصر واحد ، لم يستطع المسرح الغنائى أن يصمد لهما أو يعيش فيهما ، فانصرف الملحنون كبارا وصغارا إلى الأغنية الإذاعية والسينمائية .. ولو عاش سيد درويش إلى ذلك الوقت لاضطر إلى وقف نشاطه فى تلحين المسرحيات الغنائية وصرفه إلى تلحين الأغانى الإذاعية والسينمائية ، ولكان سيد درويش كغيره من

ملحنى ذلك العهد فى خدمة صوت أم كلثوم وأسمهان وليلى مراد والمطربات والمطربين الآخرين ..

موجة فى تيار التطور

فلا يمكن أن يقال إذن إن سيد درويش لو عاش بعد سنة ١٩٢٣ لطبع الغناء العربى والموسيقى العربية بغير طابعها الذى عرفته على أيدى محمد عبد الوهاب والقصبجى وزكريا والسنباطى ، والجيل الذى تتلمذ عليهم ، وأضاف إليهم ، أمثال أحمد صدقى ومحمود الشريف .. ثم كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وغيرهم ..

لو عاش سيد درويش وأتى بالعجائب لكانت عجائبه هذه مجرد موجة فى تيار التطور الذى أجراه الملحنون فى الثلاثينات وماتلاها من عقود ، ولفرض عليه هذا التطور أن يسلك الطرق التى سلكوها ، أو يشق لنفسه مثلها ، فهم لم يلحقوا به فى زمانه ، وهو لا يلحق بهم فى طرائقهم التى انتهجوها فى زمانهم ، ولايمكن قسر التاريخ الفنى وغير الفنى أن يمحو المسطور فى صفحاته ..

والآن .. انتهت تلك الأيام ، ولحق الأول بالآخر ، واستوى الماء والخشبة كما كان يقال فى الأمثال ، وانقطع الغناء العربى المتقن إلا من ذكرياته وأسماء عباقرته ، فماذا يمكن أن يقال ؟! ..

لقد دخل أعداء الغناء العربى أرضه ، فهى الآن أرض محتلة تنتظر تحريرها ، ولو استسلم لهم أصحاب هذه الأرض لانقرض الغناء العربى المتقن بأصوله وفروعه ، دلالة خلل العمران وفناء الأمة ..

والمستمع العربى محصور الآن بين دعاة تغريب الغناء والموسيقى تغريبا تاما ، أى الاستغناء عن الغناء العربى والموسيقى العربية وإيداعهما متحفا للآثار إلى جوار عباءات سلاطين التركمان والجركس وسيوفهم وخوذاتهم ، ثم التطفل بعد ذلك على مائدة الموسيقى الأوربية والعيش على الفتات اليابس المتساقط من جوانبها ..

وأصحاب هذه الدعوة أو الدعوى يتجاهلون ذوق الإنسان العربى الذى صنعته عوامل التاريخ العميقة ، ويصطنعون «التقية» فيزعمون أنهم إنما يريدون «التطوير» لا التدمير « ولكن هؤلاء المطورين» لايوافقون فى سرائرهم حتى على وضع الغناء العربى فى متحف صغير يراه الإنسان العربى من بعيد ، أو يدنو من حائطه مستعبرا مستعيدا ذكريات الأجداد الكرام ..

تلفيق الصهيونية

والعجيب أن يقع ذلك بينما يلفق الصهيونيون لأنفسهم فى فلسطين مايسمونه «الموسيقى اليهودية» ولاشىء عندهم من هذه الموسيقى إلا التلفيق ، وأشد مايريب فى هؤلاء «المطورين» حقدهم ولددهم ، كأنهم ورثة المبشرين الأجانب ،



عبده الحامولى



منزل سيد درويش

أفكارا وأهدافا .. وهى شنشنة من أخزم عرفناها منذ ثلاثين عاما حين وثب «المطورون» فى الشعر يهدمون الشعر العربى من أساسه ! .

أما الفريق الآخر الذى جاء برهاناً على أننا قد صرنا فى الزمن الأخير ، فهو غربان الملاهى الليلية الذين انقطع الغناء العربى على حناجرهم انقطاعا من نوع آخر ، فهم ليسوا دعاة للموسيقى الأوربية «الرفيعة» ولكنهم دعاة لموسيقى الكاباريهات ، وتجارتهم رائجة ، والزمان زمانهم ، ووجودهم فى عصرنا يجعل ابن خلدون يتململ فى مثواه متفكرا فى مقالته المأثورة عن صناعة الغناء ! .

ولايدرى أحد .. أتنهض الأمة يوما فيسقط هؤلاء وأولئك ، أم نظل نتساءل مع الشاعر الذى قال :

أقومى أحياء فأعزف شاديا

بشعرى ، أم موتى فأبكى على الرمس ؟!

ومن يستهين اليوم بصناعة ال ناء العربى ، كما استهان أمس بصناعة الد ر فلا يبالى بهدمها ، بل يراها من اللهو ، و من عمل الشيطان ، فسوف يعض بنانه ذات يوم ويقول :

– ألا لقد أكلونى يوم أكلوا الثور الأبيض ! ..

مائة عام من الفنون التشكيلية فى مصر

بقلم : د . صبرى منصور

لم يكن غريباً أن تكون الفنون التشكيلية أحد أهم الميادين التى طرقها المصريون فى صحوتهم الحديثة ، وبلغوا فيها خلال سنوات قليلة مستوى قلّ أن تجد له نظيراً فى مجالات أخرى من مجالات الابداع والنشاط الانسانى كالموسيقى والمسرح والسينما . ذلك أن الشعب المصرى - صاحب التاريخ الإبداعى العريق - ظلت قوى الخلق الفنى كامنة فيه أزماناً طويلة تنتظر الفرصة للانطلاق والتجسد .

وربما يفسر ذلك عبقرية محمود مختار وكان أول مثال مصرى معاصر ، فأعماله النحتية تمثل إنجازاً رائعاً وفريداً يماثل فى عظمته وتفوقه إنتاج أكبر النحاتين المعاصرين له . كما أن ذلك يفسر أيضاً ما قدمه جيل الرواد المصورين محمود سعيد ويوسف كامل وراغب عياد ، فهم على اختلاف شخصياتهم وأساليبهم الفنية ، قد تجسدت فى أعمالهم رهافة الحسّ الفنى ، واستطاعوا أن يقدموا نموذجاً ودليلاً على



الفلاحة المصرية للفنان محمود مختار

تفوق المصريين فى مجال حضارى كانوا بعيدين عنه - لسبب أو لآخر - لمئات السنين .

★ البدايـــات

ظلت مصر لفترة زمنية طويلة بمنأى عن اللحاق بركب التطور ، فقد كان يخيِّم عليها ظلام العصور الوسطى منذ أيام الحكم العثمانى ، فثقافتها ثقافة آسنة لا جديد فيها ، واقتصرت فنونها على الحرف الشعبية وتحسين الخطوط العربية ، واتسمت تلك الفنون بالبدائية والخشونة . وقد وجد الغرب فى مصر لقمة سائغة ، فوطأ أرضها الأتراك والفرنسيون والانجليز يفعلون بها ما يشاءون ، فقد كان شعبها البسيط مغيباً ، ويفتقد أشدّ الافتقاد إلى مقومات الحياة بكل ما تعنيه من عوامل التقدم ذلك الشعب العظيم - الذى بـــدأ منذ آلاف السنين حضارة الانسان ، وشيد على ضفاف النيل الإعجاز البشرى الذى مازالت آثاره تنطق به - كان يبدو كما رد هدّه المرض بعد أن توالت عليه المحن وحلّت به المصائب حتى افقدته الذاكرة ، وذهبت بقواه الحضارية فأصاب الخمود إبداعه ، وضمرت مواهب أبنائه ، وأمسى فى أشد الحاجة إلى من يهزه هزاً ليفيق من غفوته ويستعيد بعض قوته .

وجاءت الشرارة التى كان لها فضل التنبيه ، وتمثلـــت فى ذلك الاحتكـــاك الحضارى الذى حدث بين الحملة الفرنسية (١٧٩٨) وبين المجتمع المصرى ، فالجيش الفرنسى لم يكن مجرد جنود يحققون غزواً عسكريا فقط ، وانما صاحبهم مجموعات ضخمة من العلماء والفنانين كانت مهمتهم إجراء مسح شامل لتلك البلاد الغشيمة صاحبة التاريخ الموغل فى القدم ، والتى تحتوى أرضها على كنوز حضارة رائعة كان لها ذات يوم شأن عظيم وأصحابها لا يدرون عنها شيئا ، فهم غافلون عن أهميتها غير مدركين لقيمتها . وهكذا إختلط فنانو الحملة الفرنسية بطبقات من الشعب المصرى ، ورأى المصريون لأول مرة ما نطلق عليه انواع الفنون الجميلة من رسم وتصوير ونحت ، فاقتربوا منها فى البداية بحذر وريبة ، إذ كانت تسيطر عليهم التعاليم الدينية التى تدعو لكراهية التصوير وعمل التماثيل ، وينبهر رجل مثل الجبرتى برسوم فنانى الحملة الفرنسية وتلك الصور الواقعية التى بها من البروز والتجسيم فى الفراغ ما يجعلها تكاد تنطق على حد تعبيره .

ثم جاء مسعى محمد على الذى تولى السلطة فى مصر (١٨١١)

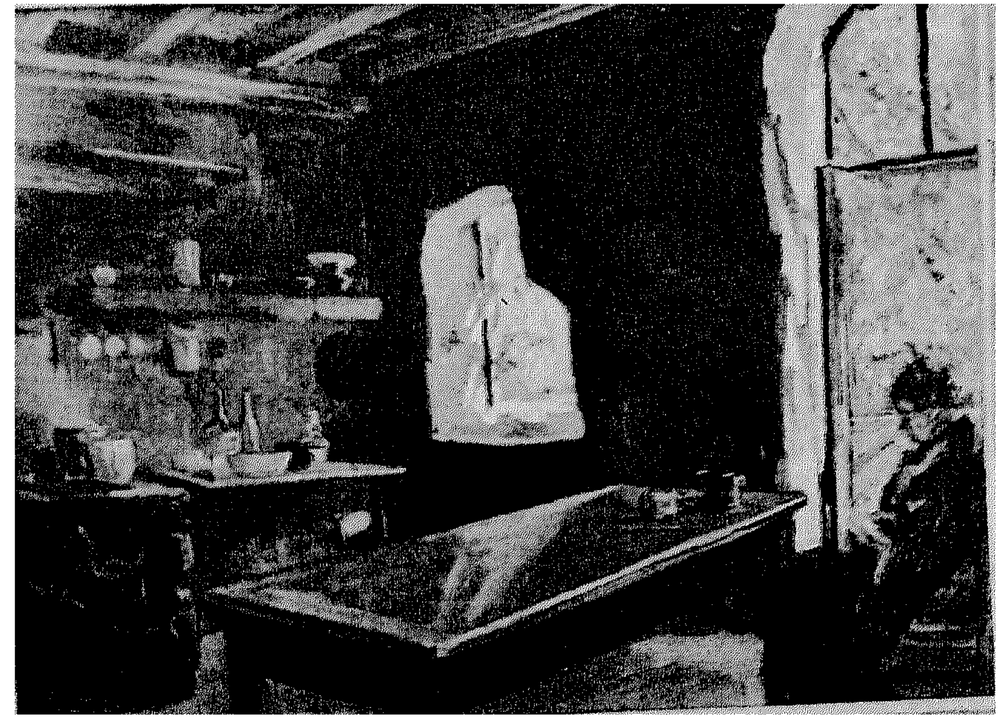
نحو تكوين دولة مصرية حديثة ، فكانت الفنون من بين المجالات التى اهتم بها ، فأوفد صفوه الشباب المصرى إلى باريس لتعلم فنـــون النحـــت والحفر والرسم، وحين عاد هؤلاء تولوا نشر وتدريس الفنون فى المـــدارس الفنية الصنـــاعية ، وذلك إلى جانب الخبراء والفنانين الذين استقدمهم محمد على واستعان بهم فى إقامة القصور والمتنزهات والنوافير .

واستمرت فى عهد اسماعيل (وقد حكم مصر عام ١٨٦٣) الجهود فى إقامة دولة عصرية على ضفاف النيل ، وقد كان هدفه تحويل مصر إلى قطعة من أوربا ، فكثرت فى عهده مظاهر التحديث والبناء ، واحتشدت العاصمة بالأعمال الفنية والتماثيل . ومنذ عام ١٨٣٠ توافد على مصر الفنانون المستشرقون ، وعاشوا فى حىّ الخرنفش ، وكانت القاهرة القديمة بما فيها من أسواق وعمارة إسلامية وحمامات هى الموضوع المفضل لدى هؤلاء الفنانين بالاضافة إلى المناطق الأثرية ومناظر الصحراء ، وتـــراوحت اتجاهاتهم بين التســجيلية الواقعيــة والـــرومانتيكية والانطباعية ، وهى أساليب فنية كانت أوربا قد تخطتها فتحولت إلى قوالب محفوظة ومصنوعة . وقبل مائة سنة بالتمام فى عام ١٨٩٢ تكونت أول جماعة فنية فى مصر ، وأطلقت على نفسها (الدائرة الفنية) وأصدرت مجلة (الفن) ونظمت معارض فنية سنوية ، ولكن لم يذكر أن فناناً مصرياً كان ضمن المشاركين فيها .

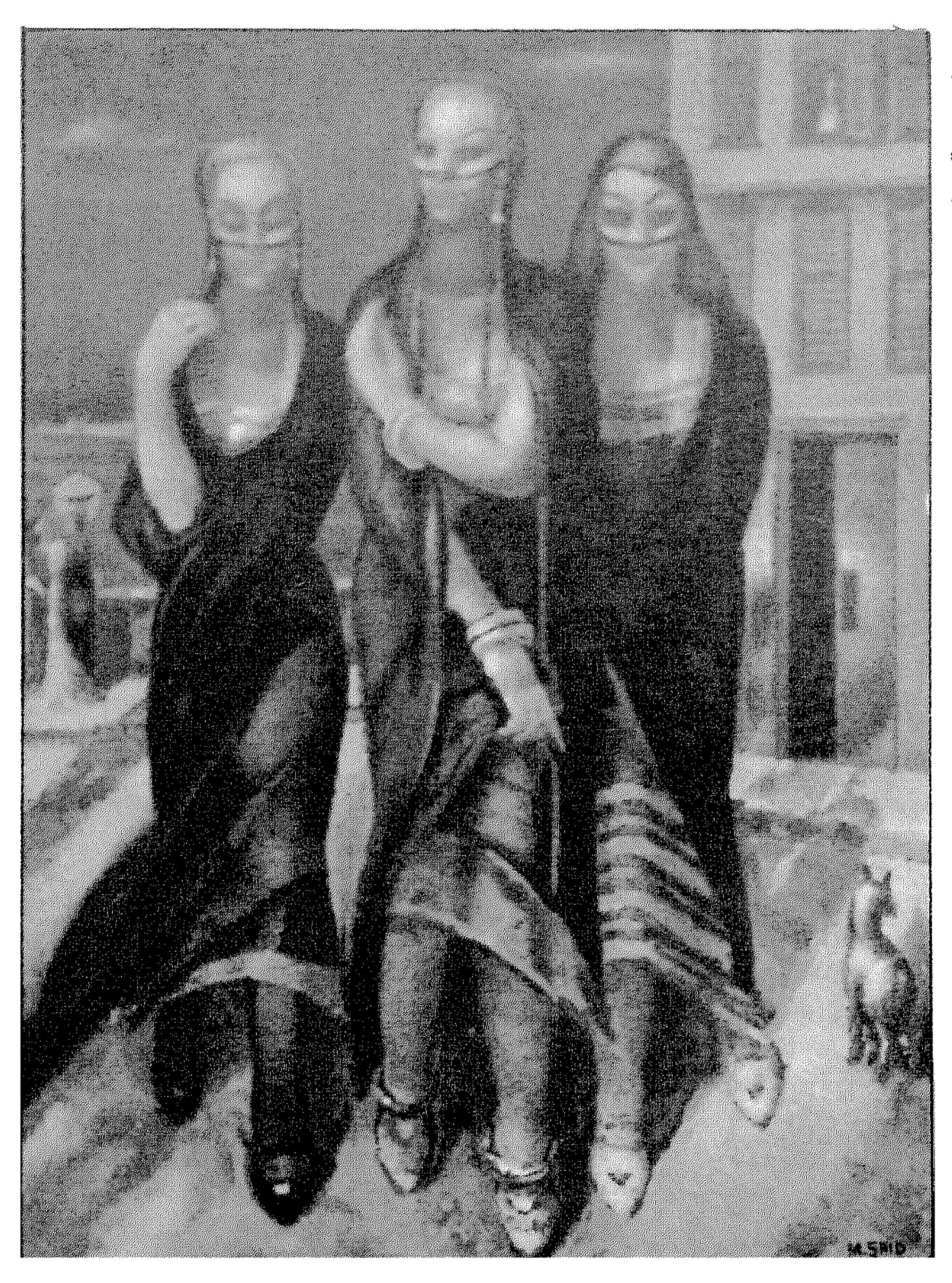
وكان لهؤلاء الفنانين المستشرقين الفضل فى توجيه أنظار المحيطين بهم من المصريين إلى أهمية الفنون وجمالياتها ، وفى عام ١٨٩٢ افتتح الخديوى عباس حلمى أول صالون للفن بدار الأوبرا وكان يصحبه الأمراء والأعيان ووجهاء القوم .

وهكذا أصبح للفنون الجميلة وجود متواضع على الساحة الثقافية ، مما دفع المفكرين والكتاب المصريين الذين زاروا أوربا واتصلوا بالحياة الثقافية والفنية هناك ، وانبهروا بفنون الغرب إلى تدبيج المقالات فى الصحف المصرية آنذاك مطالبين بالاهتمام بالفنون ومبرزين مدى حاجة المجتمع المصرى إليها ، وكان من أشد هؤلاء الكتاب حماساً لطفى السيد وقاسم أمين ، بل كان من بينهم الشيخ الإمام محمد عبده الذى انبرى للدفاع عن الفنون الجميلة ، موضحاً أنه لا خطر منها على الدين ، بل أن فيها فائدة محققة

إحدى لوحات الفنان راغب عياد



لوحة للفنان يوسف كامل



بنات بحري للفنان محمود سعيد

لتقدم المجتمع وتضافرت جهود الأجانب والمصريين فى انشاء مدرسة الفنون الجميلة ، حين تحمس لإقامتها الأمير يوسف كمال ، فكلف المثال الفرنسى (لابلان) باعداد مشروع المدرسة ومنهجها ، وافتتحت رسمياً للدراسة المنظمة فى ١٢ مايو عام ١٩٠٨ ، وضمت أقسامها فنون التصوير والنحت والزخرفة والعمارة . وأشرف على التدريس بتلك الأقسام اساتذة أجانب من الفرنسيين والإيطاليين .

★ الاســاتذة الأوائل

كان من بين الطلاب الذين التحقوا بمدرسة الفنون الجميلة حين فتحت ابوابها لأول مرة المثال محمود مختار (١٨٦١ - ١٩٣٤) ومن بين المصورين يوسف كامل (١٨٩١ - ١٩٧١) وراغب عياد (١٨٩٢ - ١٩٨٣) ويكوّن هؤلاء مع الفنانين الهاوين محمود سعيد (١٨٩٧ - ١٩٦٤) ومحمد ناجى (١٨٨٨ - ١٩٥٦) جيل الاساتذة الأوائل أو ما اصطلح على تسميته بجيل الرواد الذين كان لهم السبق فى حركة الفن المصرى الحديث . والأمر الغريب أن هؤلاء الاساتذة على الرغم من كونهم أوائل المصريين الذين أتيحت لهم فرصة صقل مواهبهم ، وأول من أبدع أنتاجاً فنياً بالمعنى المتعارف عليه فى الثقافة المعاصرة فإن انتاجهم قد احتوى قيمة فنية عالية لا تتأتى إلاّ فى مناخ فنى مزدهر متصل الحلقات .

وقد كان محمود مختار - وهو أول نحات مصرى بعد قرون طويلة من إنحسار الفن المصرى القديم - حريصاً رغم تعلمه على أيدى الأجانب فى مصر وفرنسا على أن يأتى عمله متصلاً بالفن المصرى فى عظمته وشموخه وبلاغة تعبيره ، وفى خلال حياة قصيرة أنتج آيات فنية ستظل خالدة كنموذج على ابداع الانسان المصرى ورهافة حسه الفنى . ولم يتلق محمود سعيد تعليماً منظماً ، لكنه درس فى مدينة الاسكندرية على أيدى فنانين أجانب من أصحاب المراسم الخاصة ، وكانت له أسفاره العديدة إلى متاحف العالم وقاعات العرض فيها واستطاع هو أيضــا أن يعبر - بصورة لها استقلالية فى الأداء والأسلوب - عن جــوانب من الوجدان المصرى وروحه الشفافه ، وهو يعد رائد التصوير المصرى الحديث وأباه الروحى .

★ الشخصية المصرية فى الفن

ولقد أدّى جيل الرواد وخاصة مختار ومحمود سعيد ومحمد ناجى وراغب عياد دوراً بالغ الخطورة فى تأسيس الشخصية

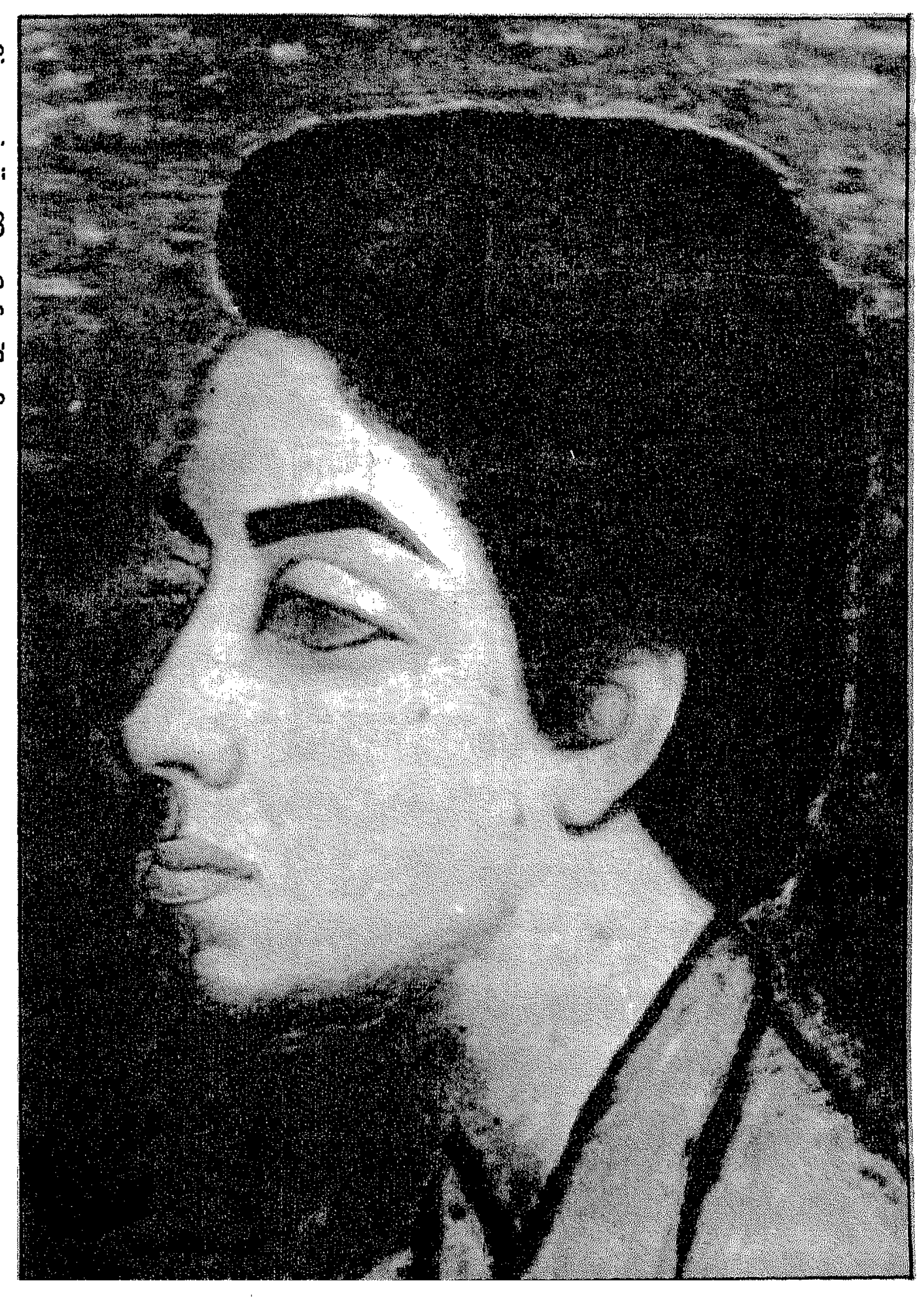
المصرية فى الفن المعاصر ، وهم لم يستندوا فى هذا الدور إلى مرحلة فنية قريبة كانوا هم استكمالاً لها ، وإنما شقوا الطريق فى وسط ثقافى عام لم يكن بعد مؤهلاً لتقبل هذا الفن ، فالأساليب الأوربية كانت لا تزال مسيطرة على أذواق الطبقة القليلة المحبّة للفنون ، وهى طبقة ارستقراطية كانت تتشبه بالأوربيين فى كل شيء فكان من الطبيعى أن يميل ذوقهم واعجابهم إلى تلك الأعمال القريبة الشبه من النموذج الأوربى .

واليوم وبعد مرور حوالى مائة عام من الفن فى مصر – وهى فترة ضئيلة فى عمر تكوين الثقافات والطرز الفنيه التى تحتاج إلى تراكمات ثقافية ومناخ حضارى حتى تكتمل وتتحدد أبعادها – فإننا نرى أن الصورة أكثر وضــوحاً ، حين تسقط التفاصيل والمظاهر ولا يتبقى إلاَّ كل ما هو أصيل وصادق ، فنستطيع أن نحدد كيف يصعد الخط البيانى أو يهبط فى محاولة تجسيد فن له شخصية مصرية مميزة . والحقيقة أنه بعد جيل الاساتذة الأوائل فإن تلك المحاولة قد تعرضت لاخفاقات عديدة ، ومسار خطها البيانى يبدو متذبذباً بين الصعود فى فترة والهبوط فى فترات أخرى ، ولقد تداخلت عوامل عديدة



النحات السكندرى محمود موسى
عــام ١٩٥٥ أمام أحد أعماله

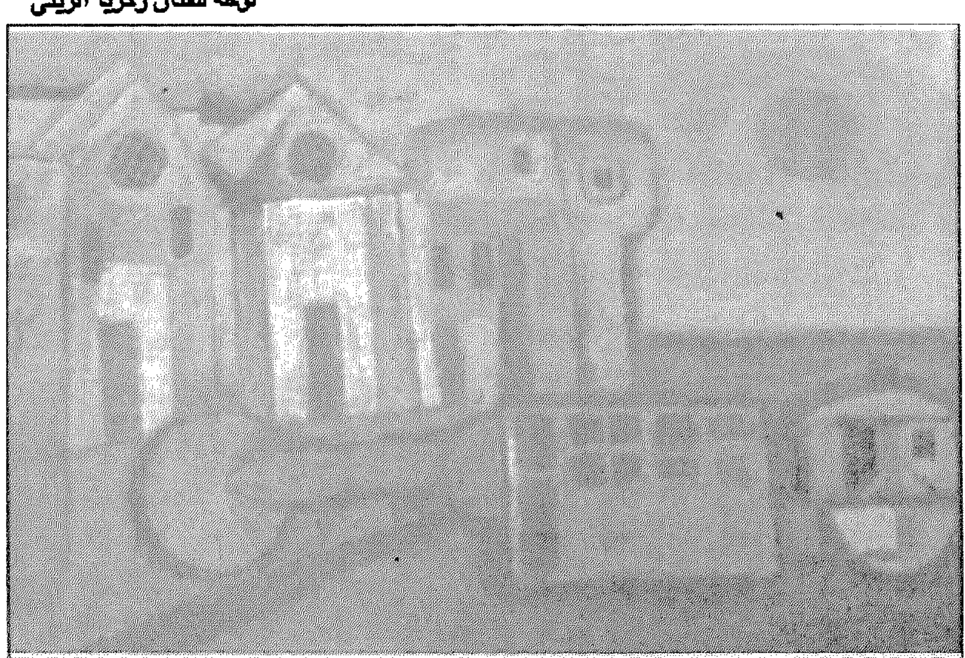
ساهمت فى النكوص عن اتمام تلك المهمة الجليلة والتباس أمرها فى معظم الأحيان . فأمام المصريين تبدو الثقافة الأوربية كالعملاق الهائل الذى يجرف أمامه أىّ منافس ، فهو مسلح بقرون من الخبرة الفنية منذ عصر النهضة الأوربية ، وهو يملك الأعلام المتقدم من طباعة فاخرة ووسائل نشر متقدمة وهو فى النهاية المهمين الحالى على أقدام العالم ، ومن هنا فإنه من السهل على الآخرين من أمثالنا – البادئين فى مضمار التحديث – أن ينطووا تحت لوائه بدلاً من مصارعته ، وذلك فى



وجه الفتاة جانبية سرى للفنان عز الدين حموده

تكوين نحتي للفنان احمد عبد الوهاب

لوحة للفنان زكريا الزينى



مجال الفنون يعنى التقليد الأعمى لكل ما ينتجه من أشكال وأنماط فنية ، وذلك التقليد دون شك يسعد أصحاب الثقافة الغربية فهو يدلل على تفوقهم وتميزهم ، فالمقلد يظل دائما صورة ممسوخه ومشوهة من الأصل لا معنى لها ولا قيمة . أمّا محاولة اثبات الذات ومجاهدة النفس والروح من أجل استخلاص عوامل التميز وعناصر الأصالة فتلك محاولة لا يسعى إليها الاّ المتفوقون ولقد كانت الروح القومية والشعور الوطنى الدفاق الذى صاحب ثورة ١٩١٩ وما بعدها سبباً من أسباب بلورة الفكر الفنى لمحمود مختار وصحبه ، أمّا فيما تلى ذلك من سنوات ، فإن انفتاح مصر على العالم - وهى مازالت فى مركز حضارى واهن - قد جرف المثقفين المصريين نحو إتباع الصيحات الجديدة هناك فى عالم الفكر والفن ورغم عدم تماثل أو تشابه الظروف الحضارية والتاريخية فقد رأينا فى مصر أصداء الاتجاهات الغربية المتوالية وقد جاءت مزيفة مصنوعة ، فزادت من ابتعاد الجمهور من تلك الفنون وهى التى كانت مازالت وليدة وبعيدة عن أذواق الناس وفى حاجة للاقتراب منهم وليس إلى الاغتراب عنهم .

★ الأجيـــال الفنية تتوالى

ومن أجل خلق فن مصرى صميم جاءت محاولات الفنانين تباعاً ، وبعد أن كان الفنانون أيام جيل الرواد يعدّون على أصابع اليد الواحدة فإن الساحة الفنية امتلأت بعشـــرات الأسماء ، وتعددت الجمعيات الفنية وجماعات الفنانين ، نذكر منها جماعة الخيال التى أسسها محمود مختار فى العشرينات ، وجمعية محبى الفنون الجميلة التى رعاها فى البداية الأمير يوسف كمال ومازالت إلي اليوم تؤدى دورها - وأن كان قد انكمش - فى رعاية الفن وتنشيطه ، وجماعة الدعاية الفنية ثم جماعة الخزف ، وجماعة المجمع المصرى للفنون الجميلة التى أسسها الناقد صـــدقى الجباخنجى ، وفى الثلاثينات ظهرت جماعة رابطة الفنانين المصرين ، وجماعة الفنانين الشرقيين الجدد وكان من بين مؤسسيها الفنان فؤاد كامل المصور التجريدى المعـــروف ، ولعل من أهـــم الجماعات التى ظهرت فى الثلاثينات كانت جماعة (الفن والحرية) وكان من روادها الفنان رمسيس يونان الذى يحدد هدفها فى عقد الصلة بيننا وبين الينابيع الحية فى الفن بعد أن كادت تقتصر صلتنا بالفن

الأوربى على صوره المتدهورة . وفى الأربعينات ظهرت جماعة الفن الحديث ثم جماعة الفن المعاصر التى كانت من أهم الجماعات الفنية التى ظهرت فى تاريخ حركتنا الفنية وكان رائدها المربى والمفكر حسين يوسف أمين ، والتى ضمت بين أفرادها اثنين كان لهما شأن عظيم فى تأكيد ملامح الشخصية المصرية فى الفن المعاصر وهما عبد الهادى الجزار وحامد ندا . ولقد آمنت تلك الجماعة التى اتخذت شعاراً لها الفن والمجتمع بأن الفن الذى كان سائدا حين انشائها هو فن ناعم مهادن ، وغرضه البهجة والزينه ، إذ كان يتلاءم مع عواطف ومشاعر الطبقة المترفه، فكان لهذا فناً ليِّناً سهلاً لا يعبر عن حقيقة الواقع والتراث ، كما جاء بعيداً عن الجماهير لا يتفاعل مع أحاسيسها ، وهو عاجز عن التعبير بعمق عن طابع الشخصية المصرية الصحيحة وما تطويه داخلها من أصالة ، وذلك هو الهدف الذى وضعت الجماعة نصب عينيها تحقيقه .

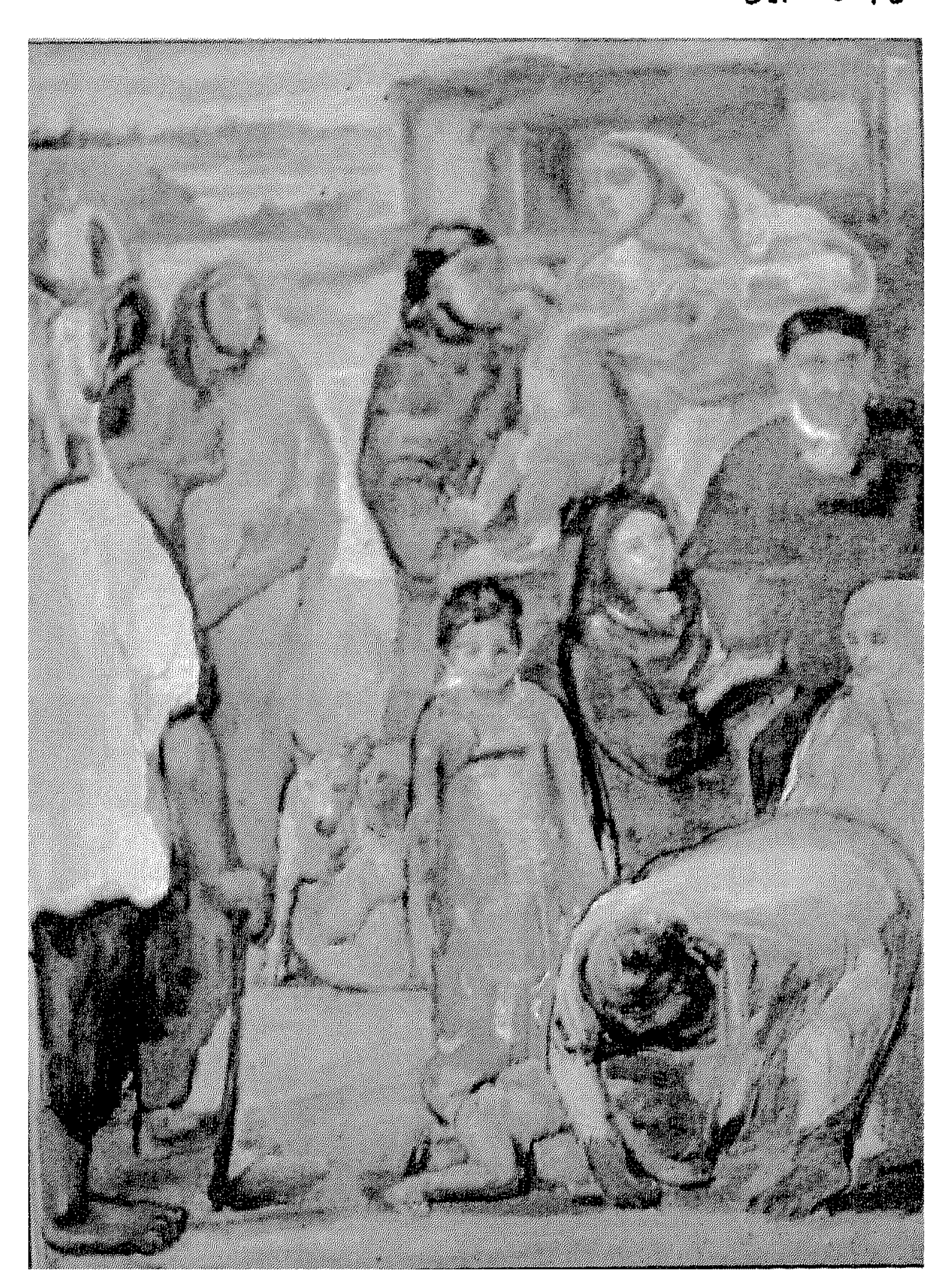
ولقد خلقت تلك الجماعات الفنية - وكانت تضم أدباء ومفكرين وفنانين - مناخاً صحياً ساعد على بلورة المفاهيم الثقافية ، وتصارعت الأفكار والاتجاهات ، وحميت المناقشات ، وتلك كانت من عوامل اثراء الحياة الفنية التشكيلية . ولكن ما يدعو للأسف أن الجماهير العريضة كانت بمنأى عن كل ذلك الثراء الفكرى والفنى ، فالتعليم لم يكن قد أثمر ثمرته بعد ، والأمية تخيم على الشعب الذى افتقد إلى جانب ذلك الاستقرار فى حياة اقتصادية ميسرة، مما ساعد على انصراف الفرد العادى عن الفنون والاهتمام بها أو متابعتها ، لذلك فقد ظل الحوار بين الجماعات والفنانين يدور فى دوائر مغلقة على عدد محدود من المثقفين .

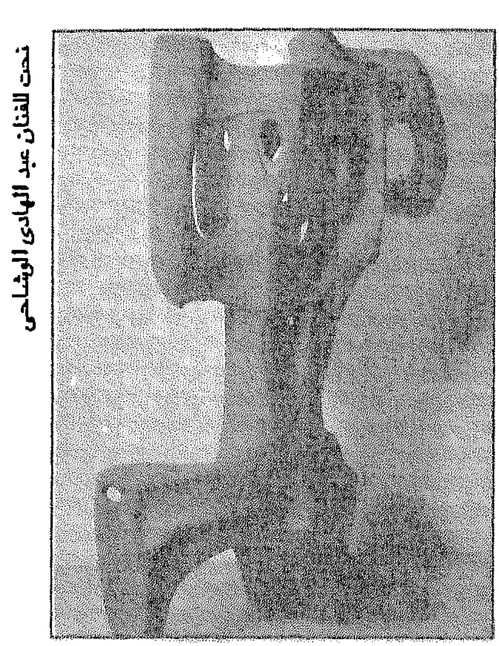
ويصعب على المتابع لنمو الحركة الفنية المصرية أن يحصر اسماء عشرات الفنانين الذين اسهموا بدور كبير أو صغير فى بناء الكيان الفنى المصرى الحديث بعد جيل الاساتذة الرواد ، وإن كان يحسن الاشارة إلى هؤلاء الذين قدموا فى أعمالهم لمحات من الشخصية المصرية والروح والوجدان المصرى فى أعمالهم كالمثال جمال السجينى والمصورين رمسيس يونان وحامد عويس وتحية حليم وجاذبية سرى وعز الدين حمودة ومصطفى أحمد وحسن



عروسة المولد (على الصفحة المقابلة)
للفنان جمال السجينى

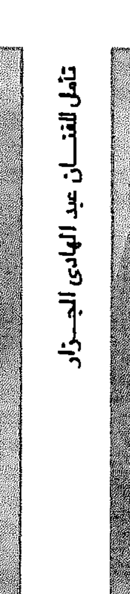
أحدى لوحات الفنان
محمد ناجى





نحت للفنان عبد الهادى الوشاحى





تأمل للفنـــان عبد الهادى الجــزار



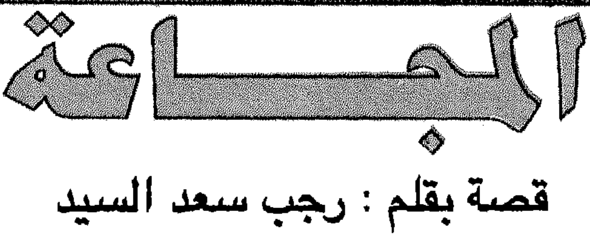
الفنـــانة جاذبية ســرى فى مرســمها

سليمان وزكريا الزين ، والمثالين محمود مرسى وأحمد عبد الوهاب والوشاحى .

★ آفــاق المستقبل

بينما جاءت بداية الفن المصرى الحديث مشجعة وباعثة على الأمل والتفاؤل فى قيـــام نهضة فنية تعيـــد للبلاد مجـدها القـــديم ، فإن مسار التطور المتأرجح بين الصعود والهبوط يؤشـــر فى المرحلة الراهنة فى اتجاه الخطر .. ففى مناخ ثقافى عام يتسم بهبوط الذوق الفنى ، وتدهور مستوى التعليم ، وفى ظل انعدام المسئولية الجادة فيمن يتولون مواقع الســـلطة ، حين وضـــعوا همهم فى احـــراز المكاسب الشخصية ، والاقتصـــار على الأنشـــطة المظهرية ، فإن المـــرء لا يتوقع خيـــراً خلال سنوات طويلة قادمة . إن مصر لا تعدم الموهــــوبين الممتلئين بالرغبـــة فى التعـــبير الفنى ، ولديهم الرؤى الأصيلة الصادقة ، ولكن هؤلاء كالنبت الذى لا ترويه مياه أو تحوطه عناية، فسرعان ما يذبل فيموت .. لقد جاء محمود مختار فى أوائل القرن من قرية فى قلب الدلتا طفلاً أحبٌ التشكيل بطين الأرض ، وتلقته المدينة ، واحتوته ، وضمته إلى صدرها بعناية ، وأرضعته غذاء التعليم والتثقيف ، وأرسلته على نفقتها ليزداد معرفة ، ولتتفتح موهبته وتثمر ، وفى يوم من أيام حياته تحدث البرلمان المصـــرى فى موضـــوع تمثاله (نهضة مصر) واكتتب الشـعب بجميع طوائفه لاقامته ، وذهب زعيم الأمة - سعد زغلول - بنفسه - ليتفقده .. هكذا تكون الدولة حين تعترف بأهمية فنانيها فتسبغ عليهم رعايتها وتقديرها لأنهم فى النهاية وسام على صدرها ودليل تحضرها ..

لقد آن لنا أن نفيق من غفوتنا ، وأن نعمل - بكل الجدية والصرامة - لاقامة الدولة العصرية فقد شبعنا تخلفاً وكنا سادة الأمم ، والتاريخ لا يرحم ، والحياة لا تتوقف فى انتظار من يخطىء الطريق أو يبطىء الخـــطى ، والمســـافات تتســـع والفجوة تزيد بيننا وبين من سبقونا على طريق التقدم ، والفنـــون التشكيلية أحد أركان التقدم وهى فى حاجة إلى إنهاضها من عثـــرتها وتوفيـــــر الضمانات الكـــافية لنموها النمو الســـليم كى تثمـــر وتزدهر .



قصة بقلم : رجب سعد السيد

سمعت طرفا من حديث عامل نظافة بالمعمل إلى عامل نظافة من معمل مجاور . دأب الإثنان على إحتلال فراغ كبير من أجهزة التبريد الشديد .. أزاحا العينات الخاصة بالأبحاث الجارية فى المعمل ، وملأ الفراغ بلفافات من النايلون ومن الورق السميك ، ويصعب - ظاهريا - تخمين محتوياتها . عرفت هذه المحتويات حين عمدت إلى إستكشاف اللفافات ، وهالنى أنها كلها لحوم بيضاء وحمراء .

فى البداية . لم أعر الأمر أدنى إهتمام ، ولكنى أفتح أجهزة التبريد يوميا عدة مرات ، وتطالعنى اللفافات التى تحمل إسمى العاملين بخطوط عريضة .

كانت بداية إهتمامى بالموضوع حين قررت أن أعرف ما بداخل اللفافات ، ثم تطور الإهتمام حين ساءلت نفسى عن قدرتهما على تجميع كل هذه الكمية من اللحوم المتنوعة . ثم حادثت زوجتى . فأكبرت نشاط العاملين وحرصهما على توفير القوت لأولادهما . إعتبرت ذلك تلميحا إلى إتهام لى بالتقصير ، فلم أعد أذكر أمامها أى شيء عن هذا الموضوع ، ولكنها هى التى اهتمت بمتابعته ، ونقلت إلى عدوى الإهتمام ، فظللت أراقب حركة اللفافات من وإلى الثلاجات . ثم لمحتنى إحدى الزميلات وأنا أتفحص اللفافات ، فاظهرت أمامها إمتعاضى لهذا التعدى على أجهزة العمل التى يجب أن تخصص لصالح العمل فقط ، وليس للإستخدام الشخصى . وافقتنى الزميلة على الفور ، وقالت فى لهجة حماسية ، إنه يجب وضع حد لهذا التصرف . ونقل الأمر إلى رئيس معملنا ليلقى بهذه اللحوم خارج المعمل . وحدثتنى ، بعد ذلك ، عن تكاسل عامل النظافة وعدم إمتثاله لأوامرها . قالت إن له طرقه الخاصة للوصول إلى رجال السوبر ماركت الإستهلاكى التعاونى المجاور لمركز الأبحاث الذى نعمل به ، وهو لا يخدم إلا نفسه .

وبمرور الوقت ، وجدتنى أبتسم أكثر فى وجه عامل النظافة ، وأوقع له على ورقة الوقت الاضافى دون مساءلة عن حقيقة الأيام التى عمل فيها أوقاتا إضافية . ووجدتنى أحادثه ، من حين لآخر ، حول موضوعات صغيرة لم تكن لنا أحاديث حولها من قبل . وحين تخيلت أننى قد أسرته بتلاطفى وتباسطى معه ، خذلنى عند أول طلب ، كما فعل

مع الزميلة المتحاملة عليه، إبتسمت وهو يرفض طلبي آسفا ، وقلت له : لا عليك يا رجل ، أنا أعرف صعوبة الأمر .. سأذهب بنفسي .. الطابور موجود .. والسلع متوافرة .. لا عليك ! .

ولم أذهب بطبيعة الحال ، فمنظر التزاحم والتضارب كفيل بالتأكيد على ضرورة الترفع مهما كانت النتيجة .

والغريب ، أن رئيس لمعملنا لم يبد أى حماس تجاه وقف إعتداء عامل النظافة وزميله على ثلاجات المعمل ، فبدأت أرصد العلاقة بينه وبين عامل النظافة المخصص لمعملنا ، فلم أستطع التوصل إلى الإستنتاج الذى أريده ، إما لأنهما يجيدان تغطية العلاقة بينهما ، أو لعدم وجود مثل ما أفكر فيه أساسا . واستمرت مراقبتى لعامل النظافة ، لغرض آخر .. فقد حاولت ، أكثر من مرة ، أن أذهب إلى السوبر ماركت ، ولكنى فشلت فى الوجود فى الوقت المناسب .. لذلك كانت مراقبتى له ، لأعرف منه متى تمتلىء ثلاجات السوبر ماركت بالدجاج وعبوات اللحوم . وتمكنت من ضبطه متسللا ، أكثر من مرة ، فتبعته ، وكان التوقيت مضبوطا ، وكان الناس يتصارعون من أجل النفاذ من باب السوبر ماركت كان يذوب وسط الزحام ، أويدخل من باب آخر ، فلا أجده - بعد مدة - إلا داخلا إلى المعمل محملا بالمزيد من اللفافات ، فأبتسم له وأواصل إنشغالى بعملى . أكثر من مرة ، إقتربت من تزاحم النساء والرجال عند الباب ومرة ، إندسست فى وسطهم ، فدفعتنى موجة إلى قرب الباب ، ولكنها إنحرفت قبل خطوة منه ، فأخرجتنى من عمقها ، فلملمت نفسى ، وأسرعت راجعا إلى المعمل قبل أن يرانى أحد يعرفنى . بقيت طيلة اليوم فى حالة من النشوة الغامضة ، فقد إقتربت من الباب دون أدنى جهد .. وكان لدى من الأحاسيس ما يؤكد لى أننى لو كنت إجتزت الباب لحققت الفوز ، وخرجت من الباب الآخر بمثل لفافات عامل النظافة . أخذتنى طرافة اكتشاف طريقة الإستسلام للحركة الموجية للأجسام المتزاحمة .. المهم أن أحاول - فى المرات القادمة - أن أختار نقطة بداية جيدة ، وأن أبدى بعض التفاعل تجاه قوى التجاذب ، لأحتفظ بموقعى فى وسط التيار المتدفق إلى داخل المجمع الإستهلاكى .

لم يكن سهلا ، وبخاصة لأن الأجسام

كانت خليطا من رجال ونساء ، فكنت أحرص على مراعاة الرفق مع النساء فلا أدافعهن ، فكنت أخسر مواقعى . وعلمتنى التجـــارب أن أتنازل عن رقتى ، فقد دفعتنى إمرأة حتى كادت تكسر ضلعى .

ويبــــدو أننـــى قـــد أصبحت وجها مألوفا لدى موظف البوابة الذى لم أكن أراه إلا خالعا حزامه العريض مهدداً أو ضارباً به من لا يهتمون لضرباته .. فقد رأنى الرجل أوشك أن أفقد نظارتى ، ويداى تمتدان تكادان تمسكان بطــــرف من البـــوابة الحديدية فلسع من كان يقاومنى ، وشدنى إليه ، فارتطمت به وأنا أفلح - أخيـــرا - فى إجتياز البوابة والإنتظام فى التيار المحدود والمتلاطم داخل المجمع .

تشكل الزحـــام فى حلقتين دواميتيــــن ، الصراع - الآن - وصولاً إلى مركز إحدى الحلقتين، لتمتد الأيادى خاطفة عبــوات اللحـــوم ، أو الدجاجـات المذبوحــــة المنزوعة الريش والأحشاء والملفوفة فى أكيــــاس النايلون . كـــانت حلقة اللحوم الحمراء تكاد تهدأ لأن الثـــلاجة أصبحت خاوية . إتجهت ، مع من خســـروا جـــولة اللحوم الحمـــــراء ، إلى حلقة الدجـــاج حيث كـــان الصراع يتزايد . لم أكن أفعل غير أن أمد يدى فى إتجاه الثلاجة الكبيرة المفتوحة فى وسط الحلقة. كـــان بعض النســـــاء والرجـــــال يخرجون من الحلقة وهم يحتضنون صيـــدهم من الدجـــــاج ويســـرعون فى إتجــــاه طابور الخروج . كنت مطمئنا إلى وجود الأمل فى الفوز ببعض الدجاج كانت السلة الحديدية فى يدى تعـــــوق حركتى وتصطدم بسلال الآخرين فتركتها تســـقط تحت الأقدام ، وتعثـــــر بها رجلان وإنشغلا بها بعض الوقت عن صراعهما فى الطريق إلى مركز الدوامة. أخيرا ، لمست يدى جدار الثلاجة ، ولكنى كنت لا أزال عاجزا عن الإمساك بالدجاج الذى كان يتناقص بداخلها . كانت أمامى ســــيدة تنحنى منهمكة فى تكديس سلتها بالدجاج ، غيـــر عابئة بثدييها اللــــذين كان يحطـــان على ذراعـــى الممتدة المتشبثة بجدار الثلاجة . إكتفى رجل إلى جوارها ، ودفع من كانوا إلى الخلف منه ، وخرج من الدائرة ، رافعا سلته الثقيلة فوق رأسه . لمحت مكانه يخـــلو ، فدفعت الســــيدة ذات النهـــدين الثقيلين إلى اليمين قليلا، إرتفع صوتها بكلمات احتجـــــاج ، ولكنى لم أكترث ، ودفعت نفسى

إلى الفراغ الذى خلا بتزحزحهـا أخيـرا ، إلتصقت بجدار الثلاجة . كان مستـوى سطح الدجاج فيها يقترب من القاع .. ألقيت بنصفى الأعلى سـاقطا وراء الدجاج المتناقص .

أمسكت بيـدى دجـاجتين ، إكتشـفت فداحة خسارتى لسلتى . إضطـررت إلى أن أدفن دجاجة تحت إبطى ، وأغوص لأمسك بثالثة . نجحت فى تحقيق ذلك . قـلت فى نفسـى : الدجاجات الثلاث بداية طيبة .. والتجربة ناجحة فى مجملهـا ، ومليئة بالدروس ، وأهمهـا ألا تتخلى عن سلتك مهما كانت الظروف .

وكان على أن أدفع الواقفين إلى الخلف لأشق طريقى خارجا بدجاجاتى الثلاث أحتضنهـا بين صدرى وذراعى . كنت حريصا على ألا أفقدها تحت الأرجل المتداخلة لذلك خفت أن أشترك فى صراع التدافع من أجل الخروج ، وفكرت فى أن الساحة ستهدأ بعد قليل ، فقد أوشك قاع الثلاجة أن يظهر عاريا . وتركت نفسى واقفا ، تدفعنى الاجسام من الخلف إلى الأمام ، فيزداد إلتصاقى بجدار الثلاجة . صرخ صوت نسائى إلى الخلف منى ، لاعنا وآمرا أن أترك مكـانى . إلتفت برقبتى ، فأكدت السيدة ذات الوجـه الملطخ بالأصباغ أنها تقصدنى، وأننى يجب أن أتحرك ولا أقف كالجدار فى وجهها . صعب على أن أشرح موقفى فى كلمات قليلة سريعة .. لم أجد الكلمات .. كما أن وجهها كان عدائيا ، مليئا بالسخط . سارعت تتهمنى بالخرس والصم . إنضم إليها رجلان . وامتدت أذرع عديدة تشدنى للخارج دون أن تحدد لى طريقا خاليا أخرج منه . وفى نفـس الوقت ، كـانت السيدة ذات النهدين الثقيلين تستدير لتخرج ، فالتقت معى فى نفس الموقف . لم يصرخ فى وجهها أحد ، برغم أنها كانت تتقدم وتدفعهم إلى الخلف . وقد علمتنى التجربة داخل المجمع الإستهلاكى أن أغتنم الفرصة لأحقق الهدف وإن كـان مجـرد سنتيمترات أتقدمها فى الإتجاه المطلوب . لذلك ، إتخذت ظـهر السيدة المتقدمة هدفا لى . ولكنى لم أهنأ بتقديرى للموقف، فقد دفعتهـا الموجة البشرية اليائسـة إلى الخـلف ، فوجـدتنى مضغوطا بين مؤخرتها وجدار الثلاجة . لم تلتفت إلى من دفعـوها إلى التقهقر ، وإنما فتحت فى وجهى سيلا من شتائمها . صرت متهما . أكدت

السيدة للجميع أننى ألتصق بها منذ كنا فى الطابور الخارجى ، وأنتهز الفرصة لتحقيق نواياى الدنيئة . ولحسن حظى ، أن الجميع كانوا فى سباق الأمل الأخير للحصول على الدجاج المذبوح من قاع الثلاجة ، فلم يلتفت إليها أحد من حاملى وحاملات السلال الحديدية . إسترحت لذلك، وقررت أن ألتزم الصمت كأنها تشتم شخصا غيرى ، أولا لأننى لم أتعمد الإحتكاك بها ، وثانيا لأننى فى مثل هذه الحالات أعجز عن تحديد الكلمات التى توضح موقفى وتحسم الأمور ، وأجدنى أتحدث بلغة لا يفهمها الآخرون ، فأفقد التعاطف وأخسر القضية. لم تكف السيدة عن إهانتى ، برغم التجاهل الذى قوبلت به . وكفت عن التدافع لتخرج من الحصار ، ووقفت بالشتائم ولا تحاول الإبتعاد بجسمها عنى ، وفجأة ، أنشق الحشد بتأثير صوت خشن عال يأمر الجميع بالإفساح . كان الرجل ذا نظارة غامقة . أمر السيدة أن تكف عن الصياح ، ثم شدها من كتفها فأخرجها من موقعها حيث كانت تقف أمامى ، فصار الرجل فى مواجهتى تماما . حاولت السيدة أن تشرح له ، فأسكتها قائلا أنه قد رأى كل شىء من موقعه بأعلى . نظرت إلى أعلى فوجدت حجرة صغيرة زجاجية الجدران تطل على كل أركان المجمع . فوجئت به يشدنى من رباط عنقى فى عنف ، وهو يوبخنى بكلمات شديدة الوقع . كان المشهد قد صار يستحق المراقبة ، فوجدتنى محط أنظار الرجال والنساء ، وقد كفوا عن سباقهم إلى الدجاج . كانت كلمات الرجل تؤكد إتهام السيدة لى . خبطنى فى كتفى بقبضته ، مؤكدا أننى لا أستحق الإنتفاع بالسلع التى تقدمها الدولة للمواطنين الشرفاء . خلص الدجاجات الثلاث من حضنى ، وقذف بها فى إتجاه الثلاجة ، فتلقفتها الأيادى قبل أن تصل . أخذت أبحث عن كلماتى لتدافع عنى . كنت – فقط – أترجم مفاجآتى بما حدث ، وأننى إنسان محترم ، ولى وظيفة علمية ذات شأن . وكان الموظف المسئول فى المجمع الإستهلاكى لا يزال ممسكا بصدر قميصى ورباط عنقى ، ويقول : حتى لو كنت وزيرا لقد رأيت أفعالك النجسة بعينى !! .

ثم إقترب بى من باب الدخول ، وفك قبضته عنى ، وقال : هذه المرة سأدعك إلى حال سبيلك..

إذا رأيتك هنا مرة ثانية ، لن أتركك إلا للشرطة ! .. خرجت إلى الشارع ، فتخلصت من عشرات النظرات المتهمة . ولكن ، بقى أن أنفض عنى إحساسى بالعار لوقوعى فى تلك الورطة . ترددت قليلا وأنا أراجع موقفى ، مؤكدا لنفسى أننى لست بحاجة إلى إستعراض دلائل براءة سلوكى طوال مراحل مغامرتى الأخيرة وصولا إلى الدجاجات الثلاث . صار ذهنى مضطربا ، وانقذنى من التشويش قرب مبنى المركز ، فأسرعت إلى مكتبى فى معملى ، أنفرد بنفسى ، وأحاول الإحتماء من شعور بالمهانة يعصف بى .

إرتحت إلى أن رئيس المعمل كان متباعدا كطبعه ، وكانت زميلتى تبدو منهمكة وغارقة بين المعدات المعملية . وجلست أنا إلى مكتبى فاقدا القدرة على الإمساك بفكرة محددة . كنت حزينا ، ولكنى إبتسمت ورأسى بين يدى . صاحب إبتسامى صوت إحتكاك هواء الزفير فى فتحتى أنفى . رسمت بعض الخطوط والدوائر فى ورقة بيضاء . أخيرا ، تمكنت من تحديد معالم فكرة . قلت لنفسى إن ما حدث لى ليس إلا مظهرا هامشيا . فى الأزمات تتداخل الخيوط ونفتقد إلى الوضوح . تأكدت اليوم من أننا نخطو إلى المجاعة ، وأنا الذى كنت أبتسم للأمل ولا أميل إلى أراء المتشائمين .

إقتربت الزميلة تزفر ساخطة . قالت إن التجربة فشلت مرة أخرى

أدنت أوراقها منى ، وأخذنا نراجع المعادلات . لم أستطع التركيز . إعتذرت عن عدم قدرتى على المشاركة ، وقمت أنوى العودة إلى البيت ، عند الباب الخارجى ، رأيت عامل النظافة يقترب وفى يده كيسان متضخمان . لمحت إبتسامة على وجهه .

قبل أن أصل إلى البيت ، ملت إلى السوق المجاورة لأبتاع قائمة الأشياء التى كتبتها لى زوجتى فى الصباح . إشتريت دجاجة . ذبحها البائع وناولها لصبى التنظيف . إقتربت فتاة صغيرة فى ثياب متسخة دنت من البائع ، وحدثته بصوت خفيض ، وأعطته أوراقا مالية صغيرة . إستدار البائع ، وراح يلملم أرجل الدجاج المذبوح المتناثرة على أرضية الدكان . وضعها فى ورقة ، ووزنها ، ثم أعطاها للفتاة . عاد الرجل إلى الأرجل المتناثرة ، يرفعها ويجمعها فى إناء مملوء بها . سألته وأنا أشير إلى الإناء : « بكم تبيعها ؟ » .

قال : « الكيلو بنصف جنيه » . عدت أسأله : «للقطط ؟ » . ضحك وقال : « أى قطط يا أستاذ ؟!.. لبنى آدم !! » .

وكان صبيه يقدم لى كيسا به دجاجتى منظفة، فأخذتها منصرفا ، بينما كان (المعلم) يواصل قهقهته مبينا القيمة الغذائية لحساء أرجل الدجاج .

إنتهى بى المطاف فى البيت . تعجبت زوجتى لحالى . حملت عنى المشتريات عند الباب . جاءت تسألنى ، فى حجرتنا ، عن سبب وجومى . لم أحدثها عن وقائع اليوم كلها .. فقط أشرت إلى ما رأيته عند بائع الدجاج . أكدت لى أن ذلك ليس بجديد ، وأن ثمة من يشترون آذان أو حوافر البهائم من المذبح، وأنها – خلال سفرنا معا – رأت خادم العربة فى القطار يلتقط عبوات الشاى المستعملة من الأكواب الفارغة قبل أن يعود ليجمعها عامل البوفيه .. ولكن تلك كلها أمور عادية ، لأن الله خلق الفقر والغنى . وكانت تساعدنى فى إرتداء ملابس البيت وتتحدث ببساطة ، فهى لا تعرف – ولن أدعها تعرف – ما وقع لى عند ظهر اليوم . قالت أيضا : دعك من القلق ، فالله يسير الأمور منذ خلق الكون ، ولا تصدق التوقعات والتنبؤات فى الكتب التى تتحدث عن غيب لا يعلمه إلا الله . وتركتنى إلى المطبخ .

بقيت على حالى ، أحمل مهانة يومى التى تطرفت بى إلى جانب أبواق التحذير من المجاعة القادمة ، تركت الحجرة وذهبت إلى زوجتى حيث كانت تعد الطعام . كانت منصرفة تماما إلى عملها . فتحت الثلاجة ، فوجدتها مكدسة بأنواع الأطعمة . إلتفت إلىّ زوجتى بين أوانى الطبخ وقالت وهى تتذوق ملوحة ما تطهيه : على فكرة ، نحتاج إلى مخزون من اللحوم .

إعتبرتها واحدة من ملاحظاتها التى اعتادت إن تلقيها دون أن تنتظر منى جوابا . إلتزمت الصمت وأنا أكشف أغطية الأوانى واحدة بعد الأخرى . عادت زوجتى – على غير عادتها – تؤكد على ملاحظتها . لم أرد عليها فى الحال ، وإنما إقتربت منها ، وهى تنظر إلىّ متسائلة . كنت أضع كفى على كتفها ، وكانت كلماتى بطيئة :

– « ربما كان من الأفضل أن نعتاد على بعض الحرمان !! » .

وكانت لا تزال تنظر فى عينى متسائلة متشككة ، ولكنى لم أكن فى يوم من الأيام جادا كمثل جدى وأنا أنطق تلك الكلمات .



شعر
أحمد تيمور

عيناك ممالكُ لم تُفتحْ من قبلُ لغازى
مكتوبٌ فوق مداخلها :
لا يدخلها إلا الصقر الشاهين البازى
لا يقطف أثمار قرون أيائلها
غير الخببىّ الهزجىّ الرجّازِ
لا يرتاح بظل خمائلها
إلا العائد من رحلته للشمس على متن شعاعٍ هزّازِ
وأنا المملوك الضالع فى رد الظاهرة إلى العلةِ
والبارع فى فضّ غموض الألغازِ
أوعزتُ إلى هاجرة الصحراء فأغمضت العينَ
وأغمض ليلُ المدن مصابيح الأعمدةِ .. بلا إيعازِ
أسرجتُ حصانى العربىّ
من الشط الألبىّ لنهر الدانوبِ
وثبّتُّ على حرف الجرف القارىّ لإفريقيا مهمازى
وسحبت ورائى كل سهول النرجسِ ...
من غرب صفاقص حتى شرق الأهوازِ
أقبلتُ من الهند .. السند .. الصين .. السينِ
ومن سقف العالم فى التبتِ
ومن سجادته العجمية فى شيرازِ .
وأتيت اليك بأشواقٍ تتجاوز آماد الآفاق
وتلهافٍ .. هافٍ .. مجتازِ
وتقدمتُ على صدغى الأيسر شامتى الشامية
وعلى رسغى الأيمن وشمى اليمنىّ
وفى جبهتىَ المبسوطةِ .. عرقٌ قوقازى
وهتفتُ بصوتى المصرىّ : أنا الصقر الشاهينُ
ولقبى عند صغار الكركىّ وأفراخ القمرىّ البازى



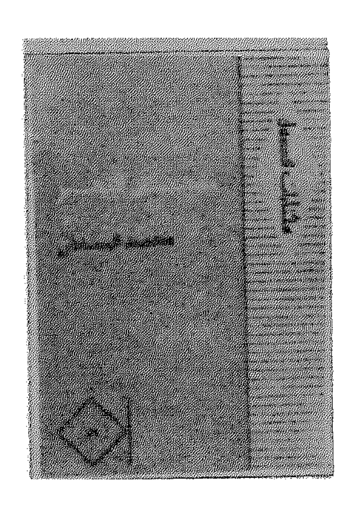
فانسحب المزلاج الفجرىَّ على بوَّاباتها المائية
فسبحتُ لخلجان يديها من بوغازى
وتسلقتُ مدارج زنديها .. زبداً فواراً
لا يفصلنى عن باطن كفيها غير القفازِ
شرعتْ تتطلع نحوى .. يسلبها الدهش .. تماسكها
وأنا أتكثّف عضواً عضواً من شبّورة غازى
قالت : من ؟
قلت : نسيم البحر يودّ يعانق فى رئتيك نسيم البرّ
فقالت : لا يتعامد أبداً كل موازى
قلت : هما مملكتا عشقٍ عيناك لهذا العالمِ
قالت : ورعيتىَ العشاق المعشوقونَ
فقلت : ولكنى يا سيدتى لا أتقن إلا أن أعشقَ
بعض رعاياك أنا .. ياذات الحسن المسهب فى الإعجازِ
قالت : أين هداياكِ ؟
فقلت لها : أوجزتَ هداياى الذهبيةَ فى حبّةِ قلبى
هل مغفورٌ - يا كنزا مكتفيا بجواهره - إيجازى
أوجزت فضائى المطلق فى نظرة عينى
هل مسموح أن تتحلق
حول كواكب أهدابك أجوازى
ويحطّ على أقمار جفونك
روّاد فضائى الدمعيون .. يلبّونَ
ففى عينيك القدسية - يا أم قرى أحلامى -
يتجمّع كل حقيقىّ .. فى عاطفتى .. ومجازى
واليك تحج شعاب النجوى من ربعى الخالى شجوا
ويسوق الهمس قوافلهُ
من شفتىْ نجدى وحجازى

محمد البساطى ورواية قصيرة

بقلم : د . لطيفة الزيات

في المجموعة القصصية الأخيرة لمحمد البساطي منحنى النهر ، تجمع بين معظم القصص وحدة المكان ، ونجد أنفسنا والأمر كذلك أمام قصص متصلة تلقى الضوء على الكثير من زوايا المكان الذى يوحدها . غير أن القصص الأربع الأولى تنفرد بوضع مميز من حيث أنها تندرج في وحدة تجعلها أشبه ما تكون برواية قصيرة ، جديدة كل الجدة فى أكثر من إتجاه ، وجميلة من حيث ترسى بلمسات الفرشاة لمسة بعد لمسة ، قصة بعد قصة الجو القاهر السائد في البلدة في منحنى النهر ، وخاصة بين الجنسين وشىء ما طازج وجديد فى لمسات الفرشاة ، وشىء ما رهيب حين تتجمع اللمسات .

فى القصة الأولى « منحنى النهر » ، يتتبع الكاتب مجموعة نساء البيوت الكبيرة فى البلده وهن يتنزهن تحت أشجار الكافور عند منحنى النهر ، ومجموعة من الأولاد من طلبة المعاهد والجامعات العائدين إلى البلدة فى الأجازة الصيفية يجلسون على مبعدة على الكوبرى ، يختلسون ما بين الحين والحين والحديث بينهم يتلكأ ويتعثر النظرات إلى النسوة المتنزهات . والحدث يحكى لا كحدث حدث ذات مرة ، بل كالحدث الذى حدث ويحدث بصرف النظر عن تغيّر الزمن ، كلما خرجت النسوة للتنزه ، وكلما تواجد الأولاد فى البلدة ، ويعمق من هذه الحقيقة إستخدام الكاتب للفعل المضارع المتصل . والنسوة مقهورات وكذلك الأولاد كما نتبين من

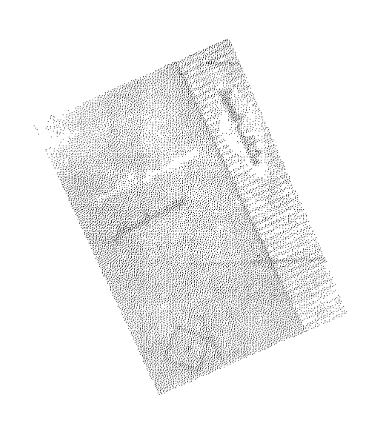


الحكاية ، والقاهر غير منظور وغائب عن المجال ماديا وإن جثم بحضوره معنوياعلى المكان وعلى كل مكان فى هذه البلدة عند منحنى النهر . والقاهر قد يكون الرجل أو الأعراف أو هما معا .

والحدود مرسومة على المستويين المادى والمعنوى بين النساء من جهة والأولاد من جهة أخرى لا يجرؤ أحد على تخطيها سوى طفلة تتجاوزها أحيانا ، عابرة للكوبرى الذى يجلس عليه الأولاد . ويعم الإضطراب الخفيف بين الشباب حتى تعود الطفلة إلى مكانها حيث تنتمى ، وسيكون لهذه الطفلة أو شبيهاتها شأن فى القصص الثلاث التالية حيث تستحيل إلى بنت تتجاوز الحدود المرسومة على مر العصور .

ولا تذكر كلمة القهر ولو مرة واحدة فى هذه القصة ، غير أن القصة توجز ببلاغة ودون أدنى مباشرة حالة القهر الواقعة على النساء والأولاد ما بين توهج الرغبات والقمع لهذه الرغبات ، بين السعى إلى الإنطلاق والقيود الداخلية والخارجية التى تقمع هذا المسعى ، بين الرغبة فى الحياة والوأد لهذه الحياة .

ولا شىء يحدث فى القصة إلا الأولاد جالسين على الكوبرى يختلسون النظرات ما بين الحين والحين إلى نساء البيوت الكبيرة تفصلهن عنهم مسافة طويلة . واستخدام فعل المضارع المتصل يضفى على اللوحة ثباتا يصل إلى حد الجمود ، ويعمق من الشعور بالقمع الواقع على النساء والأولاد وعلى أهل البلدة جميعا . واللوحة تكاد أن تكون ثابتة ، ما تكاد تتحرك حتى يضفى القمع غير المنظور الثبات على جزئياتها ، واللوحة تكاد أن تكون صامته ، فما أن ترتفع الضحكة حتى يعقبها صمت مفاجىء ، وما أن تبدأ واحدة من النساء فى الغناء حتى تطلب منها بقية النساء إلتزام الصمت ، والهمس يُغلف كل ما يقال . وذات القمع واقع على الأولاد ، الذين يلمحون الأذرع العارية ، ويتخيلونها



كما تخيلوها دائما بيضاء وممتلئة .

إن الحركة التى لا تلبث أن تستحيل إلى ثبات ، والضحكة التى لا تلبث أن تموت، والصوت الذى لا يلبث أن يتحول إلى الهمس ، والمسافة المرسومة التى تفصل النساء عن الأولاد ، تبلوّر حالة القهر والقمع السائدة فى البلدة ، وخاصة بين الجنسين ، وتخرجنا من هذه القصة واجفين يؤرقنا الشعور بمدى هذا القهر .

وتُرس هذه القصة الأولى الجو القاهر السائد والذى سنرى منه أكثر من وجه فى القصص الثلاث التالية ، عن طريق التعميم ، وترسم من خلال التعميم الحدود الضيقة المتاحة فى هذه البلدة ، والخانقة لكل محاولة إنفلات أو إنطلاق ، فى التعامل مع مجاميع من الناس دون أفرادهم ، فهناك النساء دون تمييز وكذلك الأولاد ، والطفلة التى تتجاوز الحدود المرسومة .

★★★★

ومن الطفلة التى تتجاوز الحدود المرسومة سننتقل فى القصة التالية إلى «البنت تغتسل » وبداية التخصيص بعد إطلاق التعميم فى القصة الأولى ، وإن لم نعرف للبنت إسما فى هذه القصة فهى تبقى البنت وكل بنت تتجاوز الحدود المرسومة . وهى البنت بكل ايحاءات البنوتة ، الجسد النحيل ، الصدر الذى لم يكتمل نموه ورغبة البنت فى الإنطلاق أو بالأحرى الإنعتاق من الجو القاهر دونما إمكانية ولا مجال للإنعتاق فى البلدة على منحنى النهر .

فى نفس المكان بأعرافه القاهرة وبالصمت الذى يريم عليه نلتقى ببنت تغتسل فى النهر ، متشحة بعتمة الفجر والضباب الأبيض يتصاعد بعيدا عن سطح الماء ، بنت تختلس فى ظل الجو القاهر لحظة فرحة . وما أن يتبين شعاع الضوء ويتحول الضباب الأبيض إلى دخان خفيف يتماوج بعيدا ، حتى تنكمش البنت ، وتعود إلى الشاطىء سعيدة بلحظة الفرحة المختلسة .

ويحتل الوصف الدقيق للمكان فى ظل عتمة الفجر ، وتكاثف الضباب ثم تحوله أخيرا إلى دخان خفيف ، من الأهمية ما تحتله رحلة الفتاة عارية إلى الشاطىء الآخر ، من حيث تتوقف الرحلة وأمدها على العتمة وتكاثف الدخان وتنتهى بنهايتهما .

وتجرى أحداث القصة التى لا تزيد عن وصف لفتاه تغتسل والطبيعة متغايرة من

حولها ، وسط سكون يكاد أن يكون شاملا، وكأن ليس فى الكون سوى النهر والفتاة ، غير أن هذا الشعور يبقى زائفا ، ففى الكون الذى يتمثل فى البلده عند منحنى النهر دائما رقيب يتشح بنفس الصمت والحيطة التى تتشح بهما الفتاة .

« تحرك رجل كان راقدا فى المصلى مختفيا خلف فرع شجرة يميل على المصلى ... إمتدت يده فى حذر وأزاحت أوراق الشجرة بين فرعين صغيرين ، كانت حركة هادئة حتى أن العصفور المنكمش تحت ورقة عريضة على أحد الفرعين ظل فى رقدته لم يتحرك . »

وهذا السكون القاتل يطبع الحدث بطابع القهر الطاغى ، الذى يشمل الفتاة ومن يراقبها على السواء .

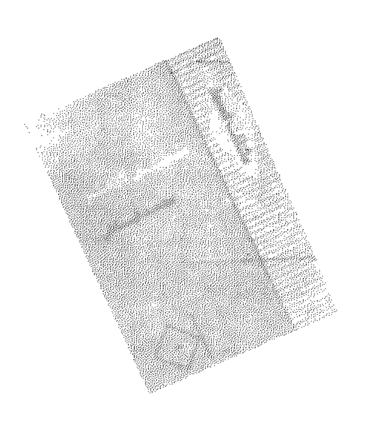
وبعد التعميم الذى يرسم الجو العام للقهر فى القصة الأولى فى هذه البلدة على منحنى النهر نصل فى القصة الثانية إلى شيء من التخصيص للبنت تختلس لحظة فرحة رغم كل شيء ، لقانون الطبيعة يسرى فى وجه كل القهر ورغما عن كل القهر .

★★★★

وفى القصة الثالثة للموت « وقت للموت» نصل مع مزيد من التخصيص إلى الثمن الفادح الذى تدفعه بنت الدغيدى نتيجة للحظات الفرح المختلسة فى هذه البلدة على منحنى النهر .

ومع هذه القصة ستكتسب البنت نسبا كإبنة وأخت ، وإن لم تكتسب إسماً كهذه الإنسانة الفريدة والمستقلة ، وتكون وهى إبنة الرابعة عشرة حاملا فى شهرها الرابع ، وسيقرر الدغيدى وأبناؤه الذكور قتلها ، وستنتظر الحارة كاتمة الأنفاس إخراج القرار إلى حيز التنفيذ ، وسيبدو فعل القتل فى هذا الجو القاهر فعلا يوميا عاديا من طبائع الأشياء ، وكأنه الموت المقدر وإن عرف موعده سلفا ، ووقت هذه البلدة على منحنى النهر هو وقت الموت / القتل .

ويعلق بنيان القصة ونسيجها على طبيعية القتل فى هذا المكان بإدراج فعل القتل فى ظل غيره من الأحداث اليومية الطبيعية . مساوياً لغيره من الأحداث وعلي نفس القدر من الأهمية . واللقطات التى تصور صورة البنت التى تملأ الدنيا مرحا وحيوية ، وصورة البنت وقد إستحالت إلى جثة فى جوال مربوط ، تحكى جنبا إلى جنب وعلى نفس الدرجة من الأهمية مع قصة أخويها شاكر وزيدان اللذين هجرا بيت الدغيدى وعادا بعد غياب لحضور عملية القتل . وقصة الأخوين لا تضيف لا الكثير ولا القليل إلى الحدث ، وإن قامت بدور وظيفى فيه بمدى ما تحاصر مأساة القتل ، وبمدى ما تدرجها فى الإطار كجزء لا يتجزأ من طبيعة الأشياء فى هذا الجو الأخرس القاهر الذى هو جو بلدة « منحنى النهر » .



دراما الصراع

ويتبنى الكاتب عدة تقنيات أخرى ليُرسى بيننا كقراء وبين فعل القتل مساحة شعورية مدرجا لهذا الفعل كطبيعة من طبائع الأشياء فى هذه البلدة . ووجهة النظر الذى يواتينا منها الحدث ليست وجهة نظر البنت الضحية ، ولا وجهة نظر أى من أفراد عائلة الدغيدى . ومن ثم فنحن لا نعرف أى شىء دار داخل بيت الدغيدى ، ولا نتعرف ولو على لمحة من الدراما التى إصطرعت داخل هذه البنت حين اكتشف الإبن عبد السلام بمحض الصدفة أن أخته حامل فى الشهر الرابع ، ولا نعرف الأوضاع الى واكبت إتخاذ القرار . ولا وقع القرار على البنت . بل إن النص هنا معادى بطبيعته لمثل هذا الصراع النفسى أو الدراما التى تتولد نتيجة للصراع الخارجى والداخلى . فالنص يستهدف أولا وأخيرا تسجيل الحقيقة كما تبدو لمراقب محايد ، وتسجيلها بموضوعية وأمانة دون ثمة إحتجاج مباشر ، غير ذلك الاحتجاج بالطبع الذى ينطوى عليه ترتيب الأحداث .

ووجهة النظر التى يواتينا من خلالها الحدث فى هذه القصة الثالثة والتى تليها هى وجهة النظر الذى واتانا منها الحدث فى القصتين الأولى والثانية ، أى وجهة نظر الكاتب / الراوى . والراوى هنا أبعد ما يكون عن الكاتب العليم بكل شىء راوى محمد البساطى شأنه شأن رواة كتاب الستينات لا يزعم لنفسه معرفة الحقيقة فى كليتها ، ظاهرها وباطنها ولا يعرف عنها سوى ما ترصده حواسه ، وخاصة حاسة البصر . وهو راو موضوعى ومحايد يسجل الظاهرة من الخارج دون أن يعلق عليها أو يناقشها ، ودون أن يزعم لنفسه الحق فى التغلغل إلى داخلها وتبيان أسبابها ومسبباتها . وهذه الرؤية القاصرة للحدث من خارجه دون داخله تجعل الوصف دائما وأبدا أقل من الموصوف ، وتدعو القارىء والأمر كذلك إلى المساهمة مساهمة فعالة فى عملية القراءة باستكمال مالم يستكمله الكاتب ، وبإغناء النص بالمشاعر التى تعمد الكاتب عدم إستثارتها ، وبإعمال خياله ووجدانه معا إن محمد البساطى يحركنا عاطفيا لا عن طريق الإثارة العاطفية بل بالبعد ما أمكن عن الإثارة العاطفية ، وهو فى كل الحالات لا يجعل الوصف زائداً ولا حتى مساويا للموصوف ، وإنما يأتى به دون الموصوف ،

نائيا به عن الإغراق فى العاطفية ، وداعيا القارىء لكى يُكمل مالا يقال : وأن يغنى بمشاعره ما استبعد من النص ، كما نبكى نحن حين يعز الدمع على صاحب المصاب.

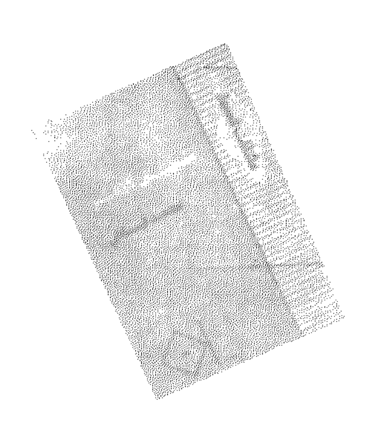
وفى قصة « وقت للموت » كما فى القصة التى تليها والتى تنهى هذه الرواية القصيرة ، لا يقف الكاتب / الراوى وسيطا بيننا وبين الحدث فحسب ، بل يضاعف هذه الوساطة من حيث يلتزم الكاتب / الراوى بما تراه شخصية من شخصيات الحدث فى علاقة هامشية لا تنطوى على الإندماج مع الحدث ، والشخصية الهامشية هى عم خليل البقال المواجه لبنت الدغيدى فى « وقت للموت » ، وهى عم درويش الطبال فى القصة التالية أو « الجوال العائم » .

وتبدأ قصة « وقت للموت » من خلال ما يرصده عم خليل البقال حيث يتنبأ على ضوء مجريات الأمور بمقتل بنت الدغيدى ، وتنتهى فى جوف الليل وقد بلغ التواطؤ على القتل أقصاه ، حيث يطفىء عم خليل الكلوب ، ويراقب من خلال باب الدكان مواربا مشهد الجثة خارجة من بيت الدغيدى ، مربوطة فى جوال ، ومحمولة على حمار يسوقه الأخ الأصغر فى إتجاه النهر ، يشيعها الأخوة الثلاثة يسعل أحدهم ، ثم يعودوا إلى البيت .

والقتل فى هذه البلدة القاهرة على منحنى النهر ، يبدو كما لو كان موتا مقدرا يتواطأ عليه فى صمت كل أهل الحارة ، يسهرون الليل فى إنتظار وقوعه ويفسحون له الطريق متحاشين بيت المرشحة للقتل ، ويرقبونه من خلف شيش النوافذ مواربا . والقتل قدرهم إن خرجوا عن الأعراف القاهرة بمدى ما هو قدر البنت ، وهو قدر إرتضوه لأنفسهم متواطئين وشركاء فى الجريمة التى هى ليست جريمة فى عرفهم بل قدر ينتظـــرونه فى كل مرة كاتمو الأنفاس .

ومع نهاية قصة « وقت للموت » يبلغ التخصيص أقصاه فى هذه الرواية ذات القصص الأربع ، ويلتقى التعميم فى النهاية بالتعميم فى البداية ، والنسوة يتنزهن فى الأماسى فى منحنى النهر ، يتأرجحن على سطح النهر مقتولات فى «الجوال العائم » ، والقتل بالجملة لنساء ، لمجرد نساء مجهولات معلومات يتأرجحن فوق سطح المياه فى أجولة مقفلة . ونحن لا نعلم على وجه التحديد إن كانت « البنت تغتسل » هى بنت « وقت للموت » ، ولا نعلم على وجه التحديد إن كانت بنت « وقت للموت » هى بنت « الجوال العائم » يرقب جثتها واحد من أقاربها حتى تصطدم بالهويس . ولكننا والنتائج تترتب على المقدمات ، نعلم على وجه اليقين أنها كل بنت تتجاوز الحدود المرسومة فى هذا البلد على منحنى النهر .

ويُوصف مسار الجوال العائم ، يحمل جثة المرأة المقتولة إلى أن يصطدم ببوابة الهويس الحديدية ، وصفا مسهبا ودقيقا



وواحد من أقارب المرأة المجهولة يتبع الجوال العائم والغربان تحوم من حوله ، وهو يتعلق بفرع من فروع الأشجار ، وهو يمر بالمصلى ، والرجال يتمتمون بأدعية وهو ينحبس فى الدوامة أمام المصلى والأدعية تتصاعد ، والقريب متخفيا بشاله يلتف حول وجهه ، يدفع الجوال بعيدا عن الشاطىء بعصـــــاه ، والنســـــوة يغسلن أشياءهن فى النهر يلمحن الجوال يتقدم :

وعندما يبدو وكأن تيارات الماء أخذت تميل بالجوال فى أتجاه الشاطىء ... كن يندفعن داخل النهر ويضربن سطح المياه بالملابس المغسولة وقد تعالي صراخهن . وتتسع الدوائر المتلاحقة التى صنعتها الضربات لتعيد الجوال إلى وسط النهر ، ويتأرجح قليلا ثم يستمر فى طريقه . »

وفيما يشبه الطقوس من جانب الرجال والنساء يُكرس مسار الجوال العائم حتى يصطدم بالهويس ، والكل متواطىء والطقس طقس يومى يتكرر . واستخدام المضارع المتصل يثبت الحدث ويعلق عليه كجزء من طبيعة الأشيّاء ومن الأحداث اليومية التى تتكرر فى هذه البلده على منحنى النهر .

وتستغرق مسيرة الجوال إلى الهويس يتبعه القريب المتخفى أياما تكون ملامح الوجه فيها قد طمست . وحين يتأكد القريب بأن الجثة إبتعدت بما فيه الكفاية يقرع باب العم درويش الطبال فى جوف الليل طالبا إليه إنتشال الجثة وتبليغ السلطات ، ليتم يالطبع دفنها ، وهذا مالا يقال .

وعم درويش الطبال . الذى ينزل إلى المضيق بالقرب من الهويس ، ليلتقط جاموسة نافقة ، ويسلخها صانعا من جلدها طبق ، يثنى ساقيه تحته عادة حتى لا تصطدم بجوال مغلق ، ولكنها دائما ما تصطدم بهذا الجوال ، ولا يبقى أمامه سوى إنتشال الجثة وإبلاغ العمده سواء ظهر لها صاحب أو لم يظهر ، وسواء طلب إليه الصاحب هذا المطلب أو لم يطلب ، ولسنوات يلتقط عم درويش الطبال جثث العذارى الحاملات فى هذه البلدة على منحنى النهر .

وفى هذه الرواية القصيرة يبدو أسلوب محمد البساطى ســـطحيا ، ولكن تحت السطح تتجذر الأعماق ، ويبدو الأسلوب خامدا ، ولكن تحت السطح الخامد تضطرم النار .

باريس

يخــــوت فى الهــــواء الطلق

الفنان الفرنسى البير روبيده هو أشهر وأهم من تخيلوا صورة القرن الواحد والعشرين ، وجسد هذا الخيال فى لوحات عديدة رسمها فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكانت هذه اللوحات دائما بمــــثابة الوحـــى الــذى راح العلماء يستلهمون مخترعاتهم الجديدة منه . فهو أول من تصور كيف تكون الحياة فى الجو والفضاء .

تبلغ أهمية روبيده فى الرسم نفس الدرجة التى يتمتع بها جول فيرن فى أدب الخيال العلمى ، بل يمكن أن نقول ان خيال روبيدة كان أكثر خصوبة.

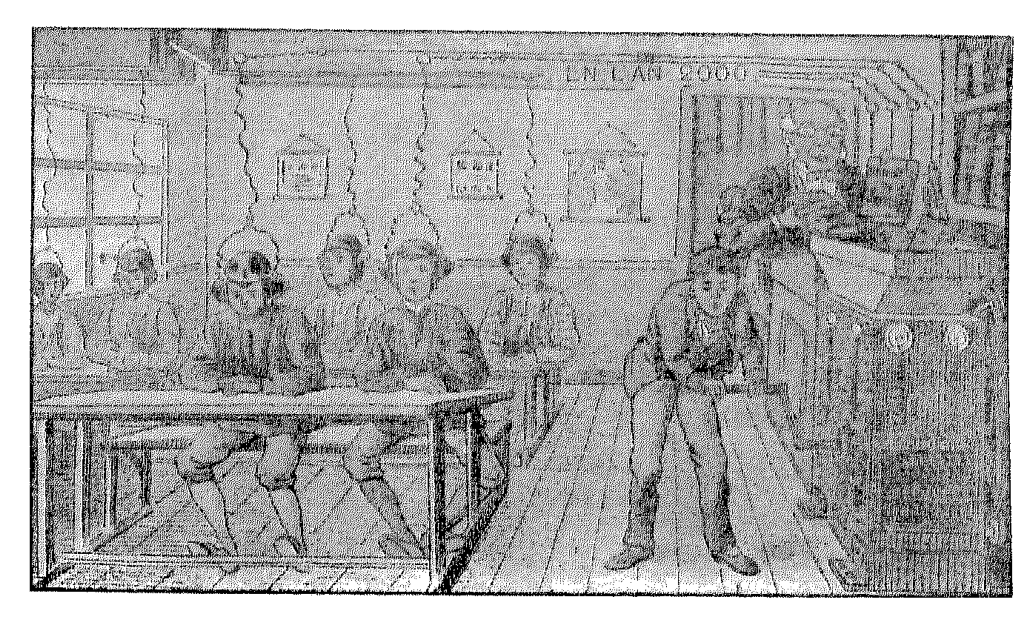
فعلى سبيل المثال ، كان روبيده أول من تخيل بما أســـــماه باليخت الجــــوى ، وهو وســيلة الانتقال الاولى فى القرن الواحد والعشرين . كما انه أول من تخيل ما يسمى بثقوب باريس ، وهذه الثقوب عبارة عن أنابيب متباينة الاحجام تسير فيهـــا الميــــــاه ، والكهرباء ، والموسيقى بواسطة كابلات ضخمة ، وهى تنقل الموسيقى من اماكن إلى اخرى تحت الأرض .

وقد تخيل الفنان أن باريس قد بلغ عدد سكانها فى القرن الواحد والعشرين أحـــد عشــر مليون نسمة ، ومع هذا فلن تفتقد الخضرة ، ولن تزدحم بالسكان ، لأن الناس سوف يستخدمون الطـــرق الســـفلية ، أو الانفاق.

وفى رسوم روبيده يمكن أن نجد أول صورة للمســــــجلات ومكبرات الصوت التى انتشرت فى القرن العشرين ، والتى ستصبح عـــلامة للقرن القادم ، كما تخيل أن الانسان يمكنه أن يطير بواسطة اجهزة متطورة يلفها حول وسطه ، وبهذا يمكنه أن يمارس أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل ، مثل لعب التنس الجوى وكرة القدم فى الهواء .

أما المرأة فى القرن الواحد والعشرين فيكفيها أن تجلس أمام جهاز فى بيتها كى يقوم لها بكل ما تحتاجه من مكياج وزينة ، وفى نفس الوقت فإن كل لوازم البيت سوف تتم آليـــا ، الغســـيل ، والاستحمام ، والطهو . ولعل روبيده بذلك قد سبق شارلى شابلن بعشرات السنين حين صور هذا

رياضة فى عام ٢٠٠٠



العالم فى فيلمه « العصور الحديثة » .

وأطرف ما تصوره الفنان عن الحياة فى القرن الواحد والعشرين أساليب التعلم . فعلى التلاميذ أن يجلسوا فوق مقاعدهم ، ويضعون فوق آذانهم سماعات متصلة باسلاك كهربائية قادمة من آلة ضخمة أشبه بمفرمة اللحم . وهذه المفرمة تفرم الكتب التى تتسرب عصارتها الى امخاخ التلاميذ . فلا يحتاجون إلى تفكير ولا أى تركيز .

أما يخوت الجو الذى سبق الحديث عنها ، فانها أشبه بطائرات صغيرة . يمكن للمرء أن يقودها بنفسه . أو أن يقودها سائق متخصص. وهى متباينة الأحجام والاشكال . فيمكن للعشاق مثلا أن يقومون بجولات جوية خلوية . ويمكن أن يكون هناك اتوبيس جوي ينقل الركاب . وهو مكون من أكثر من طابق . كما يمكن للاثرياء أن يركبوا طائراتهم الخاصة للذهاب إلى العمل .

القرن العشرون إنتهى

وقد توقع روبيده أن ترتدى كافة تخيلاته زى الواقع مع بداية القرن الحادى والعشرين . ولكن من الواضح أن علينا الانتظار قرنا آخر لنرى الكثير من هذه التخيلات بين بنات الواقع المعاش

لندن

ثلاثية القرن الواحد والعشرين

لم يتوغل كاتب معاصر فى سنوات القرن الواحد والعشرين مثلما توغل الكاتب البريطانى المعروف آرثر كلارك ، ليس فقط من خلال ثلاثيته عن أوديسا الفضاء .. بل فى أغلب رواياته وقصصه القصيرة التى تنتمى إلى الخيال العلمى .

ففى عام ١٩٦٦ كتب كلارك سيناريو فيلم يحمل عنوان « ٢٠٠١ أوديسا الفضاء » حول الصراع بين عقل اليكترونى وبين رواد سفينة فضاء متجهة إلى مجهول فى رحلة فضائية . وقد سيطر العقل الاليكترونى هال على العقل البشرى ، لانه الاكثر تنظيماً . وقدرة . ومعرفة .

وعقب نجاح الفيلم الذى اخرجه ستانلى كيوبريك . قام كلارك بتحويل الفيلم إلى رواية شهيرة تحمل نفس الاسم تدور أحداثها فى محطة الفضاء التى تبلغ مساحتها ألف قدم .

والمتجهة إلى قمر كلافيوس . والتى يمكن لركابها أن يتركوها للسياحة فى الفضاء والعودة إليها مرة أخرى . ويشرف على المحطة الدكتور فلويد وعالم آخر من كلافيوس . ويصاب اوتوبيس الفضاء يوما بعطب تكون السفينة خلاله قد ابتعدت بملايين الاميال عن كوكبنا . واقتربت من المشترى .

وابان العطب ، يرى فلويد ان عليه أن يكون فى حال افضل من ناحية اللياقة . فيمارس بعض التدريبات الرياضية . ثم يضيع فى الفضاء اثناء واحدة من هذه التدريبات كى يخلو الجو لكل من العقل الاليكترونى هال ٩٠٠٠ وبين رئيس الملاحين . ويدور بينهما صراع من أجل السيطرة على قيادة المحطة .

وقد صور كلارك العقل الاليكترونى على انه مخلوق مصنوع من



٢٠٦٠ اوديسا الفضاء

اسلاك كهربائية شريرة شيطانية . ويبدو أن المؤلف قد رأى ان الصراع لن يتوقف بين العقول الاليكترونية والبشر ، لذا قدم رواية أخرى فى عام ١٩٧٩ تحت عنوان «٢٠١٠» اوديسا الفضاء . صور فيها جانب آخر من الصراع . فهناك بعثة علمية امريكية سوفيتية ترحل إلى الفضاء للبحث عن السفينة ديسكفرى التى ظلت تدور حول المشترى . ويحاول الملاحون أن يفهموا لماذا ظلت تدور تسع سنوات ويكتشفون ان هال كان ضحية . رغم ان القيادة قد اختفت . وأصبحت له القدرة على الإختراع مثل البشر .

وقد إختار كلارك ان يتعاون كل من السوفييت والامريكيين فى هذه المهمة كنوع من الوفاق الفضائى منعا من قيام حرب بين الطرفين .

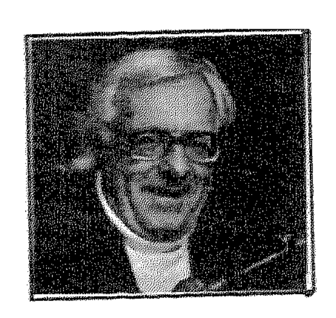
وفى عام ١٩٨٥ نشر كلارك رواية ثالثة بعنوان « ٢٠٦٠ اوديسا الفضاء » ولعله يعكف الآن على تقديم رواية رابعة تحمل عنوان « ٢٠٩٩ اوديسا الفضاء » ارثركلارك من مواليد بريطانيا عام ١٩١٨ . وقد تخرج من كلية العلوم . ومن اعماله الاخرى « عالم ٢٠٠١ المفقود » . و « المدينة والنجوم » . و « جزر فى السماء » .

كاليفورنيا

يوم فى عام ٢٠٢٦
أغسطس ٢٠٢٦

« أغسطس ٢٠٢٦ »

عنوان قصة قصيرة كتبها الأديب الأمريكى راى براو بورى ، المولود عام ١٩٢٠ ، تصور فيها كيف سيكون العالم فى بداية الربع الثانى من القرن الواحد والعشرين ، وذلك من خلال وقائع يوم فى حياة شخص عادى فى هذا الشهر فاليوم يبدأ حين تعلن الساعة الضوئية عن بداية نشاط جديد حيث تروح الساعة لتوقظ أهل الدار . هذه الساعة التى تلعب دوراً أساسياً فى حياة سكان البيت ، فهى تنبه إلى الأحداث الهامة فى المنزل . حيث تهتف أنه قد بدأ اليوم الرابع من شهر أغسطس عام ٢٠٢٦ . إنه عيد ميلاد صاحب المنزل . كما أنه أيضا يوم ذكرى زفاف ابنته . وعلى السيد أن يدفع اليوم قسط التأمين، وقوائم المياه والغاز والكهرباء.



راى براو بورى

كما أن الساعة تنبه الأبناء إلى أن موعد الذهاب للمدرسة قد حان . وتروح تأمر الخادمات إلى أن وقت التنظيف قد بدأ .

وما يحدث فى هذه الأقصوصة فى ذلك اليوم ، يعد نموذجا لما يمكن أن يدور فى ولاية كاليفورنيا . فهناك الطباخ الكهربائى الذى يتولى آليا إعداد الفطور والغذاء والعشاء حسب قائمة مبرمجة فيه اليكترونيا .

يتحرك كل شئ آليا : السيارة ، الأبواب ، المطر الذرى . الزهور الآلية . فالمنزل هو البيت الوحيد الذى بقى من المدينة بعد أن أصابها إشعاع ذرى . أصبح الكلب هيكلا . ورغم الحركة التى تملأ البيت ، إلا أن المنزل خاو تماما من كل البشر . لقد أتت الحرب الذرية على البشر .. وغما قريب سوف تلتهم النيران المنزل الوحيد الباقى فى كاليفورنيا بعد اندلاع هذه الحرب .

راى براو بورى . من ألمع أدباء الخيال العلمى فى القرن العشرين . ومن أبرز رواياته « فهر نهايت ٤٥١ » ، و« رحلة المليون عام » و « يوم أمطرت الدنيا للأبد » ، و« عقار الكآبة » ، و « مدينة أكتوبر » .. وغيرها من مجموعات قصصية عربية .

د. على شلش

الرجل الذى أحب مصر

منذ فترة قدمت الإذاعة البريطانية (غير العربية وغير الدولية) ثلاثية مسلسلة طريفة بعنوان : « البمباشى مكفرسون - سيرة رجل فى مصر ، وكانت الثلاثية مقتبسة من ٣٦ مجلدا من الخطابات الشخصية التى كتبها مكفرسون المذكور لأهله فى انجلترا طوال إقامته بمصر ، وحتى وفاته بها عام ١٩٤٦ . ولما نجحت المسلسلة جماهيريا أغرى النجاح حفيد شقيق الرجل بإعداد كتاب يضم قطرات من بحر ذلك الركام الهائل من الخطابات .

فقد كان مكفرسون ولوعًا بكتابة الرسائل لإخوته وأولادهم على مدى ٤٥ سنة . وكانت هذه الرسائل قد وصلت الى حفيد شقيقه ، واسمه جون مكفرسون ، عقب وفاة الشقيق عام ١٩٥٥ ، فحفظها ، ثم فكر فى نشر بعضها ، بعد نجاح الثلاثية التى نبعت من مجلداتها ، حتى وجد من يشاركه فى هذا العمل الضخم ، واسمه بارى كارمان . ومن حماسة الاثنين للرجل والموضوع خرج هذا الكتاب الطريف أيضا :

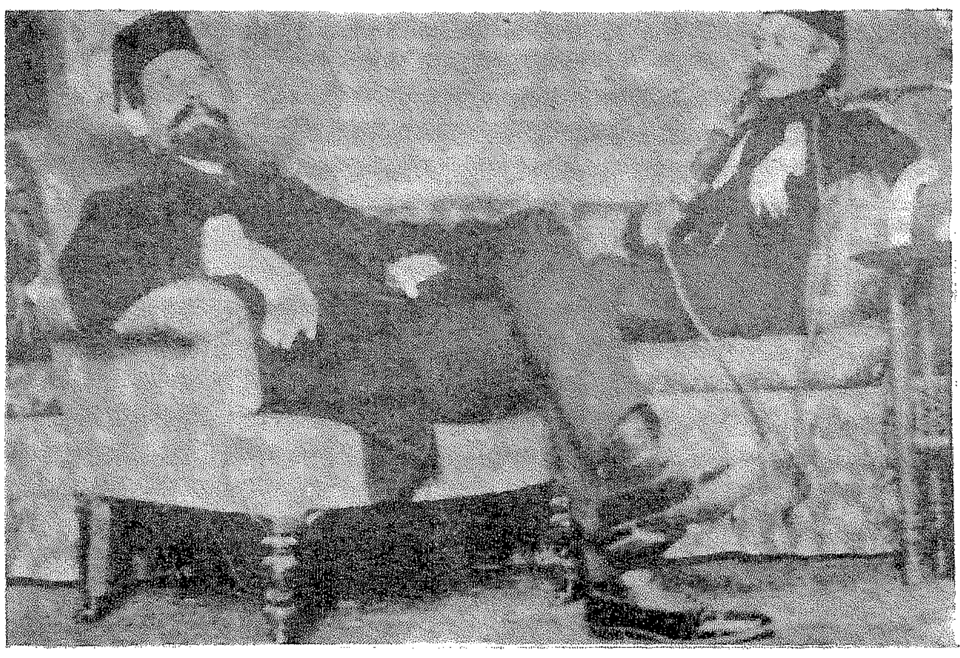
الرجل الذى أحب مصر

البمباشى مكفرسون

ولكن ، من هو ذلك الرجل الذى أحب مصر ، ذلك البمباشى ، أو البكباشى ، أو المقدم اذا شئنا مقابلا عربيا لهذه الكلمة التركية ؟ لقد قدمه ، وقدم كتابه أيضا ،

● مـاكـفـرسـون .. مع لورد كـتـشـنر سنة ١٩١١

● ماكفرسون فى مدرسة الخديوية عندما كان مدرسا بها



رسالة لندن

إنجليزى آخر أحب مصر ، وكتب عنها رباعية أشهر منه ، هو لورانس داريل الذى توفى عقب صدور الكتاب . ونظرا لطرافة تقديمه وقصره نورده كاملا هنا :

« كان مؤلف هذا الكتاب ، الذى تم تقطيره من نحو خمسة وعشرين مجلدا تضم مراسلاته على امتداد حياة طويلة ومتباينة قضاها بمصر ، من أشد الشخصيات التى أسعدنى الحظ بمعرفتها تفرداً وأسراً للآخرين . وقد التقيته بالقاهرة ، وتشرفت بتلقى آخر نسخة لديه من كتابه « موالد مصر » ، الذى يصور الأسواق ومهرجانات القرابين فى الدلتا المصرية ، وهو عمل نفيس بالرغم من سوء طباعته وفوضاها ، أمدنى بلمحة مباشرة رائعة عن حياة الفقراء فى مصر . وها هى نسختى الخاصة التى أضمرت لها إجلالاً شديداً كلما احتجت الى صبغة محلية فى رباعيتى عن الاسكندرية ، ترقد الآن فى خشوع بمحفوظات جامعة إلينوى . وهى حافلة بالعلامات ، والخطوط تحت السطور ، والتظليلات المتعارضة ، على نحو يوضح مدى الدين الذى أحمله لها .

وقد كان عجزى فى اللغة العربية يشكل عائقاً رهيباً . ولكنى استطعت بمساعدة هذا الكتاب الصغير الثمين أن أهيىء لهدفى النجاح على نحو كاف . أما اليوم فيظهر عمل آخر أعظم بكثير من سابقه ، وهو ثمين أيضا ، ليملأ الفراغ الذى يتثاءب بين الكتاب الضخم الجميل الذى ألفه لين - « المصريون المحدثون » - وهذا الكتاب . واذا كانت كتب كثيرة ظهرت فى التحليل السياسى والأسرار الشخصية فلم يظهر كتاب واحد (رأيته) يحمل خاتم أصالة المعرفة المباشرة مثل هذا الكتاب .

أما عن مكفرسون نفسه فمن العسير الكتابة بطريقة تفى شخصيته المتعددة الجوانب حقها . ولكنى رأيته « يتنزه فى شوارع القاهرة على صهوة بغل أبيض وقد غرق فى التفكير وبدا مثل اله » على حدٍّ تعبير أحدهم . وكان يفوح منه أغرب عطر للسمو الإنسانى . ولو تجول فى بلاد التبت لحسبوه فى الحال راهبا بوذيا أحرز أرفع العلوم والفنون .

كان متوسط الطول ، قليل البدانة ، ذا رأس صغير جميل تقطنه عينان فيهما نورانية غير عادية وحنان بسام . وكانت له طريقة فى الجلوس بغير حركة أو صوت على عادة الشرقيين ، ولكنها كانت من الفصاحة بحيث تعادل خطبة كاملة . وقد أحبه المصريون ، وعاملوه كأنه عراف حكيم ، وإن كان حسه الفكاهى ومداعباته اللفظية التى تأتى من فور الخاطر جعلته أسهل منالاً من رجل الدين العادى . وكان يؤدى أعماله المتواضعة برشاقة وحرارة ممتازتين محببتين ، فازتا بقلوب الجميع . ولا شك أن أغرب شىء كان جمعه بين هذا كله وبين كونه باحثًا رفيع المستوى وعالمًا

قديراً فى اللغة ، فضلاً عن كونه طالب متعة من نوع راق ورجلاً عملياً ! وإذا بدا أن الكلام بهذه الطريقة مربك ومحير فسوف يتبين قراء هذا الكتاب كيف كان مؤلفه متعدد الجوانب .

لقد شملت حياته الطويلة فترة انتقالية بأكملها ، فضلا عن حربين . وعندما جاء الى القاهرة كان تعداد سكانها ٤٠٠ ألف نسمة فقط . ولما مات تجاوزوا المليونين ومازالوا فى ازدياد . ولبعض هذه التغيرات الكبيرة صدى على ملاحظاته . أما الكتاب الذى تم جمعه وتحقيقه بورع نموذجى وعناية مدققة ، فهو ذلك الشىء النادر ، والعمل الثمين الحقيقى المكتوب عن مصر الحديثة - وياله من كنز للباحث ومتعة للقارىء ! » .

عم كـــواك

لم يبالغ داريل فى الحقيقة ، ولكن تقديمه البليغ هذا لم يتطرق الى الرجل فى رسائله . وهذا ما تناولته مقدمة أحد محققى الكتاب ، وهو حفيد شقيقه كما أشرنا . فهو يقول إنه عرف عم أبيه - البمباشى - عندما كان طفلاً صغيراً ، وسعد بحكاياته ونوادره ، وكان يسميه مع أطفال الأسرة « عم كواك » ، وكواك هذه كلمة صوتية تعنى صياح البط وشدوه . ويقول أيضا إن مكفرسون لم يكن يفكر فى نشر هذه الرسائل عندما كتبها ، ولكنه فعل ذلك على سبيل التسلية ، ولكن أخاه الأصغر - جد المحقق - هو الذى اهتم بالرسائل ، وطبعها على الآلة الكاتبة ، ثم رتبها فى مجلدات ، مع ملحقاتها من صور وتذكارات ومنشورات الحركة الوطنية التى ضبطها أيام ثورة ١٩١٩ .

وأما حياة مكفرسون الخاصة فقد تناولها قريبه هذا فى استهلال الكتاب . ومن كلامه نعرف أن الرجل ولد فى أسرة اسكتلندية عام ١٨٦٦ . وكان أبوه ملاحظاً فى مستشفى للأمراض العقلية فى انجلترا ، اعتاد أن يصحبه معه اليها وأن يعامله كواحد من مرضاه . ومع ذلك ألحق ابنه بأفضل المدارس حتى أكمل تعليمه بجامعة أوكسفورد ، حيث تخصص فى العلوم الطبيعية ، وتخرج بتفوق ، ثم اعتنق المذهب الكاثوليكى حين درس بعد ذلك فى أيرلندا . وعمل مدرساً ، وراح يحلم بالسفر الى الشرق مثل كثيرين من أبناء جيله . وذات يوم سمع أن مندوبا للحكومة المصرية يقوم فى لندن بالتعاقد مع بعض خريجى أوكسفورد ، فذهب الى لقائه ، وفوجىء باختياره على الفور لحساب وزارة المعارف . واستقل القطار الى فرنسا ، وركب البحر من مرسيليا الى الاسكندرية فوصلها فى نوفمبر ١٩٠١ .

منذ ذلك التاريخ تنقل مكفرسون بين عدد من وظائف الحكومة ، فبدأ مدرساً بمدرسة الخديوية الثانوية ، وظل فى التدريس بالقاهرة والاسكندرية حتى نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، فعمل ضابطا فى الصليب الأحمر وتنقل فى الصحراء الغربية والشرقية . وبعد انتهاء الحرب عين مأمورا للضبط بالنيابة . وظل



يقاوم الجريمة والفساد والوطنية فى تلك الوظيفة حتى تقاعد عام ١٩٢٤ . وبعدها لم يغادر مصر إلا للنزهة . وبقى بها حتى وفاته عن ٨٠ عاما سنة ١٩٤٦ . وخلال هذا كله كتب لأخوته وأبنائهم أكثر من ٣٠٠٠ صفحة ، وألف كتابه عن الموالد الشعبية الذى طبعه فى القاهرة عام ١٩٤١ ، وساح فى الشام وتركيا وليبيا وتونس ، ودرس الإسلام والتصوف ، وعشق الحرية والصعلكة ، وأجاد العربية ، وعاش أعزب فى « فيلا » مطلة على الحقول بالقرب من حى بين السرايات فى القاهرة ، وأطلق على الفيلا إسما ايطاليا معناه « نصيب صغير » ، واقتنى بقرة وكلابًا وحميرًا (خلط داريل بين الحمار والبغل ، فالحقيقة أن مكفرسون كان يتنقل فى القاهرة على حمار أبيض !) بل راح يزرع داخل حديقة الفيلا ، وينام على سطحها معظم شهور السنة ، فى حراسة جندى المراسلة القديم – عنده – وأسرته .

وفى ١٨ يناير ١٩٤٦ أصيب بنزلة برد فلزم فراشه . وبعد أربعة أيام فى الفراش دخل عليه خادمه « جاد » بمشروب ساخن، وفور تناوله الكوب مال رأسه الى الخلف فجأة ، وأسلم الروح . ودفن بالقاهرة التى أحبها .

معلم صنع القنابل

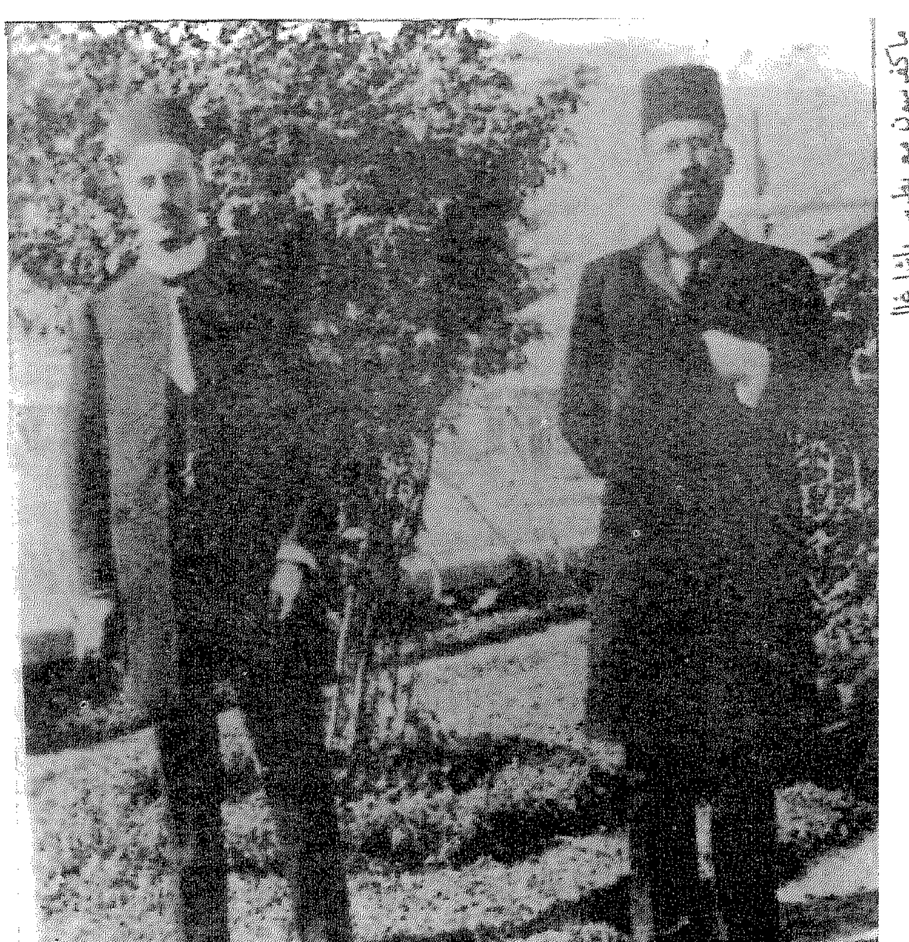
ماذا يضم هذا الكتاب الطريف عدا الرسائل الشخصية ؟

ليست الرسائل الشخصية ذاتها سوى وثائق لشاهد عيان . ولذلك تصلح كمصدر من مصادر كتابة تاريخ تلك الفترة أو مراجعته على أساسها . وقد ظهرت من قبل رسائل عديدة من هذا النوع ، كتبها ضباط أو موظفون انجليز عن مصر الى ذويهم فى انجلترا ، ولكن هذه الرسائل تتميز بالطول من ناحية ، والتدقيق فى مادتها من ناحية أخرى ، وتنوع الموضوعات من ناحية أخيرة . فأول رسالة – مثلا – تقارن بين النظام عند التلامذة المصريين ونظرائهم فى انجلترا ، عام ١٩٠١ ، أى فور اشتغال مكفرسون بالتدريس عندنا . وفيها يصور تهاون الانجليز فى النظام واحترام المصريين له ، وكيف أن المدرسة (الخديوية) تعج بالفراشين ومن ليست لهم علاقة بالتدريس (الاداريون) مما لا نظير له فى انجلترا ، وكيف ارتدى الطربوش مثل تلامذته بأمر السلطان كما يقول (هذا غير صحيح بالطبع ، ولكن الخديو عباس الثانى كان حريصا وقتها على الطربوش كرمز للوطنية) وصور مكفرسون أيضا كيف ينهض التلامذة لتحيته عند دخوله الفصل وعند خروجه تحية عسكرية ، وكيف ترتفع عقوبة التلميذ المذنب الى درجة الحبس مع السماح بالخبز والماء ، وكيف يقبل التلامذة على التعلم بصورة تفوق نظراءهم فى

انجلترا . ومن الواضح أن كل هذه المظاهر والظواهر لم تعد موجودة عندنا !

ويذكر مكفرسون في رسالة أخرى كيف أقبل على مخالطة المصريين ، على عكس أبناء قومه في ذلك الوقت . وكان من تلامذته اثنان من أولاد أحمد عرابى ، وحامد محمود (وزير الصحة فيما بعد) ومحمد لطفى جمعة (القانونى الأديب) ومحمد صبرى (السربونى) . وقادته المخالطة الى معرفة الكثير من العادات والتقاليد فى مصر . ومن أطرف مشاهداته وقتها احتفال أبناء الجالية الايرانية بمقتل الحسين ، وسيرهم بالليل فى ضوء المشاعل والدم يقطر من أجسامهم التى طعنوها بالسيوف !

ذات يوم دعاه الشيخ محمد بخيت قاضى المحكمة العليا الشرعية ، واستضافه فى داره بأسيوط ، فكتب من هناك رسالة (أغسطس ١٩٠٢) وصفه فيها بأنه « من ألمع الشخصيات التى قابلتها فى حياتى وأكثرها اثارة للإعجاب، فهو لا يحب شيئًا سوى العمل والصلاة



ماكفرسون مع بطرس باشا غالى

رسالة لندن

وهداية أصدقائه وإخوانه في الدين » .

وذات يوم آخر زار المفتى الشيخ محمد عبده ، بصحبة أحد أصدقائه ، خلال شهر رمضان ، وكتب رسالة (٢١ نوفمبر ١٩٠٣) قال فيها عن الشيخ الذى لم يكن يضيق بالأجانب ، تماماً مثل صديقه الشيخ بخيت :

« عرضت عليه سؤالا كان يؤرق روح خادمى حجازى ، وهو : هل أفطره استنشاق دخان سيجارتى عرضا ؟ ومن الغريب أن جوابه عن هذا السؤال اتفق مع ردى على حجازى . فقد قال : قل للولد إنه لو كان استنشاق الدخان يفطر الصائم لكانت رائحة الطعام أكثر إفطاراً . ومع ذلك لو أنه استنشق أحسن الطعام على مدى شهر رمضان لمات من الجوع قبل حلول عيد الفطر ، ولكان موته نتيجة عدم افطاره . وقال أيضا : أنظر هذا « السفرجى » ، انه ليفضل أن يفقأ عينيه على أن يفطر . وها هو يأتيكم بالقهوة والحلوى والنراجيل المشتعلة .

ثم سار معنا المفتى مسافة على ظهر بغل مطهم . وتخلف مرافقى جونز وراءنا مع قريب للمفتى كان يتكلم الفرنسية ، وسرت أنا الى جوار المفتى الذى يحب الحديث بالعربية بالرغم مما يقال عن كونه أفضل عالم فى اللغات الشرقية بمصر . وبلغنا ممرا ضيقا بين صف من النخيل وقناة ماء فظهر السؤال الصعب : من يتقدم من ؟ فهو لم يكن يسمح لنفسه بأن يوليني ظهره ، ولذا حللت المشكل على نحو ما حللت كثيرا مثله من قبل ، فتقدمت الشيخ ، ولكن بعد أن استدرت كى أكون فى مواجهته (لسبب ما يتشاءم الفلاحون من الركوب بهذه الطريقة . فقد قال أحد أغبيائهم عند مرورى به : « حرام عليه اللى يركب كده » ولكن المفتى عنفه الى درجة أنه انبطح على الأرض من شدة الرعب ، وهو يقول : « حرام على أنا المسكين ») .

وكانت أيام مكفرسون فى مصر حافلة الى درجة أنه علق عليها فى ختام احدى رسائل تلك الفترة بقوله : « إن المرء ليتعلم

غلاف الكتاب



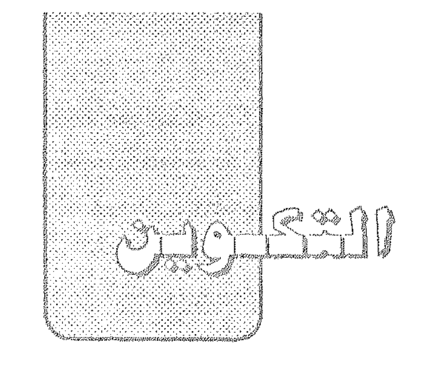
ويرى ما لا يحصى من الأشياء فى ساعات قليلة ، دون أن يبذل أى جهد ، فى حين يستغرق هذا فى بعض البلاد أشهرا كثيرة . وهذا هو جمال مصر - تصعلك كما تشاء ، ولكنك لا تستطيع أن تضيع وقتك كله، ما لم تكن من مشجعى الانحسار داخل الجالية البريطانية المنغلقة على نفسها » .

ومع أن نظارة المعارف العمومية - كما كانت تسمى - اتقاها ذوو الطموح وقتها ، وفضلوا عليها النظارات الخطيرة التى بذل فيها الانجليز جهوداً جبارة ، فقد قنع مكفرسون بتدريس العلوم ومخالطة الناس، والعيش بعيدا عن المؤامرات ودسائس السلطة ، وارتياد مجاهل مصر ، وساعده على ذلك تواضعه ورغبته هو نفسه فى التعلم ، وانتقاله الى مدرسة رأس التين الثانوية بالاسكندرية عام ١٩٠٤ ثم مدرسة الزراعة بالجيزة ، فمصلحة المساحة ، وأخيراً وزارة الداخلية . وفى الأخيرة عمل مأموراً للضبط ، أو رئيساً للقسم المخصوص (الشرطة السرية) ، أو ما يسمى اليوم بالمباحث . وهذه نقلة بزاوية ١٨٠ درجة ، قد تبدو لنا غريبة ، ولكنها مألوفة للانجليز حتى اليوم . فالعبرة عندهم بالكفاءة ، لا بالشهادة ولا بالتخصص . ويبدو أن مكفرسون كان كفئا الى حد كبير ، حتى يُعهد اليه بمثل هذا المنصب فى زمن عصيب عقب الحرب العالمية وأثناء ثورة ١٩١٩ الوطنية .

كانت مهمته ، على أى حال ، هى تأمين الجبهة الداخلية . وذات يوم حضر محاكمة بعض الوطنيين المتهمين بزرع القنابل أثناء الثورة ، ومنهم الدكتور منصور (لا ندرى بقية اسمه) . وحين سأل القاضى المتهم المذكور عمن علمه صنع القنابل أجاب : البمباشى مكفرسون مأمور الضبط . وعندئذ ساد الهرج والمرج، لأن « المعلم » كان حاضرا . وكان قد علمه الكيمياء بالمدرسة الخديوية ، ولكنه لا يذكره. وهذا ما أجاب به القاضى عندما سأله . ولكنه أضاف : « ويسعدنى جدا أن أعلم أن محاولاتى المتواضعة فى التدريس لم تذهب هباء ، وأن تلميذاً نجيباً لم ينس ما تعلمه »!

ولكن الذى لم ينسه معلم صنع القنابل نفسه هو أنه - فى كل الظروف - رجل انجليزى يجب أن يؤدى واجبه بأمانة لحساب مخدومه ، وأنه حر بعد ذلك فى نفسه وماله ووقته . ثم تغير ذلك الواجب بعد تقاعده ، فصار لحساب ضميره أولا وحبه لمصر ثانيا . ومن أجل هذا الحب سجل الكثير من ألوان الفن الشعبى والعادات والشعائر الدينية والموالد الشعبية. وفضل هذه الأمور على الشرطة والسياسة، قانعًا بحماره الأبيض الذى يتجول على ظهره فى الشوارع .

أرجو أن ينقل هذا الكتاب الثمين يوما ما الى العربية ، ففيه كنز لمؤرخينا والباحثين فى الفولكلور وتطور المجتمع خلال النصف الأول من القرن .



الدين ... النيل

د . نعمات أحمد فؤاد

محوران التقيا علي تشكيل حياتى منذ نشأتى الأولى وطبعاها بطابعها .

كانا معا ، نهجا واضحا انتظمت عليه خطواتى ، حرص أبى الذى لمس التقاط ذاكراتى ما أسمعه ، على تحفيظى القرآن الكريم فجاء لى بمن يقوم بهذه الغاية ثم حرصت جدتى على تقديمى طفلة إلى شيخ مشيخة القراء وكان قريبها فسمعنى الرجل ورضى عن جهدى الباكر وعلمنى المد والغنْ وبصرً وصحح ... وتوثقت صلتى بالله وكتابه فى فجر العمر .... وزادتها الأيام رسوخا ويقينا فاستضاءت حياتى بنور ليس كمثله شىء .

أما أثر النيل فله ، بعد ، مقام عريض وحديث مستقل طويل .

نقطة تحول :

أتممت دراستى الابتدائية فى بلدتنا مغاغة من أعماق المنيا بالصعيد . وأتممت معها حفظ القرآن الكريم . ولما كانت بلدتنا ليس فيها مدرسة ثانوية للبنات فى ذلك الوقت ، فقد اتجه والدى الذى كان يتحمس لتعليم البنت وله فى هذا كلمة محفورة فى ذاكرتى . كان يقول (البنت المتعلمة تدل على الأسرة أكثر من الولد) .. ومعه الحق،

صفحة من حياتى

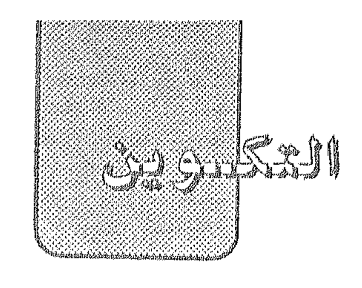

د . نعمات أحمد فؤاد

فإن الأسر المصرية جميعا تهتم بتعليم الصبيان من بنيها وهنا يكون تخير الأسرة التى تحتفل بتعليم بناتها . هنا موقف ودلالة تقول .

كنا نريد مدرسة ثانوية بها داخلية فاستشرفنا إلى مدرسة حلوان الثانوية للبنات . هذه المدرسة علامة ونقطة تحول فى حياتى عرفت فيها كيف تكون رسالة المدرسة ، وعرفت فيها حلاوة التفوق ، وعرفت فيها الأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير ، وعرفت فيها ، بحكم الداخلية ، الخلوص للدراسة والتحصيل الذى طبقته بعد هذا فى حياتى فعرفت معنى الخلوص للعلم والعكوف عليه فامتلأت حياتى، كبيرة، بالقراءة والكتابة والرحلة والندوة والقيم الجادة بقدر ما أستطيع .

خطوط عريضة لها تفاصيل كثيرة أتذكرها وأذكرها كاملة كأنها وقعت اليوم لا أمس .. صورة عن عينى لا تغيب . ولكنى أريد هنا أن أتحدث عن حلوان نفسها ..

كان طريقى اليها قطار باب اللوق .. كنت أفرح بركوبه وأحفظ المحطات التى تتوالى بين الواحدة والأخرى دقائق معدودة .. حتى إذا نزلت فى حلوان تمتعت عينى بضاحية هادئة تحيط بها الصحراء.. الشارع الرئيسى فيها هو الذى يصل بين المحطة ومدرسة حلوان الثانوية للبنات .. كان هذا الشارع يبدو فى عينى طويلا جدا هل السبب أنى كنت أقطعه سيرا على الأقدام أو أنى أتعجل الوصول إلى المدرسة فقد أحببتها منذ اليوم الأول وأنتميت اليها عاطفيا .. مرة أخرى أقول بحكم الداخلية .. لقد كانت بيتى الثانى .. أنتزع نفسى مرة أخرى من الحديث عنها لأعود إلى وصف حلوان المدينة لا المدرسة. كان الشارع الرئيسى تكاد تعد المارة به .. ولاحظ والدى هذا فكان حريصا على اصطحابى إلى المدرسة فى أول العام الدراسى ثم اصطحابى أو من ينيبه عنه



من فرع الأسرة فى القاهرة عند الأعياد ومواسم الأجازات .

حلـــوان :

كانت حلوان واضحة المعالم يقصدها الناس للعين المعدنية ، والحديقة اليابانية ، والجو الصحى للاستشفاء والشتاء .. كانت حلوان مشتى من مشاتي مصر كأسوان والأقصر . وبها مثلهما فنادق كبيرة جميلة أحدها خلف مدرستي . وكانت حلوان دارا للأسرة الكبيرة .

ويناديني الحنين اليها بعد أن بَعُد عهدى بها فأزورها ولكن ماذا أرى ؟ صورة غير الصورة . ومدينة غير المدينة .. لا أصدق عيني أن الجميلة الهادئة الناعمة تعج بكل هذا الخلق ، وتضج بكل هذا الصخب .. لقد غدت معقلا من معاقل الصناعة .. لا بأس ولكن المصانع فى بلد كمصر تمثل الصحراء $\frac{٢٩}{٣٠}$ منه يجب أن تقوم المصانع على أطراف المدن ، وحيث الصحراء تتعطش إلى التعمير والحياة .. ولكن هذا موضوع آخر .

كانت مدرستي حلوان الثانوية هى الفصل والحديقة والملعب والمطعم والسرير والنوم واليقظة والصديقة والرفيقة والزميلة والحدوتة والحكاية والضحكة والحلم والأمل .. كانت الشوق إلى الأهل فى البعد والحديث عنهم فى القرب . كانت الخطاب يصلني من أبى ويصلني به .. كانت الانتظار واللهفة .. كانت الامتحان والدرجة .. كانت الفرحة والبسمة .. كانت الحقل وعمرى به نبته تترعرع وتورق وتزهر .. كانت الصبا بعد الطفولة . كانت التجربة الصغيرة ببراءتها وعفويتها وتلقائيتها وكل شىء فى هذا العمر ، طفولى برىء التصرف والأحساس .

كانت زميلاتى من القاهرة وضواحيها الأخرى يصرح لهن أهلن بالخروج فى نهاية كل أسبوع وكن سعيدات بهذا أما أنا فكنت أخرج على مدار العام كله ثلاث مرات .. فى العيدين وفى نهاية العام الدراسى .

كانت تنتابنى ظهر الخميس من كل أسبوع وحشة فقد كانت الغائبات يتركن فراغا تسكن معه المدرسة فى الخميس والجمعة بعد حركة كخلية النحل .. وكنت أيضا أغبطهن للتغيير ورؤية الأهل على مسافات قصيرة ولكنى أعود سريعا إلى دنياى الخاصة فأتخذ من الخميس والجمعة فرصة لتنظيم خطوطى فأعيد تنسيق ملابسى وكانت المدرسة تتطلب من الأهل أن يزودوا البنت بست وحدات من كل نوع سواء من الملابس الداخلية أو الخارجية .. مما كان يشكل فى عينى زحاما يحتاج إلى إعادة تنسيق أو تنسيق دورى .

الداخلية فى حلوان الثانوية :

كان الخميس والجمعة ، مجالين لنوم أطول ولو أن كل شىء فى أى يوم محدد بجرس فى وقت لا يتقدم ولا يتأخر .. الطعام .. اللعب .. إطفاء النور ليلا ..

الاستيقاظ من النوم صباحا .. الرجوع إلى الفصول بعد الظهر للاستذكار .. ولكن وجبة الافطار في يوم الجمعة ، كانت تحين بعد موعدها التقليدى بنصف ساعة .. لون من التغيير أو الترفيه على أى حال .

كان الخميس والجمعة مجالين للسماح بسماع الراديو . فأتمتع بصوت أم كلثوم وسرعان ما التقط الجميع شغفى بها وولوعى فكن فريقين فريقا يسعدنى بالتنبيه إلى بدء غنائها ومواعيده بل مشاركتى فى الاستماع .. وفريقا يداعبنى بمحاولة النقد المفتعل فأنبرى للاشادة بها .. كل هذا وأنا داخلية وقادمة من الريف لم أرها ولم أقابلهـا .. كم هـو حلو منعـم الحب بلا مقابل .. الحب لذاته .. حب الجمال والفكرة والمعنى .

ان تذوق الجمال ، نعيم إحساس ونعمة من الله يرزقها السعيد . وكبرت وكبر معى هذا الاحساس حتى أنى كتبت مرة منذ شهور أن الناس يعدون الفنون بأنها فن الأدب ، وفن الموسيقى ، وفن النحت وفن الرسم ، وفن التصوير ، وفن التمثيل ينسون فنا مهما هو دعامتها جميعا ذلكم هو فن الرؤية .

هكذا تعيش فى داخلى .. فى أعماقى، أيامى الباكرة .. أيامى الأولى .

دور الأب :

بدأ تعلقى بصوت أم كلثوم طفلة فى بلدتنا .. حتى كنت أغلق على نفسى باب حجرتى لأخلو اليها .. وإذا كان الوقت ليلا أطفىء النور حتى لا يشغل حواسى شىء عنها . كنت أستعذب الصوت والنطق واللفظ .. لعل سر هذا هو السر الحقيقى أنى حفظت القرآن طفلة فعرفت وأحسست مافى نطقها من صقل وحلاوة أداء . وكان الفضل فى هذا لأبى الذى حرص على تنشئتى نشأة إسلامية وأدبية .. فقد علمنى القراءة .. بل علمنى « الاختيار » فقد كان يقرأ ويسجل فى كراسة ما يستوقفه من معان وأساليب ثم يعطينى الكتاب أو المجلة لأقرأ وحدى وبعد هذا يسألنى سؤال السمير الصديق ثم يطلعنى على رأيه الذى سبق له تدوينه ..

هذا الاهتمام أذكى حواسى وأشعل حماسى ، وأيقظ طموحى . عرف أبى وهو من رجال الأعمال لا التعليم كيف يشعل ، فى الطفلة ، الشرارة المقدسة .

.. حلوان الثانوية تمثل ست سنوات من عمرى فلا تلومونى أن وقفت عندها فى هذه الصفحات طويلاً .. أنها كما يقول رامى قصة حبى وقصة عقلى بل قصة قلمى أيضا .

فى مدرسة حلوان الثانوية ومنذ البداية أى فى سنة أولى كتبت موضوع الانشاء فإذا بمدرس فصلى يطلع عليه المدرس الأول للغة العربية .. وبعد هذا يقرأ الموضوع فى الفصل وتكرر هذا وسرعان ما ذاع لى صيت فى المدرسة .

مسابقة فى اللغة العربية :

أراد المدرس الأول للغة العربية أن يرسى معنى معينا هو أن الفنون ومنها فن الأدب ، مواهب تأتى الدراسة فتصقلها

التكوين

وتثريها فأعلن فى المدرسة عن مسابقة فى اللغة العربية عبارة عن موضوع واحد تكتب فيه جميع الفصول من السنة الأولى إلى السنة السادسة ويشمل هذا بالطبع فصل التوجيهية التى أطلق عليه فيما بعد الثانوية العامة . وقبل أن تعلن المسابقة وجدت المدرسة كلها طالبات وأساتذة ، الكل يجمعون أن موضوعى فقط ليس الأول فحسب ولكنه خارج المباراة ولكم يا أعزائى القراء أن تتصوروا السعادة التى يمكن أن تغمر ناشئة فى بداية تعليمها .. بل بلغ الأمر أن طالبات الفصول الكبيرة كن يأتين إلى مع أن سنة أولى كانت تتهيب الحديث مع الفصول الكبيرة خاصة سنة رابعة وخامسة وسادسة . ولكن هؤلاء جميعا كن يأتين إلىّ تطلب أحداهن أن أفتح لها الموضوع على حد تعبيرها والأخرى أن أختم لها الموضوع بعبارة قوية وثالثة أن أكتب سطرين والمعنى مفهوم لقد كتبت فى يوم من أيام تلك المسابقة ثلاثة وثلاثين موضوعا وبالطبع كان كل موضوع يختلف عن الأخر تحقيقا لرجاء صاحبته وتفاديا للحرج .

وأعلنت المسابقة ومنحنى الأستاذ الدرجة النهائية وهذا لا يحدث فى مادة الانشاء العربى ثم كتت لى عبارة منقوشة فى عقلى ووجدانى لا أنسى منها حرفا بعد السنين العديدة التى مرت عليها .

سحر التقدير :

كتب أستاذى بالمدرسة لى من الثناء ما لا أستطيع وصف نفسى به ولكنى أذكره هنا من باب القصة . وأهم من هذا من باب تزكية المدرس وتأكيد دوره فى حياة الطلاب ومن باب الاعتراف بفضل الذين علمونى .. رحم الله شاعرنا شوقى فقد أصاب وأثاب يوم قال :

أعلمت أشرف أو أجل من الذى
يبنى وينشىء أنفسا وعقولا

كتب أستاذى فى كراستى :

(ستكونين زهرة فى روض الأدباء ، وماسة فى جبين العلماء ، وينبوعا عذبا من ينابيع البيان ، فسيرى قُدُما إلى الأمام) .

ودوت فى المدرسة هذه العبارة التى خرجت على كليشيه (أحسنت) و (أجدت).

كان لهذه العبارة دوى امتد أسابيع ، وتوالت بعدها عبارات هذا الأستاذ الذى أدين له حتى كانت الفصول تسعى إلى قراءة ما كتب فى الموضوع الجديد . وأصبح « تقليدا » .

انتقلت إلى السنة الثانية فكان أستاذى الجديد كمن يستلم الشعلة ، يكتب لى أيضا عبارات رنانة بعد كل موضوع .

من أساتذتى من كتب لى عقب موضوع فى وصف السوق الخيرى الذى افتتحته الملكة : (أقمت من كلامك سوقا للخير) .

وكتب آخر فى موضوع شبيه (عاطفة فياضة بالخير فى أسلوب أشهى إلى نفسى من تغريد الطير) لولا الحياء من

الاسترسال فى كتابات الذين باركونى ورشوا على طريقى النور ، كلمات مضيئة وضيئة ، لملأت صفحات وصفحات .

ماذا صنعت بى حلوان الثانوية :

لقد خلقتنى هذه العبارات خلقا .. كانت كل عبارة تبنينى التزمت أى ألزمت نفسى بالإجادة - لأحتفظ بمستوى يتوج بهذه العبارات وألزمت نفسى بالقراءة والتعمق رغبة فى التجويد والتجديد وألزمت نفسى حتى بقواعد الخط العربى لأوفر لموضوعى الشكل بعد المعنى وألزمت نفسى بمربع من سطرين قبل الموضوع وعنوان أدبى خاص بى ثم عرفت فيما بعد أن هذا كان طابع أدباء الرومانسية فى القرن التاسع عشر ولكنى فعلت هذا بتلقائية ووحى الفطرة .

وألزمت نفسى بتكثيف الجهد فى المواد الدراسية الأخرى حتى لا يخدش أى نقص الهالة التى أحاطنى بها مدرسو اللغة العربية فضلا عن أنى ذقت حلاوة التفوق والنجاح .

ومن هنا قلت إن عبارات التشجيع خلقتنى خلقا جديدا .. أن التقدير غذاء لروح الانسان .. إن قيمة الجواهر تعزا إلى عين مكتشفها .

مرة أعاد أستاذ لى ورق الامتحان وكانت الدرجة النهائية خمسين . ولكنه قال لقد جمعت درجات الأسئلة فحصلت نعمات على ٤٨ ولكنى خجلت من نفسى ألا أضع لها خمسين وهنا اقتضتنى الأمانة أن أضيف إلى كل ورقة فى الفصل درجتين .

كم أسرتنى وطوقتنى هذه العبارة .. لقد بكيت من فرط التأثر .. لقد كنت اعتدت على الدرجات النهائية حتى غدوت أتوقعها ولكن هذه القصة لم أتوقعها .. والتفت حولى بعض الزميلات يردن معرفة مكان الخطأ وإذا بواحدة منهن تجمع الدرجات فتجدها خمسين وهرعت إلى الأستاذ الذى أعاد الجمع واكتشف أنه التبس عليه الجمع وأنى أستحق الخمسين بدون إضافة ولكن هذا لم يقلل شيئا عندى من جميله .. من لفتته ذات الدلالة الكبيرة .

وتمر الأيام وينقضى عام دراسى ويهل عام وكل منها يحمل لى وأحمل له هناءات جديدة من هذا اللون أى خيوط ملونة فى نسيج القصة قصتى مع حلوان الثانوية .

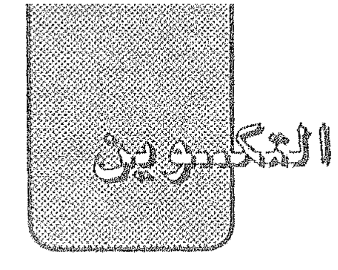
وقد توجت هذه القصة بمسابقة الأدب العربى التى كانت تعقد للمتفوقين فى اللغة العربية من طلبة التوجيهية التى سميت بعد هذا الثانوية العامة وذلك على مستوى مصر كلها .

لم تعلن ناظرة المدرسة عن هـذه المسابقة لسببين فى رأيها :

الأول : أن هذه المسابقة كل عام لم تنجح فيها بنت واحدة .

الثانى : وهو مرتبط بالأول هو صيانة الوقت والكرامة حتى تتفرغ الطالبات لامتحان آخر العام : التوجيهية .

وطلبت إلى مدرسى اللغة العربية التكتم على موعد المسابقة .. ولكن أحدهم كان يكتم ضيقه بصعوبة شديدة ظننتها ، فى أول الأمر ، لشىء يتعلق به فلما كان اليوم الأخير لانقضاء موعد التقدم لهذه المسابقة



ثار وأعلن أنه ضامن ، إذا دخلت المسابقة أو دخلت المدرسة بى المسابقة ، النجاح بل الأسبقية بين الناجحين .

وعلمت المخبوء واكتشفت أو تكشف لى المضمر فبكيت بكاء شديدا بل إنتحبت وهنا أنضم إلى المدرس الأنسان زملاؤه واساتذتى مدرسو اللغة العربية بالمدرسة .. وضغطوا على الناظرة ضغطا شديدا لم تملك معه إلا أن طلبت إلىّ أن أملأ الاستمارة الخاصة وذهبت بنفسها وقدمتها بعد إنتهاء مدة التقدم موضحة ما حدث فقبل المسئولون فى الوزارة الاستمارة .

وجاء موعد الامتحان التحريرى ثم الشفوى وبالطبع كان أعلى مستوى .. أعلى كثيرا من منهج الثانوية العامة .. وظهرت النتيجة فإذا بالوزارة تهنىء الناظرة والمدرسة لقد كنت الأولى على البنين والبنات لأول مرة فى تاريخ هذه المسابقة وبكت الناظرة هذه المرة واختلط ثناؤها باعتذارها عما حدث والذى دفعها اليه خوفها على نتيجة شهادة اتمام الدراسة الثانوية .

كان يوما مشهودا لم ينقصه إلا غياب أبى الذى كان ينتظر هذا اليوم منذ وضعت قدمى على عتبة المدرسة الثانوية .

كان حلمه الكبير أن يكون لى قلم . ليته رأى كتابى التاسع والثلاثين بعد أن خرج من المطبعة ..

كان وزير المعارف فى ذلك الوقت الدكتور محمد حسين هيكل صاحب (فى منزل الوحى) ، و (حياة محمد) ، ودعا الناجحين ليوزع عليهم الجوائز بالإضافة إلى إعلان حقهم فى مجانية الجامعة واختيار أى كلية يشاءون .

وكنت أول من تقدم إلى المنصة وأول من سلم عليه وأهدى الىّ مجموعة كتب أدبيـة لكبـار أدبـاء العصـر وظرفا به « عشرون جنيها » .. وكان هذا المبلغ يمثل شيئا فى الخمسينات أو بالنسبة لمن هم فى مثل سنى فى ذلك الوقت .

ومنذ ذلك الحين اتصلت حياتى بل التحمت بالأدب قراءة وكتابة واستشفافا وتذوقا .

تخرجت فى الجامعة .. جامعة القاهرة الأم بعد أن درست اللغة العربية أدبا وتاريخا وفقه اللغة ودرست التاريخ المصرى والاسلامى ودرست من اللغات الشرقية : الفارسية والتركية ودرست من اللغات الغربية الانجليزية والفرنسية بل اللاتينية باعتبارها الجذور فى عين الغرب .

أقول هذا من باب المفارقات فقد كانت أمنية جدتى أن أفك الخط فلما كتبت أو شخبط ا - ب تمنت أن اكتب الجواب لتعرف أحوال وقف أبيها فى القاهرة .. وعندما حققت لها حلمها بعد سنوات ، بلت الشربات .

وغاب والدى قبل الأربعين من عمره وكانت صدمة حفرت أثرها فى أعماقى .

وهنا أعاننى الإيمان على الوقوف على قدمى من جديد ... بدأت أتلمس الطريق وأتحسب الخطى .. عرفت الخوف والرهبة عرفت الحيرة وسيالا من الدموع .

ثم آضت نفسى إلى السكينة من قرار عميق أحسست أن الله معى وكفى .

سرت وسارت الأيام عشت فى القاهرة مع جدتى لأبى التى كانت تؤثرنى وتبالغ فى اعزازى وتؤمن بنجاحى بل تؤمن بكل كلمة أقولها أو أكتبها وهى لا تقرأ ولا تكتب ولكنه الحب وذكاء الفطرة معا ... ولها فى هذا الباب نوادر وحكايات لا تسعها هذه العجالة .

وفى القاهرة عرفت المجامع الأدبية .. وفى القاهرة ارتدت المعارض الفنية ، وتزاوج فى نفسى الأدب والفنون ... غدت فى حياتى ، صحبة .. واصطبغت كتاباتى، بالتعدد مع تعدد إهتماماتى ... وهى نعمة أحمد الله عليها ... ومن الرزق ما يفوق المال بلا حدود ، كالموهبة .. إنها حظ عظيم وثراء عريض .

ومن المواهب بهجة الرؤية .. وفن التذوق .

وفى القاهرة التقيت بقمم رفيعة الذرى ...

رأيت العقاد ولطفى السيد وأم كلثوم وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود تيمور وعبد الوهاب عزام ورامى وبيرم التونسى وزكريا أحمد والسنباطى ...

رأيت محمد حسين هيكل ورأيت حسين فوزى .

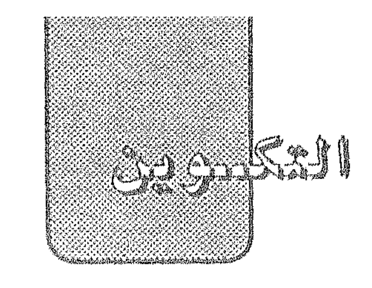
رأيت من رجال السياسة والدبلوماسية محمود فوزى .

بلا ألقاب سجلت هذه الأسماء لأنها أكبر من الألقاب .. كل الألقاب .. أكبر كثيرا ...

زرتهم وزارونى فى بيتى وأنا لم أتجاوز بعد ، فى ذلك الوقت ، مرحلة الشباب وحللت من نفوسهم مكانة كنت أنا نفسى أغبط نفسى عليها .. كان الزيات يدعونى : ابنته .. وكان يطلب الىّ أن أناديه : بابا ... كان يقول : أنه لم يرزق فى حياته بنتا ولكنه وجدها كما يتمنى أن تكون ... وكم كان قوله هذا يغنينى ويشجينى ... كان ، أبا ، يقلق إذا مرضت ، ويقلق أكثر إذا ولدت ، حتى إذا زال عنى رهقى ، كان أول الداخلين إلى حجرتى ... كان يفرح إذا كتبت ، ويسعد إذا تفوقت ، ويفخر إذا تقدمت الصفوف .

ومن الطريف أن الأستاذ الزيات حين كان يصدر مجلة الرسالة حال سكرتيره بينى وبينه على الرغم من وجود موعد سابق ... والقصة تبدأ حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة . كنت أكتب أبحاثا نقدية فى الأدب وأرسلها إلى مجلة الرسالة التى يرأسها أحد كتابى الأثيرين الذين كنت أقرأ لهم منذ كنت فى العاشرة من عمرى . كان يرأسها الأستاذ الزيات .

وكنت على طراءة السن ، فرحة سعيدة بانتسابى إلى كلية الآداب أيام كانت كلية الآدب بأعلامها المرموقين ومواقفهم المرموقة الشامخة فى الحياة المصرية لا



الأدبية فحسب ... وكنت أترجم اعتزازى بهـا فى امضائى الذى أقرنه دائمـا باسمها .

وكانت مقالاتى وأبحاثى فى هذه السن الغضة تنشر فى مجلة الرسالة بعناية ظاهرة ... وعرفت فيما بعد أن الأستاذ الزيات ومعاونيه فى المجلة كانوا يحسبوننى أستاذة فى كلية الآداب لا طالبة قياسا على هذه الأبحاث ... وشجعنى هذا على أن أطلب لقاء الأستاذ الزيات وما كاد صوتى يصله عبر أسلاك التليفون أو (المسرة) كما يريد المجمع أو الهاتف كما يقول أخواننا فى سوريا حتى جائنى صوته مرحبا متهللا وبسرعة حدد لى موعدا .

وذهبت فى الموعد بعد أن احتشدت طالبة السنة الأولى له فإذا بالسكرتير وقد رآنى فتاة صغيرة ، يتطوع بالحيلولة بينى وبين لقائه ، متعللا بتعلات سكرتيرى المكاتب الكبيرة ..

أتراه حسب أنى أنتحل شخصية الكاتبة الجـديدة وليست هى التى تقف أمامه ؟ أرجح هذا .. أو هو بالطبع .

ومضى على هذه الواقعة أربع سنوات وتخرجت من كلية الآداب وملأت الصحف والمجلات والحياة الأدبية كتابة ونشرا .. ومن هذا المقال الذى نشرته سنة ١٩٥٦ بعد تأميم القناة بعنوان (من أجل هذا يحاربوننا) فإذا بالأستاذ الزيات يرد فى الصحيفة نفسها - الشعب - مسترسلا فى المعنى مستهلا كل فقرة من فقراته :

(وكما قلت فى مقالك الأدبى الجميل ياسيدة نعمات ...) .

ولم ألبث أن طرق باب بيتى عصر ذلك اليوم طارق .. وأفتح الباب فإذا بى وجها لوجه أمام سكرتيره الذى صدنى عنه منذ بضع سنوات ، يطلب تحديد موعد ليزورنى من ؟

الأستاذ الزيات !!

وابتسم لى القدر ...

واتصلت الأسباب .

وكان الأستاذ العقاد يلقى الناس يوم الجمعة من كل أسبوع وبينهم صفوة من الأدباء والمفكرين ونخبة من مريديه وتلاميذه وكان يلقانى وحدى كل سبت من الخامسة إلى التاسعة مساء ... ويلغى مواعيده فى هذا اليوم من أجلى - كما قال لى - يحدثنى حديث الأدب والفن والسياسة .

كنت فى ذلك الوقت حديثة التخرج أحضر رسالة الماجستير عن المازنى رفيق عمره وصديقه على امتداد أربعين عاما لم يكدر صفاءهما كدر ، أو يشب علاقتهما طائف ينال .

وكان أستاذ الجيل لطفى السيد يطلب من ممرضته أن تدعه معنا زوجى وأنا وترجىء طلباتها فيما يتعلق بصحته حتى الدواء والعشاء كان يرجئهما على الرغم من إلحاحنا عليه بتعاطيه .

ومن الطريف أنه أهدى الىّ يوما كتابه (صفحات مطوية) وكتب فى الأهداء « إلى

صديقتى » .. ثم استدرك فى خفة روح أو كمن يستدرك وقد نظر إلى زوجى ، وأضاف كلمة (الشابة) أى إلى صديقتى الشابة ...

كم سعدت وكم سمعت وكم تعلمت وكم رأيت وكم وعيت وكم أثريت الثراء الذى يرتفع كثيراً على الأرصدة والمكاسب والأرباح مما يشغل عباد المال .

ويسألوننى فى برامج الاذاعة وفى لقاءات الصحافة فيما يسألونه عن مولدى فأقول المنيا أم التوحيد وأم تل العمارنة حيث أرسل العظيم اخناتون سبحاته .. المنيا التى كرمت المرأة الى الحد الذى اتخذت معه « نفرتيتى » شعار لها ... المنيا المعطاء على مسار التاريخ .

ولكن إذا كانت المنيا التى أعتد بها ، وأعتز بأمجادها ، مسقط الرأس ، فإن القاهرة ، بعد سنوات مرفع الرأس .

فى المنيا ميلادى الأول وفى القاهرة ميلادى الثانى .

فى المنيا نشأت وفى القاهرة شببت وتعلمت وكتبت وتزوجت وأنجبت وحققت ذاتى بألوان من الأمومة ليس آخرها بنوة الأبناء .

شريط طــــويل حافل حيـــــاتى فى القاهرة ، والقاهرة فى حياتى وكم يطيب لى الحديث المفصل عمن ذكرت من الصفوة الأعلام لولا أنى كتبت عن « الأدباء » منهم كتابة مستفيضة فى كتابى (قمم أدبية) وكتبت عن « الشعـراء » فى كتـابى (خصائص الشعر الحديث) وكتبت عن أعلام الفن الموسيقى ، فى كتابى (أم كلثوم وعصر من الفن) وكتبت عن التشكيليين فى كتابى (فكر - أدب - فن - سياسة) ولهذا اكتفيت بلمحات منهم اقتضاها السياق فى قصتى مع القاهرة مكتفية بما جاء فى كتبى الأخرى من تحليل متوسع بل أفردت لبعض هذه الأسماء النوابغ ، كتابا مستقلا لكل منهم مثل : العقاد - المازنى - رامى - أم كلثوم.

شىء كبير أن يكون للإنسان قلم .. ولكن شىء نفيس أن يكون للإنسان موقف ومن نعم الله علىّ أن وهبنى الكلمة ... والقرار أعنى القدرة على الاختيار الصعب، فعرفت المواقف ، وتحملت فى سبيل مواقفى .. الكثير ، عرفت المواقف وعلوت على الاغراءات والعـــروض والمناصـب والبريق .

أعز منها جميعا تراب هذا البلد بكل ذرة من هذا التراب .

يكفينى من الدنيا دفاعى المستميت عن هضبة الأهرام .

يكفينى من الدنيا رفضى دفن النفايات الذرية للنمسا فى شرق القاهرة .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن حماية الآثار الإسلامية .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن قبة الإمام الحسين .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن نهب مصر من خلال الرئاسة السابقة للبنك العربى الأفريقى ، فى هـــذا وغيره كفاء

أنت والهلال

★ ذكرى معركة التل الكبير ★

★ شهر سبتمبر هو شهر المعارك التى خاضها الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى باشا وزملائه القادة الأحرار لصد الغزو البريطانى سنة ١٨٨٢ .. والآن بعد مائة وعشر سنوات على ذلك الغزو نذكر نحن المصريين معركة القصاصين الثانية التى وقعت فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢ ومعركة التل الكبير الحاسمة فى ١٣ سبتمبر ، بادر فيهما الجيش المصرى بالهجوم ، ثم لعبت الخيانة دورها .. وكان ما كان ! ..

إن هزيمة سبتمبر ١٨٨٢ لم تقذف بعرابى باشا ورفاقه الأبطال خارج التاريخ ، فقدرت إليهم ثورة يوليو اعتبارهم ، وأعاد التاريخ تقييم أدوار الأبطال وأدوار الخونة !

حسن عبد الرسول شعراوى
مدرس مادة التاريخ - دمنهور

★ الهلال فى عيده المئوى ★

قالوا : الهلال ارتقى بالفكر والأدب
قلنا فلا غرو فى أن فاز بالقصبِ
إن الثقافة قد أرسى دعائمها
مثل البناء الذى قد شُدَّ بالطُّنُبِ
ضم « الهلال » فنونا لاعِدادَ لها
حتى اعتلت قمةً فى السبق والغلب
هذا مقال تشد الفكر روعته
يغنى بما فيه عن حشد من الكتب
وطرفة روّحت عن نفس قارئها
إذ صاغها مبدع مستحكم الأُهُب
فيه التقت نخبة من خيرة العرب
من تونس كتبوا ، من مصر ، من حلب

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع - منوفية

* الهلال والأعداد الخاصة *

★ الاحتفال بمئوية الهلال مناسبة قومية ، فشعلة التنوير التى حملتها الهلال – بدءاً من جرچى زيدان إلى مصطفى نبيل ، مرورا بأميل وشكرى زيدان وأحمد زكى وعلى أمين وعلى الراعى ورجاء النقاش ، وكامل زهيرى ، وكمال النجمى ، سطع ضوءها فى أرجاء العالمين العربى والإسلامى وكانت دائما ، كما يقول الاستاذ مصطفى نبيل ، تستهدف تثقيف القارىء وتساعد كل صاحب رأى على الوصول إلى القارىء ، وتعبر عن كل فكر أصيل مهما إختلفت المدارس الفكرية ، حتى أصبح ماضى الهلال هو ماضى الثقافة وسجلها بغير جدال .

ولا شك أن جيل هذه الأيام لم يعرف تاريخ الهلال بالقدر الكافى ، ولست أزعم أننى أحطت به أو أستطيع أن أتحدث عنه فهذا يحتاج لمجلدات ولكننى أتحدث عن نقطة واحدة هى الأعداد الخاصة ، فقد قدمت الهلال سلسلة من الأعداد الخاصة كان آخرها العدد التذكارى الذى صدر بمناسبة حصول أديب مصر العالمى نجيب محفوظ بجائزة نوبل فى الآداب ١٩٨٨ ، ليس ذلك فقط ، بل لعل الهلال كانت تتنبأ بفوزه حينما أصدرت عدد فبراير ١٩٧٠ والذى جاء فيه « أن معظم انتاج نجيب محفوظ توافرت له المقومات الفنية والانسانية التى تجعل القارىء فى الخارج يقبل على مطالعتها » .

وباستثناء نجيب محفوظ الذى صدر عنه عددان فإن الهلال قدمت اعدادا خاصة عن طه حسين والعقاد وأحمد شوقى وتوفيق الحكيم كما قدمت أعداد عن أبى نواس والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، من التراث القديم .

وإذا أخذنا عدد أبى العلاء المعرى وتوقفنا معه قليلا فإننا نجد أن الذى شارك فيه عمالقة الفكر العربى الحديث مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل والأستاذ أحمد أمين ومحمد فريد وجدى وعبد العزيز البشرى وعبد الوهاب عزام وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وزكى مبارك وخليل مطران وعبد الرحمن شكرى وابراهيم ناجى .

ويفتتح الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) العدد بتحية للهلال لإخراجها هذا العدد للاحتفاء بذكرى أحد العظماء ، الذى هو احتفاء بالمجهود الانسانى الكبير .

فرج مجاهد عبد الوهاب

شربين – محلج القطن

أنت والهلال

⭐ الهلال فى منزلته المائة ⭐

ياهلالاً كاملاً منـذُ الولادَهْ ⭐ يحملُ الشرْقَ لآفاق الريـادَهْ
مُنْذُ قرنٍ .. والدُّجى كان مُقيماً ⭐ فيه خَطْوُ الفجْرِ مكْتوبُ الإرادهْ
وإذا نـورُكَ نَهْرٌ دافـق ⭐ يَمْلأُ الأرضَ بآياتِ السّعادَهْ
فوق أفنانِ العطـاء الحُرِّ قدْ ⭐ أسْلَمَ الليـلُ إلى الصُّبحِ قيادَهْ

عبدالرحيم الماسخ
نجع الماسخ - المراغة

⭐ إلى الهلال ⭐

مجلتنـا « الهـلال » منـار هـدى
لكـل المبـدعين بـلا اختيـال
وراد للمثـقف كـل شـهر
وللأدبـاء طـلاب المعـالى
مؤسسها الأديب الفـذ چرچى
عصـامى ، فـدائى ، مثـالى
إلى دار الهـلال أزف شـعرى
على المرجـان يـزهو واللآلى

محمد حسن على الشافعى
المحلة الكبرى - سامول

⭐ الهلال والنموذج الحضارى ⭐

⭐ نعيش واحدة من الوقفات التاريخية لثقافتنا باحتفالنا بمرور قرن من عمر الثقافة توصل فيه « الهلال » الصدور كأعرق مجلة ثقافية عربية .

ويسيطر على المثقفين نشوة حضارية ينبعث من خلالها عبق تاريخى جسور يؤكد قدرة المثقف المصرى على تجاوز الزمن بصعابه وعثراته وأزماته التى أحيانا ما تطوق الأعناق ، وأرقب فى عيون المبدعين نظرة تأمل وكبرياء والينبوع الدافق مازال يروى عطش العقول الظامئة .

وحينما تتجسد الآن أمام الأجيال واحدة من أروع الوقفات التاريخية فى هذا النموذج الحضارى « هلال » الثقافة العربية الساطع وينبوعها الذى يتدفق فى حمى النيل ودفء شطآنه وينطلق من خلال تواصل ممتد من سر النبوغ والمثابرة إنما يكشف عن دلالات العبقرية .

وقد تجاوزت « الهلال » الإطار فبلغت الآفاق حين صارت جامعة للتثقيف تتحسس بصدق تلقائى نبض قارئها وتقدم له كل ما يؤكد داخله من مبادىء وتعلى أمامه المثل العليا والقيم الرفيعة ويبقى الشرف التاريخى لمن تتابعوا على تحريرها فى أن يكونوا جنودا بواسل فى معارك التنوير والارتقاء بفكر الأمة لقد وجهت رسالة من خلال صفحات « الهلال » للمئولين فى مصر وذلك فى غمرة احتفالنا بنوبل « محفوظ » أناشدهم فيها بضرورة الاهتمام بمجلة «الهلال » ودعمها وكنت أمل على الأقل فى هذه الفترة دعما معنوياً وإعلامياً يواكب إصرار المسئولين عن التحرير على تطوير المجلة وتجدد أدائها استعداداً لاستقبالها للقرن الثانى من عمرها لكن الذى تابعناه أمام إصرار المسئولين ويقظة ضميرهم هو القارىء وارتباطه التاريخى بمجلته !

ومن أجل أن تواصل المجلة رسالتها الثقافية الجامعة وحتى تتمكن من أن تطل علينا بوجه اكثر اشراقاً وتألقا يتناسب مع تاريخها ودورها الرفيع خاصة وأنها الآن واجهتنا أمام الإصدارات العالمية ها أنا فى لحظة الإنشاء والكبرياء الحضارى أعيد توجيه الرسالة وأرجو أن يرصد التاريخ فى احتفالنا بمرور قرن على صدور « الهلال » أننا نستحق بالفعل أن نكون ورثة لهذا التاريخ الثقافى والحضارى .

صبرى عبدالله قنديل
كفر الزيات

★ قصائد قصيرة ★

مشغولة بحمل حسنها الكثير عن وجودنا ..
ونحن مشغولون عن وجودها بحزننا ..
لن أكتب شيئاً عن حزنى
مادمتُ أنا لا أملك أقلام الكونِ .
لا أستطيع ياحبيبتى
لا أستطيع مرة أن أسْمَعَكْ
لأننى دوماً مَعَكْ
حين تحس الوردة أن الناس
يهيمون بها تخسر شيئاً ما ..
سأحاول أن أتحملَ بُعْدَكْ
لكنى أسألْ :
هل تشعر بى حين أروحُ إليكَ
لكيلا أجدَكْ ؟ !
لأنك كنتَ على قمة الخير
أصبحتَ أيضاً على قمة الشر
فى قفزة واحدةْ ..
أجَلْ تحققَ الأمَلْ
أجلْ .. أجلْ
لكننى كما أنا
إذا هممتُ بابتسامةٍ أقول : ما العَمَلْ ؟

عبدالعزيز محمد الشراكى
المنصورة

* شــاعر البرارى *

★ هذا شاعر اشتهر باسم « شاعر البرارى » وكان شعره موضع حفاوة الصحف فى أيامه .. ولد فى ٢١ أبريل سنة ١٩٠١ وتوفى فى ٢٠ يناير سنة ١٩٦٣ وهو من قرية كفر الجرايدة بمركز بيلا - محافظة كفر الشيخ .. حصل فى عام ١٩٢٢ على شهادة الكفاءة للتعليم الأولى وعين مدرسا بقريته ثم عين أمينا لمكتبة بلدية طنطا .. وقد ملأت أعماله الشعرية ثلاث عشرة مجموعة ، أصدر المجموعة الأولى منها سنة ١٩٢٨ بعنوان «ديوان شاعر البرارى - الجزء الأول » ثم صدرت المجموعات كلها فى مجلد واحد يقع فى أكثر من ستمائة صفحة قبل وفاة الشاعر ، وسمى « شاعر البرارى » واسمه الحقيقى محمد السيد شحاته ، ولكنه رضى بأن يلقب نفسه كذلك نسبة إلى البرارى الشاسعة فى شمال الدلتا حيث تقع محافظة الغربية التى تنتمى إليها قريته ، وقد انقسمت الآن محافظتين وصارت البرارى فى جزئها الشمالى وهو محافظة كفر الشيخ .

والفلاح هو الجندى المناضل الذى يحارب بفأسه أرض البرارى الصعبة، وعنه يقول الشاعر :

لقد سهرت من فوقه أعين الدجى
لتنظر تحت الليل كيف نعامله
وسال الندى فوق الزهور مسائلا
متى ذلك العانى تُسَوَّى مسائله
نسوه ولكن لا يزال بنانه
يجمل وجه الأرض ثم يجامله

وقال عنه المرحوم أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام المتوفى سنة ١٩٤٨ وكان يحتفى بشعره وينشره فى الأهرام : « كان الريف المصرى ينشد شاعرا مطبوعا يتغنى بجماله ، ونعتقد أنه وجده فى شاعر البرارى » ..

وقال المرحوم محمد فريد أبو حديد فى مقدمته لأحد دواوين الشاعر : « إذا كان من الشعراء من يخلع كل فنه على شجونه فلا يزف إلى الناس إلا أصداء أنينه ، فإن شاعر البرارى يغنى للناس بجمال الربى والزهر والطير والماء والسحاب » ..

ومن شعره :

حبيب إلى عيني حبيب إلى صدرى
أكاشفة أمــــرى وأودعـه سرى
حبيب له ســهر كســـهرى وأدمع
يعبر عنها النـاس بالأنجـم الزهر

ويقول مخاطبا البلبل :

يا ابن الطبيعة ردد حسنها سحرا
حتى يسيل على أنغامك السـحر
وهـــز قلبى ، فقلبى لا يحـركه
إلا الغنـاء الـذى مذياعه الشـجر

صلاح عبد الستار الشهاو
دمشيت - طنطا

* لــولاك .. *

عيناك فى ليل الأسى قمـرى
ويـداك فى تيه الظمـا نهرى
يا بهجـــة كمبت أنســجها
لحنا يرقص مهجـة الحجـر
فجرا يكون شراع جـاريتى
ترسو إلى شـطآنه فكــرى
لولا يـات الحـزن ينهشنى
ويرش سم الصمت فى وترى
والطيــر لم أفهم له لغـــة
والليل لم يبــدأ به ســفرى

رمضان عبد اللطيف حـ
جراجوس - قوص

أنت والهلال

★ مع الأصدقاء ★

سوسن محمد خميس - شبراخيت :

- تقولين في قصيدتك : « حينما أراه .. أشعر أني « غريقا » ينتظر من يأخذ « بيداه » .. فلماذا لا تمسك حبيبى بيداه » الخ .. وهذا نثر لا أوزان فيه ، فهل تقعدين أن تكتبى ما يسمي بالقصيدة النثرية ؟ ! .. إذا كنت تريدين ذلك فلا بأس ، إلا أن فى نثرك هذا أخطاء نحوية مثل قولك : « أشعر أنى غريقا » .. وصحتها « غريق » وقولك : « يأخذ بيداه » .. وصحتها : «بيديه » .. .. حاولى أن تتمكنى من اللغة ، نحوها وصرفها ، وإذا أردت نظم الشعر الموزون بالبحور أو بالتفعيلات ، فلابد لك من استيعاب الأوزان استيعابا دقيقا ..

محمود عبد العزيز عبد المجيد -
مساكن السكة الحديد - كفر الشيخ

- قصيدتك تحوى أبياتا موزونة وأخرى ليست كذلك مثل قولك : «وأريتنى الحقيقة بعد ما » .. فهذى الشطرة مكسورة ، وهى من بحر «الكامل» فلو قلت مثلا : « وأريتنى تلك الحقيقة بعدما » لاستقام لك الوزن .. وكذلك قولك : « يهواك ياحبى ويا أغلى ملاك » .. فهذا الشطر مكسور .. ومثله فى الكسر قولك : « واهاً لقلبى أحبك فتنتى » ولو أضفت لفظ « قد » قبل « أحبك» لاستقام الوزن .. إلا أن غالبية أبياتك صحيحة الأوزان .

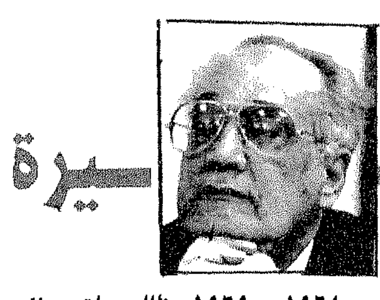
★ الشعراء : مفرح السيد عوض (كفر الشيخ) وخالد السيد على (تجارة عين شمس) وحسن رجب محمد ابراهيم (بعصفورة) .. نرحب برسائلكم ، وأما قصائدكم التى تلقيناها فينقصها الوزن ، فضلا عن أهمية الاهتمام باللغة نحوا وصرفا ، فلا يمكن نظم الشعر بلا أوزان وبلا لغة !! ..

★ استدراك ★

نأسف للخطأ الذى لم نستطع أن نتداركه فى العدد الماضى من «الهلال» إذ نشرنا لأحد القراء سطورا عن الشاعرة العراقية نازك الملائكة بدأها بخبر غير صحيح عن وفاة الشاعرة . ونحن نبدى أسفنا لجرأة البعض فى اختلاق أخبار سيئة بلا تثبت ولا مبالاة .

« الهلال »

الكلمـــة الأخـــيرة



كامل زهيرى

اشعلتنى خمسة اعوام امضيتها فى تحرير الهلال بين ١٩٦٤ و ١٩٦٩ وظللت ملتهب الوجدان مشتعل الحواس سريع الاشتعال احس أن عينى دائماً جائعة ، وأذنى متيقظة . وقد يكون غريباً أن اعترف اننى اهتديت بأذنى إلى بعض المكارى . فقد اهتديت إلى فكرة « الاعداد الخاصة » فى رباعية الهلال التى اصدرتها عن طه حسين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم واحمد شوقى « حين استمعت إلى أم كلثوم .

ذلك لأن هزيمة ٦٧ توسطت هذه السنوات الخمس الهامة فى حياتى وكنت ايامها ارفع لنفسى شعار البير كامو – حين ترأس تحرير « كومبا » أى المقاومة ، وكان يقول :

– « هناك فرق بين اليأس وفقدان الامل » .

فقد يفقد الانسان الأمل ، ولكن عليه الا يقع فى اليأس لأن ضياع الامل قد يحدث . ولكن اليأس هو البؤس الحقيقى والسجن المؤبد . وظننت ايضا أن ازمة ١٩٣٠ فى مصر كانت تحديا أشعل امام الجيل الذى سبقنا معنى التحدى . وهو الذى اشعل نهضة التجديد فى كل شىء . فى الشعر والرواية وكتابة التاريخ الوطنى والبحث فى الذات .

وقد يسأل القارىء : ولكن ما هى علاقة أم كلثوم باعداد طه حسين والعقاد والحكيم وشوقى ؟ ! وجوابى اننى مثل غيرى شغفت بأغنية ابراهيم ناجى التى غنتها ام كلثوم . وقد لاحظت مع غيرى أن اغانى عبد الحليم حافظ بصوته الذكى الشجى قد انزوت قليلا ، لتترك مكانها فى وجدان المستمعين لاغنية ام كلثوم الجديدة: « الاطلال » . واحسست أن وجدان مصر كلها يداهمه الحنين . وهو ما يصحبه عادة هزات البحث العنيف فى الذات بعد كل حادث جلل . وفى جو ام كلثوم واغنيتها الرائعة الناجحة «الاطلال» ، جاءتنى فكرة عدد طه حسين أو العودة إلى القديم بنظرة جديدة وقد نفد عدد طه حسين فى أيام ، واضطررنا إلى اعادة طبعه فى كتاب صدر ايضا عن دار الهلال .

واغرانى هذا الاقبال مع طه حسين للانتقال إلى العقاد ، ثم توفيق الحكيم ، ذهبت إلى الحكيم فى مكتبه ، سألنى قبل أن اجلس .

– ومن بعدى ؟ !

وكان اسم نجيب محفوظ على لسانى . ولكن توفيق الحكيم كما بادرنى بالسؤال فاجأنى بالجواب ، قائلاً : احمد شوقى .

وراقتنى فكرة الحكيم . وقلت لنفسى ، وليكن شوقى قبل محفوظ .

ولكنى بعد ذلك عدت إلى دارى القديمة – روزاليوسف – ولحسن الحظ ان الزميل رجاء النقاش اخرج بكفاءة عدداً جميلاً عن نجيب محفوظ . واتصلت رسالة الهلال . وكانت ١٩٦٧ ايضا ذكرى مرور ٧٥ عاماً على صدور الهلال عام ١٨٩٢ ، وكان العدد الماسى الذى استعاد نشر عدد من مقالات هذه السنوات .

والآن يمر ربع قرن على العدد الماسى ، وتهل مئوية الهلال ، ولا يزال اتصال الاجيـــال من تقاليد الهـــلال ، واصوله، لأن البحث فى الماضى يكون دائماً عن الجذوة المتقدة ولا يكون اكتفاء بالرماد واروع اللقاء يكون فى النهاية لقاء مع القراء .



مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا ...

فقط ٢٤ ساعة تصل تحويلاتك النقدية

وبحد اقصى ٩٦ ساعة





همزة الوصل بعائلتك !

سرعة التحويل النقدى من السعودية إلى مصر

- البنك السعودى الامريكى يستلم اموالك فى السعودية مع رسالة قصيرة والبنك الاهلى المصرى يسلم الشيك للمستفيد فى جمهورية مصر العربية وبالتالى يستلم رسالة من المستفيد إلى المرسل فى السعودية .
- التسليم خلال ٢٤ ساعة وباليد للمستفيد فى كل من القاهرة والجيزة والاسكندرية ، طنطا ، بنها ، السويس ، الاسماعيلية ، بورسعيد ، المنصورة ، بنى سويف
- التسليم خلال ٤٨ ساعة إلى ٩٦ ساعة إلى معظم المناطق الاخرى فى جمهورية مصر العربية
- مراكز [سبيدكاش] تعمل حتى ساعات متاخرة من الليل بما فى ذلك عطلة نهاية الاسبوع والعطلات الرسمية .

لمزيد من التفاصيل يرجى الاتصال
بفروع البنك الاهلى المصرى فى جمهورية مصر العربية وبمراكز الـ (سبيدكاش]
بالمملكة العربية السعودية .








الهلال
مائة عام من الفكر والفن
١٨٩٢ - ١٩٩٢
عدد خاص
أكتوبر ١٩٩٢ • الثمن جنيهان



مصر للطيران

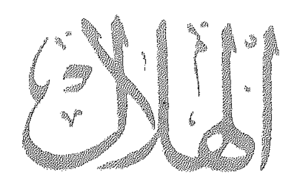
أهلاً بكم فى عالمنا ...

الهلال

مائة عام من الفكر والفن

١٩٨٢ - ١٩٩٢

العدد الأول - السنة ١٠١



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

General Org...

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج . م . ع ، مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٦٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١,٥ دينار ، المغرب ٢٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٢٥ دولارا

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد



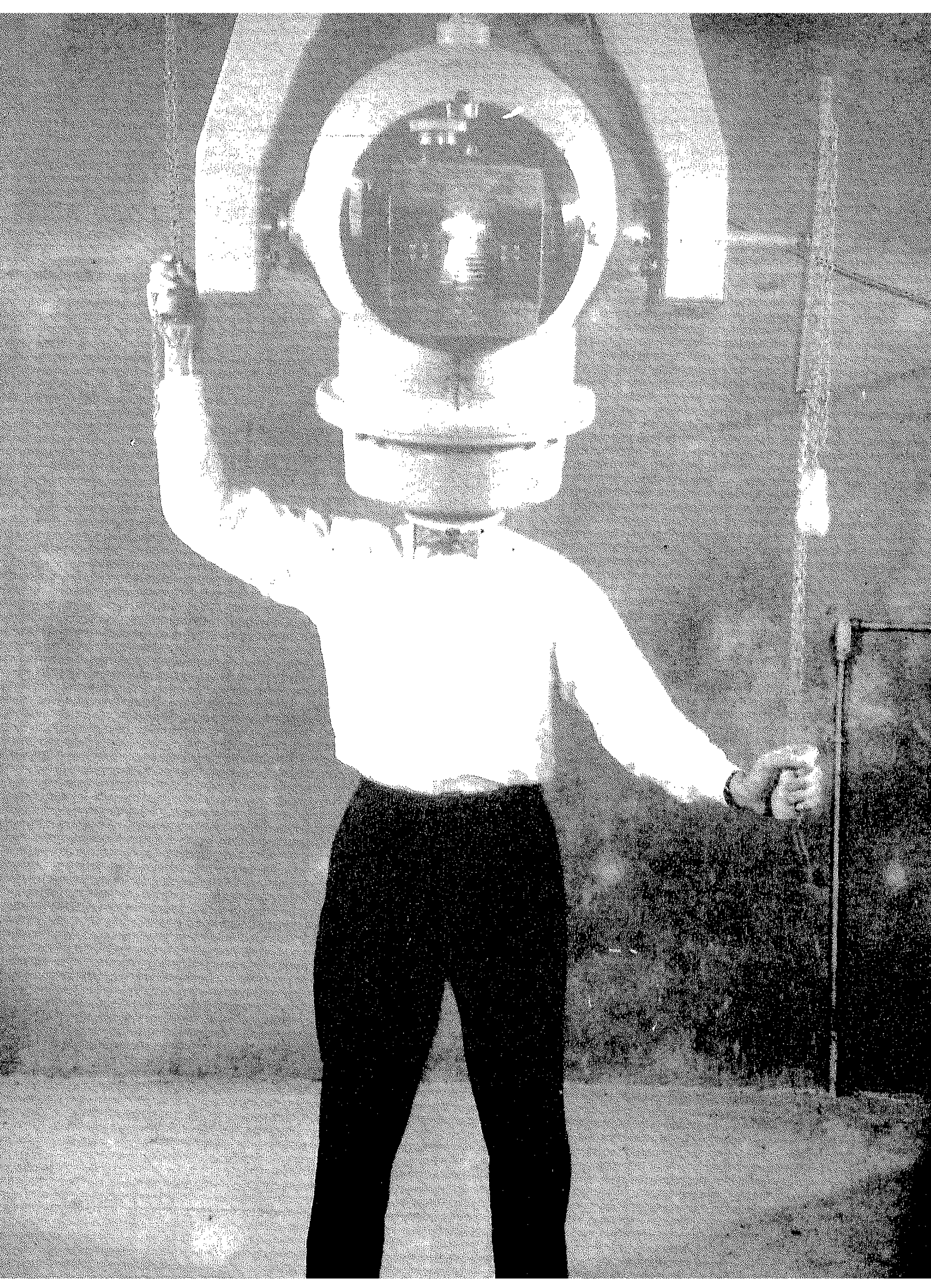
مستقبليات

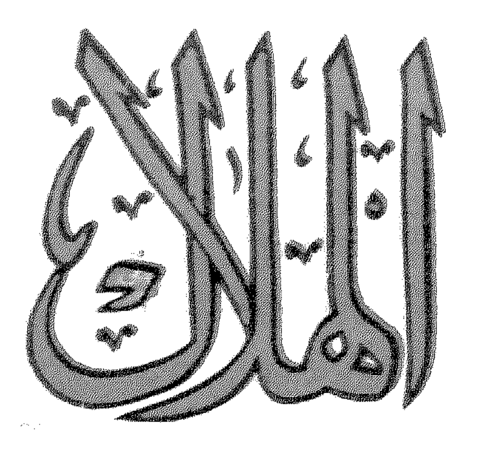


عصر المرأة



قضايا ثقافية





والمستقبليات

أجمل مختارات الهلال كما كتبها

اميل زيدان ● محمد العشماوى ● سهير القلماوى

بهى الدين بركات ● توفيق الحكيم ● د.عبد المحسن صالح

بنت الشاطىء ● فكرى أباظة ● د. بطرس غالى

عباس محمود العقاد ● أمينة السعيد ● د.جمال الدين الفندى

احمد حسن الباقورى ● أحمد بهاء الدين ● د. عبد العظيم أنيس

● مصطفى الحسينى

الهلال المئوى ..

كثيرة هى الأعداد الخاصة التى أصدرها « الهلال » فى عشرات السنين الماضية .. بعضها اقتصر على شخصيات أدبية وفكرية تراثية مثل المتنبى وأبى نواس ، وبعضها الآخر تناول شخصيات معاصرة مثل أحمد شوقى وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .. فضلا عن الأعداد الخاصة عن « القرآن الكريم » و« القدس » و« سيناء » ، والأعداد المتعلقة بالقضايا الأدبية والفكرية ..

وقد اعتاد « الهلال » أن يحتفل بأعياد ميلاده كل حقبة بعدد خاص ، أو بجزء كبير يقوم مقام العدد الخاص .. وكان الاحتفال « بالعيد الفضى » للهلال سنة ١٩١٧ لمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على صدوره ، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت مستعرة حينذاك فحجبت هذا الاحتفال .. ثم جاء « العيد الذهبى » للهلال سنة ١٩٤٢ لمناسبة مرور خمسين عاما على صدوره ، وكانت الحرب العالمية الثانية فى ذلك العام تجتاز أخطر مراحلها ..

ولما أقبل « العيد الماسى » للهلال سنة ١٩٦٧ بعد مرور ثلاثة أرباع

للماضى والحاضر والمستقبل

قرن على صدوره ، كانت مصر تنفض عنها غبار حرب ٥ يونيو ومأساتها

لقد عاصر « الهلال » بأعداده وأعياده كبريات الحوادث فى تار
مصر وتاريخ العالم ، فانطبعت على صفحاته بالكلمات والصور ، م
للمعرفة المستنيرة ، تتداولها الأجيال ..

وهاهو ذا يبلغ عيده المئوى فيحتفل به فى صور شتى يشترك في
الشعب المصرى والشعوب العربية ، بإعتبار « الهلال » ديوانا للعر
، مسطورا فيه تاريخهم الفكرى والأدبى فى مائة عام ..

عزيزى القارئ ..

لعلك تابعت الندوات الثلاث الكبرى التى عقدها «الهلال» فى
الأوبرا بالقاهرة لمناسبة العيد المئوى ، ونوقشت فيها قضايا الفكر والأ
والمستقبل .. ولعلك تصفحت السجل التاريخى الضخم الذى صدر الج
الأول منه فى أكثر من سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، متضمنا مائة ع
من تاريخ مصر منذ صدور الهلال سنة ١٨٩٢ إلى اليوم ، فضلا

يزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى القارئ عزيزى

الموسوعة الكبيرة التى تستعرض أهم مائة كتاب قرأتها مصر والبلاد العربية خلال تلك الأعوام المائة .. وقد صدر الجزء الأول من السجل ، والجزء الأول من الموسوعة ، وتصدر الأجزاء الباقية فى وقت قريب ..

عزيزى القارئ ..

يطالعك « الهلال » الذى بين يديك بطائفة مختارة من المقالات والموضوعات التى نشرها فى مائة عام ، ويهديها إليك فى عيده المئوى ، لعلك تعيش معه تلك الأعوام الحافلة بتواصله الفكرى وتنوعها وتطورها وسيرها دائما إلى الأمام ..

إن مقالات هذا العدد الخاص من « الهلال » تبدو لنا الآن كأنها مكتوبة لتوها ، فهى تتحدث عن أمور مازلنا نتحدث فى الكثير منها ، وهى تتطلع إلى المستقبل وتستشرف آفاقه بنفس اللهفة التى تملأ الأجيال الجديدة .

ولهذا نثق بأنك - يا عزيزى القارئ - ستأنس إلى هذه المجموعة الكبيرة من المقالات القادمة من عشرة عقود كاملة ، مكتوبة بأقلام أربعة أجيال من الأدباء والمفكرين ..

ولعل استشراف المستقبل يتجلى واضحا فى « تنبؤات » منشئ « الهلال » جرجى زيدان فى مقالته عن « مصر والعالم سنة ٢٠٠٠ » التى نُشرت والقرن العشرون لم يكد تبزغ أنواره .. !

وفى هذا العدد تلتقى من جديد مع العقاد وطه حسين وخليل مطران وفريد وجدى وزكى مبارك ومعروف الرصافى وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الباقورى والآنسة مى وإميل زيدان ، وكأنهم مازالوا أحياء بنفثات أقلامهم على صفحات الهلال ...

عزيزى القارئ ..

إن هذا العدد المئوى من « الهلال » يصل الماضى بالحاضر والمستقبل ، وهو يختلف عن العدد الفضى والعدد الذهبى والعدد الماسى فى كونه من إصدار عصر « السلام العالمى » بعد انحسار الحرب الباردة ، بعكس تلك الأعداد التاريخية الثلاثة التى صدرت فى دخان الحروب العالمي والمحلية !

ونرجو أن يكون هذا من حُسن الطالع لنا نحن المصريين والعرب ، وأ تكون الأعوام المائة القادمة سلاما لنا ولكل النوع الإنسانى الذى ينتمى إل أب واحد وأم واحدة ..

« المحرر

رجاء الشرق فى شبّانه

بقلم : اميل زيدان

لم تقم هذه النهضة الجميلة فى الشرق الا بفضل شبانه . وعليهم دون غيرهم تقع تبعة مآلها . فمهمتهم لاتزال فى أول ادوارها . ولابد لهم بعد الاندفاع الاول من الاستمرار بلا ملل فى طريق التعمير والتجديد (١)

ان البشرية الآن فى دور انتقال - وادوار الانتقال هى أصعب الادوار فى تاريخ الشعوب . ففيها يحتدم النزاع بين «القديم» و «الحديث» ، بين الاساليب والعادات المألوفة من جهة ومن الجهة الاخرى الروح الفتية النشيطة التى تبغى محو الماضى محواً لا أثر بعده .

ولكى يتم الانتقال على أدنى قدر من الاختلال والاضطراب ينبغى لقادة الأمور أن يدركوا حقيقته ويكيفوا آراءهم وأعمالهم بمقتضى الاحوال المستجدة حولهم فاين تجد الشعوب تلك العقول الفتية التى تدرك حقيقة الحالة الراهنة فتتخلق بأخلاق هذا العصر وتتكيف وفقاً لمقتضيات هذا الزمان ؟ ليس أمامها الا شبيبتها ، ليس أمامها الا شاباتها وشبانها فإن عقولهم لاتزال مفتوحة لكل جديد . وأن نجاح الشعوب كنجاح الافراد يتأتى لها على نسبة قدرتها على التطور مع تطور الوسط الذى تعيش فيه

★★★

واذا قلبنا صفحات التاريخ تجلت لنا ابلغ الامثلة على نصيب الشبان من الاعمال العظيمة والمآثر الخالدة .

هذا الاسكندر الكبير فقد ارتقى العرش وهو فى العشرين من عمره فلم يكد يبلغ الثلاثين حتى كان قد حمل المدنية اليونانية الى أطراف الهند .

وهذا يوليوس قيصر أعظم قياصرة الرومان فانه كان لايزال شاباً حديث السن حين اضطر

(١) كل متتبع للنهضة الوطنية فى مصر وسوريا والعراق وغيرها يعلم الدور الخطير الذى قامت به الشبية فيها جميعاً . حتى الصين كان للشبان فيها شأن عظيم جداً ولاسيما أثناء عقد مؤتمر الصلح ، فبفضلهم أجمعت البلاد الصينية على عدم امضاء المعاهدة احتجاجاً على مافيها من الإجحاف بحقها .



بومبـاى وكراسـوس الـى مشـاطرته السيطرة على العالم .

بل أى مثل ابلغ من قصة ذلك الفتى الذى وفد على فرنسا من كورسيكا فلم يلبث قليلاً حتى تولى قيادة جيوش الثورة الفرنسية واحرز أبهر الانتصارات وهو لم يجاوز السابعة والعشرين من عمره . ثم قام بحملته المصرية وهو فى التاسعة والعشرين .

ومن المصادفات التاريخية العجيبة أن الخصم الألد لبونابرت كان مثله شاباً ألا وهو وليم بت السياسى الانجليزى العظيم . فلقد كانت شعوب العالم بين سنتى ١٧٩٥ و ١٨٠٥ كحجارة الشطرنج بين أيدى هذين الشابين . دخل بت هذا مجلس العموم وهو فى الثانية والعشرين من عمره ولم يكد يلقى فيه خطبته الاولى حتى عد من أعاظم رجال انكلترا . ومما يروى فى هذا الصدد أن بعض النواب جاءوا على أثر تلك الخطبة الى الوزير فوكس فقالوا له أن بت سوف يعد من أشهر خطباء المجلس فأجابهم للحال : «بل منذ الآن فى مقدمتهم» . وقد عين بت وزيراً وهو فى الثالثة والعشرين من عمره .

واذا اقتربنا من زماننا هذا وجدنا أمثلة أخرى بليغة على نبوغ الشبان فالجنرال غوردون قاد الجيش البريطانى وهو فى الثلاثين من عمره . ومثله الجنرال شريدان الاميركى الذى اشتهر فى الحرب الاهلية الاميركية . فقد كان فى الحادية والثلاثين حين عين قائداً فى جيش الشمال وقد التف حوله نفر من الضباط الحديثى السن . ذكر أحد المؤرخين أن قائداً من قواد جيش الجنوب أتاه يوما الى معسكره على أثر إعلان هدنة للمفاوضة . فلما رآه ومن حوله سأل عن معدل أعمارهم . فقيل له : «٣١ سنة » فقال : «إن الانكسـار محتوم على الجنوب فإن هذه الحرب قـائمة بين الشـباب والمشيب ولن يفوز هذا على ذاك » .

ولنتحول الآن من ميادين السياسة والقتال الى ميادين العلوم والفنون . فان نيوتن كان فى الثالثة والعشرين من عمره حين اكتشف قانون الجاذبية الذى قلب كيان العلوم . وبيتهوفن ألّف أجمل قطعه الموسيقية وهو دون الثانية والثلاثين ومثله موزار . وأغرب منهما مندلسهن الذى ألف قطعة موسيقية خالدة وهو فى السابعة عشرة من عمره . أما الأدباء فيجدر بنا أن نذكر بيرون الذى اشتهر فى عالم الادب وهو فى الرابعة والعشرين . ومثله من هذا القبيل كثيرون يضيق عنهم المقام . وأنه ليكفينا أن نذكر منهم شكسبير رب الروايات التمثيلية فقد وضع رواية «روميو وجوليت» وهو فى السابعة والعشرين .

وروى أحد الكتاب الاميركيين أن روزفلت على أثر ترشيحه للمرة الاخيرة لمنصب الرئاسة قال له أنه فى حال انتخابه ينوى أن يحتاط بفئة من الشبان لكى تطعم الحياة السياسية بروح جديدة .

★★★

ولكن ما أظلم المتقدمين فى السن ! وسرعان ما ينسون أو يتناسون شبابهم انهم فى الغالب يطلبون من أولادهم أن يجاروهم فى الرزانة والهدوء والسكينة فاذا حادوا عن هذه الخطة انحو عليهم باللائمة ووصموهم بالحدة والطيش والنزق والتسرع أجل للشبان حدة وطيش ونزق وتسرع . ولكن هذه الصفات ليست الا مظاهر للقوة المتدفقة من صدورهم - تلك القوة المندفعة الى الامام بزخم هائل لتكوين المستقبل وتصويره .



اسحاق نيوتن

هذه القوة كالسيل الجارف المنقض من أعالى الجبال فانه يبيد كل مايعترضه فى سبيله وقد يخلف شيئاً من آثار التخريب والتدمير ولكنه لايلبث متى بلغ الوادى أن يصير ماءً صافياً وموردا زلالاً

فلئن لم تستقم أمور العالم من دون حنكة الشيوخ وصبرهم واختبارهم فلولا وحى الشباب وتلهبه وجرأته لما عرف التاريخ أجمل حوادثه وأشدها رواءً وبهاءً .

★★★

تختلف أعمار الشعوب عن أعمار الافراد بأن الفرد لا يستطيع تجديد شبابه فاذا جاوز سناً معلومة دخل فى دور الكهولة ومنها الى الشيخوخة – وليس من الشيخوخة الى الشباب من مرجع على حد قول الشاعر « ألا ليت الشباب يعود يوماً » . أما الشعوب فقد يعود اليها شبابها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ الحديث نكتفى منها بالاشارة الى اليونان وما كان من تجديد شبابها فى هذا العصر كثيرة هى الشعوب التى تبغى اليوم تجديد شبابها . على أن فى الدول كما فى الافراد شيوخاً وشباباً . وشيوخها ناقمون ابداً على شبابها يتهمون بالحدة والطيش والنزق والتسرع .

ولكن هل فات تلك الدول أيام شبابها وهل نسيت أنها لم تصبح على ما هى فيه من الحرية والنظام الا بفضل ثوران شبابها القحوم وقيامها على قوات الظلم والاستبداد ؟

إلى اخوانى الشبان أقدم هذه التأملات عسى أن يجدوا فيها مذكراً لهم بما عليهم من التبعة تجاه أوطانهم . فهم هم رجاؤها وعليهم قبل سواهم يقف أمر خلاصها .

إن تيار الشعور الوطنى فى العالم قد أصبح شديد الزخم اليوم لا تستطيع الاغراض والمصالح أن تقاومه طويلاً . فلقد انقضى زمن كان فيه «الشرف الوطنى » و«الكرامة القومية» من محتكرات بعض الشعوب القوية . فان أصغر الشعوب الآن تهتم لأمر شرفها وكرامتها قبل كل شىء وتؤثرهما على كل مصلحة وتضحى لاجلهما بكل مرتخص وغال .

وقد تفشل الشعوب المطالبة بحقوقها سنة أو سنوات . ولكن أعمار الشعوب ليست كأعمار الافراد . فمازال الشعب على اجماعه الروحى فليس من قوة على وجه الارض تستطيع الوقوف فى سبيله .

قال غوستاف لوبون : «ان الإرادة تزحزح الجبال » وقال : «إن العزم الصادق كاف لضمان النصر وليس من جبار يقدر على اخضاع قوم رغم ارادتهم . وقد خبر ذلك نابوليون نفسه فى اسبانيا . فمع انه دخل مدنها وكسر جيوشها لم يستطع أن يخضعها لانه لم يخضع ارادة اهلها فلنذكر على الدوام ان على قوة إرادتنا يقف أمر مستقبلنا . وليس فى الكون ما يحول دون العزيمة الصادقة – لا الطبيعة ولا الانسان ولا الاقدار نفسها .

اكتوبر ١٩٢١

نظرات إلى المستقبل

نشر الهلال فى العدد الأول من السنة الأربعين استفتاء لطائفة من صفوة المفكرين فى مصر عن تطورنا فى الأربعين سنة الماضية وفى بدء السنة الحادية والأربعين للهلال نشرت استفتاء قيما يحتوى على آراء طائفة من كبار مفكرينا فيما عسى ان يكون عليه المستقبل . ونحن ننشره هنا بعد ستين عاما لنرى إلى أى مدى صدقت رؤية المفكرين فى رؤية المستقبل فى مجالات متعددة .

مصر بعد ٥٠ عاما

فى الشئون الاقتصادية والمالية

رأى سعادة أحمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية

يتسع وقت سعادة أحمد عبد الوهاب باشا لكل شئ ، ان عمله الرسمى يتخطى جدران وزارة المالية ، فيستغرق مصر وعلاقاتها بالشرق والغرب فى الحاضر والمستقبل .

على انى حين لقيته لم أجده كما تصورته رجلا تبدو عليه امارات المزاج العصبى والحيوية المتوثبة . كلا !! هو هادئ الظاهر على الاقل ، يعزى سر نجاحه فى القدرة على التنفيذ إلي عقله المنظم وذهنه الحاد وخبرته التى تزداد يوماً بعد يوم ... وأنه لرجل حقائق لا دخل للاوهام والظنون فى حسابه ، على إنه بصير بالاحتمالات ، يحتاط لما ليس فى الحسبان قدر ما يستطيع إنسان .

كره ان أحمله على التكهن ، فلما بسطت له وجهة نظر « الهلال » ، قال بعد لأى :

« لا بأس من التحدث عن الغيب على أساس من الواقع . وما أعنى الغيب على نحو ما يفهمه المتفلسفة أو يزعمه المشعوذون . الغيب عندى هو تقدير النتائج المجهولة فى مقدمات معلومة دون اهمال لما عساه يفاجئ ويأتى بغتة » .

قلت : « أراكم ميالين على الدوام إلى جانب التفاؤل . فهل تفاؤلكم طبيعة جبلتم عليها ، أم تراه يذهب ويجئ تبعاً للظروف والمؤثرات » فألفيته شعلة ضاحكة ، وقال :

« انى بطبيعتى متفائل ، لكنى فى حياتى العملية أبنى تفاؤلى على منطق معقول وعلى حقائق ممحصة » .

قلت : «جئنا نسترشد برأيك عن الحالة الاقتصادية والمالية بعد خمسين عاماً ، بعد عمر طويل ان شاء الله » فابتسم قائلا : « وهل ترانى ساكون واحداً من المعمرين أعيش إلى ان تتنافس الصحف فى نشر صورتى وذكر النادر من سيرتى ؟! » .

قلت : « من يدرى لعلهم يحدثونك وقتذاك عن مصر قبل خمسين عاماً » .

فأجاب وفى عينيه بريق من السخرية الرفيقة : « بل قد يطلب إلي ان ألقى محاضرة بالراديو عن زيارتى لمقبرة « توت عنخ آمون » لأول مرة !! ما علينا سأختصر فى الكلام . فالموضوع متشعب ، قل ان يستوعبه بحث مستفيض ، وأكرر أن المستقبل مجهول على كل حال » .

ولست ازعم انى استوعبت كل ما قاله سعادته ، وانما أروى ما أمكننى فهمه بأسلوبى وطريقتى :

« المأمول أن تكون الكهرباء موفورة لكل إنسان ، فالقرية ستكون اذ ذاك أشبه شئ بالضواحى ، والراديو سيعم استعماله .

« أغلب الظن أن الكهرباء من أسوان والقطارة والمنحدرات الكثيرة ربما تكون قد جعلت الصناعات الزراعية وفيرة المحصول تغنينا عن استيراد أى شئ ، وقد تمكننا من تموين البلاد الأجنبية ، وربما تمكننا من تصدير لحوم محفوظة وأسماك منوعة فى هيئة علب السردين ، ثم ان فواكهنا الطازجة والمجففة ، خصوصاً البلح والبرتقال والمانجو ، جديرة بأن تقتحم الأسواق الخارجية .

« ثم اننا سنكون قد تخلصنا إلى الابد من الاعتماد على محصول واحد ، وانها لأمنية جريئة أن نحل مكان أوربا فى تموين البلاد الشرقية - الشقيقات العربيات - بالاقمشة لاقتراب العادات وجرياً وراء التعاون المؤسس على التفضيل والتفاهم المشترك ، فهل أقمشتنا القطنية والحريرية والصوفية سترتقى بسرعة هائلة فتسد حاجتنا وتفيض ، بفضل الكهرباء قبل المهارة والحذق . وهل مصر ستصنع الطيارات بكثرة ، ذلك لأن الطيارة قد أخذ صنعها فى البساطة ، بحيث سيجئ يوم يتمكن الصانع المدرب من بنائها كما هو الحال فى عدة اللاسلكى .

وهنا سألت سعادته قائلا : « ما رأيكم في صناعة السينما والراديو . فاني أتكهن لمصر بنشاط عظيم في هذا المضمار . واني إذا لم أستطع تعيين مكان المدينة التي ستضاهي « هوليوود » عندنا ، فاني أتخيلها كشئ حقيقي لا ريب فيه . وأنا على ثقة من ان الشرائط المصرية ستدر عشرات الالوف – أو الملايين – على مصر بالنسبة لرواجها في الاقطار التي تتكلم العربية . كذلك الراديو ، فان محطات الإذاعة على النسق الاوربي ستكون في القاهرة . وما جعلني أجزم بذلك الا ما أشاهده من توافرنا على التجويد في فن التمثيل والموسيقى والغناء وتفوقنا في الشئون الثقافية .. !!

« باريس الشرق .. هكذا ستكون القاهرة . بملاهيها ومسارحها ومعاهدها ومعارضها ومتاحفها » .

« وناهيك بما تدره الحمامات والمشاتي والمصايف إذا نظمت وكفلت لروادها أسباب الراحة ووسائل اللهو البرئ وسهولة المواصلات وحسن المعاملة واصطناع الحيلة في جذب الطبقات جميعاً . لا طبقة الاغنياء وأصحاب الملايين ليس غير . ان الإسكندرية وأبو قير ورأس البر يمكن العناية بها بحيث تصير مصايف دولية . وهذا ما سيحقق فعلا . وكأني بالمصطافين قادمين على متن الهواء لقضاء بضعة أسابيع على شواطئنا وفي فنادقنا المصرية . وكذلك الحال في المشاتي مثل الأقصر وحلوان والواجات (وحيث المياه المعدنية) ستجتذب هذه كلها عشرات الآلاف كل عام للاستشفاء والتمتع بمشاهدة المخلفات والآثار » .

فابتسم قائلا : « انك حالم ، لكن في تكهناتك شيئاً من الحقيقة » .

« ان ثروتنا المنخورة في الأرض ، مثل الغيب ، حافلة بالمدهشات الرائعة . لكننا لا نعرف بالضبط ماذا تعطيه لنا ، ومن يدري لعلها تعطينا الشئ الثمين الذي يزيد في ثروتنا العامة . وهنالك ثروة في البحار لا ينبغي ان نحذفها من تقديرنا ، تلك هي الأسماك والأصداف وجلود السمك الكثيفة وقشرها الغليظ وعظامها الصالحة للامشاط وغيرها . فهذه الثروة يصح أن تضيف إلى أموالنا أكداساً من الذهب النضار » .

قلت : « يمكن التكهن بأن مصر بفضل السياسة الجمركية ، وبفضل استحواذنا على قناة السويس ، وبفضل ما ينتظر من جمارك الطيران ، وبفضل الضرائب التي سنفرضها على رءوس الأموال بلا نظر إلى الجنسية ، ثم بفضل الاقتصاد المعقول لا تحتاج إلى مليم واحد من الخارج تقترضه . وهذا عمل عظيم ، لأننا سنشيد مصراً أخرى صناعية إلى الحد اللازم زراعية على طراز حديث » .

« اظن ان سياستنا المالية يجب أن تقوم على أساسين جوهريين : العمل على حماية المنتجات والمحاصيل المصرية وتشجيع الصناعات القومية ، ثم زيادة الدخل والاقتصاد فى النفقات ، أى توطيد الاحتياطى وزيادته مع العمل على تسديد ديوننا القديمة » .

« فهل أقول ان مصر فى سنة ١٩٨٢ ستكون رخية موفورة المال عزيزة على الأزمات ؟! » .

فقال : « ذلك ما نتمناه » .

★★★

هذا خلاصة ما استوعبته وأرجو أن يكون وافياً بالمرام .

فى التربية والتعليم والثقافة العامة

رأى الأستاذ محمد العشماوى بك

السكرتير العام لوزارة المعارف

ذاع للأستاذ العشماوى بك صيت بعيد فى الأوساط المثقفة ، بأنه نصير الفنون الجميلة وكافة ألوان المعرفة التى نحن بحاجة إليها لنستكمل ما فاتنا دركه فيما مضى . والله لقد بهرنى بواسع اطلاعه ورجاحة منطقه وتقاعسه عن الغلو بطبيعته .

بدأت باستفهامى عن المدة التى تكون قد مضت بعد خمسين عاما على « الأمى الأخير » .

فنظر إلى الافق البعيد كمن يستوحى السماء وقال : « لا شك أننا سنكون بعد نصف قرن قد دفنا (الأمى الأخير) . على شرط أن نكون قد نفذنا الاجبارية بقانون صارم يعاقب من يتخلف عن تعليم أولاده والاحتياط لتعليم الكبار على الكره منهم . وعندى انه يجب دفنه بغير احتفال . لكن يصعب على تعيين الوقت الذى ندفنه فيه » .

فقاطعته قائلا : « ما رأى سعادتكم فى اننا نحفظ هذا (الأمى الأخير) ونحتفل بوضعه فى المتحف المصرى ؟ » .

فضحك واستصوب الفكاهة ، وقال : « هو على كل حال حادث تاريخي ومثل هذا الأمي يكون علامة على انتهاء عصر الجهل العام والظلام !! » .

من هذا السؤال قفزت إلى ميزانية التعليم . فأجاب بأنها ستكون أضعاف أضعاف ما هي عليه الآن . وأكد انها ستفوق ميزانية وزارة الحربية والبحرية والطيران مجتمعة . إذ هو يعتقد ان مصر لن تأخذ يوما من الأيام بسياسة التسليح . فهي مسالمة بطبيعة أهلها . فبعد الاتفاق مع بريطانيا وبعد ان تصبح عصبة الأمم أداة فعالة في فض المشاكل وحسم النزاع ، أي حاجة تبقى للصرف عن سعة للتسليح ؟ العصر القادم – كما تشير إليه اتجاهات الساسة وميول الشعوب – سيكون فريداً في حياة الإنسانية ، من ناحية العدول عن الحرب المسلحة إلى التفاهم والتراضي والتعاون بقدر الإمكان .

قلت : « هل المدارس الصناعية والفنية والزراعية ، هي التي سيكون لها المكان الأول في عناية وزارة المعارف في الخمسين سنة القادمة ؟ » .

فاتجه إليَّ وعلى محياه سيما الجد ، كرجل يتكلم عن خطة مقررة أو سياسة يستحسن ان تأخذ بها بلاده وقال : « إن ما تراه اليوم صوتا خافتا سيسفر فيما يأتي من الزمن عن تصميم وعزم مقرون بالتنفيذ . المستقبل للمدارس الصناعية والفنية والزراعية . ولن تخرج المدارس الثانوية أكثر من حاجة الجامعة والمدارس العليا . وهذا لخير مصر التي ستشعر بحاجتها إلى البناء والاصلاح في شتى ميادين النشاط الحيوي . وتلك ضرورة تصيح بها حالة البلاد الراهنة . ونحن سنلبي نداء الوطن الذي يسعى إلى الأمام ، ونكفل له شبابا يحمل مسئوليات تركنا حملها للأجانب واهملنا ما تبقى منها » .

قلت وقد استلهمت « آلهة الفنون » :

– ما رأيكم في معهد الموسيقى ومعهد التمثيل ؟

فقال على الفور ، حتى لحسبته يقرأ فكري :

– معهد التمثيل والسينما ! أحب أن لا يغيب عن بالك اني انظر إلى التمثيل على اعتبار أنه أداة للتثقيف وليس وسيلة من وسائل اللهو والتسلية . فالرواية المسرحية الفنية كانت ومازالت غذاء الروح والعاطفة النبيلة . إن مصر ستكون بعد خمسين عاماً مركزا لنهضة فنية عظيمة . ولا يمكن التكهن بالدور الذي ستلعبه في تاريخ الفنون الجميلة . لكن لا مانع من الظن بأن انقلابا خطيرا قد شرع يبرز وعن مداه وأثره يطول الكلام ولا يجمل الحدس والتخمين .



فاطربنى تفاؤله وجعلنى اسأل : « إذن سيعود سيرته الأولى معهد التمثيل ؟ »

قال : « وسيتسع أيضا للسينما ، استعداداً لسد حاجة البلاد الفنية وتشجيعاً للرغبة فى انشاء صناعة تعرف انت مبلغ مزاياها وجليل خدماتها ، من نواح لا تحصى ، اخصها الناحية المادية والدعاية والتثقيف » .

وختمت حديثى بالاستفسار عن الجامعة : « على أى حال ستغدو بين معاهد العالم ؟ » .

فقال عقب برهة سبح فيها :

– الجامعة !؟ انها تسير ببطء لكن بوثوق ، وتتقدم تدريجيا على الاسس العلمية الصحيحة . اليوم نحن مضطرون للاستعانة بالأستاذة الأجانب . وفى الغد ستقترض منا جامعات أوربا اساتذة فى العلوم الشرقية ، وربما فى التشريع والفلسفة . وهنا اذكر أن كاترين زوجة بطرس الأكبر لما وليت الحكم انشأت جامعة روسية ، كل أساتذتها من الالمان ، فلم يمض طويل وقت حتى حل الروس مكان الالمان ، ومهروا فى العلوم والآداب وتفوقوا فى الفنون .

« وكذلك فعل فردريك الأكبر ملك بروسيا الذى فتن بالثقافة الفرنسية واستقدم فولتير إلى بلاطه وكان يعرض عليه شعره ، فانه انشأ جامعة جعل مديرها أحد العلماء الفرنسيين يعاونه رهط من بنى جنسه » .

« فى الختام ان جامعتنا ستكون مركز الدراسات الشرقية ، ومشرق اقمار تعيد لنا صيت العرب والفراعنة . وستكون القاهرة قبلة يحج إليها المشارقة جميعاً وبعض المغاربة لاتمام علومهم » .

فى علاقتها بالأسرة الدولية

رأى الدكتور محمد حسين هيكل بك

أفاض الدكتور هيكل فى مركز مصر السياسى ومكانتها الدولية بعد نصف قرن من عامنا هذا وانتقل من موضوع إلى موضوع ، منسجم المنطق فتان البيان قال :

– حينذاك لا تكون مصر الحديثة هامشا على تاريخ مصر القديمة ، ولا

تعيش فى كنف الفراعنة تستجدى العطف عليها ، ولسان حالها يقول : ارحموا عزيز قوم ذل .

« بلى !! ان السياح سيفدون على مصر ، ليشهدوا كيف بعث الشعب الذى خرج من تحت انقاض الزمن ونفض عنه غبار الفناء ، وكانوا من قبل يجوسون خلال الديار ، يمجدون آباءنا ويترحمون علينا » .

« مصر اليـوم موضـوعة على الرف ، فى عـزلة عن الأسرة الدوليـة وفى الغد ستزاحم الأمم النابهة بالمناكب سباقة إلى أداء واجبها نحو الحضارة ونحو الإنسانية » .

« إن الخمسين عاماً القادمة لابد مستنفدة قوانا فى بناء مصر الحديثة التى نحلم بها اليوم ، وأول لبنة فى أساس هذا البناء هو اتفاقنا مع بريطانيا اتفاقاً يحقق المطالب القومية كاملة غير منقوصة وفى مقدمتها الاستقلال التام لمصر وسودانها . ولا يتوهمن أحد أن الاستقلال هو غاية الغايات . كلا . إنه مفتاح الطريق ليس غير . ومن قعد عند الباب مكدوداً من الاعياء لا يأمن قطاع الطرق » .

« لا نطلب الاستقلال لذاته بل لثمراته . وعندى أن مصر بعد أن تستكمل بناءها ترحب بها الدول كعضو عامل فى جمعية الأمم . وفى عصبة الأمم أعضاء كالاشلاء تلعب دور الصفر على شمال العدد . ولست أتصور مصر بعد نصف قرن الا ظافرة بمكانة كتلك التى تتمتع بها سويسرة - مكانة دولية مضمونة الحياد . وقد أتخيلها منافسة لسويسرة من حيث انعقاد المؤتمرات الدولية التى تفض المشاكل بالحسنى وتسوى المنازعات ووجوه الخلاف بالتراضى والتفاهم » .



« مركزنا الجغرافى ، وحاجتنا إلى هدوء السلم وطمأنينته - خصوصا عقب أعمال البناء المجهدة - وتطلعنا إلى المثل الأعلى للحضارة ، كل هذا سيوحى الينا أن خير سياسة يجب أن نتبعها هى مصافاة الشعوب جميعاً ووضع علاقاتنا مع الدول على قواعد الولاء والمحبة وحسن النية والتعاون المتبادل .

« إنه لا مطمع لنا اسمى من تأدية الرسالة التى ندبنا لها خلقنا السمح وطبعنا الكريم . واعنى بها رسالة السلام . فنحن الذين تعاقبت على إخضاعنا أقوى الدول قد تعلمنا من مصارعها درساً لا ينسى - تعلمنا أن البغى مرتعه وخيم . وليس مثلنا شعب ذاق لذة إذلال غيره من الشعوب ثم شرب كأس الذل حتى الثمالة . ونحن الذين أرهقنا الطغيان حتى لكاد يسحقنا بكلكلة لن نظاهر دعاة الحرب أو نحبذ طغيانهم . وسيساعدنا على أداء رسالتنا الرفيعة ما نكون قد أحرزناه من نفوذ أدبى بين الشعوب ، بفضل سفرائنا . ونباهة الذكر وحسن الاحدوثة أفضل سفير » .

« على ان السلم فى دمنا . السلم عندنا عقيدة . فانا معشر أهالى وادى النيل قد ورثنا التراث الروحى للشرق . والشرق هو الذى أنجب الأنبياء - أنجب محمداً وموسى وعيسى وما يشذ دين من الأديان الثلاثة عن أن يكون السلام لبابه وجوهره » .

« هناك شئ جليل آخر . هناك أن مصر ستبرز للامم مثلا صالحاً وأنموذجاً حياً . والأمم كالأفراد تحتاج إلى القدوة الحسنة ، ذلك أننا سنكيف طباعنا بحيث يستعذبها المشارقة ويستسيغها الغربيون . سنكون ملتقى الصفات الشرقية والخصائص الغربية ، فنجمع النقيضين فى نفوسنا ، فتقوم الحجة على بطلان ما قال به شاعر الاستعمار ، روديارد كبلنج ، من أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ماكر الجديدان » .

« بذلت أوربا فى سبيل الحرية الفكرية وحرية العقيدة دماء زكية . وتعلم عنها العالم أنه لا يتهيأ للإنسان تقدم وارتقاء بغير التسامح الفكرى والتسامح المذهبى . لكن أوربا لم تعرف التسامح العنصرى . والراجح أن الحضارة الراهنة يعوزها التلقيح بهذا المصل الحيوى ، مصل التسامح العنصري ، فلا يعود البيض يحتقرون السود ويزدرون الصفر ويستريبون بالشعوب السامية ، وفى أمريكا يتجلى الظلم العنصرى وتظهر مساوئه بأشنع مظاهرها » .

« عن مصر ستتعلم الإنسانية ان التسامح العنصرى - مثل التسامح الفكرى والتسامح المذهبى - ضرورى لتكون حضارتنا الراهنة إنسانية حقاً . ولن تتحقق قط فكرة السلام العالمى عن طريق تكوين الاسرة الدولية بدون هذا التسامح » .

« ذلك فى رأيى واعتقادى هو ما ستصنعه مصر بعد خمسين عاماً ، ستماشى العالم إلى مثل أعلى يحث على الاسوة الحسنة والقدوة الطيبة » .

فى التطور الاجتماعى

رأى الدكتور منصور فهمى

يسبق الدكتور منصور فهمى عصرنا هذا بأفكاره ، وبعض تأملاته تتكشف عن نبوءات صادقة ، طفق يتحدث إلىّ عن مصر من الوجهة الخلقية بعد نصف قرن فحسبته بعض أهلها فى قادم الأيام وفد علينا من المستقبل ، يبشر الحاضر بحسن العاقبة ، وكنت سألته : « ترى هل تكون مصر أزكى اخلاقا منها اليوم ، وهل تكون حياتها الاجتماعية أنضر صفحة وأصلح حالا ؟ » .

فاتكأ إلى الوراء وحدق فى السماء برهة ثم قال :

« ستتغير بيئتنا بلا ريب ، وستتغير أفكارنا بعد خمسين عاماً ، وتبعاً لذلك تتطور حياتنا الاجتماعية ، وستحقق بهذا التطور الخطير وسائل الاستقلال ونبالة النظم واستقرارها وشيوع الحريات الصادقة بيننا وأخذنا من الثقافة بنصيب وافر . ومن مميزات هذا التطور تطهرنا من أخلاق الضعف التى بنتها فى نفوسنا عهود الاستبداد والظلام ، وأنكى هذه الأخلاق المريضة هو النفاق والحسد والبغضاء . وليست الانانية والاثرة بأخس ما دهينا به » .

« سيعيش الفرد للمجموع ولأهله وذويه ثم لنفسه ، وذلك هو حجر الزاوية فى بناء الأمم ، فبدون التضحية وانكار الذات ، والايثار والتعاطف ، لا يطيب وطن ولا تتحقق قومية ، ان الوطن يبنى بأشلاء الضحايا وتستمد القومية حيويتها من أرواح الاسخياء بجهودهم الصالحة من شهداء الفكرة أو العقيدة ، وقد يستشهد الرجل فى معركة لا طعن فيها ولا تزال ، على نحو ما يموت العالم والمصلح والزعيم فكل من هؤلاء شهيد قضى نحبه على دفعات » .

« ثم انك لن تجد أناساً مسرفين فى الشهوات والبذخ ولا زاهدين فى المناعم المباحة ، ولن تصادف شباباً يائساً خائر العزيمة يفرق من المجازفة ويشفق من المخاطرات ، ويسلك إلى الكسب أقصر الطرق ويضيق عليه الافق فيحصره فى محيط كالقبر ، تذبل فيه همته ويركبه تشاؤم قاتل وتتقاذفه الحيرة والجبانة » .

« ستنفتح ميادين للعمل والحركة والنشاط فى غير مصالح الحكومة ودواوينها ،

وسيتعلم الشبان فى مدرسة الحياة الحرة أن الأمر جد وأن الفوز للشجاع المثابر ، وأن التعاون من الصفات الإنسانية التى ينهض عليها صرح الحياة الاجتماعية سامقاً وارف الظلال » .

« إذ ذاك يمتلئ وقت المصرى بالعمل المنتج . والعمل هو أعظم مروض على الفضيلة . وهو الذى يلقى بذور الخير فى الضمائر . وسيكون من أثر ذلك أن تقفر القهوات المنتشرة فى بلادنا انتشاراً شديداً وتعمر البيوت ، وفى عمار البيوت سعادة حرمناها » .

« وإذ ذاك نفقه كيف ننتفع بأوقات الفراغ انتفاعاً موفقاً ، ونعرف كيف نستغلها فى تغذية العقول بالاطلاع أو التسلية الفنية البريئة ، أو الاستجمام لوقت الكدح والدأب ، أو المكث بين الزوجة والعيال حيث تنقلب الدار فردوساً وينقلب الاطفال ملائكة أبراراً » .

« وثم ظاهرة كبيرة ! تلك هى سفور النفس واشرافها عند الرجل والمرأة ، حين يسفر العقل وتسفر العاطفة . يسفر العقل من حجاب الجمود والجهالة ، وتسفر العاطفة من حجاب المرض والانحلال . ولست أريد الاطالة فيما ينجم عن اشتراك المرأة فى القيام بالاعمال العامة والخاصة ، إذ من تحصيل الحاصل ان أصف حالة كالتى نراها اليوم فى أوربا . والفرق شاسع بين أمة يحمل نصفها الاعرج الكسيح نصفها المقعد الضرير وبين أمة يتآزر شطراها على النهوض بها والسير إلى الأمام ».

« وكأنى بالعائلة المصرية قد استقرت على دعائم راسخة . وأهم هذه الدعائم الزوجة الواحدة والتربية الحرة الفاضلة . ومتى استقامت العلاقات بين الجنسين أصبح التفاهم ميسوراً ، وصار فى الوسع اختيار شريكتنا مدى الحياة . والعائلة هى الأمة مصغرة . فإذا برئت من العلل برئ المجتمع من الادواء الوبيلة التى نلاحظها عندنا خصوصاً بين أهل الريف وجماعة الموظفين وطلاب المنافع الذاتية من أصحاب الاهواء واللبانات المسفة ، مما كان سببا فى تفككنا الاجتماعى وعدم اتساقنا لمجابهة الارزاء القومية والمحن الوطنية بنفوس متعارفة متآلفة » .

« فإذا استقامت لنا الأمة اسرتنا الكبرى التى تضم شيعنا ونحلنا وعقائدنا فى صعيد واحد يرفرف عليه روح التضامن ، ساقنا مثلنا الأعلى إلى الاتجاه نحو الأسرة العظمى ، أسرة الإنسانية ، وأغلب الظن أن الحضارة الراهنة مصيرها إلى توجيه الشعوب فى نظام يكفل استقلالها ويربطها برباط مقدس من الاخلاص والوئام . ان الفكر الإنسانى يسبق الأخلاق بآلاف السنين ، وقد هدانا



الفكر إلى أن الحياة لا تبسم ولا تستحق العيش ما لم تهون آلامها وأرزاءهاالاخلاق الرضية » .

فى الأدب والعلم والفن

رأى الأستاذ خليل مطران

لا داعى إلى الاطالة فى مناقب خليل مطران والالماع إلى ميزاته التى لا تحصى ... ويكفى فى مقام ضيق كالذى افسحته لى « الهلال » ان اعترف بأن حديثه من المستحيل أن تقيده حافظة أو تلاحقه مخيلة ، وقد ذهبت لاستمتع بسحر بيانه واستيعاب ما يمكن استيعابه . وما من دأبى ان اختزل الخطب الطوال . ان شاعر القطرين محيط زاخر بالمعلومات والتجارب . وهو عظة ناطقة . عاشر القدماء فبزهم وجرى مع المجددين فى الشوط فسبقهم .

قال لى فى جملة ما قال :

« كنت قد حدثتنى عن رأيى فى جائزة « نوبل » لماذا لم يظفر بها أديب مصرى ، فاليوم أدلى لك بصيغة التأكيد ، ان غير أديب وشاعر سيظفر بها على الارجح » .

« سيكون لنا بعد نصف قرن ما نصبو اليه الآن ، ادباء عالميون وكتاب ينتشر لهم صيت فى كل مكان ، وتترجم منتجاتهم البديعة إلى اللغات كافة . لا اتكلم على سبيل الامنية ، أنا استنتج محترساً ناظراً إلى الغاية من المستهل . فلا شك فى ان الاحوال المعنوية والظروف المادية ستتطور ، ولا شك فى ان الأديب سيدنو فنه من الكمال المنشود . فقد أرى أن الرخاء واليسر ضروريان لتقدم الفنون الجميلة » .

« ومن العسير تعيين الاتجاه الذى تسلكه القصة والرواية فى نصف القرن القادم . لكن يمكن الظن بأن الفكرة الصوفية – بالمعنى السامى – ستغمر هذه القصص وتعيش بها ولها شخصياتها ، ولأردد كلمة الشاعر الهندى طاغور ، وهى التى نادى بها قادة الفكر فى عصرنا الحاضر ، الفكر الحديث الذي فهمنا انه يتجه إلى الله بعد ان كاد يتجه فى القرن الماضى إلى المادة وعبادة الأرضيات قال طاغور فى حديث له مع مكاتب جريدة امريكية : ان المدنية الغربية قد سئمت ضوضاء الآله وعافت المادية . وليس امامها سوى الهدوء والسكينة مهربا . تعبد فى قدسه وجه الاله فى صمت ملائكى » .

« فكأن الحضارة قد تطورت إلى اتجاه نحن مبرزون فيه ، قد فطرنا عليه وركزته عهود الاستبداد والظلام فى طبائعنا . فإنه لم يكن امامنا معاشر الشرقيين سوى الله نستعديه على الاقوياء ونفئ إلى ظله الرحيم ونستريح إلى مايسبغه علينا من صبر وراحة بال ، حين كان الصبر قوام الحياة وملاك القوة ، وحين كانت راحة البال غذاء ضروريا لاشباع روحنا الجائعة وتسكين نفوسنا القلقة » .

« ان الرواية المسرحية والقصة - صغيرة أو مستفيضة - ستزدهر على طراز مستحدث . كيف لا ونحن الذين ابتدعنا هذا الفن وسمونا به إلى الكمال ، فأعطينا للأدب العالمى والفن الإنسانى اثمن درة واعنى بها « الف ليلة وليلة » . ويغلب القصص على عيون الكتب الأدبية عندنا من مثل الاغانى وما إليها » .

« سيكون الأديب فى سنة ١٩٨٢ فى رغد من العيش . الكتاب الواحد أو الرواية الواحدة تدر على صاحبها آلاف الجنيهات . ويومذاك تكثر شركات النشر والطباعة وترتقى الصحافة وتباع الجرائد بالملايين . وقد لا اغالى إذا حسبت ان مصر ستغدو اروج ميدان للأدب العربى والفكر العربى ، يهرع إليها من سائر الاقطار الشقيقة العباقرة والنبغاء لينضموا إلى الاسرة الفنية الأدبية » .

« ثم لا يبعد ان توجد مدارس فى الأدب والنقد . وعندى ما يجعلنى اعتقد ان علماء مصر سيتممون عمل المستشرقين الذين أقول انهم عاجزون عن اتمامه لبعدهم عن الروح العربية ، ولأن بعضهم متعصب من غير وعى يعالج البحوث بطريقة العالم لا بروح الأديب الفنان ، ومن أجل ذلك لا يتغلغلون إلى صميم الأدب العربى » .

« فليطمئن أهــل الصــناعتين : النثر والشعر ، فان المستقبل لن يبخسهم حقهم ، انهم لن يكونوا كاسلافهم يعيشون فى حمى الامراء ومن فضل ما يسخو به العظماء والكبراء . سوف يكونون قوة يرهب بأسها وتخشى سطوتها . سيكونون القادة الحقيقيين للشعب . وسيتحكمون فى القلوب والعقول يهيمنون على الشعب ويكيفون اخلاقه ويصبونه فى القالب الذى يشتهون » .

« وسيعكس المسرح حياتنا المخبوءة والظاهرة ويعيد الحياة إلى تاريخنا المنسى . وسينشط كتابنا إلى تأليف القصص السينمائية » .

« كل هذا سيؤدى إلى تطور اللغة فان تقدم اللغات ظاهرة تدل على حيوية الأمم . والأدباء هم الذين يستطيعون وحدهم ترقية اللغات وبعث الحياة فيها » .

هل صحت أحلام المصلحين ؟

استفتاء طائفة من المفكرين

- ماذا كان يحلم به المصلحون والزعماء فى مصر ؟
- وماذا تحقق من أحلامهم ؟
- وماذا يتنظر تحقيقه منها فى المستقبل ؟

هذا ما أجابنا عنه طائفة من المفكرين وأصحاب الرأي عندنا . وقد تناولوا كبار المصلحين والزعماء الذين ظهروا في مصر وكان لهم أثر بارز في حياتها الجديدة من النواحي السياسية أو الاجتماعية أو الدينية . وقد درسوا أحلام هؤلاء القادة وماذا كان مداها وإلي أي الغايات اتجهت .

ونحن ننشر هذه الإجابات في الصفحات التالية :

محمد على باشا والخديو إسماعيل – بقلم الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعى .

السيد جمال الدين الأفغانى – بقلم الدكتور يحيى أحمد الدرديرى .

الشيخ محمد عبده – بقلم محمد رشيد رضا .

مصطفى كامل باشا – بقلم حافظ بك رمضان .

قاسم بك أمين – بقلم إبراهيم بك الهلباوى .

سعد باشا زغلول – بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعى .

محمد على باشا والخديو إسماعيل

بقلم : عبد الرحمن بك الرافعى





١ - محمد على باشا :

لا جدال فى أن محمد على باشا هو من عظماء الرجال ومن كبار مؤسسى الدول والممالك، وحسبك أنه أسس ملكا عريضاً وهو ملك مصر .

كان الأمل الأكبر لمحمد على أن ينشئ الدولة المصرية المستقلة ، وقد تحقق هذا الأمل العظيم، فبعد أن كانت مصر ولاية من ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين أصبحت دولة مستقلة قوية البأس عزيزة الجانب ذات ملك واسع الأرجاء، تمتد حدوده من جبال طوروس شمالا إلى أقاصى السودان جنوباً، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسماً من الأناضول، ولئن تراجعت حدود الدولة المصرية بعد أن تألبت عليها انجلترا وتركيا وأوربا سنة ١٨٤٠ فقد بقيت حدودها الأصلية سليمة إذ شملت استقلال مصر والسودان وتحققت بذلك وحدة وادى النيل السياسية والقومية، ومهما نالت الأحداث من هذا الملك العظيم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن الدولة المصرية المستقلة التى أسسها محمد على قائمة إلى اليوم وإلى ما شاء الله آخذة بأسباب التقدم والرقى.

اقترن أمل محمد على من هذه الناحية بأمله فى تأسيس أسرة مالكة يكون الملك فيها لشخصه ثم لذريته من بعده، وكان هذا لزاما لتأسيس الدولة وبقائها واستقرارها على الزمن، ولولا أن تحقق هذا الأمل لتبدد الملك الذى أنشأه والإصلاحات التى قام بها وعادت مصر ولاية عثمانية يسودها التأخر والفوضى، وقد عمل على توطيد دعائم الدولة التى أسسها بإنشاء حكومة نظامية وقوة حربية ونشر لواء العلم والحضارة فى البلاد، وتحققت آماله فى هذا الصدد، فأسس حكومة ذات نظم ولوائح وقوانين ودواوين على غرار الحكومات الأوربية، وأنشأ جيشا مصرياً قوياً منظماً على أحدث طراز، وبنى الحصون والقلاع، وأسس أسطولا ضخماً رفع علم مصر فوق ظهر البحار، وكانت آماله السياسية معقودة بقوة مصر الحربية والبحرية إذ كان يعتقد أنها السياج المنيع للدولة الفتية التى أسسها، وقد بقى استقلال مصر سليما ما بقى للجيش قوته ومنعته .

وتحقق أمله فى نشر لواء العلوم فى مصر بإنشاء المدارس النظامية الحديثة وإيفاد البعثات العلمية إلى أوربا، فكانت تلك المدارس والبعثات قوام النهضة العلمية والأدبية التى سطع نورها فى عهده، وهى الأساس لنهضة مصر الحاضرة فى العلوم والآداب والفنون .

ووفق أيما توفيق فى تحقيق آماله من الناحية العمرانية فى الزراعة والتجارة والصناعة. فأحيا ثروة مصر الزراعية بمنشآت الرى التى أسسها وإدخال الزراعات الحديثة. وحسبك فى هذا الصدد أنه أدخل فى مصر زراعة القطن الحديث الذى أصبح أساس ثروة مصر الزراعية . ومن ناحية التجارة أنشأ لمصر اسطولاً تجاريا كان له الفضل الكبير فى نهضتها التجارية. وقد تبدد اسطول مصر التجارى فى عهد الاحتلال ثم تجدد الأمل فى إحيائه فى عصرنا الحاضر .

ومن الوجهة الصناعية كانت آماله متجهة إلى إحياء الصناعات الكبرى. فأنشأ كثيرا من المعامل والمصانع التى تدار بالآلات. ونجح نجاحاً عظيما فى إنشاء معامل الأسلحة والبنادق والمدافع والبارود ومعامل الحديد والنحاس ، وفى تأسيس مصانع الغزل والنسيج فى مختلف المدن والعواصم. ولئن أصيب بعض هذه المصانع بالبوار فى أخريات عهده بسبب احتكار الحكومة لها وانعدام الإدارة الحرة فيها فإن هذه التجربة كانت سببا لظهور الصناعات الكبرى فى مصر ونواة للنهضة الصناعية التى أخذت مصر باسبابها فى العصر الحاضر .

وصفوة القول أن آمال محمد على قد تحققت إلى أبعد مدى فى عهده ، واستمر معظمها من بعده حقيقة ثابتة . فالدولة المصرية المستقلة ، والاسرة المالكة ، والحكومة ، والنهضة العلمية والادبية ، وعمران مصر وتقدمها فى الزراعة والصناعة والتجارة – كل هذه الحقائق والمنشآت أصبحت ثابتة مستقرة مطردة النمو والتقدم ، وهذا يدلك على رسوخ البناء الذى شاده محمد على . أما الجيش والاسطول فهما العاملان اللذان اصابهما التراجع ثم الاضمحلال من بعده مما أدى إلى تصدع بناء الاستقلال . وإذا أتيح لهما أن يستردا مكانتهما فسيكون هذا احياء للأمل الذى حققه محمد على الكبير .

٢ – الخديو إسماعيل :

كان الخديو إسماعيل مشغوفاً بالمدنية الغربية إلى أقصى مدى ، راغباً فى أن تنال مصر على عهده أكبر قسط من هذه بالمدنية . وقد حقق كثيراً من آماله فى هذه الناحية ، فبعث النهضة العلمية والادبية من مرقدها ، واعاد عهد البعثات العلمية ، وانشأ المدارس العالية التى كانت واستمرت من بعده قوام انتشار المعارف وارتقاء الافكار وتقدم الثقافة إلى عصرنا الحاضر . ونهض بعمران مصر بما انشأه من

الترع والقناطر وسائر منشآت الرى التى كان لها الفضل الكبير فى اتساع نطاق الاراضى الزراعية ، وعنى بعمران المدن وخاصة القاهرة والاسكندرية . وكان يبغى أن يجعل العاصمة باريساً ثانية بما انشأه فيها من الاحياء الجديدة والشوارع والميادين والمتنزهات والقصور والجسور (الكبارى) وقد تحقق أمله فى هذه النواحى إلى مدى بعيد . ومن الجهة الاجتماعية يصح أن يسمى عهده عهد التجديد الاجتماعى لان الهيئة الاجتماعية المصرى بتأثير الخديو إسماعيل أخذت تتطور نحو الرقى وتقتبس أساليب المجتمع الاوربى وعاداته فى أنماط الحياة وطرائق التفكير والتهذيب . وهذه النهضة ماضية فى سبيلها إلى اليوم .

وكان يأمل من الوجهة السياسية أن يكمل الاستقلال الذى وطد محمد على دعائمه ويصل به إلى الاستقلال التام . فألغى معظم القيود التى قيدته بها الفرمانات السابقة . واكمل فتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن . وتحقق أمله فى هذا الصدد إلى أبعد مدى إذ وصل بحدود مصر إلى منابع النيل وشواطىء المحيط الهندى وبسط نفوذها فى مديرية خط الاستواء ومملكة أوينور ومملكة أوغنده وسلطنة هرر وسواحل السومال ، وهذا العمل يعد من مفاخر إسماعيل . وكاد يتحقق أمله العظيم فى إنشاء امبراطورية مصرية وطيدة الاركان باقية على الزمن تشمل وادى النيل بأكمله من منبعه إلى مصبه لولا أنه أسرف فى عقد القروض الاجنبية وبالغ فى حسن ظنه بالدول والبيوت المالية الأوربية ، فانقلبت هذه الديون أداة للتدخل الاجنبى وتأثر لها كيان الاستقلال فى أواخر عهده بما كسبته الدول من الحقوق والمزايا ، كتأسيس المحاكم المختلطة وإنشاء صندوق الدين وفرض الرقابة الثنائية على مالية مصر وتعيين لجنة تحقيق أوربية لفحص شئون الحكومة المالية والإدارية وتعيين وزيرين اجنبيين فى الوزارة المصرية لهما حق «الفيتو» أى وقف كل عمل تشريعى وتنفيذى للحكومة . وقد كانت هذه القيود عقبة فى تحقيق آمال إسماعيل ، ومايزال بعضها إلى اليوم عقبة فى سبيل الاستقلال التام .

السيد جمال الدين الأفغانى

بقلم : د. يحيى أحمد الدرديرى

قال رينان على أثر المناقشات التى دارت بينه وبين جمال الدين الأفغانى فى باريس فى العلم والاسلام : «كنت أتمثل أمامى - عندما كنت أخاطبه - ابن سيناء أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » .



هذا هو جمال الدين العالم ، فأما جمال الدين الرجل فقد وصفه تلميذه أديب إسحق بقوله : «إنه أسمر ربعة ممتلىء ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويل تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة ، عزب عفيف النفس ، قانت ، كثير القيام ، لاينام إلا الغلس إلى الضحى ، ولايأكل غير مرة واحدة فى اليوم ، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين ، قوى العارضة ، طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبيه ، يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار السرائر . ولكنه على فضله لايسلم من حدة المزاج» .

وقال عنه الامير شكيب أرسلان : «إنه كان يعظم نفسه عن الشهوات ، ولايرى من اللذات إلا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج فأبى وأعرض . وكان ينظر إلى المال نظره إلى التراب فلا يدخره ولا يتناول منه إلا ما هو ضرورى للحياة . وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية – كرتبة «قاضى عسكر» مثلا فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب . وكذلك رفض قبول وسام مهما كان عالياً» .

هذا هو جمال الدين الرجل ، فأما جمال الدين المثل العالى فقد وصفه أعظم تلاميذه فابدع فى تصوير نفسيته ، قال :

«هو هش بش عند اللقاء . وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه . أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته . وله حلم عظيم يسع ماشاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب. فبينما هو حليم أواب ، إذا هو أسد وثاب . وهو كريم يبذل مابيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان . وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، مولع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام، لا يهاب الموت كإنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ، وكثيراً ماهدمت الحدة مارفعته الفطنة» .

هذا جمال الدين «المثل العالى» فلننظر ماذا كان جمال الدين السياسى .

قال الاستاذ الامام : «إنه كان يسعى لانهاض احدى الدول الاسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للأسلام

شأنه ، والدين الحنيف مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقلص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية . وله فى عدواة الانجليز شؤون يطول بيانها» .

فلنبدأ من النهاية ، لنبدأ بمطمحه الاسمى وأعنى به الجامعة الاسلامية ، وسنترك جمال الدين نفسه يحدثنا عن أخفاق فكرته تلك فى حياته ويأسه من تحقيقها بعد وفاته .

قال فى سنة ١٨٩٢ ، قبل وفاته بخمس سنوات : «ان المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم».

إلا أن جمال الدين إذا كان قد أخفق فى تحقيق مثله العالى فقد حقق لأمم الشرق مثلا عليا عديدة . وما أخفق فى واقع الامر إلا لأن ما ابتغاه صعب المنال عسير المرتقى فى وقت طمع فيه الغرب فى الشرق وألب عليه الأحن والأحقاد ودس ساسته السم فى نواحى العالم العربى الإسلامى . وهو بالذات كان يطارده الاستعمار أينما حل وسار .

على أن هذا المصلح الكبير قد نجح فى حياته ونجح بعد وفاته وكان نجاحه متعدداً كثير النواحى شهى الثمرات .

نهضت شخصية الأفغانى على دعائم من نور العلم وقدسية الحرية وديموقراطية الشورى .

ففى ناحية الفكر الحر نجده بذر بذوراً صالحة أينعت بسرعة خارقة للعادة ! فما أن بشر بتعاليمه فى مصر حتى أقبل يرتشف من منهله العذب صفوة من طلاب الازهر فى رأسهم محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوى ، وورد منهله الصافى من مفكرى الاسكندرية عبدالله النديم وأديب أسحق وسليم نقاش ، واستفاد من واسع علمه وجليل تفكيره وصائب رأيه جماعة من أهل المناصب والجاه : منهم محمود باشا سامى البارودى ، وعبد السلام باشا المويلحى حامل لواء المعارضة فى مجلس شورى النواب على عهد إسماعيل ، وإبراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور ووالد محمد بك المويلحى صاحب «حديث عيسى بن هشام» ، وعلى بك مظهر والشاعر الزرقانى وأبو الوفا القونى .

هؤلاء الإعلام هم تلاميذ السيد جمال الدين فى مصر ، ولابد أنه قد تتلمذ عليه جهابذة فى سائر البلاد الشرقية التى هبط اليها حاملاً مشعل الحرية والفكر والجرأة على الاستبداد والنضال ضد التدخل الأجنبى والاستعمار !!

ومن ذلك يسهل عليك إدراك أن جمال الدين الأفغانى هو احد بواعث الثورة العرابية وهو من أكبر دعاة الحركة الدستورية لا فى مصر وحدها بل فى تركيا وإيران، فاننا نعلم أن السلطان عبد الحميد كان قد منح الدستور لتركيا ثم سحبه ، لكن الشعب التركى ما برح يطالب به ويسعى إليه حتى حصل عليه فى سنة ١٩٠٨ ، وكذلك الشعب الايرانى حصل على الدستور فى سنة ١٩٠٦ أى بعد وفاة الأفغانى بسنوات تعد على أصابع اليد .

وعندى أن جمال الدين كان قدوة طيبة ، والقدوة أفعل أثراً من الفكر ومن العلم ومن فصاحة اللسان ومن الدعاية النشطة الواسعة النطاق .

لقد كان الأفغانى جريئا فى ابداء رأيه ، لايعبأ مما تجره الصراحة فى الحق من عواقب وخيمة . ولقد طورد طول حياته فما اشتكى ولا تململ ولا فترت عزيمته . ولقد كان ثائراً على أخلاق الضعف من ملق ودس وحسد واستخذاء ونفعية . وكان مع الثوار العمليين ، يضرب المثل ويتقدم بنفسه فى الطليعة . وأن نظرة واحدة إلى سيرته لتبعث فى النفس سموا وترفع المرء إلى ذروة الأخلاق الفاضلة . فتأثير الأفغانى فى رفع المستوى الخلقى هو فى نظرى أجل آثاره .

يأتى بعد ذلك تأثيره الفكرى والأدبى ، وأن فى تلاميذه لدليلا محسوساً على أن هذا التأثير لا يقل عمقاً عن تأثيره الخلقى .

هذا بالاختصار مجمل الرأى فى السيد جمال الدين الأفغانى كرجل قد سعى لتحقيق أمنية جليلة فمات دونها لكنه حقق أمنيات غيرها .. وقد كان أمله أكبر من عزمه وفكرته أقوى من وسيلته فصرع شهيداً لمبدئه وفياً لأمنيته .. ومثل الأفغانى سائر العظماء وكبار المصلحين العالميين .

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

بقلم : الاستاذ السيد محمد رشيد رضا

أننى قد نشرت فى الجزء الأول من «تاريخ الاستاذ الامام» ما كتبه الاستاذ بيده فى بيان ما دعا إليه من الاصلاح ، وهو ينحصر فى ثلاث دعوات جامعة لعدة مقاصد ما عدا الوسائل ، وهى :



١ - الاصلاح العقلى الذى يجمع بين هداية الدين ومنافع العلم :

وقد عرفه بقوله : «الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل ، كل هذا أعده أمراً واحداً » الخ . فهذا الأمر الواحد يجمع حرية الدين ، وحرية العلم ، واستقلال الفكر ، والترغيب فى هداية الدين وترقى الدنيا .

هذا هو الاصلاح الاعظم الذى عنى به ، وله فى بيانه بالقلم «رسالة التوحيد» المشهورة وهى مجملة موجزة . وأما تفصيله له بالاطناب التام فقد كان فيما قرره فى دروس تفسير القرآن الحكيم فى الازهر الشريف . وقد فصلته فى الأجزاء الخمسة الاولى من تفسير المنار تفصيلا . وجريت عليه فى سائر أجزاء التفسير وفى جميع مجلدات المنار إلى الآن . وقد اقتنع به فى عهد قليل من تلاميذه ، وكثر المهتدون به من بعده ، حتى صار لهم جمعيات ومصنفات ، ودعاة وأنصار فى جميع الاقطار الاسلامية .

وكان يرى أن أقرب الوسائل إليه إصلاح التعليم فى الجامع الأزهر وملحقاته. وجهاده فى إصلاح الأزهر معروف . وهو لم يتحقق كما كان يريد ولكن لا يقال إنه قد خاب سعيه له ، بل وجد من وسائله التى رسمها له : النظام ، والتخصص ، والعلوم العصرية ، وتحضير الدروس فى الاقسام العالية بدلا من المناقشات اللفظية فى عبارات المتون والشروح والحواشى . ووجد فيه نابتة من تلاميذه وتلاميذهم ومتبعى خطته فى استقلال الفكر والتفصى من قيود التقليد للمؤلفين الميتين ، هم وسط بين حزب الجمود والخرافات القديم وحزب التفرنج الذى حدث بعده . وعندنا طائفة تؤيد حزب الجمود والخرافات ، وتسلس لحزب التفرنج وتضطهد حزب الإصلاح الجامع بين هداية الدين وترقى العلم العصرى .

٢ - إصلاح اللغة العربية :

كان من أول نشأته يرى أن ارتقاء الأمة متوقف على ارتقاء لغتها . وكان له فى إصلاح اللغة العربية مراحل :

(أولها) طريقته فى التعليم والتدريس فى مدرسة «دار العلوم» إذ كان من أساتذتها الاولين عند إنشائها ، وكان له رأى فيه مع صديقه المرحوم «على باشا مبارك» مؤسسها . ومن أنفع محاضراته فيها ما كان يلخص به مقدمة ابن خلدون وينتقدها . ومن أشهر تلاميذه فيها محمد صالح باشا الذى صار مستشاراً فى القضاء الاهلى وحفنى بك ناصف الشهير .

(ثانيها) عمله فى إدارة المطبوعات ورياسة تحرير جريدة الحكومة الرسمية «الوقائع المصرية» الذى كان له به من السلطان على الجرائد وعلى الحكومة ما لم يعهد له نظير فى العالم ، فإنه انشأ فى الجريدة قسماً أدبياً كان ينتقد فيه كل ما يراه منتقداً من أعمال الحكومة ولغة دواوينها ومصالحها ، بله انتقاد الاخلاق والعادات العامة فى الأمة والحكومة معاً . وكان من تأثير انتقاده للغة الدواوين أنه الجأ جميع الكتاب فيها إلى دراسة اللغة فى مدرسة ليلية أنشئت لذلك ، كما شرحت ذلك فى الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام . وكان من اشهر تلاميذه فى هذه المرحلة ربيبه ومريده الشهير سعد باشا زغلول .

(المرحلة الثالثة) الأزهر . وكان عمله فى إصلاح اللغة فيه نوعين : أحدهما إلقاء دروسه كلها باللغة الفصحى الممتازة برشاقة التعبير وبلاغة التأثير ، فكان فيه الأسوة العملية العليا . ثانيهما قراءته فيه لأعلى كتب البلاغة وأنفعها : أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لواضع فنها الأول الامام عبد القاهر الجرجانى وانهما لهما الكتابان الجامعان لقواعد علمى المعانى والبيان وفلسفتهما من علم النفس ، ولبلاغة العبارة وروعة البيان المفقودتين من كتب السعد التفتازانى ومن دونه من فرسان هذا الفن .

وتلاميذه فى هذه المرحلة كثيرون ، منهم جهابذة المدرسين فى دار العلوم الذين صاروا من بعده اساتذة فى مدرسة القضاء الشرعى وفى الجامعة المصرية (١) ومن نوابغ الأزهريين الخلص منهم الاساتذة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ عبد العزيز البشرى، والشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، والمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى.

(١) قال أحدهما المرحوم الشيخ محمد مهدى لنا بعد الخروج من الدرس الاول من دروس كتاب اسرار البلاغة : اننا فى هذه الليلة قد كشفنا معنى كلمة «علم البيان» وكان الشيخ مهدى مدرساً فى دار العلوم فمفتشاً فى وزارة المعارف فمدرساً للبلاغة وآداب اللغة فى مدرسة القضاء والجامعة المصرية فوكيلا لمدرسة القضاء ، ومنهم خلفه فى الوكالة الشيخ حسن منصور (رح) .

وقد وجد من بعده كثير من الكتاب المجيدين فى الأزهر لا يعلمون من أين جاءهم هذا الاصلاح . ولم يكن قبله فى الأزهر عالم ولا مجاور يعد كاتباً مجيداً .

وكان الاستاذ الامام يرأس فى كل سنة لجنة امتحان طلاب دار العلوم ، ويرشد الطلبة فى أثناء الامتحان إلى ما ينفعهم فى اكتساب ملكة البيان فله الفضل الاكبر الأعم فى جميع معاهد نهضة اللغة العصرية ، وكان راضياً عن سيرها وراجياً لها بلوغ الكمال . وسأنقل كلمته فى هذا .

٣ - الإصلاح السياسى المصرى فالاسلامى :

كان الاستاذ الامام فى هذا النوع من الإصلاح ناصراً ومؤيداً لداعيته الأول وواضع أسسه ، وهو استاذه موقظ الشرق وحكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني، ولذلك عبر عنه بقوله :

«وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعاً فى عمى عنه وبعد عن تعقله، ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما اصابهم الوهن والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وهو حق الحكومة على الشعب وحقه على الحكومة ، والاعتقاد بأن الحاكم وأن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لايرده عن خطئه ، ولايقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .

«جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد » .

هذه إشارة إلى عمله السياسى بمصر حين أسس مع السيد جمال الدين الحزب الوطنى الأول فى عهد إسماعيل باشا وهو خاص بمصر . ثم كان له معه سعى آخر للاصلاح السياسى الاسلامى الراقى العام ، وتأسيسهما جمعية العروة الوثقى السياسية التى أصدرا باسمها جريدة «العروة الوثقى» فى باريس . وقد فصلنا كل ذلك فى تاريخه .

ثم صرح بأنه ترك العمل السياسى لأنه ثمرة لتربية الأمة تربية خاصة ، فالواجب الأول العناية بهذه التربية ، وأنه لايزال يدعو إلى الإصلاح الدينى ولم يذكر أنه تحقق شىء منه قال : «وأطالب باتمام الإصلاح فى اللغة وقد قارب» .

وكان كل رجائه فى الإصلاح الدينى منوطاً بالمنار وتفسير المنار ، كما صرح بذلك لكثير من الناس ، وأشار إليه فى الأبيات التى أنشدها قبيل وفاته . رحمة الله وجزاه أفضل الجزاء عن أمته ووطنه ، وعن مريده ومحى علمه وذكره .



بقلم : الاستاذ حافظ رمضان بك

«لقد قام مصطفى كامل بكل ما يمكن أن يحلم به انسان ويرغب فيه ، ليوجه قومه فى طريق المطالبة بحقوقهم المشروعة .

«لقد كتب كل ما كتب عن مصر تحت تأثير تلك القوة المزدوجة التى كانت بالغة عنده درجة هائلة وهى : الشعور بمفاخر عنصر مجيد فى تاريخه القديم ، والامل العظيم بما يمكن الوصول إليه فى المستقبل .

«فإذا تمكن الوارثون لتراثه الوطنى من السير فى الطريق التى رسمها والتى يمكن تلخيصها فيما يأتى : وراثة الاسلاف فى صفاتهم ، والجرأة فى العمل ، والمهارة فى أسلوب ذلك العمل فانهم يضيفون حجراً فى هيكل الوطنية المصرية الذى كان مصطفى كامل مهندسه النابغة »

هذا هو حكم «مدام جولييت آدم» فى مصطفى كامل ، نبى الوطنية المصرية ، بعثت به إلى ضمن خطاب ، رداً على سؤالى اياها عن رأيها فيه بعد سنوات قليلة من وفاته .

عرفت مصطفى كامل ولما أزل طالبا فى الحقوق ، وهو فى فجر حياته السياسية – عرفت فيه الفصاحة معقودة بلسانه ، والحماسة مكونة فى جسمه النحيل، والوطنية الصادقة ملء قلبه الكبير .

كان لهذا الرجل الكبير فؤاد لا كالأفئدة ، وشعور أعلى مما يتصوره الانسان، ولقد عهدت فيه حباً جماً واحتراماً عظيما لهذه الأمة ، لم أعهده فى غيره ممن وقعت عليهم عينى .

دب إلى جسمه الضئيل دبيب المرض ، فنصحه أطباؤه أن يتقى الله فى نفسه فلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، وطلب إليه أصدقاءه أن يتقى الله فى أمته فلا يحرمها من وجوده حتى يتم مهمته التى وقف عليها حياته ، ولكنه عندما أحس بضعف القوى ، وشعر بأن أيامه فى الحياة معدودات ، أسرع الخطى وضاعف المجهود وأخذ العدة فى تنظيم الحزب الوطنى ، وألقى بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ خطبته المأثورة التى أعلن فيها مبادىء الحزب الوطنى فاهتزت لها البلاد ، وانهالت طلبات الانضمام التى تعد بمئات الالوف .

ثم أخذ يسابق الزمن، والمرض يلاحقه، وآثر أن يضحى حياته لإتمام العمل الذى بدأه، فألقى خطبة الوداع يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وهى آخر خُطبه، ثم عاد إلى غرفته ولم يفارقها إلا محمولا على الأعناق، تشيعه زفرات الباكين وعويل المنتحبين من جميع طبقات الأمة - مات ذلك الذى كان يهز أعصاب القلوب بصلصلة صوته الرهيب وصرير قلمه الجرئ. مات ذلك الذى كان يجوب الأقطار ليبدد ظلمات الباطل بنور وطنيته الساطع، ويحاول أن يجمع قلوب العالم حول مصر، يقارع الحجة بالحجة ، وكانت أبلغ حججه يوم لبى نداء ربه - ذلك أنه أيقظ بموته وهو حى الاموات، أموات الأحياء .

فلا عجب إذا كان قاسم أمين قد سمع قلب مصر يخفق يوم شيعنا مصطفى إلى مثواه الأخير. أجل، لقد كانت وفاة مصطفى وما أحدثته من لوعة ومن فراغ دليلاً محسوساً على أن نبى الوطنية أدى رسالته ، فأثمرت وآتت أكلها من كل زوج بهيج .

وحسبه ذلك عملا جليلاً وتوفيقاً فى تحقيق جوهر الفكرة قل أن يوفق إليه قادة الشعوب ما أشبه مصطفى كامل بالزعيم الإيطالى مازينى، كلاهما أثار شعباً مجيداً من رقدته وحفزه للعظائم. وما يضير مصطفى أن الجلاء لم يتحقق حتى اليوم، لأن جهاد الأمم قد ينتظم حياة الأفراد جيلا فجيلا، على نحو ما وقع لبولونيا. ولم يقل أحد إن «كافور» خير من «مازينى» ولا قال أحد أن «جاريبالدى» خير من صاحبيه «كافور» و«مازينى» وإنما قالوا : أن مازينى ذهب بمعجزات النبوة الوطنية وجعل حب الوطن إيماناً وعقيدة عند الطليان، ونجح كافور فى تحقيق سيادة وطنه من الناحية السياسية ، بينما راح جاريبالدى بفخر النضال الدموى لتحرير بلاده .

وكان من أثر الدعاية التى بثها مصطفى كامل فى أوربا ضد الاحتلال البريطانى، أن قال المسيو فريسينيه المؤرخ الفرنسى السياسى المشهور :

«لابد من يوم تخرج فيه مصر من قبضة انجلترا وتعود للسلطان ، أو تبقى على الحياد تحت ضمانة أوربا .. وإن حلول هذا اليوم أمر محتم، لا لأنه مقصود بمقتضى المعاهدات الكتابية بل لأنه فى طبيعة الأحوال نفسها» .

قال مسيو فريسينيه هذا، بعد وفاة مصطفى وبعد أن استقر فى تقديره أن الوطنية المصرية حقيقة رائعة ليس إلى نكرانها وتهوين شأنها من سبيل .

اختزلت المنية عمر مصطفى، فاختزلت بوفاته جهوده، ولك أن تتصور ماذا كان يفعله ذلك الزعيم النارى فى عام ١٩١٤ أو عام ١٩١٩، لو أنه كان حياً .

على أنى لا أتردد فى توضيح نقطة من برنامج مصطفى كامل غمض فهمها على الناس. هذه النقطة هى رأيه فى علاقة مصر بتركيا .. دعنى أقول عن علم أن مصطفى كان يتكئ على المعاهدات الدولية التى تربط مصر بتركيا ليتخلص من الاحتلال البريطانى. ولا ضير وقتئذ على مصر أن تتبوأ المركز الذى كانت تتبوؤه بافاريا وغيرها من دويلات ألمانيا فى البناء الشامخ الذى شيده بسمارك بدهائه وعزيمته الحديدية ، والذى نعرفه باسم الامبراطورية الألمانية وعلى رأسها ملك بروسيا .

فلا يغضن أحد من فكرة مصطفى كامل الاستقلالية !! لقد كان يريد التخلص من الانجليز أولا .. وإنى لأسأل : هل كانت سيادة تركيا قبل الاحتلال إلا وهما لا وجود له، وهل كانت علاقتنا بها إلا كالشعرة تربط العضو بالجسم ؟ وفى كل يوم توشك الشعرة أن تنقطع .

أما نضاله ضد الاحتلال البريطانى فقد بدأ بصورة رائعة فى حادثة دنشواى، واستمر حتى اشتد واضطرم فى سنة ١٩١٩ . ولن تلقى مصر سلاح النضال المشروع حتى تسترد حريتها وحقوقها وسيادتها التامة على وادى النيل .

فمصطفى كامل علمنا الوطنية وجعلها عقيدة فى نفوس المصريين، ومصطفى كامل جاهد الاحتلال والمحتلين، ومازال يناضل حتى سقط فى الميدان - ذهب إلى الدار الباقية وضرب لنا بموته المبكر مثلا فى التضحية جليلاً. والتضحية كفيلة بتحقيق ما كان يصبو إليه، لأن مصطفى لم يمت . وكيف يموت وقد خلف فى مصر أربعة عشر مليون مصطفى كامل !؟

قاسم بك أمين

بقلم الاستاذ إبراهيم بك الهلباوى

لما طلب منى «الهلال» أن أكتب عن قاسم رأيت من الواجب على أن أرجع إلى بعض زملائه الذين عاشروه أيام الدراسة. وقد كان فى مخيلتى قبل الرجوع إليهم أن قاسماً كان أيام دراسته دائماً فى مقدمة الناجحين فى الامتحان . ولكنى علمت مع الدهشة من طلعت باشا أن قاسماً كان يؤدى امتحانه فى أغلب السنين بدرجات متوسطة وقل إن كان بين الأوائل اللهم إلا فى السنة الأخيرة التى نال فيها الشهادة العليا سنة ١٨٨١ فقد كان فى امتحان الليسانس أول الناجحين .



قلت لطلعت باشا : «إن خاصة الذين عرفوا قاسماً بنبوغه وفرط ذكائه كانوا يظنون أنه كان دائما فى طليعة زملائه فى الامتحان» فقال «نعم ولكنه ألف من صغره أن يوزع مجهوده بين دروسه وبين قراءه كتب الأدب الفرنسى والتاريخ الفرنسى ، فكان يحصل ضعف ما يحصله الزملاء فى الدرس وفى المعارف العامة . وقد بقى ذلك شأنه لا يكتفي بعمل واحد في الحياة بل يجمع بين الأعمال والدراسات حتى كان في القضاء قاضياً وعلامة ومؤلفاً ومحرراً للمرأة ومنشئاً للجامعة ومؤسساً للجمعية الخيرية الإسلامية وغير ذلك من جلائل الأعمال».

أما مؤلفه فى الرد على رسالة الدوق «داركور» وكتاباه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وأما اشتغاله بالجمعيات واشتراكه فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية والجامعة المصرية ، فقد كانت كلها آيات ناطقة بمبلغ نشاط هذا الرجل الفذ .

فرده على الدوق أمر يستحق الالتفات، فهو وإن كان يتعلق بمشكلة اجتماعية فمرجع البحث فيه إلى مسائل دينية إسلامية محضة. ونحن قد تعلمنا أن الذين يضيفون إلى تربيتهم المصرية تربية أوربية يعودون إلينا أقل عناية بالمسائل الدينية. فاشتغال قاسم بهذا الموضوع يدلك على أن شخصيته الدينية الإسلامية كانت ما تزال مرتبطة بعزته القومية وشرف وطنه .

بحثه فى هذه الرسالة جره إلى البحث فى مسألة المرأة المسلمة ، فهى من أهم المسائل الاجتماعية المحبوبة. وقبل بيان أهمية هذا الموضوع أذكر أن رجلا قسيساً من فرنسا كان يرى إمكان اتحاد الأديان بعضها ببعض وجعلها دينا واحداً، وهو القس (لوازون) جاء إلى مصر مع زوجته حوالى سنة ١٨٩٨ وألقى محاضرة فى هذا الموضوع بالأوبرا . وقد قوبل بكل حفاوة ممن عرفه وتعرفت زوجته بزوجات كثير من العائلات التي زارها. ولما كنت من بين من تعرفوا به ذهبت إلى داره مرة فى ضواحى باريس مع محمود بك سالم والمرحومين مصطفى كامل ومحمود بك أبو النصر. وعندما استقبلتنا زوجته قالت للمرحوم مصطفى : «لقد دخلت وأنا أقرأ فيك» فقال : «لعلك راضية عما قرأت» فقالت : «كلا» ثم التفتت إلىّ فسألتنى رأيى فيما كتب مصطفى فقلت لها : «لم أطلع عليه» فقالت هى : «إنه حديث مع جريدة (لاباترى) سأله المكاتب : ما شأن المصريين الآن مع الانجليز ؟ فقال : كلما طال عهد احتلالهم كثرت كراهة المصريين لهم» ثم قالت : «مافائدة هذا البيان هل يوجد أحد يتوهم أن هناك أمة ترضى بالاستعمار ؟» ثم قالت بين حديث طويل : «ذهبت مع زوجى لمصر ولأتصل بنساء مصر لعلى أجد بينهن جريحاً يتألم من وجود الأجنبى فى ديارهن فأشاركهن

فى هذا الشعور. وذلك لأنى وإن كنت فرنسية بحكم زواجى من فرنسى فأنا أمريكية ضحيت من عائلتى خمسة رجال استشهدوا فى حرب الاستقلال ضد انجلترا. ومن الأسف أنى تعرفت بكثيرات منهن فوجدتهن لاهيات عن الأمر الذى أبحث عنه فعدت بخفى حنين. كل ذلك لأنكم أيها الرجال حلتم بين نسائكم وبين التمتع بحق كل كائن فى الحرية حتى صرن كالتحف فى المنازل. وكلكم تعلمون أننا جميعاً فى هذه الحياة نسير إلى غرض هو أمل الجميع فى الشرق أو الغرب . ولكن المصرى يمشى وامرأته على كتفه والاجنبى يمشى وامرأته بجواره فهل السائرون خفافاً كالسائرين ثقالا ؟».

من يدرك هذا المثل من هذه السيدة فى سنة ١٨٩٨ يعلم مقدار ما كانت حاجتنا إلى تحرير المرأة وتعليمها ، ويعلم أن قاسماً إن كان طرق هذا الباب فى ذلك العصر فهو قد تقدم إليه فى إبانة وبخير الذرائع .

صلة قاسم بسعد جعلته إلى حد ما بعيداً عن جو السراى والآراء التى تعطف عليها لأن السراى كانت تقليدية رجعية فى هذه المسألة .

ولهذا جاء مذهب قاسم فى تحرير المرأة من أشد المذاهب بغضاً واستحقاقا للمحاربة من كل الرجال الذين يستقون أفكارهم من ذلك الينبوع، ولذلك لم يكن غريباً أن يكون فى مقدمة من حملوا الحملة الشعواء على مذهب قاسم هم أصحاب اللواء والمؤيد. وقد قابل قاسم هذه الحملات بما له من الشجاعة والاستخفاف بالأذى. والذين لم يكونوا متصلين بحوادث ذلك الزمن لا يدركون خطر ما يلحق من كان فى مركز قاسم من العنت والاضطهاد. لم يكن من تقاليد السراى أن تقفل بابها فى وجه رجل من كبار رجالات الدولة كقاسم، ولكنها فعلت ذلك لأن حنقها كان شديداً حتى احتقرت تلك التقاليد واقفلت بابها فى وجه قاسم العظيم .

هذا العنت الظاهر أفقد صاحبنا صبره وقتاً ما. وأذكر أننا كنا ذات ليلة فى حفلة زواج عطية هانم الفلكى بالدكتور صالح صبحى، وكانت الحفلة بجمع صفوة رجال مصر وفى صدرهم قاسم. فإذا باكبر أمراء البيت الحاكم وأخو الخديو الشقيق يدخل فى تلك الحفلة ويقوم له كل من بالسرادق إجلالا وإكباراً، إلا رجلاً واحداً كان موضع أنظار الجميع لم يقف لذلك الأمير الذى وقف له الجميع، وكان الرجل قاسم أمين ..

لم يكن يدخر مجهوداً للدفاع عن عقيدته. عرض رأى فى الجمعية الخيرية الإسلامية لإيقاف كل ما تملك على الوجوه الخاصة بنفقات الجمعية. ولما كان قاسم يرى أن الوقف كثيراً ما يعطل على أصحاب الشأن فيه حرية التصرف بما تقتضى

الحاجة والظروف التي لا يمكن الإحاطة بها، عارض معارضة شديدة ، وكانت الأغلبية ترى غير ذلك، فبقى قاسم مصراً على رأيه قائلا : «إن هذه مسألة من المسائل الأساسية التى لا يمكننى أن أخضع فيها لحكم الأغلبية ، بل واجبى فى هذه الحالة يقضى علي بالاستقالة من خدمتها» . فتراجع الجميع وسلموا برأيه ومات قاسم واتقينا خطر استقالته وبقيت الجمعية من سنة ١٩٠٨ ولم يفكر أحد من أعضائها إلى اليوم فى الخروج عن رأى قاسم .

أما أثره فى الجامعة فلم يكن أقل جلالا من آثاره فى المسائل الأخرى، فقد قام قاسم بالدعوة إلى إنشاء هذه الجامعة. وتقارير كرومر السنوية تنطق بأن رغبة الانجليز فى تعليم الشبيبة المصرية يجب أن ينتهى إلى حد تعليم الناشئة مقدار ما يراه الانجليز لاستخدامهم. فإنشاء الجامعة كان اعتراضا صارخا على مبادئ المستعمرين فى قتل ثقافة المصريين. وأكبر دليل على هذا أن المرحوم سعد باشا لما دعى لتولى وزارة المعارف فى أواخر سنة ١٩٠٦ لم يجد مما يتفق مع سياسة ذلك العصر أن يكون وزيراً للمعارف ورئيساً أو وكيلاً أو عضواً فى لجنة الجامعة فاستقال منها. ولكن قاسماً لم يكن من بدء حياته إلى منتهاها إلا مفاخراً بأنه يقوم بما يستطيع من خدمة وطنه أرضى الغير أم أغضبه .

يخطئ من يظن أن قاسما كان بعيداً عن السياسة ، لأن ذلك إن صح يناقض أنفته المعروفة عنه. فالسياسة فى مصر أخص صورها الشكوى من وجود المستعمر والعمل لتحرير الأمة منه . ولن يستطيع من يقدر قاسماً أن يقول إنه كان بملهى عن ذلك.

ولعل الكتاب ظنوا أنه كان بعيداً عن السياسة ، وذهبوا إلى ذلك لأن اسمه لم يقترن بحركة من الحركات السياسية. فهذا مرجعه إلى أن قاسماً كان يعمل ولا يتكلم، كان يحب الوحدة والعزلة ويكره الشهرة ، ولكنه كان من أوائل المرافقين لإخوانه فى بث الشكوى ومدافعة الاحتلال فى مصر. كان يفكر ونحن نكتب، كان يشير ونحن نعلن. كذلك كان شأن قاسم بين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطيف سليم وعلوى باشا وإبراهيم بك مصطفى وحسن عاصم وعلى فخرى وغيرهم من الرجال الذين قضوا كل حياتهم فى هذا السبيل .

كان قاسم مشغولا بفن الأدب وخاصة بالفنون الجميلة ، أكثر الناس تقديراً للفنانين، مصورين وشعراء وموسيقيين. ولذلك تراه الرجل الوحيد من طبقته الذى سار وراء نعش المرحوم عبده الحامولى أول المغنيين المصريين المجددين.

ولا أظن أحداً يسألنى بعد ذلك عن شخصية ذلك الرجل الفذ، فهى ظاهرة فى تلك المواقف التى سردتها والتى تنطق جميعها بمقدار القوى التى كانت كامنة فى ذلك الرجل العظيم.

أما طباعه وسجاياه ورقة حاشيته، فإنك كنت تكاد تحسبها الدماثة والرقة صورت رجلا فصارت إنساناً كاملاً، بل كنت تكاد تحسبها طباع ملاك هبطت إلى إنسان.

ولقد كانت بغية قاسم أمين وأمنية حياته تحرير المرأة المصرية - أو بالأحرى إطلاق المرأة من سجن الحريم والحجاب. ولم يرض لها الجهل مع الحرية فشدد فى وجوب تعليمها... كل ذلك ضمنه كتابيه : تحرير المرأة و المرأة الجديدة .

فأما ما تحقق من أحلامه فيقظة المرأة فى مصر وما وصلت إليه من تحطيم كثير من القيود ومزاحمة الرجل فى شتى مناحى النشاط الحيوى. هذا هو الذى تحقق من هذا الحلم والزمن كفيل بتحقيق ما بقى، والطلائع كلها تبشر بأن دعوته إلى تحرير المرأة وتعليمها وجعلها من الأسس التى تنهض عليها دعائم القومية المصرية وحشدها مع الرجل فى ميدان الجهاد الوطنى لإحراز الاستقلال بكل ما يحمله من معان سامية - إن دعوته تلك أقرب إلى أن تفعل فعلها الكامل وتأتى بثمراتها الناضجة من أية دعوة إصلاحية أخرى. ولست أنكر أن قاسما مات ولما يتحقق من برنامجه شئ يذكر ، لكن المعول فى صيحات الإصلاح هو على النتيجة البعيدة لا الأثر القريب - فقاسم أمين مصلح موفق بلا ريب. فرحمه الله وألهمنا العمل بما رسم.

سعد باشا زغلول

بقلم : الدكتور أحمد فريد رفاعى

حقاً إنى لفى حيرة ! ماذا أقول عن «سعد زغلول» ؟ .

أقول كثيراً وكثيراً جداً .

شخصية حبتها الطبيعة المواتية حكمة واعتباراً ونبوغاً وابتكاراً، وسمواً فى غير استكبار وعظمة فى غير ازورار، مع كياسة فى غير ضعف، ورياسة فى غير ما عنف، وسياسة فى غير ملق ولا دهان، وعقلية جبارة فى إتئاد وحكمة ، وثقوب



بصيرة فى دماثة وظرف، ولين عريكة فى رجولة مستكملة. كلها نضج، وكلها حزم، وكلها إرادة ، وكلها عزم، وكلها يقظة ، وكلها إنتاج.

عظمة سعد روعة كلها، وحياة سعد مفاخر كلها، وبطولة سعد خليقة بالدرس والإمعان. ولست أرتاب أن الوقت لم يحن بعد لإنصاف سعد لأن زمن تقديره لم يأت بعد...

على أن سعداً قد نجح فى مهماته التى بعث لها وبعث بها، والتى خلق لها وخلق بها، والتى بذ فيها الأقران والأنداد. بل نجح نجاحاً ليس إلى تقديره من سبيل، وكادت تلك البذور الحية الخصبة تظلنا جميعاً بدوحاتها المشمخرة الفينانة...

أرجع البصر كرتين أو ثلاثاً، واذكر جهوده الجبارة فى افتتاح الكتاتيب، واذكر خطاباته الثرة الهتانة فى الحض على إلزامية التعليم، ثم اذكر وقفاته «لدنلوب» فى البرامج التعليمية ، ثم اذكر مناصرته للغة العربية . ولا تنسى أنه وليد الثورة العرابية ، وأنه من مناصرى الاستاذ الإمام، ومن مؤيدى «قاسم أمين» ومن باعثى الحياة فى الجمعية التشريعية والحياة الصحفية ، ومن مشجعى الأدباء ...

ولا تنسى أيضاً نصيب سعد فى القضاء ولا أثر سعد فى المحاماة ولا ضلع سعد فى الجامعة المصرية ، ولا مؤازرة سعد فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية .. ولا ..ولا ...

ولست أشك ذرة أنك واجد أصبعه فى شتى مرافق حياتنا المصرية إذا ما تغلغلت فى أمانة الباحث المستقصى لأرومة كل شئ .

والحق أن حياتنا الجامعية مدينة لسعد، والحق أن حياتنا التفكيرية المنطقية مدينة لسعد، والحق أن لهجاتنا الخطابية الحماسية مدينة لسعد، والحق أن دربتنا البرلمانية مدينة لسعد..

لقد آن لى أن أقرر لك شيئاً سمعته بأذنى من صديق الحياة والممات، المغفور له ثروت باشا الذى كان يقدر سعداً حق قدره، والذى كان يكبره فى خصومته كل الإكبار ..

قال لى : «علم الله أنى ما تقويت على «اللنبى» وانتزعت منه ما انتزعت،

إلا بتخويفه بمعارضة سعد. لقد كنت أقول له دائما : إن سعداً أمامى، وأن البلد من ورائه...» .

وهكذا كانت البلاد تستفيد من سعد سلبياً وإيجابياً .. وهكذا كانت البلاد تستفيد من سعد فى الوزارة وخارج الوزارة .. وهكذا تدر الشخصيات البارزة على أوطانها بأفاويق النفع والإفادة ..

على أنك سائلنى : ماذا حقق سعد ، بعد أن علمت ماذا أفاد ..؟!

ولكنى ألفت نظرك إلى أن الأسس الوطيدة ، والبذور الصالحة ، والجهود المثمرة ، والتعاليم المبثوثة ، والصيحات المذكورة . هذه كلها التى إلى سعد مرجعها، ومن سعد متفجرها - لابد واصلة بنا حتما إلى بغية الجميع فى الاستقلال والحرية ..

«أما بعد» فإذا ما ذكرت «الرينيسانس» فإنك ذاكر إيطاليا و«بوكاسيو» و«مديتشى»، وإنك لذاكر قطعاً حين ذكراك للنهضة فى مصر فى مختلف نواحيها سعداً وسعداً فى الطليعة - فى اللغة ، فى الصحافة ، فى المحاماة ، فى القضاء، فى البرلمان، فى التشريع، فى الاجتماع، فى الكفاح، فى السياسة.. فى كل هذه المناحى تستطيع - من غير ريب - أن تكتب فصولا طوالا، وأن تجد لمتسع القول مجالا ..

ومهما حاول خصوم العظمة ، وخصوم المعدلة والبطولة ، الغض من الآثار العملية التى وصلت إليها البلاد بفضل سعد وشخصيته وتعاليمه - مهما قالوا لماذا رفض مشروع ملنر أو مشروع الدمنيون، فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا إن يقظة مصر وفورتها وقضية مصر ونهضتها، لم تخدم من سعد، ولم تظهر بفضل سعد، ولم تضطرم جذوتها من روح سعد ..

وإذا ما قيل إن الاستقلال يتطلب طيلة زمان، وطيلة كفاح، وطيلة جهود، فإن لنا من روح سعد، ومن الأمة المؤمنة بتعاليم سعد الإيمان الوطيد، نبراساً يهدينا لتحقيق مطامحنا السياسية . وعندنا رجاء خير رجاء فى نضج شتى النواحى المدينة لسعد من حياتنا الثقافية والاجتماعية والبرلمانية والحزبية. تلك كلمة ألممنا لك بها إلمامة تحتملها مجلة سيارة فى ظروف كلها ملالة وسآمة ..

هل يتجه العالم نحو ثقافة إنسانية

للدكتور بهى الدين بركات باشا

ليس فينا من لا يستمع إلى الراديو يوميا، بل منا من يتتبعون أخباره فى الداخل والخارج عدة مرات كل يوم، فهل فكرنا فى مدى ما أدخلته تلك الآلة الصغيرة أعنى عدة الراديو من تطور جسيم فى حالة العالم بما أزالت من حدود بين الأمم المختلفة ، وما خلقت من اتصال سريع بين الناس، وبما سهلت من انبثاث الآراء بين سكان هذا العالم .

نحن اليوم نجلس فى غرفتنا، فنحرك تلك الآلة الصغيرة، فنسمع لندن وباريس ونيويورك وموسكو وبرلين فى ساعة واحدة، ونطلع على ما تذيعه كل منها من الأخبار وما تعلق به من الآراء على المواقع الحربية وتطورات الحرب ساعة فساعة، وكثيرا ما نسمع خطبة سياسية هامة فى المساء ونسمع التعليق عليها من الجانب المناصر أو الجانب المعادى فى نفس الليلة أو فى اليوم التالى على الأكثر، فالعالم جميعه أصبح سوقا مشتركة يدلى كل برأيه ويؤيده بحججه ويناصره بكل ما يعتقده، محبذا لفكره، من غير أن تقف دون ذلك حدود سياسية أو غيرها، فلقد رأينا الدول الكبيرة نفسها تحرص على أن تصل أفكارها وآراؤها ومذاهبها إلى جميع بلاد العالم، فهى لا تقتصر على محطة إذاعة واحدة ولا تكتفى بالإذاعة بلغة واحدة، بل تذيع بعشرات اللغات حتى لا يبقى شخص فى العالم المتمدن دون أن تكون له فرصة الاستماع إلى تلك الإذاعات بلغته هو .

تصوروا تلك الحالة، ثم قارنوها بما كانت عليه فى الحرب الماضية، حيث كان الاتصال مقصورا على التلغرافات التى تصل إلى كل مملكة بقدر محدود، إذ كان

الاتصال مقصورا على البلاد التى يكون لها فيها وكلاء يوافونها بالأخبار. ليس من شك أن من يضع هذه التطورات نصب عينيه يرى أن تقييد الأفكار أو الحجر عليها أصبح ضربا من المحال، فإذا كانت المطبعة قد أتت بالعجائب وقلبت العالم فى القرون الوسطى بما سهلت من اتصال الأفكار، فماذا يكون مقدار أثر الراديو فى عهدنا الحاضر، لا شك أن هذا الاتصال الروحى الذى وجد بين جميع أجزاء العالم على أثر هذا الاكتشاف العجيب، سيكون له أثر شامل لا أحسبنى مبالغا إذا قلت انه الحجر الأول فى سبيل توحيد العالم .

فإذا ما نحن تركنا الراديو جانبا، وفكرنا فى مدى أثر السينما علينا حيث نرى الآلاف بل عشرات الآلاف من الناس فى مصر وحدها يذهبون كل يوم ليروا ما تخرجه أمريكا وغيرها مما يجعل الناس فى جميع أقطار المعمورة يطلعون على سبل معيشة كل بلد من البلاد أدركنا إلى أى حد بلغ ترابط العالم بعضه ببعض .

ولقد فطر الناس على حب التقليد، لذلك ترانا بعد أن كنا فى الاجيال الماضية نحرص فى كل بلد على عادات معينة وطرق من الزى خاصة حتى أن كل إقليم كان ينفرد بطابع خاص يميزه عن سواه، وكان يحرص على المحافظة على هذا الطابع، ويعتبره تراثا يجب المحافظة عليه، ترانا الآن يقلد بعضنا بعضا فى اللباس وفى المأكل وفى طريقة المشى وفى المعيشة، بل وفى طرق الزينة وقص الشارب وتقليم الأظافر وكيفية السلام، إلى غير ذلك من أنواع التجميل وتفاصيل الحياة التى لم تكن تسنح الفرصة لمعرفتها، فضلا عن تقليدها إلا للنزر اليسير من الناس الذين آتاهم الله سعة فى الرزق وصحة يستطيعون معها أن يجوبوا أنحاء العالم مع ما كان فى السفر من مشاق ومجازفات لا يمكن أن يضطلع بها إلا النزر اليسير من الناس، وهل لى بعد ذلك أن أشير إلى ما حدث من تطور جسيم بسبب سهولة المواصلات، فلقد كانت المسافات بين قطر وقطر تجعل الناس بعيدين بعضهم عن بعض فى الأفكار وفى الآراء وفى فهم الحياة، فجاء البخار وانطوت معه المسافات الشاسعة وتعارف الناس بعضهم ببعض، ولكن أين هذا مما نرى اليوم وقد ملكنا الهواء، فاقترب ما كان بعيداً، فرأينا رئيس الوزارة الانجليزية وقد جاوز السبعين يطير إلى كازبلانكا من انجلترا، كما رأينا الرئيس روزفلت يطير إليها من الولايات المتحدة ليتفاوضا فى شئون الحرب ويدبرا ميدان القتال بين المئين من الملايين، ولعمرى ألسنا نرى العالم جميعه وقد انقلب إلى معسكرين عظيمين، فمعسكر الديمقراطيات وفيه أميركا والامبراطورية البريطانية وإلى جانبهما روسيا الشيوعية، وإلى الجانب الآخر الدولتان

اللتان تمثلان الأوتوقراطية وإلى جانبهما اليابان زعيمة الجنس الأصفر، وأين هذا مما كنا نشهده أو نسمع به منذ جيل واحد من الزمان بل منذ عشر سنين فقط .

إننا لا نزال نذكر أن الولايات المتحدة كانت دائما حريصة على أن تبتعد عن سياسة العالم القديم، حريصة على أن تتركه وشأنه يدبر علاقات ممالكه بما يراه كل منها، حتى إذا وقعت الحرب الماضية وطال أمدها وتوجست أميركا خشية من مصيرها رأينا الجيوش الأميركية تعبر البحار لنصرة فرنسا وبريطانيا ونصرة مبادئ ولسن الأربعة عشر، حتى إذا ما انتهت الحرب ورأينا ساعة السلم قد أذنت بمؤتمر الصلح، رأينا أميركا تصر على أن لا يزيد اشتراكها فيه على وجود عضو مشاهد فحسب دون أن تأخذ نصيبا مباشراً فى مؤتمر السلام. وعند ذاك رأينا الأمير كيين يطعنون على سياسة الاشتراك مع أوربا، ويؤكدون بكل الوسائل أنه لن يكون لاميركا فى المستقبل تدخل فى المشاكل الأوربية .

ولكن هذه الحرب لم تلبث أن هددت مصير أوربا بل العالم القديم بأجمعه، حتى رأينا أميركا تنسى كل سياستها التقليدية وتعود إلى الحرب على وجه أهم مما كانت عليه فى الحرب الماضية فجيوشها ليست فى فرنسا وحدها، بل إنها تحارب فى الشرق الأقصى وفى استراليا وفى جزر الفلبين وفى شرق إفريقيا وفى البحر الأحمر، بل إنها وصلت إلى مصر وهى من الناحية الأخرى تحتل مراكش والجزائر، حتى لم تعد فى الحرب مجرد عون لأوربا المقتحمة ولا للإمبراطورية البريطانية وحدها، ولكنها محارب أصلى تضرب بعنف وشجاعة وتتلقى الضربات بصبر وبسالة.

ذلك هو الحال اليوم فى العالم وهو ليس مقصورا على أمريكا، بل ان ما نراه من السياسة الروسية ومن السياسة نحو روسيا لأعجب بكثير مما نشاهده بالنسبة للسياسة الأميركية، فروسيا عندما اعتنقت المبادئ الشيوعية قاطعها العالم بأجمعه، ورأى فى عملها خروجا على المبادئ الإنسانية وفوضى ووحشية لا يصح لمن كان يحرص على وطنه ويحترم مبادئ الشرف أن يتعامل مع أهلها أو أن يتصل بهم حتى لمجرد الدراسة، ولقد ظل الحال على ذلك أعواما وأعواما حتى رأينا فى مصر قانونا يصدر بجواز حرمان كل من يدرس فى روسيا أو يقيم فيها من الجنسية المصرية حفظا للأمن العام وحرصا على سلامة البلاد من انتشار الأفكار المخالفة لمبادئ الإنسانية والمدنية .

كان ذلك منذ عشر سنين فقط قبل إعلان الحرب سنة ١٩٣٩، والآن ماذا نرى، لقد صارت روسيا جنبا إلى جنب مع بريطانيا وأمريكا، وأصبحت حليفة معهما، كما

أصبحت شريكة فى الرأى لهما، بل سيكون لرأيها مقامه فى تنظيم العالم بعد الحرب.

لست أنا الذى أقول هذا، بل أن هذا هو قول عاهل انجلترا المستر تشرشل حيث جاء فى خطابه الأخير منذ عشرة أيام عن رعاية الأمم الصغيرة قوله : «والآن ما شأن العدد الكبير من الأمم الصغيرة التى لابد من صيانة حقوقها ومصالحها، إنه ينبغى أن يكون هناك إلى جانب الدول الكبرى عدد من مجموعات الدويلات أو اتحاداتها على أن يعبر ممثلوها المختارون عن أغراضها وأمانيها. وعندى أن هذا كله سيكون منسجما مع المصالح العليا الدائمة لبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا. ومن الثابت أن هذه الأمنية لا يمكن أن تتحقق إلا برضاء هذه الدول الثلاث الخالص واتفاقها التام» .

فهل عرفتم مدى التطور العظيم الذى حدث فى الأفكار وفى الآراء ثم تصورتم بعد ذلك ما يمكن أن تكون عليه الحال إذا ما وضعت الحرب أوزارها ألا يكون المحتم عند ذاك أن يكون الاتصال الأدبى والاقتصادى والسياسى كاملا بين هذه الدول الثلاث وهل يمكن إذا ما تم هذا الاتصال وأصبح التبادل الاقتصادى تاما بين تلك البلاد إلا أن تتقارب النظم الاجتماعية وتتم الخطوة الأولى وهى خطوة واسعة جدا فى سبيل توحيد النظم بين تلك الدول المتناقضة المذاهب والمتباينة الأجناس. وهلا يؤذن ذلك بتوحيد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض أو على الأقل تقاربها وتفاهمها وعملها مشتركة بعضها مع بعض، وإلا فخبرونى كيف يمكن أن نتصور بعد ما نشاهده اليوم أن أحدا يجرؤ أن تحدثه نفسه بوضع روسيا فى عزلة من العالم أو أن أمريكياً يقبل أن يكون دوره فى العالم مقصورا على أن يشترك معه فى يوم الكريهة، فإذا ما جاء يوم السلم ابتعد عنه وعن الاشتراك معه فى نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهل إذا نحن اتجهنا ببصرنا نحو ألمانيا النازية وقد شادت مذهبها بل نظمها الاجتماعية على أساس تفوق الجنس الآرى وسيادته على ما عداه من الأجناس، ثم رأينا كيف أن اليابان كانت سبب انقاذها فى العام الماضى من انكسارها فى الحرب، هل هى تستطيع بعد ذلك أن تتمسك ضد الجنس الأصفر بنظرية هذه السيادة، أم أنها لابد معاملة له على قدم المساواة التامة ؟

إنى لألمح فى المستقبل القريب زوال الحواجز الصناعية لمنع الاتصال بين الشعوب والأمم، فسيكون عالمنا بأجمعه ميدانا واسعا جدا لتبادل الأفكار والآراء وتجربة النظم المختلفة فيه على تباعدها عن بعضها، ومن ذلك ستتقارب الأفكار

وتتناسق الآراء، وتتحدد الجهود فى سبيل سعادة البشر، فإن لم تتمخض هذه الحرب عن ذلك فستتلوها حرب تكون أوسع وأعنف جهاداً وأقدر على صهر الشعوب والأمم حتى تصل إلى تلك الغاية. أما بقاء شعب أو أكثر أو إبقاؤه فى عزلة عن باقى الشعوب فقد أصبح أمراً مستحيلاً، وقد علّمنا التاريخ الحديث أن العالم يسير فى طريق الوحدة أو ما فى حكمها كجامعة أمم متحدة، فكما أن الدول الحاضرة تكونت على آثار نظم القبائل والإقطاعات، فكذلك ستتكون الأنظمة الجديدة على أساس تقوض الأنظمة الحاضرة .

بل أننا إذا نحن تركنا ما يحتمل حدوثه من التقرب بين أنصار كل فريق من المتحاربين ونظرنا إلى ما يحتمل حدوثه بين فريقى المتحاربين أنفسهم على ضوء ما حدث من التقارب بين الشرق والغرب أبان الحروب الصليبية وبعدها، وما تدعو إليه الحرب من تقليد فى الأنظمة وتقليد فى الأسلحة وتقليد فى المناورات الحربية وتقليد فى طرق الفتك والتدمير، وجدنا أن كل ذلك سيكون مدعاة لأن يسود العالم علم واحد وأن تنتظم الجهود فى اتجاه مشترك .

لا تظنوا أنى ألمح من ذلك عهداً قريبا تسود فيه العدالة والرحمة وتتعاون جميع الشعوب الإنسانية فى سبيل مصلحة المجموع، كلا بل إنى لا أزال أرى أمامنا مواقع دامية يسود فيها الظلم وتتحكم فيها القوة المجردة وتضطهد فيها شعوب وتظلم أمم، ولكنى أرى برغم كل ذلك أننا فى سبيل تناسق وتوحيد بين العالم أجمع سيكون الثمن غاليا وستكون الضحايا كثيرة وعديدة، وستنشأ الأنظمة الجديدة بحيث يبقى للقوى امتيازه بل جبروته، ولكن الأقوياء أو من سيظلون أقوياء سيتحدون حتما أو يشتبكون اشتباكا يتغلب فيه من يتغلب فينفذ آراءه ويخدم الوحدة سواء أراد هو أم لم يرد .

لعل بعضكم يظننى ابتعدت عن موضوع الثقافة وتكلمت فى تطور سياسى ليس داخلا فى معرفة ما إذا كان العالم يتجه نحو ثقافة إنسانية أو لا، ولكن مهلا ، ودعونا نقف لحظة لنعرف ما هى الثقافة ، فلقد تفاوتت فى تفسيرها الآراء تفاوتا شاسعا، فأستاذنا الكبير أحمد لطفى السيد باشا يقول فى ختام محاضرته فى هذه الجامعة : «يجب على الأمة فى تربية أبنائها أن تكون غايتها الإنسان المثقف ووسيلتها إلى ذلك تثقيف ملكات الفرد الطبيعية ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام، ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بأن لا يقتر ولا يسرف بل ينفق بالمعروف

وواجب كرامته من حيث هو إنسان، فيرفض أن يكون تبعا لغيره فى غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها قوانين مرعية الأداء، وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتى من عمل، وضابط ذلك كلمة سقراط المعروفة : «اعرف نفسك بنفسك» أى تعرفها بالدرس الدائم لحلها وسبر غورها فى أعمق طياتها. ثم ينبغى أن يؤخذ الناشئ بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون . قال كنت : «من ليس مثقفا فهو بهيمة ومن ليس مؤدبا فهو متوحش» .

فإذا نحن أخذنا بهذا التفسير، لم يبق عمل فى حياة الإنسان لا يكون داخلا على نحو أو آخر فى معنى الثقافة ، وعلى ذلك تكون كل العلاقات بين الناس سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم أدبية أم تشريعية أم روحية داخلة فى معنى الثقافة، ويكون كل تقارب فى أى ناحية من تلك النواحى بين شعب وآخر أو بين فرد وفرد مما ينطبق عليه هذا الحكم ، بل نحن لا نكون مبالغين إذا ما قلنا إن الاتحادات الرياضية والمسابقات الأولمبية نوع من التثقيف، ففى تنظيمها بين الدول المختلفة اتجاه جلى نحو ثقافة عالمية .

كذلك يمكننا إن نقول أن مؤتمرات الأديان التى كانت تعقد بين الفينة والفينة للتقريب بينها والتفاهم بين الناس، وسعى بعضها للتوحيد وإزالة الفوارق، هو اتجاه واضح صريح نحو توحيد الثقافة فى العالم .

وما نقوله عن مؤتمرات الأديان ينطبق بذاته على المؤتمرات التعليمية والمؤتمرات التشريعية بل المؤتمرات الطبية، فإنها جميعها إنما ترمى إلى الوصول إلى تكوين رأى عام عالمى للسير عليه فى التربية وفى التعليم وفى طرق معاملة المجرمين والمرضي وفي صيانة الحقوق الأدبية للكتاب والمؤلفين، وفى الوصول إلى أجدى طرق العلاج . كل ذلك كان موجوداً وهو اليوم أقوى أثرا وأسرع مما كان عليه قبل الحرب الحاضرة، أى منذ ثلاث سنوات أو أربع.

أنظر إلى انجلترا وكيف أنها وسط هذا الضجيج الهائل وتلك المجزرة البشرية التى لم يشهد التاريخ بما يماثلها هولا ، كيف أنها وسط كل ذلك تبحث مشروعا لتحسين حالة العمال وضمان العيش لكل شيخ وكل عاطل عن العمل ، ثم انظر إلى أميركا وهى بعد أسابيع قليلة من تقديم مشروع بيفردج تنسج على نفس المنوال وتتبع نفس الخطة، فواجب الحكومة يحتم عليها «أن تكفل لكل مواطن حقه فى الحصول على عمل، وحقه فى الحصول على دخل يتناسب مع احترامه لنفسه حينما

يعجز عن العمل، ولو لم توجد مثل هذه الكفالة الاجتماعية والاقتصادية لما أصبحت هناك أية ضمانة للحرية. ولا شك أن كل جهودنا (هكذا تقول اللجنة الأميركية) لإقامة الحياة والحرية والسعى إلى الرخاء، ستذهب عبثا ما لم تعتمد على أساس وطيد من التأمين الاجتماعي والاقتصادي» .

أرأيتم كيف أن العالم اليوم صار يتقارب من بعضه، بل كيف أن الأثير جعل كل الشعوب تطلع على ما يجرى خارج بلادها فلا تلبث واحدة منها أن تقوم بنظام جديد حتى ترى هذا النظام موضع بحث وتمحيص فى البلاد الأخرى، بل ربما كان هناك مباراة بين الأمم فى أيها تسبق الأخرى، أليس ذلك هو المقصود بقولنا إن العالم يتجه نحو ثقافة عالمية .

قد يقول البعض إننا توسعنا توسعاً كبيراً فى تفسير معنى الثقافة، وأن الحقيقة إن الثقافة إن صح التعبير بها على الملكات العقلية والروحية، فهى لن تنطبق على تثقيف ملكات الجسم مثلا، ولقد عرفها الاستاذ محمد سعيد مظهر فى عدد يناير سنة ١٩٤٠ من «الهلال» حيث قال : «فالرجل المثقف غير الرجل المتعلم، فهو أكثر مرونة فى العقل وأوسع مجالا فى الحديث وأكبر مدى فى المعلومات، وله شخصية قوية محبوبة ورأى بارز فى المجتمع وأثر كبير فى الأمور العامة، وهو لا يكون كذلك إلا إذا ألم بطرف من الأدب والفن واتصل بأمور الحياة العامة، وعرف ما يجرى فى بلده وفى العالم من الأحداث الهامة، وعرف لغة أخرى غير لغته، وتتبع النهضة العلمية الحديثة وتيار الفكر فى الشرق والغرب إلى جانب علومه التى تخصص فيها. على أن لا تبقى هذه الطوائف من المعلومات منعزلة مستقلة بعضها عن بعض، فيصبح عقله مخزنا كبيراً به غرف غير متصلة.. وإنما هو يؤلف بينها فى مجموعات منتظمة واحدة للعلوم وثانية للمعلومات العامة وأخرى للتاريخ والاجتماع وهكذا على قدر تنوع معلوماته. ثم يربط هذه المعلومات بعضها ببعض فتصبح كلها مجموعة واحدة كبرى أو دولة علمية يشد بعضها أزر بعض ويستفيد كل فرع منها من باقى الفروع بحيث إذا تكلم فى الدين عرج على الفلسفة والمنطق واستعان بالتاريخ للاستقصاء والمقابلة وبالعلوم للبحث والتمحيص فتدور معلوماته كلها حول محور واحد يتدرج فيه إلى الغرض الأسمى من التعليم والتثقيف . وهو دراسة طرائق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الأمور بالحكمة والنظر فيها نظرا سديدا وكسب العادات العقلية المنظمة» ..
هكذا عرف الثقافة استاذ أشرف هنا وفى العراق على اختيار درجة الثقافة العامة .
وهو تعريف إن سهل أن يكون وصفا لا شخاص بذاتهم فإنه لا يكاد يحصر الاتجاه

الذى يمكن أن يتعرف به الإنسان المعنى المقصود من لفظ الثقافة فهى فى عرفه ترجع إلى توسيع المدارك العامة وتنظيم المعلومات الفنية والأدبية والعلمية وهضم عوامها جميعا لدرجة تمكن الشخص من أن يكون ذا رأى ومذهب فى الحياة ، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك ، فهو يعتبر الشخصية القوية المحبوبة شرطا من شروط الرجل المثقف .

ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن تلك الصفات على أهميتها وفائدتها فى الحياة لا تتوفر جميعها إلا نادراً فى شخص واحد، لذلك أرانى أميل إلى تعريف الاتجاه الثقافى بأنه الاتجاه الفكرى والروحى، فهل نحن آخذون فى سبيل اتجاه عالمى من هذا القبيل .

إن جميع ما قدمت من الملاحظات والآراء يجعلنا نجيب عن هذا السؤال بالإيجاب، ولكنا من الناحية الأخرى إذا ما رجعنا إلى تحليل تفاصيل الحياة ومعارك المجتمع الذى نعيش فيه، وجدنا الأمر على خلاف ذلك تماما، فإن أقصى ما يرد بالخاطر أن تتسع المملكة اتساعا يجعلها أضعاف ما هى عليه اليوم، حتى لا يبقى فى العالم إلا عدد محدود من الدول، فهل هذا يحل الإشكال، كلا فمصر دولة واحدة، ونظامها السياسى واحد وتشريعها واحد، ودين أغلبيتها العظمى واحد، ولغتها واحدة، وطقوس أفراحها ومآتمها واحدة، ولكن هيا بنا نفحص قليلا أفكار الناس وآراءهم، إذن لرأينا بونا شاسعا وتناقضا عظيما وعراكا مستمرا بين مذهب ومذهب وبين رأى ورأى .

هذا يدافع عن السفور ويراه حقا طبيعيا تتمتع به المرأة، ويرى أنه السبيل الوحيد لترقية المجتمع، لأن المرأة التى لا تختلط بالناس ولا تعرف الحياة لا يمكن أن تكون أما صالحة ولا ربة بيت نافعة، وهذا يطعن على السفور ويرى فيه مخالفة للدين وتقليدا أعمى للأوربيين ، ويعتقد أن السفور عار وسبة للمدنية .

وهذا يرى وجوب تقليد أوربا فى نظمها وطرق معيشتها، بل وفى المأكل والمشرب. والآخر يرى أن لا شأن لنا بغير بلادنا، فنحن شرقيون وهم غربيون، وسبيلنا إلى النجاح أن نحرص على تقاليدنا وقواعد ديننا، وأن نستقل فى أمورنا عن سوانا.

وهذا يرى أن يكون هدف مصر الأسمى أن تكون قطعة من أوربا، وذاك يراها جزءا من البلاد العربية يجب عليها أن تحافظ عليها وتتفانى فى الإخلاص لها وتجعلها هدفها الأسمى الذى تسعى إليه وتعمل على تحقيقه مهما كانت الظروف والدوافع.

هذا فى مصر وهى شعب واحد ولغة واحدة ونظام واحد، فإذا ما حولنا نظرنا إلى فرنسا مثلا قبل الحرب، وجدنا عوامل خلاف متأصلة فى شعبها برغم وجود الاتحاد فى اللغة والنظام والدين، ففيها من كانوا يسعون إلى بسط النظم الشيوعية بكل تعاليمها حتى وصلوا إلى أن يجعلوا لهم عددا محترما من النواب يتصلون علنا بموسكو ويعملون بتعاليمها فى أشد الأزمات حرجا فى بلادهم، كما كان فيها من كانوا يرون ويدعون إلى نظام الملكية ويطالبون بإعادتها ويعلنون إفلاس الحكم النيابى.

كذلك كان فى فرنسا دعاة أشداء أقوياء يناصرون الديمقراطيات ويرونها المثل الأعلى للإنسانية، وإزاءهم كنا نرى دعاة الدكتاتورية والنظم الفاشية أو النازية.

وغير هؤلاء وهؤلاء كنا نرى كتابا ومفكرين يدعون إلى الفكرة الدينية، وغيرهم يعلنون حربا لا هوادة فيها على الأديان والشرائع السماوية وكتب الله ورسله .

ونحن إذا ما اتجهنا ببصرنا إلى غير مصر وفرنسا، ونظرنا إلى الأمم المتعددة الشعوب واللغات والدين، لوجدنا خلافات أشد غورا وأبعد أثراً وأعمق فى نتائجها وفيما تتمخض عنه من حرب داخلية وقودها الحقد والعداوة والجهل، فهل منا من يستطيع أن ينسى ما وقع وما يقع فى كثير من البلاد باسم النعرة الجنسية، أو هل نسينا الحروب الأهلية فى مختلف أنحاء العالم وعلى ممر الدهور بين السود والبيض. أفلا نزال نشاهد إلى اليوم فى بلاد تزعم أنها وصلت إلى أقصى درجات الحرية والرقى تفريقا بين الشعوب، كأجناس بذاتها لا يجوز لها الدخول فى بعض المحال العامة لأنها مقصورة على غيرهم .

لست أود أن استطرد فى هذا الحديث لأنه مؤلم مرير، ومن شأنه أن يثير ذكريات ليس من الصالح إثارتها أو تحريكها، ولكننا أردنا فقط أن نشير إلى أن الشعوب والأمم لا يزال بينها وبين بعضها فوارق أساسية تقتضى أجيالا وأجيالا فى سبيل تذليلها، وأننا لم نصل بعد فى هذه الناحية إلى درجة يمكن الاغتباط بها أو الرضى عنها، فاتحاد الثقافة لايزال بعيدا بل أبعد مما تتصورون، فإذا قلت إننا فى طريق بناء اتحاد عالمى، فإنما نظرت فقط إلي تطورات العالم مدى الدهور، وأردت أن أقول إن اتجاه التطور الحديث من شأنه أن يساعد على وضع حجر جديد فى أساس العالم الجديد، أما الوصول إلى تحقيق الغاية فأمامه طريق طويل وطويل جداً، بل ومحفوف بأشد المخاطر والأهوال.

هاتان الناحيتان اللتان يمكن النظر منهما إلى تطور العالم نحو ثقافة عالمية، ولكن قد يرد بالخاطر أن المقصود بثقافة إنسانية فى هذا المقال ليس الثقافة العامة، بمعنى أنها تعم جميع الأجناس، بل المقصود هو الثقافة الإنسانية، أى التى تبنى على الإنسانية الرحيمة، وفى هذا أيضا نجد العالم يتطور نحو المبدأ الإنسانى، فما نراه فى البلاد الراقية من عناية بالمرضى ومن مكافحة للأمراض ومن رعاية للطفولة ومن رحمة بالشيخوخة ومن إعانة للعاطلين ومن تأمين للعمال ومن ملاجئ لإعالة المحتاجين وإغاثة المصابين، كل تلك أعمال إنسانية تتبارى الأمم الراقية فى السبق إليها والتنويع منها لا فى بلادها فحسب، بل خارج بلادها أيضا. فالعالم فى سبيل التدرج إلى أمثلة عليا كريمة فى هذه الناحية، وما على الباحث إلا أن يقرأ المشروع الانجليزى أو المشروع الأميركى اللذين أشرنا إليهما ليعرف كيف تتضامن الإنسانية وتكافح لضمان الرخاء والسعادة لجميع أبناء الأمة يستوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم، جاهلهم وعالمهم، صحيحهم وعليلهم، شيبهم وشبانهم، فهم جميعا أبناء الوطن، وهم جميعا جديرون برعايته وحنانه وعطفه.

ولكنا نرى من نافذة أخرى أهوال حرب هائلة تزهق فيها الأرواح بلا حساب، فالفتك والتدمير والتخريب والتقتيل وإيقاع الأذى على الأطفال والشيوخ وعلى المدنيين الآمنين فضلا عن المحاربين، بعض سلاحها، فنحن إذا ما نظرنا إلى تلك الصفحة وجدنا البشرية بأكملها وهى لا تزال فى دور الفطرة الوحشى، ونحن لا نزال أبعد ما نكون عن تحقيق المبادئ الإنسانية الرحيمة .

ونحن إذن حيثما قلبنا وجوهنا وجدنا لتطورنا الثقافى وجهين متقابلين : أحدهما ضاحك باسم يجذبنا إلى السعادة والرقى، والآخر عابس محزن ينذرنا بما ينتظرنا من مصاعب وأهوال. وإنى لأرجو أن يعمل الجيل القادم على أن يتغلب جانب الخير على جانب الشر، وأن يساعد كل منا مهما قل نصيبه فى العمل على أن تكون جهوده فى هذا المعترك العالمى وجهة إلى تحقيق ثقافة إنسانية رحيمة تؤلف بين القلوب، وتعلى كلمة الحق والعدل ، والله يهدينا سواء السبيل .

مايو ١٩٤٣

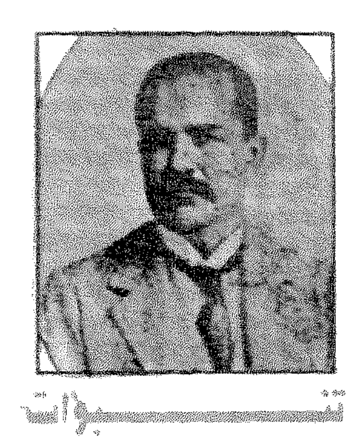
مصر والعالم سنة ٢٠٠٠

تنبؤات

فى السياسة والعلم والفن والاجتماع

لمنشىء الهلال وطائفة من رجال مصر المعروفين

عثرنا فى أوراق منشىء الهلال على مذكرات كتبها فى سنة ١٩٠٠ وتنبأ فيها بما سيكون عليه العالم ومصر حينما تحل سنة ٢٠٠٠ الميلادية وماقد يجد فى خلال القرن العشرين من مخترعات وفنون وعلوم ، وماسيقوم من نظم وأوضاع . وقد رأينا أن نشرك فى هذا البحث طائفة من خيرة رجال مصر المعروفين فى السياسة والعلم والفن والاجتماع



نبوءات
جرجي زيدان

يقرر كثير من المفكرين السياسيين أن عهد الدول الصغيرة انقضى ، وأن المستقبل سيشهد نظام «تكتل الدول» الذى يدمج الدول الصغيرة المتقاربة فى أجناسها وأصولها وأوضاعها فى «كتلة» كبيرة . وفى منشىء الهلال ويقول :

ينقسم العالم المتمدين بعد مائة سنة ، حسب الأجناس ، دولا قليلة . فدولة اللاتين تضم فرنسا أسبانيا وايطاليا . ودولة الجرمان تضم العناصر الألمانية المبعثرة فى أوربا . ودولة الروس وتنضوى تحتها الدول السلافية فى أوربا ، وتكون الصين واليابان دولة واحدة ، وهكذا ..

فى بداية هذا القرن كانت الجمهورية راسخة الدعائم فى فرنسا ، والامبراطورية موطدة الأقدام في المانيا .. ولكن منشىء الهلال تنبأ حينذاك بزوال الجمهورية الفرنسية والامبراطورية الألمانية فقال :

تنقلب جمهورية فرنسا وتصير ملكية ، وقد تصير امبراطورية وتصير المانيا جمهورية بسبب انتشار الاشتراكية فيها

وكذلك الولايات المتحدة الامريكية تنقلب من الجمهورية الى الملكية

لم تكن فكرة الوحدة العربية منذ أربعين سنة قد خطرت لأحد من كتاب البلاد العربية أو زعمائها ، فقد كانت كل دولة عربية فى شغل وهم بأمورها الخاصة ، ولكن بصيرة جرجى زيدان أنبأته بأن هذه الدول المشتتة المتباعدة ستتقارب وتتكتل يوما ما فقال :

★ تتم الجامعة العربية بين الشعوب العربية ، فتتحد مصر والشام والعراق وتكون دولة عربية ولكنها قد لا تصل الى هذا القرن العشرين ، بل فى القرن الذى يليه مصر ، كيف يكون أمرها سنة ٢٠٠٠ ؟ . هذا بعض ما رآه فيها منشىء الهلال من الأنظمة والمنشئات التي تم تحقيقها فى النصف الأول من القرن العشرين :

★ حكومة مصر نيابية ومجلس نوابها يمثل كل مافيها من الملل والمذاهب .

★ الازهر يدرس جميع العلوم العصرية واللغة الانجليزية .

★ للسيدات ناد اسمه نادى قاسم أمين .

★ السفر بين مصر والاسكندرية بالطائرة ، وبين مصر وأوربا بالبالون .

★ فى القاهرة مستشفى للراديوم يعالج فيه مرض السرطان .

★ تبنى المساكن على الطراز الفرعونى ، وتقوم بجوار الاهرام «فيلا» من هذا الطراز تعرف «بفيلا» فرعون .

★ تكثر الواحات فى صحارى مصر ، مثل واحة «هليوبوليس»

★ تقوم فى مصر مصارف «بنوك» وطنية ويقبل المسلمون على التعامل معها .

★ تقوم فى هليوبوليس جامعة تدرس فيها جميع العلوم ويحاضر

فيها أساتذة من جميع الاجناس.

★ تستقل سورية كما تستقل مصر وتنشأ بينهما سكة حديدية .

فهل يتم فى النصف الثانى من القرن العشرين تحقيق ما فى نبوءات جرجى بك زيدان عن نواحى النشاط ومرافق الحياة فى مصر؟؟

★ يبلغ عدد سكان مصر خمسة وعشرين مليون نسمة .

★ الدكتور محمد يبحث عن ميكروب الفرح وميكروب الحزن .

★ الدكتور مصطفى يجرى عملية نقل أعضاء الجسم البشرى من شخص الى آخر .

★ الدكتور ابراهيم يبحث فى أعصاب النبات وقوته العاقلة .

★ تصدر فى مصر مجلة خاصة بالعلوم باللغتين العربية والانجليزية .

★ وتصدر جريدة عربية يعرف المشترك فيها أخبارها لا بقراءتها بل بطريق التليفون .

★ يجلس المرء فى بيته مع زائريه ، ويشاهد ويسمع التمثيل بالسينما توغراف الناطق .

★ يسافر الناس من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح بالسكة الحديدية الكهربائية ومن القاهرة الى طوكيو بالبالون .

★ تنشأ فى الخرطوم جامعة مصرية وكذلك مستشفى للبحث فى أمراض السودان .

★ عثروا فى أرض اليمن على آثار مدنية قديمة متصلة بمدنية الفراعنة .

★ أنشىء فى القاهرة مجمع علمى أطلق عليه اسم «مجمع البحث عن مفاخر الشرق القديم »

إذا تذكرنا ما كانت عليه صورة الحياة ومتجه التفكير فى بداية القرن الحالى ، أدركنا كيف كان منشىء الهلال صادق الحس نافذ البصيرة ، حين رسم صورة للمستقبل المحجوب فأخرجها قريبة مما عليه الحال ، أو مما يجرى فيه التفكير ، فى هذه الأيام ..

الزواج : بالتراضى بين الزوج والزوجة . وبعقد مدنى يجوز إلغاؤه . ويجب على الشاب والفتاة أن يقدما عند الزواج شهادة طبية تثبت خلوهما من المرض ، ولايتم الزواج دون تقديم هذه الشهادات . وتنشىء الحكومة مكتباً خاصاً لفحص الشبان والفتيات مرة فى كل سنة ، وتقيد نتيجة الفحص فى سجلات الحكومة ، حتى يعرف الطبيب عند اعطاء الشهادة الامراض التى تعرضوا لها

الحكومة : تتولى كل الاعمال العامة على المبدأ الاشتراكى ، ويدفع كل انسان مبلغاً ينفق منه على المصلحة العامة .

المدارس : يتعلم فيها التلاميذ كافة العلوم حتى الطب والقانون ، وان لم يكن القصد تخريجهم أطباء أو قانونيين .

المرأة : حر تخرج فى الأسواق، وتتعلم وتتوظف وتتاجر وتحارب كالرجل .

اللغة : لغة عامة للعالم كله .

النقود : مثل اللغة ، ستكون نقوداً دولية .

البريد : طوابع البريد دولية ، وتكون الرسائل مثل أسطوانات الفونوغراف ، فيسمع المرء صوت صاحب الرسالة .

الملابس : كساء بسيط واسع . صندل فى الرجل وقبعة على الرأس للوقاية من الشمس ويختارون فى الالوان مايوافق الفصول والنهار والليل .

المساكن : تقام فى الهواء الطلق . وهى بسيطة التركيب قليلة الاثاث . وتغرس حولها الاشجار ذات الزهور والثمار النافعة للصحة .

فى كل بيت غرفة للتليفون باللاسلك . ويمكن بواسطته محادثة الناس ورؤيتهم كذلك . مطبخ البيت ومغسلة يدران بالكهرباء .

الطعام : الرجوع الى الطبيعية ، أى الاكثار من أكل الخضر والفاكهة والتقليل من تناول اللحم .

الرياضة : لابد من الرياضة البدنية مدة معينة فى كل يوم . ويعمل الانسان نصف النهار ويقضى نصفه الثانى فى النزهة والقراءة .

التجارة : تمتلك دكاكين التجارة جمعيات تعاونية ، يشترك فيها كل رجل وكل امرأة بسهم أو عدة أسهم . وتتصل هذه الحوانيت بالمنازل بواسطة تليفون بلا سلك.

الانارة : تنار المدن بالمصابيح الكهربائية ، وذلك على نفقة الحكومة أما البيوت فتنار بالكهرباء على نفقة سكانها .

معاملة المجرمين : بالتطبيب فى المستشفيات لابالحبس فى السجون

الطب : يعدل الاطباء عن العقاقير الا قليلا . ويكشفون عن العلل الداخلية بأشعة رنتجن فيرون الاعضاء والاحشاء واضحة وكل مايصيبها ظاهر . وتجرى العمليات الجراحية بكل يسر وسهولة . ويجريها الناس فى منازلهم بعضاً لبعض . أما طبيب العائلة فيبقى مرتبه محسوباً طالما لم يكن فى العائلة مريض ، فاذا أصاب أحد أفرادها المرض انقطع مرتبه حتى يشفى المريض .

الميكروبات : اكتشفوا لكل مرض جسمى أو نفسى ميكروباً ، فللفرح ميكروب ، وللحزن ميكروب ، وللذكاء والغباوة ، والاخلاص واللؤم ، والنشاط والكسل لكل منها ميكروب . ووجدوا لكل مرض مصلا شافياً ، حتى أمراض النفس مثل الحب والبغض ، وجدوا لكل مصلا يعالجها ويشفيها .

العلم : يبحث العلماء عن وسيلة لاطالة الحياة باستبدال الأعضاء التى هزلت أو شاخت بأعضاء أخرى قوية أو شابة . وقد رضى أحد العلماء بأن يضحى بنفسه ليجرى عليه زملاؤه عملية إبدال الأعضاء . وبنى تضحيته هذه على أنه لا بد من مكافأة فى الدنيا الأخرى ، وأن هذه الدنيا لم تخلق عبثاً .

الأدب : يقبل الناس على قراءة رواية بطلها مكتشف جديد لمادة تطيل الحياة ، واستخرجت بواسطة أشعة الراديوم ووجدوا لها تأثيراً على الأحياء ، فصنعوا منها مصلا سموه «مصل الحياة»

الملاهى : تقام خارج المدن وعلى نفقة الحكومة . وتتقاضى الحكومة مقابل ذلك من كل فرد ضريبة سنوية تبيح له التفرج على جميع أنواع الملاهى .

الطائرات : تبنى طائرات ضخمة كالبيوت ، فيسكن فيها الانسان وهى رابضة على الارض ، وتطير به عند الحاجة حاملة جميع أفراد أسرته ومن يريد من الاصدقاء فضلا عما تحمله من معدات المنزل والسكنى ، وفى هذه الطائرات أجهزة التليفون والتلغراف بلا سلك ، والمرآة السحرية التى يرى فيها الراكب المشاهد البعيدة .

وتخترع مادة ترم بها الطيارة من بعد ، فتوقفها عن المسير لتمنع فرارها بالهاربين ...

الرياح والشمس : فرغ الفحم من الدنيا فاستخدموا حرارة الشمس بدلا منه . وكذلك استخدموا الرياح فى توليد القوى المحركة .

هذا ماتنبأ به المرحوم جرجى بك زيدان منذ ٤٣ عاماً ، وقد



تنبؤات محمد على علوبة باشا

تحقق بعضه ، وبقى البعض الآخر وقد يتحقق كما تنبأ سنة ٢٠٠٠

★★★

وإليك نبوءات بعض رجالنا وكتابنا المعروفين ، وقد تناول كل منهم جانباً من الحياة العامة :

أنظمة الحكم

اذا جاز لنا التنبؤ بما ستكون عليه حال الحكومات حينذاك ، كان لزاما علينا أن ننظر الى الماضى والحاضر لنستشف منهما ما عسى أن يكون فى المستقبل ، على أن الأمر فى منتهى الصعوبة، فهناك فرق عظيم بين مايجب أن يكون وبين ما نتوقع أن يكون عليه الامر فى سنة ٢٠٠٠ .

والذى يمكننا أن نتوقعه ، هو أن الانسان قد ارتقى فى عقله وثقافته ، ونشعر أن الحرية وكرامة الانسان متلازمتان مع تعليمه وتهذيبه . بما أن الانسان فى الوقت الحاضر قد ارتقى وأحس بضرورة حريته وكرامته ، فانا نتوقع أن ينتشر هذا العلم والتهذيب بفضل سرعة تبادل المنافع بين الامم وتنظيمها وشيوع المؤلفات والاخبار العامة بين أفراد الناس . وفى هذا فأل حسن فى نمو فكرة الحرية والكرامة ، وبالتالى فى منع الاستبداد ، ونمو فكرة الديمقراطية . وينجم عن هذا أن ترسخ فكرة الحياة الدستورية البرلمانية فى الامم ، وأن تهذب حتى تحقق الحرية الكاملة لافراد كل شعب ، وأن تتسع أنظمة الديمقراطية الى الدرجة التى بها تتحقق اللامركزية فى أقاليم كل أمة ، وأن يكون كل اقليم مكلفا بشؤونه الخاصة وألا يطلب من الدولة الا ما كان متعلقا بالشؤون العامة كحفظ الامن فى الخارج مع الارشاد والمراقبة فيما تقوم به أقاليم كل مملكة .

هذا الى أن العالم يسير الآن بخطى واسعة فى سبيل العلم والاختراع ، مما ينجم عنه ايجاد وسائل الرفاهية وراحة الانسان في حله وترحاله ، وابتكار الادوية التى تقى الانسان من أمراض لا زالت مستعصية أو تشفيه من هذه الامراض .. فاذا تم ذلك كما نتوقعه كانت الحياة فى كافة مناحيها فردوسا للجنس البشرى . كانت الحياة عيشا هنيئا ، وصحة قوية في العقل والبدن ، وتهذيبا وتثقيفا وادارة حكيمة غير قائمة على حرية الفرد وكرامته .

انما يجب ألا ننسى مفاجآت قد تكدر صفو هـذا الرجاء . لاننسى أن ارتقاء الانسان في تلك المناحى التى نتوقعها ونرجوها ، قد يدعو الى كثرة عدد ساكنى الارض وتنوع حاجياتهم وكثرة مطالبهم ، فيزداد ويتضاعف سكان الارض على نحو قد يتعذر معه ارضاء مطالبنا والارض شحيحة ان كانت واسعة الارجاء من زمن مديد . وتكفى لتعذيبهم وتبادل المنافع فيما بينهم ، فانها قد تضيق يوما ما عن أن تؤدى هذه المطالب وتنضب ينابيعها المختلفة بعد أن تكون غير قادرة على أن تمد الناس بأسباب الرزق وخيراتها الكاملة ، فقد يقل الفحم

فى ناحية ما ، وينضب البترول من ناحية ما ويتلاشى الحديد فى بقعة ما .. وقد تقل المحاصيل عن أن تغذى الكثرة من الناس ، فتدب فى بعضهم روح الغيرة وفكرة الاعتداء فتنشب الحروب للرزق والقوت ، بل للحياة . والانسان مهما ارتقى وتهذب وسعى الى العدل والاخاء ، فان الحيوانية لازالت كامنة فيه ، وعند الحاجة يرجع الى حالته الاولى من الفتك والقتل والنهب والتخريب .

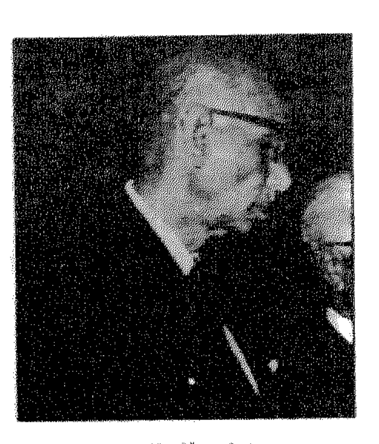
ولطالما سعى المفكرون والحكماء والفلاسفة فى منع هذه الحروب والتذكير بوجوب ارتقاء الانسانية وبعدها عن الاعتداء وبراءتها عن الوحشية .. ولكن الانسان هو الانسان ، ولم يثبت لنا التاريخ فى أى زمن من الازمان ان الانسانية قد بعدت عن هذه الوحشية التى يسمونها ضرورة للبقاء أو للمجد . ومتى كانت فكرة الحروب قائمة بين الناس من يوم الخليقة الى الآن ، وأصبح من العسير بل من المستحيل منعها ، فانا نخشى أن تتكرر هذه الحروب وأن يساعد العلم على شدة الفتك والتخريب .

فاذا وقعت كوارث وقامت حروب فى المستقبل بين أمم الارض ، قوامها العلم والاختراع انقلب نظام العالم وفنيت شعوبه وتخربت بقاعه فينقلب النظام الاجتماعى والادبى بنظام لا نعرف كنهه الآن وقد يكون ديكتاتوريا ، أو استبداديا فظيعا ، أو عبودية أمم بأسرها تحت أقدام الظافرين . فاذا قامت هذه الفوضى ، وقام التقتيل والتخريب ، وانحطت المروءة وضعفت الأخلاق الكريمة ، لم يصبح للمنطق مجال ولا للتنبؤ مجال ، ولا لسير الامور نظام مستقر ، وأصبح الظلم والقوة قاعدة بين الامم ، فتتلاشى الآمال فى تحقيق الديمقراطية وتحقيق العدل ، ويرجع الناس بعد ذلك الى همجية تنقلب فيها الارض من فردوس الى جحيم

فعلى المسئولين فى توجيه الانسانية البشرية ، أن يقودوها الى مافيه خيرها ورقيها ورفاهيتها ، وأن يحسنوا قواعد العدل وتطبيقها بين الاقوياء والضعفاء . بغير هذا لا يكون للانسانية وجود وينقطع كل أمل فيما نرجوه لرفعتها عن طريق العدل والضمير الانسانى السليم

حياتنا الاجتماعية

اذا أردنا أن نتعرف الحياة المصرية فى نواحيها الاجتماعية



تنبؤات
محمد العشماوى بك

المستشار الملكى لوزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الاشغال

فى سنة ٢٠٠٠ وجب أن نتعرف نوع المجتمع الذى رسمته البلاد وعملت لتحقيقه ، وما اتخذت لذلك من وسائل ، ومارصدت له من أموال ، وما وقفت عليه من جهود ، ويخيل الىّ أن برنامجا مقررا للوصول للمجتمع المثالى لم يوضع للآن . صحيح أن الرغبة فى الاصلاح قد قويت والدعوة اليه قد ارتفعت من كل جانب ، وان بعض مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى قد فكر فى الاخذ باسباب علاجها ، ولكننا لا نزال فى دور البداية أو طور التفكير ، فلم نضع خطة

ثابتة وليدة دراسة شاملة . ولاتزال مشـــروعاتنا فى الاصـــلاح الاجتــماعى مرتجلة ، وجهودنا متفرقة . ولذلك أخشى أن يأتى عام ٢٠٠٠ ولم نتقدم كثيرا فى الوصول الى الاهداف الاجتماعية السامية فنصف قرن ليست مذكورا فى حياة الامم . اذا جرى التطور فيه بخطوات بطيئة ، بعد المدى بيننا وبين غاياتنا فى الاصلاح الاجتماعى بما يتجاوز سنة ٢٠٠٠ بكثير على أنى أعتقد أنه سيكون للحرب وكوارثها ومعضلاتها ، ما يحفز الامة المصرية متأثرة بالتيار الجارف الذى ينتظر أن يجتاح العالم عقب انتهاء الحرب - الى أن تقيم أسس مجتمع سليم يصمد للاحداث ويتمشى مع هذا التطور العنيف . فان صح اعتقادى ، ولم ينسنا هدوء السلم ضجيج الحرب، أمكننا أن نصل في النصف قرن المقبل الى نتائج بعيدة المدى فى حياة المجتمع المصرى . وأخصها تحقيق العدالة الاجتماعية فى أروع صورها متأثرة بمبدأ التضامن والتكافل العام . فلا تكون الاغلبية الساحقة من الامة فى فقر مدقع وجهل شامل ومرض قاتل ، والمئات أو الألوف القليلة فى ترف من الحياة ، والمعرفة والصحة ، والغنى ، بل تتقارب الفوارق بين الطبقات ليتحقق التوازن الاجتماعى ويتناسب الانتاج القومى مع عدد السكان ، فيتوافر للفرد مورد من الرزق يتناسب مع حياة انسانية كريمة ، ويمكنه أن يأخذ من الحياة بمقوماتها .

كما أنتظر فى سنة ٢٠٠٠ أن تزول الامية تماما وأن نحتفل بتشييع جنازة آخر أمى احتفالا قوميا رائعا ، وأن يكون التعليم العام ميسرا للجميع وبالمجان ، فحاجتنا للتعليم كحاجتنا للماء والهواء . وأن تقوم الاسرة على أساس مكين من التضامن فيحد من فوضى الطلاق وتعدد الزوجات بحيث تصبح هذه الرخصة مقصورة على مواجهة ضرورة اجتماعية لا وليدة المتعة والهوى والعابث .

وأشغل ما يشغلنى مصير المرأة المصرية وحالتها فى سنة ٢٠٠٠ ، فما تزال الى اليوم على مفترق الطرق ، قطعت شوطا بعيدا فى الثقافة وأصبحت عنصرا فعالا فى الحياة المصرية الاجتماعية . ولكن أغلب الظن أنها لم تنته الى رأى فى رسالتها فى الحياة . فقد بـــدأت تطالب بالمساواة ، والمساواة فى الامور العامة حق من حقوقها فى المعرفة العليا لامرية فيه . وبقى نوع الميدان الذى يجب أن نعمل فيه .. واعتقادى أنه لن يأتى عام ٢٠٠٠ الا وقد تبين للمرأة المصرية ان مزاحمة الرجل فى ميدانه أمر لا ينفعها ولا يشرفها ولاينفع البلاد ، وأنه خير لها أن تعتصم بملكها غير منازعة فيه ، وأن تعمل فى ميدانها على تربية الجيل ، فذلك مايرفعها الى مرتبة الخلود .

تنبؤات
عبد الله بك أباظة

السكرتير العام لوزارة التجارة والصناعة .

حياتنا الاقتصادية

بلغ عدد سكان مصر فى سنة ١٩٣٧ حوالى ١٦ مليون نسمة ، لما كان متوسط الزيادة السنوية قد بلغ فى الثلاثين سنة الاخيرة ٢ر١٪ . فانه ينتظر أن يكون عدد السكان فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٢٧ مليونا .

واذا كانت مساحة الاراضى الزراعية لاتزيد فى الوقت الحاضر على ستة ملايين من الافدنة تقريبا ، ولا ينتظر أن تزيد فى سنة ٢٠٠٠ على ثمانية ملايين فدان ، فان متوسط نصيب الفرد من مساحة الاراضى المنزرعة سيهبط من حوالى التسعة قراريط كما هو الآن الى الستة فقط . ومن ذلك يتبين مقدار تفاهة ما يصيب الفرد من غلة الارض مهما قيل فى امكان الزيادة فى خصوبتها وانتاجها ، أو فى المساحة المنزرعة منها . ويدعو ذلك حتما الى وجوب تنمية موارد البلاد صناعيا وتجاريا ، والى استخراج مافى أرض مصر من كنوز ، وما فى بحارها من ثروة مائية .

نحن الآن فى سنة ٢٠٠٠ ، وقد أنارت الكهرباء المولدة من خزان اسوان جميع المساكن النظيفة التى يقطنها العمال فى المدن والقرى الصناعية المنتشرة على جانبى النيل الذى يحف به «كورنيش» معبد جميل ممتد على شاطئه ، تتفرع منه طرق كثيرة تشق سبيلها وسط الصحراء الشرقية ، منسابة الى الموانىء الكثيرة المنشأة على ساحل البحر الاحمر ، وفى كل منها صناعة بحرية راقية ، وقد اكتظت مرافئها بمئات من سفن الصيد المصرية ، وسفن النقل التى بناها صناعنا المصريون ، والحركة على أشدها فى هذه الثغور . فهذه بضائع تشحن لفيضها عن حاجتنا ، وتلك مواد أولية تفرغ لتنقل الى مصانعنا ، حيث تحول الى مواد مصنوعة ننتفع بها محليا ، ونصدر الزائد منها لبلاد الشرق الاوسط .

اما حركة استغلال الكنوز المعدنية المدفونة فى صحارينا فقائمة على قدم وساق ، ومناجمنا تخرج أطنان الحديد والالمنيوم والكروم والقصدير وغيرها وغيرها . والمصانع تحول هذه وتخلق منها الكثير مما نحتاج اليه . وقد نشطت مصانع السماد والمواد الكيماوية والاسلحة والذخيرة والآلات الميكانيكية والسيارات والطائرات وصناعات الجرانيت والخزف والفخار وغيرها، وكلها تستمد قوتها من كهرباء خزان اسوان بتكاليف قليلة .

وقد أصبحنا لانرى القاطرات الحديدية والدخان يتصاعد منها ، لانها تسير بالكهرباء ناهبة الارض نهبا قادمة من السودان غادية اليه ، بعد أن تم مد الخط الحديدى بين الشلال ووادى حلفا . وكان من أثر ذلك أن استفادت صناعتنا وتجارتنا الى حد كبير ، فنقل الينا من السودان الكثير من

المواد الخام التى تنقصنا ونشأت بسبب ذلك صناعات لها أهميتها كحفظ اللحوم والفواكه ودبغ الجلود وصنع الورق وغيرها ، فضلا عن استغلال الغابات السودانية بما فيها من مواد وأخشاب .

.. وها هى ذى الطائرات تملأ الجو فى كل مكان ، وقد أصبح لنا أسطول تجارى جوى وبحرى كبير ، يربطنا بالحجاز واليمن والهند وشرقى الاردن وفلسطين والشام والعراق وغيرها ، ويعزز التبادل التجارى بيننا وبينها ويروج لانتاجنا الصناعى الغزير .

لقد أصبحت جميع هذه المرافق المالية والتجارية والصناعية فى أيدينا نحن المصريين ولا بأس من أن يعاوننا مستشارون من الاجانب فى بعض الاحوال . وقد ارتفع مستوى المعيشة عندنا بسبب ما ننعم به من رخاء وزادت أجور العمال وسما مستواهم الاجتماعى الثقافى والصحى ، ولم نعد نرى ما كانوا يسمونه «الجهل» منذ سنوات ! وأصبح كل فدان من المناطق الصناعية يقوم عليه مصنع يحوى آلاف العمال الذين انتقلوا من حياة الفلاحين الفطرية الفقيرة ، الى حياة عمالية راقية ينعمون فيها بالطعام الدسم المنظم والكساء النظيف والماء المصفى ، والصحة والعافية ، وقد زالت عنهم الامية فصاروا كلهم يقرأون ويكتبون ، ويفهمون حقوقهم وواجباتهم ، ويكونون شعبا صناعيا متعلما ناهضا قوى الشكيمة منيع الحاشية ، يذود عنه جيش كامل العدة ، وافر العدد ، مرهوب الجانب ، يرفرف عليه علم «مصر» القوية المنيعة المحصنة التى أصبحت تكفى نفسها بنفسها تضارع أقوى الامم صناعة وغنى وحضارة واستغلالا .



تنبؤات
احمد بك راسم

حياتنا الفنية

كلنا نذكر كيف تأثرت الفنون اثر الحرب الماضية فرجعت بها القهقرى وطلعت علينا ببعض نظريات حديثة ، فحلت الموسيقى «الجديدة» محل الانغام المنسجمة التى كانت تهز الروح وتطرب الفؤاد . ونزع بعض المصريين الى التحلل من قيود المادة والخطط «الكلاسيكية» باحثين عن تسجيل صفات الروح بأساليب كانت محل اعجاب البعض وسخرية الكثيرين.

ولما كان من المنتظر أن يعقب هذه الحرب تغييرات واسعة المدى

تتناول جميع الانظمة الاجتماعية والاقتصادية المتعارف عليها ، فان الفنون ستتأثر بهذا التطور كما تأثرت عقب الحرب الماضية .. غير أن هذه الحالة سيعقبها حالة استقرار تدعو اليها الرغبة فى نشر السلام والحرص على تجنب ويلات مثل هذه الحروب التى من شأنها تعكير صفو العالم .

فالعودة الى هذا الاستقرار الاجتماعى سيعود بالفنانين الى استقرار حالتهم ، مما يساعدهم على رفع مستوى الفن الى جو سحرى تحس فيه الروح هدوءا وانسجاما .

وسوف يتطور كل فن من الفنون الى ما يحقق مطالب الروح التى عانت من هذه الحرب رعبا واضطرابا ، فيقدم لها توازنا واستقرارا .

ففى الادب مثلا ترى الصحف خلوا من المقالات المطولة تورد أخبارها وتنشر على الناس ثقافتها فى أسلوب أسهل وتعبير قوى .. وفى المعمار تظهر الدور الصحية المقسمة تقسيما مريحا .. وفن الزخـــرفة يأتى بالالوان البسيطة الهادئة التى تمس الروح المضطربة فتوحى اليها الراحة والسكون .. وحتى فن الطهى تمشيا مع هذا التطور سيكون مبنياً قبل كل شىء على مايفيد الجسم من الغـــذاء من وفرة الفيتامينات ، وتستبعد منه أغلب المركبات الحـــالية التى تؤذى الصحة .

سيجد هذا التطور بعد الحرب بمدة بأشكال بدائية وطرق ارتجالية تندمج تدريجيا مع ما هو قائم الآن من نظريات . والعالم اذا سار على مانقدر يكون للناس عام ٢٠٠٠ نظام اجتماعى واقتصادى من شأنه توافر أسباب العيش بقليل من الجهد ، فيحس المرء حينذاك بقيمته ويشعر انه لايعيش ليكد كما هو الحال الآن ، وانما يعمل بعض الوقت حينذاك ويجد متسعا ليتذوق الراحة ، وتتهيأ له الفرصة للعمل على تهذيب روحه ، فتدق احساساته وتسمو أساليب الحب عنده ، وتزدهر برقى الحب سائر الفنون .. وربما يبلغ التطور بفن الحب أن يتسامى عن الغيرة ، ويكون الحب للحب ذاته .. أى أن المحب يكفيه أن يخضع لهوى الحبيب مستعذبا لذة الهوى دون مطالبته حتى بمبادلته حبا بحب ، فضلا عن الترفع عن احساسات الحب السلبية كالغيرة وما اليها ..

وستظهر فوق ما هو معروف الآن من شتى الفنون . فنون أخرى حديثة ، كفن التعامل ، فينصف الناس بعضهم بعضا اذا لايجدون هناك من فائدة وراء المعاملات الملتوية وفن جديد للسياسة ، ويبدو من الآن أنه سيقوم على الصراحة والاخلاص والرغبة فى اسعاد الجنس البشرى .. كذلك سيخلق حتما فن جديد للتهرب ، يتخلص به مثلى من الاجابة عن سؤال رئيس التحرير فى موضوع متشعب كهذا يتناول كافة الفنون .

نساؤنا

فى آخر القرن العشرين

بقلم : الآنسة ابنة الشاطىء

ستتمرد المرأة المصرية على الدنيا التى بناها الرجال ، وتصر على أن تشترك فى بناء العالم من جديد .. وسيراها القرن الحادى والعشرون قد فتحت بابين موصدين اليوم أمامنا : أما الأول ، فهو باب الأزهر . وأما الثانى فهو باب البرلمان .

طالبات مدرسة السنية فى أوائل القرن العشرين

لم يخطر هذا الموضوع على بالى قبل أن تقترحه علىَّ مجلة الهلال الغراء : لقد كنت من بين أفراد الطليعة الضاربة فى تيه الانتقال ، فشغلتنا أهوال التيه عن التفكير فى الأمس كيف كان ، والغد كيف يكون، حتى اذا أتممنا الرحلة ووصلنا الى آخر الشوط، وقفنا نصغى الى أنين الضحايا ممن تخلفهن عن الركب وسقطن صريعات فوق الصخور والاشواك والرمال ، فأمست أشلاؤهن معالم هادية فى الطريق المظلم الوعر ، وغدا حطامهن جسرا آدميا رهيبا تعبر عليه المرأة المصرية من الجهالة العمياء الى نور العلم والعرفان .

وعسير على من سمع هذه الاشلاء النائحة ، ورأى ذلك الحطام المنهار ، أن تشوقه رؤى الغد ، ويطيب له الحديث فى المستقبل ، اللهم الا أن يعصمه جمود الحس ، وتتهيأ له نعمة النسيان ، وهيهات ! ..

فليكن حديثى اليوم مرثية للشهيدات المجهولات ، وتحية لاشلائهن الممزقة ، وحطامهن المنهار !



نساؤنا بعد نصف قرن من الزمان

ماذا يكون من أمرهن ، والى أين تنتهى بهن هذه السنون الطويلات ؟ !

انها رحلة مطوية فى ضمير الغيب ، يشق السير فيها بغير دليل ، فليكن لنا دليل من ماضينا القريب ، ولنعد الى الوراء نصف قرن ، لنرى ما فعلت بنا الايام ، فى هذه الحقبة من الزمان .

نحن الآن فى عام ١٩٠٠ على التحديد ، وقد توقفت عجلة الحياة فى مصر برهة ، لان أهلها وقفوا يتفرجون على فتاة مصرية واحدة ، نالت الشهادة الابتدائية فى ذلك العام ، لأول مرة فى تاريخ البلاد .

ونشر « المؤيد » فى تلك المناسبة ، قصيدة للتلميذة النابغة ، تفخر فيها بأنها « ساوت الرجال فى التعليم » .

وتمضى سنوات معدودات ، فنسمع « الشيخ عبد الكريم رئيس تفتيش المحاكم الشرعية فى ذلك الحين » يسجل ظاهرة أخرى غريبة ، اذ يروى عن شيخ مسن أنه ذهب وهو شاب الى احدى الاسواق، فعجب اذ رأى امرأة فى السوق ، « وما عهدها من قبل ذلك النهار الا قعيدة البيت » ولما قص على أبيه القصص ، قال له أبوه : « يا ولدى لا تعجب ، فإننا قربنا من آخر الزمان ! »

★ ★ ★

على أعقاب هذا الجيل ، جاء جيلنا الذى أيقظ دعوة « قاسم أمين » النائمة ، وغذى النار الخابية باللحم والدم !

ومن أبناء هؤلاء الرجال والنساء ، تألفت مواكب الفتيات المتعلمات اللائى تضيق بهن المدارس اليوم .

ومن تلك الامية السائدة ، بدأنا رحلتنا الشاقة فاندفعت جموعنا فى سرعة هوجاء ، تقتحم المدارس الاولية والابتدائية والثانوية ، حتى أدركت أبواب الجامعة ، فاقتحمتها الوف منا ، وبدأت الطلائع تستبق فى ميدان الدراسة الجامعية العليا .

وتجاوزنا - فى هذا العمر القصير - حدود الحجاب وجدران الخدور ، وأسوار التقاليد ، الى آفاق الدنيا وميادين العمل ، حتى غدت الواحدة منا يباح لها السفر - وحدها - الى اوربا وأمريكا ، والشام والعراق ، حرة طليقة سافرة ، وقد كانت أمها تشكو الحرمان من زيارة آلها وذويها ومن أداء فريضة الحج .

كل ذلك فعلته المرأة المصرية فى النصف الاول من القرن العشرين ، فماذا تراها فاعلة حين يصل بها الزمن الى آخر القرن ، وان العام الواحد من أعوام عده ليعدل قرنا كاملا من قرون ماضية ؟!

★ ★ ★

قافلتنا اليوم متعبة ، قد أثخنتها الجراح ونال منها الاعياء ، لكنها لا تملك - مع هذا - ان تنكص على عقبيها وتعود أدراجها وتستقبل من أمرها ما استدبرت ، لان ما بينها وبين ماضيها قد انقطع ، ولن ترضى أن تعود من حيث جاءت ، الى وادى الظلمات ، عبر التيه المخوف

بل ليس فى طاقتها أن تكف عن السير أو تقف لتستريح ، لانها تنزلق فى المنحدر الوعر ، والزمن

يمضى بها غير مكترث بما تعانيه .

ويرى الاكثرون أن ما بقى من هذا القرن ، كفيل بتهدئة سورة الانفعالات الحادة التى كابدتها المرأة الجديدة ، والتيارات العنيفة التى تعرضت لها فى عصر الانقلاب .

لكنى من أقلية محدودة العدد ، تستبعد أن يشهد الجيل المقبل خاتمة الصراع ، وأن تستقبل نساؤنا القرن الحادى والعشرين ، وقد اطمأن بهن المسكان فى العـالم الجـديد ، ونعـمن بالراحة والاستقرار .

ويدفعنا الى ذلك الاستبعاد أمران :

أحدهما من طبيعة الانقلاب الحاضر ، والآخر من طبيعة هذا الغد القريب الذى تندفع نحوه جماعة النساء ، اثر حركتها الجامحة فى جيلنا هذا .

لقد كان الانقلاب عنيفا عاتيا طاغيا ، زادته السرعة والاندفاع والطفرة والجموح ، عنفا وعتوا وطغيانا ، فمن البعيد جدا أن تزول آثاره وتهدأ سورته فى قطعة من الزمان ، هى بطبيعتها أبعد الاوقات عن الهدوء المحتمل والاستقرار المظنون ، لانها – فى ذاتها – ستكون عهد ثورة جامحة وانقلاب خطير فى تاريخ البشرية ، حيث تشهد نتائج النضال الهائل الرهيب ، الذى يحتدم اليوم بين أعنف قوى شهدها الانسان فى ماضيه الطويل

أسمـع من وراء السـحب ، نـذر عاصـفة هـوجـاء ..

وألمح على أفقنا البعيد ، ثورة عاتية صماء ..

ولن ندرك نحن هذه الثورة ، لكنى أحس بوادرها تضطرم وتضطرب فى كياننا فمنا من تنكر هذا المنهج الضار الذى ارتجله الرجل لحركة الخروج ، والاسلوب الشاذ الذى اصطنعه فى معاملتنا بعد أن تميزت شخصيتنا ونضج كياننا .

أليس من الغريب انه علمنا كل شىء ، الا ما يمس حياتنا فى الصميم ؟

علمنا الطب والفلسفة والصيدلة ، ولم يعلمنا بناء الأسرة !

وحدثنا عن ألغاز الرياضيات وأسرار الطبيعة والكيمياء ، ولم يحدثنا بكلمة واحدة عن شخصية الانثى كما رسمتها السنن الطبيعية ، والاوضاع الانسانية ، والحدود الشرعية !

وفتح أمامنا أبواب معاهد الطيران والتجارة والتمثيل ، وأغلق دوننا أبواب المعاهد الدينية ، وانه ليعلم أننا فى بلاد شرقية اسلامية ، يستقل الدين فيها ، برسم نظام الأسرة ووضع حدودها ! ويفصل « القاضى الشرعى » بين أفرادها فى أمور الزوجية والبنوة والحضانة والنفقة والميراث .

ثم ، أليس من الغريب أن ينكر الرجل اليوم أمرنا ، بعد أن استجبنا لما أراد ؟ وأن يحاول ردنا الى مكان أمهاتنا وجداتنا ، وقد انقطعت بيننا وبينهن السبل ، وهـو الذى دعـا ووجـه وحـرك وأراد !

ألا لا يحسبن الرجال أن المرأة سوف تسكت على هذا ، وتترك مصيرها ، معلقا بكلمة تخرج من أفواههم ، وتدع ابنتها – من بعدها – تتعثر فى ذلك الضلال ، وتواجه تلك الاعاصير والانواء .

★★★

بيننا وبين القرن الحادى والعشرين ، حقبة طويلة من الزمان ، تقطعها الحياة فى مرحلتين ويمر بها جيلان متعاقبان .

والمرأة فى الجيل الاول ، هى التى تعانى آثار الاخطاء الكبيرة التى لابست الحركة الحاضرة ، وتتعرض لأزمة نفسية قاسية عصيبة .

ثم تأتى ابنتها من بعدها ، فتعلن الثورة وتشعل النار ..

ستثور فى امرأة الجيل المقبل ، فطرتها الموروثة وتحاول أن تنأى بها عن صخب العمل ، وغبار المعترك ، وضجة الميدان ، مدفوعة الى ذلك بقوة قاهرة من ميراثها العصبى والنفسى ، الذى انحدر اليها من أمهـاتها ، على مر الحقب والدهور .

لكن هذه الفطرة الثائرة ، سوف تصطدم فى كيان المرأة ، بعقلها الحديث ، وشخصيتها الجديدة التى تنأى بها عن الجمود والتعطل وتهفو إلى الحركة والنضال مدفوعة بقوة غالبة من ثروتها المستحدثة التى كسبتها فى عصر النور والعرفان !

وسيكون كيان المرأة ، ميدان هذا الصراع : بين فطرتها السليمة البارئة ، وعقلها الناضج الممتاز .. بين ميراثها النفسى والعصبى القديم ، وثروتها العقلية الجديدة .

ويطول النضال حتى يستغرق الجيل الآتى كله، ثم تكون الغلبة أخيرا للعقل ، وتلك هى كلمة الزمن وحكم التطور ..

يومئذ تندفع المرأة ، فى أواخر القرن العشرين بقوتها الطارئة ، فى ثورة عاصفة ، تشعل نارها بيدها الناعمة ، وتذكى لهيبها بالاعصاب والدماء !

وسوف تبدأ هذه الثورة ، بالخروج على الدنيا التى استقل الرجال ببنائها يوم كانوا وحدهم فى الميدان ، ثم يريدون اليوم أن يفرضوها على المراة الجديدة ، التى خرجت وتعلمت وعانت وتميزت وطمحت !

ستتمرد المرأة على الدنيا التى بناها الرجال ، وتصر على أن تشترك فى بناء العالم من جديد

وستنتزع منهم زمـام القيـادة فى الحركة النسائية ، لانها ستسمع فى مهدها قصة الرحلة العمياء ، والسباق المرتجل ، والانوثة الحائرة المضيعة ، والرجـولة التى كشفتها المعركة ! حتى اذا بلغت أشدها ، اندفعت ثائرة متهورة تثأر لامها وتحمى بناتها ، وتنتزع الزمام من أيدى الرجال ، لتجنبهن الاشواك والصخور ، وترسم لهن منهجا واضح الحدود ، بين المعالم متميز الاهداف

وهى لن تتردد - فى سبيل هذا - فى دفع أى ثمن ، وخوض أية معركة ، واقتحام أي ميدان ..

ستمضى فى الطريق الوعر الى النهاية ، وسيراها القرن الحادى والعشرون قد فتحت معقلين موصدين اليوم أمامنا

أما الاول فهو باب الازهر ، تدخله عنوة ولو كره الرجال ، لتفقه الحدود الشرعية وتنتفع بها ، وتفسرها تفسيرا تراعى فيه مصلحتها كما فعل الرجل من قديم الزمان .

وأما الثانى فهو باب البرلمان ، تدخله اثر معركة رهيبة تستشهد فيها الانثى ، لتشترك فى



الآنسة ابنة الشاطىء

توجيه الحياة الحديثة ، وبناء العالم من جديد .

ويومئذ قد يثور الرجال ويسخطون وينكرون ، ويحاول نفر منهم أن يرد (المرأة الى رشدها) ويوقظ فطرتها النائمة .

ولكن الزمن سوف يمضي بها غير مكترث بصياح الصائحين وسخط الساخطين ، وثورة الثائرين !

ولن تبرأ هذه الحركة العنيفة من الاخطاء ، ولن ينجو أهلها من فداحة التضحية وهول الاستشهاد، فان المرأة سوف تتهور في اندفاعها ، وتغلو فى مطالبها ، ثم يأخذها غرور الشخصية الجديدة فيفسدها على الرجل ، ويفسد عليها الحياة .

انها ستنكر عليه انه لم يتفوق على أبيه وجده ، بقدر ما تفوقت هي على أمها وجدتها ، وانه لم يحقق فى نفسه معجزة شبيهة بتلك التى حققتها هى فى نفسها ، فى قرن واحد من الزمان

ولعل خطيئته الكبرى أنه لم يثب الى السماء السابعة ، حين شارفت هى سماءه الاولى وأخيرا تفتقد الرجل فى دنياها ، وتتمثل فطرتها صورة رائعة له ، تبدو لها فى عالم المثل ، وتسعى اليها من أعماق العصور الغابرة ، وتتسلل الى كيانها فى أحلام اليقظة ورؤى المنام

ويا ويلها من هذه المحنة !

ويا ويل الرجل منها ! ..

ذلك هو طابع الثورة ، فى آخر القرن العشرين ..

ضحاياها من الرجال والنساء ، وأخطاؤها يشقى بها الفريقان على السواء ..

ان ثورة الامس قد أشعلها الرجال ، وصلى بحرها النساء وحدهن ..

وغدا تدور الايام ، فتشعل النساء النار ، ويصلاها الرجال والنساء جميعا ..

وعزاء المرأة الوحيد ، انها تستشهد هذه المرة فى سبيل هدف تعرفه ، وتمضى الى ثورتها بارادتها وقد كانت بالأمس ، تدفع الى النار معصوبة العينين !



قنبلة الغد

بقلم
عباس
محمود
العقاد

تشتهر العصور باختراع شامل أو بحركة إنسانية كبيرة يشترك فيها أكثر من أمة واحدة .

فيقال مثلا عصر المطبعة وعصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الطيران ، ويقال أيضا عصر الإصلاح وعصر النهضة وعصر الثورة الفرنسية وعصر الاستعمار .

وقد تكون هناك علاقة بين المخترعات الصناعية والحركات الإنسانية . فتكون إحداهما نتيجة الاخرى ، أو تكون هذه وتلك نتيجة عامل واحد يسيطر على العقول كما يسيطر شعور الجماعات .

ولكننا لا نعنى بالبحث عن هذه العلاقة الآن ، وإنما نعنى بالاسم الذى يمكن أن يطلق على العصر الحاضر من جانب المخترعات ومن جانب الحركات الانسانية .

فما اسم هذا العصر إذا أردنا أن نطلق عليه اسما مشتقا من أهم مخترعاته وأهم أطواره الإنسانية من قبيل ما أشرنا اليه ؟

نعتقد أننا لا نخطىء تسميته إذا سميناه من جهة بعصر الطاقة الذرية وسميناه من الجهة الأخرى بعصر الهيئات العالمية .

والعصر الذى يليه ماذا يسميه أبناؤه على هذا النمط من الأسماء ؟

بماذا نتنبأ له نحن ؟ وإلى أى حد تصدق النبوءة عنه قبل مقدمه بخمسين سنة فى زمن تكفى فيه السنة الواحدة للتغيير والتبديل فى الوقائع ، فضلا عن النبوءات ؟

نعتقد أننا فى أمان هنا من خطأ النبوءة ، وأن الأمر لا يحتاج منا إلى علم بالغيب ونظر إلى ما وراء حجاب الأطوار والاحقاب .

فاستخدام الطاقة الذرية لا يزال فى باب المقدمات ، وتنظيم الهيئات العالمية لا يزال فى باب التجارب .

فمن التقدير المأمون أن بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين ستنقضى فى إتمام تلك المقدمات وإستيفاء تلك التجارب . لأن الطاقة الذرية والهيئات العالمية كليهما أخطر وأعظم من أن تستنفدهما الجهود البشرية فى جيل واحد ، وليس بالكثير عليهما جهود جيلين متعاقبين .

●●●

لا تزال الطاقة الذرية فى انتظار التعميم والترويض ، إذ كل ما ظهر منها حتى الساعة أن دولة واحدة قد استخدمتها فى معركة حربية ، فهل هذا كل ما ينتظر من غرائب الطاقة الذرية ؟ وهل ينتهى عصر التجديد فى استخدام هذه الطاقة بانتهاء العصر الحاضر ؟

إننا بغير حاجة إلى النبوءة أو إلى التعب فى التقدير والتخمين – نستطيع أن نجيب بالنفى القاطع ونحن على أتم اليقين من صدق ما نقول .

لا يزال هناك مجال للتعميم .

ولا يزال هناك مجال للترويض .

فأما التعميم فمنه شيوع العلم بأسرار الطاقة الذرية بين أمم الحضارة فى المغرب والمشرق ، فلا يبتدىء القرن الحادى والعشرون حتى تصبح القذيفة الذرية سرا مذاعا بين الأمم التى اشتغلت بالعلوم الحديثة وعرفت تسخير الآلات والمخترعات .

ولا نحسب أن التعميم فى شئون الطاقة الذرية سينحصر فى شيوع العلم بأسرار قذائفها بين أمم كثيرة .

ففى الوسع أن يعم فلق الذرة حتى يشمل ذرات العناصر جميعا ولا ينحصر فى العنصر الواحد

الذى يخرج الطاقة الذرية اليوم ، وهو عنصر الاورانيوم .

أو فى الوسع على الأقل أن تنشق الذرة وأن تستخدم طاقتها فى عشرين أو ثلاثين عنصرا من العناصر الشائعة على الكرة الأرضية ، فلا ينفرد بجميع مزاياها من ينفردون بهذا المعدن أو ذاك من أشباه الاورانيوم فى تركيب نواته وكهاريه ، بل تنشق كل ذرة متماسكة فى العناصر المختارة ، لأنها لا تتماسك إلا بقوة يستفاد منها فى حالة الانشقاق .

أما الترويض - ترويض هذه الطاقة المخربة - فله طريقتان لا تزالان مجهولتين ، وليس بالكثير أن تنقضى فى علاجهما بقية القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين .

من ترويض الطاقة المخربة أن تستخدم فى التعمير والإصلاح ولا تظل مقصورة على تخريب الحصون وإبادة الأعداء .

وهى إذا استخدمت فى التعمير والإصلاح أمكن أن توفر الجهود الكثيرة التى تضيع فى استخراج الوقود والتنازع على الزيوت المعدنية وتمهيد الطرق بين الجبال أو تمهيد الأرض الصالحة للزرع والسكن بين الثلوج .

وإذا تم هذا فهو قنبلة الغد وبعد الغد إلى زمن بعيد ، ولكنها قنبلة ترد الطمأنينة إلى النفوس ، ولا تخيف .

ومن ترويض الطاقة المخربة أن نقاوم تخريبها بقوة من نوعها ومن مادتها .

والمسألة كما نعلم الآن مسألة انطلاق الأشعة وانبعاث القوة المدمرة من هذا الانطلاق .

فهل يستحيل على العقل البشرى أن يسيطر على حركة الإشعاع كما يسيطر الآن على حركة الكهرباء ؟

هل يستحيل توجيه الشعاع أو تفريغ حيز من الجو يلغى الفعل الاشعاعى بفعل معاكس أو مقاوم ؟

إن الفطنة إلى نظريات الانطلاق أو التموج اللذين يحدثان فى حركة الإشعاع قد تفتح الباب لتحويل الأمواج عن مجراها أو اجتذابها إلى باطن الأرض وأجواز الفضاء .

وهنا نحن نظن ونخمن ، ولكننا نضرب فى مجاهل المعقولات ولا نخبط فى تيه الأوهام والمستحيلات .

●●●

إن القرن الحادى والعشرين سيأتى إذن ولما يفرغ العالم من محاولاته فى الطاقة الذرية .

وستمضى بقية القرن العشرين وتهل على العالم مطالع القرن الذى يليه والطاقة الذرية هى مارد الزمن الذى يعالج البشر ترويضه ويحسبون أنهم قد ملأوا وقتهم عملا وابتكارا إذا استطاعوا بعد ذلك أن يروضوه .

ويستوى فى ذلك ترويضه باستخدامه فى أعمال التعمير أو ترويضه بترياق من نوعه يقاوم الإشعاع بالإشعاع .

●●●

ويحسب البشر أيضا أنهم ملأوا وقتهم عملا وابتكارا إذا ابتدأ القرن العشرون وهم ناجحون فى تجارب الهيئات العالمية .

فإن الهيئات العالمية اليوم توجد لأنها ضرورية ولا توجد لأنها مفلحة فى أغراضها وغاياتها .

وستظل ضرورية بعد اليوم ، وستزداد الضرورة التى تدعو اليها سنة بعد سنة وحقبة بعد حقبة .

وهذه الضرورة التى توجبها هى باب الرجاء فى دوامها وفى أصلاح أخطائها .

وقنبلة الغد فى هذه الحركة الإنسانية هى تكوين



« القوة العالمية » التى تتغلب على كل قوة منفردة .

فإذا وجدت « قوة العالم » فكل قوة مغلوبة أمامها ، وكل دولة تحاول الطغيان بأسلحتها أو بأموالها تنعزل وتنهزم .

واليوم تتألف الهيئات العالمية من دول كبيرة ودول صغيرة ، يدعوها إلى التعاون أنها لا تستطيع أن تنفرد .

ولكن هذا لا يكفى لتحقيق الغرض من الهيئة العالمية لهيئة الأمم المتحدة وما إليها .

بل ينبغى أن يكون فى الأرض « عالم » تجمعه بنية واحدة ، وتدخل فيه الدول الكبيرة والصغيرة كما تدخل الأعضاء فى الجسد الواحد .

ينبغى أن تكون فى الأرض وحدة عالمية يشد بعضها بعضا ويتألم بعضها لألم بعض .

أما اليوم فالهيئة العالمية مجموعة من أجزاء متفرقات ، لم يبلغ بها تمام التكوين أن ترتبط فيما بينها ارتباط البنية الحية ، فيؤذيها ألم الإصبع أذية يخافها الرأس والقلب والذراع ، ويخشى العضو الكبير على العضو الصغير ، ولا يحسب أنه يسخره ويؤلمه ويؤذيه وهو فى أمان من عاقبة أذاه .

●●●

خمسون سنة ليست بالكثير على هذه الوثبة فى أطوار الجماعة الإنسانية ، ولا على تلك الوثبة فى علاج الطاقة الذرية .

ولعل الدهر يجود علينا بقنبلة تفوق هذه القنبلة المدخرة فى عالم الغيب . فإنها القنبلة التى تراض بها قوة المادة وقوة الروح .

يناير ١٩٥٠

ثقافتنا سنة ٢٠٠٠

بقلم : معالى محمد العشماوى باشا

لمجلة الهلال فضل كبير فى نشر الثقافة العامة على مستوى رفيع ، سواء فى عهدها الأول أم فى عهدها الجديد ، فقدمت للمثقفين على اختلافهم ألوانا شتى من ثمرات العلوم والآداب .

وقد طلبت الى أن أتحدث عن ثقافتنا سنة ٢٠٠٠ من الميلاد ، فانتقل بى السؤال الى أفق بعيد أول وهلة ، اذ ظننت أن سنة ٢٠٠٠ بعيدة عنا ستقع فيها شتى الأحداث وتتطور الثقافة تطورا فسيح المدى .

ولكنى ما لبثت أن أدركت أن تلك السنة ستكون ختام خمسين عاما . وهى فترة قصيرة فى حياة الأمم التى لم تفرغ بعد من اعداد العدة لتوفير مقدمات نهضة جديدة بمصر فى ماضيها العريق وفى حاضرها وفى مستقبلها المرموق . وفكرت فيما قد تصل اليه مصر فى ثقافتها بعد خمسين عاما ، فقلت فى نفسى ، ان سير قافلة الثقافة بهذه الخطى الوئيدة من شأنه ألا يحدث بعد خمسين عاما أثره البعيد الذى يطمع فيه الطامعون ، فنحن منذ أكثر من مائة عام نعالج مكافحة الأمية ، ومع ذلك لا يزال المدى واسعا بيننا وبين القضاء عليها ، فما بالك اذا أردنا أن نتخلص من الأمية بكافة ألوانها : الأمية الثقافية ، والأمية الاجتماعية ، والأمية الاقتصادية ، والأمية الصحية ، والأمية القومية ، والأمية الدولية - فكم نحتاج من الزمن اذا أردنا أن نحقق هذا الهدف الذى يجب أن يكون هدف وزارة المعارف والقائمين بشؤون الثقافة والاجتماع .

ان الطريق وعرة والمهمة ثقيلة ، وخطانا لا تتفق وعظمة الرسالة ونبل الهدف . ولابد من عمل كبير يحدث انقلابا ثقافيا كاملا ، نرصد له الأموال ، ونفرض له الضرائب ونقترض له القروض ، ونجند له المثقفين كافة فنعلنها حربا نظامية وغير نظامية على الجهل ، لا تقف عند مكافحة الأمية بل ترتفع بالثقافة الشعبية الى مستوى لائق ، يخلق شعبا مستنيرا يعرف ما له وما عليه ، وينهض بأعباء النهضة على خير الوجوه ، وأن نضع سياسة للثقافة مستقرة ثابتة سريعة الخطى وتؤازرها الصحافة والاذاعة وجميع وسائل النشر والدعاية ، ويجند لها كما قلت طوائف المثقفين تجنيدا كما يجند أفراد الشعب للدفاع عن البلاد ورد عدوان المغير .

فاذا تحققت هذه الأمنية ، وسرنا قدما فى طريقنا لا يهدم الخلف ما بناه السلف ، ولا تعوق الخلافات سير القافلة ، ولا تنحرف بها النزوات عن الطريق المستقيم ، أمكننا - وأنا رجل عرف عنى التشاؤم - أن ندفن آخر أمى سنة ٢٠٠٠ ، وان يكون لنا فى كل قرية فى مصر مدرسة ريفية تخرج المواطن الصالح وتعده اعدادا ثقافيا ملائما مكملا باعداد زراعى أو صناعى على أســاس علمى سليم ، وأن تعنى هذه المدارس بالتربية الروحية والخلقية والعلمية ، وأن تشع النور فى القرية وتتغلغل فى ظلامها الدامس فتحيله نورا وضاءً ، وتدعم فيه الوسائل الصحية والدينية القومية ، وتقوم بهذه المدرسة دراسات ثقافية مسائية لأهل القرية من رجال ونساء ممزوجة بتعليم فنى ملائم ، يؤهل للجميع الحياة الشريفة المثمرة ، وأن يكون بعاصمة كل مركز مدرسة ثانوية للبنين وأخرى للبنات وثالثة للثقافة ورابعة للصناعات المتقدمة وخامسة لتعليم الزراعة على أسس علمية فنية ، تتعاون كلها على الارتفاع بمســتوى المدنية الثقافى ، فلا يرد طالب علم عن معهد ، ولا تتعلل بالأعذار لصد الناس عن العلم ، وان يكون لنا فى عاصمة كل مديرية ومحافظة جامعة تنهض بالتعليم العالى والجامعى .

وانى لأطمع أن يكون هناك جامعتان لا جامعة واحدة ، احداهما للبنين والأخرى للبنات حتى يتحقق التخصص فى التوجيه العالى للجنسين ، ويأخذ كل منهما زاده بما يتفق ورسالته ويهيىء مواهبه للبروز .. وانى اذ أطالب بتخصيص جامعة للبنات أصدر عن الرغبة فى تهيئة جو ملائم لاستغلال مواهبها وتهيئة البيئة الصالحة لتخصصها ولا أصدر عن فكرة منع اجتماع الجنسين فى التعليم الجامعى ، فهذا لا غبار عليه بل لعله من خير الوسائل لتعاون الجنسين وتقارب المستوى ، غير أن فى التخصص وسيلة لاستغلال مواهب المرأة الى أقصى مداها ، وفى حياتنا الجامعية الحالية ما يصرف كثيرا من البنات عن ارتيادها أو عن الانتفاع بحياة جامعية صحيحة ، كما أني أطمع أن يكون فى القاهرة جامعة كبرى للدراسات التى تأتى بعد مرحلة التعليم الجامعى الحالى فتوجد بيئة البحث العلمى الذى ينبت المفكرين والعلمـاء والمخترعين وقادة الرأى فى العالم ، وأن تكون هذه الجامعة الكبرى محط أبناء الشرق العربى والأمم جميعها لتأخذ من الثقافة العالية زادها فتكون جامعة عالمية تعيد الى المصريين ذكرى عظمتهم الأولى عندما كانت جامعتا هليوبوليس والاسكندرية منتجع كل راغب فى المعرفة العليا .

هذه فكرة متواضعة عما أطمع أن تكون عليه الثقافة فى مصر سنة ٢٠٠٠ من الميلاد . لا أبالغ فى تصويرها ولا أحتاج للذرة فى تحقيقها ، وانما كل ما أطالب به أن تسير سيرا حثيثا لسياسة شاملة تتعاون عليها كل قوى البلاد ، بعيدة عن خضم السياسة الحزبية وشرورها ، لا يؤثر فيها تغير الوزارات ، وأن تجند لها الكفايات دون نظر لأى اعتبار غير المصلحة العليا للوطن .

ذلك أمل المتشائم ، فما بالك اذا استقام الأمر فمستنى شيء من التفاؤل ؟



« الحضارة مقبلة الينا .. وهى حضارة مطبوعة بطابع الشرق .. فيها حياة وفيها روح ، وفيها خير للشرق والغرب جميعا »

المستقبل لنا ... !

بقلم : فضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى

العالم الانسانى كله عالم واحد ، تنتظمه خصائص وصفات تؤلف من أفراده وجماعاته جنسا خاصا ، له مميزاته بين سائر المخلوقات .. وحيث كان الانسان فهو فرد فى هذه الاسرة الانسانية الكبيرة مهما اختلفت الالسن والالوان ، ومهما تباعدت الازمان والاوطان.

وما الشرق والغرب الا اسمان متقابلان كما يتقابل الشمال والجنوب ، والخط الذى يفصل بين الشرق والغرب خط وهمى – على حد تعبير الجغرافيين – ومع هذا فقد تعارف الناس وجرى التاريخ على أن العالم عالمان : شرقى ، وغربى ، وأن لكل عالم حسابه وتقديره الخاص فى موازين الحياة

هناك اذن عالم شرقى وعالم غربى ، وفى كل عالم من هذين العالمين مجموعة من الامم والشعوب تعيش فيه وتدور فى فلكه ، وتخضع لظروف البيئة السائدة فى محيطه

والفروق التى يذكرها علماء الاجتماع بين الشرق والغرب كثيرة متعددة ، ترجع إلى اختلاف فى المزاج والتفكير ، وإلى تباين فى الصفات النفسية والخلقية التى يعود الكثير منها الى الوراثات ، والى ظروف الحياة واحوال البيئة ، وذلك مما جعل الاختلاف واضحا بين الشرق والغرب ، وجعل لكل تفكيره ومذهبه واسلوبه فى الحياة

ولعل اهم مايذكر من فروق بين الشرق والغرب أن أمم الشرق تعتمد على الخيال وتلون حياتها به ، وتبنى حاضرها ومستقبلها عليه . وأن أمم الغرب تؤمن بالواقع وتعمل له وتعيش فيه ، وتقدر حاضرها ومستقبلها على قدره . ولايعجز الباحثون عن أن يجدوا الدليل على هذا الرأى . فقد استقل الشرق وحده بالنبوات جميعها ، والنبوات – كما نعلم – تعتمد أكثر ما تعتمد على ايقاظ الروح وتوجيهها الى السماء ، ووصلها بالملأ الاعلى ، ولفتها الى الحياة الآخرة وما يتصل بها من بعث وحساب ، وجنة ونار . وكلها أمور تثير الفكر ، وتغريه بالانطلاق الى تلك الاجواء الروحانية الشفيفة التى لايستطيع العقل أن يرتفع اليها الا على أجنحة الخيال ، هذا الخيال الذى جعل العقلية الشرقية تتقبل كثيرا مما وراء المادة ، وتؤمن بالصالح منها وغير الصالح . فكما امتلأت دنيا

الشرق - من فيض هذه الروحانية ويفضل هذا الخيال - بالخفقات المتجهة الى السماء النابضة بالايمان ، أمتلأت كذلك أجواؤه بألوان السحر والشعوذة ، وبأشباح الخرافات والاباطيل

أما الغرب الذى آمن بالواقع ووثق بالمادة فلم يكن له من هذه الروحانيات ولا من هذا الخيال نصيب مذكور ، ولهذا انصرف الى الحياة يعالجها بكل قواه ، ويلقاها بكل ما عنده من حول وحيلة ، ويشتبك مع واقعها فى صراع عنيف طويل

هذا الخلاف الذى يذكره علماء الاجتماع فى مظاهر التفكير بين الشرق والغرب هو الذى جعل الشرق شرقا والغرب غربا ، وجعل لكل منهما دوره فى الحياة ، وفلسفته التى يعالج بها شئونها ، ويواجه مشكلاتها

ونحن لانستطيع أن ننكر هذه الظاهرة .. فان أمم الشرق يغلب عليها حقا عنصر الروح الذى ينزع بها إلى الخيال ، والذى يجعل لها نظرات خاصة تمتد الى ماوراء المادة ، وتنفذ الى عالم المجهول ، وتصل بها الى نتائج تدور فى كيانها ، وتؤثر فى تفكيرها وتسيطر على سلوكها . فهذا العنصر الروحى قد كان له - ولاشك - دور هام فى الامم الشرقية .. وكان له حسنات ، كما كان له أيضا سيئات .. ونستطيع أن نذكر من حسناته أنه قد أتاح للشـرق أن يسبق فى ميدان التقدم والعمران ، وأن يفتح له الخيال مغالق العلوم والفنون ، ويفسح له الطريق الى مجالات الابتكار والاختراع .. فان عين الخيال أحد بصرا وأوسع افقا من عين الحقيقة والواقع .. ومن حسناته أيضا أنه قد وصل أمم الشرق بأسباب السماء فملأ القلوب ايمانا وسكينة ، واشاع فى النفوس الثقة والطمأنينة بالاستناد الى أقوى الاقوياء .. كما اشاع فيها الامل والرجاء فى الجزاء الطيب للعمل الطيب ، وكل هذه ولا شك دعائم قوية فى بناء الجماعات والامم ، واشاعة المثل الفاضلة والاخلاق الكريمة فيها .

ونستطيع أن نذكر فى سيئات هذا العنصر الروحى أنه قد غلب عليه الخيال المريض فى كثير من الاحيان ، وبين كثير من الامم ، فأصبح معول هدم مدمر ، وجعل الحياة أوهاما وضلالات ، فأقام الناس على محيط لا ساحل له من السراب الخادع والامـانى الكواذب ، حتى فرغت دنياهم من كل خير ، وانتهى بهم الحال إلى أسوأ حال من البؤس والشقاء

هذا رأى .. وأيا كان الامر فإن هناك شرقا ، وهناك غربا ، وأن بين الشرق والغرب ما بين كفتى الميزان من تعادل حينا ، وتراجع أحيانا والتاريخ يشهد أن كفة الشرق كانت هى الراجحة وأن الحياة كلها كانت بيد الشرق من يوم أن استقبل العالم الحياة .. فما أن طلعت شمس الوجود على الانسانية حتى كان الشرق هو الذى استقبلها ، فملأت دنياه دفئا وحرارة ، وفتحت خياله على أسرار هذا العالم فصاغ منها أعظم حضارة عرفها التاريخ : فما عرف العالم إلى اليوم حضارة تقف الى جانب الحضارة المصرية القديمة، ولاتبلغ من القوة والعمق ما بلغته هذه الحضارة فى مختلف العلوم والفنون . وشواهدها الباقية تشهد لهذا وتقف الى الآن متحدية علوم العصر أن تفك ألغازها، وتكشف أسرارها ، وتصل الى صميم الحقيقة منها

وكذلك كان الشأن فى حضارة الهند والصين ، وبابل وآشور ، وفارس . وكلها حضارات قامت على

عمد ثابتة من العلم الصحيح وعلى أصول مقررة من الفن الرفيع . وبهذه الحضارة التي انفرد بها الشرق رجحت كفته ، وخلا له وجه الحياة زمنا طويلا ، على حين كان الغرب لايزال يعيش عيش البداوة ، ويأخذ من الحياة ما تسمح به دون أن يقدر على شيء مما تزويه عنه ، وتحجبه دونه

وقد يذكر بعض الناس أن حضارة اليونان والرومان كانت تعاصر حضارة مصر ، وفارس وبابل وآشور . وأنها كانت من القوة والعمق بحيث لاتقل عن أية واحدة من هذه الحضارات .. ونقول إن هذا حق ، وأن حضارة اليونان كانت على هذا النحو ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نقرر أن هذه الحضارة قد اعتمدت فى كثير من اصولها على الحضارة المصرية والفينيقية .. اذ كان اليونان أصحاب تجارة مع مصر والشام وغيرها من البلاد الواقعة على ساحل البحر الابيض ، وقد نقل اليونان ما استطاعوا نقله من هذه الحضارات .. وكشف البحث أخيرا فى اليونان عن تماثيل لفراعنة مصر . كما يذكر التاريخ أن «هيرودوت» المؤرخ اليونانى قد عاش فى مصر زمنا وكتب كثيرا من أخبارها . وكل هذا يدل على أن حضارة اليونان قامت فى ظل الحضارات الشرقية وأهمها حضارة مصر .. فحضارة اليونان إن لم تكن شرقية فهى ربيبتها . قد غذيت منها واعتمدت عليها فى الغالب الكثير من صورها

لقد ظل الشرق عهدا طويلا قائما على الحضارة منفردا بها .. والغرب يستقبل من هذه الحضارة شعاعات بين الحين والحين فى هذه الحروب التى كانت متصلة بين فارس واليونان وفى فتوحات الاسكندر .. ولكن الغرب مع هذا لم يستطع أن يقف على قدميه وأن يقيم حضارة تناظر حضارة الشرق أو تقاربها .. حتى كان الفتح الاسلامى واتصال العرب بالغرب عن طريق الاندلس وصقلية .. هنالك استطاع العرب أن يخلطوا أمم الغرب بهم ، وأن يوثقوا بينهم اواصر الثقة والمودة مما جعل كثيرا من أبناء أوربا يقبلون على تعلم العلوم العربية فى جامعات اشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من جامعات الاندلس وذلك لما عرف عن العرب من سماحة جعلت الاوربيين يأنسون اليهم ويؤملون خيرا عندهم . استطاع الغرب بهذه الثقافة العربية الخالصة أن يرى الحياة وأن يبعث التراث اليونانى - وهو كما قلنا تراث عظيم فى العلوم والفنون ، تاثر كثيرا بالحضارة الشرقية وخاصة مصر - وبهذا استطاع الغرب أيضا أن يتهيأ لاقامة حضارة وأن يكون لهذه الحضارة حسابها فى ميزان الحياة وأن تزداد هذه الحضارة مع الايام نموا وازدهارا بينما تأخذ الحضارة الشرقية فى الذبول والجفاف ، حتى لكأن العالم لايحتمل حضارتين ، وأنه اذا كانت هناك حضارة لابد أن يقابلها من الجانب الآخر تأخر وانحطاط . ولعل هذا التضاد فى الحياة هو من سنة الحياة ، واصل اصيل فى بقائها وعمرانها .. فهى ليل ونهار ، ونور وظلام ، خير وشر ، وسلام وحرب ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر .. وهكذا .. إنها مسرح تتقابل فيه الاضداد وتلتقى عليه المتناقضات

ما كادت أضواء المعارف والفنون ترسل أول خيوطها على الافق الغربى حتى بدأت شمس المدنية الشرقية تنحدر نحو الغرب ، وتخلف وراءها ظلاما لم يلبث أن تكاثف وتحول إلى ليل دامس يغمر الآفاق ، بينما أخذ الغرب شيئا فشيئا يستوفى حظه كاملا من مظاهر المدنية والعمران

ولو ذهبنا نعلل لهذا التحول فى أحوال الشرق والغرب ، وغروب شمس الحضارة هنا وشروقها هناك ، لوجدنا لذلك كثيرا من العلل والاسباب فهذا التحول الذى أتى على حضارة الشرق - مع أنه سنة من سنن الحياة وأن لكل حضارة أجلا ، وأن الحضارة الشرقية قد استوفت عمرها وبلغت أجلها - هذا التحول له أسباب مباشرة لا يمكن اغفالها

منها أن هذه الروحانية التى قلنا إنها طبيعة غالبة فى أمم الشرق قد بعد بها العهد بينابيعها الاولى فأصابها الجفاف ولحقها العطن ، وبدأ الجهل يزحف عليها فى صور كثيرة من الخرافات والاباطيل التى تتحكم فى حياة الناس ، فتعزلهم عن الحياة وتلهيهم عنها بهذا السراب الذى يعيش عليه خيالهم المريض

ومنها أن الغرب حين اشتد ساعده وحين واتته القوة ارسل على الشرق جيوشا زاحفة احتلت أرضه واستعبدت أممه ، وأرهقتها بألوان العسف والاستبداد فزاد ذلك من بلاء الشرق وضاعف من محنته ، وأسرع بالقضاء على معالم علومه وفنونه

كذلك كان الشأن فى تحول أحوال الغرب ، وانتقاله من البداوة الى الحضارة ومن الهمجية الى المدنية فهذا التحول مع أنه أمر طبيعى يجرى فى دورة الفلك بغروب الشمس عن أفق وطلوعها على أفق - الا أن له أسبابا مباشرة لا يمكن اغفالها أيضا

منها أن الشرق قد أمد الغرب بكثير من المعارف ، واطلعه على الكثير من معالم المدنية ، ووضع بين يديه منها مثلا معنوية ومادية .. فكان لذلك أثره فى إثارة غريزة التقليد والمحاكاة فيه ، وفى تقوية الرغبة عنده الى التفوق والتقدم

ومنها أن العقلية المادية التى غلبت على التفكير الغربى .. أن تكن قد أبطأت بالغرب عن مجال الحضارة زمنا طويلا .. الا أنها وثقت الصلة بينه وبين الطبيعة وجعلته فى مواجهتها دائما .. وذلك قد أتاح له فرصا كثيرة شاهد فيها - عن كثب وبعين الواقع - كثيرا من أسرارها وخفاياها وبهذا استطاع أن يقيم حياته على أسس سليمة راسخة خالية من طلاء الخيال ، وزخارف الاوهام

وهكذا جرى القدر ، وتمت دورة الفلك بأن تذهب حضارة وتقوم حضارة ، ويهوى الشرق ويرتفع الغرب ، وصدق الله العظيم حيث يقول جل شأنه : «وتلك الايام نداولها بين الناس »

واليوم .. قد بدأ الشرق يصحو وبدأت الدماء الحارة تجرى فى عروقة وتنساب فى كيانه ، وكان أول تباشير هذه الصحوة انقشاع سحب الاستعمار عن آفاقة .. ثم ما تبع ذلك من الالتفات الى تراث الماضى والاتجاه الى العناية بالعلوم والفنون ومزاحمة الغرب فيها ..

هذه ظاهرة ولقعة لابست حياة الشرق ، فأصبحت متجه آماله ومرمى أهدافه .. فما هى النتائج التى نعلقها عليها وننتظرها من ورائها ؟

نستطيع أن نقول فى ظل هذه الظاهرة الواقعة :

أولا - أن الشرق فى طريقه الى حضارة جديدة تقوم على ما قامت عليه حضارته الاولى من علم وفن وأن الشرق ليتهدى الى هذه الحضارة ويستلهمها بما استقر فى نفسه من أحاسيس بموروثاته من حضارته الماضية التى لاتزال تدور فى آفاق نفسه ، ولاتزال تحلق فى سماء خياله .. وأنه بهذه الانبعاثات الداخلية - الى جانب الانبعاثات الخارجية ، من مظاهر العلوم والفنون -

سيبلغ غايته من الحضارة والمدنية فى وقت قريب .. فان معالم الطريق له واضحة ، وادلته عليها كثيرة وبينه وبينها الف .. وكل هذا مما يعينه على قطع الطريق الى الغاية ، وتوفير الكثير من الجهد والوقت

ثانيا – أن الشرق سينتقل اليه ثقل ميزان الحياة ، وستكون له الكفة الراجحة .. وانه سيسلم اليه زمام هذا العالم وقيادته . وذلك لما قررنا من قبل من أن العالم لايحتمل حضارتين .. وأنه لاتظهر فيه فى وقت واحد أو فى الغرب

واذا كانت الحضارة قد أخذت طريقها الى الشرق – كما قلنا – فانها ستخلى مكانها حتما من الغرب ولايبقى منها الا ظلال !

واذا أردنا أن نجد الدليل على تحول الحضارة عن الغرب فانا نستطيع أن نقول إن الحضارة الغربية قد اعتمدت على المادة واستندت اليها وجعلت علومها وفنونها مسخرة لها ، ثم مازال هذا الشعور المادى ينمو ويقوى حتى تحولت هذه الحضارة الى حجارة صماء ، وارقام متحركة ، لا تلمع فيها ومضة روح .. وهذا ايذان باختناقها وموتها

نقول هذا لاشماتة فى الغرب ، ولاحقدا عليه ، ولكن لان هذه سنة الحياة : لاتطلع فيها شمسان ولايجتمع فيها نهاران .. وحضارة الشرق آتية لاريب فيها . فهل يمكن أن تبقى مع ذلك حضارة الغرب ؟ لاندرى ، ولكن الذى ندريه وفى يدنا الدليل عليه هو أن الحضارة مقبلة الينا ، وأنها حضارة مطبوعة بطابع الشرق .. فيها حياة ، وفيها روح ، وفيها خير للشرق والغرب جميعا

لقد كانت حضارة الغرب نقمة وبلاء على العالم كله .. فانه على الرغم مما بلغته هذه الحضارة فى ميادين العلم والفن ، وعلى كثرة . ما انتجت من صور الحياة المادية ، وعلى قدر ما ملأت الدنيا من وسائل المتعة والرفه .. قد ركبها الغرور ، واستبد بها جهل القوة فاستخفت بحقوق الضعفاء ، واستهانت بمعايير الاخلاق ، وتنكرت للاديان ، وحقرت من شأن المثل الفاضلة .. وكان من هذا كله أن امتلات دنياها بالاباحية والالحاد وجعلت الناس فى هم دائم وفزع مقيم من نذر الحروب وويلاتها

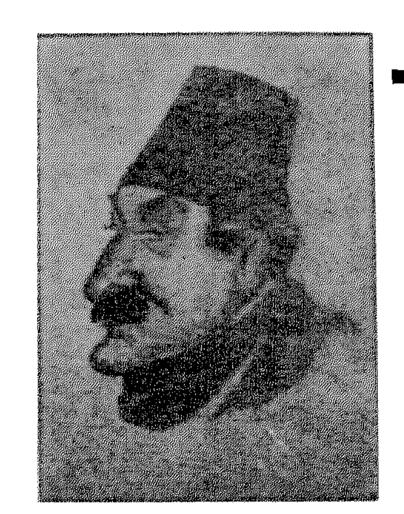
أما مدنية الشرق المرتقبة فانا نرجو أن تقوم علي المبادىء التى قامت عليها من قبل .. وأن تتصل بأصولها الروحية الصافية ، فتحمل الى الناس الخير الخالص من شوائب الاذى وتقيم الامم جميعا على نهج الحب والمودة والاخاء

ماذا أكتب وماهى وصيتى لشباب الجيل

شباب ٢٠٠٠

رأت مجلة الهلال ، بمناسبة إصدار العدد الخاص عن العالم العربى الصادر في يناير ١٩٥٩ اى فى اواخر النصف الأول من القرن العشرين ، أن تستفتى طائفة من كبار الكتاب وهم : الاساتذة عباس محمود العقاد ، توفيق الحكيم ، وفكرى أباظة . وأمينة السعيد . في موضوع طريف ، فوجهت الى كل منهم هذه الاسئلة : لوعشت الى سنة ٢٠٠٠ :

- فما هو الانتاج الأدبى الذى تقوم بانتاجه ؟
- ما هى الاختراعات التى تود أن تراها ؟
- ما هى المناظر التى ترجو زوالها ؟
- ماهى الوصية التى تقدمها لشباب سنة ٢٠٠٠ ؟



عباس العقاد



توفيق الحكيم

شباب ٢٠٠٠

للاستاذ عباس محمود العقاد

لو عشت الى تلك السنة لكتبت محصول تفكيرى ونظراتى الى الحياة فى كتاب مجمل

أود أن أرى اختراعا واحد . هو نتائج التجربة الجديدة فى العلم الجديد : باراسيكولوجى « Parpsychology » ، وانتظر أن أرى الدلائل العلمية التى تثبت امكان انتقال الحس والشعور بغير وسائل محسوسة .

والمناظر التى أرجو زوالها فى تلك السنة هى مناظر الفقر والجهل .

أما نصائحى إلى شباب ٢٠٠٠ فأرجو بعد اربعين سنة من التقدم العلمى والادبى ، أن يكون شباب سنة ٢٠٠٠ فى غنى عن نصائح الشيوخ !

قصة من صميم التقدم للاستاذ توفيق الحكيم

قصة سنة ٢٠٠٠ اذا كتبتها فى تلك السنة ستستمد حوادثها من صميم التقدم الذى تصل اليه البشرية فى تلك السنة . فاذا لم تقع حرب فى خلال الاربعين سنة القادمة ، وأمكن للقوى المتصارعة فى العالم أن تسخر العلم فى خدمة البشرية بدلا من دمارها ، فإن البشرية ستسعد كثيرا .

فى ذلك العالم السعيد سيظهر الكثير من الاختراعات التى تهدف الى رفاهية بنى البشر ، وربما قامت الدولة بتوزيع الغذاء المادى والعقلى على الناس فى صنابير ، كما صورت فى مسرحيتى «رحلة الى الغد» . وسوف يكون كل شىء فى متناول اليد ، وتسخر الآلة فى خدمة الانسان ، ويتيسر السفر بين الارض والكواكب .

وفى ذلك العالم السعيد ستختفى مناظر الفقر والجهل والمرض ، وستزول محاولات السيطرة على بنى البشر واستغلالهم .

أما اذا وقعت الحرب ، فقد يرجع العالم عدة قرون الى الوراء ، وربما وصلنا الى الاحوال التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، أو الى سيطرة رجال الدين ، بعد أن يكفر الناس بالعلم الذى جر عليهم الكوارث ، وانتهى به الامر الى نسف نفسه !

أما وصيتى للشباب فلا أريد أن أقول لهم أكثر مما قلت .



التفاهم بلا كلام !

للاستاذ فكرى أباظة

يغلب على ظنى أن القصة التى أكتبها فى سنة ٢٠٠٠ تقع حوادثها فى القمر أو فى المريخ ، لأنى أتصور أن الاربعين سنة القادمة ستضخم الى أفكارنا وخيالنا وقائع تقع فى القمر أو فى المريخ أو فى غيره من الكواكب المكتشفة ، ولا أدرى الآن أى موضوع أختاره لها ، ولعله يكون حبا متأججا بين أحد سكان الأرض وإحدى ساكنات القمر أو المريخ .

وفى تلك السنة أود أن أرى اختراع التفاهم بين الناس من غير كلام وانما بقراءة ما فى داخل الرءوس . ثم اختراعا آخر هو مقاومة الجو ، بحيث يهون القيظ الشديد فى الصيف ، والبرد القارس فى الشتاء ... هذا هو التحول الذى أتوقعه ، فقد قهر العلماء كل الصعاب ، فاخترعوا الرادار والراديو واللاسلكى والذريات ، وهم على وشك أن يصلوا الى القمر ، فما بالهم لايهتمون بالراحة البدنية والذهنية للبشر ، وهى لا تتوافر الا اذا قهروا الجو واخضعوه صيفا وشتاء ، مما يؤدى بالانسان الى انتاج أصح وأقوى .

وأرجو فى سنة ٢٠٠٠ أن تختفى من العالم العربى مناظر الطائفية الدينية ، وأتمنى أن يزول المنظر المؤذى - أو بعبارة أصح الوباء الكامن فى جسم الامة العربية - وهو اسرائيل . كما أتمنى أن يقل عدد الاحزاب فى بعض البلاد العربية ، فالحزبية المبالغ فيها . فوضى تؤدى الى فتنة أهلية . وأود أن يتطور الشباب العربى إلى شباب نشيط يحس بمسئوليته ويؤمن بأن العمل هو قوام الشعوب ، لا الكسل ، ولا التراخى ، ولا عدم الاحساس بالواجب ، ولا الرقاعة . وأود أن تستقر نظم الحكم فى كل البلاد العربية فتعود الحرية التى هى أعز شىء فى الوجود إلى العقائد، وإلى الصحافة ، وإلى الاجتماع ، وأن يستقر أو يبعث النظام البرلمانى النيابى الذى هو عماد كل دولة ديمقراطية .. وأود أن أشهد اليوم الذى يأخذ فيه كل مواطن عربى حقه من التعليم والصحة ومستوى المعيشة اللائق بالأدميين .

وأنا أود أن يعيش كل من أعرفهم ما عداى ، فلا أظن أن الحياة القادمة ستكون حياة مريحة سعيدة ، خصوصا اذا تخللتها حرب ضروس أو ما هو أتعس من الحرب ، وهو جنون الجرى وراء الرزق .

وأنا أنصح الشباب فى تلك السنة أن يعتدوا بشخصيتهم ، والا يكونوا ذيولا للأحزاب ، والا يكتفوا ويقنعوا بدراسات المدارس أو الجامعات ، وانما عليهم أن يجعلوا من بيوتهم معاهد وجامعات، فالقراءة والدرس خارج المعهد قد تكون أصلح وأقوم .

وانصح شباب سنة ٢٠٠٠ ألا يتزوجوا قبل الثلاثين حتى تستقر حياتهم العلمية ، وأن يحذروا كل الحذر من كثرة النسل فهى كارثة شخصية ووطنية فى بلاد تكاد تضيق بسكانها .

انسان ميكانيكى لبيتى للسيدة أمينة السعيد

أرى أن هذه أمنية كريمة ولو أنها قسوة لامبرر لها فاننى لا أقبل أن أعيش إلى سنة ٢٠٠٠ الا اذا صحب ذلك معجزة علمية تقف بى عند المرحلة التى أعيش فيها الآن ، فلو حدث هذا لكتبت قصة تمثل الحياة فى وقتنا الحاضر ، لتكون مرجعا أدبيا تاريخيا لفترة من الزمن لا شك ستكون أوضاعها غريبة على ذهن من يسعدهم الحظ بالمجيء الى الدنيا من بعدنا . وستكون بطلتها فتاة هذه السنة تدور حوادثها عن المتاعب النفسية التى تمر بها ، والصراع الشاق الذى تبذله فى سبيل الوقوف على أقدامها . هذه القصة ستكون بلا شك دراسة بديعة لفتاة سنة ٢٠٠٠ التى ستتمتع بكل الحقوق والمميزات التى لاتجرؤ امرأة اليوم إلى التطلع اليها ... ولو فى حلمها وفى سنة ٢٠٠٠ أود أن يكون فى متناول يد كل «ست بيت» أن تشترى أنسانا ميكانيكيا يقوم بجميع واجباتها المنزلية . وأود أيضا أن أرى آلة ميكانيكية تخرج لى أفكارى في مقالات كاملة المعانى !

أما المناظر التى أرجو زوالها فهى مناظر الترام والاتوبيس والعربات «الحنطور» والدراجات والشحاذين، الذين أرجو أن ترسلهم دولة سنة ٢٠٠٠ الى القمر !

والذين أود أن يعيشوا معى الى سنة ٢٠٠٠ زوجى وأولادى واخـــــواتى وأصـــــدقائى وصديقاتى ... ثم الأدباء الذين أحبهم واستمتع بقراءتهم .

وأخشى أن أنا أدليت بنصح لشباب سنة ٢٠٠٠ أن أكون موضع سخريتهم لأن التطورات الذهنية والفكرية التى ستطرأ على حياتهم ، ستكون بعيدة عن تفكيرى ، وعن قدرتى على استيعابها . وقد عشت أجمل سنوات حياتى فى تقديم النصائح للناس ، فهل تبخلون على بهذه الراحة فى سنة ٢٠٠٠ ؟


أمينة السعيد

يناير ١٩٥٩

تحريرا فى أول مارس



بقلم : أحمد بهاء الدين

طلبت منى مجلة « الهلال » أن أتصور العالم بعد خمس وعشرين سنة ..

أن أتصور إننى جالس فى مكتبى ، أدبج مقالا عن الموقف الحاضر وأبدأه قائلا :

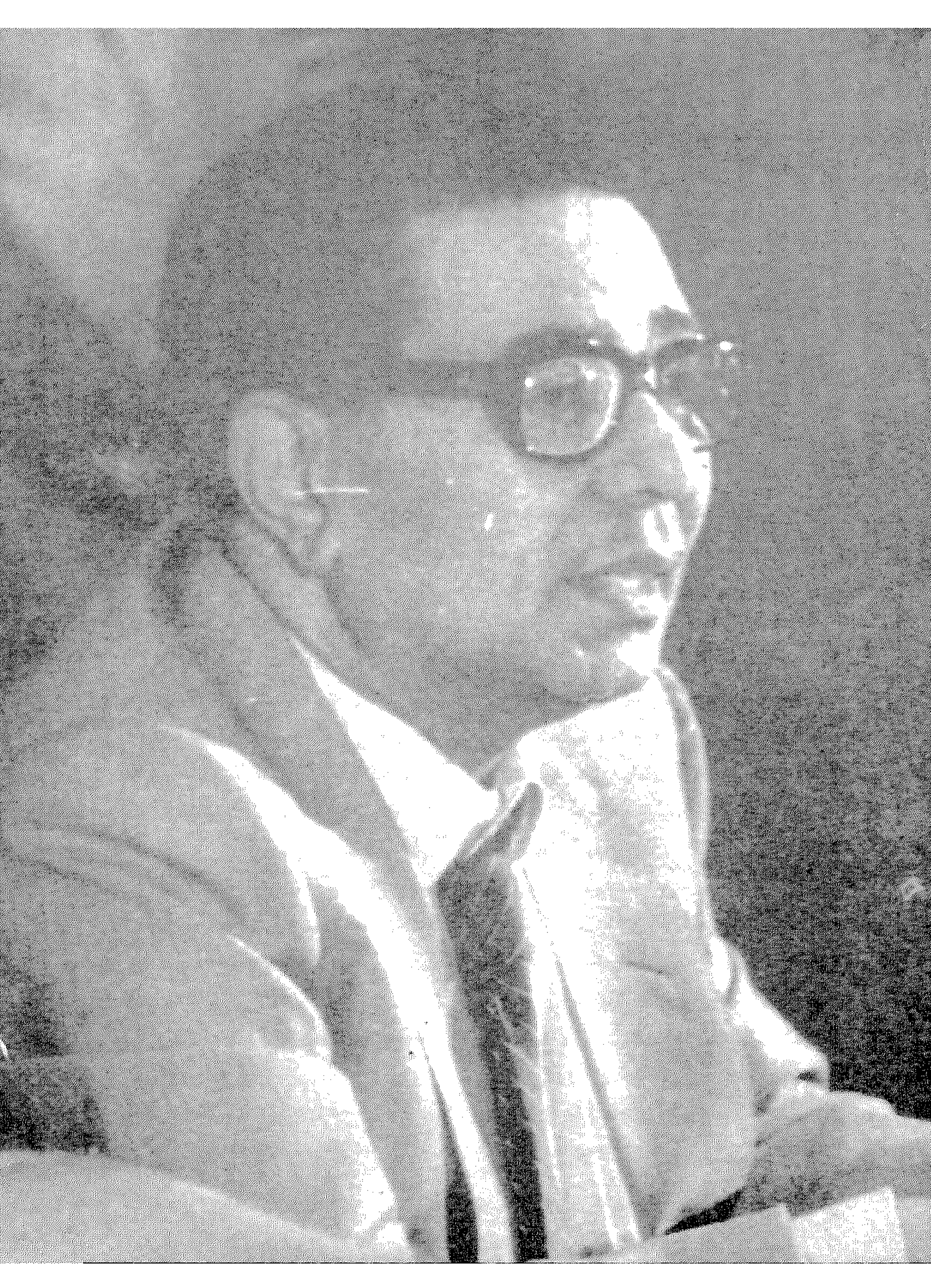
تحريرا فى أول مارس ١٩٨٧

والقارىء يتوقع دائما ، حين يقرأ عن مستقبل ما يزال وراء الافق ، أن يرى الاعاجيب . إنه يتوقع أن يقال له إن كل ما يكرهه من حياته الحاضرة لن يكون له وجود . ويتوقع أن يرسم له الكاتب صورة حياة لا عهد له بها من قبل . عمارات ارتفاعها مائة دور ، وشوارع عرضها ألف متر ، وصواريخ رابضة فى ميادين هائلة ، تحمله إلى القمر ، ليقضى عطلة آخر الاسبوع .

وليس تصور هذه التطورات المادية الان بعسير. فقد زودت الاختراعات العلمية الحديثة بجناحين لامثيل لهما من الخيال ومن القدرة على التحقيق . لقد كان الانسان يحلم بأشياء كبيرة وهو لا يعرف سوى البخار الذى يحرك البواخر والقطارات .. فكيف لا يحلم الان ، حلم الواثق ، وقد عرف الصواريخ والاقمار الصناعية ، ورأى الدول الكبرى تضع فى ميزانياتها السنوية الاعتمادات اللازمة لارسال أول انسان إلى القمر ؟ ..

ولكن السؤال الذى لا مفر من طرحه ، ولو كان فيه بعض ما يثقل أجنحة الخيال ، هو : ما هو أثر كل هذه الاختراعات على الانسان نفسه بعد خمس وعشرين سنة ؟

لقد أخترع الانســـــان – فى بعض مناطق الارض – السيارة والغواصة والطائرة والقنبلة الذرية والصاروخ ، خلال مائتى سنة متواصلة من الكشف والاختراع ، ولكن هذا لم يمنع من أن يظل مئات الملايين من البشر ، فى مناطق أخرى من



نفس الكرة الارضية ، يعيشون نفس الحياة التى عاشها أسلافهم منذ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة : نفس الساقية والشادوف ، نفس الاقدام الحافية تسعى طول النهار وراء المحراث البدائي ، نفس كوخ الطين ، نفس الطعام التافه .. سواء كان أرزا مسلوقا فى الهند ، أو مــاء ساخنا فى الصين ، أو « الفوفو » المدقوق فى افريقيا !

لماذا ؟ ...

لابد أن ثمة خلل فى العلاقات الانسانية هو الذى جعل هذا التناقض ممكنا ... فماذا لو استمر هذا الخلل بصورة أو بأخرى؟ هل يمكن القول فى هذه الحالة أن العالم حقا قد تغير ؟

مثل آخر ...

لنفرض أن الانسان قد تمكن فعلا من أن يسكن القمر والمريخ وزحل وعشرة كواكب أخرى .. ولكنه ذهب اليها بنفس مشاكله وعلاقاته . بنفس الصراع الاجتماعى ، والتناحر الدولى ، والاخطار المهددة بالفناء . بنفس التوتر العصبى والقلق النفسى والاقراص المهدئة . هل يمكن القول فى هذه الحالة أن شيئا قد تغير فى العالم ؟ .. بالطبع لا . كان الانسان يلعب بكرة ارضية واحدة فأصبح يلعب بعشر كرات . ولكنها نفس اللعبة . ونفس الحبل المشدود من أمعاء الناس وأعصابهم .

اذن ؟ ..

اذن لابد لنا حين نفكر فى صورة العالم بعد خمس وعشرين سنة ، من أن نتأمل الجانبين ...

جانب الاختراعات والاكتشافات العلمية ،

وجانب العلاقات الانسانية أو الاجتماعية .

وأول ما يدهشنا – حين نتأمل هذين الجانبين معا – هو أن التغير المادى يقع بأسرع مما يقع التغير الاجتماعى ...

الانسان يسرع إلى « استخدام » الاكتشاف العلمى الجديد .. ولكنه لا يوافق على تغيير علاقاته الاجتماعية بما يلائم هذا الاختراع إلا فى بطء ومن خلال صراع وجهد شديدين .

الانسان – مثلا – اكتشف الالات التى أدت إلى ظهور الصناعات الكبيرة والمجتمع الصناعى الحديث ... وعلى الفور أسرع الانسان إلى استخدام هذه الالات والتوسع فى التعامل معها .. إلى أقصى ما يستطيع . ولكن الانسان لم يعمد بنفس السرعة إلى مواجهة نتيجة التطور فيما يختص بعلاقاته الاجتماعية . انما تفاقم الصراع بين العمل ورأس المال . وقامت ثورات وسالت دماء . وظهرت النظريات الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والفاشية . وما زال الصراع بين هذه النظريات مستمرا حتى يصل الانسان إلى أحسن تنظيم للعلاقات الاجتمــاعية ازاء هذا الواقع المادى الجديد .

مثل آخر ...

الانسان اكتشف القنابل الذرية والصواريخ . وأسرعت الدول التى تملك هذا الاكتشاف إلى صناعتها واختزانها . وكل انسان يعرف أن معنى هذا الاكتشاف هو القضاء على الاسلحة العادية الاخرى والجيوش الجرارة . وكل انسان يعرف أنه ازاء هذه الاسلحة الجديدة لا مفر من نزع السلاح كأسلوب وحيد لاستمرار الحياة . ولكن الانسان لم

يصل بعد إلى تطبيق نزع السلاح . ولا ينتظر أن يصل اليه قبل وقت طويل . وهكذا فان آلاف الملايين من الجنيهات تنفق كل سنة على صنع أسلحة يعرف الانسان تماما أنه لا يجب أن يستخدمها ، مهما كانت الظروف ...

اذن ، فلنا أن نتوقع ، ونحن نمد البصر عبر خمس وعشرين سنة قادمة ، أن تجد التغير المادى سريعا إلى أقصى الحدود ، وأن تجد التغير الانسانى ، كالعادة ، بطيئا ...

والواقع أن من يتابع أنباء الابحاث العلمية التى تجرى فى المعامل الهـادئة المنتشرة فى أنحاء العالم ، يجد أن مجالات التغير فى حياة العالم خلال الخمس وعشـرين سـنة الماضية ليس لها حد ...

ففى خلال خمس وعشرين سنة – مثلا – سوف تختفى السيارات التى تسير على أربع عجلات وتحل محلها سيارات بدون عجلات ، تسير طائرة على ارتفاع ٣٠ سنتيمترا من الأرض محمولة فوق هواء مضغوط ، وسيكون من نتيجة ذلك الاستغناء عن اقامة كثير من الكبارى فوق الانهار ، والاستغناء عن تعبيد طرق كثيرة من الطرق التى لا تستخدم فى السير على الاقدام كطريق مصر – اسكندرية الصحراوى مثلا .

وسوف يتم صنع الآلات الالكترونية التى تشبه الراديو الترانزيستور الصغير ، والتى يستطيع بها الانسان المصاب بأى شلل فى أى عضو من أعضائه أن يحركه كالسليم تماما . فالشلل هو عجز الاعصاب عن اصدار أوامر الحركة إلى اليد المشلولة أو الساق المشلولة أو اللسان المشلول . وقد أمكن صنع أجهزة الكترونية تقوم بهذه المهمة ...

وسـوف تختفى بعض الجدران من بعض البيوت . فقد أمكن صنع جهاز مثل جهاز تكييف الهواء تستطيع أن تديره فيقيم حاجزا من « الهواء» يقوم مقام الحائط . فتكون درجة البرودة فى الخارج صفرا ولكن هذه البرودة لا تنفذ من خلال حاجز الهواء رغم عدم وجود أى جدار .

ولن تكون آلات تكييف الهواء مجرد أجهزة لتسخين الهواء أو تبريده . ان الآلات الحديثة سوف تحمل لك نوع الطقس الذى تحتاج إليه اعصابك . فهذا المفتاح يجعل الجهاز يملأ من الغرفة بهواء له رائحة وخصائص هواء البحر .. أو الحدائق .. أو الجبال .. إلى آخره .

ولن تكون المدارس والمكتبات على صورتها الراهنة ، سوف يكون هناك جهاز « تليفون – تليفزيون » تطلب به دار الكتب فيديرون لك – على جهازك فقط – تسجيلا صوتيا يقرأ لك الكتاب الذى تريد أن تقرأه أو العلم الذى تريد أن تدرسه .

وكما يقول أحد مصانع التليفونات فى أمريكا : سوف يولد الطفل ومعه رقم تليفونه . ذلك أن التليفونات سوف تكون صغيرة ويحملها الفرد فى جيبه كعلبة السجاير . وسوف يمكن الاتصال بها مع أى شخص فى الكرة الارضية مباشرة . بل انها سوف تستخدم فى ادارة بعض أدوات البيت . فتضرب رقم بيتك وأنت فى المكتب ثم تضرب رقما معينا فيدور الفرن فى البيت حتى إذا وصلت وجدت الطعام ساخنا ...

كل هذه أنباء علمية وليست أحلاما . ولا حد لمثل هذه الانباء التى تخرج من المعامل يوما بعد يوم .

ولكننى أعتقد أن هناك ثلاثة مجالات بالذات من مجالات التقدم العلمى . سوف يكون لها أثر كبير على حياة الانسان سنة ١٩٨٧ ...

★ الاول .. هو الابحاث الجارية الآن لتحويل مياه البحر الملحة إلى مياه عذبة . إن المشكلة الآن ليست فى عملية التحويل ذاتهـــا ، فقد أنجزت بالفعل . ولكن المشكلة هى تخفيض أسعار هذه العملية بحيث تتحول مياه البحر إلى مصدر لرى الاراضى كالانهار تماما . ويوم يتم تحقيق هذا الغرض سوف يكون هذا انقلابا حقيقيا فى حياة الانسان . إذ سوف تتحول الصحارى الشاسعة إلى أراضى مزروعة وسوف تتضاعف المساحات التى يمكن زراعتها كل عام ، الامر الذى يساهم فى حل مشكلة الغذاء فى عالم يتزايد بسرعة مذهلة ..

★ الثانى هو أبحاث الفضاء .. التى تتمتع بما يكفيها من ضجة الدعاية ومن اهتمام الناس .

فقبل سنة ١٩٨٧ سيكون الانسان قد وصل إلى القمر فى رحلات متوالية . وسيكون قد تم ارسال أول بعثة علمية كاملة بعلمائها وأجهزتها إلى المريخ والقمر وغيرهما من الكواكب القريبة .

وفى سنة ١٩٨٧ لن يكون القمر أو المريخ كوكبا مسكونا . فالأرض مازالت فيها مساحات هائلة لم تكتظ بالسكان بعد . ولكن هذه الكواكب ستكون مسكونة قطعا ببعثات دائمة من العلماء المزودين بالاجهزة المختلفة أشبه بالبعثات العلمية التى تقيم الآن فى القطب الجنوبى .

ستكون فى هذه الكواكب اذن مدن علمية تنمو تدريجيا . أما الانسان العادى فقد يبدأ فى السفر اليها فى شكل مجموعات للسياحة أول الأمر ..

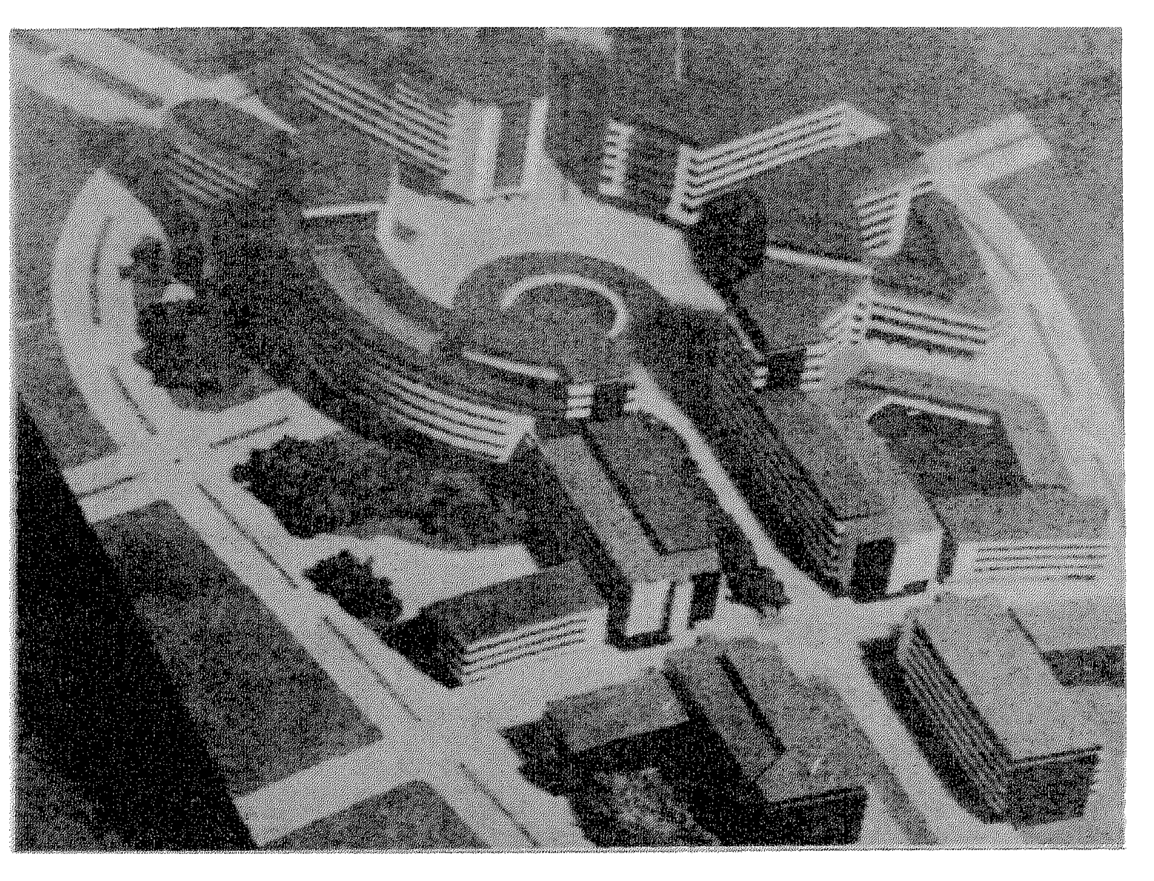
أما الأقمار الصناعية السابحة فى الفضاء فى مدارات حول الأرض والقمر والمريخ فسوف يصل عددها إلى بضع مئات ... وسوف يكون هناك أكثر من عشرة من البشر طائرين فى الفضاء فى وقت واحد ...

وليس هذا كله إلا مقدمة لاكتشافات علمية أخرى تزيدنا معرفة بأسرار الكون والحياة . وسيكون من أول آثارها معرفة المزيد عن الطاقة الشمسية لاستغلالها على نحو أرخص بكثير جدا من الطاقة الكهربائية أو الطاقة الذرية .

أما الاقمار الصناعية فستكون أجهزة ارسال متنقلة تجعل الاتصال التليفونى والتليفزيونى بين شتى أجزاء العالم سهلا ميسرا . فتستطيع أن تدير قرص التليفون من القاهرة لتخاطب أمريكا الجنوبية ، وتستطيع أن تدير مفتاح التليفزيون لترى أى برنامج يذاع من اليابان أو من السويد أو الصين أو الهند .

وهذا التطور العلمى سوف يكون له أثر ضخم فى تحقيق حرية الانباء على مستوى آخر جديد . إذ سوف يستطيع الفرد أن يرى بنفسه حقيقة الحياة فى أى بلد آخر . لا يحجبها عنه دعاية حاكم أو قيود على استيراد الصحف أو أية عقبة من هذا النوع . وسوف يكون لهذا أثر ثورى على تكوين الرأى العام فى كل مكان ...

★ المجال الثالث الذى سوف تؤدى الابحاث العلمية فيه إلى انقلاب عميق .. هو مجال الأبحاث التى تدور الآن حول « الخلية الحية » فكما أن الانسان تمكن من تحطيم الذرة ، فانه قد نجح فى تحليل « الخلية .. الحية » إلى مركباتها الكيمائية ..



سوق تجارى مصرى كما تخيله الكتاب . السوق موجود الآن فى مدينة العبور

وبالتالى أمكن « صنع » خلية حية من مركبات كيميائية !

ومعنى ذلك ببساطة : أنه فى خلال خمس وعشرين سنة سوف يستطيع العلم أن يتحكم فى الجنين ، وفى صفاته التى سيولد بها ، كما سيمكنه الكشف عن أسرار جديدة من أسرار الحياة ، فضلا عن علاج الامراض التى لا علاج لها كالسرطان ..

إن هذا البحث هو أخطر بحث أجراه الانسان الان على الاطلاق . العلماء المنهمكون فى هذا البحث منتشرون فى أمريكا وروسيا وانجلترا والمانيا . والمجلات العلمية تروى العجائب عن أخبار تقدم أبحاثهم !

وليس أصدق من كلمة العالم الذى قال : إنه يصاب بالذعر والدوار كلما فكر فى نتيجة هذه الابحاث التى يشترك فيها ويراها – لعجبه الشديد– تنجح وتتقدم !!

وبعد ...

فماذا عن « العلاقات الانسانية » سنة ١٩٨٧ ؟ ...

هل يكون شبح الحرب قد أزيح إلى النهاية ، وأصبح حماقة قديمة يتعجب الناس من أنها وجدت ذات يوم ؟ ..

أم تكون الحرب الذرية قد قامت وانتهت ؟

أم يكون الموقف بعد ٢٥ سنة كما هو الآن : الصواريخ مستعدة ، والطائرات المحملة بالقنابل الذرية فى طيران مستمر .. ومباحثات نزع السلاح متعثرة ؟ ..

هل يكون الصراع المذهبى قد حسم ؟ ..

هل يكون للعلاقات الدولية شكل جديد ؟..

أعتقد أن العالم سنة ١٩٨٧ سيكون قد حل بعض المشاكل الفرعية مثل مشكلة برلين ومشكلة نزع الاسلحة الذرية . أما المشاكل الرئيسية التى يواجهها العالم الان ... فإن خمس وعشرين سنة أقصر من أن تتسع لحل حاسم لها ...

لماذا ؟ ..

ان الضغط والصراع الراهن له أكثر من سبب ... بعضها سوف يختفى قبل ١٩٨٧ وبعضها سوف يبقى ، على الاقل إلى ما بعد هذا التاريخ بقليل ...

من أسباب الضغط والصراع مثلا ، الاستعمار، وهو سيطرة شعب على شعب آخر . هذا السبب سوف يختفى . سوف يزول الاستعمار نهائيا . ولا تبقى منه إلا صفحات أليمة فى كتب التاريخ .

ولكن السبب الاكبر للضغط والصراع فى عالمنا الحالى هو الفقر . أو بتعبير أدق هو الفروق الشاسعة بين مستويات المعيشة المختلفة . ذلك أن الفقر فى حد ذاته نسبى ، ففقراء العالم اليوم ربما كانوا أحسن حالا من فقراء ثلاثة قرون مضت ، ولكنهم أكثر احساسا بفقرهم ، خصوصا بسبب سرعة التقدم الذى يحرزه آخرون غيرهم ، ولذلك فهم أكثر ثورة على هذه الفوارق من فقراء ثلاثة قرون مضت .

هذا السبب من أسباب الضغط والصراع لن يكون قد اختفى قبل سنة ١٩٨٧ ..

فنحن حين ننظر إلى بلاد كثيفة السكان مثل الصين أو الهند ، نجد أن أحسن تقديراتها لبرامج التنمية فيها لا تصل بسكانها فى ٢٥ سنة إلى مستوى من المعيشة يبلغ نصف مستوى المعيشة الحالى فى أوروبا مثلا . فإذا عرفنا أن مستوى المعيشة فى أوروبا يتحرك إلى أعلى بسرعة ، أدركنا أن « الفروق » فى حد ذاتها سوف تبقى ، وبالتالى فان عنصر الخلاف فى النظرة وفى المصلحة وفى العقيدة سوف يبقى .

وفى مجال الصراع العقائدى ، سوف نجد النظام فى الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٨٧ غير نظامها الذى نعرفه الان ... وسوف نجد النظام فى أمريكا غير نظامها الان ولكن الصراع المذهبى بين الشيوعية والرأسمالية سوف يبقى .

إننا كثيرا ما نستعجل التاريخ ونتصور أنه سيحسم القضايا الكبرى بسرعة . ولكن هذا لا يحدث عادة . ونظرة واحدة إلى ما استنفدته خلافات انسانية أخرى - كالحروب الدينية مثلا - من وقت طويل ، تكفى للدلالة على أن هذه الخلافات الكبرى لا تحسم فى وقت قصير كما نتوهم . صحيح أن العالم الان يجرى بسرعة أكبر . ومع ذلك

فاننى أعتقد أن ٢٥ سنة لن تحسم القضية ..

على أنه فى سنة ١٩٨٧ سوف يكون الانسان قد بدأ يقتنع أن هذه النظريات كلها - بصورتها التى نعرفها - ليست الكلمة الاخيرة فى الفكر الانسانى .

وسوف تجد الدول أنها - ازاء متطلبات هذا الصراع - لابد لها من أن تقبل التقليل من سيادتها فى اتجاهين ..

الاتجاه الاول .. نحو الاندماج والاتحاد فى دول أكبر

والاتجاه الثانى .. نحو الاعتراف بسلطة أكبر لبرلمان دولى وحكومة دولية ، هما الامم المتحدة ومجلس الأمن ..

وفى الاتجاه الاول سوف تجد الدول أن اقامة صناعة كبيرة يحتاج إلى سوق أكبر وإلى عدد من المستهلكين أكبر . وسوف تجد الدول أن مهمات عصر الفضاء والحاجة إلى مسايرتها تحتاج إلى دولة لها ميزانية أكبر وعلماء أكثر . ولهذا فانه إذا كانت مرحلة « الستينات » فى هذا القرن ، هى مرحلة كثرة عدد الدول المستقلة وتزايدها ، فان سنة ١٩٨٧ ستكون سنة اختصار عدد الدول إلى عشر عددها الحالى على الاقل ...

ستكون أمريكا الشمالية كلها دولة واحدة . وأمريكا الجنوبية كلها دولة واحدة أو دولتين . سيكون غرب أوروبا كله دولة واحدة . والبلقان وشرق أوروبا دولة واحدة ستكون البلاد العربية كلها دولة واحدة . وستكون أفريقيا السوداء كلها دولة واحدة . سوف ينظر العالم إلى الدولة التى لا يزيد تعدادها عن عشرين مليون نسمة كما ينظر الان إلى امارة موناكو مثلا أو دوقية لوكسمبرج !

وليس هذا غريبا .. فمضى سنة ١٩٨٧ سيكون عدد سكان الصين على وشك أن يصبح ألف مليون.. وعدد سكان الهند على وشك أن يصبح ستمائة أو سبعمائة مليون ! وعدد سكان غرب أوروبا حوالى ٣٠٠ مليون .

وليس غريبا بعد هذا أن نجد دولة عربية كبرى عدد سكانها ١٥٠ مليون ودولة افريقية كبرى عدد سكانها ٢٥٠ مليون ...

أما فى الاتجاه الثانى ... فسوف نجد أن قلة عدد الدول سيسهل - إلى حد - كبير مهمة تكوين هيئة أمم متحدة أقوى من الهيئة الحالية . هيئة أمم تشرف على نزع السلاح وتنظم النشاط الانسانى فى الفضاء الخارجى وتملك قوة بوليسية تحافظ بها على الامن والنظام ...

والآن ...

هل ترى أن عالم ١٩٨٧ لن يختلف عن عالم ١٩٦٢ بالدرجة التى كنت تتمناها ؟ ..

ربما ...

والسبب هو أننا نمر بمرحلة تغير عميقة جدا فى حياة العالم . تغير يجعل الستة آلاف سنة التى مضت من التاريخ الانسانى مجرد « فصل أول » يوشك أن ينتهى ليبدأ فصل جديد تماما ...

هذا التغير العميق لا يمكن أن تتم « مرحلة الانتقال » التى تؤدى إليه فى أقل من قرن كامل ! ...

إن ٢٥ سنة أقل من أن تكون « استراحة قصيرة » بين الفصلين !

مارس ١٩٦٢

إن التــأثر المتبــادل بين مضمــون العمل الفنى وشكله أمر بالغ التعقيـد وهو يشكل جزءا هاما متجـدد الصــور والإمـكانيات فى مجــالات الدراسـات الفنية والأدبية فكل تطـور فى حياة الناس أفرادا وجماعات يعكس مدلولاته على مضامين الأعمال الفنية، وكل تطور فى الحياة عامة يعكس أيضا إمكانياته بكل مالها وما عليها على طاقات الأداة الفنية أو نوعيتهـا مما يجعل الأشكال الفنية فى تطور مستمر. ولما كانت الحياة وحدها أو بالناس دائمة التطور والتغير ولا يمكن أن تعاد فيها لحظة معاشة كما كانت أبدا فإن هذا، بكل قوته وجبروته، ينعكس على الفنون والآداب فيكسبها هذه الحيوية المتدفقة المتجددة ولكنه أيضا يكسبها مشكلاتها المتعاقبة .



مستقبل القصة القصيرة

بقلم : د. سهير القلماوى

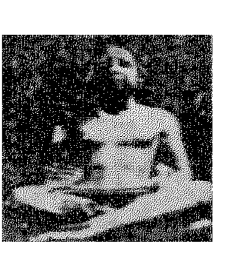
ولقد مرت بالفنون والآداب من حيث الإنتاج والوسيلة والتلقى ثورات ضخمة فى تاريخ الإنسان ، وكان لهذه الثورات انعكاسات متعددة الجوانب متشعبة المظاهر فى تطور الفن والأدب. طورت أشكاله وأوجدت نماذج بأشكال جديدة كما أنها فى الوقت نفسه غيرت من مفهومه ومن دوره فى الحضارة ومن أثره فى حياة الناس .

وفى عالم الكلمة المكتوبة نقف أمام ثورتين عظيمتين .

أولاهما : اختراع المطبعة وما نجم عن ذلك من توسيع قاعدة المتلقين للآثار الأدبية اتساعا متزايدا لا يزال بالملايين إلى اليوم .

والثورة الثانية هى : انتشار الوسائل السمعية والبصرية الناقلة للمادة الأدبية. فالفيلم والراديو والتليفزيون، وكلها اخترعت وعمت فى حقبة تاريخية متقاربة نسبيا، قد أحدثت فى الفن الأدبى تأثيرات جمة جديرة بالدراسة والوقوف عندها.

وكثيرا ما تعرض دارسو الأدب إلى أثر الصحافة فى فن الكلمة شكلا ومضمونا. ولكن الذين تعرضوا لدراسة أثر الفيلم والإذاعة والتليفزيون قلة قليلة مازالت أبحاثهم نادرة قصيرة قلما تكون موجهة مباشرة إلى هذا الموضوع بذاته، وإنما هى فى الأغلب والأعم دراسة لأثر هذه الوسائل السمعية والبصرية فى تكييف ذوق الجماعات بل الأهم فى توجيه رأى الجماعات وتكييف سلوكهم. ومع أنه من المسلم به حتى الآن أنه لا الصحافة ولا هذه الوسائل «السمعبصرية» الجديدة بقادرة على أن تؤثر فى الرأى العام أثرا يؤدى إلي النقلة من «لا» إلى «نعم» فى أية مسألة يكون الجمهور قد كون لنفسه رأيا فيها من قبل، فإن أثر هذه الوسائل «السمعبصرية» لايزال بعد شيئا رهيبا ضخما يجعل السيطرة عليه أمرا بالغ الحيوية بحيث تتولاه



الدولة بسلطة تقل أو تكثر فى أكثر بلاد العالم. والأهم من هذا هو أن هذه الوسائل «السمعبصرية» لم تستغل بعد إمكانياتها وطاقاتها الرهيبة نظرا إلى حداثة عهدها وقلة المختصين الذين يمكن أن يفجروا طاقاتها الفعلية من حيث الأثر فى الجماعات .

وشكلنا الفنى الذى يحظى بكثير جدا من اهتمام المؤلفين والقارئين (والذى رغم كل شئ لا يزال شكلا متداولا له حيويته ووجوده القويان) شكل «القصة القصيرة» قد تأثر تأثيرا ضخما بالثورة الأولى. بل أن كثيرين من دارسى الأدب يعزون وجوده الأصلى إلى ظهور الصحافة. فلقد بدأت الصحافة كما نعرف بنشر المسلسلات المتتابعة لأجزاء من رواية طويلة وسيلة من وسائل ترغيب القراء مثلما نجد من نشر مقتطفات من ألف ليلة وليلة فى الوقائع فى أول عهدنا بالصحافة أيام «محمد على». ثم تدرج الأمر حسب حاجة القراء إلى إشباع الرغبة فى قراءة قصة كاملة فى العدد الواحد من الجريدة، فنشأت القصة القصيرة فنا قصصيا له مساحة محددة فى صحيفة سيارة فأصبح له كل خصائص الآنية والتركيز والاختصار التى دمغت هذا الشكل لسنين طويلة لا تزال ممتدة إلى الآن .

وتأتى الثورة الثانية فى عالم وسيلة الفن فإذا بهذا الشكل يتأثر دون أن ندرك أنه تأثر أو نرصد هذا التأثير ولو فى محاولة لاستشفاف مستقبل التأثيرات والتغيرات المرتقبة فى أسلوب هذا الشكل الفنى .

ولقد درس بعض الدارسين فن الإذاعة : خصائصه وطاقاته، ولكنهم درسوا ذلك بعيدا عن الأشكال الأدبية، بعيدا عن تلمس الآثار المباشرة لهذه الوسيلة من إذاعة الفن الأدبى فن الكلمة على الناس. كذلك دراسة الفيلم والتليفزيون وهى أحدث وأقل بالرغم من سبق الفيلم وممهداته فإنها لم تحفل بالأثر فى الشكل الأدبى، بقدر ما حفلت بدراسة الأثر فى الجماهير فى محاولات من السلطة أو غيرها لتطور هذه الوسائل السمعبصرية فى سبيل أهداف لا علاقة لها بالفن أو بالأدب، وقد تكون فى بعض الأحيان قاصدة إلى استعمالها فى مجالات عملية مثل نشر الوعى بقضية أو محو الأمية أو غير ذلك من مجالات مهما اختلفت فكلها تلتقى عند أنها لا تحفل بعالم الفن وما طرأ عليه من تطورات .

صحيح أننا نجد بعض الدراسات عن الفيلم وأثره فى الرواية أو على الأصح الفيلم وتطوره من تصوير مسرحية إلى فن قائم بذاته اسمه القصة السينمائية ثم السينمائية فقط دون قصة أو أى شكل أدبى سابق. فإن للسينما طاقاتها الخاصة بدأت غامضة ملفوفة فى فكرة التسجيل، مجرد التسجيل، ثم تحررت وانطلقت إلى

أنها لا تسجل وإنما تنشئ الجديد الخاص بها. إنها لا تعبر عن رواية، هى أثر فنى خالد فى عالم الكلمة المكتوبة، وإنما هى تخلق لنفسها شيئا مستقلا. ربما مستعينة بفكرة من أثر أدبى مكتوب ولكنها تخلق جديداً مستغلا لطاقاتها الشخصية ومميزاتها التى تنفرد بها. طاقة الصورة المتحركة التى تستعين قليلا ثم أقل فأقل بالكلام لتدل على مضمون معين بهدف إحداث أثر فنى خاص .

وابتعد الفيلم ولا يزال يبتعد أكثر فأكثر عن الرواية بمعناها الأدبى وأخذ الفيلم التسجيلى منحى جديدا فكشف عن طاقات جديدة للكاميرا وطاقات جديدة لتتابع الصورة تتابعاً منطقياً أو غير منطقى، واقعياً أو غير واقعى، وعمت السينما موجات من التجديد لا تتفق إلا فى الاستغناء ما أمكن عن الرواية أو المسرحية أو حتى القصة القصيرة بل عن الكلمة المسموعة إذا أمكن .

ولكن الإذاعة تعتمد على كثير من فنون القول. فالشبه قوى بين الكلمة المكتوبة والكلمة المسموعة .

إننا أمام وسيلة نشر جديدة تفوق المطبعة فى طاقاتها من حيث مخاطبة جمهور عريض غير متجانس كما أنها تقع دون المطبعة فى كثير من الطاقات الأخرى.

ولإمكان رصد أثر هذا الوضع الجديد بدخول الإذاعة بالذات ميدان فن الكلمة لابد لنا من وقفة أمام خصائص الكلمة المقروءة وخصائص الكلمة المسموعة لنتبين بعد ذلك كيف يمكن أن يؤثر ذلك فى مضمون الفن القولى وشكله وخاصة فى مجال القصة القصيرة .

الذى يجب أن نقرره أولا هو أن الأدب كفن نشأ أولا كلمة مسموعة قبل عصر التدوين ثم استمر بعده بل ظل فى بعض أنواعه إلى اليوم يعتمد على الكلمة المسموعة فى التأثير فى متلقى الفن .

ثم ما هى الكلمة المكتوبة إنها رمز للمسموعة يتردد صداها فى النفس بشكل مكتوم خافت أو غير محس .



فنحن نقرأ الكلمة المكتوبة وفى مكان ما من المخ يتردد صداها مسموعا. وقد نقف لنقرأها بصوت عال وخاصة عندما نريد أن نحس بالشعر إحساسا أقرب. ولكن هذا لا ينفى أن الكلمة المسموعة لها طاقات أخرى. إن صوت الآدمى ، بحنجرته وهى أعقد آلة موسيقية وأحلاها نغما وأغناها طاقة وقدرة تضيف كل إمكانياتها إلى صوت الحرف الصامت المكتوم فإذا هو شئ آخر. قارن بين قصيدة تقرؤها فى خلوة وحدك

وتردد مقاطعها وبين سماع هذه القصيدة ممن يلقيها عليك وقد برع فى فن إلقاء الشعر بالذات، أو من الشاعر نفسه يقرؤها لك فى حفل عام أو عن طريق المذياع.

لا يختلف اثنان أنه فى فن الشعر المعتمد على الموسيقى يكون الإلقاء المتقن عنصر إضافة جوهرية فى إمكانية التأثير الفنى، ولكن ما نوع هذا الأثر وما هى الظروف التى تساعد عليه أو تحول دونه .

وللرد على هذه الأسئلة لابد من أسئلة كثيرة بغية الإجابة عليها. هل يتاح للفرد أن يسمع هذا الملقى الممتاز وقتما يشاء أى عندما يكون فعلا مستعدا لذلك ؟ قد يتوفر ذلك فى الإلقاء فى حفل أو اجتماع، ولكن الإذاعة تفرض علينا القصيدة وتفرض علينا الملقى وتفرض علينا الزمان الذى نسمع فيه. إنك لا تختار قصيدة لإذاعة ولا ملقيها ولا زمانها مما يضعف من جهة أخرى مدى استجابتك للطاقة الضخمة التى تكسبها كلمات القصيدة من صوت الملقى الممتاز. ثم إنك تسمع هذه القصيدة من المذياع وأنت منفرد ومجتمع فى آن. تعرف أن كثيرين غيرك وربما بعضهم معك يستمعون إلى نفس القصيدة ولكنك فى الواقع منفرد بعيد عنهم لا تجمعك وإياهم قاعة مخصصة لذلك ولم يأتوا كلهم ليسمعوا القصيدة. من حولك حياة منزلية بكل ما فيها من دقائق لا علاقة لها بالإذاعة ، تليفون يرن، صوت مارة فى الشارع، صراخ طفل ..إلخ . مما قد يفسد عليك متعة الاستماع. أين هذا من قبوعك فى ركن وقد اخترت قصيدتك وجلست وحدك فى زمان هادئ ومكان مناسب تقرأ وتحس وتركز وتستمتع. هبك أعجبت ببيت فإنك تكرره وتستعيده ولا يمكنك ذلك بواسطة المذياع. إذن إلى جانب طاقة الصوت الممتاز تراك تفقد كثيرا من مزايا القراءة المستقلة .

والقصة القصيرة تختلف فى هذا بأكثر من القصيدة إنك تحتاج فيها إلى التركيز وإلى اختيار القصة وإلى اختيار الزمان والمكان بشكل ربما أقل ولكن من جهة أخرى فإن طاقة الصوت الملقى الممتاز لا تحتاج إليها كثيرا مثلما تحتاج إليها فى القصيدة. لذلك تجد أن الشعر يقرأ فى المذياع بأكثر مما تقرأ القصص.

أما الرواية الطويلة فإن هذه قد شغلت الناس فيما يتعلق بالفيلم، فيلم الثلاث ساعات أو نحوها، الذى يستطيع أن يستوعبها. ولكن فى الإذاعة أمرها يختلف. لقد جربت إذاعة باريس مثلا أن تذيع بصوت «البير كامو» رواية من رواياته القصيرة فاستغرق التسجيل ثلاث ساعات وأذيعت مسلسلة كما كانت تنشر الروايات مسلسلة فى الصحافة فى أول عهدها، وكما عدلت الصحافة عن ذلك ووجدت الحل فى القصة

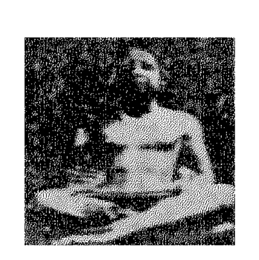
القصيرة فإن الإذاعة مضطرة إلى العدول عن ذلك ولكنها لن تجد الحل فى القصة القصيرة بشكلها الحالى. إن صورة ما من صور القصص القصيرة هو الذى يناسب الإذاعة. صورة يمكن أن تستغل طاقة الصوت الملقى وهنا يدخل عامل التنوع فى الحوار وصورة يمكن أيضا أن تستغل مؤثرات صوتية.. موسيقى وما أشبه ذلك أو صوت عواصف أو جريان نهر أو قفل باب .. إلخ.. وهذا كله يقرب القصة القصيرة من التمثيلية الإذاعية قربا مهددا بفناء القصة القصيرة المذاعة .

ولما كانت الإذاعة تحس بطاقاتها الأكثر وإمكانياتها الأقل فى الوقت نفسه بالنسبة للمسرح لفقدان عنصر الصورة المرئية الضرورية فى المسرحية وفقدان المعايشة المكانية والزمانية الضرورية أيضا فى المسرحية فتحاول الاستعاضة عن ذلك بنوعٍ آخر من المسرحيات تخف فيه الحاجة إلى الرؤية والمعايشة وتكثر فيه الحاجة إلى طاقات الصوت بشرى وغير بشرى وطاقات الموسيقى والغناء أيضا فكذلك الأمر فى القصة القصيرة.

إن النص المقروء للقصة القصيرة يمكن استعادته إلى جانب إمكان اختياره واختيار الزمان والمكان اللذين يرى فيهما المتلقى، أنهما موافقان لاستعداده فى التلقى، ولكن الكلمة المسموعة حتى فى القصة وإن تكن أقل من الشعر لها طاقة كبرى لم تدرس بعض تفصيلاتها دراسة فنية مستوعبة كاملة.

وإذن فالإذاعة لا تستطيع أن تستغل أية قصة قصيرة. إنها لابد أن تختار ما يلائم إمكانياتها. قصة يستطيع الصوت فيها أن يجب كل المزايا الأخرى تركيزا واختيارا واستعدادا للتلقى. وباستقصاء غير شامل ولكنه مقارب، وجد أن أكثر القصص القصيرة نجاحا فى الإلقاء الإذاعى هى نوعان من القصص : قصص ما يشبه الاعترافات والقصص القريبة إلى الغنائية الرومانسية.

إن الكلمة المسموعة لها ثقل تفتقده الكلمة المقروءة. هذا الثقل الذى يفرض إلى الآن احتراما أكثر للمسموع على المقروء. «لقد إذاعت الإذاعة هذا الخبر» فالتصديق له أقرب مما لو قلنا نقلت الصحف هذا الخبر. الإذاعة بشكل أو بآخر تتعلق فى أذهاننا بالدولة أو بما يشبه الدولة من السلطة والقوة مثل شركات الاحتكار العالمية الموجهة لسياسة العالم الرأسمالى. أما الصحافة فإنها حتى فى البلاد التى تخضع فيها لسيطرة الدولة مازالت مرتبطة فى أذهاننا بالمشروع الفردى أو الشركة المستقلة. ومن السهل أن نقبل سيطرة الدولة سيطرة تامة على الإذاعة وليس من السهل أن نقبل سيطرة ما على الصحافة إلا أن تكون سيطرة الشعب نفسه بواسطة تنظيم



من تنظيماته ، للكلمة المسموعة على كل حال ثقل. ولطاقة الإذاعة فى لقط الأخبار وسماع الإذاعات من شتى أنحاء العالم كل هذا يجعل للكلمة المسموعة سيطرة ما على الفكر وأثرا ما فى وزن الذى يقال .

من هنا تأتى قيمة أن ما يقال فى الإذاعة كلما كان موجبا بالثقة فارضا للإيمان به كان مستغلا للطاقة الفعلية للكلمة المذاعة. وقصص الاعترافات أو اللقاءات الصحفية والتحقيقات وما شابه ذلك تجد فى الإذاعة وسيلة أقرب إلى طبيعتها. تعطيها من طاقاتها أكثر مما تعطى غيرها. إن المؤلف نفسه إذا قرأ قصته قد لا يشد اهتمامى ويجذب أذنى للإذاعة ولكنه إذا حدثنى عن نفسه بنفسه فإن هذا أوقع كثيراً. لذلك تكثر الاعترافات وما فى حكمها والمذكرات وما فى حكمها التى تستغل مادة للإذاعة. وقد أثر ذلك فى اتجاه القصة القصيرة فعادت إلى أسلوب الاعتراف فى القصص القصيرة المذاعة ، قد يكون اعترافا بالغربة أو الضياع مثلما نجد فى غربة الشعراء وضياعهم فى الجيل الماضى ، وقد يكون اعترافا بالقلق وبثقل التبعات وضغط الشعور بالالتزام أمام شرور العالم ومعارك تحرره وصيحات احتجاجه فكل ذلك يشد آذان الجماهير العريضة إلى صوت المذياع .

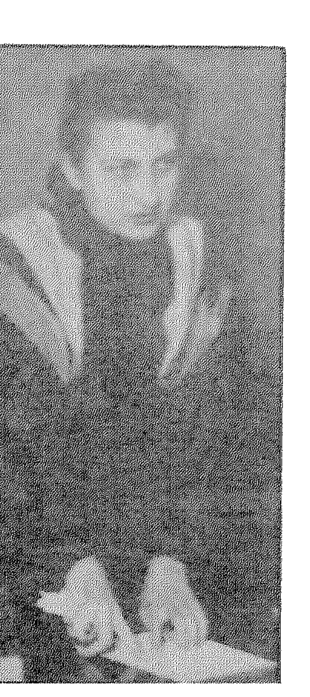
ولانتشار الراديو انتشارا لم يسبق له مثيل فإن الأمر يحتاج إلى مادة مذاعة تختلف .

إن ما يذاع يخاطب الجاهل والأمى، يخاطب البدوى فى صحرائه والفلاح فى حقله كما يخاطب المثقف فى مكتبه بل الفيلسوف فى محراب فكره. كيف إذن يمكن للمادة المذاعة أن تلبى متطلبات هذا الخضم غير المتجانس من ملايين البشر. بشر من أوطان تختلف وظروف وربما عقائد وعادات تختلف لا شئ يجمع بينهم إلا القدرة على الفهم من هذه اللغة. إن اتجاه الإذاعة عادة إلى الجماهير العريضة أى إذن تتجه إلي التبسيط وإلى السهولة، وامتحانها الحق هو ألا تسف بهذا التبسيط وألا تتميع لهذه السهولة وهو امتحان جد عسير ومازالت أرقى إذاعات العالم تعترف بأنها تواجه هذا التحدى فى امتحان عسير كل يوم.

ولكن أثر ذلك يظهر فى القصة المذاعة فنجدها للسهولة تعتمد ربما على آداب شعبية كركيزة سهلة للالتقاء بأكبر عدد ممكن على نداء المذياع وصوته . أو تعتمد على معتقدات لها حرمتها دينية وغير دينية . ومن هنا يتطور مضمون القصة فى منحاه شكلا ومضمونا ليلبى رغبة الجماهير العريضة . جماهير كما أسلفنا فيها الأمى الذى لا يقرأ والأمى الذى لايعرف وإن كان يقرأ ، كما أن فيها المحب للقراءة المدمن لها .

وأدى هذا بدوره إلى أن القصة القصيرة المكتوبة تتعقد بعقد المثقفين ، انها لا تخاطب الأمي وإنما تخاطب القارئين بل القارئين الجادين المريدين لها . فلا بأس أذن من أن تمعن في تبنى تيارات جديدة معقدة تتجه إلى المثقفين الممتازين الذين لا يستسلمون عادة للإذاعة باعتبار أنها تتجه إلى العام أو الكسالى أو الذين لا يريدون من النص الأدبي أكثر من المتعة العابرة . أما المتعمقون الذين لا يمكن أن يستغنوا عن الكلمة المقروءة فهؤلاء يقلون وترتفع نسبة التطلب عندهم لكل ما هو مركز عميق وممتاز.

أن تعود تلقى الفن عن طريق الإذاعة وحدها أو غيرها من وسائل الاتصال بالجماهير يربى عادة الكسل والتقبل لاى شيء ويساعد على انعدام الخيال الفردى والحافز الفردى فى التذوق . وقد يخفف هذا اختيار المحطة المذيعة أو البرنامج الخاص ولكن هذا لا ينفى الأثر الاعم . إن التوازن فى المجتمع قد يأتى عن طريق المسرح وربما السينما بأساليب عادية ولكن التوازن الحق لا يأتى إلا عن طريق الكتاب المطبوع فهو وحده القادر على ذلك بالكلمة المقروءة وما تحتاجه من خيال متجاوب وما تتيحه من فرصة الاختيار (سبب من أسباب تنوع المطبوع وكثرته تنوعا لم يسبق له مثيل من قبل) وكذلك فرصة التركيز والاستعادة والتكرار الخ .



د : سهير القلماوى

صحيح أن الادب لم يستغن فى يوم من الأيام عن الكلمة المسموعة : المسرح ، أنشاد الشاعر للناس أو فى بلاط الحكام ثم الشعراء الجوالون ، التروبادور وشاعر الربابة وكل هؤلاء الذين سبقوا المذياع فى الاتجاه للجماهير العريضة بالكلمة المسموعة ولكن شتان بين أعداد الجماهير أيام الشاعر وأيام الإذاعة وشتان بين تنوع الجماهير أيام الشاعر واليوم . إن أصحاب أدب الكلمة المسموعة فى العصور السالفة كانوا يخاطبون جمهورا متجانسا إلى حد كبير قليل العدد نسبيا بشكل ملحوظ . ومع ذلك فقد أوجد ذلك طبقية فى تلقى الفن عكست آثارها فى القصة فنفتها لمدة طويلة من رحاب الفن الرفيع حتى فرضت القصة نفسها على طبقة المثقفين والعلماء ومن فى حكمهم . وها هى القصة تعود مرة أخرى للجماهير ولكن دون أن تستغنى عن المثقفين الذين كسبتهم بعد معارك طويلة لذلك نراها فى مفترق الطرق الان . هل يمكن للإذاعة – وقد أسلفنا أن نوع قصص الاعترافات والقصص الغنائية الرومانسية هى وحدها التى تلائم آلة الجماهير العريضة – إن تطور هذا الفن بحيث يظل محتفظا بجمهور المستوى الاعلى إلى جانب جمهور المستوى الادنى . هذا هو التحدى .

وقصة أصحاب اختيار التعمق والتركيز تتخذ لنفسها آفاقا جديدة . جملا مشتتة تتحدى قدرة التركيز وصفا للاشياء بدقة تفصيلية تغنى عنها الصورة فى

الظاهر ولكنها غير الصورة المرئية بالمرة وآثارها فى النفس تختلف فى شعيرات دقيقة وانصاف نغم رقيقة خاصة . صورة دقيقة مكتوبة لها طاقة طريفة جديدة تتحدى الصورة المرئية وتستعمل أسلوبها بأداة جديدة ، فهل ياترى توقف أنغاما جديدة ؟

إن مضمون القصة القصيرة الحالى مهما اختلف عن مضمونها فى السابق لايمكن أن يوجد الفرق الفنى الذى يحدد مسار القصة القصيرة فى المستقبل . أن المضمون ، أى مضمون ، لايمكن أن يعطى للاداة طاقتها إلا إذا كان قادرا على الايحاء الفنى . أما الايحاء بالايديولوجيات أو الخلقيات فانه يأتى بعد الفن عندما يتحقق الفن أولا . أن أنبل المشاعر لا تنتج فنا وأخسها خليقة بأن تفسد كل طاقات الشكل الفنية . ولكن الفن بطبيعته لايمكن إلا أن يتبنى أنبل المشاعر وأرقى الاحاسيس وإلا ما استطاع أن يجذب المتلقى إليه . وفن بلا متلق له مثل تمثال رائع جميل مدفون فى قاع النيل فمنذا الذى يمكن أن يسمى شيئا لا دليل على وجوده . إن الفن حلقة متصلة بين منتج وأداة أو نص ومتلق وأى كسر لهذه الحلقة فى أية منطقة منها يمنع تحقيق وجود فن .

إن غزو الصوت الآدمى (مسجلا متحديا الزمن والمكان) لافئدة السامعين ثوره ثانية كما أسلفت فى عالم الفن القولى . ثورة كان المأمول فيها أن توسع دائرة المتلقين وأن ترتفع بنوعيتهم ولكنها مثل ثورة الصحافة تحتاج إلى وقت . لقد عافى المثقفون الممتازون الفن الادبى على صفحات الصحف أول أن نشر ، ثم تدرج الأمر فإذا المجلات المتخصصة الادبية تحل أشكال التقاء القارىء الممتاز بالصحيفة على نحو يرضاه ويمثل له عالما يشبه عالم الكتاب ولكنه أكثر تنوعا وربما أجود اختيارا .

وتلعب البرامج الخاصة (البرنامج الثانى عندنا) ما تلعبه المجلات المتخصصة من دور هو تخفيف آثار الاتجاه إلى جماهير عريضة على نوعية الفن القولى وامتياز مستواه . ولكن البرامج الخاصة هذه مازالت تعانى آلام البعد عن مزايا الكتاب . أن المجلة المتخصصة شبيهة بالكتاب والبرنامج الثانى لايزال مادة مذاعة مفروضة فى زمان بعينه لمختارة بشكل لا دخل للمتلقى فيه فهو إما أن يستمع له وكما هو أو لايستمع أصلا . ومرة أخرى لا مجال للتعمق والتركيز والاستعادة كما أنه لامجال لاختيار الوقت ولا المكان ولا النوعية .

وتقف القصة القصيرة وحدها حائرة المصير . الشعر يتأقلم وصوت الشاعر حبيب حتى ولو خيب ظن القارئين المعجبين بشعره يكفى أن يعتادوه ليحبوه . والقصيدة بطبيعتها قصيرة يمكن أن تتعدد حتى فى اللقاء الواحد . أما الرواية

فترفض أن تتأقلم نهائيا على المذياع . والتمثيلية لها تاريخ آخر وامكانيات أخرى ولكنها تفرض نفسها فرضا على الإذاعة ومهما اختلفت عن تمثيلية المسرح فهى آخر الامر تمثيلية لها فنية المسرح المعروفة ، والخطبة لها كل المكانة فى الإذاعة وسائر أنواع الفن القولى إلا القصة القصيرة وليدة الصحافة وأحدث الاشكال الادبية فانها تقف وحدها مارة بتاريخ يجعلها فى حالة مخاض الاختلاف ؟ لا يدرى أحد ماذا ستلد . هل تكون هناك قصة قصيرة مقروءة غير المسموعة ، مختلفة كل الاختلاف ؟ هل توجد المسموعة والمقروءة باختلاف محدود مثلما نجد فى التمثيلية ؟ هل تندمج نهائيا فى التمثيلية الإذاعية فلا يعود لها كيان مستقل يلقى فيها الحوار حواراً ويكيف السرد فيصبح حوارا أيضا صرفا أو إلى حد .

هذا هو موقف القصة القصيرة حائر بين صورة جديدة لايدرى كيف ستتبلور فى الإذاعة بينما القصة القصيرة المقروءة تشق طريقها بسرعة وتحد عجيبين فى عالم الكتابة وكأنما هى تقول لم أعد فنا جماهيريا إذن فلاصبح أكثر فنون الكتابة تعاليا وتعقيدا وعمقا .

لا شك أن هناك عوامل كثيرة جانبية ستدخل فى أتون التفاعلات التى سينتج عنها الشكل النهائى أو المرحلى الأخير للقصة القصيرة . عوامل الارتقاء بالجماهير العريضة كما ارتقت الصحافة بهم على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن . كذلك عوامل انتشار اللغات الأجنبية مما سيوسع أكثر وأكثر دائرة المستمعين من نوعية أفضل ثم التقاء الحضارات على مسرح التقاء اللغات فى آذان السامعين .

هذا ولم نتعرض للتليفزيون الذى لا يطيق صورة الملقى الثابتة بأى حال حتى ولو كان شاعرا يحبه الجمهور أو مغنيا يعشقه . والمغنى يمكن أن يمثل قليلا ويمكن انتقال الصورة منه إلى تخته إلى مستمعين إلى صور مستوحاة من كلمات الأغنية إلى آلة أكثر مما يعزف عليه التخت الخ . ولكن الشعر أيفسد بكثرة الصور أم يزداد تأثيرا ؟ الثابت من التجارب إلى الان (ولابد من إلى الان) هو أن الشعر يخسر بالصورة ، والقصة أيضا ، مالم تمسرح تخسر بالصورة المستندة إلى الالقاء الثابت .

وعالم التليفزيون عالم واسع عريض وامكانياته لها الكثير وعليها الكثير ولكن القصة القصيرة لم تدخله بعد فلنتركه بكل عالمه أو عوالمه .

إن القصة القصيرة تخوض الان تحدى الإذاعة وحده . كم ذا ستفيد وكم ذا ستخسر والاهم من ذلك إلى أين تتجه . هذا ما حاولنا أن نثير الاهتمام به بهذا المقال .



هل نحن وحدنا العقلاء فى الكون ؟

بقلم : د . عبد المحسن صالح

إن من يقول إن الأرض هى الكوكب الوحيد الذى نشأت عليه مخلوقات عاقلة ، كمثل من يقول إنه هو الوحيد بين بلايين البشر الذى يستطيع أن ينجب ذريةوكل ماعداه عقيم !

إننا نستطيع أن نرى بعض كواكب المجموعة الشمسية بالعين المجردة لقربها منا (كالمريخ والزهرة والمشترى .. الخ) ، ولكننا لا نستطيع أن نرصد كواكب الشموس الأخرى لبعدها السحيق عن أرضنا وشمسنا ، حتى ولو استخدمنا لذلك أقوى التلسكوبات الفلكية ، فأقرب نجم أو شمس - بعد شمسنا - يبعد عنا بمقدار ٢٦ مليون ميل .. ولو لم تكن نجوم السماوات شموسا ضخمة ومشعة كشمسنا ، لما استطعنا أن نراها على مثل هذا البعد الرهيب، فكيف إذن نرى كواكبها وهى ليست شيئا مذكورا بالنسبة لضخامة الشموس : كما أنها ليست أجراسا مشعة كنجومها ؟

ونحن لا نرى الكواكب التى امتلكتها الشموس لتطوف حولها كما تطوف الكواكب حول شمسنا . ولكن ليس معنى ذلك أنها غير موجودة مادمنا لم نستطع رصدها ولا رؤيتها .. ومن يقول : «إن الميكروب غيرموجود لأنني لا أراه بالعين » ، ولكن الطبيب يستطيع أن يعرف وجود الميكروب من أعراض المرض ، كما أن غيره يعرف حلول الجنين فى رحم أم من أعراض الحمل ، رغم أننا لا نرى الجنين ، على نفس المبدأ نعرف الشموس التى «حملته» من أعراض الحمل ، وماحملها إلا كواكب تدور حولها ، ولقد سجلت الأجهزة الحديثة هذه الأعراض بدقة تامة ، وصنفها العلماء على أسس من علم ، فكانت الحوامل وغير الحوامل، فكيف يكون ذلك ؟

لقد نبعت هذه الحقيقة من حالة غريبة يطلق العلماء عليها «حالة الحركة المفقودة » .. فالنجوم الوليدة - أى التى فى دور التكوين - تدور حول نفسها بسرعة كبيرة ، والتى « هرمت » تبطئ حركتها ، وبطء الحركة يشير إلى أن النجم قد أصبح له أسرة من الكواكب .. لا تختلف هذه الحقيقة بين انسان أرتبط بأسرة فيعطيها من روحه وماله وكده ونفسه ، وبين شمس أو نجم له عائلة ، فيعطيها شيئا من طاقته ، أو بمعنى آخر من حركة دورانه حول نفسه ، فتختفى منه لتظهر فيما حوله من كواكب .. وكل شئ هنا بحساب ومقدار ، ولاشئ إلى ضياع أو فناء ، حتى ولو كان ذلك فى حركة نجم أو خلية أو ذرة أو انسان .. ألخ

فلو أن شمسنا قد جاءت بدون أسرة كوكبية ، لكان فى استطاعتها أن تدور حول نفسها أسرع خمسين مرة من وضعها الحالى ، ولكن حركتها المفقودة التى تصل إلى ٩٨ ٪ من حركتها الكلية قد ظهرت فى كواكبها ، وبها دارت !

وبمثل هذه الفكرة استطاع العلماء - من خلال الرصد والحسابات - أن يدللوا على أن كثيرا من شموس هذا الكون أو نجومه تدور حولها كواكب شتى ، أى أن معظمها خصيب ، والبقية الباقية عقيمة - أى بدون كواكب .. والخصيب منها قد يدور حوله كوكب أو كوكبان أو ثلاثة أو ستة أو عشرة أو أكثر ، مثلها فى ذلك كمثل عائلات البشر ، فمنهم

من تتكون أسرته من وليد وحيد أو أثنين أو نصف دستة أو أكثر .. وكلما زاد عدد أفراد الأسرة ، كلما احتاج ذلك إلى مجهود أكثر من رب الاسرة ، وكذلك تكون النجوم ، فكلما زاد حملها بكواكبها ، بطأت حركتها ، وزاد عبؤها !

يحملنا هذا إلى الافتراض بأن الكواكب التى تنتشر فى الكون أكبر عددا من النجوم ، فنجمنا (أوشمسنا) يمتلك وحده كواكب تسعة ، وربما يكون غيره قد حمل على عاتقه » كواكب أكثر مما حمل نجمنا ، أو ربما أقل .. لسنا فى الواقع ندرى ، فما زلنا على درجة كبيرة من الجهل بأمور السماوات .

ورغم أن الكواكب التى تطوف حول النجوم - ولا نراها - قد تقع فى حدود ألوف بلايين البلايين، إلا أن هذا لا يعنى أنها كلها مسكونة بمخلوقات عاقلة أو غير عاقلة ، أو أنها جميعا قاحلة ، فكلا الرأيين لا يستقيم مع عقل أو منطق ، فحيث توافرت الظروف لنشأة الحياة على أى كوكب من الكواكب ، فإنها ستنشأ ، ولا شك أننا نقيس الأمور هنا بنفس المعايير التى نعرفها على كوكبنا أو مجموعتنا الشمسية التي نسكن أرضها ، وقد نكون فى ذلك مخطئين ، أو قد نكون على صواب .. لسنا ندرى !

اذن ... فالأساس واحد

فلكى تنشأ الحياة على الكواكب ، كان لا بد من توافر شروط نذكر منها باختصار :

أن يكون النجم أو الشمس ذا عمر طويل جدا ، أى فى حدود عدة بلايين من السنين ، حتى تتهيأ الفرصة لتفاعلات كيميائية مستمرة على سطح الكوكب التابع لهذا النجم ، وأن يساعد النجم بإشعاعاته وحرارته التى « يرضعها » لكواكبه على مدى عدة مئات الملايين من السنين ، أن يتوج هذه التفاعلات بظهور جزيئات أعقد وأعقد لتنبثق منها الجزيئات الوراثية التى تظهر فى الخلية الأولى (وسنوضح ذلك فيما بعد) .

أن يكون الكوكب على مسافة مناسبة من شمسه حتى يستقبل (الرضعة) المناسبة من الأشعة والحرارة ، لأنها إذا زادت عن الحدود كوته وأحرقته بسعيرها ، وإذا تناقصت ، تجمدت « أوصاله » من شدة البرودة .. ويعتبر كوكب الأرض بوضعه الحالى مثاليا لظهور الحياة وتطورها حتى يومنا .

أن يكون الكوكب فى حجم مناسب ووزن مناسب حتى تصبح الجاذبية ذات أثر فعال على غلافه فالكواكب الصغيرة تفقد غلافها الهوائى .. وتضيع مياها بالبحر فى الفضاء ، لأن جاذبية الكوكب ضعيفة ، ولهذا لا تستطيع الاحتفاظ طويلا بالمقاومات اللازمة لظهور الحياة ، والعكس صحيح مع الكواكب الضخمة التى يجثم عليها غلافها كالكابوس الرهيب .. وأرضنا وسط بين هذا وذاك - وخير الأمور الوسط كما يقولون - حتى ولو كان ذلك على مستوى أجرام سماوية وكواكب !

أن يدور الكوكب على محوره لتتوزع الأشعة والحرارة بالتساوى على سطحه فى فترات متقاربة (كتعاقب الليل والنهار على كوكبنا) .

أن تكون فى الكوكب العناصر المناسبة لنشأة الحياة كما هو الحال فى أرضنا .. وهنا قد يبرز سؤال : وما يدرينا أن العناصر التى نشأت بها الحياة الأرضية هى نفس العناصر الموجودة فى الكون كله ؟

الواقع أن الكون – كما يراه العلماء – وحدة واحدة ، وكأنما هو فى البداية كان بمثابة «بطيخة» هائلة توزعت على هيئة « أطباق » ظهرت فى مجرات ونجوم وكواكب وأقمار .. فالشمس مثلا تشتغل بنفس العناصر التى تشتغل بها كل النجوم، ولقد تكونت الكواكب حول نجومها من نفس المادة التى تكونت بها الأرض وأخوتها الثمانية حول شمسها ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نكتشف عناصر الكون دون أن نذهب إلي النجوم ونحضر منها عينات للتحليل ، فالكون يذيع أسراره على هيئة موجات خاصة ، وكل عنصر فى السماوات يبعث لنا بأطياف عناصر لتسجلها الأجهزة على أرضنا كخطوط ثابتة لا تتغير للعنصر الواحد .. فللأيدروجين طيفه ، وكذلك للحديد والنيكل والكربون .. الخ ، ولقد أصبحت هذه الأطياف أو الخطوط بمثابة « بطاقات الشخصية » أو « بصمات الأصابع » التى تحدد لنا العناصر الموجودة فى الكون ، وهى لا تختلف عن العناصر التى نعرفها فى شمسنا أو أرضنا .. إذن فالأساس واحد ، وإن اختلفت الصور !

كوكب واحد يتيم !

والسؤال الذى يفرض الآن نفسه : كم كوكبا فى الكون يمكن أن يكون صالحا لنشأة الحياة وظهورها ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال ، علينا أن نسقط من حسابنا كل الكواكب التى لا تدور فى فلك نجم مناسب ، أو أنها لا تقع على البعد المناسب ، أو لم تأت بكتلة مناسبة ، أو لم يتهيأ على سطحها الجو المناسب ، أو أية ظروف أخرى لا ندريها ، وعلينا أن نكون حريصين حتى لا نبالغ فى تقديرنا ، ولهذا دعنا نفترض أن من بين كل مليون كوكب لا يوجد غير كوكب واحد يتيم تهيأت فيه الظروف لنشأة الحياة العاقلة ، ورغم أن فى ذلك اجحافا كبيرا « لحقوق » ٩٩٩٩٩٩ كوكبا ، إلا أن هذا لا يدعو للأسف أو الاكتئاب ، إذ سيتبقى لدينا فى الكون المرصود أكثر من ألف مليون مليون كوكب صالح لظهور الحياة ، ولكننا لا نعرف أشكال ولا أحجام ولا ألوان ولا أمزجة ولا لغات هذه المخلوقات التى تسكنها ، ولا ندرى كذلك إن كان بعضها أكثر تقدما ومدنية وحضارة من هذا الإنسان الذى يسكن كوكب الأرض ، أو أن بعضها أحط منه شأنا .

الخلايا ولعبتها الخالدة

والواقع أن الظروف إذا تهيأت لعناصر الكوكب

– أى كوكب – ووجدت البيئة الصالحة لتفاعلها ، فلابد أن تظهر الجزيئات وتتعقد وتتطور وتنتظم فى جزئ كبير يكون تتويجا لهذا التفاعل الذى يستمر عشرات أو مئات الملايين من السنين .

وعندما يظهر هذا الجزئ – الذى هو بمثابة « آدم » الجزيئات فى عالمه – فإن من صفاته التكاثر والانقسام ، أى تخلفه ذرية جزيئية تشبهه فى النظام والتكوين ، وبهذه الجزيئات التى نعرفها الآن باسم الجزيئات الوراثية ، تكونت الخلية الحية الأولى منذ أكثر من ألف مليون عام ، وأصبحت هذه الخلية بمثابة « آدم » الخلايا ، ومنها اشتقت كل سلالات أو أنواع الخلايا التى نعرفها اليوم على أرضنا فى كل المخلوقات من أول الميكروب إلى الإنسان العاقل – ولا يزال كل منا حتى يومنا هذا يبدأ بدايته بخلية ملقحة فى رحم أم ، وكذلك القردة والخنازير والحمير والحشرات والديدان والنباتات .. الخ .

وكل هذا فى الواقع امتداد للخلية الأولى التى تمركزت فيها الجزيئات الوراثية فى نواة ، وأصبحت هذه النواة بمثابة (الإدارة) الحكيمة ، أو العقل المدبر ، أو الأرشيف الدقيق المكدس بالمعلومات الكيميائية ، أو الشفرات الوراثية .... ولقد تطورت هذه المعلومات والشفرات على مر مئات الملايين من السنين حتى استطاعت أن تتوج مشوارها الطويل بإنسان عاقل أو « آدم » البشر كما يقولون ، فأصبح هو الأساس فى كل هذا الطوفان البشرى سلالاته وألوانه وأمزجته ولغاته ، ووراء كل هذا خلية أو خلايا جنسية تنتقل من مخلوق إلى مخلوق من نفس النوع .. وكأنما هى تلعب لعبتها الخالدة ليسير التطور إلى مداه العظيم، وعلى حسب الخطة الموضوعة من قديم الأزل ، لتكون هناك عقول أكفأ وأرقى وأكثر تطورا وتقدما .

إن نشأة الحياة على أرضنا ليست بدعة أو شذوذا أو حالة خاصة ، فهناك نواميس كونية ، وقوانين طبيعية تتحكم فى كوكبنا كما تتحكم فى ألوف الملايين من الكواكب التى تنتشر فى الكون ، ولهذا فإن نشأة الحياة فيها أمر طبيعى .. لكن ليس معنى هذا أن تكون نسخة طبق الأصل لما حدث فى كوكبنا ، فقد تكون بذرة الحياة أو الخلية الأولى التى ظهرت فيها قد تطورت بطريقة أو بأخرى ، ونتج عن ذلك مخلوقات تتأقلم وتتكيف مع ظروف الكوكب الذى نشأت فيه ..

وأيا كانت أشكال أو صفات هذه المخلوقات ، فإن الهدف يتركز فى النهاية على تتويج مخلوقات الكوكب أى كوكب – بعقل مدبر حكيم ، ليكون خليفة فى هذا الكوكب ، كما جاء الإنسان ليكون خليفة فى الأرض .

إن الله يحب الباحثين المفكرين المتأملين فى كل هذا الابداع والنظام المتقن الذى تزخر به السماوات والأرض ، ولقد وضع النواميس ، وترك الأمور

تجرى فى مجراها الطبيعى دون عجلة أو تسرع .. ولقد اكتشف العلماء كل ذلك علي هيئة قوانين كونية تتحكم فى كل هذه الظواهر التى نفهمها والتى لا نفهمها !

إذن فهناك فكرة وهدف ، والهدف هو وجود عقول كثيرة ومنوعة لتنتشر فى هذه الأكوان ، ولتبحث فيما خلق الله .. ففى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى » .. ولن يعرف الخالق إلا بالعقل – أى عقل – فى أى كوكب من بلايين البلايين من الكواكب، وإلا فهل جاء كل هذا بدون هدف أو تدبير ؟

لوقلنا ذلك ، لكان مجيئه بمثابة عبث فى الخلق ، فالكون المعمور أفضل عنده من الكون الخراب ، والعقل المدرك خير من كل صور الحياة غير المدركة .

اكتشافات لا تخطر على بال

إن التطور صفة بارزة من صفات الكون والحياة ، والتطور يحتاج إلى وقت طويل ، فلقد جاء الانسان منذ مائة ألف عام – وهى فترة قصيرة للغاية بالنسبة لمراحل التطور التى سبقت الإنسان ، واستمرت أكثر من ألفى مليون عام ، فجاءت مخلوقات ، وراحت أخرى ، حتى ظهرنا فى النهاية إلا أن الإنسان قضى معظم هذا الوقت هائما على وجهه ، يعيش حياة أقرب إلى الحيوان منه إلى الانسان ، ثم بدأت حضارته فى الظهور تدريجيا منذ حوالى ١٥ ألف عام ، إلا أن قفزته الهائلة فى المعرفة ، وحصيلته من العلوم التجريبية بدأت منذ حوالى قرنين من الزمان ، وبلغت قمتها فى القرن العشرين ، ومجدها فى النصف الثانى من القرن العشرين .. ولكن الأمجاد الحقيقية ستأتى على أيدى الأجيال القادمة .. فكل شئ سيتطور تطورا هائلا مادام العقل قد اشتغل ، وأمام هذا العقل المتطور ألوف الملايين من السنين ، فما زالت شمسنا فى عنفوان شبابها ، وستبقى فى هذه المرحلة النضرة أكثر من خمسة آلاف مليون عام ، وما دامت هناك شمس قائمة ، فلابد من وجود أرض وإنسان ، ومالم يدمر هو نفسه بنفسه ، فإن حياته على أرضه ستستمر كل هذا العمر الطويل !

ترى .. إلى أية درجة من العظمة والتطور العقلى سيصل الإنسان بعد ألف أو ألفى مليون عام ؟ .. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بشئ ، ولكن من المؤكد أنه سيتوصل إلى حقائق ومعلومات واكتشافات لا تطرأ لنا على بال ، ولا تخطر فى عقولنا حتى ولو بطيف خيال .. وقد يقول عنا أحفادنا فى المستقبل البعيد « كم كانوا بعقولهم متحجرين هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الأزمنة الغابرة ! » كما نقول الآن على انسان العصر الحجرى الذى لم يعرف من الأدوات إلا الحجارة .

إنه إذن عامل الزمن ، والتطور يحتاج إلى زمن، وكلاهما صفتان من صفات الكون !

العقول المفكرة المتطورة

إن ما يسرى على المخلوقات يسرى أيضا على الكواكب والنجوم ، فالكل يسير فى عملية خلق وتجدد وتطور مستمر .. فالمخلوق ينشأ ثم يمر بمراحل العمر ويموت ، وينشأ غيره .. وكذلك الحال مع النجوم ، فلقد سجل العلماء بمناظيرهم الفلكية نجوما فى مراحل التكوين ، ونجوما فى حالة الأحتضار ، أو ما بين ذلك تكون أقدار النجوم الأخرى .. فعمر شمسنا وكواكبها يقدر بحوالى خمسة آلاف مليون عام ، وأمام الشمس عشرة آلاف مليون عام أخرى قبل أن تهرم وتحتضر وتموت ، ومعنى هذا أن كثيرا من نجوم السموات أقدم بألوف الملايين من السنوات من عمر شمسنا وأرضنا ويتبع ذلك أن بعض الكواكب المعمورة التى تطوف حول نجومها قد نشأت قبل نشأة شمسنا وأرضنا بمئات وألوف الملايين من الأعوام .

ويتبع ذلك أيضا أن بعض المخلوقات العاقلة التى تسكن هذه الأكوان قد ظهرت قبلنا بمئات أو ألوف الملايين من الأعوام ، وهى فترة لا تقارن بالمائة ألف عام التى مضت على ظهور الإنسان على كوكبنا ، ويعنى هذا وجود عقول أكفأ وأذكى بكثير من عقول أهل الأرض .. لأن الزمن - كما ذكرنا - كفيل بتطوير العقول ، وربما الحواس أيضا .. وقد تكون بين مخلوقات الكواكب الكونية (ولا شأن لنا هنا بمخلوقات كواكب الأسرة الشمسية إن وجدت فى غير الأرض) عقول ترى وتستوعب أبعادا أكثر من أبعادنا ، فنحن لا نستطيع مثلا أن نرى البعد الزمنى أو البعد الرابع كما يطلقون عليه ، رغم أنه منسوج فى الكون ، ولكننا نرى فقط أبعادا ثلاثة ، فتبدو بها الأشياء أمامنا مجسدة .. وقد تكون هناك مخلوقات أخرى ترى أبعادا خمسة وستة وسبعة .. ألخ !

لقد توصل العلماء - بالفعل - إلى هذه الأبعاد فى معادلاتهم الرياضية ، وليس لها ، بطبيعة الحال مغزى ، لا فى عقول العلماء ولا فى عقول الناس .. وربما لأن عقولنا وحواسنا لم تتطور بالدرجة التى تصلح لاستيعاب أسرار الكون الغامضة .. وربما استوعبتها المخلوقات العاقلة الأخرى التى ظهرت قبلنا فى الكون بمئات وألوف الملايين من الأعوام !

وليس ببعيد أن يتطور عقل الإنسان فى عشرات الملايين من السنوات القادمة إلى درجات هائلة .. فهدف الخالق يتركز على العقول المفكرة المتطورة .. لا الجامدة ، لأن الكون نفسه ليس جامدا ، بل أساسه الحركة والتفاعل والنظام والجمود .. فقال : « لو كنتم تعلمون ! » .

احتمال غير محتمل

يبرز الآن أمامنا سؤال أخير : إذا كان الكون يحوى ملايين الملايين من الكواكب المعمورة بمخلوقات عاقلة ، وكان بعضها أكثر منا تقدما وعلما وحضارة وعقلا وتفكيرا ، فلماذا لم يحاولوا الاتصال بنا حيث نحاول نحن ذلك رغم القصور

النسبى فى علمنا وتقدمنا ؟

يجيب على ذلك « آرثر كلارك » فى كتابه « الإنسان والفضاء » فيقول أن هناك احتمالات ، ولك أن تختار منها ما تشاء .

احتمال أننا المخلوقات الوحيدة العاقلة فى الكون ، وهذا فى الواقع احتمال غير محتمل ، ولو قلنا ذلك ، لكان دليلا على الجهل أو أن الإنسان مصاب بجنون العظمة !

احتمال أننا على قدر كبير من عدم الذكاء لدرجة أن أحدا من أصحاب العقول الخارقة الذكاء لا يجد فينا ما يثيره حتى يكلف نفسه مشقة الاتصال بنا ، وهو احتمال مقبض ، ولكنه أكثر احتمالا !

احتمال أنهم قد حاولوا الاتصال بنا ، أو أنهم يحاولون ، ولكننا لم نستطع أن نتوصل إلى كيفية استقبال اشاراتهم أو رموزهم (وقد يكون الاتصال قد حدث منذ مئات أو عشرات الألوف أو ملايين السنين .. فنحن حديثو العهد جدا بأجهزة الاستقبال الكونية) .

احتمال أنهم يراقبوننا ويدرسوننا بأجهزتهم المتقدمة كما يراقب دارسو المخلوقات الدنيئة الميكروبات مثلا تحت عدسات الميكروسكوب !

احتمال أن السفر بين النجوم غير ممكن لأسباب تكنولوجية ، أو لأخطار كامنة فى الفراغات الهائلة التى تفصل بين النجوم (ونحن فى الواقع لا نعرف عنها شيئا) ولهذا لم يحضروا لزيارتنا .

احتمال امكان السفر بين النجوم ، ولكن عدد الكواكب التى تطوف حول نجومها فى الكون كعدد حبات الرمل المنتشرة على شواطئ بحار ومحيطات العالم ، ولذلك فإن اختيار كوكبنا للزيارة احتمال ضئيل للغاية .. مرة واحدة فى عدة ملايين من الأعوام !

ومن يدرى ؟ .. فقد نلتقط اشارة بالأجهزة الضخمة التى شيدها الانسان حديثا على أرضه ، ربما نلتقطها غدا أو بعد ألف عام أو مليون عام ، لسنا ندرى .. ولكن الاحتمال قائم ، كما أن زيارتهم لكوكبنا قائم ، وعندئذ سنعرف الخبر اليقين .. قد يكون ذلك فى جيلنا أو فى ملايين الأجيال القادمة ، أو قد لا يأتى هذا اليوم على الاطلاق ، وتبقى أمور الكون مدثرة بالسرية والغموض !

وما نهاية المطاف إذن ؟

لا نهاية .. وإذا أردت نهاية ، فإليك الآية الكريمة « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » !

يونيه ١٩٧٢



ـــــولان
التــاريخ
الاستراتيجية
والمستقبل

من تحقيقات الهلال

ـسأت أهمية الهضبة السورية وزاد
ـث عنها ، بعد حرب يونيه ١٩٦٧ ..
احتلت القوات الاسرائيلية مدينة
ـطرة السورية يوم ١٠ يونيه ١٩٦٧ ،
لم تحتل هضبة الجولان الا بعد
ـك عنيفة مع الجيش السورى .
ـبعد محاولات متتالية من الجيش
ـرائيلى استمرت يومى ٩ ، ١٠ يونيه .
ـذ ذلك اليوم وقادة اسرائيل يعلنون
ـلوجود الاسرائيلى - فى الاراضى
ـفظ بها - هو الامل الوحيد لتحريك
ـومات العربية لقبول المفاوضات مع
ـئيل .

وقد توالت تصريحات قادة اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ ، تؤكد أنه ليس فى النية التنازل عن الهضبة السورية (الجولان) ...

ففى المؤتمر الاقتصادى اليهودى العالمى بالقدس فى ٢٦ / ٠٦/ ١٩٦٩ صرح موشى ديان بقوله : « الجولان هى جزء لا يتجزأ من اسرائيل ، ويجب أن يعتبرها كذلك كل من سلطات اسرائيل ويهود العالم » ..

وكان آخر التصريحات التى تمت بهذا الخصوص ما صرحت به جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل فى حديث اذاعه راديو تل أبيب ونشرته الصحف يوم ٢ / ١٢ / ١٩٧٣ : « ان حدود السلام لا يمكن أن تكون حدود ما قبل حرب الأيام الستة ، ولكننا مستعدون لكثير من التنازلات ، وإن كان موقفنا من القدس والجولان مقررا » ...

ومن وقت قريب نقلت الصحف العربية تصريحات أدلى بها بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل الاسبق والذى توفى أخيرا :

« اذا كان علينا ومقابل السلام أن نتخلى عن السيادة السياسية من أرض اسرائيل ، فإننى أنصح مواطنى بالجلاء عن معظم الاراضى المحتلة باستثناء القدس والجولان » ..

وحديثنا فى هذا المقال يشمل :

- الموقع الجغرافى للهضبة السورية (الجولان) ضمن طبيعة الارض السورية .
- لمحة تاريخية .
- الاهمية الاستراتيجية العسكرية للجولان .
- بعض المشروعات التى أقامتها اسرائيل بالهضبة السورية (الجولان)

الموقع الجغرافى وطبيعة الأرض

نظرا لأن الهضبة السورية هى جزء لا يتجزأ من الجمهورية العربية السورية - طبيعيا وتاريخيا وسياسيا - فمن الضرورى ايضاح طبيعة الاراضى السورية قبل التعرض للموقع الجغرافى ... وطبيعة الارض للهضبة السورية (الجولان) ..

أرض الجمهورية العربية السورية

تحد شمالا بتركيا ، وجنوبا بالاردن ، وغربا بلبنان وفلسطين المحتلة ، وشرقا بالعراق ويتكون الجانب الاكبر من الاقليم من هضبة مرتفعة ، يتراوح ارتفاعهما ما بين ٢٠٠ و ٧٠٠ متر ، وهى مناسبة لتنفيذ الاعمال القتالية لكافة الاسلحة .

وتمتد بادية الشام (صحراء الحماد) الى منطقة الحدود مع الاردن والعراق . وهى صحراء مستوية ويسهل وصول جميع الاسلحة اليها .

وتتواجد الجبال اساسا فى غرب الاقليم ، وهى تتكون من سلاسل جبلية تمتد من الحدود التركية فى الشمال الى الحدود اللبنانية فى الجنوب ، وأهم هذه الجبال جبل الشيخ ، والجزء الجنوبى الغربى لهذا الجبل يتحكم فى اجزاء من أراضى لبنان وسوريا وفلسطين .

هضبة الجولان

تقع فى أقصى الجنوب الغربى لسوريا ، وهى ترتكز فى الشمال على جبل الشيخ ، وتنحدر غربا الى نهر الاردن بحيرة طبرية ، منطقة الحولة

وتستند فى الجنوب على جزء من الحدود السياسية بين سوريا والاردن ، وتمتد شرقا الى بادية الشام .

وطبيعة الارض فى شمال الهضبة جبلية صخرية تتدرج فى الارتفاع فى اتجاه الشمال الغربى ويتخللها عدد من مجارى السيول التى تتجه فى اتجاه الشرق والجنوب الشرقى والجنوب الغربى .

وفى وسط الهضبة تنفتح الارض ويتخللها بعض مناطق تحتوى على صخور ركامية واراض منخفضة ، وتتدرج الارض فى الارتفاع من الشرق فى اتجاه الغرب ، ثم تبدأ فى الانخفاض مرة ثانية، الى أن تنتهى عند الميول الحاد للهضبة عند وادى ونهر الاردن ، ويعتبر هذا الجزء اصلح المناطق لعمليات القوات الميكانيكية وخاصة على المحور «القنيطرة – جسر بنات يعقوب » ثم الى الاراضى المحتلة .

وفى جنوب الهضبة أرض جبلية تتعوج فى بعض اجزائها وتتدرج فى الارتفاع حتى تتجه شرقا حتى خط المقيبرة جسم الجولان ، حيث تبدأ فى الانحدار ثانية فى اتجاه الشرق .

ويعتبر هذا الجزء من الهضبة صالحا نسبيا لعمل القوات الميكانيكية وخاصة على الطرق ...

وتنتشر بالجولان عدة مدن صغيرة ، ومن أهمها القنيطرة التى تبعد عن دمشق بحوالى ٦٤ كيلو مترا . وترتبط بها بطريق أسفلتى يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى الى جسر بنات يعقوب ، ويصل الى صفد بالارض المحتلة .

وترتفع الهضبة بحوالى ٣٠٠ متر عن الأراضى المنخفضة فى فلسطين المحتلة ، وهى لهذا تعتبر متحكمة فى كافة المستعمرات الواقعة فى فلسطين وعلى مقربة من حافتها ، ومن هنا تتحدد أهمية هذه الهضبة .

وأعلى جبال الهضبة هو جبل الشيخ ، ويبلغ ارتفاع قمة حرمون به الى ٢٨١٤ مترا فوق سطح البحر .

وحافته الجنوبية الغربية تقع عند التقاء الحدود بين سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة ، وهو بذلك يعتبر من أهم المواقع المتحكمة فى الهضبة .

لمحة تاريخية

كان يحد فلسطين من الشرق (قبل ان تحتل الجزء الاكبر منها القوات الاسرائيلية ، أى قبل عام ١٩٤٨) – الجمهورية العربية السورية والمملكة الاردنية الهاشمية ، على خط يمتد من غربى بانياس ويسير جنوبا على طول الضفة الشرقية لنهر الاردن والشواطىء الشرقية من بحيرة طبرية ويتجه جنوبا بشرق الى محطة الحمة الواقعة فى الجمهورية العربية السورية .. ثم يكمل سيره جنوبا على محاذاة ضفة الاردن الشرقية حتى مصبه فى البحر الميت ، ثم يمتد بشكل وهمى بحيث يقسم البحر الميت الى قسمين متساويين (شرقى وغربى) ثم بعد أن ينتهى من الطرف الجنوبى للبحر الميت يكمل سيره مع انحراف قليل الى الشرق على طول سلسلة جبال الشراء الى أن ينتهى عند خليج العقبة فى رأس طابا على بعد ميلين الى الغرب من مدينة العقبة .

وكانت الجولان هى المنطقة الفاصلة بين الجمهورية العربية السورية واسرائيل قبل عدوان يونيو ١٩٦٧ ، وهى تشغل ساحة عمليات صعبة لكلا الطرفين حيث لا تساعد طبيعة المنطقة على القيام بالمناورات الواسعة ، ويصعب على قوات اسرائيل خرق الجبهة السورية والتى تمتاز بمواقعها الحصينة ذات العمق الكبير .

وقد كان ذلك سببا فى فشل الهجوم الاسرائيلى الذى تم بالمواجهة فى يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ فى اتجاهين : الاول من جنوب بحيرة طبرية فى اتجاه خسفين ، والثانى من مرتفعات جسر بنات يعقوب فى اتجاه القنيطرة ، مما دعا الاسرائيليين الى أعادة الهجوم يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ من على الاجناب من الشمال من داخل الاراضى اللبنانية ومطوقة وبانياس فى اتجاه القنيطرة ومن جنوب بحيرة طبرية فى اتجاه الشمال الشرقى فى اتجاه خسفين .

الاهمية الاستراتيجية والعسكرية للجولان

١ - تمتد الحدود بين اسرائيل وسوريا حاليا الى مرتفعات الجولان ومشارف الحرمون ، ولهذه الحدود المزايا الآتية من وجهة النظر الاسرائيلية :

أ - تدعم كثيرا حالة الامن الحالية فى الجليل الاعلى والجليل الاسفل وغور الاردن .

ب - تسهل الوضع الدفاعى ضد أى هجوم سورى محتمل .

جـ - تستخدم كقاعدة انقضاض مثالية للهجوم المضاد امام أى هجوم سورى .

د - لا يفصلها عن حدود الاردن الشمالية أى عائق ، وهذه الحقيقة تتيح أمكانيات لفتح جبهة أخرى ضد الاردن اذا ما دخلت الاردن الحرب ضد اسرائيل .

هـ - انها قريبة من تجمع الدروز فى جنوب سوريا .

و - تعتبر هضبة الجولان الحد الطبيعى الشرقى الآمن مع سوريا .

وقد أوضح ايجال ألون نائب رئيسة الوزراء الاسرائيلية وجهة نظره فى الحدود الآمنة بالاتى :

« الحدود الأمنة هى تلك الحدود السياسية التى ترتكز على عمق اقليمى وعقبات طبيعية مثل المياه والجبال والصحراء والممرات الضيقة التى تحول دون تقدم جيوش برية مزودة بمدرعات ، وهى الحدود التى تمكن من اتخاذ وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الحدود تستخدم كقواعد مناسبة للقيام بالهجوم المضاد » .

٢ - يتوفر فى الاتجاه العملياتى ، والذى يمتد من حدود لبنان حتى جنوب بحيرة طبرية والذى يبلغ عرضه من ١٠٠ - ١٢٠ كم ، وعمقه ١٥٠ كم - عدد من المحاور والطرقات التى تخترق هضبة الجولان ، وأهمها محور دمشق القنيطرة - جسر بنات يعقوب ، وتتجلى أهمية هذا المحور بأنه الاتجاه الرئيسى لاى عمليات عدوانية ضد الجمهورية العربية السورية فى حالة اتخاذها الدفاع ، كما أنه الاتجاه الرئيسى لتقدم القوات



العربية وبلوغها أهم أهدافها عند تحرير الارض العربية المغتصبة (هضبة الجولان) ، ويبلغ حجم القوات الممكن استخدامها فى هذا الاتجاه من ٣ - ٤ فرق .

٣ - يشرف جبل الشيخ على مناطق واسعة من الجولان المحتلة ومن الاراضى السورية (ويبلغ ارتفاع الجبل ٢٨١٤ مترا) وقد أقامت اسرائيل عليه نقطا للمراقبة العسكرية ومحطات للرادار .

٤ - تسيطر هضبة الجولان على وادى الحولة باكمله ووادى الاردن وبحيرة طبرية .

٥ - ازال تجفيف بحيرة الحولة احد العوائق الكبرى التى تحمى الجليل ضد الهجوم السورى الى وادى الحولة ، كما اضاف أرضا كبيرة صالحة للرقعة الزراعية بالمنطقة .

٦ - تتوفر المياه فى المنطقة ، فمياهها غزيرة (١٠ ملايين مترمكعب سنويا) وهى تكفى لانعاش زراعات كثيرة مختلفة من منتجاتها : (الطماطم ، البصل ، البطاطس - الجوز - الفراولة - الكمثرى - الخضراوات) .

بعض المدن والمراكز السياحية فى الجولان :

منطقة الطرف الجنوبى الغربى لجبل

الشيخ الذى يشرف علي مناطق واسعة من اسرائيل والاراضى السورية .. وقد بنت عليه اسرائيل نقطا للمراقبة العسكرية ومحطات للرادار، ثم مستعمرة على سطح الجبل على أرض قرية جباتا الزيت العربية على خط وقف اطلاق النار مع سوريا وسط منطقة من الجبال والمرتفعات . كما أنشأت مبنى للرياضة الشتوية والتزحلق على منحدر الجبل .

مدينة القنيطرة

وتعتبر قاعدة للهضبة السورية (الجولان) وأكبر المدن بها ، وكان بها قبل عدوان يونيو ١٩٦٧ حوالى ٣٠٫٠٠٠ نسمة ، وقد أجلى الاسرائيليون كل أهلها واقاموا بها مركزا عسكريا قواته جنود نظاميون ، وفندقا واستراحة ... كما أنشأ الاسرائيليون به « كيبوتز » وهو الكيبوتز الاول فى منطقة الجولان ، وسموه « كيبوتزها جولان » ثم ناحال سمى « ناحال هاجولان » على بعد ٢,٥ كيلو متر من خط وقف اطلاق النيران بين سوريا واسرائيل .

كما أنشأت سدا للمياه قرب القنيطرة يخزن به ٣٥ الف م٣ ويتسع عند الحاجة الى ٢ ١/٤ مليون م٣ ..

الحمة

وبها « ينابيع الحمة » المعدنية الصحية الشهيرة والتى أقام العرب فيها منشآت ذاع صيتها فى العالم منذ عشرات السنين ، وقد استغلها الاسرائيليون لاغراض السياحة .

مدينة فيق

وهى فى الجزء الجنوبى من الهضبة السورية ، وكان عدد سكانها فى يونيو ١٩٦٧ أقل من ٢٠٫٠٠٠ نسمة .

مشروعات ومستعمرات اقامتها اسرائيل فى الجولان

١ – ورد الإعلان الاول خارج فلسطين المحتلة عن تمسك اسرائيل بالجولان بانشاء مستعمرات فيها – فى مقال نشرته جريدة « الجارديان » ، اللندنية فى ٨ / ٨ / ١٩٦٧ ، وقد حمل حجة اسرائيل التقليدية « نحن ننشىء المستعمرات لحماية نسائنا واطفالنا ما دمنا عاجزين عن اقناع العرب بمصالحتنا ، وكلما تأخر العرب فى عقد الصلح معنا أصبح الوصول الى هذا الصلح اكثر صعوبة ، اذ نكون قد أنشأنا المزيد من المستعمرات .. »

كما أعلنت اسرائيل انها قررت البدء فى اقامة نحال فى بانياس على بعد ٧٠ كم من دمشق وقرب أحد مصادر مياه الاردن .

وقد استمرت اسرائيل بعد ذلك فى اقامة المستعمرات والناحال والكيبوتز محل المدن السورية مثل (بانياس ، والقنيطرة ، وبلدة عين زيوان جنوب القنيطرة ٥ كم) وعلى سفح تل الفرس .

وفى اقل من سنة بعد احتلال هضبة الجولان، كانت اسرائيل قد اقامت عددا من المستوطنات اليهودية ، ولم تكتف اسرائيل بالانشاءات بل شقت الطرق واعطت المنح والقروض لاستغلال الاراضى واستصلاحها ... وقد انفقت الوكالة اليهودية خمسة ملايين ليرة اسرائيلية على بناء وتطوير المستعمرات فى الجولان ، فى اول سنتين للعدوان الاسرائيلى ، وواصلت اسرائيل اقامة المستعمرات داخل الهضبة واسكان العسكريين بها ، وقد حرصت على اقامة المستعمرات فى المناطق الخصبة والتى كانت فى الماضى طريقا للفدائيين الفسلطينيين يدخلون منها الى الاراضى المحتلة لزرع الرعب فى نفوس الاسرائيليين ...

وقد جاء فى مقال نشرته جريدة « ها ارتس » الاسرائيلية « انه قبل الخامس من يونيه كان الوصول شرقا فى اتجاه سوريا فى منتهى الصعوبة أما الان فلم يعد بامكان الفدائيين ان يعبروا المنطقة بفضل قيام المستعمرات ... »

وقد أعلن مدير منطقة الجليل فى ١٩/٥/١٩٦٩ أن الوكالة اليهودية ستصرف ٣٠ مليون ليرة اسرائيلية فى اعمال البناء فى الجولان فى مدة ثلاث سنوات ، وأن ما استصلح بواسطة هذه الوكالة من أراضى الجولان يبلغ ٥٠ ألف دونم ، وقد قام بهذا العمل ١٥ الف عامل .. كما قال أن اسرائيل تخطط ليصبح عدد المستوطنات فى الجولان ٢٥ مستوطنة مساحتها ١٧٠ الف دونم ، وسكانها ١٣ الف شخص ينتجون بما يعادل ٥٥ مليون ليرة اسرائيلية سنويا ... وقد أصبح بالهضبة الان ما يقرب من ٣٥ مستوطنة .

٢ - اقامة شبكة واسعة من طرق المواصلات للربط بين المستوطنات وبعضها البعض ، وبها طريق رئيسى يشطر الجولان شطرين من الجهة الجنوبية الغربية الى الشمالية الشرقية ويتفرع منه عدة طرق فرعية .

يتضح مما تقدم - وهو بعض ما قامت به القوات الاسرائيلية المعتدية من مشاريع ومستعمرات داخل الهضبة السورية ، وما أمدت به المستعمرات من خدمات - أن اسرائيل تعتزم البقاء فى المنطقة واستغلالها ...

ختـــام

هذه لمحة سريعة مختصرة عن تاريخ وأهمية الهضبة السورية (هضبة الجولان) ، وما قامت به القوات الاسرائيلية العدوانية من مشروعات وما أقامته من مستوطنات راغبة فى الاحتفاظ بها معلنة ذلك على ألسنة زعمائها وقادتها ... فهل أمنت اسرائيل ؟ ... لا ! أنها مازالت خائفة من القوات المسلحة السورية والفدائيين الفلسطينيين ...

لقد اتجهت اسرائيل اخيرا الى منع بناء البيوت الحجرية فى المستعمرات الجديدة ، والاستعاضة عنها بالاكواخ الخشبية حتى يسهل نقلها حسب متطلبات الأمن ...

وسوف تتبخر آمال اسرائيل واحلامها فى الاحتفاظ بالجولان ، عندما تستعيد سوريا وقواتها المسلحة الباسلة هضبتها ، وترفع رايتها فوق كل جزء منها ، فالهضبة السورية (الجولان) هى جزء لا يتجزأ من أرض سوريا العربية الحبيبة ...

مدينة

عربية

فاضلة

على شاطىء البحر المتوسط

د . بطرس بطرس غالى

التاريخ المعاصر يفرض على الدول الصغرى أن تتحد لتكون فيما بينها كائنات كبرى تستطيع أن تواجه مقتضيات العصر ، وهناك دول فرضت عليها ظروف ماضية أن تتجزأ ، فالظروف الحاضرة تفرض عليها أن تتقارب ثم تتآلف ثم تتحد لتعود إلى ما كانت عليه ... والوطن العربى كان وحدة واحدة فى فترة من تاريخه الطويل ، ثم قضت عليه ظروف التطور والاستعمار أن يتجزأ ، وقد آن الأوان لكى يتخلص من هذه التجزئة ويعمل على الوحدة .

فى مقدمة القضايا التى تعترض طريق الوحدة اختيار عاصمة لها ، لان عواصم الاقطار العربية التى ستتحد تتنازع هذا الشرف ، وتتنافس فى سبيله . فالقاهرة مثلا ستقول إنها أكبر عاصمة فى الوطن العربى وإنها القلب النابض لكل حركات تقدمية قامت فيه .

ومكة المكرمة ستقول : انها الحرم الذى يؤمه جميع المسلمين فهى جديرة بهذا الشرف .

وستقول القدس : إنها عاصمة الديانات السماوية الثلاث .

ودمشق ستقول : إنها عاصمة الأمويين ، كما تقول بغداد إنها عاصمة العباسيين .

مدينة الجزائر

ميناء الاسكندرية

ومدينة الجزائر ستقول إنها عاصمة المليون شهيد ، وهكذا وهكذا ...

تستطيع كل عاصمة لدولة عربية أن تتقدم حين تقوم الوحدة بعشرات من الحجج القوية لتبرر كونها أصلح من غيرها لتكون عاصمة للوطن العربى فى تكتله الجديد .

●●●

وإذا استقصينا تاريخ الفكر الوحدوى على مر العصور وجدنا أن اهتمام الدعاة الأكبر كان موجها الى اختيار البلد الذى يكون عاصمة للوحدة المنشودة . فأمريك كروشويه ذلك المفكر الفرنسى الذى نادى بوحدة أوربا ، بل ونادى بوحدة العالم فى القرن السابع عشر اقترح أن تكون مدينة البندقية بايطاليا عاصمة وحدته المبتغاة .

أما «سوللى» وزير خارجية هنرى الرابع ملك فرنسا ، فإنه فى مشروعه الأعظم نادى بوحدة أوربا واقترح لها ثلاث عواصم : فمدينة كراكوفيا فى بولندا تكون عاصمة للوحدة التى تتألف من بولندا والسويد والدانمرك والمانيا . ومدينة ترانت بايطاليا عاصمة للوحدة المكونة من سويسرا والتيرول والمجر ونابلى وسيسليا . أما مدينة باريس فتكون عاصمة المجموعة المؤلفة من فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وهولندا .

أما القس «سان بيير» فتقدم بمشروعه المشهور لإقامة سلام دائم فى أوربا وصاغه فى كتابين يقعان فى ١٢٠٠ صفحة ، وقد نشرا فى بداية القرن الثامن عشر ، وكانت المادة الأولى من دستور الدولة الاتحادية التى يقترحها تنص على أن تكون مدينة أوترخت بهولندا عاصمة للاتحاد الاوربى المقترح ، ويبرر اختياره لها بأن الهولنديين شعب تجارى يتميز بطبيعة الهدوء ، وهذه الصفة تجعله يعنى باستتباب السلام والأمن ، ثم إن هذه المدينة - فى رأيه - ستكفل لممثلى الدول إقامة طيبة تهدأ فيها أعصابهم لما تمتاز به من طيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وحسن الموقع مما يجعل حسن التفاهم مكفولا بين ممثلى الأقاليم .

●●●

وفى العالم العربى نجد أن دعاة الوحدة قد اهتموا كذلك باختيار العاصمة ، فعبد الرحمن الكواكبى الذى نادى بالوحدة الإسلامية فى كتابه «أم القرى» جعل مكة المكرمة هى العاصمة المختارة لأنها ملتقى كافة المسلمين فى موسم الحج كل عام.

وإذا تجاوزنا الماضى وانتقلنا الى التجارب الوحدوية الحديثة نجد أن اختيار العاصمة كان دائما موضع خلاف وصراع بين الدول الراغبة فى الاتحاد حتى أن كثيرا من الحركات الاتحادية أنشأت لنفسها عاصمة جديدة بعيدة عن العواصم القطرية لتأمن بذلك عادية الصراع والتنافس . فأنشئت واشنطن فى الولايات المتحدة الأمريكية لتكون عاصمة للاتحاد ، وكذلك انشئت برازيليا لتكون عاصمة للولايات المتحدة البرازيلية ، وكان مبعث اختيارها وقوعها فى وسط الولايات .

والدول الاتحادية التى لم تستطع أن تنشىء لنفسها عاصمة جديدة قبل أن تتحد أو بعد اتحادها تعرضت لكثير من المنازعات والمتاعب

بسبب العاصمة ، لذلك ظلت لها أكثر من عاصمة ، فهولندا حتى اليوم لها عاصمتان هما لاهاى وامستردام ، وبعض البلاد الاتحادية توزع الهيئات الحكومية على أكثر من عاصمة لتكسر حدة التنافس فسويسرا جعلت مقر السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية فى مدينة برن ، وجعلت مقر المحكمة الاتحادية العليا فى لوزان .

تلك الامثلة تبين أهمية حسن اختيار عاصمة للوطن العربى منذ الآن ، حتى اذا ما أتيح للجهود المبذولة أن تنجح فى تحقيق الوحدة الشاملة للوطن العربى تكون العاصمة معدة ومهيأة للقيام بدورها القيادى ، ومنذ البداية نستبعد فكرة أن تكون أية عاصمة من العواصم القطرية هى العاصمة المختارة مستقبلا للوطن العربى المتحد ، لأن التجارب التاريخية يستفاد منها أن اختيار عاصمة قطرية لتكون عاصمة للوحدة المنشودة تمنح القطر الذى وقع الاختيار على عاصمته نوعا من السيطرة على الوحدة مما يخل بتوازن القوى المنشودة ، ويسبب بعض الاحتكاكات وبعض المنازعات .

ويضاف إلى ذلك أن الوحدة العربية المرادة ستكون تجربة جديدة وفى حاجة الى أجهزة جديدة، ومن هذه الأجهزة مدينة جديدة تنشأ خصيصا لتكون عاصمة للوحدة .

فاذا كان الاتفاق قائما على أن عواصم مثل القاهرة ، أو الرباط ، أو تونس ، أو مكة ، أو دمشق وغيرها لا تصلح لأن تكون العاصمة المثالية للوحدة العربية الجديدة فالسؤال يكون اذن : أين تقام هذه المدينة المثالية لتكون العاصمة ؟

نحن نرى أن المدينة المثالية يجب أن تتوافر فيها صفات لابد منها وفى مقدمتها :

أولا - أن يكون موقع هذه المدينة فى وسط العالم العربى ، وليس فى طرف من أطرافه النائية . وذلك لتتساوى مسافات السفر تقريبا بالنسبة لجميع الاقطار العربية .

ثانيا - أن تكون فى موقع يسهل الوصول اليه برا وبحرا وجوا ، وأن تكون ذات جو معتدل طوال العام لتكون ملائمة لمن سيقيمون فيها ممن يمثلون القيادة العربية الفكرية والسياسية .

ثالثا أن تكون فى موقع يسمح بتلاقى التيارات الفكرية والتجارية العالمية .

وتلك الصفات يمكن أن تتوافر فى بلد يقع على شاطىء البحر المتوسط ، واذا كان من صفة هذه المدينة أن تقع فى وسط العالم العربى ، واذا تأملنا مليا نجد أن المكان الصالح لهذه المدينة الفاضلة يقع فيما بين السلوم وطبرق . فإما أن ينعقد الاتفاق منذ الان على إعداد إحدى هاتين المدينتين لتقوم بالدور الذى سيفرض عليها ، وإما أن يختار مكان صالح بين هاتين المدينتين على شاطىء البحر المتوسط ، ويعد ليكون المقر المختار ، ويمنح استقلالا تاما استعدادا لأن تكون تلك المدينة هى عاصمة الوحدة ، وهى مقر كافة المنظمات الوحدوية القادمة .

إن كلا من ليبيا ومصر تستطيع أن تجعل - منذ اليوم - أحد أهداف الوحدة الاندماجية التى قامت بينهما ، العمل على إنشاء مدينة مثلى لتكون العاصمة الجديدة للوحدة العربية الشاملة الجديدة .



القمر والأرض
والمستقبل
بقلم : د. محمد جمال الدين الفندى

من الطبيعى أن يعقب النزول على القمر اقامة قواعد قمرية ومستعمرات ثابتة ، وقد تنشأ بعد ذلك المصانع والمصحات ... ومن مثل تلك القواعد سوف يقلع الانسان إلى الكواكب السيارة ، بل وربما وصل إلى مجموعات الشمس الأخرى ، مثل مجموعة « قنطور س » التى هى أقرب مجموعات الشمس الينا وهى لا تبعد عنا إلا بنحو ١/٢ ٤ من السنين الضوئية - علما بأن السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كاملة بسرعته البالغة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية .

ولقد ظهرت عدة طرق تعالج موضوع الملاحة إلى القمر ، وأهم هذه الطرق التى وافق عليها الخبراء هى :

١ - طريقة الانطلاق من مدار من حول القمر ..

٢ - طريقة الطيران المباشر إلى القمر ..

٣ - طريقة الانطلاق من مدار من حول الأرض، (وسوف نعود إلى شرحها مع شىء من التفصيل) .

وكما هو متوقع ، يعتمد الانسان فى نجاحه فى كافة هذه العمليات على مقدرته الفائقة فى أى ظرف على تكييف البيئة التى يريد أن يعيش فيها ، ويجعلها ملائمة له من كافة الوجوه ، مثل الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، وكثافة الاشعاع الشمسى .

ويستخدم رواد الفضاء على القمر حلل الضغط المحكمة التى تتصل بالمركبة القمرية بموصلات تشبه حبل الصرة ، كما يحملون معهم خزانات الاوكسيجين اللازم للتنفس ، ومعدات التحكم فى درجات الحرارة ، وغيرها من مستلزمات الحياة الاخرى ..

ولاول مرة فى تاريخ عصر الفضاء استخدمت الطاقة النووية كمصدر للطاقة اللازمة لتشغيل بعض أجهزة سفن الفضاء ومحطات الرصد التى انزلت على سطح القمر من أجل رصد الزلازل هناك ، ولتوليد الطاقة الحرارية اللازمة للتدفئة والتكييف خلال ليالى القمر الطويلة .

وخوفا من عدوى كائنات الفضاء الدقيقة التى لا علم لنا بها ، وحرصا على سلامة الناس ، يتم نقل كل العينات التى يجلبها الرواد معهم بطائرات خاصة إلى معمل البحوث القمرية فى « هيوستون» ليجرى المختصون عليها بحوثهم ودراساتهم قبل أن توزع على العلماء الاخرين .

ثلاث مراحل فى الخطة الروسية

هناك ، رغم الرقابة العسكرية فى كل قطر ، مبدأ اتفقت عليه الدول الكبرى ، فحواه حفظ سجل أسفار الفضاء كاملا بمكتب التسجيل بالامم المتحدة ، ولكن من المفهوم أنه يوجد ارتباط بين تجارب الفضاء (أو الصواريخ) والاستعدادات العسكرية المعتمدة على القذائف ذات المدى البعيد .

وقد انبثقت تجارب الفضاء أول الامر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بسبب الحاجة الماسة إلى اعداد رءوس نووية تطلق على أهداف بعيدة ، ثم الحاجة الماسة إلى دراسة عناصر الجو العلوى والفضاء المحيط بالارض خلال السنة العالمية الاولى لطبيعيات الارض (١٩٥٧) .

ولقد سارت خطة الروس فى مراحل ثلاث هى :

المرحلة الاولى : مرحلة الاقمار الصناعية أو توابع الارض ، وقد تضمنت هذه المرحلة اضافة مجموعة صناعية من الاقمار التى تدور حول الارض على غرار القمر الطبيعى لجمع المعلومات اللازمة الخاصة بغلاف الارض الجوى والفضاء الخارجى ، مثل تجمعات السحب وأحزمة الاشعة الكونية التى تضرب نطاقا حول الارض .. وكان أول قمر صناعى دار حول الارض هو « سبوتنيك - ١ » الذى أطلقه الروس فى ٤ أكتوبر ١٩٥٧ وظل فى مداره ٥٧ يوما .

المرحلة الثانية : مرحلة القمر الطبيعى والقمر كما هو معروف هو باب السماء لاهل الارض ، لانه يمثل محطة الفضاء الكونية التى هيأتها الطبيعة من تلقاء نفسها وجعلت لها أرضا صلبة لتكون بمثابة الباب الذى يخرج منه الانسان إلى ما شاء الله من أرجاء الكون الفسيح ويطور المجموعة الشمسية .

ومن أوائل أسفار هذه المرحلة : اطلاق سفن الفضاء « لونيك - ١ » و« لونيك - ٢ » و« لونيك - ٣ » .

ومشروع لونيك - أى القمرى - انما يهدف إلى خلق أقمار صناعية تدور حول القمر وتظل على أتصال دائم مع الأرض ، ثم يلى ذلك انزال بعض اجهزة الرصد وآلات التتبع والتسجيل إنزالا هينا لينا على سطح القمر ، وتقوم تلك الاجهزة بارسال ما ترصده أو تسجله من عناصر البيئة المحلية هناك ، مثل درجات الحرارة ، وكثافة الاشعاع، وهزات القشرة ورخات الشهب الخ .

ويقوم البرنامج السوفييتى على أساس أنه بعد جمع تلك المعلومات والتثبت منها وتحليلها عمليا تجىء مرحلة طيران الانسان إلى القمر ، ليدور من حوله ، ثم ليهبط على سطحه .. وتفسر لنا هذه الحقيقة ذلك التضارب الذى قرأناه أو سمعناه عن مهمة لونا (١٥) ، فهى ولا شك تدخل ضمن برامج «لونيك» التى تهدف إلى خلق جيل من الاقمار الصناعية تدور حول قمر الارض الطبيعى لجمع المعلومات اللازمة عنه وعن سطحه وبيئته .

المرحلة الثالثة : السفر إلى الكواكب ، وتطوير المجموعة الشمسية .

يقول الفلكى البريطانى المشهور السير «برنان لوفيل » فى مقال له نشرته مجلة (نيوز آند وورلد ريبورت عام ١٩٦٣) : « أن الروس أنما يركزون على هدفين فى برامج غزو الفضاء :

الهدف الاول « هو انزال أجهزة وآلات للرصد انزالا لينا على سطح القمر من أجل جمع المعلومات المطلوبة وثانيا دراسة بعض الكواكب الاخرى بنفس الطريقة هذه » .

وعلى ذلك فان البرنامج الروسى لارتياد الفضاء يتركز فى تشييد محطة ضخمة تحمل آلات الرصد من الفضاء .

« ابوللو» من الأرض إلى القمر .

هذا البرنامج كان برنامج أمريكا الثالث لانزال الانسان على سطح القمر واعادته سالما إلى الأرض ، وتتكون السفينة من ثلاثة عناصر رئيسية هى :

أ – عنصر القيادة الذى يطلق ليصل إلى القمر ويدور فى مدار من حوله ثم يعود إلى الأرض حاملا رواد الفضاء الثلاثة بالاضافة إلى أجهزة التوجيه والاتصال ، ومقومات الحياة ..

ب – عنصر الخدمات وهو مجهز بمعدات وآلات لاجراء المناورات وعمليات الانفصال والاتصال والخروج من المدار القمرى عند بدء العودة إلى الأرض .

جـ – عنصر نقل رجال الفضاء من المدار القمرى إلى سطح القمر ، ثم العودة بهم من جديد إلى المدار القمرى من أجل اللحاق بالسفينة الام ويسمى هذا العنصر أيضا باسم المركبة القمرية ، وتميزها مثلا قوائم تشبه سيقان العنكبوت تساعد على الهبوط اللين فوق القمر .

ومركبة الاطلاق هى من طراز الصاروخ «ساتيرن – ٥» التى يقارب ارتفاعها عندما تنتصب واقفة ارتفاع ٢٨ طابقا ، بينما يعادل ارتفاع السفينة ٨ طوابق ، وتعمل المرحلة الاولى على إرسال السفينة إلى مسارها المرسوم من حول الأرض . وبعد ذلك تشتعل المرحلة الثانية لاكتساب المجموعة سرعة تكفى للهروب بالمجموعة من مدار الأرض أى إلى نحو ٢٥ ألف ميل فى الساعة لكى تنطلق فى مسارها المرسوم من الأرض إلى القمر .

والغالب أنه فى تلك المرحلة يتولى رواد الفضاء بمعرفتهم عمليات التحكم فى سفينة الفضاء المكونة من العناصر الثلاثة السابقة . وعادة تبدأ تصويبات منتصف الطريق بعد مضى ٤٥ دقيقة على انتقال سفينة الفضاء من مدارها الأرضى باستخدام أجهزة عنصر الخدمات .

وبعد أن يستتب أمر السفينة فى مدارها القمرى المرسوم يستعد الملاحون للهبوط على القمر فى البقعة المختارة ، وبعد ذلك يتسلل رائدا الفضاء المكلفان بكشف معالم القمر إلى العنصر الثالث ، بينما تظل السفينة (الام) منطلقة فى مدارها القمرى ومن داخلها الرائد الثالث . وتعمل الالات الخاصة بمرحلة الهبوط وكذلك الاجهزة اليدوية على أبطاء سرعة دوران العنصر الثالث أو مركبة القمر لتهبط إلى علو نحو ٥٠ مترا من السطح . والمفروض أنه إذا ما وقع خطأ ليس فى الحسبان عاد الملاحان فى الحال إلى السفينة الام من غير أن يهبطا على القمر ، لأن هذه المرحلة هى فى واقع الامر أدق مراحل الرحلة وأخطرها .

ملاحة الفضاء إلى القمر

إن حدود النجاح فى الوصول إلى القمر وفى الدوران حوله هى حدود ضيقة تماما . فالسفينة يجب قبل كل شىء أن تنطلق من الارض بسرعة لا تقل عن ٦,٩٢ من الميل فى الثانية لكى تخرج من جاذبية الأرض ، كما أنها يجب كذلك أن تنطلق بسرعة أصغر من ٧,٢٧ من الميل فى الثانية حتى تقع فى نطاق جذب القمر .. وحتى بين هذين الحدين من السرعة يجب أن تقترب السفينة من سطح القمر قربا يجعلها على بعد مناسب لا يزيد على نحو ٥٥٠٠ ميل .

ان الانطلاق من فوق سطح القمر إلى الفضاء ليس بالامر الصعب كما هو الحال على الارض ،

وذلك نظرا لانخفاض الجاذبية إلى نحو سدس قيمتها على الأرض ، بالاضافة إلى انعدام الغلاف الهوائى الذى يقاوم الحركة . وتتضمن مناورات التشابك بين المركبة القمرية الصاعدة والسفينة الام التى تسبح حول القمر ، عمليات دقيقة يقوم فيها الرائدان بدور هام جدا ، يستغلان فيه خبرتهما وتجاربهما السابقة على الارض مما يسهل أمر تلك المناورة إلى حد كبير ..

وبعد أن يتم التشابك يزحف الملاحان من المركبة القمرية إلى عنصر القيادة لينضما إلى زميلهما الثالث فى السفينة الام ، ثم يتم بعد ذلك فصل المركبة القمرية لتظل تدور من حول القمر إلى ما شاء الله .

وفى تلك المرحلة من الرحلة يقوم الرواد بفحص عنصرى القيادة والخدمات من جديد وذلك بمساعدة المختصين وآلات الحساب الضخمة فى محطات التتبع الارضية . وتتم مراجعة جميع الحسابات ويشعل محرك السفينة « أبوللو » لتنطلق بسرعة إلى أمها الأرض ، ثم تجرى تصحيحات فى منتصف الطريق كالمعتاد حتى إذا ما اقتربت لحظة دخولها جو الأرض ، حيث تبدأ المقاومة للحركة وتوليد الحرارات العالية والاحتكاك يؤخذ فى الاعتبار أمران هامان هما :

(أ) ضبط انحراف المسار .

(ب) فصل عنصر الخدمات .

وتوجه السفينة فى حماية درع حرارى نظرا لزيادة السرعة ، حتى تصل إلى علو ٥٠ ألف قدم مثلا ، وعندئذ تفتح المظلات توطئة لتهدئة السرعة واستقرار السفينة ثم تفتح مظلة الهبوط الرئيسية من أجل الهبوط اللين على الخيط بلب السفينة الذى بداخله رواد الفضاء .

اسماء جذابة لبحار القمر !

دلت أرصاد برامج «أبوللو» على أن القمر كوكب مثل الأرض . ويبلغ حجم القمر نحو جزء واحد من ستين جزءا من حجم الأرض .

وتذهب احدى النظريات القديمة إلى أنه كان قطعة من الأرض مكانها المحيط الهادى الحالى . ومن القرائن التى تؤيد هذا الزعم أن قاع المحيط الهادى ليس تماما على غرار قاع المحيط الهندى أو الاطلسى من حيث تركيب الصخور التى طفت على سطح الأرض عند بدء تكوينها .. وتقدر كتلة القمر بنحو جزء من واحد وثمانين جزءا من كتلة الأرض .

أما قوى الجاذبية على سطح القمر فهى تعادل نحو سدس قوى الجاذبية على الأرض ، أى أن الرجل الذى وزنه ٦٠ كيلو جراما يزن هناك ١٠ كيلو جرامات مما يجعل القفز والنط والحركة على سطح القمر أمراً سهلا ميسورا (أى يمكن للرجل أن يقفز هناك كما يقفز البرغوث على الأرض) .

ولهذا يرى الأطباء أن مرضى القلب والمتقاعدين والذين يحظر عليهم القيام بأى مجهود عضلى يستطيعون المحافظة على سلامة أبدانهم هناك .. زد على ذلك أن اليوم هناك يعادل نحو ثلاثين يوما من أيام الأرض ، فمن يمضى هناك ٣٦٥ يوما قمريا يكون نظيره على كوكبنا قد أمضى ثلاثين سنة ، وهكذا تختلف الاعمار وتتباين .

فهل معنى ذلك أن المرضى يمكنهم أن يتخذوا

من القمر خير مكان لاطالة أعمارهم ثلاثين مرة ؟ إلى جانب الشفاء من أمراض القلب المعروفة على الأرض ؟ ..

وليس للقمر هواء يذكر ، كما أنه خلو من الماء إلا ما بقى محتبسا بين الصخور أو بين الشقوق .. ولهذا فان القمر عالم ميت لا وظيفة له حتى الان إلا أن يعكس ضوء الشمس ويرده إلى أهل الأرض ويعينهم على حساب الشهور والسنين منذ رصد الانسان السماء فى العصور القديمة حتى الآن .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم فى سورة البقرة الآية (١٨٩) :

« يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج .. »

وترتفع درجة حرارة سطح القمر المواجه للأشعاع الشمسى إلى ما يقرب من نقطة غليان الماء ، كما تنخفض أثناء الليل إلى ما دون الصفر المئوى بكثير ، وعندما تسلط على جباله ووديانه الكبرى مناظيرنا المكبرة نستطيع أن نتتبع شروق الشمس على قمم جباله العالية التى تظهر وقد أشرقت بضوء الشمس واستقبلته قبل الاجزاء التى من حولها بزمن طويل وتبدو كأنما هى جزر صغيرة من الضوء يزداد اتساعها رويداً رويداً وسط محيط الظلام الدامس الذى يتصف به الفضاء الكونى كما نعلم .

ومرة أخرى نجد أن أهم ما يميز سطح القمر الجبال القمرية إلى جانب الوديان الواسعة التى ظنها الناس عندما رصدوها أول مرة بحارا تذخر بالماء على غرار بحار الأرض ، فراحوا يطلقون عليها أسماء جذابة مثل :

« بحر الرحيق ، بحر الصفاء ، بحر الهدوء ، وبحر الرغد ... » ومن أعلى جبال القمر قمة جبل نيوتن التى يصل ارتفاعها نحو ٩ كيلو مترات ، وكانت تحسب مثل تلك الارتفاعات عن طريق قياس الظلال التى ترميها الجبال على سطح القمر . وهناك العديد من فوهات البراكين التى لا تشبه تماما براكين الأرض .. ويعتقد بعض الفلكيين أنها أنما تكونت بفضل النيازك والشهب ، كما ينظر إليها فريق آخر ويعتبرون أنها من نتائج نشاط بركانى متكرر .

وينظر الفلكيون اليوم إلى القمر كمحطة فضاء مثالية بالنسبة إلى أهل الأرض ، منها يمكن جمع معلومات عديدة قيمة خاصة بالكون أو الفضاء وسكان الكواكب باستخدام الفلك الراديوى الحديث، وكذلك الاشعة الكونية ، كما يمكن السفر إلى الكواكب بأقل التكاليف وأقل مقادير من الوقود . ولهذا فإن النزول عليه خطوة لازمة من أجل تطوير المجموعة الشمسية بمعرفة الانسان . ولكن يسبق ذلك حتما أنشاء مستعمرة القمر .

ومن القمر يستطيع الانسان أن ينطلق إلى الفضاء الخارجى ليرى عجائب الكون .. وليس للقمر غلاف هوائى ، ولذلك لا توجد من حوله طبقة «الايونوسفير» والطبقة المتألقة التى يحول وجودها دون وصول اذاعات العوالم الاخرى الراديوية إلى السطح . ويستطيع من على القمر أن يسترق السمع إلى العوالم الاخرى .

هل هناك من سبق بالنزول على القمر

هبط الامريكيون على القمر مرارا ضمن برامج «أبوللو» ولكننا لا نستطيع الجزم بشىء من حيث امكان وجود من سبق أن هبط هناك . وربما يكون أهل العوالم الاخرى قد فعلوا ذلك . ونحن نعرف أو نتوقع أننا لسنا وحدنا فى هذا الوجود ، وأن العقل البشرى ليس فريدا ولا وحيدا ..

وقد تحدث الناس عن الاطباق الطائرة وجواز كونها من صنع عالم آخر جاء يدرس ما يجرى على الأرض من أحداث .

والطبق الطائر كما تصوره فريق من العلماء عبارة عن سفينة فضاء انسيابية كالطبق يدور وسطها حول محور الطبق لكى يولد قوة طاردة إلى الخارج تجعل من فى الطبق يشعرون بما يعوضهم انعدام الجاذبية ، الا أن فوق وتحت تصبح إلى الخارج وإلى الداخل بالنسبة للطبق .

وقد يكون أصحاب الاطباق الطائرة ممن تحولوا إلى طاقات تجوب الفضاء بسرعات تفوق ما نعرفه عن سرعة الضوء ، وهو قول نستبعده .

وقد طالعتنا بعض الصحف أثناء تنفيذ برامج «أبوللو» بأخبار رؤية ما يشبه آثار أقدام على سطح القمر ودخان يتصاعد من على سطحه ، وفسر بعضهم ذلك الدخان بأنه ربما يكون عبارة عن غبار دقيق يتصاعد بسبب ارتطام النيازك أو الشهب به .

ووجود عوالم أخرى غير عالم الارض ، وامكان أتصال تلك العوالم بعضها ببعض وردت الاشارة إليه فى القرآن الكريم فى العديد من الآيات ، مثل قوله تعالى فى سورة الشورى « ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير .. » .

تصميمات للمستعمرات القمرية

هناك نظريتان أساسيتان عن طبيعة سطح القمر وما تحت سطحه ، هما النظرية البركانية ، ثم النظرية النيزكية ..

ويعتقد المؤمنون بالنظرية البركانية أن مرتفعات القمر وجباله أنما تتميز بفوهات البراكين التى كونها النشاط البركانى المتكرر ، مما يجعلها معرضة للانهيار . أما السهول فقد تكون واهية كذلك بسبب نشوئها على هيئة مستنقعات هائلة من الحمم ، إلا أنها أكثر تماثلا وتزداد صلابتها بازدياد العمق إلى الداخل .

وأصحاب النظرية النيزكية يعتبرون السهول ضعيفة أيضا ، بل وربما تكون أكثر ضعفا من المرتفعات ، وذلك نظرا لان هروب الغازات وافلاتها انما يتم بمعدلات أقل من هروبها من على المرتفعات ، مما يوفر وجود الفجوات الغازية . ومن ناحية أخرى ربما يكون ما تحت سطح تلك المرتفعات من صخور محطمة تغطيها الحجارة الصغيرة ومساحيق الرمال التى أحرقتها أشعة الشمس عبر الاجيال الطويلة .

وهنا يمكن أن تقام القاعدة القمرية أو المستعمرة التى يعيش فيها أهل القمر بعد نزوحهم من الارض ، وبطبيعة الحال تختلف بقعة النزول فى

انها يجب أن تكون إلى جانب من صلابتها مسطحة خالية من العقبات التى قد ترتطم بها سفينة القمر عند تكرار الهبوط .

وتبعا للنظرية النيزكية فان الهزات فى القشرة التى تشبه هزات الزلازل الناجمة من ارتطام النيازك بسطح القمر انما تعمل دائبة على زحزحة الحصى ومساحيق الصخور من فوق المرتفعات لتجمعها على سطح منبسط نسبيا ، وتعمل ايضا الهزات البركانية نفس الشيء ، وعلى ذلك فانه بالنسبة إلى سهول القمر تتكهن النظريتان معا بانها ذات سطوح ممهدة باستثناء الشقوق والكسور هنا وهناك الناجمة عن الانفجارات ، وهى فجوات قد يبلغ قطر الواحدة منها أكثر من متر ، وتتفق النظريتان أيضا فى أن ترابا وفيرا يغطى سطح القمر .

وتتركز وظيفة برنامج «أبوللو» فى هذا الميدان وتقتصر على تحديد مقادير تلك المساحيق ، وأماكن تجمعها واعماقها ، وأنواعها . وكذلك امكان وجود مواد مشعة وأتربة كونية ضارة .. صخور لها انشطة أشعاعية ..

ويعمل العلماء دائبين على استنباط وسائل يكيفون بها أية بيئة طبيعية على الأرض أو تحت الماء ، أو فى الفضاء أو حتى على القمر . وفى واقع الامر ارتقى الانسان إلى منزلته الحالية العليا فى الترتيب بين سائر الكائنات عن طريق مقدرته على تغيير البيئة المحيطة به لكى تناسبه ، وليس عن طريق تطوره هو أو تكييف جسده ليلائم ما صادفه من بيئات . وهكذا عاش فترات طويلة فى أعالى الجو حيث لا يستطيع كائن حى آخر أن يعيش بسبب انعدام الاوكسيجين وازدياد الحرارة ، ووفرة الاشعاع الشمسى المحرق ، كما استطاع أن يعيش فى قاع المحيط حيث تسود ضغوط تربو على ٣٠٠ ألف رطل على البوصة المربعة .

ومن الواضح أن الانسان يعمد فورا إلى بناء حواجز بينه وبين مثل هذه البيئات ، ثم يعيش فى مكان مكيف يعده من وراء تلك الحواجز . وما الملابس والبيوت وأجهزة التكييف إلا من أنواع وأصناف الطرق التى يسلكها الانسان من أجل حماية نفسه من تقلبات الجو وغوائل البيئة .

ولهذا كله فليس عجيباً ولا غريبا أن نقرر أن قيام حياة بشرية على القمر ليست إلا أمرا طبيعيا يستمد من مقدرة الانسان الخارقة على تكييف أو تطوير بيئته التى يعيش فيها . وسوف يكون ذلك متوافرا داخل المستعمرات القمرية .

شىء من القفز فى التصور

يحتاج تصميم عمارة قمرية إلى شىء من القفز فى التصور ، لأن كثيرا من الاشياء التى نألفها ونسلم بها كبديهيات هنا على سطح الأرض ، لن تكون موجودة على القمر ..

فاولا وقبل كل شىء لا يوجد على القمر هواء ولا ماء .. رغم أن ممن رصدوا القمر فريقا يعتقد أن الماء يوجد على هيئة ثلج داخل الفجوات والشقوق التى يغطيها الظل على سطح أرض القمر. ومرة أخرى تعتبر كل من النظرية البركانية والنظرية النيزكية القنوات القمرية غنية بالماء وبعض

العناصر الهامة . أما انعدام الهواء فهو أمر مقطوع به .

وانعدام عوامل الهواء والماء على سطح القمر جعل سطحه غير معبد على خلاف الأرض التي بسطها الخالق وجعل فيها سبلا عبدتها عوامل التعرية كالمياه الجارية والثلوج والرياح ونحوها .

ومن نتائج عدم وجود الهواء انعدام الرياح وتقلبات الطقس والسحب والمطر ، حتى أن مهندس القمر المعمارى يجد أمامه مشاكل عديدة فريدة يجب أن يحلها . وسوف تحتاج التصميمات المعروفة على الارض إلى ادخال تعديلات شاملة لتوفير مأوى الانسان المناسب على القمر .

وربما يكون الاساس الاول الذى تقوم عليه المبانى والمنشآت القمرية هو لحامها تماما مع بعضها البعض بحيث لا يتسرب إلى خارجها أى شىء من الهواء المضغوط فى داخلها . وقد تتصل المبانى بواسطة سراديب مقسمة إلى حجرات من أجل تقليل أخطار الانفجار أو الانبعاج إلى الفضاء الخارجى .

ونظرا لصغر الجاذبية سوف يكون توزيع الغازات والسوائل على المبانى أسهل بكثير بالنسبة إلى ما يجرى على الارض . ومن الممكن أن تكون السلالم أعظم انحدارا لان الفرد يمكنه هناك أن يرفع نفسه ببذل سدس المجهود الذى يقوم ببذله على الارض .

وبينما لا يوجد ما يدعو إلى اتخاذ الحيطة لحماية المبانى من الرياح والامطار ونحوها . نجد أن هناك عينات أخرى عديدة من الاخطار التى تهدد المستعمرات القمرية ، مثل الاشعة الكونية ، والشهب التى تفد من غير هوادة ليل نهار .. وليس من السهل اقامة حواجز ثقيلة لحماية الانسان من تلك الجسيمات وسيلها القاتل على القمر ، ولذلك يقترح فريق من المهندسين توليد طاقة كهربائية عالية ، لها شحنة موجبة قوية تعمل دائبة على رد الجسيمات الكونية وارسالها إلى الفضاء أولا بأول كما تعمل «ماجنيتو» سفير الارض .

وبطبيعة الحال يؤدى عدم وجود غلاف هوائى إلى وصول النيازك العظيمة على حالها إلى سطح القمر لأنه على الأرض يعمل الغلاف الهوائى على مقارنة حركتها وتفتتها إلى مساحيق دقيقة فى أغلب الحالات قبل أن تصل إلى الأرض ، كما حدث مرة عام ١٩٤٦ حين ساد السماء لون أصفر شاهده أهل القاهرة بسبب تفتت نيزك جبار فى أعلى سمائها ..

وباستثناء مثل هذه الحالات يتساقط على سطح القمر ما يقرب من ١٤٠ طنا من تراب الشهب كل يوم من أيام الارض . لهذا سوف تكون الاسقف السماوية لمبانى القمر كروية الشكل بحيث تجعل النيازك والشهب المتساقطة تحيد بعيدا عن المبانى بكفاءة فائقة .

كما فكر عباس بن فرناس

هناك عدة فوائد يمكن أن تجنيها البشرية من المستعمرة القمرية . أولاها نشوء فنون وتكنولوجيا جديدة مثل تكنولوجيا صناعة الفراغ . ومعنى ذلك أنه لن يقتصر التعدين فى القمر على مجرد جعل القاعدة القمرية مكتفية ذاتيا بل ستعود بعض

المناجم القمرية بالفائدة على أهل الارض .

وسوف تقوم صناعات محلية لامداد السائحين والراغبين فى الاستمتاع بأسفار الفضاء بما يلزمهم لسد حاجياتهم . ومن المرغبات الكبرى للسفر إلى القمر سماء القمر المليئة بالنجوم التى ترى كل يوم ، إلا أن أعظم المناظر أثرا وأروعها وقعا على المرء هو منظر الارض من على القمر .. ولسوف تمر الارض عبر أوجه معينة أثناء ظهورها معلقة فى الفضاء أمام منظر النجوم الخلفى ، وعندما تكتمل الارض أى تصبح بدرا ، يكون قطرها أربعة أمثال قطر القمر البدر ! ونظرا لما لها من مقدرة عالية على رد أشعة الشمس سوف يكون لمعان الارض ٨٠ مرة قدر لمعان القمر .

وسوف تنشأ صناعة طيارات خاصة بسيطة على حساب الجاذبية الصغيرة على القمر ، وربما استخدم الانسان أجنحة يطير بها داخل المستعمرات القمرية كما سبق أن فكر عباس بن فرناس !

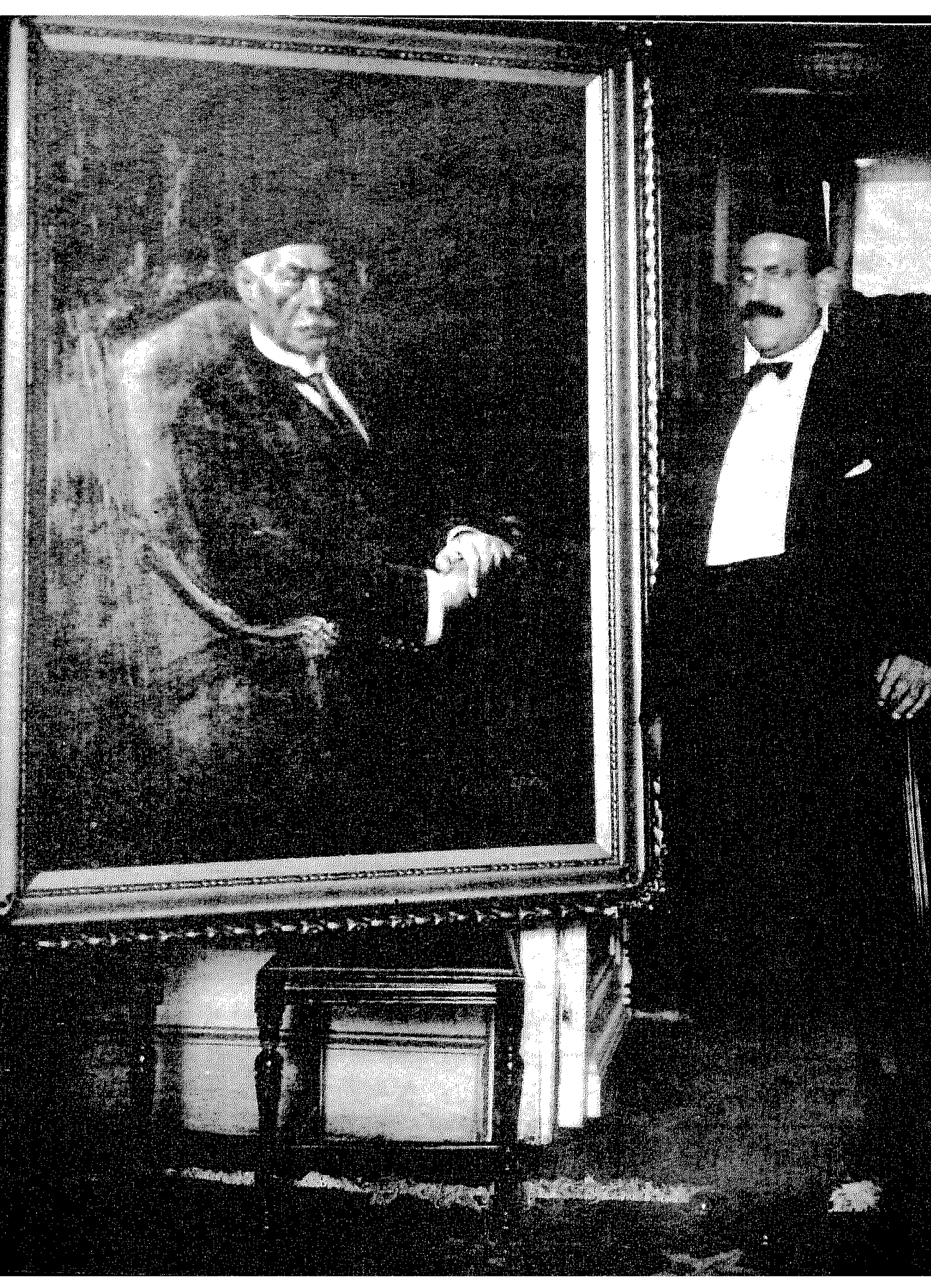
وقد يبدو هذا القول وهما أو خيالا ، إلا أن العلماء يفكرون فى مثل هذه المسائل تفكيرا جديا . وهناك فريق من الاطباء يعتقدون أن الجاذبية المنخفضة على القمر سوف تعين كثيرا على الشفاء من بعض الامراض والعلل . وسوف يتمكن المصابون بالتهاب المفاصل والشلل أو ما شابه ذلك من ألوان العجز من التحرك بسهولة إلى حد كبير . وكما قلنا يستطيع المصابون بأمراض القلب ممارسة النشاط العادى .

وفى المستقبل سوف يتوصل الانسان إلى طرق ناجحة للنقل عبر الفضاء ، بحيث لا تزيد تكاليف النقل من القمر على تكاليف السفر المألوفة على الأرض . وبمرور الوقت سوف تستعمل الصواريخ أكثر من مرة كما سوف يكون الوقود أكثر فاعلية ونجاحاً ولن يقتصر الأمر على مجرد الوصول إلى القمر بل ستتخذ القاعدة القمرية محطة فضاء كونية .

ما أهمية القاعدة القمرية فى الحرب ؟

يفكر الناس فى أهمية القاعدة القمرية من الوجهة الحربية تفكيرا تغلب عليه العاطفة فى أغلب الاحايين .. ولكن الرأى العلمى السليم يتلخص فى أنه إلى حين الحصول على وقود ناجح عظيم الفاعلية تتطلب القذيفة الموجهة من الارض إلى القمر (أو العكس) نحو يومين للوصول إلى الهدف، مما يعطى أو يوفر الفسحة الكافية من الوقت لعمل هجوم مضاد . وهذا يقلل كثيرا جدا من قيمة القاعدة القمرية فى حالة الحرب .

وإذا كان الحربيون أو العسكريون يتطلعون إلى الاستخدامات الممكنة للقاعدة القمرية فى شئون الحرب ، فاننا نأمل أن يكون العلماء هم الذين يوجهون دفة البحوث ويجعلون الفوائد العلمية هى الغرض الاساسى من المستعمرة القمرية ، والا فربما تعرضت لغزو من خارج مجموعاتنا الشمسية إذا صارت قاعدة حربية ، والله أعلم ..



مستقبل الثقافة فى مصر
تفاؤل أم تحد .. ؟ !

● النحاس باشا أمام لوحة الزعيم سعد زغلول

بقلم : د . عبد العظيم أنيس

لا يستقيم الحديث عن كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » دون الحديث عن المناخ السياسى العام فى مصر عندما أملى طه حسين مادة هذا الكتاب وعندما نشره . وليسمح لى القارىء أن أقول إن طه حسين يبدو فى هذا الكتاب أقرب إلى المفكر الذى يكتب وثيقة للتاريخ خوفا من أن يأتى المستقبل بما لا تشتهيه أنفس الأحرار ، وربما أقول الراديكاليين ، من أمثـــال طه حسين .

فالواضح من مقدمة الكتاب وآخره أن هذا الكتاب قد أملاه طه حسين ما بين يوليو سنة ١٩٣٧، يوليو ١٩٣٨ : وعندما بدأ فى املائه كانت وزارة الوفد على رأس السلطة مشغولة بصراع مرير مع القصر ممثلا فى الملك ومع الأزهر ممثلا فى الشيخ المراغى ومع أحزاب الأقلية ممثلة فى الأحرار الدستوريين ثم السعديين بعد ذلك الذين انشقوا عن حزب الوفد ، ومع جماعة الاسلام السياسى ممثلة فى الاخوان المسلمين ، لكن طه حسين انتهى من املاء الكتاب وقد طردت وزارة الوفد من الحكم فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ ، وعادت وزارة الاقليات السياسية بزعامة محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين بانتخابات زائفة قاطعها الوفد، وشنت على الوفد أنذاك أبشع حملة باسم الدين قادها الشيخ المراغى فى أحاديثه الدينية التى كان يحضرها الملك فى المساجد وشارك فيها

بعض أصدقاء طه حسين القدامى من أمثال محمد حسين هيكل وعباس العقاد .

ولم يكن فى كل هذا ما يدعو طه حسين إلى التفاؤل وهو المفكر الذى كان يتعاطف مع الوفد ، حزب الجامعة الوطنية ، ولا يتعاطف مع القصر ولا قيادات الأزهر أو جماعات الاسلام السياسى ، لعل النبرة الواضحة فى كتاب طه حسين هى أقرب إلى نبرة التحدى ، تلمسها حتى فى هذه الأبيات لأبى العلاء المعرى التى وضعها فى صدر الكتاب ، ومن الغمز الهين الموجه إلى وزير المعارف ومن هجومه على سياسات الأزهر التعليمية وانتقاده لشيخه .

لقد أبرمت المعاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا ، وعاد الوفد إلى الحكم بعد انتخابات حرة ، وأمن مؤقتا شر دار المعتمد البريطانى ، فأخذ يستعد لتقييد سلطة القصر ، ففى خطاب العرش للوزارة الجديدة أعلن النحاس باشا عزمه على تعيين وزير للقصر فى حكومته بحيث لا يتصرف الملك فى شأن سياسى إلا من خلال الوزارة ، وبحيث تستعيد الحكومة سلطتها فى الاشراف على الأزهر بما فى ذلك تعيين شيخه دون الملك ، ومن نية الحكومة فى توحيد القضاء وإلغاء الأوقاف الأهلية ، وبدأت وزارة الوفد تعد مشروعات قوانين جديدة من أهمها قانون بفرض عقوبات معينة على كل مخالفة لأحكام الدستور وانتهاك لها ، ومنها أيضا قانون انتخاب العمد انتخابا مباشرا فى القرى تحت اشراف رجال النيابة والقضاء .

وعندما طرح الشيخ المراغى فكرة تتويج الملك الجديد فاروق بالقلعة وأن يقلده هو سيف جده محمد على ثم يؤم الحاضرين للصلاة كإمام للمسلمين ، عــــارضت وزارة الوفد بشدة هذا الاقتراح ، واعتبر النحاس مثل هذا العمل بمثابة اقحام للسياسة فى شئون الدين ومحاولة لاحياء الخلافة وهو ما سعت له بريطانيا مع الملك فؤاد فى العشرينيات .

وكل هذا الصراع العنيف بين الوفد وحكومته من جانب وبين الملك والأزهر وأحزاب الأقلية والاخوان المسلمين من جانب آخر ، اتخذ مسارب غير شريفة فى كثير من الأحيان ، فالهجوم على الوفد تم باسم الدين وادعاء أن النحاس مطية لمكرم عبيد والأقباط وشارك فى هذا الهجوم شخصيات كان من المفروض من واقع ماضيها أن تتنزه عن ذلك مثل عباس العقاد الذى كان يؤكد فى مقالاته أن مكرم عبيد هو المعارض الرئيسى لتتويج الملك دينيا ، ومثل محمد حسين هيكل الذى غمز فى خطابه بشبين الكوم إلى نفس المعنى ، فضلا عن الشيخ المراغى الذى كان يتحدث أمام الملك فى أحاديثه الدينية عن « الثعالب الذين ركن الاسلام إلى مودتهم وهم يدعون إلى غير هذه المودة » ، وكان يقصد بذلك الأقباط .

أما الأخوان المسلمون فلم يكتفوا بالمشاركة النشيطة فى هذه الحملة المسعورة ضد الوفد ، واعلان أنهم رجال الملك فحسب ، وإنما طالبوا بوقف الدستور وحل الأحزاب وتقييد الصحافة باسم الاسلام ، وانتهى كل هذا الصراع بطرد حكومة الوفد فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ وعودة وزارة محمد محمود .

★ خروج طه حسين من الجامعة

لقد أخرج طه حسين من الجامعة عام ١٩٣٢ فى عهد وزارة صدقى ، ثم أعيد إليها عام ١٩٣٤ تحت ضغط جامعى وشعبى عارم ، ووقف الوفد إلى جانب طه حسين فى محنته ، ومع أن طه حسين بدأ نشاطه السياسى فى العشرينيات فى ظلال حزب الأحرار الدستوريين ، حزب الفكر الليبرالى كما بدا له آنذاك ، فإن قضية العدوان على الجامعة بفصله ، والتجربة المريرة فى الصراع بين الوفد والملك فؤاد حول الدستور والحياة الديمقراطية قد أقنعت طه حسين فى نهاية الأمر بالتعاطف مع الوفد باعتباره حزب الجامعة الوطنية والدستور والديمقراطية ، ولم يتراجع عن هذا الموقف بعد ذلك أبدا .

وطه حسين لم يكن ليبراليا فقط كما قال د . فؤاد زكريا بحق ، وانما كان راديكاليا أيضا تؤرقه قضية الفقراء فى مصر وقضية تعليمهم ، ومن يراجع هذا الكتاب سيجد العديد من العبارات التى تؤكد هذا الموقف الثابت ، فهو يعلن فى الكتاب أنه من أشد الناس بغضا لنظام الطبقات فى مصر ، وهو يدعو الدولة أن تأخذ من القادرين أجر هذا التعليم وأن تحط ثقله عن العاجزين عن أدائه ، وهو يتساءل فى الكتاب إن كان الغنى يمنح الاثرياء حقوقا تحظر على غيرهم ، ويقول فى هذا السياق إن الغنى والفقر عرضان من أعراض الدنيا وإن الدفاع عن الوطن يشترك فيه الجميع وربما كان حظ الفقراء أعظم فى هذا الشرف ، وهو يقول فى كتابه محذرا « إن الخير كل الخير أن يفهم الأغنياء ويدافعوا الضرائب هذه الحقائق فى سهولة ويسر منذ الآن قبل أن يأتى يوم ثقيل بغيض تكرههم فيه الضرورة على فهمها اكراها ! » .

وهو يرفع صوته بأن الشعب المصرى هو صاحب الحق المطلق المقدس فى أن تشيع المساواة والعدل بين أبنائه جميعا .

هكذا تكلم طه حسين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » وألح على مسئولية الدولة فى تعليم الفقراء ، ومسئوليتها فى أن تأخذ من الأغنياء لتعليم الفقراء ، فالتعليم ليس ترفا والادعاء بأن التكلفة المالية للتعليم فوق طاقة الدولة أمر لا يقنع طه حسين لأن التعليم عنده لا يقل أهمية عن الدفاع الوطنى ! .

★ نبرة التحدى

ليست النبرة الأساسية فى هذا الكتاب إذن هى نبرة التفاؤل ، وإنما هى نبرة التحدى والدعوة إلى النضال من أجل تعليم هذا الشعب ، فقرائه قبل أغنيائه ، وهو أمر مفهوم فى جو المناخ السياسى العام بمصر الذى أملى فيه طه حسين كتابه هذا ، وفى ضوء انحيازاته الاجتماعية التى لم يتخل عنها أبدا .

تلك هى الملاحظة الأولى ، أما الملاحظة الثانية فهى أنه ربما كان من الأنسب أن يسمى طه حسين هذا الكتاب « مستقبل التعليم فى مصر » ، فالموضوع الأساسى فيه هو موضوع التعليم وليس موضوع الثقافة بالمعنى الذى نفهمه من تلك الكلمة اليوم ، وان صلب الكتاب يتعلق بالتعليم العام والعالى ، وإذا استثنينا الصفحات الأولى التى



تتحدث عن « العقل المصرى » وكيف أنه لا يختلف عن العقل الأوربى ، وبالطبع فاننى اتحفظ على هذا الحديث عن العقل المصرى ... هل هناك حقا عقل مصرى يختلف عن العقل السورى أو العراقى أو اللبنانى ؟ وإذا أخذنا أقوال طه حسين على علاتها فسوف نجد أنه يتحدث عن عقل واحد لمنطقة المشرق العربى كما نعرفها اليوم ، بمعنى الدول العربية المطلة على البحر الأبيض ويرى أنها كلها قد تأثرت بطبيعة وضعها الجغرافى والتاريخى بالحضارة اليونانية والرومانية ربما قبل أن تتأثر أوربا ، هل يتحدث اذن طه حسين عن « عقل عربى» بهذا المعنى ؟ ربما ، كان من الصعب أن نتقبل اليوم مثل هذا الكلام حتى عن عقل عربى له خصائصه المتميزة ، إذ لو قبلنا هذا فلماذا يمنع أن نتحدث عن عقل فارسى أو عقل تركى ... الخ ... وربما كان من الأسلم أن نتحدث عن ثقافة عربية أو ثقافة فارسية أو هندية ... وهذه الثقافات هى خلاصة ظروف تاريخية معينة وعصارة الاحتكاك بالثقافات الأخرى والتفاعل المتبادل بينها . ولو عاش طه حسين إلى اليوم وزار طوكيو لما أحس بفارق اساسى بين العقل اليابانى والعقل الأمريكى فالاثنان ثمرة الأوضاع الرأسمالية المتقدمة فيهما ، بل إن مظاهر كثيرة للثقافة اليابانية التقليدية توشك على الاندثار بينما تزحف مظاهر الثقافة الأمريكية إلى كل ركن من أركانها الايجابى منها والسلبى .

ويستشهد طه حسين ببول فاليرى عندما شخص العقل الأوربى فرده إلى ثلاثة عناصر : حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة ، وحضارة الرومان ومافيها من سياسة وفقه ، والدين المسيحى ومافيه من دعوة إلى الخير ، وحيث أن دول المشرق العربى قد تأثرت بحضارتى اليونان والرومان ، وحيث أن جوهر الاسلام والمسيحية واحد فان العقل المصرى - أو قل العقل العربى - لايتمايز عن العقل الأوربى ، وانما هو عقل واحد تختلف عليه الظروف المتباينة ، فتؤثر فيه آثارا متباينة لكن جوهره واحد عند طه حسين .

ومن الواضح لى أننا عندما نتأمل هذا المنطق اليوم نجده منطقا متعسفا لاسباب كثيرة قد لايتسع المجال لشرحها هنا وربما أعود اليها فى مقال آخر ، وقد يكفى أن أقول اليوم أننى من أشد المتحفظين على مقولة « العقل العربى » أو العقل الفارسى ، أو العقل التركى ... الخ .

لكن السؤال الذى يهمنا هنا ونحن نعرض لكتابه هو : لماذا بدأ طه حسين كتابه بهذه المناقشة عن علاقة العقل المصرى بالعقل الأوربى فى كتاب موضوعه الأساسى هو التعليم ؟

إن طه حسين دعا إلى العديد من الأفكار فى التعليم تشابه ما كان مطبقا فى فرنسا حتى وصل الأمر إلى دعوته لتدريس اليونانية واللاتينية فى الثانوية العامة ! ويبدو أنه قد أقنع نفسه بأن تماثل العقلين يدعم من حجته فى هذا الميدان ، ولو قال طه حسين أن نمو العلاقات الرأسمالية (التى زحفت علينا من أوربا) قد فرض علينا التشبه بما حدث فى أوربا من ديمقراطية سياسية ودستور وحياة مدنية وتعليم جماهيرى .. الخ فربما كان

منطقه أقوى من ذلك .

ولقد كان طه حسين على حق عندما أبرز فى كتابه أهمية توحيد المراحل الأولى من التعليم (التعليم الأولى والقسم الأول من الثانوى) فى دعم الوحدة الوطنية للشعب ، ولاشك فى أن طه حسين كان يدرك مغزى ما قاله نابليون من أن وحدة الشعب الفرنسى تتدعم من خلال الجيش والمدرسة .. وفى عهد طه حسين كان هناك التعليم الأولى والثانوى الأزهرى الذى لا تشرف عليه الدولة ، وكان هناك التعليم الأجنبى بجناحيه الدينى والمدنى ولا تشرف عليه الدولة ، وكان هناك التعليم المدنى الرسمى ... وكل هذه الأنواع من التعليم المتباينة تباينا شديدا من شأنها أن تخلق أنماطا من البشر يتفاوتون فى العقلية والقيم وشعور الانتماء والولاء للوطن ، ولهذا دعا إلى أن تشرف الحكومة ممثلة فى وزارة المعارف على التعليم الأزهرى قبل العالى وإلى اخضاع التعليم الأجنبى لاشراف الدولة ، وتوحيد المناهج فى كل هذا خصوصا فيما يتعلق باللغة العربية والتاريخ القومى .

* الأزهر بيئة محافظة

وهو لا يدعو بالطبع إلى الغاء التعليم الدينى فى الأزهر وانما يريد أن يكون هناك مقدار من مناهج التعليم مشتركا بين جميع المصريين ومن الواجب أن يكون لوزارة المعارف كلمتها فى مناهجه وبرامجه .

أما ما بعد هذه المرحلة للأزهر أن يذهب فيه ما يشاء ... وطه حسين لا يريد للأزهر أن يكون دولة داخل الدولة ، وسلطانا يطاول السلطان العام ، فالأزهر بطبيعة تاريخه بيئة محافظة - كما يقول طه حسين - تمثل التفكير القديم ، فإذا تركنا صبيته للتعليم الأزهرى الخالص عرضناهم أن يصاغوا صياغة قديمة تباعد بينهم وبين متطلبات الحياة الحديثة وجعلنا من العسير على الجيل الازهرى الحاضر اساغة الوطنية والقومية بمعناها الحديث . ألا يقول الشيخ المراغى أن محور القومية هو القبلة المطهرة !

ومن مفارقات أوضاعنا الحاضرة فى التعليم بعد انقضاء خمسين عاما على صدور كتاب طه حسين أن بعض القضايا التى الح على معالجتها فى كتابه تطرح علينا اليوم من جديد فيما يعرف باسم المدرسة التجريبية الرسمية للغات ، وأنا أشير إلى مسألة تعليم اللغات الأجنبية فى المرحلة الابتدائية ومن يعلم اللغة الأجنبية فى مدارسنا : الأجانب أم المصريون ؟

إن د . طه حسين حاسم هنا ، فهو يعارض تعليم اللغة الاجنبية فى المرحلة الابتدائية ويقول إن هذا القسم من التعليم العام يجب أن يخلص للثقافة الوطنية إذا أردنا أن نخلص نفس الصبى لوطنه وأن تشتد الصلة بينه وبين هذا الوطن ، وهو ينادى بضرورة أن يتولى المصريون تعليم اللغة الأجنبية فى المرحلة الثانوية بعد أن يهيئوا لهذا العمل .

كما يثير طه حسين فى كتابه أوضاع المعلمين المالية ويتحدث عنها حديثا يذكرنا بأحوالهم اليوم وعن الحاجة الماسة إلى رفع أجورهم إذا أردنا أن يؤدوا عملهم فى أمانة .

بقى أن أشير إلى مقترحات طه حسين لاصلاح


طه حسين والزوجة

التعليم العالي وهى عديدة نبدأ من اصلاح احوال الثانوية العامة ورفع مستواها حتى تنتهى المقترحات إلي ضم دار العلوم إلي الجامعة وأعداد المعلمين عن طريق كليتى الآداب والعلوم مع انشاء معهد للتربية تابع للجامعة يلحق به خريجو هاتين الكليتين .

كما يناقش فى كتابه الحاجة الماسة الى تناول تعليم اللغة العربية بالاصلاح والتيسير حتى تكون الكتابة تصويرا دقيقا للنطق ، وضرورة تيسير دروس النحو والصرف والبلاغة والتركيز على دراسة الأدب ، ومع أن طه حسين قاوم فكرة استخدام الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية فإنه يعترف أن اللغة فى حاجة إلى اصلاح كبير ويرد على اعتراضات الأزهر الدينية فى هذا الشأن .

والحقيقة أن كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر» هو ثمرة فكر رجل تأثر تأثرا شديدا بالتوجهات الديمقراطية للحياة البورجوازية فى أوربا عموما وفرنسا خصوصا ، وهو ثمرة فكر رجل يحب وطنه بعمق ويعتز باستقلاليته الأكاديمية أشد الاعتزاز ، رجل يعادى الفكر المحافظ القديم مع ماله من خبرة طويلة مع الأزهر وفى ميدان التعليم لكنه ايضا مفكر ديمقراطى أمن برسالة تعليم الشعب بكل طبقاته ، واقتنع أن الحياة الدستورية دون تعليم هى نوع من الغفلة .

وهو أخيرا فكر رجل مناضل إلى جانب الفقراء ، ومن هنا أشرقت فى هذا الكتاب راديكاليته وشجاعته التى لم يتخل عنها أبدا .



مستقبل اسرائيل

بقلم : مصطفى الحسينى

أى مستقبل ؟

فإسرائيل تصف نفسها ويصفها أصدقاؤها بأنها «الدولة اليهودية» بينما *كان حلم الحركة الصهيونية التى أقامتها أن تكون* «دولة اليهود» ، *الدولة التى يهاجر إليها اليهود كلهم من أطراف الأرض أو على قولها* «يعودون» *ليبنوا* دولتهم ، *فيصبحوا «شعبا كسائر الشعوب وأمة بين الأمم»*

وبعد أربعين سنة من إقامة الدولة «عاد إلى صهيون» من كل أربعة يهود واحد ، ويبقى ثلاثة حيث هم ، ومن هاجر منهم فمن «منفى إلى منفى» فالعالم الواسع عند الصهيونية هو المنفى بل أنهم لا يريدون العودة ، بل إنهم يصلون كل يوم ثلاثا «من أجل العودة إلى صهيون» دون نية العودة وكيف يصبحون «شعبا كسائر الشعوب» بينما ثلاثة أرباع «الشعب» يحملون جوازات سفر دول العالم أو معظمها ، وبينما نسبة غير قليلة من «مواطني» الدولة يحملون أيضا جوازات سفر دول أخرى ؟ وبينما تعداد اليهود الذين يعيشون في الدولة يزيد قليلا عن نصف تعداد اليهود الذين يعيشون في مدينة واحدة ، نيويورك حتى أن الصهيوني الأمريكي البارز «لوم دايان» قال عنها وعن اسرائيل إنه « إذا كانت اسرائيل هي مركز العالم اليهودي فإن نيويورك هي مصدر وجوده وليس فقط بتعداد يهودها وإنما بأموالهم التي يمدون بها اسرائيل وبنفوذهم الذي يحميها » .

وكيف يصبحون «أمة بين الأمم» بينما دولتهم وبعد أربعين عاما منذ أقاموها ، مازال شغلها اليومي هو الدفاع عن شرعيتها ، وعن شرعية وجودها وعن شرعية سلوكها معا ، وبينما مازال مطلبها الذي ترفعه كل يوم .. ومن موقع القوة !

هو المطالبة « بالاعتراف بحقها في الوجود » .

حتى علم الآثار ، الذي عرفه العالم استجلاء لغابر التاريخ وكشفا عنه ، أصبح في الدولة اليهودية « أداة لإثبات الوجود » حتى قال فيها الكاتب الأمريكي الفذ جور فيدال « أنها دولة أثرية ، في حرب مع جيرانها جميعا ، ولا تحب العالم وبالتالي لا يحبها » .

فأي مستقبل ؟

مفارقات الشتات

وأصبحت المفارقات في علاقة «الدولة اليهودية مع يهود العالم أكثر من التوافقات أو أغلب .

فإذا كان لاسرائيل أن تصبح «دولة اليهود» فعلى يهود العالم أن يهاجروا إليها بل بغير هذه الهجرة ، فإنه حتى «الدولة اليهودية» قد لا تبقى .

لكنه إذا كان «للدولة اليهودية» أن تقوى لكي تبقى ، فعلى يهود العالم أن يبقوا حيث هم يمدونها بالمال ويذودون عنها بالنفوذ .

فأى مستقبل ؟

أي مستقبل لهذه الدولة التي نزح منها ، حسب أكثر تقديراتها الرسمية اعتدالا ، واحد من كل عشرة من سكانها في السنوات العشرين الأخيرة ، ناهيك عن أن هؤلاء النازحين ، في أغلبهم ، هم الأكثر فتوة (فئات الأعمار بين ٢٥ و٤٠ سنة) والأكثر كفاءة (في الولايات المتحدة وحدها ٣٢ ألف أكاديمي و ٨ آلاف مهندس نازحين من اسرائيل) ، والأكثر قدرة على الابداع والانجاز والأوفر مبادرة .

وأي مستقبل لهذه « الدولة » التي تعرف أن طوق نجاتها الوحيد من الغرق في المحيط العربي الذي أصبح في داخلها هو المزيد من الهجرة اليهودية ودعك من أن اليهود لا يهاجرون إليها ولا يريدون ، المسألة أن اليهود في العالم كله يتناقصون

فتعدادهم فى عالم اليوم يقارب ١٣ مليونا حسب احصاءات المنظمة الصهيونية العالمية ، وحسب تقديرها سيصبح تعدادهم بعد ١٢ سنة فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٩ ملايين .

أى مستقبل لدولة معين سكانها ينضب ؟

دولة خيبة الأمل

وهذه دولة الآمال الخائبة ، فضلا عن الأحلام الضائعة .

فإذا كانت الصهيونية قد قنعت من حلم دولة اليهود بواقع الدولة اليهودية فهذا حلم ضائع أما الآمال الخائبة فهى آمال هؤلاء اليهود المتدينين الذين ظنوا «العودة إلى صهيون» كفيلة لهم بـ «حياة يهودية كاملة» فوجدوا أنفسهم مواطنى دولة حكامها يجاهرون بالالحاد ، ويحددون اليهودية بأنها تمايز اليهود عن الأغيار ويسعون إلى إحلال القومية التى لم يعرفها اليهود من قبل ، محل الدين الذين عاشوا القرون وعبروها واخترقوها يحملونه فى وجدانهم وإذا بالصهاينة يفشلون فى خلق الأمة ويضيقون الخناق على الدين الذى يراه هؤلاء المتدينون ويريدونه دينا كسائر الأديان .

وخابت أيضا آمال من داعبتهم أحلام صهيونية اشتراكية تصحح وضع الهرم الاجتماعى اليهودى المقلوب فى الشتات وتعيد اليهود إلى قيمة العمل أو تعيد قيمة العمل إلى اليهود كما قال فيلسوفهم بوروخوف فانشقوا أو تابعوا انشقاق اسلافهم عن ما كانوا فى صفوفه وأحيانا فى طلائعه من حركات اشتراكية وأحزاب ، ليقيموا اشتراكيتهم على أرض اسرائيل ، فلا يمضى وقت طويل حتى ينهار الحلم، ويرون الكيبوتز صورتهم المثالية للمستوطنة الاشتراكية يبتلعه اقتصاد السوق وإذا عماده ليس العمل اليهودى الذى عادت قيمته إلى اليهود أو عادوا إليها إنما عماده عمل مأجور ملوث بالتمييز العرقى .

يستخدمون العرب الذين أفقروهم ويميزون اليهود عليهم فى الأجر والرعاية بل ويستخدمون المهاجرين اليهود الذين جاءوا من بلاد العرب ، وأيضا يميزون أنفسهم عليهم فى السلطة التى انتهم من ملكية الكيبوتز الجماعية الاشتراكية ويتحول أبناء الكيبوتز أو أصحابه إلى نخبة أسبرطية تتمتع بالامتيازات وتتميز بالصلف وتتيه بالزهو على من سواها من المواطنين بأنها الأكثر ولاء للدولة وكأن لها على ولائهم مطعن .

وأيضا خابت آمال هؤلاء اليهود الذين هاجروا من بلد العرب ، حيث كانوا – معظمهم فى صفوف طبقاتها الوسطى ، أو كانوا متميزين فى تلك الطبقات ، وما لبثوا أن وجدوا أغلبيتهم فى الدولة اليهودية محصورة فى قاع المجتمع ، دون فرصة تذكر للنمو أو للصعود أو للانتقال ، فهذه دولة أقامها يهود أوربا لأنفسهم وعلى هيئتهم وقياسهم ، وعلى من يريد الصعود من سواهم فعليه أن يتماثل معهم ينضو عن تراثه وثقافته ويهوديته الشرقية الأصلية ويرتدى يهودية أخرى غريبة وغربية ، نمت أو بالأحرى تعوق نموها ، فى احياء اليهود المعزولة فى مدن أوروبا وأصبحوا ، هؤلاء اليهود الشرقيون لا يسمعون عن ثقافتهم بل وعن يهوديتهم إلا

الزراية بينما لا يرون فيها مايزرى ، فهى توصف بالسنة يهود المعازل الأوربية بأنها شرقية وبأنها عربية ولذلك فهى لزوما متخلفة ، بينما الذى يميز اسرائيل هو تفوقها النوعى على العرب الذى هو ضمان أمن اسرائيل ، ناهيك عن بقائها .

فأى خيبة للآمال !

اليهود يضطهدون اليهود

وبررت الحركة الصهيونية حلم «دولة اليهود» الذى أختزله الواقع إلى «دولة يهودية» بأن هدفها ومسعاها ومبررها هو «تحرير اليهود» فإذا الدولة اليهودية هى أكبر مستودع فى العالم للتفرقة والتمييز ضد اليهود !

ففى الجيش الاسرائيلى ما يسمى خريطة عملياتية (أى غير رسمية) للأمن الطائفى على أساسها يعامل الجيش جنوده اليهود وتقسمهم الخريطة إلى الفئتين المعروفتين : الاشكناز أى اليهود الأوروبيين والسفاراديم أى اليهود الشرقيين، وتعتبر هذه الخريطة أن الفئة الأولى أكثر ولاء للدولة، وأكثر كفاءة وبالتالى فمن المفروض أن تشكل هيكل الجيش والمؤسسة الأمنية كلها ، بينما تعترف للفئة الثانية بالولاء الشديد للدولة ، لكنها تراها ذات كفاءات غير مستوية ، وبالتالى فمهمتها أن تزود الجيش ومؤسسة الأمن بالطاقة البشرية الكبيرة الحيوية لمهمات الأمن ، أى بالوقود البشرى .

وطبقا لهذه الخريطة ، كان ٦٧ ٪ من الأنفار وضباط الصف فى الجيش الاسرائيلى فى أواخر السبعينيات من السفاراديم ، بينما كان نصيبهم بين صغار الضباط حتى رتبة نقيب ٣٠ ٪ ، تتضاءل إلى ٣ ٪ (ثلاثة) بين كبار الضباط أما مجموعهم فى سلك الضباط فلم يزد على ١٧ ٪ ومن بين ٢٥ ضابطا برتبة لواء فى الجيش الاسرائيلى ، كان ثلاثة فقط من السفاراديم ، واحد منهم فقط يحتل منصبا عسكريا فعليا .

ويقول عالم الاجتماع الاسرائيلى سامى سموحة (ويبدو من أسمه أنه شرقى - سفارادى) الذى رسم هذه الخريطة أو كشف عنها ، إن هذا ليس وضعا مؤقتا ولا عابرا والأسباب عديدة : فالجيش الاسرائيلى هو امتداد للهاجاناة ، التى أقامها المهاجرون اليهود الأوروبيون الذين أقاموا الدولة ، فأقاموا الجيش على عقلية غربية أوربية ، واعتبروها متفوقة ، واعتبروا تفوقها هو الذى يضمن التفوق النوعى على الجيوش العربية وأعتبروا هذا «التفوق النوعى» ضرورة وجود لاسرائيل .

لكن سموحة يقول : أن المسألة أعمق ، فكما الجيش كما المجتمع ، فهو يقرر أنه فى اسرائيل هناك تطابق بين الخريطة الطبقية والخريطة الطائفية ، فالشريحة الهامشية فى المجتمع ، معظمها يهود شرقيون ، وشريحة العمالة الدونية ، كلها شرقيون تقريبا ، وشريحة العمالة الماهرة ، معظمها شرقيون ، وفى الطبقة الوسطى وحدها يوجد قدر من التوازن بين الشرقيين والاشكناز مع أفضلية للأخيرين ، أما الطبقة الوسطى - العليا ، فمعظمها من الاشكناز ، ونخبة السلطة اشكنازية بالكامل تقريبا .

ويقول إنه مع ذلك فما زالت المسألة أعمق ، لأن هذا التطابق بين الخريطتين الطبقية والاجتماعية قد تحول إلى ظاهرة دائمة فى المجتمع ، ينتقل من جيل إلى جيل ويكتسب شرعية اجتماعية .

فأى تحرير لليهود !

وقالت الصهيونية أن دافعها وغرضها معا هو تحرير اليهود من العداء للسامية .

وبعدما أقامت الدولة اليهودية ، اكتشفت أن جرائم النازية قد حذرت العالم وطهرته من هذا العداء للسامية ، أو العداء لليهود .

فانزعجت ، لأن اليهود عندما لا تواجههم مشكلة يهودية بهذا المعنى ، فهم لا يهاجرون ، لا يعودون إلى صهيون يبقون حيث هم .

واعتبرت « الدولة اليهودية » اختفاء المشكلة اليهودية من الشتات عرضا لمرض مستفحل وعدم واقعية وأحد معالم التفسخ والاحتضار كم يورد ميخائيل روزنيك ، وهو استاذ مرموق لفلسفة التربية فى الجامعة العبرية .

بينما يرى يهود الشتات «أى الذين لم يهاجروا إلى اسرائيل» أن اليهود فى اسرائيل ، هم بالأحرى الذين يواجهون مشكلة يهودية أمنية وديموغرافية فجيرانهم لا يريدونهم ، لأن غير اليهود الذين يعيشون معهم سيصبحون أكثر منهم عددا فى مستقبل منظور .

الدولة اليهودية لا تستطيع أن تقيم وفاقا بينها وبين يهود العالم الذين تعتبرهم إمتدادها الطبيعى فى هذا العالم .

فأى مستقبل ؟

وأرادت الصهيونية أن تحرر اليهود من عقد المنفى ، لكن بن جوريون عندما أبلغ فى ١٩٧٥بأن الأمم المتحدة أدانت الصهيونية بالعنصرية كفكر وكحركة ، لم يجد مايقوله سوى « ليس مهما ما يقول الأغيار ، المهم ما يقول اليهود » .

وهى عقدة من عقد المنفى .

وعندما تجد اسرائيل نفسها معزولة عن العالم وأمامه ، لا شغل لها فى مجتمع الدول سوى الدفاع عن سلوكها ، لا تجد ما تقوله سوى «العالم كله ضدنا » .

وهى عقدة أخرى من عقد المنفى سوى أنها قبل إقامة الدولة كانت صيحة مريرة عاجزة ، أما بعد إقامة الدولة فترجمت نفسها فى الاعتماد على القوة العسكرية دون غيرها من وسائل الدول .

وبررت الصهيونية حلمها أو مشروعها بانها تبغى تحرير اليهود من الطفيلية الاقتصادية لكنها الحركة الصهيونية – لما أقامت الدولة ، لم تلبث أن وجدت أنها أقامت دولة ذات أقتصاد طفيلى ، يعتمد على العون من الخارج ، ويقول مفكر استراتيجى أمريكى مرموق – أنتونى كورد سمان – أنه لن يلبث أن يتحول إلى اقتصاد متسول .

بينما يقول مفكر اسرائيلى إن اقتصاد اسرائيل قد تحول إلى أقتصاد مضاربات ، غير منتج ، يبتعد بإجماله عن جوهر الحلم الصهيوني الذى تطلع إلى مجتمع يهودى عامل ومنتج ، ويبدو أحيانا أن إقتصاد المنفى دخل من جديد إلى تخوم

دولة اسرائيل »

فأى مستقبل ؟

إنكار اليهودية

والدولة اليهودية هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا تنتمى إلى مجموعة طبيعية من الدول .

وأعتبرت الدولة اليهودية أن الشتات اليهودى يعوضها عن ذلك رغم أن حلمها ، أو الحلم الذى قامت كى تحققه هو أن ينتهى الشتات وأعتبرته كتلتها الطبيعية .

إنما فوق عجزها عن إقامة وفاق بينها وبين هذا الشتات فهى لا تفتأ تهدده وفى يهوديته فلو أخذت اسرائيل بالتعريف الأورثوذكسى لليهودى ، لانكرت على غالبية الشتات يهوديته وفى هذه الأغلبية معظم اليهود الأمريكيين مصدر المال الذى يدعم والنفوذ الذى يحمى والضغط فى اسرائيل للأخذ بهذا التعريف قوى ومتزايد .

ثم إنها تطالب هذه الكتلة الطبيعية بولاء مزدوج، تطالبهم بالولاء لها ، لا موازيا وإنما متقدما على ولائهم للبلدان التى يحملون جنسيتها ويعيشون فيها .

لكن كثرتهم تقول لاسرائيل « أنا أمريكى أولا ، أو أنا فرنسى أولا ثم يهودى ثانيا » حتى ولو كانوا يقولونها ، رعاية لمصلحة ظاهرة وحاكمة .

وتقول هذه الكثرة للاسرائيلين : لقد حققتم مشروعكم - الدولة - فلماذا تحاولون تخريب مشروعنا - الاستقرار .

فأى مستقبل ؟

المسكينة العظمى

واسرائيل أصبحت الدولة الأعجوبة بين الدول فهى الدولة المسكينة التى يحاصرها بحر من العرب يناصبونها العداء وتتعاظم قوتهم كل يوم ، لكنها تتصرف كأنها دولة عظمى فتفرض أرادتها وسطوتها على هؤلاء العرب ، ولا تفتأ تتحدث عن ذراع إسرائيل الطويلة ، وتقرر بقنابل الطائرات أن لها ، ولها وحدها ، حق تحديد سقف التطور العلمى والتكنولوجى للعرب أجمعين ، على نحو ما فعلت بالمفاعل النووى العراقى .

حتى أصبح العالم يحار كيف يعاملها هل هى دولة من الدول تدافع عن مصالحها الأمنية المشروعة أم هى عنصر لعدم الاستقرار فى النظام الدولى كما قال دبلوماسى اسرائيلى بارز .

فأى دولة ؟

أى دولة تلك ، التى يأخذ فيها فريق من الناس القانون بيدهم فى أدق ما يعنى الدولة - أى دولة - من أمور فتقول حركات مثل حركة المستوطنات وهتحياه وموراشا وكاخ وغيرها إن الحكومة التى تتنازل عن أى جزء من الأراضى المحتلة حكومة غير شرعية ، وكلها حركات مسلحة برضا الدولة أو برضوخها ، بمقتضى الاستيطان الذى هو من مقتضيات أمن اسرائيل .

فهنا مقتضيات أمن اسرائيل تتحدى أمن اسرائيل إن رأت حكومة ذات يوم أن الانسحاب من الأراضى المحتلة يوفر لاسرائيل الأمن ..

فأى دولة ؟

أى دولة هذه التي تقوم على حلم تحقق القومية والاستقلال لشعب تصورته لنفسها (بقى معظمه خارجها يحمل جنسيات دول أخرى) ثم لا تلبث أن تجد نفسها رهينة وملحقا لدولة أخرى ، وتجد نفسها كذلك بحكم الضرورات التى كانت هى صلب اقامتها ؟ أو كما يقول بيتر جروز وهو كاتب أمريكى صديق لاسرائيل ، يعمل مديرا لتحرير مجلة فورين افيرز - الشئون الخارجية ومديرا لبرنامج الشرق الأوسط فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى الذى هو من أهم المؤسسات الفكرية للسياسة الأمريكية إن لم يكن أهمها جميعا ، يقول جروز : «اسرائيل محمية اقتصادية لدولة أجنبية كبرى هى الولايات المتحدة ، لهذا فإن وضع اسرائيل الاقتصادى لم يعد مسألة داخلية ينبغى إبقاؤها فى أيد الاسرائيلين وبذلك تلاشت رؤيا الاستقلال الاقتصادى التى عول عليه الحالمون الصهيونيون الذين أقاموا الدولة وعاجلا أو أجلا ، سيكون للأمريكيين شاءوا أو أبوا ، كلمتهم فى تحديد الأولويات السياسية لاسرائيل » .

ولقد رأت اسرائيل فى ضمان الولايات المتحدة لوجودها ، ثم لأمنها ، ثم لرخائها أيضا ضمانا ما بعده ضمان .

لكن ما فاتهم أن يروه ، كما يقول ديبلوماسى اسرائيلى مخضرم هو سميحا دينتز الذى عمل فى سفارتها فى واشنطن من بعد حرب ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٨ ، وزيرا مفوضا ثم سفيرا ، يقول إن ما فاتهم أن يروه هو أن اسرائيل ليست الرصيد الاستراتيجى الوحيد للولايات المتحدة فى هذه المنطقة ، فهناك أيضا : النفط وطرق نقله إلى مواقع استهلاكه فى الغرب .

على أى حال ، فهو لا يمد هذه النظرة التحذيرية على استقاماتها ، فيقول ان المصلحة الامريكية الاصلية هى النفط وطرق نقله ، وهى التى بيد العرب ، وإن مكان اسرائيل فى هذه المصلحة الامريكية هو مكان وظيفى .

أى إنه إذا تغيرت المصلحة ، أو تغيرت الموازين التى تحكمها ، تغير المكان الوظيفى ، إلى حد أنه يمكن أن يفقد وظيفته .

وفى اسرائيل هذا قلق كبير على مستقبل الدولة يعبرون عنه بالقول إنه لا أحد فى اسرائيل يجرؤ أن يسأل نفسه ماذا لو غيرت الولايات المتحدة موقفها ، أو فقدت مصالحها فى المنطقة ، أو تغيرت أقدارها ومقاديرها ، أو تغيرت موازين القوى ، أو تغيرت قواعد الصراع الدولى ، أو حل فى علاقات السوفييت والأمريكيين نوع من الوفاق الايجابى بدلا من الاستقطاب أو ما سبق بينهما من وفاق بالامتناع ، بل إذا حل السلام الشامل الذى تقوله اسرائيل إنها تنشده ؟

وهو سؤال أصبح من الشيوع ، بحيث يختصره الاسرائيليون فى كلمتى : ماذا لو .

لكن الاسرائيليين لا يسألون أنفسهم : وماذا لو استجمع العرب أمرهم وغيروا ما بأنفسهم ، واستبدلوا بضعفهم قوة ، واحتكموا على النفط

وسيطروا على طرقه ؟ .

فأى دولة ؟

لا بالحرب ولا بالسلام

وأى مستقبل ينتظر دولة تواجه مازق أمن ، لا تخرجها منه الحرب وتتصور أنه لن يخرجها منه السلام ؟

وقد بدأ مازق الأمن مع النشأة ، بل هو صلب هذه النشأة ذاتها ، فقد بنت الحركة الصهيونية تصورها عن دولة اليهود على وهم آخر من الأوهام ، وهم أن فلسطين التى تسميها أرض اسرائيل هى أرض بلا شعب وبالتالى يستحقها هذا الشعب اليهودى الموهوم والذى لا أرض له ، لم تكن المسألة تدور بين المعرفة والجهل ، لأن العالم كله كان يعرف أن هذه الأرض هى أرض شعب آخر ، لكن المسألة هى أن الطمع فى الحقائق لا تبرره إلا أوهام ، وقامت الحركة الصهيونية فنظمت وخططت وعملت وتآمرت متذرعة بهذا الوهم ، وجاءت بمن استطاعت أن تجئ به من اليهود ، ووجدت أن أقامة الدولة تقتضى أن تضعهم وتضع نفسها فى خدمة القوى التى بيدها الأمر فلم تردد . لم يجعلها تردد أن هذه القوى التى بيدها ، كانت قوى معادية للأمة التى ينتمى إليها الشعب صاحب الأرض ، بل أن ذلك بالذات كان يناسبها ، فالطامع لا يعنيه إلا المغتصب ، وكانت هذه هى البذرة الأصلية لمأزق الأمن ، جاءت الدولة اليهودية محمولة على موجة معادية وقاتلت الحركة الصهيونية لتقيم الدولة ونجحت ، وإقامتها وإن يكن على قسم من أرض اسرائيل ، وإذا كان أصحاب الأرض قد غلبوا ، فإنهم لم يستسلموا فبدأ نمو مأزق الأمن .

فالعرب لم يعترفوا بأن هزيمتهم فى ١٩٤٨ و١٩٤٩ هزيمة نهائية ، فانتهت تلك الحرب بهدنة مسلحة ، أدت إلى حرب أخرى ومن حرب إلى حرب ، كما هو معروف .

وفى كل حرب انتصرت اسرائيل وهذا أيضا معروف ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، رأت فيها اسرائيل هزيمة فى البداية ونصرا فى النهاية .

لكن النصر فى هذه الحروب جميعا كان نصرا كالهزيمة .

لأن هذا النصر لم يحقق لها اعتراف العرب .

ولأن هذا النصر هو الذى قاد الدولة اليهودية إلى أن تصبح تابعة ، ملحقة ، رهينة لقوة دولية كبرى على نحو ما رأينا ونرى .

ولأنه من مفارقات هذه الحروب جميعا ، أنه كلما كان النصر العسكرى الاسرائيلى واضحا وحاسما ، كلما ضؤلت ثماره السياسية ، مثلما حدث في حروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وكلما كانت نتيجة القتال بين بين استطاعات اسرائيل أن تجنى بعض الثمار مثلما حدث فى فى حرب ١٩٤٨ حيث جنت إقامة الدولة وإن لم يكن على أرض اسرائيل كلها ، ومثلما حدث فى حرب ١٩٧٣ حيث جنت اسرائيل سلاما مع مصر .

وكان من شأن هذه المفارقة أن تعلم اسرائيل درسها ، فكان من شأن نتيجة حرب ١٩٧٣ مثلا ، أن تعلم الحركة الصهيونية أن طريقها إلى حل

مأزق الأمن هو مبادلة الأراضي بالسلام على نحو ماحدث مع مصر .

لكنها لم تتعلم .

هل نقول لأنه ليس ممكنا أن تتعلم ؟

لم تتعلم «الدولة اليهودية» أن الحرب لن تأتيها بالأمن ، رغم أن مأزق الأمن أصبح يبتلع ثلث ناتجها الاقتصادى ، ورغم أن كل حرب ظافرة تزيد من هذا العبء ، ورغم أن كل حرب « ظافرة » تؤدى بها إلى امتداد أوسع لما تعتبره مصالحها الأمنية حتى وصلت هذه المصالح إلى حدود الهند شرقا والمحيط الأطلسي غربا وجنوب أوروبا شمالا ، والمحيط الهندى وجواره فى شرق أفريقيا جنوبا .

وكأنها امبراطورية عظمى من امبراطوريات التاريخ .

أليست مفارقة أن هذه الدولة المسكينة ترى لنفسها مصالح أمنية تفوق أحلام الأسكندر الأكبر ، وحدود الأمبراطورية الرومانية وأطماع بونابرت ؟

وهل تطيق دولة مثل اسرائيل بحجمها وبعدد سكانها من اليهود ، وقدرتها الاقتصادية مضافة إليها معونات الامبراطورية التى تحميها ومعونات يهود العالم ، هل تطيق هذا الدور ؟

أم أنها لا تستطيع أن ترى ما تحت أنفها من حقائق ؟

فأى مستقبل ؟

والدولة اليهودية تعتصم بالحرب لأنها تخاف السلام .

تخاف إن حل السلام أن تفقد وجهها فى المطالبة بالعون ، سواء من الولايات المتحدة أو غيرها من الدول ، أو من يهود العالم .

وهى فى غياب العون لا تستطيع أن تعيش ، فقد جاءت إلى هذه الأرض بشعب يريد أن يحيا الرخاء فى اقتصاد فقير بالضرورة ، وعودته أن له حقا فى أن يعيش الرخاء على حساب الآخرين .

فهى تؤسس حقها فى المعونة الأمريكية بالقول أن حاجة الولايات المتحدة إليها ، لا تقل عن حاجتها هى إلى الولايات المتحدة .

لكن الأمريكيين فى الحقيقة يشكون فى ذلك ، ويقول بيتر روجرز الذى سبق ذكره « أن هناك نزاعا أمريكيا - اسرائيليا خفيا حول شرعية المعونة الأمريكية ، التى ينفقها الاسرائيليون على الاستهلاك ، ويرون أن لهم حقا فيها لأنهم يعيشون على جبهة استراتيجية الحياة عليها قصيرة » .

فإذا حل السلام ، لم تعد الدولة اليهودية هى هذه الجبهة الاستراتيجية التى يتحدث عنها الاسرائيليون ، أو لم تعد لها هذه الأهمية ومن شأن هذا أن يأكل مبرر المعونة .

حتى ولو أتى هذا التغير بطيئا ، وهو بالضرورة سيأتى بطيئا .

وتخاف إن حل السلام أن يستعيد اليهود الشرقيون وهم الآن أغلبية السكان وعيهم بأولوية هويتهم الشرقية التى يسميها الاشكناز بازدراء عربية .

تخاف المؤسسة الصهيونية - إن حل السلام - أن يتوحد اليهود الشرقيون مع العرب ضد المؤسسة

الصهيونية .

تخاف السلام لأسباب تمتد من أكبر القضايا إلى التفاصيل والعوامل الثانوية والتنبؤات الاحصائية .

ولأنها تخافه ، فإنها لا تريده قائما حتى على شئ من العدل .

فهى تعرف أن العرب مستعدون لقبول سلام قائم على قدر من العدل .

لكنها بعد أن حاربت هذه الحروب كلها وقاتلت هذا القتال وحققت هذه الانتصارات أصبحت تخشى أن قدرا من العدل فى صلب السلام ، سيؤدى إلى أن يطمع بها العرب .

لذلك لا تريد إلا سلاما تفرضه وإن يكن من خلال شكل المفاوضات ، تريد سلاما يقنع العرب بقوتها وسطوتها وبأنها لا تهزم أو تتراجع .

أى تريد سلاما مستحيلا .

وحتى لو حصلت عليه ، لوحصلت على سلام يعطيها ما تحتل من الأراضى ، أليست هذه بذرة حرب جديدة ؟

وحتى لو حصلت على السلام على هذا النحو ، فالمفارقة فيه تصل إلى حد الكارثة بالنسبة للدولة اليهودية ، ففى ظل هذا السلام يصبح العرب هم أغلبية سكانها خلال ربع قرن من الزمان أو يزيد قليلا .

وتكف اسرائيل عن أن تكون دولة يهودية وتجد الحركة الصهيونية نفسها صفر اليدين ، فبعد أن ضاع الحلم يضيع الواقع الذى حققته .

وقد تؤجل هجرة يهودية يشجعها السلام هذه الكارثة لكنها لن تلغيها .

وهذا كله إذا حققت اسرائيل السلام بشروطها ، وفى الوقت ذاته أقرت لسكان ما ستضمه من أراض بحقوق المواطن .

فإذا انكرت هذه الحقوق ألقت ظلالا كثيفة على ديموقراطيتها فى نظر قسم من شعبها اليهودى ، وفى نظر العالم ، وهذه الديموقراطية هى إحدى وسائلها فى استدرار التعاطف والمعونات .

وحتى إذا قبلت سلاماً قائماً على قدر من العدل ، فاسحبت من الأراضى التى احتلتها فى ١٩٦٧ فإن الأغلبية العربية سوف تتأجل ، إنما ليس وقتا طويلا ، إلى حوالى النصف من القرن المقبل ، بدلا من حوالى الربع منه .

وهذا هو مأزق الأمن الذى لم تحله الحرب ، ولا تثق اسرائيل ، بل لا تعتقد ، بأن السلام قادر على إخراجها منه ، وعندها فى هذا ما يقرب من اليقين .

لذلك تجد نفسها محكومة بالمضى من حرب إلى حرب .

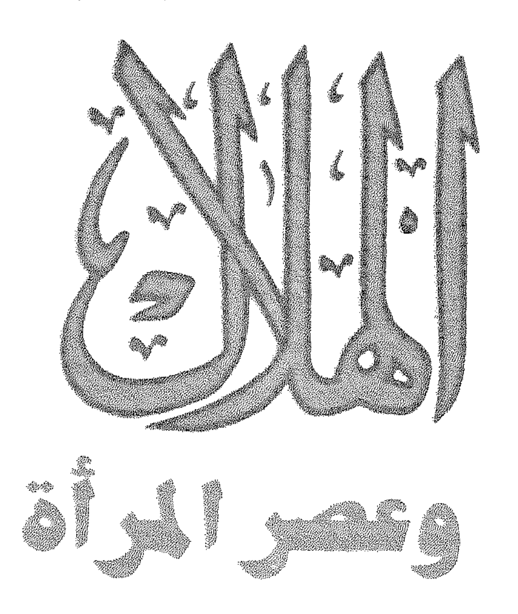
كأنه قدر !

فأى مستقبل ؟

بل ، وياله من مستقبل !



● هدى شعراوى



أجمل مختارات الهلال كما كتبها

معروف الرصافى. • ابراهيم المصرى • سيد عويس

مى زيادة . • أنيس منصور • مصطفى نبيل

محمد فريد وجدى • د . سيد كريم • د . شكرى عياد

زكى طليمات • د . أمين العيوطى

د . أمير بقطر • د.محمدرجب البيومى



المرأة فى الشرق

شعر :
معروف الرصافى

ألا ما لاهل الشرق فى برحاء   يعيشون فى ذلّ به وشقاء
لقد حكّموا العادات حتى غدت لهم   بمنزلة الاقياد للاسراء
اذا تختبرهم فى الحياة تجد لهم   حياة تخطّت خطة السعداء
وما ذاك الا انهم فى امورهم   ابوا ان يسيروا سيرة العقلاء
لقد غمطوا حق النساء فشدّدوا   عليهن فى حبس وطول ثواء
وقد الزموهنّ الحجاب وانكروا   عليهن الاّ خرجة بغطاء
اضاقوا عليهن الفضاء كأنهم   يغارون من نور به وهواء
قد انتبذوا عنهن فى العيش جانباً   فما هنّ فى أمر من الخُلطاء
وقد زعموا أن لسن يصلحن فى الدُنا   لغير قرار فى البيوت وباء
فما هن الا متعة من متاعهم   وأن صنّ عن بيع لهم وشراء

اهانوا بهن الامهات فأصبحوا بما فعلوا من ألأم اللؤماء
ولو انهم ابقوا لهنّ كرامة لكانوا بما ابقو من الكرماء
ألم ترهم امسوا عبيداً لانهم على الذل شبُّوا فى حجور إماء
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمّل جور الساسة الغرباء
فيا قوم ان شئتم بقاءً فنازعوا سواكم من الاقوام حبل بقاء
أيسعد محياكم بغير نسائكم وهل سعدت ارض بغير سماء
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح تمثّل حالى عزة وإباءٍ
ولكن عاراً أن تزياً رجالكم على مسرح التمثيل زىَّ نساء

★★★

اقول لأهل الشرق قول مؤنّب وان كان قولى مُسخط السفهاء
ألا أن داء الشرق من كبرائه فبعداً لهم فى الشرق من كبراء
واقبح جهل فى بنى الشرق انهم يسمون اهل الجهل بالعلماء
واكبر مظلوم هو العلم عندهم فقد يدّعيه أجهل الجهلاء
لو واقتصّ رب العلم للعلم منهم لصبّ عليهم منه سوط بلاء
ولاستأصل الموت الوحىّ نفوسهم ونادى عليهم مؤذناً بفناء
لكن حلم الله ابقى عليهم فعاشوا ولو فى ذلة وشقاء
لقد مزّقوا احكام كل ديانة وخاطوا لهم منها ثياب رياء
وما جعلوا الاديان الاّ ذريعة الى كل شغب بينهم وعداء
وما علماء الجهل الاّ مساقم رمت جهلاء العلم بالقوباء

★★★

الا ياشباب القوم إنى الى العلا لداع فهل مَن يستجيب دعائى
أما آن للاوطان ان تنهضوا بها لادراك مجد وابتغاء علاء
قد بح صوتىَ واستشاطت جوانحى وقلّ اصطبارى واستطال بكائى
على أن لى فيكم رجاءً وان يكن من اليأس مسدوداً طريق رجائى
وما أن فى وادى الخيال بهائم وان كنت معدوداً من الشعراء

ابريل ١٩٢٢

من الآنسة مى
إلى كل فتاة مصرية

هذه صحيفة خاطبت فيها الآنسة مى الفتاة المصرية . وكأنها خاطبت بها كل بنية شرقية . وقد طلب اليها أن تكتبها خاصة لكتاب « محفوظات البنات » الذى أقترح تأليفه مجلس مديرية القليوبية ليدرس فى مدرسة البنات الأولية التابعة له بشبرا البلد . وأنه ليسرنا أن نقدم هذه الصحيفة إلى قرائنا الكرام ولا سيما أنها مقتطفة من كتاب « بين الجزر والمد» الذى سيصدر قريباً وهو – كما ذكرنا سابقاً – الهدية الثانية من هدايا الهلال إلى المشتركين فى هذه السنة .

الحياة أمامك

الحياة أمامك ، أيتها المصرية الصغيرة ، ولك أن تكونى فيها ملكةً أو عبدة :

عبدةً بالكسل ، والتواكل ، والغضب ، والثرثرة ، والاغتياب ، والتطفّل، والتبذّل . وملكةً بالاجتهاد ، والترتيب ، وحفظ اللسان ، والصدق ، وطهارة القلب والفكر ، والعفاف ، والعمل المتواصل .

فإن عشتِ عبدةً بأخلاقك كنتِ حملاً ثقيلاً على ذويكِ فكرهوكِ ونبذوكِ . وإذا عشتِ ملكةً أفدتِ أهلكِ ووطنكِ وكنتِ محبوبةً مباركة .

فأيهما تختارين ؟

إذا اخترتِ السيادة فروّضى نفسكِ على المكارم منذ الساعة ، لأنّ الملوك يسلكون طريقَ العزِّ منذ الصغر .

مى

فبــراير ١٩٢٤




محمد فريد وجدى



انقضى الآن ثلاثون عاما على وفاة محرر المرأة المصرية قاسم أمين . وقد لاقت دعوته من النجاح بعد وفاته ، قدر ما لاقت من الاستنكار فى أثناء حياته ، ولكن ما نجم عنها من تاريخ يحملنا على أن نتساءل :

هل أخطأ قاسم أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة ؟

بقلم : الأستاذ محمد فريد وجدى

قال العلامة الكبير (اجوست كومت) مؤسس علم الاجتماع والفلسفة الوضعية فى كتابه (النظام السياسى) :

«كل أدوار الانتقالات الاجتماعية قد ولدت فى زماننا هذا ضلالات خيالية على حالة النساء الاجتماعية ، ولكن القانون الطبيعى الذى يخصص الجنس النسوى للحياة البيتية لم يتغير ابدا تغيرا خطرا » .

وهذه الضلالات فى نظر واضع علم الاجتماع هى ما كان يكتبه بعض الكتاب فى أوربا تحت عنوان (تحرير المرأة) .

التسمية فى نفسها تؤثر فى كل نفس كريمة ، فمن الذى لا يود أن تحرر اخواته فى الانسانية من الاسر وقد حررت الاماء السود فى جميع بقاع الأرض ، ويغفل الاكثرون عن أن هذه التسمية مبنية على اخطاء علمية ، سوغت لعمدة الفلسفة الوضعية أن يسميها ضلالات خيالية . فلم تنص شريعة فى الأرض مهما انحطت على أن النساء أسيرات فى أيدى الرجال ، ولا أنهن مجردات من جميع الحقوق ، ولكن الأمر الواقع هو أن المرأة فى الجماعات المختلفة كانت تعامل على نسبة مكان تلك الجماعات من سلم المدنية ، ولا سبيل الى تغيير هذه المعاملة ، فان فلسفة محررى المرأة لا تصل الى هذه الجماعات ، ولو وصلت لرموا بها عرض الحائط ، فان لكل دور من أدوار الاجتماع مميزات لا يمكن أن تتخلف على الاطلاق .

والذى يتبين من تاريخ الانسان أنه مافتىء يزيد من حقوق المرأة عليه كلما ارتفعت حالته الأدبية وازداد شعوراً بواجباته الاجتماعية ، فنزل عن كثير من مزاعمه حيالها دون أن تطالبه هى بذلك ، محفوزا بمحض العوامل الطبيعية ، مما يشعر ، بأن العلاقة بين الجنسين لابد منتهية الى درجة من الكمال لا يكون معها ملحق لشكوى . نعم لم تصل أمة من أمم المعمورة بعد الى هذه الدرجة ولكنها منتهية اليها لا محالة ، اذا خلا الجو من المزاعم الطائشة التى يرمى مثيروها من ورائها الى الحصول على ما يطلبونه باسم المرأة من طريق الثورة لا من طريق العوامل الطبيعية .

ولقد اتفق فى إبان نعرة تحرير المرأة فى أوربا فى القرن التاسع عشر أن نعرات أخرى فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والخلقية والسياسية كانت قائمة ، أثارتها مزاعم اشتراكية وفوضوية وإباحية واصلاحية ، فكان تأثير مجموع هذه النعرات الصاخبة فى ذلك القرن أشد فى زعزعة أركان المبادىء المستقرة فى نفوس الناس من تأثير أكبر الحوادث الانقلابية ، وأفضى ذلك التأثير الى نتيجة لا مفر منها فى مستهل القرن العشرين ، وهى الحرب العامة التى ظلت الانسانية تتناحر فيها خمس سنين متوالية وكادت تقضى على المدنية وتجعلها أثراً بعد عين ، لولا ما كتب لها من بقية حياة الى حين . فكان أثر كل نعرة من هذه النعرات المتطرفة أن ارتكست الأحوال بسببها الى عكس ما كان يراد منها . فاستحالت فى الناحية الاقتصادية الى انتشار البطالة ، وتوالى الأزمات وتتابع الاضرابات ، واختلال اتزان الاعمال فى

جميع البلدان . وكان أثرها فى الناحية الاجتماعية زعزعة الأصول الديمقراطية ، وقيام حكم الفرد مقام حكم الجماعة ، وضياع أكثر المبادىء العليا التى حصلها الانسان فى خلال العصور باراقة دمه ، وأصبحت الجماعات مضطرة الى اللجوء لحكم القوة ، ففزعت الى التسلح باذلة فى سبيله كل ما تملك من حول وحيلة .

وكانت ثمرتها من الناحية السياسية سريان سوء الظن بين جميع الامم ، وتنبه الأحقاد الجنسية وهضم حقوق الاقليات لدرجة حرمانهم من العمل لكسب قوتهم ، حملا لهم على الجلاء من بلاد استوطنوها مئات من السنين ، وعدم المبالاة بالعقود المبرمة ، والعهود المقطوعة ، حتى صرحوا بأنها وقصاصات الأوراق سواء . وابتنى على ذلك كله الجرى على قاعدة الأمر الواقع ، فأصبحت كل أمة قوية تبيت لجارتها ما بدا لها من الحوادث ، حتى اذا أصبح الناس وجدوا أنفسهم حيال انقلاب كان لا يمكن حدوثه لو كانت النفسية السياسية للقادة فى حالتها التقليدية .

أما من ناحية الآداب العامة فقد كان من نتائجها أن تفككت جميع ربط الاخلاق ، وانحلت عرى حوافظها المعنوية ، فلم يبق لسنتها التقليدية اعتبار فى نظر الخاصة والعامة ، فسمح كل فريق لنفسه أن يعمل ما يبدو له كأنه مستقل برأسه ، وضعف سلطان الرأى العام فلم يعد أحد يعتد به متى تراءت له مصلحة شخصية فى احتقاره .

هذه الكارثة الخلقية حلت بالبيوت فلم يبق لرب الاسرة المنزلية التى كانت له من قبل ، وأنس نفسه بين حليلته وبنيه مجرداً من السلطات ، حتى فيما يمس شرفه الشخصى وكرامة البيت ، ورأى انه لو قام مذكراً بأدب موروث ، أو بقاعدة مأثورة ، أو بمأساة متوقعة ، قوبل بعاصفة من الاحتجاج ، وضربت له الأمثال بفلانة وفلان ، واحيط به من كل مكان ، فالفى نفسه بين شرين لهما ، فاما ان يعتزل أسرته ويعيش أبدا كأنه بعض الضوارى ، واما ان يجدع انف غيرته ليعيش ، متأسيا بمصائب الكافة بين يديه ومن خلفه .

ألمت هذه الاباحة الجائحة بصناعة القلم ، فاندس فيها من لا حريجة له من كرامة أو ضمير ، فأطلق ليراعته العنان ليرضى هذه النفوس الهائمة فى متاهات الشهوات ، ويبل أوام تلك الفطرة النزاعة الى الإباحة والاطلاق . وأى شىء يخشى وقد سلب الرأى العام سلطانه فلا يبالى وازعا من ناحية ، ووسم داعى الاعتدال بالرجعية فلا يتوقع كريهة من جهته ، واضطر كثير من حملة اليراع إلى الإسفاف ، وما هم بأهله ، ولكن المضطر قد يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه !

فإذا عنى باحث بأن يستطلع آراء زعماء المذاهب المختلفة فيما انتهت اليه الحال فى هذا العهد كثمرة لجهادهم ، لما صادف واحداً منهم راضيا بما آلت إليه الامور ، بل لصرحوا له بأن نتيجة جهودهم جاءت مباينة لما كانوا يدعون اليه . فلا الاقتصاديون كانوا يرومون من وراء بحوثهم المستفيضة أن تنتهى الحال الى أزمات عملية ومالية منكرة ، ولا إلى اختلال توازن المبادلات والمعارضات الى حد أن أصبحت كل أمة تعمل على ان تقطع صلاتها بجميع العالم ، وتكفى نفسها الحاجة الى سواها فيما جل أو حقر ، مما ستكون نتيجته لا محالة قطع أواصر الأمم ، وفصم عرى الألفة العالمية التى لا موجب لوجودها إلا ضرورة تبادل المنافع ، وتداول المرافق .

ولا الإجتماعيون كانوا يرجون باكثارهم من بيان علل الجماعات ، والسعى لزيادة حظها من الحرية ، ونقد اسراف الحكومات فى تجاهل حقوق الافراد ، أن ينتهوا الى هدم سيادة الأمة ، وإحلال الدكتاتورية محلها . ولا الى اثارة الدهماء الى حد اقامة حكومات شـــعبية تنعدم فيها الطبقات وتســـتحيل الى شيوعية باحتـــة . ولا شيعة الشيوعية أنفسهم كانوا يتطلبون من وراء سيادة مبادىء كارل ماركس أن تفضى الحالة الى ضرب من الحكومة الاستبدادية لا يستطيع القائم بها أن يحفظ وجودها الا باحداث مجازر بشرية دورية .

ولا اشياع الاصلاحات الخلقية كانوا يتوخون من تشنيعهم على استبداد الأوضاع العامة ، والتشهير بالعبودية لوثنية العادات والتقاليد الضارة ، أن تؤول الحال بالناس الى نكران جميع الاوضاع والعادات ، والخروج الى باحة الفوضى الخلقية ، كما هو حاصل اليوم .

ولا زعماء النقد الأدبى كانوا يرجون بما نعوا عليه من تحدى الأساليب العتيقة، والورع المبالغ فيه عن ذكر المساوىء البشرية فى عبارات صريحة ، أن تنتشر الدعارة الكتابية الى حد أن توقف البراعات الفنيـــة على نشر ما يثير الشـــهوات البهيمية ، ويقضى على عاطفة الصلاح فى النفس البشرية .

ولا الذين كانوا يدعون لتحرير المرأة والمطالبة باستقلالها كانوا يرمون أن يقضوا عليها بأن تعيش على هامش الجماعة كما هى اليوم ، خارج دائرة الزوجية ، وأن تقصر على أن تكون أداة شهوانية ، فاذا لم تعد تصلح لذلك نبذت الى عالم الحرمان مع أولادها الطبيعيين ، وأن تستتبع هذه الاباحة انتشار العزوبة ، واقفار البيوت ، وذيوع الامراض السرية ، وقيام نوادى العرى التى يجتمع فيها الرجال والنساء عرايا على حالة تأباها الكرامة الانسانية .

فلو أراد الباحث المنصف أن يعرف الطائفة التى فازت مما دعت اليه بحظ مرض ، أو اعتبرت ما آلت اليه الأحوال تمشيا نحو تحقيق غرضها ، لما وجدها فى واحدة مما ذكرت وما لم أذكر . بل لرأى رأى العين أنها خسرت جميعا خسارات فادحة فى مبادئها وتعاليمها ، وأصبحت لا تستطيع أن تتابع جهودها ، اللهم إلا فى ناحية واحدة وهى الدعوة الى التعقل ، واعادة النظر فيما العـالم ماض فيه راكبـا رأســه لا يلوى على شىء .

الدعوة الى تحرير المرأة فى مصر كانت فرعا من تلك الدعوة نفسها فى أوربا، وقد أصابها هنا ما أصابها هناك ، أى انها تأدت الى شر محض ، واندفعت فى تيار لا يرجى الخير ممن يندفع فيه . ولو كان المرحوم قاسم بك أمين حيا ورأى ما نحـن رائوه اليوم ، لبرىء الى الله منه ، ولأهــاب بالناس الى الرعـوى عما هم ماضون فيه .

لقد سلخنا فى تحقيق برنامج تحرير المرأة أكثر من ثلاثين سنة فلم يتم منه غير شىء واحد ، وهو سفور القلة المحجبة من ساكنات المدن ، وكانت النتيجة وصولنا الى عكس ما كان ينتظر من ذلك البرنامج . فقد كان ينتظر واضعه منه ارتفاع مستوى الآداب ، ورواج سوق الزواج ، وتوافر أسباب السعادة فى البيوتات ، ولكن الذى حدث هو تدهور مروع فى الآداب العامة ، وانتشار مفزع لمبدأ العزوبة . وكنا لا نسمع بحدوث طلاق فى الاسر الكبيرة إلا فى أحوال شاذة ، فأصبحنا نراه شائعا فى تلك الأسر كأنه امر عادى . وأضحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض ، وتعديد بعض النساء للازواج . وصار من الأمور المألوفة هروب الشابات من دور أهليهن ، وقضاء الايام والأسابيع مع بعض الشبان ، واختتام هذه الفصول بعقد قرانهن فى مكاتب البوليس ، ولا تسل عما تؤول حالتهن اليه بعد تلك المأساة المنكرة من السيرة المعوجة ، والحياة الدنسة .

لقد طمت هذه الأحوال وتفاقمت شرورها وهى آخذة فى الأزدياد ، وقد أصبحت جزءاًمن التدهور الأدبى العام الذى أصاب الانسانية فى هذا العهد الأخير . فاذا اعتبرها الاجتماعيون من العلامات المنذرة بقرب انهيار صرح المدنية الراهنة . فلم يعدهم الصواب ، لأنه لا يعقل أنْ تنقلب الحياة الانسانية الكريمة ، وهى مستقر الصفات الملكية ، وعوامل السمو الذى لا حد له ، الى مثل هذا الحضيض من الدنس والاسفاف والبهيمية .

موقف الرجل من المرأة فى فن التمثيل

بقلم : زكى طليمات

يذهب بعض الاجتماعيين إلى أن المرأة في مجال نشاطها الحديث تنحرف تدريجا عن مهمتها الاساسية فى الحياة المنزلية الى الاشتغال بمهام لم تكن لها فى سابق الازمان . فهى تزاحم الرجل في ميادين الاعمال المدنية المختلفة ، بل إنها تتجاوزها الى ساحات القتال ، وهم يرون فى هذا تطرفا قد تنقلب معه أوضاع الحياة العائلية كما يرى فريق آخر انه استعداء صريح على مهام الرجل وتنافس له ما بعده من اضطراب الاحوال . لهم ما يذهبون اليه فلسنا هنا للمناقشة فى هذا ولكننا نقرر ، ماداموا يذكرون استعداء المرأة على الرجل ، أنه جاء حين من الدهر أبعده منذ ثلاثة قرون فى انجلترا وأقربه منذ نصف قرن فى مصر ، كان الرجل فيه يستعدى على المرأة استعداء غريبا مضحكا اذ كان يسلبها حقا صريحا من حقوقها فى تولى العمل فى ناحية هى للمرأة .. ومن المرأة !



زينب صدقي من الممثلات اللاتي عملن بالتمثيل أمام الرجال
ويظهر في الصورة الممثل المشهور - الشاب آنذاك - سراج منير

هــو اسـتعداء عجيب في نوعه يثير ضحكنا اليوم ، وكان ميدانه مسرح التمثيل ، فقد نحى الرجل المرأة عن اعتلاء المسرح تمثل فوقه أدوار جنسها ليقوم هو مكانها بتمثيل هذه الادوار في مختلف المسرحيات بعد أن يتزيا بزيها وينتحل صوتها ويقلد حركاتها مخططا وجهه بالمساحيق والأصباغ ، مغطيا رأسه بجدائل الشعر المستعار!

الرجل فوق المسرح يمثل دور المرأة أمام جماهير من الناس يصفقون له ويعجبون به ! أي استعداء من جانب الرجل وأي استكانة من جانب المرأة وخضوع ، وأي مزاج كان الجمهور عليه ؟

ظاهرة اجتماعية تبدو لنا اليـوم على غـرابة لا تنتهي لمخالفتها المألوف ومجافاتهـا المزاج السائد ، فاننا اليوم مهما قلبنا هذه الظاهرة على وجوهها المختلفة فلن نجد فيها موضعا للاستساغة والقبول ، بل ان مجتمعنا العصري ليشمئز ويتبرم اذ يرى رجلا، كانت ما كانت سنه ووسامته وموهبته، يتلوى فوق المسرح ، متكلفا أنوثة المرأة بعد أن يتقمص شخصيتها ويرتدي لباسها مؤديا دورها في احدى المسرحيات . بيد أن هذه الظاهرة كانت تبدو

للرجل الانجليزى حتى أواسط القرن السابع عشر وليس فيها موضع للتأمل ولا مثار للدهشة ، بل كان يعبر بها من غير أن يعيرها التفاتا . لهذا فان أول ما تثيره فينا هذه الظاهرة من تأملات : كيف تأتى ان أصبحنا اليوم ننكر ما كان يقره الاقدمون ولا نجد مذاقا لما كانوا يستسيغونه ؟ ولكن سرعان ما نجد الجواب باعتبار أن المزاج العام للمجتمع لا يقيم على حال ، وأن البشرية فطرت على التحول والتقلب تغير من نظرتها الى الاشـياء بتغير الازمـان .

ثم تترى تأملات أخرى يحلق الخيال ببعضها الى آفاق الفكاهة والسخرية ، فنحاول أن نتمثل كيف كانت « جولييت » مثلا تطارح « روميو » الغرام الملتهب وتبادله العناق الرقيق - وذلك فى مأساة شكسبير الخالدة وفى زمنه - وجولييت هذه يؤدى دورها رجل سلط الموسى على لحيته وشاربه ، يتكلف أنوثة ليست فى طبعه ورقة ينكرها جنسه ، ويتعمل صوتا لين المكاسر ليس فيه شىء من النبر النسوى الدافىء ، وقد نبتسم وقد نضحك اذا تخيلنا ماذا يكون حاله لو سقطت من فوق رأسه جدائل الشعر المستعار ؟

بيد أن أمرا واحدا يظل يراود خاطرنا وقد يستبد به ، مأتاه التشوف الى المعرفة ، أين الاصول فى هذه الظاهرة ؟! وكيف نشأ هذا التقليد العجيب فى ان يقوم الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ؟ !

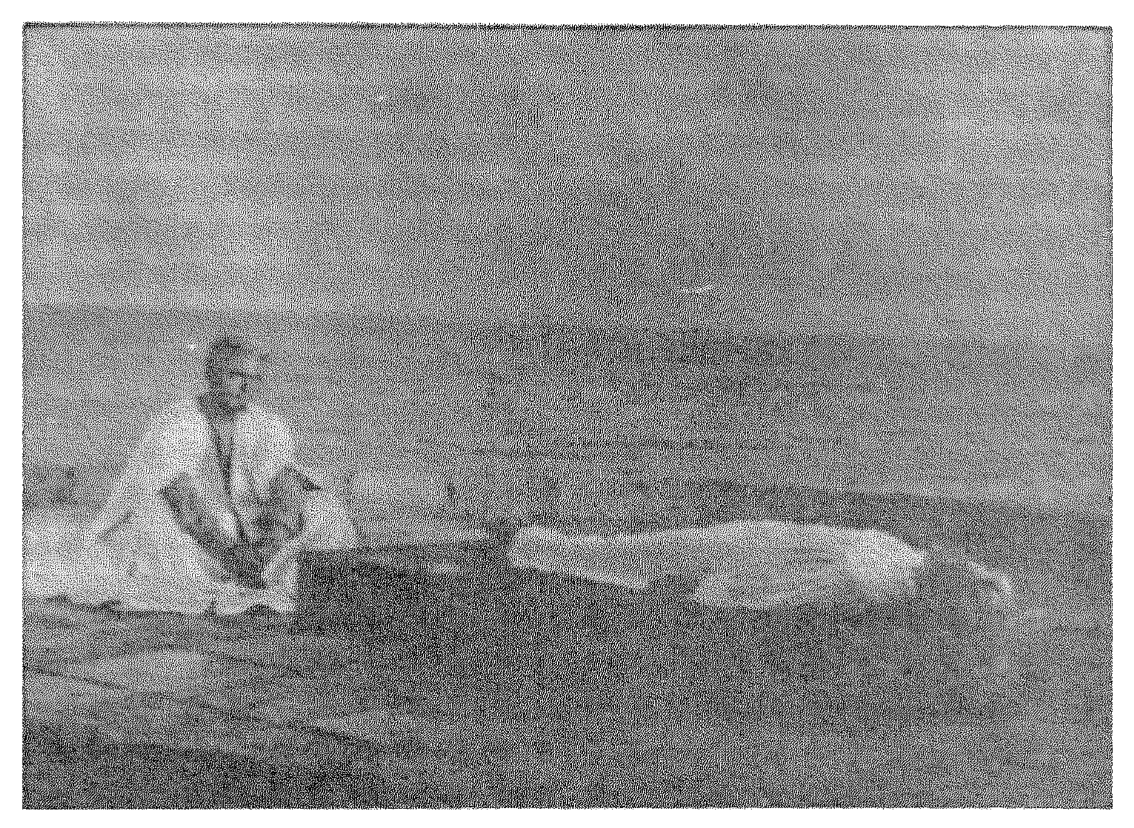
المرأة فى المسرح الاغريقى والمسرح الفرعونى

الاغريق ، أو قدماء اليونان ، هم بناة المسرح ، وهم أول من رفع العرض التمثيلى المرتجل الى مرتبة الفن الكامل ، ومن مسرحهم خرجت أول أوضاع الفن المسرحى وتقاليده ، وهى أوضاع وتقاليد مازال بعضها مخلفا طابعه على مسرحنا حتى اليوم .

لدى هؤلاء الاغريق الاساتذة الفنانين نجد الاصل لتلك الظاهرة الغريبة ، قيام الرجال بأدوار النساء فوق المسرح ، كما نجدها أيضا فى المسرح الفرعونى الذى سبق المسرح الاغريقى فى معالجة شؤون أرباب العقيدة المصرية القديمة .

وقد نعجب كيف تأتى أن الاغريق تورطوا فى هذا وقلبوا رأسا على عقب وضعا طبيعيا منحرفين كل الانحراف عن شرعة انزال الأمور منازلها الصحيحة ، وهم أهل فن عريق مجيد ، وبناة مدنية زاهرة ، يمتاز فنهم بالمنطق والمعقول والوضوح والاعتدال والاتساق ، وينزع نزعة مثالية نحو الجمال ؟!

فى الحق انهم تورطوا فى هذا على الرغم مما ذكرنا من سمات فنهم الرفيع فى النحت والزخرفة والبناء ، ومرجع هذا أن فن التمثيل فى نشأته ومرحلته الأولى كان موقوفا لديهم على شؤون الآلهة ومناسك الدين ، يقوم بأعبائه الكهان دون سواهم من طبقات الشعب ، فكان أمرا واجبا ألا تتدخل النساء فى شؤون هذه الناحية من المراسم الدينية



عطيل - المرأة هناك دائما

الرفيعة ، لاسيما وأن الحوار فى تلك المشاهد التمثيلية كان خاليا من أدوار النساء .

ونجد نفس الحال فى المسرح الفرعونى الذى كان لشؤون الآلهة فحسب .

فى هذين المسرحين اللذين يعتبر كل منهما مظهرا من مظاهر مدنية عظيمة نجحت هذه الظاهرة الغريبة ، ولم يجرؤ أحد على انتقادها ومناهضتها نظرا لالتصاقها بشؤون الدين .

بيد أن المسرح الاغريقى ترك معالجة أحوال الآلهة الى شؤون الدنيا والناس ، ووضع الشعراء أدوارا للمرأة فى مسرحياتهم ، ومات المسرح الفرعونى بين جدران الهياكل ولما يخرج الى العالم الارضى ، ولكن هذه الظاهرة لم تمت .

أجل أصبح المسرح الاغريقى منقل ألوان الحياة ومرآة صورها ، ومن المعلوم أننا لا نرى الرجل فى الحياة الواقعية يشكل بشكل المرأة ويقوم بدور لها يستمد معينه مما ركب فيها من أنوثة ورقة ودلال . كذلك تخلى رجال الدين عن أداء الادوار التمثيلية وتركوا هذا لعامة الناس ، وفى هذا كله الكفاء لان تختفى هذه الظاهرة من المسرح ، ولكن

على الرغم من هذا لم تفارقه بل بقيت لاصقة به !

والسبب فى هذا أن هذه الظاهرة أصبحت تقليدا امتدت جذوره مع الايام فى تربة المزاج الاغريقى ، كما أنه يبدو لى أن الاغريق - وقد سمت نظراتهم الى فن التمثيل وعظم اعتبارهم للقائمين به باعتبار أنه فن له قداسته ، اذ إنه منحدر من الهيكل ومناسك الدين - كانوا ينفسون به على النساء اذ يرون فيهن عنصرا متحولا طائشا لا يتكافأ مع الرجل فى الجد والرصانة والتقوى ، ولاشك فى أن المرأة كانت ترمق من المجتمع بنظرة ظنينة تبالغ فى تجسيم ما منيت به من ضعف ، فكان على الرجل أن يصونها عن مزالق الهواية ويبعدها عن مواطن الاستثارة مهما سمت أغراضها ، فلم ينحها عن الظهور فوق المسرح فحسب ، بل سلبها حق المتعة فى غشيان المسارح مع الجمهور المتفرج .

وهناك سبب آخر منشأه ضرورات فنية تتصل ببناء المسرح ومكان النظارة فيه ، لاشك فى انها صرفتهم عن مراجعة هذا التقليد الخاص بابعاد المرأة عن الظهور فوق المسرح .

كان الممثلون لا يبدون على المسرح بوجوههم الطبيعية ، بل كانوا يلبسون أقنعة Masques كبيرة من الكتان المشدود أو الورق السميك المضغوط تغطى الرأس والوجه والعنق ، وقد ركزت فى بعضها - وذلك بالقطع والتخطيط والتصوير - ملامح وجه الرجل فى أهم مراحل الحياة ، وفى بعضها الآخر سمات وجه المرأة فى أبرز أدوار العمر ، بقصد أن تزيد هذه الأقنعة فى قامة الممثل وفى حجم رأسه ووجهه حتى تتيسر رؤيته للنظارة بحال يعظم التأثر باجتلائه (١) .

ولاشك فى أن وجود هذه الاقنعة قد أغرى الرجل الممثل بأن يبقى ممثلا دور المرأة ، اذ ما كان أيسر عليه أن يقوم بدورها مادام الأمر لا يتطلب منه غير التخفى بقناع يحمل فى رسمه ملامح وجهها وزى يشاكل زيها .

المسرح الرومانى

أما الرومان فكان حالهم من فن التمثيل غير حال الاغريق ، وان تعرفوا الى فنهم فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ثم أخذوا عنهم الكثير من أوضاعه وتقاليده .

ولم يتصل المسرح لدى الرومان بشؤون الآلهة ولم يعالج مناسك الدين كما كان الحال لدى الاغريق . ولهذا لم تكن لديهم نحوه قداسة وإجلال . كذلك كان الرومان يغلب عليهم ميل الى المجون والرقص والموسيقى . وقد طغى حبهم لالعاب الفروسية والمصارعة والمبارزة على كل شيء سواه . كان الملعب أحب اليهم من المسرح ، ولهذا كانت

(١) مكان النظارة فى المسرح الاغريقى مدرج كبير مترامى الاطراف بحيث يسع ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص ، فكان الممثل ، بحكم هذا الاتساع بعيدا عن النظارة . ولهذا عمد ممثلو الاغريق الى الاقنعة كما عمدوا الى الاحذية ذات النعال المرتفعة السميكة Cothcrne التى كان يبلغ ارتفاع بعضها ٤٥سنتيمترا ، واتخذوا الثياب الفضفاضة الطويلة . كل هذا ليزيد فى حجم الممثل . أضف الى ما تقدم أن حفلات التمثيل كانت تجرى فى وضح النهار من غير استعانة بالاضواء الصناعية .

نظرتهم الى التمثيل والممثلين يجافيها الاحترام والتقدير ، بدليل أن ممثلى مسارحهم كانوا كلهم من الرقيق والمعتوقين والاوشاب الذين لا مؤونة لهم من التثقيف والخلق الطيب المتين ، وقد تألفوا فرقا ثابتة يتولى أمر كل منها رئيس ليس حظه من الاصل والخلق بأرفع من مرءوسيه ، هذا فى حين أن الممثلين لدى الاغريق كانوا موضع التجلة والاحترام ، فقد كان الشاعر مؤلف المسرحية يشكل فرقته بنفسه كلما دعت الحاجة من صفوة المتأدبين ، وقد يقوم بتمثيل أحد أدوار المسرحية .

أول ظهور المرأة فوق المسرح

بيد أنه على الرغم من هذه الحال فقد عمل المسرح الرومانى مدة طويلة بالتقليد الاغريقى الخاص بابعاد النساء عن التمثيل فوق المسرح ، ولا سيما فى المآسى الرفيعة والفكاهيات الاخلاقية للشاعرين « سينيك » و « تيرانس » ونهجوا نهج أساتذتهم الاغريق فى استعمال الاقنعة .

غير أن الرومان كان يسعرهم طبع الى الرقص والموسيقى كما أشرنا ، فابتدعوا رقص الجماعة ، ورفعوه الى مرتبة العرض المسرحى ، فى حين أنه يجمع بين الايماء والاشارة السادرة Mime وبين الحركات الايقاعية المثيرة للحس (١) .

فى هذا المجال يسجل التاريخ أول ظهور للمرأة فوق المسرح ، وهو ظهور لا يشرفها ويا لقسوة الرجل . فقد حجزها باسم التقليد عن العمل بالمسرح ممثلة تؤدى رسالة خلقية سامية ، ثم أطلقها فوق المسرح راقصة عربيدة الجسد تغرى وتغوى وتلهب الحواس .

وهذه بادرة لا شعورية من جانب الرجل فى تلك العصور تنم ولاشك عما يستهويه أن تكون المرأة عليه وأن تؤديه من وظيفة فى الحياة ، سواء أكانت تحت سقف البيت أم فى ظل المسرح . وهى بادرة جديرة بالتسجيل فى تاريخ موقف الرجل من المرأة .

المرأة فوق المسرح

ومن ذلك الوقت امتدت قدم للمرأة الى المسرح ، فكانت تارة تستقر وتارة أخرى تقتلع ، وهى فى الحالتين تتطوح بين التقليد القديم الذى حرمها العمل بالمسرح قرونا عدة ، وبين الحق الذى اكتسبته بظهورها فى العرض الرومانى الراقص ، وأخيرا رسخت قدمها فى عصر النهضة Renaissance وهو وان كان عصر رجعة الى حياة الذهن والعلم والادب بعد عصور الظلام فى القرون الوسطى حيث سلط رجال الكنيسة سلطانهم على المجتمع فخلعوا عليه مسحة التقشف وأقنعه الوقار والزهد ، فانه أيضا عصر فرح بالحياة وعهد اطلاق للحواس التى كانت تكابد مرارة الكبت ، وعصر حرية نسبية للوجدان فكان أن

(١) كان فى روما وحدها ثلاثة آلاف امرأة يعملن فى هذا الرقص . وفى الوقت الذى كان يطرد فيه العلماء والخيرون من العاصمة ويعانى السكان آلام المجاعات ، كانت هاتيك الراقصات يستمتعن بالبقاء والعيش الهين . وفى هذا أكبر دليل على مبلغ شغف روما براقصاتها .

أخذت المرأة حقها المشروع فى اعتلاء المسرح ، ولا سيما فى أوربا اللاتينية . بيد أن مجالها فى فن التمثيل لم يتجاوز نطاق فن الاداء التمثيلى فقط واختفت « الاقنعة » من عالم المسرح .

المسرح الانجليزى والتقليد القديم

وتفرد المسرح الانجليزى بالمحافظة على التقليد القديم فى ابعاد المرأة عن القيام بدورها فوق المسرح . وهو موقف يثير العجب حقا ، فان هذا المسرح الزاهر الذى سبق مسارح أوربا كلها الى الخروج على أعرق تقاليد الاغريق فى صياغة المسرحية محطما قيود وحدتى الزمان والمكان (١) . على يد العبقرى « وليم شكسبير» كما خالف شعراؤه المسرحيون الكتاب القدامى من الأغريق والرومان ومن تلى تلوهما بأن كتبوا المسرحية بالشعر المرسل « Blank Verse بدلا من الشعر المقفى ، هذا المسرح المجدد فى أخطر دعائم المسرحية وفى أهم أسس العرض التمثيلى ، مما يضيق المقام بسرده ، وقف جامدا أمام ما خلفه الاغريق من تقليد شاذ فى جعل الرجل يمثل دور المرأة حتى منتصف القرن السابع عشر .

وأسماء الممثلين « وليم أوستلر » و « روبرت جوش » و جون أندرود » و « اسكندر كوك » يأتون فى رأس قائمة طويلة باسماء رجال ممثلين كانوا يقومون بتمثيل الادوار النسوية فى روايات « وليم شكسبير » وغيره . والى الممثل الأخير يعزى فخر تأدية دورى « كليوباتره وجوليت » على المسرح الانجليزى للمرة الأولى .

وأعجب من هذا أن أدباء المسرح الانجليزى فى ذلك الوقت كانوا يزهون بهذا الوضع ويفاخرون به رجال المسرح الفرنسى ، ففى رسالة نشرها الناقد الانكليزى « ناش » عام ١٥٩٢ مفاخرا بالمسرح الانجليزى ، جاء فيها : « ان ممثلى المسرح الانجليزى ليسوا كممثلى المسرح الفرنسى جماعة من القوادين يستأجرون البغايا وأنصاف الحرائر ليقوموا بأدوار النساء على المسرح » !

بأى نظرة يرمق بها هؤلاء الانجليز المرأة الممثلة وبأى مقياس يصدرون عنه فى تقدير العفة والشرف لدى المشتغلين بالمسرح فى غير بلادهم ؟

لاشك فى أن النزعة الطهرية Puritanisme كانت المعين الأول لهذه النظرة القاسية ، فان الطهريين بمغالاتهم فى أن يلقموا العرف السائد ومناسك الحياة الواقعية بالجد والصلابة الخلقية قد انحرفوا الى المناداة بتقشف الصادف عن محاسن الدنيا وزهد المتبرم بمفاتنها ، فطبعوا المجتمع الانجليزى بطابع من الصرامة والعبوس كان له أكبر الاثر فى تخلف المسرح الانجليزى عن مجاراة المسارح الاوربية الاخرى فى القضاء على ذلك العرف الشاذ ، كما نحى المرأة الانجليزية عن مجالات النشاط الذهنى والعملى التى كانت تضرب فيها المرأة الأوربية . وفوق هذا فان فى طبيعة الانجليز عنادا موروثا فى تمسكهم بأذيال التقاليد ،

(١) وحدة الزمان فى صياغة المسرحية الاغريقية تقضى بأن تجرى حوادث الرواية فى يوم واحد . ووحدة المكان أن تقع هذه الحوادث فى مكان واحد لا يتغير .

ولا سيما من الناحية الشكلية . وقد نرجع تمسك الأنجليز بتنحية المرأة عن المسرح ومجاراة الاغريق فى هذا إلى أنهم ، وقد أسرفوا فى القضاء على اكثر التقاليد الاغريقية الخاصة بصياغة المسرحية وحرفية المسرح ، أخذتهم أخيرا نكسة الى الماضى مأتاها رد الفعل الذى يعقب كل انطلاق وتطرف ، فتعلقوا بذيل هذا التقليد التافه .

نضال عجيب !!

وتاريخ اعتلاء المرأة الانجليزية أرض المسرح تؤدى عليه أدوار جنسها حادث مثالي للنضال الذى يستعر بين تقليد قديم متأصل يقتحمه تقليد جديد ناشىء ، سجلت عنه أعجب النوادر . ففى سنة ١٦٢٩ هبطت مدينة لندن فرقة فرنسية قدمت بعض مسرحياتها فثار المحافظون وكتب « برين » Brynne رسالة نعت فيها الممثلات الفرنسيات بأنهن « عاهرات فواجر ذوات حذق فى تصيد الرجال » فغضب الملك والملكة وأثيرت هذه المسألة فى البرلمان وحكم على الناقد بالسجن وحرق كل ما طبع من رسالته !

وجاءت فرقة فرنسية أخرى بعد ست سنوات ، ثم تلتها فرق أخرى لم تلق القبول والتشجيع الا من الملكة ، بيد أن الجمهور الانجليزى أخـذ يروقه الامر ، ولكنه لم يسمح للمرأة الانجليزية بأن تعتلى المسرح . وأخيرا فى سنة ١٦٥٤ ظهرت على المسرح أول امرأة انجليزية واسمها « مدام كولمن » فى مسرحية « حصار رودس » وكان دورها تافها وكانت تتعثر فى تمثيله خجلا !

وفى عام ١٦٦٣ رأى الجمهور الانجليزى ممثلة انجليزية تمثـــل دور « ديدامونة » فى مســـرحية « عطيل » وقد مهد لظهورها بقصيدة صاغها أديب شاعر وقف يلقيها على المسرح قبل رفع الستار يستأذن فيها الجمهور بلسان الممثلة ويستجدى عطفه ويلتمس رحمته ، جاء فى نهايتها : « أنسميه جريمة ما يعدونه شرفا فى فرنسا ؟ ان الازواج فى كل الممالك الاخرى لا يحسون ما يخدش الادب اذ يرون امرأة فوق المسرح ، صدقونى ليس فى الامر ما يعيب وانما العيب يرجع الى العادة فحسب » .

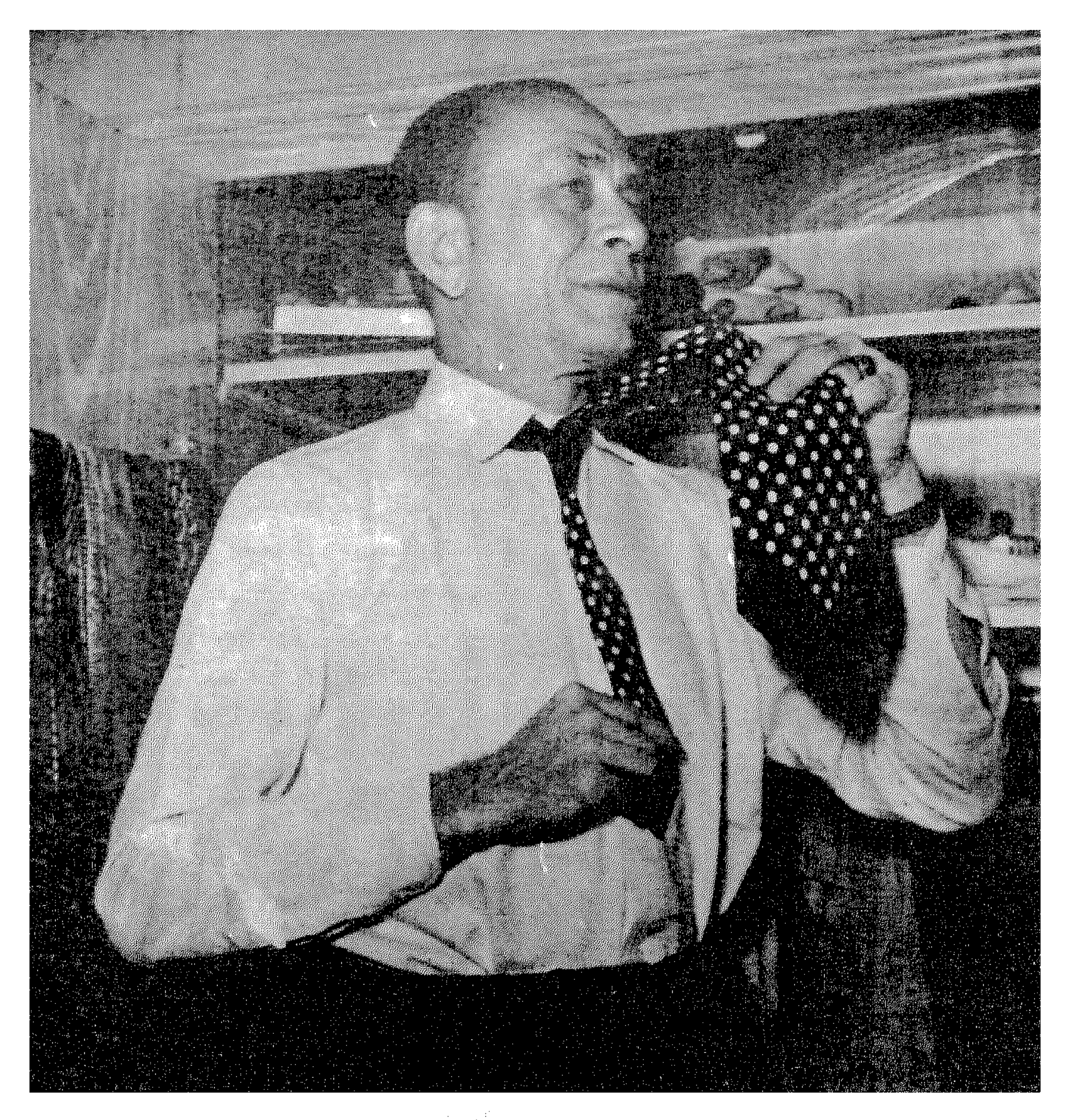
ولكن هذا الشاعر تناسى ولاشك أن العادة أقوى من المنطق والمعقول !

أجل العادة وسيطرتها فانه على الرغم مما تقدم ، عاودت المسرح الانجليزى نكسة الى التقليد القديم ، واستمر هذا النضال حتى انتهى بفوز المرأة ، فرسخت قدمها على المسرح نهائيا ، وأخرج المسرح الانجليزى أشهر الممثلات واقدرهن بعد أن كان المعقل الاخير فى أوربا لهذا التقليد العجيب .

فى المسرح المصرى

وليس عجيبا ، بعد ما تقدم ذكره عن موقف المرأة من المسرح فى بلاد هى مهد للمسرح ومدارج لنشأته وازدهاره أن نرى المسرح المصرى يجتاز نفس الطريق . أجل كانت أدوار النساء نهبا للرجال يمثلونها ولكن من غير استعانة بأقنعة الأغريق يفطون بها وجوههم ومازال يعاصرنا ممثلان (١)

(١) هما الاستاذان عمر وصفى الممثل الكبير وعبد العزيز الجاهلى الذى يعمل الآن فى الفرقة المصرية .



زكى طليمات . كاتب المقال مخرج وممثل

ممن كانوا يقومون بأدوار النساء فى مختلف المسرحيات ، اذ لا يخفى أن تاريخ المسرح باللسان العربى لم يتجاوز سبعين عاما .

ولا شك فى أن الاخذ بهذا التقليد لم يكن لتأصله فى المسرح المصرى الحديث لاننا محدثين فيه باللسان العربى ، لاتقاليد لنا ولا وراثة ، وانما

يرجع إلى شؤون الدين ، وإلى الحجاب ، وإلى مركز المرأة عامة فى الشرق من حياة العمل خارج بيتها . وقد وجد أصحاب الفرق السبيل إلى تركه اذ استقدموا من سوريا ولبنان سيدات من غير الدين الاسلامى احترفن التمثيل وقمن بالادوار النسوية فى مختلف الروايات .

ويسجل مسرحنا الناشىء اسم «هانم كوكب» كأول مصرية مسلمة احترفت التمثيل فى وقت أحجمت فيه الفتيات المسلمات عن الاشتغال فيه وكان ذلك منذ نصف قرن تقريبا .

ولا شك فى أن العرف القومى قبل قيام «قاسم أمين» بدعوته إلى تحرير المرأة من الحجاب ومن الجهل ومن الركود ، لم يكن يقبل بأى حال أن تعمل المصرية فى المسرح. وقد ** كان للحرب العظمى الماضية أثر ملموس فى تطرية هذا العرف ، كما أن تعليم البنات وقد أخذ دورا جديا ، ساعد على أن تقتحم المرأة المصرية ميادين ** العمل إلى جانب الرجل ، وأصبح المسرح المصرى اليوم مجال عمل للمرأة المصرية مسلمة كانت أو مسيحية . فهى فيه ممثلة وناقدة وصاحبة فرقة يعمل بأمرها رجال ورجال !

ديسمبر ١٩٤٣

سارة برنار .. معجزة نسائية فى فن التمثيل المسرحى

سيدة المستقبل

إذا كان الحاضر مرآة المستقبل كما يقولون ، فان المرأة فى نهاية الخمسين سنة القادمة ستكون بعيدة الشبه جدا عما هى عليه اليوم ، جسما وعقلا وشخصية وخلقا وزيا وعادة وتقليدا . ولن تستبقى من كيانها الذى نعرفه سوى الجانب الكبير من وجدانها وعاطفتها ، إن لم يكن كله . وقد يعترض على هذا بعضهم فيقول: لقد شهدنا المرأة منذ خمسين عاما مضت ، وليس هذا القول ملقى على عواهنه ، أو من قبيل الرجم بالغيب ، ولكن الدلائل والأرقام التى تضيق بها هذه الصفحات تؤيدها . هذا إذا كان العالم فى خير ، واحتكمت الانسانية إلى العقل والمنطق . أما إذا طغت القنبلة الذرية وملحقاتها وبغت ، فان الحقيقة سيلقى على وجهها كلف من التشكيك والتناقض ، فنعود بالمرأة وسواها إلى العصر الحجرى .

بقلم : د. أمير بقطر

ولم نر فى زميلتها فى منتصف القرن العشرين فرقا جوهريا . والجواب عن ذلك أن ركب العلم والحضارة والاختراع تتضاعف سرعته كل عام ، إن لم يكن كل يوم ، فإذا كان سيره فى سنة ١٩٠٠ بسرعة الجمل ، فان سيره إلى سنة ٢٠٠٠ سيكون بسرعة الصوت ، وقد يتجاوز ذلك .

جسمها ومنظرها وزيها

تدل الأرقام والشواهد على أن المرأة تطول قامتها باطراد . فقد احتفظت بعض الكليات والجامعات فى شمال أوربا وأمريكا بسجلات ألوف من الطالبات وأمهاتهن ، فاتضح لها أن الطالبة تزيد عن أمها قامة وعرضا فى المنكبين والصدر باكثر



من سنتيمترين ، وتبلغ سن الحلم قبلها بعامين ، كما اتضح أن هذه الزيادة مطردة فى أكثر نواحى النمو، وتعزى هذه الظاهرة إلى عدة عوامل ، أهمها ، الانتخاب الطبيعى (للزوجين) ، والغذاء ، والرياضة البدنية . وليست هذه مجرد أرقام فقد عاش كاتب هذه السطور فى مدينة جامعية منذ عامين بها نحو عشرة آلاف طالبة ، كان أول ما يسترعى الانظار فى حرم الجامعة وبناياتها التى تتجاوز المائة ، امتداد قامات الطالبات و (الطلبة) فيها ، ومما يدل على هذه الاتجاه أن شركات السينما كانت تشترط قبلا ألا تزيد قامة الممثلة عن عدد معين من السنتيمترات ، وقد رفعت الحد الأقصى أخيرا مضطرة ، لانقراض الممثلات اللاتى يتوافر فيهن الشرط القديم أو نقصان عددهن . ولن تكون المرأة

بدينة أو بطيئة ، ولكنها لن تكون نحيفة . ستمي
الامتلاء والقوة كالرجل ، مع المحافظة على
العود واعتداله . ومما يؤسف له أن ثديها أخ
الضمور من الآن ، ولذا اضطرت إلى الاس
بالوسائل الصناعية التى تباع الآن بالملا
ولايبعد أنها ستنافس الرجل فى ذلك قبل
سنة ٢٠٠٠ بعدة أعوام .

وستجد المرأة فى فترة التحول عقبات
التوفق إلى الرجل الذى يناسبها . فقد اض
عميدة الطالبات فى الجامعة التى سبقت الا
اليها ، أن تحول بعض الطالبات إلى جامعة
مجاورة ، يكثر فيها الطلاب الذكور طوال القا
أصل سويدى ، لأنهن لا يجدن فى جامعته
يقبل على مراقصتهن من الذكور ، لامتداد قا
إلى حد غير مألوف ، وستقرب ملابس
وأزياؤها من ملابس الرجال فى ساعات
والراحة وفى الرحلات وأوقات الرياضة والنزهة
ملابس الزيارات والحفلات وأزياء السه
فسيغالى فيها من جهة ، وستراعى فيها الب
من جهة أخرى . أما عن المغالاة فانها ستبدى
عارية أكثر منها مرتدية ، وعن البساطة
سيتوخى فيها البعد عن الزخارف والأ
والحواشى ، لان هذه تستر بدنها ، وهى
سافرا إلى أقصى حد .

شخصيتها واستقلالها الاقتصادى

أما شخصيتها فستبلغ درجة من الق
يحسب لها الرجل حسابا ، ويخشى بعد أن

قد تحررت منه تماما أو كادت ، أن تبطش به ، وفى يدها سلاح ذو حدين ، سمة الحيلة والحرية المطلقة. ولن يكون لها حاجة للبكاء لأوهن الأسباب كما تفعل اليوم . وسينقرض من جنسها المرض النفسانى المعروف باسم الهستريا ، كما انقرضت بعض الحميات الخبيثة من البلدان الراقية ، لأن الكبت لن يعرف إلى عقلها الباطن سبيلا . وستسير فى دور الأعمال والأماكن العامة ، والمجتمعات مرفوعة الرأس ، ولن تتفايد فى مشيتها أو تتحاجى مع صويحباتها فى لا شىء كما تفعل اليوم ، لأن شئونها الهامة لن تسمح لها بذلك .

وسيكون أكبر عامل فى قوة شخصيتها ، وشدة مراسها ، وتحررها من الرجل ، استقلالها الاقتصادى فستأبى الفتاة فى سنة ٢٠٠٠ ، سواء أتيح لها اتمام دراستها العليا أو الثانوية ، أم لم يتح ، أن تعيش عالة على ذويها ، فتخرج فى طلب رزقها ، مهما بلغت ثروة أبيها . وستأبى الزوجة أن يتعهدها الرجل بالمأكل والملبس ، حتى لاتخضع له خضوعا أعمى ، فتساهم معه فى الشركة بنصيب وافر . وستؤثر الفتاة العانس أن تكون على شظف من العيش فى منزلها الخاص ، على أن تعيش فى بيت أبيها أو أخيها أو أقرب الناس اليها فى نعيم مترف . وسيتم لها هذا الأستقلال الأقتصادى قبل ذلك التـاريخ فى الواقـع ، والدليـل أن نسبة تذكر من الجنس اللطيف فى بعض الـبلدان قد نـالت ذلك فعلا .

أخلاقها

لا جدال أن القيم الأخلاقية فى منتصف هذا القرن ، ستكون غيرها فى نهايته ، وما نعده شرا اليوم قد يكون خيرا غدا ، وما نحسبه قبيحا فى المرأة سنة ١٩٥٠ ، سيعده الجيل حسنا سنة ٢٠٠٠ ، فاذا ما تحدثنا عن خلق المرأة فى ذلك الحين ، فإن المقاييس التى نتخذها ، هى مقاييس هذا العصر الذى نعييش فيه . وعلى هذا يمكن أن نقول ان المرأة سيدفعها التحرر من الرجل ، واستمتاعها بقسط وافر من المساواة به ، ونيلها استقلالها الأقتصادى كاملا - سيدفعها هذا إلى شىء مما نسميه الآن الاستهتار . وأننى أحيل من يتطرق اليه الشك فى هذه النبوءة ، إلى المرأة فى نهاية القرن التاسع عشر ، مع مراعاة السرعة التى أومأنا اليها فى صدر هذا المكان . سيكون مقدار التحول فى مسلك المرأة أضعاف أضعاف مثله فى خلال الخمسين سنة الماضية . لقد كانت المرأة الأمريكية منذ عهد قريب لا يسمح لها بدخول مطعم أو النزول فى فندق ، مالم يكن فى صحبتها زوجها أو ولى أمرها . أما الآن فليس ذلك .

بيد أننى أعتقد أنها ستكون أحسن خلقا وأعلى مثلا منها اليوم ، لأن الخطأ فى ظل الحرية خير من الصواب داخل الأغلال والقيود وتحت سيف الجلاد. ستكون صريحة فى استهتارها إذا استهترت ، وتتحمل مسئوليته أمام المجتمع ، ولا تقدم عليه وراء الأستار الكثيفة فى جنح الليل ، ثم تبدو نهارا فى ثوب الرياء والنفاق ، وديعة كالحمل ، بسيطة كالحمام ، عفيفة كالعذراء .

وسيبقى الحب ما بقى الدهر ، إبقاء للجنس البشرى وتخليدا للنسل . وكسائر العواطف لن يتناوله التغيير الا قليلا . لقد دلنا التاريخ على أن التقدم العقلى يسير بسرعة لا بأس بها ، فى حين أن التقدم الوجدانى أو العاطفى لم يخط الا قيد شعرة أو شعرتين فى خلال الثلاثين ألف سنة الماضية . كل ما هنالك أنه كسائر الوجدانات التى يولد بها الانسان ، يتهذب ويصقل ، وتتغير مظاهره الخارجية دون لبه ، تغيرا يتمشى مع الزمن . وكل ما يحدث لحب المرأة فى سنة ٢٠٠٠ أنه يفقد الكثير من « الرومانس » ورقة الحساسية ودقة العاطفة . سينقصه الكثير من الشعر والخيال ، ويسوده شىء من الجفاء والجفاف ، فيخلو من الغلو فى الأهات والتنهدات . ستكون المرأة فيه عملية جدية . لن تقف أمام الرجل فى عزلة صامتة خفرة حيية ، خافضة البصر ، بل تبادله النظرة بنظرتين ، والبسمة ببسمتين وتعامله معاملة الند للند ، والنظير للنظير . لقد استطاع هتلر فى بضع سنوات أن ينشىء جيلا من الفتيات ، يكاد ينطبق عليهن هذا الوصف. لم يستطع أن يقتل فى الفتاة الألمانية العاطفة الجنسية أو عاطفة الحب ، ولكنه تمكن من جعلها عملية ، جافة ، خلوة من الاستسلام للجوى ، والتتيم ، والتدله والهيام ، وسائر المعانى التى عرفها العرب للتعبير عن الإمعان فى الحب والتعمق فيه وجعله الشغل الشاغل . ويتفق وأياى فى الرأى كل من زار ألمانيا الهتلرية مرات وخبر الحياة فيها ، خصوصا فى خيام الفتيان والفتيات ومزارعهم ومصانعهم ، فى خلال السنة التى كان يحتم على كل شاب وشابة قضاؤها قبل التحاقه بالجامعة .

أما الزواج فهو شركة وتبادل ومنفعة بين الرجل والمرأة . وفى سنة ٢٠٠٠ ستقل حاجة المرأة إلى الرجل ، وحاجة الرجل إلى المرأة ، كثيرا عما هى عليه اليوم . ستقل حاجتها إليه لاستقلالها الأقتصادى الذى سبقت الأشارة اليه ، وستقل حاجته اليها للحالة الجديدة التى سيكون عليها البيت وما يتوافر فيه من الوسائل الألية الحديثة ونظرا لتحرر المرأة من الرجل ، ستطالبه بالمساهمة فى الأعمال المنزلية .

وستتزوج مبكرة جدا ، برغم مواصلتها الدراسة أو العمل أو كليهما ، لأنها كما قلنا ستبلغ سن الحلم مبكرة . وستطلب يد الشاب للزواج بها إذا شاءت ، كما يطلب هو يدها إذا شاء . ولن تسمح لنفسها بانجاب أكثر من ثلاثة أطفال .



الزواج هل هو حب .. أم حرب ؟!

بقلم : ابراهيم المصرى

المرأة العاملة كالجندي الصالح .. كلاهما يخوض معركة الحياة في سبيل هدف سام ومثل عليا رائعة ..! « سقراط »

لابد للزواج من عاطفة الحب موالاً استحال إلى شركة مادية وضيعة سرعان ما تهددها الانانية بالتصدع والانهيار . فلكي ينهض الزواج على صرح ثابت يجب أن يسبقه حب لا عشق ، أو يجب أن يتطور فيه العشق إلى حب . والحب الذي يدعم الزواج ويوطده هو ذلك الحب النابع من استجابة عاطفية وحسية ، تغذيها صداقة العقل ، وترعاها مشاركة الفكر ، ويحـــرسها تآلف الطبع وحنان القلب. هذا الحب هو الذي يهون بعد الزواج حمل الواجب ، ويدفع إلى التجاوز والتسامح وينزع إلى الثبات في وجه احداث الزمن ، ويغرى بالبذل والتضحية وانكار الذات .

فهل هذا الحب موجود عندنا ؟ ! وهل نحن نتزوج عن حب ؟!

وهل نحاول أن نبني الزواج على قاعدة الحب ؟!

الواقع ان الجيل الجديد يصبو إلى تحقيق هذه الغاية . بيد أن السواد الاعظم من شبابنا لا يزال يتزوج فرارا من العزوبة المحرومة ، وأشباعا للشهوة المكبوتة ، أو مصاهرة لاسرة ذات مكانة ونفوذ ، أو تطلعا إلى مصلحة مادية مباشرة فقيام الزواج على الشهوة المجردة من العاطفة والحب أو على المصلحة المستهزئة بمشاركة العقل والفكر ، يلهب الانانية ، ويفصل بين الزوجين بدل أن يجمع ، ويلقى في روع كل منهما أن شريكه لم يتزوج إلا وهو يفكر في نفسه وملذاته ومصلحته فقط . فينظر اليه نظرته إلى خصم له . فيوجس منه ، ويتربص به ، ويستحيل الزواج بينهما إلى مقاتلة وحرب .

وهذه الحرب التي يثيرها في معظم بيوتنا انعدام النزاهة وانعدام الحب قبل الزواج ، يضاعف نارها بعد الزواج اشتعالا خوف المرأة من الرجل . أى خوفها من أن يكون زوجها انسانا فاسد الخلق والضمير بطبعه ، فيستغل محللات الشرع ، ويطلق امرأته لمجرد نزاع عارض ، أو يتزوج عليها توكيدا لقوته وانانيته وارواء للذاته .

والحق أن المرأة عندنا ماتزال متاع الرجل . فهو أن شاء أبقى عليها وقدر جهادها وضمن مستقبلها وحباها بالامن والطمأنينة في ظل الأسرة، وان شاء اهدر كرامتها وتزوج عليها أو استبدل بها غيرها ، فشردها هي واولادها الابرياء المساكين ..

فالرجل عندنا - في غالبية الاحوال - هو الخصم والحكم . هو قوة لا ضابط لها . هو وحده الذي يقرر ، وهو وحده الذي يفصل ، وهو وحده الذي يتمتع ويشتار العسل من الزهرة التي تعجبه . فنزوته هي المتحكمة في مصير المرأة ومصير الاسرة . وما انحلال بعض الروابط العائلية ، وفساد اخلاق بعض النساء ، وتشرد الاطفال ، وكراهية الاخوة الاشقاء لاخوتهم الدخلاء ، الا النتيجة المحتومة لتلك النزوة المروعة ، تعصف بلب الرجل ، فتضرم في صدره انانيته الجنائية ، وفي

حواسه شهوة الحيوان . فيطلق أو يتزوج على امرأته . فيتخبط بين عالمين ، ويقوض دعائم اسرتين ، ويهدم بكلتا يديه حياته الزوجية المستقرة الاولى التى كان قد بناها بلحمه ودمه فى سنين ..

فانعدام الحب والنزاهة ، كما ذكرنا ، يمهد للحرب ويثيرها بعد الزواج ، وخوف المرأة من الرجل يجعل من الزواج حربا مستعرة ودائمة .

وقد قالت لى يوما احدى السيدات فى صراحة اذهلتنى : مادمت اشعر أن زوجى يستطيع فى اية لحظة أن يطلقنى أو يتخذ على زوجة ثانية ، فأنا اعتبره خصمى . واحاربه باسلحة ثلاثة دفاعا عن نفسى :

أولا : اعقب منه اكبر عدد ممكن من الاطفال كى اربطه وارهقه باكبر مسئوليات ممكنة .

وثانيا : ابتز ماله وانفقه اولا باول لأحول بينه وبين التفكير فى الزواج من امرأة اخرى .

وثالثا : اغافله جهدى ، وادخر من ماله لنفسى كى اجمع نقودا احمى بها ظهرى فى حالة ما إذا انصرف عنى يوما وطلقنى .. !

فانعدام الثقة والطمأنينة فى نفس المرأة فوق انعدام الحب ونزاهة القصد قبل الزواج ، هو الداء الذى يهـــدد بيوتنا ، ويحيل معظمها إلى ميادين قتال .

★★★★

وليس شك فى ان الزواج القائم على الشهوة أو المصلحة لابد أن يتصدع ، حتى ولو لم يطلق الرجل امرأته أو يتزوج عليها . لابد أن يتصدع بنيان البيت والاسرة . فينفصل الرجل بالفكر والروح عن زوجته ، وقد يتخذ له خليلة ، أو يرتد إلى حياة العزوبة والتشرد فى المقاهى ، فتحس زوجته أنها وحيدة ومنبوذة . فتتقد الحرب بينهما . فتكره المرأة زوجها ، وقد تضيق ذرعا به فى النهاية فتغافله هى ايضا وتخدعه .

فلكى يعيش الزواج عندنا وينمو ويؤتى ثماره المرجوة لخير الفرد والاسرة والمجموع . أى لكى يصبح الزواج سلما لا حربا ، وودا لا عداء ، وثقة لا توجسا ، وتعاونا لا تسلطا ، وحنانا وبذلا لا قسوة وانانية ، يجب أن ينهض أولا على الحب ثم على حماية المرأة والاسرة من الرجل الذى يمكن أن يكون فاسد القلب والضمير فيحاول استغلال محللات الشرع .

فأما الحب الذى يجب أن ينهض عليه الزواج فلا ينبغى أن يكون حبا شهوانيا مجردا ، أو حبا خياليا طائشا ، بل ينبغى أن يكون كما أسلفنا عاطفة متنبهة واعية ، يشترك فى تكوينها القلب والجسد والعقل معا . فقلب الشاب أو الفتاة يجب أن ينبض للشريك الذى ميزه واختاره . وجسده يجب أن يستجيب إليه استجابة معتدلة لا تذهب إلى حد الهوى الجامح الشهوى ، وعقله يجب أن يلمس فى عقل الشريك توافقا فى الاخلاق ، وتشابها فى الافكار ، وتجانسا فى الاهواء والميول . مع علو فى النفس ، وعزة فى الطبع ، ونزاهة فى القصد ، تتمثل فى وضع الحب فوق المادة ، والتفاهم النفسى والمعنوى فوق اغراء المظاهر والمصالح والنفعيات .

ذلك هو الحب الذى تبثه الشعوب المتمدينة فى نفوس ابنائها ، كى تمازج بين قلوبهم وعقولهم وطباعهم ، وتجنبهم حرب الزواج ، وتبنى صرح



الاسرة ما أستطاعت على أسس متينة ثابتة ! ..

★★★★

ومع ذلك وبرغم ما تقدم ، فالحب وحده لا يحقق هذه الغاية وكذلك نزاهة القصد . لابد من حب ونزاهة ، ولابد أيضا من تشريع وقانون . ذلك لأن الزواج نظام . وكل نظام يتطلب موانع وضوابط تحسب حساب ضعف الطبيعة البشرية برغم وجود الحب ، وتحاول ان تدرأ المخاطر التى قد تنجم عن انانيتها وشهواتها وأنحرافاتها ، خشية أن تستفحل هذه المخاطر فلا تصيب الازواج فقط بل تمتد منهم إلى المجموع . وهذا هو الواقع عند الشعوب المتمدينة . فالاسرة فى تلك الشعوب محكومة بقانون لا يميز الرجل على المرأة ، ولا يمنح الرجل حقوقا تمكنه من البطش بالمرأة إذ الاسرة فى عرفهم ليست قبيلة يتحكم فيها رجل ، والبيت ليس خيمة مرهونة المصير بنزوة رجل ، والمرأة ليست متاعا أو سلعة يتصرف فيها ويعبث بها رجل فالرجل هناك لا يملك حق هدم أسرته بكلمة ، ولا يمكنه أن يطلق أمرأته إلا طلاقا مسببا وبحكم محكمة ، ولا يستطيع أن يتخذ عليها زوجة أو زوجات .

وصحيح أن بعض شعوب الغرب التى زعزعتها الحروب قد خرجت منها شبه متحللة . فكثرت فيها حوادث الطلاق مما اكره السلطات على تيسيره . ولكن الطلاق مع ذلك لا يقع إلا أمام المحكمة ، ولا يقع فى الغالب إلا فى المدن الكبرى وفى الاوساط التى تزخر بافانين الحضارة ومغرياتها . أما الطبقات المتوسطة وأهل الريف ، فالسواد الاعظم منهم يحرص على الاسرة كل الحرص ، ويلتزم بالقوانين التى تصونها ، ويذود عن هذه القوانين بما تخلف فيه من مؤثرات دينية كاثوليكية كانت ام بروتستانتية . وحتى روسيا نفسها التى حاولت فى مبدأ الثورة أن تفكك روابط العائلة بحجة الذود عن حرية الفرد ، عادت فوثقتها ، وتشددت فى أحكام الطلاق وفى ضرورة الابقاء على نظام الاسرة .

★★★★

فالأسرة فى نظر المتحضرين هى الصورة المصغرة للوطن ، وهى الخلية الاجتماعية الأولى ، والرجل والمرأة كلاهما رب هذه الخلية وحارسها المسئول عنها فى ظل قانون ينزع إلى تثبيتها ، ويساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، كى يحفظ للمرأة كرامتها، ويحميها من بطش الرجل القوى ، ولا يجعل منها مجرد وسيلة للمتعة واداة للاخصاب .

واذن فالزواج القائم على حب تقترن فيه العاطفة بمشاركة الفكر ، والمنزه على السعى وراء المصلحة المادية الوضيعة التى تخنق العاطفة وتهزأ بالفكر ، هو الزواج الذى تحث عليه الشعوب المتحضرة ابناءها ، ثم تدفعهم إلى توطيده بموانع وضوابط من القانون . فيتحالف الحب الفردى والقانون الجماعى على صون مستقبل الاسرة وحماية المرأة والابناء .

وتلك هى الغاية التى ننشدها نحن لبلادنا . ولكنها غاية لن تتحقق إلا إذا اعترفنا للمرأة بحقوقها تجاه الرجل . إذ الرجل عندنا حتى ولو كان محبا لامرأته ومتآلفا بالعاطفة والفكر معها ، فشعوره بحقه المطلق عليها ، وبما يمتلك من اسلحة يمكنه أن يسددها فى اية لحظة إلى صدرها ، هذا الشعور قد يفسد حبه ، ويفسد خلقه ، ويغريه بهدم بيته ، والاقدام على طلاق ظالم أو زواج ثان ، إذا

استبد به الغضب فى نزاع عارض مع امرأته ، أو زهد على مر الزمن فيها ، أو ملكته شهوة جارفة نحو اخرى .

★★★★

فاعترافنا بحقوق المرأة حيال الرجل هو حماية للأسرة وأرتفاع بشخصية المرأة التى ما تزال مكانتها أقل درجة فى عين الرجل . والعجيب اننا ونحن نعلم المرأة ، ونحاول أن نخلق لها شخصية حرة وكرامة انسانية ، نلقى بها فى محيط الزواج جاعلين منها هدفا لبطش الرجل ، دون أن نقيم وزنا إلى أن المرأة لابد أن تفقد احساسها بكرامتها ، وتشعر أن علمها لا يحميها ، وان زوجها قد ينقلب إلى عدو لها . فتندفع بالرغم منها إلى استخدام علمها وذكائها لا لتوطيد بنيان بيتها ، ولا للسهر على مصلحة قرينها ، ولا للعناية بتربية اولادها ، بل لتجريد أسلحتها الثلاثة التى اشرنا اليها دفاعا عن نفسها فى الحرب الزوجية التى لا يكاد يدب فى البيت نزاع حتى تدور رحاها بين امرأة ضعيفة ترتعد فرقا من سلطان زوجها ، وبين رجل قوى قد يذهب بلبه سلطانه فيهلك امرأته ويهلك ابناءها .

★★★★

فالمرأة يجب أن تنقذ وتحترم وتصان . ونحن فى جمهوريتنا اليوم يجب أن نقوم بجهد حاسم فى سبيل حماية مستقبل المرأة .

ولن تثمر حماية المرأة والاسرة إلا بالقانون . أى بتشريع واضح وصريح ، يجرد الرجل من حقه المطلق فى الطلاق ، ويقيد الطلاق نفسه وتعدد الزوجات ، ويكون أيضا مقدمة لالغاء التعدد اطلاقا . أن الله فى كتابه العزيز يقدر أن الرجل قد يخاف من عجزه عن اقرار العدل بين النساء ، فينصحه باتخاذ امرأة واحدة ، بل ويبصره بانه لن يعدل بين النساء ولو حرص ، وكذلك نبى الله يقول : « ابغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وأذن فالاسلام هو دين الوحدانية فى الله وفى نظام الزواج ، وهو دين العدل . وما التشريع الذى ننشده الا الاستجابة والتوكيد لروح العدل التى هى جوهر الاسلام ولبابه .

★★★★

وإلى أن يصدر هذا التشريع يجب أن ندعو إلى الحب ، وإلى الزواج القائم على الحب ، الحب المتحضر البصير لا الحب البدائى الشهوانى الاعمى ، الحب الذى ينبع من مشاركة العاطفة والعقل ، وزمالة الخلق والفكر ، وتوافق المزاج والطبع ، والتجرد من كل نزعة نفعية خسيسة تجعل من الزواج رابطة مظهرية سرعان ما تتفكك بعد الظفر بالمغنم والمصلحة .

هذا هو الحب الذى يمكن على الاقل أن يطمئن المرأة على مصيرها ، ويهذب غرائزها بالتخفيف من وطأة خوفها . كما أنه هو الذى يمكن على الاقل ايضا أن يلطف من انانية الرجل ، ويحرك فيه عوامل الشهامة والنبل ويحنن قلبه على امرأته وابنائه، ويجنب البيت شر الحرب والهدم ويحل الضمير محل القانون .

★★★★

ومع ذلك فلابد من ضابط ولابد من قانون . لان الرجل مستكبر ومزهو وغليظ . وهو قد يكون بالحب « ملاكا » ثم تعصف به الانانية والشهوة فينقلب فجاة إلى شيطان رجيم .

الأدب الشفاف والأدب العريان!
أو الأدب الكاشف والأدب المكشوف

بقلم : أنيس منصور

فى صحف بريطانيا ضجة أدبية ، بسبب قصة قديمة أعيد نشرها ، ولم تحدث هذه الضجة بين الناشرين والمحامين ورجال البوليس ، وبين الأدباء والفنانين ، إلا بعد أن تم توزيع أكثر من مائة ألف نسخة من الكتاب .

وهذه الضجة أعادت الى الأذهان المناقشات التى تتكرر كلما صدر كتاب يتناول الجنس ، وظهرت الأسئلة التقليدية : هل هذه قصة يليق نشرها أم لا يليق ؟ ثم ما هو معنى اللائق وغير اللائق ؟ وهل هى قصة تتنافى مع الأخلاق ، أم تتمشى مع الأخلاق ؟ ثم ما هى علاقة الأخلاق بالأدب أو بالفن ؟ وهل يلتزم الفنان القيم الأخلاقية؟ ومن الذى يجعل من نفسه قيماً على الأخلاق ؟

وهذه القصة اسمها فانى هيل : أو مذكرات غانية Fanny Hill Memcirs of LadY of pleasure .

وهذه القصة من تأليف كاتب غير معروف إسمه جون كليلاند John Cleland ١٧٠٩ – ١٧٨٩ ، ولو حاولت أن تجد اسم هذا الرجل فى أى قاموس أدبى فلن تجده ، ولذلك كانت هذه القصة مفاجأة حتى لأكثر الناس اطلاعا على الأدب الانجليزى ، وعندما ظهرت هذه القصة لم يشأ أن يكتب الناشر شيئا عن المؤلف ، ولا عن ظروف نشر هذه القصة ، وكل ما نعرفه أن المؤلف كان يعمل فى شركة البترول الهولندية ، وانه تشاجر مع رئيسه وانه استقال بعد ذلك ، وانه اضطر الى أن يقوم برحلات عديدة فى أوربا بحثا عن عمل !

وأخيرا عاد الى بريطانيا وأصدر فى ١٧٤٨ الجزء الأول من « مذكرات غانية » ، وفى السنة التالية نشر الجزء الثانى ، ولم يكد يصدر الجزء الثانى حتى ألقى القبض عليه بتهمة إفساد الأخلاق العامة ، واعترف المؤلف أن الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب هو حاجته الى المال . ومع ذلك لم

يقبض عن قصته هذه سوى عشرين جنيها !

بينما الناشر الذى أصدرها أخيرا ربح منها خمسين ألفا من الجنيهات !

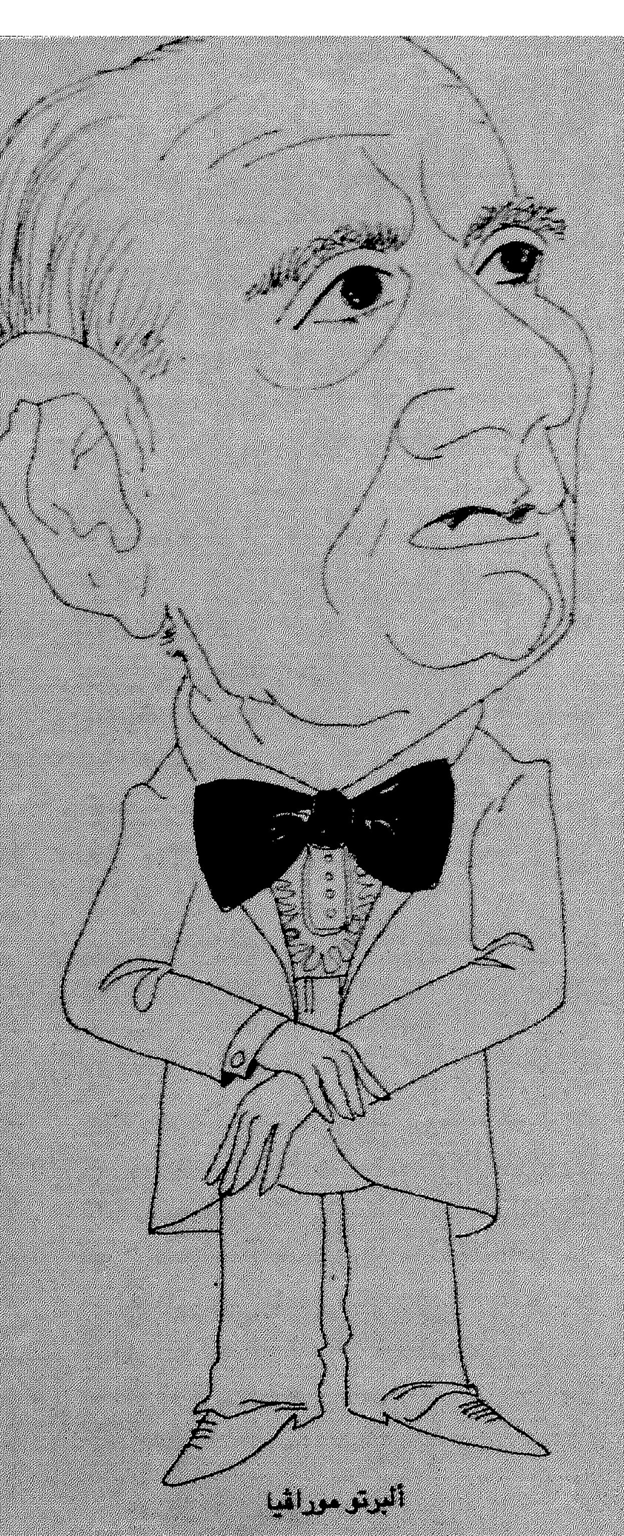
والذين قرأوا القصة أخيرا يؤكدون أنها عمل أدبي من الدرجة الأولى ، وليس صحيحا ما أعلنه المؤلف من أن حاجته الى المال هى التى جعلته يتحدث عن الجنس بهذه الصورة الشائنة ، ومن رأى معظم النقاد أن الكلام عن الجنس لم يفسد هذه القصة المرحة الممتعة ، لأن المؤلف لم يقصد فقط الكلام عن الجنس ، لأنه مادام يتحدث عن غانية ، فكيف لا يتحدث عن صميم الجو الذى تعيش فيه وتقاومه ، تقاومه لتعيش ، وتقاومه حتى لا تموت ، تقاومه وتقوم به فى نفس الوقت .

وهى قصة فتاة يتيمة جاءت الى لندن وعاشت فى بعض البيوت ، وهربت من البيوت الى أحضان الرجال ، ثم الى صناديق الليل ، ووصف فنى لهذه الأجواء التى عاشت فيها وينتهى هذا الكتاب ، أو هذه المذكرات بعودتها الى لندن واستئناف الحياة من جديد .. حتى تموت !

●●●

وقد سبقت هذه القصة فى الأدب الانجليزى قصة أخرى اسمها « مول فلاندرز » Moll Flanders للأديب الساخر دانييل ديفو Defoe .

وهذه القصة تروى محاولات الفتاة « مول » أن تكون سيدة محترمة أو تكون سيدة أعمال ، وكيف أن محاولاتها جميعا فشلت فى النهاية ، ولكن المحاولة فى ذاتها متعة ، وهذه الفتاة ولدتها أمها وتركتها وحيدة أيضا ، كأنها يتيمة هى الأخرى ، فقد اتهمت أمها بالسرقة وطردوها من بريطانيا لتعمل فى حقول أمريكا ، وظلت الفتاة تتنقل بين



ألبرتو مورافيا

الغجر ، وبين البيوت حتى عملت فى بيت أحبها فيه الابن الأكبر ، وجعلها عشيقة له ، ثم أحبها أخوه وتزوجهــا ، وأنجبت منـــه ولدين ، ومات الزوج واحتجزت الأسرة هذين الطفلين ، واضطرت «مول» الى الزواج من رجل أخــر ، ورجــل ثالث ورابع .. وهى فى جميع الحالات تبحث عن مركز اجتماعى محترم . وأخيرا تزوجت رجلا سافرت معه الى مزارع أمريكا ، وهناك اكتشفت أن حماتها ليست إلا أمهــا التى طردوها من بريطانيــا ، فانزعجت من زواجها من أخيها ، وعادت الى بريطانيا ، ثم عادت مرة أخرى الى الحياة المليئة بالندم على ما ارتكبته من أخطاء فى حياتها .. مع أن أخطاءها كلها كانت فى البحث عن الحياة الكريمة .

ولكن النقاد يؤكدون أن قصة « فانى هيل » هى أروع ما ظهر فى الأدب الانجليزى حتى الآن فى التعبير عن حياة الغانيات لأن المؤلف أولا أديب وفنان . وثانيا لم يقصد من وراء هذه القصة مجرد الإثارة .

والقضية التى يثيرها ظهور هذه القصة هى نفس القضية التى أثارتها قصة « عشيق اللايدى تشاترلى » Lover Lady Chatterly التى ألفها د. هـ. لورانس « ١٨٨٥ - ١٩٣١ » التى صدرت قبل وفاته بعامين ، وظلت محرمة فى بريطانيا الى أن تم تنقيحها بعد وفاته بعامين . ثم أصبحت محرمة بعد ذلك ، وفى سنة ١٩٥٩ رفع الناشرون فى أمريكا دعوى ضد الرقابة هناك ، وتقدم معظم الأدباء فى أمريكا وفى أوربا يطالبون بالافراج عنها لأنها عمل أدبى . أما الصفحات الجنسية ، فهى لا تعتبر أعمالا شائنة وإنما هى تعتبر ضمن اللوحة الفنية التى قصدها الفنان ، وتم الافراج عن القصة فى أمريكا ، ثم فى بريطانيا بعد ذلك .



ونفس الضجة ظهرت حول قصة « لوليتا » Lolita للكاتب الروسى المولد الأمريكى الجنسية نابوكوف Nabokov . وهى قصة رجل فى الأربعين أحب فتاة فى الثانية عشرة ، ورغم أن هذا الحب فى ظاهره شيء فظيع ، إلا أن القصة نفسها تعتبر عملا أدبيا من الدرجة الأولى .. والقصة بكل لفاتها فى متناولنا ، والفيلم قد شاهدناه فى القاهرة ، ولكن القصة فى ذاتها من ناحية الموضوع ورسم الشخصيات والأسلوب لا شك عمل أدبى رائع .

●●●

وفى كل مرة يثار موضوع الأدب الجنسى ، أو الجنس فى الأدب يتذكر الناس محاكمات أوسكار وايلد .. وما الذى قاله فى المحكمة عن مفهوم الأدب والأخلاق ، أو علاقة الفن بالأخلاق .

والسؤال الذى وجه لأوسكار وايلد Oscar Wilde « ١٨٥٤ - ١٩٠٠ » : هل تسمى الكتاب الذى يتناول موضوعات تتنافى مع الأخلاق ، كتابا؟ وجواب أوسكار وايلد المعروف هو أنه لا يوجد كتاب أخلاقى وكتاب لا أخلاقى ، وانما كتاب أسلوبه جيد أو كتاب أسلوبه ردىء ، أو عمل فنى أو عمل ليس فنيا !

وكتمهيد أو مقدمة للمناقشة التى أهدف اليها من وراء كل هذه النماذج والأحداث الأدبية ، أقدم ترجمة لمحاكمة أوسكار وايلد ، لا كل المحاكمة طبعا ، وانما للصفحات الخاصة بمشكلة الأخلاق واللاأخلاق فى الأدب والفن .

والذى كان يحاكم أوسكار وايلد هو زميله فى الدراسة الجامعية القاضى كارسون Carson وقد

سأله كارسون عن قصة شائنة نشرتها مجلة « الحرباء » chamelon . فقد نشرت مجلة الحرباء قصة بعنوان « القسيس وخادم الكنيسة » ، والقصة تدور حول علاقة جنسية بين القسيس وخادمه أدت الى فضيحة عندما ضبطوا الخادم فى غرفة القسيس .

القاضى : أنت طبعا قرأت قصة القسيس والخادم ؟

وايلد : نعم قرأتها .

– أنت تعرف ، طبعا أنها قصة قذرة ؟

– من الناحية الأخلاقية فى غاية القذارة .. ومن الصعب على أى أديب أن يصفها بأى شىء آخر وأنا أعتقد أن المعالجة متعفنة وأن الموضوع أكثر عفونة .

– أعتقد أن من رأيك أنه لا يوجد كتاب لا أخلاقى ؟

– نعم .

– فهل ترى أن قصة « القسيس والخادم » لا أخلاقية ؟

– بل أسوأ من هذا ، إن أسلوبها ردىء .

– أنت تذكر أنها قصة « قسيس وخادم » وحبهما الشاذ وفضيحتهما فى الغرفة ؟

– قرأتها مرة واحدة فقط .. ولم أجد ما يدفعنى الى قراءتها مرة أخرى ، انها ليست ممتعة !

– هل ترى أنها قصة كافرة بالدين ؟

– أعتقد انها خرقت قواعد الفن والجمال .

– ليس هذا ردا على السؤال .

– هذا هو الرد الوحيد الذى أستطيعه .

– أريد أن أعرف موقفك منها .

– لا يحق لك أن تخاطبنى بهذه اللهجة .

– اننى لم أخرج عن حدود اللياقة معك . وانما أردت فقط أن أعرف إن كنت تعتبر هذه القصة نوعا من الإلحاد .

– القصة تملأ نفسى شعورا بالتقزز .. فقد كانت نهايتها خاطئة .

– أرجوك أن ترد على سؤالى : هل ترى أن هذه القصة كافرة ؟

– أعتقد أنها تبعث على القرف .

– أنت تعرف أن القسيس عندما قدم للشاب كأس السم استخدم عبارات كنسية ، ألا ترى أن هذا يتنافى مع الدين ؟

– هذا ما نسيته تماما .

– هل ترى فى هذه القصة نوعا من الزندقة ؟

– أعتقد أنه شىء رهيب .. ثم أن كلمة «زندقة» هذه لم أستعملها أنا .

– أظن أنك توافقنى على أن أى انسان يكون مسئولا عن نشر مثل هذه القصة فى مجلة « الحرباء » متهم بسوء استغلال النفوذ ؟

– لا أعتقد ذلك .. وإن كنت أعترض على هذه القصة كلها .. فهى نوع من الأدب الردىء ، وإن كنت أعلم أنها انتشرت بين تلامذة الجامعة ، وفى نفس الوقت لا أعتقد أن أى كتاب أو أى عمل أدبى، كان له أى أثر على الأخلاق .

– أنت إذن ترى أن أى كتاب لا يمكن أن يكون له أثر أخلاقى أو لا أخلاقى على الناس ؟

– نعم .

– فيما يتعلق بمؤلفاتك أليس موقفك هو أنك لا تهتم بالأخلاق ، أو بما يتنافى مع الأخلاق ؟

– لا أفهم معنى كلمة « موقف » هنا ...

– انها من كلماتك المفضلة !

- صحيح ؟. على كل حال ليس لى موقف بإزاء هذه الكلمة ! ولكن فيما يتعلق بتأليف كتاب أو مسرحية ، فأنا لا أهتم إلا بما هو أدب - أى بما هو فن .. فأنا لا أهدف الى عمل الخير أو الشر وإنما فقط الى تحقيق ما له قيمة جمالية !

- جاء فى مقال لك نشرته فى مجلة « الحرباء » أنك تقول : إن الذى يقول الحق ، سيفضحه الناس عاجلا أو آجلا .. هل ترى أن مثل هذه العبارة يليق نشرها فى مجلة يقرؤها الشبان !

- لا خوف على الشباب .

- ألا ترى أنها مثيرة ؟

- كل ما يثير يناسب كل شىء .

- سواء أكان أخلاقيا أو لا أخلاقيا !

- بالنسبة للفكر لا شىء أخلاقى أو لا أخلاقى .. لأن الأخلاقى واللاأخلاقى يتعلق فقط بالعواطف وليس بالأفكار !

- فى مقدمة مسرحيتك «صورة دوريان جراى» تقول :"لا يوجد كتاب أخلاقى وكتاب لا أخلاقى .. فالكتب : إما جيدة أو رديئة ، أو مكتوبة بأسلوب جيد أو بأسلوب ردىء ، أليس هذا رأيك ؟

- بلى .. هذه وجهة نظرى فى الفن .

- معنى ذلك أنه لا يهم إن كان الكتاب أخلاقيا أو لا أخلاقيا ، مادام جيد الأسلوب .

- نعم .. مادام الكتاب جيد الأسلوب ، لدرجة يتحقق معها الإحساس بالجمال الذى هو أسمى ما يصل اليه الانسان ، فاذا كان ردىء الأسلوب ، فانه يملأ نفسى بالقرف .

- إذن أى كتاب جيد الأسلوب ، به أفكار أخلاقية شاذة يعتبر كتابا جيدا ؟

- لا يوجد عمل أدبى يعرض مثل هذه الأفكار ، فالأفكار من اختصاص كل من ليس فنانا ... الخ .

وهذا السؤال الأخير الذى وجهه القاضى كارسون ، وحرص على أن يكرره بحروفه ومعناه عشرات المرات هو الذى يعنينا الآن ويعنينا كلما ظهرت قصة أدبية جديدة سواء باللغات الأوربية أو بالعربية ، كما أن أوسكار وايلد نفسه قد كرر تعريفه للعمل الأدبى عشرات المرات وهو يؤكد دائما أن العمل الأدبى هو الذى يحقق لنا الاحساس بالجمال الفنى سواء كان هذا الجمال وصفا لفتاة عارية أو لرجل عريان أيا كان الوضع أو الفعل الذى يمارسه الشخص أو البطل فى القصة أو المسرحية .. فالمهم أولا وقبل كل شىء أن يكون عملا أدبيا وأن يكون فنا ، لأن الفن هو الجمال أو هو التعبير الجميل ، أو هو الذى يثير فينا الإحساس بالجمال .

فمثلا .. مذكرات غانية التى هى موضوع المناقشة ، أو هى سبب اثارة موضوع الأدب والجنس .

الموضوع : هو حياة غانية ..

مثل هذا الموضوع لابد أن يجعلنا نختار الكلام عن الجنس ، وصور الجنس ، الرجال الذين يمرون فى حياة هذه المرأة ، أو يقيمون فى حياتها .. ثم مشاكل هذه المرأة ومتاعبها وانسانيتها .. تماما كما رأينا فى قصتى « نانا » Nana لإميل زولا Zola « ١٨٤٠ - ١٩٠٢ وقصة « فتاة روما » لألبرتو موراڤيا ، فالكلام عن الجنس فى داخل الاطار الضرورى لتكوين شخصية الفتاة ولتصوير بيئتها وظروفها .

فالكلام عن الجنس ضرورى ، باعتباره أحد الخطوط الرئيسية المكونة لشخصية البطلة .

تماما كالكلام عن الأمراض خط ضرورى فى



ألبرتو مورافيا والى يساره زوجته السامورانية (أيام الشباب)

الكلام عن الطبيب .

أو الطعام والبيع والشراء والأسعار خطوط ضرورية عند وصف حياة تاجر أو بقال .

أو عند الكلام عن الشبان .

فلا يمكن أن نتحدث عن الشبان دون أن نتحدث فى نفس الوقت عن الحب ، والجنس والكبت والإثارة وعن الفتيات ، وعن حالة السرحان وأحلام اليقظة ، وعن الأفلام والصور العارية .. ودون أن نتحدث عن مغامرات الشبان ومتاعبهم وشذوذهم أيضا .. ولابد أن نتحدث عن هذا كله ، والا كان كلامنا ناقصا عاجزا والا كان هذا الأدب نفسه هروبيا أو كان أدبا خائفا من موضوعه ! خائفا من واقعه .. من مادته .. ومادة هذا الأدب ، الذى يتحدث عن الشبان هو الشبان أنفسهم .. أو هو الشباب ومتاعب الشباب !

●●●

وأوسكار وايلد على حق أيضا عندما قال : إن كل ما يثير هو شىء مطلوب فى كل شىء ..

فبالنسبة للشبان ليسوا فى حاجة الى اثارة ، فعندهم من الحيوية والخيال ما يجعل كل شىء مثيرا لهم .. الكلام يثيرهم ، اللوحات تثيرهم ، الخيال نفسه يثيرهم ، فالقصص التى تثيرهم لا تضيف اليهم شيئا جديدا ..

الإثارة الجنسية !

والكتب التى توصف بأنها جنسية هى التى تتحدث عادة عن الخيانة الزوجية .. فهل الخيانة الزوجية من ابتكار الأدباء ؟ هل هى من اختراع الفنانين ؟

واذا انتقدنا الأدباء لقصصهم عن الخيانات ، فلماذا لا توقف الأفلام التى تتناول هذه القصص بصورة أوضح وأقوى وأكثر انتشارا ؟!

بل انه من الممكن أن نذهب الى أبعد من ذلك ، ولا حياء فى العلم .. ان الكثيرين جدا من الناس ليست عندهم معلومات جنسية سليمة ، بل انهم فى غاية الجهل الجنسى ، ومع الأسف ، معظم الشبان، والرجال أيضا يستمدون معلوماتهم الجنسية من التجربة دون وعى أو دون فهم حقيقى ، ولذلك فهم فى حاجة الى ثقافة جنسية .. تماما كحاجتهم الى ثقافة غذائية ..

●●●

ومن الممكن أن أناقش القضية بشكل آخر ..

هل الكتاب الذى يتضمن جنسا يعتبر كتابا يتنافى مع الأخلاق !

الجواب : لا .. لأنه من الممكن أن يكون الكلام عن الجنس ضرورة أدبية وفنية وأخلاقية أيضا .. تماما كما نتحدث عن السموم ونحن نشرح القواعد الصحية .. وكما نتكلم عن السرقة ونحن نتقدم بالتحذيرات المختلفة من اللصوص .. وكما نستعد للسلام بكل الأسلحة القاتلة ..

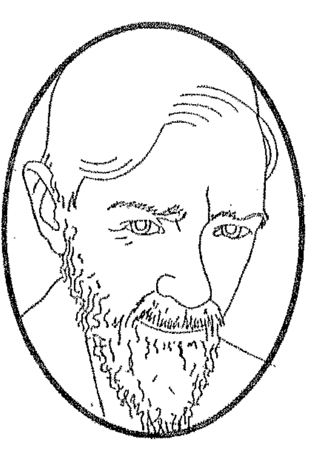
فليس المهم هو أن يكون هناك جنس ..

وانما المهم هو أن تكون هناك ضرورة أدبية تجعل الكلام عن الجنس لا مفر منه .

وقبل ذلك أن يكون الإطار أدبيا وأن يكون هناك جمال .



إميل زولا



د. هـ. لورانس

فاذا أدت القصص الجنسية ، أو القصص التى بها جنس ، الى اثارة الشيوخ ، فقد حققت لهم شيئا يجب أن يشكروا عليه المؤلف ، فاذا أثارتهم القصص الجنسية ، فان مشكلة الشيوخ عادة أنهم يتضايقون من هذه القصص ، لأنها بعد أن تثيرهم يجدون أنفسهم عاجزين عن ارضاء هذه الإثارة !

ولذلك كانت ثورة الشيوخ وحقدهم على أدب

فهنــاك فارق بين الأدب الشـــفاف والأدب العريان ..

أو الأدب الكاشف ..

والأدب المكشوف ..

أى بين الأدب الذى يعرض ويكشف ولا يفضح..

وبين الكلام الذى يفــضح فــقـط دون أن يكون هناك أى مبرر للانكشاف أو للتعرى ..

أى هناك فارق بين أدب الجنس ..

وجنس بلا أدب ..

ولا خــوف على الشـــباب من الجنس ، لأنهم غارقون فيه .. ولا خوف على الشيوخ من الكلام عن المرض ، لأنهم نائمون فيه وتحته وبسببه .

●●●

وقد حـرمت الكنيسة فى ايطاليا قصة « فتاة روما » مع أن بطلة القصة فتاة بسيطة طيبة وعندها أخلاق ، نعم عندها وفاء وصدق ورغبة مخلصة فى أن تكون الى جوار الشاب الذى تحبه ، انها لم تشأ أن تقع فى الوحل ، وانما الوحل هـو الذى وقع فوقها ، هى وملايين من بنات ايطاليا بعد الحرب .

لقد قرأت قصة « فتاة رومـا » ، وكنت أول من قدمها ، هى ومؤلفها الى اللغة العربية ، وقابلت المؤلف أكثر من مرة ، وسألته عن الفتاة « أوريانا » بطلة هذه القصة ، وسألنى مورافيا : ما رأيك فيها !

قلت : لقد أحببتها ، ولم أستطع أن أحبس دموعى وأنا أتابعها فى حوارى روما .. وفى الليلة التى ضربها ذلك المصارع المجرم كنت ألهث أنا أيضا .

ومن الغريب أن المؤلف العظيم مورافيا أكد لى أنه أيضـا كـان يبكى على هذه الفـتـاة ، وأنه لم يستطع أن ينقذها من نهايتها الأليمة ، فهى نهاية حتمية لهذه الفتاة ولغيرها من الفتيات .

ولا يمكن أن تشعر وأنت تقرأ هذه القصة المثيرة الممتعة المبكية الغارقة فى الجنس والسياسة والفقر .. وكلها خطوط الواقعية الجديدة ، ان هذه قصة جنسية ، وانما هى قصة بها جنس ، وهو ضرورى لها ، كضرورة الجنس والخبز لأى انسان !

●●●

وفى مصر الآن سخط مكتوم على النماذج والأحداث الأدبية ، أقدم قصة احسان عبد القدوس التى تنشر تباعا الآن وهى : أنف وثلاث عيون .

والقصة لم تكمل بعد ، ولذلك ليس من النقد فى شىء أن نعلق عليها قبل أن تكمل ، وإن كان الذى نشر منها حتى الآن ، يصلح مادة للحكم عليها ..

ومع ذلك يجب أن يجىء الحكم على أساس من التفرقة بين : المضمون الجنسى وبين السياق الجنسى .. أى بين المعنى العام ، وبين مقتضيات الحوادث التى تؤدى أو لا تؤدى الى الاشارة الى الجنس .

ولكن يجب ألا نبادر بتأثيم العمل الأدبى ، لأنه يتحدث عن الجنس ، لأن الجنس ليس إثما ، تماما كما أن الخبز ليس إثما .

فكلنا نأكل وكلنا نشرب ، ولسنا جميعا آثمين ، وكذلك ليست كل علاقة جنسية آثمة .

وإنما الإثم له حدود ، وله قيود اجتماعية .

ولكن فى داخل العمل الأدبى ، هناك قيود وحدود أخرى فنية .

فكما أنه لا يجب تأثيم الخبز إطلاقا ، كذلك لا يجب تأثيم الجنس اطلاقا !

وانما التأثيم أو التجريم فى حدود .

أبريل ١٩٦٤



فن البناء وراء زِىّ النساء

بقلم : د سيد كريم

ماهى العمارة ؟ .. وما هو الطراز؟ لقد تعودنا أن نسمع اسم العمارة مصحوبا دائما بكلمة «فن»، فالفن هو أول لقب أطلقه التاريخ على العمارة عندما تمكن بواسطتها من تسجيل تاريخ الحضارة الإنسانية وحياة مجتمعاتها فى مختلف مقومات تراثها الحضارى من عقائد ومعتقدات وفنون وآداب وعادات وتقاليد.

وصفها قدماء المصريين بأنها فن السماء أو هبة السماء للأرض ليبنى الانسان عمارة الحياة .. حياة المجتمع ويقدم الشكر للاله أو الاعتراف بالجميل ببناء عمارة الخلود ..

وصفها قدماء الرومان بأنها قاعدة مثلث الفنون أى مثلث العمارة والنحت والرسم » ..

ووصفها قدماء الإغريق « بأم الفنون » ..

فإذا كانت العمارة « فنا » ، فهى فن تسجيل الحضارة الانسانية . وطرازها .

● لم يخطىء « جوته » عندما وصف العمارة بقوله : « العمارة موسيقى متجمدة » كما وصفها بتهوفن بأنها « سيمفونية الحياة الصامتة » .

هناك علاقة محسوسة بين العمارة والموسيقى .. فاذا كانت الموسيقى هى ترجمان العاطفة ، فتلك العاطفة قد انعكست على الطابع المعمارى وفنون بنائه وتشكيل طرازه .

● فموسيقى القبائل البدائية والشعوب الهمجية التى تتمثل فى دقات الطبول ذات التكرار المتجانس تنعكس على مبانيها وطابعها البدائى أو اكواخها المتماثلة والمتراصة بغير توافق أو تجانس .

● والموسيقى الريفية فى كل بلد .. التى تتسم ببساطة ألحانها ورتابة أنغامها التى تنتمى إلى الطبيعة الحية وتنبت من أرضها - نجد لها انعكاسا على مبانيها التى تتميز بالبساطة والهدوء . ومواد بنائها التى استمدتها من الطبيعة المحيطة بها ..

● والموسيقى العربية ذات الانغام المتجانسة والتكرار المستمر . للنغمات الأصلية . وخلفيتها يمكن قراءتها أو الاستماع اليها بسهولة على واجهات مبانى الطراز العربى ذى التكرار السطحى المستمر بالنسبة للعقود والزخارف والمشربيات .

أن تغير شخصية العمارة العربية من بلد إلى آخر وتغير شكل العقود والقباب ونسب المبنى ، قد وجد له تماثلا فى تغيير شخصية الموسيقى المعاصرة له ..

● والموسيقى الكلاسيكية فى كل بلد بما فيها من تعقيد أو بساطة ، وسطحية أو عمق وجدت لها انعكاسا صريحا على العمارة التى عاصرتها . انطبعت ألحانها وأنغامها على واجهات المبانى وزخارفها ونسب تكوينها .

فالعلاقة بين موسيقى الأوبرا الايطالية وطراز عمارة الرينسانس الايطالى ، أو الأوبرا الالمانية والعمارة الالمانية أو الفرنسية التى صاحبت عمارة العصر ، تؤكد أن موسيقى كل بلد من تلك البلاد ما هى إلا لغة العمارة نفسها .. أو أنها تجمدت لتشكل الطراز .

إن تلك العلاقة يمكن كشفها بوضوح فى العلاقة بين الطرز المعمارية الهندية والصينية القديمة منها والحديثة وتطور العمارة معها .

إن هناك علاقة أبعد من ذلك أمكن تأكيدها ، وهى العلاقة بين أشكال الآلات الموسيقية فى كل عصر من العصور وعلاقتها بطراز المبانى كالعود العربى والقباب والآلات الوترية الفرعونية وزخارف الطرز الفرعونية أو الكلافير والبيانو وطرز الرينسانس الخ...

إن كل تطور فى العمارة وطابعها .. سجلته ألحان الموسيقى وطابعها .. فكلما اندمجت ثقافات الشعوب ببعضها ظهر ذلك فى طابع موسيقاها ، وها هى العمارة العالمية الحديثة التى بدأت تحتل مكانها فى مختلف البلاد وجدت لها صدى فى

الموسيقى العالمية المعاصرة ، وتتقارب مع تقارب مدنية وثقافة الشعوب .

● لقد نجح البعض فى الكشف عن العلاقة بين بين العمارة وأنواع الرقص الذى انطبعت حركاته وأزياؤه فى مختلف العصور بكل من الألحان الموسيقية والطرز المعمارية .

● لم يخطىء ليكوربوزييه عندما قال : « العمارة تعبير مجسم لتكنولوچيا العصر » إن وسائل النقل - العنصر الآلى للحركة - قد تغير تصميمها ابتداء من المحفة التى تحمل على الاكتاف إلى فجر التكنولوچيا عند اختراع العجلات واستعمال العربات التى تجرها الجياد والدواب ، إلى عصر البخار واستعمال القاطرات .. إلى عصر البترول واستعمال السيارات والطائرات وإلى عصر الذرة واستعمال الصواريخ كوسيلة للنقل والانتقال .

فطراز وسائل النقل فى كل عصر صار متوازيا مع طراز العمارة التى عاصرته، فالتكنولوچيا التى وضعت تصميم وسائل النقل الآلى .. تكنولوچيا الحركة والسرعة فحددت أشكالها وطرزها تبعا للغرض الذى انشئت من أجله، هى التى ستحدد بدورها تصميم العمارة وأشكالها التكوينية العلمية تبعا لما تؤديه من غرض انشئت من أجله .

لقد عاشت الطرز القديمة كل منها بطول تكنولوچيا الحركة والانتقال ، ولقد احتاج الانسان إلى ٣٠٠٠ سنة للانتقال بالسرعة من ١٠ إلى ٣٠ كيلو مترا فى الساعة أى من عصر العربة التى تجرها الجياد والدواب إلى القاطرات البخارية وعرباتها . ثم احتاج إلى ١٠٠ سنة لينتقل بالسرعة من ٥٠ كيلو إلى مائة كيلو أى من القاطرة إلى السيارة . كما احتاج إلى نصف قرن لينتقل بها من ١٠٠ إلى ٢٥٠ كم عند ظهور الطائرات المروحية ثم احتاج إلى ١٥ سنة للانتقال بالسرعة من ٢٥٠ كيلو إلى ١٠٠٠ كيلو فى الساعة عند ظهور الطائرات النفاثة ، ثم إلى عشر سنوات فقط للانتقال بالسرعة من ألف إلى ثلاثة آلاف كيلو عندما انتقل إلى الطائرات التى تفوق سرعة الصوت .. وأخيرا إلى خمس سنوات لينتقل من ٣٠٠٠ إلى عشرين ألفا باستعمال الصواريخ ومركبات الفضاء .

فالتكنولوچيا التى سيطرت على مقومات حياة المجتمع الحديث وطراز معيشته هى التى ستخطط معالم الطراز المعمارى .. حيث سيحل العقل الالكترونى محل العقل البشرى فى تحديد معالم العمارة وطابعها وشكلها والتى ستخضع بدورها إلى الحركة الدائمة والتطور المستمر والتغير السريع الذى يعبر عن ضربات نبض مدنية العصر ..

● لم يخطىء سالفسبرج عندما قال إن العمارة مرآة عادات المجتمع وتقاليده فالمسكن هو مأوى المجتمع الصغير .. أو العائلة التى يحدد كيانها مجموعة من العادات والتقاليد التى تسيطر على حياتها وتشكل كل ما يحيط بها ويعمل على خدماتها داخل ذلك المأوى من أشكال الحجرات وما يؤديه كل منها وقطع الاثاث أو أجهزة الخدمات وأدوات المعيشة ، كما أن إحساس المجتمع الصغير بفنون الحياة ينعكس على وسائل الرفاهية وتجميل المسكن من زخارف ولوحات وآنية وستائر ورياش ومعلقات وأجهزة للاضاءة .. بل وألوان كل منها والتى تشترك كلها فى تشكيل طراز المسكن وحياته الداخلية ، بينما يعبر خارجه عن طراز المجتمع الخارجى .. أو علاقة المجتمع الصغير بالمجتمع





الكبير أو الحياة العامة ، فإذا وجدنا شذوذا أو ابتعادا عن الحياة الطبيعية فى تصميم المسكن وطرازه فى أى عصر من العصور فذلك الشذوذ نجد له مرجعا فى عادات إنسان ذلك العصر وتقاليده المصطنعة .

● لم يخطىء أرفنج بوند فى - فلسفة العمارة والطراز عندما ربط بين العمارة والملابس وملامح الوجه فى مختلف المناطق والعصور .

فالشاب الإغريقى بجسمه الرياضى وحرامه وعصاه وخطوط تكوينه الطولية المستقيمة التى تنعكس على خطوط مبانيه وأعمدتها وفتحاتها .. أو القباب والعقود وعلاقتها بالعمامة العربية وما يحيط بها من خطوط أفقية محنية وزخارف العباءة وكرانيش المبانى ومقرنصاتها . أو المقارنة بين السقف الصينى المشهور بارتفاع أطرافه وبين قبعة الصينى وارتفاع أطرافها وارتفاع أطراف حاجبيه وفتحات عينيه ، أو الزخارف الرومانية المعقدة وعلاقتها بملابس الرجل الرومانى وتصفيف شعره وزخارف ملابسه . كما حاول اثبات العلاقة بين أشكال الوجوه نفسها فى مختلف الشعوب والعصور ومشابهتها لبروفيلات الكرانيش التى تعلو الحوائط أو تتوج المبانى .

● لم يخطىء بيتر ماير عندما قال إن العمارة سجل المبادىء السياسية للشعوب فتطور الحالة السياسية يتبعه دائما تطور فى الحالة الاجتماعية .

فكل انقلاب فى الحكم تبعه انقلاب فى

العمارة .. وكل ثورة تبعتها ثورة مماثلة فى العمارة فهناك عمارة العصور الملكية وعمارة الرأسمالية وعمارة الديموقراطية وعمارة الاشتراكية وعمارة الشيوعية ..

هناك عمارة الحرب .. وعمارة السلم ، عمارة الانتقال وعمارة الاستقرار لكل منها طابعها أو طرازها الذى يعبر عن علاقة الفرد بالمجتمع .. وعلاقة المجتمع بنظام الحكم .. ونظام الحكم باقتصاديات الحياة .

لم يخطىء واحد من هؤلاء عندما نظر إلى العمارة وطرازها من زاوية واحدة .. الزاوية التى يحس بها أكثر من غيرها .

فالطراز يخضع فعلا لمجموعة من المؤثرات ، أو مثلثات التأثير وينعكس على مجموعة من المتوازيات.

فمثلثات التأثير أولها مثلث الجغرافيا والجيولوجيا والمناخ فالجغرافيا أو طبيعة المنطقة لها تأثيرها الشكلى والتكوينى والنفسانى فمبانى الأراضى المنبسطة الخضراء تختلف عن مبانى الصحارى الرملية ومبانى الجبال والغابات تختلف عن مبانى الشواطىء البحرية .

لقد لعبت طبيعة المناطق دورا حيويا فى فنون تشكيل المبانى واختيار ألوانها التى تتمشى مع الطبيعة الحية وتنسجم معها .

والجيولوجيا : مدت العمارة بمولد البناء وما تبعها من طرق الانشاء الخاصة بها ، فالاحجار التى رسمت العمارة الفرعونية بحوائطها وأعمدتها وكتل أسقفها غير الطوب الذى جسم العقود والقباب .. غير الاخشاب وأسقفها المائلة ، غير الحديد وهياكله .

والمناخ : أثر الجو من حرارة وبرودة ، ورطوبة وجفاف ، وأمطار وعواصف ورياح وضوء . كان لكل منها أثرها فى أشكال المبانى ومواد بنائها وطابع تشكيلها .

هناك مثلث آخر وهو العقائد والتاريخ والسياسة ومثلث ثالث وهو المستوى الحضارى والاجتماعى والاقتصادى هذا بجانب الثورة الصناعية وأثرها فى حياة المجتمع باكمله ودور التكنولوجيا الحديثة وسيطرتها .. وهى مرحلة الانتقال من العقل البشرى واليد العاملة إلى العقل الالكترونى والآلة الصانعة .. التى كان لها أثرها المعروف فى تحديد طراز العمارة .. بل طراز حياة العصر باكمله .

أما المتوازيات التى ينعكس عليها الطراز فهى العادات والتقاليد وما يرتبط بها من أزياء للملبس وأثاث للمسكن وكماليات للمعيشة ووسائل للنقل والانتقال والترفيه ثم الفنون الشعبية من موسيقى ورقص وغناء ، والفنون الجميلة من نحت ورسم وتصوير ، وآداب الشعوب على اختلاف أنواعها .

فطراز العمارة هو التعبير الصادق عن تلك المتوازنات والمؤثرات فى وقت واحد أو ما يعبر عنه بشخصية المجتمع ..

أجمل قصص الحب فى

الأدب الإنجليزى

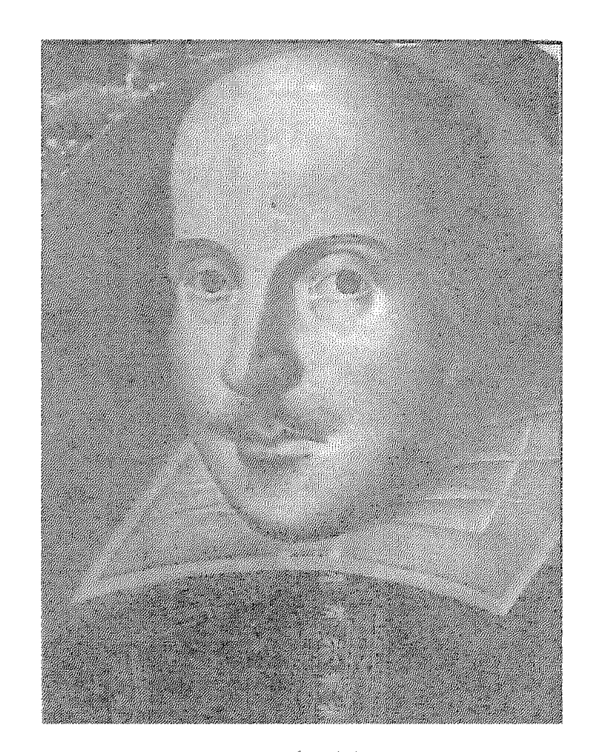
بقلم : د . أمين العيوطى

من الغريب أنك تكاد لا تجد عملا فنيا واحداً يخلو من قصة حب ... ولعل السبب فى هذا أن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده . فالحب طاقة محركة فى حياته ، ووسيلته إلى الاستمرار وقهر الموت . ولهذا فإن الفنان حين يعرض للحب ، فإنه يمس كبد الحياة الإنسانية ... الحب إذن محور أساسي فى الفن ، لأنه محور هام فى حياة البشر .

... لكن الإنسان أيضا لا يحيا بالحب وحده . فإذا كان الحب وسيلة إلى الرزق فى الإطار الاجتماعى الذى يعيش فيه . فقصة الحب فى العمل الفنى إذن تشكل خيطا من ذهب فى النسيج الاجتماعى لهذا العمل . ومن خلال قصة الحب غالبا ما يكشف الفنان عن قصور ما فى الخلفية الاجتماعية التى يعرض عليها هذه القصة . فقصة مجنون ليلى تثير الاحساس بقسوة العرف وتسلط التقاليد التى تؤدى إلى مأساة قلبين عاشقين نتعاطف معهما .

وقصة روميو وجولييت تهدف من خلال تصوير معاناة العاشقين بعاطفة سامية ، إلى تعرية العلاقات الإنسانية الشائهة فى مجتمع « فيرونا » التجارى الذى كانت تحكمه القيم المادية والتنافس والتناحر بين فئات البرجوازية الصاعدة . والقصد فى الحالتين أن يصل الفنان بقارئه إلى رؤيا إنسانية أعمق ، ووعى إنسانى وحضارى أرقى .

والتنويعات على قصة الحب الواحدة عديدة وغنية غنى التجارب الإنسانية ذاتها . فليس من الغريب أن تستغل قصة روميو وجولييت فى فيلم « قصة الحى الغربى » لتعزف تنويعة على نفس الفكرة على مستوى الصراع بين البيض والزنوج . وليست هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها هذا . فقد سبق إليها كتاب كثيرون مثل الروائية الإنجليزية



ويليام شكسبير

« جورج إليوت » التى استغلت نفس القصة وأعطتها أبعادا جديدة تخدم فكرها الاجتماعى والخلقى فى روايتها « طاحونة على نهر الفلوس » .

★ الحب الممنوع ★

فى هذه الرواية تصور لنا جورج اليوت قصة حب رقيق رقة الزهور بين ماجى تليفر ذات التسعة عشر ربيعا وبين فيليب ويكم . والفتى مصاب بعاهة بدنية ، لكنه يجمع بين رهافة الشعور الإنسانى ورقة الفنان ، بل إنه فنان مولع بالرسم .

وماجى فتاة مشبوبة العواطف متوقدة الحس ، جامحة المشاعر والخيال ، رومانسية مجنحة لا تستطيع أن تحيا دون أن ترضى حاجتها الملحة إلى أن تحب وأن تكون محبوبة . وهى فى هذا أقرب إلى أبيها منها إلى عائلة أمها .

لكنها تعيش وسط جو لا يسمح بالجرى وراء العواطف . فعائلة أمها سوقية ، ضيقة الأفق ، لا تملك الخيال ، وليس بين أفرادها نساء ورجالا مجال للعاطفة فى حياتهم . فهم مشغولون بجمع المال ، وحب التملك . وكل همهم محصور فى ارتقاء السلم الاجتماعى ، والتخلص من وصمة السوقية التى ترتبط بهم كأفراد طبقة . وهم فى هذا كله يمثلون البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها ماجى . وعنهم ورث توم ، شقيق ماجى ضحالتهم الإنسانية ، وعدم قدرتهم على المشاركة فى اليقظة الروحية والخيالية لدى سائر البشر . ولهذا كان الصدام حتما بين ماجى وشقيقها توم ، ثم بينها وبين الوسط الذى تعيش فيه .

ويعقد الأمر أن ينشب صراع بين أبيها وبين والد فيليب المحامى البارع فى القرية . والصراع له جانب طبقى إذ إنه يمثل الصراع بين البرجوازية الصغيرة والطبقة الوسطى . والأب تدفعه رعونته ومشاعره المحتدمة على الدوام إلى الاصطدام بويكم ، ممثل الطبقة التى يحاول هو أن يصعد إليها . وتكون النتيجة أن يخسر طاحونته التى تقوم على نهر الفلوس ، والتى كانت دائما ملكا لآل تليفر . وتؤول الطاحونة إلى ويكم ويضطر الأب إلى أن يعمل بالطاحونة لارتباطه العاطفى بالبقعة التى تقوم عليها وتكفيرا لعائلته عما لحقها من ضرر بسببه .

وينعكس هذا الصراع على فتاتنا الرومانسية الحالمة . فأخوها يعترض طريق حبها ، ويهددها أن يبلغ أبيها بقصة هذا الحب إن لم تقطع علاقاتها

بفيليب . وبين حقد توم على آل ويكم ، وبين حب ماجى لأبيها الذى لا يسمح لها بجرح مشاعره ، تقع الفتاة صريعة فتقطع على نفسها عهدا ألا تعاود الاتصال بفيليب .

لكن تيار النهر المتدفق حين يصطدم بسد لابد أن يجد لنفسه مسارب أخرى ، والفتاة لابد أن تجد لنفسها وسيلة لإرضاء عواطفها ... وتواتيها الظروف حين تنتقل إلى بيت خالتها لتقيم مع لوسى صديقة الطفولة . وهناك تلتقى بستيفن جست . خطيب لوسى . وهو شاب مرفه ، وسيم ، ينجذب إلى ماجى بما لها من جمال غجرى مثير ، وحس متوقد . وهى تصده المرة بعد المرة وفاء منها للوسى ، لكنها فى نفس الوقت مشدودة إليه بحاجتها الطبيعية إلى إرواء عواطفها الجياشة .

ووسط ظروف تلعب فيها الصدفة دورا كبيرا يخرج الاثنان لنزهة فى قارب . ويجرفهما التيار بعيدا عن البلدة ، وماجى مغيبة عن المسافة والزمن . حتى إذا جن الليل وجدا نفسيهما فى بلدة أخرى ، وتحتم عليهما قضاء الليلة فى أحد فنادقها . يستيقظ فى ماجى إحساسها بكل ما سيترتب على هذا من أقاويل ومخاطر . ويحاول ستيفن جاهدا أن يقنعها بالزواج منه ، فأى مصير يمكن أن ينتظر لوسى إذا تزوجت من لا يحبها ... لكن مشاعر الوفاء والولاء لكل علاقات الماضى تدفع ماجى إلى الرفض ، فتصر على العودة لتواجه كل النتائج التى ترتبت على لحظة نزقة ، ولتكفر عن إثمها فى حق الآخرين .

وتعود ماجى لتواجه العيون والألسنة ، بل والأيدى المستهترة أحيانا فيطردها أخوها توم من البيت ، ولا تجد قلبا يفهمها ، ولا يفهم موقفها وإصرارها على دفع ثمن غلطتها سوى قلب راعى الكنيسة الذى لا يسلم هو الآخر من ألسنة القوم . لكنها على أية حال تجد لها ركنا قصيا تعيش فيه وتتعيش من بعض الأعمال اليدوية .

وذات ليلة تفاجأ بفيضان النهر الذى يهدد البلدة . وتتجه أفكارها فورا إلى الخطر الذى يحدق بأخيها فى مسكنه بالطاحونة ، فتهرع إلى قارب ، وتظل تجدف حتى تصل إليه وتنقذه . وفى القارب تشرق على أخيها حقيقة الروح الطاهرة التى تسكن جنبى ماجى ، ويدرك كم كانت قسوته عليها أشد وأنكى من كل ما تعرضت له . لكن الإدراك يأتى متأخرا . فالقارب يصطدم بجذع شجرة عائم فيغرق الاثنان معا وقد احتضنا أحدهما الآخر واتحدا معا فى الموت .

فى هذه القصة إذن تعارض جورج إليوت الرومانسية الجامحة بالواقع الاجتماعى ، وتنتصر لعلاقات الماضى والقيم رغم ما بها من جمود وضيق أفق وفى سبيل هذا الهدف تحيط بطلتها بكل ما يمكنه قمع يقظة الخيال والقلب والحس فيها ، بل إنها تفتعل الصدفة وتثير فى الطبيعة فيضانا كاسحا لتصل بنا إلى أن القلب والعقل يلتقيان أخيرا ، وإن كان ذلك فى الموت حيث لا حاجة بنا إلى أيهما .

ولعل أحد أسباب هذه النهاية أن جورج إليوت كانت تكتب لجمهور قراء يتكون من الطبقة الوسطى المتزمتة التى كانت تصر على ضرورة أن تكون الرواية تعليمية تدعم ما تؤمن به هى من قيم اجتماعية وخلقية ، وتدين كل خروج على ذلك بأن تصادر أى أعمال تجرؤ على مناقشة معتقداتها أو ما كانت تعتبره من المحرمات مثل الجنس أو الدين .

وهو نفس ما حدث بفرنسا مثلا لفلوبير عندما نشر رواية « مدام بوفارى » ، أى أن جورج إليوت كانت تتملق التعصبات الاجتماعية لدى قرائها ، وأنها لم تكن من الجرأة بحيث تواجه جمهورها وأن تصدم حساسيته بأى شكل من الاشكال .

وكان لابد أن يأتى جيل من الفنانين يتمرد على هذا الموقف من الفن ، فلم يمض القرن التاسع عشر حتى خرج إلى الوجود كتاب من أمثال هيوبرت كراكنثورب ، وفنسخت أو سليفان ، وجورج مور ، وتوماس هاردى وغيرهم ، الذين انبروا لهذا العمل بهدف تأكيد حرية الفنان فى اختيار ما يراه من موضوعات وفى معالجته لها بحرية دون التقيد بضيق أفق قرائه . وقد نال هاردى بالذات عناء كبيرا عندما نشر روايته الشهيرة « تس سليلة آل دربرفيل » ، وناله عناء أكبر عندما نشر آخر رواية له « جود المغمور » حتى كف بعدها عن كتابة الرواية .

★ الحب الحر ★

تبدأ قصة الحب فى « جود » بانجذاب جود ، الذى يعمل نقاشا ، إلى أرابللا ، فتاة القرية التى تشع جنسا . وهو انجذاب ينسيه تطلعه إلي أن يلتحق بالجامعة يوما لكى يكتسب المعرفة لعله يصبح يوما ما قسا . وأرابللا لا تنظر إلى الزواج الا على أنه ضمان للعيش فى كنف رجل يكفلها ويشبع نهمها ، وترى فى جود الرجل الوحيد الذى تستطيع أن تعطيه نفسها بكل ما فيها من جموح . وعلى الرغم من أن لحظة الانجذاب تغلف وجود « جود » باشعاعات وردية داقئة . الا أن ومضة إدراك بسوقية المرأة وابتذالها تشرق فى عقله . ويرتبط الاثنان رغم ما يعذب جود من إحساس بانه يضحى بتطلعه إلى المعرفة وعلى الإسهام فى بناء أبناء جيله ، أمام لحظة ضعف غريزى . ويثور الصراع بينهما بعد الزواج . هى تريده لها كلية ، فتحاول أن تعزله عن كتبه . وهو يعذبه الإحساس بضعفه الغريزى ويحاول أبدا تثقيف نفسه ذاتيا . ويؤدى الصراع بينهما إلى أن يدعم فى نفسه الشعور بان ارتباط الزواج كان خطأ وقتيا له نتائج بعيدة المدى لأن العلاقة بينهما لم تقم على أساس من الحب ، أو الفهم والتعاطف المتبادلين . بل ويصل به الأمر إلى إدراك أن أى ارتباط بالزواج قيد على حرية المرء ، وأن العهد الذى يقطعه المرء على نفسه عند الزواج بأن يحب امرأته ويرغبها بنفس الدرجة دائما وهم يبدده الزواج ذاته . وهكذا ينتهى بهما الأمر إلى الانفصال .

وينطلق جود إلى بلدة كريستمنستر الجامعية حيث يأمل فى إمكانية تحقيق آماله ، وإن داخله شعور خفى أيضا بأنه من الممكن أن يلتقى هناك بابنة عمته سو التى تعمل فى نفس البلدة . وهناك يكتشف أن الجامعة لم تخلق إلا لأبناء المليونيرات ، لا لشخص مكافح مثله . تستغرقه حرفته فى نقش الاحجار ، على أمل أن يحقق حلمه يوما ما .

لكنه يلتقى بابنة عمته ، فيجدها فتاة ذكية ، مرهفة الحس ، متوقدة العقل والقلب . وعلى الرغم من أنها تعمل فى حانوت لبيع التماثيل الدينية ، الا أنها فى أعماقها شأنها فى ذلك شأن جود ، تؤمن بالطبيعة وتعشق التماثيل اليونانية الوثنية . فهما صنوان فى أن مشاعرهما المتأججة تختفى وسط رماد مدفأة الروح والفرق الرئيسى بينها وبين

أرابلا أنها قد حققت قدرا من الاستقلال الاقتصادى ومن الثقافة .

ومرة أخرى تلتهب مشاعر جود ، رغم إحساسه أنه رجل متزوج ، وأن أمله فى أن يصبح يوما قسا لابد أن يقف ضد علاقة مع امرأة أخرى هى أيضا قريبته . لكن وثنيتها التى يراها فى عبادتها للحضارة الهلينية تشده إليها . فهى لا تؤمن الا بقانون الجاذبية والتناسل ، وتذوب شوقا إلى العودة إلى حياة الطفولة والحرية . لكنهما رغم هذا لا يلتقيان لأن كلا منهما يحمل داخله رواسب التعاليم الاجتماعية التى رسخت فيه ولهذا لا تجد « سو » بدا ، لكى تقهر نفسها ، الا بالزواج من رجل يكبرها سنا ويعمل معلما ، ولكن تكتشف أنها تنفر منه لدرجة أنها تقفز ذات ليلة من النافذة حين يقترب من سريرها ، ويدرك الرجل سرها ، ويقرر أن يسرحها لكى تعيش مع حبيبها كيفما تشاء .

وتمضى الأيام بالعاشقين ، يرفضان الزواج خشية أن يؤدى بهما إلى تحجر عواطفهما ، لأن التجربة قد علمتهما أن العلاقة الزوجية تقوم على إلزام الطرفين بأن يحب أحدهما الآخر ، وانها لهذا لابد أن تنتهى إلى زوال الحب ، وأن أسمى صور العاطفة تقوم على الوفاء والصدق فقط من جانب الطرفين . ويعيش الاثنان حياة وردية ينجبان خلالها طفلين .

لكن ارابلا تعود إلى الظهور فى حياة جود فترسل له ابنا منه ، وهو طفل فى السابعة . وتبدأ عيون الناس وألسنتهم تطارد الاثنين . وفى المدرسة تلاحق ابن جود من أرابلا تعليقات الأطفال السخيفة ويمتد رأى الناس فى علاقتهما إلى محاربة جود فى رزقه ، وأمام هذه الضغوط الاجتماعية يضطر الجميع إلى الرحيل عن البلدة ، ويعيشون حياة ترحال ، والحال يسوء بهم يوما بعد يوم . لكن حبهما لا يهمد بل أنهما يزدادان تعلقا أحدهما بالآخر وتحمل « سو » طفلا ثالثا . ويصل الحال بهما ذات مرة ، أثناء بحثهما عن مأوى ، أن يرفضهما أصحاب المنازل واحدا وراء الآخر ، مرة لما يحيط بهما من شبهات ، ومرة لكثرة العيال . ومع كل مرة تزداد مرارة ابن أرابلا . لكنهم يجدون أخيرا حجرة تأويهم مؤقتا .

ويخرج جود وسو للبحث عن سكن لكنهما حين يعودان يجدان طفل جود قد شنق الطفلين وشنق نفسه لأنه ، كما قال فى رسالة خطها إلى أبيه قبل موته ، قد يئس من حياته لكثرة عددهم .

ويصاب الاثنان بصدمة مروعة ، حتى إن « سو » تفقد جنينها . وترهق الصدمة أعصابها فتقرر هجر جود والعودة إلى زوجها ، وتترك جود ليقع فريسة حمى تودى بحياته .

ولعل هاردى كان أول روائى انجليزى ، فى القرن التاسع عشر المعروف بتزمته الشديد ، يتناول موضوعا كهذا بهذه الصراحة والجرأة .

والحقيقة أنه عندما شرع هاردى يكتب الرواية كان هناك اتجاهان متعارضان يسودان مجال الأدب : الأول يدعو إلى « الاحتشام » والتشبث بالأخلاقيات المتعارف عليها ، والثانى ينادى بضرورة معالجة الحياة كما هى رغم كل التعصبات ... وكان الاتجاه الاخير يتمثل فى الروايات التى تجاسرت على اقتحام مناطق التجربة الجنسية والعواطف والأحاسيس التى لم يكن لها وجود من قبل فى مجال الرواية . وكان هدف هذا



جورج اليوت

النوع من الرواية تخليص الفرد من قيد العرف والتعصب ، وإذكاء روح التحرر ، وتصوير الإنسان كما هو على الطبيعة بدون أى زيف اجتماعى يخفى تحته الوجه الحقيقى له .

وقد امتدت هذه الموجة أصلا من فرنسا فى أواخر الثمانينات من القرن الماضى عندما نشرت تراجم للروائيين الفرنسيين ، وعندما قدمت مسرحيات إبسن على المسرح الإنجليزى ، مما دعا الصحافة الأدبية أن تشن حملة على ما سماه النقاد المحافظون « بالأدب الضار » . وأثار هذا عاصفة من الجدل بين دعاة التزمت ودعاة الصراحة ، وكان هاردى بين من نادوا بحرية الفنان فى معالجة ما يشاء من موضوعات ، وبتحرير الفنان من قيود التقاليد الابية المحافظة فقد كان يؤمن بضرورة توسيع مجال الرواية بحيث يتضمن كل أوجه الحياة بلا حياء زائف .

وكان هذا الاتجاه الجديد يقوم على أساس الدعوة إلى حرية الفرد أن يعيش حياته كما يحب فى وجه القيود التقليدية التى اعتبرها إبسن « دعائم المجتمع » المتهرئة . ولهذا جاءت « جود المغمور » لتصور الفرد ممثل الحرية ، وسط البيئة التقليدية التى تقهر الفرد ، أى أن هذه الرواية كانت جزءا مما سماه النقاد « فلسفة الا يخشى المرء شيئا ، وأن يكون له الجرأة على أن يعيش كما يحب لا كما تريدنا الطبقة الوسطى أن نحيا ، وأن تكون لديه شجاعة رغباته بدلا من جبن الآخرين » .

وقد انطوت هذه الفلسفة ليس فقط على ضرورة تحرير الرجل ، بل أيضا تحرير المرأة حتى تطور قدراتها . وتضمن هذا الاتجاه ما سموه بالحب الحر . وقد جاءت هذه الدعوة كرد فعل ضد زواج المصلحة والزواج المدبر وأى نوع من الزواج يقوم على أسس تجارية أو مادية ، لا على حب متبادل بين الطرفين . المهم أن هاردى أدلى بدلوه فى هذا الاتجاه بروايتيه الأخيرتين ، وقد كان من أهمية هذا أن مهد الطريق لمن جاء بعده من الروائيين وعلى رأسهم د . هـ . لورانس الذى اشتهر بكتاباته الصريحة عن الحب ، والعلاقات بين الجنسين ، والذى كان أول من تناول فى رواياته نوعا جديدا من الحب لعل أقرب تسمية له هى « الحب المحرم » .

مالم يكتب من تاريخ الأزهر ...

هل تعلمت المرأة في الأزهر القديم ؟

بقلم : د . محمد رجب البيومي

قال الأديب الكبير الأستاذ عبد العزيز البشرى فى مقدمة مقال له عن النقد الأدبى :

« لا أزعم أنى استويت اليوم إلى مكتبى ، وهذا الموضوع الذى أتقدم للحديث فيه واضح المعالم فى رأسى ، مجتمع الأقطار والحدود ، وإنما هى خواطر تتطاير من هنا وهناك فى هذا الباب ، وسأحاول بجهدى نظمها ، فإذا اتسق منها موضوع واضح الشخص ، مستوى المعارف ، وإلا فليأخذها القارىء على أنها خواطر نثار » .

هذا ما قاله الأستاذ البشرى قديما ، وأذكر أنى قلت فى نفسى حين قرأته لأول مرة ، ما بال الكاتب يقدم على موضوع يصرح بأنه ليس واضح المعالم فى رأسه ، وإنما هو خواطر تتطاير من هنا وهناك ! أما كان الأولى أن يتريث فى الكتابة حتى يتضح الموضوع بعناصره وأدلته كل الوضوح ؟ قلت ذلك فى نفسى قديما أنتقد الرجل ، ثم بدا لى من بعد أنه على حق أكيد ، فقد تكون لدى الكاتب بعض أفكار لم تجد ترابطها الدقيق وإنما هى أفكار « نثار » ، ومن الخير أن يقدمها للباحثين فقد تجد من يضيف إليها الجديد فيستقيم البحث على سننه الصحيح ، وتُملأ الفجوات على يد كاتب آخر ، أما إذا أهملت دون قيد فستضيع مع الأيام ويضيع معها حق أكيد .



عبد العزيز البشرى

وموضوع تعليم المرأة فى الأزهر القديم يجد لدىّ بعض الحقائق الواضحة ، وقد انتظرت من يخصه بالحديث أمداً طويلاً فلم أجد من قائل ، لاسيما حين أقيم الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، وكثرت البحوث عن تاريخه ، واستفاضت المجلات والكتب الخاصة فى نشر ما يقال بهذه المناسبة ، وقد بحثت عن نصيب المرأة الأزهرية فيما كتب ، فلم أجد إلا إشارات إلى ما افتتح من المعاهد والكليات بعدما يعرف بقانون التطوير ، إذ أنشئت فى ظله معاهد الفتيات وكليات الدراسة الخاصة بالبنات ، أما تعليم المرأة فى الأزهر القديم فلم يُقل عنه سطر واحد ، فليت شعرى لماذا سكت الدارسون عنه ، أيكون ما لدىّ من الحقائق الثابتة غير مشتهر معلوم ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فمن واجبى أن أذيع .

الخيط الأول

إن ما لدى من الحقائق بهذا الصدد قد توالى على أبعاد مترامية ، ومن هذه الحقائق ما جاء عن طريق الاستنتاج العقلى وما جاء عن طريق النص الصريح ، وسأبدأ بتصوير ما توارد على ذهنى من الخواطر العلمية منذ بدأت هذه الخواطر تجد تيارها فى نفسى ، إذ كان المبدأ الأول لهذه الخواطر أنى كنت أقرأ ماكتبه جلال الدين السيوطى عن تاريخه العلمى فى خاتمة كتابه (بغية الوعاة) فوجدته ينص على أنه قرأ على سيدات من العالمات المتخصصات فى الدراسة الدينية ، منهن السيدة الأصيلة الثقة الخيرة الكاتبة – كما قال المؤلف – أم هانىء بنت الحسن الهورينى ، ومنهن السيدات الفضليات هاجر بنت محمد وأم الفضل المقدسية ، ونشوان بنت عبد الله ، وكمالية بنت أبى بكر ، وأمة الخالق بنت العقبى وفاطمة بنت على القسطاطية ، وأمة العزيز بنت محمد ، وخديجة بنت الحسن بن الملقن وغيرهن وغيرهن من الفضليات ، فإذا كان السيوطى العالم الأزهرى قد وجد من أساتذته أكثر من عشر سيدات عالمات ! وإذا كان الأزهر منار الحركة العلمية ! فى آخر عصر المماليك الذى ائتلق فيه كوكب السيوطى ، فأين تعلم هؤلاء الفضليات ممن قرأ عليهن عالم كبير كان صدر العلماء فى زمانه ؟ إن المدارس العلمية كانت تجاور الأزهر إذ ذاك ولكن أساتذة هذه المدارس هم الأزهريون ، وطريقتهم طريقة المعهد التليد ! فإذا فرض أن بعض هؤلاء قد تعلمن فى هذه المدارس فهن من طالبات الأزهر عن يقين ، وقد كان الطلاب على عهد الأستاذ الإمام محمد عبده يتركون الأزهر

إلى حلقات تقام فى مسجد أبى الذهب ومسجد الملك المؤيد ، وساحة القبة الغورية ، لضيق المسجد الجامع حينئذ ، والقائمون بالدراسة أزهريون ، والمتعلمون أزهريون على افتراض أن مدرسات الجلال السيوطى لم يتعلمن كلهن فى الأزهر فاليقين كل اليقين أنهن تعلمن فى المدارس التابعة له ! أو المتشبة به ، وعلى أيدى علماء من الأزهريين !

فإذا تركنا السيوطى إلى معاصره الكبير « السخاوى » فإننا نجده يخص السيدات العالمات فى زمانه بجزء أخير من كتابه (الضوء اللامع) وتخصيص جزء من الضوء للسيدات يدل على أن أكثرهن قد برزن فى الميدان العلمى ؟ فأين تعلم هؤلاء ، ومن أساتذتهن ؟ وإذا كانت الدراسة الدينية وحدها هى العامة فى عصر السيوطى والسخاوى فأساتذة هذه الدراسة هم الأزهريون !

الخيط الثانى

ظللت أفكر فيما كتبه العالمان الكبيران ردحا من الدهر ، وأنا أعرف أنى أستنتج استنتاجا له شواهده الدالة ، وأماراته الصريحة ، وليس له نصه الجازم الحاسم ، حتى وقع فى يدى العدد (٣٩٥) من مجلة الرسالة الصادرة بتاريخ ١٩٤١/١/٢٧ وفيه نبذة تحت عنوان (فتيات فى الأزهر) يقول كاتبها الفاضل مانصه :

« ذكر المستشرق الانجليزى (مستر دون) فى كتابه (الحياة الفكرية والتعليمية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر) ما خلاصته : أن الحملة الفرنسية أثناء قدومها إلى مصر ، وجدت فى صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان ويتفقهن فى الدين ، وكانت هناك عالمة ضريرة يلتف الشبان حولها ، ويتلقون الدروس عنها ، كما أنه كان فى معهد طنطا الدينى جماعة من الفتيات يحضرن الدروس الدينية ويستمعن إلى التفسير والحديث » .

فماذا يرى الدارس فى هذا النص ؟؟ إنه اعتراف صريح بتعليم الفتيات بالأزهر على عهد الحملة الفرنسية يؤيده ماذكره الأستاذ محمود أبو العيون فى مقال له بمجلة الهلال (سنعرض له فيما بعد) حيث قال رحمه الله (الهلال نوفمبر ١٩٣٤ ص ٩٧) إن النساء كن يتلقين العلم بالأزهر إلى عهد غير بعيد ، وكان من شيوخهن الأساتذة القويسنى والسقا والصعيدى العدوى والخضرى ، وهؤلاء جميعا من مشهورى العلماء الكبار ومنهم من خاتمة العهد العثمانى ومن أدرك الحملة الفرنسية ، كما ذكر أبو العيون أن الشاعرة الشهيرة عائشة التيمورية كانت تحضر العلوم اللغوية والشرعية على أيدى عالمات حضرن فى الأزهر منهن السيدة فاطمة الأزهرية والسيدة ستيته الطبلاوية وقد درست عليهما جانبا من النحو والعروض .

مرة ثانية أقول ماذا يرى الدارس فى هذا النص ؟ أليس فيه ذكر لأسماء الأئمة الأعلام ممن درسوا للسيدات ، ومنهم من عاصر الحملة الفرنسية التى ذكر عن أيامها المستشرق الانجليزى مايفيد تعليم الفتيات بالأزهر فجاء قول أبى العيون تأكيدا له ! ثم من هذه التى كانت أستاذة عائشة التيمورية فى النحو والعروض إن لم تكن أزهرية تعلمت من أزهريين !

الخيط الثالث

أما الخيط الثالث فهو أقوى الخيوط ، وأثبتها دلالة وأرسخها برهانا ، إذ أثبت بالوقائع الملموسة

أن المرأة تقدمت لامتحان العالمية بالأزهر ! وهى أرقى شهادات الأزهر العلمية ، فى زمن كان لهذا الامتحان روعته المخيفة لدى الرجال ! وفيهم من يقضى عشرين عاما دون أن يجرؤ على التقدم إليه، إذ كان الممتحنون من كبار العلماء ، ولهم فى الأسئلة الدقيقة مغاص عميق ، حيث لا يقفون عند دائرة خاصة بل يكون السؤال الواحد مزيجا من علوم شتى فهو يتضمن الفقه والأصول واللغة والنحو والبلاغة فى وقت واحد ، يقول الأستاذ محمود أبو العيون بمجلة الهلال الصادرة فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ من مقال مستفيض :

« كانت لجنة امتحان العالمية تطوف على المعاهد الملحقة بالأزهر لامتحان طلبة الشهادة فيها، فسافرت اللجنة من علماء الأزهر إلى معهد طنطا سنة ١٩١١ لامتحان طلبته ، وتقدمت الشيخة فاطمة العوضية للامتحان ، وكان موضوع درسها فى علم الأصول (لا تكليف إلا بفعل) من كتاب (جمع الجوامع) وهو باب عويص ثقيل وفيه إشكالات وتعاقيد ، وقليل من النابهين من يحذقه أو يجوزه بسلام .

وما إن أخذت الشيخة فاطمة العوضية مقعدها من اللجنة حتى أمطرها أعضاؤها وابلا من الأسئلة المعقدة فى الباب المعين لها ، وناهيك بامتحان الأزهر فى القديم ، فقد كان مرهقا حقا ، وكان السبيل فى نجاح الطالب أن يكون ملما بما كتب فى الحواشى والتقارير ، وأن يكون قادرا على الجمع بين الآراء والخلافات وتصحيح المسائل المختلفة بلباقة وحصافة ، وأن يؤيد المذاهب المختلفة بالأدلة والبراهين الواردة عن العلماء المعروفين ، والعبرة فى ذلك كله بعمق الفهم ، والقدرة على الترجيح ، لا بكثرة الحفظ ، ونقل الأقوال والمسائل ..

جعلت الشيخة فاطمة العوضية ، تجيب عن أسئلة اللجنة ، واللجنة تهاجمها بمعضلات المسائل ، ولقد سألها فضيلة الأستاذ الشيخ دسوقى العربى - أطال الله عمره - مغالطا : هل الاسم والحرف يكلف بهما كالفعل فأجابت : داشىء ودا شىء ! أى أن الفعل هنا فعل المكلف المخاطب بالأحكام ، وهو غير الفعل قسيم الحرف والاسم ، فأعجب أعضاء اللجنة بهذا الجواب الظريف .

مرة ثالثة أقول ماذا يرى الدارس فى هذا النص ، إن الطالبة فاطمة العوضية تقدمت لامتحان الشهادة العالمية سنة ١٩١١ م وقانون العالمية حينئذ لا يجيز الامتحان إلا لمن قضى اثنتى عشرة سنة فأكثر بالأزهر ! أى أن الطالبة حضرت اثنى عشر عاما على الأقل ، ودون ذلك فى أوراق رسمية أجازت لها أن تلحق بالامتحان عن يقين ، كما أن العلوم التى كانت موضع الامتحان بنص قانون سنة (١٣١٤ هـ المعمول به حينئذ) هى علوم التوحيد والأخلاق والفقه والأصول والتفسير والحديث والبلاغة والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية ! وتحصيل هذه العلوم يتطلب المواظبة على الحضور والنقاش وقد ذكر أبو العيون أن الشيخ دسوقى العربى كان رأس الممتحنين ، وله شهرة مدوية فى هذا المضمار ، جعلت اسمه مصدر رعب لدى من يتخلفون عن الامتحان عامدين ! وقد كان الشيخ حيا عند كتابة هذا المقال سنة ١٩٣٤ ، كما كان عضوا فى هيئة كبار العلماء ، والاستشهاد به ليس موضع شك إذ لو توهم واهم أن الامتحان



الشيخ البشرى فى زمن الحوار بين العمامة والطربوش

غير جدى ! ماسكت الشيخ عن إيضاح ذلك وقد استشهد به ، وذكر أبو العيون بعض أسئلته التى وجهها على سبيل المغالطة ! فالأمر من الوضوح بحيث يغنى عن التعقيب . والذى تدل عليه الشواهد أن الطالبة فاطمة العوضية ليست دون زميلات فى مجال الطلب بالمعهد الأحمدى ، إذ لا يعقل أن تستمر أكثر من اثنتى عشرة سنة دون من يزاملنها فى تلقى العلم ، وإلا كانت نشازا بين الأزهريين

فتصبح موضع الاعتراض فى زمن يلتزم الدقة والتشديد .

الخيط الرابع

كنت طالبا بمعهد التربية العالى بالاسكندرية سنة ١٩٤٩ ، وقد سكنت فى منزل بحى باكوس مع بعض الطلاب ، وكانت صاحبة المنزل ذات دراية بالمسائل العلمية المتواضعة إذ جعلت تتباهى ببعض محفوظاتها من متون الألفية والرحبية وتحفة الأطفال ، وهى متون أزهرية كانت ولا زالت موضع الشرح والدراسة فى حجرات الأزهر ، وقد سألتها عن اتجاهها العلمى فذكرت أن والدتها عالمة أزهرية ، كانت تتلقى العلم بمسجد (الشيخ) بالاسكندرية ! مع زميلات إسكندريات ! فأخذت أسأل عن هذا المسجد ، فعلمت أنه النواة الأولى للمعهد الدينى بالاسكندرية ، وقد كان فى أخريات القرن الماضى (التاسع عشر) وأوائل هذا القرن حافلا بالعلم والعلماء ومن طلابه حينئذ الأساتذة أحمد الإسكندرى وأحمد العوامرى وعبد الفتاح شريف وحسن منصور وعبد الله النديم وغيرهم من رءوس العلم فى مصر ! كما كان من بين طلابه النابهين حمزة فتح الله وعبد العزيز جاويش وسلامة حجازى ، وكان حديث السيدة عن والدتها العالمة موضع شك لدى ، ولكنى بعد قراءة مقال أبى العيون بالهلال اطمأننت إلى أن فروع الأزهر بالأقاليم كانت تضم السيدات ، بل حفلت بمن يتقدمن إلى نيل أرقى شهادات الأزهر دون اعتراض .

(تعليم المرأة)

وقبل إنشاء الأزهر كانت المرأة المسلمة ذات نصيب من الثقافة المتشعبة ، ففى مصر كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها ذات حلقة علمية يحضرها علماء العصر وفقهاؤه ، وقد سعد بلقائها الامام الشافعى بمصر ، وسمع عنها الحديث ، وفى غير مصر كانت شهدة الكاتبة راوية عالمة تتلمذ عليها أبو الفرج ابن الجوزى وروى عنها كثيرا من الآثار ، والمحدثات من راويات السنة النبوية كثيرات كتب تاريخهن ابن حجر فى الإصابة وابن سعد فى الطبقات ، كما ذكر الامام مسلم أنه روى الحديث عن سبعين سيدة فى عصره ، أما علاء الدين السمرقندى أشهر علماء سمرقند فقد كانت فتواه الدينية تصدر عنه إلى الأمصار النائية ، ومعها توقيعه وتوقيع ابنته العالمة الشهيرة فاطمة العلائية، فلا يستغرب إذن أن يكون الأزهر حافلا بالعالمات الفاضلات ، إنما المستغرب أن يسكت مؤرخوه عن أبناء السيدات من تلميذاته ، ولى أمل أن يقوم بعض أساتذة التاريخ الإسلامى بالأزهر بدراسة مستأنية فى هذا المجال ، وأن يهتم بذلك صديقاى الباحثان الفاضلان الدكتور محمد السعدى فرهود رئيس جامعة الأزهر والدكتور عبد اللطيف خليف نائب رئيس الجامعة ، ليكمل تاريخ هذا المعهد الجليل على وجهه الصحيح .

اكتوبر ١٩٨٥

آدم وحواء

المــرأة ..

فى حياة الرجل المصرى

بقلم : د. سيد عويس

الملاحظ أن الرجل المصرى اذ يعامل المرأة المصرية معاملة قد تبدو سيئة فى ضوء مستويات المعاملة الانسانية الرشيدة ، وتراه فى بعض الاحيان يتغنى بكيدها ، فانه فى الوقت نفسه يعشقها ويدللها ويذوب من أجلها عشقا وصبابة وهياما .

يتغنى فى ذلك بالمواويل والازجال والاشعار ، ويحكى القصص والروايات . ويظهر ذلك فعلا وعملا، وترا يستخدم اشارات اليد والأصابع والوجه للدلالة على ذلك أحيانا. أو يستخدم الكلمات وهو يعاكس أو فى وقت الصفاء أو بعد ذلك أحيانا أخرى :

« كيد النســا كيد لو أبو زيــد يميل منهم

لو عنتر بن شــداد ليشوف العــذاب منهم

لهم فعــل بطـــال زالت الجبـــال منهم



الواحـــدة منهم فى كـــل بلوة تلقـــاها

قـــاعدة تقلب فتن لاجل الخـــراب والشر

وتكـــره الطيبـــة وفى الـــردية تلقـــاها

ومطـــاوعة ابليس على فعل النكـــد والشــــر

وكـــــل يســـــيرة مع المخـــاليق تلقـــاها

هـم النسا على الدوام وجـــودهم أسـاس الشر

والعقل لو غـــــاب يكون الســـــبب منهم !!

و « قاضى الغـــرام فوق جبل عـــالى ينادينى

قال فين مفارق احبـــابه قلت أنـــــا ودينى

قـــال لى تعـــــود للحبـــايب قلت ودينـــى

دول الحبايب العزاز ولا لهمش فى الجمال وصفة

أنا نفسى أزور النبى واقعـــد حـــداه واصفى

ان كـــــان قلبى يبيح لغيـــركم ويصـــفى

أموت كـــافر ولا توفـــاشى على دينـــى »

★ الحب والهوى ★

وفى احدى الدراسات التى قمت باجرائها عن « ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى المعاصر » لاحظت كتابة العديد عن عبارات الاغانى المصرية التى تتضمن معانى عديدة ، ومن هذه المعانى ما يترنم بالحب والهوى : «الحب كده» و«الهوى هوايا» و«أنت الحب» و«أهل الهوى مسـاكين» و«أهل الهوى ياليل» و «جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح» و «زى الهوى يا حبيبى وآه من الهوى» . ومنها ما يترنم بالشكوى والعتاب والخصام والهجر والفراق والسهاد والوحدة وكيد العزال : «أروح لمين ؟» و «بلاش أسية أرحم عنيه» و «اكتر من مرة عاتبتك وادتلك وقت تفكر» و «تفيد بأيه يا ندم وتعمل ايه يا عتاب» و «كلمونى تانى عنك فكرونى» و «قابلته نسيت أنى خـــاصمته» و «هجرتك .. يمكن أنسى هواك ورجع قلبك القـاسى» و «ياهاجرنى» و «لانوم ولا دمع مخلاش الفراق فيه» كان أصلها «لا نوم ولا دمع فى عنية » وما أطال النوم عمرا وما قصر عمرا كان أصلها « فما أطال النوم عمرا ولا قصر فى الاعمار طول السهر » و «من فرحتى لا بنام ولا بصحى» و «سهران لوحدى» و «ودع هواك» و «كايدة العزال» و «كايدة العزال أنا من يومى» و «كايدة العزال يا سكينة ! » . ومن

معانى عبارات هذه الاغانى ، نجــد ما يترنم بالأمل والفرح والغزل والدعابة والتسامح والســلامة : « أمل حياتى ياحب غالى» و«من فرحتى تهت مع الفرحة» و«ابو سمرة السكرة» و«ادلع يا رشيدى على وش الميه» و «يتبص لى كده ليه ؟ » و«على عينى كرملة» و«ماخدش العجوز أنا» و«أنساك ده كلام انساك ياسلام» و« ساعة يا سلامة » .

وقد كتب اخرون على هياكل مركباتهم تعبيرات شعبية تتضمن معانى الغزل المفتوح والغزل المســتور : «آخــر طريقك فين» و«النبى تبسم» و«بطل تقــل بقى» و«قوللى آخر طــريقك فين يا حلو ياللى ماشى» و «وكده شربات» و« منى عينى هو» و«صباح الفل ياعود الفل» و«أوعى الهوى ! » .

وقد لاحظت أنه فى ضوء الدراسة المشار إليها ، وفى ضوء دلالات هذه النتائج أن الكلمات والعبارات المكتوبة على هياكل المركبات موضوع الدراسة ، على الرغم من أن بعضها مكرر ، وأن معانى بعضها متشابهة ، وعلى الرغم من أن أشكالها متعددة – قد اختارها كاتبوها انفسهم بمحض ارادتهم وأصروا على كتابتها على هياكل المركبات التى يستخدمونها على الرغم من عدم موافقة الدولة على هذه الكتابة . وانهم اذ يكتبون ما يكتبون بمحض ارادتهم ، فإنهم فى حقيقة الأمر يحاولون أن يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم أحد ، أى أنهم فى حقيقة الأمر يحاولون بمحض ارادتهم أن يهتفوا . ومعانى الحب والهوى والشكوى والعتاب والخصام والهجر والفراق والسهاد والوحدة والوداع وكيد العزال ، فضلا عن معانى الأمل والفرح والغزل والدعابة والتسامح ، كل هذه المعانى تعكس العديد من العناصر الثقافية غير المادية التى تملأ المناخ الاجتماعى لمجتمعنا المصرى المعاصر .. وهم فى ضوء ظروفهم الثقافية الاجتماعية والاقتصادية قد اختاروا هذه المعانى من هذا المناخ لكى يسمعوا أصواتهم دون أن يراهم أحد ، أى لكى يهتفوا هتاف الصامتين ، واصطنعوا من أجل ذلك ، دون ما وعى ، جهازا اعلاميا شعبيا من أجهزة الاعلام فى مجتمعنا المصرى يتحرك على امتداد مدن هذا المجتمع وقراه ، وهو جهاز اعلامى يدعو فى ضوء طبيعته إلى تثبيت العديد من المعانى السابق ذكرها والتى لا تزال تعيش فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى ، ومنها الحب والهوى على الرغم من أن الحب ، كما يقول المثل الشعبى المصرى « عاوز كلفة علشان تدوم الألفة » .

ومن أزجال « بيرم التونسى » التى شاعت وذاعت ، نجد :

فى كل عام للورد أوان   الا النسوان

بقدرتك نابتين الوان   أبيض وأحمر

وانت اللى تعلم وأنا أجهل   فيه أيه أجمل

من دى الخدود واللى لا تدبل	وتتغير
ودى العيون اللى اشهد لك	بها واسجد لك
دى خلت الطاغى انقادلك	ولا المتكبر
والشفتين اللى فالقهم	كنت خالقهم
للابتسام ولا رازقهم	دانت تحير
العبد يعشق بالقوة	وعشق لجوه
كمان جهنم ؟ ايه هو	محناش معشر
....	....
....	....
يا مسلمين الله يا حريم	أنا مالى غريم
غيركم أروح وياه فى جحيم	يوم المحشر
الدنيا والنسوان وخلاص	والراجل لاص
لا طبلة ينفع ولا بلاص	لو يتكسر

والرجل المصرى منذ الزمان القديم وحتى الآن تجده يفتتن بجسم المرأة أو بعض أجزائه . ففى مجموعة طيبة وهى مكتوبة على بردية هيراطيقية ويرجع أصلها إلى مدينة طيبة عاصمة الدولة الحديثة التى أسستها الأسرة الثامنة عشرة فى عام ١٥٧٠ ق. م. يقول المحب عن حبيبته :

« فريدة حبيبتى فى حسنها
ما مثلها أحد
أجمل من كل النساء هى
مشرقة
أنظر إليها
كالنجمة الألهة
فى مطلع العام السعيد
ساطعة باهرة وضاءة البشرة
جميلة العينين حين تنظر
عذبة الشفة حين تتحدث
كلمة زائدة لا تقولها


بيرم التونسى

طويلة العنق جميلة الثدى
شعرها لا زورد أصيل
ذراعها يفوق الذهب
أصابعها ازهار اللوتس
مشدودة الخصر عند انسياب الردف
تزيد ساقاها من جمالها
تخطو على الأرض فى نبل
أسرت قلبى بعناقها
وأدارت رقاب كل العشاق
مشدوهين بجمالها » .

وقد استمر الاهتمام بالجسم الانسانى أو بعض أجزائه وبخاصة جسم المرأة ، والاهتمام بالدور الذى يلعبه فى مجالى الحب والغزل حتى الآن نجد ذلك فى المواويل الشعبية المصرية التى يتغنى بها الشبان فى القرية المصرية المعاصرة :

« قلبى هـــوى بنت بتبيــع خـــوخ فى ســـبتها
إذا فـــاتت على القـــوم يتسبى القوم بثبـــاتها
لها جوز نهـــود يشبه كما الرمـــان فى ســـبتها
أنا من حبـــى فى البنت فت الاهــل والبلـــدى
أنا تنى ماشى وراء البنت لما خـــار علينا الليـــل
أنا قلت ماطيـــلا يابنــــت بنـــا بلـــدى
قالت ماشية العـــوازل وانا يـــا جـــدع بالليـــل
البنت معهـــا لواحـــظ تشبه لســـلام بلدى
الشـــعر متنـــور يشبه لظـــلام الليـــل
أنا قلت يابنت عندى جوز بنائى بيحوا الطيور بالليل
وقفت البنت يا نـــاس وشـــالت عينهـــا فى
الوجـــه كيف القمـــر والجســـم كالليلـــة
حـــرة نقيـــة لكن الانـــدال ســـبتها »

فبراير ١٩٨٧

أسرار الحريم في الشرق

بقلم : مصطفى نبيل

الحريم هي الكلمة السحرية التي يرددها الغرب لكي ينال من صورة الشرق وسمعته . عندما يقدم عالما مثيرا محاطا بالغموض والتشويق . عالما مليئا بالغرائز والمتعة الحسية . وباعتباره نقطة الضعف في الشرق ومعيار تخلفه ، وموضوع الحريم هو مدخلهم لدراسة وضع المرأة الشرقية في الماضي والحاضر .

وسرعان ما يتبين لأي باحث منصف ، ان عليه ألا يغفل وهو يعالج كل مظاهر الحياة في القرون الوسطى ، مقارنة حياة المرأة في الشرق بوضعها في الغرب . وعندها سيجد ان الغرب لم يكن يفرق بين الحرائر والجواري . ولا يعتبر المرأة ككائن بشري تتمتع بأي حقوق ويعاملها كناقصة الأهلية !!

وفي هذا المقال ننتقل من الديالوج اي الحوار مع الغير ، الى المونولوج اي الحوار مع الذات ، حتى نتعرف على عالم الحريم في الشرق وحتى نتخلص مما ترسب في وجدان الرجل الشرقي من بقايا هذا العصر ، ولكي نتخلص مما تبقى من قيود لانطلاقنا نحو آفاق المستقبل .



يزخر التراث العربى بحكايات الجوارى والحريم ، وتحفل المكتبة الغربية بكتب تقدم عالم الحريم السحرى ، وتسجل الكاميرا بقايا هذا النظام الذى ادركته قبل ان يندثر ، كما تحفل هذه الكتب بلوحات فنية رسمها كبار الرسامين ، وابرز هذه الكتب اطلق عليه HARIM الحريم ويضم هذا الكتاب ما تبقى من الصور واللوحات ، وقد أعدته سيدتان إحداهما شرقية والاخرى غربية والشرقية هى نادية النازى من المغرب ، والاخرى إيطالية هى انابيل ديوارت .

ويحفل الشرق بصور الحريم ، كنظام اجتماعى يفصل عالم الرجال عن عالم النساء ، وتتوالى مشاهده فى الدولة الاموية ثم الدولة العباسية وفى مصر الفاطمية والمملوكية ، ولكنه تبلور وشهد أوجه فى الدولة العثمانية .

روكسلانة

لا تصدقوا الغرب عندما يتحدث عن الحريم ، فالمرأة هى المرأة دائما ، تستطيع بأنوثتها وجمالها ورقتها ان تحطم كل القيود . وتقفز على كل النظم، بل وتصل بنفوذها الى عزل واختيار السلاطين .

وقصة روكسلانة التى بدأت كواحدة من حريم السلطان ، خير شاهد على مدى سيطرة المرأة حتى لو كانت داخل قفص من ذهب . لقد نقل قصتها القناصل وسجلتها كتب التاريخ .

فرغم القيود الرهيبة التى فرضت على الحريم، وبرغم النظام القاسى الذى خضعت له ظهرت فى تاريخ الدولة العثمانية تأثيرات سياسية كبيرة لبعض ساكنات « الحرملك » واكثر القصص اثارة هى قصة غرام السلطان سليمان القانونى ، اقوى سلاطين الدولة العثمانية ، وروكسلانة التى تعنى باللغة التركية « الروسية » فقد اختطف النخاسون روكسلانة من وسط أهلها فى بلاد القوقاز ، وكانت ابنة احد رجال الدين ، ولم ترض بحياتها فى القصر كمجرد جارية ، وهى التى حباها الله - علاوة على الطموح والذكاء - الجمال والرقة وخفة الروح ، ورهافة الشعور، وكانت ذات دلال واغراء ، وكان لاغرائها تأثير مدمر على مصالح الدولة فقد هام بحبها السلطان ، وخضع لها ، فاستمدت قوتها وسيطرتها من ضعفه ، ووصل السلطان الى الشيخوخة فسيطرت على قلبه وعقله ، وهو يسعى معها الى استعادة ايام الشباب وعنفوان الصبا ، فبلغ نفوذها الذرى ، ووجهت البلاد على النحو الذى تريده ، كل ذلك من مقصورتها ، التى اطلق عليها اسم « القفص » ومحرم عليها الاتصال بالعالم الخارجى وعندما انجبت له البنين والاناث اعتقها واصبحت كلمتها هى الأولى فى شئون الدولة ، بعد ان احتجب السلطان لديها فلم يعد يطيق بعدها ، وحتى تخلى عن احد تقاليد السلاطين فى قيادة الجيش ، وادركت الدول الاوربية نفوذها ، وعندما رأت الخيوط السياسية تتجمع بين أناملها ، وتجاوزت كل النظم الموضوعة، أخذت تسعى الى ان يصبح ابنها سليم وليا للعهد بدلا من مصطفى الابن الأكبر للسلطان من زوجة اخرى ، وعملت على افساد العلاقة بين السلطان وام مصطفى ، وتحرشت بغريمتها وتشابكت معها

بالايدى وتركت غريمتها تكيل لها اللكمات وتنزع بعض خصلات شعرها التى يهيم بها السلطان ، وظهرت الخدوش على وجهها الباسم الجميل . وكان ما حدث الخطوة الأولى من خطة اعدت لها باحكام واحتجبت وامتنعت عن السلطان وهى تدرك اثر هذا الاحتجاب وكلما أرسل فى طلبها، قالت « انها ليست جديرة بالمثول بين يديه ، فهى مجرد لحم يباع ويشترى » وهى العبارة التى وجهتها إليها غريمتها ، وبعد تمنع جاءت الى السلطان على استحياء وخفر ، وعيناها الجميلتان تمتلئان بالدموع ، وروت له سبب تأخرها ، فجن جنون السلطان ونقل الامير مصطفى ولى العهد بعيدا عن العاصمة ، وحاكما على اماسيا وتتابعت الخطة ، فسعت الى عزل الصدر الاعظم ، لما له من تأثير على السلطان ، فهو زوج شقيقته ، وله حظ كبير من العلم والثقافة والنفوذ ، ويقف حجر عثرة أمام أهدافها ، فعزل الصدر الأعظم بل وامر السلطان باغتياله وهو يدخل القصر استجابة لدعوة على العشاء على مائدة السلطان ، ثم وقع اختيارها على احد الباشوات هو رستم باشا ليكون عونا لها فزوجته « محرمة » إحدى بناتها الجميلات ، تمهيدا لاختياره صدرا اعظم ، وضربت ضربتها بعد ان أحكمت خطتها ، وادعت ان مصطفى يطالب بتنحية والده الطاعن فى السن عن العرش ، فلم يعد يقود الجيوش ويخوض المعارك القائمة بين الدولة العثمانية ، والدولة الصفوية ، عام ١٥٤٨ ، بل وقيل ان هذه الحرب كانت بتدبير روكسلانة ، وانها كانت تتبادل الرسائل السرية مع الشاه .

وسرعان ما تخلص سليمان القانونى من ابنه وولي عهده بقتله ، وتم ذلك بفتوى مزيفة من شيخ الاسلام ابى سعود ، فقد حصل السلطان على الفتوى بان سأله على النحو التالي :

غاب تاجر ثرى عن العاصمة ، وعهد الى عبده الاشراف على أعماله ، ولم يكد التاجر يسافر حتى سعى العبد لسرقة اموال سيده ، وتدمير تجارته وتآمر على حياة زوجته وأولاده ، فما هى العقوبة التى يستحقها هذا العبد ؟ فاجاب شيخ الاسلام ، انه يستحق الاعدام ، فأعدم السلطان ولده عندما دخل على ابيه فى خيمته فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه امام السلطان الذى اعماه الحب عن عاطفة الابوة .

وقد روى هذه القصة السفير الفرنسى فى اسطنبول ، وعلق عليها المؤرخ الأمريكى ليبير LYBYER بقوله : ان هذه الفتوى جعلت السلطان يزداد تصميما على قتل ابنه ، قياسا على ان خيانة الابن لابيه لا تقل عن خيانة العبد لسيده .

واشعلت هذه الحادثة الحرب الأهلية فى الدولة العثمانية عندما رفض الانكشارية سليم ابن روكسلانه كولى للعهد ، وانقسمت البلاد بين مؤيدين لسليم ، ومؤيدين لأخيه ابى اليزيد .

وتوفيت روكسلانة قبل نهاية الحرب وقبل اطمئنانها على تحقيق هدفها ، حزن عليها السلطان ، وتقرب لذكراها عندما سار على رأس جيشه ، وهو فى شيخوخته لمحاربة ابنه ابى اليزيد

وهزمه عام ١٥٥٩ وذبحه هو واولاده الخمسة ، وتحقق هدفها بعد وفاتها وتولى السلطان سليم عرش أبيه ، واطلق عليه الاهالى سليم السكير وسليم الروسى نسبة الى امه الروسية .

أربع نساء

ولم تكن روكسلانة وحدها صاحبة النفوذ المدمر والتى دبرت وخرجت من الحريم ، فيذكر المؤرخون ان الدولة قامت فى عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) على اربع دعائم كلهن من النساء ، وهن والدة السلطان اى « سلطانة والده » واسمها نور بانو اى سيدة النور ، والتى تمتعت بنفوذ لايقل عن معاصرتها كاترين دى موتشى ملكة فرنسا الوالدة ، والدعامة الثانية هى صفية زوجة للسلطان ، التى لا يزال فى القاهرة مسجد يحمل اسمها ، وكانت تنتمى الى اسرة نبيلة من فينسيا « البندقية » وكان والدها حاكما على جزيرة كورفو ، وخطفها القراصنة ، عندما كان عمرها اربعة عشر ربيعا ، ودخلت الحريم كجارية وانتهت زوجة السلطان وام اولاده ، ولم تنس يوماً عائلتها ولا اصلها فعملت على التأثير على السياسة الخارجية للدولة على نحو يخدم مصالح البندقية ، أما الثالثة فعصمت أخت السلطان مراد وزوجة الصدر الاعظم والأخيرة سيدة عجوز تسمى جانفيد خاتون ، وهى المسئولة عن الحريم ، معظم الليالى للسلطان وتوفر له اسباب المتعة ، وقيل ايامها ان مشتريات القصر من الجوارى زادت زيادة لم تحدث من قبل .

وعندما نشب الصراع بين والدة السلطان وزوجته صفية ، احاطت الام ابنها بعدد من الجوارى الفاتنات ، لعله ينصرف عن صفية وهو الشغوف بالنساء والجمال والمتعة ، وتستأثر هى بالنفوذ وينصرف السلطان للهوه ومتعته ، وتحفل أوراق السفراء بتفاصيل هذا الصراع فيكتب دى جير مينى السفير الفرنسى مذكرة لحكومته .. « ان الحريم يقمن بدور كبير ، فى حكم الدولة ، تقودهم السلطانة الوالدة ، وهى تسيطر على الباشوات وتضفى عليهم العديد من مظاهر الرعاية » ويعلق الفريد دامبو أحد المؤرخين الفرنسيين ، ان السلطان مراد يعتبر من السلاطين التنابلة ، ويأتى ترتيبه الثانى بعد والده السلطان سليم الثانى .

ولم ينته نفوذ صفية عند موت السلطان فقد ارتقى العرش محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) وهو احد اولادها ، واطلق عليه الاهالى السلطان نصف البندقى ، واصدرت صفية بدورها اوامرها بتقديم الجوارى الفاتنات لابنها السلطان . وتقوم هى بتصريف شئون الدولة بينما ينصرف الابن للفاتنات ، وعند وفاة السلطان ، قام السلطان الجديد بتجريد جدته العجوز صفية من كل نفوذها وامر بحبسها ومنع الاتصال بها .

يلاحظ ان التغريب تم من خلال الحريم ، فالسلطانة مرة يونانية ومرة ايطالية وثالثة روسية .

وكثيراً ما ينشب الصراع بين اليونانية والروسية على التأثير على الدولة العثمانية .

وجميع السلاطين الذين حكموا بعد محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ، تركوا الزواج من الحرائر ،

الجريات في البيوت العثمانية القديمة

جاريات معاصرات في بلاط الملك فاروق

وانصرفوا الى الجوارى اللائى يمتلىء بهن القصر وتزوج عدد من السلاطين من الأجنبيات ، فكان الحريم السلطانى يضم غالبا زوجة أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات ، ويدأ الزواج من الأجنبيات منذ عهد عثمان الأول (١٢٩٩ — ١٣٢٦) ، واختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا ، ورشح سيدة يونانية رائعة الجمال زوجة لابنه اورخان وكان يطلق عليها زهرة اللوتس ، ومن وقتها وهناك تقليد للأبناء والأحفاد وهو الزواج من الأجنبيات ، وأنجب السلطان أورخان من زهرة اللوتس أبنا تولى العرش وهو السلطان مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) ، وتزوج مثل أبيه وجده من ابنة ملك بلغاريا بعد حصاره فى نيقوبوليس على نهر الدانوب ، فوافق على ان يزوج ابنته للسلطان مراد ويدفع الجزية ، وعندما تولى العرش أبو يزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) ، أراد أن يتقرب من دولة الغرب ، فتزوج من أوليفيرا ابنة لازار ملك الصرب وصار على ذات الدرب مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) فتزوج من مارا ابنة أمير الصرب جورج برانكوفتش ، واستمر الحال على هذا النحو ، وهناك مثل آخر صارخ ، عندما تزوج السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) من سيدة يونانية ، وأنجبت منه ولدين تربعا على العرش الواحد بعد الآخر ، وهما مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وابراهيم الأول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) .

وهذه الحكايات الواقعة التى سجلها المؤرخون داعبت فى نفس الوقت خيال الكتاب والفنانين ، وبدا لهم عالم الحريم كأنه سر الأسرار ، ورويت الاساطير عن السلاطين الكبار ، الذين غرقوا حتى آذانهم فى قصص حب الجوارى الحسان ، أو كما قالت شهر زاد فى الف ليلة وليلة. « الا تعرف يا مولاى ان السلاطين والملوك والامراء هم عبيد النساء المليحات التى ترى فيهم مجرد ادوات لتحقيق طموحهن ، وكم عدد العشاق الذين احنوا هاماتهم من تأثير سحر النساء ؟ وكم عدد العشاق الذين تخلوا عن ثرواتهم واوطانهم وابائهم وامهاتهم من اجل لحظ امرأة ، وكم ممالك ضاعت من اجل امرأة ، فالجنس الناعم اللطيف سيطر دائما على القصور ، ومن اجل الجميلات طرزت أحلى المنسوجات وعزفت اجمل الالحان ، ومن أجلهن جاب الرجال العالم يبحثون عن العنبر والمسك ، فالنساء سر الجمال فى الحياة ، يملأن العالم بالبهجة والمتعة » .

مصدر الحريم

الجارية ، هى كل امرأة أخذت اسيرة فى الحرب ، او نقلت غصبا ، من بلاد الاعداء ، ولا يجوز ان تسبى المسلمة او تسترق ، كما ان الجارية هى التى تنجبها امة ، او تشترى من الاسواق ، واشتدت ظاهرة الجوارى بروزا فى عهد الدولة العباسية ، وبعد توقف الحروب اتجه الراغبون فى الحصول على الجوارى عن طريق الشراء ، وقد حفلت حياتهن بالترف ، يرتدين الشفيف من الملابس ، ويتفنن فى الزينة ، وفى تعطير اجسامهن ، وابراز محاسنها ، ويتناولن اشهى الاطعمة ويتمتعن بقدر كبير من الاعزاز

والاكرام ، ومن اجلهن اهدرت الأموال وقيل عنهن « سلع الجمال والمتعة » وكان عدد الجوارى يفوق الحرائر فى القصور ، ووصلت الجوارى الى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والقادة ومنازل الاثرياء ويقدم الجوارى الوانا مختلفة من الفنون وتنحصر مهمتهم فى بعث البهجة فى قلوب اصحابهن بما يتقنه من الرقص والغناء ، وسعى بعض الخلفاء الامويين وخاصة معاوية إلى إقصاء الجوارى عن النفوذ وحصرهن فى الخدور .

بينما كان الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك هو اول من ابتكر نظام عزل النساء فى مكان خاص سرعان ما تسللت الجوارى الى نسيج المجتمع الشرقى ، واعتقد البعض ان زواجهم من الجوارى يؤدى الى انجاب اولاد اشداء اقوياء وظهور اجيال صاعدة واخذ نفوذ الجوارى يزيد فى بلاط الخلفاء ، واخذ الخلفاء يستجيبون لرغباتهن واصبحن مركز قوة ، وكان هارون الرشيد اول من اسرف من العباسيين فى تقريب الجوارى اليه ، واسهمت الجوارى فى مؤامرات البلاط التى تحاك لخلع خليفة وتعيين اخر .

جـــوارى السلطان

كان يتدفق على قـــصر السلطان العثمـــانى أجمل الجوارى الحسان ، ويحصلون عليهم من مصادر ثلاثة ، شرائهن من السوق وكان أمين جمرك العاصمة يأخذ حاجة القصر السلطانى من الفتيات التى تتراوح اعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة ، واسيرات الحروب ، والمصدر الثالث الهدايا التى يتلقاها السلطان ولم تكن هذه الهدايا سوى جوارٍ اية فى الجمال يقدمهن كبار موظفى الدولة ، او حكام بعض الدول الأوربية بعد ان يحضرن دراسات تكسبهن مهارات شتى .

ويأخذ السلطان حاجته من اولئك الفتيات ليكون لديه رصيد نسائى كبير ، ولكى يشبعن كل الأذواق والفنون ، ويصبحن ملك يمين السلطان ويعشن عيشة رغدة ، وينتظرهن مستقبل هانىء .

إعــداد الحريم

بعد التحاق الجوارى بالقصر تعد لهم دراسات فى الثقافة والسلوك وفى اللغات ، واذا كان لدى الجارية استعداد عقلى اضيفت دراسات خاصة ، ثم دراسات اخرى فى التاريخ والجغرافيا ، والبعض الاخر من ذوى الاستعداد يدرس الموسيقى والغناء والرقص ، وكانت الجوارى تنتظمن فى مجموعات ، قوام كل مجموعة عشر جوار ، وتشرف رئيسة على كل مجموعة . ومع مضى الايام تزداد الجارية جمالا فى الخلق ، ورشاقة فى الجسم ، وعمقا فى الثقافة وأدبا فى الحديث ورهافة الحس ، وكان لابد ان يتحدد مستقبلها عند سن الخامسة والعشرين فيعتقها السلطان ، ويأذن لها كسيدة حرة فى الزواج من احد كبار العسكريين أو المدنيين وكان السلطان هو الذى يختار لها الزوج . وقد تجذب الجارية انتباه السلطان ويعتقها وتنجب منه ولدا او بنتا وتصبح اما لاولاده فيعلو مركزها ، فالحريم السلطانى تعنى مدرسة لاعداد الجاريات ، وزوجات كبار قادة الدولة .



وقد كان هذا النظام قائما فى مصر حتى عصر الخديو اسماعيل ورأينا ان سبعة من قادة الثورة العرابية ، كانت زوجاتهم من حريم الخديو اسماعيل .

العصر المملوكى

وانتعش نظام الجوارى فى العصر المملوكى فى مصر ، فنظام الحكم قائم على الرق ، وشغف الناس باقتناء الجوارى ودفع الاموال الطائلة ثمنا لهن ، فوصل عدد جوارى الظاهر - بيبرس الى مائتى جارية - ابن اياس - وبلغ عدد جوارى الناصر بن قلاوون اكثر من الف ومائتى جارية وهو الذى بنى لهن القاعات السبع التى تشرف على ميدان القلعة ، اما برسباى سنة ٨٤٥ هـ فكان لديه أقل من مائتى جارية .

والذى يحسن قراءة هذا العصر يلاحظ ان الجارية او العبد كان يعتبر احد افراد العائلة ، تحدد الشريعة حقوقه وواجباته ، وسبق المماليك العثمانيين فى زواج سلاطين المماليك للجوارى وكانت الزوجة الأثيرة لدى السلطان الناصر بن قلاوون هى طغاى الجارية ، ويروى ابن تغر بردى فى حوادث سنة ٨٧٠ هـ ايام السلطان خشقدم الذى تزوج جاريته سورجاى الشركسية ، وجعلها خون الكبرى صاحبة القاعة .

ويبين مكانة الجارية المقريزى بقوله عند حديثه عن أحد حمامات القاهرة « فى هذا الحمام حصة وقفها الشيخ الضرير برهان الدين على امته » كذلك ما تشير اليه بعض وثائق الوقف من حرص السلاطين وكبار القادة على توفير مورد ثابت للرزق لجواريهم عقب وفاتهم ، مثل ما جاء فى وصية إحدى السيدات لزوجها وهى على فراش الموت ، تقول : « ان جاريتى قامت برعايتى فى مرضى كما لو كانت اكثر من امى او اختى ، وأرجوك الا تبيعها او ان يشتريها احد والا تهان فى اى صورة » .

يهود الأندلس

ويذكر المسعودى فى مروج الذهب ان الدولة العباسية اعتمدت على النخاسين الجوابين فى أطراف المعمورة لشراء الجوارى وكان يهود الاندلس يتوغلون فى مجاهل اوربا ويتنقلون الى روسيا ، ويحملون منهم هناك جماعات من الجوارى السلافيات والجرمانيات اللائى عرفن فى بلاد العرب باسم الصقلبيات وقد صادفن سوقا رائجة لبياض بشرتهن ، وطول أجسامهن وبما تحلين به من الجمال ، فترفن فى معيشتهن ، وتوغل بعض النخاسين فى بادية تركستان واشتروا هناك الفتيات من ابائهن ونقلوهن الى سمرقند حيث عنوا بشئونهن وهذبوهن وكان بعض العمال يجعلون فى خراج الاقطاع جماعات من السبايا ، يوجهونهن الى الخليفة ، منهم ابن طاهر الذى اهدى إلى الخليفة المتوكل هدية فيها مائتا وصيفة ووصيفة .

ومن أجل الجوارى غالى البزازون والعطارون فى أسعار سلعهم ، وحيكت المؤامرات ، وتدله بهن العمال والأمراء والقواد والخلفاء ، وتفنن النخاسون فى تزيينهن وتعطيرهن لما يحصل من ورائهن من مال ، حتى وصل عددهن فى العصر العباسى ما

يفوق كثرة الحرائر ، أو كما يقول الجاحظ بمنزلة الشام والتفاح الذى يتناقله القوم بينهم ، وقد أحصى عدد الرقيق فى قصر الخليفة فإذا به يزيد عن الف ، ويذكر المسعودى أنه كان للمتوكل إثنا عشر الف سرية ، وعندما انتصر صلاح الدين الايوبى على الفاطميين وجد فى قصورهم اثنى عشر الف نسمة كلهم من النساء ، ليس فيهم من الذكور سوى الخليفة وأبنائه ، حتى قال ابن حزم : « لم يل الخلافة فى الصدر الأول من أمة أمة حاشا يزيد وابراهيم ابنى الوليد ، ولا وليها من بنى أمية بالاندلس من أمة حرة أصلاً »

ومن أغرب ما نقرأه عن هذه العصور أن من مميزات الحرائر الكاملات الصفات إهدائهن أزواجهن الجوارى المليحات من مالهن الخاص ، وروى عبد الرحمن الجبرتى عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت لصلاحها وبرها بزوجها ، تشترى له الجوارى من مالها وتحليهن بالذهب والثياب وتقدمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب .

وكلما زادت الجوارى خلاعة ، وتعلمن الفن والغناء وتطيبن وتزين ، ازدادت الحرائر تحفظا لكى يتميزن عن الجوارى .

فى العصر العثمانى

تأخذ الدولة الاسلامية فى العصر العثمانى صورة جديدة مع وصول الاسلام حتى قلب اوروبا ، وبانتقال مركز الحكم إلى تركيا ، ويعتبر البعض هذا العصر ، العصر الذهبى لنظام الحريم ، بعد أن أصبح له قواعد ممكنة ودقيقة ، وله تقاليد كثيرة ومعقدة ، فقد وقع تطور هذا النظام فى ضوء تأثير العادات التركية القديمة ، حتى وصل حريم السلطان إلى عدة مئات ، وكان حريم السلطان اللائى وصلن إلى عدة مئات ، لايخرجن من القصر، سوى مرة واحدة فى فصل الربيع فى معسكر يقام خارج المدينة ، يصلون اليه فى موكب كبير ومهيب وفى احتفال يحرص الجميع على مشاهدته ، عندما يخرج من القصر ويعبر المدينة ويسير أمامه عدد من الرجال الأقوياء .. يطلق عليه باللغة التركية «بلطجى» ، والذى يحمل عصاه لكى يفرق الناس ويوسع الطريق لموكب الحريم ، بل ويمنعهم من إطالة النظر فى حريم السلطان !

أخذ سلاطين آل عثمان بنظام الحريم فى قصورهم ، وكانت أسرة السلطان هى مركز الدائرة والحكم بالنسبة إلى جميع الهيئات والطوائف التى تعمل فى منطقة الحريم ، وكانت تخصص عدة أجنحة فى القصر لسكنى والدة السلطان إذا كانت على قيد الحياة ، ومعها زوجات السلطان ، ثم بنات السلطان وأولاده الصغار ، ثم الجوارى اللاتى يعشن فى القصر ويشغل بعضهن عددا من الوظائف فى القصر ، يضاف إلى الجوارى فئتان كثيرتا العدد من الخصيان البيض والخصيان السود ، وعليهم رؤساء أو أغوات الخصيان ، ويوكل اليهم حراسة الحرملك وخدمة ساكناته ، وأجنحة الحريم هذه كانت عبارة عن مبان مستقلة فى عمارة فخمة بها العديد من الحجرات والقاعات المزخرفة ، ويطلق على كل مبنى « دائرة » وكثيرا ما تخصص دائرة لكل سيدة من أم أو زوجات أو بنات السلطان ..

ويعيش الحريم السلطانى وراء الاسوار العالية بعيدا فى عالم السحر والخيال ، ويذكر المؤرخ دوسو أنه واجه مصاعب كبيرة فى الوقوف على تفاصيل حياة الحريم ، وأنه اتصل بعدد من زوجات السلاطين اللاتى غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن وكل من كانت لها صلة بالحريم وقدم الهدايا خلال اقامته فى اسطنبول ما بين عامى ١٧٨٨ - ١٨١٨ ، وأن هذا الجانب من بحثه ، استغرق جهدا طويلا وحصيلة ضئيلة ..

تحاط منطقة الحريم بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، يصل إليها ممر طويل به أربعة أبواب اثنان من الحديد وبابان من البرونز ، يحتفظ بمفاتيح هذه الابواب ليلا ونهارا الخصيان السود ، وتعد منطقة الحريم منطقة مغلقة ومحرمة لا يسمح لاحد بدخولها أو الأقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا لرجل واحد هو السلطان . والخصيان وحدهم الذين استؤصل من أجسامهم أعضاء التناسل يقومون على خدمتهم ، وبذلك يطمئن السلطان من أى شبهة خطر ، وحدث فى عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) أن تجرأ مواطن من البندقية وحاول أن يرى الحريم من خلال نظارة مقربة ، فأمر السلطان بشنقه ، ودفع حياته ثمنا لفضوله ، وكرر المحاولة أرمنى كان يعمل مترجما للسفير الفرنسى فأسرعت السلطات العثمانية بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسى ..

ويلاحظ أن عزلة النساء هى إحدى التقاليد الشرقية ، وتأكدت فى الدولة العثمانية ، ولم يكن يسمح لأية سيدة من زوجات السلطان حتى الخادمات بالخروج من القصر إلا فى حالات نادرة حين يصحبها السلطان لزيارة أحد القصور الصيفية ، وإذا ارادت ساكنات الحريم التنزه فى حدائق القصر ، كان عليها أن تحصل على إذن السلطان ، وعندما تتخذ سلطات القصر احتياطات لمنع أى شخص من النظر اليها ، وأصبحت كلمة الحريم تعنى الممنوع والمقدس .

القفز على الأشواك ..

عن الحب

بقلم : د. شكرى محمد عياد

لنتحدث هذه المرة عن الحب !

الحب بمعناه الشائع . الحب الذى يكون بين الرجل والمرأة .

فالصوفية يتحدثون عن الحب الالهى . والسياسيون يتحدثون عن الحب الذى هو ضد الحقد . وقد طلع علينا بعض الكتاب السياسيين - فى وقت من الأوقات - ببدعة ما عرفنا لها مثيلا فى شرق ولا غرب ، فى شمال ولا جنوب ، فى ماض ولا حاضر . فكانوا يذيلون مقالاتهم السياسية بفقرة غزل ، وكان بعض القراء يعزون هذه الفقرة الوردية الى خرف الشيخوخة ، ولكن القراء الأكثر حصافة كانوا يعزونها الى توجيه سياسى ، وبما أن كل شىء من أجل المعركة فلماذا لا يكون الحب أيضا ؟... وما أظرفها معركة حين يكون الحب أحد طرفيها والحقد هو الطرف الآخر !

أليس من الطبيعى أن يصبح الحب حاقدا حتى يستطيع أن يقاتل الحقد ؟ وهكذا تعلمنا وقتها أن « الحب » يمكن أن يكشر عن أنيابه ، وأن يزج بالناس فى المعتقلات ، وأن يتوعد بالويل والثبور وعظائم الأمور . وقال لنا الخبراء ببواطن النفوس إن بين الحب والكره علاقة « حميمة » وأن الأمثال الشعبية – كعادتها – لم تخطىء حين قالت إنه « ما محبة إلا بعد عداوة » ، ولا حين قالت إن « القط يحب خنّاقه » ولا إن الانسان العاقل يجب عليه أن يقبل اليد التى لا يقدر أن يعضها .

وإذن فليس هناك ما يدعو الى الانزعاج اذا تنمر الحب ، وتطامن الحقد مراعاة للظروف ، مادامت اللعبة مفهومة ، وتبادل الأدوار فى الحب والكره يجرى بانسجام وتناغم بين الطرفين الحبيبين العدوين . ولكن المصائب كلها يمكن أن تقع إذا اختل التوازن ، ورفض الطرف المظلوم أن يتلقى

صولة الحبيب الظالم بالخضوع والشكر ، كما قال جميل بثينة :

خليلي فيما عشتما هل رأيتما

قتيلا بكى من حب قاتله مثلي ؟

وهنا يمكن أن يكفهر الجو فجأة ، ويحدث القتل الفعلي كما هو معروف .

والكلام طبعا عن الحب بين الرجل والمرأة ! إلا أن الناس الذين خلطوا الحب بالسياسة أوقعونا في هذا اللبس غير المقصود . وكنا نسمع قديما أن السياسة مبنية على المصالح ، وأن الحب مبنى على ... على ماذا ؟ لا أحد يدرى ، فروعة الحب أنه مجهول الأسباب ، أو هكذا كان إلى وقت غير بعيد ، ثم كانت نتيجة خلط الأوراق بين الحب والسياسة أن أصبحت السياسة معرضا مفزعا لكل درجات الانحراف السادي – المازوكي ، وأصبح الحب – أو ما كان يعرف قديما باسم الحب – مبنيا على المصالح .

وقد وضع أفلاطون على لسان سقراط في « المأدبة » وصفا طريفا للحب ، على طريقة اليونان القدماء في تشخيص المعاني : أن الحب روح صعلوك متشرد ، يسير حافيا ، وينام على الأرض أو في مداخل البيوت ، ولكنه شجاع وشهم وواسع الحيلة ، وقد كان من حسن حظه أو سوئه أنه ولد مع الجمال في يوم واحد ، فهو موكل بالجمال يتبعه ويخدمه ، ويحاول كلما استطاع أن يستولى عليه ويتملكه . وما أحرى هذا الوصف أن ينطبق على الحب في أيامنا ، إلا أن الحب لم يعد ذلك الماكر الظريف بل أصبح خشنا جافيا معتديا ، فقد راح يبحث عن أخيه الجمال فلا يجده في أى مكان ، فاذا صعد الى مبنى التليفزيون رأى « دُمَى » تبتسم بلا روح ، واذا هبط الى فناء الجامعة رأى خياما سوداً تمشي على قدمين ، واذا ذهب الى أحد الشواطىء لم تقع عيناه إلا على ثدى مهدلة ، وكروش مدلاة ، فينكفىء حزينا يغمغم بقول العقاد رحمه الله :

دعتك العرائس في بحـــرها

ففيم الوقوف على الساحل ؟

إلى الماء ! لا بل الى السابحين

(م) لا بل إلى الغرق العـــاجل

فليس على البحـــر إلا غـريق

وإن لم يكن فيـــه بالنـــازل

ســواحره احتشدت كلهـــا

علينا فيــا ويح للغـــافل !

وياطالما عاش الصبي مرحا على هذه الشواطىء نفسها في الزمن الغابر ، فخدع الغافلين أمثالنا ولا حظّ لنا من كل ذلك الجمال المحتشد الا النظر ، ولكن أين تنظر ؟ هنا أو هنا أو هنا ؟ ويلعب « الحب » لعبته فاذا الشاب منا لا يفتن بجميلة بعينها بل يسحر بالجمال كله ، وانى لأعلم أن الكثيرين منا ربما ذهبوا بعد ذلك الى دور الريبة (وكان البغاء العلنى قائما) فقر هلعا من مناظر الساقطات .

فلا تلوموا ذلك الروح الماكر الظريف اذا انقلب شيطانا مريدا . لا تلوموه اذا شمر عن ساعديه وحشد البنين والبنات في مراقص « الديسكو » ولا تلوموه اذا شمر عن ساعديه مرة أخرى وبعث عصبة من الشباب المتحمسين بالعصى و « الجنازير » ليهدموا « الديسكو » على من فيه فأخطأوه ودخلوا مسرحا . لا تلوموا « الحب » اذا اقترف كل الشناعات في الخفاء ، مادامت أبواب العمل

المشروع قد سدت في وجهه ، حتى حرم الحب الهادىء – البيت – لم يعد له مكان فيه !

ومعلوم أن الحب طائر نزق ، يسأم التكرار وتقتله العادة ، وتستهويه المغامرة ، ويلذ له أن ينصب حبائله للغافلين لهذا لا يطمع أحد الزوجين أن تدوم لهما نشوة الحب أكثر من بضعة أشهر وأحيانا بضعة أسابيع أو أيام . إلا أن للحب الزوجي أعوانا يخلفونه إذا غاب ، ويلتفون حوله ويسعون بين يديه اذا نزل : أعوانا نسميهم العشرة، والوفاء ، والمودة ، والحنان ، ولا سيما اذا أثمر الحب صغارا يؤرخ الزوجان حبهما بأعمارهم ، ويحلمان بالمستقبل في عيونهم ولكن هؤلاء الأعوان لا يألفون سوى البيت المستقر ، وليس لهم حكم على سيدهم ، فهو يغيب اذا شاء ويحضر أنى شاء ، أما على الزوجين الحبيبين فحكمهم نافذ وكلمتهم قانون: فهم لا يقبلون من أحد الزوجين أن يختفي شهورا بمحض ارادته ، تلك عندهم كبيرة الكبائر ، فما بالك اذا كان الاختفاء لسبب تافه ، كأن يشتري ثلاجة أو فيديو أو يضع جهاز تكييف في غرفة النوم؟ فالحب وأعوانه معه لا يكرهون شيئا كما يكرهون هذه الأشياء . وقد علمت أن الحب صعلوك ليس له هو شخصيا بيت ينام فيه . وهو يعرف بالطبع أن هذه حالة لا يمكن أن يصبر عليها أحد من البشر ، لأنه روح هائمة ، وهم أجساد لابد أن تشغل حيزا من المكان ، ولذلك يبارك البيت الصغير الذي يسكن فيه الزوجان الحبيبان . وهو بطبيعته يكره المادة ، ولكنه يعلم أن البشر مخلوقون من طين، فهو يغمض عينيه خجلا كلما غلبتهما جبلّة الطين حتى يفيقا ، وعندئذ يتنهد ويضع على جبين كل منهما قبلة ، فقد تخففا من ثقل الجسد ، وعاد الى روحيهما الصفاء ولكنه اذا رأى الطين يبسط سلطانه على الروح ويسخرها لخدمته : مرة ملابس غالية يستتر بها قبحه ، ومرة أصباغ ودهانات يغير بها شخصيته ، ومرة أجهزة تقيه الحر والبرد والرطوبة كي لا يتلف ، ومرة أجهزة أخرى تخدر الروح لتظل مطيعة لأوامره – فهنا ينقض الحب ذراعيه وربما رحل الى الأبد . وماله يبقى في بيت لا تنتهي له مطالب ، ولا تهدأ له ضجة، ولا يعرف الواحد ممن فيه غير شهوة نفسه، ولا يشعر بوجود الآخرين إلا حيث يحتاج اليهم لقضاء بعض مآربه ؟ وماله يبقى في بيت لم يعد يرى فيه أبا يضع ابنه في حجره ويقص عليه حكاية ، ولا أخا يجلس مع أخيه ويعلمه لعبة ، ولا بنتا تغني لعروستها ، ولا زوجة تحادث زوجها في غير هموم البيت ؟ وهم على ذلك قد ملأوا جوانب المنزل بأشياء ، لا لزوم لها ! كراسيّ لا يجلس عليها أحد ، ودواليب مملوءة بأوان وملابس والحقة لم تعد تستعمل ، فاذا بحث الواحد منهم عن شيء يطلبه في هذا الركام لم يجده . والأدهى تلك « التحف » التي حصلوا عليها لا أدري من أين ، وزينوا بها الأركان والجدران مع أن منظرها يؤذي العين ويملأ النفس كآبة ، لا سيما والغبار يعلوها ويلتصق بها حتى يصبح جزءا منها . فماذا يصنع الحب في منزل كهذا وهو يكاد يعثر في كل خطوة ، مع أنه يسير على قدم كما هو معلوم ؟ يذهب الحب ويذهب بعده أعوانه ، وتسكن الشياطين بدلا منهم ، وهذه لا مانع عندها من أن تسرب بين قطع الأثاث ، وتلبد في الدواليب وتعشش تحت الكتب وتتكيف بحسب الموضع حتى تقيم بين المخدة وبياضتها ، فلا ينجو من وسوستها أحد في يقظته أو نومه .

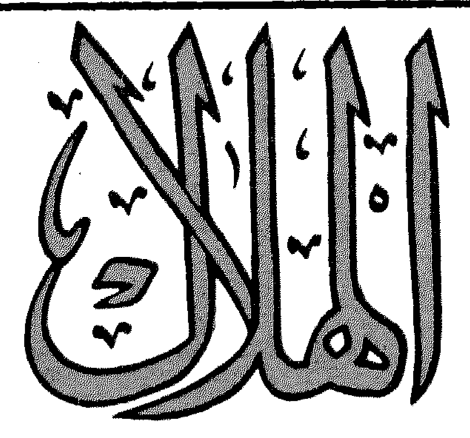
وهكذا تلوث المرأة شرف زوجها فى غيابه وتستقبله مع عشيقها بالساطور إذا رجع . وتقتل البنت أخاها الذى حسب نفسه رجل البيت وراح يرصد تحركاتها ويفسد عليها تدابيرها .

الحب شوق النفس

الحب لا يعيش أبدا بين أناس فقدوا احترامهم لأنفسهم فالحب ليس شهوة من شهوات الجسد التى يشارك فيها الانسان الحيوان مثل شهوة الطعام والشراب . والدليل على ذلك أن شهوة الجنس اذا تملكت الانسان لم تنته باشباع حاجة معلومة فى وقت معلوم ، ولكنها تطغى وتتسلط ولا تبغى الا إذلال روحه ، شأن السلطان المستبد اذا انتزع الحكم من ولى الأمر الشرعى . الحب لا يرضى شهوة الجسد إلا ليطامن من كبريائه هو ، وليذكر نفسه بأن خالقه أودعه فى سلالة من طين . الحب شوق النفس الى ما يعوزها . ولأن النفس نزاعة دائما الى الأفضل فهى تطلب الجمال فيما تحب ، ومن شأن من يطلب الجمال والكمال ألا يقف عند حد ، فليس من شىء يراه المرء جميلا إلا وفوقه ما هو أجمل منه ، فاذا حصل على الأول وأصبح جزءا منه سمت به همة نفسه الى الثانى . ومن ثم كان الحب فضيلة والجمال باعثا على الفضيلة .

وربما كان الحب فى أرقى صوره حبا للخير ، بل حبا لله ، وهنا يوشك الحب أن يتجرد من بشريته ويصبح حبا روحيا خالصا . ولكن الانسان الذى خلق من طين ثم من ماء مهين وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليحس ويشعر ويعقل ، ليس من شأنه أن يصل الى هذه المرتبة العالية دفعة واحدة . واذا كان الله جلت قدرته قد شاء أن يكون شعورنا بجمال المرأة هو أول نبضة فى حركة نفوسنا نحو الجمال - لحكمة بقاء النوع واستمرار خلافة الله فى الأرض - فليس فى مقدور أحد أن يدعى أنه يحب الله وقلبه لم يخفق بحب المرأة . إن العيون التى لا ترى جمال المرأة لا ترى جمال الكون ولا تشعر بعظمة خالقه . وكان العرب الذين أكرمهم الله بأن خاطب الانسانية بلغتهم وحملهم قبل غيرهم رسالة الى الناس كافة - كان العرب هم أساتذة العالم أيضا فى حب المرأة على اختلاف ضروبه وأشكاله . والذين لم يروا فى غزل الشعراء العرب بالمرأة سوى جانبه الحسى قد تعمدوا ألا يروا غيره، انتقاصا من العرب وحضارتهم - ثم دينهم بعد ذلك . أو هم إن أحسنا الظن من مرضى النفوس الذين تؤرقهم خيالات الجنس بالليل وينكرونها بالنهار . إن غزل الشعراء العرب بالمرأة - وقد آن الأوان لينصفه الدارسون - يمزج الاعجاب بمفاتن الجسد - وهذه تتغير معاييرها من عصر الى عصر - بأشواق النفس التى اختص بها الانسان دون غيره من الكائنات ، ولازمت البشرية فى كل عصر وقبيل . والعرب رأوا فى جمال المرأة كل جميل فى بيئتهم الطبيعية : عيون البقر ورشاقة الغزال وبهاء الشمس والقمر ، وكان هؤلاء الأعراب الجفاة - كما يصفونهم - أعظم احتراما للمرأة من اليونان والرومان .

ثم ان الحب مادام نابعا من شوق النفس الى الجمال والكمال فلا يمكن أن ينبض إلا فى نفس حرة ، ولا يمكن أن يفرض بقانون أو توجيه . حتى ولا حب الوطن (رغم قول المغنى) حتى ولا حب الله !



والقضايا الثقافية

أجمل مختارات الهلال كما كتبها

الزعيم أحمد عرابى • عبد الرحمن صدقى • ابراهيم عامر
خليل مطران • د. أحمد زكى • البابا شنودة
الشاعر القروى • د. جمال الدين سالم • د. أحمد كمال أبو المجد
خليل شيبوب • كامل زهيرى • طارق البشرى
د. طه حسين • محمود تيمور • د. اسماعيل صبرى عبد الله
أمين الخولى • رجاء النقاش • د. على الراعى
فتحى رضوان • نجيب محفوظ
د. زكى مبارك • كمال النجمى

أحمد عرابى كما هو الآن فى

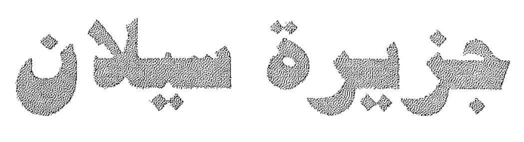
تحدثت الجرائد المصرية منذ بضعة أشهر بشأن أحمد عرابى زعيم الحوادث العرابية واختلفت فى وصف حاله وتوسل بعضها الى الجناب العالى بالعفو عنه وتوسط آخرون فى ذلك على غير جدوى ، فلما رأينا الاقوال متضاربة فى شأنه وآنسنا من أهل القطر ميلا لاستطلاع حاله بعد طول منفاه كتبنا اليه كتابا نسأله فيه عن حقيقة حاله فى منفاه وإن يرسل الينا رسمه الاخير فاجابنا بكتاب بخط يده مؤرخا فى ١١ مايو الجارى يذكر فيه خلاصة احواله فنشرناه خدمة لحضرات القراء واليك نصه :

الى حضرة اللوذعى الفاضل جورجى افندى زيدان

بعد اهدائكم الخ .... قد حظيت بكتابكم ومعه مجلتكم الفيحاء والقائمة المشتملة على اسماء مؤلفاتكم وقد سرنا كدحكم واجتهادكم فى البحث لاستطلاع الحقيقة وافادة العامة بعبارات رائقة وروايات شائقة ، وبناء على رغبتكم قد ارسلنا اليكم صورتنا الفوتوغرافية الاخيرة مع هذا البريد ..

اما عن وصف حالنا فى أرض نفينا فقد علم الكل ما نقاسيه من تباريح الغربة وذل الاسر والاستعباد فى ديار الغالب وآلام النفس من طول البعاد عن الاهل والابناء والاخوان وقد مضى علينا ست عشرة سنة ونحن نكابد تلك المصاعب والاهوال حتى قل صبرنا وضاق ذرعنا فلا يقضى علينا فنموت ونستريح ولا أمل لنا بنعمة العتق والحرية ولا قدرة لنا على افتدائنا من الاسر ولا قوم لن يهمهم ما نقاسيه من الآلام .

ونزيدكم الآن اننا أموات فى صورة أحياء أو أحياء فى صورة أموات ولكننا لسنا بأسفين لاعتقادنا اعتقادا جازما باننا قمنا بما فرضه الله سبحانه علينا من الواجبات الشرعية والحقوق الوطنية بكل نصح وامانة جهـــد الاســـتطاعة

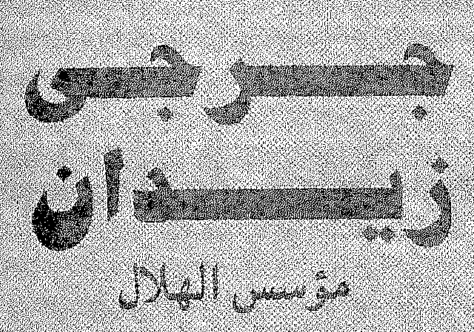


ولا عبـــرة فى ما يتقـــوله بعض أهل الصحافة والناسجون على منوالهم فانهم يقولون بالسنتهم ويكتبون بيراعتهم ما يخالف اعتقادهم بقلوبهم .

وعلى كل حال فاننا نضرع الى الحق سبحانه وتعالى ملك الملوك ورب الارباب ان يوفق ولاة أمور بلادنا العزيزة الى تعميم نشر المعارف والفنون فى ابناء البلاد والى ايجاد ما تحتاج البلاد اليه من الصنائع الضرورية والى حفظ كيان استقلالها وحقوقها وان يوضح لابناء وطننا العزيز طرق الهدى والنجاح أنه على كل شىء قدير وبالاجـــابة جـــدير (انتهى) .

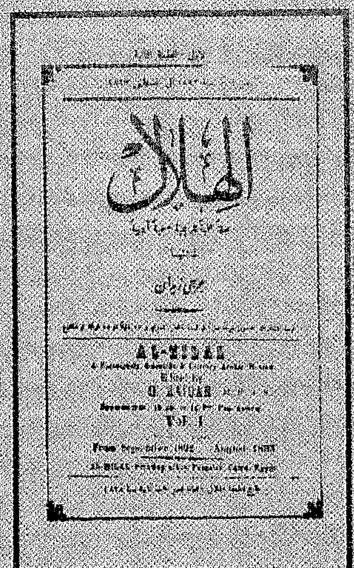
تحريرا فى كندى « سيلان »
فى ١١ مايو سنة ١٨٩٨
« خادم الوطن العزيز »
أحمد عرابى الحسينى
المصرى

الهلال ١٥ مايو ١٨٩٨



جرجي زيدان

مؤسس الهلال



يصعب على الهلال وايم الحق أن ينشر ترجمة مؤسسه في المكان الذي ينشر فيه تراجم أعاظم الرجال ولكن

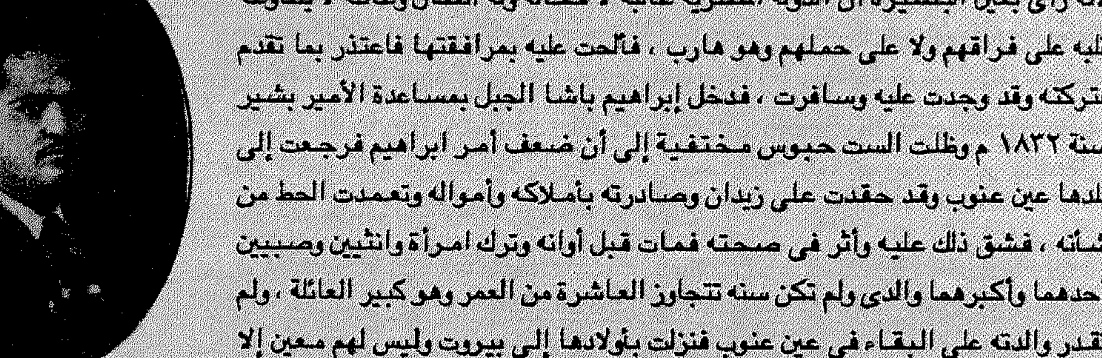
حكم المنية فى البرية جار
ما هذه الدنيا بدار قرار

فلقد طويت حياة فقيدنا في أحشاء التاريخ بعد أن كان التاريخ طى صدره ، فسبحان القادر على كل شئ .

أسرته

جاء فى مذكرات للفقيد عن أصل أسرته ما يأتى :

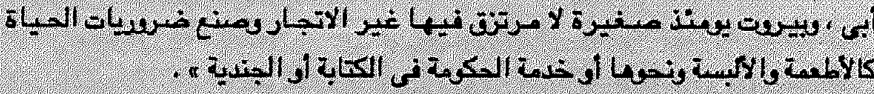
« حدثنى والدى وأنا غلام عن أصل عائلتنا فقال إن أباه كان يسمى زيدان مطر (أو زيدان يوسف مطر) وكان خولياً عند الست حبوس والدة الأمير مصطفى ارسلان كانت تحكم عين عنوب وما يليها فى أوائل القرن الماضى أى كان وكيلا على أملاكها وأشغالها فلما حمل ابراهيم باشا على سوريا وفتح عكا وأراد الاستيلاء على الجبل كانت الست حبوس من جملة الذين لا يريدونه وخافت سطوته فحدثتها نفسها بالفرار من وجهه فعزمت على ذلك وطلبت إلى جدى زيدان أن يرافقها فى هذا الفرار فأبى



لأنه رأى بعين البصيرة أن الدولة المصرية غالبة لا محالة وله أطفال وعائلة لا يطاوعه قلبه على فراقهم ولا على حملهم وهو هارب ، فألحت عليه بمرافقتها فاعتذر بما تقدم فتركته وقد وجدت عليه وسافرت ، فدخل إبراهيم باشا الجبل بمساعدة الأمير بشير سنة ١٨٣٢ م وظلت الست حبوس مختفية إلى أن ضعف أمر ابراهيم فرجعت إلى بلدها عين عنوب وقد حقدت على زيدان وصادرته بأملاكه وأمواله وتعمدت الحط من شأنه ، فشق ذلك عليه وأثر فى صحته فمات قبل أوانه وترك امرأة واثنين وصبيين أحدهما وأكبرهما والدى ولم تكن سنه تتجاوز العاشرة من العمر وهو كبير العائلة ، ولم تقدر والدته على البقاء فى عين عنوب فنزلت بأولادها إلى بيروت وليس لهم معين إلا أبى ، وبيروت يومئذ صغيرة لا مرتزق فيها غير الاتجار وصنع ضروريات الحياة كالأطعمة والألبسة ونحوها أو خدمة الحكومة فى الكتابة أو الجندية » .



جـرجي زيـدان في
الثامنة عشر .



وجاء فى مكان آخر منها :

« أما أصل عائلتنا فليس له خبر مدون لأن والدى بارح بيت أبيه مع سائر العائلة أشبه بالهاربين وهو طفل لا يعرف شيئا فلا ندرى إذا كان لها خبر مدون فى عين عنوب وربّى هو فى بيروت أميا فقيرا وشغل باعالة العائلة فلم يهتم بالبحث عن أصل أرومتنا فلما شببت واردت البحث عن ذلك كاتبت بعض أهل عين عنوب عما يعلمونه عن عائلة مطر هناك وأصلها فجاءنى جواب على لسان شيخ من أهلها أنه يذكر أن بضعة من آل مطر اتوا عين عنوب غرباء أشداء لا يعلم أصلهم وأن أحدهم زيدان تقدم فى خدمة الست حبوس .

« وسمعت من رجل آخر أن عائلة والدى توالى منها فى عين عنوب بضعة أعقاب

وقال آخر غير ذلك . ويغلب على ظني أن أصل عائلتنا من حوران مثل أكثر عائلات الطائفة الارثونكسية في الشوف وقد هاجرت موطنها الاصلي على أثر الضنك والفقر والاضطهاد مما كان يلاقيه عرب تلك البلاد ، والغالب في اعتقادي أن أكثر أهل جنوبي لبنان الروم من عرب حوران ولعلهم من الغساسنة » .

تاريخ حياته

نشأته في بيروت

ولد الفقيد في مدينة بيروت في ١٤ ديسمبر (ك١) سنة ١٨٦١ وتلقى مبادئ العلوم في بعض مدارسها الابتدائية حتى قضت عليه الاحوال بترك المدرسة صغيرا ومساعدة والده في أشغاله وهو لم يبلغ الثانية عشرة من عمره غير أن ميله الغريزي إلى اللغة والأدب جعله لا يدع فرصة لا يستفيد منها إما بمطالعة ما تصل إليه يده من الكتب أو بتقربه من رجال العلم ، وقد كان مولعا في أثناء ذلك بالرسم والتصوير حتى تكاد لا تجد كتابا من كتبه إلا عليه شئ من رسمه فكان كلما تعب من الدرس يتشاغل بمثل ذلك حرصا على وقته أن يضيع بلا عمل .



...ـرجي زيـدان في ...ـادية والعشريت .

ودرس اللغة الإنكليزية في مدرسة ليلية في مدة لا تتجاوز خمسة أشهر مع ممارسة شغله طول نهاره وبعض ليله وكانت أكثر أوقات دروسه في أواخر الليل وهو لا يعرف التعب ولا يكل من العمل وكثيرا ما كان يصل ليله بنهاره .

ثم انتظم في سلك جمعية شمس البر في بيروت وهي جمعية أدبية أكثر أعضائها تلاميذ المدرسة الكلية الأميركانية فكان وجوده في هذه الجمعية باعثا على تضاعف رغبة لما آنسه من ارتياح أعضائها إلى صحبته والرغبة في محاضراته وكثيراً ما كانوا يدعونه لحضور الاحتفالات السنوية للمدرسة الكلية الاميركانية وسماع الخطب والمباحث ، فكان إذا حضر احتفالا وسمع مايتلى فيه من الخطب والمباحث العلمية والأدبية خرج حزينا يكاد يتقد قلبه غيرة وحمية .

وفي سنة ١٨٨١ صمم على ترك شغله وطلب العلم فلاح له أن الطب خير وسيلة تقربه من العلم وتسعده على الكسب فاستشار بعض أصدقائه من تلاميذ المدرسة الكلية فأشاروا عليه بالعدول عن هذا المسلك الصعب لأنه يقتضي وقتا طويلا لدرس العلوم الاعدادية لا يقصر عن سنتين فضلا عن أربع سنوات أخرى لدرس الطب ، لكن ذلك لم يكن ليوهن عزمه فدرس العلوم الاعدادية كلها على أحد أصدقائه بنحو شهرين ونصف حتى آن افتتاح المدرسة فتقدم للامتحان وجازه .

وقد كان فى السنة الأولى من الطب مثال الاجتهاد مكبا على دروسه برغبة ولذة عظيمتين ونال فى الامتحان السنوى شهادات الامتياز على تلاميذ صفه مع أنه كان يتعاطى أشغالاً خاصة تساعده على النفقات ، ومع ما حازه من الفوز على أقرانه لم ير منهم ما يشاهد عادة بين الأقران من الغيرة والحسد بل كانوا يسرون لنجاحه ويتخذونه مثالا للذكاء والاجتهاد لما يؤانسونه به من دماثة الاخلاق ولين المعاشرة والاخلاص فى صداقتهم .

ولما كانت السنة الثانية عاد إلى المدرسة ولم يمض شهران حتى كان الاختلال المشهور فى داخلية المدرسة الكلية الذى انجلى عن خروج معظم تلاميذها وكان صاحب الترجمة فى جملتهم ، وقدم بعد خروجه امتحاناً بالعلوم الصيدلية مع بعض رفاقه أمام لجنة من أشهر أطباء سوريا فى جملتهم الكولونيل مراد بك حكيمباشى العسكر والمرحوم الدكتور فانديك وغيرهما فنال الشهادة بالعلوم الآتية وهى اللغة اللاتينية والطبيعيات والحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء العضوية والمعدنية والتحليل الكيميائى والمواد الطبية والأقرباذين العلمى والعملى .

سفره إلى مصر والسودان وانكلترا

وشخص على أثر ذلك إلى الديار المصرية عقب الحوادث العرابية لتكملة الطب فى مدرسة قصر العينى غير أن طول المدة لنيل الشهادة الطبية حول عزمه عن صناعة الطب فاشتغل بالعلم وتولى تحرير جريدة الزمان – وهى حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة فى القاهرة – مدة سنة أو تزيد حتى كانت الحملة النيلية إلى السودان ١٨٨٤ لإنقاذ غردون باشا فسار برفقتها مترجماً بقلم المخابرات وترك صناعة القلم مؤقتا رغبة فى استطلاع أحوال تلك البلاد ، فقضى فيها نحو عشرة أشهر شهد فى اثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبى طليح والمتمة وغيرهما ، ولا تسل عما قاساه من الأهوال فى تلك السفرة فقد رأى مواقع الحرب رأى العين تحت إطلاق المدافع وصفير القنابل وشاهد القتلى مئات وألوفا إلى أن عاد بعود الحملة بعد مضى عشرة أشهر فنال أوسمة مكافأة له على خدمته وشجاعته .

لكن ميله إلى العلم كان يزداد مع الأيام فلم يستقر فى الديار المصرية بعد عودته من الحملة بل سافر توا إلى بيروت سنة ١٨٨٥ وبعد وصوله إليها بقليل انتدبه المجمع العلمى الشرقى ليكون عضوا عاملا فيه ، فمكث فى بيروت حوالى عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية فدرس العبرانية والسريانية وأخواتهما ووضع على أثر ذلك كتابه فى الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية .

وفى أثناء ذلك ألف أحد معارفه رواية دعاها رواية «البطلين» جعل صاحب الترجمة أحد بطليها والجنرال غردون باشا البطل الثانى وقد بين المؤلف فى سرد حوادث الرواية نتيجة الاجتهاد والمواظبة مع المحافظة على الآداب كما هو شأن صاحب الترجمة .

وفى صيف سنة ١٨٨٦ زار عاصمة بلاد الانكليز وكان فى أثناء اقامته هناك يتردد على أندية العلم ومجتمعات الآثار ولا سيما المتحف البريطانى الشهير ، ثم عاد فى الشتاء إلى مصر فطلبت إليه مجلة المقتطف أن يتولى إدارة أشغالها ففعل حتى أوائل سنة ١٨٨٨ فاستقال وانصرف إلى الكتابة والتأليف فألف تاريخ مصر الحديث فى مجلدين كبيرين وقد عانى فى تأليفه صعوبات جمة ، وفى سنة ١٨٨٩ ألف تاريخ الماسونية العام وهو أول كتاب كتب فى العربية من هذا النوع ثم ألف التاريخ العام وهو مختصر تاريخ ممالك آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة .

وفى أواخر سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الارثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدريس العربى فيها فتولاها سنتين وفى أثناء ذلك ألف رواية المملوك الشارد وهى أول رواياته فصادفت إقبالا غريبا حتى طبعت غير مرة وكان صاحب الترجمة قد استحضر بعض الأدوات المطبعية فتنحى عن التدريس وثابر على الكتابة والتأليف فأصدر الهلال فى أواخر سنة ١٨٩٢ وكان فى أول نشأته يتولى كل أموره بنفسه من ادارة وتحرير ومكاتبات وغير ذلك مما لا يستطيعه أقل من بضعة رجال ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل ولا اهمال توصلا لنجاح مشروعه حتى إذا اتسع نطاق المجلة عهد بإدارتها إلى شقيقه واستخدم آخرين للاشغال الأخرى وانقطع هو إلى التأليف والتحرير فكتب بعد نشأة الهلال مؤلفات عديدة سنأتى على بيانها وقام فى أثناء عطلات الهلال الصيفية بعدة رحلات أهمها رحلته إلى الاستانة على أثر الدستور وإلى أوربا منذ سنتين ورحلته فى الصيف الماضى إلى فلسطين .

وفاته

فى مساء الثلاثاء فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ حوالى الساعة الحادية عشرة – لا كان ذلك الليل ولا كانت تلك الساعة – وافت المنية فقيدنا بغتة ولم يكن يشكو علة ولا أصيب بمرض وماهى إلا دقيقة شهق فيها الفقيد شهقة أقامت أهل بيته مذعورين حتى فاضت روحه إلى خالقها وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وكان إلى آخر ساعة من حياته على تمام الصحة يشتغل كأربعة رجال من غير أن يعرف الكلل أو الملل .

وما ذاع نعيه حتى عم الأسف لفقده وأقبل الأصدقاء والفضلاء والأعيان والعلماء والأدباء على منزله فى القاهرة وتقاطرت الرسائل البرقية والبريدية من محبيه فى جميع الجهات يشاطرون أهله الأسى ويذكرون آثاره ومناقبه الحميدة وخدماته الجليلة للعلم والأدب والتاريخ .

واحتفل بتشييع جنازته احتفالا يليق بقدره فسار موكب الجنازة من منزله فى شارع الظاهر يتقدمه رجال البوليس الفرسان والمشاة وحملة الاكاليل الكثيرة التى بعث بها الاصدقاء ولفيف الكهنة الارثوذكس وبساطا الرحمة يحملهما ثمانية من الوجهاء ومركبة النعش يجرها ستة من الجياد ثم نجلا الفقيد وأخوته واصدقاؤه وجمهور المشيعين يتقدمهم صاحب السعادة أحمد حشمت باشا وساروا على هذا النمط إلى ساحة الاوبرا حيث ركبوا المركبات وساروا إلى المدفن فى مصر العتيقة ، وبعد أن أقيمت صلاة الجنازة فى الكنيسة لحظ أهله أن هيئة الموت لم تبد على وجه الفقيد بل صارت علامات الحياة أظهر فيه مما كانت فى الصباح ففحصه الأطباء فقالوا إن كل الدلائل تدل على حدوث الموت لكن أهله ظلوا مرتابين فعدلوا عن دفنه واقروا على ابقائه إلى الصباح ولما كان الصباح خاب أملهم الضعيف فدفنوا فقيدهم وهم يتمنون لو يفدونه بأرواحهم .

ولما بلغ النعى الفقيد عطوفة حسين رشدى باشا القائمقام الخديوى فى الاسكندرية أنفذ من قبله سعادة وكيل محافظ مصر إلى منزل الفقيد لتعزية أهله وإبلاغهم مشاركة عطوفته لهم فى حزنهم .



جرجى زيدان فى الرابعةوالعشرين

الرجل وأخلاقه

كان الفقيد ربعة ممتلئ الجسم أسمر اللون متوقد العينين تظهر عليه ملامح الصحة والنشاط وكان رحمه الله بسيطا فى جميع أعماله ثابتا صادقا لطيف الحديث قريبا إلى الناس لا يأنف من مجالسة من هم دونه ولا يلقى إلا والبشاشة تملأ وجهه ، ولعل الصفة الغالبة فى أخلاقه كبر النفس ، ولله در المطران حيث قال « ما عرفت رجلا أجمع منه للنقيضين – الكبر والاتضاع » فقد كان متساهلا فى جميع أموره لا يعبأ بالصغائر ولا يلتفت إلى ما يقال عنه فى معرض الذم وكثيرا ماكانت تنشر الانتقادات المرة على مؤلفاته فلا يجيب عليها فى الغالب أو إذا فعل كان رده مختصرا مفيدا يشف عن نفس كبيرة وخلق رضى من ذلك ما نشر فى المجلد العشرين من

الهلال فى صفحة ٥٦٢ رداً على سؤال قارئ عن الباعث على الانتقادات المنشورة فى بعض الصحف على مؤلفاته فأجاب « ولا جواب عندنا على المطاعن غير المواظبة على العمل الذى وقفنا له حياتنا بما يطمئن له ضميرنا فى الخطة التى رسمناها لنفسنا منذ وضعنا يدنا على المحراث لا يهمنا إلا خدمة جمهور القراء ورضى نخبة الادباء وخاصة العلماء وهذا ميسور حاصل والحمد لله فحسبنا ذلك » .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما كتبه فى المجلد ١٩ من الهلال صفحة ١٧٧ تحت عنوان «نحن والجامعة المصرية » على أثر الضجة التى حصلت عند تعيينه أستاذا لتاريخ الأمم الاسلامية فيها ثم عدولها عنه فكان جوابه بسيطا واضحا شرح فيه كيف طلبت إليه الجامعة أن يلقى تلك الدروس فيها وهو إنما قبل حبا بخدمة أبناء العربية وقد وقف حياته لهذا الغرض وبالإجمال فإن مقالته هذه تنم عن أخلاقه الراقية ونفسه الكبيرة .



وقد كان مخلصا فى عمله نزيها عن الأغراض لا يهمه إلا الوقوف على الحقيقة والتمسك بأذيالها ، ومن أقواله المأثورة « لايصح إلا الصحيح ولا يبقى إلا الأنسب » وتجد إخلاصه هذا واضحا فى كل عمل شرع فيه وفى كل حرف خطه قلمه .

وكان رحمه الله يعرف اللغات العربية والانكليزية والفرنساوية والسريانية والعبرانية مع إلمام بسائر اللغات الشرقية وغيرها ، وأكثر ما عرفه إنما عرفه باجتهاده الشخصى ودرسه على نفسه بالثبات وصدق العزيمة فكان إذا رأى الحاجة إلى علم أو لغة أكب عليها حتى ينالها كما فعل منذ عشر سنوات لما أخذ فى درس المواد الشرقية فرأى حاجة إلى الإطلاع على ما ألفه الألمانيون فى آثار العرب وآدابهم من نتاج مباحثهم وتنقيبهم فدرس هذه اللغة بنفسه وبعد بضعة أشهر أصبح قادرا على فهم ما يقرؤه منها وقس على ذلك .

وكانت له منزلة كبيرة عند العلماء المستشرقين فى أوربا فكان يعرف كثيرين منهم شخصيا وكان يكاتبهم جميعا ، فضلا عن منزلته فى الشرق فقد كان له أحباء ومريدون كثيرون ، وقراؤه يعدون بالآلاف وكلهم معجب بما يكتبه مولع بمطالعته ، ولذلك انتشر هلاله ومؤلفاته ورواياته انتشارا عظيما لم يبلغه غيرها فى هذه البلاد ، وكان رحمه الله يتحاشى مواقف المدح ، ولما كان فى الصيف الماضى سائحا فى جهات فلسطين لم يقبل أن تقام له الاحتفالات لكن أهل القدس وأهل نابلس أصروا على الاحتفال به بدون تعريفه علما منهم برفضه إذا خير فدعوه بعد أن أعدت المعدات فلم يسعه إلا القبول .

وكان الفقيد عضوا فى عدة جمعيات علمية وشرقية نخص منها الجمعيات الآسيوية الايتالية والانكليزية والفرنساوية ، وأهدى إليه باى تونس نيشان الافتخار من الدرجة الأولى فضلا عن أوسمة حرب السودان وهى الميدالية الانكليزية والنجمة المصرية والعروة المختصة بواقعة أبى طليح ، وأنعم عليه الجناب العالى الخديوى برتبة المتمايز الرفيعة اعترافا بفضله على اللغة العربية وآدابها ، وقررت عمدة الكلية السورية الاميركية فى بيروت قبل وفاته ببضعة أشهر منحه لقب شرف من ألقابها العلمية .

آثاره

جاء مستشرق مرة لزيارة الفقيد فلما رآه سأله « أأنت جرجى زيدان ؟ » فأجاب «نعم» فقال « ما أبعد صورة شخصك المرسومة فى مخيلتى عن شخصك الحقيقى » ، فإنى كنت أنتظر رجلا شيخا ذا لحية بيضاء لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة » . فقد كان الفقيد رحمه الله مجتهدا لدرجة التفانى مثابرا منظما فى أعماله ولولا هذه الصفات ماقدر على انتاج تلك المؤلفات الضخمة والقيام بمشاريعه العظيمة .

١ - الهلال

ومحور آثاره كلها «الهلال» الذى لم يكد يتم سنته الثانية والعشرين حتى فوجئ بوفاة منشئه ، وهو منتشر انتشارا عظيما فى أربعة أقطار الأرض يمتد انتشاره شرقا إلى الشام والعراق وفارس والهند واليابان وغربا إلى تونس والجزائر ومراكش وغربى أفريقيا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية وجزائر الهند الغربية وجنوبا إلى جزائر الهند الشرقية واستراليا وزيلاندا وأواسط السودان وجنوبيه وشرقيه وغربيه فى زنجبار والترنسفال وشمالا إلى أكثر مدائن أوربا ، والخلاصة أنك لا تجد بلدا فى إحدى القارات الخمس فيها قوم يقرأون العربية إلا كان الهلال فى جملة ما يطالعونه والسبب فى سعة انتشاره أن مواضيعه قريبة من حاجة القراء على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم وأنه يتوخى العبارة السهلة فى كل ما يكتبه مع توضيحه بالصورة والخرائط العديدة .

٢ - مؤلفاته التاريخية واللغوية والعلمية

كتب الفقيد فى مواضيع مختلفة لكنه حاز شهرته الواسعة فى الشرق والغرب بصفة كونه مؤرخا مدققا لا سيما وأنه طرق مواضيع هامة جديدة لم يسبقه إليها كاتب مع قلة المصادر التى يرجع إليها وافتقار اللغة العربية إلى مثلها ، وإليك أهم مؤلفاته فى التاريخ واللغة وغيرهما .

تاريخ مصر الحديث جزءان	طبع مرتين
تاريخ التمدن الاسلامى ٥ أجزاء	أعيد طبع الجزء الأول
تاريخ العرب قبل الاسلام	
تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر	جزءان طبع مرتين
تاريخ آداب اللغة العربية	٤ أجزاء
الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية	طبع مرتين
تاريخ الماسونية العام	علم الفراسة الحديث
تاريخ اللغة العربية	طبقات الأمم
انساب العرب القدماء	عجائب الخلق

وقد نقل تاريخ التمدن الاسلامى إلى خمس لغات : الأوردية أو الهندستانية والتركية والانكليزية والفرنساوية والفارسية ، وترجم كتاب الفلسفة اللغوية إلى التركية .

٣ - رواياته

كان غرض الفقيد الأول تحبيب المواضيع الشرقية والتاريخية إلى جمهور القراء فرأى أفضل سبيل لذلك أن يجعل التاريخ بشكل روايات من غير أن يشوه الحوادث التاريخية وقد نجح فى مشروعه هذا نجاحا كبيرا فأعيد طبع رواياته مثنى وثلاث وترجمت إلى عدة لغات شرقية وغربية مما لم يسبق له مثيل فى هذه البلاد .

وقد جعل رواياته التاريخية متسلسلة منذ ظهور الاسلام تتناول كل واحدة منها عصراً تاريخيا فتصف رجاله وعاداته وحوادثه مع المحافظة على الأصل بقدر الإمكان ورواياته تختلف من هذا القبيل عن روايات اسكندر دوماس فالفقيد كان يكتب الروايات

للترغيب فى التاريخ أما الثانى فكان يستعير الحوادث التاريخية ترويجا لرواياته ، وقد ظهر من سلسلة روايات تاريخ الاسلام ١٨ حلقة اليك اسماءها وعدد طبعاتها :

١ – فتاة غسان (جزءان)	طبعة ٣	١٠ – العباسة أخت الرشيد	طبعة ٢
٢ – أرمانوسة المصرية	طبعة ٣	١١ – الأمين والمأمون	طبعة ٢
٣ – عذراء قريش	طبعة ٣	١٢ – عروس فرغانة	طبعة ٢
٤ – ١٧ رمضان	طبعة ٢	١٣ – أحمد بن طولون	طبعة ٢
٥ – غادة كربلاء	طبعة ٣	١٤ – عبد الرحمن الناصر	طبعة ٢
٦ – الحجاج بن يوسف	طبعة ٢	١٥ – فتاة القيروان	
٧ – فتح الاندلس	طبعة ٢	١٦ – صلاح الدين ومكايد الحشاشين	
٨ – شارل وعبد الرحمن	طبعة ٢	١٧ – شجرة الدر	
٩ – أبو مسلم الخراسانى	طبعة ٢	١٨ – الانقلاب العثمانى	

وله أربع روايات خارجة عن السلسلة وهى :

الملوك الشارد	طبعة ٣	استبداد المماليك	طبعة ٢
اسير المتمهدى	طبعة ٣	جهاد المحبين	طبعة ٢

وقد نقلت هذه الروايات إلى أهم اللغات الشرقية وبعض اللغات الأوربية ، وعلى سبيل المثال فاللغات التى نقلت إليها حتى الآن بعضها أو كلها هى اللغة الأوردية (الهندستانية) والفارسية والروسية والدرويدية والتركية والاذربايجانية والتركية العثمانية والفرنساوية والانكليزية والبرتغالية .

إن سرد أسماء هذه الكتب وعدد طبعاتها واللغات التى ترجمت إليها أبلغ من كل ما يقال فى بيان مكانة الفقيد وخسارة اللغة العربية بفقده رحمه الله بقدر ما أفاد الناس وسنأتى فى العدد التالى على آراء بعض الكتاب فى الفقيد وآثاره ثم نجمع كل ما كتب أو قيل عنه فى كتاب على حدة يرسل مجانا إلى الذين يرغبون فى الحصول عليه .

الحديقة المرشوشة

شعر : خليل مطران

أكتوبر ١٩٢١

من لعان هواك يصرعه   حين يغشاه منك ما يغشى
رابط الجأش فى الخطوب فإن   تعرضى ليس رابطا جأشا
يا مهاة فى العين أنشأها   بهجة للعيون من انشا
إن بى لوعة مبرحة   سرها ما حييت لن يفشى
غير دمع إذا جرى فنحا   نحو قلبى حسسته نشأ
قبلة منك منتهى أملى   ... لا .. ومن كل عابد يخش
مـائة .. بل قـليلـة مـائة   كره الله قائلا غشا
ألف ألف .. ولست أحسبها   آخر الدهر تبرد الاحشا
أن يقولوا فحش فلست أرى   إن فى صادق الهوى فحشا
لم أنم ليلتى ولم أر لى   راحة أو افارق الفرشا
فالتمست الخلاء اخبط فى   سحرة عاد طيرها أعشى
إذ أرق الدجى عبوسته   وإذ الفجر همَّ أو بشا
ابتغى وحشة الأنيس وما   انكر القفر آنس الوحشا
ممعناً فى الفرار من ألم   مستبيح جوانحى نهشا
فإذا روضة تكشف لى   عن محيا إلىَّ قد هشا
هب غرّ يدها يجول بها   دائب السعى بانيا عشا
منه فى الايك ناظم لبق   كر شدواً وساجع انشا
سرحها قد زكا وسندسها   ابدع الوشى فيه من وشى
برعت تحليلتها صوراً   وزهت تجشياتها نقشا
روضة زرتها وفى جوى   كاللظى فى الهشيم أو أمش
خلت فيها لى الشفاء فما   عدت إلا والداء بى افشى
كيف حالى وفى دمى لهب   إذ أرى نبتها وقد رشا
فبعينى حديقة رويت   وبقلبى حشاشة عطشى





الفرح

شعر : « الشاعر القروى »

أنا لم أفرح لأنى بطل ... مثل «دمسى» أصرع القرم العنيد
ما يلاقى
أو لأنى فى الدواهى رجل ... لا يبالى أن دنا الخطب الشديد

* * *

بل لأنى ناصر حق الضعيف ... حين فى الحق يعز الناصر
فى السباق
ولأنى حالة النصر شريف ... أدعى أن سواى الظافر

* * *

أنا لم أفرح لأنى عالم ... يتمشى فوق أعناق الدهور
حسن نظمى
أو لأنى ناثر أو ناظم ... يفتن القراء أرباب الشعور

* * *

بل لأنى لم أحرك قلما ... بالذى يكسو مسوح الخجل
قلب خصمى
ولأنى لم أسبب ألما ... جارحاً بالسب عند الجدل

* * *

أنا لم أفرح لحشدى الذهبا ... واحتيازى كل ما لذ وطاب
لا لعمرى
أو لأنى بعد فى شرخ الصبا ... أتملى من مسرات الشباب

* * *

بل أنى وافر العرض نبيل ... ولأنى مخلص حر الضمير
مع فقرى
ولأنى عندما يخلو السبيل ... ألبس الليل بشئ للفقير

* * *

ديسمبر ١٩٢١



المتناسى

شعر : خليل شيبوب

آليت أنسى عذابى ❋ فى عهدك المستحب
فصرت أكتم مابى ❋ على تقطع قلبى
ورحت أشرب خمرا ❋ مع الصحاب وألهو
سكران ازداد سكرا ❋ به ألذ وأزهو
وقلت من كان مثلى ❋ فى عنفوان الشباب
ينسى سريعاً ويسلى ❋ فؤاده من عذاب
فى كل يوم عبير ❋ يهدى الحياة إليه

واكـــئوس وشـغـــور ❋ يـروى بـهـــا شـفـتيـه
العـمـر كـــاس مـــدام ❋ والحــب نظــرة حســـن
ونـحـــن جـــد نـيـام ❋ أحـلامنـــا فى التمـنى
فى كـل ســرب مـــلاح ❋ تركـــت نفســاً وقـلبــاً
لـكـــل خـــود رداح ❋ تبيـــع حســـناً وحـبا
هـنـالك الحــب سـهـل ❋ فــنـظـــرة وكـــلام
ثـم اتـفـــاق فـوصــل ❋ وقــد تقـضـى المـــرام
فــلا جـوى واضـطراب ❋ وغـيـــرة وذهـــول
ولا أســـى وعـــذاب ❋ ولا ســهـــاد يـطـول
قد كـدت أنـفى تمـامـا ❋ من خـــاطـــرى ذكراك
لـكـن علـى م على ما ❋ تـثـيرهـــا عـينـــاك
لمـا مـررت بقـربـى ❋ وكـنت بـيـن صحـابى
أورت لحـظـــاك قــلـبى ❋ حتى فــقـدت صوابى
وصـــرت أشـقى فؤادا ❋ وصــرت أضـعـف نفساً
كـــذاك حـــبى عــادا ❋ أصـبـى خـيــالاً وحسا
عيناك .. ما الزهر فاحا ❋ ومـــا الســمـــاء ربيعا
ما النجم فى الليل لاحا ❋ ما البحـر يصفو بديعا
وما الســـلافة راقـــت ❋ ومـــا الـــزمـــرد شعا
وما الـلآلئ فـــاقـــت ❋ كـــل الــدرارى صنعا
عينـــاك أبـلـغ مـعـنى ❋ مـنهـا وأوحـــى شعورا
عينــاك أوضـح حسـنـا ❋ منهـــا وأبـــهـج نورا
ياهـتد قلبى كـنيـت ❋ أذوتـــه تـــلك السـمـوم
فاسقيه يحـيا وأنـــت ❋ حيـاتـــه والنعـــيم

يناير ١٩٢٢



بين الشرق والغرب

بقلم : د. طه حسين

كان الساميون في بابل وآشور وغيرهما قد بسطوا سلطاناً ضخماً واسسوا حكومات قوية منظمة وانتهوا الى ألوان من الفن والعلم لاتزال تبهرنا الى الآن ، ولست في حاجة الى أن احدثك عما كانت مصر قد انتهت اليه من الحضارة . واذن فليس من شك في أن الاتصال قد وجد واشتد بين هذه الامم الشرقية الراقية والأمة اليونانية الناشئة ، وجد هذا الاتصال واشتد وتأثرت الامة اليونانية من غير شك بالحضارات الشرقية المختلفة واخذت عن الساميين في آسيا وعن المصريين في افريقيا اشياء كثيرة مختلفة . ولم تكن الامة اليونانية جاحدة ولامنكرة للجميل وإنما كانت شديدة الاعتراف بالجميل وربما بالغت فيه مبالغة شديدة ايضاً فنسبت من الاشياء الى الشرقيين بل نسبت مدناً مختلفة الى المصريين في حيناً والى الفينيقيين حينا آخر وعدت نفسها دائما تلميذة للامة المصرية وغيرها من الامم الشرقية الاسيوية في الحضارة وألوان الفن . فالى أى حد كان تأثير هذه

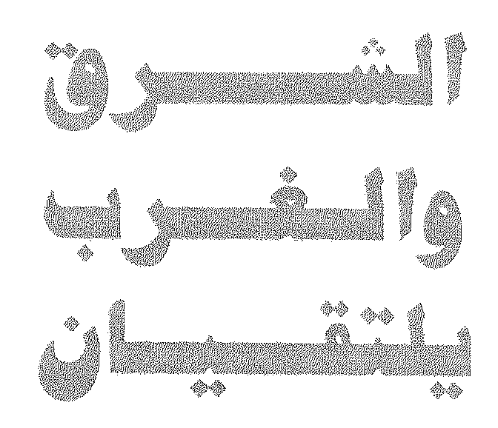
الامم الشرقية فى الامة اليونانية ؟ ثم الى أى حد كان تأثير هذه الامم الشرقية فى تكوين الفلسفة اليونانية التى لاتزال تدبر حياة العقل الانسانى الى الان ؟ هذه هى المسألة التى نريد أن نقول فيها كلمة موجزة ونأسف لان قوما قد لا يرضون ولكن الحق أحق أن يتبع .

نعتقد ونظن أن غيرنا من مؤرخى الفلسفة المحدثين يعتقد ايضاً انه لم يكن للشرق فى تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليونانى والسياسة اليونانية تأثيرا انما كان تأثير الشرق فى اليونان تأثيرا عمليا ماديا ليس غير . فقد اخذ اليونان عن الشرقيين اشياء كثيرة ولكنها عملية مادية كما قلنا اخذوا عنهم مثلا نظام النقد وأخذوا عنهم نظام المقاييس واخذوا عنهم شيئا من الموسيقى وتعلموا منهم فنونا عملية كالحساب والهندسة ولكنهم لم يأخذوا عنهم شيئا عقليا يذكر . فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك الى نتائج قيمة لم يضعوا علم الفلك وانما هذا العلم يونانى لم ينشأ عن النتائج البابلية وانما نشأ عن البحث اليونانى والفلسفة اليونانية . ولئن كان المصريون قد وصلوا الى نتائج قيمة من الهندسة العلمية والآلية فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة وانما اليونان هم الذين ابتكروه ابتكاراً . هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى نجد عند اليونان اشياء لانجد شيئا يشبهها فى الشرق القديم ، نجد عندهم هذه المذاهب الفلسفية المختلفة التى حاولت منذ القرن السادس فهم الكون وتفسيره وتعليله ثم نجد عندهم هذه الفلسفة : فلسفة ما بعد الطبيعة وما نشأ عنها من أنواع البحث التى نظمت العقل الانسانى ولاتزال تنظمه الى الآن ثم نجد عندهم هذه الفلسفة الخلقية التى انشأت علم الاخلاق والتى لم يعرفها العالم القديم من قبل . ونحب أن نلاحظ أن العقل الانسانى ظهر فى العصر القديم مظهرين مختلفين ، احدهما يونانى خالص هو الذى انتصر وهو الذى يسيطر على الحياة الانسانية الى اليوم والى آخر الدهر ، والاخر شرقى انهزم مرات امام المظهر اليونانى وهو الآن يلقى السلاح ويسلم للمظهر اليونانى تسليما تاما ...

بينما نجد العقل اليونانى يسلك فى فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفى الخصب الذى نشأت عنه فلسفة سقراط وافلاطون وارسطاطاليس ثم فلسفة «ديكارت» و «كانت» و «كونت» و «هيجل» و «سبنسر» نجد العقل الشرقى يذهب مذهبا دينيا خالصا فى فهم الطبيعة وتفسيرها . فلم يستطع العقل الشرقى أن يظهر شخصية فلسفية قوية فى فهم العالم وتفسيرة وانما خضع للكهان فى عصوره الاولى وللديانات السماوية فى عصوره الراقية وامتاز بالانبياء كما امتاز العالم اليونانى الغربى بالفلاسفة . هناك شىء آخر نجده عند اليونان ولانجده فى الشرق وهو هذا التطور السياسى الخصب الذى أحدث النظم السياسية المختلفة في المدن اليونانية من ملكية وجمهورية ارستقراطية وديمقراطية معتدلة أو متطرفة والذى لايزال اثره قويا فى اوربا الى اليوم والى آخر الدهر والذى اخذ الشرق يتأثر به فى نظمه السياسية . بينما كانت المدن اليونانية تخضع لهذا التطور الغريب الذى حقق حرية الافراد والجماعات والذى انتصر حتى اصبح المثل الاعلى للحياة الحديثة فى الشرق والغرب كان الشرق خاضعا لنظام سياسى واحد لم يتغير ولم يتبدل وهو نظام الملكية المطلقة المستبدة الذى تفقد فيه الجماعات والافراد كل حظ من الحرية . فكيف نستطيع ان نفسر هذا الاختلاف بين الشرق والغرب ؟ ولم نفسره ؟ وما حاجتنا الى هذا التفسير ؟ يكفى ان نسجل الحقيقة الواقعة وهى ان الحياة اليونانية التى خضعت للشعر فى أول امرها ثم خضعت بعد ذلك للعقل كانت اخصب حياة عرفها الانسان فى العالم القديم .

١٠ ابريل ١٩٢٥



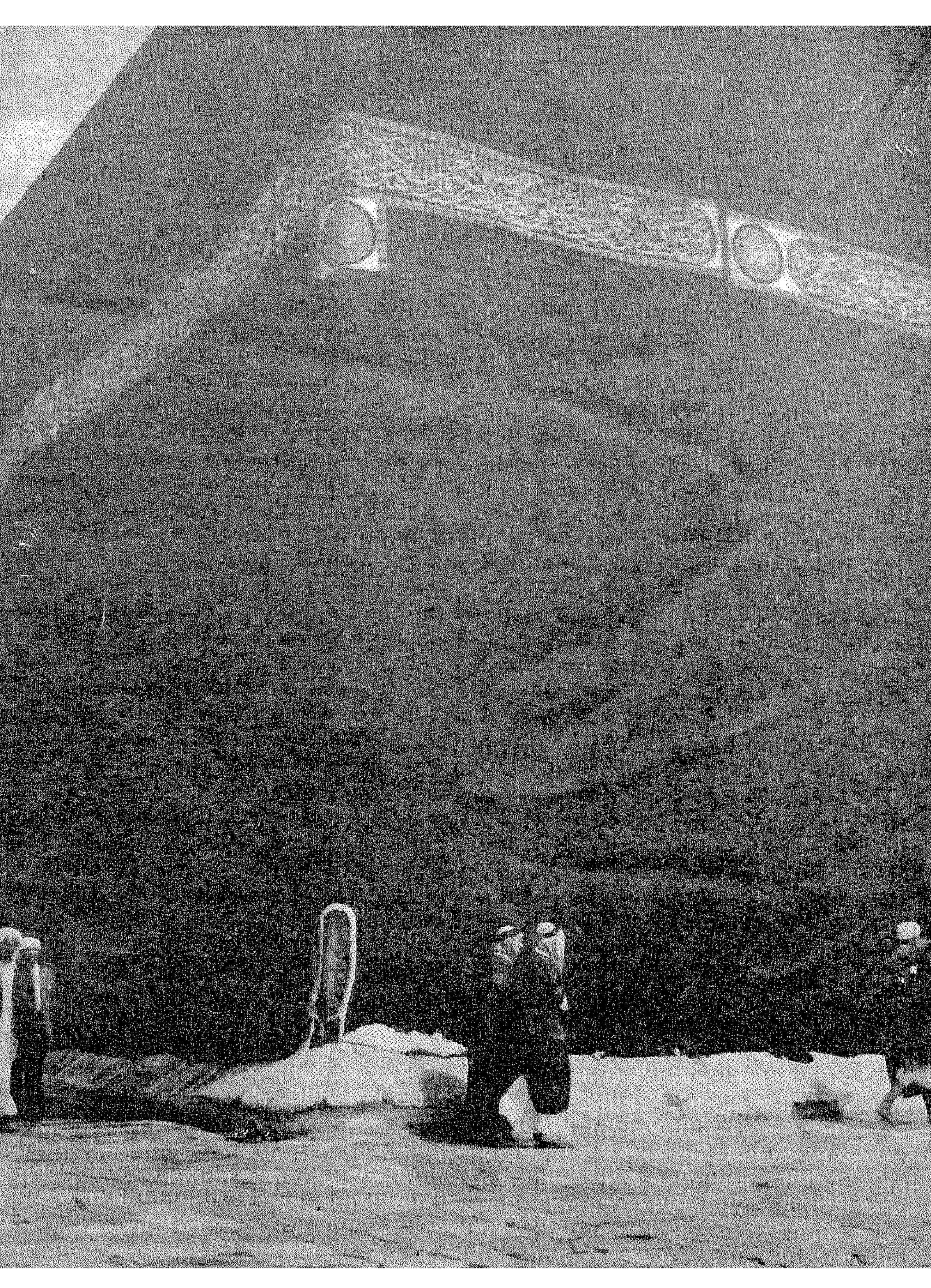


الشرق والغرب يلتقيان

بقلم : أمين الخولى

فى هذا المقال يناقش الأستاذ أمين الخولى تعليقتين على مادة إبراهيم كتب إحداهما الشيخ يوسف الدجوى، وثانيتهما الاستاذ محمد فريد وجدى، فى الجزء الأول من دائرة المعارف الإسلامية التى قام بترجمتها بعض متخرجى الجامعة المصرية. ويسرنا أن تكون هذه الترجمة قد أثارت مناقشة بين الأدباء والعلماء.

وإن زعم الشاعر السكسونى فى كلمته الشائعة : أن لن يلتقيا، فله من حكم الفن والهوى ما شاء. أما حكم التاريخ والواقع فلا. فقد التقى الشرق والغرب فى باحة الاعتقاد وضمائر المؤمنين، وتلقى الغرب مسيحيته عن الشرق. والتقيا فى ساحة القتال، وتبادلا النصر والفوز والسيطرة والحكم، فى أقدم القدم، ومازالا يلتقيان إلى اليوم، ومن يدرى إلام ينتهى تلاقيهما ؟. والتقيا فى ظواهر الحياة الاجتماعية، وتبادلا التأثير والتأثر، كما تشهد بذلك ماديات ناطقة. والتقيا فى الميدان العقلى، وتبادلا فلسفة وفناً وعلماً، ولا يزالان يتبادلان ، التقيا كثيراً، التقيا أمس القريب، والتقيا اليوم حين هم نفر من شبان الشرق المجيدين بترجمة «المعلمة الإسلامية» التى كتبها أقطاب علماء الغرب عن ماضى الشرق وحاضره، وعلمه، ودينه وفنه، وكل ملابسات حياته . نعم التقيا حين أبى شبان الشرق أن يدفعوا إلى قومهم آراء الغربيين وحدها، وفيها نظرات قد تكون من جانب واحد،



فسعوا إلى رجال يسألونهم وجهة نظر الشرق يلقون بهـا إلى الغـرب، وجـاءتهم تعـاليق على آراء المستشرقين نشروها في القسم الذي ظهر من «دائرة المعارف الإسلامية» .

ولشد ما نحب أن يكون ذلك التلاقي الحديث مشرفا، يحتفظ بعظمة الشرق القديمة ويقرع فيه علم بعلم، ومنطق بمنطق، وعمق بعمق، خالصاً ذلك كله من شوائب الهوى وشيات العصبية، وأن يكون بحيث يقرؤه أولئك الغربيون فيعترفون - ولو في دخيلة أنفسهم - بأنهم أخطأوا في شيء، ويجدون نواحي من البحث فاتتهم، وجهات من النظر والدقة أعوزتهم وأن يكن أولئك الغربيون قد غلبهم الهوى أو استهوتهم الأغراض - وهو ما لا أبرئهم منه فما أحب أن نلقى جرماً بجرم، بل أوثر ثم أوثر أن نلقاهم على سنن آبائنا وبأسلوب أسلافنا فلقد كانوا يلقونهم في حومة الوغى وساحة القتال ، حيث الحرب خدعة والكذب شرعة بدستورهم النبيل قائلين . «وفاء بغدر خير من غدر بغدر» ، حتى علموا أبطال الشرق الغربيين آداب الفروسية ، فكيف بنا اليوم والمجال عقلي ، والمنطق هو الحكم، والحقيقة هي الضالة المنشودة ، والهوى مفضوح حيث كان ؟

لقد أقول - غير مرتاح - إن ما نشر من تلك التعليقات - ولا سيما ذات الصلة منها بالدين - قد مسها من التحكم غير قليل فجاءت بحيث لا ترتضي صورة لتلاقي الشرق والغرب في ميدان البحث .

في القدر الذي نشر تعليقتان على مادة ابراهيم ، إحداهما لفضيلة الاستاذ يوسف الدجوي والثانية لحضرة الأستاذ محمد فريد وجدي ، ومع تقديري للأستاذين أحب أن أعرض لهاتين التعليقتين في أدب للبحث منتظم ، وتوخ تام للحق ، صونا لعملية البحث ووفاء للقراء .

التعليقة الأولى للأستاذ الدجوي عن أبي ابراهيم ، إذ يقول كاتب المادة « فنسنك » في الدائرة عن سيدنا ابراهيم : « .. وورد في القرآن أنه ابن آزر ، وهذا الاسم مشتق فيما يظهر من اسم خادمه ؟؟ .

فيقول الأستاذ الدجوي في التعليق : « قد يفهم من ذلك أن القرآن الكريم يخالف التوراة في اسم أبي ابراهيم .. وهذا الخلاف ظاهري في الواقع ، أولا أن العرب قد تسمي العم والجد أبا ، وهذا الاستعمال معروف في القرآن الكريم نفسه ، كما قال تعالى حكاية عن أولاد يعقوب «إذ قالوا لأبيهم نعبد الهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق » . ثانيا يجوز أن يكون تارح اسما له وآزر لقبا .. ثالثا يجوز أن يكون آزر قد ذكر للذم ، وهو وصف أجري مجرى العلم ومعناه في اللغة العبرية على ما يقول بعض العلماء « المخطئ » فيكون قد ذكر للذم والتحقير ، ويقرب من هذا جعله اسما للخادم كما في التوراة ولعله يطلق في لغتهم على الخادم ، إطلاق الأوصاف لا إطلاق الأعلام ... »

فإن يكن الأستاذ قد أراد بذلك التعليق بيان وجه الحقيقة التاريخية في المسألة فلنا فيه شأن ، وإن يكن قد أراد التوفيق الديني الدافع للتناقض فلنا شأن آخر .

فأما من الناحية العلمية فأولا : إن التجوز الأول في إطلاق الأب على العم - وإن يكن قد ذكره المفسرون - فهو ليس إلا تجوزاً لم تقم عليه قرينة ، وهو يفترق عن الآية التي قيس عليها نعبد إلهك وإله

آبائك » لأن جمع الآباء (آبائك) قرينة صارخة على أن ليس المراد الأب الوالد لأنه لا يتعدد ، فليكن الجد أو العم أو من يكون ، ولا أتردد فى أن أقول هنا بعدما تناولت هذه المسألة فى درس التفسير بالجامعة ، إن من أوجه التوفيق الأخرى فى هذا الموضوع ما لا تقره قواعد العربية وأسلوبها ، وليس علينا أن نقف واجمين أمام مثل هذه الأوجه بمجرد ورودها فى الكتب ! على أنا ندع هذا إلى مكان آخر .

ثانياً : قوله فى التجويز الثالث : « ومعناه فى اللغة العبرية على ما يقول بعض العلماء المختصين ، وقوله فى آخر التعليقة : « ولعله يطلق فى لغتهم على الخادم إطلاق الأوصاف لا إطلاق الأعلام » .

مثل هذا لا ينبغى أن يقال اليوم مبهما غير مدلل ، غير مبين فيه أصل المادة ، ومعناها الاستفهام واشتقاق الصيغة منها ، مع أن العبرية متكلمة بين ظهرانينا ومقروءة ، ومن الميسور التحقق من هذا فيها ، وإلا تركه الكاتب تماماً ، على أن ذكر العبارة هكذا لا إنصاف فيه حتى لأسلافنا أنفسهم لأنهم لم يرسلوها هكذا إرسالا ، بل يقول ابن كثير فى تفسيره ج ٣ ص ٣٤٣ ما نصه « .. وقال ابن جرير : وقال آخرون هو سب وعيب بكلامهم ، ومعناه معوج ، ولم يسنده ولا حكاه عن أحد ، فإذا لم نعرض لتحقيق أصله فى العبرية كما يرجى منا اليوم ، فلا أقل من أن نتهم هذا المعنى اتهام القدماء له ونترك الفصل فى ذلك لذوى الشأن فيه .

ثالثاً : هذه الفروض المسرودة والاحتمالات المرددة ، قويها وضعيفها . قد تحتمل وتقبل فى منع التدافع الدينى ودرء التناقض ، لكنها ليست فى حساب العلم منتهية إلى نتيجة ولا محققة لشئ ، والباحث الضنين بوقته وجهده إنما همه تقرير وجه الرأى فى المسألة ، لا إنها قد تكون وقد تكون ، وربما لا تكون .. فإن لم يكن لدينا فصل الخطاب فى الأمر فندعها للغد ولنتركها متشابهة – هذا عن الناحية العلمية

أما عن ناحية التوفيق الدينى – وقد يكون هو الغرض الأول للأستاذ – فليسمح لى أن أسوق ملاحظاتى على طريقته فى ذلك :

أولا : تقريره الخلاف بين القرآن والتوراة ، وسعيه إلى التوفيق وسوق أوجهه ، كل هذا اعتراف منه بتقابل المصدرين – القرآن والتوراة – وهو مالا أفهم اتفاقه مع المقررات الاسلامية فى تحريف التوراة وتبديلها ، فإنها مادامت كذلك لا يكون لها من المركز الدينى ولا العلمى أيضا – ما يدفع إلى التماس التوفيق بينها وبين القرآن ، واعتبارها مصدرا مقابلا للقرآن ، ما هى مصدر ، ولا مرجع فى خبر ولا غيره مادام ذلك اعتقادنا فيها ، ولا علينا من اعلان ذلك وترتيب آثاره عليه ، ولقد يتهمها العلم اليوم مثل اتهامنا الاعتقادى لها أو أكثر .

ثانيا : استظهر الكاتب فنسنك أن آزر فى القرآن مشتق من اسم الخادم هو اتهام صريح للقرآن ، ويزداد الاتهام جلاء بالرجوع إلى مادة آزر فى المعلمة نفسها مجلد أول ص ٥٥٠ من الطبعة الألمانية) ومع ذلك فالأستاذ يترك هذا الاستظهار دون تعليق بل على العكس من ذلك يفهم من كلامه أنه يعتمد عليه إذ يقول فى آخر كلامه : جعله اسماً للخادم كما فى التوراة ، ولعله يطلق فى لغتهم على الخادم .. » الخ فكيف لا يواجه الاستاذ هذا الاستظهار وذلك الفرض بالهدم القوى اتماما للمهمة

الدينية التى قصد إليها ؟

ثالثا : سلم الأستاذ بوجود التدافع بين القرآن والتوراة سريعا ، وراح يرده إلى الظاهر ويوفق ، فعل ذلك مع أن فى آية الانعام المذكورة أوجهاً للتفسير وقراءات لا يلزم عليها كون آزر أبا لإبراهيم لا ظاهرا ولا حقيقة ، فمثلا كلمة آزر ترسم فى المصحف هكذا (آزر) وفيها أكثر من قراءة وأكثر من إعراب - قرئت (أأزراً بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وسكون الزاى ونصب الراء منونة ، على أن (أزراً) اسم صنم أو بمعنى القوة و التعضيد وفى قراءتها بالمد مع عدم التنوين (آزر) تخريج لا يجعله اسم الأب ، وغير ذلك مما لا محل لاستقصائه هنا ، فإذا ما لوحظ التوفيق فى التفسير بين القراءات المختلفة لم يكن من السهل التسليم بتسمية القرآن أبا ابراهيم آزر ، ولعل البحث فى مثل هذه القراءات وأوجه الأعاريب كان أجمل بالاستاذ ، وفيه من التخلص ما ليس فى هذه الترديدات الفرضية ، بل فيه ما قد يصحح بعض هذه الفروض التى اكتفى الاستاذ بسردها فقط ، تلك جملة من الملاحظات العلمية والدينية على التعليق الأول أو المشهد الأول من تلاقى الشرق والغرب .

وأما التعليق الثانى أو المنظر الثانى من هذا التلاقى ففى آخر مادة ابراهيم عندما تعرض كاتبها لشخصيته فى القرآن ، ذلك التعرض الذى كانت له أخيراً ضجة مدوية - وقد أفرده فيما بعد ببحث مستقل تصحيحاً لأساليب الناقدين - ولا أنقل هنا الاصل لطوله كما لا أستطيع نقل التعليق الملاحظ عليه لطوله كذلك ، فأكتفى بنقل فقراته المرادة .

فى هذا التعليق لا يتوقع أن تكون التسوية الدينية هى المقصد الأهم لأن اصحاب الشأن هذا متوافرون ، بل يرجى فيها إن كان تعرض للناحية الدينية أن يكون الأسلوب علميا محدود المقدمات ، مضبوط الدعاوى ، سليم النتائج ملتزماً مناهج التحقيق المجربة ، لكن التعليق لم يف بهذا ولى عليه من الوجهة العلمية ملاحظات منها العام ومنها الخاص .

فملاحظتى العامة هى أن التعليق على طوله إجمالى خطابى لم يتناول قضايا الكاتب وملاحظاته واحدة واحدة لتعقب مواضع قصورها أو زلق قلمه فيها ، بل رد على ذلك إجمالا وإيجازا ، حتى ليضطرنا إنصاف الحقيقة إلى أن نقول إن هذا التعليق لم يقع من ملاحظات الرجل موقعا يذكر وأما الملاحظات الخاصة ببعض الفقرات فمنها :

١ - يقول المعلق فى أول عبارته ما نصه : « لم يقل واحد من المؤرخين سواء أكانوا مسلمين أم أجانب إن النبى (ص) استعان فى نشر دعوته باليهود بل قالوا ... » فانظر لهذا التعميم الذى لا ينهض الاضطلاع به ، وتحمل ثقله مائة رجل كالأستاذ وجدى ، فهو ادعاء دونه اطلاع القرون وبحث لأجيال ، ولن يجرؤ عليه من يلزم حدود البحث العلمى ، وهب هذا الادعاء صحيحا فهل شرط قول القائل أن يكون من الناس من يقول معه أو من قال قبله ؟ وماذا يلزم صاحب المادة عدم وجود أحد فى الدنيا قبله يقول بمثل قوله ؟ ؟

٢ - يقول ذلك : « ولم يكن عرب الجاهلية يمنحون كل ما عليه طابع يهودى أى اعتبار ، بل الذى ورد أنهم كانوا يكرونهم .. » فهل عرف السيد؟

وعرف التاريخ ما يحل له هذا النفى الاستيعابى ؟ يقول العلم فى تواضع : لا .. بل لو تنوسى هذا الادعاء غير المتناهى فما عرف عن حال اليهودية فى الجزيرة لا يؤيد هذه الفكرة ، ولا نعرض لرد ذلك الآن لأن أهم ما يعنينا أسلوب البحث العلمى .

٣ - يقول كذلك : « وليس القرآن الكريم أول من قال إن جد العرب الاسماعيلية أو العدنانية ابراهيم ولكن التوراة سبقت إلى ذلك إذ قالت .. » الخ فأى محظور يلزم كاتب المادة بهذا ؟ وهبه مقدساً للتوراة يسكت إن قلنا ذلك ؟ أفنكون قد حجبناه وأثبتنا دعوانا ؟ أم نكون قد ألزمناه فقط ، فكيف وهو لا يلتزم شيئا من هذا ، ولن يمنعه من الملاحظة أن تقول التوراة وغيرها ؟ ثم نقول ثانية : ما هذا الاحتجاج بالتوراة من مسلمين يقررون دخلها ينقض بناءها ؟ لاشئ من هذا كله يعد تكأة علمية عند القدماء بله المحدثين .

٤ - يقول المعلق فى سياق اثبات ابراهيم الكعبة ما نصه : « والعرب تسمى كل بناء مربع بالكعبة ، من الطراز الذى يبنيه الناس بأنفسهم وإن لم يكونوا بنائين ليجعلوه مصلى ، فهل يستبعد على ابراهيم وكان نبيا بإجماع الأمم أن يبنى له ولإبنه بناء من هذا الطراز يصليان فيه ؟ » لا يا سيدى ، لا يستبعد ، بل « يستقرب » لكن هل وقع هذا المستبعد أو « المستقرب » فى الخارج ؟ هل بنى ابراهيم فعلا أو لا ؟ ماكان عدم استبعاده ليثبته ، ولا نعرف هذا دليلا اثباتيا فى مقام الخلاف بين الشرق والغرب على صفحات « معلمة » .

٥ - يقول فى اتمام الاثبات السابق ما نصه : « .. وإذا ثبت أن ابراهيم أوصل ابنه إلى تلك البقعة من بلاد العرب وقد ثبت بنص التوراة ذلك ، فيكون من المتعين أن يتخذ له فيه بنية سائجة يجعلها متعبدا .. » الخ من المتعين ؟ لماذا ؟ هب هذا معتادا ، وكثيرا شائعا وغالبا ، وما رادف ذلك ، فهل يكفيك لتقول من المتعين ؟ لوكان الراجح لجاز أما المتعين فلن يقال فى منطق العلم نتيجة لهذه المقدمات !

وأكتفى بهذا من الملاحظة على المعلقين فى المعلمة المواجهين الغرب بما عند الشرق ، راجيا بل ضارعا إلى من يحملون القلم فى ذلك الميدان أن يتجنبوا الخطابيات والصحفيات والاستهوئيات ، والتسوية التى توقف الخلاف ، وأن يدعوا ما يستطيعون ثباته وأن يحسنوا إلى منطق القدماء وطرق مناظرتهم ، أن لم يعجبهم أن يحسنوا إلى ما للمحدثين من ذلك فكلنا حريص على أن ينزل الشرق منزلا مكرما أمام الغرب حين يلتقيان فى « المعلمة » الإسلامية .

● ●



هو الشباب دائما
النار والوقود ، والفكرة والالهام

بقلم : فتحى رضوان

ليس فى العالم اليوم أعلى من صيحة الشباب . بل ان العالم لا يشغل إلا بالشباب : تعليم الشباب ، تجنيد الشباب ، الحرص على حيوية الشباب ، حركات الشباب ، هى كل المعين الذى يستمد منه الكتاب موضوعاتهم وبحوثهم ، وهى مجال مترامى الآفاق ، لدراسات المؤرخين والنفسيين والاجتماعيين ورجال الاقتصاد .

ويلذ للكتاب أن يطرفوا قراءهم بصورة عجيبة من وثبة الشباب الحديثة ، لأنها تبدو للقراء خارقة للعادة ، ومباينة للمألوف ، إذ تعود الناس . أن تكون مقاليد الأمور فى أيد أرعشتها الشيخوخة ، إذا أردنا أن نعطى للمسألة صورة متشائمة سوداء - أو فى أيدى رجال حنكتهم الظروف ، وعلمتهم الأيام ، إذا أردنا ألا نغلو ونسرف .

وكم من مرة سمعنا أن بالبو حاكم طرابلس الايطالى قد اطلق لحيته ليخفى صغر سنه وحداثة عهده بالأعمال ، وأن فلانا من الوزراء ، أو رؤساء الدول ، لم يتخط بعد الثلاثين من عمره .

ولكنا نخطىء إذ نحسب أن وثبة الشباب ، التى نراها اليوم ، وثبة فريدة لم يسجل التاريخ شبيهاً أو نظيراً لها ، لأن تاريخ الدنيا كله ، منذ عرف للدنيا تاريخ ، هو صنع الشباب . وليس يعرف الناس عملا قلب وجه البسيطة أو ثنى عنان التاريخ ، إلا وكان الشباب صاحب فكرته أو واضع خطته بل منفذه كله ويسير على القارىء أن يتحقق هذا ، لو أنه جلس فى مقعده ، وتأمل فى تاريخ البشرية ، واستذكر اسماء أبطالها ، وبحث عن عمرهم واحداً بعد واحد ، ليكتب سجلا للقادة ، ويضع خطا بقلمه تحت اسماء كبارهم وليكتب سجلا آخر للانبياء ، وليحصى بقية المكتشفين والمخترعين وأصحاب المبادىء والعقائد ، وليخرج من هؤلاء جميعاً ، الذين بدأوا عملهم بعد أن انحدروا إلى خريف الحياة وليبق الباقين الذين تفتحت أكمام شهرتهم فى ربيع أعمارهم . فإذا وجد أن الذين نادوا بالمبادىء والذين قادوا الجيوش والذين فتحوا

للناس أبواب التفكير والتصور والذين الهبوا الثورات وأضرموها كانوا جميعاً من الشباب الذين يجرى دمهم فى عروقهم حاراً والذين يضطرهم خيالهم فى رءوسهم مديداً ، استطاع أن يعرف أن الدنيا التى نعيش فيها ليست إلا خلق الشباب وصنع يديه حقاً !

★★★

ليس فى تاريخ قادة الجيوش اسماء ألمع ، ولا أكثر لألاء من الاسكندر المقدونى ورمسيس الثانى ونابليون بونابرت .

واسكندر الأكبر لم يجتح بجيوشه فقط الولايات اليونانية المعادية لبلاده ، ولم ينطلق على رأس جنوده لتمزيق الفرس ، فاتحا طريقه إلى الهند وأفغانستان ، ومتوليا فى طريقه إلى مصر على سوريا والعراق ، بل إنه الرجل الذى نقل إلى الشرق ثقافة الاغريق والقائد الذى كان يحلم بدولة انسانية ، تمتزج فيها الصبغة الشرقية بالصبغة الأغريقية . وقد تم للاسكندر بعض هذا ، على الرغم من أنه ارتقى عرش أبيه فى العشرين ، وأنه فارق الدنيا فى الثانية والثلاثين .

أما رمسيس الثانى الذى كان يجول بجيوشه فى سوريا والعراق ذهاباً وجيئة عشرات السنين ، فقد كان على رأس جيوشه المظفرة فى الثامنة عشرة من عمره . وليس نابليون مجهولا ، حتى يجوز لنا أن نذكر أنه عرف فى الثورة الفرنسية كضابط عظيم فى الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه قاد جيوش الفرنسين هازئا معهم بجبال الألب ليهزم النمسويين فى أكثر من موقعة خلدها التاريخ وهو فى التاسعة والعشرين ، وأنه حلم بامبراطورية له فى الشرق وهو فى الحادية والثلاثين .

هؤلاء الذين هبوا بخريطة الدنيا ، وعبثوا بالحدود والفواصل ، كانوا جميعا شبانا ، لو أن الواحد منهم كان فى عهدنا الحاضر ، وأراد أن يسلك الطريق الرسمى، لما زادت مرتبته عن ملازم ثان !

★★★

فإذا انتقلنا إلى الجانب الروحى من الحياة الانسانية وجدنا عجباً .

إن التاريخ يسجل أن أقدم ثروة دينية عرفها ، كانت ثورة اخناتون الملك المصرى القديم .

فمنذ أربعة آلاف سنة ، فطن هذا الملك إلى وحدة « الخالق » فأثار تعدد الآلهة فى نفسه سخطا على الكهنة ، فترك لهم طيبة ، ولجأ إلى مدينة جميلة بناها لنفسه على مقربة من تل العمارنة ، وحرر الفن والتفكير من القيود الحديدية المفروضة عليه وقتذاك ، فانتج الصناع المصريون فنا هو أبدع ما وصل اليه ابتكارهم وافتنانهم وخلقهم .

كان هذا الملك هائماً فى ملكوت روحانياته ، شاعراً ينظم القصائد لمعبوده الذى رمز له بالشمس ، ويكتب الأناشيد التى يقول عنها أساتذة التاريخ إنها أشبه شيء بمزامير داود . هذا الملك الذى قال عن الله قبل أن تعرف الانسانية التوحيد بالاف السنين : « أنه واحد أحد » ارتقى عرشه فى التاسعة من عمره ، وألهم بدينه الجديد فى الخامسة عشرة ، ووقف فى وجه الكهنة . وهزأ بهم ، وبمعتقداتهم قبل أن يقرب من الثامنة عشرة ! لكن لا يزال تاريخ مصر الروحى حافلا بأسماء كثيرة ، لن أذكر لك منها إلا اسما واحداً ، لطول القائمة ، ذلك هو اسم « يوسف » .

فإن « يوسف » الذى قال لصاحبه فى السجن : « ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » ، والذى أدار مالية مصر ، فى سنى قحطها ورخائها ، لم يكن إلا شاباً جميلا ، يفتن بحسنه النساء ، فيراودنه عن نفسه وينقمن عليه إذ يصد عنهن ، لأنه رأى « *برهان الله* » امامه !

ولو أنك سألت انسانا ، كم سنة قضى السيد المسيح عليه السلام فى هذه الأرض وبين الناس ؟ لوجدت فى أجوبتهم بعداً عن الحقيقة . لأن الصورة التى نراها للمسيح صورة رجل التفت لحيته الخفيفة بعارضيه وأكسبته سمة الرجل الكبير الذى تخطى الأربعين . ولكن السيد المسيح لم يكن إلا شابا فى فتوة الشباب ، فقد كان فى أول العقد الثالث من عمره .

وكان بطرس الرسول الذى دعا إلى المسيحية ونشرها فى روما ، راكبا حماره الهزيل مرتديا دثاره الجافى ، شابا لم يبلغ الثلاثين .

★★★

لم يبق إلا صفحة الاسلام ، والناس انطبعت فى أذهانهم صورة غريبة للرجال الذين ثبتوا أركان هذا الدين ، والذين ظاهروه وباعوا من أجله النفس والمال ليشتروا بها الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين بقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

يحسب الناس أن الذين وقفوا مع النبى (عليه صلوات الله) ، فى وجه العسف النازل به وبهم ، ولدوا رجالا ذوى لحى طويلة ، وانهم تخطوا سن الشباب ، أو قفزوا فوقه فلم يعرفهم الشباب . ذلك كله لأن التاريخ الاسلامى تاريخ مهجور ، لا تطرق أرضه قدم ، ولا يبحث فى نواحيه باحث .

لكن دور الشباب فى صدر الاسلام دور عظيم ، بل ان الاسلام لم تنم شجرته إلا بدماء الشبان ولم تحم بيضته سوى صدورهم الفتية . ولقد كان رسول الله (ص) يقول يوم أن كان المسلمون مطاردين مراقبين : « اللهم أعز الاسلام باحب العمرين اليك » ولم يكن أحب العمرين هذا سوى عمر بن الخطاب ، وقد اعتنق عمر بن الخطاب

الاسلام فعلا . ولكن كم كانت سن هذا الذى سيعز الاسلام ويؤيده ؟ لم يكن « عمر » سوى شاب صغير يقترب من السادسة والعشرين من عمره . ولقد اعتز الاسلام بهذا الشاب فعلا ، وأصبح وزيراً للرسول الذى حكم دينه الملايين . ولو أنه عين اليوم فى هذا السن وزير فى دولة من الدول لاهتزت أسلاك البرق وكتبت المقالات وألفت الكتب !

ولقد دعا الرسول ذوى قرابته مرتين ليفهموا منه دعوته وليعرفوا الدين الجديد عساهم يؤيدونه ويؤمنون به ، فنال الرسول الاذى فى المرة الأولى ، وفى الثانية وقف فيهم يسأل : من منكم سيكون وزيرى وساعدى ؟ فلم يتقدم سوى صبى صغير هو على بن أبى طالب ، وكان فى العقد الأول من عمره ، فاحتضنه الرسول واعتز به . ولا أحسب أن التاريخ الحديث قد سجل فى صحائفه أن دولة قامت على مؤازرة الصبيان ومظاهرتهم .

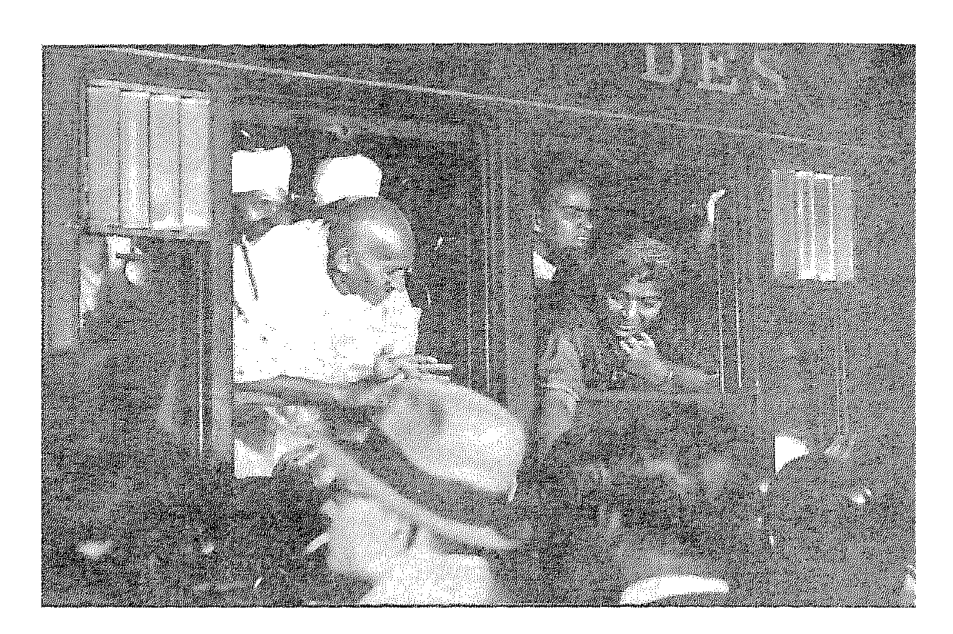
ولما فتح المسلمون مكة أراد النبى (ص) أن ينصب عليها حاكما ليعود إلى المدينة مع الأنصار . فلم يقع أختياره إلا على شاب ، أتعرف كم كانت سن وماذا كان اسمه ؟ أما اسمه فعتاب ، وأما سنه فثمانى عشرة سنة . ومكة هى مدينة العصبيات الحريصة على المقامات الدقيقة فيما يمس الكرامة .

وقد أنفذ النبى قبيل وفاته إلى سوريا جيشا فوضع على رأسه أسامة بن زيد قائداً . وكان أسامة شابا صغير السن لم يزد عن الثانية والعشرين من سنى حياته ، وقد أدركت الوفاة الرسول والجيش فى ظاهر المدينة ، فلما مرت محنة الوفاة واستقرت خواطر المسلمين قليلا أقبل أبو بكر على تنفيذ ما ارتآه الرسول من إرسال هذا الجيش وعلى رأسه هذا الشاب . فجاءه عمر بن الخطاب وطلب منه أن يكون على رأس الجيش رجل آخر أكبر سنا وأعلى مقاما ، فجذب أبو بكر عمر من لحيته وصاح فى وجهه : ثكلتك أمك ، أأعزل رجلا نصبه رسول الله لاضع فى مكانه سواه ؟ وخرج الشاب على رأس الجيش ممتطياً صهوة جواده وسار أبو بكر - رضى الله عنه - إلى جانبه على أقدامه ، وهو خليفة المسلمين ، وهيبته تعنو لها الوجوه ، وتسكت عمر الذى لم يسكته إلا الحق .

ولقد كان النبى (ص) يقول : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ولم يكن يقصد بالحميراء سوى زوجته وأحب نسائه إلى قلبه (السيدة عائشة) ولم تكن عائشة قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها حين لحق رسول الله (ص) بالرفيق الأعلى .

ويخيل إلى الذين لا ينعمون النظر ، أن أبا بكر كان هرما تقدم به العمر على الرغم من أن النبى (ص) كان يكبره بسنتين . والنبى كان فى الأربعين حينما دعا الناس إلى الإيمان بالله الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فكان صاحبه وخليفته من بعده فى الثامنة والثلاثين فقط .

وبعد ... ليس فى قدرة الكاتب أن يجمع الشبان الذين هدوا الناس وعلموهم



الزعيم الهندى غاندى فى إحدى رحلاته

وغيروا أساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم . ولو أراد أن ينطلق فى التعداد وضرب الأمثلة لوجد أمامه مثل كولمبس مكتشف أمريكا الذى أضاف إلى الدنيا قارة وهو فى مطلع شبابه . وغاندى الذى وقف فى وجه الامبراطورية البريطانية فى جنوبى أفريقيا منذ ثلاث وأربعين سنة . وهو بعد فى الثانية والعشرين من عمره . ومصطفى كامل الذى أيقظ الفكرة الوطنية فى مصر وانفق من روحه ما أفنى حياته وهو فى ريعان فتوته ، فى الثانية والثلاثين .

هو الشباب دائما : النار والوقود . الفكرة والالهام . الخيال والاحلام . التشبث بالمثل العليا .

هو الشباب دائما : الاستهانة بالحياة ، والسخاء فى البذل ، والهيام بالمصارعة والمجازفة .

صاغ للناس تاريخهم ، ورفع لهم شأن حياتهم ، ومنح للوجود معناه ، وجعل العالم قصيدة مفهومة عذبة مستحبة . فإن طغت على موسيقاه ألحان هرمة . هرمت الانسانية وشاخت . وإن شدا كالبلبل فى صياح جميل ، أنصتت آذان القدر ، وجعل الناس يطالعون صفحات لم يقرأوها من قبل .

يناير : ١٩٣٥



الثقافة العربية
هل ينبغى استقلالها عن الثقافات الأجنبية

بقلم : د . زكى مبارك

الاستقلال تلك كلمة نسمعها فى مناسبات كثيرة وتغفل عن مدلولها الحق فى أكثر الأحيان يهتف الهاتفون : ليحيا الاستقلال ! أترونهم يريدون بذلك أن يتطلعوا إلى الانقطاع عن العالم انقطاعا تاما فلا يكون بينهم وبين غيرهم من الممالك أخذ ولا عطاء ؟

ماذا يريد المصريون مثلا حين يقولون : فليحيا الاستقلال التام ! إنهم يريدون ألا يكون لأحد عليهم سلطان ، ولكنهم لا يأبون أن يكونوا مثل الأنجليز الذين يعلنون حاجتهم إلى معاملة من بعد عنهم من الممالك والشعوب . الاستقلال فى عالم السياسة هو السيادة ، وهو شئ يختلف عن الانعزال ، فالأمة المستقلة تسود ولكنها لا تنعزل ، لأن العزلة ليست من مذاهب الأحياء . وكذلك نقول فى استقلال الثقافة العربية عن الثقافات الأجنبية ، فنحن نريد أن تكون للأمم العربية ثقافة لها خصائص وأصول ، ولكننا ننكر انقطاعها عن الثقافات الأجنبية ، لأن الانقطاع عن العالم من علائم الضعف والخمود .

ومن أجل ذلك أنكر تنقية اللغة العربية من الألفاظ الأجنبية ، لأن اللغة التى تخلو من الألفاظ الأجنبية تشهد على أهلها شهادة سيئة ، إذ تصورهم منقطعين فى الميادين الصناعية والاقتصادية ، والأمة التى تخلو لغتها من الألفاظ المعاشية والمدنية هى أمة ضعيفة لا تعرف كيف تعامل الناس ، وهل يعيب الانجليز والفرنسيس والألمان

أن يكـــون فى لغاتهم ألفاظ أجنبية ؟

لقد قيل إن فى الأنجليزية أكثر من ألف كلمة عربية تدور على الألسنة فى المخاطبات والمكاتبات ، فهل كان ذلك دليلا على ضعف الانجليز ؟ هيهات ، إنه بالعكس دليل القوة والجبروت ، وهو يدل على أن الأنجليز خالطوا الأمم العربية فأخذوا وأعطوا بلا تهيب ولا اشفاق ، وسيأتى يوم ينحصر فيه الانجليز فى جزيرتهم عل نحو ما كانوا فى الأعصر الخالية ، ويومئذ لا يكون هناك ما يدل على ماضيهم المملوء بالحركة والتغلب غير ما يبقى فى لغتهم من الألفاظ الأجنبية .

إن فكرة الاستقلال فكرة سياسية ، لا مدنية ولا علمية ولا أدبية ، وإذا جاز أن يكون لهذه اللفظة ألسنة تلوكها فى عالم السياسة فإنه لا يصح أن تجد من ينطق بها فى عالم العلوم والآداب والفنون لا ينبغى أبداً أن تستقل الثقافة العربية عن الثقافات الأجنبية ، ولكن يجب أن يكون للثقافة العربية مقام ملحوظ بين سائر الثقافات ، وهل استقلت الثقافة الفرنسية أو الثقافة الانجليزية ؟

إن هاتين الأمتين مدينتان لعناصر أجنبية أشهرها ما ورثوه عن اليونان والرومان وكيف تستقل الثقافة وهى لا تقوم إلا على أساس الادراك والاستيعاب ؟

أيمكن أن نقارن من اطلع على أدب واحد بمن اطلع على أدبين ؟

إن الثقافة هى خلاصة المعارف والتجاريب ، ولا يغمض عينيه عن تجاريب غيره إلا غافل أو جهول ، أما العاقل فيتطلع إلى مختلف المعارف والثقافات فى مختلف الممالك والشعوب ، لأنه يدرك جيداً ما يعود على عقله وذهنه من النور وهو يتلقف ما جادت به القرائح فى مختلف البلاد . يجب أن نستوعب الثقافات الأجنبية ، ويحسن حين يمكن ذلك أن نهضمها بحيث تصبح عنصراً من ثقافتنا القومية ، وهل كانت أكثر معارف فولتير إلا اقتباساً استفادها من أسفاره فى الممالك الأوربية ثم حولها بلباقته إلى أصول فرنسية ؟

اذكروا لى رجلا واحداً من المصلحين كان أدبه كله وليد البيئة المحلية ، إن جميع المصلحين فى العالم كانوا من أهل الشره فى الاطلاع على الثقافات الأجنبية ، وكانت قرائحهم تتوق إلى اقتناص الشوارد من الأفكار والآراء .

انظروا إلى مصر فى الماضى والحاضر تجدوا المصلحين كانوا قوما اتصلوا بأهل الشرق أو الغرب ، انظروا إلى كبار الأدباء والكتاب والمفكرين تجدوهم قد اتصلوا بأهل الشرق أو بأهل



الغرب ، وإن اتفق لكم أن تروا رجلا مستنيراً لا يعرف لغة أجنبية فثقوا بأنه اتصل بالآداب الأجنبية عن طريق المترجمات أو الاتصال بمن درسوا الآداب الأجنبية ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فثقوا بأن الجو الأدبى نقل إلى ذهنه طوائف من الصور والأساليب .

وتذكروا دائما أنى لا أوصيكم بالفناء فى الآداب الأجنبية ، ولكنى أوصيكم بالتخلق بأخلاق الأقوياء من الأجانب وعهدى بهم ينقلون إلى لغاتهم ما يملكون نقله من جيد الآراء ، ثم يتصرفون تصرف العبقريين لا تصرف الناقلين .

وما الذى يمنع من التذكير بماضى اللغة العربية ؟ إن هذه اللغة مدينة منذ أجيال طوال للغات الأجنبية ، ألم ينقل العرب إلى لغتهم أنفس ما عرفوا من آثار الهنود والفرس والروم ؟ ألم تمض على العرب أزمان وهم يتصرفون فى تراث اليونان ؟

وكيف كان يمكن أن نتصور أدب العرب لو أغمضوا أعينهم عن طرائف الآداب الفارسية واليونانية ؟

وأنا فى هذا المقام أدعو إلى التخلق بأخلاق العرب القدماء ، فإنهم هضموا أكثر ما عرفوا من الثقافات الأجنبية ، ثم فرضوا ثقافتهم على من اتصل بهم من الناس ، وما أريد أن نكون اليوم آلات حاكية تردد ما يقول الأجانب بلا فهم ولا وعى ، وإنما أريد أن يكون لنا بجانبهم وجود ذاتى ، وأن تكون ثقافتنا من المراجع وأن يكون أدباؤنا أئمة يهتدى بهم أهل الشرق والغرب ، على نحو ما يتفق لبعض الآداب الأوربية التى تقرأ ذخائرها فى الصين واليابان .

لقد لاحظت أن بعض الطوائف يكثر فيها العرج ، فسألت أحد الأطباء عن سر ذلك فأخبرنى أن السبب يرجع إلى أنهم يتزاوجون فيما بينهم ولا يصاهرون الأجانب على الإطلاق

أفلا يصح فى عالم المعانى ما صح فى عالم الأجساد ؟

ألا يمكن أن يقال إن بعض الأمم تصاب (بالعرج العقلى) حين تنطوى على نفسها فى أفق الفكر والبيان ؟

أنظروا الموسيقا الشعبية فى مصر ، وتأملوا كيف ركدت حين وقفت عند الطبل والأرغول ثم انظروا كيف ارتقت الثقافة الموسيقية فى مصر حين استبحنا نقل الموسيقا الغربية أما بعد فإن الاستقلال يمكن تصوره فى كل شئ ما عدا العلوم والآداب والفنون ، يمكن لكل إنسان أن يكتفى بما عنده من طعام وشراب ، ويمكن لكل رجل أن يلبس كما كان أجداده يلبسون ، ولكن لا يمكن لعاقل أن يكتفى بما فى وطنه من المعارف والآراء ، لأن الزهادة فى تثقيف العقل باب

من الخيال .

انهبوا الدنيا كلها إن استطعتم ، وانهبوا ما فيها من محسوس ومعقول ، واتركوا التغنى بموروث التقاليد للعجزة والضعفاء ، فإن الجد الكبير كان دائما سناد الخائبين .

وهنا كلمة واجبة :

فقد نرى بعض الناس يتشدقون بالتحدث عن الثقافات الأجنبية وهم من نماذج الضعف فى الثقافة العربية ، وإلى هؤلاء نسوق الحديث :

لا يليق بالرجل أن يجهل ما يملك ، أو ما يجب أن يملك ، من التراث الأصيل ، ثم يتشدق بما لا يملك من أدب الناس .

إن المثل الأعلى للأديب أن يتفقه فى لغته أولا ، ثم يدرس من اللغات ما يشاء . والأدباء النابهون فى الدنيا هم أدباء فى لغتهم أولا ، أما المخلوقات الحديثة التى تجهل اللغة العربية ثم تتحدث عن ذخائر الآداب الأجنبية فهى من مبتدعات الشيطان فى هذا الجيل .

وحين ندرس أقطاب الأدب فى العصر الحاضر نجدهم من أهل البصر بلغاتهم ، وكذلك كان الحال فى كل أرض وفى كل زمان .

فالأديب العربى مسئول عن التعمق فى اللغة العربية ، ولا يليق به أن يعرف شكسبير قبل أن يعرف المتنبى ، ولا يصح أن يعرف ملتون قبل أن يعرف المعرى .

فإن سمعتم أن فى بعض المصريين أو السوريين أو العراقيين من يحسن الكلام عن ويلز أو بلزاك وهو لم يسمع باسم ابن خلدون ، فاعرفوا أنه أديب شيطانى سيموت عند حلول رمضان !

الأديب الحق بين العرب هو الذى يعرف من أسرار اللغة العربية ما يعرف الأديب الفرنسى أو الأنجليزى أو الألمانى من أسرار الأنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

الأديب الحق يعيش مغمور القلب بالعواطف الوطنية ، ومغمور الرأس بالمعارف العالمية ، هو رجل يتكلم بلغته القومية ، ولكنه يتسامى إلى التفكير على نحو ما يفكر أكبر عقل ، وإن كان صاحب ذلك العقل من سكان المريخ .

نوفمبر ١٩٣٦

أخطـــار تهـدد الثقـافة

بقلم : عبد الرحمن صدقى

لاشك فى أننا نواجه اليوم نشوء عقلية جديدة . ونحن نعرفها - على الوجه الأقرب الأعم - بسماتها السلبية الهادمة . فهى معرضة عن الاعتبار بالماضى وتقديسه ، زاهدة فى الدراسات التقليدية القديمة الخصبة بما توحيه من عبادة للجمال وسمو بالتفكير ، نافرة من الأمثلة ، الانسانية العليا ، لها رغبتها المؤكدة وإن كانت تتفاوت ظهوراً وخفاء - إلى نقض المقاييس الخلقية المقررة وإحلال مقاييس غيرها أكثر ملاءمة لها ، كما أن بها نزعة ملحة إلى الاغراق فى التحليل والتشريح حتى يستحيل كل شىء إلى مواده الأولى ويتجرد من معانيه الروحية والخيالية .

وقد شغلت هذه الحال بال المفكرين وأثارت مخاوف البعض على مستقبل الثقافة .

فالناس فى عصرنا هذا ، عصر القوة والآلة والسرعة ، دائماً معجلون محمومون . فالفترات التى نستطيع كل يوم أن نخلو فيها بفكرنا وضميرنا لاتزال يقل عددها وتتقاصر مددها . فنحن نكاد نكون محرومين من حياة التجرد والتفكير . وإذا اشتغلنا سواء بالفنون أو بالعلوم فإنما نشتغل واقعين تحت سيطرة هذه الحمى المتفشية فى الخارج حولنا والتى تختلط بحمى الخلق والابداع فى نفوسنا .

ومن معقبات هذه الحركة الدائبة الصاخبة ما نراه من نزوع هذا الجيل المتعب إلى الأوضاع المبسطة الواضحة المجملة . وقد ظهر هذا التبسيط فى الأدب ، وهو فى التصوير والعمارة أوضح وأبعد مدى . ولقد أصبح فن الزنوج وموسيقاهم فى مقدمة ما يستهوى هواة الفن فى هذه الأيام . وليس من شك فى أن ما يسمونه العودة إلى الطبيعة ونشدان الأوضاع الأولية للحضارة يؤدى من تلقاء نفسه إلى نكران الثقافة .

ثم إن العلم نفسه أصبح خطراً على الثقافة الحاضرة . فقد زاد التقدم العلمى فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة حتى صار من المستحيل كل الاستحالة على أى عقل من العقول أن يهيمن على جملة المعارف الانسانية ويستوعب هذا المقدار الكبير الذى جمعته الانسانية طيلة هذه القرون . فلم يكن بد من التجزئة ، فاقتصر كل فرد على ناحية من الاشتغال العلمى ، وصار الاختصاص أمراً واجباً . وفى كل يوم يزداد الاختصاص ضيقاً وانحصاراً ، وينتحى من هذا الفضاء الشاسع من المعرفة الإنسانية حيزاً يصغر نطاقه وتتكمش دائرته يوما بعد يوم . وذلك أن المعارف المحصلة فى كل صغيرة تزداد مع البحث تعدداً وتعدداً ، فلا مندوحة للمتخصص عن التوفر كل التوفر على نقطة بعينها والاستغراق فيها . ويترتب على هذا أن يكون المتخصص جاهلا بكل ما لا يدخل فى اختصاصه ، وهذا الذى لايدخل فى اختصاصه كثير كما رأينا . ثم إن المسألة لاتقف عند الجهل بأمور كثيرة بل هى تعدوها إلى أن مثل هذا المتخصص يصبح وليست له أية نظرة عامة شاملة حتى فى العلم وطرائقه . صحيح أن الانسانية قد زاد محصولها من المعارف وأنها لم تكن فى زمن من الأزمان أعلم منها اليوم ، غير أنه يصح أن يضاف إلى ذلك كذلك أن الأفراد لم يكونوا فى زمن من الأزمان أجهل منهم اليوم . فالثقافة الشخصية فى عمومها وشمولها تعوزهم كل العوز ، وقد أحال الاختصاص كل فرد إلى آلة للتفكير فى نسق خاص من المسائل إذا عداه وقفت حركتها وبطلت ميزتها .

ثم إن تقدم الصناعة على يد الرأسمالية جعلها تنتج بواسطة الآلات مقادير هائلة بالجملة ، فتغرق الأسواق بمصنوعات من طراز واحد . وإنك لترى المساكن اليوم

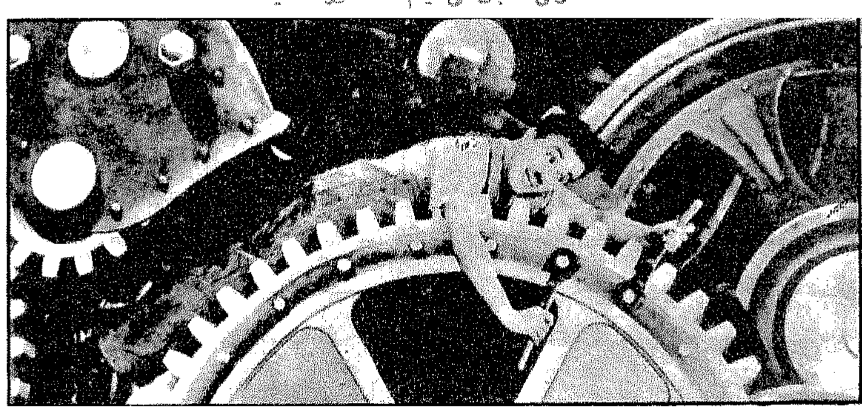


عبد الرحمن صـ

فى المدن ، وما فيها من الأثاث ، وسائر الأدوات المتداولة فى المعيشة ، بل مطالعاتنا نفسها من كتب وصحف يومية - كل هذه أصبحت اليوم واحدة لكل الناس ، خلافا لما كانت عليه الحال منذ قرون إذ كنا نوصى هذا الصانع أو ذاك بصنع ما نريد من أثاث لنا ، وقد نكتسى مما نسجته فى البيوت نساؤنا . وأما اليوم فالأشياء غير مصنوعة لواحد منا بعينه ولايعرف لها صانع بعينه ، وإنما هى معروفة بعلامة المصنع المسجلة ورمزه العام على هذه الصناعة . ولاشك فى أن هذا التوحيد فى أسلوب المعيشة وما يلابسها ويحيط بها يترتب عليه مستوى روحى واحد بعينه بين الناس كافة. فثمة محل للاشفاق من أن يصبح الناس هم أيضا كالمصنوعات ليس لواحد منهم ثقافة مميزة .

كذلك انتشار الثقافة المتوسطة ، ويعنون بها معرفة القراءة والكتابة وأكثر من ذلك بقدر جد قليل . وقد كان فى ازدياد عدد هؤلاء حافز يستدعى وجود مؤلفين يكتبون لهم . وماذا يكتبون ؟ أشياء مما يعجب هذا السواد الأعظم بطبيعة الحال ومما يفهمونه بسهولة ما بعدها سهولة ومن غير أدنى صعوبة . أى أنها أشياء فى مستوى فكرى غير رفيع . ولقد طغى على الأدب كتاب من الطبقة الدنيا ، ويتعذر على الجمهور التمييز بين الطيب منهم والخبيث ، وبين النوابغ ومن هم دونهم . ولم يعد الجمهور يتطلع بعين الاكبار والاجلال إلى أعلام المفكرين الذين يفوتون ادراكه ويعلون على مستواه ، ولم يعد يهتدى فى أذواقه وتقديراته واعجابه بأحكام الفحول من النقاد وقادة الفكر وينتصح بارشاداتهم وتوجيهاتهم ، وإنما هو يعجب بما يعجبه ويرضيه أى بكل ما هو دون ، أو على الاكثر متوسط . وهذا الاستقلال من الجماهير فى اختيار زادها الفكرى فيه أكبر الضرر على مستقبل الثقافة .

شارلى شابلن فى فيلم «العصور الحديثة»



يبقى بعد ذلك أنظمة الحكم التى تقضى على حرية الفرد . فانه إذا كانت الكثرة لا يعرفون تمام المعرفة ماذا يصنعون بالحرية ، فليس فى هذا مبرر للقضاء على الحرية ، لان حاجة الأذهان الكبيرة والنفوس العالية إليها حاجة مادية كالحاجة إلى الهواء ، ولأنه لا نماء للثقافة الأصيلة بمعناها الصحيح فى جو غير طليق .

* * * *

تلك هى مخاوف المتشائمين ، وما نحسب القارىء لها يعدهم جميعاً من الواهمين . إلا أننا نشفق على الناس من الجزع لو تركناهم وشبح هذا الخطر ماثل أمامهم يملأ عليهم الفضاء ويسد المنادح . فنسارع إليهم هنا بما يطمئن من أقوال الفريق الآخر من المفكرين المتفائلين .

فما من شك فى أن الاختصاص الفكرى فى عصرنا مما يؤخذ عليه . ولكن ما من شك أيضا فى أن تجارب القرون الأخيرة التى أخذت بالاختصاص شاهدة على أنه أسرع إنتاجا ، فهو كسب على الأقل من ناحية السرعة . على أن الحياة نفسها لا تسمح قط لأحد بالبقاء بمعزل تام عن تأثيرها على اختلاف مناحيها ، فالعالم الذى يصح أن يقال إنه منقطع عن الحياة فى برجه العاجى لا وجود له اليوم ، فإن الحياة الحاضرة لها من القوة على النفاذ ما ليس لأحد دونه مناعة ، فنحن – سواء أردنا أم لم نرد – ممتزجون بها ولامندوحة لنا من أن نحياها ونفكر فيها مع سائر العالمين . وكما أن المتوفر على الأدب الذى لايلم بطرف من العلم يعتبر اليوم بعيداً عن الرقى ، فكذلك شأن العالم الذى لم يتذوق شيئا من الفن والأدب . ثم إن تقدم العلم تقدمه الكبير يستوجب منا التزود بالأفكار العامة للاستنارة بها حتى فى زوايا العلم الخافية. ومن غير الأفكار العامة لا يتسنى لعالم أن يساهم مساهمة لها شأن فى أى فرع خاص من فروع المعرفة أيا كان . فلا بد لعلماء الحياة اليوم من أن تكون لهم أفكار عامة عن الطبيعيات وعن الكيمياء بل والرياضيات . وكذلك شأن رجال الاقتصاد والاجتماع . ولابد للرياضيين من تحصيل أصول العلوم الطبيعية وأن تكون لهم فوق هذا استعدادات فلسفية ، وهكذا حتى ليصح القول على سبيل المفارقة أن أقل الناس تخصصاً اليوم هم المتخصصون . ولئن يك ثمة اختصاص بالمعنى الضيق فلا يمكن نسبته لغير العلماء من الطبقة الثانية أو ما دونها . أما العلماء من الطراز الأول فلهم فى سائر المعارف الانسانية مشاركة يتفاوت مداها ، وإلمامهم فى غير اختصاصهم مهما قل فلا يكون قط دون معدل المعرفة عند الناس .

أما الاشارة إلى توحيد أساليب الحياة على أنها من مساوىء الزمن الحاضر ، فأمر مبالغ فيه أيضا . لأن النزوع إلى التشابه قائم منذ القدم . والذى استجد اليوم

على الموقف هو سرعة الشيوع نظراً للوسائل التى استجدت . فقد كان الفنانون مثلا من مصورين وبناة يرحلون من بلاد الفلمنك إلى إسبانيا أو إلى ايطاليا وبالعكس فيقضون من حياتهم عشرين أو ثلاثين سنة لينقلوا من قطر إلى آخر أساليبه الفنية ومعانيه المستلهمة فضلا عن أسرار الصنعة حتى أدق دقائقها . أما اليوم فى عصر القاطرة والباخرة والطائرة . فلمن شاء أن يجوب الأرض كلها مستطلعاً ومقتبسا فى أقل من هذا التوجه المزعوم سطحى . ولو أننا لا نقنع فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والفن والأدب بمجرد استعراض مذاهبها ، بل نستقصى آراء أصحابها فى مطولاتهم لتبين لنا أن ما يبدو متشابها لا يلبث فى التفصيل أن يداخله الخلاف وتتباعد شقته بعد ما بين المذهبين المتناقضين . فالنفس الانسانية غنية بكل متنوع ومرتجل .

أما خطر الجماهير المتعلمة بعض التعليم على الثقافة العليا فمن الأمور المسلم بها . على أن الخطب يهون إذا نحن واجهنا الموضوع على الوضع الآتى :

أيهما أشد على مستقبل المدنية خطراً : أن يكون لدينا نواة صغيرة من الثقافة العليا تحيط بها جاهلية هائلة كثيفة ، أو أن يكون لدينا ثقافة تتسرب ما استطاعت فى الكتلة التى حولها وتتخلل كثافتها ابتغاء تعديلها ؟

نظن أنه لانزاع فى أن الخطر الأعظم هو فى وجود جمهور هائل كثيف من الناس حول ثقافة لا يتصلون بها أى اتصال . والتاريخ نفسه شاهد صدق على ذلك . فليست هذه بالمرة الأولى التى تتعرض المدنية فيها للخطر . ولقد كادت المدنية مراراً تندثر وتصبح فى خبر كان . بل لقد عفى عليها وانطمست معالمها إلا قليلا فى بعض العصور ، فكيف كانت عملية هذا الاندثار الذى أصاب الحضارة القديمة ؟ لقد كان السبب بعينه أن مدنية بلغت شوطا بعيداً فى التقدم وازدهرت أبهى ازدهار وأخرجت أجمل الثمار ، تحيط بها كتلة لامنفذ البتة فيها للثقافة ، ومن جراء ذلك كانت الواقعة . فليس من صالح الثقافة والمدنية والفن والعلم أن تبقى كالمعسكرات فى وسط مئات الألوف من الأهلين المعادين لها . وطالما بقيت الانسانية لاتلابسها الثقافة ولا تتخللها مع كل ما فى شيوعها من قصور وابتداء ، فانه لن يبرح حولها هذا العدد الأكثر من الأهلين المعادين متحفزين على الدوام لتدميرها يوم تسمح الحال . والأسلم للثقافة جمهور عنده فكرة ولو غامضة عن قيمة العلم والفن . وإننا لو تصورنا أقواما من السود أو الصفر ممن بلغ اليهم ولو بالسماع خبر آيات الفن عند الغربيين ، قد أغاروا اليوم على بلاد الغرب ، فاننا نتصورهم يترددون ولا ريب دون احراق المتاحف التى تحوى هذه الآيات ، بخلاف الهمج بالمعنى الصحيح القح الذين لا يعلمون عن هذه

الثقافة والمدنية شيئا ، فانهم فى طغيانهم على الدولة الرومانية قديماً وما يشابهها حديثا يهدمون كل شيء ويدمرون كل شيء لانهم لايعرفون هذا الذى يهدمون ويدمرون .

أما فيما يختص بالحكومات وموقفها من الفرد ، فتلك مسألة قديمة ومشكلتها عويصة . إلا أن الحكومة طالما كانت عبارة عن الأمة فى صورة مجملة محسوسه فلا ضير منها على حرية الثقافة . ولئن قامت بعض حكومات مستبدة ودكتاتوريات عاتية ، فما نحسبها كانت إلا احداثا طارئة في التاريخ ، قديمه وحديثه ، ولم يكتب لها قط ولن يكتب لها البقاء ، لان ما تحصله البشرية فى مراحل تقدمها لايمكن ضياعه ، وقد حصلت على الحرية بعد أن بذلت فى سبيلها المهج ، فلن تنفض منها أبد الدهر كفها ، ولن ترجع الانسانية القهقرى . وإنما هى فى تقدمها قد تتعثر ، ولكنها أبدا تنهض من عثارها وتستأنف سيرها صامدة إلى الأمام .

أما قيام الوطنيات المتطرفة وتيقظ النعرة الجنسية وروح العصبية فليس منه كبير خطر على الثقافة ، بل لعل فيه خيراً لها من ناحية . فانه من صالح الثقافة أن تتمثل فيها الصفة القومية الفردية والصفة العالمية . وإننا لنجد لأدب كل أمة طابعا خاصا بها ، ولقد تشاركها فيه غيرها من الأمم ولكنها مشاركة لاتبلغ قط مبلغها فيه . وهذه الظاهرة جد قديمة . فالأدب العربى الجاهلى مثلا ناطق بالفحولة والروح الفطرية ، والادب الانجليزى متميز بالناحية الخلقية ، والفرنسى طافح بالحيوية العاطفية الحسية، والجرمانى متسم بالمعانى الغامضة الروحية ، والروسى بالانسانية السمحة الفياضة . ونحن فى نشداننا هذه الآداب ننشدها للصفة المميزة لكل منها . وفى انطماس هذه الصفة ضياع لعنصر من أهم عناصر الحياة فيها .

وأخيراً فان هذه الاعراض والأزمات قد تكون هى الحالة الطبيعية . وذلك أن التطور لايسير أبداً على نسق متصل ، بل تتداوله حال بعد حال ، يسميها البعض أزمات ويصح تسميتها دفعات . وهذا التقطع الظاهرى فى سير الأمور هو السير الطبيعى عند من يستعرض مصادر الأشياء ومواردها ويأخذها فى جملتها .

وبعد ، فليس معنى هذا جميعه أن لاخطر على الثقافة ، كلا ، إن الثقافة فى خطر ، شأنها اليوم فى ذلك كشأنها فى الماضى ، ولن يكون شأنها غير هذا فى المستقبل . ومادامت الحياة ، فالخطر راصد لها ولأسبابها . ولولاه لادركها الركود ، وهو صنو الموت وسبيله . وبالجملة فالخطر قائم ، ولكن الثقافة ، شأن كل ما هو حيوى، مما يجرى عليه قول نيتشه : «كل مالا يقتلنى يقوينى» .

يونيه ١٩٣٧



بين العامية والفصحى

بقلم : الدكتور أحمد زكى ★

اللغة ألفاظ ، ومعان تضمنتها تعابير صبت ألفاظها فى القالب الواحد ، فتحركت فى اللغة كاللفظ الواحد ، ثم نحو وصرف . وسأقصر قولى فى هذه الكلمة على الألفاظ وحدها .

ففى اللفظ يريدنا الفقهاء والمناصروهم ، على أن لا يكون من الفصحى الا ما حوته القواميس ، أو ثبت بالتحقيق الدقيق أنه جاء فى كلام العرب ، والعرب القح الأولين ، حتى لقد يحتج المحتج للفظ ببيت لتأخر فيقول قائلهم هذا مولد ، ثم يقبل الحجة إن قبلها تسامحا وهو كاره . ويذهبون إلى الحجاج للفظ وعليه بالمقال تلو المقال ، وبالسند ضد السند ، حتى تحسب أن هذا الخصام فى مادة من مواد الدستور ، أو قاعدة من قواعد الوجود . وإن شئت مثلا فارجع إلى ما قيل حديثا فى لفظة «عبر» حين تقول عبر المحيط . أهى عربية ؟ وهل وردت فى كلام العرب ؟ وهل يصح أن يكون المصدر ظرفا للمكان ؟ أم هى منصوبة على الحال ؟ وكتبت فى هذه عدة مقالات أكلت كثيرا من وقت الجمهور . وأخيرا يهتدى المهتدى إلى الشاهد الذى يبرىء الجرائد والكتاب من هذه الوصمة الكبرى ، ويجىء بالبيت الآتى لسواد بن قارب ، وهو من العرب الصريحين :

فشمرت عن ذيلى الازار وأرقلت بى الدعلب الوجناء عبر السباسب

فيكون هذا البيت مثار نقاش جديد ، وعراك جديد .

★ كان المرحوم الدكتور أحمد زكى رئيسا لتحرير الهلال عدة سنوات من أواخر الأربعينات إلى منتصف الخمسينات

هذا واللفظ عربى أسىء استخدامه ، أو زعموا أن استخدامه أسىء . أما إن كان اللفظ عاميا صريحا فهو لفظ منبوذ لا تقربه أيدى البراهمة من الكتاب ، فان هم احتاجوا اليه اضطراراً ، لأن الفصحى لا تسعفهم بمثل معناه ، فتحوا له على الورق قوسا ، ثم أخذوا اللفظ بأطراف أناملهم وأسقطوه على الورق فى عجلة إسقاطا حتى لايطول مسه للبنان الطاهر ، ثم هم عجلوا فأغلقوا عليه بقوس آخر خشية أن تفوح رائحته الكريهة ، فتعبث بالأنفاس العطرة التى تنبعث فيما حوله من كلم فصيح ارستقراطى مختار . وأى لفظ هذا الذى يحسبونه وراء الاغلاق ؟ هو اللفظ الذى يخرج من فم الملك الفخم وهو على سرير ملكه ، ومن فم الأستاذ الضخم اذا جلس إلى منصة درسه ، وهو الذى ينتقل على أرض مصر ، ليل نهار ، من مليون لسان إلى ملايين الآذان ، فلا يعوقه فى تنقله فقر البيئة أو غناها ، ولا علمها أو جهلها ، فيسمع فى الكوخ ، ويسمع فى القصر ، ويسمع فى المصنع ويسمع فى الحقل ، ويسمع فى السوق ويسمع فى المكتب ، ويسمع فى المقهى وفى الملهى ، ويخرج كالرعد من حناجر كالنواعير ، ويتلمس مخرجه عنيفا من بين أشداق صفاق ، وشوارب كاللحى ، ويخرج كالنغم الحلو الشهى من حناجر رقيقة كأوتار المثانى ، يتلمس مخرجه هينا لينا من بين ثنايا كالاقحوان ، وشفاه دقاق كوريقات الورد وهو أحمر قان . هذا هو اللفظ المنبوذ الذى يضعه المتزمتون بين قوسين – له ملكوت مصر وسماؤها وأرضها والسبعة الطباق ، ثم لا يؤذن له بمساحة كالاصبع على صفحات الاوراق ، إلا أن يصحبه حارس عن يمينه وحارس عن شماله .

إن من الناس من هو سواقط قيد ، وكذلك السواد الأعظم من هذه الالفاظ سواقط قيد . وليس من أجل سقوط القيد يحكم على اللفظ بفساد أصله وخبث سلالته . فلابد لنا اذا نحن تشبثنا بأرستقراطية الأصول ، ألا نتهم لفظا بعجمة الا اذا ثبتت عجمته . إن التاريخ يستقى من مصدرين ، السجلات المكتوبة ثم التواتر . واللغة كالتاريخ ، سجلاتها القواميس وتواترها على ألسنة الخلق . ومن هذه الألسنة ألسنة المصريين فهى عربية فى الصميم ، فيجب أن يكون لها اعتبار عند الإسناد لا يقل عن سند المراجع . فكل ما نطق به اللسان المصرى ، واللسان السورى والعراقى والنجدى إلى ما هنالك من سائر الأمم التى لانزاع في عربيتها ، لابد أن نعتبره عربيا حتى يقوم الدليل على أنه غير ذلك . وسوف لايعوزنا الدليل السريع على عجمة الكثير، وكفى بالجرس هاديا . فاذا ساغ اللفظ جرسا ، وطاوع نحوا وصرفا ، أجزناه ولو

على خشية أن يكون دخيلا ، كما أجزنا لكثير من دخلاء مصر أن يكونوا مصريين ، لما غلبتهم البيئة والزمن الطويل فمحا منهم فوارق الغرباء فصاروا مصريين قلبا وقالبا .

إن الرأى الذى يجرى عليه الحنابلة من اللغويين فى تعرف عربية الكلمات رأى لا يمكن قبوله ، لأنه يفرض أن كل لفظ غير عربى حتى تثبت عربيته ، وتثبت من المكتوب الذى انحدر الينا بالتوارث من القديم . وهم بعد ذلك يربطوننا ، لا بثبوت وجود الكلمة فى هذا المكتوب فحسب ، بل يربطوننا فيما قيده هذا المكتوب من معان ومن مشتقات . فإذا جرت الألسنة الحاضرة بغير هذه المعانى أبوها على الكتاب ، لان هذا المعنى لم يرد فى القواميس ، ولو ورد لفظه ، واذا جرت الألسنة بغير هذه المشتقات أبوها على الكتاب لأن هذا المشتق سماعى ، وهو لم يسمع فى كلام العرب ، ولستم بالعرب أيها الكتاب .

جرى الحديث فى مجلس قريب عن لفظة «النطع» بفتح النون ، وجمعه أنطاع، ذكرته مثلا لما أقول . وسألت هل هو عربى بالمعنى الذى يستخدمه المصريون . فنقلوا إلى الحجرة اللسان والمحيط ومحيط المحيط ، وبعد الفحص تبين أن اللفظ موجود ، وأنه ينطق على أوجه أربعة كلها صحيحة ! ولكن مع الاسف معناه البساط من الأديم ، فالمعنى المصرى إذن عامى ، اذا استخدمه كاتب عربى له اعتبار وسمعة ، واستخدمه اضطرارا لاعوازه المرادف المكافىء ، وجب وضعه على الورق بين قوسين كالكفين تحليقا عليه وتحذيرا منه . ثم يذكر الذاكر أن النبى قال «هلك المتنطعون» وأن القاموس قال فى التنطع إنه التعمق فى الكلام والتأنق فيه والمغالاة . فهل تظن بعد هذا أن القوم الذى أعنى استبانوا الحجة ، وقدروا أن هذا اللفظ لا بد عربى فى مبناه بمعناه الذى يريده المصـريون ، وأنه إن سقط من القواميس فلأنه من سواقط القيد ؟ لا ! فهل بعد هذا تنطع (بمعنى القاموس) وهل كهؤلاء أنطاع .

ولفظ آخر جرى به ذاك الحديث اعتباطا : لفظ «بهدل» قالوا ننظره فى القاموس ، ولكنهم حكموا بعجمته يقينا قبل استطلاع القاموس . ومع هذا فلا يكاد ذوق عربى ينكر عربيته . والناس تقول بهدله ، سيبهدله ، وجاء متبهدلا ، واياك والبهـدلة ، فكل هذه المشتقات كيف جرت على الألسنة الا أن تكون إرثا ضاعت حجته . وإن لم تكن اللفـظة عربية فمن أية لغة هى ؟ تركية ! فارسية ! طليانية ! رومية ! ولكن أين جرسها من جرس تلك اللغات ؟ ثم ما بال المشتقات ؟ وأخيرا جرى الشك فى العقول الحائرة فجىء بالقاموس ، فاذا به : بهدل الرجل عظمت ثندوته ، وليس به غير هذا . قلنا وما الثندوة رحمك الله ، فقلب الصحائف ثم قال : الثندوة ثدى الرجل . عندئذ اتسع مجال الخـيال لربط قديم اللفظ بجديده ، فلما لانت العرائك ،

ملت الى صديق محافظ فسألته : أفبعد هذا تجيز هذه اللفظة فيما تكتب ؟ قال لا . قلت أعندك أخت لها تقوم بالضبط مقامها ؟ ففكر طويلا ثم قال لا .

والحق أن كل ما نطق به اللسان المصرى وانسجم مع العربى فهو عربى . بل أزيد فاقول حتى ماثبت أنه أعجمى ثم استعرب وجب عده عربيا ، ووجب الاذن له بالتجوال حيث تجول الالفاظ العربية الصريحة فى المنثور والمنظوم .

انك لتقرأ الرواية الافرنجية فتحس فيها بالحياة ، وبأنها تقص عن هذه الحياة ، وتقرأ الرواية العربية للكاتب المتفصح فتحس كأن اعرابيا خرج من القبر حيث ثوى القرون ، ثم جال ساعات فى كنف هذه المدنية الحاضرة ، ثم عاد إلى قبره يصف ما رأى ، فما أفصح ولا أبان ، لان لفظه لم يركب الأشياء ، فكل شىء رآه على قدم كان عنده نعل فالجزمة نعل ، والشبشب نعل ، والصندل ، وكل شىء رآه على جسد كان عنده لباسا وكل شىء رآه على رأس فهو غطاء ، حتى القبعة لايعرفها ، وكل شىء مستطيل يجلس عليه فى المنزل فهو أريكه ، وكل شىء يسير فى الشارع على عجل فهو عربة ، فالكرو عربة ، والحنطور عربة ، والترام عربة ، والسيارة عربة . وقس على هذا سائر الأشياء . من أجل هذا يعانى الكتاب كثيرا ، ويعانى القراء أكثر، وتبتئس اللغة وتخمد بين هؤلاء وهؤلاء ، وتقوم مقامها فى الكتب وعلى المسارح عامية متسفلة لاترضى ذوقا ولاتسعف بالمعانى إذا خرج الكاتب عن نطاق أهلها .

إنى لا أدعو إلى العامية ، ولكنى أدعو إلى توسيع الفصحى حتى تشمل أكثر ما فى العامية الحاضرة من سلالات عربية أخنى عليها الزمان بضياع أنسابها .

ولست مدفوعا إلى هذا بدافع لغوى ، فلست من رجال اللغة ، ولكنى مدفوع بدافع اجتماعى وطنى ، فالعصر الحاضر عصر ديمقراطى . ومعنى هذا أن الناس جميعا تحكم .

ومعنى هذا أن الناس جميعا تتعلم . ولا تعليم الا بلغة . ومن غير الممكن رد العربية الفصحى كما يفهمها الغلاة الى الملايين من هذه الألسنة ، ألسنة الشعب . كل الذى نستطيع أن نفعله أن نقوم من هذه الألسنة المعوجة ما أمكننا التقويم ، وأن نذهب عنها بالساقط من اللفظ والمبتذل من التعبير ، وما لا يستقيم مع طبيعة اللغة المكتوبة بعد توسيعها وتمطيطها حتى تشمل أكثر ما يجرى على ألسنة العامة ، ألسنة

الخلق ، ألسنة الحق ، وهى تجرى بالخير الكثير وينتج عن هذا أخيرا تقارب بين المنطوق والمكتوب ، وعندئذ تخلق لغة وسط ، لاينكرها عربى ، ولا تكبر على عامى . وعندئذ تشيع فى الناس ألوف المؤلفات التى بدونها لا يتثقف شعب أبدا .

إن هذه الالفاظ العربية التى سقط قيدها ، قد أسقطها المسجلون الاقدمون عمدا أو هكذا أخال . فاللغة القديمة لابد كانت لفظين ، لفظ مهذب مختار لا ينطق به الا فى حضرة الملوك ومجالس الولاة ومجامع الأدب ، وحيث تدور طبقة السادة من الأرستقراطيين ، ولفظ عادى عدوه مبتذلا ، يسمع عند كور الحداد وفرن الخباز وفى أسواق الباعة ، وحيث تدور الطبقة الدنيا من عامة الديمقرطيين . أما اللفظ الاول فهذا هو الذى سجلوه وسجلوه لأرستقراطيته . وأما اللفظ الثانى فأسقطوه ، وأسقطوه لديمقراطيته وعاميته . وكان العصر عصر أرستقراطيات قليلة ضيقة مترفعة ، وعصر ديمقراطيات كثيرة واسعة متواضعة ، وكان الدين تراجع وتخلف والدنيا أقدمت وتصدرت ، وكان العلم فى هؤلاء دون هؤلاء . وكانت اللغة والأدب فى هؤلاء دون هؤلاء ، إلا شذوذا لا يجرى بها قياس . وحتى هؤلاء الذين ارتفعوا من الطبقات الدنيا الى مراتب الأدب العليا ، لم يلبثوا أن فرقوا بين أرستقراطية الأدب وديمقراطية العيش ، فعاشوا بأجسامهم عيش الفقراء ، وعاشوا بأرواحهم وبمكتوبهم ومنطوقهم كما أرادهم الولاة والامراء . أما اليوم ، فى هذا العصر الحاضر ، فالأمور تجرى على غير ما جرت به فى تلك الأزمان الخوالى . وسياسة الأمم ، ومنها سياستنا ، تميل وتعمل على رفع هذه الطبقات الدنيا ، وهى سواد الناس ، وعلى تثقيفها تثقيفا واحدا ، وتأديبها تأديبا واحدا ما أمكن هذا ، وتمديدها وتمطيطها حتى تملأ رحاب الأرض ، فلا يكون لغيرها من الطبقات إلا مساحات قليلة متناثرة .

ورفع هذه الطبقات الدنيا يقتضى رفع لغاتهم أيضا ، فيما لا يمنع منه ذوق أو يحول دونه نظام . وبفك الحصار والإسار عن طبقات الشعب الوضيعة ، والإذن لها أن ترود من بساتين الارض ما تشاء ، وأن تقطف من زهرات العلم والأدب ما تهوى ، لابد من فك الحصار والإسار أيضا عن تلك الألفاظ التى تنطق بها هذه الطبقات ما انسجمت مع طبيعة اللغة المكتوبة ، والإذن لها بأن تتقمص ما شاءت من مداد المحابر، وترقد ما شاءت على سواد الأسطر بين مطوى الأوراق ، وكفاها تلك القرون تطريدا وتشريدا .

مصر

قلب العالم الاسلامى

بقلم : د. محمد عوض محمد



لئن كانت الجزيرة العربية هى المهد الأول للعروبة ، فانها كانت بمثابة الينبوع الذى لم يلبث ان تفجر ، وفاض وانتشر ، وملأ عالما فسيح الأرجاء ، هو الذى ندعوه اليوم بالعالم العربى . وقد نشأت فى هذا العالم منذ أقدم الأزمنة ، أقطار عريقة فى العروبة ، لم تلبث أن ملأت الدنيا حضارة ومجدا ونورا

ولئن فات مصر أن تكون جزءا من الجزيرة العربية ، فــإنه لم يفتها أن تلاصقها ملاصقة شديدة ، وأن تجاورها مجاورة قوية ، وأن تتلقى منها فيضا لا ينقطع من الدماء العربية والثقافات العربية ، وذلك منذ فجر التاريخ ، بل لعل ذلك يرجع الى ما قبل التاريخ .

كانت مصر من أول الأقطار التى ازدهرت فيها الحضارة ، وانبعث منها نور المعرفة والهداية ، وكانت الحضارة التى نشأت فى مصر قوامها الثقافة العربية ، واللغة المصرية القديمة لم تكن سوى فرع من فروع الدوحة السامية ، التى ينتمى اليها أيضا لساننا العربى المبين

لذلك كان من الخطأ ما يزعمه الزاعمون أن اشتغال مصر بدراسة حضارتها القديمة ، قد يناقض نشاطها فى خدمة العروبة ، فإن حضارة مصر القديمة ، كحضارة بابل وآشور ، وحضارة السريان والفينيقيين ، كلها مظاهر للنشاط العربى فى مختلف صوره وعناصره وعصوره ، التى تستغرق الآلاف من السنين .

وقد قضى لمصر موقعها الجغرافى بأن تكون الخادم المخلص للعروبة منذ العهود الأولى ، ولئن كانت خدمتها يعتريها القصور أحيانا ، بسبب ما تتعرض له من احداث الزمن ، وتقلبات الدهر ، فإن مما يعوض ذلك طول مدة الخدمة وشدة الإخلاص فى تأديتها .

وموقع مصر الجغرافى يؤهلها لخدمة العروبة فى نواح عديدة ، فالوطن المصرى يصل ما بين قارتين كبيرتين : آسيا وإفريقية ، ويلتقى فيه بحران عظيمان : بحر القلزم وبحر الروم ، ومن وراء بحر القلزم المحيط الهندى ، والعالم الضخم الذى يحيط به ، ووراء بحر الروم أوربا ، ومن ورائها المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات كما كان يدعوه القدماء فمصر حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، ويتلاقى عندها البر والبحر . وهذا الموضع الجغرافى الممتاز قد احتلته العروبة واتخذته محلا مختارا .

ويطول بنا الحديث اذا حاولناأن نتتبع تاريخ العروبة فى مختلف الأزمنة ، والدور الذى قامت به مصر فى خدمتها ، وحسبنا أن نشير هنا إلى العهد العربى الإسلامى ، فقد كان الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى حادثا جليلا فى تاريخ العروبة ، فلم يكن مجرد فتح لقطر من الأقطار ، بل فاتحة لإنشاء وطن عربى اسلامى فى القارة الإفريقية ، يتناول بلاد المغرب والاندلس من ناحية ووادى النيل والأقطار التى تحف به من ناحية أخرى . ولم يلبث هذا العالم العربى الإفريقى أن أصبح من أخصب أوطان العروبة ، ومن أكثرها

★ كان الدكتور المرحوم محمد عوض محمد أستاذاً بكلية الآداب ثم وزيراً للمعارف

إنتاجا ثقافيا عربيا ، وبواسطة هذا الفتح ، اتصلت العروبة أتصالاً مباشراً بأوربا ، عن طريق إسبانيا وصقلية ... ولم تمض أجيال ، حتى كان للثقافة العربية مراكز هامة فى المغرب فى قرطبة وفاس وتونس وغيرها ، وأصبح العالم العربى كالطائر الخفاق يبسط جناحين عظيمين ، أحدهما يمتد الى المشرق والأخر الى المغرب ، وكانت نقطة الاتصال بين الجناحين العظيمين هذا الوادى الخصيب من بلاد النيل ، الذى يلتقى فيه أبناء العروبة من جميع الأقطار .

ازدهرت هذه المراكز المغربية ولمعت فيها اسماء ساطعة فى ضروب الفنون المختلفة من أدب وعلم وفلسفة ، وصارت لهم فى كثير من الشئون الثقافية أراء ومذاهب خاصة بهم ، وأصبح الناس يتحدثون ويقارنون بين مذاهب المشارقة والمغاربة ، وامتاز الجناح الشرقى للعالم العربى بميزات والجناح الغربى بميزات .. وانفردت مصر بأنها ليست من المشرق ولا من المغرب ، وإنما هى حلقة الاتصال ، يؤمها العلمـــاء والفــقهاء والأدباء من المشـــرق والمـغرب ، فيلقون فيها رحالهم ويتخذون من أرضها مجالا جديدا لنشر علومهم ، فكانت بذلك وسيلة للتقريب بين العلماء والأدباء ، وعاملا قويا فى تقوية الصلات بين الجناح الشرقى والجناح الغربى ، وكان من حسن الحظ أن مصر واقعة على طريق الحج بالنسبة لهذا العالم العظيم ، ولم يكن بد من أن يجد العلماء من أمثال ابن خلدون فرصة للالتقاء بعلماء من المشرق ، وأن يقضوا فيها على الرحب والسعة فترة من الزمن قد تطول أو لا تطول ولكنها على كل حال كافية لتعريف المشارقة بالمغاربة ، واطلاع كل فريق على النتاج العقلى للفريق الآخر .

ولا شك أن هذا الاتصال بين المشرق والمغرب قد أثمر أجل الثمار ، اذ ساعد على مبادلة الرأى والابتكار وإفساح مجال جديد فى التفكير ، وتوسيع عظيم للأفق الثقافى . وقد استطاعت مصر أن تؤدى هذه الخدمة بحكم موقعها الجغرافى ، وقد لا يكون للمصريين أنفسهم فضل كبير فى ذلك سوى أنهم يسروا لبلادهم أن تؤدى وظيفتها الطبيعية على الوجه الأكمل ، وبذلوا فى سبيل ذلك ما وسعهم من المعاونة الصادقة .

وقد ساعدت ظروف الموقع على أن تؤدى مصر للعروبة خدمة أخرى ، وذلك أنها كانت مركزا لانتشار العروبة فى أعالى النيل ، فإن اتصالها القديم بجنوب الوادى ، جعل مثل هذا الانتشار حادثا طبيعيا حتميا . وقد زحفت القبائل العربية قحطانيها وعدنانيها من الشمال الى الجنوب على جانبى النيل ، ولم تكد تتجاوز أقليم النوبة حتى انتشرت فى جميع الأرجاء ، وأتاحت للعروبة أوطانا واســـعة شاســعة وأقــاليم جــديدة فى القــارة الإفريقــية .

وهكذا شاءت الظروف الطبيعية أن تجعل من مصر الخادم الأول للعروبة ، وهذا الواجب المقدس لم ينهض به أبناء مصر وحدهم ، بل شاركهم فى ذلك أفواج من أبناء الأقطار الشقيقة ، على شرط أن ينزلوا مصر ويستوطنوها ويتخذوها محلا مختارا . وهؤلاء قلما يستطيعون أن يؤدوا للعروبة الخدمة الواجبة وهم فى ديارهم ، ولكنهم لا يلبثون أن ينزلوا على ضفاف النيل ، حتى يسمع بهم

العالم العربي كله ، وحتى تنتشر آثارهم فى الشرق والغرب . وقد أسس الجامع الأزهر منذ أكثر من الف عام ، كما أنشيء غيره من دور العلم والثقافة العربية فى المشارق والمغارب ، أنشأته أسرة غريبة عن مصر ، ولعلها تكون قد أنشأت غيره فى بلاد المغرب . ولـكن الأزهـر وحـده دون الجامعـات العربية ، هو الذى انتشر نفوذه الى جميع الأقطار التى تمت الى العروبة بصلة ، وهو وحده الذى كتب له العمر الطويل على مدى القرون والأجيال ، وعلى الرغم من تتابع الخطوب وتقلبات الحدثان .

وليس من الضرورى أن يكون أبناء مصر أنفسهم هم الذين يحملون رسالة العروبة الى سائر الاقطار ، بل ينهض بحمل هذه الرسالة أفواج من ابناء الاقطار العربية والإسلامية بل وأفراد من الاوربيين أحيانا . ومع ذلك فاننا فى العصر الحديث قد شاهدنا ظاهرة جديدة ، وهى التعاون الثقافى المنـظم بـين مصر والاقـطار العـربية الأخـرى . وأصبحنا نشهد المئات ، ولعلهم الآن قد تجاوزوا الألف ، من أبناء مصر وبناتها ينتقلون أفواجا الى البلاد العربية الشقيقة ، وإلى بعض الأقطار الإسلامية ، لكى يقدموا لشباب هذه البلاد ما وسعهم من عناصر الثقافة العربية والغربية ، هذا النشاط الجديد أخذ يظهر شيئا فشيئا بعد الحرب العالمية الأولى . وأذكر أننا فى ذلك الوقت احتفلنا بطالب من دار العلوم انتدب لتدريس اللغة العربية فى سنغافورة وكنا فى ذلك الوقت نرى هذا شيئا عجيبا غير أن هذه الحالات الفردية لم تلبث أن نمت وتناولت أقطارا عديدة ، ثم أزدادت هذه الحركة ازديادا عظيما بعد نهاية الحرب الأخيرة . وأصبحت مصر لا تكتفى بأن تستقبل أبناء العروبة فى معاهدها ، بل أرسلت أبناءها الى مختلف الاقطار العربية والإسلامية

وقد نما السكان فى مصر نموا عظيما فى عشرات السنين الأخيرة ، وبذلك أصبحت مصر سوقا عظيما للغلات المادية والأدبية ، وصارت ميدانا كبيرا للنشاط الثقافى بفضل هذا العدد الكبير من القراء والطلاب والباحثين وكل هذه الظروف قد مكنت لمصر من إنشاء المطابع والصحف والمجلات ، وأمكن لدورالنشر أن تضارع فى جمال إنتاجها دور النشر فى الأقطار المتقدمة وبذلك نشأت بمصر صحافة عربية من الطراز الممتاز ، تجمع بين سمو المادة الثقافية ، وجمال الإخراج . وهذه من غير شك خدمة عظيمة قدمتها مصر للعروبة ، ولا تزال تقدمها لهم فى كل صباح ومساء .

وان مصر لتفخر بأن هذا الجهاز الثقافى العظيم ، لم ينهض به أبناء مصر وحدهم ، بل ساهم فى إنشائه وتدعيمه فوج عظيم من إخوانهم من أبناء الأقطار العربية الشقيقة . وذلك لأن رسالة مصر هى خدمة العروبة بالتعاون مع جميع أبنائها لقد كان جرجى زيدان رجلا عظيما من غير شك ، ورسولا من أعظم رسل الثقافة العربية ، ولكنى لا أستطيع أن أتصور أن تنشأ دار الهلال ، وتبلغ الشأو الذى بلغته فى قطر آخر غير مصر ، لأن مصر هى الخادم الأول للعروبة ، والتى تحمل لواء التعاون الوثيق بين جميع الأقطار منذ زمن بعيد .. وهذا واجبها الذى يفرضه عليها موقعها الجغرافى وسط العالم العربى .



الاغتيال السياسى عند قدماء المصريين

بقلم : جمال الدين سالم

جاء فى الأساطير المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل التاريخ أن «أوزوريس» وأخاه «ست» وأختيهما « إيزيس» و«نفتيس» كانوا أول آلهة حلت بالأرض لتحكمها ، وكان « أزوريس» إلها للخير و« ست » إلها للشر فاختصما على عرش البلاد ، وأحب المصريون الأول لعدله وحسن سياسته وبره برعيته ، بينما كرهوا الثانى لظلمه وخبث طويته مما أوغر صدره على أخيه ، فانتقم منه بأن وضعه حيا فى تابوت ذهبى وقذف به إلى عرض البحر المتوسط فحملته الأمواج إلى سواحل لبنان .

وكانت هذه أول مؤامرة للاغتيال السياسى عند القدماء المصريين ، وقد انتهت كما روت الأسطورة بثورة المصريين وعلى رأسهم « إيزيس » ضد إله الشر ، فهبوا يبحثون عن إله الخير فى كل مكان حتى وجدوه وأعادوه إلى الحياة ، ولكنه أبى أن يستقر فى هذا العالم الذى امتلئ بالحقد والضغينة ، فارتفع إلى السماء تاركا الثأر من اعدائه لابنه (حورس) الذى استطاع أن يقتل عمه (ست) وخلص العالم من شره وأذاه !

وفى سنة ٢٤٠٠ ق . م حدثت فى بلاط الملك (بيبى الأول) من ملوك الأسرة السادسة محاولة أخرى للاغتيال السياسى ، فقد كان لهذا الملك زوجة من أميرات البيت المالك ، وصل بزواجها إلى العرش ولكنه لم يكتف بها فتزوج غيرها من بنات الشعب حيث أصهر إلى بيت من أكرم بيوتات الصعيد بأبيدوس ، وقد أثار هذا غضب زوجته الأولى وأحبت أن تنتقم لنفسها ولكرامتها فحاولت قتل الملك ، ولكنها فشلت ولعلها نجحت فى قتل ضرتها ، فلما انكشف أمرها وقدمت للمحاكمة عمد فرعون إلى إرضاء بيت أصهاره الأقوياء بأن تزوج من أخت زوجته المقتولة ، كما عهد فى تولى العرش من بعده إلى ابنه منها (مرن رع) .

أما فى الدولة الحديثة (١٥٣٠ ق . م) تلك الدولة الفتية التى قامت على سواعد الأبطال من أبناء الصعيد وبقوة سلاحهم فلاعجب أن أصبحت دولة عسكرية كان للجندية فيها حظ عظيم ، كما كان للبطل القائد والحاكم الحازم الذى حرر البلاد منزلة خاصة فى نفوس المصريين فهو الذى خلصهم من أعداء البلاد وحطم الاستعمار ونفث فى البلاد روح العزة والكرامة فشعر كل مصرى بكرامته كما شعر بالامتنان للجيش وقائده الذى كان سببا فى كل ذلك فارتفعت منزلة الجندية بين المصريين خصوصا عندما أخذ حكام البلاد العسكريون فى مقاومة مؤامرات الكهنة ودسائسهم والحد من نشاطهم الذى استفحل أمره وزاد شره منذ مطلع الدولة الحديثة ، وطغى

نفوذ هؤلاء الكهنة على نفوذ الحاكم ، وأصبحت المعابد وملحقاتها المنتشرة فى كل انحاء البلاد دويلات داخل الدولة المصرية واستطاع الكهنة أن يصلوا إلى حكم البلاد بأنفسهم وأسسوا الأسرة الحادية والعشرين .

ولم تخل الحوادث التاريخية من ظهور حاكم شجاع استطاع أن يقف فى طريق أولئك الكهنة ويصد طغيانهم وقد بدأ الاحتكاك بينهم وبين (أمينوفيس الثالث) من ملوك الأسرة الثامنة عشرة حينما بدا له أن يخضد من شوكة كهان آمون فتربصوا به وبه وتنمر لهم ثم أعلن عليهم حربا مادية أدبية لم يعهدوا مثلها من قبل ، فسلبهم بعض سلطاتهم ، وشهر بهم وبأعمالهم بين طبقات الشعب ، وضيق عليهم الخناق ، ولكن الموت حال بينه وبينهم ، وتلاه فى الحكم ابنه « إخناتون » الذى ما كاد يستوى على العرش حتى تابع سياسة والده فى التخلص من نفوذ الكهنة ولكنه رأى أن يضربهم الضربة القاضية ويتخلص من نفوذهم مرة واحدة لأنهم أصبحوا خطرا على سلطته ، فقام بثورته المعروفة فى السنة السادسة من حكمه حوالى مائة عام (١٣٧٧ ق . م) ليتخلص من أولئك الكهنة ومن سلطانهم ، ولكنه خاف سطوتهم فترك لهم العاصمة « طيبة » واتخذ تل العمارنة عاصمة جديدة لملكه ، وقد خشى الكهنة نجاح ثورته والقضاء على نفوذهم وثروتهم فتآمروا على قتله حتى يتخلصوا منه ، وأرسلوا إليه أحد رسلهم ومعه أجنبيان من محترفى القتل ليقوموا باغتياله فى العاصمة الجديدة ، ولكن عيون رجال البوليس كانت لهم بالمرصاد فأسرع إليهم مدير البوليس المدعو (ماحو) فقبض عليهم وساقهم إلى دار المحافظة حيث قدمهم إلى وزير الداخلية ، وقد سجل كل هذا فى أحد مناظر مقبرة (ماحو) سالف الذكر .

وهناك محاولة أخرى حدثت لاغتيال الملك رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين وقد تولى الحكم بعد كفاح مرير ، واستمر فى كفاحه مدة طويلة يغالب أعداء البلاد ويدفع أذاهم عن مصر ، ولكنه ابتلى بحرب داخلية شنها عليه كهان آمون ليخلوا لهم الجو ويتحكموا فى البلاد ، فقربوا إليه زوجة غير رسمية له تدعى (تى) وحرضوها على قتله ليصبح ولدها ملكا على عرش البلاد ووعدوها بالمساعدة وجمعوا من حولهم بعض المتآمرين ونسجوا جميعا خيوط تلك المؤامرة بكل دقة ودهاء واتخذوا لأنفسهم اسماء مستعارة مبالغة فى الحرص فسمى الأمير (بنتاور) كما سمى أحد المتآمرين (الأعمى) وسمى غيره (خبيث طيبة) وسمى ثالث (عدو رع) وهكذا .



قامت الدولة الحديثة على سواعد الابطال من أبناء الصعيد

ولقد استطاع المتآمرون وعلى رأسهم رئيس الخدم «بييك كامن» وساقى الملك «سد سورع» أن يحصلوا على معونة عشرة من موظفى الحريم ، وست نساء كما تمكنوا بمساعدة بعض الكهنة من الحصول على موافقة بعض قواد الجيش للانضمام للحركة بعد مقتل الملك وكان رأسهم القائد بيس (Peyes) .

وقبل تنفيذ المؤامرة ، عدل أحد أفرادها عن الاشتراك فيها ، فكان لذلك أكبر الأثر فى فشلها وافتضاح أمرها . فقبض عليهم جميعا ، وأمر الملك بمحاكمتهم أمام محكمة خاصة مكونة من أربعة عشر قاضيا ضمانا لعدالة الحكم .

وقد أدانت المحكمة عشرة من المتهمين والمتهمات ، ومنهم الأمير الصغير ، وقد أمروا بأن ينتحروا أمام المحكمة ، وحكمت على بقية المتآمرين بقطع آذانهم وأيديهم ما عدا ذلك المتآمر الذى عدل عن الاشتراك فى المؤامرة فقد اعتبروه (شاهد الملك) وحكمت المحكمة ببراءته .



الديمقراطية عنـد محمد مندور

بقلم: كامل زهيرى

محمد مندور من المصريين القلائل الذين درسوا القانون والادب دراسة جـامعية . ومن القلائل أيضا الذين عملوا فى الجامعة ، وكتبوا فى الصحافة واشتغلوا بالمحاماة . وقد عاش فى حياته العامة ثلاث فترات . تغلب فيها الادب على الفترة الاولى بعد عودته من باريس عام ١٩٣٩ ، وتغلب على الفترة الثانية القانون بفروعه من السياسة إلى الصحافة إلى المحاماة ، ثم عاد فى الرحلة الثالثة بعد ثورة ١٩٥٢ إلى النقد والادب والمسرح ، وإن كان بين الحين والآخر يطل على السياسة ، ويفضل الدفاع عن السلام .

لكن علاقة حميمة – ومنطقية – ربطت بين هذه الفترات الثلاث ، لان مندور ركب حصانين هما الأدب والسياسة ، ولم يجمح به الحصانان فى اتجاهين مختلفين ، لانك تستطيع أن تلمح كيف تكاملت دراساته الادبية والقانونية . فحين دعا مندور – مثلا – إلى الشعر المهموس ، قائلا :

«أن الهمس فى الأدب ليس معناه الضعف ، فالشاعر القوى هو الذى يهمس فى أعماق نفسه فى نغمات حادة . ولكنه غير الخطابة التى تغلب على شعرنا و اذ تبعد به عن النفس ، عن الصدق ، عن الدنو من القلب » .

حينما دعا إلى ذلك إنما أراد أن يخلص الشعر العربى من الطنطنة البلاغية والقشور الشكلية التى تحجب إنسانية الشعر والشاعر . ولم يكن يمكن لمندور أن يدعو إلى ذلك الشعر ، ثم لن يدعو بعد ذلك ، وإلى جوار ذلك ، إلى تحرير المواطن من الاستبداد والوطن من الاستعباد .

فتحرير الشعر من الطنطنة اللفظية ، والعودة به أو الانطلاق به إلى آفاق صحيحة هى فى أصلها دعوة انسانية ، وترجمة «أدبية» للدفاع عن إنسانية المواطن ، أى حريته ، والمطالبة بديمقراطية الحكم .

وهذا التزاوج الحميم بين الأفكار الأدبية والسياسية لا نجده كثيرا فيمن أمسكوا بناصية الأدب وشهروا القلم فى السياسة ، لاشك تكاد تلمح عندهم انفصاما بين الدعوتين ، وكأن الكاتب منهم كاتبان ، أو أن الكاتب يعيش حياة مزدوجة بين الأدب والسياسة !

الأزمة والحرب والثورة

ومندور يمثل جيلا سبقنا عاش بين أزمة ١٩٣٠ وحرب ٣٩ ، وثورة ٥٢ .. وبين هذه الأزمة والحرب والثورة تفجرت قدرات هذا الشاب ، الذى جاء من قرية ريفية من قرى الشرقية ، اسمها كفر مندور ، من عائلة متعددة الافراد ، متيسرة الحال ، من والد اتبع الطريقة النقشبندية «أى النقش على القلب» كان يقرأ ولايكتب ، يتمتع بهالة من النفوذ الدينى ، وكشأن الأبناء «المدنيين» ، أراد مندور أن يصبح وكيلا للنيابة يقود بالصولجان ويتبع بالنفوذ المدنى وذلك النفوذ الدينى الذى أحسه لاهله فى قريته ، وهى عادة نجدها فى كثير من الذين تعلموا بالجامعة ، ونزعوا من رجال الدين فى ذلك الوقت ، وقد ترسبت فيه منذ هذه الفترة – كما قال مندور – قيم أخلاقية ريفية . وفى صباه ، وهو تلميذ فى مدرسة الألفى .. تفتح على مقتل جموع من الفلاحين على يد جنود الاحتلال أثناء ثورة ١٩١٩ ، وهو منظر تفتحت عليه عيون كل من عاش هذا الزمان فى الريف والمدن على حد سواء .

وحين طلب منه طه حسين أن يلتحق بكلية الآداب ، تسمك مندور بحلمه الريفى فى أن يصبح وكيلا للنيابة ، ثم انتهى إلى الجمع بين دراسة الادب والقانون ، ليرضى أستاذه طه حسين ، ويشبع تفتحه المبكر على البلاغة واللغة ، وإقباله – وهو لايزال فى المرحلة الثانوية – على الأغانى للاصفهانى والكامل للمبرد ، والأمالى لابى على القالى والعقد الفريد لابن عبد ربه !

وكان مندور ثمرة من ثمرات الجامعة المصرية ، وثمرة حماسها الأول وجهاد لطفى السيد وطه حسين . كشأن كثيرين من النابغين ، أوفدته الجامعة لبعثة بباريس ، يدرس الادب اليونانى واللاتينى والفرنسى ، وفقه الادب «المقارن» .

ولم يحصل مندور بعد تسعة أعوام طالت من ١٩٣٠ إلى ٣٩ على الدكتوراة ، ولكنه تشعب فى دراساته بين القانون والأدب ، فغاص فى الأدب اليونانى القديم ، واللغة اللاتينية ، وتزود بدراسات فى القانون والاقتصاد والمالية ، وتشرب بالثقافة الفرنسية التى لاتجدها فى السوربون وحدها ، ولكنك تكاد تلمسها فى الحديقة والمسرح ، وبناء الكاتدرائية وأدب اللغة وعاطفة التحليل والشغف بالمقارنات عند مثقفى الفرنسيين والحق أن مندور أصاب من هذه السنوات تغيرا هاما وأساسيا فى منهجه الفكرى . فقد استفاد من القانون التزام الوضوح والترتيب . وأضاف اليه من الادب ، البحث عن منابع الجمال والعاطفة فكانت بعثته «الحقيقية» التى فاز بها ولم يحاسبه أحد عليها بعد عودته ، ثناء أو عتابا ، هى بعثة لتغيير المنهج الفكرى .

فإذا كان مندور قد درس القانون والأدب معا ، فإن الدراستين دعمتا فيه ميزان النقد والمقارنة . ثم زودته المقارنة بأسلوب الكشف عن المفارقات ، وحاسة التقدير المقارن سواء بين الأداب الاوربية والأدب العربى ، أو بين القانون والأدب ، كما أن الحياة خارج مصر والعودة اليها ، كانت فى حد

ذاتها مقارنة عاشها ، بل إنها مقارنة فاضت بالمفارقات .

مفارقات اجتماعية

وأستأذن القارىء بأن أغفل الفترة الاولى من حياة مندور ناقدا وأديبا بعد عودته من باريس ، وهى الفترة التى أمتدت من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٤ لأن القصد الأول من هذا المقال هو الحديث عن مندور السياسى والديمقراطى . إنما كل الذى تمنيته من هذه المقدمة هو أن أبين أن مندور فى دراسته الأدبية والقانونية كان يدافع عن الإنسان باللهجة الإنسانية التى عرفتها الديمقراطية الليبرالية ، اللهجة الإنسانية التى عرفها مفكرو الثورة الفرنسية .

فاذا كانت أوربا قد بدأت فى عام ١٩٣٠ تصحو على النازية والفاشية ، فإن فرنسا السوربون كانت تتمسك بمبادىء الديمقراطية الليبرالية ، بل لقد كان خطر هتلر على الحضارة «الأوربية» مدعاة لتمسك الكثيرين بهذه الأفكار ، فإذا عاد مندور إلى الوطن وجد الحرب تخنق المصريين ، وتطفح بالجنود - من كل لون - فى شوارع مدنهم يعيشون فسادا وتحطيما ، وينقلون شيئا من لهيب الحرب على شوارع القاهرة المطفأة المصابيح دلالة واضحة كل يوم لاتحتاج إلى تاكيد أو تعميق على إهانة الاحتلال للوطن ، ثم أزمة التموين وقلة الخبز لأن التموين يذهب إلى جنود الاحتلال . ثم فى مصر سفير انجليزى عميد السفراء ، ومحرك الوزارات ، يشتد تدخله قوة حتى تزيد صورته على صورة المعتمد البريطانى والمندوب السامى أيام الاحتلال الأولى ، وأيام اعلان الحماية الصريحة .

صراع على الديمقراطية

فإذا كان الوطن محتلا فهذه قضية لا يحلها سوى الجلاء والاستقلال التام .

ولكن الصراع بين المصريين كان يدور أيضا حول الدستور والسلطات . لأن القصر يحاول أن يزحف بسلطاته ، ليعين السفراء ويسيطر على الجيش ، ويشرف على الأزهر ، ويقيل الوزارات ، حتى يجعل من الدستور شبحا وهميا .

ولكن الفكرة الديمقراطية - منذ عام ١٩٢٢ كانت أحيانا ديمقراطية للمواطن دون تفكير فى حرية الوطن ، كما كان يقول أنصار الليبرالية الكلاسيكية فى حزب الأمة ، وأحزاب الاقليات .

ولم تكن هذه الديمقراطية التى تبلورت فى دستور ١٩٢٣ ، حتى فى حدودها الليبرالية ، أى الأخذ بفكرة فصل السلطات ، وأن الملك يملك ولا يحكم ، وأن الدولة لا تتدخل إلا فى شئون ثلاثة هى : الجيش والبوليس والقضاء ، لم تكن حتى هذه الديمقراطية ترضى طائفة من المصريين ، كانوا يستكثرون على الشعب أن يكون له حق الانتخاب المباشر والعام «للرجال فقط» .

فكثيراً ماتصارع المصريون على معنى وحدود الديمقراطية .

وكثيرا ماقالت أحزاب الاقلية عبارتها المشهورة : إن الدستور ثوب فضفاض ، أى أنه يعطى لسواد الشعب أكثر مما يجب .

فإذا كان محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين قد عطل دستور ١٩٢٣ ، فإن اسماعيل صدقى ، وهو أكثر ذكاء وصراحة ، أراد أن يبدل دستورا بدستور ، أى أن يحكم حكم الأقلية الصناعية الناشئة بدستور صريح ، لا يعطى للشعب

حق الانتخاب المباشر ، وأراد أن يجعل الانتخابات على درجتين ، ليجعله «مصفاة تنقى الرأى العام» ، كما أراد أن يزيد من سلطة مجلس الشيوخ المعينة ومن عدد المعينين فيه .

وهكذا نرى الصراع من ١٩٢٣ حتى ١٩٥٢ هو صراع حول معنى وحدود الدستور وحدود الديمقراطية وكل ذلك فى إطار الديمقراطية الدستورية الليبرالية ، وإنما يختلفون حسب أوضاعهم الاجتماعية .

فاذا كان الجميع يؤمنون بالفصل بين السلطات ، فإن القصر يريد أن يجعل نفسه سلطة فوق الأمة ، وفوق السلطات .

والصناعيون والإقطاعيون يريدون الدستور وسيلة ليحكمهم لايطالبهم مندوب الشعب بشىء من الاصلاح حتى فى الحدود الضيقة التى يسمح بها دستور ١٩٢٣ بينما الشعب يريد أن يجعل الأمة مصدر السلطات .

صدقى باشا

وعند هذا لابد أن نقف طويلا عند ظاهرة اسماعيل صدقى ، لأنه كان أذكى الرأسماليين المصريين ، وأكثرهم وضوح فكر ، وأقلهم مداراة لأهدافه فإنك اذا قرأت مذاكراته التى نشرها فى عام ١٩٥٠ تكتشف حقائق هامة ، توضح لنا هذه المعركة الكبرى التى حدثت فى عام ١٩٤٦ ، والتى كان لمحمد مندور دور هام ورئيسى فيها .

يقول صدقى فى مذكراته :

إنه تسمى باسم اسماعيل تبركا بالخديو ، وباسم صدقى ، ولم يكن اسمه فى البداية كذلك ، لأن أباه اختار له اسم صديق تيمنا أيضا باسم صديق باشا المفتش ، وزير الخديو ، وحين غضب الخديو على الوزير ، غير له اسمه الى صدقى ، منعا لإحراج الفتى الناشىء !

وقد نشأ صدقى فى أسرة غنية ارتبطت بالحكم ، وعرضت دهاليزه ، وسلحت أبناءها بأساليب الارتقاء فيه .

ويحكى صدقى عن جده لوالدته ، فيقول إنه كان مقربا من سعيد باشا ، ولكن خصوم جده وشوا به عند سعيد ، حتى غضب عليه ، فأمر بأعتقالة فى قلعة أبى قير ، وبقى فيها تسعة أشهر ، حتى ذهب أبناؤه الصغار ، فأرتموا على أقدام سعيد عند مدخل قصر عابدين ، فأفرج عنه .

وحينئذ تبرع له سعيد ، تعويضا عن ، بـ ٩٠٠ فدان ، فى بركة غطاس «أى بمائة فدان عن كل شهر قضاه معتقلا (١)

ويروى صدقى باشا أيضا فى مذكراته كيف بدأ حياته كاتبا فى النيابة ، فاشتغل بخمسة جنيهات ، ثم احتاجت بلدية الإسكندرية إلى «سكرتير إدارى بمجلس البلدية» ، ومرتبه ثلاثون جنيها ، فتقدم صدقى إلى المسابقة ، التى تقدم إليها أكثر من خمسين شخصا أكثرهم من المحامين الأجانب ..

وكان موضوع المسابقة الكتابة باللغة الفرنسية فيما يأتى :

«هل من الأفضل أن تكون مواصلات المدينة فى يد الحكومة أم فى يد شركة أهلية » .

فاكتب فى هذا الموضوع باسهاب ، ورجحت

(١) مذكرات اسماعيل صدقى باشا – سلسلة كتاب الهلال ١٩٥٠



محمد مندور

أفضلية الإدارة إلى إتقان العمل والشعور بالمسئولية وبينت أيضا وجهة النظر الخاصة بإدارة الحكومة ، كما فعلت كلتا النظريتين .

وعين صدقى فى البلدية .

وهذه القصة ، المعروفة لجيله ، والتى قد لا يعرفها شبان جيلنا - تصور لك كيف يحرص الاستعمار على معرفة ميول موظفيه .

ومنذ حرصت انجلترا - فى معاهدة بفعله ليمان مع تركيا - على أن تتعهد تركيا بإلغاء الاحتكارات داخل بلادها ، والاقاليم التابعة لها ، وهى تريد إفساح الطريق للشركات الرأسمالية الأجنبية لتدخل إلى مصر وغيرها . وقصة المفاصلة بين ملكية الحكومة وملكية الشركات الرأسمالية ماهى إلا صورة فى هذا الصراع الطويل ، الذى فازت فيه الرأسمالية الأجنبية بدور الأسد ، والرأسمالية المحلية بالفتات القليل .

وقد كان صدقى يمثل هؤلاء الصناعيين الذين يريدون لمصر الصناعة ، ولكنهم يريدونها صناعة رأسمالية ، وكان يريد لذلك أن يقيد الدستور أشد التقييد ، حتى لايعرقل الدستور والمطالب الشعبية طريق البرلمان ، حتى بصورته الضيقة المتواضعة ، نحو أطماع الرأسمالية المصرية السريع .

ويقول صدقى باشا فى مذكراته ، إن أبلغ الملك فؤاد ، بأنه يريد أن يمحو الماضى بما له وما عليه ، أى فترة حكم محمد محمود حين عطل البرلمان والدستور وأنه يريد أن ينظم الحياة النيابية تنظيما جديدا يتفق ورأيه فى الدستور واستقرار الحكم .

وخلاصة رأى اسماعيل صدقى فى دستور ١٩٢٣ ، أنه لايعبر عن الحقيقة الاجتماعية فى مصر . وكما كان لطفى السيد يعتبر أن أصحاب المصالح الحقيقية أى الملاك هم الذين يكونون الأمة المصرية ، فإن صدقى أيضا كان يرى أن الملاك هم الأمة ، التى يوضع الدستور من أجلهم فلا معنى لوضعه لعامة الشعب ، أى الدهماء كما كان يقول .

فاذا كان صدقى يريد أن يقيد الدستور ويقيد حق الانتخابات المباشر والعام للرجال ، وأن يزيد من سلطة مجلس الشيوخ ، حتى يتضاءل نصيب الشعب عامته ، فإن القصر أيضا كان يريد أن يوسع حقوقه ، فيقبل ، ويسيطر بالدستور ، أو من غيره .

وكانت قوات الاحتلال والقصر وأغلبية الشعب ، هى القوات الثلاث التى تتصارع على الدستور ، فالاحتلال يوافق على الدستور اذا كان هذا بديلا عن الاستقلال أو تأجيلا للاستقلال ، والقصر يحكم بالدستور ، ومن وراء الدستور حين يلجأ لحكومات الأقليات ، وحين يعين فى السراى ساسة من رجال الأحزاب ، مثل صدقى ، وابراهيم عبد الهادى ، وعلى ماهر ، أما الشعب ، فقد كان فى حدود دستور ١٩٢٣ يفضله على دستور ١٩٣٠ ، وفى الحدود التى يسمح فيها بالتعبير عن رأيه بالانتخاب يعيد حزب الأغلبية ، ويخذل الأقلية .

وهكذا ظلت القضايا السياسية مابين ١٩٢٣ و ١٩٤٦ لاتحل ، وأهمها الجلاء أى الاستقلال التام ، وأهمها كذلك الحل الاجتماعى للمشكلات الاجتماعية التى أخذت تتفاقم بعد أن تنقل الشعب من أزمة الى حرب ومن ثورة الى أزمة . وتراكمت الملكية فى يد الإقطاعيين والاجانب ، حتى حسب المصريون أن أمتهم انقسمت إلى أمتين ، للفقراء أمة وللأغنياء أمـة ، كما قال جلاديستون عن بلاده ذات يوم .

فإذا انتهت الحرب العالمية الثانية ، كان لابد من الفصل فى قضية الجلاء والفصل التحرر السياسى

وقد طال على مصر الاحتلال ، وظهر فساد هذا الاستقلال الذى بدأ بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٣ ، ولكن شيئا جديدا وخطيرا قد ظهر فى مصر .

ففى الوقت الذى كانت فيه الليبرالية لاتزال هى القانون الذى يحكم الصراع ، كانت التناقضات الاجتماعية تكاد تهز أسس المجتمع نفسه ، كما ظهرت تشكيلات سياسية تكفر بالديمقراطية الليبرالية ، وظهر عجز الدستور عن حماية الشعب ، وعجز حزب الأغلبية عن الاستمرار فى نضاله القديم ، وعجز هذه الليبرالية - التى أخذت من مصر أربعين عاما أو تزيد دون أن تحل أى مشكلة أساسية فى حياة المصريين .

دور مندور

وقد بلغ توهج مندور الفكرى ، قمته فى الأعوام التى تولى فيها صدقى الحكم ، وتوالت فيه على مصر حكومات الأقلية فهاجم الأقلية الرأسمالية أو الاقطاعية أشد هجوم عرفته الصحافة المصرية حينذاك ، وكانت أفكاره تدور حول تقوية سلطة الشعب الدستورية وحقوقه الديمقراطية ، وكان يطالب فى نفس الوقت بالاستقلال التام ، موضحا، ومؤكدا أن الاسـتقلال الكامل لايعنى الوقوف عنده بل إن للإستقلال غاية بعد ذلك ، وهـى : العدالة الاجتماعية ، والديمقراطية السياسية .

وعند مندور فى هذه الفترة تبلورت قيمة الليبرالية الاجتماعية والديمقراطية الإجتماعية ، أى قمة تحرر الوطن ، وتحرر المواطن سياسياً واجتماعياً .

فاذا كان مندور قد عارض بشدة الارتباط بمعاهدة « صدقى - بيفن » فإنه كان يدافع عن فكرة الاستقلال السياسى غير المشروط ، أو المرتبط .

وتجد فى مقالاته الموضوعية المتأججة فى هذه الفترة ، دفاعا عن الحياد بين الكتلتين فى ٢ أكتوبر ١٩٤٨ ، ودفاعا - بالتلميح - عن التاميم كما حدث فى انجلترا « مقال ٢٤ - ٢ - ١٩٤٥ »

وهو يهاجم فى هذه الفترة تراجع صدقى عن مجانية التعليم الابتدائى ، لأن صدقى - وهذا منطقه - يرجع بالمجانية من ٤٠٪ إلى ١٠٪ ولكن

التناقض يظهر فى حزب الأغلبية فإن مرور ربع قرن على إنشاء هذا الحزب ، قد سلخ عنه أحزاب الاقلية ، وفى نفس الوقت أدخل فيه عناصر غير مناضلة ، تمثل فى الحقيقة أصحاب المصالح الحقيقية أى كبار الإقطاعيين والرأسماليين ، مما أوهن من عزيمة الحزب ، وأدى بمندور إلى تكوين «الطليعة» لتكون جناحا يساريا «فى داخل هذا الحزب» ، بل وأنشأ مجلة خاصة سماها «البعث» ، وهو بين صفحات هذه المجلات والصحف ، يتبلور فكره عن الديمقراطية الليبرالية الاجتماعية ، بأعلى درجة من النضج والتكامل .

والحق أن فترة ١٩٤٦ - ١٩٥٢ أى مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢ ، إنما تستحق عناية المؤرخين ، لأنها تكشف لك عن ألوان الصراع الديمقراطى فى الحدود الليبرالية القديمة ، بل إن دور مندور نفسه يكشف لك أن هذه الفكرة لم تكن تصيب النجاح فى مصر ، لأنها دولة أعطيت الاستقلال الشكلى ، ولم تفز - على طوال المعاناة والنضال - بالاستقلال الكامل ، ودولة تخلفت اقتصاديا لطغيان الاستعمار، واحتكار الإقطاع ، وضعف الرأسمالية الفردية وعجزها عن القيام بدور التنمية والتصنيع .. حتى أن صدقى لم يكن يظهر إلا فى أوقات الأزمة ، ليحمى صناعته الوليدة بالحماية الجمركية ، التى يدفع ثمنها الشعب ، فهو يدفع أسعارا عالية ، ويلقى هجوما على الحدود الضيقة التى كسبها من الديمقراطية فاذا جاءت سنة ١٩٥٠ ، والغيت معاهدة ١٩٣٦ تحت ضغط الشعب انكسرت هذه العلاقات العجيبة أو هذا الاطار الذى بدأ منذ عام ١٩١٩ ، وتبلور فى دستور ١٩٢٣ ، واستمر فى داخله صراعا لا هوادة فيه بين الأقلية والقصر والأستعمار وبين الشعب .

وصية مندور الأدبية

وإذا كان مندور قد علا صوته فى هذه الفترة كأعلى ما يكون صوت الكاتب المناضل فإن الديمقراطية التى كان يدعو اليها هى ديمقراطية اجتماعية ، إن ديمقراطية الأغلبية التى لا تكتفى بالحقوق السياسية وحدها ، ولكنها تطمع أن يكون البرلمان طريقا لتحقيق العدالة الأجتماعية كذلك . وأن قضية هذه الديمقراطية كانت محور تفكير مندور ، حتى إنك تلمح نفس الأخلاص لديمقراطية الثورة الفرنسية ولأعلان حقوق الأنسان بعد حرب العالمية الثانية ، وقد جعل مندور من هذه القضية محور حياته السياسية والعامة ، ولكنه فى نهاية حياته أخذ يتلفت إلى أمر خطير نكاد نغفله فى كثير من الدعاية ، وهو انتشار الامية فى بلادنا ، وخطر هذه الامية على تكوين رأى عام ديمقراطى متجانس ، وهو ينبه لهذا الخطر ، وخطر آخر ليس أقل أهمية ، وهو تفاوت وتناقض الثقافات في مصر، لأن خريج السوربون لا يفهم خريج دار العلوم ، كما قال فى كتابة الأخير «الثقافة وأجهزتها» ، وانك لتكاد تلمح ما يشبه الوصية الأدبية التى خلفها مندور من ورائه من بين سطور هذا الكتاب ، حين يدعو إلى القضاء على الأمية بين عامة الشعب ، فالديمقراطية لاتقوم إلا بتحرير الوطن ، وتحرير المواطن ، ولايتحقق هذا التحرر ما لم تتحرر لقمة عيشة ، وترتقى قدرته على الفهم والاختيار .

يوليو ١٩٦٥


ذكريات في الأدب
حافظ
ابراهيم

بقلم :

محمود تيمور

على رأس العقد الأول من القرن العشرين ، كنت أصحب المرحوم والدى « أحمد تيمـور » الى « الكتبخـانة » – « دار الكتب المصرية » – فى الفينة بعد الفينة ، وكان هو دائب الاختلاف اليها ، يجعلها مثابته المفضلة ، فيها يقضى أطيب ساعات يومه ، وأمتعها لديه ، إما خاليا الى كتاب فريد يطالعه ، وإما جالسا الى صديق أديب يؤنسه ، ومن بين من لقيت مع أبى فى بعض تلك الزورات ، شاعر النيل « حافظ ابراهيم » ، واسمه يومئذ يملأ الدنيا ويشغل الناس ، كما قيل فى سلفه الشاعر « أبى الطيب » اذ كانت الصحف تتناقل قصائده فى الوطنية والقومية ، والاندية تعج بصوته منشدا شعره فى مناسبات الاحداث والذكريات العامة التى تعقد لها المجامع .

لقيته على سلم الدار ، ينفث دخان لفافته ، وكان حتما عليه وعلى رواد الدار جميعا موظفين وزوارا ألا يشعلوا لفائف التبغ فى الابهاء والقاعات ، فاذا اشتد الشغف بأحدهم أن يدخن ، وجب عليه أن يبرح الدار ، ولا أقل من أن يبدأ إطلاق دخانه عند رأس السلم العريض .

رأيت امرءا تتهدل حلته على جسده ، كأنها غير مفصلة عليه ، أشعث الشارب ، منتفخ الوجه ، كليل البصر ، وفى يده عصا غليظة يتوكأ عليها ، فلما قدمنى والدى اليه ، وذكر اسمه لى ، انكرته فيما بينى وبين نفسى ، وأحسست إحساس من خاب آمله ، وارتسم فى خاطرى المثل السائر : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » .

وما لبث « حافظ » أن طوح بعقب اللفافة ، وصعد معنا الى الطبقة الأولى ، وقصدنا جميعا مكتب الشيخ « البيلاوى » ، وكان من أسـاطين الدار ، وهو شيخ اشتهر باثنتين : حـرارة الدعابة والتنكيت ، ومتانة العلم والدين وكأنه يطبق الحكمة الشعبية : « ساعة لقلبك ، وساعة لربك ! »

رجل ظريف بحباح ، اذا أدار مع جلسائه مناقشة ، تحرى الا يخلط قوله بخشونة البحث وجدية الدرس ، حرصا منه على أن يرفه عنهم بالحديث المأنوس .

وكان « حافظ » يبز الشيخ « البيلاوى » فى حلاوة النكتة ، ومرارة السخرية ، وفى إشاعة جو المفاكهة ، وروح الطلاية ، بما يرويه من نوادر ، وما يتفنن فيه من أضاحيك .

وما استقر بنا المجلس ، حتى انطلقنا معا فى

هذا الميدان ، فرسى رهان ، يصولان ويجولان ، واذا الحجرة ترتج بمن فيها من طرب ومراح .

وقد عرفت « دار الكتب المصرية » فى مطلع هذا العصر ، من أمثال « حافظ ابراهيم » أفذاذاً ضمتهم جوانبها بوصفهم عاملين فيها ، ولم يكن لهم فى الواقع جسيم عمل أو كبير عناء ، وإنما كانت جل صلتهم بها أن يترددوا عليها بانتظام أو دون انتظام . وكأنما الدار فى قوة وعيها وسلامة تقديرها ترحب بهؤلاء أحياء يتنفسون أنفاسهم فى جوها ، يقينا منها أن أمثالهم هم موضوعها الخالد على وجه التاريخ ، وهم القيم الغالية الباقية فى مستودع القرائح والافهام والاقلام ، سواء أكانوا أشخاصا يرددون أنفاس الحياة ، أم كانوا آثارا وذكريات علمية وأدبية فى أوراق ومجلدات !

ويخيل الى أن « حافظا » خشى ان تنتهى زيارتنا ، وليس له فى ذهنى الا تلك الصورة الهازلة لشاعر النيل ، فأنى رأيته يطوى بساط اللهو والمعابثة ، ويقبل على قائلا فى مباسطة :

– هل تعرف الفرنسية ؟

فنفيت معرفتى بها ، وأنبأته بأن اللغة الأجنبية التى أتعلمها فى المدرسة هى الانجليزية لا غير .. فصاح فى ضجة :

– كلام فارغ . أية انجليزية هذه ؟ اسمع يا بنى ، تعلم الفرنسية ، فهى لغة الأدب الرفيع .

وواجه أبى يقول له :

– الزمه أن يتعلم الفرنسية . إيت له بمدرس خاص يلقنه إياها .

وانبرى يطنب فى مزايا الفرنسية وما تحويه آدابها من نفائس ، واستطرد الى « فيكتور هوجو » فأفاض فى الكلام على شعره ونثره جميعا ، مستشهدا بمختارات يترجمها إلى العربية فى إعجاب بما حوت من معان .

وأخيرا ضرب كتفى ، وقال :

– عليك بالفرنسية ، عليك بها لتقرأ « فيكتور هوجو » فإن لم تقرأ غيره ، فكفى به أديبا .

وبعد حين ، جاءنى أبى بنسخة من تعريب «حافظ ابراهيم » لكتاب « البؤساء » الم درة فى أدب « فيكتور هوجو » وقال لى :

– هذا كتاب صديقنا شاعر النيل الذى التقيت به فى « دار الكتب » .

وعكفت على الكتاب أقرؤه على علو طبقته فى بلاغة الإنشاء ، وفى سمعى يرن صوت « حافظ » وهو يحثنى على أن أتعلم الفرنسية ، لأتزود من أدب « فكتور هوجو » على الأقل !

ووقع فى يدى من بعد كتاب « حافظ » القصصى المسمى : « ليالى سطيح » ، وهو من تأليفه ، فعجبت اشد العجب من التباين الشاسع بين المسلك الفنى فى هذا الكتاب الذى ألفه وبين القصة الفرنسية التى ترجمها ، ويبدو أن شاعر العربية لم يشأ أن يحاكى نمط القصة الغربية فى صيغتها الحديثة التى استهواه نموذجها فى كتاب « البؤساء » وآثر أن يستوحى قالب كتابه القصصى من مأثورات الادب العربى ، وما تجددت فيه أنماطها فى العصر الحديث .

فمما لاريب فيه أن ظهور كتاب « حديث عيسى ابن هشام » للمرحوم « محمد المويلحى » كان هو

الذى بعثه على أن يأخذ هذا الأخذ ، وينسج على هذا المنوال ، فى « ليالى سطيح » .

بيد أن الفارق بينهما أن « المويلحى » كان فى موضوعات كتابه أجنح الى تصوير مشكلات المجتمع وظواهر العادات والاعراف والتقاليد ، وأن « حافظاً » كان يقصر همه ، الا أقله على المسائل القومية ، والقضايا السياسية ، وما يتصل بها من محن وأرزاء كانت مصر تصطليها على أيدى غاصبى حقوقها الأجانب والدخلاء .

فاذا كان كتاب « المويلحى » اجتماعيا فى الغالب ، فان كتاب « حافظ » كان سياسيا وطنيا فى الأغلب ، ولكن كلا منهما استطاع أن يصب أفكاره فى قالب حوارى فيه ابتكار وابتداع ، لا هو الى القصة الفنية المستحدثة ولا هو الى المقامة البلاغية المأثورة ، ولكنه فن بيانى يتخذ من مناقلة الحديث سبيلا الى بسط الآراء ، وعرض الصور ، والتلميح الى المقاصد البعيدة ، والرمز للخفايا العميقة ، بحيث تتوافر لذلك كله أمهات العناصر التى تجعل من العمل الكتابى نموذجا أدبيا جميلا ، فيه للعقول غناء ، وللنفوس شفاء ، وللاذواق متاع .

ويتجلى افتتان « حافظ » بأدب « المويلحى » فى أنه لا يقتصر على محاكاة أسلوبه ومنحاه ، بل يتعداه الى الاقتباس منه فى أثناء لياليه ، فهو يورد فصلا كاملا ، هو الفصل الذى يصف به « المويلحى » حديقة الحيوان قصرها ومتنزهها فى « حديث عيسى بن هشام » .

وكتاب « حافظ » مجموعة أحاديث يرويها أحد أبناء النيل ، ومن الغلو أن ندعوها قصصا بالمعنى

أحمد شوقى
فى شبابه

المفهوم من القصة ، ولعلها أولى بأن تسمى أحداثا ومشاهدات وأوصافا تستقل كل منها عن الأخرى أو تكاد ، وإن كانت ذات طابع واحد فى السرد والاسلوب.

وفى الكتاب بطلان : الاول الراوى نفسه ، والآخر « سطيح » .. أما الراوى فهو أمرؤ يرثى لأمته مما تعانيه فى حياتها الاجتماعية والسياسية ، وينشد لها وسائل الاصلاح ، ولا يألوها نقدا ولوما ، ولا يدخر عنها إرشادا ونصحا يصفه « حافظ » بقوله :

« أديب بائس ، وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث ، فلم تجد له عزما ، ولم تصب منه حزما .. »

وهو يعنى نفسه بلا مراء .

وأما « سطيح » فهو حكيم صالح ، أقامه « حافظ » حكما عدلا فيما يعرض عليه من قضايا العصر ومشكلاته ، وهكذا جعل الراوى يرتاد الاماكن ، ويلاقى الناس ، فيشاهد ويناقش ، ويتأمل وينقد ، مفصحا عما يجيش فى صدره من آمال وآلام ، فاذا نفض جعبته لشيخ الحكمة « سطيح » سمع منه الرأى الصائب والقول الفصل.

وكما اختار « المويلحى » بطله الأول من بين شخصيات العرب الروائية ، وهو « عيسى بن هشام » بطل المقامات الهمذانية ، اختار « حافظ » بالمثل بطله الذى سمى به كتابه .. لقد عاد إلى عصر الجاهلية يفتش فى دفائنه ، فاستخرج منها عرافا يدعى « سطيحا » هو الى شخصيات الأساطير أقرب منه الى الشخصيات الحقيقية ، واسمه « ربيع الذئبى » وقد لقبوه « سطيحا » لأنه كان لحما دون عظم ، لا يستطيع وقوفا ولا مشيا ، ولكنه مستلق على ظهره أبدا ، فان أرادوا نقله طووه طى الحصير . ولم يكن له رأس ولا عنق ، بل كان وجهه فى صدره ، وقد تكهن بفتح الحبشة لليمن ، وبظهور الإسلام ، وكان من المعمرين ، يعد من سنيه مائتين !

والنظرة الإجمالية فى الكتاب ، ترينا أنه يجاذبنا الحديث فى كثير مما كانت تتناوله الصحف من موضوعات العصر ومشكلاته وشخصياته ، فهو سجل يمثل لنا مظهرا من حياة مصر فى تلك الحقبة ، ويمثل لنا فى الوقت نفسه جانبا من حياة « حافظ » ونفسيته ، فقد كتبه بعد خروجه من الجيش وعودته من السودان ، على إثر اتهامه بالاشتراك فى الحركة الثورية التى يسميها (حادث الذخيرة) .

وفى الكتاب موضوعات شتى ، فهو يتكلم عن تحرير المرأة ، ويتصدى للدفاع عن « قاسم أمين » ، ثم يتحدث عن أهل « سورية » ، ذاكرا مناقبهم ، مشيدا بأفضالهم على العربية . ثم يأتى دور الامتيازات الأجنبية فيقول فيها :

« مادام امتياز الأجانب ، فلغير المصرى عزة الجانب ، الرومى يطعن بمديته ، ويستظل بعلم دولته ، والمصرى يحمل القتيل ، ويخضع خضوع الذليل » .

ويتحدث فى الصحافة ، فيذكر صحافة السوء بالسوء ، ويقول على لسان أحد الصحفيين شاكيا :

« فأنت اليوم بين أمرين : إما الفضيلة

والنعش ، وإما الرذيلة والعيش »

ثم يذكر « شوقى » فينقده فى غير رحمة ، ثم يدافع عنه دفاع المستضعف ، ويترك الحكم أخيرا الى « سطيح » ، فيقول :

« لو انه منح من دقة المبانى ، ما منح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته ، لكان شاعركم غير مدافع ، وواحدكم غير منازع » .

ولا ينسى « الجامعة المصرية » ، فهو يحث المصريين ملحا متحمسا على بذل الأموال فى سبيل انشائها .. ولما كانت ثورة السودان سببا فى خروجه من الجيش ، فقد وجدناه يخصها بنحو الخمس من كتابه ، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها منددا بالخونة ، منتقدا سياسة الانجليز أشد انتقاد ، ويعقب على هذا بحديث عن المعتمد البريطانى « اللورد كرومر » وما كان من أفاعيله فى مصر .

وفى هذا المقام ينقل مقالا بأكمله للشيخ « على يوسف » نشره فى صحيفته « المؤيد » عنوانه « السياسة الضعيفة العنيفة » ومغزاه ان المحتلين اضطروا الى استعمال العنف ليستروا وراءه ضعف سياستهم ، فالإنسان اذا ضعف فى الحجة والرأى لجأ إلى القوة والعنف . وهو لا يغفل حادث « دنشواى » المعروف ، وحافظ اذا تكلم فى السياسة القومية كان فى قوله سطوة ، وفى رأيه صراحة ، لا يداجى ولا يحابى ، فهو الوطنى الذى لا يطيق لوطنه هضما ولا ضيما .

وفى الكتاب صفحات لطاف فى وصف الطبيعة والنيل والأسواق المصرية ، وشيخة الزار ، والراقصة ، وما الى ذلك من مجالى الحياة وظواهر المجتمع .

أما اذا أردنا أن نوازن بين « ليالى سطيح » وحديث « عيسى بن هشام » فى قول موجز ، فلنا أن نقرر أن « المويلحى » حاول الدنو من القصة الفنية بما رسم من شخصيات حية ، وما صور من مشاهد شائقة ، وأن «حافظا» كان معنيا ببسط الشكايات والشجون التى تعتمل فى صدور الوطنيين الأحرار ، مما يجدونه فى بلادهم وبين قومهم فى ذلك العهد الذى شاع فيه الاضطهاد والاستبداد .

أما الكتابان ففى الطبقات العلى من الفصاحة والبلاغة . تقرؤهما فيخيل اليك ان كلا من الكاتبين الكبيرين كان يختار ألفاظه ، ويؤلف بينها، فقرة فقرة ، كما ينتقى الجوهرى حبات الماس ، وينظمها فى عقد ثمين .

غير أن « المويلحى » كان يتبسط فى أسلوب حواره ، ويجدله جدلا طبيعيا ، فتأتى جمله نابضة بالحياة ، قريبة الى الذوق العصرى الشائع . فى حين أن « حافظا » كان يتأنق ما وسعه التأنق ، لا يترخص من البداية الى النهاية فى كلمة أو عبارة .

هذا ، ولما كانت « ليالى سطيح » قد ظهرت فى وقت لم يكن للقصة فيه نصيب وافر ، ومقام يذكر ، فإننا نعترف لحافظ بفضل المشاركة فى السبق الى اتخاذ النمط القصصى - على نحو ما - وسيلة للتعبير الأدبى الفنى عن ملامح عصره ، ومشكلات مجتمعه ، وفى هذا من التجديد ما فيه .

توفيق الحكيم رائد بلا نظرية

بقلم : رجاء النقاش

عندما نراجع قائمة أعمال توفيق الحكيم المسرحية يمكننا ان نلاحظ أن هذا الفنان الكبير لم يلتزم ابدا بمذهب فنى واحد أو مذهب فكرى واحد . وإذا عدنا الى بداية إنتاج توفيق الحكيم المسرحى وجدنا انه كان فى هذه البداية يستمد خاماته المسرحية من التراث الإسلامى والشرقى عموما .

فأول مسرحية منشورة له هى « أهل الكهف » وهى مستمدة من القصص الدينية ومن التراث الإسلامى على وجه الخصوص ، ثم جاءت بعد ذلك « شهر زاد » وهى مستمدة من التراث الشعبى الذى يتمثل فى قصص « ألف ليلة » ، ثم كتب بعد ذلك « سليمان الحكيم » ، وهى مسرحية مستمدة من القصص الدينية الشرقية أيضا . وفى هذه المرحلة الأولى من إنتاجه الفنى قدم كتابا يعتمد على الحوار عن « النبى محمد » عليه السلام .

والحكيم فى كل هذه الأعمال الفنية المختلفة لم يكن مجرد « ناقل » ، ينتقل بالقصة من الكتب الدينية الى العمل المسرحى دون تغيير الا فى الشكل الفنى ... كلا ... فلقد كان الحكيم يضيف الى المادة الاصلية من فكره ووجدانه أشياء كثيرة فهو فى « أهل الكهف » يناقش أكثر من مشكلة واحدة ... إنه يناقش مشكلة القلب والزمن وما بينهما من صراع ، وبشىء من التأمل الدقيق فى هذه المسرحية نجد أن توفيق الحكيم إنما يناقش أيضا مشكلة اجتماعية ، هى مشكلة التخلف ، والحياة فى الماضى .. وعدم القدرة على مواجهة



الحاضر بتلك العقلية الغارقة فى الأفكار القديمة والقيم القديمة ، ولا شك أن هذا المعنى الكبير فى مسرحية « أهل الكهف » كان تعبيراً عن رفض الكاتب للواقع وثورته عليه ورغبته فى تجديده وتحريره من النظرة الدائمة الى الوراء ، والاستسلام لما فى هذه النظرة من قيود تعوق التطور والحركة ... وقد لا يكون توفيق الحكيم على وعى عقلى واضح بمثل هذا المعنى ، ولكن المسرحية ولا شك تحمل هذه الفكرة وتعبر عنها . ولقد كانت مثل هذه الفكرة صدمة للمجتمع المصرى والعربى عموماً عند صدور « أهل الكهف » سنة ١٩٣٣ .

وهكذا فتوفيق الحكيم لم ينقل قصة أهل الكهف فى مسرحيته كما قرأها فى الكتب الدينية ، ولم يكتف بصياغة هذه القصة صياغة مسرحية فقط .. بل فسرها وأضاف اليها إضافات جديدة .

ومثل هذا الموقف هو ما نجده فى مسرحيات توفيق الحكيم الأخرى المستمدة من التراث الاسلامى والشرقى .. فهو يأخذ المادة الخام ويعيد صياغتها حسب فكرته الجديدة .

ولكننا نلاحظ مع ذلك أن توفيق الحكيم لم يستقر على فكرة واحدة ، أو عدة أفكار محددة .. وهو كذلك لم يستقر على شكل فنى واحد . لقد تعرض لتقلبات فنية فكرية عنيفة ... تحتاج الى مناقشة وتفسير .

فمن يقرأ مسرحياته الاولى يتراءى له أن توفيق الحكيم يريد أن يعيد صياغة الحضارة العربية والإسلامية عموما صياغة عصرية جديدة ، بإحياء ما فيها من أفكار وقضايا وقصص فى

صور تلائم روح العصر وتطوراته العديدة المتنوعة .

ولكننا نجد أن توفيق الحكيم لا يواصل الحركة فى هذا الاتجاه فهو يعود الى « المآسى اليونانية » ليستمد منها خامات فنية وفكرية جديدة ... ومن هنا تظهر مسرحيته « الملك أوديب » ومسرحيته « بيجماليون » ... الأولى تناقش القدر والمصير الإنسانى والثانية تناقش مشكلة الفن والحياة ، والمسرحيتان تدوران فى إطار يونانى .. وتعتمدان على الأساطير اليونانية إعتمادا كاملا . فالحكيم محصور فى الجو اليونانى الاصلى .. يدور حوله ويتحرك من خلاله .. وإذا أخذنا مسرحية « بيجماليون » على سبيل المثال وقارناها بمسرحية « بيجماليون » التى كتبها برنارد شو وجدنا أن توفيق الحكيم على عكس موقفه من التراث الإسلامى ملتصق كل الالتصاق بالأصل اليونانى للأسطورة ، بينما نجد أن برنارد شو يأخذ روح الأسطورة ثم يتحرك فى جو فنى واقعى مختلف كل الاختلاف عن الأصل اليونانى ، وهو من خلال روح الأسطورة اليونانية يناقش قضايا عصرية وجديدة تماما .. إنه يناقش مشكلة « الطبقات الاجتماعية » وهل يمكن القول بأن الإنسان محكوم عليه أن يكون سجين طبقته .. وأن على الفقير حسب هذه النظرة أن يظل فقيرا وملتصقا بالطبقات الدنيا فى المجتمع الى الأبد ، أو أن الإنسان يستطيع أن يرتقى ويتعلم ويتغير لو تغيرت ظروفه وتحسنت ؟ ويجيب برنارد شو فى مسرحيته بأن الإنسان يتغير اذا تغيرت ظروفه ، وينادى عاليا بدعوته الاشتراكية الصريحة من خلال مسرحيته المعتمدة على الأسطورة اليونانية .. بيجماليون .

أما توفيق الحكيم فلم يفعل شيئا من هذا ، لم يخرج عن دائرة النص ، ولم يحطم الاسوار اليونانية بل التزم بها وإن كان قد اضاف بعض الإضافات الذاتية حولة فكرة الصراع بين الفن والحياة !

ونكاد ونحن نراجع « الآثار اليونانية » فى مسرح توفيق الحكيم .. أن نقول من الطبيعى أن يهتم توفيق الحكيم وهو رائد الفن المسرحى فى الأدب العربى باليونانيات .. فالمسرح اليونانى هو أنضج الأشكال المسرحية التى وصلت الينا من العالم القديم والتى أخذ عنها العالم المعاصر كله أصول المسرح .. ومعظم التطورات التى حدثت فى المسرح العالمى الحديث إنما تعتمد على تطوير للأصول المسرحية اليونانية .. كل هذا يبرر عودة توفيق الحكيم الى الاصول اليونانية وهو يرسى دعائم هذا الفن الجديد فى الأدب المعاصر فن المسرح .

ولكننا إذا تابعنا توفيق الحكيم بعد ذلك وجدنا التحول والتغير مستمرين فى إنتاجه المسرحى ، سواء من الناحية الفنية أو الناحية الفكرية .

فتوفيق الحكيم بعد أن اتجه الى القصص الدينية والقصص الشعبية الشرقية والأصول اليونانية يتجه الى الحضارة الفرعونية ليستمد منها خامات فنية جديدة لمسرحية من مسرحياته المشهورة وهى « إيزيس » صحيح أن توفيق الحكيم قد عرف الحضارة الفرعونية منذ بداية حياته الفنية واستمد منها بعض صوره الفنية وبعض افكاره وهو يكتب روايته الأولى « عودة الروح » فى سنة ١٩٢٧ ، لقد عاد وهو يكتب هذه الرواية الى بعض

النصوص الفرعونية وبالأخص كتاب الموتى واستمد منه شعارا للرواية ، حيث يقول كتاب الموتى « عندما يصير الزمن الى خلود سوف نراك من جديد لأنك صائر الى هناك حيث الكل فى واحد » ولكن الحكيم لم يكتب عملا مسرحيا كاملا مستمدا من تراث الحضارة الفرعونية الا سنة ١٩٥٥ حيث صدرت مسرحيته « ايزيس » ونفاجأ بعد صدور مسرحية « إيزيس » بصدور مسرحية « الصفقة » ، وهى مسرحية اجتماعية تميل فى تفكيرها الى النزعة الاشتراكية الواضحة فهى تناقش مشاكل الفلاحين مع الإقطاعيين ، وتناصر قضية الفلاح ضد أعدائه مناصرة واضحة وبعد هذه المسرحية تظهر مسرحية « السلطان الحائر » وهى مسرحية تعتمد على بعض الأفكار الوجودية عن « مسئولية الانسان » و « إرادة الاختيار عنده » ولقد طبعها توفيق الحكيم بالفرنسية تحت عنوان « اخترت .. » ، « السلطان الحائر » بعيدة كل البعد عن « الصفقة » وعن جو « الصفقة » ومضمونها الفكرى . فاذا قلنا إن الصفقة أقرب الى الروح الاشتراكية فإن « السلطان الحائر » ولا شك اقرب الى الروح الوجودية .

ثم نفاجأ مفاجأة جديدة فى إنتاج توفيق الحكيم بعد السلطان الحائر ... أن الحكيم يفاجئنا بمسرحية « يا طالع الشجرة » وهى مسرحية تنتمى الى مدرسة « اللامعقول » وهى بعيدة من ناحية الشكل الفنى عن كل ما سبقها من إنتاج توفيق الحكيم المسرحي وإن كان هناك رباط لاشك فيه بين بعض أفكار هذه المسرحية وبين المشاكل الذهنية التى أثارها الحكيم فى مسرحياته السابقة فمن بين المشاكل التى يناقشها الحكيم فى مسرحية « يا طالع الشجرة » مشكلة « البعث والخلود » وهى مشكلة تعرض لها مرارا فى مسرحياته السابقة .ولكن الشكل الفنى هنا جديد تماما لم يلجأ اليه توفيق الحكيم من قبل .. وأقصد بذلك هذا الشكل الذى نسميه باسم « اللامعقول » .

ولكننا نفاجأ بعد مسرحية « يا طالع الشجرة » بأن توفيق الحكيم يقدم الينا مسرحية « الطعام لكل فم » وهى مسرحية تعالج مشكلة « الإنسان والطعام » فى هذا العالم ، وتقدم الينا حلما إنسانيا لم يتحقق بعد بتوفير الطعام لكل كائن بشرى على هذه الأرض بدلا من الحرب والصراع والمشاكل العديدة التى تجعل من الإنسان حربا على الإنسان ووبالا عليه .

ثم يقدم توفيق الحكيم مفاجأة أخرى هى مسرحيته « شمس النهار » وفى هذه المسرحية ينتمى الحكيم انتماء كاملا الى الفكر الاشتراكى حيث يمجد العمل ويعتبره رأس المال الأساسى ويعتبره أيضا مصدر القيمة الحقيقية للإنسان ، ويدعو فى هذه المسرحية للعدالة الاجتماعية دعوة مباشرة صريحة .

هذا التقلب الفنى والفكرى ماذا وراءه وما هو سره عند توفيق الحكيم ؟ هل هو لون من « الانتهازية الفنية والفكرية » عند توفيق الحكيم ؟ . إذا أخذنا بهذا التفسير فأننا نظلم توفيق الحكيم كثيرا ونجنى عليه ، فتوفيق الحكيم فنان كبير وليس فنانا صغير الشأن بحيث يجرى وراء الموضات والتقاليع بحثا عن النجاح ... مجرد النجاح ..

ولكن المسألة فيما أتصور لها تفسير آخر ينطوى على عدة عناصر وأسباب .

السبب الاول هو أن شخصية توفيق الحكيم هى من الشخصيات الحساسة التى تتأثر بالأفكار السائدة تأثرا سريعا وملموسا ... إنه يلتقط التأثيرات بسرعة مذهلة ، وتثمر فيه هذه التأثيرات بسرعة مذهلة أيضا .

فعندما اتجه توفيق الى الإسلاميات مثل « أهل الكهف » كان هناك جو ثقافى عام يهتم بإعادة التفكير فى التراث الإسلامى وإعادة تفسيره وإعادة الاتصال به ، وقد امتدت هذه الحركة الجديدة طيلة الثلاثينات وحتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . فى هذه الفترة اصدر العقاد عبقرياته المعروفة « عبقرية محمد ، وعبقرية الصديق ، وعبقرية عمر .. الخ » وفى هذه الفترة أصدر طه حسين « على هامش السيرة » بأجزائه الثلاثة وأصدر أحمد أمين فجر الاسلام وضحى الاسلام ... الخ »

وهكذا عاش توفيق الحكيم فى هذا الجو الفكرى وتنفس هواءه وتأثر به أشد التأثر .

وهناك أمثلة أخرى على سرعة تأثر توفيق وشدة حساسيته للعوامل الفكرية الخارجية .

فبين عامى ٥٣ و ٥٤ كان الدكتور لويس عوض ينشر فى جريدة الجمهورية دراسته الهامة المثيرة عن المسرح المصرى ، ويتحدث فى هذه الدراسة عن المسرح فى مصر الفرعونية ، ويثبت اعتمادا على بعض العلماء الغربيين أن مصر الفرعونية عرفت المسرح وعالجت بعض قضاياها الكبرى عن طريق المسرح .

وعلى أثر هذه المقالات ، التى كانت مقالات صاخبة فى ذلك الحين ، أصدر توفيق الحكيم مسرحيته « إيزيس » ، وأغلب الظن عندى أن الحكيم قد أصدر هذه المسرحية متأثرا بالجو النقدى الذى أثارته مقالات لويس عوض وما كان فى هذه المقالات من التفات الى التراث الفرعونى بما فيه من حقائق وأساطير .

بعد ذلك أصدر الحكيم مسرحية الصفقة التى صدرت مباشرة بعد إيزيس سنة ١٩٥٥ وصدرت الصفقة سنة ١٩٥٦ والصفقة كما أشرت هى مسرحية تميل ميلا واضحا الى التفكير الاشتراكى والدعوة الاشتراكية . والواقع أن الصفقة صدرت فى جو ثقافى كان يعيش فى ظل ما يمكن أن نسميه بالمد اليسارى فى الثقافة المصرية والعربية عموما ، حيث ظهرت أقلام كثيرة تنادى بالاشتراكية وظهر نقاد كثيرون ينادون بالدعوة الواقعية « مثل محمود العالم » ، وكانت سنوات هذا المد اليسارى فى الثقافة المصرية والعربية عموما هى سنوات ١٩٥٥ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ... وكانت قمة هذه السنوات جميعا سنة ١٩٥٦ وهى السنة التى استجاب فيها توفيق الحكيم للجو العام ، وتأثر بالحديث عن الاشتراكية والواقعية فى الفن والأدب وما دار حولهما من مناقشات واسعة ... وكانت الصفقة ثمرة لهذا التأثير فى حياة الحكيم الفنية والفكرية .

ومثال آخر من تأثيرات توفيق الحكيم تقدمه لنا مسرحية « يا طالع الشجرة » ... فقد صدرت هذه المسرحية سنة ١٩٦٢ وذلك على إثر افتتاح « مسرح الجيب » وتقديمه لمسرحيات « بيكيت » و « أونيسكو » فى موسمه الاول ، وما أثارته هذه

المسرحيات من ضجة فنية كبيرة فى حياتنا الثقافية ، حيث جذبت اليها الجمهور والنقاد كمدرسة مسرحية جديدة هى مدرسة اللامعقول .. هنا حدث ما يحدث عادة من تأثير توفيق الحكيم بالجو الثقافى المحيط به .. وأصدر للعيون المتطلعة الى مدرسة اللامعقول مسرحية « يا طالع الشجرة » فنيا وفكريا ، وإن كان « اللامعقول » فنيا وفكريا ، وان كان توفيق الحكيم يحاول أن يمد خيطا رفيعا بين هذه المسرحية وبين التراث الشعبى المصرى ، ولكن هذا الخيط لم يخرج بالمسرحية عن شخصيتها كمسرحية تنتمى الى مدرسة « اللامعقول » .

وفى سنة ١٩٦٥ ، بعد صدور « يا طالع الشجرة » بأقل من ثلاث سنوات قدم توفيق الحكيم مسرحية « شمس النهار » .. وهى كما أشرت مسرحية تتبنى الاتجاهات الفكرية الاشتراكية بصورة واضحة وكأن صدور شمس النهار فى سنة أزدهر فيها الفكر الاشتراكى اليسارى من جديد ، وبدأ نقاد المدرسة الواقعية فى الأدب والفن يرفعون صوتهم مرة أخرى بعد أن كانوا قد اختفوا فى الفترة السابقة على ١٩٦٥ .

هذه كلها نماذج على شدة تأثر توفيق الحكيم بالجو الثقافى العام الذى يحيط به ، وشدة استجابته لهذا الجو الثقافى .

هذا هو السبب الأول الذى يفسر تقلب توفيق الحكيم بين الاتجاهات الفكرية والفنية بصورة سريعة ...

إنه السبب الذى يتركز فى سرعة تأثر توفيق الحكيم بما يدور حوله من اتجاهات وأفكار ، وبما يتنفسه من جو ثقافى عام .

على أن هذا السبب الاول يرتبط بسبب آخر هو أن توفيق الحكيم تغلب عليه « الطبيعة الفنية » أكثر من أى شىء آخر ، ولذلك فإن الذى يعنيه بالدرجة الأولى هو « الحقيقة الفنية » قبل « الحقيقة الإنسانية » ... إنه فنان أولا وقبل كل شىء ، ولذلك فالأشكال الفنية ، والخامات الفنية تعنيه قبل أى شىء آخر ...

إنه يبحث عن الجمال ويريد أن يحققه فى أعماله الفنية ويريد أن يصل به الى أرقى مستوياته .... وهو تارة يرى الجمال فى تلك الاساطير اليونانية الفنية الخصبة ، وتارة يراه فى التراث العربى والاسلامى ، وتارة يرآه فى اللامعقول ... وتارة يرآه فى ذلك الادب المباشر أدب الدعوة الى قضية مثل قضية الاشتراكية والدفاع عنها ... الحكيم باحث عن الجمال تجذبه الالوان والأشكال ، ولذلك فهو يجرى وراء التجارب المختلفة ... وهو يتصور أن الجمال فى هذا الشكل تارة ، ويتصوره فى شكل آخر مرة ثانية ... ويتقلب بين الخامات المختلفة لعله يجد فى تنوع الخامات تنوعا فى الجمال .

ولكى يتضح لنا هذا الجانب فى توفيق الحكيم يمكننا أن نقارن موقفه بموقف نجيب محفوظ ... فاذا كانت الطبيعة الفنية عند الحكيم طبيعة غلابة بحيث تدفعه الى البحث أولا وقبل كل شىء عن الحقيقة الفنية ... فإننا نجد الأمر على العكس عند نجيب محفوظ فالحقيقة الإنسانية عند نجيب أهم لديه من « الحقيقة الفنية » ولذلك فنجيب محفوظ يتطور - فنيا - ببطء ، ولا نكاد نجد عنده من الناحية الفنية أكثر من مرحلتين : المرحلة الأولى هى التى انتهت

بثلاثية بين القصرين وهى مرحلة الواقعية الطبيعية اذا صح التعبير ، والمرحلة الثانية التى بدأت منذ « أولاد حارتنا » حتى روايته الأخيرة ميرامار ... وفى هذه المرحلة مال نجيب محفوظ الى الرمز ، واكتسب أسلوبه نوعا من التركيز والشاعرية لم يكن لهما وجود واضح فى المرحلة الأولى . أما من الناحية الموضوعية فقد انتقل نجيب محفوظ بين ثلاث مراحل واضحة ... المرحلة الاولى هى الرواية التاريخية التى تعتمد أساسا على التاريخ الفرعونى ، والمرحلة الثانية هى المرحلة الاجتماعية التى تنتهى بالثلاثية ، والمرحلة الأخيرة هى مرحلة تتميز بالميل الى بعض القضايا الفلسفية الميتافيزيقية التى تناقش فكرة الموت وغربة الإنسان فى العالم وما الى ذلك . على أننا نلاحظ عند نجيب محفوظ أمرين واضحين ...

الامر الاول هو أن نجيب محفوظ لم يتنقل بين مراحله المختلفة فنيا وفكريا بسرعة كما تتنقل الفراشة من زهرة الى زهرة ، وكما ينتقل توفيق الحكيم ... من مدرسة فنية الى مدرسة أخرى ، الامر الثانى هو ان نجيب فى كل مرحلة جديدة لا يتخلص من آثار المرحلة السابقة ، بينما نجد أن توفيق الحكيم يقطع الصلة بين مراحله الفنية المختلفة ويقطع الصلة بين مراحله الفكرية أيضا ... فمسرحية « يا طالع الشجرة » لا علاقة بينها وبين السلطان الحائر أو الصفقة أو ايزيس فنيا أو فكريا .... والفكر الاشتراكى فى شمس النهار لا علاقة له بالفكر الوجودى فى السلطان الحائر أو الفكر الفلسفى الميتافيزيقى فى يا طالع الشجرة .

والفارق بين الحكيم ومحفوظ ... هو الفارق بين الباحث عن الحقيقة الفنية بحيث تبدو القضايا الانسانية تابعة لهذه الحقيقة الفنية وتالية لها ، وبين الباحث عن الحقيقة الانسانية ، وهذا هو نجيب محفوظ ... حيث تبدو كل الامور - بما فيها الفن - خادمة لهذه الحقيقة وتابعة لها والسبب الثالث والاخير لهذا التقلب الفنى والفكرى عند توفيق الحكيم هو أن الحكيم يعمل فى ميدان الحياة المسرحية على وجه الخصوص بوجدان « الرائد » وعقله ، ولا شك ان توفيق الحكيم - تاريخيا وفنيا - هو رائد الادب المسرحى العربى منذ أصدر مسرحيته أهل الكهف سنة ١٩٣٣ واثارت معها ضجة فنية ونقدية واسعة ، والسبب فى ذلك أنها كانت أول نموذج متكامل فى الادب المسرحى العربى المعاصر ... وقد فرح بها طه حسين فرحا شديدا ، ورحب واعتبرها بداية فن جديد فى الادب العربى هو فن الادب المسرحى ، وكانت المحاولات السابقة على توفيق الحكيم فى ميدان المسرح تعتمد على الاقتباس أو التمصير ولم يكن هناك كاتب مسرحى ذو شأن قبل توفيق الحكيم .

هذا الاحساس بدور الرائد عند توفيق الحكيم دفعه الى العمل فى كل ميدان ، والى تجربة جميع الاساليب الفنية ، انه يفتح الطريق امام غيره من كتاب المسرح ... انه يكتشف ويختبر ويجرب ، حتى يأتى بعده من يستطيعون مواصلة السير على ضوء واضح دون أن يمشوا فى المجهول . ومن هنا انتقل توفيق الحكيم من الواقعية الى الرمزية الى

اللامعقول ، ومن الاسلاميات الى اليونانيات ، الى الفرعونيات وسار فى كل طريق من طرق الفن .. يجرب ويستكشف ... شأنه شأن الرواد فى كل ميدان .

ومنطق الرائد هذا اذا كان قد خلق لنا التنوع فى انتاج توفيق الحكيم ... فقد حرمنا من أن تكون لدينا مدرسة واضحة لتوفيق الحكيم فى الفن المسرحى .. وحرمنا من أن تكون له نظرية مسرحية محددة وواضحة ... نعرفها كما نعرف نظرية بريخت فى المسرح ، أو نظرية ابسن ، أو تشيكوف وغيرهم من اعلام المسرح وهذه الثمرة النهائية لفن توفيق الحكيم المسرحى هى ثمرة غريبة ولا شك رغم ما فيها من الفنى والتنوع ... ان شخصية الحكيم المسرحية تفقد وحدة النظرة ، ووحدة الاتجاه ووحدة الجذور الفنية .

وقد صدر لتوفيق الحكيم اخيرا كتاب له بعنوان « قالبنا المسرحى » ... وفى هذا الكتاب يحاول أن يقدم شكلاً جديدا للمسرح يستوحيه من تراثنا الشعبى ... والواقع أن توفيق الحكيم فى هذا الكتاب انما يتجاوب كعادته فى التأثر السريع مع الدعوات التى ظهرت فى حياتنا الثقافية فى السنوات الاخيرة تنادى بابتكار شكل مصرى للمسرح ... وتوفيق الحكيم يسارع فى هذا الكتاب الى تقديم شكل مسرحى مصرى جديد . ولكن الكتاب جاء فى الواقع نوعا من « الشـرود الفـكرى » عند توفيق الحكيم .. لأنه لم يبنه على تجربته المسرحية الطويلة ، ولم يبنه على دراسة متعمقة لاحتياجاتنا المسرحية ... وانما جاء الكتاب مجرد رد فعل لدعوات متعددة ترددت حول الشخصية الخاصة للمسرح المصرى ... ان هذا الكتاب « قالبنا المسرحى » هو تجـربة من تجارب « الرائد » السباق الى التجارب المختلفة ، وليس نظرية واضحة ذات جذور واعماق ... لان الرائد توفيق ليست له نظرية مسرحية ، بل هو يجرب كل الالوان وكل النظريات !

وأحب أن أتوقف هنا بعد أن شرحت فكرتى عن توفيق الحكيم : رائداً بلا نظرية ... اما كتاب قالبنا المسرحى بما فيه من أفكار جزئية ... فأرجو أن يكون موضوع مناقشة أخرى مستقلة تقف أمام الكتاب لا أمام مؤلفه توفيق الحكيم ، ذلك الفنان العبقرى المتقلب ذى الطبيعة الفنية الحساسة التى تتأثر بالعوامل الخارجية تأثرا سريعا شديد العنف والذى يجرى وراء التجارب الفنية كرائد ، ولا يتعمق هذه التجارب كصاحب نظرية فنية او فكرية محددة ... وأحب أن أشير هنا الى أننى فى هذا المقال انما أتحدث عن جانب واحد من شخصية الحكيم هو الجانب المسرحى ... بعيدا عن أى جانب آخر .

ابريل ١٩٦٩



قصة قصيرة

روح طبيب القلوب

بقلم : نجيب محفوظ

تفحصها الرجل باهتمام فتلقت نظـــراته بعينين حـــذرتين مستطلعتين، كان يجلس مسند الظهر الى باب الضريح الصغير على حين تربعت هى بين يديه .. لم يكن فى ساحة الضريح الصحراوية سواهما أحد فى صحبة شعاع الصباح الباكر، وكان الضريح صغيرا مثل زنزانة ، ولا تناسب بين جسم الرجل النحيل وبين عمامته الخضراء الكبيرة ولحيته الكثيفة السوداء ، وثمة تناقض أشد بين جلباب الفتاة الرث القذر وقدميها الحافيتين وبين جمال وجهها الأسر، أشار الرجل الى الضريح وقال :

- تبارك ذكره ، كان بطب الجراح اعجازه وسره .. فتمتمت الفتاة بسذاجة :

- تبارك ذكره .

- لعل الذى جاء بك اليه جرح عز على البشر شفاؤه ؟

فتمتمت فيما يشبه البلاهة :

- نعم .

فسألها بارتياب :

- ما سنك يا فتاة ؟

- لا أدرى .

- ولكن أمك تدرى ؟

- لم أر لى أما ..

- توفاها الله ؟

- لا أدرى .

- وأين أبوك ؟

- لم أر لى أبا .

- وأين تعيشين ؟

- فى الدنيا !

- ماذا تعملين ؟

- أسرح بالفاكهة الفاسدة يجود بها الفاكهى أو يبيعها بثمن بخس .

- ولكنها تجارة فاسدة !

- لها زبائن يتنافسون فى الحصول عليها .

- وأين تقيمين ؟

- فى الخلاء صيفا وتحت البواكى شتاء .

- أتتحملين تقلب الجو ؟

- وهل تقلب الجو يؤذى ؟

وخفض الرجل صوته درجة وهو يسألها :

- وهل صنت شرفك يا فتاة ؟

- شرفى ؟!

- ألا تعرفين معنى الشرف ؟

- الشرف ؟!

فتردد لحظة ثم تساءل :

- ألم يغرر بك شاب ؟

- يغرر بى ؟!

- يخدعك لينال منك مأربه ؟

- نحن نعمل معا ونلعب معا وننام معا !

- يا للعنة !

- اللعنة ؟!

- لعلك قصدت صاحب الضريح مطاردة بعذاب الضمير ؟

- الضمير ؟!

- لا تعرفين الضمير أيضا ؟

- أيضا !

- أنت راضية عن حياتك ؟

فقالت بحماس :

- الحياة جميلة بالرغم من كثرة المشاجرات .

- الشجار إذن هو ما يقلقك ؟

- كلا ، انه يهب الحياة مذاقا طيبا !

فنفخ الرجل متسائلا :

- ما دينك يا فتاة ؟

- دينى !!

- ألا تعرفين الدين ؟

- الدين !

فسألها بحدة :

- ماذا جاء بك الىّ ؟

- أنت الذى أمرتنى أن أجلس فجلست .

- ولكنى رأيتك قادمة نحوى ؟

- نحو الضريح !

- لماذا ؟

- ظننت أنه يصلح مأوى لى !

- أأنت بلهاء أم مجنونة ؟

لاذت الفتاة بالصمت ، فقال :

- انك تعيشين فى الخلاء صيفا وتحت البواكى شتاء فماذا

جعلك تبحثين عن مأوى ؟
بدا أنها تهم بالكلام ولكنها أطبقت شفتيها راجعة الى الصمت فغمغم الرجل فى ضجر :
- انك شيطانة !
فسألته ببساطة :
- من أنت ؟
فقال بغضب :
- لا يجهلنى إلا الشياطين .
- ماذا تعمل ؟
- أنت لا تعرفين الشرف أو [illegible]ركين معنى [illegible]؟
- لماذا أنت غاضب ؟
- ملعونة أنت فى الدارين !
- الدارين ؟
- فى الدنيا والآخرة ..
- أعرف الدنيا ولكن ما الآخرة؟
- أغربى عن وجهى !
نهضت الفتاة قائمة .. سقطت من داخل الجلباب بين قدميها قطعة حلى .. انحنت بسرعة فالتقطتها ولكن يد الولى قبضت على ساعدها بقوة ثم وثب قائما وهو يقول :
- ما هذا ؟
هتفت به أن يطلق يدها ولكنه قبض على منكبيها وراح يهزها بعنف فتساقطت قطع الحلى حتى استقرت على الأرض كنزا صغيرا .. وفى تلك اللحظة جاء خادم الضريح فرأى الصراع بين الفتاة والولى ورأى الكنز .. ردد البصر بينهما ثم حملق فى الكنز متسائلا فى ذهول :
- ماذا يحدث ؟
فقال الولى :
- لصة من صعلوكات الطريق.
- ماذا جاء بها الى هنا ؟
- توهمت الشيطانة أنه يمكن اخفاء سرقتها فى الضريح .
- وماذا تنوى أن تفعل بها ؟
- ما ينبغى فعله .
وولولت الفتاة :
- دعنى وشأنى .
فصاح بها :
- اخرسى يا لصة .
- يدك تهشم عظامى .
- من أين لك هذه الحلى ؟
- انها ملكى .
- ورثتها عن أهلك ؟
وعاد خادم الضريح يسأل :
- ماذا تنوى أن تفعل بها ؟
- ما ينبغى فعله .
- وما الذى ينبغى فعله ؟
- علينا أن نسلمها للشرطة .
- أليس من الجائز أن تكون بريئة ؟
- ستتكفل العدالة بإظهار الحقيقة .
- ولكن العدالة عمياء يا ولى الله ..
- من أين لها هذه الحلى ؟
- الله يرزق من يشاء بغير حساب .
- أترى أن نطلقها ؟
- لن تكون بمأمن من قطاع الطرق .
- لم يبق إلا أن أضعها تحت رعايتى !
- ولكنك ولى وهيهات أن تحسن رعاية الأمور الدنيوية .
فقال الولى بارتياب :
- أى أن أحلاما غريبة تراودك !
- لعلها نفس الأحلام التى تراودك !
وتوسلت الفتاة قائلة :
- دعنى أذهب ..
فقال لها الولى وهو يخفف من قبضته عليها :
- لا أمان لك فى دنيا الشرور.
وقال لها خادم الضريح :
- سأفتح لك الضريح كما تشائين !
ولكن الفتاة قالت بإصرار :
- أريد أن أذهب .
وحاولت أن تخلص ذراعيها ولكن الولى شدد قبضته ، وأقبل خادم الضريح يساعده .

تبادلا نظرة من فوق رأس الفتاة .. قال خادم الضريح :
- يلزمنا وقت لتبادل الرأى .
وتبادلا غمزة حملا الفتاة على أثرها الى داخل الضريح .. غابا فى الداخل دقائق ثم خرجا يتفصدان عرقا .. أغلق الخادم الباب ثم مضى الى الولى وهو يقول :
- الخير فى الاتفاق .
- لا تنس أنها جاءت الىّ بقدميها .
- بل كانت تقصد الضريح .
- اكشف أفكارك .
- نتقاسم الغنيمة !
- من العدل أن ....
ولكن خادم الضريح قاطعه بحزم :
- نتقاسم الغنيمة !
فصمت الولى قليلا .. ثم تساءل :
- وماذا نفعل بالفتاة ؟
- نطردها ، ونهددها بالويل إن عادت ..
- قد ....
- انها سارقة ولن تلجأ الى الشرطة ..
- قد تحرض علينا عصابة من الأشرار لا قبل لنا بها .
- أترى من الأفضل أن نتخلص منها ؟
- ماذا تعنى ؟
- أن نقتلها !
- نقتلها ؟!
- ثم ندفنها فى الضريح وهو خال كما تعلم !
فقال الولى باضطراب :
- ولكن لا قلب لى على القتل !
فقال الخادم بارتياح :
- ولا قلب لى أيضا .
- فما العمل إذن ؟
وتفكرا فى صمت مليا حتى قال خادم الضريح بظفر :
- الرأى أن نستعين بصديقنا الشرطى !
- فكرة طيبة ..
- وهى المخرج الوحيد لنا .
- ولكن الغنيمة ستوزع على ثلاثة بدلا من اثنين !
- خير من ضياع كل شىء .
- وخير من القتل .
وغادر خادم الضريح المكان .. غاب فترة غير قصيرة ثم رجع بصحبة الشرطى وهو يقول له :
- هذه هى المسألة بلا زيادة ولا نقصان .
هز الشرطى رأسه مفكرا على حين أقبل الولى نحوه قائلا :
- عندك الرأى والتنفذ فقال الشرطى :
- ولكنها عقدة تحتاج الى حلال وتحف بها المهالك !
فقال الولى :
- ستقبض على الفتاة وتبدأ من فورك التحقيق معها ، ثم تستولى باسم القانون على الحلى ، وعند ذلك نتشفع نحن فى اطلاق سراحها ، وبمجرد أن تفك قبضتك عنها ستطير كالحمامة ولن ترجع الى هذا المكان ما امتد بها العمر !
فقال الشرطى :
- ولكنى لا أقبل الظلم ..
فتساءل خادم الضريح بانزعاج :
- أى ظلم ! ، انها صعلوكة شريرة قاطعة طريق !
فقال الشرطى :
- الظلم أن توزع الغنيمة علينا بالتساوى !
فوجم الرجلان وقال الولى :
- لولا صداقتنا الوطيدة لقمنا بالمهمة وحدنا .
- لولا الضرورة ما لجأتم الىّ !
- لا تكن سيىء الظن أيها الصديق .
- لى النصف ولكل منكما الربع .
- لا تغالى أيها الصديق .
- لا تبددا الوقت هباء ..
وصمت قليلا ثم استدرك :

- ولكن يلزمنا مثمن !
- مثمن ؟!
- للوزن والتقييم والفحص .
- ترى هل يفعل ذلك لوجه الله ؟
- ماذا فعلت أنت لوجه الله ؟
- ولكن سينقص ذلك من نصيب كل منا ؟
- من نصيب كل منكما !!
- يجب أن نتحمل العبء الجديد بالتساوى .
- أنت تتناسى أنك تخاطب القانون !
- الرحمة أيها الصديق .
- القانون لا يغمض عينيه بلا ثمن .

فقال الولى :

- أنا صاحب اللقية .

وقال خادم الضريح :

- أنا صاحب الضريح .

قال الشرطى بحدة :

- أهناك رحمة أعظم من أن أهبكم ثروة بدلا من أن أسوقكم الى السجن ؟!

فهبط عليهما صمت واجم مثقل بالتسليم .. وتسلم الشرطى الكنز فاقترح أن يذهب به الى المثمن ولكن الرجلين أصرا على اصطحابه .. وفيما هم يهمون بالذهاب جاء عجوز ضرير قابض على يد شاب ضرير ، يتلمس طريقه نحو الضريح ، فعدل الرجال الثلاثة عن الذهاب حتى تطمئن قلوبهم .. بلغ العجوز باب الضريح فبسط راحته عليه وتساءل بصوت مرتفع :

- أين خادم الضريح ؟

فأجابه الشرطى :

- الظاهر أنه مريض ، اذهب الآن وعد غدا .

ولكن العجوز قال :

- الباب المغلق لن يسد سبيل الرحمة ان الرحمن أمر بها .

وأسند رأس الشاب الى الباب وهتف :

- يا طبيب القلوب الكسيرة .. اليك ابنى المسكين ، فقد فى حادث بصره ، فتوقف فى سبيل الرزق سعيه ، وأعيا الأطباء شفاؤه ، أشمله بنفحة من بركتك.

هم الرجال الثلاثة بالذهاب مرة أخرى لولا صرخة ندت عن الشاب الضرير .. وهتف الشاب :

- يا رب السماوات !

فسأله العجوز :

- مالك يا بنى ؟
- أسمع صوتا !
- أى صوت يا بنى ؟
- صوت طبيب القلوب الكسيرة ولا صوت غيره !

تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلقة .. ألصق العجوز أذنه بالباب ثم تساءل :

- ماذا سمعت يا بنى ؟
- نفذ صوته الى أعماق قلبى ..

وقال الشرطى بحدة :

- إذهبا اليوم وعودا غدا .

فصاح الشاب :

- لن أذهب ، انه ينادينى !

فقال الشرطى :

- أنا الشرطى ، وأقول لك اننى لا أسمع شيئا ..

فصاح الشاب بأعلى صوته :

- اسكت ، دع صوت الرحمة ينفذ الى قلبى .
- ولكن ذلك مخالف للقانون !
- أسكت ، طبيب القلوب يهمس فى أذنى ، تكلم يا طبيب القلوب الكسيرة .. وجذب صوت الشاب الضرير انتباه بعض الناس فيما بدا فأخذوا يتقاطرون على الساحة بجلابيبهم الزرق وأقدامهم الحافية . وقفوا ينظرون باهتمام ويتبادلون الهمس .. واستشعر الرجال الثلاثة دنو خطر مجهول فحث الولى وخادم الضريح الشرطى على انقاذ الموقف قبل أن يستفحل الخطر . ضرب الشرطى الأرض بقدمه

وصاح بصوت آمر خشن :
- أيهـا الشـاب ، كف عن الهذيان .
ولكن الشاب صاح بقوة :
- طبيب القلوب يناديني .
- كف عن الهذيان ..
فقال العجوز بضراعة :
- ارحم شبابه وعجزه .
- إنه يحدث فتنة .
فقال العجوز :
- دعه يسمع ما يطرق أذنيه ، لا ضير من ذلك على أحد .
وأكثر من صوت من بين الناس قال :
- لا ضير من ذلك على أحد ، لا ضير من ذلك على أحد .
أما الشـاب فراح يخـاطب الضريح قائلا :
- يا طبـيب القـلوب ، انى أسـمـعك ؟ صـوتك يملأ قلبي ، يحرك جذور وجداني ، انى أصعد في مـدارج السـمـاء يا طبـيب القلوب.
وهتفت أصوات من الشعب :
- تبارك الله القـادر على كل شيء .
فصاح الشرطي :
- تضليل وتحد لقوانين الأمن.
وقال الولي :
- إذهب الى ولي من أوليـاء الله أو طبيب من أطباء الدولة !
وقال خادم الضريح :
- لقد انتهى عصر المعجزات!
فـعـادت أصوات من الشـعب تهتف :
- تبـارك الله القـادر على كل شيء ..
ومـضى الشـاب الضـرير في مناجاته قائلا :
- مـا أجمل صـوتك يا طبيب القلوب ، رقيق كـالرحـمـة ، هـامس كالسر ، عزيز كالنور ..
فصاح الشرطي :
- دجـل يدعو للتجـمـهـر دون اذن من الداخلية !
ولكن الشاب واصل حديثه :
- بكل جوارحي أصغي اليك ، أصغي اليك يا بشير النور والأمل.
فـتـقـدم الشرطي من الناس خطوات وصاح :
- باسم القـانون آمـركم بالتفرق .
فقال أكثر من صوت :
- دعنا نشهد معجزة ..
- إذهبـوا وإلا حملتـكم على الذهاب بالعصا !
- لن تمنعنا قـوة من شـهـود معجزة مباركة !
فوثب الشرطي للهجوم فتوثب الجمهور للدفاع دون أن يتزحزح عن مواقـعه واذا بالشـاب الضـرير يهتف :
- ليفتح الباب ، ليفتح الباب ، هذا أمر طبيب القلوب ..
فـارتفعت ضجة بين الجمهور وصاحت الأصوات :
- افـتحـوا البـاب .. افـتحـوا الباب ..
وهتف الشـاب الضـرير متشكيا :
- انه يدعوني اليه !
فـهـتـفت أصوات في حمـاس جنوني :
- إفتحـوا الباب ، الروح تريد أن تنطلق ..
فقال خادم الضريح :
- لن أفـتـحـه احـتـرامـا للأمن والقانون ..
عند ذاك بدأ الشـاب الضـرير يدفع الباب بمنكبه فتعالى هتاف الجـمـهـور ، وأراد الشـرطي أن يمنعـه بالقـوة ولكن الشـاب دفعـه بعنف فرمى به بعيدا ، وانفـجـر الجمهور فاضطر الرجال الثلاثة الى التنحي جانبا اتقاء لغضبة لا قبل لهم بها .
وفـتح الباب تحت وقع دفعـات الشاب القوية فـاجتـاح الهتـاف السـاحـة كـالانفـجـار . ولم يتـردد الشاب فدخل متلمسا طريقه بيديه

حتى اختفى عن الأنظار .. وساد صمت عميق شامل .. تركزت الأرواح فى الأعين المستطلعة .. انعدم الزمان والمكان .. واذا بصيحة تند عن الداخل .. ثم ظهر الشاب فى الباب وهو يترنح ، ورفع يديه صوب السماء وهتف :

– أشهد الله أنى أرى ! أشهد الله أن بصرى رد الىّ !

وقلب عينيه فى وجوه الذاهلين الصامتين وصاح :

– أرى الضياء ، أرى الناس ، أرى السماء ، وقد رأيت الروح !

– الروح !

– تجسدت لعينى فى صورة فتاة ترسف فى الأغلال ..

– الله أكبر .. الله أكبر .

– فككت أغلالها بمشيئة الله !

– الله أكبر .. الله أكبر .

– وهى تقطر بهاء وجلالا وجمالا .

– الله أكبر .. الله أكبر .

– وباذن الله سوف تظهر للأعين المؤمنة !

ووثب الشاب نحو الجمهور فوقف فى مقدمته مستقبلا باب الضريح .. وساد الصمت مرة أخرى .. وتطلعت الأعين نحو الباب فى لهفة عارمة .. وفى خطوات وئيدة مترددة ظهرت الفتاة وهى تنظر الى الجمهور فى ذهول . تعالى الهتاف من الأعماق وركع الجميع فى خضوع ..

– الله أكبر ..

– الله قادر على كل شىء .

– ياله من جمال .

– ياله من بهاء .

– ما لا عين رأت .

وحان من البعض التفاتة نحو الرجال الثلاثة الواقفين فصرخوا فيهم أن يركعوا فاضطروا الى الركوع اتقاء للغضب .. وصاح الشاب :

– انى خادمك منذ الساعة والى الأبد ..

واستبقت أصوات الجمهور فى خشوع .

– رعايتك للغائب .

– رحمتك بالمريض .

– كرمك للكادح الفقير .

– غضبك على الظالمين .

نظرت الفتاة فيما حولها بذهول وتساءلت :

– أين أنا ؟

فقال الشاب :

– من السماء هبطت الى أرضنا التعيسة .

– ماذا أرى ؟

– أناس طيبون جمعتهم المعجزة بعد أن فرقتهم الهموم .

– انى أشعر بدوار .

– انه دوار من يرثى لحالنا .

– كادوا يكتمون أنفاسى !

– الويل للأشرار حيث كانوا وحيث يكونون .

– اغتصبوا الحلى بلا رحمة.

– جواهرك للطيبين لا للمغتصبين .

– أريد الحلى ..

– ليجد كل مؤمن بك بمكنون جواهره .

انتهز الرجال الثلاثة فرصة انهماك الجمهور وأخذوا يتزحزحون عن مواقعهم بغية الهرب ولكن عينى الفتاة وقعتا على الولى وخادم الضريح فأشارت نحوهما هاتفة :

– المجرمان !

انقض رجال على الرجلين فدفعوهما أمامهم حتى خرّا أمام الفتاة .. سألت الفتاة :

– أين الحلى ؟

لاذ الرجلان بالصمت فقال صوت من الشعب :

– الروح – تباركت – تتحدث عن جواهر حقيقية !

فقال الشرطى :

– للروح لغة لا يدركها أحد من البشر !

– انها تتحدث عن جواهر

حقيقية .
فعاد الشرطى يقول :
- حذار أن تفسروا كلام الروح على هواكم .
- اضربوهما حتى يقرا .
- انى مسئول عن الأمن العام
- اضربوهما حتى يقرا .
فقال الولى مرتعدا :
- نحن رجال العهد .
قال خادم الضريح :
- فتشونا ان شئتم !
فصاح رجال من الشعب :
- اضربوهما حتى يقرا .
وانهالت عليهما اللكمات كالمطر حتى صاح خادم الضريح :
- الحلى فى حوزة الشرطى .
تحول الجمهور الغاضب نحو الشرطى فقام الرجل وهو يقول بعجلة ولهوجة :
- لقد ضبطتهما وهما يتقاسمانها فوضعت يدى عليها باسم القانون ..
وبلا تردد تخلص الشرطى من الحلى فوضعها فى الساحة أمام الضريح ، فى موجة عارمة من التكبير والتهليل .. وصاح الشاب :
- الآن وضح الحق !
فانخفضت الأصوات رويدا حتى استقر الصمت فاستدرك الشاب قائلا :
- أرادت الروح أن تجود ببعض الجواهر على الفقراء فسرقها اللصان ولكن ها هى الجواهر تعود الى أصحابها !
- الله أكبر .. الله أكبر .
- وتلك هى رسالة طبيب القلوب اليكم ..
- الله أكبر .. الله أكبر .
- تباركت يا طبيب القلوب .
- فلتوزع بالعدل .
- تباركت يا طبيب القلوب .
- ولتنفق فى الخير .
- تباركت يا طبيب القلوب .
واذا برجل وجيه المظهر يجيء مهرولا .. ينظر فيما حوله بذهول حتى تقع عيناه على الحلى فيندفع نحوها كالمجنون هاتفا :
- الحلى المسروقة !
ولكن الشاب يدفعه دفعة قوية ترجعه القهقرى .. وصاح الوجيه :
- هذه حليى ، وهى مثبتة بالوصف والعيار فى محضر الشرطة .
فتعالت أصوات الشعب :
- كذاب !
- لص !
- شريك المجرمين.!
فقال الوجيه :
- لنذهب الى قسم الشرطة .
- إذهب الى الجحيم .
وفيما يضرب الوجيه كفا بكف يقع بصره على الفتاة ، حدق فيها ذاهلا وهتف :
- أنت !
وهم بالانقضاض عليها ولكن الشاب دفعه دفعة قوية كادت تطرحه أرضا . وصاح به الجمهور غاضبا :
- تأدب فى الخطاب يا وقح ...
- أنت غير جدير بالمثول بين يدى روح كريم .
وتساءل الوجيه فى ذهول :
- ماذا جرى للدنيا ؟!
ولمح الشرطى فلاذ به قائلا :
- أنا صاحب الحلى ، إذهب بنا الى القسم .
فهمس الشرطى فى أذنه :
- اصبر ، لا جدوى الآن من تحدى الجمهور .
- ولكنها لصة صعلوكة !
فانهالت عليه الأكف ..
- اقطع لسانك يا وغد .
- يا مخرف .
- يا لئيم .
وسأل الشاب الفتاة :
- ما قولك فى هذا الوقح ؟
فأجابت الفتاة بسرعة :
- انه حيوان يتمرغ فى تراب الفتيات ويضن عليهن بالملاليم !

فصاح الجمهور الغاضب :
- حيوان .. حيوان .
فقالت الفتاة :
- أمواله حلال لكم !
تعالى التهليل والتكبير .. هجم عليه رجال أشداء فطرحوه أرضا واستخرجوا من جيوبه جميع نقوده .. وصاح الوجيه :
- أيها الشرطى !
فهمس له الشرطى :
- ماذا يفعل الشرطى بين مجانين !
- أموالى تنهب بمحضرك !
وصاح الشاب :
- أمواله كالحلى هبة طبيب القلوب للفقراء !
فصاح الجمهور :
- تبارك الروح الكريم !
فقال الشاب :
- تقاسموا المال بالعدل ..
وأحاط الجمهور بالشاب وراحوا يتقاسمون النقود والحلى .. وجعل الوجيه يهذى قائلا :
- ماذا جرى للدنيا ؟
وقال الشاب :
- الآن تحققت رسالة طبيب القلوب .
وأشارت الفتاة الى الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى وقالت :
- قيدوهم ثم احبسوهم فى الضريح !
هجم الجمهور على الرجال الأربعة فقيدهم ثم حملهم الى داخل الضريح وأغلق الباب .. وسلمت الفتاة المفتاح الى الشاب قائلة :
- أنت خادم الضريح .
ثم نظرت الى الجموع وقالت :
- اذهبوا بسلامة الله ..
على رغمهم غادروا المكان فلم يبق معها إلا الشاب ، خادم الضريح الجديد .. تبادلا النظر ، من ناحيته بخشوع ومن ناحيتها بشوق .. سألته :
- لم لم تأخذ من المال نصيبا ؟
فقال الشاب بوجد وافتتان :
- حسبى أن أكون خادم ضريحك .
- ماذا كنت تعمل قبل أن تفقد بصرك ؟
- نشأت فى الطريق حتى التقطنى منه العجوز الطيب فعلمنى صناعته وهى تحضير الأرواح العطرية !
- كنت من فتيان الطريق ؟
- أول عهدى بالحياة .
- وكيف فقدت بصرك ؟
- صدمتنى سيارة عابرة !
- ولكنه رد اليك فمبارك عليك.
- بفضل الله وفضلك .
تفكرت قليلا ثم قالت :
- الأصوب أن ترجع الى عملك الأول مع العجوز الطيب ..
- بل أحب الى أن أبقى خادما لضريحك .
- أقول لك ارجع الى عملك .
- أهو أمر ؟
- نعم .
- سأرجع الى عملى ..
- سأرسل لك بفتاة من الطريق الذى نشأت فيه اذا رأيتها توهمت أنك ترانى .
- ما أجمل أن أرى صورتك على الدوام .
- تزوج منها فهى هبتى اليك.
- سمعا وطاعة .
- وأحسن معاملتها .
- سمعا وطاعة .
- ولا تصدق قول الحاسدين فيها .
- سمعا وطاعة .
- ولا تفارقها حتى تفارقك الحياة .
- سمعا وطاعة .
- اذهب الآن بسلام ..
- وددت أن أبقى كظلك .
- اذهب بسلام .

أحنى الشاب رأسه فى خضوع ثم فارق المكان أسيفا حزينا .. وجدت نفسها وحيدة فى الخلاء .. تجلت الحيرة فى عينيها . تساءلت :

- ماذا جرى للدنيا !

وقطبت فى غضب :

- إما اننى مجنونة وإما انهم مجانين !

ثم فى ذهول :

- الجميع يركعون ، يهللون ويكبرون ، باشارة من يدى يأتمرون .. ماذا جرى ؟!

وبغتة سمعت دفعا يصك باب الضريح - من الداخل صكا .. تولاها الذعر فأطلقت للريح ساقيها .. انفتح الباب بقوة الدفع وانطلق منه الوجيه والشرطى وخادم الضريح والولى .. وجعل الوجيه يقول فى صخب غاضب للشرطى :

- سأحملك مسئولية المهزلة كلها .

ولكن الشرطى قال :

- صبرك ، لم يكن فى الامكان فعل شىء ، جن الناس واذا جن الناس تطايرت هيبة الشرطى ، ولكن هيهات أن يفلت مجرم من يدى ..

- واللصة الصعلوكة أين ذهبت ؟

- اعتبرها فى قبضة يدك ، انى أعنى ما أقول .

- وكيف أسترد مالى وحليى ؟

فقال خادم الضريح :

- لنلجأ الى القسم ..

- ولكن الشرطى اعترض قائلا ؟

- كلا ، للتحقيق سراديب أخشاها !

فسأله الولى :

- والعمل ؟

فأجاب الشرطى :

- لى وسائلى الخاصة .

ولكن الوجيه قال :

- بل لدى فكرة لو قدر لها النجاح ردت الى أموالى الضائعة!

- ما هى فكرتك ؟

- نلجأ الى الروح !

- الروح ؟!

- الروح التى سلبت مالى هى التى ترده الى !

- ولكن ذاك حلم !

- سنعيد تمثيل الرواية !

- نفس الرواية ؟

- ولكن بممثلين من عندنا .

- والروح من أين نأتى بها ؟

- نفس الروح ، واذا خرجت عن المرسوم لها مزقناها إربا !

وفى صباح اليوم التالى طلع أول شعاع على الضريح وهو مغلق والولى جالس أسفل بابه .. واذا بعجوز يسحب وراءه شابا ضريرا يتجه نحو الضريح وجاء رجال فاتخذوا مواقفهم فيما يلى الضريح . وغمز الولى لهم بعينه فراحوا يتصايحون متظاهرين بالدهشة .

- هل نشهد معجزة جديدة .

- أجل .. انها معجزة جديدة؟

وترامت أصواتهم المرتفعة الى أطراف المدينة فهرع الى ساحة الضريح جموع الأمس ملهوفين وعلى رأسهم الشاب .. ولحق بهم الشرطى وخادم الضريح ، وتطلعت الأبصار الى الشاب الضرير .. رأوه مسند الرأس الى باب الضريح وهو يهتف :

- يا رب السموات !

فسأله العجوز :

- مالك يا بنى ؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

- أسمع صوتا يا أبى .

فسرت فى الجموع همهمة سرعان ما انقلبت تهليلا وتكبيرا .. وتظاهر خادم الضريح بالقلق فنادى الشرطى بنبرة تحريض :

- أيها الشرطى !

ولكن الشرطى أجاب باذعان :

- كفانى ما لقنت أمس من درس ، فلتكن مشيئة الله ..

فهتف الجموع هتاف النصر.. وصاح الشاب الضرير :

- انه ينادينى !

فصاح الجمهور :

- الله أكبر .. الله أكبر ..

- انى مرهف السمع ، انى رهن الاشارة يا طبيب القلوب الكسيرة .

- تبارك الله القادر على كل شيء .

- افتحوا الباب ، انه ينادينى ، افتحوا الباب ..

مضى شاب الأمس ففتح الباب بين التهليل والتكبير دخل الشاب الضرير متلمسا طريقه الى قلب الضريح حتى اختفى عن الأنظار .. وساد صمت .. صمت عميق شامل . وتركزت الأرواح فى الأعين المتطلعة . واذا بصيحة تترامى من الداخل . واذا بالشاب يظهر فى الباب رافعا يديه الى السماء وهو يهتف :

- أشهد الله أن بصرى قد رد الىّ !

فهتف الناس بانجذاب :

- الله أكبر .. الله أكبر ..

- خلقت الدنيا من جديد ، بنورها وناسها ، فلتتقبلنى خادما لضريحك يا طبيب القلوب .

- تبارك الله القادر على كل شيء .

- المنة لله ، ما أحلى النور عقب الظلام .

- تبارك الروح الكريم .

وسأله رجل ممن يقفون فى الصف الأول :

- ماذا وجدت فى الداخل ؟

- رأيت الروح يرسف فى الأغلال !

فتساءل شاب الأمس بذهول :

- ماذا قيدها بعد أن أطلقتها بيدى؟

- قد أخبرت بما رأيت ..

وتتابعت الاستغاثات من الحناجر .

- أتم نعمتك يا طبيب القلوب.

- يا مفرج الكروب .

- يا ناصر الضعفاء والفقراء

وظهرت الفتاة فى الباب كما ظهرت أمس ، ودوى المكان بالتهليل والتكبير .

- ها هى الروح المباركة .

- ترقبوا مزيدا من البركات .

- طوبى للفقراء .

وتساءلت الفتاة :

- أين أنا ؟

فاستبقت أصوات تجيب :

- فى الأرض التى اخضرت بجودك .

- ماذا أرى ؟

- شعبك الشكور .

فقالت بألم :

- كادت الأغلال تكتم أنفاسى !

فارتفعت الأصوات غاضبة تتساءل :

- من المجرم الأثيم ؟

- من الجانى الشرير ؟

- من عدو الأرواح ؟

فقالت الفتاة وهى تلحظ المحدقين بها فى يأس :

- رمانى فى الأغلال صديق لا عدو ، وبحسن نية لا بسوء طوية !

فانفغرت الأفواه ذهولا فعادت الفتاة تقول :

- ما أساء لى إلا سوء الفهم والتأويل !

واصلت الأعين حملقتها فى ذهول وتساؤل :

- طرحت لغزا فوقعتهم فى حبائله !

- ليغفر الله لنا ..

- غاب عنكم أن الروح لا تتكلم بلغة الدنيا .

- ليغفر الله لنا .

- وانها تهب الضياء الخالد لا

المال الفاني !

فصاح رجال الصف الأول :

– ليغفر الله لنا !

أما الآخرون فوجموا وأطرقوا :

– وانها جاءت لتطهر القلوب لا لتحض على النهب والسرقة !

انحدر الجمهور وغرق في صمته على حين صاح الآخرون :

– ليغفر الله لنا .

– هكذا وقعتم في الضلال ونهبتم المال الحلال !

– ليغفر الله لنا .

– ذلك ما أعادني الى الأسر !

– ليغفر الله لنا .

– اطلقوا سراحي أيها الأحباء المخلصون .

وبين التكبير والتهليل أخذ الرجال المحدقون بها يدسون أيديهم في جيوبهم ويرمون بالنقود تحت أقدامها على حين انكمش الجمهور منقبض القلب والصدر والأمل ، وأخذوا يتبادلون النظرات كمن يفيقون من حلم .. واستبطأهم الآخرون فسألهم الشرطي محتجا :

– أتضنون بالحرية على الروح الكريم ؟

ولكن واحدا منهم لم ينبس أو يتحرك . وجعل شاب الأمس يحملق في الفتاة بذهول حتى صاح متأوها :

– ماذا أرى ؟

فتطلعت اليه الأبصار فصاح بغضب موجها الخطاب الى الفتاة

– شد ما تغير كل شيء ، كلا، ماذا أرى ؟!

التصقت به الأبصار وهو يمعن النظر بجنون حتى صاح بتحد :

– ما أنت بالروح الكريم !

أشرقت أعين الجمهور بالأمل، أما الشرطي فصرخ فيه :

– كف عن التخريف يا مارق !

ولكنه صاح باصرار :

– ما أنت بالروح الكريم !

انبعثت من صدور الجمهور موجة استجابة حارة لقوله .. صدقوه من أعماقهم المعذبة .. تغيرت النظرة وتغير المنظور .. وتتابعت الصيحات في غضب وثورة :

– ما أنت بالروح الكريم !

– أين صوت الأمس الحنون ؟

– أين ذهبت رحمة السماء ؟

– أين اختفى البهاء والجلال؟

– أنظروا الى أسمالها البالية!

– أنظروا الى الطين يعلو قدميها !

– أنظروا الى التراب يغطي وجهها !

وفجأة وثبت الفتاة مخترقة الحصار المحدق بها رامية بنفسها وسط الجمهور وهي تهتف :

– النجدة !

وصاح الشرطي :

– ما هذا !

فصاحت الفتاة :

– أنا بنت مسكينة لا روح ولا ملاك !

فصاح الشرطي :

– أيتها الدجالة الويل لك ..

فصرخت الفتاة :

– هددوني بالقتل ان لم أتكلم على هواهم ..

فارتفعت الأصوات بالغضب وتكورت القبضات في تشنج .. وانقض رجال من المتآمرين على الفتاة ولكن الجمهور تصدى لهم فدارت بين الفريقين معركة حامية .. معركة استعملت فيها الأيدي والأرجل والعصي والطوب والأسنان وقاتل كل فريق بعناد وغضب .. ورأى شاب الأمس الفتاة وهي تقاتل كرجل فخطر له أنها فتاته الموعودة فازداد قوة واستبسالا .

واستمرت المعركة وهي تزداد عنفا ووحشية .



الغناء والمغنون في روايات نجيب محفوظ

زنوبة العالمة ، من مخدع أحمد عبد الجواد إلى بيت ابنه في الثلاثية

بقلم : كمال النجمي

★★ فى رواية « خان الخليلى » التى كتبها نجيب محفوظ منذ ثلاثين عاما
مف بطلها « رشدى » بأنه « كان يحب الغناء حبا خيل إليه يوما أنه خلق ليكون
سيقيا » .. ولم يترك نجيب محفوظ بطل روايته حتى أوجب عليه أن يدخل السينما
سماع أم كلثوم ومشاهدتها فى فيلم « دنانير » الذى كان يعرض لأول مرة فى تلك
يام ..

ولما جلس الشاب على كرسيه فى السينما .. « طاب له المجلس فى الظلمة عن
ب من الفتاة التى أضمر لها غزلا وان لم يخفق لها فؤاده بعاطفة بعد ، حتى غرد
سوت الالهى بأغنية النبع « طاب النسيم العليل » فغفل عن الوجود ، وتسلسل الفيلم
هائم فى نغمة روحية عالية » .

لا يشك من عرف ولع نجيب محفوظ بالغناء الجيد أنه كان شديد الافتتان بأغنية
ب النسيم العليل » أولى أغنيات أم كلثوم فى فيلم « دنانير » ..

وكان يسعه أن يدعو بطل روايته إلى فيلم آخر غير فيلم دنانير ، لأن الفتى كان ذاهبا
السينما لكى « يعاكس » الفتاة ويطاردها باشارات الغزل وهمساته لا ليسمع الغناء
ى ويهيم فى نغمة روحية عالية ، ولكن نجيب محفوظ الذى لو لم يكن كاتبا لكان ملحنا أو
لم يختر لبطله الا فيلم أم كلثوم ، لا لأنه جزء من تاريخ تلك الفترة فحسب ، بل لأنه فوق
يلم « الصوت الالهى » وفيلم « أغنية النبع » ذات الحلاوة التى لا توصف (١) ..

ن تأليف أحمد رامى وتلحين محمد القصبجى

كانت رواية « خان الخليلى » بداية اهتمام نجيب محفوظ بالكتابة عن الغناء ودلالته الاجتماعية والنفسية ، فالغناء كان ومازال ديوان الشعب المصرى كما كان الشعر قديما ديوان العرب ، وقد دخل الغناء فى صميم التكوين الوجدانى لنجيب محفوظ ذاته إلى حد فاق الحدود كأنه « خلق ليكون موسيقيا » .

ورأيى أن الأديب المصرى والعربى لا تكتمل أدواته فى الأدب الا بمعرفته وتذوقه للغناء والشعر ، وهذه فضيلة لم تتح لكثير من أدباء أيامنا هذه ، فجاءهم النقص من جهتها .. أما نجيب محفوظ فسترى فى هذه الصفحات عمق تذوقه للغناء ومعرفته به وقد ربط تطور الغناء بتطور المجتمع المصرى ، واهتم بأم كلثوم كظاهرة غنائية تاريخية ملأت الدنيا وشغلت الناس ، ولم يقحم فن الغناء علي فن الرواية اقحاما ، بل عقد بينهما آصرة عضوية حية لا اعتمال فيها ولا اختلال .

ومن المعروف أن نجيب محفوظ ذهب فى صدر شبابه يتعلم العزف علي « القانون ».. يحسـبه مدخلا إلي علوم الموسيقى وما يتصل بآفاقها الفلسفية والفكرية . وكان وقتئذ - فيما يبدو متأثرا بما قرأه عن الموسيقى الكلاسيكية الأوربية ذات الصلة الوثيقة بالعقل . ولكن سليقته المصرية الصحيحة اعانته علي الا يتنكر لغنائنا وموسيقانا - برغم تبحره فى الثقافة - كما تنكر لهما عدد من المثقفين المصريين تعيش أفكارهم خارج القطر ولا تجئ إليه بين الحين والحين الا للسياحة ! .

ويمكن أن يقال إن روايات نجيب محفوظ هى الشعب المصرى بآلامه وآماله وغنائه أيضا .. ومن يطالع هذه الروايات يعرف كيف كان هذا الشعب يغنى ويسمع الغناء فى مائة سنة أو أكثر من أواخر القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين .

★★★

فى أحد مقاهى « خان الخليلى » يتحدث الصحاب عن الغناء :

- ما رأى الأستاذ أحمد عاكف فى الغناء أيفضل القديم أم الحديث ؟! .

- الغناء القديم هو الطرب الذى يأسر نفوسنا بغير عناء ! ..

- وأم كلثوم وعبد الوهاب ؟! .

- عظيمان فيما يرددان من وحى القديم .

- أم كلثوم عظيمة ولو نادت ريان يا فجل ! .

- أما صوتها فلا خلاف عليه ، ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنية .

- الأسـتاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل أشاد بالموسيقى الافرنجية .

- يا اخواننــا .. أمة محمــد ماتزال بخير . هل سمعتم ولو مرة إنجليزيا يغنى ياليل ياعين ؟! .. الحقيقة أن من يفضــل أغنية أفرنجية كمن يشتهى لحم الخنزير مثلا ! .

- اسمعوا القول الفصل : أجمل ما تسمع الأذن سى عبده « الحمولى » إذا غنى ياليل ، وعلى محمود إذا أذن الفجر ، وأم كلثوم فى « امتى الهوى » .. (١) وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب ! ..

- إن الاعجاب بالجديد من الغناء ، أو بالموسيقى الافرنجية ، وحى من تقليد المحكومين للحاكمين كما يقول ابن خلدون ! .

★★★

وفى مجلس « الست عليات » بخان الخليلى يتحدثون عن الحشيش وسائر المخدرات والمكيفات ، وبعد أن يقول « المعلم زفتة » القهوجي : « أبشركم يا اخوان بأن هتلر حين يفتح الله له مصر سيلغى أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكى الإنجليزى » .. يقف أحمد عاكف ليبارح الحجرة التى اختنق جوها ، فيسأله « المعلم نونو » :

- إلى أين ؟! ..

- حسبى هذا ..

- هذه نهاية البداية .. وماتزال أمامنا القافية والغناء والذهول الحقيقى ! ..

ههنا غناء « الغرزة » . يجئ بعد « القافية » ويمهد للذهول الطويل ، يغيب فيه المسطولون وقد لهثوا اعياء من التلذذ الحقيقي أو التلذذ الكاذب ! ..

وقد نرى هذا اللون من الغناء أو ألوانا أخرى تختلف عنه ، تجئ فى مواضعها من روايات نجيب محفوظ صادقة كل الصدق فى التعبير عن واقع الحال ، وكلما وردت حال جديدة كان غناء جديد مثلها ، يعبر عنها بصدق لا شائبة فيه ! ..

فى رواية « زقاق المدق » يشرق الأمل فى قلب العاشق « عباس الحلو » فيغنى لنفسه بصوت منخفض هذا الموال :

هلبت يا قلبى على طول الزمن ترتاح
وتنول وصال اللى تهواها وفيه ترتاح
مصير جروحك على طول الزمن تبرى
ويجيلك الطب لا تعلم ولا تدرى
... ...

---

(١) امتى الهوى ييجى سوا .. من تلحين زكريا أحمد

وفى « أولاد حارتنا » يهزم « جبل » الثعابين ويطهر منها الحارة ، فيتجمع حوله الشبان ويتغنون مصفقين :

جبل .. يا نصير المساكين

جبل .. يا قاهر الثعابين

أما ياسمينة فحين تقع عيناها على « رفاعة » لا تملك الا أن ترفع صوتها وتغنى : آه من جماله يامه ! ..

ويكثر الغناء فى « أولاد حارتنا » لأنها أشبه بملحمة شعبية يتجادل فيها الناس بالعصى الغليظة والأيدى والألسنة والأغانى . وفى كل موقف منها منشد يقول : « الأوله آه .. والثانية آه .. والثالثة آه » .. على غرار المأثور من أناشيد الربابة ..

وحتى التواشيح القديمة لا تخلو منها « أولاد حارتنا » .. فتسمع صوتا يغنى بنبرات هامسة : « قدك المياس يا بدرى .. املالى الكأس من بدرى .. أنت أحلى الناس فى نظرى » !

والمواويل فى هذه الملحمة الشعبية كثيرة بطبيعة الحال : « أصل اللى شبكنى مع المحبوب عينى دى » .. والأغانى الشعبية النقدية الساخرة أيضا : « الفاتحة للعسكرى .. قلع الطربوش وعمل ولى » .. « يارفاعة ياوش القملة .. مين قال لك تعمل دى العملة » ..

وتجئ الأغانى الشعبية أو أشارات إليها فى مواضع متناثرة من روايات نجيب محفوظ .. الأغانى والأناشيد الوطنية وبكائيات الريف والمدينة ، والأهازيج « يا عزيز عينى ، السلطة خدت ولدى » .. وفى آخر « بين القصرين » تنطوى الرواية الرائعة على صوت « كمال » أحد أبطالها وهو يتغنى بلحن سيد درويش : « زورونى كل سنة مرة » ..

وبلغ نجيب محفوظ غاية الامتاع والمؤانسة فى تصويره للصراع بين الغناء القديم – غناء الحمولى ومحمد عثمان ويوسف المنيلاوى ومنيرة المهدية وتلك الطبقة – وغناء أم كلثوم وعبد الوهاب والجيل الذى حف بهما من المطربين والمطربات .

ويحرص نجيب محفوظ على وضع شذرات من الغناء القديم فى لهاة البطل أو الشخص الذى فاته قطار الحياة أو قطار الأمل والحب .. وهذه « اللازمة » الفنية مازالت عالقة بقلمه حتى اليوم ، غير خافية حتى فى قصصه القصيرة السريعة التى كتبها فى السنوات القلائل الماضية على طريقة من طرق الفن القصصى الحديث .

ففى قصة « السكران يغنى » يندفع السكران منشدا : « أوان الوصل قرب بالتهانى » .. وفى قصة « خمارة القط الأسود » أفرط السكارى فى الشراب .. « دارت الرءوس استخفتهم النشوة . انزاحت الهموم بسحر ساحر . أخذ الضحك يتعالى . رقصوا فوق مقاعدهم . تبادلوا القافية وغنوا معا : عيد الأنس هلت بشايره » ..



وغناء ذلك السكران منفردا ، هو الشطر الأول من أغنية مشهورة لصالح عبد الحى ، وكذلك غناء هؤلاء السكارى مجتمعين ، فانه الشطر الثانى من الأغنية ذاتها ، ويقول مطلعها :

أوان الوصل قرب بالتهانى

وعيد الأنس أهى ظهرت بشايره

وقد نقل نجيب محفوظ كلمات الشطر الثانى من العامية إلى العربية ، وتصرف فى وزنه ، لأنه لم يقصد إلى تسجيل الأغنية بحروفها فى ذلك الجو القاتم الاليم ! ..

ويقدم إلينا نجيب محفوظ فى ثلاثيته بطلا فذا من أبطال الغناء القديم .. ليس مطربا ولا ملحنا ، ولكنه عاشق للغناء ، عليم بأصوله وفروعه وشروط سماعه .

لا أظن أحدا قرأ الثلاثية ينسى ذلك البطل « السيد أحمد عبد الجواد » .. رب الكأس والمجالس اللطاف والغزوات الغرامية الكبرى ، ضارب الدف الساحر الذى تفوقت هوايته فى ضرب الدف على محترفى الدفافين والدفافات ، أهل البراعة الفائقة فى ذلك الزمان ! .

كان السيد أحمد عبد الجواد من أعيان أولاد البلد ، يحب الغناء القديم « كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور » فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة ليسمع الحمولى أو عثمان أو المنيلاوى حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية كما تأوى البلابل إلى شجرة مورقة ، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب ، وتوج حجة فى السماع والطرب » .

لم يكن السيد أحمد عبد الجواد من سكارى الحانات الخائبين فى الحب أو الحياة ، بل كان وجيها موفقا فى الحياة فاتكا فى الحب ، وكان الغناء لا يبارح قلبه أبدا ، فإذا خلا إلى نفسه دندن هامسا وقد حضره الطرب : ياما بكره نسمع وبعده نشوف (١) .

وكان غيورا أشد الغيرة على فن الغناء ممن يعبثون به من جهلة المغنين والمغنيات ، فلا يدين بالولاء الا لفحول أهل الطرب كعبده الحمولى ويوسف المنيلاوى ومحمد عثمان .

ففى مجلس الغزل والغرام مع « زبيدة » مطربة الأفراح لم تلهه سورة العشق وحرارته عن الغيرة على فن الغناء من جهل هذه المغنية وضعف فنها .. فبعد ان فرغت جوقتها من انشاد التوشيح القديم : « والذى أسكر من عذب اللمى » وفرغ عازف القانون من « التقاسيم » ، تهيأت زبيدة لغناء الليالى والدور ، فانزعج أحمد عبد الجواد لأنه يعلم أن غناء الليالى والمواويل والأدوار مطلب صعب لا يسلس قياده الا لفحول المطربين ، ولكن زبيدة أصرت على أن تغنيهم الدور المشهور : على روحى أنا الجانى (٢) .. ولم يجد السيد عندئذ مفرا من مسايرتها حبا فيها لا حبا فى غنائها .

(١) غناها المنيلاوى وغناها أيضا عبد الحى حلمى وآخرون .

(٢) أشتهر عبد الحى حلمى بهذا الدور وسجله على اسطوانة .

وكان يسعه دائما أن يتظاهر بالطرب لصديقاته من « العوالم » حين يجمعه واياهن جو الطرب والأنس والبشاشة .. وحكم عليه مرور الزمن أن يسلم بالأمر الواقع فى دنيا الطرب ، ففى آخر « قصر الشوق » تغنيه جليلة فلا ينزعج ولا يعارض بل يستسلم للمقادير التى حكمت عليه بسماعها .. « وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام ، وذهب مع النغمة برأسه وجاء كأنما يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته ، والحق أنه لم يعد يبقى له من عالم الغناء الا ذكريات ، فقد ذهب الحمولي وعثمان والمنيلاوى وعبد الحى كما ذهب شبابه » ..

ولكن الزمن الذى طوى الحمولي وفحول عصره ، جاء بمنيرة المهدية ، وحاول عبد الجواد أن يسمعها ويتذوقها .. « ودعاه حبه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهدية ، غير أنه لم يهو الغناء التمثيلي ، فضلا عن أنه ضاق بجلسة المسرح الذى شبهه بالمدرسة » .

مع ذلك كان عبد الجواد يطرب لطقاطيق منيرة ، فعندما غنته زبيدة العالمة : ارخى الستارة اللى ف ريحنا (١) .. راح « يرقص مع النغمة رافعا الكأس التى لم يبق فيها الا الثمالة أمام عينيه » ! .

وفى أخريات العمر ، والقلب مثقل بالحزن والكآبة يستمع أحمد عبد الجواد إلى المطربة الجديدة أم كلثوم .. « استمع فى بيت محمد عفت إلى اسطوانات المطربة الجديدة أم كلثوم ولكنه أعارها أذنا حذرة مضمرة لسوء الظن فلم يتذوقها رغم ما قيل من أن سعد زغلول أثنى على جمال صوتها » .

وذات مرة يدور الحوار مع جليلة العالمة حول صوت المطربة الجديدة أم كلثوم .. تتكلم جليلة ويرد عليها عبد الجواد والحاضرون :

– صوتها – والشهادة لله – جميل ، غير أنها كثيرا ما تصرصع كالأطفال ! ..

– البعض يقولون انها ستكون خليفة منيرة المهدية ، ومنهم من يقول بأن صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها ! ..

– كلام فارغ .. أين هذه الصرصعة من بحة منيرة !؟ ..

– فى صوتها شئ يذكر بالمقرئين ، كأنها مطربة بعمامة ! .

وفى ختام الحوار يعترف عبد الجواد : « لم استطعمها ، ولكن ما أكثر الذين يهيمون بها ، والحق أن دولة الصوت زالت بموت سى عبده « الحمولى » .

تكتمل هذه الصورة من الولاء للغناء القديم ، بصورة أخرى رسمها نجيب محفوظ فى « بداية ونهاية » للمطرب على صبرى .. الا أن صورة أحمد عبد الجواد فى « الثلاثية » هى

(١) غنتها منيرة المهدية ، وغناها أيضا عبد اللطيف البنا .

صورة « السميع » الشاعرى المرهف السمع والقلب ، البصير بما يسمع بصرا يلحقه بالدارسين المحترفين : أما صورة المطرب على صبرى فى « بداية ونهاية » فهى صورة المغنى الفقير المغمور الساعى وراء رزقه الصعب بشتى الحيل ، وما ولاؤه للغناء القديم الا حيلة فى جرابه يخرجها عند الضرورة ! .

وتمام السخرية فى صورة المطرب على صبرى وقوف « المذهبجي » الشاب « البلطجى» حسن .. إلى جواره ، يؤلفان معا فرقة للغناء فى مقاهى الأزبكية ، ويقول حسن مشجعا لأستاذه صبرى :

– ستحتل المكانة التى تليق بك يوما بلا شك .. أنت لك بحة ليست لعبد الوهاب نفسه ! .

ويقول له أستاذه :

– أحب أن أسمعك منفردا .

وراح حسن ينشد موالا فلما فرغ منه قال له أستاذه :

– هذا فوق الكفاية بالنسبة لسنيد .. أحب أن أسمعك أيضا فى الهنك (١) .

اندفع حسن يغنى فقال الأستاذ :

– عال .. عال .. هل تعرف أصول النغم : السيكا والبياتى والحجاز وغيرها ؟! ..

– طبعا ..

– أسمعنى ليالى رست ..

– برافو .. هات أخرى نهاوند ! ..

وبعد قليل انتقل الكلام إلى المخدرات .. قال حسن :

– أظن أن المخدرات تؤذى الحنجرة ! .

ضحك الأستاذ ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى صوت كالرعد وفى نفس طويل قوى ثم تساءل :

– ما رأيك فى هذا ؟! ..

– لم أسمع له مثيلا ! ..

قال الأستاذ ساخرا :

– هذه نتيجة خمسة عشر عاما من تعاطى الحشيش والأفيون والمنزول ، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين ! ..

---

(١) السنيد هو الذى يغنى وراء المطرب .. والهنك هو ترديد الدور بألحان متنوعة جملة مرات .

وفى لقاء آخر يقول الأستاذ لتلميذه :

– الراديو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب ، وهيهات أن يكون لنا عيش فى هذا البلد .. ولكن عليك بحفظ أغانى عبد الوهاب ..

– لا أكاد أحفظ منها شيئا ..

– لابد مما ليس منه بد .. وطقاطيق أم كلثوم أيضا .. هذا حكم الزمان ! ..

وعندما يلتقى حسن بأشقائه ويسمعهم يسخرون من أستاذه ، يحتد عليهم قائلا :

– سـفخس على هذا البلـد الذى لا يقـدر .. الأسـتاذ على فنان كبير .. ان « ياليل » منه شفاء ودواء . هل سمعتموه وهو ينتقل من البياتى إلى الحجاز ثم يعود إلى البياتى ؟ .. لم يفعل هذا الا الحمولى وسلامة حجازى مرة أو مرتين . أما محمد عبد الوهاب فإذا خرج من البياتى لم يعد إليه الا فى حفلة ثانية ! ..

ويخضع حسن فى آخر الأمر لحكم الزمان فيحترف الغناء ويصبح مطربا منفردا بتخته وبطانته .. ولكن رأى المستمعين فيه يعبر عنه بخفة ظل وفصاحة ذلك السكران الذى وقف ذات ليلة – وقد استنكر صوت المطرب البلطجى – يقول له :

– والله لو لم تكن فتوة لقلت لك : اسكت !

انطوت صفحة الغناء القديم .. انتهى فحوله وادعياؤه جميعا .. وبعد أن كانت جليلة العالمة تقول ان أم كلثوم « تصرصع » وكان أحمد عبد الجواد يقول إنه لا يتذوق غناءها ، رأينا البطل فى « خان الخليلى » يستمع إلى « الصوت الالهى » ورأينا فى « السراب » من يصيح على ملأ من الناس :

– أم كلثوم هى الشئ الوحيد الذى يستحق الاعجاب والتقدير فى هذا البلد ! ..

وفى « ميرامار » المضمخة بالعبير والشهد والدموع بلغ صوت أم كلثوم غايته ومداه .. ليلة غنائها هى ليلة جميع الطبقات والأفراد ، وصوتها علامة عصر بأكمله ..

لقد تتبع نجيب محفوظ المغنين والغناء مائة سنة تقريبا ، فشيع فحولهم بدموع أحمد عبد الجواد وأبناء جيله ، وأضحك على الادعياء كل من التقى بهم فى الحفلات والافراح والحانات .. وجلا مرآة هذا الفن فرأينا فيها خطوطا واضحة عذبة من تاريخ أرضنا وحياة شعبنا .. ويالها من صفحات لم يكتب مثلها أحد ! ..



هــل أفـلس المثقفون العرب ؟

بقلم : ابراهيم عامر

هناك جملة مأثورة للأستاذ بروفو يلتهايم ، أستاذ الأمراض النفسية بجامعة شيكاغو تقول : (فى كل مرة يفقد فيها الكبار اتجاه سيرهم ، يشعر الشباب بالضياع) .

وعلى طول تاريخنا الفكرى لم يشهد شبابنا حالة من الضياع وفقدان الاتجاه مثلما يشهدون فى هذه المرحلة .

ومن الكبار الذين يبدو أنهم قد فقدوا الاتجاه ، أولئك المثقفون الذين تقع على عاتقهم مسئولية توجيه شبابنا ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، و صياغة الاتجاهات الفكرية الرئيسية التى ينساب فيها الفعل الارادى فى الحياة اليومية .

ومن الواضح أن كثيرين يزدادون إدراكا لهذه الظاهرة ، ويحاولون - كل بقدر استطاعته - التنبيه اليها ، واقتراح الحلول لها . ومع أن المناقشات المفتوحة حول هذه المسألة لاتزال قاصرة أو غير كافية - لأسباب موضوعية وذاتية عديدة ، هى بدورها جديرة بالاستكشاف والتحليل والمناقشة - فإن هناك أكثر من دليل ، ولو من خلال الأحاديث والمناقشات الشخصية الخاصة ، على ازدياد الوعى بضرورة طرح القضية ، وفتح باب مناقشة عامة وجادة حولها .

والمعيار الرئيسى لمعرفة مدى نجاح أو فشل الفكر العربى فى أداء مهمته الرئيسية هو ما حققه هذا الفكر العربى من اعادة استكشاف الذات القومية ، وسماتها الخاصة ، فى إطار العصر الراهن ، وفى وسط عالم يموج بالصراعات والتحديات .



وإذا كـان الفكر ، أى فكر ، انمـا يرمى الى اخصـاب المصـدر الذى ولد منه ، فإن الاختلافات والتباينات الأيديولوجية ، والصراع بين التيارات والحركات الفكرية المختلفة ، لا تقاس فى الواقع ، وبصورة دقيقة ، إلا بقيمتها الاجتماعية .

محاولات لستكشاف الذات

ومن الحق أن نقـول ، إنه منـذ هزيمـة يونيو ١٩٦٧ ، بصفة خاصة ، وثمة جهود كثيرة مبذولة فى سبيل اعادة استكشاف الذات العربية بصورة عامة، وتحديد موقع هذه الذات ، بدون أن تفقد ذاتيتها ، فى عالم يتحكم فيه آخرون .

ويشارك فى بذل هذه الجهود عديد من المثقفين العرب فى مختلف البلاد العربية ، ويشارك فيها مثقفون عرب يعيشون خارج البلاد العربية ، ويشارك فيها مثقفون أجانب .

وهدف كل هذه الجهود ليس مجرد محاولة اعادة تعرف العرب على أنفسهم ، واكتشاف تلك السمات الخاصة التى فيهم والتى تعينهم على مواجهة التحدى التاريخى الاجتماعى الراهن ، وإنما هو أيضا اعادة تعرف العالم على العرب وعلى موقفه تجاههم .

ومن المثقفين الذين يسهمون فى جهود اعادة استكشاف الذات العربية الدكتور أنور عبد الملك .

والدكتور أنور عبد الملك مثقف مصرى مولود فى القاهرة عام ١٩٢٤ ، وقد حصل على ليسانس فى الفلسفة من جامعة عين شمس ، وحصل على دكتوراة فى علم الاجتماع وعلى دكتوراة فى الآداب من السوربون ، واشتغل صحفيا وأستاذا للفلسفة وكـاتبـا ، وكـان واحدا من أبرز الاشتـراكيين



دكتور أنور عبد الملك

الماركسيين فى مصر حتى عام ١٩٥٩ ، ومنذ عام ١٩٥٩ ، يعيش الدكتور أنور عبد الملك فى باريس ، ويعمل فى المعهد القومى الفرنسى للبحوث العلمية ، وتدور أبحـاثه أساسا حـول المشاكل العربية ، ومشاكل القارات الثلاث التى ظلت – حتى وقت غير بعيـد – على هامش الاهتمـامات التـاريخية والاجتمـاعيـة ، وهو مدير حلقـة دراسيـة عن سوسيولوجيا الحركات القومية ، ويهتم الدكتور أنور عبد الملك ، بصفة خاصة ، بتطور مصر المعاصرة ، وخاصة تطورها الفكرى ونهضتها الحديثة .

وقد نشر أخيرا كتابا عن « الفكر السياسى العـربي المعـاصر » ضم فيه ٥٧ نصًا تمثل آراء خمسة وأربعين مفـكرًا من مصـر ولبنان وسـوريا وفلسطين والعـراق والسـودان وتونس والجـزائر

والمغرب والعربية السعودية واليمن واليمن الجنوبية ، وقد قام بترجمة كل هذه النصوص من العربية الى الفرنسية عدا نصين كتبهما صاحبهما العربيان باللغة الفرنسية مباشرة .

وأقام الدكتور أنور عبد الملك اختياره للنصوص على أساس ثلاثة مقاييس رئيسية :

أولها : وأهمها ، هو مقياس مدى تمثيل النص للاتجاه الذى يعبر عنه ، وعلى سبيل المثال ، فان الاتجاه الاسلامى كان موضع كتابات لا تعد ولا تحصى ، لكن ليست كل هذه الكتابات تمثل المضمون الأمثل والأفعل لهذا الاتجاه ، والأمر كذلك بالنسبة للاتجاه القومى العربى ، أو الاتجاه الماركسى ، أو الأيديولوجية الليبرالية ، أو الفكر اليمينى ... وهكذا .

وأدى تطبيق هذا المقياس الأول الى اكتشاف المقياس الثانى ، ألا وهو مدى التأثير الاجتماعى للنصوص المختارة ، ومن بين العديد من المفكرين ذوى الاتجاه الواحد والذين يمثلون رؤية متماثلة للعالم ، كان لابد من اختيار تلك النصوص ، التى أكسبها التاريخ الراهن أو التاريخ الجارى ، فى العالم العربى ، تأثيرا معينا فى الأرض العربية التى نبتت منها .

أما المقياس الثالث ، فهو مقياس الأصالة ، أصالة العمق أو أصالة التعبير . والأصالة هنا تحددها علاقة مضمون النص بمفهوم العصرية ، أى علاقة النص بالمضمون التاريخى العام للعصر فى الإطار الخاص للعالم العربى . وذلك دون إنكار أن بعض المفكرين العرب قد أثروا ثراء تجديديا فكر عصرنا هذا فى بعض القضايا المحددة .

وجمعت النصوص ثم قسمت الى ثمانية أقسام وفقا لخطها العام ، وذلك بغية الانتفاع بها بسهولة أكثر ، ومن طريقة التقسيم نلمس ، على الفور ، كيف ينظر الدكتور « أنور عبد الملك » الى العناصر الأساسية المكونة للاتجاهات الفكرية العربية المعاصرة .

إن القسم الأول عن التاريخ والزمن الحالى ، وفيه نجد نصوصا من كتابات رفاعة رافع الطهطاوى ، وصبحى وحيدة ، والدكتور حسين فوزى ، والمفكر الجزائرى مصطفى الأشرف .

أما القسم الثانى فهو عن الاتجاهات الاسلامية ، والإصلاح الدينى ، ومن النصوص التى يضمها هذا القسم نصوص من كتابات الشيخ محمد عبده ، والشيخ على عبد الرازق .

وفى قسم النضال من أجل التحرر الوطنى نجد من النصوص نصوصا من كتابات محمد طلعت حرب ، وخالد بكداش ، وشهدى عطية الشافعى ، والمفكر اللبنانى رئيف خورى ، وعبد الله الطريقى ، وكلوفيس مقصود ، وجمال عبد الناصر ، والمهدى بن بركة .

وتحت قسم إعادة اكتشاف الذات نجد نصوصا من كتابات عبد الله النديم ، وطه حسين ، وعلال الفاسى ، ومحمود أمين العالم ، ومطاع صفدى ، والمفكر السودانى الأستاذ فى جامعة بوردو ، محيى الدين صابر .

وتحت قسم السلطة وعن الجماهير الشعبية والمثقفين والجيش ، نجد نصوصا من كتابات أحمد لطفى السيد ، ومحمد مندور ، وخالد محمد خالد ، وابراهيم عامر ، وفتحى رضوان ، ومحمد حسنين

هيكل ، وعادل غنيم .

وتحت قسم الوحدة العربية نجد من بين النصوص نصوصا من كتابات ساطع الحصرى ، ومكرم عبيد ، وعبد الرحمن عزام .

وفى قسم قضية الاشتراكية نجد من بين النصوص نصوصا من كتابات محمد رشيد رضا ، والمفكر التونسى الطاهر الحداد ، وسلامة موسى ، والمفكر العراقى عزيز الحاج ، والمفكر اليمنى محمد سعيد العطار ، والدكتور الاقتصادى المصرى فؤاد مرسى ، وميشيل كامل ، وعبد الخالق محجوب .

وفى قسم قضية فلسطين نجد من بين النصوص نصوصا من كتابات أحمد بهاء الدين ، وجماعة الدراسات والعمل الاشتراكى التونسية ، والمفكر المغربى على ياطا ، والجبهة القومية لجمهورية اليمن الجنوبية ، ومنظمة فتح ، وجمال عبد الناصر .

ان هؤلاء جميعا وغيرهم يعتبرهم الدكتور أنور عبد الملك ، ممن أسهموا أو يسهمون فى إعادة استكشاف مكونات الذات العربية ، أو فى إعادة صياغة هذه المكونات .

على أنه لا شك قد فات الدكتور أنور عبد الملك اختيار بعض النصوص من كتابات هامة معاصرة أخرى ، لعل من أهمها - فيما يتعلق بمصر - كتابات الدكتور عبد العظيم رمضان عن تاريخ مصر المعاصر من ثورة ١٩١٩ الى معاهدة ١٩٣٦ ، وكتابات الدكتور جمال حمدان عن « شخصية مصر » ، وكتابات أمين عز الدين عن تاريخ الطبقة العاملة .

وفى الوقت ذاته ، فإنه من الممكن أن نقول ان كتاب « الفكر السياسى العربى المعاصر » انما يكمله كتاب آخر من إعداد أنور عبد الملك وصدر عام ١٩٦٥ ، ثم أعيد طبعه فى عام ١٩٧٠ ، وهو الجزء الثانى من « مختارات من الأدب العربى المعاصر - مقالات » . بل ويكمله الجزءان الأول والثالث من هذه المختارات ، وأحدهما عن الشعر ، والآخر عن الرواية والقصة ، بل لعلها جميعا لاتزال تحتاج الى استكمال بمختارات من المسرحيات العربية .

أين نحن ؟

ومع أهمية تجميع تلك النصوص الهامة التى تعكس مختلف اتجاهات الفكر العربى المعاصر ، فان المقدمة التى كتبها الدكتور أنور عبد الملك هامة بصورة خاصة ، إذ هو يحاول فيها تحليل تلك الاتجاهات تحليلا نقديا ، مستخلصا فى النهاية الاتجاه الذى يرى ضرورة الأخذ به فى المحاولات التاريخية الراهنة لاعادة استكشاف الذات العربية .

وبداية ، فان السؤال المطروح يكون :

ما هو الاطار العام الذى نبحث فيه عن ذاتنا العربية ؟

وهنا لابد لنا وأن نلاحظ بدقة ، أننا نبحث عن ذاتنا فى عصر الصراعات العالمية الكبرى والاشتراكية .

ولقد أصبحت الاشتراكية مطروحة أمام كل الفئات الاجتماعية فى أوربا وأمريكا الشمالية ، لكنها مطروحة بصورة مختلفة عن صورة طرحها فى العالم العربى ، ذلك لأن مسألة الوجود القومى للفئات الاجتماعية فى أوربا وأمريكا الشمالية ليست هى موضع بحث فى هذه المرحلة ، بينما هى

موضع بحث فى البلاد العربية ، ان جميع الفئات الاجتماعية فى البلاد العربية ، مثلها فى ذلك مثل جميع الفئات الاجتماعية فى القارات الثلاث ، لاتزال تناضل من أجل اكتساب ذاتيتها القومي المستقلة .

وفى الوقت ذاته ، فلقد أدت سرعة النهضة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية العربية فى النصف الأول من هذا القرن من ناحية ، وتقدم الاشتراكية فى العالم من ناحية أخرى ، الى سرعة التطور العام ، وأدى هذا الى ادراج الاشتراكية فى جدول المهام العربية المعاصرة وفى قلب العملية القومية .

ومن هنا ، فان طرق وقسمات الاشتراكية فى البلاد العربية اتسمت بصفات قومية خاصة ، وأصبحت الاشتراكية ذات مهمة قومية فى العالم العربى .

ومعنى هذا أن الفكر العربى المعاصر والعصرى لابد وأن يكون فكرا اشتراكيا قوميا .

الاتجاه الدينى

على أن الاتجاه الاشتراكى القومى العربى ليس هو الاتجاه الوحيد فى البلاد العربية ، وانما ثمة اتجاهات أخرى تاريخية وراهنة .

ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الدينى .

وكما هو معروف فقد نشأ الاتجاه الدينى المعاصر على يد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، وكان من أبرز متابعيه عبد الرحمن الكواكبى ، وشكيب أرسلان ، وعبد العزيز الثعلبى ، وعلى عبد الرازق ، وعبد الحميد بن باديس ، وأحمد أمين ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وزكى مبارك، ومحمد كرد على ، وأبو القاسم الشابى .

لكن الدكتور أنور عبد الملك يلاحظ أن الحركة الدينية هذه كانت حركة برجماتية ، تقع فى إطار التثبيت أكثر مما تقع فى إطار التحريك ، أى أنها تقع فى إطار أيديولوجية وحيدة يمكن الاعتراف بها كأيديولوجية « الانسان » ككل .

وهدف الاتجاه الدينى فى العالم العربى كان ، ولايزال ، الالتجاء الى معين ثقافى مشترك عنصره الأساسى هو الثقافة الدينية ، وإعادة إحياء الأمجاد القديمة ، بترويض الوقائع التاريخية لكى تقوم بمهام مواجهة الضرورات العصرية ، وليس من أهداف الاتجاه الدينى فى العالم العربى الرغبة فى التقدم الى الأمام انطلاقا من الحقائق المعاصرة .

كما أن من أهداف الاتجاه الدينى تبنى الأفكار الجديدة « النافعة » بدون تجاوزها أو تطويرها .

وإذا كان الاتجاه الفكرى الدينى ، بصورته تلك، قد فقد الكثير من أرضيته فى العالم العربى ، فان الأمر لايزال فى حاجة الى حركة إصلاح دينى جديدة .

الليبرالية العصرية

وثمة اتجاه تاريخى ، ليبرالى عصرى ، أخذ فى البداية بالحضارة الغربية ، ناقلا ومقتبسا ومقدما ، وأخذ بصورة خاصة بالروح العلمية الطبيعية ، وبالعقلانية الفلسفية ، وبالليبرالية السياسية .

وفى وقت من الأوقات كان هدف هذا الاتجاه خلق مجتمع عربى شبيه بمجتمعات أوربا وأمريكا الشمالية ، والتقدم ، بهذه الوسيلة الى الأمام ،

والانفتاح على « الرقى » ، مع المحافظة من الماضى على التقاليد والعادات التى لا تعرقل مثل هذا التقدم .

على أن هذا الاتجاه ما لبث أن انقسم الى اتجاهين : اتجاه محافظ تحت تأثير ملاك الأرض ، وفى قالب « جديد » أخذ هذا الاتجاه طريق الاتجاه الدينى « المجدد » فى الأسلوب ، وبدا المثل البارز على ذلك فى « عباس محمود العقاد » ، كما أخذ الدكتور « طه حسين » به الى حد كبير ، وصمد من الليبراليين الأوربيين « غربا وشرقا » الدكتور حسين فوزى ، وربما بفضل ثقافته العلمية والفنية العميقة مستمرا ، وخاصة بكتابه « سندباد مصرى » فى الإسهام فى جهد اعادة استكشاف الذات ، كما صمد توفيق الحكيم .

ومن الاتجاه الليبرالى العصرى نشأ أيضا اتجاه تبنى الماركسية السوفييتية ، تحت تأثير انتصارات الحرب العالمية الثانية ، ونمو حركة المثقفين الشبان ، والعمال ، والفلاحين الى حد قليل . لكن هذا الاتجاه الثانى ما لبث أن سقط فى هوة المنهجية ذات الاتجاه الوحيد ، متبنيا بذلك نوعا من « الاقتصادية » « المبتذلة » ، أو من « اللاقومية » المسوخة .

بينما ظهر اتجاه ثالث ضعيف جدا ، ومضروب من الاتجاهات السابقة ، يدرك ضرورة الأخذ بالمنهج المتعدد الاتجاهات ، والانطلاق من ضرورة التطوير التاريخى الاجتماعى على الأرض القومية .

القومية المنغلقة

وبتفجر ثورة ٥٢ ، ثم ثورة الجزائر ، ثم الثورة الفلسطينية ، نشأت الاتجاهات القومية .

وفى البداية ظهر اتجاه قومى مغلق ، يعمل على الانكماش داخل الذات ، فى محاولة لمقاومة الاختراق الأجنبى ، القاهر وغير القاهر على السواء ، واتجه أصحاب هذا الاتجاه الى التباعد ورفض أى تماثل مع الغير ، والإصرار على الاستناد الى قاعدة ذاتية ، وتقرير المصير على أساس التاريخ الخاص والارادة الخاصة .

ولكن سرعان ما أصبح واضحًا ، أن تأكيد الذات القومية فى مواجهة الاختراقات القاهرة الأجنبية والغربية يحتاج بالضرورة الى تأييدات من كل أنحاء العالم ، ويحتاج بالدرجة الأولى الى تأييد الدول غير الاستعمارية طبعا ، كما يحتاج أيضا الى تأييد المنظمات الدولية والأحزاب والمؤسسات والجماعات والمدارس الفكرية فيما وراء حدودنا القومية .

ويقول الدكتور أنور عبد الملك :

« إن رفض « الآخر » ، هذا « الآخر » الذى يهدف الى قهرنا ، لا يعنى بالضرورة الانكماش على الذات ، وإنما هو يعنى - على العكس - البحث عن « الآخر » ، دون أن يؤدى هذا الى التخلى عن الذات » .

من أجل بداية جديدة

وهنا وصلنا الى المأزق : مأزق تأكيد الذات برفض « الآخر » .

وأعيد طرح السؤال :

ما الذى نفعله من أجل بداية جديدة ؟

ويقول البعض أننا فقدنا الاتجاه لأننا لم نستطع أن نرتفع الى المستوى التكتيكى الغربى .

إذن ، هل نقلد الغرب ؟

لقد فعلنا هذا فى النصف الأول من القرن الحالى ، قلدنا الغرب أو حاولنا تقليده فى كل شىء: فى الزى والفلسفة ، فى الحروف الأبجدية والمؤسسات السياسية ، فى أخلاقيات العلاقات الجنسية وفى الإقتصاد ، لكن هذا التقليد فصلنا عن ماضينا تماما ، وأدى بنا الى تجاهل وإنكار تاريخنا .

لقد تصورنا أن السبيل الوحيد الى الرقى هو القضاء على « الأنا » القومية ، وغرس الغرب فى الأرض العربية ، لكى نضمن لأنفسنا النهضة العصرية .

على أنه سرعان ما أفلس هذا الاتجاه عندما واجه عقبات المقاومة الوطنية والاجتماعية .

ان هذا الغرب الذى حاولنا تقليده كان هو نفسه الذى يقهرنا أو يحاول أن يقهرنا ، كذلك فان مصادر هذه الحضارة « الغربية » كانت أساسا مصادر غير جماهيرية ، بمقياس الجماهير الشعبية العربية ، التى ظلت بعيدة عن هذا التقليد .

كذلك أفلس البديل لتقليد الغرب .

أفلس ذلك الاتجاه الذى يقول إنه بما أن تقليد الغرب لم يحقق النهضة القومية المطلوبة ، بل وأدى الى انحراف بعض المقلدين الى الدفاع عن القهر الغربى ، المباشر أو المستتر ، أو على الأقل السكوت عليه ، فان من الأفضل العودة الى « الأنا » التاريخية ، ونبذ « الآخرين » .

لكن الدكتور أنور عبد الملك يرى أن الحل ليس مجرد التمسك بـ « الأنا » التاريخية ، وليس مجرد تقليد « الآخر » .

الحل هو الاعتراف بالأرضية القومية المستردة من بين أيدى « الآخر » القاهر ، ودراسة هذه الأرضية فى بعديها التاريخى والاجتماعى معا ، حتى يمكن كشف ماهية الصفات القومية الخاصة فعلا ، واثراؤها بمكتسبات الحضارة الصناعية التى تدفع عجلة التقدم المادى والفكرى على هذه الأرض العربية ، والتعجيل بالسير الى الأمام ، والاستفادة الأفضل بالخصائص القومية .

وعلينا أن ندرك أن انسان عصرنا ، وخاصة انسان المستقبل ، الانسان الشاب ، لن يكون ، ولا يمكن أن يكون ، منطويا على نفسه ، أو مكتفيا بذاته ، وانما سيكون منفتحا على العالم من حوله ، ومنفتح العالم من حوله عليه .

وهنا لابد أن نضع التأثير المتبادل بين الثقافات موضع الاعتبار ، أى لابد أن ينفتح الفكر العربى على العالم ، وعلى مصادر التأثير الثقافى فيه ، حتى يصبح فكرا شابا للشباب ، ولا يصاب بفقدان الاتجاه فيصاب الشباب بشعور الضياع .



رحلة العائلة المقدسة فى مصر

بقلم : البابا شنودة الثالث

عاش السيد المسيح فى فلسطين ، لم يغادرها إلى أى اقليم آخر . والاقليم الوحيد الذى انتقل إليه ، غير أرض موطنه ، هو مصر . أتى إليها فى طفولته ، مع السيدة العذراء مريم والدته ، ومعهما يوسف النجار .

كان السبب هو أن جماعة من المجوس ، أتوا من المشرق إلى أورشاليم «القدس» بعد مولد السيد المسيح بقليل . وقالوا « أين هو المولود ملك اليهود ، فإننا رأينا نجمه فى المشرق ، وأتينا لنسجد له » فخاف هيرودس الملك ، وحسب هذا المولود منافساً له . ولما لم يستدل عليه ، أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم ، البلدة التى ولد فيها المسيح ، لعله يكون ضمن هؤلاء المقتولين . وهكذا انتقلت العائلة المقدسة كلها إلى مصر ، بناء على رؤيا مقدسة وأمر إلهى .

أتوا إلى مصر من المشرق طبعاً . مارين على العريش والفرما . ولم يسيروا فى خط واحد يمكن تتبعه . ولم يستقروا فى مدينة واحدة . وكانت المدن الكبيرة التى مروا بها حوالى عشرين مدينة أو منطقة ، غير القرى العديدة التى فى الطريق ... كما كانوا يعبرون النهر إلى الشرق أحياناً ، وإلى الغرب أحياناً أخرى .

ونستميح القارىء عذراً – من أجل تسهيل الموضوع عليه – أن نذكر كل تلك الأماكن بأسمائها الحالية على قدر الإمكان ، حتى لا يرتبك فى أسماء كثيرة لا يعرفها ، وغير موجودة على الخرائط الحالية . إننا لا نريد لهذا المقال أن يكون موضوعاً علمياً بحتاً ، إنما نريده مبسطاً على قدر الامكان .

رحلة العائلة المقدسة شملت مناطق فى الوجه البحرى ، وأخرى فى الوجه القبلى ، أقصى ما وطأته تلك الأقدام المقدسة فى شمال مصر ، كان العريش شرقاً ، ومدينة سخا غرباً (من محافظة كفر الشيخ) . وأقصى ما وصلوا إليه جنوباً كان محافظة أسيوط - جبل قسقام ، وربما (جبل أسيوط أيضا) .

وهكذا تقدست كثير من بلاد مصر ، بزيارة السيد المسيح والسيدة العذراء مريم . وورد فى سفر إشعياء النبى قول الرب « مبارك شعبى مصر » (أش ١٩ : ٢٥). وكذلك نبوءة فى نفس الفصل عن عبادة الله فى مصر « ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم » (أش ١٩ : ٢١) . وتحققت نبوءة فى سفر هوشع النبى ، عن رجوع السيد المسيح من مصر . وهى « من مصر دعوت ابنى » (هو ١١ : ١) (متى ٢ : ١٥) .

استمرت رحلة العائلة المقدسة فى مصر حوالى ٤ سنوات من سنة ٢ م إلى ٦ م تقريباً ، إلى أن مات هيرودس الملك ، وحكم بدلاً منه ارخيلاوس .

وفى بعض المدن قضت العائلة اسبوعاً ، أو بضعة أيام . وفى مدن أخرى شهراً أو أكثر . وكانت أطول مدة هى فى جبل قسقام ، حيث بنى فى قربه الدير المحرق على اسم السيدة العذراء فيما بعد .

ولعل البعض يسأل : لماذا كان هذا التنقل من مكان إلى آخر فى مصر ؟ ونجيبه بسببين :

١ - لأن هيرودس أرسل أيضا يطاردهم فى مصر .

٢- لأنه كانت تحدث معجزات فى البلاد التى زارتها العائلة المقدسة وأحيانا كانت تسقط الأصنام محطمة على الأرض ، فكان كهنة الأوثان يطردونهم من مدينتهم فيلجأون إلى أخرى .

فلنتتبع إذن رحلة العائلة المقدسة . والبلاد التى دخلوها ، حتى يمكن للسواح والدارسين أن يزوروها ، ويعرفوا معالمها وما تبقى فيها من آثار هامة ، مع دراسة تلك الآثار والحفاظ عليها ، وتصويرها وشرحها ... وسنعطى لكل مدينة رقماً خاصاً ، لتسهيل المتابعة .

الرحلة فى شمالى مصر

١ ، ٢ مدينتان على الحدود الشرقية الشمالية ، هما العريش والفرما ، اتجهت العائلة المقدسة بعدهما إلى منطقة محافظة الشرقية . وكانت أول مدينة فيها هى :

٣ - تل بسطه : وهى قرب الزقازيق . دخلوها ظهراً ، واستظلوا تحت شجرة.

عطش المسيح ، وإذ لم يجد ماء ، رسم بيده على الأرض ، فتفجر نبع ماء . سقطت أصنام تلك المدينة من قدسية الزائر العظيم . فطردهم الكهنة من المدينة فتركوها .

صارت تل بسطه فيما بعد إحدى اسقفيات الكرسى المرقسى .

٤ - مسطرد (المحمة)

نزلت العائلة المقدسة بعد ذلك جنوباً إلى مسطرد . وجدت هناك نبع ماء ، استحم منه السيد المسيح فسمّى (المحمة) وتغير اسم المكان بعد ذلك إلى مسطرد . بنيت هناك فيما بعد كنيسة على اسم السيدة العذراء . وفى عودة العائلة المقدسة ، مرت على مسطرد أيضاً .

٥ - بلبيس

ومن مسطرد انتقلت العائلة المقدسة شمالاً بشرق إلى بلبيس ، واستظلت عند شجرة عُرفت باسم « شجرة العذراء مريم » . وصارت بلبيس اسقفية فيما بعد . ومرت العائلة المقدسة على بلبيس أيضا فى رجوعها .

٦ ، ٧ منية سمنود ، وسمنود

من بلبيس رحلت العائلة المقدسة شمالا بغرب إلى منية سمنود ، وكانت تعرف باسم (منية جناح) ، ومنها عبرت النهر إلى سمنود ، داخل الدلتا . واستقبلهم شعبها استقبالاً حسنا ، فباركهم المسيح .

وبنيت فى سمنود كنيسة قديمة على اسم السيدة العذراء . ثم تهدمت فبنيت على أنقاضها كنيسة الشهيد ابانوب حالياً .

ومن هناك رحلت العائلة المقدسة شمالاً بغرب إلى منطقة البرلس إلى سخا .

٨ - سخا

وهى حالياً فى محافظة كفر الشيخ . وقد ظهر قدم السيد المسيح على حجر ، ومنه أخذت المدينة اسمها بالقبطية . وقد أخفى هذا الحجر زمناً طويلا خوفاً من سرقته فى بعض العصور ...

ولقد بنيت فى سخا كنيسة قديمة على اسم السيدة العذراء ، مع مغطس ، ثم عمّر فيها دير المغطس .

٩ - وادى النطرون

من سخا عبرت العائلة المقدسة نهر النيل إلى غرب الدلتا ، وتحركت جنوباً إلى وادى النطرون ، وباركته ، ومنه رحلت إلى منطقة القاهرة الحالية .

العائلة المقدسة فى منطقة القاهرة

أهم الأحياء التى زارتها فى هذه المنطقة : عين شمس ، والمطرية ، ومنطقة بابليون (مصر القديمة) ، ومنف ، والمعادى .

١٠- المطرية

أهم مافى هذه الزيارة الشجرة المعروفة باسم (شجرة مريم) حيث استظلت السيدة العذراء . وقد أنبع السيد المسيح هناك نبع ماء ، وشرب منه وباركه . وغسلت السيدة العذراء ثياب ابنها من مياه هذا النبع ، وسكبت الماء ، فنبتت فى مكانه شجرة البلسم ذات الرائحة العطرية .

وهذا المكان الأثرى العظيم يحتاج إلى عناية من مصلحة الآثار والبلدية ، وإعداده ليكون مركزاً سياحياً لائقاً ، لأن معلومات كثيرة مكتوبة عنه فى الكتب التى يحملها معهم السائحون لارشادهم .

ولعله فى زيارة هذه المنطقة مرت العائلة المقدسة على منطقة الزيتون ، ثم تحركت بعد ذلك إلى بابليون .

١١ - بابليون (مصر القديمة)

وقد تباركت هذه المنطقة كلها بزيارة العائلة المقدسة ، التى اقامت حيناً فى مغارة صارت جزءاً من كنيسة « أبا سرجه » فيما بعد .

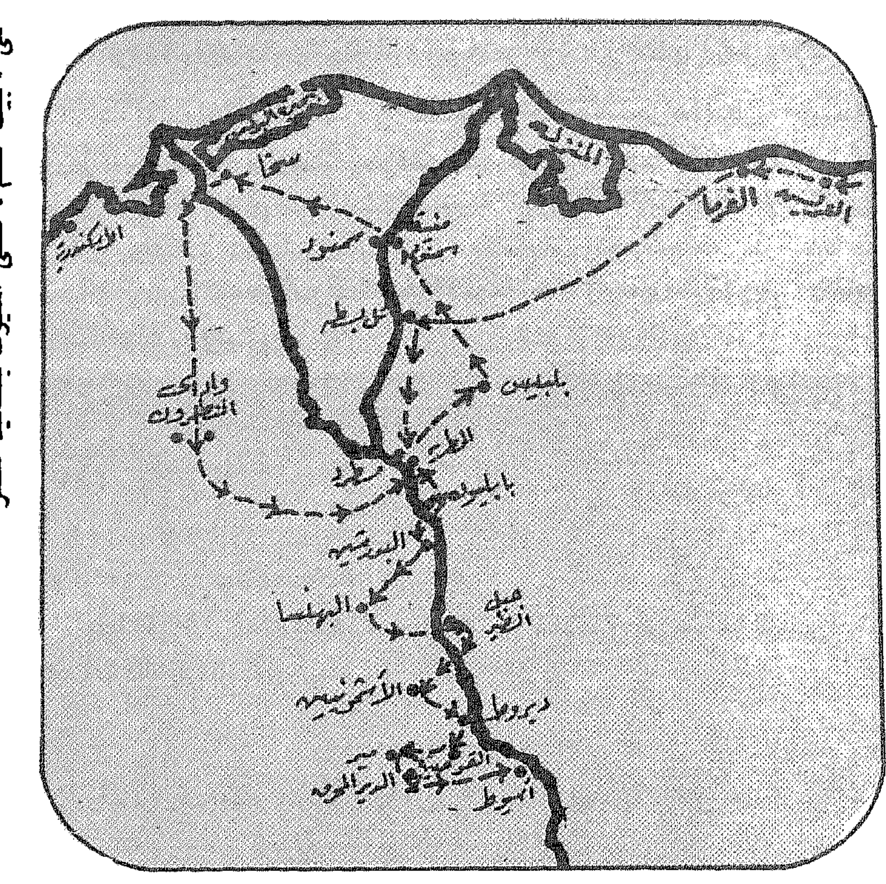
ثم اتجهت الرحلة نحو منف .

١٢ - منف

وفى منف تحطمت أصنامها من قدسية الزيارة ، فعزم الوثنيون على قتل العائلة المقدسة ، التى تركت لهم المدينة . وفى نفس الوقت تركت أثراً فى النفوس ، فبنيت فى منف كنيسة قديمة جداً يعتبرها البعض أقدم الكنائس بعد الاسكندرية ، وبنى هناك دير أيضاً . وصارت منف احدى اسقفيات الكرسى المرقسى فيما بعد .

١٣ - المعادى

أقلعت العائلة المقدسة بعد ذلك فى مركب بالنيل من عند المعادى . وبنيت فى ذلك المكان كنيسة قديمة هى كنيسة العذراء بالمعادى . ومن ذلك الموضع تحركت العائلة المقدسة جنوباً نحو الصعيد . ومن أشهر المدن التى أقامت فيها : البهنسا .



● خريطة تبين خط سير الرحلة ، بدءا من فلسطين حيث ولد السيد المسيح فى ، بيت لحم ، حتى اسيوط بصعيد مصر

العائلة المقدسة فى الصعيد

١٤ - البهنسا

وهى من أهم المراكز التى زارتها العائلة المقدسة وباركتها . وصارت إحدى الاسقفيات الكبيرة فيما بعد . وسميت (بيت يسوع) . وبنيت فيها كنائس كثيرة ، وعمرت بأديرة للرهبان والراهبات . وكانوا يأتون إليها للزيارة للتبرك مشياً على الأقدام .

١٥ - جبل الطير

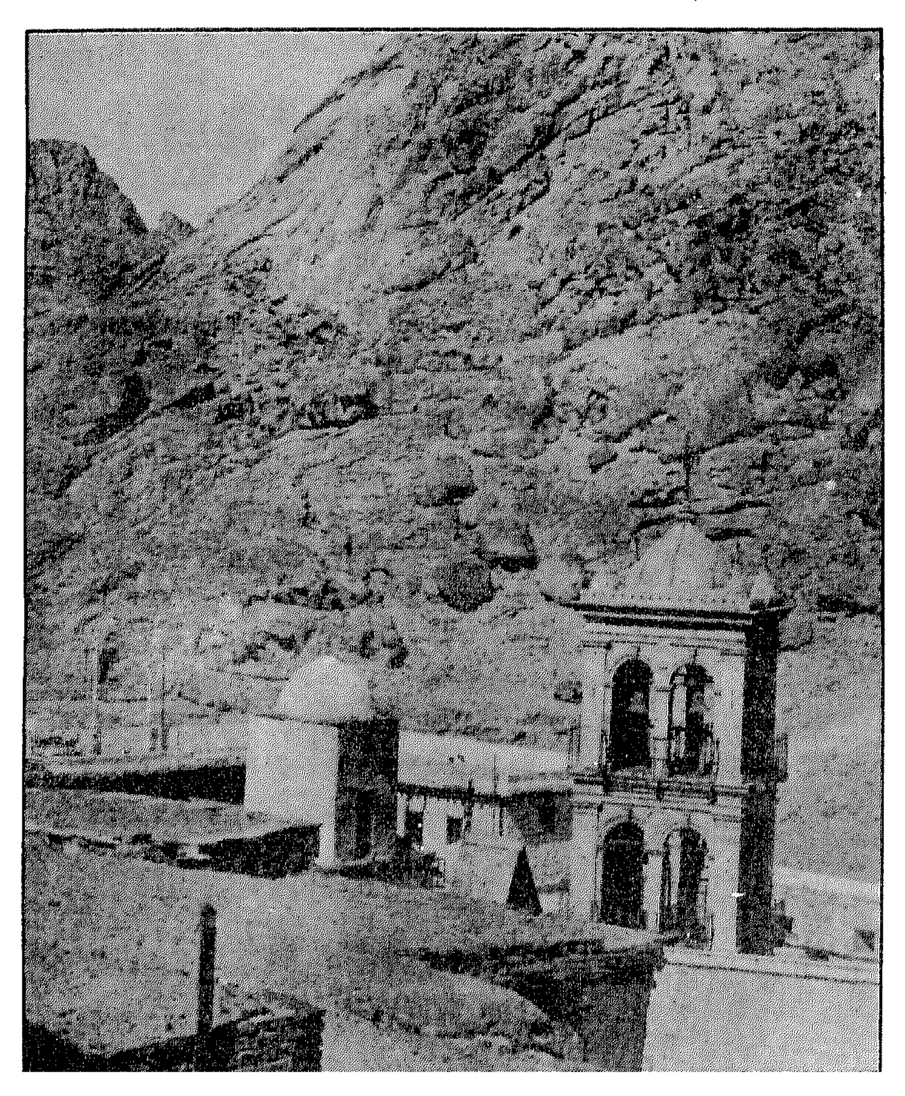
سارت العائلة المقدسة جنوباً حتى سمالوط ، ثم عبرت النيل شرقاً إلى جبل الطير . وهناك سند السيد المسيح بيده حجراً كاد يسقط ، فانطبع كفه عليه . وبنت القديسة الملكة هيلانه (فى القرن الرابع) كنيسة باسم السيدة العذراء .

ثم نزلت العائلة المقدسة جنوباً وعبرت النهر غرباً إلى الاشمونين .

١٦ - الاشمونين

وقد حدثت معجزات كثيرة فى هذه البلدة وسقطت أوثان . وقد صارت الاشمونين فيما بعد احدى الاسقفيات الشهيرة . ومن اساقفتها الانبا ساويرس ابن المقفع المؤرخ والكاتب المعروف .

١٧ - ومن الاشمونين نزلت العائلة المقدسة جنوباً إلى ديروط الشريف ، وكانت تعرف وقتذاك باسم فيليس .



١٨ – ومنها إلى قرية قسقام ، حيث سقط الصنم معبودهم وتحطم ، فطردهم أهلهـا خارج المدينة . وعرفت هـذه المنطقة باسم القوصيـة ، وهى غير القـوصيـة الحالية .

١٩ – فرحلوا من هناك إلى مير .

٢٠ – ومن هناك ذهبوا إلى جبل قسقام ، حيث بنى إلى جواره الدير المحرق على اسم السيدة العذراء .

وأقاموا فى تلك المنطقة ستة شهور وعشرة أيام ، وبنى يوسف النجار بيتاً صغيراً إلى جوار بئر ماء باركه المسيح .

وفى هذه البقعة المقدسة ظهر الملاك ليوسف النجار ، وطلب إليه الرجوع إلى فلسطين ، لأن هيرودس قد مات .

٢١ – وقيل إن العائلة المقدسة مرت فى رجوعها على جبل اسيوط (المنطقة المعروفة باسم جبل درنكه) حيث بنى دير باسم العذراء .

فى خط العودة

لم يكن هناك داع فى العودة إلى المرور على أماكن استدعتها أمور أخرى فى المجىء .

فمثلا مرت الرحلة على بابليون ومسطرد وبلبيس . ولم تكن محتاجة أن تدخل فى الدلتا إلى سمنود ، أو تتجه غرباً إلى سخا ، أو تنزل جنوباً إلى وادى النطرون . وانما من الممكن أن تتجه من بلبيس مباشرة إلى الفرما والعريش .

كان الطريق فى العودة آمنا بعد موت هيرودس

السيد المسيح اختفى من هيرودس فى طفولته ، مع قدرته على إبادة هيرودس ولكن الساعة لم تكن قد أتت بعد ، التى فيها يسلم المسيح نفسه للموت . كان لابد أن يقوم برسالته أولاً ، ويعلم الناس ويحذر من حرفية اليهود فى فهم وصايا الله ، ويختار التلاميذ الذين يقودون الايمان من بعده ، ويعلمهم أن هذا الايمان هو لكل شعوب الأرض ، وليس لليهود فقط .

وفى انتظار تأدية رسالته ، جاء إلى مصر ، فبارك مصر

نعم ، ولتكن مباركة ...

المثقفون والسلطة

بقلم : د . أحمد كمال أبو المجد

●● فى منطق العقل وبداهة الأشياء ، أن الناس يحتاجون إلى « السلطان » كما يحتاجون إلى « العلماء » .. وانهم يكونون أسعد ما يكونون . وأوفر نصيبا من الخير والصلاح حين يلتقى فى حياتهم عزم السلطان وعدله بحكمة العلماء وعلمهم ●●

وفى تراثنا ، ان أصحاب الحكم والسلطان مسئولون أمام الله عما استرعاهم من أمر الناس .. وأن العلماء - كذلك - مسئولون أمامه عما حملهم من أمانة البحث عن الحقيقة ونشرها بين الناس وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم : ان الإمام الذى على الناس راع ومسئول عن رعيته .. وفيها أيضا ان العلماء ورثة الأنبياء وان مدادهم يوزن يوم القيامة بدم الشهداء .

وفى تاريخ الإنسان الثابت والموثق ان الصالحين من الحكام كانوا لا يبرمون امرا ولا ينقضوه الا إذا استرشدوا بعلم العلماء ورأى أهل الرأى وأصحاب التجربة .

● نور العلم ●

وفى الزمن القديم السحيق يحدثنا القرآن الكريم عن ثمرة التعاون بين أهل « العلم » وأصحاب « السلطان » حين يروى لنا قصة سليمان وملكة سبأ .. فيقول : « قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى » .. ويروى لنا على الجانب الآخر من القصة - ان ملكة سبأ وقد كانت وقومها كما يقول القرآن « يسجدون للشمس من دون الله » كانت تحرص هى الأخرى على أن يكون قرارها مستنيرا بنور العلم ، مهتديا بنصيحة العلماء : « قالت يا أيها الملأ افتونى فى امرى ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون » والملأ هم خاصة القوم وأهل الرأى والمكانة فيهم وفى تراثنا الإسلامى .. بعد ذلك كله إشارات واضحة بالدعوة الصريحة وبالتقرير الذى يستفاد منه الرضا والاستحسان - إلى ضرورة تعاون العلماء والحكام .. فأبوبكر رضى الله عنه كان إذا عرض له أمر جمع رءوس الناس وخيارهم قال « اشيروا على أيها الناس » وعلى رضى الله عنه يفسر العزم فى



قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » بأنه مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم .

هذا كله لاخلاف حوله ولا مماراة من أحد فيه .

ولكن هل سار التاريخ على هذا النحو من التعاون الهادئ بين الطائفتين وهل اتسعت صدور الحكام لنصائح العلماء .. وهل تجاسر العلماء - دائما - على بذل النصيحة وقول الحق واعلانه بين يدى السلطان ؟ .

● صدام ومواجهة ●

تقول شهادة التاريخ فى ذلك إن السلطة كثيرا ما تكون مفسدة وان السلطة المطلقة مفسدة مطلقة . وأن أكثر الناس ينسون الحكمة الخالدة عن السلطة وانها « لو دامت لغيرك ما وصلت إليك » وان مقاعد الحكم تصور لكثير منهم ان لهم على الناس حق الطاعة المطلقة ، وأنهم - بما يحملون من مسئولية وما يبذلون من جهد - جديرون بان يسلم الناس لهم قيادهم بغير مناقشة فلا رأى بعد رأيهم ، ولا قرار الا قرارهم . ولا وجهة للجماعة الا الوجهة التى يختارونها هم ، ويستحسنونها لهم .. وهى حالة يكشف عنها ويصورها أدق تصوير قول القرآن الكريم على لسان فرعون ، « ما أريكم إلا ما أرى و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .. فهذا الفرعون لا يتصور لقومه حقا فى أن يكون لهم رأى غير رأيه .. وهو من جانبه لا يطلعهم الا على ما يراه هو . مقررا فى ثقة عجيبة أنه بهذا يهديهم سبيل الرشاد ، ويتكرر هذا الموقف - على اختلاف المرحلة وتباعد الزمان - حين يقول حاكم ينتسب للإسلام ولرعايته: من قال لى اتق الله بعد مقامى هذا ضربت عنقه . ويتراجع إلى الوراء - مع حركة التاريخ قول الذى قال لعمر وهو أمير للمؤمنين ، « والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بهذا»، ويشير إلى سيفه .. ويتكرر فى تاريخ أمتنا كما تكررت فى تاريخ الأمم والشعوب .. مواقف الصدام والمواجهة بين السلطان والعلماء .. فنقرأ عن محنة أبى حنيفة مع الخليفة وما تعرض له من الأذى حين رفض تولى القضاء .. ونقرأ عن محنة أحمد بن حنبل مع الخليفة العباسى المأمون حين أعلن فى مسألة خلق القرآن « رأيا يخالف رأى السلطان » .. كما نقرأ عن محنة ابن تيمية حين قال فى أمور

فقهية اجتهادية أقوالا لا يرضى عنها علماء السلطان .. حتى سجن ومات مسجونا فى قلعة دمشق عام ٦٢٨ هـ .. ذلك ، وأكثر منه بكثير وقع فى أوروبا حين اصطدمت آراء العلماء مع مصالح الحكام ، ملوكا كانوا أو اباطرة أو بابوات .. فسجن من سجن وشرد من شرد ، وأثر الصمت وكتمان الحقيقة من عجز عن المواجهة وتحمل تبعات الصدام .

وتعاقبت حلقات التاريخ .. ولم تعد القضايا الفقهية أو الفلسفية محورا لصراع يذكر أو أزمات حقيقية فى علاقة المثقف بالسلطة كما نقول هذه الأيام .. وانما صارت القضايا السياسية والاجتماعية هى محور المد والجزر فى علاقة المثقفين بالسلطة .

ومع الثورات السياسية والاجتماعية الحديثة ، وتطور وظائف الدولة الحديثة دخلت العلاقة بين المثقفين و « الحكام » مرحلة جديدة حددتها بشكل أساسى متغيرات أربعة :

١ - ان الحكم فى أكثر دول العالم لم يعد حكما « فرديا » خالصا تستقر فيه سلطة الأمر والبت بين يدى حاكم فرد يرضى عن المثقفين فيأمنون ، ويسخط عليهم فيخافون .. وانما صار « الحكم » مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات ، تراجع معها إلى حد كبير الدور الشخصى للحكام .

٢ - إن مهمة الدولة الحديثة قد تعقدت إلى درجة لم تكن تخطر على بال الحكام الأوائل .. وصار الهم الحقيقى الذى يواجه الحكومات المختلفة هو البحث عن حلول عملية للمشاكل المعقدة التى تواجه المجتمعات .. وبذلك عظم الاحساس بالحاجة إلى « ترشيد » قرارات أجهزة الحكم .. كما عظمت المسئولية الملقاة على عاتق العلماء والمثقفين فى المعاونة على هذا الترشيد .

٣ - إن وسائل الترغيب والترهيب التى يلجأ إليها الحكام لمواجهة المثقفين أو احتوائهم أو إبعادهم عن طريقهم قد تعددت واتسع نطاقها .. فلم يعد الأمر مقصورا - على تقريب هذا من بلاط الحاكم .. أو إبعاد ذلك أو حرمانه من العطاء .. وانما صارت « مؤسسات الدولة » وأجهزتها وتنظيماتها السياسية بؤرة جذب وإغراء شديدين لكثير من المثقفين تستهويهم للاقتراب منها أو الارتباط بها . والافادة من جاهها ومالها فى الارتقاع بالمستوى الاجتماعى للمثقف وتأمين حياته الخاصة والأسرية .. وهذا منزلق شديد الخطورة .. لأن خطواته الأولى تصل بصاحبها إلى نهاية الطريق .. فإذا به يتخلى - شيئا فشيئا - عن أمانة الجهر بالحق وإعلان الرأى .. ثم إذا به - شيئا فشيئا - يرى الأمور كلها بعين السلطة ويزنها بميزانها .. ويفقد بذلك دوره فى التنبيه إلى الرأى الآخر ، والقيام بحق العلم الذى تعلمه والحكمة التى أوتيها .. وكلما انزلق فريق من المثقفين إلى أن يكونوا جزءا من حشية السلطان وأبواقا من أبواقه، كلما تعرض فريق آخر منهم لمزيد من الضغط والترهيب .. وصار من اليسير اتهامهم بأنهم يسرفون فى النقد ويشتدون فى المعارضة .. وان ولاءهم للحكم القائم ولاء منقوص .. وربما حيل بينهم وبين المشاركة بالرأى ، وممارسة الاجتهاد وبذل النصيحة فحرموا بذلك حقا طبيعيا لهم ، وحرمت الجماعة من رأيهم وخبرتهم وثمرات علمهم واستغنت عن ذلك كله بموافقة الموافقين ، وتأييد الممالئين ، ممن لا يخلصون نصيحة ولا يجهرون برأى .

ان الحقائق المقدمة تأخذ فى عالمنا العربى المعاصر صورة أزمة حقيقية تحتاج إلى مواجهة عاجلة .. وذلك لسببين رئيسيين :

أولهما : ان نظم الحكم فى الكثرة الغالبة من الدول العربية لاتزال - فى جوهرها - نظما فردية رغم الواجهات الدستورية التى تنسبها إلى الديمقراطية .. ومعنى هذا - من الناحية العملية ان سلطة البت والتقرير فى كبريات المسائل السياسية والاجتماعية تستقر بين يدى فرد واحد ، تحيط به - فى أحسن الفروض - حاشية محدودة العدد من الاعوان والمستشارين .. وهذه الصيغة من شأنها ان تجعل مصير الشعب كله معلقا بمدى الخطأ والصواب فى القرارات الفردية التى تعالج بها الأمور .. وفى ظل هذه الأوضاع كلها تشتد الحاجة إلى اسهام المثقفين ومشاركتهم الحقيقية بالرأى والاجتهاد والنصيحة .. وتشتد الحاجة تبعا لذلك إلى خلق الظروف السياسية والاجتماعية التى تشجع المثقفين والعلماء على ممارسة هذا الدور .

ثانيهما : إن أسلوب اتخاذ القرار السياسى والاجتماعى ، بالاضافة إلى فرديته لايزال أسلوبا عشوائيا فى أغلب الأحيان ولايزال كثير من الحكام العرب غير مستوعبين تماما لطبيعة العصر ، ودقة المشاكل التى يتصدون لعلاجها .. ولايزال بعضهم يتصور أن الفطنة الموروثة وسلامة النظر تكفيان لمواجهة أعقد المشاكل وتغنيان عن الدراسات المنهجية التى يقوم بها المتخصصون .. ولهذا قل ان تقوم إلى جوارهم هيئات متخصصة للدراسة والبحث والمشورة مع ان هذه الهيئات والمراكز قد أصبحت جزءا اساسيا من جهاز « الفكر » الذى يرشد أكبر الحكومات وأوفرها حظا من الكفاءات المتخصصة .

لقد كان لهاتين الظاهرتين آثار مؤسفة للغاية على مستوى كفاءة الحكم من ناحية وعلى موقف العلماء والمثقفين من « الحكم والسلطة » من ناحية أخرى .

أ - فقد تراجعت كفاءة أكثر الحكومات العربية .. واعجزتها ضخامة المشاكل ، وانتشر فى كل مكان احساس بأنها غير قادرة على الامساك بزمام الحوادث أو ممارسة التخطيط الضرورى لإخراج المجتمعات العربية من « عنق الزجاجة » الذى تمر به .. والوصول بها إلى مرحلة الاقلاع الحضارى التى بدت فى وقت ما قريبة وعلى مرمى البصر ، ثم إذا بها تبتعد ، وتبتعد ، ولا يكاد أحد يراها أو يتوقع حصولها فى الغد المنظور .. وتجاوز مظاهر هذا التراجع حدود الأوضاع الداخلية للمجتمعات العربية لتصل إلى قضايا وأوضاع وثيقة الصلة باستقلال تلك الدول وسيادتها وسط أطماع دولية تحيط بها من كل جانب وتهدد أمنها فى صميمه ، وتوشك أن تردها إلى حالة من الهوان والتبعية والتخلف تتسع معها الفجوة بينها وبين العالم المتقدم .

● إحباط .. وتحذير ! ●

ب - ونتيجة لذلك كله تصاعد إحساس المثقفين بالأزمة واشتد شعورهم بالاحباط وساء ظنهم بالحكام .. وارتفعت أصوات بعضهم محذرة ومنذرة .. وداعية فى حدة وشدة أحيانا - إلى ضرورة تغيير أسلوب الحكم وضرورة تخليه عن عشوائيته وبدائيته ووجوب استعانته بأهل الخبرة والعلم ، القادرين وحدهم على ترشيد مسيرة العمل الوطنى .. وانقاذها من عثرات قد تدفع بها إلى كارثة يفوق حجمها كل تصورات العاجزين عن مد أبصارهم

وراء الحدود الضيقة لاهتماماتهم المحلية الخالصة .

وقد كان الحكام جديرين بأن يحسنوا استقبال هذا النقد ، ويرحبوا به ، وان تتسع صدورهم لما قد يشوبه من حدة أو مبالغة فى وصف النقائض والأفكار ولكن الاحساس بالأزمة والشعور بالضائقة جعل كثيرا من الحكام - ومن حولهم من بطانتهم - يتصورون أن توجه النقد فى الساعات العصيبة مقامرة بالأمن وتهديد للاستقرار ، ومدخل لاشاعة روح اليأس والقنوط فى وقت يحتاج معه الناس إلى التفاؤل وبعث روح الأمل .

إن الطريق المسدود الذى وجد فيه المثقفون أنفسهم قد دفع كثيرا منهم إلى صور من العزلة الحزينة .. ومن الاكتفاء بالشكوى والقناعة بترقب وقوع الكارثة .. وذلك - فى ذاته - كارثة ، فالحكام يرفعون شعارات للتفاؤل ليس لها شاهد مقنع .. والمثقفون يرفعون شعارات التذكير بسوء الحال ويعلنون قرب وقوع الكارثة .

والجماهير التى هى اداة التغيير الحقيقى ، بالعمل والإنتاج والإبداع والإرادة .. موزعة المشاعر ، تقتلها الحيرة ، وتستغرقها الهموم ويزداد يأسها من الغد يوما بعد يوم .

والتراجع الشامل فى مستوى الأداء العربى تتأكد مظاهره يوما بعد يوم ، ويتعامل معه الآخرون على أنه حقيقة قائمة بينما أكثر نظم الحكم مشغولة بالتعتيم عليه ، والمكابرة فى وجوده ، واصطناع تفاؤل كاذب قد يحول دون احساس الناس بحجم الأزمة فى المدى القصير .. ولكنه يمهد الطريق لكوارث حقيقية فى المدى البعيد ، الذى قد لا يكون فى حقيقته بعيدا كما تتمنى أكثر النظم والحكومات .

فهل لهذا كله من مخرج ؟ .

إن احدا لا تبلغ به السذاجة أو القدرة على خداع النفس أن يزعم ان المخرج يسير أو قريب .

ولكن له - فيما نرى - مداخل اساسية .. لابد من توفيرها بغير تراخ ولا ابطاء ..

● لا خطر منهم ! ●

● المدخل الأول :

المسارعة إلى علاج أزمة الثقة والتصديق بين الحكام والمثقفين .

أ - بأن يدرك الحكام أن المثقفين فى النهاية ليسوا خطرا على أحد فهم أصحاب رأى وفكر ، أقصى ما يملكونه ان يعبروا عن هذا الفكر بأقلامهم وألسنتهم .. وحتى حين يجنح القلم أو يشتط اللسان .. فهو شطط المخلص الذى تقض مضجعه هواجس الإشفاق من غد مجهول محمل بالأخطار الكبار .

ب - وان يدركوا فوق ذلك ان استيعاب جماعات المثقفين داخل تيار العمل الوطنى العام جزء أساسى من مسئوليتهم ! يقتضيهم ان يتوجهوا فى صدق وأمانة ومسئولية إلى الاستفادة بعطاء العلماء والمثقفين .. بدلا من الحرص على اسكاتهم أو احتوائهم أو شراء موافقتهم المزيفة على ما تتخذه الحكومات من قرارات وما تتبناه من سياسات .

ج - وان يدركوا - فى النهاية - ان بقاء المثقفين خارج دائرة اتخاذ القرار ورسم السياسة ! ينطوى على خسارة فادحة .. ويترك « السلطة » مهما بلغ صلاحها ، تواجه ألوانا من المشاكل والتحديات لا يصلح لمواجهتها اسلوب التجربة والخطأ والعمل العفوى الذى تتحكم فيه اختيارات ذاتية لحكام أفراد .

● المدخل الثانى :

إن يذكر المثقفون وهم المبصرون لحقيقة الواقع العربى ، والمدركون لحجم التحديات القائمة ، وفداحة الأخطار القادمة فى خطى متسارعة .. ان دورهم فى وقت الأزمة يقتضيهم أن يقدموا ما هو أكثر من النصيحة المجردة التى يلقيها صاحبها من برجه العاجى ثم يمضى وهو يقول ألا هل بلغت ؟! اللهم فاشهد .. إن البلاغ فى هذه المرحلة يقتضى عملا دءوبا والحاحا على الاقتراب من مواضع صنع القرارات ، واستعلاء على كلمات التجريح واتهامات الجرى وراء المصالح الذاتية .

ان المثقف الفرد لا يمكن ان يصل صوته لحاكم .. أو محكوم ، وفرض عين على المثقفين العرب فى هذه المرحلة ، أن تكون لهم لقاءات ومنتديات .. يشيع فى اجوائها الاحساس بالأزمة ، والشعور الغامر بالمسئولية ، والاستعداد للبذل .. والاصرار على كسر حاجز الثقة واختلاف منهج التفكير والعمل بينهم وبين كثير من الحكومات . وعليهم وهم يفعلون ذلك أن يصيخوا السمع جيدا إلى همس الجماهير وشكاياتها ، وهمومها .. حتى لا يكون جهدهم حرثا فى البحر ، ورجع صدى لأفكارهم هم .

وغنى عن الذكر ان ذلك كله يحتاج إلى قدر أدنى من احترام حرية الرأى والتعبير عنه .. فليس كل صاحب فكر مجاهداً مقاتلاً أو صاحب عزم .. وليس كل مثقف – بالضرورة – سياسيا يحسن الكر والفر .

وجو الحرية وتأمينها هو الضمان الكبير لانطلاق هذه الجهود الخيرة التى يتقارب بها الحكام والمثقفون .. ويلتقى فى ظلالها سيف الحكم وميزان العدل والحكمة .

● المدخل الثالث :

ان ينتبه المثقفون إلى حقيقة بالغة الأهمية ، وهى أن علاقتهم بالسلطة تحددها – جزئيا على الأقل – علاقتهم بالجماهير ، فالمثقف المنعزل المتباعد عن الجماهير لا تقيم له السلطة وزنا ، ولا تحسب له حسابا .

ولا تحرص على سماع ما يكتب أو يقول .. أما حين يعبر المثقف وصاحب الرأى عن هموم حقيقية للناس ، وحين تحمل كلماته نبض أولئك الناس ، فان « السلطان » يتعامل معه على هذا الاساس ، ويحسن الاستماع له ، ويحرص على الحوار معه لأنه يجد فيه – عندئذ – قناة تواصل فعال مع الجماهير ، ولأنه يدرك – بعد ذلك – ان المساس به وبحريته يستثير الجماهير ويحرك غضبها ويفسد علاقتها به .. ولذلك يتردد طويلا قبل أن يقدم على هذا المساس .

إن الثمرة العملية لادراك هذه الحقيقة تتمثل فى حرص المثقف على أن يظل عقليا ووجدانيا موصولا بالناس معبرا عن مطالبهم وتطلعاتهم ومدافعا عن مصالحهم وحقوقهم .. وبذلك يؤدى دوره الرائد فى المجتمع .. وهو دور تنوير الناس وتبصيرهم .. كما يفتح امامه بابا واسعا لترشيد قرارات السلطة ومواقفها وسياستها .

هذه – فيما أرى – بعض الخيوط الأولى لعلاج أزمة العلاقة بين المثقفين والسلطة .. بغيرها لن يتحقق شئ وبها يهون كل شئ .. وتلوح – ولو من بعيد – أنوار فجر جديد .



قراءة مصرية فى :
أوراق هنرى كورييل

بقلم : طارق البشرى

ظهر فى يناير كتاب بعنوان « أوراق هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية » تضمن سيرة ذاتية أعدها كورييل فى ١٩٧٧ وقدم فيها ذكرياته عن الحركة الشيوعية حتى سنة ١٩٤٨ . وذلك بوصفه مؤسسا لواحد من أهم التنظيمات الشيوعية فى مصر . وتضمن الكتاب بعض تقارير كان كورييل كتبها ، ورسائل كان أرسلها فى الخمسينيات من الخارج الى بعض اخوانه فى مصر وقدم لهذه الأوراق الاستاذ الدكتور رؤوف عباس رئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة . وهى مقدمة طويلة وهامة تضمنت دراسة للأوراق المنشورة واستخلاصا للدلالات التاريخية منها .

وأهم ما يلفت النظر هو دور اليهود الأجانب فى تأسيس الحركة الشيوعية فى مصر ، ومغزى نشاطهم طوال الأربعينيات ، وهو موضوع تناوله عدد من الكتاب فى السنوات الأخيرة . وكنت أنا قد واجهت هذا الموضوع عند إعدادى للفصل الخاص بالحركة الشيوعية فى كتاب لى نشر سنة ١٩٨١ بعنوان « المسلمون والاقباط فى إطار الجماعة الوطنية » . فتكشف لى دور اليهود الأجانب فى هذا الأمر ، وذلك من مطالعة مراجع الحركة الشيوعية التى أعدها شيوعيون ، واستندت فيما كتبت على تلك المراجع وعلى ما أثبته على ألسنة من شاركوا فى الحركة الشيوعية فى ذلك الوقت ، وذلك حتى لا

تلتبس مصداقية الأحداث المروية ، ثم عرضت نقدا لأساليب تلك المراجع فى تجميع المادة والتطبيق عليها ، واعدت بناء الوقائع وفقا للسياق الذى بدا لى أكثر معقولية وواقعية .

وكانت النتائج العامة التى اسفر عنها البحث هى :

أولا : إن دور اليهود فى الحركة الشيوعية لم يقتصر على الأربعينيات ولا على مصر . فقد عرفهم الحزب الشيوعى الذى تأسس فى العشرينيات سواء مؤسسين « كروزنتال » أو مندوبين للدولة الشيوعية (الكومنترن) مثل « فيجدور » كما عرفتهم الحلقات الماركسية القليلة التى ظهرت منذ الثلاثينيات . وكذلك عرفتهم الأحزاب الشيوعية التى ظهرت فى العشرينيات فى بلاد المشرق العربى بصفة خاصة ، إذ كان السكرتير العام للحزب الشيوعى اللبنانى هو « كالوب تبير » اليهودى الروسى الأصل ، وتزعم الحزب الفلسطينى ، يهودى يدعى « أبو زيام » وكذلك فى العراق .

ولا نجد تلك الظاهرة بهذا الوضوح فى الأحزاب الشيوعية فى المغرب العربى ، ولذا كان يجب تفسير ذلك بأن قوة الحزب الشيوعى الفرنسى مكنت من أن تصير احزاب المغرب العربى شبه فروع للحزب الفرنسى ، فلم يظهر دور هام لليهود فيها فإن سوريا ولبنان كانتا تحت السيطرة الفرنسية فى الوقت ذاته ولا يبقى الا سبب خاص يجذب اليهود للعمل السياسى فى احزاب المشرق العربى . كما أن موفدى الدولية الشيوعية وكبار المسئولين فيها عن الشرق الأوسط كانوا غالبا من اليهود . وقد أثبت بعض قدامى الشيوعيين المصريين ان هؤلاء المسئولين كانوا ينفذون اغراضا صهيونية .

ثانيا : بدا لى أن هذا الوجود اليهودى الأجنبى فى الحركة الشيوعية المصرية ، لم يكن بعيدا عن التحرك الصهيونى فى منطقة المشرق العربى المتاخمة لفلسطين ، وبخاصة فى الأربعينيات ، وهو التحرك الذى اسفر عن انشاء دولة اسرائيل فى ١٩٤٨ كما ان هذا الوجود كان يوجه نشاط الحركة الشيوعية فى مصر وجهة المجابهة ضد تيار الحركة السياسية الاسلامية وضد تيار الحركة السياسية القومية المتشددة وذلك بوصف أن هذين التيارين تياران نازيان أو فاشيان مما يعتبران اكثر خطرا على البلاد حتى من الحكومات المصرية الموالية للاحتلال البريطانى .

ثالثا : ان هذا التوجه اليهودى الأجنبى للحركة الشيوعية كانت له مناسبة أخرى من منتصف الثلاثينيات ، وهى الغاء الامتيازات الاجنبية واستعادة مصر سيادتها الكاملة على التشريع والقضاء . وهذا الأمر جعل الأجانب المقيمين فى مصر يتوجسون خيفة من ضياع امتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ويحذرون من الأنشطة السياسية المصرية التى من شأنها التأثير على القرارات السياسية للدولة مما يمس مراكز هؤلاء الأجانب . وبدأوا يسعون لأن يكون لهم دور ما فى الحركة السياسية المصرية ويشجعون عددا من أفراس الرهان منها الحركة الشيوعية ، وحسبهم منها أن تكون ركيزة لمقاومة التيارين الاسلامى والقومى وهما تياران شعبيان ، وان تكون بوتقة لتذويب الشعور المصرى بالتميز والاختلاف عن

الأجنبى .

رابعا : بدا لى أن جزءا من الصراع السياسى داخل الحركة الشيوعية ، كان مصدره سعى الأجانب اليهود لاستبقاء هيمنتهم عليها ، وسعى بعض الشباب الوطنى لتوجيه الحركة وجهة بعيدة عن نفوذ الأجانب بها .

ومن جهة أخرى فقد اغرانى النظر فى تلك الوقائع بالتنقيب عن اساليب العمل السياسى والتنظيمى التى مورست وكيف امكن لقلة اجنبية يهودية فى ظروف صعبة للغاية ان تسيطر هكذا على حركة تضم مصريين على أرض مصر وتستبقى نفوذها حتى بعد تهجيرها من مصر . وهى قلة ليس لها نفوذ فى الحكم يمكنها من استخدام ادوات الحكومات فى السيطرة اننا هنا أمام تجربة يمكن أن نستخلص منها دروسا كثيرة فى فن السياسة .

وفى ١٩٨٤ صدر كتاب « مستقبل النظام الحزبى فى مصر » للأستاذ محمد سيد أحمد ، وجاء به ، « لابد أن تستوقفنا حقيقة أن ابرز الذين أعادوا تأسيس الحركة الشيوعية المصرية فى السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية كانوا من اليهود بالذات ، ولا أشك فى اخلاص هؤلاء اليهود ، وكان العديد منهم اصدقاء شخصيين لى ، ولكنى أقول أن ثمة سؤالا لابد أن يطرح حول الدافع إلى تحركهم فى ذلك الوقت تحديدا ، وتصعب نسبة هذا التحرك إلى الصدفة فقط ، فهل كان الدافع هو إنشاء حركة مستقلة للطبقة العاملة المصرية كما كانوا يدعون وهم بعيدون كل البعد عن بيئتها ؟ أم كان الدافع الدفين غير المعلن ، ربما حتى لأنفسهم ، هو اطلاق حركة لدى الرأى العام المصرى والمثقفين الوطنيين والشباب المتحمس ، كفيلة بحمايتهم كجالية فى وجه توجه العديد من هؤلاء إلى النازية ، والسؤال ذو أهمية ذلك أن هؤلاء اليهود كانوا لابد من أن يطبعوا التنظيمات الشيوعية وقت تأسيسهم لها بطابع خاص ، ثم أشار إلى حادثة أكدت لديه حرص العناصر اليهودية فى الاحتفاظ بمواقع القيادة وفرض الوصاية ، وإن هذا العنصر عاق الحركة الشيوعية وصار عنصر مدمرا مع تأسيس دولة اسرائيل .

وفى ١٩٨٥ نشر سعد زهران كتابه « فى أصول السياسة المصرية » ذكر به « أن بريطانيا بعد ١٩٣٦ كانت شجعت أشكالا من النشاط الجماهيرى المعادى للفاشية بين الجاليات الأجنبية ، ونهض بهذه المهمة مجموعة من الأجانب والمتمصرين غالبيتهم من اليهود الماركسيين الذين اجتمع لديهم حافز الخوف من هتلر مع القدرة على استخدام الماركسية » . كما ذكر أن الحركة الشيوعية نشأت مقسمة متنافسة تنظيماتها ومتنابذة دون سبب واضح ، وإن غالبية القيادات والكوادر المسئولة كانت من الأجانب واليهود خاصة حتى رحل عدد كبير منهم فى سنة ١٩٤٨ وإن بعضا ممن ترك مصر ظل يمارس نفوذا قويا على بعض القيادات المصرية لم تكن فى مستوى يؤهلها من مساجلة القادة المحترفين من اليهود الأجانب « المدربين على استخدام النظرية وتطويع نصوصها لخدمة توجهاتهم ويتوفرون على امكانيات هائلة ، ولو يترددون فى استخدام الضغوط المادية والاغراءات الحياتية » ... « وفى أواخر ١٩٤٧ بعد قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والتأييد الفورى الذى حظى به القرار من جانب تلك القيادات الأجنبية

التى يغلب عليها العنصر اليهودى ، بل وحماستها بالتمهيد للقرار ، والاندفاع فى تزيين فكرة إقامة دولة صهيونية على ارض فلسطين ، والاستعداد للاحتفال بمولد تلك الدولة ، كل ذلك عمق الهوة التى تفصل القيادات الأجنبية عن قواعدها المصرية » ، وذكر أن الحركة الصهيونية العالمية وفقا لتقاليد اللعب على أكثر من حصان والظهور أكثر من وجه ، وكانت تقف بقدم فى المعسكر الامبريالى العالمى ، وبقدم أخرى فى معسكر اليسار العالمى الأوربى ، ثم يشير فى موضع آخر من الكتاب إلى النفوذ القوى الذى تتمتع به اليهودية العالمية فى أوساط اليسار الأوربى الاشتراكى والشيوعى على سواء ، وفى الامميتين الثانية والثالثة معا ، وأن السوفييت كانوا يرون صالحا لهم طويل الأمد فى إقامة دولة اسرائيل عسى أن تخلصهم من هذه الأقلية المكلفة التى تبلغ خمسة ملايين يهودى روسى .

وعندما يقال اليهود الأجانب فى الحركة الشيوعية فى مصر ، يقفز اسم كورييل كرمز وعلم وكأكبر شخصية فى هذا المجال ، لذلك كان من الطبيعى أن يحتفل المهتمون بقراءة مانشر من « أوراق هنرى كورييل » والسؤال هو ماذا نرى فى هذه الأوراق مما يمس موضوعنا هذا ، الوجود اليهودى فى الحركة الشيوعية فى مصر ، نفسانى بشرى للدور الذى قام به .

وأول ما يراه القارئ فى مذكراته اعتذار كورييل عما عسى أن يوجد من نقص لأن هذا هو كتابه الأول يكتبه وهو فى الثالثة والستين ، وهو لا يجد أصعب على نفسه من الافصاح عما يريد « لأن الأوضاع المركبة قد يساء فهمها حين يشرحها عجوز مقتلع من جذوره » .

١ - وهنرى كورييل حسب ما كتب عن نفسه من أسرة يهودية نزعت إلى مصر من أسبانيا حوالى ١٨٥٠ ، ولد بقصر بالزمالك سنة ١٩١٤ من أب صاحب بنك وأم يهودية ولدت فى استانبول وعمدت نصرانية ، وعمدت أولادها سرا ، وانتحلت الأسرة الجنسية الايطالية مدعية نسبها إلى مدينة ليفورن التى كان احترق ارشيف المواليد والوفيات بها ، وسبب انتحال الأسرة للجنسية الايطالية أن تتمتع فى مصر بالامتيازات الأجنبية ، فهى أسرة حديثة عهد بمصر اقتلعت من أسبانيا واختارت عيش الأجانب فى مصر التى نزحت إليها قبل مولد هنرى بستين سنة ، واصطنعت نسبا للايطالية تعيش به فى مصر ، وكانت عادة الأسرة أن ترسل شبابها إلى فرنسا يتعلمون هناك .

ولما أجل سفر هنرى إلى فرنسا فى ١٩٣٠ بسبب الأزمة الاقتصادية ارتاع وقال فى مذكراته « كان من الصعب على يهودى ايطالى تخرج من مدرسة فرنسية أن يجد نقطة ارتباط حقيقية فى بلد مسلم ، كانت فرنسا هى الوطن الوحيد الذى شعرت بالارتباط به ، بعد أن فقدت ايمانى مبكرا » ، ولما قامت الحرب تطوع فى الجيش الفرنسى سنة ١٩٤٠ ولكن لم ينفذ هذا التطوع ، وفى موضع آخر يقول أنه فقد ايمانه فى سن مبكر ، فقد كان حسب قوله يهوديا فى مدرسة كلها مسيحيون فى بلد كله مسلمون ، فأدرك من هذا « نسبية العقائد » .

ونحن نلمح فى هذا التكوين انسانا مقتلع

الجذور ، ذا تكوين وجدانى وتربوى خاص جدا ، لذلك يمكن أن نفهم جيدا قوله « أن العديد من الغرائز ينقصه » . ويتساءل عما إذا كان يحتاج إلى القول بأنه لم يشعر بنفور فى مواجهة عملاء المخابرات الانجليزية ، وإن كان حسب الأمر بأنه لا يستطيع اقامة علاقات بالتقدميين المصريين وهو متورط مع الانجليز ، فأموره تتشكل وفقا لحساباته دون دخل لأى عواطف ، أو « غرائز » مثل هذا التكوين الوجدانى يتلاءم بشدة مع انشطة الاستخبارات .

٢ - ننظر إلى وجهة نظره فى الظرف السياسى الذى رآه فى مصر فى النصف الأخير من الثلاثينيات ، وهى ذاتها الرؤية التى حركت شباب الأجانب المتمصرين للعمل السياسى فى ذلك الوقت ، وكورييل واحد منهم ، يقول أن السياسة الانجليزية حتى ١٩٣٥ كانت تستند إلى حماية مصالح الاقليات الأجنبية ، فلما بدأت تواجه الخطر الايطالى والألمانى فى سنة ١٩٣٥ أجرت تغييرا هو « التخلى الكامل أو شبه الكامل عن هذه الأقليات الأجنبية » ومحاولة التوصل إلى تسوية مع الوفد ، وهذا مكن الوفد من أن يفرض على الأجانب اشراك المصريين معهم فى مشروعاتهم .

ومن ناحية أخرى صارت الحركة الوطنية فى مصر فى ذروة الاضطراب حسبما يذكر كورييل لأن هناك عناصر « ستتحالف معظمها مع النازيين والفاشيين » .

ثم يتعرض للأجانب فيقول أن اليونانيين فى مصر كانوا يناضلون داخل جالياتهم ، وهناك فرنسيون وانجليز كانوا يعملون فى أحزاب بلادهم، ولكن هناك الآخرين وهم أساسا يهود من جنسيات مختلفة « لم يتأثروا كثيرا بالمشكلات الوطنية الداخلية وكانوا بالطبع ينفرون من الفاشية التى فتنت الكثير من الوطنيين المصريين » .. ومثل هذه التغيرات كان يشار بها فى الأدب الماركسى وقتها لمصر الفتاة والأخوان المسلمين ، ثم يقول كانت الشيوعية هى الجانب الوحيد الذى يعترف بهم اليهود كمصريين .

وكورييل لا يرى غرابة فى وجود هؤلاء فى السياسة المصرية ، ولا يرى غرابة فى دوافعهم ، بل يجد الغرابة فى العقد التى كانت لدى بعض الشيوعيين من وجود هذا القسم اليهودى من الأجانب فى العمل السياسى المصرى أما أن يقوم هؤلاء بوضعهم الأجنبى المتميز وبدوافع تبدأ بكونهم جاليات أجنبية ، على رأس تنظيمات سياسية مصرية تقاوم حركات شعبية اسلامية وعربية مصرية بإسم أنها حركات فاشية فهذا ليس غريبا لدى كورييل ، ونحن نلحظ هنا أن الأسباب التى ساقها كورييل واقعية وأن نظرته تنسجم مع وضعه هو وزملائه بوصفهم اناس مقتلعى الجذور ، ولكن الغريب أن يوجد من بيننا نحن من ينظر إلى الأمور بنظرة هؤلاء .

ويتفق مع وجهة كورييل نوع نشاطه السياسى فى تلك الفترة وقد أورد ملاحظة على نوع نشاطه كانت تفوت على كثير من المهتمين بهذا الأمر ، إنه يقول إن كانت المهمة الرئيسية للشيوعيين الأجانب

والمصريين هى « الدعاية لأفكارهم ومضاعفة عدد الأشخاص الذين يعتنقون الشيوعية كمذهب مجرد لا تزال تطبيقاته العملية مبهمة على أقل تقدير » . فكان النشاط يتعلق إذن بدعوة مذهبية أكثر مما يقوم به كبرنامج سياسى ، يتعلق بترويج ايديولوجى فى الأساس وأولوية هذا الأمر هنا تتفق مع الوجهة الأجنبية اليهودية من السعى لتكوين منطقة ايديولوجية فى السياسة المصرية وبين الشباب ، منطقة تصلح مكانا وموئلا للوجود الأجنبى فى السياسات المصرية كما نلحظ الوجهة الأجنبية أيضا فى ترتيب الأولويات بالنسبة للسياسة الدولية ، إذ تعلقت اهتمامات رئيسية ، ضد العدوان الايطالى على الحبشة ، ضد عدوان اليابان على الصين ، ضد فرانكو فى أسبانيا ، إن الأولوية هنا رسمت على أساس العداء للفاشية ، ولدول المحور بخاصة وليس العداء للاستعمار بعامة كما رسمت فى إطار منظور أوروبى وليس من منظور شرقى .

٣ - إننا فى قراءاتنا لهذه الأوراق نجد أن كورييل يرد قيام الحركة الشيوعية فى مصر إلى عوامل خارجية فى الأساس وليس إلى العوامل الداخلية والتفاعلات الاجتماعية التى يعتبرها المنهج الماركسى أساس ميلاد الظواهر وتغيرها ، يقول كورييل أن تحقق ميلاد الحركة الشيوعية فى مصر جاء فى ظروف هى : العدوان النازى على الاتحاد السوفييتى فى يونيه سنة ١٩٤١ ، وجاءت فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وانتصار الروس على الألمان فى ستالينجراد فى فبراير ١٩٤٣ ، فهى ثلاثة أسباب منها سبب مصرى داخلى واحد ، هنا تحكمت النظرة الأجنبية فى ادراك صاحب المذكرات لعوامل الظهور .

ومن أهم ما يشير إليه كورييل فى نشاطه السياسى خلال الحرب انشاء مكتبة الميدان التى كانت توزع الكتب الماركسية لتسهم بها فى نشر هذا الفكر ، ويقول أنها قامت بدور كبير كحلقة اتصال ، لأن مصر كان بها نحو مليون من جنود الحلفاء بسبب الحرب ، وكانت المكتبة تتلقى كتبا بكل لغاتهم وهم فرنسيون وانجليز واستراليون ونيوزيلنديون وسنغاليون ويونانيون وبولنديون ويوغسلافيون وفلسطينيون ويهود ، وذلك خلاف الكتب الألمانية والايطالية التى كانت توزع في وحدات اليهود داخل معسكرات الاعتقال ، ويمكن للقارئ أن يعجب بالنسبة لإمكان القيام بهذا النشاط بين الجنود فى غفلة عن أجهزة الاستخبارات البريطانية ، التى يعترف كورييل فى مجال آخر بأن كان لها اهتمام بالنشاط المعادى للفاشية الذى يقوم به اليهود والماركسيون فى النوادى الثقافية كالنادى الديمقراطى .

وهذا التوجه الأجنبى يشير إليه كورييل فى وضوح بالنسبة لمجموعات من زملائه كان هدفهم تكوين مجموعات من الشيوعيين الأحسن اعدادا من الآخرين وتتويج هذه المجموعة بإعتراف من الدولية الشيوعية ، وهو فى مناسبة أخرى عن حديثه عن الوحدة التى جرت فى ١٩٤٧ بين الحركة المصرية للتحرر الوطنى ومنظمة أسكرا يقول « من الآن فصاعدا أصبحت جميع القوميات ممثلة بدرجة

كافية » ولا يدرى القارئ هل كورييل يتكلم هنا عن جماعة دولية أم عن حزب مصرى المفروض أن يضع برنامجا لتغيير الأوضاع المصرية وأن يسعى للوصول إلى حكمها لتطبيق برنامجه أو تحقيق ما يراه من أهداف عامة كبرى ، وهل يمكن أن تقوم حركة سياسية تقود مصريين ويمكن أن تصل للحكم وتكون ممثلة لجميع القوميات بدرجة كافية ... أليس هذا تحقيق أمثل لمشروع كرومر الذى أعده ودعا إليه فى أوائل القرن لتحكم مصر مجالس تمثل الأجانب بحسب أن مصر فى رأيه جماعة دولية ... أننا نثير هذه الأسئلة حتى يمكن لمن يهمه الأمر أن يفرغ قليلا لبحث (مفهوم الجماعة السياسية بمصر فى نظر كورييل) .

٤ - وأثناء الحرب كان لكورييل وتنظيماته السياسية نشاطها مع من يسميهم « يهود فلسطين » وهى عبارة لا تلتبس لدى القارئ المصرى والعربى فهى لا تعنى لديه غير الصهاينة فيما يبدو والفرقة التى كونوها أيام الحرب لتعمل مع الحلفاء، وهو العمل الذى أكسب الصهاينة خبرة وتدريبا استخدموه بعد الحرب فى طرد الفلسطينيين العرب وقتلهم وتذبيحهم حتى نشأت دولة اسرائيل ، كما استغلت فى قتال الجيوش العربية ومنها الجيش المصرى فى ١٩٤٨ .

يذكر كورييل أن المجلة المعادية للفاشية التى أصدرتها « الحركة المصرية للتحرر الوطنى » كانت موجهة إلى معسكرات الاعتقال باللغة الألمانية وقام بتوزيعها أيضا الجنود اليهود والفلسطينيون ويبدو أن مثل هذه الأنشطة وغيرها هى مما جعل الحزب الشيوعى الفرنسى يتهم كورييل بالعمل مع المخابرات البريطانية حسب ذكر كورييل فى هذه المذكرات .

مظاهرات ضد السامية

ويشير كورييل أيضا إلى أن « الأتحاد الديمقراطى » الذى أنشأه الماركسيون كان يعقد اجتماعاته الأولى فى مركز محفل ماسونى ايطالى ، فالماسنيون أعداء منطقيون للفاشية التى تضطهدهم وقد أصبح بعضهم مناضلين شيوعيين .

بهذه الرؤية ومن هذا الموقف ينظر كورييل إلى المظاهرات الشعبية الكثيفة التى جرت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ بمناسبة ذكرى وعد بلفور وتضامنا مع شعب فلسطين فى جهاده ضد الصهيونية يقول كورييل فى وصف ذلك اليوم : « حاول الأخوان المسلمون بتحريض من الامبريالية والحكومة المصرية اثارة المظاهرات المعادية للسامية وقاموا بالفعل بمذبحة حقيقية فى حماية البوليس ، ولكن الحركة المصرية للتحرر الوطنى استعدت لهذا اليوم وكشفت هذه المناورة » ..

ويذكر فى تقرير آخر كتبه فى ١٩٥٥ عن حرب فلسطين : « أعلنت الأحكام العرفية فى البلاد فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ وبدأت الحرب الظالمة ضد دولة اسرائيل » ويصف هذه الحرب بأنها : « الحرب الاجرامية » وإنها حرب امبريالية ظالمة .

٥ - بقيت بعض نقاط سريعة ، فهو يعتبر أن اعتقاله أثناء الحرب كان أول غوص له فى واقع السياسة المصرية ، فقد عرف فى تلك الفترة إلى أى مدى يكره المصريون الانجليز ، وهكذا فإن أبجدية السياسة المصرية فى ذلك الوقت عرفها كورييل وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ، وعلق على هذا بقوله : « إن كان هدفهم هو النضال ضد

المحور وإذا كانت انجلترا تقاتل ضد المحور وينبغى مساعدتها ، فإن ذلك سيؤدى إلى حرمانهم من اهتمام الرأى العام المصرى ، لذلك وجد الطريق الأمثل هو اتخاذ موقف ثابت ضد الامبريالية ونشر الشعور بالحب نحو الاتحاد السوفييتى » أننا عندما نقرأ نص حديثه (ص ١٠٧) هنا نجد أنفسنا ازاء عقل حاسب مجرد ليس فيه عاطفة انتماء مرئى أو عاطفة كراهية ثابتة إلا ضد المحور ، أما العداء للامبريالية فهو خطة ووسيلة وحب للاتحاد السوفييتى واطلاق اسم الحركة المصرية للتحرر الوطنى هو ادخال فى هذه الحسابات لولا أن المصريين أضفوا عليها من صواب موقفهم .

وهو يصوم مع صائمى رمضان فى المعتقل لأن حديث الشبعان لا يحرك وجدان الجائعين ، ويفكر تحت ضغط الهجوم الألمانى على مصر أن يتمصر بأن يعتنق الاسلام ثم يعدل اعتزازا بنفسه ، ثم هو يختار لحركته الشيوعية اسما بعيدا عن هذا اللفظ لأسباب منها أن الدعاية تصور الشيوعية مرادفا لأكثر المبادئ شذوذا ، ويعتبر من أسموا تنظيمهم صراحة بإسم الحزب الشيوعى المصرى يرتبكون غلطة سياسية عميقة وهى خداع الجماهير فمنطقه أن من يُخفى هويته لا يخدع الجماهير ومن يجهر بها يخضع الجماهير ، وعلى كل حال ليعد كورييل من أكبر من أرسى تقاليد التقية فى العمل السياسى فى مصر وهو اخفاء الهوية ويذكر أنه هو من أقترح فصل السودانيين عن التنظيم المصرى ليقيموا تنظيمهم الخاص وذلك بغير رضاء من السودانيين .

إن كان كورييل رجل عمل وتنظيم ، ومثل هؤلاء يغلب عليهم العمل الصامت أو حتى الكلام الصامت ، أى الحديث الذى يهدف إلى احداث آثار عملية محددة فى كل ظرف محدد ، وما جعل فى حديثه بعض الايضاح لنا أنه طال به الأمد بعيدا عن مصر والمصريين فصار حديثه كأنه موجه فى الأساس لقارئ غير مصرى بمراعاة المواصفات الخاصة للتكوين الفكرى للرأى العام المصرى .

وعلى كل حال فإن أوراق كورييل تتضاف إلى نراجع الحركة الشيوعية فى مصر من حيث بيان الأجانب واليهود بها فى زمن نشأتها ونموها خلال الأربعينات ، وعسى أن يكون فيها ما يؤكد النتائج البحثية التى أوردتها فى بداية هذا الحديث وما يؤكد شهادات الاستاذين الكبيرين محمد سيد أحمد وسعد زهران وفقا لما اثبتاه بحكم تجربتهما الطويلة الصادقة وأن الدراسة التى قدم بها الأستاذ الدكتور رؤوف عباس كتاب «أوراق هنرى كورييل » تتميز بدقة الاستخلاص والموضوعية المفرطة وعمق التناول وبها يضيف إلى المكتبة التاريخية المصرية عملا جادا رصينا كعادته فيما قدم من قبل .

كل ما أريد أنهى به حديثى أننا قد نختلف ونتصارع حول قضايا كثيرة ولكن ينبغى أن ندرك أن للفكر والممارسة السياسية فى اطار الجماعة حدودا كحدود الوطن الجغرافية لايجوز تجاوزها ولا انتهاكا ، ومع الاحترام الصارم للاطار العام للجماعة الوطنية ومكوناتها الأصلية فلنختلف ، ولاتثريب .

ابريل ١٩٨٨

مع الاحتفال بالعيد المئوى
للهـــلال تصدر

موســـوعة عصر التنـــوير

---

١٠٠ كتـــاب
فى ١٠٠ عـــام



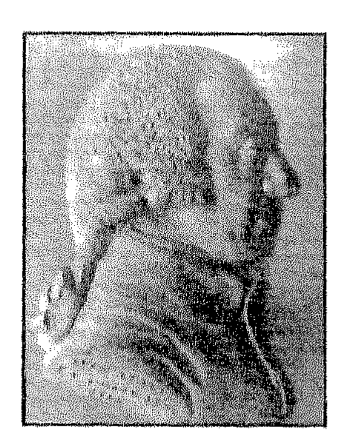
السنة الأولى من الهلال

ثـــروة الأمم

بقلم : د. إسماعيل صبرى عبد الله



اسماعيل صبرى عبد الله



آدم سميث

تواضع الاقتصاديون منذ القرن الماضى على أن آدم سميث هو أبو علم الاقتصاد .. ويبدأ هذا العلم عندهم بنشر كتاب سميث الكبير (مبحث أسباب ثروة الأمم) فى ١٧٧٦ أى قبل ٢١٠ أعوام .. وانفرد كارل ماركس فى القرن التاسع عشر بعرض أعمال قيمة فى الاقتصاد لمؤلفين عاشوا وكتبوا قبل سميث بكثير .. وبعد تجاهل طويل لا مسوغ له اكتشف الاقتصاديون الأهمية العلمية لما نشره الانجليزى بيتى أو الفرنسى كاتنيون .. وقد توسع شومبيتر فى كتابه الجامع (تاريخ التحليل الاقتصادى) فى تقديم السابقين لسميث .. ورغم كل ذلك ظل الذائع فى هذا المقام أبوة سميث .. ولكن (الأبناء) لم يأخذوا عن الأب إلا جانبا واحدا من فكره لم يكن المقصد الأساسى من مؤلفه المذكور جانب حرية التجارة والصناعة ..

وحقيقة الأمر هى أن قضية « ثروة الأمم » كانت موضع اهتمام متزايد منذ ظهور الدولة القومية الحديثة المستندة أساسا الى أسلوب الانتاج الرأسمالى على أطلال العلاقات الاقطاعية .. لقد كانت الرأسمالية الناشئة تضيق بما سمى « المدن الحرة » أى المتحررة من سلطة الاقطاعيين ، وتطمع فى توحيد أرض الدولة فى سوق واحدة يتحرك فيها العمل ورأس المال والسلع من مكان لآخر بلا قيود .. وظهر فى بعض الأقطار الأوربية (بريطانيا ، فرنسا ، أسبانيا) تحالف بين « البورجوازية » - ومعناها الحر فى أعيان المدن - والملك ، عمل على تحويل سلطات الاقطاعيين الى امتيازات ومخصصات مالية فى اطار حكم ملكى مطلق .. وكان الناس فى البداية لا يميزون كثيرا بين خزانة الدولة وأموال الملك الخاصة .. ومن ثم كان الطبيعى أن يظن الكتاب فى تلك المرحلة البدائية أن ثروة الأمة تقاس بمقدار ما فى خزائن الملك أساسا - والناس عامة - من ذهب وفضة .. ولكن سرعان ما تنبه بعض الكتاب لقصور مثل ذلك التفكير .. فكتب الفرنسى بودان - واضع اسم الاقتصاد السياسى - أن ما كان الناس يعانونه فى أواسط القرن السادس عشر من غلاء متزايد يرجع الى كثرة الذهب والفضة فى غربى أوربا على أثر نهب مناجم العالم الجديد .. وكان أخطر ما تضمنه كلام بودان أن الذهب والفضة يفقدان من قيمتهما اذا تزايدت الكميات المتاحة منهما فى الأسواق .. وهكذا بعد أن كان المعدنان الثمينان المقياس الأخير للقيمة هبطا الى مستوى أى سلعة تتراجع قيمتها بزيادة المعروض منها .. ومن ثم تعين البحث عن سبب آخر لثروة الأمم .. وبدأ الطبيب الفرنسى كيناى وأصدقاؤه المسمون بأنصار حكم الطبيعة (أو الفيزوقراط) بالقول بأن ثروة الأمم تقاس بحجم ما تنتجه من سلع ورأوا أن الزراعة وحدها تنتج سلعا جديدة تماما .. وذهب كتاب آخرون - فى ضوء تقدم العلوم الطبيعية - الى أن « المادة لا تفنى ولا تستحدث » أى أن الانسان لا يخلق شيئا من لا شىء .. ولكنه يحور ويشكل ما يحيط به فى الطبيعة ليصبح صالحا لإرضاء حاجات ورغبات المجتمع .. وبالتالى كان الانتاج بالمعنى العلمى خلقا للقيمة وليس خلقا للسلعة .. وفى ضوء هذه النظرة توصل عدد منهم الى فكرة أن العمل وحده عصب الانتاج .. فالمواد الأولية موجودة فى الطبيعة ، ومستلزمات الانتاج وكذلك الآلات انتاج لعمل سابق .

أهمية العمل

وكان لآدم سميث فضل العرض الأكاديمى المتكامل لنظرية « قيمة العمل » وكيف أن قيمة أى سلعة هى فى التحليل قيمة العمل الذى هيأها لاستخدام المجتمع .. ولم

يكن عرض سميث لتلك النظرة مرضيا تماما .. فتولاه من بعده ريكاردو بالتمحيص والتحديد .. واكتملت النظرية تماما على يد ماركس .. ولذلك فإن أهم ما جاء به سميث كان أمرا آخر يتمثل فى بداية الاهتمام بمفهوم « انتاجية العمل » فقد شرح سميث أهمية التقسيم الفنى للعمل - ومن المعروف أن التقسيم الاجتماعى للعمل يعنى قيام فئة معينة بأعمال معينة .. وقد عرفته كل المجتمعات ، وربما كانت صورته الأولى تقسيم العمل بين الرجل والمرأة .. ويعنى التقسيم الفنى للعمل أداء بعض الأفراد لجزء محدد من عملية انتاجية معينة .. فالصانع الحرفى - كالنجار مثلا - يصنع سلعة كاملة ، ولتكن فى مثلنا هذا مكتبا ، والعرفاء والصبيان يعاونونه فى عمله متنقلين من أداة الى أخرى دون تخصص ، حيث يرمى كل منهم إلى أن يكون نجارا يعرف الصنعة كاملة فى يوم ما فى المستقبل .. أما انتاج نفس المكتب فى مصنع للأثاث فإنه يقوم على أساس عدد كبير من العمال يؤدى كل منهم عملية واحدة كالنشر بالمنشار أو الدهان .. ثم فى مرحلة لاحقة يصل التقسيم الى وجود العامل الذى لا يفعل شيئا إلا دق مسمار أو مسمارين فى موضع محدد من قطعة خشب تمر أمامه وهو ثابت فى موقعه .. وقد ضرب سميث مثلا من مصنع للدبابيس وأثبت أن هذا التقسيم الفنى للعمل يزيد الانتاج دون زيادة فى عدد العمال .. ومن ثم نقول إنه أدرك ما نسميه منذ بضع عشرات من السنين « انتاجية العمل » أى قيمة ما يفعله العامل منسوبة الى أجره .

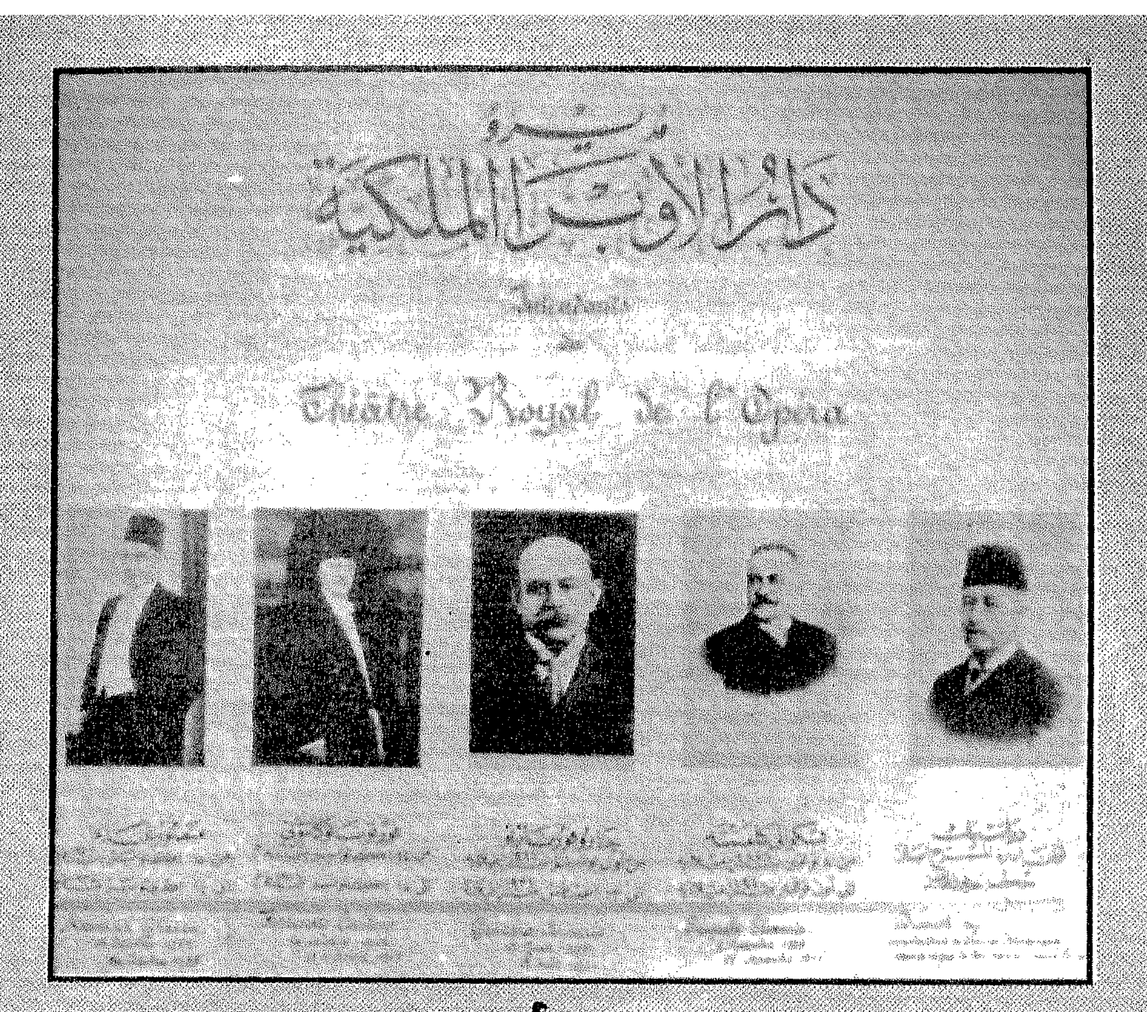
مهـارة الإنسـان

وفى عصرنا الحالى أصبح معدل الزيادة فى انتاجية العمل المقياس النهائى لثروة الأمم ، أى لقدرتها على الإنتاج .. فعصب الإنتاج هو العمل البشرى الذى يحول الرمال الى زجاج وبللور .. ولكن معدل انتاج العامل منسوبا الى أجره يختلف اختلافا عظيما من قطر الى قطر ومن جهة الى أخرى ، بل ومن فرد لآخر .. وحين ترتفع انتاجية العمل يكون ذلك نتيجة لعدة تغيرات اجتماعية تؤثر فى قدرة العامل : مستوى التغذية ، الحالة الصحية، الحالة التعليمية العامة ، حالة التأهيل التخصصى ، دوافع اتقان العمل من مادية ومعنوية .. كما أن الآلات المستحدثة لا تحل محل العامل كما يقال ، لأن كل آلة مهما تكن متقدمة وقادرة على إجراء عمليات ذهنية تظل جثة هامدة ما لم يحركها الإنسان بعلمه ومهارته الخلاقة .. وكفاءة أداء أكثر الحاسبات الآلية تقدما تتوقف على جودة ما يقدم لها من بيانات أعدها بشر .. وانما حقيقة الأمر أن الآلة تزيد من إنتاجية العمل .. والحاسبات الاليكترونية والأقمار الصناعية و« الإنسان

الآلى » أو الروبوت هى أحدث الحلقات فى سلسلة بالغة الطول من الأدوات التى اخترعها انسان ليزيد من انتاجيته .

ونود أن نقف قليلا عند تعبير « معدل الزيادة فى إنتاجية العمل » ذلك أن عدم زيادة انتاجية العمل هو الجمود والتخلف ، بل والتراجع فى جوهرها .. ولا يجوز وصف مجتمع بأنه يتقدم إلا إذا توالت الزيادة فى انتاجية العمل فيه من سنة الى سنة .. ومن ثم يفترض فى أى تنمية حقيقية لأى مجتمع أن تأخذ انتاجية العمل فيه فى الارتفاع وتستمر على منوال الارتفاع المطرد .. وهذا ما يعنى توافر الظروف الاجتماعية التى أشرنا اليها فى الفقرة السابقة ، كما يعنى المواءمة الكاملة بين التكنولوجيا وقدرات العاملين على استيعابها وعندئذ تصبح المقارنة بين اقتصاديات الأقطار المتقدمة منصبة على المعدل السنوى لزيادة انتاجية العمل .. وما يقلق الخبراء الأمريكيين حقا من اليابان ليس المنافسة فى مستوى سلع بعينها ، وانما حقيقة أن معدل زيادة انتاجية العمل أكبر فى اليابان منه فى الولايات المتحدة .

ذلك هو المقياس الحقيقى للتقدم والازدهار .. أما وفرة النقود فى جيوب الناس ، وزيادة السيولة لدى الجهاز المصرفى وكثرة الصفقات فانها تكون ظاهرة مرضية تهدد المجتمع كله لعدم الاستقرار وتصيب المستضعفين من أبنائه بأشق ظروف عيش .. فوفرة النقود التى لا تواكبها زيادة مماثلة لا فى الانتاج وحده ولكن فى انتاجية العمل تشكل حالة التضخم .. والتضخم مرض اذا ما انطلق من عقاله نما نموا مطردا وسريعا كالسرطان .. ومن طبيعة التضخم أنه يعيد توزيع الدخل القومى بين الطبقات لصالح الأغنياء وضد الفقراء .. فمن المعروف أن الأرباح تتزايد مع ارتفاع الأسعار.. وغالبا ما يكون معدل الزيادة فيها أعلى من معدل زيادة الأسعار .. أما الأجور فهى أصلا ثابتة ، ولا ترتفع إلا متأخرة عن ارتفاع الأسعار وبنسبة أقل من معدل زيادتها . كما أن التضخم يخل بكل الحسابات الاقتصادية ويتنافى جوهريا مع التخطيط .. وكل ذلك صحيح فى قطر مثل السعودية تراكمت لديها الأموال نتيجة بيع أجزاء من رأسمالها العينى (البترول) .. فما أدراك بقطر مثل مصر توافرت فيه الأموال من قروض أجنبية يتعين سدادها ، ومن عمل أبنائه فى الخارج الذى لم يضف شيئا الى الانتاج المحلى ، وليس ثابتا أن العاملين فى الخارج قد ارتفعت انتاجيتهم .. بل ان ثمة شواهد تدل على أن ارتفاع المرتب كثيرا ما يدفع متخرجى الجامعات لقبول أعمال تهدر المهنة التى تعلموها لأنها لا تحتاج الى تأهيل عال .



إلا فن الأوبرا ..

بقلم : د . على الراعى

ونحن نتهيأ لافتتاح مركز فنى كبير ، متعدد النشاط هو ما اصطلحنا على تسميته «دار الاوبرا» ينبغى أن نقف قليلا لنتأمل ما حدث فى حقل فنون الأداء الدرامى من تطورات بدأت مع ثورة يوليو ١٩٥٢ .

في حقل مسرح الكلمة قامت وأزدهرت فنون التأليف والتمثيل والاخراج ، في ميدان الرقص الشعبي قامت ثورة فنية وثقافية و - قبل هذا - اجتماعية ، جعلت من هذا الرقص فنا قوميا معترفا به ، ومقدراً ، في حقل عروض المهارة البدنية تجمعت من جديد فنون السيرك واصبحت قوة أدائية وترفيهية تملك القدرة على جذب الجماهير وتوسيع قاعدة متفرجي فنون التمثيل بالوساطة - التمثيل عن طريق العرائس - شق هذا الفن طريقا واضحا وعميقا في وجدان الناس ، صغارا وكبارا معا ، وفي ميدان الباليه استطاع هذا الفن الجميل أن يوصل نفسه ، ويحصل على تقدير جمهور كبير من المتفرجين المتحمسين ، واعداد متجددة من راغبي دراسته وممارسته إلا فن الاوبرا ! لقد ظل هذا الفن في مصر في وضع ثابت يقوم بعملية محلك سر . ويقدم عروضا متقطعة ، لم تحظ ابدا بجمهور عريض . وبعض أسباب هذا التوقف ترجع إلى طبيعة فن الاوبرا ، فهو فن غنائي خطابي يخرج من الصدر والحنجرة موجها إلى الاذن ، ولايعني كثيرا بالوصول إلى القلب . هو فن استعراض القوة في الاداء الصوتي - قوة وصلت إلى أعلى الذرى في الاوبرات العالمية ، وأصبحت فنا رفيعا جديرا بكل تقدير . ولكنه ظل دائما مقصوراً على الصفوة ولم يتعد حدود الارستقراطية الفنية . لم يحظ أبدا بشعبية الاوبريت ولا المسرحية الموسيقية الغنائية الراقصة وهو في مصر في وضع أكثر صعوبة . ذلك أن الجهود التي بذلت حتى الان لانشاء غناء اوبرالي مصري لم تحرز تقدما يذكر . ان هذا الغناء لايمس الوجدان المصري ولا العربي ، والمتفرج الذي يذهب ليشهد عروض الباليه أو حفلات الموسيقى العالمية ربما يضجر حين تعرض عليه ، اوبرا كاملة . أما المتفرج العادي فانه يضحك ويتندر ويميل إلى السخرية من طريقة الغناء التي هي في أساسها شيء مصطنع ، فالاوبرا تدعوك إلى عالم خيالي يغني الناس فيه الحوار بدل أن يتكلموه . هذا رأى قلته في السبعينات ، وكتبته يومها مجلة رزو اليوسف ، وقد عبرت عنه أخيرا بصراحة في ندوة اقيمت في «الاهرام» قبل اسابيع وحضرها وزير الثقافة فاروق حسني وقائد الاوركسترا يوسف السيسي والدكتورة ماجدة صالح ، التي كانت - انذاك - مديرة لدار الاوبرا ، ثم نحيت عن المنصب دون شرح ، أو اعتذار . كما حضرها عبد الله العيوطي المدير الفني للاوبرا والدكتور فوزي فهمي نائب اكاديمية الفنون ، ومحمد السلماوي المشرف على العلاقات الثقافية مع الخارج ، وفنان الباليه عبد المنعم كامل عبرت عن رأيي هذا ، فكأنما فجرت قنبلة ! اختلفت ردود الفعل اختلافاً بيناً بين الاعتراض التام والاعتراف المشوب بالحذر ، والرغبة في تلمس الاسباب ومحاولات التصدي للظاهرة .

وكانت ماجدة صالح أول المعترضين . ففى رأيها أن الأوبرا تحظى باقبال كبير بدليل ماحدث حين عرضت «عايدة» فى الاقصر والهرم ، أما وزير الثقافة فقد أوضح أن فن الاوبرا هو فن الخاصة ورأى أن عدم وجود المخرج الاوبرالى هو السبب فى عجز فن الاوبرا عن الوصول إلى الجماهير ، وقال يوسف السيسى إن الحل يكمن فى تعريب الاوبرات العالمية ، واشار إلى أن فن الاوبرا ليس غريبا على الوجدان الغنائى المصرى ، بدليل أن أقوى ممثلى هذا الوجدان ، فنان الشعب الكبير سيد درويش كان يبكى حين يشاهد الاوبرا ، وانه كان يسعى إلى السفر إلى ايطاليا لدراسة هذا الفن ، وكاد يفعل ، لولا أن عاجله الموت .

تقريب حقيقى لفن الأوبرا !

وقد رددت على هذه الاراء واحدا واحدا ، فقلت لماجدة صالح أن اقبالا كبيرا على حفلتين سياحيتين من حفلات الاوبرا لا ينهض دليلا على تقبل واضح ومطمئن لهذا الفن ، وقلت لوزير الثقافة إن مخرج الاوبرا لايصنع وجدان اناس لم يتعودوا هذا الفن ولم يتدربوا على تلقيه ، وقلت ليوسف السيسى أننى واثق من أن سيد درويش لو كان درس الاوبرا فى ايطاليا لعاد وفى حقيبته محاولات خلاقة لتقريب حقيقى لفن الاوبرا من الناس ، تقريب لا يقوم على مجرد ترجمة كلمات الاغانى بل يتناول الصياغة الموسيقية ايضا ، ويسعى إلى أن تكون نابعة بالفعل من الوجدان المصرى والعربى روحا وعاطفة وإن لم تهمل التكتيك العالمى .. قلت هذا متحاشيا ان ذكر – مع ذلك – أن اوبريت «الباروكة» الذى وضع موسيقاه سيد درويش ، وكان من أواخر أعماله ، قد شابه إلى حد ملحوظ روح غريب عن الوجدان المصرى ، جعل هذا الاوبريت بالذات يتراجع تراجعا ملحوظا فى قائمة الاعمال الكثيرة التى قدمها فنان الشعب ، مستوحيا روح مصر وتراثها وطريقتها فى الغناء والاداء .

وأغلب الظن أن سيد درويش كان جديرا بأن يصل إلى القرار الذى وصل اليه الاخوان رحبانى فيما بعد ، والذى يضع الاذن الشرقية وتراثها فى الغناء والموسيقى والشعر ، فى المحل الاول من الاهتمام ، ويضيف الى هذا التراث ماتطيق هذه الاذن تلقيه من التكتيك الغربى فى الغناء والموسيقى معا ، وهو كان خليقا – أيضا – بان يدرك – كما ادرك الرحبانيان – أن فن الاوبريت هو أقرب فنون المسرح الغنائى إلى روح الشعب وأن فرص نجاح أعمال اوبرالية كاملة فرص ضئيلة حقا ، لقد نجح مسرح الرحبانية في الوصول إلى الناس لانه افاد من كل محتويات الوجدان العربى ، قدم الاغنية العربية العصرية ، وقدم اغنيات من التراث ، قدم الموشحات القديمة ولحن شعر أبى نواس ، طوع الحوار العربى للغة المسرح واستخدم صيغة الاوبريت للتعبير عن هموم الناس مدافعا عنهم ، ضد الظلم والاستبداد ، ومن ثم كان هذا التقبل

الشعبى العارم لمسرح الرحبانية ، رغم حواجز اللهجة اللبنانية ، ومحلية الموضوعات المطروحة فى بعض الاحيان .

إن علينا أن نتريث كثيرا ، وندقق كثيرا قبل المضى فى محاولات تأصيل فن الاوبرا فى بلادنا وأولى بنا أن نعى الدرس الذى رعاه الاخوان رحبانى ، ووعاه من قبلهما محمد عبد الوهاب وهو أن الناس غير مستعدين لتلقى فن الاوبرا بصيغته الغربية الحالية ، وانهم – على النقيض – يقبلون فى جذل على فن الاوبريت ، إن هذه اشارة مؤكدة تضىء الطريق أمام كل من يسعى إلى أن يقام فن اوبرالى حقيقى فهذا الفن لن يقوم فورا ، وانما ينبغى أن تسبقه محاولات متصلة فى تقديم الاوبريت ، قد تتدرج فى العمق والصنعة بحيث تسلم يوما ما إلى تقديم الاوبرات الخفيفة ذات الموضوعات الشعبية المقبولة – كارمن مثل طيب لهذه الاوبرات – ومن ثم قد يقدم فن أوبرالى مصرى يستوحى الوجدان المصرى ، ويقترب كثيرا من روحه صيغة وموضوعا .

محاولات مقضى عليها !

وإلى أن يحدث هذا ، فان محاولات غرس فن الاوبرا الغربية ، فى التربة المصرية مقضى عليها بانعدام فاعلية ، بل هى تتعرض لما هو أخطر من هذا ، وهو التآكل ، بفعل اختفاء بعض العناصر الفنية ، كما حدث فى حالة الفنانة الراحلة أميرة كامل ، أو بانصراف بعض هذه العناصر إلى الغناء على الطريقة الغربية مثلما كان حال الفنانة عفاف راضى ، لقد أعلن الشعب المصرى رأيه فى الغناء الاوبرالى الغربى منذ الاربعينيات حينما قدم إلى مصر الفنان العربى ذو الصوت القوى العذب عبد الهادى البكار ، فغنى غناء أوبراليا مدة من الزمن واستمع اليه الناس قليلا ، ثم انصرفوا عنه وأخذوا يتندرون به وبغنائه ، ثم تدهور حاله فاذا به يقبل أدوارا فى السينما تسخر من ادائه الاوبرالى وتضحك الناس عليه ، تماما كما حدث فى حالة الفنان حامد مرسى – والقياس مع الفارق طبعا – فقد استخدم هو الآخر وسيلة اضحاك من الغناء الجهورى شبه الاوبرالى الذى كان يؤديه فى مطلع شبابه .

ان احدا لايصادر على التجريب والمحاولات المخلصة لغرس فنون جديدة فى التربة . غير أن التجريب ليس مقصودا فى حد ذاته ، وانما الذى ينبغى أن يهمنا هو ثمار هذا التجريب ، فان استجابت التربة وانبتت الزرع فهذا دليل واضح على أن البذرة صالحة والأرض مستجيبة وإن تعثر النبت ، فجاء ضعيفا ، أو غير مزدهر فقد وجب أن نقف من فورنا ونعيد الحساب .

المملكة العربيـة السعودية تشـهد

متحف الآثار والتراث الشعبى بالرياض دليل حى على حضارة الأجداد

● تشهد المملكة العربية السعودية ازدهارا في كل نواحي الحياة بفضل الإهتمام الكبير بالإنسان ، الذى يعد الثروة القومية فى هذا البلد العربى العريق .

ويجئ الاهتمام نتيجة لتراث عريق تتسم به المملكة منذ قديم الزمان ، حيث كانت الصحراء هى الوطن الأول لإنسان الجزيرة العربية ، فضلا عن أن حياة الصحراء تلك علمت الإنسان العربي الصبر وترويض النفس ، وكان إنسانها نموذجا حيا لمعطيات المستقبل الذى نعيشه الآن .

ولو ألقينا الضوء على هذه الحياة سواء فى مجال الفن والتراث ، أو فى مجال النهضة التى تعيشها المملكة ، أو فى علاقاتها المتميزة بمصر منذ مايقرب من ستين عاما ، فيمكن القول بأن العناصر المكونة لحياة الصحراء فى ضمير الفنان من سكان الجزيرة العربية ، قد إمتزجت ، وصنعت فكره ، وظهرت فى أعماله الفنية ، وفى أسلوب عمله ، وفى معالجة واختيار الإنتاج الفنى ، سواء كان فى العمارة ، أم فى الزخرفة وأعمال الصياغة والأدوات التى يستعملها .

ولنتوقف قليلا عند متحف الآثار والتراث الشعبى بمدينة الرياض العاصمة لنبرز فكرته التى نبعت من الاهتمام بهذا الجانب الحيوى فى حياة هذه الأمة فلقد كان الفنان العربى لا ينظر إلى فنه بمنطق العقل والتصرف المنطقى البعيد عن الإحساس الروحى ، بل من منطلق الحس المباشر الذى يهز الوجدان ، والذى لا يبعد أبدا عن بيئته وحياته وطبيعته .

وبنظرة واعية للمشاهد سوف يلمح ، تمازج الألوان والصدق الفنى فى مقتنيات « متحف الآثار بالرياض » وقد كان النشاط الآثرى فى المملكة العربية السعودية محدودا حتى عهد قريب ، ولم يعره علماء الآثار أهمية تذكر على مدى فترة طويلة من الزمن .

ولكن حكومة المملكة أولت اهتماماً خاصاً للمواقع الآثرية والتاريخية ، واتخذت عدة إجراءات فورية ومباشرة لوقايتها ، بينما ظل العمل متواصلاً فى التنقيب عن مواقع جديدة ، وكانت النتيجة أن برزت صورة ذات ملامح أوضح عن المملكة بمناطقها الخمس فى الأزمنة المختلفة ، وتجلت هذه الصورة وأمثالها فى متحف الآثار والتراث الشعبى بمدينة الرياض .

هذا المتحف يحتوى من الداخل على جزءين .

● متحف التراث الشعبى وله مبنى مستقل ، أول ما يصادف الزائرين ، وله تكملة فى فناء المبنى ، وفى الطريق بين مبنى متحف التراث ومبنى متحف الآثار أعد جزء تراثى مكمل ، حيث نصبت بعض الخيام ، وقسمت داخليا وفق ما كان متبعا فى الماضى ، من حيث الأماكن المخصصة للرجال ، وتلك التى خصصت للنساء وأدوات القهوة ، وحفظ

تقدما وازدهارا فى كل المجالات

الماء وأماكن الاستقبال وغيرها ، مما يلفت المشاهد ويرى فيه عراقة الماضى وأصالته ، بالرغم من البساطة المتناهية .

أما مبنى متحف الآثار ، فقد قسم تاريخيا ، بحيث يشتمل على الموضوعات والمراحل التاريخية للمملكة . وقسمت على النحو التالى :

- تقديم عام لآثار المملكة .
- العصر الحجرى .
- النقوش الصخرية .
- نمو الحضارة .
- تأثير الجزيرة العربية على باقى المنطقة المجاورة .
- تطور الكتابة والكتابات العربية .
- عصر التجارة .
- العرب فى الخليج .
- طرق التجارة البرية .
- بالإضافة إلى معالم إسلامية مختلفة .



مهباش لطحن الحبوب وهرسها

ويضم مبنى متحف التراث مختلف المعدات والأدوات التراثية ، مثل أدوات صنع القهوة العربية، أبواب مزخرفة ، مجموعات من الحلى النسائية للرأس والقدم ، بعض الصناعات الخشبية - أثواب الرجال والنساء ، جرة ماء ، أدوات الإضاءة ، آلات موسيقية ، شداد الجمال ، بعض أنواع السجاد ، أسلحة مثل « الفرد » ، « الغدارة » والسيوف والخناجر وغيرها من الأسلحة التى استخدمها العرب فى ذلك الزمان .

ومتحف الآثار والتراث الشعبى بمدينة الرياض - كما أشرت - له أهمية لدى الدارسين ومن يودون الإطلاع على ماضى هذا البلد العريق .

وإذا كنا قد تحدثنا عن الماضى التليد للمملكة العربية السعودية ومدى تأثير تراثها على جيرانها ، وكيف أن هذا التراث يبين كيف عاش أبناء هذه المنطقة ، فإن وقفة متأنية لنتعرف على الحاضر السعيد للمملكة ، تؤكد لنا بالأرقام مدى ما تحقق وأنجز ، فإذا تركنا العنان للغة الأرقام تنطلق لتجسد ملامح الصورة بالأرقام نجدها تحتاج إلى صفحات كثيرة ولكننا نشير هنا إلى بعضها كنماذج وأمثلة حية .

فهناك أكثر من مليون خط هاتف فى مقاسم آلية سعتها ١.٥ مليون خط تخدم حوالى ٣٠٠ مدينة وقرية وأكثر من ٢٠ ألف هاتف سيارة و٣٠ ألف خط تلكس وشبكة ميكروويف وشبكة كوابل محورية .

كما تضاعفت الأراضى الزراعية أكثر من عشر مرات وبلغت أكثر من مليونين وثلاثمائة ألف هكتار

المملكة العربية السعودية تشهد تقدما وازدهاراً في كل المجالات

ومن أبرز ما تنتجه محصول القمح محققا اكتفاءً ذاتيا ، وفائضا للتصدير ، وسط مؤشرات تؤكد أن استمرار المعدلات التصاعدية الحالية للإنتاج ، بمعنى أن المملكة تستطيع أن تساهم بفاعلية فى تحقيق الأمن الغذائى الإقليمى وهناك بالمملكة مشروعات هائلة لتحلية المياه ، تنتج ما يقرب من ٥٠٠ مليون جالون من المياه المحلاة يوميا وقد سجلت التقارير الأقتصادية معدلات نمو مرتفعة فى ١٤٠٥/١٤٠٦هـ فى قطاعى الزراعة والمرافق ، وفى مجال التدريب ، كما ذكر التقرير فى قطاع الصحة أن عدد المستشفيات فى المملكة بلغ ١٥٥ مستشفى ، بطاقة إجمالية قدرها ٢٨,٢٦٩ سريرا ، وتزايدت إلى أكثر من ١٧٨ مستشفى بعد ذلك .

وقد تناول التقرير السنوى الدور الذى تقوم به الدولة فى دعم الزراعة ، والمزارعين ، فأشار إلى أن قروض البنك الزراعى السعودى بلغت خلال ٢٣ عاما ٢٠,٥ مليار ريال سعودى .

وقال التقرير إن دول مجلس التعاون الخليجى سجلت وحدها فائضا فى تبادلها التجارى غير النفطى مع المملكة بلغ نحو ٦٩٣ مليون ريال .

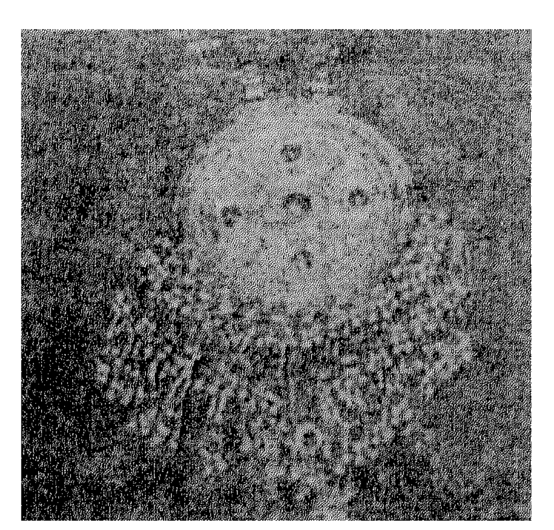
وتزايدت أعداد المناطق والمدن الصناعية ومن أبرزها الجبيل وينبع التى بلغ عدد العاملين بها نصف مليون تقريبا وتساهم فى الناتج المحلى الإجمالى بـ ١٣,٥ ألف مليون ريال .

كما تواصلت خطط تحديث القوات المسلحة بمختلف قطاعاتها وأجهزة الأمن على أرقى المستويات العالمية ، بما يعزز قدرة وإمكانات الوطن فى الذود عن سيادته وأمنه واستقراره ومقدساته ومنجزاته ، وتعتبر صفقة طائرات « التورنادو » من أحدث صفقات الأسلحة التى وقعتها المملكة مع بريطانيا ، واشتملت على ١٣٢ طائرة ، ضمن استراتيجية متكاملة ، لدعم القوات المسلحة ، وشراء أحدث أنواع الأسلحة والمعدات .

وحرصت المملكة على رعاية أبنائها وتمثل ذلك فى مجال الخدمات بشكل كبير ، وعلى سبيل المثال أنفق ١٢ ألف مليون ريال للمسنين والعجزة وأصحاب الدخول المنخفضة فى صورة معاشات ومساعدات بالإضافة إلى حرص الدولة على توفير السكن المناسب للمواطن ، ونرى أن عدد الوحدات السكنية قد زاد على ٥٧٧ ألف وحدة .

فى كل المجالات ومن بينها المجالات الرياضية والثقافية ، قدمت الدولة الكثير لأبنائها وهناك اهتمام خاص بالرياضة حيث بلغ عدد الأندية الرياضية ٢١ ناديا وأنشىء ٢١ استاداً رياضيا كما نشطت الحياة الفكرية فى المملكة ، نتيجة للتشجيع والدعم الكبير ..

وتواصل المملكة ازدهارها ، وتؤكد على علاقاتها العربية وعلاقاتها مع الدول الصديقة ، ولها دورها الكبير فى المحافل الدولية ، بما يحقق إسهاما فى النهضة ، وتحقيق كل الغايات والسبل التى تنشدها ، بفضل سياستها الحكيمة .



قلادة معلق فيها ريال عربي الفصوص من العقيق



الهلال
الهلال

أحدث وعاء استثمارى فى البنوك

للمصريين والعرب والأجانب

وحدة النقد الأوروبية ECU

عملة المستقبل



● تحقق لك اعلى العوائد الادخارية حيث تتراوح الأسعار للفترات المختلفة من ٩ - ١٠ ٪ سنويا .

● امامك إختياران للاستثمار بوحدة ECU

- الحسابات الجارية التى تصل قيمتها ٥٠٠ وحدة ECU فاكثر تتمتع بمعدل فائدة شهرى متغير يتمشى والاسعار العالمية .

- الودائع الثابتة لمدد مختلفة من شهر لسنة بحد ادنى ١٠٠٠ وحدة ECU تتمتع باسعار فائدة متميزة .

● يتولى البنك نيابة عن عملائه شراء وبيع وحدات ECU والشراء يتم بالعملات الأجنبية ، وهذا النظام يحقق سيولة كاملة لحائزة حيث يمكن تحويله إلى اى عملة اجنبية فى اى وقت .

● تعامل بوحدة ECU في جميع فروع البنك المنتشرة بجميع انحاء الجمهورية .

● العائد معفى من الضرائب .

البنك الأهلى المصرى

الثقة والضمان

الهلال

الجواهري وهوى الشعراء

نوفمبر ١٩٩٢ ● الثمن ١٠٠ قرش



اليابانيون قادمون

الأنثى من الحريم الى السيطرة !!

• سجل الهلال المصور •

١٨٩٢ - ١٩٩٢

٣٤٧٠ صورة فى ١٤٥٠ صفحة

تعبير صادق عن الحياة السياسية والاجتماعية
والفنية والأدبية في « مصر » فى ١٠٠ عام
يصدر فى جزءين - ثمن الجزء ٥٠ جنيهاً

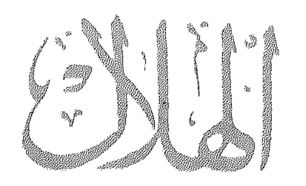
• موسوعة عصر التنوير •

أهم ١٠٠ كتاب فى ١٠٠ عام
الجزء الأول - الثمن ٣٠ جنيهاً

تطلب من مكتبة دار الهلال والمكتبات الكبرى

القيمة فى البلاد العربية	القيمة فى باقى دول العالم
السجل ٦٠ دولاراً	٧٥ دولاراً
الموسوعة ٢٥ دولاراً	٣٥ دولاراً

والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وترسل النسخة بالبريد السريع الدولى فى خلال ٤ أيام من استلام الشيك .



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج . م . ع . مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢١٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ٥ ,١ دينار ، المغرب ٢٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٥ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ١٢ دولارا – أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا – باقى دول العالم ٣٥ دولارا

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

قصة وشعر :



فنون :

دائرة الحوار :



شارك الشاعر العربى الكبير محمد مهدى الجواهرى فى احتفال الهلال بمرور مائة عام على صدوره ، وبرغم تقدم سنه فإنه آثر تحمل المشاق ، وحضر إلى القاهرة وكله شوق وحب حيث لم يزرها منذ عام ١٩٧١ .

كان حضور الجواهرى فى حد ذاته حدثا ثقافيا هاما ، حيث تجمع من حـوله محبوه وتلاميذه ، بل ان كثيرا من المتفائلين لم يكونوا يتصورون الرجل بهذا الحب الشديد للحياة ، وهذه الذاكرة الحديدية لقول الشعر وإنشاده ، بل ولتأليفه وقتما يريد أن يقول أو يتغنى به .

فور وصوله إلى مطار القاهرة ، وهو فى طريقه إلينا ، قال : أنا سعيد بأن آتى من أجل الهلال الذى كتبت فيه فى العشرينيات وكان هذا شرفا لى أن اكتب ضمن الصفوة من كبار المفكرين العرب ، وآتى اليوم لأرد الدين للهلال الذى تربينا على ما يضمه من ثقافة وفكر مستنير .

وأنشد بيتين من قصيدة يحيى بها الهلال

وأكمل الشاعر قصيدته - التى ننشرها بالهلال - كاتب العشرين برغم أن سنه قد تجاوز الثانية والتسعين ..

وكانت «ندوة الهلال» والتى عقدت فى الفترة من ١٣ - ١٧ سبتمبر الماضى مثالا للتفاعل الحقيقى بين المثقفين العرب وأثرت الفكر بكل مادار فيها من مناقشات ومداخلات ، ولهذا فسوف تطبع فى كتاب لتكون مرجعا لمستقبل الفكر برؤية محايدة لكبار مفكرينا ومثقفينا .

عـــزيــزى القــــارئ

صـــورة المســـتقبل ودرس الزلزال

هـــذا هـــو العدد الثالث من السنة الأولى فى المائة الثانية من حياة «الهلال» التى بدأت فى سبتمبر ١٨٩٢ وما زالت تمضى قدما نامية مباركة بإذن الله ...

وفى عدد أكتوبر الماضى استجبنا لرغبتك ياعزيزى القارئ فى القيام بسياحة طويلة متأنية فى الأعوام المائة الأولى التى قطعها «الهلال» حتى الآن فى رحلة حياته وحياة الأمة وحياة الثقافة المصرية والعربية والعالمية ..

وكانت استجابتنا لرغبتك ياعزيزى القارئ متمثلة فى العدد التذكارى الممتاز الذى استمعت فيه إلى الأصوات الأدبية ، وطربت فيه إلى صرير الأقلام العريقة التى خاطبتك بكلماتها الحكيمة من وراء السنين الطوال ، فإذا بتلك الأصوات القوية ، والأقلام المستنيرة ما زالت تخاطبك يا عزيزى القارئ الجديد ، كما خاطبت أسلافك القراء القدماء فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، ومن جاء بعدهم من قراء العقود الأولى من القرن العشرين .

ويستطيع «الهلال» وقراؤه أن يفخروا بأن ما احتواه عدد أكتوبر التذكارى قد أثبت بما لايدع مجالا للشك أن الطلائع المستنيرة التى ظهرت على صفحات «الهلال» فى العقود الماضية كانت ثاقبة الفكر ، عظيمة الأمل فى المستقبل ، قادرة بفكرها وأحلامها على مسايرة الأجيال وإحلال الجديد محل القديم ، وربط الماضى بالحاضر والمستقبل على هدىً وبصيرة ..

عزيزى القارئ .....

إن إقبالك الكبير على العدد التذكارى الممتاز الذى اقتصر على نشر نخبة من نفثات الأقلام فيما سلف من السنين ، قد أوحى إلينا بفكرة نعرضـها عليك ، ألا وهى إصدار عدد على هذا النسق ، ومن نفس هذه المادة العريقة التى لا تنضب ، فى مطلع كل سنة جديدة من

سنوات الهلال ، ففى أول سبتمبر من كل عام نصدر مثل هذا العدد التذكارى الممتاز .. فما رأيك ؟! اكتب إلينا برأيك، لأننا سنضع هذه الفكرة موضع التنفيذ إذا وجدنا منك تعزيزاً لها .

إن هذه الأعداد التذكارية إذا توالت عاما بعد عام تحولت إلى مراجع عظيمة القيمة للأجيال الجديدة والقديمة ، وجددت فى كل عام ذكريات الاحتفال الرائع الذى أقامته «دار الهلال» بمئوية الهلال وشارك فيه الشعب والصحافة وهيئات الثقافة ، وشاركت فيه الدولة متمثلة فى الرئيس حسنى مبارك ورجال المجالس النيابية والحكومة ، فكان احتفالا تاريخيا مهيبا لم يسبق له فى بابه مثيل فى العالم كله تقريبا ..

عزيزى القارئ ......

إن أمتنا هى أمة المواقف التاريخية الكبيرة والصمود للأحداث الجسام ، وقد تجلى معدنها ذاك فى شهر أكتوبر الماضى عندما فوجئت بالزلزال العنيف الذى كان مفاجأة بتوقيته وعنفه فى وقت معا ، ولكن الأمة سرعان ما أفاقت من ضربة الزلزال ، ومضت تضمد جراحها ، وتستأنف مسيرتها ، متخذة مما حدث عبرة ودرسا لتعديل ما ينبغى تعديله ، وإصلاح ما يجب إصلاحه ، وأخذ المستقبل مأخذ الجد الصارم ، فلم تعد التنمية وحدها هى هاجس المستقبل ، فلا بد أيضا من أسس منيعة راسخة لحماية التنمية من الكوارث الطبيعية ، وزلازل التحولات العاصفة ...

عزيزى القارئ ......

إن كل شئ فى العالم الآن يحاول أن يفتح صفحة جديدة على مشارف القرن الواحد والعشرين ، ولعلنا نكون قد وفقنا فى محاولتنا لفتح صفحة جديدة من «الهلال» تربطنا نحن وإياك بكل ما نرجوه فى المستقبل لأمتنا وأجيالها الجديدة ، وأحلامها المتجددة ..

«المحـــرر»

السيرة الذاتية للجواهرى

مذكرات .. طفل فى التسعين

بقلم د . محمد عبد العزيز الموافى

– ١ –

وجه عَفَّرَتهُ أحداث السنين .. وجه طفل فى التسعين !! صورة حزن دفين تلوح ظاهرة على ذاك المحيَّا ! نظرات نافذة قوية تشع من محجريه الغائرين! شعر أشعث وخطه المشيب . صوت جهورى متهدج ، يصدر كأنه دوى متصل ! ذلكم هو شاعرنا : الجواهرى ، الذى ما انفك حديث جيل كامل . يتغنى الملايين بشعره ! شرب من كئوس مجـده حتى الثمـالة ! كما ذاق الأمرَّين من منغصات هذا المجد ، فأحبه الكثيرون لشعره ، ويغضه الكثيرون لشعره ! وتفرق الناس فى أمره شيعا ، واختلفوا بشأنه اختلافا ضخما ، فمن معجب به إلى حد المغالاة التى لا تسمح بنقده ، إلى خاسف به الأرض راميا إياه بأبشع النعوت !

– ٢ –

وكان غياب التفسير المقنع لكثير من مواقف الجواهرى ، من أهم أسباب هذا التفرق والاختلاف فى أمره . ولذلك ألح عليه مريدوه بتسجيل ذكرياته ونشرها لعلها تزيل لبسا أو توضح غامضا ! ومنذ ربع قرن طلبت ذلك منه فأجابنى : « منذ عشرين عاما وأنا أُطالب من إخوان لى أن أدوِّن ذكرياتى . وحاولت العمل مرارا ، ثم مزقت ما كتبت ! لا لمجرد أن الأسلوب الذى أريده لها لم يعجبنى ، بل لأن تشابك الصور وتغالبها .. وخمولة صورة وعمق أخرى ، وعنف الثالثة ، وقبح الرابعة ، كان يطغى على التعبير لدىَّ . وصدقنى أن طلبك بالذات ، أعنى سؤالك عنها ، سيكون – بل كان فعلا – حافزا جديدا ، يضاف إليه شعورى بقصر المدة الممنوحة لى على صعيد هذا الكوكب المنحوس ... !! » .



وها هو ذا يصدر « مذكراتى » فى مجلدين كبيرين عن دار الرافدين بدمشق لتلقى الضوء على كثير من جوانب حياته وحياة وطنه وأمته ، خلال قرن من الزمان عصيب ! وقد صدّرها بقول ذى دلالة عميقة على رحلة الإنسان فى الحياة : ولدوا ، فتعذبوا ، فماتوا ... !! وأهداها « ... إلى من هم أعز علىّ من صفو الحياة ... إلى كل من ودّعنى من أهل بيتى ، وإلى كل من أقام ... » .

وليس من شك أن نشر هذه المذكرات يمثل حدثا أدبيا مهما يجيب عن كثير من علامات الاستفهام الحائرة تجاه مواقف الشعر ، ويسهم فى إعادة تقييم بعض الأحداث الخطيرة فى حياة وطنه وأمته . أمام كثيرين حاروا فى أمره واختلفوا بشأنه ولا يزالون مختلفين !

أما هؤلاء الذين اقتربوا من الشاعر لسبب أو لآخر فقد كان الأمر بالنسبة إليهم أيسر ، والمشكلات أقل . ولعلى لا أبالغ إذا قررت أننى بعد الفراغ من قراءة المذكرات شعرت كأنى انتهيت من إعادة القراءة لكتاب اطلعت عليه من قبل ! فكثير مما تحويه سبق لى معرفته ومعايشته ، خلال الأسابيع القليلة التى قضيتها معه ، قريبا منه ولصيقا به ، فى بغداد فى أواخر العقد السابع من القرن العشرين .

- ٣ -

ويُحمد للشاعر إصراره على إنجاز هذا الأثر الضخم ، وتغلبه على العقبات التى اعترضته ، فقد كتبه وهو على أبواب التسعين ، مغتربا - كدأبه طوال حياته -

عن وطنه ، معتمدا فى المقام الأول على ذاكرته الحادة الواعية ، « هذه الذاكرة التى عادت بى وأنا فى التسعين إلى السنة التى كنت فيها على صدر أمي ، لأتذكر أين كان فراش جدى وهو يُحتضر ، وفى أى زاوية ، ومن أى غرفة فى بيتنا العتيق ... !! وإذا كان فى هذا ما يحسبه القارئ تبجحا ، فأنا أطمئنه بقوة وحرارة ، بل وبوجع أيضا ، بأننى أحسد كل ضعيف ذاكرة ، لا يتمثل معها ما أتمثله حتى ساعتى هذه ، من أطياف وأشباح وكوابيس ... ! » (مذكراتى ١/١٥) .

ونتيجة لتلك الذاكرة الحادة الواعية ، ظلت طفولته تعيش معه ، وتوجه حياته وتؤثر فيها على امتداد عمره ، إلى درجة تسمح لنا أن نزعم أنه لم يزل « طفل فى التسعين !! » .

وقد أبرز « أبو فرات » فى أكثر من موضع فى « مذكراتى » الدور الخطير الذى لعبته فترة الطفولة فى حياته . وكان ذلك تأكيدا لما ألح هو عليه منذ ربع قرن : « إننى وقد شارفت على السبعين ، أضحك من طفولتى ، حتى لكأننى لا أعرف مرحلة من مراحل العمر غيرها ... فشدِّد على هذه الناحية ... وإنك لواقع على أشياء جديدة . واعتبر هذا توجيها منى ، قد لاينبهك إليه أحد ... فأنت أول واحد - من خمسة كتبوا إلىّ أننى موضوع أطروحاتهم - حصل منى على جواب شاف ... أضف ذلك إلى حسناتى ، إذ تكتب عنها ! ... » ويظل مراراً يؤكد هذا المعنى : « رغم أنى قاربت التسعين ، فأنا فى حقيقتى ذاك الطفل الذى لم يتجاوز العاشرة .. وكل كيانى المتضارب المتصاعد ، المتنازل ، المتخالف ، المتناقض يقوم على هذه الحقيقة الأولى من حياتى ! » (١/٣٩) .

- ٤ -

وهذه الطفولة البريئة العذراء ظلت ذا تأثير ضخم فى حياته ، أدى إلى تورط هذا «الطفل الكبير» أو « الشيخ الطفل » فى كثير من المواقف التى ضخمها حُسَّاده ، متوهمين أن كل مذمة تشيل كفته هى بالضرورة محمدة ترجح بها كفتهم !! ومن ثم ركزوا على مواقفه المتناقضة فى حياته ، وهى جد كثيرة ، متهمين إياه تهما عديدة يتدرج من بحثه عن المغانم والنفوذ والشهرة ، إلى وصمه بتهمة الشعوبية ، مرورا باتهامه بالشيوعية !!

وليس من همنا التصدى للدفاع عن الجواهرى أو تبرير تصرفاته ، لأن له مواقف كثيرة تحتمل الإدانة ، وتناقض طريقه التى سلكها بين الجماهير :

منفصلا بهم ، ورائدا لهم ! فقد أيد انقلاب بكر صدقى - ١٩٣٦ وأصدر صحيفة تناصره هى « الانقــلاب » ثم ارتد فهاجم الأنقلابيين بعد فشلهم . ورحب بتتويج فيصل الثانى ثم ندم على ذلك ! كما هاجم ياسين الهاشمى الذى يمثل قمة الوطنية العراقية فى العقـد الرابع ، هجوما عنيفاً ، لا يخفف منه اعتذاره عنه ! كذلك بالغ فى الثناء على عبد الكريم قاسم وأصبح فى عهده « صاحب الرياستين » : اتحاد الكتاب ، ونقابة الصحفيين ! ثم ساءت بينهما العلاقة حتى نُفى - أو نفى نفسه - إلى براج ! .

ومن الإنصاف للحقيقة أن نقرر أن المسارعة إلى إدانة الرجل وتشويه صورته نتيجة لمثل هذه المواقف ؟ لا يتحمل وزرها إلا من علم ظاهراً من القول ! لأننا لو فحصنا هذه الإدانات فرادى و ثنىً ، وربطناها بملابساتها ، لتغيرت النظرة إليها ، ولخفَّت حدة كثير منها !

ونحن عند إنعام النظر فى مواقف الجواهرى نرى الطفل البرئ والشاب المتهور ، لا الداهية المحنك الذى يخطط لتحقيق أطماعه ونيل مآربه ! نعم ، فهذا الرجل تجسيد حى لوطنه ومواطنيه ذوى المزاج المتقلب بين إفراط وتفريط وربما كان ذلك نتيجة لعدم الامتزاج بين عناصر السكان المختلفة بعضها مع بعض . أو أثرا لوقوعه على أطراف الحدود القومية . وهو نفسه يشير إلى شئ من ذلك عندما يصور دجلة فى فيضانها وشحها :

تُـريكَ العراقىَّ فى الحالتين　　　يُسـرفُ فى شُـحِّـه والـنَّـدى !

ثم يبالغ فى تصوير آماله تصويرا حالما هُـلاميا يقترب به من عالم الشاعر ، ويبتعد عن مجال الطامع الساعى إلى اقتناص الفرص :

وما أنت بالمُـعطى التمــردَ حقَّــهُ　　　إذا كنت تُخشى أن تجوع وأن تَعْرى !
طمـــوحٌ يُرينى كــلَّ شئٍ أنَالُــهُ　　　وإن جــلَّ قــدرا دون ما أبتغى قدرا !!

ومن أدل الشواهد على ذلك موقفه من « فيصل الأول » الذى تم تنصيبه ملكا على العراق عقب فشل « ثورة العشرين » . فقد عينه الملك فى قصره ، وأحبه وأكثر من الإشادة به : « أنت شاعر العراق المنتظر ! » .

وعلى الرغم من هذا الموقع الذى يحسده عليه الكثيرون ، فقد باعه بقصيدة !! حيث نشر خلال وجوده فى معية الملك قصيدته « الرجعيون » ثم أتبعها بأخرى غزلية ماجنة « جربينى » وكانت ثالثة الأثافى ، غزليته « النزغة » !!

وبعد هذه « الانتفاضات الشعرية » حزم حقائبه وأصر على ترك القصر ، وما أدراك ما القصر ، وما به من ألوان النعيم ! على الرغم من تمسك الملك وحاشيته به ، وإصرارهم على رفض الاستقالة ، « لدرجة أني خجلت من إصراري .. ! ولكني بقيت وكأني لا أزال في وظيفتي ، لا يستأذنون لي في الدخول على الملك !! » فهل يسلك هذا المسلك باحث عن مصلحة ؟! إن صاحب هذا السلوك شاب مرهف الاحساس متطلع إلى الكمال رافض للواقع ، دون تفكير في العواقب مهما كانت قاسية ، بل لقد لحق به ، نتيجة لذلك ، ما يثير الأسى والأسف ، ويكفي أن نعلم أنه حتى الآن - وهو في هذه السن وتلك المنزلة - لا يملك شيئاً ، أي شئ ، في وطنه « قلت : قريبا من أهل بيتي ، ولم أقل قريبا من بيتي أو داري !! فمن أشد المفارقات أنني ، وحتى السبعين ، لم يكن لي في العراق كلها سقف يؤويني أو يأوي عائلتي !! » (٢/١٥١) .

— ٥ —

ولعل من اللافت للنظر والمثير للإعجاب أن الجواهري لم يتبرأ من شئ فعله ، أو يبرر خطيئة ارتكبها ، أو يستر أطماعا ناوشته ! فهو يعترف في صدق برئ وعفوية آسرة بكثير من خطاياه ! بل قد يعنِّف على نفسه ويعريها بجرأة نادرة ، فسلوكه :

به ما أطيق دفاعاً به ... وما هو لي مُخرس مُلجِم

نافقت إن كان النفاق ضرورة ... مُتحرِّقا من صنعتي مُترمضا !!

ومزيتي ، وهو الوحيدة ، أنني ... جاريتُ طبعي في الكثير كما اقتضى !

هي النفس، نفسي، يسقط الكلُّ عندها ... إذا سلمتْ فَلْيذهب الكونُ عاطبا !!

وعندما يُسأل عن بعض مواقفه ، يجيب : « ... إن لي سقطاتي ! وموقفي مع الهاشمي واحدة منها ! أعترف بذلك اعترافا يفهمه شعبي . » ويجسِّد ألمه واحباطه في شعره . « أحاول خرْقا في الحياة فما أجْرا » و « أبصرتُ ما أهوى على مثله العمى ! »

و « لبست لباس التعلبيْن مُكرها » و « عُدتُ ملء الصدر حقداً وقرحة ! »

ثم يردف على ذلك بما يلقي ضوءا كاشفا وموضحا على مواقفه :

« حياتي يسيرها عاملان : مزاج حاد ، الغضب بعض سماته . والتصادم المستمر مع الاتجاهات الجامدة في المجتمع ... إن بريق الغضب في عينيَّ ليصدني عن رؤيتهم ! أنا أحب الحياة بالرغم من مزاجي العنيف المنحوس ، الذي قد يحرِّم

على المرء كل شئ ! وقد يدفعه إلى حب للحياة عنيف ! .. أحب أن أرتاح ويرتاح من معى » ولكنه فشل بالطبع فى ذلك ، فاعتذر لأسرته عما جناه عليها : « .. إلى قطع متناثرة من نفسى هنا وهناك .. تحت أطباق الثرى ورهن القبور .. وعلى صعيد الأرض الواسعة ! إلى الذين مشيت بهم خببا فى طريق الآلام ! إلى الذين صبروا معى على كل ما أنزلته بسومهم من أذى وحرمان وخوف وقلق .. حماقة منى وجهلاً تارة ! وقصدا وعنادا .. تارة أخرى !! ولكن بصفاء قلب وصفاء سريرة فى كل الأحوال ... أهدى ديوانا هو خير ما أهديته إليهم فى حياتى ، وقد لا أقدر أن أهدى إليهم شيئاً بعده .. ! » .

وفى اعتذاره عن بعض مواقفه يبدو الجواهرى وكأنه يجد لذة وسعادة فى تعرية نفسه وإدانتها بقسوة بالغة ، لا يسوغها الموقف ، فمدحه لفيصل الثانى ، واستبشاره بتتويجه لا يستدعى تعذيبه لنفسه إلى تلك الدرجة العنيفة :

« فى أوج العز والشموخ ، وفى فترة لم يمر علىّ أعز منها منذ بداية الأربعينيات ترانى أنحدر انحدارا لم أنحدر مثله طيلة حياتى !! والأكثر إيلاما فى هذا الإنحدار أنى أردته بمحض إرادتى ، وبدون أية ظروف ضاغطة ، وبدون أية مساومة وأى مقابل ! إنها زلة العمر التى ظلت عالقة بى طيلة فترات طويلة ، حتى بعد أن كفَّرت عنها ، وبعد أن نهضت من كبوتها ، فقد أوقعت نفسى فى عذاب الضمير ، ولاحقت نومى الكوابيس !! ألا وهى قصيدة التتويج التى قلتها فى مديح « فيصل الثانى » .. هى زلة وأكثر من زلة !! لا أتراجع ولا أحاول أن أخفف من وطأة الموقف ... لقد اغتصبت فى تلك الزلة ضميرى ، وما أصعب أن يجد المرء ضميره مغتصبا ! وممّن ؟! من ذاته ... !! » (٢/١٢١) .

ولكنه الجواهرى : الحادّ المزاج ، العنيف على نفسه قبل الناس !! الموقن بأن « كل أضواء الدنيا لو أطبقت على التاريخ وعلى من عاشه أيضا ، لما قدرت أن تقضى على لواعج نفسى ، مما كان من أمر الصميم الأليم من مواقفى وعواقبها ، وهفواتى وأثمانها ، وأوجاعى ومآتمها !! » إنه فى هذا التقريع العنيف لنفسه يخضع لعقيدة راسخة تشربها وجدانه منذ بواكير حياته : « كلما حاولت أن أجعل من نفسى محاميا قديرا فى الدفاع عنها ، وهى فى قفص الاتهام ، فيما كان لى من خلل واضطراب وقلق ، فلا أجدنى إلا وقد خسرت القضية ، وصدر الحكم علىّ بما أستحقه من عقاب !! » (١/٢٤١) .

إنه فى صراع مستمر ، ليس مع مواطنيه فقط ، بل مع نفسه التى بين جنبيه ! هذه النفس التى « تحملنى بمشقة ، وأحملها بمشقتين !! » فقد أفسدت عليه إباءه ، وكانت وساوسها السبب فى نكوصه عما هُيئ له وفُطر عليه ، مهموما بمواطنيه : مرشدا لهم ، وحريصا عليهم . لكنها النفس الأمارة بالسوء . « أيمكن أن يجتمع الإباء والطمع ؟ أجل ! ممكن لفترة أو لأكثر ، يشتد الصراع فيها لمن خلق لواحدة منهما ، ويحاول الانسياق إلى الثانية . صراع قد يقصر أو يطول ، ولكن الشئ المفروغ منه أن ينتهى الأمر به إلى ما خلق له . وقد قدر لى أن أمر بمثل هذا الصراع ، وخرجت صِفر اليدين من كل متاعات الحياة وأطماعها ، لأنى لم أُخلق للثانية منهما ! » (٤٤٧/١) .

« لست رجل فرص ولا مناسبات ، ولا أملك مهارة اقتناصهما ، لأننى لا أتقن فنون المواربة والانتهاز » (٢٥٥/٢) .

– ٦ –

الجواهرى شاعر يهوى السياسة ، بمقدار ما هو سياسى يقول الشعر :

أنا العراق لسانى قلبُه ، ودمى فراتُه ، وكيانى منه أشطارُ

ونتج عن ذلك أنه عاش حياة عاصفة « اختلطت فيها عوالم بعوالم : الفقه بالشعر ، والشعر بالسياسة ، والسياسة بالصحافة ، والصحافة بالحب ، والحب بالصداقة ، والبؤس بالنعيم ، والتوطن بالترحل ، والطفولة بالرجولة » (١٤/١) .

وصدور « مذكراتى » لشاعر هذا شأنه يمثل حدثا أدبيا مهما ، وتجربة حية صادقة تعد نبعاً ثرًا يستقى منه الواردون : « أريد أن أعطى ، فى ذكرياتى هذه ، صورة لهذه الحياة التى تؤلف نموذجا لكل تناقضات ومفارقات المجتمع العربى ، محاولا أن أكون – وأنا أتوسط جحيما من الحزازات والمشاحنات والتحديات ، قدر ما استطعت – مترفعا عن مباذل الخصومات ، ومدافن الأحقاد ، ونبش القبور !! فمن حقى – وقد كتب على أن أكون ، قبل أى شاعر معاصر عشته وعاشنى ، أكثر انشداداً إلى الجماهير العربية ، وأشد مشاركة فى مطامحهم ومعاناتهم – من حقى ، بل ومن حقهم ، أن أضع صورة هذه المشاركة والمعايشة فى إطارها المنشود بما تستحقه من بساطة ووضوح ، وصدق وأمانة .. » (١٤/١) .

وعلاقة الجواهرى بهذه الجماهير ، في وطنه وأمته ، علاقة عجيبة يحار المرء فى تفسيرها وفهم ملابساتها ، ولا نريد أن نعلل لها فنشتط فى التعليل ، ونقول كثيرا ولا نقول شيئا ! وربما كان الأدنى إلى الصواب رصد مظاهر هذه العلاقة وملاحظتها فقد يؤدى ذلك إلى فهمها ، أو الوصول إلى شئ قريب من الفهم !

الجواهرى شاعر كبير ، أجل ! وآخر الفحول ، وصف يستحقه ! لكنه ليس الفارس الوحيد في الحلبة ، فهناك شعراء عاصرهم يطاولونه قامة ، وربما تفوق بعضهم عليه ! لكن الأمر المؤكد أن واحدا منهم لم « يملأ الدنيا ويشغل الناس » ويؤثر فيهم ويمتزج بهم ، كما حدث للجواهرى ! وقد كان لأكثر هذا الناس فى وطنه مآخذ عديدة عليه ، وإدانات كثيرة لمواقفه . عندما تحول من رائد وملهم وموجه ، إلى باحث عن منفعة ، أو منتهز للفرصة ! لكنهم يحبونه : مقيما بينهم ، وغريبا عنهم ! وينسون - أو يتناسون - زلاته ويضخمون أمجاده ويتيهون بها !

هل يمكن الزعم بأن ثمة خيطا سحريا بينه وبين قومه ، وأن هذا الخيط يمثل رابطة وجدانية تربطه بهم وتجذبهم إليه ؟ هناك شواهد كثيرة تدعم صدق هذا الغرض ، فالجواهرى يحظى بين العراقيين بقدر كبير من الحب والإعجاب . وكأنهم أحسوا منذ وقت مبكر بأنه واحد منهم ، يعيش مآسيهم وينفعل بها ، ويجاهد من أجل آمالهم ، ويضحي فى سبيلها . وحتى فى تلك الفترات التى تنكب فيها الشاعر طريقه القويم ، عتبوا عليه وغضبوا منه ، لكنه عتاب الأهلين ، وغضب المحبين الذين سرعان ما يغفرون وينسون عقب عودته - وما أسرع ما يعود - إليهم ! مستأنفاً سيرته الأولى معهم : رائدا وموجها حينا ، ثائرا وغاضبا حينا آخر !! وظلت هذه العلاقة تنمو بين الطرفين وتتغلغل فى أعماقهما ، حتى غدا بالنسبة لمواطنيه جزءا من كيانهم ، بل بطلا شعبيا أمامهم : يتجسد فيه الأمل والإحباط ، والنصر والهزيمة ، والفرح والانتكاس ؛ على امتداد نحو قرن من الزمان ! ويكفى أن يعلم هؤلاء بقصيدة يلقيها الجواهرى ، أو مهرجان شعرى يشارك فيه ، حتى تتزاحم الأعداد الغفيرة ، ينصتون وينتشون ! وكأنهم يحيون « المربد » أمام الهجوم الكاسح لوسائل الإعلام الحديثة ! .

وعلى الرغم من أنه قد يُسمعهم مالا يعجبهم ، وقد يغضب منهم أو يثور عليهم ، فإنهم يتقبلون ذلك بقبول حسن . بل صار العراقيون عندما تدلهم الأحداث أو تتأزم الأمور ، يتوقعون منه قصيدة تؤجج الخواطر ، وتنفس عنها فى

وقت معاً ! وكأنهم في علاقتهم به يجددون ارتباط القبيلة بشاعرها في العصر الجاهلي !

فها هو ذا يصب لعنات ماحقة على قومه إذ تخاذلوا ، بيد أن غضبه يمثل القسوة الرحيمة على أمة استكانت إلى الدَّعة والخمول :

أطبقْ دُجى ، أطبق ضبابُ　　أطبِقْ جَهاماً يا سحابُ
أطبقْ دمارُ علَى حُماَ　　ةِ دمارهم ، أطبق تَبابُ
أطبقْ على مُتبلّدِيـ　　ـن ، شكا خُمولَهم الذبابُ
لم يعرفوا لونَ السَّـ　　ـماءِ لِفَرْطِ ما انْحنتِ الرّقاب
أطبِقْ عـلَى مُتفـرقيـ　　ـن يزيدُ فُرْقَتَهمْ مصاب

ومن العجيب أن مثل هذه القصيدة كانت - ولا تزال - ذات تأثير عجيب في سامعيها ، فهي تحرك فيهم عوامل النقمة والشعور بالاضطهاد ، وبأنهم ضحية يجب أن تثور على ذابحيها !

وسرعان ما يتقدم الجماهيرَ في مجابهة الطغاة ، ويرُودهم : ثائرا ومنشدا في سخرية موجعة ، وفي وزن يتراقص على الشفاه ، وطيَّه خناجر مسلولة ، لإبراز حدة المفارقة بين الإيقاع ومحتواه :

ما تشاءونَ فاصنُعوا　　فرصةٌ لا تُضيَّعُ
ما الذى يستطيعهُ　　مستضامون جُوَّعُ ؟!
عن ذويكمْ وعنكُمُ　　الدساتيرُ تدْفعُ !

إن التجربة هنا تجربة المجابهة والمقارعة ومنازلة الحكام . تجربة يحركها الغضب الماحق الذى صار نارا تحرقهم وتدمرهم !!

وربما أكد طبيعة هذه العلاقة الحميمة بينه وبين قومه أنشودة حزينة « تنويمة الجياع » تنبع من القلق والشفقة ، تلبس فيها الفاجعة زيَّ السخرية . وهو يبدأها بإبراز النقيضين : فآلهة الطعام تحرس الجياع ، وآلهة الحرب تغنّى ألحان السلام :

نامي جياعَ الشعبِ نامي　　حرستْكِ آلهة الطعام !
نامي فإن لم تشبعي　　من يقظة فمنَ المنام !
نامي تصبحي ! نعم نَوْ　　مُ المرء في الكُرَب الجِسام !

نامى وسيرى فى منـــامك ... ما اســتطعت إلى الأمــام !
إن الحمـــ ـــاقة أن تَشـُقى ... بالنهـوض عصـا الوئـام !

والقصيدة طويلة (١٠٤ ت) وفى مقطع منها تتحول لهجة الخطاب إلى قسوة يخفف من حدتها الحزن والحب : « ولا تتجادلى ، القول ما قالت حذام ! » ثم يتوجه إلى الجياع بغنائية تشف عن حب عميق لهم ، وامتزاج كامل بهم ، وإشفاق صادق عليهم :

نامى شـذاةَ الطهـر نامِى ... يـادرَّةً بيـــن الــــركام !
يا نبتـــةَ البـــلوى ويـــا ... وردًا ترعرع فى اهتضـــام !
يا شُــــعلـة النـــور التى ... تُعشِى العيون بلا اضْطرام !

— ٧ —

وهكذا ظل الجواهرى على امتداد عمره المديد ممتزجا بقومه ، مجسدا لهم ، معبرا عنهم كثيرا ، غاضبا عليهم أحيانا :

فقُـــلْ للمُقيـــم عـــلى ذلـــه ... هجينًـــا يُســخَّر أو يُلْجَـــمُ !
تقحَّـمْ – لُعنْتَ – أزيزَ الرصاص ... وجـــرِّب من الحظ ما يُقســـم !
تقحـمْ – لُعِنت – فمـــا تـــرتجى ... من العيـش ، عن وِرده تُحــــرمُ

لكن غضبه ، كما أشرنا ، نوع من خصام الأحباب ، وتصوير لحسرة الرائد الذى لا يكذب أهله ، والذى يراهم فى غيهم سادرون ، وعما يُدبر لهم غافلون ! فيصيبه ذلك بشئ من الأسى واليأس :

أرِحْ ركابـــك من أيْنٍ ومن عَثَــرِ ... كفـاكَ جيلانِ محمولاً على سفَرِ !

وسرعان ما يتجاوز المحنة ، ويواصل كفاحه وريادته ، متبوئاً مكانه الذى رسمته الأقدار :

كلُّ عرسٍ أنا « المغنّى » وفى كل عزاء ، أنا الهتوفُ النّــاعى !

وبعد ، فقد وفقت « الهلال » – وهى تحتفل « بمئويتها » احتفالا طريفا – فى دعوة الجواهرى إليه ، فهو يمثل ملمحا بارزا من ملامح « قرن التنوير » الذى أسهمت فيه « الهلال » طوال عمرها . فضلا عن أنه كان من أغزر المنابع التى ظلت تفيض بالخير ، وتدعو إلى التقدم ، على امتداد « مائة عام من الفكر والفن » .



من قصيدة عصماء لشاعر العربية الكبير محمد مهدى الجواهرى

يا « هلالَ الفكرِ » في العيد السعيد
هكذا ظلّ مضيئاً ألفَ عيدِ
هكذا ظلّ كما كُنتُ حفيّاً
بجهودٍ ، وحَفيظاً لعهودِ
يا « هلالَ الفكرِ » كم طوّرتَ جيلا
وتطوّرت على جيل جَديد
كم فكَكْتَ القيدَ عن ذهنٍ بطيءٍ
وتحفّظْتَ على ذهنٍ شَرودِ
صُعُدٌ للفنّ حَلّقْتَ بها
فتعالى شامخاً كل صَعيد
أنا ممّن كنت صعّدت بهم
يومَ مُنّيتُ بمرقاة صُعود
مئةٌ منكِ ، ولي تسعون منها
داعياتٌ لك بالعمر المديد



جُلتُ في ساحاتك الغُرُّ فتيً
يَلِجُ الدربَ على خطوٍ وَئِيدِ
خلتني جنباً إلى جنب هواةٍ
وغُواةٍ أيّ شيطانٍ مريد
وإلى جنب شيوخٍ غُررٍ
سادةٍ أيّ حفيدٍ لجدود
عَضُدي كنتَ وكم ولى سُدىً
هَوَس الفنان من دون عَضيد
يا « هلالَ الفكرِ » لم يُلفَ عَنيدُ
مثلَ جبارٍ من الفكر عَنيدِ
عنجهي يكره الخَلقَ على
وعيه ، من عبقريٍّ وبليد
يتحدّىَ الموت كالإعصار يطغى
فتهاوى دونَه كلّ السّدود

وضحاياهُ نووهُ ، شيدوا
دارةً فاستُبدلت دار خلود
أنت ممّن رُحتَ عن قرنٍ مضى
شاهداً عدلاً على ألف شهيد
يا «هلال الفكر» كُنْ للمستزيد
منك شوقاً ، وهوىً للمُستعيد
هكذا ظلّ على جيدٍ وجيد
تُسبغ المنّة كالعقد الفريد
يا « هلالَ الفكرِ » بوركت «جمالاً»
«وتبوركت بحسنى» من جديد
ما الذى تبغيه عن أغنى الغنى
واذ يحييك «الرئيس» من رصيد
يا«هلال الفكر» والدهر يغنى
أى أنغامٍ له عن أىُّ عودِ ؟
بَدَأ «الخلِقةَ» لوناً ثم سَدَىَ
لحمةً منها ببيضٍ وبِسُود
وانبرى يجرىِ دمٌ منهُ عَبُوسٌ
فيِ جلودٍ ، وبَشوشٌ فيِ جلود
وتعالت تزدهى فى جبروت
جنّة الخلد على ذات الوَقود
بئست الدنيا خُروقاً مثلما
بئس ميلاد شقىّ وسَعيد

يا « هلالَ الفكرِ » ما كنتُ جحوداً
لا أطالَ اللـه من عمر الجحودِ
كم تقضّت ذكرياتٌ شُعَبُ
هُنّ أدنى لىَ من حبل الوريد
يا أخى « مكرمَ » يا مسكَ ختام
لعجوزٍ شامخٍ ، شبه قَعيد
وَجَدَ الضالّة من أحلامه
قبلَ أن يُستلَّ من سِفر الوُجود
كنتَ وعدَ الغيب في مأزمَة
شدّ ما احتجتُ بها حلوَ الوُعود
كنتَ في الصفوة من صيد وصيد
ثقّلوا حملىَ من لُطف وجُودِ
لا أحابيكَ فقد جُوزيتُ خيراً
عن قصيدي وسيجزوكم قصيدي
مصرُ يامهد الحضارات ويا
مدرج الغيد ويا نحاب الأسود
يابنة النيل غفَتْ شطآنُهُ
حالمات بأهازيج النشيد
يامصبّ العبقريات إلىَ
ملتقى بهو زعامات وَطيد
مصرُ يا سنبلةً مخضلّةً
لم تنلْ منها مناجيل الحصيدِ

غـذت الأذنين عن سـبعٍ عجافٍ
بسـمانٍ واسـتـدارت للبعـــيد
كُنتِ صِنوَ الكون مُذْ أصبغَ كونُ
ومُذ التفّتْ حـشودٌ بحـشود
بُرُد من كل حـدبٍ ناسـلاتُ
ومن «الأهـــرام» عـنوان البريد
كُنتِ والدنيا حُبالى طـلعةً
تسـتفزُّ الصُّبح عن أيِّ وَليـد ؟
شـاءه أيّ إلهٍ ؟ رضـعتهُ
أيِّ أمٍّ ؟ هــزّه أيِّ المهـود ؟
ياتُراثاً ليسَ ينفكُّ محـجّاً
لركــوعٍ من وفـودٍ وسـجودٍ
كل شـبر فوقهُ عطـرُ الجدود
وصـدى منتجـع الشـمل البديد
أبد الدهـر تشـدين هباتٍ
يقظـات «بهبابٍ» من رقـودٍ
خيرُ ماتحت الثـرى يُوقىَ به
كُل ما فـوق الثرى شـرّ الحسود
كلّما أمعنتُ فيِ هذا الصعيد
والأسـاطير على مَرّ الأبيـد
وبمـا أظـفتْ بـه أصبـاحُهُ
وأماسـيهِ على سُمْر الزُّنـود

والأكاليلُ على زهــــر الرُّبا
تُســرج الليل بشــمعات الــورود
والعماليقُ كم هُمْ عن عصــورٍ
عصـــــورٍ ، بأمــاليد القُـــــدود
خــلته الأسطورة الكبرى مشى
وهـــج منه على عصــر الجليد
آه يــا مصــرُ ولن يُصــدقك الــودُّ
إلاَّ آهــةُ الصـــــبُّ العـمــيد
آه مـــن صبرٍ على الضــُّـرُّ ذميمٍ
خدعــةٌ ســمَّوْهُ بالصــبر الحمــيد
أفَحدّاً حجـــزتْ بـين حبـيبٍ
وحبـيـبٍ رمـلــةٌ دون حــــدود
أقـلــوبٌ تحســـدُ الطيــرَ على
خفــقــةٍ تدنـى أليـفـــاً من بعيدٍ ؟
أطــريــدٌ ؟ وعـلامــا ؟ ولمـــاذا
ينتـهـى عن فـكرةٍ عـمــر الطريدِ ؟
عَـــرَبِىٌ وعـلــى جَـمْرِ الغضــا
أبـو عـــد « عربــىّ » أم وَعــيد ؟
لجنــان الخـُـلــد بــابٌ ولــنــا
فى الصحارىِ ألف بابٍ من حديدِ
ومتى تســألْ عن الــقيد فَقُــلْ :
تَعِـبَ « الحــداد » من صـبِّ القيود

اقوال معاصرة

★ « الغوغاء لايحق لهم الفتوى ، ومن طلب الولاية لا يولى ».

الشيخ محمد الغزالى

★ « التنوير الثقافى ضرورة حياة ».

الدكتور عاطف العراقى

أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

★ «العرب لم يشهدوا أى نهضة علمية فى العصر الحديث».

الدكتور رشدى راشد

الحاصل على جائزة الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم

★ « نحن ضحية لاخطائنا الكامنة فى تفكيرنا ».

الدكتور فؤاد زكريا

★ « صرنا نحن العرب لسبب أو لآخر مجموعة من الذكريات ».

الشاعر أدونيس

★ « الثقافة المتلفزة مبيدة للذاكرة ».

الكاتب والصحفى اللبنانى فواز طرابلسى

★ « الكاتب الذى يحترم نفسه لا يتوقع جوائز ».

الأديب البرازيلى چورج امادو

★ « الحدود بين الفن وغيره أصبحت ضبابية ».

محمد المليحى

مدير الفنون فى وزارة الثقافة المغربية

★ « لبنان تحول إلى رمز عالمى للفوضى ».

سلوى شقير روزفلت

الرئيس الأسبق للبرتوكول فى البيت الأبيض

★ « بين الزواج والفن اختار الفن ».

يسرا

★ « استلهم القوة من ملايين النساء اللائى واجهن بنجاح تحدى السرطان ».

المغنية والممثلة اوليفيا نيوتون جون

عند اعلانها عن مرضها بالسرطان

★ « نحن نرفض الديمقراطية »

الدكتور عمر عبد الرحمن

مفتى الجهاد اللاجئ للولايات المتحدة



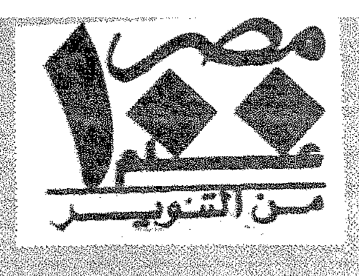
محمد الغزالى



فواز طرابلسى



سلوى شقير



بعد مائة سنة :

معضلة الاستئناف

بقلم : د . محمد برادة *

عشت لحظات ثرية ومثيرة خلال ندوة « نحو مائة عام من التنوير والتحديث » التى أقامتها مؤسسة دار الهلال فى سبتمبر الماضى .. ذلك أن الموضوع يشدُّنا إلى المستقبل وأسئلته بالرغم من اتصاله الضمنى بتجربة الماضى القريب والحديث عن المستقبل محفوف دوْماً بالمخاطر لأنه قد يُغرى بالانسياق مع رغائب الذات أو قد يقود إلى افتراض خط « منطقى » ينتظم الأسباب والنتائج، غافلاً عن « نزوات التاريخ » واتصافه باللا استمرارية ...

كان طبيعياً ، إذن ، أن يبرز أول خلاف بين المتحاورين حول مفهومى نهضة وتنوير . هل ما عشناه فى المائة سنة الماضية كان تنويراً أم نهضة ؟ وهل ما نتطلع إليه فى المستقبل يستمد مضمونه من نموذج تحقَّق فى مجتمعات أُخرى أدركت « التحديث » ، أم أنه مشروع مقترح يسعى إلى تحرير « الفعل » وسيْرورة التَّشييد أكثر ممَّا يتوخى الوصول إلى أنماط ونماذج أثبتت فعاليتها ؟

عندما نتذكر بعض الوقائع المعروفة ، نلاحظ بأن مفهوم النهضة فى السياق الأوربى يُحيل على فترة زمنية تستغرق

---

* الكاتب المغربى المعروف

عدّة قرون ، وأنه كان ذا طابع شمولى يتصل بالفكر السياسى والفلسفى وبالإبداع الفنى ، كما يتصل بأنظمة الحكم والصراع بين الكنيسة والدولة ، بين العلم واللاّهوتية ، أى أن تجربة النهضة الأوربية استهدفت القطيعة مع العصور الوسطى فى كل المجالات عبر صراع تجسّد فى التفاصيل على جميع الأصعدة وتطلب أمداً طويلاً قبل أن يُتوّجَهُ عصر الأنوار ببلورة الأسس الفكرية والفلسفية والسياسية ، وأيضا بالانتقال ، عملياً ، من صيغة فى تنظيم المجتمع إلى صيغة أخرى .

لكن « نهضتنا » منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تختلف كثيراً عن نهضة أوربا ، لأنها بدأت فى سياق المثاقفة وحضور النموذج الآخر مُستظلاً بقوته الاستعمارية ، ولأنها كانت – فى معظم لحظاتها – ردود فعل أكثر مما كانت نتيجة لتصورات متكاملة تصدر عن تطور طبيعى ، ونموّ غير مُعاق مع ذلك لا يمكن أن أوافق الذين يذهبون إلى حدّ التشطيب على المحاولات والجهود المبذولة من لَدُنَ أشخاص وفئات ، على إمتداد الوطن العربى ، حاولوا أن يستوعبوا أسئلة العصر الحديث وأن يقدموا أجوبة عنها ، لذلك فإن المسألة الجوهرية ، فى نظرى ، هى فى طريقة صَوْغ الإشكالية ، مادام السؤال يحدّد ، إلى حد بعيد ، أفق الجواب .

هل يتعلق الأمر بالتّنوير والتحديث أم بشىء آخر ؟ يُفهم من كلامى السابق ، أن التنوير فى سياقه الأوربى ، يختلف كثيراً عن المعنى المتداول ، راهناً فى معظم أدبيات الفكر العربى الحديث ، فإذا كان التنوير لحظةً تتْويجيّة لمشروع النهضة الأوربية ، ومفهوماً يستند إلى خلفية تاريخية وصراعات اجتماعية وأسس فلسفية ، فإنه قد أخذ دلالة ظرفية فى سياق الصراع الثقافى العربى ، إذْ أصبح يقترن بالتطلع إلى العقلانية والتفتّح على الحضارة العالمية بدلاً من التقوقُع والوثوقية العمياء وبالنسبة لمفهوم التحديث ، يمكن أن نلاحظ أيضاً أنه فى السياق الأوربى يعنى إدماج معطيات العلم والتكنولوجيا فى جميع مستويات تنظيم المجتمع وتدبير الشئون العامة على اعتبار أن التحديث امتدادٌ للحداثة التى تبلورت منذ القرن التاسع عشر بوصفها وعياً انتقادياً يسعى إلى تجديد صيغة الحياة والثقافة داخل حضارة سريعة التبدُّلات ، معرّضة لاهتزاز القيم وزَوال اليَقين ، بينما قد يوحى هذا المفهوم ، عندنا بإستجلاب المخترعات والطرائق التحديثية ، فى غيبة الأسس العلمية والسياسية والاجتماعية للحداثة .

هل يكفى ، إذن التّنوير والتّحديث بهذا المعنى ، لمواجهة أسئلة الواقع العربى الراهن شديد التّعقيد ؟

الواقع العربى المعقد ، بدون دخول فى التفاصيل ، يتجسّد مادياً وإيديولوجيا

وفكرياً في أنظمة الحكم والمؤسسات والتصنيفات الطبقية والتبعية الاقتصادية وسيادة الثقافة الرأسمالية عالمياً (على نحو ما أوضح ذلك الأستاذ سمير أمين في تدخلاته أثناء النقاش) ، وتصاعد الحركات الدينية المتطرفة ثم سراب النظام العالمي بعد حرب الخليج ... كيف نستطيع - من داخل هذه اللوحة القاتمة التي أرسم سوى بعض ملامحها - أن نُغامر بصياغة إشـــكالية تكوِّن أفقاً لأجـوبة محتملة ؟

القضايا الكبيرة والمشكلة النهوضية

أريد قبل كل شيء ، أن أنوِّه بالتصور الذي وضعه المشرفون على ندوة « نحو مائة عام من التنوير والتحديث » ، لأنه يقوم على ربط متكامل بين عناصر إشكالية انطلاقاً من نقد مشروع النهضة « الأولى » وعلاقتنا بالغرب ، والمرأة وحقوق الإنسان ودور الإبداع ، إلى مسألة المجتمع المدني والديمقراطية ثم الإسلام والعصر . فهذه القضايا الكبيرة كانت تضعنا باستمرار في عمق الأزمة وتُشعرنا بالطابع الكُلِّي للمشكلة النهوضية .

لم يعد ممكناً التَّحايل على القضايا الشائكة أو الهروب من مواجهة الأسئلة الصعبة لابد من عملية « تفريغ » ايديولوجي وسياسي لابراز المسكوت عنه وإعادة النَّظر في مجموعة من المسلمات والأحكام السـابقة التي تنتصب اليـــوم وراء كابوس التعصُّب والطائفية والتطرُّف . لم يعد بالإمكان حَجْبُ الحوار الصريح عن علاقة الإسلام بالسياسة وعلاقة الدولة بالدِّين ، عن الحكم الثيوقراطي والديمقراطية ، عن الوحدة العربية والتعدُّد الإثني والثقافي .. ولا شك أن العقد الأخير قد عرف تظاهرات وكتابات عربية تفصح بقوَّة عن هذا الوعي الذي يتخطَّى مرحلة انطواء كل اتجاه على « حقيقته » والتقوقع داخل جُزُر إيديولوجية، إلى مرحلة المواجهة والحوار ، لكن ما يشغلني باستمرار ، خاصة عندما أشارك في مثل هـــذه الندوات ، هو الموقع الـذي نتكـلَّم منه ، وأقـصـد المثقـفـين والمفكـرين الذيـن لا يعتبـرون أنفســهم امتداداً لنظـام قـائم . تحديد الموقع الذي نتكلم منه ، معنـــاه تحديد علاقـة خطابنا بالمتلقِّين ســواء كـانوا من أصحاب القرار السياسي أو من المجتمع المدني . وما دُمْنا نُقرّ بوجود أزمة حادة وتعثرات متوالية في مشاريع النهضة فإن التحليلات والانتقادات التي نَصُوغها لا يمكن أن تكتسيَ طابع « الوعظ والإرشاد » لتَهْدي الماسكين بالسلطة إلى ســواء السبيل . ذلك أن العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني (كما أوضحتْ مناقشات الندوة) هي علاقة مُختلَّة في المجتمعات العربية ، لأنه منذ الاستقلالات السياسية ، استأثرت الدولة بالقرار ، وفرضتْ إيديولوجية السلطة وخنقتْ مبادرات المجتمع المدني التي ظهرت خلال فترات الاستعمار ، وتحولت الدولة إلى رقيب

يُحصي أنفاس المواطنين بدلاً من يطلع المجتمع المدني بمراقبة سياسة الدولة لأجل ذلك سيكون من الوَهْم الاعتقاد بأن خطاب الحقيقة الصادر عن المفكرين والمثقفين سيجد آذاناً صاغية من ذوى السلطة الذين تكشفُ خطاباتُهم وأفعالهم عن رفضهم للعلاقة الديمقراطية وتَداول السلطة . من ثمَّ فإن موقع المتكلِّم الطامح إلى استئناف « النهضة المعاقة » لا يمكن أن يكون إلاَّ داخل المجتمع المدني ، وكلامه لن يكتسب فعاليته إلاَّ بالتوجُّه للمجتمع المدني بوصفه الرَّحِمَ المولِّد لتصحيح العلاقة المختلة بينه وبين الدولة .

هكذا نصل إلى نُقطة أساسية ضمن إشكالية النَّهضة ، وهي معضلة الاستئناف ، سواء اعتبرنا النهضة العربية بذوراً عشوائية ، أو مشروعاً مُقتبساً من الآخر ، أو بدايات أجْهضتها دُولُ الاستقلال ، فإن ماهو مطروح باستعجال هو استئناف الفعل بتصورٍ نظري وممارسة مُغايرين لما سبَق ، ومستجيبين للأسئلة الراهنة ذات الطابع الشَّامل .

كيف يتمُّ الاستئناف ؟

لا أملك جواباً على هذا السؤال . لكنني أزعم أن المجتمع المدني هو المصدر الأساسي الذي يضمن استئناف فعل التغيير والتصحيح ودَمَقْرطة علاقة المجتمع السياسي (الدولة) بالمجتمع المدني . لقد لفت نظري خلال مناقشة « ورقة » المجتمع المدني والديمقراطية أن بعض المتكلمين عبروا عن تخوفاتهم من أن يؤدي الإلحاح على إعادة الاعتبار للمجتمع المدني إلى إضعاف الدَّولة وتفكيكها ، وهو ما قد يؤدي إلى خدمة مخططات «خارجية» تحارب قيام دولة وطنية قوية . لكن مثل هذا الطرح لا يعني ، في نهاية التحليل ، إبقاء الأمور على ما هي عليه أو الاستسلام لمنطق السلطوية . ثم إن تجذير الصراع في المجتمع المدني لا يعني بالضرورة القضاء على الدولة ، بل يستهدف تصحيح العلاقة الجدلية بينهما على أساس ديمقراطي . فليس المجتمع المدني بديلاً عن الدولة ولا عدوّاً لهـا ، وإنما هـو امتداد يضمن « الهيمنة » المنبنية على الإقناع لا على الإرهاب من جوْف المجتمع المدني تنبثق القوى التي تُشكل المجتمع السياسي وتسنده وتراقبه ، ومن جَوْفه تتبلور الإرادة الجماعية ، وقوانين الصراع الديمقراطي وتقاليد التَّراضي والحوار .

لكننا إذا اقتربنا من هذه المسألة أكثر، فإننا سنجد أن مأزق الدولة المتمثل في سلطتها المطلقة وعجزها عن تدبير الشئون العامة ، هو الذي أفسح الطريق أمام تصاعد الحركات الدينية المتطرفة التي اعتمدت على جزء من المجتمع المدني ووظَّفتْ سخطه وخيبته لتأويلاتها الظلامية فهل يحق لنا أن ندافع عن الدولة بإطلاق ، فيما هي تمنع المجتمع المدني من ممارسة حقوقه الديمقراطية لتجـديد الدولة

وحمايتها ؟ من هذا المنظور أرى أن عودة القوى الديمقراطية والمثقفين المؤمنين بالتغيير ، إلى المجتمع المدنى هى الخطوة الأولى لإيجاد مرتكزات لاستئناف مشروع النهضـة وتأصيل سـيرورة النظام الديمقراطى . ومن الخطأ أن نترك المجتمع المدنى فريسة لخطاب ماضوى منغلق ، أو لخطـاب رسـمى تثقله بلاغـة التبرير والـزيف .

المجتمع المدنى ودوره فى الفعـل النهوضى

إن العودة إلى المجتمع المدنى هى فى متناول كل القوى والاتجاهات بما فيها الدولة . لكن ذلك لا يعنى أن المجتمع المدنى العربى منعدم ، بل هو موجود من خلال العديد من الأحزاب والهيئات والجمعيات والمشاريع المستقلة ، ويعبر عن نفسه خلال الفترة الأخيرة — عبر جمعيات حقوق الإنسان والمطالبة بالديمقراطية . وهذه المؤشرات بالذات هى التى تؤشر على وجود « حالة نهضوية » داخل المجتمع المدنى تقتضى استثماراً خصبا يجنبنا الإجهاض والحبوط . ليس المطلوب التلويح بنموذج ماضوى أو « عالمى » لتحقيق النهوض العربى ، وإنما العاجل حالياً ، تقوية المجتمع المدنى بوصفه ضماناً للديمقراطية ، لا الديمقراطية المثالية ، بل ديمقراطية الصراع والحوار . لذلك فالقول بأهمية المجتمع المدنى من أجل استئناف الفعل النهضوى لا يجب أن يفهم على أنه حلٌ سحرى ، بل معناه التأكيد على الصـراع ، والمجابهة والقبول بالاختلاف :

– الصراع بين قوى التقدم وقوى المحافظة الرجعية من خلال الاحتكام إلى الرأى العام وإلى المجتمع المدنى .

– والمجابهة مع محتكرى الحقيقة أو الذين يزعمون أحادية التأويل متسترين على استبداديتهم

– والاختلاف على أساس أن الحقيقة متعددة المظاهر والوجوه والاختلاف حولها سبيل لتصحيح الأخطاء واكتمال الوعى .

لقد تعطلت آليات (ميكانيزمات) الفعل الاجتماعى والسياسى . بمعناه العميق نتيجة للتسلط وتهميش المواطنين ، وإبعادهم عن المشاركة الفعلية فى القرار ومراقبة الحاكمين . من ثم فإن الاستئناف النهضوى يستوجب استعادة الآليات المفتقدة لإخراج مجتمعاتنا من الجمود والدوران فى الحلقة المفرغة ، وهنا يأخذ الرهان الديمقراطى حجمه الكبير على اعتبار أن الديمقراطية هى الجسر الضرورى لإنجاز التغيير وفق إرادة الأغلبية . وهى أيضاً الشرط الأولى لتوفير مناخ الانتقال من مفهوم الهوية الثابتة إلى مفهوم صيرورة الهوية ، أي توفير القدرة على محاورة الذات والآخر والتاريخ بتفاعل وحيوية لتجديد الرؤية ، واستـيعاب التحـولات ، وإنتاج الفعـل المبدع .

مجلة الهلال والزمن العربى

بقلم : سميح القاسم

★ لم تكن المبادرة لتأسيس « الهلال » تحقيقاً لحلم شخصى أو إنجازاً لمغامرة فردية فحسب . كان الإقدام على إنشاء هذه المجلة (وأرجو الإخوة اللغويين توثيق اللفظة) ، جزءاً من مشروع وطنىّ مصرىّ وقومىّ عربىّ ، يطمح الى تحديث الحياة العربية ، المحكومة بحالة ثقيلة من ركود لزج ومظلم استمر نيفاً وخمسة قرون .

كان الإرهاص بزمنٍ جديد من التنوير والتثوير والتغيير قد بلغ مرحلة الغليان فى أغوار كوكبة نخبوية طليعية ، من رجال ونساء ، ذاقوا تفاحة المعرفة الأوربية فاستطابوها واستساغوها وسكنهم الحماس لنقل أشتالها وغرسها فى تربة العرب المتروكة ، بوراً ، أرداحاً من زمن هو أشبه بالورطة التاريخية .

لقد بدا الحكم العثمانى لعامة العرب أمراً طبيعياً ، باعتباره استمراراً عضوياً للخلافة الإسلامية ، ولم يكن التعامل مع الأتراك العثمانيين كأنّما هم غزاة أجانب أمراً ممكناً ، ذلك أن العنصر الدينى فى علاقة الحاكم والمحكوم كان من القوّة بحيث أصبح التنكّر له أو تجاهله ضرباً من الكفر أو الجنون .... ولولا بروز الطورانية باعتبارها تياراً فكرياً قومياً تركياً متعصباً لما أتيح للعرب الظرف الأكثر قابلية لبلورة نزعاتهم هم القومية . وحين نشأ هذا الظرف الموضوعى ، فقد كانت

من سبتمبر سنة ١٨٩٢ الى اغسطس ١٨٩٣



مجلة علمية تاريخية صحية أدبية

لمنشئها

جرجي زيدان

قيمة الاشتراك خمسون غرشاً مصرياً في السنة بالقطر المصري و ١٢ شليناً او ١٥ فرنكاً في الخارج

AL-HILAL

A Fortnightly Scientific & Literary Arabic Review

Edited by

G. ZAIDAN *M. R. A. S.*

SUBSCRIPTION; 12 SH. OR 15 F^rs. PER ANNUM

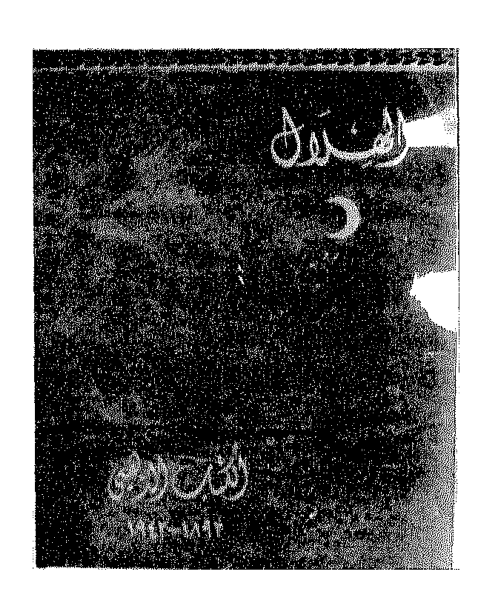
Vol. I

Second Edition

From September 1892 — August 1893

AL-HILAL Printing office, Faggalah, Cairo, Egypt

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر طبعة ثانية سنة ١٨٩٨





« الهلال » وشقيقاتها جزءا من بنية ثقافية تحتية مهيّأة لاستيعاب الحلم الإقليمي المصرى والقومي العربى ودفعه باتجاه التحقق والتجسد على مساحة المكان العربى الباحث عن زمانه المطابق .

لقد شكّلت « الهلال » وشقيقاتها ركناً أساسياً من عمارة ما كادت تكتمل حتى تعرضت لهزات سياسية واجتماعية ألحقت بها صدوعاً خطيرة تتهدّد مصيرها ، ونعنى عمارة النهضة القومية العربية الحديثة التي ترسّمت خطا الحركات القومية فى الغرب باتجاهين بارزين :

التقليد الحرفى فى مجال الأطر : البرلمان ، الأحزاب ، البرامج ، الإيديولوجيات ، الأزياء ، والعلاقات العامة .

محاولة الهضم والإستفادة من التجربة الغربية بالاتكاء على التراث فى جهد توفيقي لم يُكتب له النجاح الباهر .

ويُخطىء كل من يزعم أن مشروع النهضة العربية الحديثة بلغ النهاية من طريق مسدود ، فلا يجوز التقليل من شأن الإنجازات التى حققها هذا المشروع غير ان الهجوم الذى يتعرض له الفكر النهضوى العلمانى من جانب التيارات السلفية لا يفتقر الى التفسير حتى لو كان تبريره أمراً شاقاً على النفوس .

إن طرح الفكر الدينى والحل الدينى بديلاً ونقيضاً للفكر القومى والحل القومى يعتمد إلى مدى بعيد على أخطاء الطرح القومى وخطاياه ..

لقد طرحنا فكرة الوحدة العربية وأنزلنا الدبابات الى الشوارع ، والجامعات لمنع الوحدة ، لإصرارنا على النهج القبلى فى مفهوم الوحدة ، بمعنى أن هذا « الشيخ » هو المؤهل الوحيد لزعامة الوحدة ، وعلى

« القبائل » و « العشائر » الأخرى أن تبايعه بلا جدل وبلا استئناف على أىّ من مواقفه الشخصية الموغلة فى الذاتية الى حد النرجسية .

وأقمنا البرلمانات أشكالاً دون مضامين برلمانية حشدنا لها زعماء البطون والأفخاذ وجمعناهم فى مجلس أميرى أو ملكىّ أطلقنا عليه اسم البرلمان ..

وشكّلنا الأحزاب محكومين بالرواسب القبلية وشبه الإقطاعية حتى ألفينا أنفسنا قبالة حالة يعجز فيها الحزب الواحد عن توحيد قطرين .. وأكثر من ذلك فقد أنشقّ الحزب على نفسه وأقام دولتين غير وديتين على الإطلاق وتتقارب البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين انجلترا الملكية المحافظة وفرنسا الجمهورية الاشتراكية أكثر بكثير مما هو حاصل بين دولتين يحكمهما حزب الحزبين .

وارتكبنا فى مجال التعامل مع الإيديولوجيات أخطاءً لا تُغتفر لشدة ما ألحقته من إساءات بالإيديولوجيات وبالجماهير على حد سواء .

على هذه الخلفية القاتمة من الممارسات المُحبطة تصاعدت الحملة المُضادة للفكر القومى غير أن فرسان هذه الحملة يكررون الخطأ الذى ارتكبته بعض الفصائل القومية العلمانية بوضعهم الحل الدينى فى مواجهة الحل القومى ، وكبديل / نقيض / مطلق له .

ثمة أزمة شاملة فى الواقع العربى والحياة العربية ، أزمة سياسية ، أزمة فكر، أزمة اقتصاد ، وأزمة مجتمع ، أزمة ثقافة وأزمة عقيدة .. ولا يستطيع المثقف الملتزم الركون الى الحيدة فى جهنم الأزمات هذه . لا مبرر للنكوص ولا جدوى فى التقوقع .

نحن مطالبون بالانخراط فى صفوف الجماهير الملخومة بالإحباط الموجوعة بالنكسات الى درجة الفضيحة .

نحن مطالبون بإعادة النظر وليس بالالتفاف على الواقع وتجاهله .. نحن مطالبون بالتكرس لإنجاز ثورة ثقافية تعتمد إنجازات الماضى وإيجابياته وتستشرف المستقبل من خلال الالتحام بالحاضر وتغّوره ومواجهته من داخله ، لا باستحضار الأرواح أو الاستسلام العبثى للغيب ولعواصف المجهول .

لو تحقق حلم الرواد النهضويين لأصبح « الهلال » بدراً تاماً .. غير أن الحلم شىء والواقع شىء آخر .. وزمن الحلم النهضوى شىء والزمن العربى الراهن شىء آخر .. ولابد من تطابق الطموح وزمنه .. ومن أجل ذلك نحتفل بمئوية الهلال آملين باللقاء القريب فى المهرجان المئوى القادم ، فلنحافظ على صحتنا إلى ذلك اليوم القريب إن شاء الله، ولنحافظ على عقولنا فى زمن التوعك والجنون هذا .. تحية « للهلال » القاعدة والمنشأة والحلم .. تحية للعاملين فى هذا الصرح الحضارى العظيم .. تحية ومحبة لجماهير القراء ، والجماهير ، صانعة الزمن العربى القادم ....

البحث العلمى في دولة نامية

بقلم : د. مصطفى سويف

ليس القصد من هذا الحديث تقديم سيرة ذاتية لكاتبه ، لكن الهدف الحقيقى هو عرض صورة حية للخبرات التى يلقاها من يتصدى للاشتغال الجاد بالبحث العلمى فى مجتمعنا المصرى بكل الظروف المفروضة عليه كمجتمع نام يعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين . أما تبرير هذا العرض فهو أنه شهادة معايشة لمرحلة بعينها من مراحل التاريخ الاجتماعى للبحث العلمى فى مصر ، ومما لا شك فيه أن الوعى بالتاريخ شرط من الشروط الضرورية فى حياة الأمم المتحضرة . غير أن شهادتنا هذه ليست مقالا فى التاريخ ، ولكنها وثيقة تقدم منظورا للأحداث والحقائق محدودا بحدود صاحبها ، وبالتالى فهى معرضة لمخاطر النظرة الجزئية ، والتأويلات الذاتية . غير أننا سنرتضى الاعتراف بهذه المخاطر ، على أن نحاول ما وسعنا الجهد ألا نتورط فى مساوئها ؛ وسيكون ذلك بالوقوف عند الجزئيات المحملة بالدلالات والمعاني العامة ، والانصراف عن الوقائع شديدة الخصوصية، أو شديدة الضيق فى معناها . وسيكون هذا هو طريقنا نحو الرؤية الموضوعية والفائدة المعممة .

بدءا من الأحلام :

أن تحلم بأن تجعل من البحث العلمى قبلة حياتك التى تقود خطاك أكثر من أى قبلة أخرى ، فهذا حلم جميل وممتع ؛ لأن مجرد بزوغه فى النفس يحمل فى طياته شرط الاستمتاع به ، ذلك أن هذا البزوغ يعنى أن حاجة ما قد تولدت فى نفسك واختمرت الى حد معقول ، وقد تولد هذا الحلم لإرضاء هذه الحاجة . ولكن عندما تبدأ الخطوة الأولى نحو تحقيق الحلم



وإحالته الى واقع تبدأ متاعب الرحلة تتوالى عليك ، فاذا بدأ ورود هذه المشاق فلا انقطاع لتداعيها ، ولا هدوء لايقاعها . تبدأ المتاعب مع أقرب المقربين اليك ، أفراد الأسرة الذين كنت تأنس اليهم ، وتطمئن على أحلامك الصغيرة أن تعرضها على مسمع منهم ؛ وكأن اطمئنانك هذا جزء لا يتجزأ من نسيج يضمك وإياهم ، وهم يقولون إنهم يجلّون العلم والعلماء ، ويحثونك على الاجتهاد والتفوق فى تحصيل العلم ، ويقرنون على مسمع منك بين ارتفاع القامة فى العلم وعلو قدر الشخص ومكانته ، ولكن فى اللحظة التى تبدأ فيها القيام بالخطوة الحاسمة الأولى على الطريق الى الاشتغال الجاد بالبحث العلمى ، بمعنى أن تجعل له الأولوية فى اختياراتك العملية (كأن تتجه الى الالتحاق بكلية العلوم أو الآداب بدلا من كلية الطب مع أن مؤهلاتك فى الثانوية العامة تسمح لك بالدراسة الطبية) يتوقف هذا كله ، يتوقف التغنى بسيرة العلم والعلماء ، وينقطع ما اتصل من أحاديث الحث والتشجيع على السير فى هذا الطريق ، وسرعان ما يطفو على السطح نوع آخر من الحديث ، وتوجُّه آخر للحث بالتلميح حينا وبالتصريح أحيانا ، الحث على الاهتمام بالأمور العملية فى الحياة ، وعلى ضرورة التنبه الى أن احتراف البحث العلمى فى بلدنا يعتبر نوعًا من السفه أو سوء التدبير لأنه لا يضمن العيش الكريم .

ويبدأ يساورك العجب ، مع قدر من الاستنكار لهذا التغير الفجائى الذى تشهده ، فى النفوس وفى الوجوه وفيما يصدر عن أصحابها من أقوال غير الأقوال وأفعال غير الأفعال . وسواء اتهمتهم نتيجة لذلك بالنفاق ، أو باختلال الاتساق بين ما يقولون وما يفعلون ، أو قنعت باستخلاص أنك فى واد وهم فى واد ، فالأمر الذى لا شك فيه أن أزمة فى العلاقات الانسانية بدأت تتخلق وتتبلور لتعوق التواصل بينكما ، أنت وحدك فى طريق ، وهم جميعا فى طريق آخر .

هكذا تخلقت البنية الأساسية لأزمة مستعصية فيما بيننا ، أنا وأسرتي ، بدءًا من الخطوة الأولى لتحويل الحلم الى واقع . واكتشفت عندئذ أن الكثافة العالية للعلاقات الانسانية داخل الأسرة في مجتمعنا سلاح ذو حدين ، حدٌ فيه النعمة حين يحيط المرء بكل أنواع الرعاية المعنوية ، والمادية أحيانا ، وحدٌ فيه النقمة، عندما يستخدم أداة بالغة السطوة لوأد أية بادرة تصدر عن الفرد لتنبيء باختلافه عن المجموع .

تكريس العصامية الأكاديمية

فإذا قدّر لك أن تعبر مرحلة البدء هذه بنجاح ، وثبتت قدمك على عتبة الطريق الذي تريد فثمة مشاعر كثيرة تتلاحق عليك؛ يعلو بعضها بروحك المعنوية إذ تشعر ببوادر النصر لأنك تقترب من أمل طال نشدانه . ويثير بعضها الآخر لديك مخاوف مبهمة ، ويزداد وضوح هذه المخاوف مع الأيام ، وتكتشف شيئا فشيئا أنها مخاوف من فقدان التوجه ، أو من التوهان ، لأنك لا تجد علامات لإرشاد السائرين على الطريق. في هذه المرحلة تكتشف أن عليك أن تنمّي في نفسك ما يمكن أن تسميه « العصامية الأكاديمية » ، أن تعتمد على نفسك معظم الوقت في كل ما من شأنه أن يقيم دعائم شخصيتك العلمية ، بدءًا من قدرات تحصيل المعرفة ، الى مهارات المفاضلة والتمييز بين مختلف المجالات المعرفية التي تعرض لك ، الى تنمية ما يمكن أن تسميه حاسة التوجه الذهني الصحيح ، الى تكريس بعض السمات الوجدانية المساعدة ، كالمثابرة والاكتفاء الذاتي . صحيح أن الأستاذ موجود . وقد يسعدك الحظ فيكون الأستاذ واسع الأفق عقلا ووجدانا ، غير أن تكوين باحث علمي لا يكفي للوفاء به وجود الأستاذ حتى ولو كان قمة في غنى العقل والنفس . لابد من أن يكون هذا الأستاذ جزءًا مما يسمى بالمناخ المكرّس للعمل العلمي ، حيث كل صغيرة وكبيرة ، بما في ذلك جزئيات وكليات العمل الاداري وأبواب الإنفاق المالي مرتبة أساسا لتيسير خطى الانجاز الأكاديمي . لكن معظم مقومات هذا المناخ لم تكن متوافرة في إطار كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول) عندما بدأنا التلمذة فيها أنا وجيل كامل من الشباب في أوائل الأربعينات . وأكبر الظن أن الأمر كان كذلك في سائر كليات الجامعة ، ولكني أخص بالذكر كلية الآداب لعلمي بما كان يجري فيها . ولاتزال الأمور تسير من فقر الى فقر أشد وأعتى في مقومات المناخ هذه ، فاذا طرأ على أحد المجالات قدر طفيف من التحسن فإنه يكون في أغلب الأحيان مصحوبا بما يعادله أو يفوقه من التدهور في مجال آخر . وعلى سبيل المثال فعندما كنت أنا وجيلي في عهد التلمذة كنا نجد أمامنا بعض الأساتذة الأجلاء نلوذ بهم ، وكانوا ولا شك يقدمون

لنا سندا نتكىء عليه فى مواجهة سائر الظروف المعاكسة . أما الآن فقد تكفل نظام الإعارة الى بلاد النفط بالقضاء حتى على هذا العنصر ، شعاع الأمل الأخير . وإحقاقًا للحق لم يكن نظام الإعارة وحده هو الذى قام بهذه المهمة ، لكنه جاء ليكملها على خير وجه ممكن ، جاء على قمة كومة كبيرة من الاجراءات والنظم واللوائح الفاعلة فى الاتجاه نفسه فكان القشة التى قصمت ظهر البعير .

وعلى ذلك فلاتزال الحاجة الى تنمية مهارات « العصامية الأكاديمية » ، قائمة حتى يومنا هذا ، وربما زادت هذه الحاجة شدة وإلحاحا فى بعض ميادين النشاط العلمى عنها فى بعضها الآخر .

مستلزمات العصامية الأكاديمية

سئلت أكثر من مرة عن المستلزمات النفسية (العقلية والوجدانية) للعصامية الأكاديمية التى كثر حديثى عنها ، وأعنى بالمستلزمات مجموعة الشروط التى يجب أن تتوافر لدينا حتى نحصل من هذه العصامية على آثارها المرغوبة ونتجنب آثارها الجانبية الضارة ؛ وللإجابة لا أجد خيرا من الإشارة الى عنصرين رئيسيين ، أولهما : أن تكون على درجة عالية من الوعى بأنك اخترت طريقا وعرا ، أشق ما فيه أنه يفرض عليك شعورا ملحا بالوحدة . عليك أن تقبل هذا الشعور قبول معايشة ايجابية لا قبول استسلام ، فقد جاء نتيجة طبيعية غير مباشرة للطريق الذى اخترته ، تماما كما يجىء الأبناء نتيجة طبيعية غير مباشرة للزواج . وثانيهما : أن تعتزل دون أن تنعزل ، لكى تستثمر وقتك أفضل استثمار ، وتنأى بنفسك عما قد يفسد قصدها ؛ ولكن لا تدع العزلة تطغى عليك ، فيضيق مجال رؤيتك ، وينكمش مجال حركتك ..

دواعى العصامية الأكاديمية

ثم يبقى بعد ذلك سؤال هام : هذه العصامية الأكاديمية فى مواجهة ماذا ؟ ما الذى يفرضها باعتبارها طوق النجاة ؟ والإجابة الأمينة على ذلك هى : أن هناك أمورًا كثيرة فرضت علينا هذه العصامية ولاتزال تفرضها فرضا .

كان الموقف الذى يواجهنا ينطوى دائما على طريقين لا ثالث لهما ، إما هذه العصامية ، أو التراجع التام عن الحلم . وامتد هذا الموقف على طول نصف القرن الذى هو امتداد عمرنا (أنا وأبناء جيلى) فى التوجه الى البحث العلمى . وفيما يلى محاولة لحصر الأبواب الرئيسية التى تقع تحتها محتويات هذا الموقف من أمور معاكسة :

أولا - الخواء المادى : لم أجد أفضل من هذه البطاقة للإشارة الى وضع تكاد تنعدم فيه متطلبات النشاط الأكاديمى الجاد داخل الجامعة ؛ فالدوريات العالمية المتخصصة لا تتوافر بانتظام أو لا تتوافر

إطلاقا . وميزانيات البحوث فى الكليات من الضآلة بحيث تُشعر المرء بالمهانة الشديدة أو بعبثية مفهوم البحث العلمى كما تنظر اليه سلطات الجامعة وسلطات الدولة .

والمعامل غير مهيأة لأكثر من إجراء بعض التجارب المبسّطة التى تلزم لطلاب سنوات الليسانس أو البكالوريوس . وحضور المؤتمرات العلمية فى الخارج ليس له سوى ميزانية هزيلة لا تقل فى هزالها عن ميزانية البحوث . ومكاتب أعضاء هيئة التدريس فى معظم الكليات لا تصلح إلا لتمضية الدقائق التى نقضيها فى المكان بين محاضرة ألقيناها وأخرى سنلقيها ، أما أن تعين على البقاء فيها ساعات متصلة للاطلاع والانتاج المكثّف فهذا أمر غير وارد . هذه عينة محدودة من بنود الخواء المادى ، وعلى مر الخمسين سنة التى عرفت خلالها جامعة القاهرة لا أذكر أن الجامعة أبدت يوما استعدادا لإنهاء هذا الوضع . وما استجد على الساحة من جامعات جديدة لم يتخلق معه وضع أفضل، بل ولا تخلّق معه وضع مماثل ، كانت الأوضاع تتدهور بقدر ما تتوالى . لذلك كان علىّ وعلى أمثالى أن يتنبهوا منذ وقت مبكر الى قيام هذه العقبات ، وأن يعترفوا دون أى خداع للنفس بما يمكن أن تفعله بمسيرتهم ، وأن يجددوا العهد بينهم وبين الحلم حتى يتمكنوا من إعداد العدة اللازمة للتغلب على كل بند من هذه البنود بالمواجهة أحيانا ، والالتفاف حوله أحيانا أخرى .

ثانيا - التثبيط الإيجابى الساذج :

يتعرض من يداعبه الرجاء فى أن يأخذ مسألة البحث العلمى مأخذ الجد الى أقدار وأنواع من تثبيط الهمة تثبيطا ايجابيا لا أول له ولا آخر . يحدث هذا بكثافة ملحوظة من أعداد متزايدة من الزملاء ، ويحدث بصورة أشد كثافة ممن بيدهم سلطة اتخاذ القرار .

ومع ذلك فهذا طراز من التثبيط يصدق عليه الوصف بالسذاجة لأنك لا تلبث أن تكتشف أن هؤلاء الذين يثبطون همتك لا يقصدون الإساءة اليك ، بل إنهم يشفقون عليك بمعنى ما ، ولسان حالهم : لماذا تحمّل نفسك هذه المشقة وأنت فى غنى عنها ، فأنت غير مطالب بإجراء هذه البحوث والدراسات (وبوجه خاص إذا كنت قد بلغت مرتبة الأستاذية !) ثم إنها لا تدر عليك أى عائد مادى ، بل العكس هو الصحيح ، فأنت تنفق عليها من مالك الخاص . هذه رؤيتهم للأمور ، وهم فى حدودها ناصحون مخلصون ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وما عليك إلا أن تقاوم فى أدب جم ، أذا لم تكن تقبل النصيحة .

ثالثا - التثبيط الايجابى الفلسفى :

هناك أنواع أخرى من التثبيط الايجابى أشد من هذا الذى ذكرناه تعقيدا وأكثر ضررا ، لأنها تنطوى على فلسفة واضحة وليست مجرد رد فعل ساذج ، وبالتالى فقد تتسرب آثارها التخريبية باسم الاقتناع

العقلانى . وتتلخص هذه الفلسفة فيما يأتى : لا قيمة لأى اجتهاد يقوم به شباب الباحثين من أبناء الدول النامية فى العلوم الأساسية ، لذلك وجب أن يجتهدوا فى حقل العلوم التطبيقية ، وانطلاقا من هذه الفلسفة يبدأ محدثك فى عرض حججه المثبطة وعليه سيماء المتكلم الموضوعى . وعليك أنت أن تكون على درجة عالية من الوعى بأمور السياسة الدولية ، والتاريخ ، وتاريخ العلوم بوجه خاص ، بالاضافة الى ارادة لا تنثنى عن التمسك بالتوجه العام الذى اخترته لنفسك حتى تصمد أمام هذا الطراز من التثبيط فيطيش سهمه ، وكثيرا ما ووجهت بهذا النوع من الحجج ، وكنت فى شبابى أحاول أن أرد على الحجة بمثلها ، ثم أدركت خطأ محاولة الرد من جانبى ، ومع الأيام تعلمت مهارات اجتماعية أخرى تعفينى من مشقة جدل لن يفيدنى ، وقد يفيد محدثى بمزيد من شحذ مهاراته التخريبية وزيادة كفاءتها .

رابعا - التثبيط الايجابى المسيس : ثم هناك نوع ثالث من التثبيط أسوأ من النوعين السابقين وأشد ضررا ، هذا هو التثبيط المسيَّس . وهو نوع ساد استعماله فى رحاب الجامعة على طول الخمسينات والستينات . وأثيرت حوله هالة تجعله يبدو وكأنه جزء من الفلسفة السياسية للدولة . أما مضمونه فيمكن تلخيصه على النحو الآتى : أن العلم ينبغى أن يوجه الى خدمة المجتمع . هذه هى المقدمة ، وهى قولة حق أريد بها باطل . ويبدو ذلك واضحا عند ذكر ما يُرتَّب على هذه المقدمة ، ومؤداه أن الاشتغال بالعلوم البحتة (أى التى لا يظهر لها هدف اجتماعى قريب يراه الجاهل ونصف الجاهل) مضيعة للوقت أو ترف لا يجوز أن ننساق اليه .

ومن الواضح أن هذا الرأى قريب من الرأى الذى أوردناه تحت عنوان التثبيط المفلسف ، ولكن الجديد فى الرأى الحالى أنه يضيف قدرا من التلميح المهدِّد بأن الدولة لا ترضى عن ذلك . وفى مناخ الخمسينات والستينات كان هذا التهديد المستتر يفعل فعله المدمر فى النفوس ، وربما طُمست معالم كثير من الهمم الشابة تحت وطأته ، وهى بعد فى بداية الطريق .

خامسا - التشتيت المتعمد : وفى هذا المناخ لم يقتصر الأمر على التثبيط الايجابى بأنواعه المختلفة ، بل تعداه الى محاولات التشتيت المتعمد ، ذلك بأن تجد نفسك هدفا لمحاولات التجنيد التى لا تكاد تنقطع لخدمة النظام السياسى ، بأشكال متباينة ومن جهات متعددة ، فإذا قبلت فقد تبدد وقتك وجهدك ، ولم يبق لديك منهما ما تنفقه فى البحث العلمى . وإذا لم تقبل تعرضت لأخطار الشك فى ولائك وما قد يترتب على هذا الشك من متاعب لا تعلم مداها . وعليك عندئذ أن تتدبر الأمر بحصافة شديدة ، أهم ما تنطوى عليه هو ضمان الاستمرار فى طريقك مع الابتعاد عن الاستفزاز ما أمكن .

وقد تعرضت لأكثر من موقف من هذا الطراز ، وفي كل مرة كنت أزداد إصرارا على مواصلة السير في طريقي ، وأزداد قدرة على لبتكار أساليب الاعتذار التي لا تؤذي مشاعر محدثي ، ولكني كنت في الوقت نفسه أشعر بشيء من الخوف المبهم يعايشني لفترة حتى يتلاشى .

سادسا - الخواء المعنوي : يناظر الخواء المادي في الأدوات خواء معنوي في البشر . تقلّب النظر فيمن حولك فلا تجد بينهم إلا قلة محدودة هم الذين نذروا أنفسهم للعمل العلمي الجاد . وحتى هذه القلة تتعرض من حين لآخر للتاكل . كان الحال كذلك في أوائل الخمسينات ، واستمر كذلك حتى أوائل التسعينات ؛ نجحت عوامل كثيرة ، تراوحت على طول هذه الفترة ، بين الوعد والوعيد ، نجحت في أن تذرو أدراج الرياح معظم الأحلام العلمية الصغيرة التي لابد أن تكون قد طافت ببعض الرءوس في شبابها . ولا يمكنك والأوضاع هكذا أن تجد سبيلا الى التواصل العميق مع معظم زملاء المهنة ، لأن البشر يتواصلون بقدر ما يتناغم بينهم من قيم واهتمامات مشتركة ، ومادمت لا تجد لديهم نتاجا لغرس الأحلام ولا تجد الأحلام نفسها فلا يبقى أمامك إلا أن تلوذ بالصمت أمام هذا الخواء .

وهكذا كان قدري منذ اعتزمت أن أعيش عاكفا على البحث العلمي الجاد في مصرنا العزيزة ؛ قدّر لي أن أهدد منذ الخطوة الأولى ، عندما بدأت أحيل الحلم الى واقع . فلمّا اجتزت عتبة الطريق اكتشفت أن عليَّ أن أنمي في نفسي مجموعة من المهارات العقلية والاجتماعية والخصال المزاجية تجتمع جميعا تحت عنوان « العصامية الأكاديمية » ، كان ذلك في مواجهة الخواء المادي فكان عليَّ أن أزود نفسي بمعظم ما يلزم من إعداد لحياة البحث بما في ذلك المراجع والأدوات والترحال ، أنفق عليها وعلى متعلقاتها . وكان كذلك في مواجهة أنواع من التثبيط الايجابي تتفاوت فيما بينها من حيث السذاجة أو سوء القصد الذي يتعدى مجرد التثبيط الى التشتيت المتعمَّد ، وبالتالي كان عليَّ أن أتعلم أنواعا منوعة من الصمت وأن أتقنها جميعا وأتقن التنقل بينها حسب مقتضى الحال . ثم كانت العصامية مطلوبة أيضا للصمود أمام عاديات الخواء المعنوي ، حيث يعز التواصل ويلزم رصيد ضخم من الاكتفاء الذاتي .

أما بعد - فهذه شهادة صادقة على مرحلة بعينها من مراحل التاريخ الاجتماعي للبحث العلمي في مصر ، خلاصتها أن طريق البحث العلمي الجاد لدينا شديد الوعورة ، وأن السير فيه بالغ المشقة ؛ كان ، ولايزال ، فهل سيظل كذلك ؟ أم آن الأوان ليبدأ العمل الصادق في سبيل التخفيف من مشقته ووعورته كي تزداد أعداد المقبلين على ارتياده ، ويزداد المؤمنون به ايمانا على ايمانهم .

كتاب الهلال

يقدم

فنتازيا العزيزة

بقلم:

د. هـ. لورانس

ترجمة

د. عبد المقصود عبد الكريم

يصدر

٥ نوفمبر ١٩٩٢

روايات الهلال

تقدم

ونجمة الفجر لا تدفئ

بقلم

د. أمين العيوطي

تصدر

١٥ نوفمبر ١٩٩٢

ثورة فى ثورة

من ثورة بالتعليم .. إلى ثورة على التعليم

بقلم : د . سعيد اسماعيل على

« من شابه أباه ، فما ظلم » !!

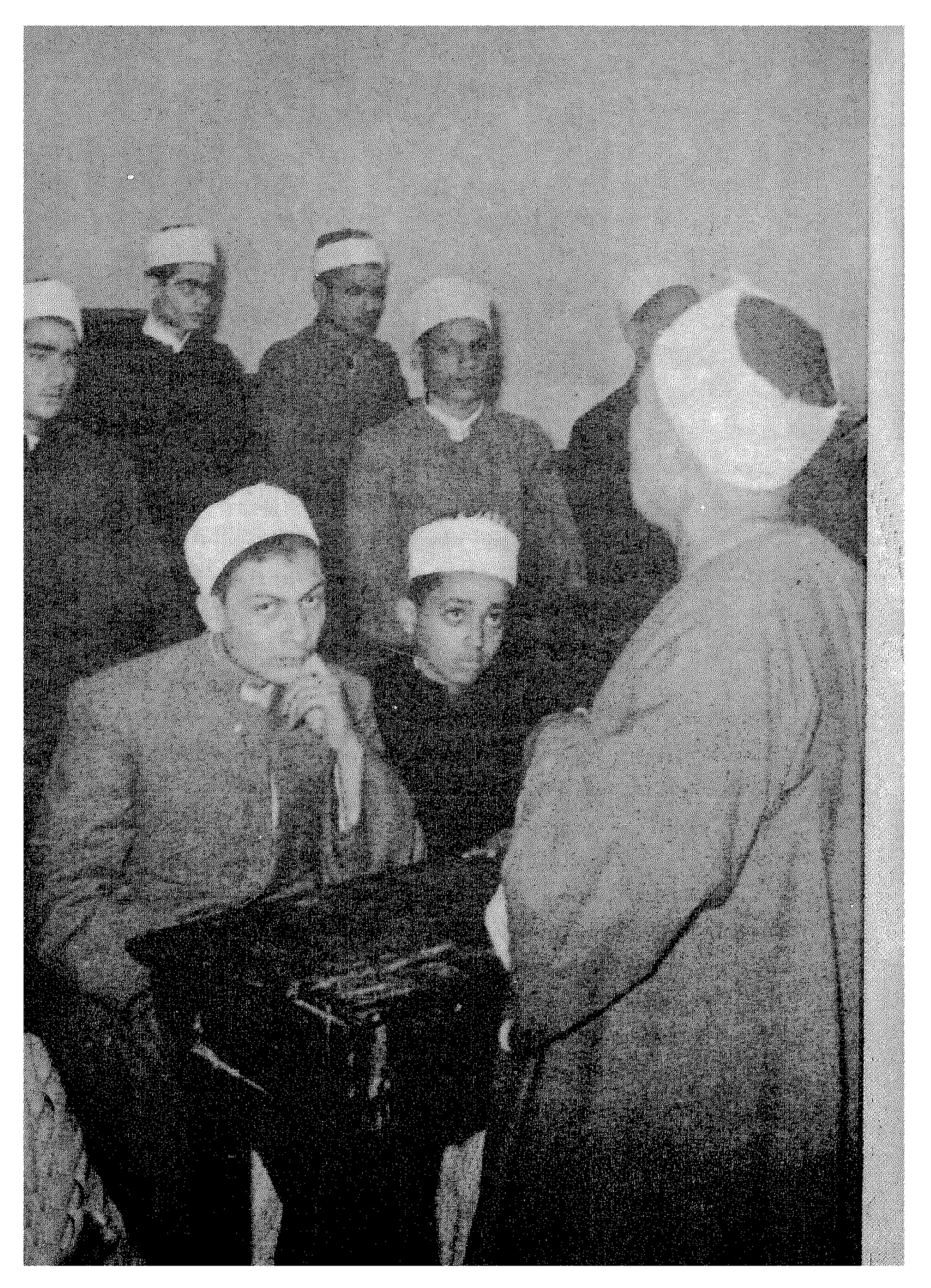
لم تكن تلك المقولة تشير فقط إلى مجرد التماثل والتشابه البيولوجى بين الابن وأبيه ، وانما كانت تلخص كذلك ، الغاية التى كانت تراد دائما من الجهد التعليمى والعملية التربوية .

وهكذا أصبح المربون : معلمين وآباء ، يحرصون الحرص كله على أن يربوا أبناءهم وتلاميذهم ، لا وفقا لما يريده ويرغب فيه الصغار ، بل حسبما يرى الكبار أنفسهم ، زعما منهم ، أنهم أدرى وأعلم باحتياجات هؤلاء الصغار ، وبالتالى ، فقد كان من الضرورى أن يجىء الأبناء صورة طبق الأصل مما كان عليه الآباء ، وبالقدر الذى يكون فيه تماثل ، بالقدر الذى يقدر به نجاح التعليم ، فإذا ما حدث العكس ، كان هذا تأكيدا على الفشل والاخفاق .

ومن هنا فانك إذ تتفحص مسيرة التعليم فى كثير من المجتمعات فى العصور القديمة ، تلحظ أن القرن يجىء مثله مثل سابقه ، وينبىء غالبا بما سيكون عليه لاحقه، فالمحافظة والجمود والثبات شعارات مرادة ، والتغيير والتحول والتطور شعارات غير مرغوب فيها .

وهكذا تحددت وظيفة التعليم : أن يكون أداة للمحافظة على الموروث البشرى بكل مكوناته من معتقدات وأفكار وعادات وتقاليد وقيم ونظم واتجاهات .

ويخطىء البعض إذ يظن أن أفلاطون فى (الجمهورية) إنما أراد (التغيير)





محمد رشيد رضا



جمال الدين الأفغانى

و (التطوير) فى المجتمع الأثينى القديم ، ذلك أنه كان على يقين بأن (المعرفة) موجودة سلفا ، ولدى كل انسان (بالفطرة) ، وأن الناس (معادن) ثابتة الهوية ، وما كان الفساد الذى قام فى عهده إلا نتيجة (انحراف) المجتمع عن (الثوابت) التى هى قوام الانسان وهوية المجتمع ، ومن ثم فقد اقترح ما اقترح من نظام تعليمى فى جمهوريته ، لا ليبدع وضعا جديدا ، وانما ليعيد ترتيب الأوراق الاجتماعية فيعود كل انسان إلى « أصله » وتصبح العملية التعليمية هى إعادة (تذكير) الانسان بما هو مفطور ومجبول عليه من المعارف والمعلومات .

بل أن الذى يتفحص سلم (التقدير) و (الترتيب) الذى وضعه أفلاطون لمختلف مجالات المعرفة الواجب تعليمها للمواطنين ، يستطيع أن يلمس أن (الثبات) يرفع من قيمة المجال ، وأن (التغير) يحط من أن شأنه ، وبحيث أصبح التساؤل عن (نفع) و (فائدة) المعرفة ، اهانة لها ، ذلك أن المقصود بها ليس (تحريك) الواقع لجعله أكثر نفعا وملاءمة لبنى البشر ، وإنما هى غاية فى حد ذاتها !!

وكان منطق أرسطو هو منهج التفكير المناسب تماما ، بحيث تجىء النتائج غير منبئة بجديد ، لأنها متضمنة فى مقدماتها . وعندما يواجه الإنسان مشكلة ، فما عليه - بناء على هذا - إلا أن يبدأ تفكيره من جملة من (المبادىء) المسلم بها ، ثم يتسلسل فى خطوات منطقية حتى يستنبط الحل أو النتيجة الطبيعية ، أما أن يفكر فى الاتجاه إلى دنيا الخبرة والحركة والفعل ، فهذا غير مطلوب. ومن هنا كان (الاستنباط) منهجا عقليا ملائما ، حتى يجىء يومنا مثل أمسنا ، ويجىء غدنا مثل يومنا !!

وهكذا كانت المرحلة الأولى فى مسيرة التعليم : لا ثورة ... بالتعليم !!

لكن نفرا من العلماء والمفكرين فى عصر النهضة الأوربى وأوائل العصر الحديث أدركوا أن الانسان يستطيع أن يستثمر هذه الميزة التى ميزه الله بها عن سائر الخلق العقل ، ليس كآلة تصوير فوتوغرافى تتلقى ما ينطبع عليها من صور ، وإنما كقوة فاعلة ومحركة ومغيرة لمعطيات الواقع الطبيعى والاجتماعى .

إن حال أى مخلوق آخر ، منذ قرون ، تظل هى هى ، أما الانسان ، فهو الذى يستطيع أن يجعل يومه أحسن من أمسه ، وأن يخطط لكى يجىء غده أفضل من يومه، فبهذا تتطور المجتمعات وتتقدم البشرية وتنشأ الحضارات .

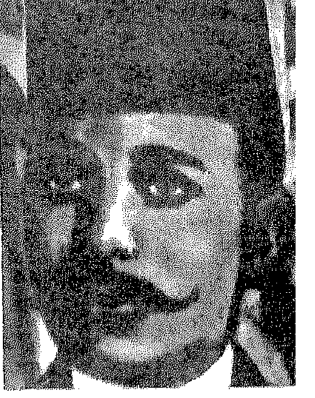
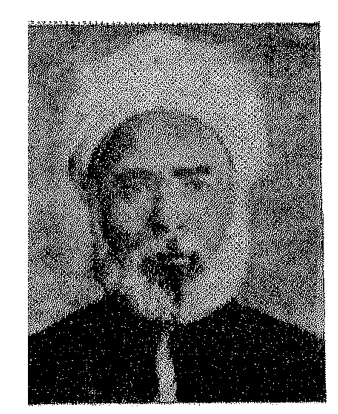
ولكى يتحقق هذا ، فلابد من تغيير البشر أنفسهم .. اعادة بناء الانسان منتج الثقافة ومستهلكها . ومن هنا اتجهت جهود عديدة من قادة الاصلاح وحركات التغيير الاجتماعى والمفكرين والفلاسفة والعلماء إلى التعليم أملا فى أن يكون أداتهم للتغيير الثورى .. للتطوير الجذرى الشامل .

وبالفعل ، شهدت المجتمعات الأوربية منذ عصر نهضتها قفزات متسارعة دفعتها إلى آفاق من التقدم ربما تجاوزت كثيرا من الأحلام .

وفى نفس هذه الحقب ، توارت من أمام التعليم ، فى عالمنا العربى ، الحقيقة القرآنية القائلة بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. توارت فى ظلمات قهر واستغلال أحاط بالانسان العربى فسقط فى جب التخلف ، وأصبحت الكتب التى يتداولها طلاب التعليم « حواشى » و (هوامش) على كتب أخرى سبق تأليفها فى زمن الابداع والازدهار .. أصبحت براعة طالب العلم تتحدد بمقدار ما (يحفظ) ، لا بمقدار ما (يبدع) . ولأن (الصورة) يستحيل أن تجىء أفضل من (الأصل) ، فضلا عن أن تماثله ، تتالى التخلف وتعمق ، وواصل الخط البيانى لتقدم الانسان العربى وتنشئته فى الاتجاه إلى أسفل ، حتى أذا بدأت ذئاب الامبريالية تحوم حول المنطقة ، وجدت الصيد متهيأ للسقوط ، فتقدمت تعربد وتنتشر لتأكل بنهم ولتصبح المنطقة العربية أشلاء خراف على مائدة ذئاب !!

لكن نفرا من مفكرى الأمة المستنيرين ، بدأوا ينتبهون وينبهون : أن شعوب أمتنا بلا سلاح تذود به عن حياضها ، يتمثل فى هذه المدافع وهذا البارود وتلك القنابل والبوارج الشامخات .. وأرضها يستحوذ عليها جنود مدججون بمثل مما لم يألفوه من سلاح .. والمال يتسرب من أيديها إلى جيوب القاهرين ، فماذا بقى أمامهم من سبيل يسلكونها لمواجهة هذه الكارثة التى تحيط بهم من كل جانب ؟

هنا جاءت صرخة الشيخ حسن العطار : ان بلادنا لابد أن تتغير ، فنعلم من العلوم ما ليس فيها !!

مصطفى كامل　　　　محمد عبده

وإذا كانت تلك الصيحة قد لفتها دياجير الظلام المطبق على كل الأرجاء ، فقد جاءت صيحات أخرى أشد قوة وبأسا بعد عقود قليلة على لسان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ومحمد رشيد رضا وعبد العزيز جاويش وأحمد لطفى السيد ، وغيرهم كثيرون ، ليؤكدوا أن (الفكرة) سلاح لا يقل فاعلية عن القنابل والبارود ، شرط أن ترتبط بنبض الجماهير وحركة المجتمع ، وأن (العقول) أرض واسعة لم يحتلها ، بعد هؤلاء الغزاة ، ومن ثم فلابد من تكتيل الجهود لنشر المعرفة بين المواطنين وتثقيفهم وتعليمهم وتربيتهم .

بل أن مصطفى كامل ، فى حديث له مع أحد المراسلين الأجانب ، أكد أن الانجليز – مثلا – إذا جلوا عن مصر طوعا أو كرها ، وظل المصريون على ما كانوا عليه من جهل ، فسوف يكون الباب مفتوحا لقوة غازية أخرى ، تجىء لتحل محل الانجليز ، فتسيطر على البلاد ، ومن ثم فإن جهده الرئيسى يتمحور حول (التعليم) لتوفير شرط (الوعى) الذى هو المقدمة الأساسية للتغيير ، ودعما إلى إنشاء (الجامعة)، التى تجسدت واقعا فعليا عام ١٩٠٨ . وكان حريصا على أن يقيم حفلا كبيرا كل عام يوزع فيه الجوائز على المتقدمين فى المدارس التى كان يرعاها ويخطب فى الناس منددا بالاستعمار حاثا اياهم على الاقبال بكل الطاقة على المدارس .

ولأن السلطة كانت فى يد القاهرين ، فقد حرصوا على أن تجىء خطوات نشر التعليم بأقل من سرعة السلحفاة ، وحرصوا على وضع العراقيل والسدود ، لكن قادة الأمة من أصحاب الفكر والرأى أمثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ، وغيرهم ، استطاعوا أن يكونوا جمعية أهلية تستهدف نشر العلم والمعرفة بين الجماهير ، فظهرت (الجمعية الخيرية الاسلامية) .. وتتالى ظهور جمعيات أخرى

مثلها حتى لقد تفوق الجهد الأهلى الرسمى فى نشر التعليم ليسجل بذلك الحدود بين جماهير تنشد التقدم والتغيير فتسعى جاهدة إلى التعلم ، وقوى مستغلة تنشد القهر والاستغلال فتحاصر التعليم فى أضيق حدود .

وشىء مثل هذا كان يحدث وحدث فى بلدان عربية أخرى كثيرة ...

وكان هذا إيذانا بأن وطننا العربى قد أصبح على عتبة المرحلة الثانية فى مسيرة التعليم ، وهى ان يحقق حلم الثورة الوطنية ... بالتعليم .

تحققت هذه المرحلة بالفعل فى العالم الغربى بدءا من عصر النهضة الأوربى ، وتوالى تدعيمها فيما تلا ذلك من قرون .. لكننا فى وطننا العربى ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم نكن قد دخلناها إلا من جانبين : الأول هو الجانب (الفكرى) ، أما الثانى ، فهو المرحلة السلبية من الثورة الوطنية ، ونعنى بها مرحلة (اجلاء) عساكر الاحتلال ، وإنهاء وجوده (الرسمى) .

... وبقيت المرحلة الأكثر خطرا .. المرحلة الايجابية من الثورة الوطنية .. مرحلة (الفعل) و اعطاء الاستقلال المضمون الحقيقى !!

ومن حسن الحظ ، أن يتنبه مفكرون ، فى وقت مبكر إلى هذه الحقيقة ، من هؤلاء – مثلا – طه حسين ، ففى كتابه الخطير (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى صدر عام ١٩٣٨ ، نبه إلى أن توقيع مصر على معاهدة ١٩٣٦ مع انجلترا هو اعلان (رسمى) بالاستقلال مدعما بمعاهدة ثنائية بعد أن كان قد أعلن سنة ١٩٢٢ بتصريح منفرد من انجلترا ، ومن ثم – هكذا أكد طه حسين – فهذا الاستقلال ، إن هو إلا (خطوة) .. وهى هامة من غير شك ، لكن الأكثر أهمية ، هو المحافظة على هذا الاستقلال وتدعيمه ، ولن تتم هذه المحافظة ، ولن يتحقق هذا الدعم إلا إذا امتلكنا الأدوات والامكانات والمهارات التى هى وحدها السبيل إلى ذلك .. أدوات كسب العيش، وإمكانات التفكير الديمقراطى الحر !

وبالفعل ، فما أن تكاثرت أعلام الاستقلال مرفرفة على كثير من البلدان طوال الخمسينات والستينات ، حتى اندفعت دول كثيرة تقيم المشروعات التعليمية وتوجه الأموال إلى جهاز التعليم ، أملا بأن يعوض مافات من سنوات التخلف ، ورغبة فى أن يحقق حلم (اللحاق) بركب التقدم المتمثل نموذجه فى العالم الغربى .

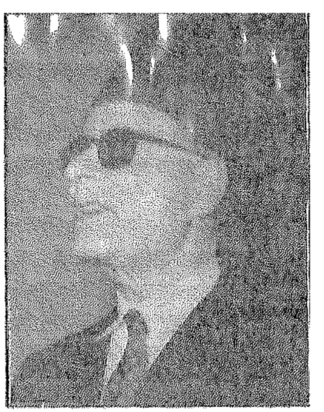
وتمر سنون وأعوام ، ولكن أحوال الجماهير لا تتحسن بالدرجة المأمولة ...

وتمر سنون وأعوام، وأوضاع كثير من البلدان النامية تسوء بل وتزداد سوءا !

عجبا ! كيف هذا ، ولم تعد هناك جنود احتلال تعوق ؟!

كيف هذا ، ولم يعد هناك مندوب سام ينهى ويأمر ؟!


أحمد لطفى السيد


د . طه حسين

وبمثل الحماس الكبير الذى أحيط بالتعليم منذ بداية القرن العشرين ، وازداد فى الخمسينات والستينات ، بدأت نظرات الشك والاتهام تتجه إلى التعليم نفسه ... بدأ كثيرون يتصورون أنه هو (المتهم) . ودعم من هذا الاتجاه ، أن نقدا حادا بدأ يتصاعد فى العالم الغربى نفسه ضد التعليم لأسباب أخرى غير تلك التى قامت فى العالم الثالث .

فى العالم الغربى ، تطلع الناس إلى مهام أخرى ووظائف جديدة فرضتها مرحلة التطور المتسارع للحضارة التكنولوجية ...

لقد حقق التعليم الكثير للعالم الغربى ، لكن تحقق هذا ، فتح أفاقا أخرى وحاجات جديدة جعلتهم يقولون : هل من مزيد ؟ منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال .. من هنا جاءت المرحلة الثالثة فى مسيرة التعليم ، وهى الثورة على التعليم !!

ثورة على التعليم فى العالم النامى ، وهما بأن التعليم قد أخفق فى تثوير المجتمع وتطويره ، بحيث يستطيع توفير الحاجات الأساسية للمواطنين ..

وثورة على التعليم فى العالم المتقدم ، طمعا فى أن تتسع قدرات التعليم لتمكن المجتمع من توفير الحاجات الثانوية الجديدة للمواطن ..

... تعددت الأسباب ، والثورة واحدة !!

وبدأ المفكرون يصدرون كتبا ، بعضهم يعلن (وفاة المدرسة) ! The School Is dead والبعض يطالب بمجتمع يخلو من المدارس Deschooling Society مما عرضناه بالتفصيل فى عدد سابق من (الهلال) .. إلى غير ذلك من مظاهر

الثورة على التعليم . بل أن زعيمة العالم الرأسمالى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت قد شكلت فى مطلع الثمانينات لجنة من خبراء التعليم خرجت بذلك التقرير الشهير الذى أعلن أن الأمة الأمريكية فى خطر لماذا ؟ لأن تعليمها قد فشل فى بناء الإنسان الأمريكى المنشود !!

يقولون هذا فى بلد يشكل أكبر وأعتى قوة فى عصرنا الحاضر ، فماذا نقول نحن عن تعليمنا ، ونحن مازلنا (ذيلا) فى عصرنا الحاضر ؟!

ومنذ بدأت أصابع الاتهام تتجه إلى التعليم معلنة الثورة عليه ، أسرع خبراؤه وعلماؤه وفلاسفته لفحصه من الداخل وإعادة النظر فيه ، ونفض ما قد يكون قد تراكم عليه من غبار التخلف .

ونشط كثيرون فى هذا السبيل ، حتى استطاعوا ، بالفعل أن يستحدثوا العديد من الصيغ التعليمية الجديدة ، مثل (التعليم من بعد) ، والعديد من الطرق والأساليب التعليمية التى تختصر الجهد وتوفر الانفاق وتحقق الغايات بصورة أكثر دقة وأشمل اتساعا ، تمثلت فى كم عجيب من التكنولوجيا التعليمية .

وهكذا شهدنا مرحلة رابعة فى مسيرة التعليم ، وهى مرحلة : الثورة فى التعليم .

ولكن ، هل تستطيع هذه الثورة الحادثة (فى) التعليم أن تخفف الثورة (عليه) وتعيد سيرته الأولى بحيث يمكن أن يعين المجتمع فى حركة التغيير والتطوير ؟

لقد بدأ تيار جديد فى اليسار التربوى ، يؤكد على تلك الحقيقة التى خفيت على كثيرين : فليس بالتعليم وحده يتطور المجتمع ويتغير !!

التعليم منظومة فرعية فى نظام أكبر هو المجتمع بكل مكوناته .. ولا يكفى الاعتماد على هذه المنظومة الفرعية وحدها ، بل لابد من أن تعم حركة التغيير الجذرى الشامل ، المجتمع بأسره ، فعندئذ ، يستطيع التعليم بالفعل أن يسرع ويهيىء ويسهل، ومن ثم نصل إلى المرحلة الخامسة ، وهى ثورة مع التعليم .وبالتالى ، فالجهد فى التغيير والتطوير غير مناط برجال التعليم وحدهم ، وإنما هى مهمة مجتمعية ، تفكر لها كل العقول ، وتدفعها كل الأيدى ..

ورحم الله ابن خلدون ، عندما أكد ، منذ قرون غير قليلة ، إلى أن ازدهار العلم مرتبط أوثق الارتباط بمدى وفرة (العمران) ... وما العمران عند مفكرنا العظيم إلا هذا التقدم الحادث فى كل خلية من خلايا الجسم الاجتماعى الكبير !!

اليابانيون .. والآخرون :

من الذى يخاف « أبناء الشمس المشرقة » ؟!

بقلم : محمود أحمد

زرت اليابان على مدى الثلاثين عاما الأخيرة ، ثلاث مرات .. بواقع زيارة كل عشر سنوات تقريبا ، ومنذ صباى ، كانت اليابان تفتننى ، وكان يستهوينى دائما أن أقرأ عنها حتى قبل أن أقوم بأول زيارة لها فى عام ١٩٦٢ - بل أن المصادفة جمعتنى قبل ذلك ببعض اليابانيين الذين لا يزال بعضهم فى منزلة الأصدقاء حتى اليوم ، وكم آلمنى ، فى زيارتى الأخيرة لطوكيو قبل بضع سنوات ، أن ألتقى بأحدهم .. وهو مترجم مخضرم محب للعرب ودنياهم اسمه « ماساو آبى » .. فأجده قد أضحى عجوزا هدّه المرض وأقعده ، وإن لم يقهر شفافية روحه وأدبه الوافر ورغبته المخلصة فى تقديم العون !

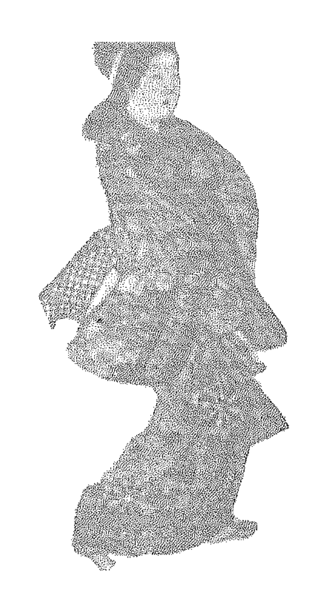
وحتى اليوم ، أجدنى باستمرار منجذبا إلى هذه البلاد الأسطورية ، متطلعا للذهاب مرة أخرى إلى هناك ، لاستطلاع ما يكون قد جد .. هو كثير ، والتعرف على ملامح التغيير وهى عديدة بلا حصر .

وعلى مدى السنوات الأربع الأخيرة ، أتاحت لى فرصة عملى كمراسل صحفي فى « واشنطن » ، أن أتعرف على وجه آخر من وجوه اليابان .. فأراها كقوة عالمية بازغة تنافس القوة العالمية العظمى وتناطحها .. وتكاد تشتبك معها فى صراع يرى الكثيرون من المحللين الأمريكيين أنه يختمر الآن ويوشك أن يسفر عن صدام محتوم !



ولا أحسب إلا أن اليابان تسحر المصريين خصوصا وتبهرهم بصورة أو بأخرى ، ليس فقط لأنها «بلاد الشمس المشرقة» ، كما اشتهر اسمها بينهم ، ولأنها أرض الأساطير البعيدة التي تقع عند الطرف الأقصى للعالم ناحية الشرق ... وليس لأن ذكرها يستحضر في ذهن أي مصري تداعيات لصور تمتزج فيها الرقة والنعومة والتفوق والغموض ، فضلا عن التاريخ العريق والثقافة المتميزة ذات المذاق الخاص ، وإنما لأن اليابان فوق كل ذلك تمثل بالنسبة للمصريين - فيما أتصور - ما يشبه التحدى الصارخ ، فالواقع اليابانى ، يكاد يكون نقيضا للواقع المصرى فى كل شئ : فاليابانيون الذين يربو عددهم على ١٢٠ مليوناً من البشر يعيشون على جزر محدودة المساحة قليلة الموارد ، يجسدون النجاح الفذ والتصميم والقدرة على تحقيق الأزدهار .. كما أنهم استطاعوا الارتفاع فوق آلام أصعب هزيمةً يمكن أن يتعرض لها شعب يتميز بهذا الكبرياء الزائد (هل هناك ما هو أقسى من أن يكون هو الشعب الوحيد فى العالم الذى عانى ويلات القنبلة الذرية ؟) .

فعلى الرغم من كل ذلك ، نهضت اليابان من كبوة الهزيمة ، ومضت قدما نحو صياغة مستقبلها وسط القوى العالمية العاتية .. وعلى الرغم منها فى أحيان كثيرة ، ولم يسمع عن اليابانيين أنهم اشتكوا من كثرتهم العددية ، أو أنهم تركوا



بلادهم المجدبة بحثا عن الرزق فى الجوار أو عبر البحار ، فالحقيقة أن الهجرة ليست ظاهرة فى اليابان ، وإنما ظلت على مدى السنين محصورة فى نطاق ضيق .. وفى اتجاه واحد تقريبا ، عبر المحيط الهادى ، حيث استقرت مجموعات صغيرة على السواحل الغربية للولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية .

وقد أصبح معروفا الآن أن الأموال التى استدانتها اليابان بعد الحرب من أجل إعادة البناء - وفى إطار الخطة التى وضعت لها وفرضت عليها - لم تتحول إلى « عبء » يجبرها على الركوع وإنما استطاعت بالعمل وكفاءة الأداء أن «تعزل» القروض الكثيرة القادمة من بلدان الغرب ولا تدخلها فى صلب الاقتصاد اليابانى .

وبعد سنوات ، استطاع اليابانيون سداد هذه القروض ، ثم الانتقال إلى مرحلة أخرى بدأو فيها «غزو» الآخرين .. ليس ببضائعهم ومنتجاتهم فقط ، وإنما برءوس أموالهم أيضا ، وفى الوقت نفسه ، فإنه على الرغم من جرثومة « التأمرك » - أو لعلنا نستعير هنا تعبير «التغريب» - قد فعلت فعلها وتركت آثارها بوضوح على وجه الحياة فى اليابان ، فإن الانسان اليابانى استطاع الحفاظ على قدر كبير من قيمه وتقاليده الموروثة ، الأمر الذى ساعده ليس فقط على الإبقاء على جذوة « الروح » اليابانية حية ومتوهجة ، وإنما أيضا على المحافظة على التوازن النفسى والثقة بالذات .

وهكذا ، وعلى الرغم مما تنطوى عليه صورة اليابان من تحديات مؤلمة - لبلد توجعه المعاناة من الفوضى والافتقار إلى العزم على حشد الطاقات للانطلاق إلى هدف محدد - فإنه يمكن القول إن المصريين يحتفظون بفكرة «إيجابية» عموما عن اليابان وشعبها ، بل ويكنون لليابانيين شعورا من الاعجاب .. الذى قد لا يخلو من الحسد !

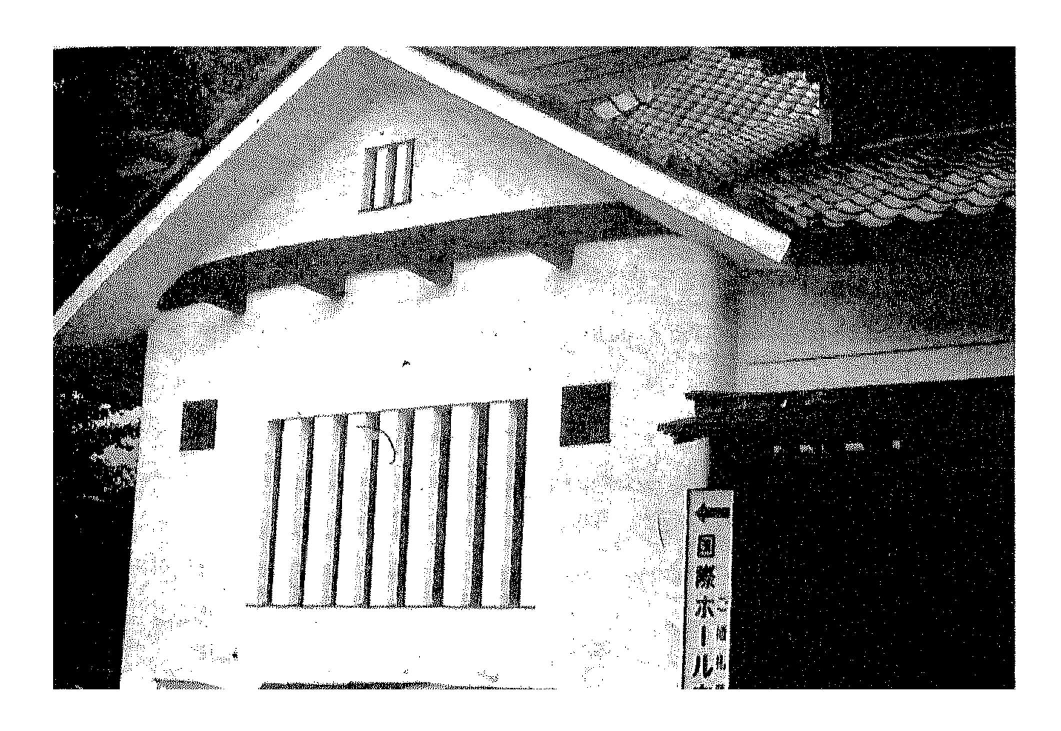
.. ورؤية الآخرين ؟ !

على أننا يجب ألا نغفل هنا حقيقة هامة وهى أن المصريين لم يقدر لهم «مواجهة» اليابانيين أو الاحتكاك بهم ، لأن طرق الشعبين لم يقدر لها أن تتقاطع فى أية مرحلة من مراحل التاريخ القديم أو المعاصر ، أما هؤلاء الذين تقاطعت طرقهم مع اليابانيين واحتكوا بهم ، وتصادموا

معهم أيضا ، فمن الطبيعى أن تكون لهم رؤية مختلفة عن رؤية المصريين أو غيرهم من الشعوب التى تبهرها «الظاهرة اليابانية» من بعيد ، ومن المؤكد أننا سنعثر على هذا « الاختلاف فى الرؤية » لدى الكثيرين سواء فى الغرب الأوروبى والأمريكى أو بين شعوب الشرق الآسيوى التى كانت لها تجارب كثيرة مع اليابانيين وهى تجارب تغطى مساحة واسعة من التاريخ القديم والمعاصر .

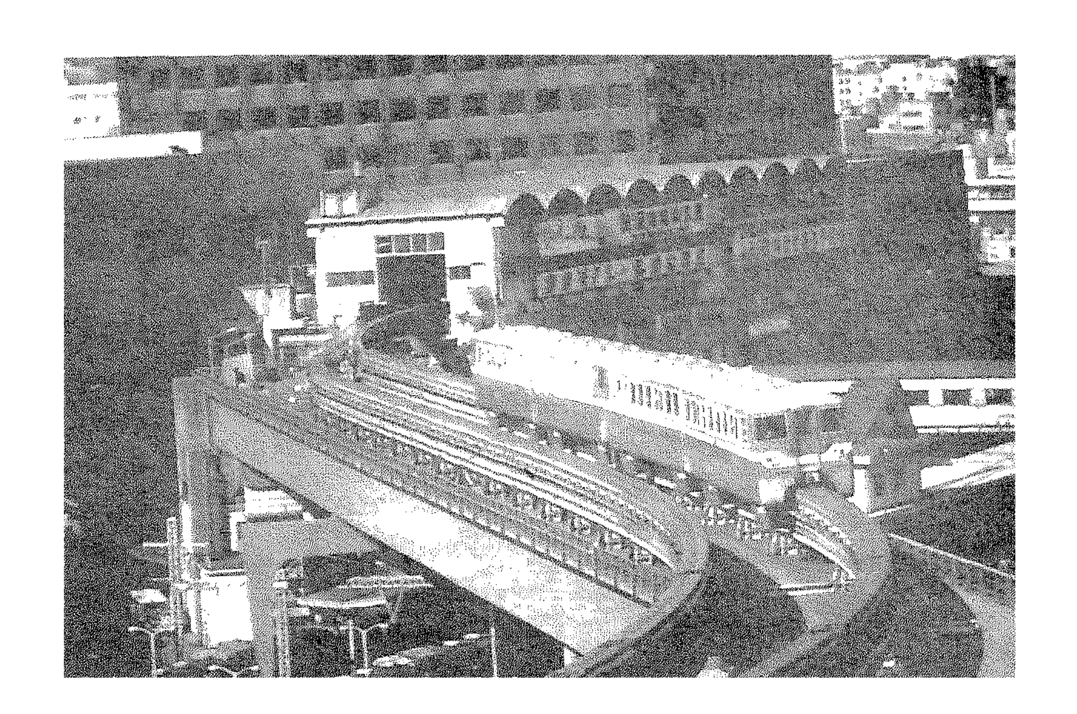
وبالطبع فإن نظرة الغربيين والآسيويين إلى اليابان لا تخلو من التقدير الذى تستحقه ، فلا أحد يملك إلا أن يرمق بإعجاب هذه الانجازات الباهرة على كل صعيد التى استطاع أن يحققها أبناء «بلاد الشمس المشرقة» ولكن ذاكرة الغرب - بما فى ذلك روسيا أيضا - لا تزال تحتفظ بصور تجارب مريرة من الصراعات والحروب التى خلفت جراحا عميقة لم تندمل حتى اليوم ، فلا الروس يمكن أن ينسوا الحرب الروسية اليابانية .. ولا الغرب يمكنه أن ينسى تحالف اليابانيين مع محور «هتلر - موسولينى» إبان الحرب العالمية الثانية .. على الرغم من التحاق اليابان بعد ذلك .. راغبة أو مضطرة بالمعسكر الغربى الرأسمالى الذى أصبحت أحد أعمدته منذ ما بعد انتهاء الحرب العالمية وطوال حقبة الحرب الباردة ، ومع ذلك ، تظل أكثر الذكريات مرارة هى تلك التى لا تزال مترسبة فى ذاكرة الشعوب الشرقية الآسيوية عن الاحتلال اليابانى الفظ والقاسى الذى أخضع كل جنوب شرقى آسيا - من كوريا وحتى الملايو - وحكمها بالحديد والنار حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبالنسبة لهذه الشعوب ، فإن ما جرى خلال الحرب العالمية لم يكن - فى التجربة الأقرب ، وربما الأكثر بشاعة ، لنموذج ظل يتكرر على مدى التاريخ ، فكلما كانت اليابان تستشعر القوة والحاجة إلى الموارد الخارجية .. كانت تخرج من قوقعة عزلتها لكى تدفع جنودها ليجتازوا «بحر اليابان» إلى شواطئ شبه الجزيرة الكورية ، ثم عبرها إلى منشوريا والصين، فلا تلبث الملايين من سكان هذه البلاد أن تفر أمامهم مذعورة ولهذا ، فإنه ليس غريبا أن تظل صور بطش العسكرية اليابانية وقسوتها تخيم على أية جهود معاصرة لإقامة علاقات جديدة بين اليابان والبلدان الآسيوية الأخرى .. خاصة بعد أن نفضت اليابان عنها آثار الهزيمة الكبرى ، فإذا هى تبرز كقوة اقتصادية هائلة تنافس دول العالم العظمى التى أصبحت تلح على الحكومات اليابانية فى « التنفيس » من احتقانها الاقتصادى عن طريق القيام بدور «عسكرى » أو « أمنى » فى النظام العالمى الجديد !

ولهذا فإنه ليس غريبا أن نجد أن عقدة الخوف والشك ، التى تولدت لدى الشعوب الشرقية الآسيوية تجاه اليابان ، لا تزال تتحكم فى رؤية البلدان الآسيوية لأى دور



نموذج من اليابان الحديثة تحاول دول كثيرة الاحتذاء بها

محتمل على الساحة الدولية يمكن أن تقوم به اليابان التى أخذت تفرض نفسها تدريجيا كقوة عالمية فتية ، وفى شهر سبتمبر الماضى ، عندما ألغى الرئيس الروسى « بوريس يلتسين » زيارة كان مقررا أن يقوم بها إلى اليابان ، مضحيا بفرصة الحصول على مساعدات يابانية كان يمكن أن تصل إلى عشرات المليارات من الدولارات ، قوبل هذا بإرتياح لدى بلدان شرقى آسيا لم يحاول أى منها أن يخفيه . وإذا كان السبب الرئيسى لإلغاء الزيارة ، كما أعلنه الرئيس الروسى ، هو تشدد اليابان فى مطالبتها بجلاء القوات الروسية من الجزر اليابانية التى احتلتها فى أرخبيل «كوريل» فى نهاية الحرب العالمية الثانية .. فإن خبيرا أمريكيا هو «مارك براون» الباحث فى مركز الدراسات الروسية التابع لجامعة «هارفارد» ، يرى أن هناك أسبابا أخرى فى مقدمتها أن احتمالات التوصل إلى تسوية روسية يابانية حول الجزر - مع ما ينتظر أن يتبع ذلك من دفء العلاقات بين موسكو وطوكيو - قد زاد من حدة المخاوف لدى بلدان شرقى آسيا المجاورة « التى لا تزال ذكريات قسوة الاحتلال اليابانى حية جدا فى ذاكرتها » ، وتريد البلدان الاسيوية - وفقا لما يقوله براون - أن تبذل الدول الكبرى جهودا أكثر جدية للتأكد أولاً من



لا أحد يملك إلا أن ينظر بإعجاب الى هذه الانجازات

مدى قوة العسكرية اليابانية وقدرتها على التوسع ، وتدليلا على ذلك ، أشار الخبير الأمريكى إلى «الكتاب الأبيض» الذى صدر مؤخرا عن كوريا الجنوبية والذى حذر من أن اليابان ستعود إلى «طبيعتها العسكرية» عند ظهور أول بادرة لوجود فراغ أمنى فى شرقى القارة الآسيوية ، وقد ترددت النغمة ذاتها فى سنغافورة ، ماليزيا ، والصين .. حيث اعترف المسئولون فى هذه البلاد ، وغيرها ، بأن روح «الكراهية الشعبية» تجاه اليابان لا تزال قوية وظاهرة .

وهذه الشعوب تسمع وتتابع ما يتردد عن الزيادة المستمرة فى الإنفاق العسكرى اليابانى ، فى الوقت الذى تعمد فيه بلدان الغرب - فى معظمها - إلى إجراء تخفيضات فى نفقاتها الحربية بعد زوال «الخطر السوفييتى» .. وبينما يبدو انسحاب الوجود العسكرى الأمريكى من شرقى آسيا أمراً محتوما ، وهناك خوف حقيقى يتفاعل - ولو بشكل مكتوم - فى صدور أبناء هذه البلدان الآسيوية الكثيفة السكان ، من الازدياد المضطرد للقوة العسكرية اليابانية التى تتهم بأنها ذات صبغة عنصرية ، والتى أصبحت أيضا تمتلك تكنولوجيا متفوقة ، بكل ما يعنيه ذلك وما ينطوى عليه من احتمالات لا تزال فى أعماق الغيب !

وعندما احتدمت المناقشات حول مساهمة اليابان بـ«دور صغير» في عمليات حفظ السلام التى تتولاها الأمم المتحدة وأثيرت ضجة داخل اليابان نفسها من جانب الجناح الرافض لبعث العسكرية اليابانية ، فإن البلدان الآسيوية كانت تتابع هذه المناقشات بقلق وترقب .. وكان المسئولون فيها ينتهزون كل فرصة للتأكيد على أنه من الأفضل ألا يعهد لليابان بهذا الدور ولكن الحكومة الأمريكية كانت ترى غير ذلك ، واستمرت فى الضغط إلى أن أقر البرلمان اليابانى (الدايت) فى النهاية قانون المشاركة فى قوات حفظ السلام وإرسال أول قوة منها إلى كمبوديا ، وقد كان للقرار أصداء فى بلدان شرقى آسيا تختلف عنها فى بقية أنحاء العالم ، وعلى الرغم من أن القوة اليابانية التى أرسلت بالفعل كانت صغيرة العدد جدا (٣٤ جنديا مزودون بكميات ضخمة من أحدث المعدات) فإن الصورة التى نشرتها الصحف ، يوم ١٨ سبتمبر الماضى ، للجنود اليابانيين وهم يغادرون قاعدة «كيورى» البحرية اليابانية فى طريقهم إلى كمبوديا كان لها وقع عميق لدى ابناء البلدان الآسيوية . مع أن الجنود اليابانيين كانوا يضعون على رءوسهم «البيريهات الزرقاء» التي تميز قوات الأمم المتحدة ، ورغم أن القانون اليابانى نفسه يمنعهم من « المشاركة فى أية مهمات تتضمن خوض قتال وأن يستخدموا أسلحتهم الفردية التى زودوا بها فى الدفاع عن النفس فقط » .

من هم «العنصريون» ؟!

ولكن اليابانيين يدافعون عن أنفسهم بالقول إن هذه الصورة التى ترسم لهم فى العالم الخارجى - وخاصة فى البلدان الآسيوية - مبالغ فيها كثيرا .. بل إنها مغايرة للواقع والحقيقة ، ويؤكد اليابانيون - مفكرين ومسئولين وسياسيين - أن تجربة الحرب العالمية الثانية قد أحدثت تحولا فعليا فى العقلية والنفسية اليابانية ، وإذا كان هؤلاء جميعا يتجاهلون الإجابة على الأسئلة المثارة فى جميع البلدان الآسيوية من أسباب رفض اليابان الاعتذار علنا عن جرائم العسكرية اليابانية أثناء الحرب العالمية الثانية .. إلا أنهم يؤكدون فى الوقت نفسه أن تصاعد حدة المشاعر الوطنية اليابانية فى السنوات الأخيرة ، وتنامى التيار المتعصب الذى يجنح إلى التطرف وكثيرا مايعبر عن نفسه بكبرياء تصل أحيانا إلى حد «الصلف» ، لا يعنى أنه سيؤدى إلى « انبعاث جديد » للعسكرية اليابانية على المدى القريب أو المتوسط .

ويشكو اليابانيون من أنهم يعانون من الكثير من عدم الفهم من جانب الآخرين ، فى آسيا والغرب على السواء ، وأن ذلك هو السبب فى إساءة تفسير الكثير من السياسات أو التصرفات التى تصدر عن اليابان ، كما أنهم ينفون عن أنفسهم تهمة العنصرية ، ويردون على ذلك بأنهم هم الذين يعانون من التمييز والعنصرية التى يمارسها الاخرون تجاهم والتى تتجلى

بصورة خاصة فى نظرة الإنسان الغربى - والأمريكى خاصة - وإسلوب تعامله مع أبناء اليابان .

ولا شك فى أن باستطاعة اليابانيين العثور على أمثلة ونماذج عديدة ، فى هذا المجال ، لعل آخرها ما صدر عن وزير الخزانة الأمريكى « نيكولاس برادى » أثناء مؤتمر صحفى عقده مؤخرا - عندما استخدم كلمة « جايس Japs » فى الإشارة إلى اليابانيين .. وهى اختصار للفظة الإنجليزية الدالة على الشعب اليابانى وكانت تطلق على الجنود اليابانيين إبان الحرب ، احتقارا وازدراء ، وشاع استخدامها على ألسنة الأمريكيين بعد ذلك فى الإشارة إلى اليابانيين .. ترفعا وتعاليا ! وعلى الرغم من أن الوزير الأمريكى سارع إلى الاعتذار علنا عن الملاحظة التى بدرت منه ، إلا أن ذلك لم يخفف من غضب اليابانيين ولا الأمريكيين المنحدرين من أصل يابانى ، ونشر النائب الأمريكى اليابانى الأصل «نورمان مينيتا» مقالا ناريا فى الصحف هاجم فيه برادى بشدة ، وتساءل عن السبب الذى لم يجعل الملاحظة العنصرية التى بدرت عن وزير الخزانة تثير ولو قدرا ضئيلا من الضجة التى أثارها الأمريكيون - بحق - قبل عامين .. عندما صدرت ملاحظة عنصرية مماثلة عن وزير العدل اليابانى «سيروكو كاجيياما» الذى وصف الأمريكيين السود بأنهم ، مثلهم فى ذلك مثل العاهرات ، يعملون على إتلاف الأحياء التى يسكنونها !

وبطبيعة الحال ، فإن لنا أن نتصور ما تضيفه الحقائق المعاصرة من تشابك وتعقيد إلى هذه الخلفية الحافلة بالعقد والشكوك ، فالعلاقات بين اليابانيين و«الآخرين» هذه الأيام ، لا يمكن وصفها بأنها علاقات عادية أو طبيعية ، على ضوء الحرب الاقتصادية والمنافسة التجارية العنيفة القائمة بينهم على قدم وساق .. وهى منافسة كثيرا ما تتخذ مظهر حرب فعلية ، كاملة العناصر والمقومات ، وإن لم تستخدم فيها المدافع والنيران ، ويكفى أن نعيد إلى الذاكرة هنا ، صورة الرئيس الأمريكى چورج بوش وهو عائد من طوكيو - فى مطلع العام الحالى - بعد أن حقق فشلا كاملا تقريبا فى إقناع اليابانيين بفتح أسواقهم بغير قيود أمام البضائع الأمريكية فى محاولة لسد العجز الرهيب فى الميزان التجارى بين البلدين والذى يميل بقوة لصالح اليابان ، كذلك ربما نتذكر هنا أيضا ، أن اليابان - التى مرت كغيرها من الدول الرأسمالية بأزمة كساد اقتصادى - كانت هى الوحيدة التى استطاعت وضع برنامج باهظ الأعباء (يتكلف نحو ٨٥ مليار دولار) لمواجهة حالة الكساد وآثاره .. وكان ذلك فى الصيف الماضى قبل وقت قصير من اندلاع الأزمة النقدية الخطيرة التى عصفت بالعملات الأوروبية فى أوائل شهر سبتمبر .



الفهم .. المفتقد !

عند هذا الحد ، يمكننا أن نرصد توقعات متباينة لما يمكن أن يفضى إليه هذا الواقع المعقد الذى يحكم علاقات اليابانيين .. والآخرين ! ففى حين يتوقع البعض صداما محتوما بين القوة اليابانية البازغة والقوى الأخرى المنافسة لها على الساحة الدولية - رغم عدم «توحد» هذه القوى فى الوقت الراهن ومع ماهى عليه من اختلاف - وبينما يذهب من بين أصحاب هذا الرأى إلى حد توقع أن يتخذ هذا الصراع «اليابانى - الغربى» طابعا مسلحا على المدى البعيد .. نجد أن البعض الآخر يميل إلى استبعاد استمرار الصراع على أساس الإدراك الواضح لدى الجميع بأن هذا ليس فى مصلحة أحد ، ولأن هناك أيضا تحولات فعلية فى العلاقات الدولية من شأنها أن تتكشف أكثر فأكثر عن آفاق من التعاون الذى تحتاج إليه كل الشعوب بغير استثناء ، ويرى أصحاب هذا الرأى الأخير ، أن «النظام العالمى الجديد» ليس مجرد بدعة أمريكية ابتكرها الرئيس چورچ بوش لسبب أو لآخر، وإنما هو «حتمية» لابد أن تخرج إلى الوجود نتيجة للزلازل العنيفة التى هزت العالم فى السنوات الأخيرة .. وهو نظام - كما يقول هؤلاء - لابد أن يفرض قوانينه قبل مرور وقت طويل .

ولكن الجميع ، على تفاوت تقديراتهم ، يعترفون بأهمية وضرورة السعى إلى تحقيق تفاهم أفضل حتى يمكن تجنب صدامات كبرى فى المستقبل بين القوى الفاعلة فى العالم .. وهــو تفاهم يسلم الجميع بأنه مطلوب أولا وبإلحاح بين اليابانيين .. والآخرين وبطبيعة الحال ، فإنه لابد وأن تؤخذ فى الاعتبار ، فى هذا السياق ، الحقائق المعاصرة .. ولكن دون إغفال الخلفيات التاريخية والثقافية والاختلافات التى تميز اليابانيين عن غيرهم من الشعوب ولعله مما يثير الحيرة حقا ، إنه لم تبذل جهود كافية ، سواء من ناحية اليابان أو من جانب الغرب ، لتحقيق التفاهم والتقارب المنشود رغم فيض البحوث التى أجريت واللقاءات والحلقات الدراسية التى شهدتها قاعات المعاهد والجامعات .. هنا وهناك .

ومع ذلك ، فإن هناك محاولات مستمرة، وعلى مستويات كثيرة ومتعددة ، وإن كانت لا تزال قاصرة عن بلوغ الهدف ربما لأنها لم تعثر بعد على البداية الصحيحة لتجاوز الاختلافات والتمايز العميق الجذور ..



وصولا إلي تحقيق الفهم المتبادل ، ولعلنا نتوقف هنا أمام نموذج صغير ، ولكنه على بساطته وطرافته يدل على مدى الشعور السائد بضرورة صنع هذا التفاهم أو الفهم المتبادل والحيرة أمام كيفية تحقيقه في الوقت نفسه !

يروى «ت . ر . ريد » ، مراسل صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية فى طوكيو ، أن معضلة «الفهم المفتقد» بين اليابانيين والآخرين ظلت تشغله طويلا .. إلى أن خطر له ذات يوم أن باستطاعته أن يسهم - ولو عن طريق الأدوات البسيطة المتوفرة بين يديه - فى تبديد بعض سوء الفهم القائم بين بلده ، أى الولايات المتحدة ، وبين اليابان ، فقد وجد أن وسائل الإعلام الأمريكية بغير استثناء ، تتناول الشئون اليابانية دون أن تأخذ فى الاعتبار أو تعير أدنى إلتفات إلى «طريقة التفكير اليابانية» وكمثال على ذلك، يقول «ريد» إن اليابانية، كمعظم المجتمعات الآسيوية ، يقدمون اسم العائلة أو اسم الجد الأكبر أولا ، يليه أسم الأب ، ثم أخيرا الأسم الأول ورئيس وزراء اليابان مثلا ينطقون أسمه على أنه «ميازاوا كيتشي» .. لأن ميازاوا هو اسم العـــائلة الذى يجب أن يسبق اسمه الشخصى وهو كيتشي ، وكذلك يعرف شقيق رئيس الوزراء اليابانى بإسم «ميازاوا يوكو» .. وهكذا ، ولكن جميع وسائل الإعلام الغربية والأمريكية تكتب اسم رئيس الوزراء اليابانى وتنطقه على أنه «كيتشى ميازاوا» ، وهو نطق خاطئ ولكنهم يصرون عليه .. رغم أنهم لا يطبقون هذه القاعدة الغربية على اسماء الأعلام من البلدان الآسيوية الأخرى ، مثل الزعيم الصينى « دينج هسياو بنج » الذى يقدم اسم عائلته «دينج» قبل بقية الاسم .. وكذلك « روه - تاى وو » رئيس كـــوريا الجنوبية ، و « كيم إيل سونج » الرئيس الكورى الشمالى ، وغيرهم .

ويمكن أن نتوقف هنا ، مع المحاولة التى يرويها لنا «ريد » لنعود إلى الوراء قليلا فى التاريخ ، ففى سنة ١٨٥٣ ، عندما دخلت أول سفينة أمريكية إلى خليج طوكيو (وكانت أول سفينة تسير بالبخار يراها اليابانيون) .

وكان ذلك إيذانا بفتح أبواب اليابان - التى كان لا يزال يحكمها نظام الإقطاع - على العالم الخارجى ، كان هذا التاريخ نفسه بداية لإقبال يابانى على الغرب .. وهو إقبال ما فتئ يتصاعد منذ ذلك الحين، وهكذا فإن الشعار الأهم الذى رفعته حركة التحديث اليابانية خلال عصر النهضة (عصر مييجى MeIJIERA : ١٨٦٨ - ١٩١٢) كان هو شعار دع آسيا .. واتجه نحو الغرب Drop Asia, Movewest .

ونعود إلى حكاية الأسماء فحتي ذلك الوقت - أى بداية عصر النهضة - لم يكن اليابانيون يهتمون بأن يكون لهم «اسم عائلة» وكان الناس العاديون يكتفون بإسم واحد هو الإسم الشخصى ، أو الأسم

«الأول» الذى يمنحه الأبوان للطفل عند ولادته ، أما اسم العائلة فكان امتيازا يقتصر على «الساموراى» الأثرياء وكبار ملاك الأراضى الإقطاعيين ، وفى سنة ١٨٧٠ ، وفى إطار إصلاحات «ميبجى» ، سمح لكل عائلة بأن يكون لها اسم يميزها ، وعلى طريقة اليهود الأوروبيين الذين استمدوا اسماءهم من الطبيعة حولهم (مثل اسم روزنبرج .. أى تل الزهور) بدأت العائلات اليابانية تختار أسماءها من الطبيعة المحيطة وتجعلها فى المقدمة بحيث يأتى بعدها اسم الشخص المنتمى لهذه العائلة أو تلك ، وفى المناطق الريفية ، بدأت عائلات كثيرة تضيف إلى اسمها لفظ «تا» أو «دا» وهو ما يعنى «حقل الأرز» ، وتكونت بهذه الطريقة اسماء عائلات أصبحت معروفة ، مثل «تاناكا» ومعناها «فى الحقل» أو «تويوتا» .. ومعناها «الحقل المهجور» ، أو «هوندا» .. ومعناها «الحقل الرئيسى» وهكذا ..

على أى حال ، يقول « ت . ر . ريد » إنه كان على وشك أن يطلب إلى صحيفته أن تتخذ من جانبها تلك الخطوة الأولى كما تصورها باتجاه مد جسور التفاهم المقطوعة تقريبا بين اليابان والولايات المتحدة ، وذلك بأن تبدأ بكتابة أسماء الأعلام كما هى فى أصلها وكما يكتبها ويلفظها اليابانيون .. خاصة بعد أن سمع احتجاجات عديدة أوجزها عمدة مدينة صغيرة فى شمال اليابان اسمه «هيروچى توميتا» ، والذى قال للصحفى الأمريكى دون مواربة : « كيف يمكن للغربيين فهمنا .. إذا كانوا لا يفهمون حتى كيف نكتب أسماءنا ؟ » ولكن «ريد» وجد قبل أن يشرع فى تنفيذ فكرته - ولدهشته الشديدة - مقاومة من جانب كثيرين آخرين من اليابانيين لهذه الفكرة ، ففى الوقت الذى أيد فيه اليابانيون العاديون ، من أمثال العمدة «توميتا» أن تبدأ وسائل الإعلام الغربية على الفور ما يدل على إنها مستعدة لتصحيح فهمها لليابان وشعبها .. فإن مقاومة الفكرة جاءت من جانب الشرائح العليا من اليابانيين الذين يبدو ظهور أسمائهم فى صحف الغرب أكثر احتمالا ، وكانت النتيجة أن تراجع «ريد» عن تنفيذ فكرته ، بعد أن انتابته الشكوك فى أنها قد تتسبب فى إحداث إرتباك وفوضى .. بل وربما أدت إلى مزيد من سوء الفهم !

وأخيرا ، فإن هذا ليس إلا مثالا صغيرا واحدا ، ولكن دلالته تتسع لتنطبق على مجالات أخرى تتعدد بتعدد أنواع النشاط الذى يجمع بين اليابانيين والآخرين ، فمن الذى يمكن أن يبدأ باتخاذ خطوة أولى فعالة نحو تحقيق التفاهم وإزالة سوء الفهم الذى يتسبب فى كثير من حالات الالتباس وبهدف المساعدة - على الأقل - فى تجنب ما يخشاه الكثيرون من «صدام» محتمل !؟

قراءات الشباب

«تعقيب على مقال»

بقلم : د. محمد رجب البيومى

أسر بمقالات الأستاذ الدكتور شكرى عياد سروراً لاحد له ، إذ أجدها تفصح عن معانٍ أحس أكثرها فى نفسى ، ولكن لا أستطيع أن أجلوها بمثل منطقه الجذاب ، فأحمد الله أن وجدت من كبار الأدباء من يسعدنى بالتنفيس عن أوار حبيس يتوهج فى صدرى ، ولو ترك فى اشتعاله لأتى عليه ، وقد قرأت ماكتبه تحت عنوان (قراءات الشباب) أكثر من مرة ، ولاحظت أن كلمة الشباب لاتقتصر على عهد المراهقة الخاص بطلاب المدارس الثانوية ، بل تمتد فتشمل طلاب الجامعة أيضا، أفيكون قد اكتفى بالحديث عن طلاب المدارس الثانوية ، كى يتسع له القول عن غيرهم فى مناسبة أخرى ، وهو بعد أجدر من يتحدث عن طلاب الجامعة التى صار علما من أعلامها ، أفيأذن لى أن أضيف الى حديثه ماأستمده منه ، تعقيبا وتفصيلا ، لا لأقدم الجديد مما لايعلم ، بل لأذكر به من القراء من لايكون على صلة بما كانت عليه المدارس الثانوية من قبل ، حين كانت المدرسة مدرسة ، والطالب طالبا ، والأستاذ أستاذاً ، أما الآن فلا يبتعد الأمر عن قول القائل :

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى ظباء الحى غير ظبائها




زكى مبارك



على الجارم

عبد العزيز البشرى

وطبيعى أننا لن نتحدث عن قراءة الشباب من غير الطلاب ، فهؤلاء قد ألهتهم الإذاعة المرئية ، ومنافسات الكرة ، والمسلسلات التمثيلية عن عالم القراءة ، ومن يطالع الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية لايقرأ بها غير مايتعلق به من أخبار الرياضة والفن وزواج المطربات والممثلات ، هذا الى التفكير فى الثراء العاجل ، والارتحال الى دول الأرض شرقا وغربا ، ومعه الحق كل الحق فى أن يرتحل وراء أمل متوقع ، فذلك خير من البقاء فى شقاء محتوم .

أما طالب المدرسة الثانوية ، فما أوجع الموازنة بينه وبين طالب الأمس ، حين كانت تسمى وزارة المدارس وزارة المعارف ، لقد غضبنا على كلمة المعارف لأنها تعطى مضمون التلقين والاستظهار ، وعشقنا كلمة التربية لأنها تعطى معنى السلوك والنهوض ، وبعد انقضاء أربعين عاماً وجدنا أننا خسرنا المعرفة ولم نكسب التربية . مع أن المعرفة الحقيقية باب من أبواب التربية ، والتربية لاتنهض إلا على قدمين ، أحدهما المعرفة والتثقيف . وهذا هو الملحوظ فى كلمتى (التربية والتعليم)

لقد ذكر الدكتور شكرى عياد بعض الكتب المفيدة لطالب الأمس ، منها المنتخب بجزءيه ، وأنا أذكره الآن بحشد مماثل من أشباه المنتخب ، كانت وزارة المعارف تقدمه للطالب عاماً بعد عام ، ومعنى أن يكون كتاب قيم ممتاز بين يدى طالب

المدرسة الثانوية ، أن ينتشر الكتاب حتى يكاد يكون في كل منزل . وأن يقرأه الوالد المطلع والأخ الناهض وأن يصبح مشاعاً بين أفراد الأمة ! إنني لم أكن من طلاب المدارس الثانوية ، حيث تلقيت تعليمي بالمعاهد الدينية ، ولكني كنت أشترى كتب الوزارة بأرخص ثمن إذ أجدها بالأكشاك التى انتقلت الآن إلى رحمة الله . وعلى الأسوار العامة الشبيهة بسور الأزبكية ، أجدها بثمن لايتجاوز القرش أو القرشين ، إذ باعها بعض الطلاب بعد أن فرغ منها ، ومن هذه الكتب البخلاء للجاحظ مشروحاً فى جزءين للأستاذ الجارم والأستاذ العوامرى ، وكتاب نقد النثر المنسوب لقدامة بتحقيق العبادى ، وتقديم طه حسين ، وكتاب حضارة الإسلام فى دار السلام ، لجميل نخلة المدور ، وكتاب المكافأة وحسن العقبى ، بتحقيق أحمد أمين والجارم ، وكتاب مهذب رحلة ابن بطوطه فى جزءين ، بتحقيق العوامرى ومحمد جاد المولى ، وكتاب التوجيه الأدبى لطه حسين وفريق من زملائه ، وكتاب المفصل فى الأدب العربى بجزئية للأساتذة أحمد الاسكندرى وأحمد أمين وعلى الجارم وعبدالعزيز البشرى ، وأحمد ضيف ، وهم الذين ألفوا كتاب المنتخب بجزءيه ، وقد ذكرت أسماءهم تصحيحاً لما ذكره الدكتور شكرى عياد ، حيث ذكر حفنى ناصف وهو من جيل سابق ، وكان له كتاب يسمى (قواعد اللغة العربية) فى عدة أجزاء ، لقد اشتريت هذه الكتب جميعها بما بين القرش وثلاثة القروش للكتاب الواحد ! بل إن من المفارقات أن أذكر أنى اشتريت (مختار الصحاح) وقد وزع على الطلاب أيضا بثلاثة قروش ! وهو الآن يباع بثلاثين جنيها ! ومهما التهبت الأسعار فى زمننا هذا ، فلن تسكت المفارقة الهائلة بين ثلاثة قروش ، وثلاثة آلاف . أى جنون هذا ؟

دوائر معارف قيمة

هذه كتب ثقافية ، ومنها مالايمتحن فيه الطالب ، بل يكون اطلاعاً حرا يستنير فيه برأى المدرس فى حصص القراءة ، أما الكتب الخاصة بالامتحان . ومن أهمها كتاب القراءة ، وكانت تسمى من قبل بالمطالعة فإنها تمثل دوائر معارف ممتازة حقا ، إذ يكتبها نفر من جلة الأدباء والباحثين وعلماء التربية فتقدم زاداً مناسبا ، يراعى فيه التعبير الجيد ، والفكر الصائب ، والسهولة الواضحة ، والهدف

الموجه ، وقد جمعت أربعة أجزاء من كتاب (المطالعة الثانوية) وأربعة أجزاء من كتاب (المطالعة المختارة) لاتزال جميعها لدى ، وأعدها من مراجعى ، ولن يضحك مستهزىء يرى أن الكتاب المدرسى ليس بمرجع ! فهذا صحيح بالنسبة للحاضر المشاهد ، لا للأمس القريب ، فكتاب المطالعة الثانوية فى جزئه الأول - على سبيل المثال - يتحدث عن موضوعات منها وطنية التلميذ ، الرياضة البدنية ، الصناعة فى مصر ، القاهرة ، الجاذبية ، الفارابى، البرهمى والنمر ، جوتنبرج والطباعة ، ثروة مصر المعدنية ، نبات البردى ، العلم والثروة، الرفق بالحيوان ، الطيران ، أول رائد مصرى ، تقويم البلدان ، أرشميدس بين مصر واليونان ، الزراعة فى مصر ، القوة ، التعاون ، ترف خمارويه ، الى ماينحو هذا النحو ، وفيه باب واحد تحت عنوان (أيام الفاروق) وأنص عليه نصاً واضحا لملاحظة هامة تأتى فى باب الموازنة إذ أن جل الكتب الخاصة بالقراءة فى عهد الثورة ، قد تركت الثقافة العامة جانباً ، واتجهت الى الإعلام ، وكأن المدرسة أصبحت دار إذاعة كإذاعة صوت العرب فيما عهدناه ، فأنت تقرأ كتاب المطالعة ، فتجد مثل هذه الأبواب ، خطبة الرئيس عبدالناصر ، عيد النصر ، مديرية التحرير ، مؤتمر باندونج ، ثورة على الإقطاع ، يوم الجلاء ، ثورة ٢٣ يوليو ، وحدة مصر وسوريا - فصول من الميثاق ، هذه الأرض أرضنا ، أعداء القومية العربية! كل هذا فى كتاب واحد مع أن معانيه تتكرر فى كتب التاريخ والتربية القومية وغيرها ثم تجىء دروس التعبير الإنشائى فتدور فى هذا الفلك ولا تتعداه ، ووجه الخطر فى ذلك أن الطالب يكرر نفسه فى كل موضوع ، بحيث يصير الموضوع فهرساً لأعمال الحاكم ، وفى الجرائد والإذاعة مدد آخر لاينقطع سيله !! والنتيجة أن الطالب لم يتثقف فى درس المطالعة ، ولم يتعلم فى درس التعبير ، ولم يعرف الحقائق الخالصة فى دروس التاريخ والتربية القومية ، فكيف يتشوق الى القراءة النافعة وهو منها بمكان بعيد .. وهذه هى كتبها المختارة ! أما دروس الأدب والنصوص فقد لاحظ الدكتور شكرى تحجرها فى قالب واحد ، وقد كنت مدرساً بالمدارس الثانوية ودور المعلمين والمعلمات أكثر من خمسة عشر عاما ! وكنت أقف حائراً أمام دراسة البيئة الخاصة بالنص ،

لأن الكتاب المدرسي لايفي بالمفهوم الصحيح ، فكان مما يساعدني أن ألزم الطـــلاب بقراءة الكتب ذات الموضـــوع الواحد، وهي ميسورة ، وأكثرها مقرر متداول ، فكتاب أبو الفوارس عنترة بن شداد لمحمد فريد أبو حديد يصور العصر الجاهلي ، وكتاب معارك السيف والقلم لطاهر الطناحي يصور العصر العباسي، وكتاب هاتف من الأندلس للجارم يصور العصر الأندلسي ، وكتاب واسلاماه لعلي أحمد باكثير يصور العصر المملوكي ، وكلها قصص جيدة ذات أسلوب رائع ، وهدف ممتاز ! وقد ساعدت هذه الكتب نبغاء الطلاب على أن يبحثوا عن نظائرها، ومنهم من عشق الأدب وزاوله إذ كانت خطوة أولى في طريقه الطويل ! هؤلاء هم النبغاء ، أما سواهم ، فقد نجحوا في الامتحان الرسمي ، والتحقوا بالجامعات المتخصصة ، ولكن زمن الثقافة العامة بالمدارس الثانوية لم يخرجوا منه بغير حصاد الهشيم ، أو قبض الريح ، ورحم الله المازني .

أساتذة أقاموا مجد الجامعة

فإذا انتقلوا الى الجامعة فماذا يجد الطالب بكليته ، إنه يجد الأستاذ والكتاب ، والأستاذ مسلح بأرقى الدرجات العلمية ، مسلح بالدكتوراة ، وببحوث جعلته يتجاوز درجة المدرس الى درجة الأستاذ المساعد ، ثم الى درجة الأستاذ ، ولكنه - مع استثناء قلة في كل كلية - قد يجيد تخصصه وحده فإذا انتقلت به الى فرع آخر لايكاد يعرف شيئا ، وقد قرأت قديما مقالاً توجيهيا للدكتور محمد مندور تحت عنوان (أمية المعلمين) تحدث فيه عن المتخصصين الذين يجهلون كل شيء عدا ما يدرسونه ، ومندور على فضله الجهير قد سدت في وجهه أبواب الجامعة كما سدت في وجه زكي مبارك ، وهما أفضل من عشرات ملئوها فصارت بهم فارغة ! هذا الأستاذ الذي لايعرف غير تخصصه لن ينشيء طالباً ممتازا ! وقد حفلت كلية الآداب حيناً بأساتذة لايحملون درجة الدكتوراه ، ولكنهم أقاموا للجامعة مجداً علميا لايجحد ، لقد كان أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وأمين الخولي وابراهيم مصطفى وعبد الحميد العبادي لايحملون هذه الدرجة ، ولكنهم أثمروا في حقولهم أشهى ماكان ينتظر من ثمار ، لقد أدوا أمانة العلم فيما يدرسون ويؤلفون ومن امتنع عن التأليف في تخصصه المنهجي - كالعبادي - امتنع

إشفاقا لا عجزا ، أذكر أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات حدثني أن الأستاذ العبادي ألف الجزء الأول من فجر الإسلام خاصاً بالتاريخ السياسي وفق الخطة التي اتفق عليها مع أحمد أمين وطه حسين ، ثم أخذ يعرضه على أصدقائه بعد أن أخرج أمين كتابه (فجر الإسلام) في تحليل الناحية العقلية ، ليقولوا رأيهم فيما كتب ، وقد عرضه على الأستاذ الزيات فصادف تقديره ، وحثه على طبعه ، ولكنه أخذ يوازن في خالص سره بين كتاب أحمد أمين وكتابه ، فرأى أن يتمهل ، وقد حثه زملاؤه على نشر الكتاب دون إرجاء فاستعصم ، ومضت الأيام دون أن يرى النور ، ولانقول إن العبادي قد أصاب في احجامه ولكننا نضربه مثلا لتقدير المسئولية العلمية ، لعل الذين يفاجئون الطلبة كل عام بالهش الركيك يتأملون فيتلومون .

جامعات الأقاليم ودورها في النهضة

تعددت الجامعات في الأقاليم ، وامتلأت بحملة الدكتوراة ، والنبوغ الإنساني محدود فبعد أن كانت الجامعة الواحدة تضم الصفوة المختارة ، أصبحت الجامعات تضطر الى ملء الفراغ ممن تنطبق عليهم شروط التعيين ، ولايهم بعد ذلك إن كان حامل الدرجة عَيِيًّا أم فصيحا ، وهو على تواضعه العلمي يؤلف ويرقى لدرجة الأستاذية ، ويصير أستاذاً بالدراسات العليا يمنح الماجستير والدكتوراه ، ولن يكون تلميذه أفضل منه ، إذ أن فاقد الشيء لايعطيه ، ولا أستطيع أن استرسل في مايدور في هذا المنحى ، فقد سبق أن نشرتُ بجريدة الجمهورية مقالا تحت عنوان (هل صارت الكليات مدارس ثانوية) فقرىء على غير وجهه ، وعاتب من عاتب ، وخاصم من خاصم ، وضاع المقال هباء ، وكأنه صرخة في واد! إن هذا التلميذ الذي تخرج على أستاذه هذا وصار مدرسا لن يأتي بما يفيد الطالب براعة استنتاج . ومهارة إبداع ، لن يخرج من المعلوم مجهولاً ، ولكنه سيلخص فإذا أطال كرر فأمل ، وفي ازدحام المدرجات بمئات الطلاب ، مايعوق السؤال الجاد ، ومايجعل ضعيف الحول من هؤلاء يصر على رفض الإجابة كيلا يضيع الوقت ، مع أن المحاضرة بأكملها تضيع كثيراً حين يفاجأ الطلاب بإعلان

سبورى يشير الى اعتذار السيد الأستاذ الدكتور عن غيابه ! ثم يتكرر الاعتذار ، وكأنه أمر طبيعى لايثير استفهاما ، ويمضى العام ، وقد قنع الطالب بشراء المذكرات : أجل ، قد جاء حديث المذكرات، وكنت أباعده متألما ولكنه كليل النابغة الذبيانى لابد أن يدركنى ، وإن خلت أن المنتأى عنه واسع ، لم تعد هناك كتب أصيلة يحتفظ بها الطالب مرجعا حيا كضحى الاسلام مثلا ، إذ دأبت الأقسام على تفتيت المادة الواحدة ، شرائح مختلفة، لترضى حاجة هيئة التدريس جميعها ، إذ لابد لكل عضو من ثلاثة كتب، أو على الدقة من ثلاث مذكرات ، فلا بد أن تكتب هذه المذكرات سريعا ، لتكون بين أيدى الطلاب ، وأكثرها يطبع على ورق شاحب لا أدرى من أين جاء ، وقد كنا نضرب المثل بورق الجرائد على أنه مثال متواضع للورق الرخيص - فأصبح ورق الجرائد بالنسبة لورق المذكرات بالمحل الأرفع .

الملخصات آفة فى الجامعة

وإذا كانت الجامعة قد حددت السعر بالنسبة لعدد الورق فقد تطول المذكرة عند المؤلف الملتزم ، وقد يتحلل من لايخضع لتحديد السعر وعدد الورق معا ، أما الذى تكثر لديه الصفحات ، فهو كما ينبىء الواقع الأليم لايدرس غير أبواب ضئيلة منها ، وقد جرى الطلاب على أن يسألوا عن الأبواب المطلوبة ، ليكتب الطالب على الباب الأول كلمة مهم ، ثم يترك الباب الثانى ، وماخلفه ، ليكتب على الباب الرابع هـذه الكلمة ، ثم تكرر الكلمة على باب ثالث، وتكاد تقف عند ذلك ، ولعل القارىء يظن أن الأمر قد انتهى عند هذه الأبواب الثلاثة ، وأن الطالب سيقرؤها من ألفها الى يائها قراءة المستفيد ، ولكن هناك تقليداً أخذ يتبع من بضع سنوات ، هو أن ينهض معيد أو مدرس مساعد ، أو تلميذ موهوب ، فيلخص الأبواب المقررة فى عدة صفحات لا تتجاوز العشرين على الأكثر، وقد تنحط إلى الخمس تلخيصا سريعا ، ثم تصور هذه الصفحات لتقدم للطالب كى يكتفى بها عن سواها ، وتجىء الأسئلة من هذه الصفحات ، فتكون الإجابة المبتورة بحيث لايتجاوز الرد على السؤال عدة أسطر، ينال الطالب عليها درجة النجاح ، وقد وقع فى يدى كتاب فى علم النفس ، أظنه كان رسالة جامعية رأى صاحبها أن

تقرر على الطلاب متجاوزاً الكم المتفق عليه فى تحديد الصفحات والسعر وفق عدد الساعات ، ليرى رسالته مطبوعة ذائعة ، فهالنى أن أقرأ معلومات لا ترتبط برباط ، وفى نهاية كل فقرة قد لاتتجاوز أربعة أسطر ، رقم يشير الى مرجع شرقى أو غربى ، فإذا انتهيت الى صفحات المراجع وجدتها ثلث الصفحات السابقة ، وتحاول أن يتصل بك الحديث العلمى على نحو متسق ، تتصدره المقدمة ، فالعرض فالخاتمة فيعجزك أن ترى منطقا سديدا ، أو تفكيراً مطردا ، وإذن فالبحث العلمى لدى طائفة من أساتذتنا نقول وأمشاج تساق كيفما اتفق بحيث يجىء الفصل كما قال حافظ ابراهيم كثوب ضم سبعين رقعة مشتتة الألوان مختلفات ، هذا باحث «وباحث» سواه فى علم كعلم الاجتماع يملأ مذكرته بجداول الإحصاء ، حتى ليخيل اليك أنك تقرأ فى كتب الحساب والجبر ، فإذا سألت عن المادة التى يجب أن تلحق بها جداول الإحصاء هذه فلن تجد غير سطر أو سطور لاتسمن ولاتغنى من جوع ! لقد كنت طالباً بمعهد التربية العالى ودرست فى علم النفس التربوى كتباً مقررة للدكتورين عبدالعزيز القوصى وأحمد عزت راجح دفعتنى الى البحث عن كتب علم النفس فى شتى فروعه الجنائية والاجتماعية والعسكرية والصناعية لاالتربوية فحسب ، فهل تدفع المذكرة المبتورة ، أو الرسالة المعلولة طالباً اليوم الى البحث عن كتبٍ تتصل بما يدرس ، وهو يضيق ذرعا بأوراق كتبت ، كما اتفق وأطلق عليها وصف المذكرات !

ونعود الى سؤال الدكتور شكرى عياد عما يقرأ طالب المدرسة الثانوية مرفقاً بسؤالى عما يقرأ طالب الكلية الجامعية ، فنجد الإجابة صريحة فى أنه لا يقرأ شيئا مفيدا ، وإذا شاء أن يقرأ فلديه الصحافة الملونة ذات الورق الناصع ، والصور الخادعة ، والقصص المثيرة ، وسيجد أسماءً يظنها كبيرة لأنها تتكرر دائما أمام عينيه ، تطالعه فى كل عدد ، فيعتقد أن أصحابها من زعماء الفكر فيكونون المثل الأعلى لديه فى الإبداع ، وفيهم من بعثته القوى العاملة الى الصحافة كما بعثت خريج كلية اللغة العربية الى وزارة التموين مفتشاً ، وخريج كلية الآداب الى المصرف المالى محاسبا ، إذ المهم أن يتوظف ، وليس المهم أن يعمل ، ولن يطلب منى قارئى أن أصف الدواء فهو معروف موصوف ، ولكننا نتجاهله عامدين ....

القفز على الأشواك

بين الواقع والأسطورة

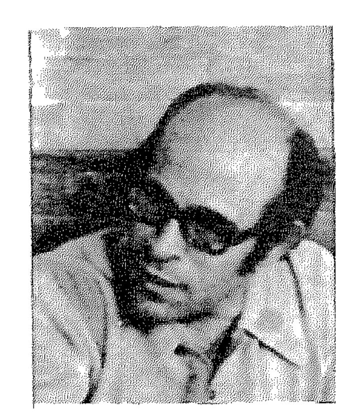
بقلم : د. شكرى محمد عياد

أضحك أحيانا - سرا وعلانية - عندما أسمع أو أقرأ حديثاً عن أدباء الستينيات وأدباء السبعينيات وأدباء الثمانينيات .

فهذا حديث لا علاقة له بالأدب . قد تكون فيه إدانة غير مباشرة لحقبة الستينيات ، أو تعبير عصرى جداً عن القلق ، وشدة الرغبة فى الوصول ، والمزاحمة على المكسب ، والسخط علي «المنافسين» ولكنه فى معيار النقد ومعيار الحياة كلام فارغ .

الكاتب الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم قد جاوز الستين ، ولكنك لاتملك إلا أن تعده من كتاب الثمانينيات . أنظر إلى ثبت أعماله فى أحدث مجموعاته القصصية : ستجد مجموعتين قصصيتين بينهما ثلاث عشرة سنة ، الأولى صدرت سنة ١٩٥٩ والثانية سنة ١٩٧٢ ، ثم أخرى تستمر إلى ١٩٨٠ ، وبعدها تتعاقب الأعمال الإبداعية: تسعة أعمال فى عشر سنوات ، أحذف منها عملاً واحداً لا ينتمى إلى هذه الحقبة ولا إلى سابقتها ، إذ إن حظه من الإبداع - فى الحقيقة - جد قليل .

ماذا كان إدوار الخراط يعمل منذ أواخر الخمسينيات حتى أواخر السبعينيات؟ كان يترجم ، فهو مترجم ممتاز ، وثبت أعماله يضم أربعة عشر عملاً مترجماً خلال هذه الفترة ، أعمال مختلفة الموضوعات ، متفاوتة القيمة ، ولكن حسبه منها رائعة تولستوى الضخمة «الحرب والسلام» .




ادوار خراط

يمكنكم أن تلمحوا عمق المأساة :

فورة الإبداع المكتوبة عبر السنين ، تنطلق فجأة كما ينطلق المارد من قمقم سليمان (ولأول مرة أفكر فى الدلالة الأسطورية العميقة لهذه الحكاية الشعبية) . ولعل التاريخ ينصف هذا الجيل فى يوم من الأيام . جيل وجد الأبواب كلها مسدودة فى الأربعينات ، وصودرت إرادته واستعبد عقله فى الخمسينيات والستينيات ، ولعنه أبنـاؤه وأحفـاده فى السـتينيات والسبعينيات . فى الأربعينيات لم يكن النشر متاحاً (أزمة الورق فى أثناء الحرب وأعقابها) ، ولم يكن النشاط العملى متاحا (ليس هناك إلا وظائف الحكومة) ولا النشاط السياسى ممكنا (الأحزاب ملك لمحترفى السياسة فى القمة والقاعدة ، والحركات السرية سيطر عليها اليهود ، وحتى الإرهاب كان ينظمه القصر ، ولم يكن ذلك أمراً مجهولا) . وفى الستينيات والسبعينيات كان على الكاتب أو المفكر أو الفنان أو الخبير أن يرقص على النغمة التى يعزفها نظام الحكم ، وكان نظام الحكيم يغير النغمة بدون مقدمات ، فإذا اختلت حركات الراقص وجد نفسه خارج الحلبة أو داخل السجن .

هذه هى البيئة التى تكون فيها نموذج من البشر يسمى اليوم «المثقف» . وهو نموذج مصرى أساساً ، وقد يكون له نظراء فى سائر الأقطار العربية . واللعنات تصب اليوم على هذا المثقف (وممن ؟ من الأجيال التالية التى تكرر النموذج ذاته) لأنه عاجز عن إصلاح ما أفسده غيره .

ولأن هذا «المثقف» لا يشتغل بغير الأفكار المجردة (فهو لا يتعامل مع الأرض

ولا مع الآلة إلا كمستهلك) كان عليه أن يلهث ، خلال عمره القصير ، عدوا من أوائل القرن التاسع عشر إلى مشارف الحادى والعشرين : من رومنسية المنفلوطى الدامعة إلى ما بعد الواقعية ، ومن الإصلاح الدينى الحذر إلى الثورة الإسلامية ، ومن الصراع ضد الاستعمار إلى «النظام العالمى الجديد» .

هذا هو الجيل الذى يطلب منه اليوم أن يتنحى عن الطريق ، جيل لم يعش بعد ، حتى يسأل البعض : لماذا لايموت . وإذا كان الباقون من هذا الجيل يرون اليوم مندفعين إلى العمل فى غير هوادة ، فقد لايكون دافعهم هو التشبث بالحياة ، لمجرد الحياة ، بل الرغبة فى أن يضعوا - قبل فوات الأوان ، خلاصة تجاربهم وخبراتهم فى أيدى الأجيال التالية .

ولكن الكاتب الفرد ليس مجرد مثال أو نموذج لجيل . إدوار الخراط هو قبل كل شىء إدوار الخراط . وقد صنع من نفسه نموذجه الخاص المتفرد . إدوار الخراط يتميز أولاً بأنه قبطى عميق القبطية ليس كلويس عوض ، أو يوسف الشارونى ، أو مجيد طوبيا . هؤلاء نوّبهم المجتمع المصرى ، الذى لا يقيم وزناً كبيراً للفرق بين قبطى ومسلم ، فلم تعد كتابتهم تتميز بخصوصية راجعة إلى قبطيتهم ، ولكن إدوار يملك عادة الاسترجاع إلى درجة عالية جدا (بحيث يمكن القول إن كل ما كتبه هو ترجمة ذاتية) وهذه العادة تجعله يحتفظ بكل الفروق التى تميزه كقبطى (اسم ملاكه الحارس مثلا : ميخائيل ، ولا أدرى لماذا أتصور أنه اسم إدوار المنزلى ، أو الحميم ، كذلك . ومع الاسم قصة الملاك والتنين ، الخ .) ولاشك أن إدوار يغنى الثقافة العربية المصرية بتراثه القبطى ، كما أنه إذ يقدم تجربة قبطية عميقة ، يقدم أيضا تجربة إنسانية عميقة . ولكن ترى هل يحدث له هذا الوعى بقبطيته نوعاً من الأزمة ، وهل تدخل هذه الأزمة ، أو طريقة تغلبه عليها ، فى تشكيل هذا النموذج الفنى المتفرد ، الذى نسميه أدوار الخراط؟

إن هذا السؤال - رغم أهميته - لم يطرح قط ، أو على الأقل لم يطرح قط بهذه الصورة . فهو يبدو سؤالاً شائكا ، يمكن أن يؤدى إلى شىء من الريبة بين الأقباط والمسلمين . وعندى أن النظر العلمى الموضوعى ، مهما يكن الموضوع ، لايمكن أن يؤدى إلا إلى مزيد من الفهم ، ومع الفهم يكون التفاهم . وإذا صح أن الأمر شائك ، فهل يعالج بالتجاهل ، وهل يجب أن نذهب إلى ندوة أدبية فى فرنسا

لنبحث موضوع الأقليات فى العالم العربى ؟

على أن الحساسية الدينية لا يمكن أن تكون هى السبب الوحيد لقلة إقبال النقاد على الكتابة عن أدب إدوار الخراط (وإن كنت أعلم أنه يلقى نصيباً موفوراً من الاهتمام فى الدراسات الجامعية) ، فأعمال إدوار شديدة التركيب ، وهى تتبع مواضعاتها الخاصة ، وتخرق كل المواضعات السائدة تقريباً ، فضلاً عن أنها حافلة بالإشارات المستمدة من ثقافته الواسعة .

وان أى إنسان ليستحى أن يكتب عنها مجاملاً ، وان أى إنسان ليشفق أن يكتب عنها جادا . وهأنذا أكتب هذا المقال بعد أن أطار النوم عن عينى ليلتين .

إن الدكتورة فريال غزول التى كتبت مقالاً ضافياً عن «رامة والتنين» ، بعد ظهور هذه الرواية بعدة سنوات ، لم تجد إلا مقالتين اثنتين عن هذه الرواية ، ومقالة أخرى عن أحد أعمال إدوار التالية ، مع حرصها الشديد على جمع كل ما قيل عن الرواية ، حتى ما ورد منه عرضاً فى أحاديث صحفية . وقد كان معظم إشاراتها إلى الندوة التى عقدت حول الرواية فى البرنامج الثانى ، واشترك فيها الناقدان بدر الديب وصبرى حافظ . (والذى اهتم بتسجيل هذه الندوة ، وأخرجها فى كراسة لطيفة ، هو إدوار الخراط نفسه ، ولابد أن لديه سكرتيرة ممتازة) .

وقد حرصت الدكتورة فريال غزول على أن تبسط بأناملها اللطيفة أى «كرمشات» يمكن أن تتعلق بالمعتقدات الدينية ، فحرصت مثلا على تأكيد أن «التنين» مذكور فى التراث الإسلامى فى عدة مواضع (إلى جانب الأبيات الأربعة التى أوردها إدوار فى ختام الرواية ، وهى للحلاج) ، ولا يخص الثقافة المسيحية لوروده فى الكتاب المقدس (إن الملاك ميخائيل - أو ميكائيل - يقتل التنين) وفى القصص الشعبى عن قتل القديس جورج - مار جرجس - للتنين . ولكنّ هأنذا أتذكر ملاحظة للناقد صبرى حافظ ، لفتت نظرى أيضا حين كنت أقرأ الرواية ، وهى أن مصر (إحدى المعادلات الكثيرة للمرأة رامة) انتهكت حين غزاها العرب . وأقول إن هذا معنى يمكن أن يجول بخاطر أى قبطى ، وإذا عبر عنه فى عمل روائى فما الضرر ؟ إنه لن يهدم وحدة عنصرى الأمة . وسنرى بعد قليل أنه جزء من البناء الفكرى الروائى عند إدوار ، وأنه لايحمل ذرة واحدة من التعصب الطائفى .

إننى أختلف قليلاً مع الدكتورة فريال غزول حول استخدام إدوار لأسطورة التنين، وللأساطير عموما . فليست هناك أسطورة مولِّدة وأساطير مولودة ، بل هناك بناء فكرى مكون من عدد من الأساطير ، أضيف بعضها إلى بعض ، وربطت بمختلف الطرق ، أحيانا ، تلبِّس أسطورة فى أسطورة ، وأحيانا توصل بها بحبل متين ، وأحيانا غير متين جداً ، ذلك أن وراءها عقلاً يحاول الخروج من مأزق ، ويجتهد بقدر استطاعته . وليس للأسطورة حياة كصانعها (ومستخدمها هو أيضاً صانعها) حتى تحبل وتلد . وهنا اختلف الاختلاف الكبير مع الدكتورة فريال غزول. فهى تشايع البنيويين ، والبنيويون جعلوا للأعمال الأدبية عالماً خاصاً وحياة خاصة، تتواصل أو تتقاطع أو تتشابك تبعا لمنطقها الخاص ، وبما أن منطقها الخاص شكلى محض ، فيجب أن نتصور حياة للأشكال الأدبية حتى تتزاوج وتتوالد وتقيم أو تهاجر. ألا ترين ياسيدتى أن البنيوية أيضا أسطورة ، أسطورة من خلق الإنسان ؟

إن فكرة «تولد» الأساطير من أسطورة محورية ، وانتهاء الأساطير كلها إلى أصل فكرى واحد - وهى فكرة مأخوذة عن لڤى ستراوس تؤدى بالدكتورة فريال غزول إلى خطأ واضح - لاسبب له إلا التعسف فى الفهم - حين تربط شخَصية رامة بأسطورة التنين على اعتبار أن «رامة هى الفتاة أو العذراء أو الأميرة أو الحسناء التى ينقذها البطل فى الأسطورة» . وأنا لا أملك الآن نصاً لأسطورة مار جرجس والتنين أو الحكايات الشعبية المنبثقة عنها ، والتى أشارت إليها الدكتورة فريال ، وإن كانت «تيمة» البطل الذى ينقذ الحسناء من الوحش أو المارد معروفة فى حكايات ألف ليلة (وغالباً تأخذ شكل مواقعة الحسناء فى غفلة المارد ، لا إنقاذها منه) ، كما أننى أكتب عن «رامة والتنين» معتمداً على قراءاتى السابقة لها ، دون مراجعة جديدة، ولكن الذى لاشك فيه أنه إن كان قد وجد فى الراوية رابط كالذى تذكره الدكتورة فريال ، فهو شىء فرعى جداً ، لايمثل شخصية رامة . والربط بينها وبين إيزيس فرعى أيضا ، ويشبه - إن وجد - أن يكون إضافة إلى النموذج ، غير منسجمة معه . تقول الدكتورة فريال فى موضوع آخر معلقة على رمز التنين والعلاقة بينه وبين رامة : «فالرواية تقدم الأسطورة ولكنها لاتقوم بتعريف التنين هل هو وجه من أوجه رامة المعشوقة ؟ أم هو وجه من أوجه ميخائيل العاشق ؟ أم هو كائن آخر أو قوة أخرى ؟ سؤال تتركه الرواية مفتوحاً ليقوم كل قارىء بالرد عليه .» وهذا كلام - لاشك

– أحكم من سابقه ، وإن كان من المسلم به أن الرواية لا «تعرِّف» شيئا . اما الذى قد نختلف عليه فهو تعليق المعنى فى رقبة القارىء وحده . إذن فما وظيفة الناقد ؟ النقد مغامرة فى التفسير ، كما أن الإبداع مغامرة فى التعبير ، والقارىء يشارك فى كليهما ولابد ، وقد يقبل أو يرفض ، ولكنه – وأنا هنا أتكلم كقارىء – لايعجبه الإسراف فى الدلال .

وإذا كان الحدس المطلق أساس عمل المبدع ، مهما يبذل من جهد فى إعداد نفسه ، فكرياً وثقافيا ، لعملية الإبداع ، فإن الحدس المنظم ، المرتب له ، هو أساس عمل الناقد . ومن الممكن – مثلاً – أن نبدأ بالتحليل الأسلوبى . فنلاحظ – أولاً – تردد اسم التنين فى الحوار بين الرجل والمرأة . وفى هذا إشارة إلى أمر مشترك بينهما . ثم نلاحظ – ثانيا ، ورغم هذا الاشتراك – أن الفعل هو «القتل» ، وأنه مسند إلى الرجل ، وهنا يتحدد المعنى بالفعل الجنسى ، منظوراً إليه كصراع بين الرجل والمرأة .

وأن يكون الحب ، وخصوصاً حين يكتمل بالعلاقة الجنسية ، نوعاً من الصراع ، هو معنى معروف ومتداول من قديم، ثم هو حاضر بقوة فى ذهن الكاتب، كما فى هـذا النص من أحدث أعماله «أمواج الليالى» (١٩٩١ – ص ١٠٦) :

«وأقول ، هل هناك حقاً بين المعتدى والضحية – فى كل صور العنف – علاقة تواطؤ ؟ كل صور العنف : بالكلام ، بالضرب ، بالتعذيب الجسمانى أو الروحى، بالفعل الجنسى ، أو حتى بالتآمر ؟ كأنها علاقة زمالة ، بين الوحش والفريسة ، تورط مشترك ، كأن فيها نوعاً من ممارسة العشق ، مقلوباً على وجهه ، ربما ، ولكنه هناك هناك .

«أقادرة أنت المنتهكة ، برضاك أو برغمك ، على أن تجعلى غاصبيك ، طغاة ، قتلة ، هم أنفسهم ، عاشقيك ؟»

أرأيت أنى لم أكن مخطئاً حين قلت إن تصوير فتح العرب لمصر على أنه نوع من الانتهاك ، لايعنى – فى نظر الكاتب – إدانة هذا الفتح ، أو الإنكار – حتى على المستوى الوجدانى أو مستوى التخيل المحض ، إذ لامجال لهذا الإنكار على مستوى الواقع – لعروبة مصر ؟ فمن الواضح أن المعشوقة التى يخاطبها الكاتب هنا هى مصر . أما كيف تكون المعشوقة مرة امرأة ككل النساء – بل امرأة هى كل النساء ! – فموضوع يجب أن أعود إليه فى مقال تالٍ .

هل عرف المقصود بالتنين الآن ؟ (ولا أعنى أنه قد عُرِّف !) إن أردت أنْ تتعمق فى الفهم أكثر فتعال نقرأ معاً هذه الأسطر الأخيرة فى «أمواج الليالى» – كلام الشيخ إدوار :

«ألم تدركى أننى فى حضنك مغترب أبداً ، لا أنى مع ذلك أناجيك دون انقطاع ولكنى لا أعرف لغتك المبهمة الأولى وأفتقد المبدأ الأول ، وعنيداً فى افتقادى ووجدى تراوغنى دائماً معرفة أنثوية الجسد . أهذه هى لأواء الفرقة أم لأواء المعرفة ؟ خلود عارض ملتبس ليس له منى مبتدأ ولا إليه مآب .

«بين الأعمدة القصيرة مكتنزة الربلة فى هواء النيل الذى بردّته رطوبة الصخر المنحوت عرفت بيقين مشوب أن التنين مسجون فى الأرض ، تحت أحد هذه العمدان الكثيفة الراسخة ، عمدان ساقيها – منذ ألف ألف عام ، لا أعرف متى .. متى يحطم قيوده ، ويفك الرصد ، كأننى إذ تشتعل نيران ، روحى أعوذه وأعزم عليه حتى يظل مدفونا ، والنيران سيف مشرع من الأرض مغروز فى كبد السماء تتراقص ذؤاباتها وشعاليلها على الشفرتين ، لا تقهر .

«دفق المطر الخصيب فى سماء جسدانية سوداء منمنمة ».

«صارى السفينة الطافية على السماء ملموم الشراع معلّق وعميق النفاذ فى غور السحاب الخلفى الأبيض »

«تحلق حمامة سوداء ، من صميم خلْقى ، وجهها محبوب إلى الأبد ، جناحاها مطويان علىّ وعلى جسمها الناعم معا ، أطلقتها الآن من بين يدىّ ، تحوم وتحوم ثم تعلو فوق شجرة العالم الذى أصبح فجأة صغيرا ، هديلها لاينقطع .»

إن هذه الفقرة مشحونة برموز الجنس: النار ، المطر ، الصارى ، الحمامة ، السواد (الليل) . ويضاف إلى هذه الرموز : الأرض ، حيث إن المعشوقة فى هذا العمل الجديد تسمى «كيمى» (الأرض) وإلهة الأرض فى الأساطير اليونانية والمصرية القديمة جميعا أنثى . والتنين سجين تحت الأرض ، أى تحت كيمى ، المعشوقة ، وبدلاً من الموقف الملتبس : هل يقتله البطل أو لايقتله (هل يتخلص من الدافع الجنسى ويخلص المعشوقة منه ، إما بإشباعه وإما بإعدامه – التباس ثان) لانجد هنا ذكراً للقتل ، بل نجد بطلا أقرب إلى السلبية ، فهو إما منتظر انطلاق التنين من سجنه ، وإما مستعين بالسحر على إبقائه مسجونا . هل أصبح ميخائيل شيخا ؟ أم كيمى – رامة بلا فرق – فهى الأنثى الخالدة ، «منذ ألف ألف عام» ، تجسد الشهوة التى

لانهاية لها ، التى لاتمتلىء أبداً ، حتى فى أوج تحققها ، والتى تضمن استمرار الحياة ، رغم فناء الأحياء (لعل تعازيم ميخائيل كى يبقى التنين سجينا تحت الأرض إشـــارة إلى محــاولة يـائسـة ، ولاجدوى منها ، لاستبقاء الحياة الفردية).

ثم هذا السيف النارى الصاعد إلى السماء من روح البطل : أين هو من سيف القديس ؟ أظن ظنا ، ولست بمستيقن ، أن حكاية القديس جورج أو مار جرجس تقول إنه قتل التنين بسيف من نار ، ولكن سيف ميخائيل ينغرز فى كبد السماء - السماء الجسدانية السوداء - وكأنه يتجنب قتل التنين ، القابع فى أعماق الأرض لا يريم .

هذه المعانى الملتبسة للتنين فى تعامل البطل معه تأتى من التحام الأسطورة بأسطورة أخرى مختلفة كل الاختلاف . إن التنين فى الأسطورة الأصلية ذو معنى واحد بسيط ، فهو يعنى الشر ، الشر الكامن ، أساساً ، فى نفس الإنسان . والشهوة ، فى منظور هذه الأسطورة ، أسطورة ميخائيل ، شر . ولكن رامة ، أو كيمى ، شخصية مجبولة من الشهوة ، ولهذا نقول إن شخصية إيزيس ، الزوجة الوفية المخلصة ، مقحمة عليها . إن النموذج الأسطورى لرامة أو كيمى هو عشتار أو أفروديت ، إلهة العشق التى قرر مجمع الآلهة أنها لا ينبغى أن تمارس عملاً غيره . إن سحرها لايقاوم ، ومعاشقها لاتنتهى ، رقدت لكل الآلهة ، ولبعض البشر أيضا ، كذلك يشك ميخائيل أن رامة أمكنت المراكبى من نفسها ، ويصفها بأنها امرأة نمفية ، أى شبقة أبدا . وأفروديت بنت البحر ، وللبحر حضور مؤثر فى غرام رامة أو كيمى . بل إن هناك جزئية أسطورية مهمة ، وهى أن أفروديت تنزل إلى البحر لتجدد بكارتها ، ومثل ذلك نقرؤه عن رامة - أو لعلها كيمى ؟

ولكن إدوار يتصرف فى أسطورة أفروديت بعض التصرف ، إذ يمزجها بأسطورة أرتميس إلهة الخصب ، راجعاً بها إلى أصولها فى الطقوس الذكرية ، فيجعل حابى (النيل) قضيباً مخصباً ليشق كيمى ، متدفقاً دائماً بالمنى المخصب («أمواج الليالى» ص ٤٥ - ٤٦ و ١٠٦) .

وهكذا يصبح للتنين وجهان : وجه مخوف ووجه مرغوب ، ويصبح للعشق وجهان : وجه من النشوة ووجه من العجز عن الامتلاك . ويتمزق ميخائيل ويصبح أوزوريس الذى لايطمع أن تجمع أشلاءه إيزيس ، وتتمزق كيمى نفسها حتى تصبح «أوزوريس مؤنثة» .

هل عبر إدوار الخراط بهذا التمزق عن حالة عصر وموقف جيل ؟ دعنا لا نتعجل الجواب .

الكتب الصفراء والحضارة العربية

بقلم : د . محمود الطناحى

كتب الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى ، كلمة فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٨/٢٦م قدم فيها كتاب الأستاذ الكبير النبيل الدكتور مصطفى ناصف « صوت الشاعر القديم » .


أحمد عبد المعطى


د . طه حسين

وقد ذكر الأستاذ حجازى فى صدر كلمته أنه مدين لثلاثة أساتذة بما يعرفه عن الشعر الجاهلى : أولهم مفتش لغة عربية رآه أيام الدراسة ، وقد دخل عليهم الفصل ، وكان أستاذ اللغة العربية يشرح شيئاً من شعر الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، فلم تَرُقْ طريقةُ المدرّس فى شرح شعر الأعشى ذلك المفتش ، فأخذ الكلام من المدرس ، واندفع فى شرح بلغ من الأستاذ حجازى مبلغاً كبيراً من الرضى والارتياح، ثم غاب ذلك المفتش ، ولم يره الأستاذ حجازى ، ولم يسمع به بعد ذلك . ولا نعتقد أن مثل هذه اللحظة الخاطفة فى حصة دراسية محدودة ، أخذ فيها ذلك المفتش فى شرح بيتين اثنين من شعر الأعشى على نحوٍ مطربٍ معجِب ، تضع هذا المفتشَ - حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة - مع عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف ، وتجعل الأستاذ حجازى مديناً لهؤلاء الثلاثة بما يعرفه عن الشعر الجاهلى ! غاية ما يقال عن ذلك المفتش الحاذق اللَّبق أنه حبب إلى ذلك الفتى الصغير الشعر الجاهلى ومهد لأنغامه الشجية أن تنصب إلى سمعه وتتولَّج فى قلبه .

على أنى أظنّ ظنًا أن الأستاذ حجازى قد غَبّن نفسه ، وحَجّر عليها واسعاً حين حصر طريق معرفته بالشعر الجاهلىّ فى هؤلاء الثلاثة ؛ فإنى ألمح فى شعره وفى كتاباته الأخيرة رصيداً طيباً من القراءة المتعدّدة المصادر والموارد .

والعميد الدكتور طه حسين – على جلالة قدره ونَباوَة محلّه – لم يكن وحده فى ساحة الشعر الجاهلىّ ، فقد سبقه سابقون ، وعاصره معاصرون ، ولحقه لاحقون ، بذلوا لذلك الشعر الجاهلىّ من صفاء نفوسهم ونقاء أذواقهم ، وذكاء ألسنتهم ، ونصاعة أقلامهم ، ما كشف هذا الشعر ، ودلّ على أنه أنبل كلام العرب وأشرفه ، وأنه مستودع أسرار العربىّ ومُستراحه ، ومَجْلَى مواجعه وأشواقه .

أما الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف فما فتىء يصرّح بأن الشأو بعيد، والمدى أوسع ممّا يحيط به بَصَر ، بل كثيراً ما يحدثنى كفاحاً ومشافهة ليس بينى وبينه أحد ، عن صعوبة طريق الشعر ، ثم يقول لى بلهجته العذبة الودود : « يامولانا المسألة ماهش كده ، احنا محناش واخدين بالنا ، لازم نقرأ ونقرأ » ثم يثنى على فلان ، ويحيل على فلان من السابقين الأوّلين .

ومهما يكن من أمر فإن الذى يعنينى من مقالة الأستاذ حجازى هنا قوله عن الدكتور طه حسين . إنه يدين له « بهذا المنهج الذى أخرج به الشعر الجاهلىّ من سلطان النحاة والشرّاح وسدَنة الكتب الصفراء » . وهكذا يرسل الأستاذ حجازى الكلام إرسالاً وكأن ذلك من الحقائق المؤكدة التى استقرت عند الناس ، ولم يبق لأحد فيها مقال .

وسأؤخر الحديث عن سلطان النحاة إلى حين « وأحبب الينا أن تكون المقدَّما »، وآخذ فى الحديث عن « سدنة الكتب الصفراء » ولْنفرغْ أولا من « سدَنة » هذه على طريقة « تحرير المصطلح قبل الأخذ فى المناقشة » و« سدنه » من الكلمات التى يتساهل بعض الكتاب فيها ، فيستعملونها فى غير ما وُضِعت له . وهى جمع « سادن » وهو خادم الكعبة خاصّة ، وخادم الأصنام فى الجاهلية ، والفعل منه سَدَنَ يَسْدُن ، من باب قَتَل يَقْتُل . قال ابن فارس فى مقاييس اللغة : « السين والدال والنون أصلٌ واحد لشىء مخصوص . يقال : إن السِّدانة : الحجابة ، وسدَنة البيت « حَجَبتُه » انتهى كلامه . وقوله : « لشىء مخصوص » قَطَع به طريقَ المجاز ، وأراد أن العرب لم تستعمله فى غير هذا المعنى ، وأن مثل ذلك لا يُنقل إلى غير معناه الخاصّ إلاّ بسماعٍ صحيح ممّن يُوثَق بعربيّته . فبطل إذن – بحمد الله – استعمالُ «سدَنة» هنا .

ولم يبق إلاّ « الكتب الصفراء » وهو وصفٌ عجيب ، كنّا نسمعه قديماً ونحن شَبَبَةٌ صغار ، فنفتتن به افتتانا ، كما كنّا نفتتن بمثل « الشعر المهموس » و« الدَّفْقة

الشعورية » و« تراسُل الحواسّ » و« المنولوج الداخلى » فلما أفَقْنا من الغَشْية ، وعرفنا الطريق ، أدركنا أن ذلك كلَّه ممّا لا غَناءَ فيه ، ولا طائل تحته ، وأنه كما قال ابن قتيبة : « ترجمةٌ تروقُ بلا معنى ، واسمٌ يَهُول بلا جِسم » ، أو كما قال ابن الشَّجرى : تهاويلُ فارغةٌ من الحقيقة » .

وقد اختفى هذا الوصف « الكتب الصفراء » زماناً ، ثم عاد مرَّةً أخرى . وإذا كنّا لا نحفل به إذا جاء فى كلام من لا يؤبه له ، ولا يُعاجُ به من صغار الكتّاب ، فإن الأمر يختلف إذا ورد فى كلام شاعر كبير مثل الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى ، له قرّاء ومحبون ، وأستاذ جامعى مثل الأستاذ الدكتور عاطف العراقى ، له تلاميذ ومريدون - وذلك فى كلمة له قريبة فى الأهرام أيضا .

وواضح أن ورود هذا الوصف فى كلام الأستاذ حجازى والدكتور العراقى ، ومَن لَفَّ لَفَّهما ، إنما هو فى مقام الذمّ والسّخريّة ، بحيث صار استعمال هذا الوصف مرادفاً للأدب الغثّ والفكر الهزيل المتخلّف .

وإذا كنّا لا نرضى لأنفسنا أن نتغلغل إلى المطوىّ فى ضمائر الناس ؛ لأن ذلك عند علاَّم الغيوب ، وإذا كان الأستاذ حجازى والدكتور العراقى ، وكل من استعمل هذا الوصف ، لم يقدّموا لنا نماذج محدّدة من أسماء هذه الكتب الصفراء وما تشتمل عليه من ألوان الفكر وضروب الأدب ، إذا كان ذلك كذلك فإن من حقّنا أن نقف عند الدلالة المجرّدة لهذا الوصف ، فنقول ببداهة العقل وبمطلق الدّلالة : إن كلَّ فكر جاء فى كتب صفراء مرفوضٌ ومُطَّرَح ؛ لأن الوصف إذا جاء بغير قيد أو استثناء دخل تحته كلُّ أفراد جنسه . ومعنى هذا ببداهة العقل أيضاً ، وبمطلق الدّلالة أن ديوان الأستاذ حجازى « مدينة بلا قلب » إذا جاءنا فى ورق أصفر اجتويناه ورفضناه ، وبمفهوم المخالفة : إذا جاءنا هذا الديوان على ورق كوشيه فاخر ، كان ذلك رافعاً لخَسيستِه - إن كانت فيه خَسيسَةٌ - لا قدَّر اللهُ ولا قَضَى .

ونحن نقولها بكلّ سلامة الصدر ، وبكلّ خلوص النّية لكلّ من عنده خبرٌ عن حقيقة هذا الوصف : نبِّئْنا بتأويله .

وبكلّ سلامة الصدر أيضا وخلوص النيّة نسأل الأستاذ حجازى ، نعم نسأله تعلُّماً لا تَعنُّتاً : ما معنى قولك : إن الدكتور طه حسين أخرج الشعر الجاهلىّ من سدنة الكتب الصفراء ؟ فمن هم هؤلاء السَّدنة - إن قبلْنا هذا الاستعمال؟ ما هى أسماؤهم ، ثم ماهى أزمانهم ؟ ثم ما هذه الكتب الصفراء التى جاء فيها شرح الشعر الجاهلى مُحرَّفاً ومُزالاً عن جِهته ، حتى جاء عميد الأدب العربى فنفخ فيه من رُوحه حتى نهض قائماً على سُوقه ؟

إن الشعر الجاهليّ قد جاءنا موثَّقاً مضبوطاً فى دواوين أصحابه التى صنعها علماء الصدر الأول ، مثل ابن السكِّيت وابن حبيب وثعلب والسكَّرى ، وفى الشروح الكبرى ، مثل شرح المفضليات لأبى محمد الأنبارى ، وشرح القصائد السبع لابنه أبى بكر ، وشرح القصائد التسع لأبى جعفر النحاس ، وجاءنا أيضاً فى المجاميع والمختارات الأدبية التى صنَّفها فحول العلماء فى الصدر الأول أيضاً كالمفضليات والأصمعيات والحماسات والمختارات ، وجاءنا أيضاً منثوراً ومفرَّقاً فى كتب الأمالى والمجالس ودواوين الأدب ومعاجم اللغة ، بل وفى كتب التاريخ والبلدانيَّات (الجغرافيا) .

وحين ظهرت المطبعة ، وتصدَّى علماء البعث والإحياء لشرح الشعر الجاهلى قرأناه فى مؤلفات جِلّة العلماء ، من أمثال الشيخ حسين بن أحمد المرصفى ، والشيخ سيد بن على المرصفى ، والشيخ حمزة فتح الله . ثم جاءت طبقة تلاميذهم من قرّاء الشعر الجاهلى وشرّاحه ، مثل الأستاذ محمود محمد شاكر ، والدكتور طه حسين ، والطبقة التى جاءت بعدهما مثل الدكتور نجيب محمد البَهْبِيتى ، والدكتور عبد الله الطيِّب المجذوب ... وهلمّ جرّاً إلى أساتذة الأدب ودارسيه بالجامعات وغير الجامعات .

فأنت ترى أن الشعر الجاهلى تنقل فى أصلابٍ كريمة ، ووعتْه صدورٌ حافظة، وحملتْه أيدٍ بارَّة ، وأدَّتْه ألسُنٌ ذكيّة . وهؤلاء العلماء المحدَثون الذين ذكرتُهم إنما قرأوا الشعر الجاهلى وغير الجاهليّ فى الكتب الصفراء .

فإذا تركنا حديث الشعر الجاهلى ونظرنا فى تراثنا كله المطبوع فى مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى بمصر وسائر بلاد الدنيا ، وجدناه كلَّه – وبخاصة أواخر القرن الماضى والربع الأول من القرن الحالى – قد جاءنا فى الورق الأصفر ، فقد قرأنا تفاسير القرآن الكريم ودواوين السنّة المطهرة فى الورق الأصفر ، وكذلك كتاب الأم للشافعى ، وكتاب سيبويه ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وتاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومقدمة ابن خلدون ، والفتوحات المكية لابن عربى ، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ونفح الطيب للمقرى ، وألف ليلة وليلة ... وسائر كتب الحضارة العربية والإسلامية . وكذلك الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية فى أنواع العلوم ، كالطب والهندسة والفلك والرياضيات والعلوم الحربية . وكذلك كان الشأن فى كثير من مطبوعات أوربا من الكتاب العربى وغيره . يقول العلاّمة الدكتور عبد الله الطيب المجذوب ، صاحب الكتاب العظيم « المرشد إلى فهم أشعار العرب » فى محاضرة ألقاها بنادى ناصر الثقافى بالخرطوم : « وأشهد على نفسى أنى عندما كنت أدرس فى الخارج – يعنى لندن – كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير ، فكان التلاميذ معنا يُسَمِّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب ، حتى أمثال « يدخل يطارده القتلة » أو « يخرج يطارده سبع » وكانت لهذه المسرحيات

القديمة شروح ، قد تكون الأبيات أربعة أسطر فى أعلى الصحيفة بخط كبير ، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق ، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون ، فإذا قدّم لهم شيءٌ يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفوراً شديداً . ومن عجب الأمر أن الكتب التى كنّا نَدْرُسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر . والورق الأصفر لعلّه ألْيَن على عين القارىء من الورق الناصع الأبيض » انتهى كلامه ، ويؤكّده أن مصابيح الإضاءة فى شوارع وميادين المدن الكبرى غلب عليها الآن اللونُ الأصفر .

وقد شهدنا فى الكتب الصفراء ظاهرةً طباعية عجيبة ، لم نشهدها فى الكتب البيضاء ، وهى ظاهرة طبع كتاب أو كتابين بهامش الكتاب الأصلىّ ، أو بآخره إذا كان له صلة بالكتاب الأصلى . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، لاداعى للتطويل بذكرها . على أن أعجب مافى هذه الظاهرة أن نرى خمسة كتب مطبوعة فى كتاب . وفى صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة ، فى الصُلب والهامش ، مفصولة بجداول ، دون أن يختلط بعضها ببعض ، أو يبغى بعضُها على بعض . وذلك : كتاب شروح التلخيص فى علوم البلاغة ، ويشتمل على :

١ – شرح سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى .

٢ – مواهب الفتّاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى .

٣ – عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السُّبكى .

٤ – الإيضاح للخطيب القزوينى .

٥ – حاشية الدسوقى على شرح السعد .

والثلاثة الأولى طبعت فى صلب الكتاب ، والاثنان الباقيان بهامشه . وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق – على الورق الأصفر – سنة ١٣١٧ هـ ، أى منذ نحو مائة عام . وكانت هذه الطبعة على نفقة مصطفى افندى المكّاوى ، المحامى بمدينة الفيوم ، والشيخ فرج الله زكى الكردى ، وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية ، من طلبة العلم بالأزهر الشريف ، وعبد الحميد افندى الصمدانى .

وقِفْ أيها القارىء الكريم عند اسم « مصطفى افندى المكّاوى المحامى » وانظر إلى هِمم الرجال واهتماماتهم فى تلك الأيام ! رجلٌ من رجال القانون ينهض للمشاركة فى نشر أصولٍ من كتب البلاغة ! وأدَعُ لك أيها القارىء العزيز التدبُّر فى هذا الذى كان ، وما نحن عليه الآن !

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى ، ظاهرة عجيبة فريدة ، وهى دالّةٌ بوضوح على أن القوم كانوا فى سباقٍ لنشر العلم وإذاعته . وما أعلم أن هذه الظاهرة عرفت فى غير مطابع مصر واستنابول ، فى بداية الطباعة العربية على الأقل .

هذا وقد ارتبط الورق الأصفر عند عارفي الكتب وجامعيها ، بجودة التصحيح وكمال الإخراج - وتلك حقبة غالية من تاريخ الطباعة في مصر - فقلَّ أن تجد تصحيفاً أو تحريفاً ، وجاءت النصوص كاملة موفورة ، لا سقط فيها ولا خلل ، وذلك لأن القائمين على تصحيح الكتب الصفراء فى ذلك الزمان كانوا طبقة من فضلاء العلماء ، وكانوا يقومون بعملهم هذا في أمانة تامّة وحرص شديد . ويذكر التاريخ من أسماء هؤلاء المصحّحين العلماء : نصر الهورينى ، ومحمد بن عبد الرحمن ، المعروف بقُطّة العدوى ، ومحمد الحسيني ، وطه محمود ، ومحمد عبد الرسول ، ومحمد قاسم ، ومحمد الزهرى الغمراوى ، وعبد الغني محمود .

وكان كثيرٌ من أساتذتنا الذين يجمعون الكتب يركضون خلف الطبعةالصفراء ، ويسمحون فيها بأغلى الثّمن ، فإذا جئت أحدهم بطبعة من الكتاب القديم على ورق أبيض ، نفر منها نفوراً شديداً ، فإذا زينتها له بأن فيها أوائل فقرات ، وعلامات ترقيم ، لَجَّ في إعراضه ، وقال : « بِطِينِه ولا غَسيل البرَك » .

وإن تعجب فعجب : أن الورق الأصفر قد عاد إلى الطباعة مرّة أخرى . وأمامي الآن طبعة جيدة جداً من « القاموس المحيط » للفيروز ابادى ، على ورق أصفر. وتقع هذه الطبعة في (١٧٥٠) صفحة ، وقد أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م . ثم طبعة محقّقة من كتاب « مفردات ألفاظ القرآن » للراغب الأصبهاني . على ورق أبيض ، ولكنه بياض خفيف يميل كلَّ الميل إلى الأصفر . وهذه الطبعة من منشورات دار القلم بدمشق ، والدار الشامية ببيروت . الطبعة الأولى ١٤١٢ = ١٩٩٢ م .

هذا ولن تزول حيرتى ، ولن ينقضى عجبي من حديث « الكتب الصفراء » والحطّ عليها ، إلاّ إذا جاءنى كاتب بكلام محدّد مبين موثّق ، بأسماء هذه الكتب الصفراء ، والفنون التى عالجتها ، والدلالة على مواضع الذمّ منها . وليس لى إلاّ شرطٌ واحد : أن يرفُقَ بى الكاتب ، فلا يَهْجم بى على دهاليز المنهجية والموضوعية والإشكالية ، وحركة التاريخ ، والحتمية الحضارية ، وأن يأتينى الكلام واضحاً قاطعاً ، لا ترى فيه عِوجاً ولا أمْتاً ؛ فإن كثيراً مما نقرأه ونسمعه فى هذه الأيام مما ينطبق عليه قول ذلك الأعرابى وقد حضر مجلس الاخفش فسمع كلاماً لم يفهمه ، فحار وعجب ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ فقال : « أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا » ... نعم إن كثيراً مما نقرأه ونسمعه الآن مما يدير الرأس ويجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى ، وكأنك فى مدينة ملاهٍ ، أمام تلك الصناديق التى يجلس فيها الصغار : تعلو بهم ثم تهبط ، ثم تعلو ثم تهبِط ، إلى أن يدركهم الدُّوار ، أو يُنزِلَ الله عليهم النُّعاسَ أمَنَةً منه ... والملجأُ الله .

إسلامية المعرفة

البديل الإسلامى للوضعية الغربية

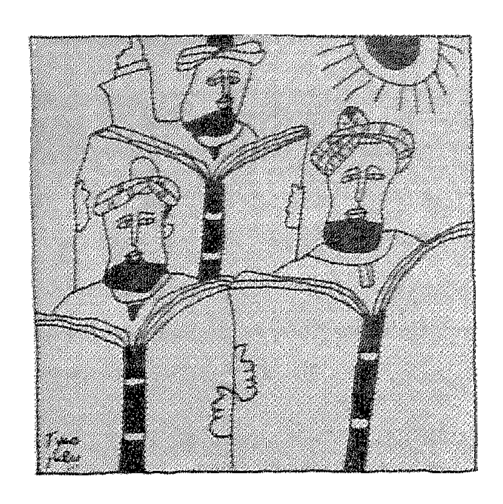
بقلم : د. محمد عمارة

عندما حدث ودخلت حضارتنا الإسلامية فى طور التراجع والجمود - لأسباب ليس هذا هو مقام الحديث فيها [1] .. فذبل فيها الخلق والإبداع والتجديد ، وعزق العقل الإسلامى فى بحار الجمود والتقليد .. تصادف زمن ذلك التراجع مع الإحياء والنهضة للحضارة الغربية فى أوربا ..

ولقد قامت النهضة الغربية الحديثة ، فى مناهج المعرفة ونظرياتها ، كرد فعل عنيف ومناقض لتلك المناهج التى سادت ، فى تلك الحضارة ، إبان عصورها الوسطى والمظلمة ..

كانت الكنيسة الكاثوليكية ، إبان هيمنتها على الحضارة الغربية - سواء فى ظل « القيصرية - البابوية » - التى هيمنت فيها الكنيسة على السلطة الزمنية - أو فى ظل «البابوية - القيصرية» - عندما أصبح «البابوات» «قياصرة» أيضا ! - .. كانت هذه الكنيسة قد جعلت «اللاهوت» هو مصدر المعرفة الوحيد .. فقدست المعرفة ، وثبتتها - جمدتها - عندما جعلت لها قدسية الدين وثباته .. وبعزلها «الواقع» عن أن يكون المصدر الثانى للمعرفة ، منعت الشرعية عن ثمرات معرفة هذا «الواقع» ، من هنا كان «التحريم» للمكتشفات الجديدة ، و«الحرمان الدينى» لمن يطلبون «المعرفة» خارج «اللاهوت ! ..

لقد جعلت الكنيسة من «المعرفة» شأنا سماويا خالصا ، لا مكان فيه «للواقع» وأدوات إدراكه وتصوره .. فجاءت النهضة الغربية الحديثة ، كرد فعل عنيف ، مضاد



لهذا الموقف الكنسي لتجعل من «الواقع المحسوس» المصدر الوحيد للمعرفة ، ولتجعل من التجربة الحسية - المذاهب التجريبية ، بأنواعها - السبل الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم ! ..

لقد فتحت هذه النهضة الغربية الحديثة صفحة جديدة لمنهج المعرفة الحسية ، الذى عرفه تاريخ الفكر البشرى لدى أصحاب الديانات الوضعية - والذى أشرنا إلى «السُّمَنِّيَّة» نموذجا له .. بل لقد تصاعد رد الفعل هذا بتيارات الوضعية الغربية إلى حد الزعم بأن «الدين : وضع بشرى» ! .. وليس «وضعا إلهيا » ، وذلك عندما أنكرت هذه الوضعية «الوحى» كمصدر من مصادر المعرفة الحقيقية ، واعتبرته - فى أحسن الحالات ، وأخف وألطف التعبيرات : ميتافيزيقا ، وخيالات ، إن جاز أن تكون تصورات لمرحلة من مراحل طفولة وسذاجة العقل الانسانى ، فغير جائز أن تكون «معرفة» بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح ! ..

لقد قال الوضعيون الغربيون : «إن العقل الإنسانى قد مر بحالات ثلاث : حالة لاهوتية ، وحالة ميتافيزيقية ، وحالة واقعية ..» هى تلك التى غدا «الواقع» فيها المصدر الوحيد للمعرفة الحقة .. فالحق ، بنظرهم ، هو «ثمرة التجربة» وحدها (٢) ! ..

وكما قال «السُّمَنِّية» - القدماء - : إن ماعدا «المعروف بالحواس» هو «مجهول » .. قال أبو المذهب الوضعى : أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧م) : إن ماعدا «الواقع» المحسوس هو «وهم» من الأوهام ! .. «والفكر الإنسانى لايدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة ، ومابينها من علاقات أو قوانين ، وإن المثل الأعلى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية .. فالتجربة هى مصدر المعرفة الحقة الوحيد - ومن ثم فإنه يجب العدول عن كل بحث فى العلل والغايات وفى المبادىء الأولية .. فكل المعرفة مستمدة من الحس أو التجربة المباشرة ، وليس من الفطرة أو العقل أو النظرى والاستنباطى .. أما «مصدر

الوحى» ، فلقد اعتبرته الوضعية : افرازا بشريا تلاءم مع مرحلة الطفولة التى مر بها العقل البشرى قبل أن يصل إلى «الوضعية – التجريبية » ، عبر «الميتافيزيقا» ؟! ..

بل لقد شابهت هذه الوضعية الغربية الحديثة ، فى منهجها هذا فى المعرفة ، أسلافها القدماء ، من أبناء الديانات الشرقية الوضعية – مثل «السمنّية» التى أشرنا إليها – عندما سارت على ذات الدرب « حذو النعل بالنعل» ! .. فقالت بـ «الدين الوضعى » .. فكتب أوجست كونت كتابه (تعاليم الدين الوضعى) سنة ١٨٥٢ ؟! ..

وفى هذا «الدين الوضعى» جعل هذا «المتنبىء الوضعى الجديد!» .

● العبادة للكائن الأعظم – الذى رمز له بصورة الأنثى ! فى معابد تحتوى على تماثيل نصفية لمن رآهم قد أحسنوا إلى الإنسانية ! ..

● وجعل لهذا الدين الوضعى «تقويما» وضعيا سميت شهوره بأسماء : موسى ، وأرشميدس ، وفردريك الثانى .. وغيرهم من أمثالهم ! ..

● أما أعياد هذا الدين ، فهى احتفالات بالعظماء – ولقد جعل أوجست كونت فى هؤلاء العظماء الذين تقام الأعياد احتفالا بهم : أصدقاءه ، الذين ساندوه فى محاولته الفاشلة لاحتلال منصب الأستاذية بمدرسة الفنون التطبيقية ؟! ..

● أما روحانيو هذا الدين الوضعى ، فهم العلماء التجريبيون .. بدلا من رجال اللاهوت ؟! (٣) ..

فهى ، إذن « والردة العنيفة » و « رد الفعل العنيف » على الموقف الكنسى والمذهب اللاهوتى فى مصادر المعرفة وسبل تحصيلها .. لقد جعلت الكنيسة المعرفة شأنا سماويا خالصا لا علاقة له «بالواقع» .. فجاءت الوضعية لتجعلها شأنا أرضيا «واقعيا» خالصا لا علاقة له بالوحى ولابنبأ السماء ! ..

والأمر الذى يؤكد هذه الحقيقة هو ماذهب إليه أبو الوضعية الغربية ، و «متنبىء دينها الوضعى» الجديد ، فى تقسيمه لمراحل تطور المعارف والعلوم .. فلقد رآها مراحل ثلاث :

١ – المرحلة اللاهوتية .. وهى مرحلة الحكم الدينى .. التقليدية ، التى اتسقت فيها السلطة بين قوة الملوك الدنيوية وقوة الكهنة الروحانية ..

٢ – والمرحلة الميتافيزيقية .. التى حدث فيها نوع من الفوضى ، تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم ..

٣ – والمرحلة الوضعية .. التى يكون فيها رجال العلم التجريبى قوة روحية جديدة .. وتسود فيها المعرفة الوضعية .. ويصبح الدين وضعيا أيضا ! .. وتصبح

كل العلوم ، حتى الانسانية منها طبيعية ، فى مناهجها ، وفى درجة الحياد والموضوعية والتعميم لقوانينها ومقولاتها – حتى لقد أطلق على علم الاجتماع – الذى أسسه – : «الفيزيقا الاجتماعية » ؟! .. (٤) وقال ، فيما قال : «إننا مادمنا نفكر بشكل وضعى فى مادة علم الفلك أو الفزياء ، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة فى مادة السياسة أو الدين ، فالمنهج الوضعى الذى نجح فى علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير ! ..» (٥)

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف وكافة العلوم صادرة عن مصدر واحد للمعرفة ، وهو «الواقع المحسوس» .. فكل المعارف «تجريبية» ، ومن ثم يمكن التعبير عنها بلغة الفيزيقا » !

هكذا بدأت وتبلورت «الوضعية» الغربية – بمدارسها المختلفة – وانقساماتها التى تمايزت فى الفروع والتفاصيل والتخصصات – : الوضعية .. والوضعية المنطقية .. والتجريبية .. والسلوكية .. والمادية – بمذاهبها وفروعها – .. الخ .. الخ ..

فكما حرّم اللاهوت الكنسى المغربى «المعرفة الواقعية» لجاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢م) .. جرّمت الوضعية الغربية «المعرفة الإيمانية » معتبرة إياها : إفرازا بشريا طفوليا ، تجاوزه العقل البشرى عندما تجاوزت الانسانية مرحلة طفولتها ! ..

وهكذا عاد الخلل إلى مصادر المعرفة ، وإلى أدواتها ، عندما قامت على ساق واحدة ، هى «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها الأخرى ، «كتاب الوحى» .. عاد إليها هذا .

الخلل القديم من جديد !

لقد عدّت الوضعية : «دين الفكر الغربى» الذى استبدل به «دين الإيمان السماوى» .. ثم اتخذت الأشكال المتعددة فى الميادين المختلفة ..

فهى قد جعلت «الوعى» نشاطا ماديا ، هو انعكاس «للدماغ» ، الذى حسبته «العقل» .. أى أنها قد جعلت «العقل» و«التعقل» مادة .. حتى لايكون هناك شىء فى الإدراك والمعرفة غير الحس والمحسوس والحواس .. وقال هكسلى (توماس . هـ) (١٨٢٥ – ١٨٩٥م) : لايبدو أن الوعى متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم ، لا أكثر ، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعديل عمل الجسم ، مثلما يلازم صفير البخار حركة القاطرة دونما تأثير على آليتها ..» ! ... وقال أيضا ، فى سياق الادعاء بهذه «المادية الميكانيكية» : «إن الأفكار التى أعبر عنها بالنطق ، وأفكارك فيما يتعلق بها إنما هى عبارة عن تغيرات جزئية .. » ؟!

ولقد قادت هذه «المعرفة الحسية» ، التى أنكرت «مادون المحسوس والحواس» ، قادت أصحابها إلى «دهرية جديدة» فى الاعتقاد ! .

فالدهريون الأول قد قالوا : (ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ورءوا فى الموت نهاية كل شىء يستوى فى ذلك «الجسم» و «العقل» و «النفس» و «الروح» و «الفكر» و «الإرادة» .. فالناس – كما قالوا – هم مثل الزرع ؟! .. تراه مختلفا ألوانه ، ثم يصير حطاما لا عودة له ولا بعث ولا نشور ؟! .. لأنه – كما قال هؤلاء الماديون – (إذا كان التفكير والإرادة ، نشاطين من أنشطة الدماغ ، فسيفنيان بفناء الدماغ . وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة ، فلابد من أن يكون كل جزء منه عرضة للفناء .. » !

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية للعلم الغربى ، انطلق داروين (تشارلز) (١٨٠٩ – ١٨٨٢ م) ففسر – فى الداروينية – نشأة الحياة تفسيرا ماديا – أو إلى هذه النتيجة قادت أبحاثه فريقا من تابعيه – فهى – الحياة – قد نشأت نشأة ذاتية بواسطة التفاعلات والتغيرات الجزئية التى اعترت المواد الأولى التى تخلقت منها .. تماما كما تخلق الوعى ونشأ من مادة الدماغ ، بالتغييرات الجزئية .. فما قاله هكسلى فى عالم الأفكار ، قاله داروين فى عالم الأحياء ؟! ..

وتطبيقا لهذه النزعة المادية – فى عالمى الأفكار والاحياء – فى الاجتماع والأموال والثروات والاقتصاد – قال ماركس (كارل) (١٨١٧ – ١٨٨٣م) إن تطور المجتمعات والإجتماع البشرى إنما هو بتأثير المحرك الأول : الواقع المادى .. والاقتصاد – قوى الإنتاج ، وعلاقات الإنتاج .. فالمعرفة مادية ، تعكس «الواقع» فى «الفكر» ، وهى قائمة على الممارسة ، تبدأ بالإدراكات الحسية للأشياء .. ولاشىء غير «الواقع» المنعكس فى «فكر» الانسان ، بواسطة «مادة الدماغ» .. أما «الله» و «الدين» – وكل ماجاء به «كتاب الوحى» ، فهو خيال وخرافة اخترعها المحرومون ، تسلية لأنفسهم ، أو الخبثاء الأغنياء تحذيرا للفقراء ؟! ..

ولقد تصاعدت الماركسية بهذه «الدهرية» المنكرة «لمصدر الوحى» والمعادية للدين ، من مستوى «الخيار – الفردى» إلى حيث جعلتها «مهمة ثورية» دعت «الثوار» إلى النضال لتعميمها على الإنسانية ومجتمعاتها ، باقتلاع الدين والتدين اقتلاعا من هذه المجتمعات ، جاعلة من هذه «المهمة» جزءا لايتجزأ من «تحريرها» الإنسان من القيود ! ..

لقد تنوعت مدارس الفكر الغربى ومذاهبه ، وتعددت فى إطار نهضته الحديثة العلوم . والمعارف والتخصصات .. لكن الوضعية .. والنزعة المادية .. والمذهب الحسى فى المعرفة .. كانت القاسم المشترك الأعظم فى معظم هذه المدارس والمذاهب والمعارف والتخصصات .. حتى لقد انطبع فكر النهضة المغربية الحديثة بهذا الطابع «الدهرى الحسى» إلى حد كبير ..

ولقد تزامن ذلك مع تراجع حضارتنا الاسلامية .. ومع الموجة الاستعمارية الغربية

الحديثة ، التى حملت إلى بلادنا الإسلامية - بعد خضوعها لهيمنة هذه الموجة الاستعمارية - مع النهب الاقتصادى .. والإلحاق الأمني والسياسى .. نزعتها هذه فى المعرفة الحسية ، والتوجه المادى .. فأعاد تاريخ المواجهات الفكرية سيرته الأولى من جديد .. مع تغير فى مواقع الفرقاء .. فبعد الفتوحات الإسلامية نهض الإسلاميون بمواجهة مذهب المعرفة الحسية - الواقف عند المحسوس والحواس - نهضوا بمواجهته بمذهب الاسلام فى المعرفة ، فى البلاد التى فتحها المسلمون .. لقد قدموا «البديل الاسلامى» فى المعرفة ، كجزء من المشروع الحضارى ، الذى انتصر وغدا - لأكثر من عشرة قرون - منارة العالمين ..

واليوم .. وبعد الغزو الغربى لوطن العروبة وعالم الاسلام ، منذ نحو قرنين من الزمان ، اقتحم الفكر الغربى على العقل المسلم دياره ومعاقله ، محاولا أن يفرض عليه - ضمن مايريد فرضه - نموذجه الحضارى الغربى ، المؤسس على النزعة المادية والحسية فى المعرفة .. الأمر الذى يجعل من شعار «إسلامية المعرفة» التعبير عن مهمة ثقافية ورسالة فكرية ، هى المدخل والسبيل والأداة لبلورة الطور المعاصر لمشروعنا الحضارى الإسلامى ، الذى لابد لنا من احيائه وتجديده ، لنواجه به المشروع الغربى ..

فالقضية الآن أكبر من مهمة ثقافية .. وأخطر من رسالة فكرية .. وأعظم من «هم أكاديمى» .. إنها جزء من المشروع الحضارى الإسلامى ، الذى يمثل بالنسبة ليقظتنا الإسلامية الحديثة . دليل العمل الذى ينير لهذه اليقظة الطريق .. والرائد الذى لايكذب أهل هذه اليقظة .. وطوق النجاة لأمتنا من هاوية التبعية الفكرية والاستلاب الحضارى ، الذى أقام له «الآخر الحضارى» فى عقر دارنا المؤسسات التى تبث مذاهبه فى المعرفة ومناهجه فى صياغة الواقع وتشكيل الحياة ..

تلك هى المهمة التى يطرحها شعار «إسلامية المعرفة» على العقل المسلم ، فى المنعطف التاريخى والظرف الحضارى الذى نعيش فيه ..

الهوامش :

(١) أنظر كتابنا (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) - تاريخ التراجع الحضارى وأسبابه ومظاهره - ص ٨١ - ١٣٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م .

(٢) أنظر (القاموس الفلسفى) مادة «المذهب الوضعى» تأليف : د . مراد وهبة - وآخرين - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

(٣) انظر (الموسوعة الفلسفية المختصرة) ص ٢٦٧ - إشراف ومراجعة - : د . زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

(٤) المرجع السابق . ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٥) محمد أمزيان (منهج البحث الاجتماعى بين الوضعية والمعيارية) ص ٢٨ - رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - تحت الطبع .

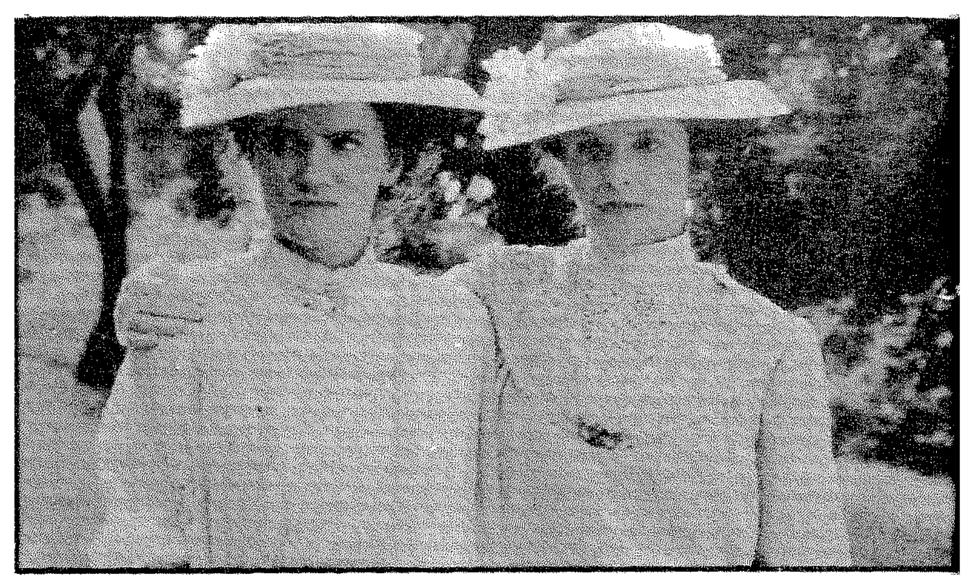
حركة التمركز حول الأنثى



رفاعة الطهطاوى — روزا لوكسمبرج (صورة سينمائية)

يتسم الرصد العربى للحضـــارة والظواهر الغربية بأنه لايزال يدور فى نطاق بعض المقولات التحليلية التى تضرب بجذورها فى كل من الفلسفة الانسانية أو المتمركزة حول الإنسان والفلسفة العقلانية أو المتمركزة حول العقل . وهى مقولات تعلمناها أساسا من الغرب (حتى ولو كان هناك ما يقابلها فى تراثنا) . ولذا نجد أن الفكر العربى عاجز إلى حد كبير عن رصد معظم العناصر العدمية والمعادية للانسان والمتجاوزة للقيم الأخلاقية (نقول « متجاوزة » لا « معادية ») واللاعقلانية التى تضرب بجذورها فى فلسفة نيتشه والتى تسم كثيرا من التيارات الفكرية والظواهر الاجتماعية فى الغرب .

بقلم :د . عبدالوهاب محمد المسيرى



روز لوكسمبرج كما صورتها السينما الالمانية



وما يحدث هو أننا حينما نقرأ عن هذه الظواهر أو التيارات فإننا فى غالب الأمر لا نفهمها لأنها ليست جزءا من خريطتنا الادراكية ، وإن فهمناها فإننا لا نصدقها لأنها تتنافى تماما مع منظومتنا القيميـة (بما فى ذلك المنظومة المتمركزة حول الانسان) فإن فهمنا وصدقنا فنحن عادة ما نهمش ما رصدنا ولا نعطيه ما يستحق من مركزية تفسيرية ، إذ أننا نصر على رؤية الحضارة الغربية من خلال المقولات التحليلية التقليدية ، الانسانية والعقلانية ، التى تعلمناها منها . وكلما ازدادت عدمية هذه الحضارة، وكلما ازدادت ابتعادا عن المركزية الانسانية والعقلانية وزادت من تهميش الانسان ورفض فكرة المركز (أى مركز) كما هو الحال مع ما بعد الحداثة ، كلما سيزداد فشلنا فى الرصد . واذا كان الجيل السابق (الطهطاوى إلى لويس عوض) قد قام بعملية نقل أمينة دون أى نقد ، فإننا سنقوم بعملية نقل لا تتسم بأى أمانة ولا تستند إلى أى أرضية نقدية أو معرفية .

وقد سمعت كثيرا من أصدقائى يتحدثون عن فيلم « صمت الحملان » بكثير من عدم الفهم والتصديق ، ويتساءلون كيف تأتى لفيلم مثل هذا أن يحصل على خمسة جوائز أوسكار ؟ مع أن أى طفـل أمريكى إن شـاهد الفيـلم لأدرك تمـاما معنى ما يشاهد ، ولتنبأ ببعض الأحداث ، مثلما نفعل نحن مع بعـض المسلسلات التليفزيونية الهابطة (العربية أو الامريكية) التى حفظنا كل مواقفها وخبرنا كل أحداثها واستمعنا إلى ما جاء فيها من قيل وقال عدة مرات ، حتى أصبحنا خبراء فى الملل .

● ظاهرة مركبة

واذا كان هذا ينطبق على ظاهرة بسيطة مثل الافلام فإنه ينطبق وبشكل أعمق على ظاهرة مركبة مثل الدين ، وهى ظاهرة مركبة مثل الدين ، وقد تعرضت العقيدة الدينية فى الغرب للهجمات الرقيقة منذ عصر النهضة ثم الشرسة فى عصر العقل ثم المدمرة منذ عصر الثورة الصناعية والثورات الأخرى التى تبعتها . وبعد عملية التدمير والتفكيك بدأت عمليـة اعـادة التركيب والبعث ، وهى عملية تمت على أسس جديدة تماما كانت ثمرتها بنايا فكرية لا علاقة لها بما نعرفه نحن تحت مقولة الدين . فالدين بالنسـبة لنا يـعـنى مجـموعة من العقائد (المرسلة من الله) يستند إليها نسق معرفى وأخلاقى والمؤمن بهذا الدين يصدر عن هذه العقائد ويؤمن بهذا النسق المعرفى ويسلك سلوكا يتفق مع القيم التى تستند إليه . وجوهر السلوك الدينى فى تصورنا - سواء كنا نؤمن بالدين أو لا نؤمن به - هو الطاعة ، والخروج من الذات والامتثال لمشيئة نرى

انها أكبر من مشيئتنا ، هى مشيئة الله . ولذا لا يمكن أن يطرأ لنا على بال ان يكون الدين لا علاقة له بالاله ، بل وأن يصدر النسق الدينى عن الايمان النيتشوى بموت الاله وفراغ العالم من المعنى ، وأن المطلق - بعد موت الاله - قد أصبح شيئا ماديا مثل اللذة أو المتعة . وإذا كنا نؤمن باله منزه عن الطبيعة والتاريخ فإنه يصعب علينا تصور الدين على أنه مجموعة من العقائد والشعائر يتم تغييرها حسب رغبات الأغلبية وبما يتفق مع انتمائهم الجنسى (ذكر أم أنثى ، شاذ أم سوى) . وهل يمكن لنا أن نتخيل دنيا بلا عقائد ولا معايير أخلاقية ولا مركز ولا مطلق ، وانما يتكون من مجموعة من الممارسات الرمزية التى اختارها أصحابها لأنها تعبر عن نواتهم وأذواقهم ومزاجهم وحسهم المرهف ولأنها تدخل البهجة على قلوبهم وتسبب لهم إحساسا عميقا بالراحة (مثل الآيس كريم أو الفاليام) ؟ مثل هذا الشىء قد يكون متعة وأى متعة ، ظرف ولطف وضحك ولعب - ولكن هل يمكن أن نسميه « دينا » من منظورنا ؟ ولذا فأنا أرى من الضرورة بمكان أن نوضح السياق الذى نستخدم فيه مصطلحاتنا حتى نحدد معناها بدقة . فإن كان السياق غربيا ، فيجب ألا نكتفى بالمعنى المعجمى إذ أن مدلوله الحضارى المتعين سيجعل منه شيئا مختلفا تماما .

ولا يزال الكثيرون منا ، ممن يدورون فى إطار المقولات التقليدية العقلانية والمتمركزة حول الانسان ، يخلطـون بين مـا يسـمى « الفيمينزم Feminism » و « ويمنزليبريشون موفمنت » Women,s Liberation Movement ولذا نجدهم يترجمون المصطلحين بحركة تحرير المرأة وكأنهما نفس الشىء .

وكلمة « فيمنست » Feminist الانجليزية فى تصـورنا مختلفـة تمـاما عن عبـارة « ويمنز ليبريشون موفمنت » Women's Liberation Movement فالعبارة الأخيرة ، يمكن التعبير عنها بعبارة « تحرير المرأة » أما الأولى فنحن نؤثر التعبير عنها بعبارة « حركة التمركز حول الأنثى » .

ولتوضيح وجهة نظرنا سنختار ظاهرة « اليهودية المتمركزة حول الأنثى » لنبين الفرق بين الدعوة لتحرير المرأة والدعوة لأن تتمركز الأنثى حول نفسها ، ولنبين بعض ما يحدث لظاهرة الدين فى الغرب وكيف بدأت تتحول إلى شىء مغاير تماما عما نعرف .

وقد ظهرت حركات سياسية واجتماعية وفكرية فى الغرب تدور حول موضوع المرأة فى المجتمع . ويمكن أن نقسم هذه الحركات إلى اتجاهين : حركات تحرير

المرأة ، وحركات التمركز حول الأنثى . والحركة الأولى حركة اجتماعية سياسية فكرية تهدف إلى تحقيق العدالة فى المجتمع بحيث تنال المرأة ما يطمح إليه أى إنسان من تحقيق لذاته إلى الحصول على مكافأة عادلة (مادية أو معنوية) لما يقدم من عمل . وعادة ما تطالب مثل هذه الحركات بحقوق المرأة سواء السياسية (حق المرأة فى الانتخاب والمشاركة فى السلطة) ، أو الاجتماعية (حق المرأة فى الطلاق وفى حضانة الأطفال) ، أو الاقتصادية (مساواة المرأة فى الأجور مع الرجل) . وبرغم أن حركات تحرير المرأة تصدر عن مفهوم تعاقدى للمرأة (باعتبارها فرداً مستقلاً بذاتها لا باعتبارها أما وعضوا فى أسرة) ، فإن حركة تحرير المرأة تدور فى إطار بعض القيم الاجتماعية المستقرة ، وتقبل المفهوم التقليدى لدور المرأة فى المجتمع والمفهوم التقليدى للطبيعة البشرية .

● هيمنة الذكر

أما حركات التمركز حول الأنثى فهى رؤية معرفية أنثروبولوجية اجتماعية تقف على الطرف النقيض من كل هذا ، فهى تصدر عن مفهوم أساسى هو أن تاريخ الحضارة البشرية إن هو إلا تعبير عن هيمنة الذكر على الأنثى ، وهى هيمنة تمت إثر معركة أو مجموعة من المعارك حدثت فى عصور موغلة فى القدم حينما كانت المجتمعات كلها مجتمعات أمومية تسيطر عليها الأنثى أو الأمهات ، وكانت الآلهة إناثاً ، وكان التنظيم الاجتماعى ذاته يتصف بالأنوثة ، أى بالرقة والوئام والاستدارة (التى تشبه نهود الإناث وعضو التأنيث) . ثم سيطر الذكور وأسسوا مجتمعا مبنيا على الصراع والسلاح (الذى يشبه عضو التذكير) وعلى الغزو (الذى يشبه اقتحام الذكر للأنثى) . انطلاقا من هذه الرؤية للتاريخ يطرح دعاة التمركز حول الأنثى برنامجا إصلاحيا يدعو إلى إعادة صياغة كل شىء، التاريخ واللغة والرموز ، بل والطبيعة البشرية ذاتها . فالتاريخ فى تصورهم هو سرد للأحداث من وجهة نظر ذكورية، ولابد أن يعاد السرد من وجهة نظر أنثوية ، والرموز التى فرضها الذكر لابد وأن تضاف لها رموز أنثوية . واللغات ، التى عادة ما تفضل صيغة التذكير على صيغة التأنيث ، لابد وأن يعاد بناؤها بحيث تستخدم صيغا محايدة أو صيغا ذكورية أنوثية . وهذا البرنامج الاصلاحى يهدف فى نهاية الأمر إلى إعادة صياغة الإدراك البشرى ذاته للطبيعة البشرية كما تحققت عبر التاريخ وتجسدت فى مؤسسات تاريخية وأعمال فنية ، فهذا التحقق والتجسد إن هما إلا انحراف عن مسار التاريخ الحقيقى

بعـــد استيلاء الذكور عليـــه !

وفى تصورنا أن الرؤية الكامنة وراء هذه المحاولة هى رؤية حلولية تستند إلى رؤية واحدية أو أحادية كونية إذ تحاول اختزال الكون بأسره إلى مستوى واحد ، فتدمج الإله والطبيعة والإنسان والتاريخ فى كيان واحد وتحاول أن تصل إلى عالم جديد تماما تتساوى فيه الأطراف بالمركز ، عالم لا يوجد فيه قمة وقاع ولا يمين ويسار (ولا ذكر وأنثى) ، وإنما يأخذ شكلا مسطحا تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح وتصفى فيه كل الثنائيات . بل إن تحقق هذا النمط يتم عند نقطة الصفر حين تصبح كل الكائنات شيئا واحدا . وبينما تعترف حركة تحرير المرأة بالاختلافات بين الرجل والمرأة ، وتحاول ألا يكون هناك تفاوت اقتصادى أو إنسانى نتيجة هذا الاختلاف ، فإن حركة التمركز حول الأنثى لا ترفض التفاوت وحسب وإنما ترفض الاختلاف ذاته . وبينما تعترف حركة تحرير المرأة بأن هذا الاختلاف يؤدى إلى اختلاف فى توزيع الأدوار وتأمل ألا ينجم عن اختلاف الأدوار ظلم أو قمع اجتماعى ، فإن حركة التمركز حول الأنثى ترفض توزيع الأدوار وتطالب أن يصبح الذكور آباء وأمهات ، وأن تصبح الإناث بدورهن آباء وأمهات ، بل إن الأمر يمتد ليشمل الاحاسيس ذاتها . فالمرأة يجب أن تشعر مثل الرجل ، والرجل مثل المرأة . (والحالة المثالية هى حالة اليونى سكس Unisex حيث نصبح كلنا - والعياذ بالله - جنسا واحدا ، وكيانا متوحداً ، وكأننا فى منزلة أقل من منزلة النمل والنحل الذى ينقسم على الأقل إلى ذكور وإناث) . ويمتد الأمر لرؤية الإنسان للإله . فحركة التمركز حول الأنثى ترى أن كل التاريخ يدور حول مركز ، هذا المركز هو الرجل ، عضو التذكير ، السلطة ، الإله الذكر . ويجب أن يحل محل هذا شيء محايد بحيث ينظر للإله باعتباره ذكرا وأنثى ، أو ذكرا ثم أنثى ، أو ذكرا فى أنثى ، أو لا ذكر ولا أنثى (وهذه هى مرحلة ما بعد الحداثة حين تسقط كل الحدود ويضمر المركز ثم يختفى) .

والفارقة الكبرى تكمن فى أن حالة السيولة الحلولية الكونية تثبت عادة استحالتها ، فينتج عنها حالة تفتت ذرى . وتصبح القضية ليست جعل الذكر مثل الأنثى وإنما ينتج عنها ثنائية صلبة تصبح ثنوية فيتم عزل الأنثى تماما عن الذكر باعتبار أن ما تحس به الأنثى لا يمكن للذكر أن يحس به ، وباعتبار أن التجربة التاريخية للأنثى مغايرة تماما للتجربة التاريخية للذكر . ويمكننا هنا أن نرى تطورا تاريخيا فى قضية علاقة الذكر بالأنثى ، من مساواة الذكر بالانثى إلى

ظهور الخنثى ، وأخيرا ظهور الأنثى التى لا علاقة لها بالذكر . وحينما نصل الى هذه المرحلة ، فإننا لا نتحدث عن برنامج للإصلاح وإنما عن برنامج تفكيكى تختفى فيه كل المقولات الثنائية التقليدية ، مثل : إنسان / طبيعة ، أنسان / حيوان / ، ذكر / أنثى ، ويختفى المركز تماما ، ويصبح التمييز مستحيلا . عند هذه المرحلة ، تلتحم حركة التمركز حول الأنثي بحركات حلولية مماثلة كالدفاع عن الجنسمثلية الأنثوية ، وعبادة الأرض ، فهى كلها حركات تفترض أن ما هو مطلق لا يتجاوز المادة وإنما يكمن ويحل فيها ، فهو الأرض بالنسبة لعبدة الطبيعة ، وهو الأنثى بالنسبة لحركات التمركز حول الأنثى ، وهو الطبقة العاملة بالنسبة للفكر الشيوعى ، والمنفعة واللذة الفردية بالنسبة لليبرالية . وهذا المطلق الحال هو الذى يحرك التاريخ .

ويبدو أن المرأة اليهودية كانت مرشحة أكثر من غيرها لأن تنخرط فى صفوفها فى حركات تحرير المرأة ثم حركات التمركز حول الأنثى فى الغرب لأسباب عديدة ، من بينها :

١ - ارتفاع معدلات العلمنة بين الإناث اليهوديات فى الغرب بنسبة تفوق مثيلتها لا بين أعضاء المجتمع وحسب وإنما بين الذكور اليهود أنفسهم (ولعل هذا يعود إلى أن الأنثى اليهودية كانت لا تتلقى تعليما دينيا ، كما أنها كانت غير ملزمة بأداء كثير من الشعائر الدينية اليهودية).

٢ - لابد وأن الفكر الدينى اليهودى ولّد لدى الإناث اليهوديات قابلية عالية للغاية لتقبل نزعة التمركز حول الأنثى والدعوة إليها - ويلاحظ أن مقولة يهود/أغيار تقابل تماما مقولة أنثى/ذكر . كما أن التمركز حول الأنثى يشبه التمركز حول الهوية اليهودية . ورؤية تاريخ البشر كتاريخ ظلم وقمع واضطهاد (لليهود وللإناث) ، هو الآخر ، عنصر مشترك . ويشترك الفريقان فى البرنامج التفكيكى العدمى .

● عصر التنوير

ويعود تاريخ حركة تحرير المرأة بين أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب إلى عصر التنوير فى المانيا ، حيث عبرت عن نفسها فى ظاهرة صالونات النساء الألمانيات اليهوديات ، مثل راحيل فارنهاجن ، وفى ظهور أديبات يهوديات مثل إما لازاروس ، ونساء يهوديات فى الحياة العامة مثل روزا لوكسمبرج (فى الحركة الشيوعية) وهنريتيا سيزولد (فى الحركة الصهيونية) . ويمكن القول أن الحديث عن حركة مستقلة لتحرير المرأة اليهودية أمر صعب إن لم يكن مستحيلا ، إذ أن حركة تحرير المرأة هى مسألة متعلقة

بحقوق المرأة فى المجتمع ، وهو أمر يقع داخل رقعة الحياة المدنية العامة (وكفاح المرأة اليهودية للحصول على حقوقها لا يختلف فى الواقع عن كفاح النساء غير اليهوديات ، بل هو جزء عضوى منه) . وقد تركت حركة تحرير المرأة أثرها على المؤسسات الدينية اليهودية التى بدأت تفتح أبوابها للنساء . وبدأت اليهودية الإصلاحية والمحافظة تحث النساء اليهوديات على المشاركة فى الصلوات التى تقام فى المعابد اليهودية التى لا يفصل فيها الجنسان . كما أنه أصبح هناك احتفال ببلوغ البنات سن التكليف الدينى (بت متسفاه) على غرار احتفال البرمتسفاه ، أى بلوغ الصبيان هذه السن .

أما حراكة التمركز حول الأنثي فهى أمر مختلف تماما . فهذه الحركة ، كما أسلفنا ، ليست مسألة حقوق ، وإنما هى قراءة للتاريخ ، وموقف من اللغة والرموز والجسد ، ومن ثم يمكن الحديث عن حركة يهودية للتمركز حول الأنثى تركت أثرا جذريا على الجماعات اليهودية وعلى العقيدة اليهودية ولّدت يهودية متمركزة حول الأنثى وصفت بأنها حركة تحاول تركيب بنية دينية جديدة ، تتكون من عناصر يجمعها مفكرو وقيادة الحركة لإعادة بناء اليهودية بطريقة ترضى الإناث وتفى بحاجاتهن الأنثوية الخاصة . وهذه العناصر هى مجموعة من الأساطير الشعبية والأفكار الوثنية التى تراكمت داخل التركيب الجيولوجى اليهودى (مثل أسطورة ليليت) وهو تركيب جعل من الممكن على دعاة اليهودية المتمركزة حول الأنثى توليد نسقهم من داخل النسق الدينى ذاته ، لأن هذا التركيب يحوى كل شيء تقريبا ، كما أنه يولد قابلية عالية لليهودية للتغير حسب الأوضاع والملابسات التاريخية . وقد وصفت جوديت بلاسكو ، إحدى مفكرات حركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى ، بأنها حركة تسعى إلى توسيع نطاق التوراة ، و من ثم فهى تثير الشكوك بخصوص نهائية النص التوراتى ومطلقيته ، فهى يهودية معادية للمطلق الدينى المتجاوز للطبيعة والإنسان ، وتطرح بدله نسقا يتغير بتغير الملابسات التاريخية والرغبات البشرية ، الجماعية والفردية . وهى فى هذا لا تختلف كثيرا عن لاهوت موت الإله ، حين يموت الإله ويصبح المطلق الوحيد هو حادث الإبادة النازية ليهود أوربا وإنشاء الدولة الصهيونية . وقد صرحت إحدى مفكرات الحركة بأن إعادة النظر فى وضع المرأة فى سياق العقيدة اليهودية هو أمر جوهرى يشبه إعادة دراسة المسألة اليهودية فى سياق التاريخ العام .

وكانت اليهودية الإصلاحية هى أول

الفرق التى استجابت لحركة التمركز حول الأنثى اليهودية ووافقت اليهودية المحافظة على أن تحسب النساء ضمن النصاب (المنيان) اللازم لإقامة الصلاة فى المعبد ، كما سمح لهن بالقراءة من التوراة فى المعبد . وهذه أمور كانت مقصورة على الذكور البالغين . ثم وافقت اليهودية المحافظة على ترسيم الإناث كحاخامات محافظات فى ١٩٨٥ ، وكمنشدات عام ١٩٨٧ . وقد اتسع النطاق بطبيعة الحال ليشمل كل الشعائر .

وقد أسست بعض النساء الأمريكيات اليهوديات من المدافعات عن التمركز حول الأنثى جماعة « نساء الحائط » التى تطالب بحق تلاوة التوراة أمام حائط المبكى ، وارتداء شال الصلاة وهو حق مقصور على الرجال . كما بدأت بعض المؤمنات باليهودية المتمركزة حول الأنثى بارتداء شيلان للصلاة حريمى لونه بنى وطاقيات للصلاة موشاة بعناصر حريمية مثل الدانتلا ، وتمائم للصلاة (تيفلين) مزينة بالأشرطة (وإن كان بعضهن يرفض الشيلان والطاقيات والتمائم لأنها ذكورية أكثر من اللازم وتذكرهن بآبائهن !) . ومنذ عام ١٩٨٣ ، بدأت بعض المعابد اليهودية غير الأرثوذكسية بتعديل الصلوات حتى تتم الإشارة إلى الآباء (الباترياك) وزوجاتهن الأمهات (الماتريارك) .

وتحاول بعض المعابد تغيير صيغة الإشارة إلى الإله باعتباره ذكرا ، فيشار إليه باعتبار أنه ذكر وأنثى فى ذات الوقت ، حتى تتحقق المساواة التامة بين الجنسين ! فيقال على سبيل المثال «إن الخالق هو الذى/هى التى وضع/وضعت .. إلخ» ، بل ويشار إليه أحيانا بالمؤنث وحسب ، فهو «ملكة الدنيا » ، و « سيدة الكون » و « الشخيناه » . كما أن بعض دعاة حركة التمركز حول الأنثى يستخدمن كلمات لا جنس لها (« أن جندرد » Ungendered) فى اللغة الإنجليزية مثل : « فريند » Friend (صديق) « وكومبانيون » Companion (رفيق) و « كوكريتور »Co-creator (المشارك فى الخلق) .

● اليهودية وحركة التمركز

كما تحاول الحركة اليهودية المتمركزة حول الأنثى تطهير الخطاب الدينى تماما من أى استعارات قد يفهم منها الانقسام إلى ذكر وأنثى مثل استعارة الزواج والزفاف المتواترة فى العهد القديم . ولعل من أهم التغييرات فى عالم الرمز ظهور ليليت (نسبة إلى الليل والظلمة) بديلا لحواء ، وهى حسب الأساطير التلمودية الزوجة الأولى لآدم قبل حواء ، وقد تمردت على وضعها كأنثى (فرفضت مسألة أنها

تنام تحت الرجل لا فوقه !) كما تمردت على الإله . وأصبحت تنتقم من الرجال والنساء المتزوجات بأن تقتل الأطفال المولودين . فليليت ليست عكس حواء وحسب ، بل هي عكس الأنوثة والأمومة والحالة البشرية ذاتها ، فهي شخصية تفكيكية من الطراز الأول تنتمي إلى عالم ما بعد الحداثة الذي لا يوجد فيه لا مركز ولا معنى (وقد صدرت في عام ١٩٧٦ مجلة ليليت لتعبر عن فكر حركة التمركز حول الأنثى أسستها سوزان وايدمان شنايدر احدى أهم مفكرات الحركة) .

ومن التعديلات الأخرى التي أدخلت على العبادة اليهودية ، الاحتفال بعيد « روش هوديش » ، أي « عيد القمر الجديد» باعتباره عيدا أنثويا . وتشير بعض مفكرات الحركة اليهودية للتمركز حول الأنثى إلى علاقة القمر بالعادة الشهرية ، وإلى أن في التلمود عبارة تقول أن القمر سيصبح يوما ما مساويا للشمس ، ويفسر كل هذا على أنه إشارات إلى المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى واختفاء أي اختلاف بينهما . ويقيم دعاة حركة التمركز حول الأنثى احتفالات خاصة بالعادة الشهرية والاجهاض والولادة. وقد وصفت إحداهن الاحتفال بالمخاض وإنجاب الطفل وقالت أنها عثرت عليه في كتاب يسمى سيفر هاتشبي (وقد ذكره أحد الحاخامات ليحذر أعضاء الجماعة اليهودية من الانغماس في الخرافات الشعبية الوثنية) .

وقد أعد دعاة حركة التمركز حول الأنثى هاجاداه لعيد الفصح خاصة بالنساء وكتبتها الأمريكية إستير بروند والإسرائيلية بروند نعومي نيمرود ، وكلاهما يدير مجموعة من النساء اليهوديات المدافعات عن حركة التمركز حول الأنثى . ويبدأ الاحتفال بعيد الفصح بالنساء جالسات على الأرض وقد فرشن أمامهن مفرشاً وتوجه الأسئلة لأربع بنات ، بدلا من أربعة أولاد ، أما كأس النبي إلياهو فيصبح كأس الكاهنة مريم . وقد كتبت كتب مدراش خاصة متمركزة حول الأنثى . وقد أدخلت الحركة أيضا تعديلات عديدة ذات طابع سطحي بعضها يكاد يكون كوميديا . فمثلا هناك احتفال يسمى « بريت بنوت يسرائيل » بدلا من « بريت ميلاه (الختان) » تتلى فيه صلاة خاصة تؤكد أهمية الأمهات : أولهن بطبيعة الحال ليليت ثم حواء وزوجة نوح وسارة ورفقة وليئة وراحيل . ويقام احتفال التشليخ (بعد عيد رأس السنة) حيث تقوم النساء بإلقاء خطاياهن في الماء . وتأكل النساء طعاما مستديرا (فطائر) علامة الخصوبة والأنوثة ، ويشعلن شموعا يوم السبت على أن توضع الشموع في طبق مليء بالماء

حتى تشبه القمر . وتجمع النساء الصدقة فيما بينهن ولا ينفقنها إلا على حركة التمركز حول الأنثى . ويوجد الآن معـابد يهودية إصلاحية ومحافظة للمساحـقات ، وقـد رسـمت لهـا (كحاخامات) النساء المساحقات وتوجد الآن مدرسة تلمودية عليا تسمح بالتحاق الشواذ جنسيا والمساحقات لها . وقد يكون من الأفضل تصنيف اليهودية المتمركزة حول الأنثى على أنها من بين العبادات الجديدة ، أكثر من أن تكون استمراراً لليهودية الحاخامية.

وسواء وافقنى القارىء على تقييمى لحركة التمركز حول الأنثى ، كما تتبدى داخل اليهودية ، أم لم يوافقنى ، فإنه لا يمكن إلا أن يتفق معى أن ما تنادى به هذه الحركة يختلف تماما عما تنادى به حركة تحرير المرأة . فأنا كرجل يمكننى أن أنضم لحركة تحرير المرأة ، ويمكن أن أدخل فى حوار بشأن ما يطرح من مطالب لضمان تحقيق العدالة للمرأة ولضمان ألا تتحول الاختلافات بين الجنسين إلى أساس بيولوجى للتفاوت الاجتماعى والاقتصادى بينهما ، وكأن المرأة تعادل الرجل الأسود فى المنظومة العنصرية الغربية البيضاء ويمكن للمجتمع الانسانى أن يتبنى برنامجا للإصلاح فى هذا الاتجاه ويمكن لكل من الرجال والنساء تأييده والوقوف وراءه ، أما حركة التمركز حول الأنثى فلا يمكن أن أنضم لها حتى لو أردت ، فالافتراض أننى كرجل لايمكن أن أشعر بمشاعر المرأة ، كما أننى مذنب أحمل وزر هذا التاريخ الذكورى ، رغم أنه ليس من صنعى ولايوجد برنامج للإصلاح وإنما يوجد برنامج للتفكيك يهدف إلى تغيير الطبيعة البشرية ومسار التاريخ والرموز واللغات حتى تظهر الانسانية الجديدة التى يتساوى فيها الرجل تماما مع الأنثى فى كل شىء بما فى ذلك المشاعر الباطنية أو ينفصل فيها الرجل تماما عن الأنثى فى كل شىء (ومثل هذا التأرجح بين قطبين يسم كل الحركات الثورية الحلولية التى تهدف إلى تصفية أى ثنائيات وتنتهى بالسقوط فى أكثر الثنائيات صلابة) .

وحركة التمركز حول الأنثى تشبه تماما فى بنيتها الحركة الصهيونية التى تذهب إلى أن الأغيار لايمكنهم أن يشعروا بشعور اليهود ، وهم يحملون وزر تاريخ قام باضطهاد اليهود جيلا بعد جيل ، والبرنامج الاصلاحى الصهيونى لايهدف إلى تحسين أحوال اليهود باعتبارهم أقلية دينية فى أوطانهم وإنما هو برنامج تفكيكى يطالب بسحب اليهود من مجتمعات الأغيار (مثلما تسحب المرأة فى المنظومة المتمركزة حول الأنثى من مجتمع الرجال) .

حركة جديدة



فتاة امريكية يهودية تحتفل هي وأمها بوصولها سن التكليف الديني فترتدي شال الصلاة طاليت ، وتحمل لفائف التوراة وهو الأمر الذي تحرّمه الشريعة اليهودية

ولنا أن نقول نفس الشيء بالنسبة لما يحدث في الدين فما يحدث في حالة اليهودية المتمركزة حول الأنثى ليس إصلاحا دينيا يهدف إلى تطوير بعض الشعائر حتى يمكن لليهودي أن يصبح إنسانا عصريا ، وإنما هي عملية تفكيك للدين تغير من هويته وملامحه وتوجهه حتى يصبح من العسير تسميته دينا على الإطلاق ؟ فإذا كان النص المقدس نصا زمنيا تاريخيا وإذا كانت العقائد مسائل اجتماعية اتفاقية وإذا كانت الشعائر تدور داخل نطاق كل هذا ، فما الفرق بين النص المقدس ومجلة نيوزويك مثلا ؟

لقد دخل الانسان الغربي عالم مابعد الحداثة ، عالم حلولي وثني دائري عيشي مثل صمت الحملان ، عالم يحكمه إله مجنون ويعيش فيه بشر ، لا يمكن الحكم عليهم من منظور أي منظومة قيمية ، فهم خليط من الذئاب والأفاعي والأميبا ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ماجريت وسيريالية الواقع

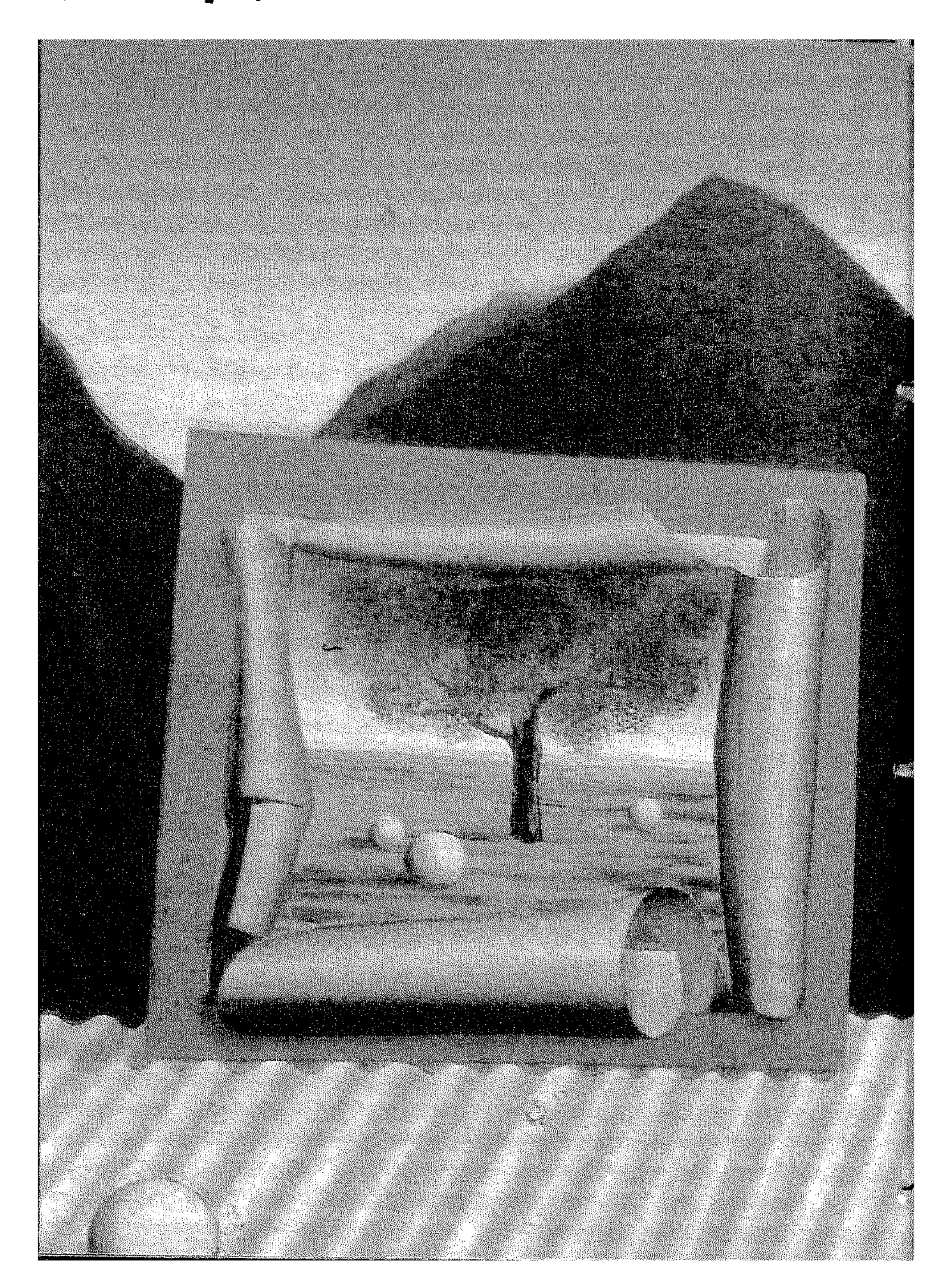
بقلم : د . صبرى منصور



ماجريت فى مرسمه ١٩٦٣

بات علينا أن نتنبه إلى أهمية ذلك الدور الذى يمكن أن يؤديه الفنان من أجل الكشف عن آفاق جديدة فى الحياة الإنسانية ، فهو دور لا يقل فى قيمته وقدره وخطورته عما يؤديه العالم حين يخترع أدواته العلمية، ويطور من أساليب التقنية.

حالة إنسانية سنة ١٩٣٫٣



وإنما الفرق بينهما فى الوسائل ، ويجمعهما نبل الهدف من أجل ارتقاء الانسان ، وإثراء معرفته عن نفسه وعن الكون الذى يعيش فيه. وإذا كنا نطلب من مجتمعنا أن يوفر إمكانيات البحث العلمى للمبرزين فى مجال العلوم ، فإننا فى نفس الوقت ندعو إلى أن تمنح الامكانيات لأبناء الوطن المبدعين فى مجال الفنون جميعا ، فعن طريق هؤلاء يتشكل الوجدان وتصقل الرؤى ، وترهف المشاعر .

ولقد أصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر فى تقييمنا للفنون الحديثة ، التى ينظر إليها على أنها ضرب من العبث لا جدوى منه ، بل أضحى الحديث عنها - وقد خرجت عن المألوف - ضرباً من الاستهتار الممزوج بالسخرية عن فائدتها وضرورتها، مع أن الجاد من تلك الفنون لا يقل فى أهميته وقوة أثره عن النظريات العلمية والتطور التكنولوجى المعاصر .

ولسنا بالطبع من دعاة التقليد أو المحاكاة لفنون ظهرت فى بيئات غريبة عنا، وجاءت مواكبة لتطورها الحضارى المختلف ، وإنما هى دعوة للدراسة والتعرف والتأمل فى إبداع إنسانى ، ومدى قدرته على ارتياد مناطق مجهولة ، والمغامرة من أجل حياة انسانية أفضل .

السيريالية اتجاه فنى جاد

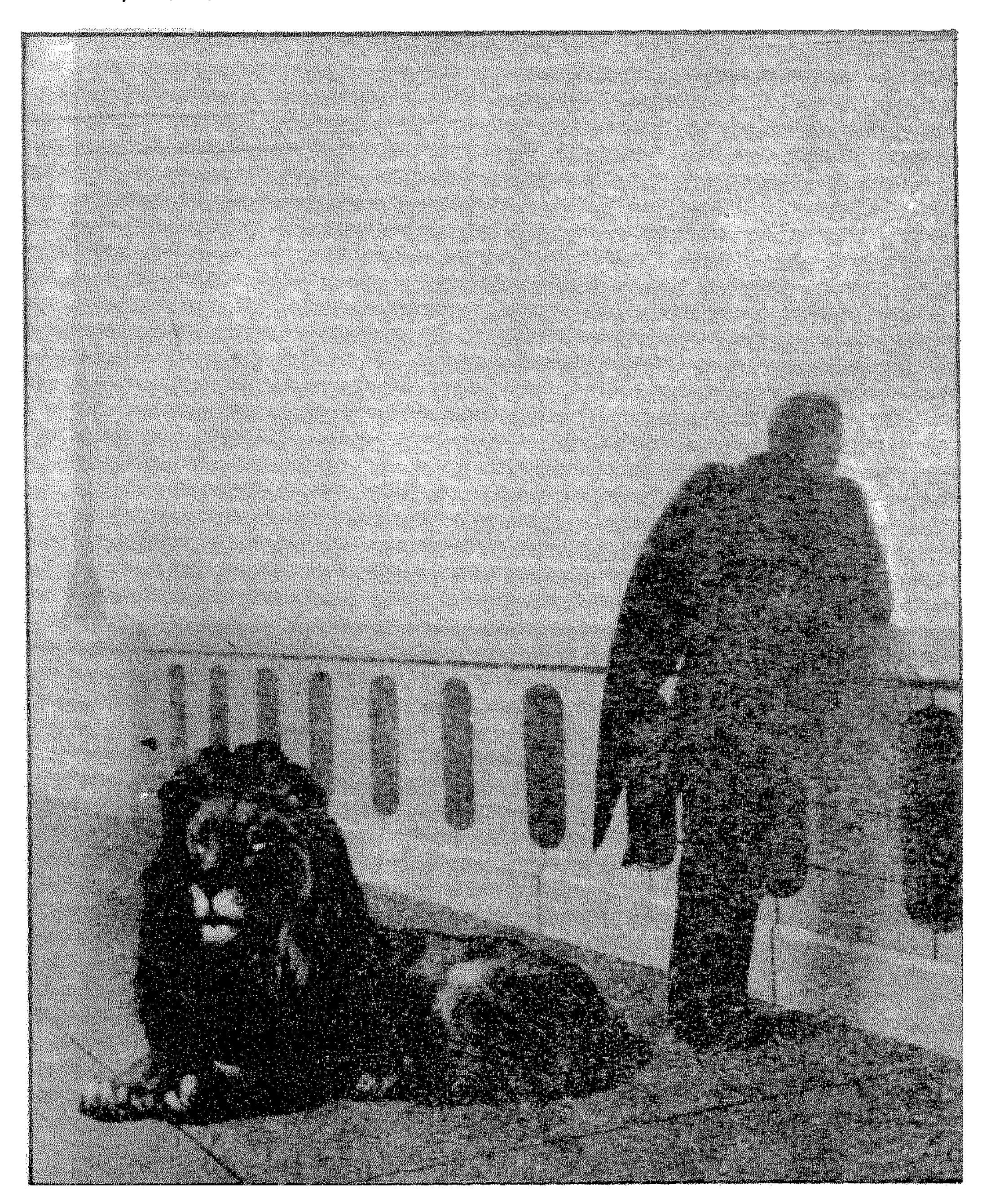
ومن الاتجاهات الفنية الحديثة التى ظلمت فى أوساطنا التعليمية والثقافية اتجاه المدرسة السيريالية فى الفن والأدب والسينما ، وقد أصبحت عنوانا على ما يستغلق فهمه ، وكلمة يتندر بها الغافلون حين يواجهون ما يستدعى إعمال العقل وتفتح الوجدان وإطلاق الخيال .

مع أن السيريالية كانت اتجاها فنيا جاداً ، وضعت هدفاً لها الكشف عن تلك العوالم الخفية من النفس البشرية ، وهى بذلك محاولة للفهم واستجلاء أسرار ذلك العالم المبهم الذى يكتنفه الغموض والإبهام. وكلمة السيريالية تعود إلى الشاعر الفرنسى أبولينير ، فقد كان أول من استخدمها حين وصف بها المسرحية التى ألفها من فصلين (أثداء تيريزيا)

وقدمت فى أول عرض لها فى يونيو ١٩١٧ .

وقد مهّد اتجاه (الدادية) بريادة الفنان الفرنسى تريستان تزارا عام ١٩١٦ الطريق للسيريالية ، فالدادية كانت ثورة على الجمود الفكرى ، وعلى كل ماهو

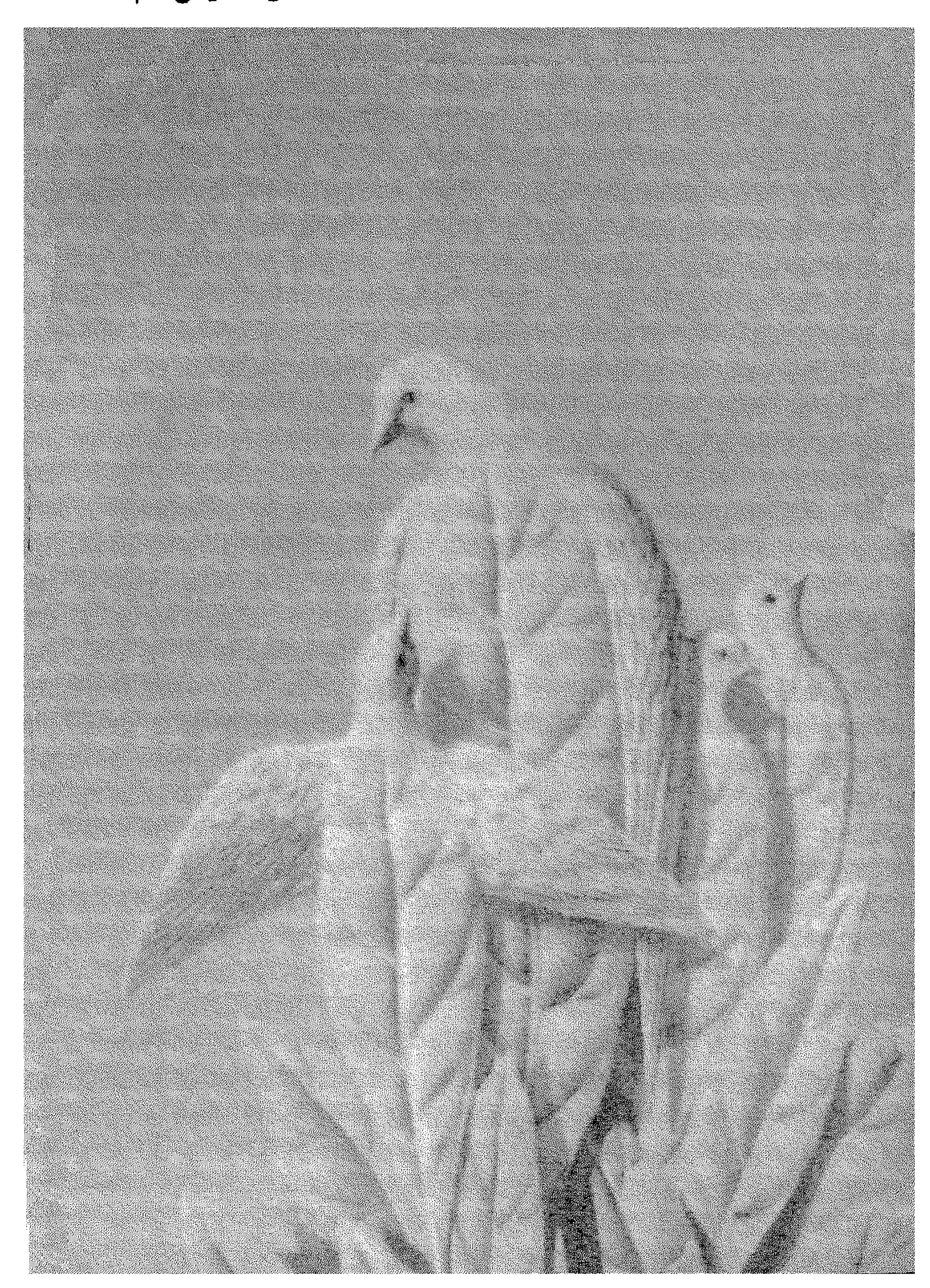
الحنين للوطن عام ١٩٤١



تواردخواطر عام ١٩٦٠



الحسن الطبيعي عام ١٩٦٣



متعارف عليه وعلى القوالب الجاهزة فى التعبير الفنى .

وحين أسس العالم النفسى أندريه بريتون مجلة الأدب عام ١٩١٩ فإنه قد استعمل كلمة السيريالية ككلمة تحدد صفات طريقة الكتابة الفورية أو التلقائية التى كان يجربها حينذاك - محاولاً التجديد على الطريقة الدادية - وتمثلت فى أعمال أدبية تجريبية يطلق فيها الخيال دون رابط ليسطر ما يعن له .

وكان بريتون أكثر ألفة مع سيادة مدرسة التحليل النفسى للعالم فرويد حين وصل إلى نتيجة أن الصور الرمزية التى تظهر فى الأحلام يمكن تحليلها والاستفادة منها لتحقيق تأثيرات شعرية .

وقد نشر البيان الأول للسيريالية عام ١٩٢٤ ونشر البيان الثانى فى مجلة السيريالية الثورية التى أسست عام ١٩٢٤ وكان بريتون يتولى مسئولية تحريرها ، ومنذ عام ١٩٢٥ أعلن ارتباط السيريالية الوثيق بالحركة الشيوعية ، وما بين أعوام ١٩٢٥ و ١٩٣٠ ظهرت دورية تحمل اسم (السيريالية فى خدمة الثورة) وتضمنت بيانات أدبية وشعرية وسياسية ، وتلك كانت الرغبة الأكيدة لبريتون فى ربط الفنون التشكيلية بفنون الأدب . ويحتوى العدد الأول من دورية السيريالية فى خدمة الثورة على تصريحات مؤيدة لوجهة نظر بريتون السيريالية من أسماء عديدة بينهم الشاعران أراجوان وإيلوار ، والمصورون ماكس ارنست وسلفادور دالى وإيفيز تانجى ، ومن السينمائيين جورج سادول ولويس بونويل صاحب الأفلام السيريالية الشهيرة .

وهكذا فإن أصول الحركة الجديدة رغم أن بدايتها كانت أدبية ، فإن تأثيرها امتد ليحتوى باقى الفنون .

كان بريتون يعتقد بأن التوازن المطلوب بين العقل والخيال ، أو بين الوعى واللاوعى قد أصابه الاضطراب والتشويش، وكان نتيجة ذلك ظاهرة الحرب العالمية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، تلك الحرب التى كان لديه الحظ هو شخصياً أن ينجو من الهلاك فيها . وقد وضع بريتون نظاماً لاستكشاف اللاوعى الذى يتراءى غالبا فى الأحلام .

« إننى اعتقد فى الحل المستقبلى لتلك الحالتين اللتين تبدوان متناقضتين وهما الحلم والواقع ، وذلك الحل يكمن فى نوع من الحقيقة المطلقة ، أو الحقيقة العليا» .

وهكذا فان السرياليين يضعون كهدف لهم تقديم الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية أو الظاهرية كعنصرين اثنين في نسق واحد متحد . وهم يرتكزون في ذلك على الاعتقاد بحقيقة سامية لأشكال خاصة في امتزاج – قد أهمل فيما مضى – ومعتمدون على اللعب بالفكر الحرّ والأحلام ، ومبتعدون عن الميكانيكية الطبيعية ، وذلك إيماناً منهم بأن هناك علاقات أخرى بجانب الحقيقة الظاهرية والتي يكون العقل قادرا على ادراكها ، والتي تكون أيضا أساسية مثل المصادفة والوهم والتخيل والحلم والظواهر السيكولوجية ، هذه المجموعة المتنوعة تتحد وتتآلف في نسق واحد وهو السيريالية، وهكذا تكون السيريالية هي الشكل الذى اتحدت واندمجت فيه كل التصورات مع بعضها البعض .. إن مهمة الفنان السيريالى هي أن يخلق حقيقة جديدة يمتزج فيها الحقيقي بغير الحقيقي ، فهو إذ يتبين أن الحياة والحياة العقلية بوجه خاص توجد في شكلين أحدهما ظاهر محدد ، والثاني – وربما كان هو الجانب الأكبر – خفي غامض ، فإن مهمته هي اكتشاف أبعاد هذا الوجود الخفي ، والبحث في البناء المختبئ للعالم الخارجي، وكذلك إثارة الدهشة من خلال التناقض من أجل إعطاء هزات لسطح الشعور حين يميط اللثام عن تلك الأشياء الغامضة المختفية في اللاشعور وتؤثر فيه .

رينيه ماجريت

(١٨٩٨ – ١٩٦٧)

يبدو لنا ماجريت كنموذج فريد بين رواد المدرسة السيريالية ، وقد اتخذ لنفسه خطاً مستقلاً يظهر فيه كما لو كان عالماً يجرى تجاربه المعملية بحساسية فائقة وذكاء شديد ، مستخدماً في ذلك قدراته التصويرية وتمكنه الفني الذى اكتسبه في دراسته المنظمة للفنون الجميلة .

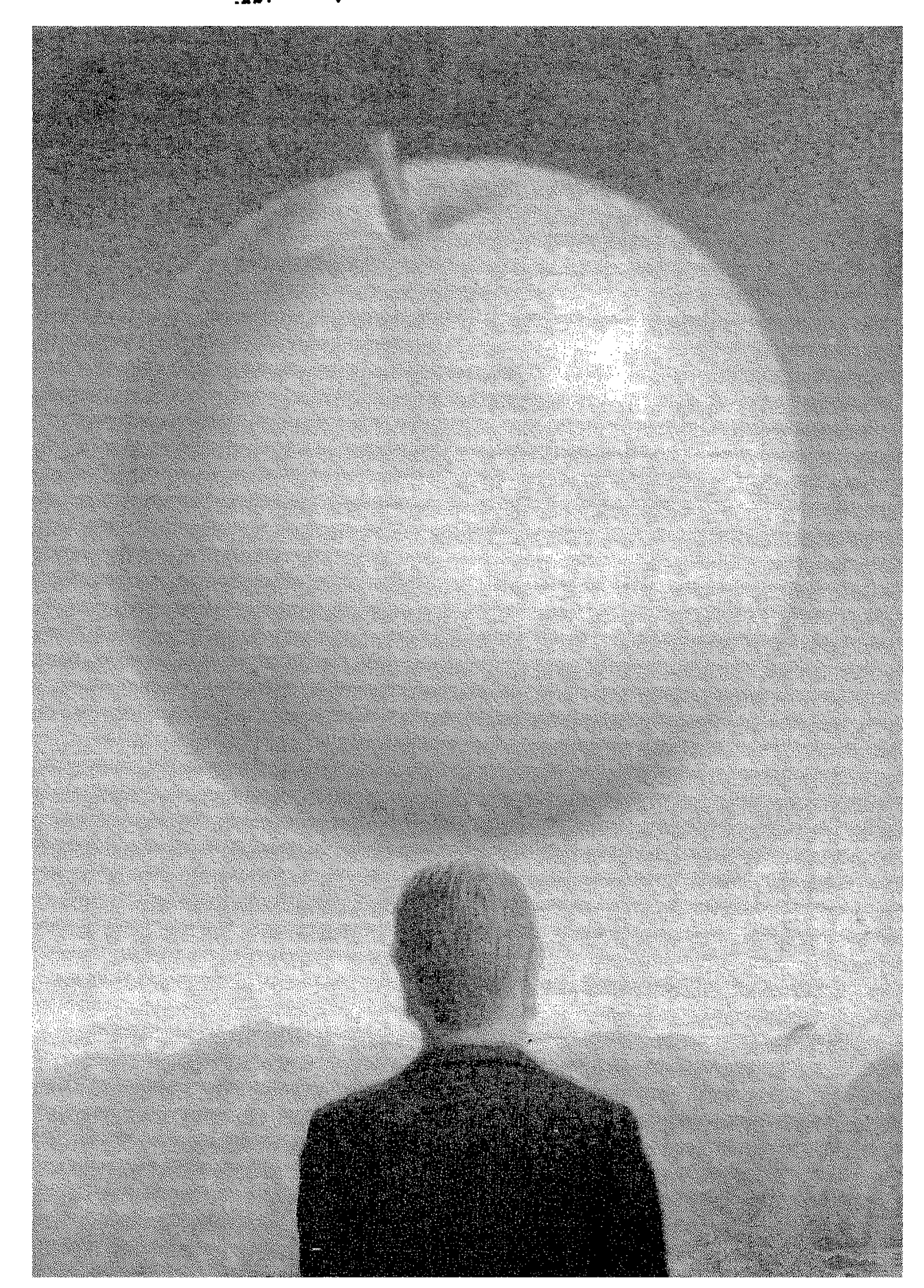
وقد ولد ماجريت في بلدة ليسين ببلجيكا عام ١٨٩٨ ، وبدأت موهبته الفنية تتضح حينما بلغ الثانية عشرة من عمره .

وفي عام ١٩١٢ انتحرت أمه غرقاً ، وقد ترك ذلك الحدث في نفس الصبى آثاراً سوف تؤثر على مسار حياته الفنى فيما بعد ، فتلك الحادثة وأسبابها ظلّ الغموض يلفها في عقل ماجريت .

والتحق عام ١٩١٦ بأكاديمية الفنون الجميلة ببروكسل .



بطاقة بريد سنة ١٩٦٠




ماجريت مع أمه عام ١٨٩٩

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفنان حياته العملية في فن التصوير ، وبدأ عرض أعماله منذ عام ١٩١٩ والتى كان متأثراً فيها إلى حد كبير بتكعيبية بيكاسو ، إلى جانب تأثيرات هنرى ماتيس وأندريه لوت ، وكذلك الفنانين الإيطاليين أصحاب الاتجاه المستقبلى .

وفى عام ١٩٢٥ صور ماجريت أول أعماله التى أدخل فيها فكرة شعرية ، وفيها تحقق وجود شئ ما غامض وغير معروف وكان .

عنوان اللوحة « الفارس الضائع » .

وقبل ذلك بعامين كان ماجريت قد التقى لأول مرة بأعمال المصور الإيطالى الشهير جيورجيو دى كيريكو والتى ظهرت فى إحدى المطبوعات ، وجاء ذلك اللقاء مؤثراً غاية التأثير فى أسلوب ماجريت الفنى ، فقد أظهر له روعة سطوة الشعر على فن التصوير ، وكان اكتشافاً يمثل لماجريت رؤية جديدة فى الفن .

وكانت لوحة الفارس الضائع من أوائل اللوحات التى نفذها ماجريت تحت تأثير اكتشافه الجديد ، وفيها يتخذ الفارس مكانه وسط غابة من الأشجار ذات الجذوع العملاقة التى تشبه قطع الشطرنج أو أرجلا لمائدة ضخمة ، ومنذ ذلك الكشف - الذى فتح له آفاقاً جديدة - تحول فن التصوير عند ماجريت إلى خبرة عجيبة ، وأصبح قادراً على استحضار خلاصة ذلك العالم الذى أحبه على قماش الرسم ، محولاً إيّاه إلى معادل تشكيلى وكان نتيجة ذلك وثمرته تلك الصور الحية المثيرة .

« لقد كنت قادراً على أن أرى المنظر كما لو كان مجرد ستارة موضوعة أمامى ، وأصبحت غير متأكد من عمق الحقول ، وغير مقتنع بالبعد اللانهائى لخط الأفق »

وفى جميع إنتاجه يعمل ماجريت الفكر والخيال ، فالأشياء تظهر فى لوحاته موضوعة حيث لا يمكن أن نتوقعها أبداً

وجعل مهمته تخليق وتوليف أشكال جديدة ، أو إجراء تحويلات وتعديلات على الأشياء المعروفة ، أو تغيير المادة المألوفة لبعض العناصر ، واستعمال الكلمات ممزوجة ببعض الصور ، واستخدام بعض الرؤى من أحلام اليقظة ، وإيجاد علاقة غريبة بين جزئيات موجودة بالفعل ، كل ذلك كانت وسائل ماجريت لإقامة علاقة وإيجاد اتصال بين الوعى والعالم الخارجى .

وفى لوحة (حالة إنسانية) تبدو من داخل الحجرة لوحة تمثل تماماً ذلك الجزء من المنظر المختفى عن المنظر بواسطة اللوحة، لذلك فالشجرة المرسومة فى اللوحة تخفى عن النظر الشجرة الحقيقية المختفية ، إنها موجودة بالنسبة للرائى كما لو كانت فى ذاكرته ، ولا فاصل بين الوهم والحقيقة أو بين الحلم والواقع .

لقد ابتدع ماجريت عالماً غريبا يبدو كما لو كان تجارب معملية على الإدهاش ومفاجأة عين المتلقى واثارة خياله ، وعالمه العجيب مؤلف من الأشياء والعناصر البسيطة التى يقابلها المرء أو يستعملها فى حياته اليومية العادية ، وقد جسدها بأسلوب واقعى بسيط ، لكنه تدخل بخياله وأعاد صياغة العلاقات فيما بين هذه الأشياء بطريقة تفاجئ المتفرج وتدعوه للتأمل ، فأوراق النبات التى تعلو عملاقة فى الفضاء ، أو الآلة الموسيقية النحاسية وقد ارتفعت منها ألسنة اللهب ، والوجه الآدمى الذى تجسد فى شكل عين الإنسان، أو تلك اللوحات التى تبدو زجاجية شفافة فتظهر من خلفها المشاهد المرسومة، أو الرجل ذو الجناحين الذى يعطى ظهره للأسد الرابض بجواره متأملا فى طمأنينة وسلام المنظر من أمامه ، أو الجبل الذى يتشكل فى جسم طائر عملاق ، أو السحب القابعة على الأرض ، والتفاحة الضخمة السابحة فى السماء ، وبقعة الضوء المبهر حين تحل محل وجه الرجل ، كل تلك العلاقات للعناصر العادية فى أوضاعها غير المألوفة تثير فى النفس التساؤلات ، وتهاجم مواطن الركود والخمول فى ذهن المتلقى .

لقد وظّف ماجريت كلّ خبرته التصويرية لكى يضع العالم الواقعى تحت مجهر الفحص والاختبار ، مؤمنا بالإمكانيات اللانهائية – التى لم تعرف بعد – للحياة الإنسانية ، مؤكداً أن غزوها هو الهدف الوحيد العاقل من وجود الإنسان .

قنديل أم هاشم

سيرة ذاتية ليحيى حقى

بقلم : فؤاد دواره

« قنديل أم هاشم » أول كتاب يصدر للأديب الكبير يحيى حقى ، وكان ذلك فى ابريل سنة ١٩٤٤ . ولا يعنى ذلك أنه يضم أولى محاولاته فى الكتابة ، بل سبقته كتابات عديدة ترجع إلى أوائل العشرينات وما بعدها .

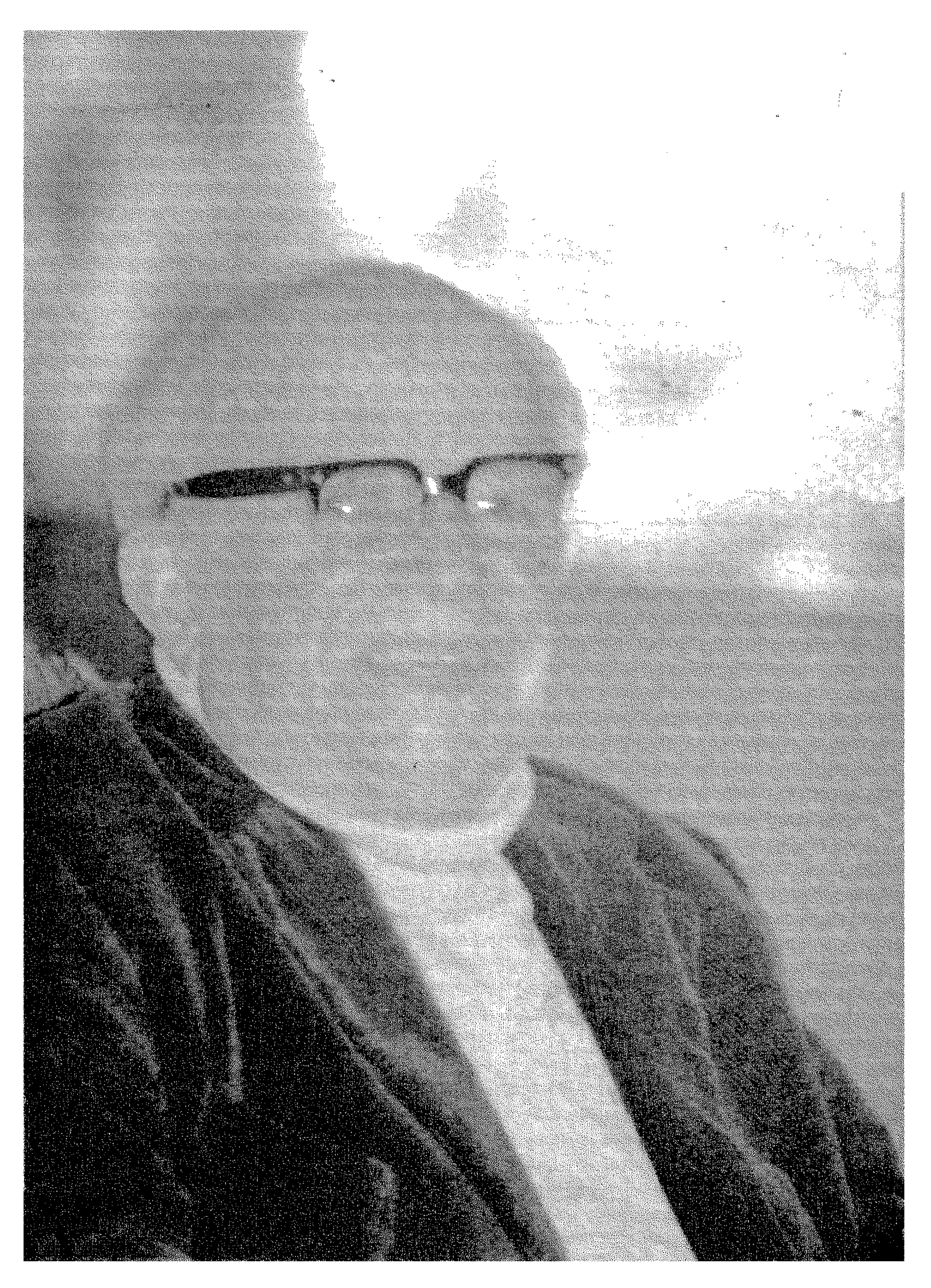
يضم الكتاب رواية قصيرة هى التى أطلق عليه اسمها ، وأربع قصص قصيرة ، بالإضافة إلى مقطوعات غزلية قصيرة من الشعر المنثور بعنوان « بينى وبينك » يمكن اعتبارها نماذج مبكرة لما سمى بعد ذلك «قصيدة النثر» .

قوبل الكتاب بحفاوة كبيرة ، وكان كافيا وحده ، بالرغم من صغر حجمه ، لادراج اسم مؤلفه بين كبار الكتاب .. ولم تزد كتب يحيى حقى العديدة التى صدرت بعد ذلك على تأكيد تلك المكانة ، ولم يتجح أى منها فى منافسة « قنديل أم هاشم » فى شعبيتها وشهرتها ، حتى أصبح من المألوف أن يسمى يحيى حقى « صاحب القنديل » ..

نتيجة لتلك الشعبية أعيد طبع « قنديل أم هاشم » مرات عديدة ، ووقع عليها الاختيار ليعاد طبعها فى الكتاب الأول من « مؤلفات يحيى حقى » التى أصدرتها « الهيئة المصرية العامة للكتاب » ابتداء من عام ١٩٧٥ . (توالى صدور المؤلفات بعد ذلك حتى اكتملت عام ١٩٩١ بالكتاب الثامن والعشرين ، وعنوانه « كناسة الدكان ») .

وفى هذه الطبعة الأخيرة أضيفت « لقنديل أم هاشم » سيرة ذاتية مركزة لمؤلفها ، تحدث فيها عن السنوات الخمس التى عمل فيها بسفارتنا فى روما ، وعن الآثار التى تركها فى نفسه احتكاكه لأول مرة بالحضارة الأوربية ، ثم انتقل إلى تجربته فى « قنديل أم هاشم » فقال :

« وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها ، كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم ، وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩ شعرت



بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى «قنديل أم هاشم» .

« إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا ويقول له :

- « اصح .. تحرك ، فقد تحرك الجماد !.. »

« إنها قصة غريبة جدا كتبتها فى حجرة صغيرة كنت أستأجرها فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » التى تجدها فى نهاية هذا الكتاب .

« واسم « اسماعيل » بطل « قنديل أم هاشم » أخذته من اسم صديق لى يدعى «اسماعيل كامل» كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الهند ، فقد كان يمثل - فى نظرى - محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب .

« إن اسمى لا يكاد يذكر إلا ويذكر معه « قنديل أم هاشم » كأنى لم أكتب غيرها .. وكنت أحيانا أضيق بذلك ، ولكن كثيرين حدثونى عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم .. منهم أديب يمنى قال لى :

« - لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن .

« وقال لى بائع كتب قديمة » :

« مش القصة اللى فيها واد بياكل بفتيك فى أوربا وأهله بياكلوا طعمية فى مصر » !!

« وحين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير « قنديل أم هاشم » لا أجد ما أقوله سوى إنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة ، وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القراء بنفس الطريقة .. »

وحين نبحث عن سر تفوق هذه الرواية القصيرة ، وقوة تأثيرها فى نفوس كل من قرأوها تواجهنا أولا تلك الشحنة الروحية العارمة التى حمّلها الكاتب لها ، فيها مزيج عجيب من الافتتان بحب بلاده .. « فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت ، عليها الحلى و« رواق » ليلة الدخلة . لا رعى الله عينا لم تر جمالها ، ولا أنفا لا يشم عطرها . متى تستيقظ ؟ »

يمتزج هذا الافتتان ببلاده بالحرص على نهضتها وتقدمها ، والضيق بأهلها لأنهم لا يقومون بمسئوليتهم نحوها ونحو أنفسهم ، فإذا به يتحول من الافتتان والانبهار إلى نوع من الحب القاسى الذى يعبر عن نفسه بهذا الهجاء المقذع لموضوع الحب والافتتان :

« هؤلاء المصريون جنس سمج ثرثار أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان . يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة مبرطشة من الطين أسنت فى الصحراء ، تطن عليها أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل .. »

غير أن هذا الحب ليس مشاعر مجردة أو عاطفة مثالية ، بل هو شديد الارتباط بالمكانة والناس الذين نشأ بينهم فى حى السيدة زينب وعايشهم عن قرب ، وأحس بآلامهم وشاركهم جدهم ولهوهم ، وتعمق فى فهم نفسياتهم . ليس من قبيل

المصادفات أن يقول في سيرته الذاتية :

« .. مازلت إلى اليوم أعيش مع الست «ماشاء الله» بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحي ، وبائع الدقة .. ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام « الست » ..

ثم إذا بنا نجدهم جميعا وبنفس أسمائهم في الرواية !

إلى جانب الدقة في تصوير مظهرهم الخارجي وسلوكهم الغريب هناك قدرة واضحة في النفاذ إلى سرائرهم والتعمق في فهم نفسياتهم . يقول عن تأثير اقتراب العمى من فاطمة النبوية على حركات يديها :

« من ذا الذي يقول لاسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة ، ولمس متعرف . ألا تفهم ؟ ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى في السليم هو أن تبدأ يده في الابصار ؟ »

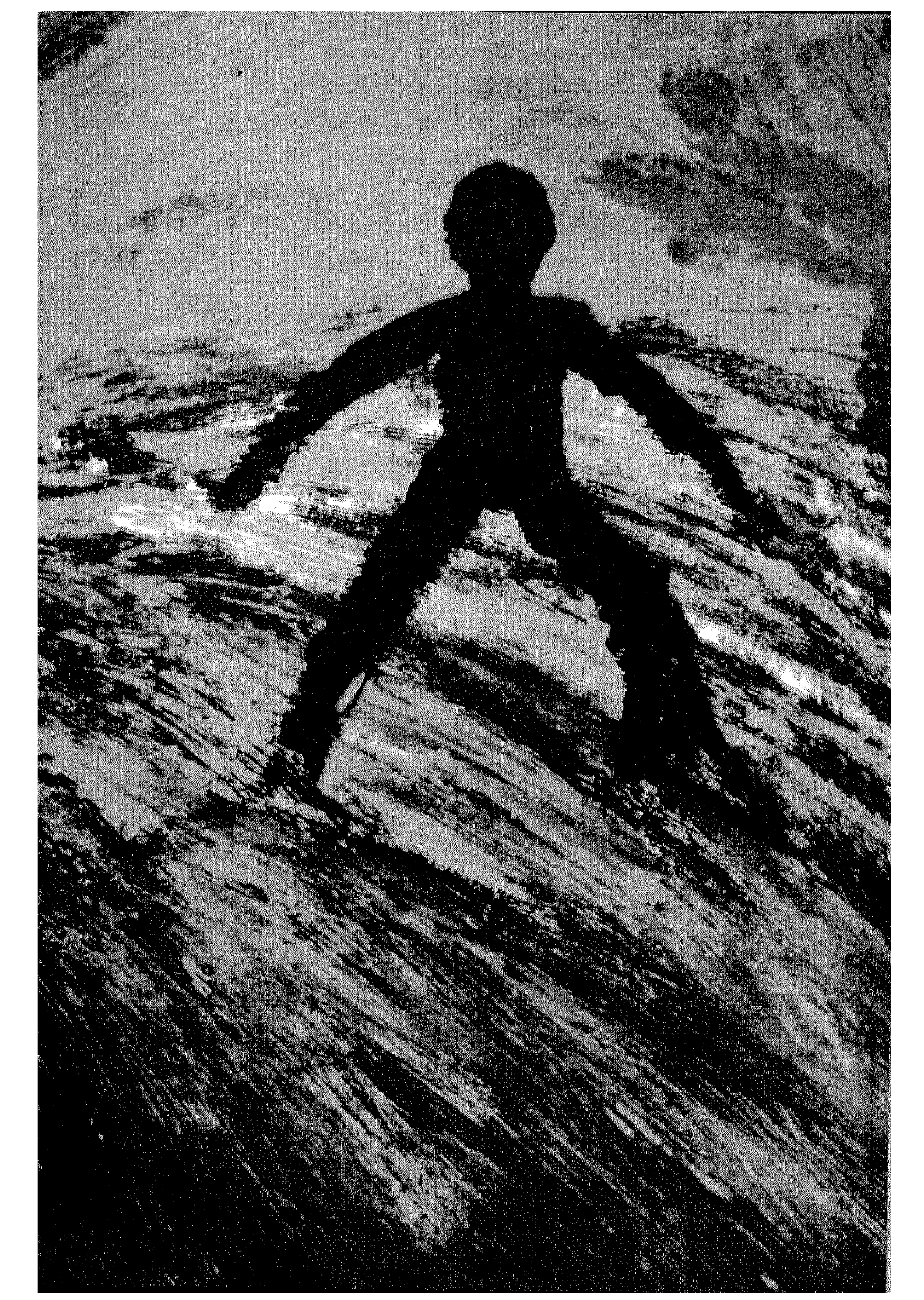
فإذا أضفت إلى ذلك دقة أسلوب يحيى حقي واحكامه وتحديده ، وشاعريته في كثير من المواضع ، أمثل لها بوصفه الرقيق لتلك الخاطئة التي تقصد مقام السيدة زينب طالبة بركتها وعفوها حتى يمكنها التوبة :

« وضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها ومن ذا الذي يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟ .. »

ويمكن أن تلمس روعة الأسلوب ورقته في المواضع الثلاثة التي وصف فيها الكاتب ميدان السيدة زينب . الأولى من وجهة نظر محايدة ، والثانية أثناء ثورته على الجهل والخرافة ، والأخيرة في ليلة القدر بعد تصالحه مع نفسه ومع أهله .. إن الحي هو نفسه في المواقف الثلاثة ، والشخصيات هي الشخصيات ، ولكن المختلف هو الحالة النفسية للبطل ، وتتبدى براعة الكاتب في تلوين المكان والشخصيات بالألوان المسيطرة على البطل في تلك اللحظة .

إن الأدب الصادق - عند يحيى حقي - « هو الأدب الذي وان سجل وحلل وكتب بأسلوب واقعي لا يكتفي بذلك بل يرتفع إلى حد التبشير ، وهذا ما وجدته في الأدب الروسي فسحرني .. »

وهذا التبشير أوضح ما يكون في «قنديل أم هاشم» التي تدعو بقوة وبأسلوب درامي مؤثر للتصالح بين العلم والإيمان من أجل النهوض بجموع الشعب المستكينة المستسلمة لمصيرها التعس دون أي محاولة للمقاومة ، وفي الخاتمة التي إنتهى إليها البطل بعد أن نجح في علاج « فاطمة النبوية » التي لم تفقد إيمانها به لحظة واحدة ، فتزوجها وأنجبا البنين والبنات ، وافتتح عيادة لعلاج مرضى العيون في حي البغالة ، الزيارة بقرش واحد لا يزيد .. في هذه الخاتمة دعوة قوية لجميع المثقفين لينحازوا إلى طبقات الشعب المهضومة ، ويجندوا علمهم في خدمتها .. فهل بعد ذلك تبشير ؟!



محطات

قصة قصيرة بقلم: رجب سعد السيد

★★ الأولى: فى زمن الرمال الصفراء والزنبقة البيضاء.

موقع تحاصره كثبان الرمــال العالية . عند الصباح ، أشعر بالرمال فى أغشية أنفى ، وعالقة بشـعيرات رموشــى . تناثرت الفــرقة ، فكان نصيبنا هــــذا الموقع الجديد.

انتهت أيــام التوتر الشديد ، ولكننا - وقد تمت لقاءات الخيمة عند الكيلو ١٠١ - لم يكن واضحا أمـامنا ، هل نسترخى أم نستمر فى التوتر ؟ . هل نصدق - حقا - أن الحـرب قد انتهت ؟.

مرت ثلاث سنوات ، ولازلت لا أعرف موعداً لانتهاء تجنيدى . لازلت أحمل شـــرائطى الثلاثة على ذراعى الأيمن ، وأمارس تميزى كواحد من فئة المجندين الجامعيين (هـ . ع .) ؛ أناقش وأفلســـف ، وتجمعنى بضباطى جلسات خاصة، تسقط فيها أقنعة الرتب العسكرية ونثرثر كزملاء دراسة .

تقاســمنا جـرعات مريرة قبل أن يفقا هدير مـدافـــع الظهيـــرة التحضيرية عين الانتظار السمجة . لم يبخل أى منّا على نفسه بنصيب وافر من نشوة المشاركة فى الفعل . لم يكن اللون الأسود أقل مساحة فى عينى قبل أن تتولد فى ضفتنا صرخة الفعل ، ولكنى كنت - معظم الأحيان - أفلح فى تغيير ملامحه إلى ستارة رمادية، لا تكاد تخفى زنبقة بيضاء مشرئبة ، تحملهـــا ســاق دائمة الاهتزاز.

انتهى القتال ، وجئنا إلى هذا الموقع ، وبدأنا نتحدث من جديد . لم يعد لدينا ما نفعله إلا أن نتحدث ونــزاول أعمالا

محطتان

قصة
قصيرة

تندنى كثيرا عن أداء المقاتلين .

وكنت ساخطا - معظم الوقت - ولا أخفى الإفصاح عن رأيى فى أن الزنبقة كانت بين أصابعنا ،ولكنها -كيف؟ - اختفت ، ولم أعد أرى غير متوالية من الستائر الرمادية ، وتلال من الرمال الناعمة ، تتناقلها رياح الصحراء ، وتجعل لها أسطحا ناعمة مخادعة ، وتتسلل ذراتها إلى جهازى التنفسى .

ولم أكف عن التساؤل : هل أفسدنا الحلم بأيدينا ، مرة أخرى ؟ !

يتعاطف معى أحمد أمين طلبة والضبع وسالم وأحمد سعد وابراهيم عبد الرازق ، أفراد فصيلتى : من قنا وأسيوط وسوهاج والمنوفية . يوقدون النار ويصنعون الشاى . نشرب بالمشاركة يختصوننى بالكوب الزجاجية الوحيدة . يقولون : حدثنا بهذا الحديث الذى يكاد - مثل شعرك - يبكينا .. حدثنا عن مصر التى لا نعرفها ، والتى كنا نظنها تبدأ وتنتهى بميدان باب الحديد وعربات الدرجة الثالثة فى القطارات المتهالكة ، المتجهة من الصحراء إلى قرانا ..



إنك تتحدث عن حبيبة تراها ماثلة أمامك، وقد أضفتنا إلى قائمة المحبين .. حدثنا بالمزيد عنها .. ما الذى تخبئه لنا فى قميصها الحريرى ، ونحن نعود إليها وقد وضعنا السلاح جانبا ؟ . هل هى أنثى طيبة ؟ . هل هى أم تفيض بالحنان وتوزع رغيف القلب على أبنائها بالعدل ؟ . هل ستتجمل من أجلنا وتكون صادقة فى وعودها ؟ .

ليس أحلى ولا أسهل من الحديث إلى أحباء . أتدفق بكل ما أعرفه . وأثناء تدفقى ، أكتشف ما لم أكن أعرفه ، وأحيانا كـــانوا يأخذون بيدى إلى أراض للسحر وإلى مصبـــات أنهار من شعر وعسل مصفى .

وفجأة ، يغتال تآلفنا صوت (الرتالة) الحاد المستمر البغيض . ارتبط صوتها بالإنذار بالخطر القادم فى أيام القتال . الآن ، تدعـــونا إلى (طابور) من السأم .

التأفف والتثاقل . يتحركون من كل جهات الموقع المتسع يكسوهم استرخاء مقاتل هجر خندقه . وكنت فى مقدمة المقتربين من مكان تجمع الطابور . رأيت قائد السرية متجهما ، يقف بدون غطـــــاء رأس ، ممسكا بعصا رفيعة ، وسمعته يصيح غاضبـــا دامغـــا الجنـــود بانعدام الرجولة .

لم أحاول إلا انتقاء أقل الألفاظ إيلاما . أنا أحد جنوده الذين قاتلوا معه ، ويقذفهم – الآن – بالنقائص .. صحت :

– (هـــؤلاء جنـــــود مقاتلون ، وليسوا أجراء فى أرضك .. قائد أنت أم ملاحظ أنفار بائس ؟ !).

لن أنسى ملامح وجهه قبل أن يثور ويتراجع هـــادرا إلى مكتبـــه ، صائحـــا فى مســـاعد السرية أن يأتى بى إلى المكتب ، مع (أورنيك الذنب) .

اقتادنى المساعد إلى محكمته . أمـــر المساعد بالانصراف . بدأ الحديث غاضبـــا . نصحنى أحد ضباطه – إشارة – أن التـــزم الصمت . كان صوته العالى مستمرا فى توجيه الاتهامات إلىّ ، والتهديد بأشد العقاب . تدخل الضابط ملتمسا لى العذر ، فكلنا مرهقون وأعصابنا متوترة ، وطلب منى أن أعتذر . توقف القائد منتظرا اعتذارى . قلت فى هدوء شديد :

– (لم أخطـــىء لأعتـــذر ! .. لم أكن لأســـكت حين يقال لنا أشباه رجـــال .. إننى أدافع عن رجولتى وشرف زملائى .. بل عن قائدى نفســه .. إذا كنا نحن أشباه رجـــال فكيف ارتضيت لنفســـك أن تقودنا فى الحـــرب يا سيدى ؟ !) .

محطتان

قصــة
قصيرة

صرخ قائد السرية منهيا المحاكمة : خذوا هذا الرقيب من أمامى !!.

وعلمت أن الجزاء كان الحبس لمدة عشرة أيام .

ولكن ذلك لم يستمر إلا لساعات قليلة . فقبل أن ينتصف الليــــل ، فوجئت بالقائد نفسه يدخل إلى (ملجئى) . بادر بطلب الشــــاى . كان ضيفى ، فأسرعت أعد الشاى . نظر إلى بعض الكتب والأوراق المتناثرة فوق الفراش . قال : كيف تقرأ فى ضوء هذا الفانوس ؟ .

مد يده إلى الأوراق ، وقال : ماذا تكتب ؟ .. هل لى أن أرى ؟ .. لعلك تصيغ منشورا ضدى ! .

كان يتحـــدث وأنا مأخوذ بمفاجأة الزيارة ، ويداى مشغولتان بالشاى والسكر . نظر فى الأوراق طويلا . قال : سمعت أنك تكتب الشعر .. يبدو أن هذه قصيدة جديدة .. زنبقة من دم المدثر ! .

قلت: المدثر الدرديرى على .. زميلنـــا الذى استشهد عند الممر ! .

أربد وجهه ، وغمغم : أعرف .. أعرف .

قرأ القصيدة ، وأخذ يحتسى الشاى صامتا . سألنى فجأة : هل أزعجك الجزاء ؟ .

قلت بعد تردد : ليس كثيرا .. فحالنا العام أقرب إلى الحبس الدائم.. لا أحد يغادر السرية ! .

فاجأنى ثانية يسأل : هل لك حبيبة ؟ .. لكل شاعر حبيبة ! .

ابتســمت فابتسم . قال وهو يترك الكوب جانبا ويستعد لمغادرة الملجأ : راجع مكتب السرية صباحا .

وفى الصباح ، كانت الورقة المختومة فى يدى ، وكنت أغادر أرض الكثبان الرملية ، أفكر فى الأماكن التى سأنشـــد فيها قصيدتى الجديدة .

★★★

★★ الثـانية : فى زمن الحرائق .

أســميه زمــــن الحرائق ...

أرفض الأجابة على دهشة من يتساءلون عن ضرورة انبعاث الدخان .

أعظم الحرائق لاتنتج دخانا ! .

تنفس، فأنت – إذن – تشعل حريقا . هل يمكنك أن تكف عن التنفس ؟ .

أنت كائن حى .. أنت مشعل حرائق .. فلماذا يطالبوننى بدليل واه ، كالدخان ؟ ! .

لا تســألونى .. إن حرائق الدخان هى حرائق الإطفائيات . حرائق هذا الزمن – التى أراها – لا تجد ضــرورة لغـــاز الأكسجين . إذا رأيتموها فافعلوا كما أفعل . لا

حاجة بكم إلى الهاتف لاستقدام عربات الإطفاء. فقط، قفوا، وانظروا .. اكتفوا بالمراقبة، وإن استطعتم، لا تقتربوا من السعير!.

....

كان ارتفاع درجة الحرارة يطاق. لم يكن قد وصل إلى درجة الشواء..

برغم الكراهية المتبادلة، طلبني. يحتاج إليّ.

قالت زوجتي: لا بأس .. فرصة .. وأمامنا تكاليف بداية العام الدراسي .. مصروفات المدرسة .. الملابس .. السيارة .. والشتاء داخل، ولم تعد ملابسنا الثقيلة القديمة تصلح لمواجهة توحش موجات البرد.

فقلت له، لا بأس. وكنت أضمر أنها فرصة لأرى مساحة من وطني، وأمسح اسمي من قائمة الذين لا يعرفون خريطته إلا في كتاب الجغرافيا.

توارينا، ولم نعلن هدنة، ولكنا عشناها. تتبادل الكائنات الدنيا المنفعة. نتعالى نحن عن سلوكها. هي ترقى به وتعيشه في احترام للحدود. نحن نتوارى ونمارسه.

جمعتنا المائدة وهو على رأسها. يتكلم عن خطة الأعمال الحقلية، ابتداء من جنوب الغردقة إلى الشمال، التفافا حول خليج السويس، حتى رأس محمد، الامتداد الجنوبي المدبب من شبه جزيرة سيناء!

وأنا أنصت وأشارك.

حاولت أن أضع مطالب زوجتي جانبا، وأخلق مبررا آخر: عمل قومي متميز! .. ما رأيك؟. في الأعمال التحضيرية، صفت بعض الخطابات.

السيد .... يجرى حاليا بالمركز الإعداد لبعثة قومية لدراسة أحوال الشواطىء المصرية وتقصي آثار التلوث بالزيت في منطقة خليج السويس حتى جنوب مدينة الغردقة على ساحل البحر الأحمر. وسيقوم الفريق البحثي بالعمل في شواطىء المناطق المذكورة ومياهها الساحلية نرجو التكرم باتخاذ اللازم نحو تسهيل مهمته.

وكان ضروريا أن أسأل عن التمويل. ابتسم: لا تخف .. ليس كما تظن!.

وكان يعرف أنني



محطتان

قصة
قصيرة

لاأتعامل مع المشروعات العلميـة التي تمولهـا سياسة التطبيع . إن لم تكن إسرائيل الممول ، فمن يكون ؟ .

شركة بترول كبيرة . حاولت أن أعرف أكثر . لم تكن المعلومات متيسرة، واكتفيت باطمئناني إلى أنني لا أرفع فوق رأسي علم التطبيع .

نقلة حادة . سنوات العمل الطويلة في المختبر عودتني على الاسترخاء . يختلف الحال في الميدان .. في عربات متهالكة .. تحت شمس ساخنة .. حد أدنـى من متطلبـات المعيشة ، نتيجة لقصور واضح في التجهيـزات الإدارية .. ومساحات عريضة من الشـواطيء لاتزال تتفجر فيها ألغام الحروب الماضية من حين لحين ، فيصبح ارتيادها جنونا .

معي آلـة التصوير وقلمي وأوراقي وأكياس النايلون لحفظ النماذج والعينات . على رأسي قبعة قطنية مبللة بالعرق وأبخرة ملحية . يبتعد خط الماء خلف مرتفعات جبلية أو مساحات شاسعة من الرمال المستعصية ، فنفقده ، ثم يعود فيقترب لنلتقي به .

حماسي واضح لي أنا قبل أن يرصده رفاق الرحلة . كـان البحـر الأحمر عالما مجهولا لي قبل الآن ، فقد اقتصرت



خبرتى على الساحل الشمالى ... وها أنا أبدأ جولتى معه فتتآكل جدران قلبى حسرة وأسى .

فى أول جلسة لمناقشة أحوال العمل والتقارير عن عمليات المسح للأيام الأولى ، كان رده على ما قدمته أن التزم الحياد ، ولا شأن لنا بما هو موجود . كان مطلوبا منى ألا أقول شيئا عن فوضى التداخل العمرانى فى قلب البيئة البحرية ، والأنقاض التى يأتون بها لدفن مساحات هائلة من بيئة الشعاب المرجانية الضحلة ، لترتفع فوقها مبان لقرى سياحية وقصور .

قلت : إنهم يتصورون البحر أنبوبة مجارى ! ... إنهم لا يعاملونه ككائن حى .

وقلت : الزيت والقمامة وكرات القطران فى كل مكان .. فماذا تريد الشركة الأخطبوطية أن تفعل بهذا البحر أكثر مما به ؟ ! .. كتل أسمنتية تقوم على أشلاء بحر تتراجع فيه الحياة .. تباع شواطئه لتنقض عليها المعاول ، وترتفع أبنية تطل على مياه كابية ، لا يدرون أنها تموت ببطء ، وسيأتى يوم يفتحون فيه نوافذهم فتهب عليهم رياح القبور بدلا من نسيم البحر .

ثرت وقلت إننى لن أكون مشاركا بالسكوت .

قال إن مهمتنا علمية، وإنه ليس علىّ إلا أن أعطيه تقريرى ، فتنتهى مهمتى ، وأحصل على أجرى .

وكنت أعرف أن ما يقوله هو الحقيقة التى قبلتها منذ البداية ، فتعاظمت درجة الحرارة وبدأ الاحتراق .

لملمت أوراقى وغادرت المكان إلى استراحتى المليئة بالذباب . تبعنى شريكى فى الاستراحة . وجدنى أرتب حقيبتى . ولم يجد مشقة فى تهدئتى .

وقبل أن تظهر شمس الصباح، كنت – كالعادة – أحمل أوراقى وأقفز إلى العربة العجوز . كنت حريصا على قبعتى التى تحمى رأسى من وهج الشمس . وكنت أخوض فى المياه الضحلة لمسافات طويلة ، ولكن ذلك لم يكن له أثره المبرد الكافى . فالمياه ساخنة .. بل إنها تحترق . والرمال الملطخة ببقع الزيت وكريات القطران لا تكف عن الاحتراق . وكان السرطان الراهب يجرى إلى المياه آملا فى إطفاء نيران تلهب صدفته ، ونجوم البحر ذات الأذرع السوداء الهشة الطويلة تتلوى مختنقة . وكنت أنا أحاول أن أنتزع قدمىّ من بركة وحل زيتى ، وأدوّن ملاحظاتى التى سأعتمد عليها آخر النهار فى إعداد تقرير علمى محايد .



ماذا بعد ..

مهرجان المسرح التجريبى الرابع ؟ !

بقلم : مهدى الحسينى

رغم أن كثيرا من سياساتنا وفعاليتنا ترتبط - عادة - بحضور شخص منشئها أو باللجنة أو الوزارة أو الحكومة التى قررتها ونفذتها ، فتقوم بقيامها وتمضى بمضيّها ، إلا أنه من الأهمية بمكان مناقشة ما يجرى فى هذا المهرجان - سواء كان وجوده عارضا (حكومة) أو دائما (دولة) - وذلك للأسباب الآتية :

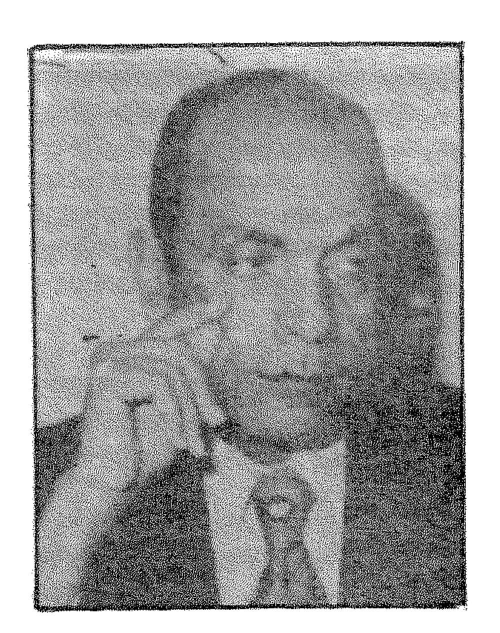
مواقف : مؤيد متحمس ، ومعارض رافض ، وانتقائى يأكل الثمرة ويلفظ النواة .

لذلك أسوق ملاحظاتي في صورة تقرير أطرحه على دوائر المهتمين والمهمومين برأس مصر وقلبها ، وعلى دوائر الدولة التي تخطط لثقافتها .. ومن ثم لهويتها الجمالية : من أين ؟ وكيف تكون ؟ ولماذا ؟

أولا : التمويل والإنفاق

١ - تقتطع الحكومة جزءا من ميزانيتها لهذا المهرجان لم يعلن بالمرة ، إلا أن البعض يقدره بثلاثة ملايين جنيه كرأس مال سائل فضلا عن الثوابت ، وقد يكون المبلغ الحقيقى أقل أو أكثر ، إلا أنه فى النهاية مبلغ كبير يتم إنفاقه فى أقل من نصف شهر ، خاصة وأن هناك نواحى أخرى فى ميدان العمل الثقافى .. بل والحضارى ، مثل إنقاذ آثارنا المنهارة في حاجة إلى مزيد من المال ، وبالطبع فإن الاهتمام بالآثار لا يكون على حساب المسرح والعكس صحيح ، والأمر الأفضل أن تسير كافة عمليات العمل الثقافى جنبا إلى جنب على نحو متواز ومتوازن ، مع تقدير سليم ودقيق للأسبقيات .

٢ - ومع التسليم بعوائد المهرجان من وجوه عدة : سمعة أدبية دولية ، وإبراز لدور « القاهرة » كعاصمة ثقافية عالمية ، واطلاع على جانب من ثقافات شعوب



د . على الراعى

● التكاليف الكبيرة التى يتكلفها من أموال ثابتة ومتغيرة ، والجهود المضنية التى تبذل فى سبيل إنجاحه .

● تزايد اهتمام دوائر مسرحية عديدة فى مختلف بلدان العالم بالمساهمة فى عروضه وأنشطته الثقافية المصاحبة .

● الأثر - إيجابا وسلبا - الذى لا يمكن تجاهله على فنوننا المسرحية المصرية والعربية ، ومن ثم القضايا الفكرية والثقافية المتعلقة بالمسرح خاصة والفنون عامة .

● الاهتمام الخاص من قبل الحركة الثقافية المصرية والمتمثل فى ثلاث

العالم فى مجال المسرح ، وإفادة مسرحيينا بمناهج الإبداع وأساليبه من مختلف عروض المهرجان ، ومن ثم خلق حالة من الغيرة فى صفوف فنانينا تحفزهم على التطور ، إلا أن هناك مجالات عديدة لضبط الإنفاق وترشيده ، دون التقليل من قيمة المبلغ الإجمالى المرصود سعيا للمزيد من الإفادة به ، وزيادة عائده ، وذلك بالآتى :

★ فرض رسم اشتراك على الفرق الراغبة فى المساهمة بعروضها ، على ألا يقل عن خمسة آلاف دولار على كل فرقة .

★ التعاقد مع القناة الفضائية على شراء عروض المهرجان لتسويقها عالميا ، مع مادة علمية إيضاحية وندوة للنقاد لكل عرض .

★ الإبقاء على نظام فتح الشباك أمام الجمهور تنظيما للدخول وتغطية لجانب من المصروفات .

★ تغيير مكان استضافة الفرق المسرحية ، إما إلى فنادق ٣ نجوم ، أو إلى فندق القرية الأولمبية فى مدينة نصر ، عدا عدد محدود من الضيوف الرسميين وكبار المفكرين المدعوين إلى الندوات .

★ ضبط الإنفاق على حفل الافتتاح بالذات ، حيث أنه تكلف - فى تقدير البعض - أكثر من ربع مليون جنيه ، عدا إيجار الأوبرا وخدماتها ، مع التركيز على فكرة أن هذا الحفل يجب أن يكون بطاقة هوية مصرية نطرحها على حضور المهرجان .. لا أكثر .

ثانيا : التحضير للمهرجان

من المعروف - بيروقراطيا - أن أية جهة حكومية مصرية لا تستطيع وضع خططها موضع التنفيذ ؛ إلا فى شهر أغسطس حين تصل الميزانية بحجمها الحقيقى ، وليس وفقا للمشروع الاستثمارى الذى ترفعه هذه الجهة إلى الدوائر المختصة فى الحكومة ، غير أن وجود « بنك التنمية الثقافية » يحرر المهرجان نسبيا من هذا القيد ، فضلا عن أن طبيعة هذا المنتج يمكن تمويله من ميزانية السنة المالية التى تسبقه ، وعليه يمكن وضع تصور تقريبى للبرنامج التنفيذى للمهرجان فى موعد أقصاه شهر مارس من كل عام وعلى النحو التالى :

١ - تعقد مسابقة مصرية .. مصرية بين المسرحيين المحترفين وفرقهم وأعمالهم التى يرغبون المشاركة بها فى المهرجان ، على أن يقوم بالتحكيم بينها لجنة موسعة تضم كافة نقاد المسرح وبعض مخرجيه وكبار فنانيه حيث يتم تمثيل كل التيارات الفنية التى تشغل الساحة المسرحية المصرية ، وتختار اللجنة العرض الذى سوف يمثل مصر ، وكذا العروض الموازية. وذلك كى تتأهب مصر لمشاركة لائقة فى المهرجان ولكى لا يحدث مثلما حدث هذا العام .. والأعوام السابقة .

٢ - تضع الهيئة الوزارية للمهرجان عنوانه وموضوعات بحوثه ومحاضراته وندواته وشروطه ومحكميه وإجراءاته التنظيمية ولجانه الإدارية ومشروع ميزانيته التقريبي وتبلغها لكل من يعنيه الأمر ، كل فيما يخصه ، سواء في الداخل أو في الخارج .

٣ - تخطر الإدارة العامة للعلاقات الثقافية الخارجية ، كافة ملحقينا الثقافيين بالخارج ، وكافة الفرق والدول الممكن مشاركتها بعروض ، وكذا النقاد المسرحيين والمفكرين الجماليين للمشاركة بالمحاضرات والندوات والبحوث ، بقرار المهرجان وعناوينه وشروطه ومحكميه ونظمه .

٤ - تطلب هيئة المهرجان من كافة الفرق المشاركة ، مواد علمية إعلامية تكفى ١٠٠ ناقد ومراسل صحفى ، عبارة عن معلومات عن الفرقة وتاريخها وعروضها وجوائزها وأعضائها ومكانتها في بلدها ومساهمتها في الفن المسرحي ، وفلسفتها الفنية ، وصور لعروضها ومخرجها وأهم أعضائها ، وكذا بانفلت واف عن عرض المسابقة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية وبعدد كاف للجمهور .

٥ - أن تراعى كل الوفود والفرق أن المهرجان يعقد في مصر قلب المنطقة الناطقة باللغة العربية ، فتضم كل منها مترجما ناطقا باللغة العربية ، مهمته عقد سبل الاتصال مع الإدارة المصرية للمهرجان ، وكذا النقاد والفنانين المصريين والعرب ، بل والجمهور أيضا ، حيث يجب اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية الأولى في المهرجان احتراما لها واعتزازاً بحضاراتنا العربية . ومثل هذا الأمر تأخذ به فرنسا على سبيل المثال رغم إلمامهم بلغات أخرى كالإنجليزية والألمانية والإيطالية والأسبانية .

٦ - أن ترسل كل فرقة نسخة من سيناريو أو نص العرض وكذا شريط فيديو له ، كى يتسنى لهيئة المهرجان مشاهدته والحكم على أهليته للمهرجان ، حيث أن بعض العروض قد استبعدتها لجنة التحكيم بحجة أنها ليست في سياق المهرجان ، وبعضها لم تستبعده رغم تقليديته مثل عرض الجزائر « عرس الذيب » ، بالإضافة إلى تفادى عمليات الغش الفنى ، كأن تُصنع بعض الفرق عروضها على مقاس المنطقة العربية وتصوراتهم عنا التى قد لا تصيب .

ثالثا : شئون إدارية .. وحضارية

ليس جيداً أن تظل دورنا المسرحية على هذا النحو من الرثاثة والانهيار الخدمى ، ففى مسرح محمد فريد بواجهته البلاستيكية القبيحة التى شوهت هيكل واجهته المعمارية الأصلية ، كانت فرقة مولداڤا تقدم « فى انتظار جودو » حيث لم تستطع المراوح الهزيلة أن تخفف عبء

الحر والعرق والرطوبة عن الفنانين القادمين من الشمال ، علما بأن أموالا هائلة تضيع في الهباء ، في حين نستطيع أن نعيد للمسرح واجهته الأصلية ، وأن نضيف تكييفا مركزيا لهذه الدار ، وقس على ذلك مسرح الطليعة بقاعتيه والشباب.. الخ ، لقد كشف هذا المهرجان عدم استعدادنا للتعامل مع العالم الخارجي رغم أننا أقمنا مهرجانا عن « التجريب » للعام الرابع !!

وعلى باب أحد المسارح وقف رئيس البيت الفني للمسرح يبحث عن موظف الكونترول لحظة دخول لجنة التحكيم والنقاد والجمهور ولم يجده ، كما لاحظ في مسرح آخر رثاثة ستائر كان قد قيل أنه تم شراؤها للتو !! ولا تنتهي الملاحظات ، ابتداء من عدم وجود زي للعمال ، وغياب موظفين وموظفات للاستقبال على دراية تامة بإحدى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، إلى نقص التجهيزات الفنية في أغلب دور العرض ، كما أن غياب مسرح الجمهورية ليس فقط في هذا المهرجان ، بل على مدار المواسم ، أمر يدعو للتساؤل !!

ولقد أضافت هيئة المهرجان عدداً من المرافقين للوفود ممن لهم دراية باللغات وهذا أمر لا بأس به ، إلا أنه يستحسن أن يكون هؤلاء من المحترفين خريجي كليتي السياحة والآثار .

أما بالنسبة للمكتب الاعلامي ، فلابد وأن تودع إليه كل فرقة مائة مظروف من موادها العلمية والإعلامية لتوزيعها على النقاد والصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء بالإضافة إلى النشرة اليومية وبرامج اللقاءات والندوات والمحاضرات وجداول العروض ، بالإضافة إلى ما قد يستجد من أخبار هامة طارئة . إن حضور المكتب الاعلامي هذا العام كان خافتا .

رابعا : النشرة

حسنا فعلت هيئة المهرجان إذ تبعتها عملية إصدار النشرة اليومية ، فهذه تمثل الوزارة وفي نفس الوقت تتسع لكتابات النقاد والصحفيين ، مثلها مثل كافة الاصدارات الصحفية الحكومية ، فحفلت بالمعلومات والإعلام والأخبار والأحاديث والتحقيقات وعروض الكتب والدراسات المختصرة والمتابعات بالعربية والانجليزية ، حتى أن لجنة التحكيم استرشدت بكثير مما ورد بها من كتابات النقد التطبيقي عن العروض .

خامسا : التحكيم والشروط

يسعد جميع المثقفين المصريين والعرب حضور أ . د . على الراعي ، منظّرا للمسرح العربي ومعلما ومترجما وقيادة تاريخية ، على رأس لجنة التحكيم الدولية وللعام الثاني ، إلا أن هناك نظراً وتساؤلا عن صحبته من المحكمين !! هل هم يمثلون التيارات الفنية والمدارس الإبداعية الرئيسية في بلادهم ؟ نحن لا نعرف بدقة

.. وهناك من يعرفون أكثر ، ولكن عضواً واحداً على الأقل فى لجنة هذا العام لا تنطبق عليه هذه الصفات ، هكذا أكد كثير ممن عملوا وعاشوا فى بلده التى مثلها .

إن الريادة والتجديد من ناحية ، وخصوصية التمثيل الثقافى لثقافة معينة يجب أن يكونا مقياسين لازمين لعضوية لجنة التحكيم ، فإما أن يتم اختيار المحكمين على أساس قارِّى ، وإما على أساس قومى (ثقافى ولغوى) : انجلو ساكسونى - .. إفريقى - لاتينى - سلافى جرمانى - أسيوى جنوبى - عربى - الخ ، أو الجمع بين مزايا التقسيمين ، فنضمن لجنة تحكيم دولية تمثل كل أجزاء العالم جغرافيا وثقافيا بحق ، اكتب هذا لأننى لاحظت أن الفنون الآسيوية والتى مصدر الهام بريشت وأرتو وبروك وغيرهم لم تحظ باهتمام لجان التحكيم التى طغى على مقاييسها اتجاه الشمال والغرب ، فهضمت ثقافات الشعوب ، فلم تفز الهند إلا بنصف جائزة فى العام الماضى ، ولعلها لم تحضر هذا العام لأسباب أخرى غير هذا السبب ، ولم تفز اليابان أو الفلبين ، وفازت سنغافورة بجائزة فى التمثيل ، أما أرمينيا واكرانيا فلم يلتفت إليهما أحد .

عموما على لجنة التحكيم أن تحل معضلة مقارنة الزيت بالماء !! فكيف تقارن ثقافة شعب بشعب آخر دون أن تقع فى الانحياز والعنصرية ؟ وكيف تقارن فن بفن ؟ وما هى المقاييس ؟ هل تستطيع أن تقارن الكابوكى والنو اليابانيين بمسرح انطون تشيكوف وستانسلافسكى فى المسرح التقليدى ؟ وبالمثل هل تستطيع أن تقارن فن جروتوفسكى بفن بيتر بروك ؟ لا أعتقد أن هناك إجابة حاضرة عن هذه الأسئلة سواء لدى أحد من المحكمين أو النقاد أو عندى ، غير أن بداية الطريق يتحدد فى خطوتين : توسيع التمثيل القارى والقومى والثقافى والفنى لمختلف شعوب وفنون البشر ، والعناية باختيار شخصيات من أهم مفكرى المسرح وفنانيه فى بلادهم . بعد ذلك لابد من مجموعة من الإجراءات المكملة :

١ - فصل فرق المحترفين عن فرق الهواه ، حيث أن المقارنة والتحكيم بين هاتين لابد ظالمة ، وقد يقول قائل عن الاستثناءات إنه رُب فرقة محترفة أقل من فرقة للهواه أو العكس ، حسنا فلتصعد الفرقة الهاوية - فى العام القادم - إلى مصاف المحترفين ، وليكن المهرجان مهرجانا للمحترفين ، وللفرق الكبيرة الهامة فى مختلف أنحاء العالم ، والقادمة الينا ممثلة لثقافة اقاليمها وشعوبها . أما الهواه فاما أن يكونوا على هامش المهرجان أو أن يقام لهم مهرجان مستقل تقيمه الثقافة

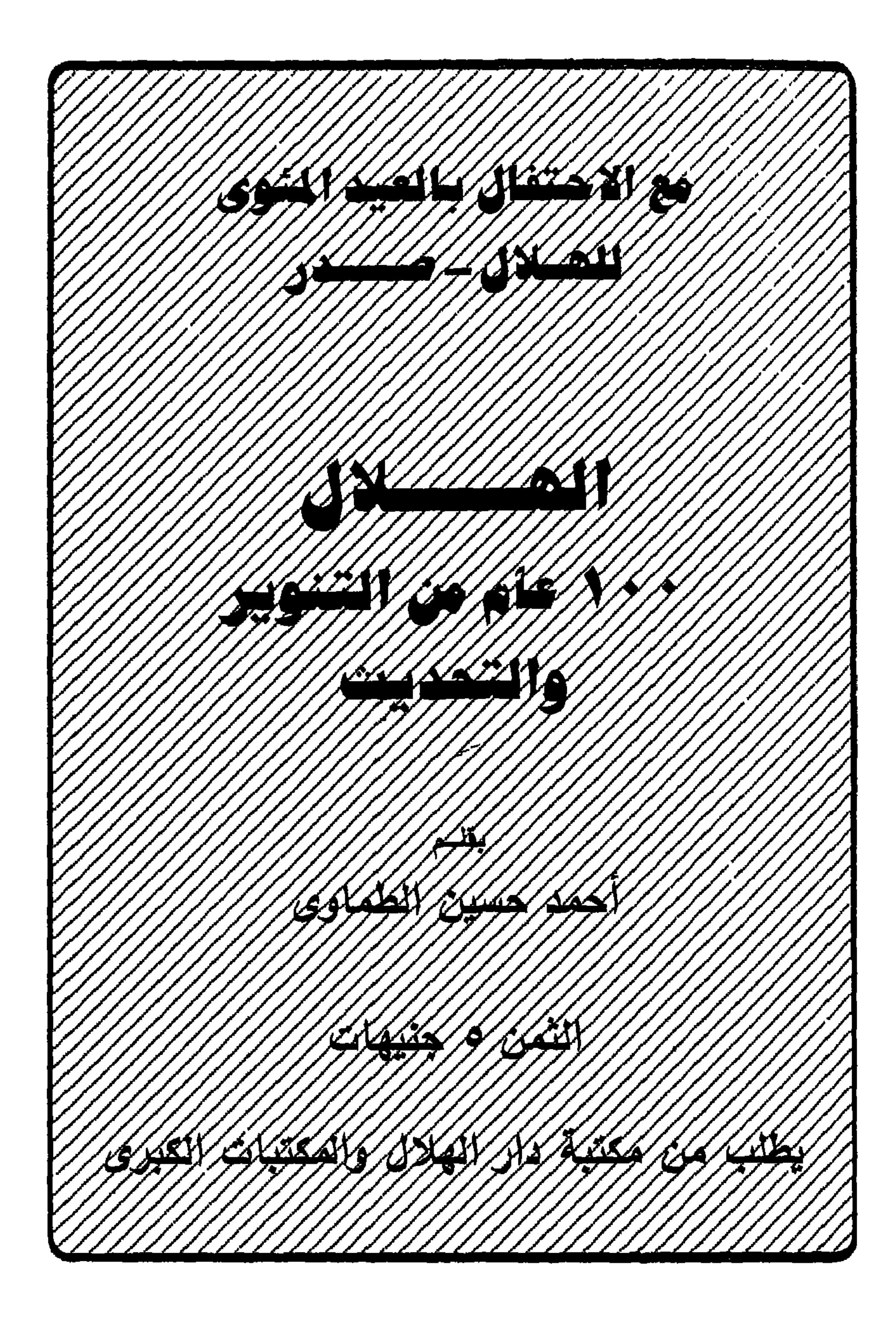
الجماهيرية أو وزارة الشباب أو معاً فى مكان وموعد آخر .

٢ - وفى هذا العام أيضا ، لم يستطع كل أعضاء لجنة التحكيم مشاهدة كل العروض ، رغم التسهيلات التى أجرتها هيئة المهرجان سواء فى مواعيد العرض أو فى وسائل النقل ، ولكن العدالة محايدة عمياء وسيفها يمثل فى منتصف المسافة بين الحق وبين الباطل ، فلابد أن يشاهد كل المحكمين كل العروض ، ذلك الأمر الذى لن يتحقق إلا بإجراءين : تقليل عدد عروض المسابقة بعد اقتصار المشاركة على عروض الفرق المحترفة فقط ، وزيادة ليالى المهرجان إلى ١٥ ليلة حيث تقدم كل فرقة ثلاث ليال ، وحيث تقدم كل قاعة مسرحية مابين عرضين إلى أربعة نهاراً ومساء . فهكذا يتمكن المحكمون والنقاد والجمهور وأعضاء الفرق من مشاهدة كل العروض فتتم الفائدة .

٣ - أما بالنسبة للجنة النقاد ، فلست أدرى معنى لوجودها على هذا النحو ، ففلسفة نتائجها مطابقة لفلسفة لجنة التحكيم وأن اختلفت فى بعض النتائج ، فقد سيطر على مفاهيمها أفكار جمالية شمالية غربية ، فلم يقدر أعضاؤها فنون الشعوب فى فنزويلا والفلبين وأرمينيا واليابان وسنغافورة حق قدرها ، ولعلها فى العام القادم تتدارك هذا الأمر حين تقر بأن فى العالم ثقافات وفنون أخرى غير أوروبا وأمريكا ، وحين تستقل عن تأثير ذوق وأحكام لجنة التحكيم ، بل وحين تستقل عن الوزارة فتنبع من جمعية للنقاد أو نقابة المهن التمثيلية ، وحين يضاف اليها بعض النقاد الشباب مثل الدكاترة . أحمد العشرى ومحسن مصيلحى وسامح مهران ومحمد شيحه وعطية العقاد ومصطفى يوسف ، لعل هؤلاء يستطيعون الموازنة مع الصحفيين الذين يشكلون أغلبية هذه اللجنة ، وليس مطلوبا منها أيضا صياغة نتيجة منافسة (صورية) للجنة التحكيم ، بل أمامها تتنكب أسلوبا آخر هو التقرير النقدى الذى يثبت اتجاهات آراء النقاد وميولهم وتصويتهم وحيثياتهم دون الخروج بترتيب وجوائز ، تماما كما فعلت لجنة التحكيم فى المهرجان الثانى للمسرح الحرّ .

سادسا : استدراك هام

إن الكلام عن « التجريب » المسرحى فى مصر يصبح كسحق الماء فى الهون ، طالما أن مسرحنا يموت ، وطالما يخنقه البيرقراطيون والانفتاحيون ، وإذا ظن أحد أن « التجريب » محاولة للاصلاح بنقل الدم ، فإنه واهم ، وأرى أن تضع الوزارة همها المسرحى الأساسى فى إصلاح المسرح المصرى .



مع الاحتفال بالعيد المئوى
للهلال ـ صدر
الهلال
١٠٠ عام من التنوير
والتحديث
بقلم
أحمد حسين الطماوى
الثمن ٥ جنيهات
يطلب من مكتبة دار الهلال والمكتبات الكبرى

العروبة فكرة المستقبل أم من بقايا الماضى ؟ !

بقلم : المفكر العربى منح الصلح

يتعاظم – منذ تراكم الهزائم العربية وخاصة بعد حرب الخليج – الشك بالعروبة كهوية قومية جامعة ، وكفكرة نهوض فى الوقت عينه ، ويتخذ الشك طابعاً هجومياً عند فريق واسع من دعاة اتخاذ الدين أساساً للعمل السياسى ، فهؤلاء يقولون إن العروبة لم تكن إلا سلاحا رفعته أطراف عديدة ، أجنبية أساساً ، فى وجه آخر دوله تقوم على مبدأ الخلافة الاسلامية ، هى الدولة العثمانية ، ومنهم من يشير إلى دور كبير لعبه عرب غير مسلمين فى طرح الفكرة العربية ، والترويج لها ، وتصويرها بأنها طريق الانقاذ ، حتى إذا سقطت دولة الخلافة ارتد هؤلاء عن الدعوة إلى وحدة العرب إلى التمسك بالكيانات العربية القطرية ، بل القول بتقسيمها إلى دويلات صغيرة ، أضيق من هذه الكيانات .

والواقع أن من ينظر إلى نشأة القومية العربية يرى أنها لم تظهر قبيل الحرب العالمية الأولى إلا بعد أن ساد الشعور بفشل دولة الخلافة العثمانية ، واتجاه العنصر التركى القيادى لهذه الدولة إلى إحلال الطورانية ، أى التركية الموسعة ، محل الإسلام كقاعدة للإمبراطورية ، فقامت عندئذ من داخل المجتمع الإسلامى العربى حركة تنادى بالعروبة كراية يجتمع حولها العرب لبناء كيان موحد كبير قادر على مكافحة خطرى الاضمحلال والاحتلال . والهدف من العروبة ، كان الهدف نفسه لدعوة الجامعة الاسلامية ، أى الدفاع عن المنطقة وتأكيد وحدتها التاريخية والجغرافية ومنع تفتيتها

على يد الدول الغربية الاستعمارية .

وقارىء وقائع المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ يجد أن الشعار المرفوع في هذا المؤتمر هو : الصمود في وجه الاحتلال والاضمحلال . والمقصود بالاحتلال الغزو الغربي الاجنبي - الانجليزى والفرنسي بخاصة - الذى كان في مرحلة التحضير للسيطرة المباشرة على البلاد العربية بعد إزالة السلطة العثمانية عنها ، وبالاضمحلال الوهن والتفسخ الباديين على طريقة العثمانيين في السلطة ، فالعروبة بهذا المعنى هي حركة موجهة في آن معاً ضد الطمع الغربي والتخلف الشرقي .

وهناك إشكال قام في هذا المؤتمر حول مشاركة المصريين فيه ، فقد تقدم طالبان مصريان ، كانا يدرسان في باريس ، بطلب الاشتراك في المؤتمر ، أسوة بالعراقيين والسوريين وأبناء الجبل اللبناني ، فرفض طلبهما ، فلما سألا رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوى : هل تعتبرون المصريين عرباً ، أم لا ؟ كان الجواب من الرئيس والأعضاء أن المصريين في عرف المؤتمر هم عرب شأنهم شأن غيرهم ، ولكن المؤتمر منعقد لبحث مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية ، وعلى هذا الأساس رؤى من الحكمة والواقعية أن تقتصر العضوية على عرب بلاد الشام والعراق والمشرق العربي .

ومما يؤيد كون المصريين مشمولين فعلاً بالمشروع القومي العربي ، أن القاهرة كانت منذ ذلك الزمن ساحة نشاط قومي عربي ، اشترك فيه عدد من المصريين إلى جانب اكثرية من عرب بلاد الشام ، والسبب واضح هو أن المصريين كانوا يعتبرون دفع الاحتلال الاجنبي هو الاولوية .

وصحيح أن نسبة المسيحيين الشوام المشاركين في الحركة العربية كانت واسعة وأن المشاركة المصرية كانت ضيقة وأن بعض رموزها كانوا على اتصال بأعداء الدولة العثمانية من الانجليز والفرنسيين ، إلا أن هذا لايبدل من أن الحركة العربية ، كظاهرة اجتماعية تاريخية ترمي إلى توحيد البلاد العربية ونهوضها ، مركبة موضوعياً من عنصرين ؛ الأول القيم والذاكرة المشتركة بين العروبة والإسلام ، والثاني الاستجابة لتحديات العصر والحضارة الحديثة من مفاهيم ونظريات وانجازات مادية ملموسة ، يشكل التفاعل معها شرطاً للنهوض بل للوجود نفسه . فالعروبة بمعناها العميق والموضوعي، هي الإسلام زائداً العصر ، ومانشهده الآن من رفض لها سواء من إسلاميين غير عروبيين أو ليبراليين إقليميين هو تراجع عن مستوى مثله وتمثله كطريق إنقاذ للأمة .

ذلك أن الاسلاميين من دعاة جعل الدين أساساً للعمل السياسي يرفضون بشكل أو آخر العصر الذى يعيشون فيه ولايقدمون ما تقدمه العروبة من صيغة للتفاعل مع إنجازاته وقدراته النظرية والتطبيقية ، العلمية والتقنية . والليبراليون والإقليميون

لايمثلون لشعوبهم مايمثله الاسلاميون والعروبيون من دفء القيم والذاكرة والهوية التاريخية .

إن مانسمعه اليوم من أصوات رافضة للعروبة هو فى الحقيقة خطوة إلى وراء تلبس عند البعض لباس الانتماء إلى التاريخ وعند البعض لباس الانتماء إلى العصر ، بينما تشكل العروبة مشروع انتماء للتاريخ والعصر معاً .

على أن هذا ينبغى ألا يجعلنا تنكر وجوب التساؤل الدائم حول علاقة العروبة بالعصر . وفى ندوة «دار الهلال - من أجل مائة عام جديدة من التنوير والتحديث» كان بين الموضوعات المبحوثة «الإسلام والعصر» . ولست أدرى إذا كان موضوع من هذا النوع يمكن الوصول به إلى نتيجة، لأن الاسلام السياسى وهو المقصود بالموضوع - وليس الاسلام كدين - يرفض استقلالية الدوائر الثلاث ، أى دائرة العلم ، دائرة الدين ودائرة الوطن ، والعصر كله قائم على هذه الاستقلالية . بالمقابل هناك مجال واسع ومطلوب للخوض فى موضوع «العروبة والعصر» مما لم يكن مطروحاً بشكل مباشر وصريح فى الندوة .

وفى طبيعة ماتجب معالجته هنا ، موضوع العروبة والديمقراطية أو إذا صح التعبير ، الحاجة إلى ديمقراطية عربية .

تذكرنا هذه الكلمة بكلمة الاشتراكية العربية غير الموفقة ، بل البائسة ، التى راجت فى يوم من الأيام ، وكان القصد بها تخفيف وقع الاشتراكية على قطاعات معينة من المجتمع ، أو التهرب من الالتزام بالتطبيق الكامل لفكرة جامدة ، استبقاء للمرونة وحرية الحركة ، أو مجرد الرغبة فى دفع كل نشاطات الدولة بلفظة «عربى» الجذابة فى مرحلة ما .

وأقل بؤساً من لفظة اشتراكية عربية فى رأيى ، لفظة علمانية عربية التى اقترحها، شخصياً ، بديلاً عن العلمانية وحدها التى أصبحت تحمل فى بلادها معنى معادياً للإسلام ، أو على الأقل ، ضيقاً بكل هذا التراث المشترك من القيم والذاكرة الجامع بين العروبة والاسلام . فاذا كنا نرى الأخذ ببعض جوانب الفكرة العلمانية ، فلابد من أن نميز منذ البدء بينها وبين مدلول كلمة علمانية فى الغرب ، وعند بعض الاحزاب الموجودة فى البلاد العربية والمعروفة بالعداء للفكرة العربية والدين الاسلامى معاً . وقد يكون من واجب المفكرين التوسع فى بحث العلاقة بين الاسلام والعروبة والتأكد من إمكانية اعتماد لفظة علمانية عربية كمفهوم ومضمون غير عدوانيين لتراثنا القومى والدينى أما الديقراطية العربية ، فالمقصود بها الإشارة إلى بعض المشاكل الخاصة التى يفرضها المجتمع العربى وخصوصياته .

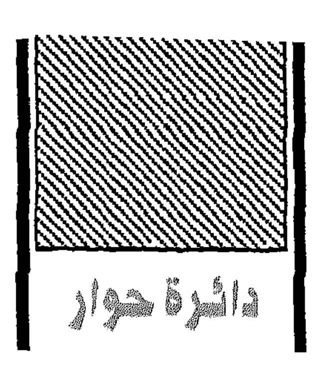
الديمقراطية فى البلدان المتقدمة هى علاقة المواطنين بعضهم ببعض على أساس الحرية والمساواة والكرامة ، وعلاقة الفرد بالدولة والمجتمع على الأساس نفسه .

أما في بلادنا فلابد من أن تكون هناك علاقة ديمقراطية بين فئات داخل المجتمع نفسه كالطوائف والمذاهب والعناصر ، وبعض هذه غير منصهر تماماً في المجتمع بسبب نقص دينامية مجتمعاتنا . فالتأمرك مثلاً – أى أن يصبح المواطن أمريكياً – عملية سهلة ، وتتم بسرعة بفعل قوة المجتمع وثرائه وحيويته ، بينما الأمر ليس كذلك في البرازيل ، وهذا يعنى انه إذا كانت الديمقراطية بين الافراد كأفراد كافية فى المجتمع الأمريكى ، فهى غير كافية فى البرازيل حيث ينبغى أن تقوم إلى جانب ديمقراطية التعامل بين الافراد والافراد الآخرين ، والافراد والسلطة ، ديمقراطية فى التعامل بين جماعات وتكتلات متفرقة . ونحن إذا أخذنا العالم العربى ككل فى حالة مماثلة إذ إنه فى لبنان والمغرب والسودان وربما فى معظم البلدان العربية أيضاً ، لابد من مواثيق وفاقية بين الجماعات تكون ركيزة لأى مشروع ديمقراطى . وكل ديمقراطية تنشأ فى بلادنا ولاتأخذ بعين الاعتبار «التعدد» ، لاتكون ديمقراطية ، أياً كان حكم العدد والاقتراع .

وبالاضافة إلى الديمقراطية فى التعامل بين الجماعة والجماعة ، والأكثرية والاقلية توجب الديمقراطية فى بلاد عربية، أن تكون هناك علاقات ديمقراطية بين الدول والحكومات . ومن صلب الديمقراطية أن لايتحكم فارق الحجم أو فارق الثروة أو فارق القوة فى النظام فى العلاقات العربية . فالحكومات العربية يجب أن تكون متساوية بمعنى ما ، ومحفوظة الكرامة والاستقلال والدور كبرت أم صغرت ، وهذه الديمقراطية فى العلاقات بين الحكومات والدول ليست أقل ضرورة قومية من أى مقوم آخر من مقومات القومية .

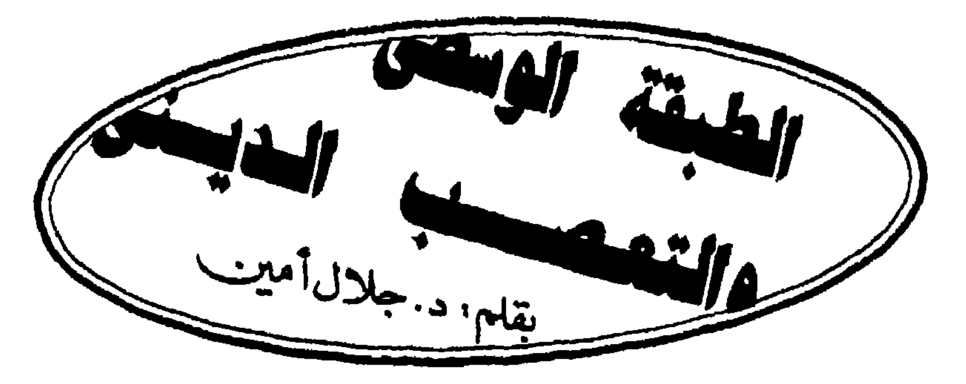
إن هذين النوعين من التعامل الديمقراطى ، ذلك المتعلق بالفئات والمجموعات والاقليات ، وذلك المتعلق بالعلاقة بين الحكومات بعضها ببعض هما شرط عضوى من شروط الحياة القومية . وبهذا المعنى نؤكد وجود خصائص بالديمقراطية العربية ، لايجوز أن تهمل ، وإلاّ انهار المشروع القومى للعروبة . فلا يكفى أن نردد فى المجتمعات كلمات الحرية والديمقراطية والحقوق الشخصية والعامة ، فهذه كلها بعض ما نحتاجه وليس كل مانحتاجه . وشرطا الوفاق الوطنى على أساس التعامل الديمقراطى بين الفئات الداخلية ، والوفاق القومى القائم بين الاقطار والحكومات هما من الديمقراطية العربية فى الصميم بل بدونهما لا ديمقراطية صحيحة المعنى ، وصادقة وإن تأمنت كل المقومات والشكليات الاخرى .

إن العروبة الحديثة ليست بقية حضارية من الماضى ، ولكنها حركة للمستقبل ، هكذا كان الأمل فيها عندما ولدت ، وهكذا هو التحدى الدائم لها فى وجه كل الدعوات الطامحة الآن لمنافستها .



الطبقة الوسطى الصغير وتطور دورها السياسى . !

ا : د. يونـان لبيب رزق



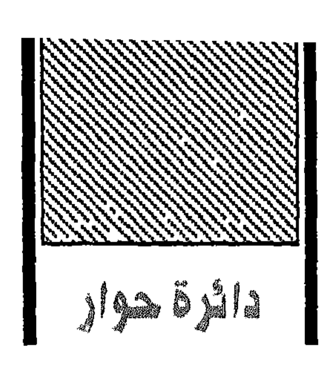
مستقبل الطبقة الوسطى في ظل الظروف الدولية الجديدة

بقلم : محمد سيد أحمد

لست بصدد تأصيل الطبقة الوسطى نظريا، بصفتها شريحة إجتماعية بالغة الأهمية فى كل المجتمعات. ولكنى بصدد محاولة تحديد معالم لهذه الطبقة. وخواص لها ذات دلالة فى مجتمع مثل المجتمع المصرى. ولا أطمع فى مثل هذه العجالة أن أكون "جامعا مانعا". ولكنى أريد أن أركز فقط على بعض الاشكاليات الجديرة بجذب انتباهنا، فى ظرف تعاظم فيه شأن هذه الطبقة كما لم يحدث من قبل، وفى ظرف قد تتعرض فيه لتمزقات قد لا تكون فى الحسبان !

فعند الحديث عن الطبقة الوسطى، نعنى فى الواقع مفهوما له شقان: شق يتعلق بمصطلح "الطبقة" عموما، وشق يتعلق بمصطلح الطبقة "الوسطى" تخصيصا. فإن مفهوم "الطبقة" إنما يرجعنا إلى مفهوم للمجتمع قائم على أن إنقسامه إلى "طبقات" هو أبرز ما يميزه. ومفهوم "الطبقة الوسطى" لايتحدث عن طبقة بعينها وحسب، وإنما يتحدث عنها منسوبة إلى طبقات أخرى. تلك التى تقف هذه الطبقة منها موقف "الوسط". أى إننا بصدد طبقة "فوقها" طبقة اجتماعية و"دونها" طبقة اجتماعية أخرى !

وأبرز نظرية تعرضت "للمفهوم الطبقى للمجتمع" هى كما نعلم جميعا الماركسية، المبنية على فكرة "صراع الطبقات". بيد أن هذه الطبقات المتصارعة هى، حسب الماركسية، قبل أى شئ آخر، الطبقة "العليا" والطبقة "الدنيا" أى الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة، بينما الطبقة "الوسطى"، على ما لها من وزن اجتماعى، هى - حسب الماركسية - طبقة تابعة فى التحليل الأخير للطبقتين الأساسيتين المتصارعتين فى المجتمع.. إنها طبقة لا تقوم بذاتها، كما يشهد بذلك اسمها. وإنما هى طبقة توجد بقدر قصور الطبقتين الأساسيتين عن "احتواء" كل مكونات المجتمع.. إنها طبقة المجتمع "المتبقية" RESIDUAL بعد استنفاد ما هو منسوب إلى الطبقتين الأساسيتين، الطبقة التى لم ينلها الاستقطاب الطبقى.. ولأنها طبقة لا يتصور قيامها قياما مستقلا، فلا تكون لها



قيم تجمعها كلها، وتميزها عن غيرها، وتكسبها ملامح خاصة.. وهذا يطرح إشكالية تخص بالذات المجتمعات النامية بوجه عام، والمجتمع المصرى بوجه خاص: ماذا فى حالة بروز مجتمع يتميز بانزواء قيم "الطبقة العليا"، وانزواء قيم "الطبقة الدنيا"، وتكون "الطبقة الوسطى" هى الأكثر بروزا فى الساحة؟ ماذا عن مجتمع يبدو وكأنما هو مشكل فقط من الطبقة الوسطى؟!

طبقة جديدة.. جديرة بالبحث

بديهى أننا لا نعنى بهذا التصور اختفاء الطبقتين، العليا والدنيا. فذلك غير وارد، تماما كما أنه غير وارد أن يوجد "مجتمع نقى" من وجهة النظر الماركسية كل "النقاء"، بمعنى أن تصبح الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة هما الطبقتان الوحيدتان فى المجتمع!.. ذلك أن التصورات النظرية فيها دائما قدر غير قليل من التبسيط المخل، ولو بقصد استكشاف قوانين المجتمع العامة، وتحاشى الغرق فى التفاصيل.. فليس واردا اختفاء طبقات بكاملها، حتى إذا ما اتسمت بسمات تختلف عن تلك التى تصف نفسها بها.. ولكن الشئ المحقق هو أن هناك ما يبرر طرح إشكالية أن تبرز طبقة، لا هى الطبقة العليا ولا هى الطبقة الدنيا، بصفتها القادرة على احتلال مقدمة المسرح، وأن تطبع المجتمع بقيمها، وأن تصبح هى المهيمنة أيديولوجيا. وهى إشكالية جديرة بأن نمعن النظر فيها.

فلقد أبرز مقال الدكتور يونان لبيب رزق عن "الطبقة الوسطى الصغيرة وتطور دورها السياسى فى مصر" (المنشور بـ"الهلال" فى عدد مارس ١٩٩٢) كيف أن ثورة يوليو قد ضمنت "للطبقة الوسطى" أن تحتل مقدمة المسرح فى المجتمع المصرى، وقد أزالت لدرجة أو أخرى هيمنة "الطبقة العليا" التى سادت طوال مرحلة النظام الملكى.. صحيح أن ثورة يوليو قد نسبت نفسها إلى "الشعب العامل" ككل، فى مواجهة "الرجعية" التى قصد بها "الطبقات العليا التقليدية". ولكن تشخيص أى نظام لا يكون بما يقوله عن نفسه، بل بما يقوله عنه مراقبون محايدون منزهون عن أى غرض.. وإذا ما إلتفتنا إلى منجزات ثورة

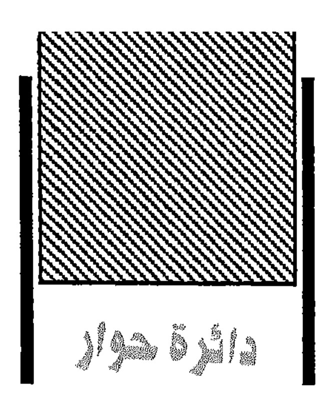


جماهير الشعب العامل أثناء خروجها ٩ - ١٠ يونية أثر إعلان الهزيمة

يوليو، بعيدا عن وصف النظام ذاته لهذه المنجزات ، فسوف نلاحظ مثلا أن قرار الثورة بمجانية التعليم قد فشل تماما فى محو الأمية . فلقد ظلت مرتفعة . وحسبنا الإشارة إلى هذا المؤشر الناطق لاستخلاص نتيجة لامناص منها وهى أن الثورة لم تكن تمثل الشعب بكل فئاته تمثيلا صادقا، بل كانت أقرب إلى تمثيل مصالح وتطلعات شرائح إجتماعية معينة حلت محل الطبقة العليا السابقة هى التى نصفها بالطبقة الوسطى.

إن إنتساب النظام إلى الشعب لا يعنى بالضرورة مشاركة الشعب فى السلطة.

فليس موضع جدال أن جمال عبدالناصر لم يكن يشرك الشعب فى القرار السياسى. لقد كانت قراراته "علوية". كانت الثورة "ثورة من أعلى".. صحيح أن جماهير الشعب العريضة قد أيدت الثورة بقوة، بالذات شرائح المجتمع "الدنيا" التى كان يمكن وصفها بـ"الشعب العامل". وثمة شواهد على ذلك لا تحتمل الانكار، مثل الخروج العفوى لجماهير غفيرة يومى ٩، ١٠ يونيو ١٩٦٧ أثر إعلان الهزيمة مباشرة، وفى يوم جنازة عبدالناصر.. ما من شك فى أن جماهير عريضة قد آمنت بأن عبد الناصر كان حريصا على



مصالحها، وكان على نحو أو آخر يمثلها، ولكن لم يكن يعنى ذلك أن عبدالناصر قد أشركها فى السلطة.

قيم الطبقة الوسطى مرجعا

لم تنجح الثورة فى إزالة وجود "طبقات دنيا"، ولكن كان لها دور بارز فى إنجاز عملية "إرتقاء اجتماعى"، أى عملية "حراك إجتماعى إلى أعلى" لفئات غذت فى النهاية شرائح الطبقة الوسطى.. لقد أصبحت قيم الطبقة الوسطى هى "المرجع". وقد اتضح الآن، فى ضوء تجربة البلدان الاشتراكية، أن حتى الاتحاد السوفيتى، وهو الدولة التى أنجزت ومنذ سبعين عاما ثورة وصفتها بـ"الاشتراكية"، لم يكن قد حقق المساواة بين مواطنيه وفق ما تطرحه الاشتراكية نظريا، وإنما كان هنـاك ما سمى بـ"النـومنـكلاتـورا" NOMENCLATURA أى المنتفعين بالانتماء إلى الحزب الشيوعى والتنظيمات الرسمية للدولة، وأن هؤلاء أيضا قد خلقوا "طبقة ممتازة"، "طبقة" ربما لم تكن تلبى مواصفات الماركسية للطبقة، ولكنها "فئة من المجتمع" احتلت مقدمة المسرح، وتيسرت لها منافع كثيرة لم تكن معممة لسائر أفراد الشعب. وإن صح ذلك بشأن أكثر تجارب الاشتراكية عراقة فى هذا القرن، فمن باب أولى فيما يتعلق بالتجارب الوطنية، التى لم تكن تدعى عن نفسها بأنها قد بلغت مرحلة اشتراكية متقدمة.

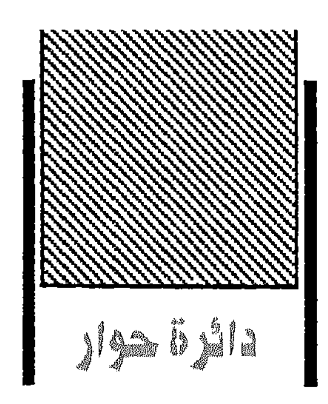
ومن السمات المميزة للطبقة الوسطى أنها تريد دائما أن تنسب إلى نفسها صفة "تمثيل المجتمع ككل"، ولا تريد أن تسلم بأنها فقط إحدى شرائح المجتمع وحسب. هذا تقليد ميز هذه الطبقة منذ الثورة الفرنسية، وجاءت كل الثورات الكبرى فى العصور الحديثة لتؤكده. إن الطبقة الوسطى بمجرد احتلالها مقدمة المسرح، لا تنظر إلى نفسها بصفتها فئة إجتماعية متميزة قد وصلت إلى الحكم، بل تنسب إلى هيمنتها على المجتمع صفة أنها "حكم الشعب"، وأنها بهذه الصفة تملك الحديث باسم الشعب، حتى بدون تفويض، حتى إذا ما لجأت إلى نظام سياسى تسلطى ودكتاتورى سافر. إنها المستفيدة من أن صوتها السياسى والاجتماعى عال، بينما ما هو قابع دونها فى السلم الاجتماعى

يشكل فى أغلب الأحوال "الأغلبية الصامتة"، الأغلبية غير القادرة على مزاحمة الطبقة الوسطى فى إسماع صوتها!.. وقد توجد تنظيمات سياسية تصف نفسها بأنها لسان حال هذه "الأغلبية الصامتة" ، ولكننا نجد، خاصة فى المجتمعات الوطنية، وفى أحوال كثيرة ، أن المتحدثين باسم هذه الفئات الدنيا إنما يشكلون هم أنفسهم نمطا خاصا ممن ينتمون إلى "الطبقة الوسطى"! نذكر على سبيل المثال، قيادات العديد من النقابات العمالية، والاتحادات الفلاحية، والجمعيات التعاونية....إلخ..

الطبقة الوسطى وانتسابها للاشتراكية

والجدير بالملاحظة أن الطبقة الوسطى فى مصر قد بدأت بالانتساب إلى أيديولوجية "اشتراكية"، واتخذتها تكأة لتضفى على نفسها صفة أنها تمثل المجتمع ككل فى صراعه ضد الطبقات القديمة المخلوعة.. ولكن لتنتهى - فى أعقاب وصولها إلى موقع الطبقة "المهيمنة" - إلى تبنى أيديولوجيتين تبدوان متناقضتين كل التناقض . فإحداهما هى الأيديولوجية الليبرالية ، والأخرى هى أيديولوجية سلفية.. بديلا - فى الحالتين - عن الأيديولوجية "الاشتراكية" التى بررت بها صعودها إلى مركز "طليعى" على رأس المجتمع وكانت مصدر "شرعية" هيمنتها السياسية عليه. وسؤال جدير بالطرح هو: إلى أى حد تتصف هاتان الأيديولوجيتان بصفة التعارض فى التطبيق العملى؟!

الجدير أيضا بالملاحظة أن الثورة - على الصعيد الدولى - قد انتسبت إلى فكرة "عدم الانحياز"، بل كانت مصر من الدول الطليعية فى الدعوة لها على صعيد العالم الثالث كله. وجوهر معنى "عدم الانحياز" هو رفض الانتماء إلى "الرأسمالية العالمية" وإلى "الاشتراكية العالمية" فى آن واحد.. أى رفض الانتساب إلى أيديولوجية "الامبريالية العالمية" وإلى أيديولوجية "الطبقة العاملة"، مما يحمل ضمنا معنى أن "عدم الانحياز" ليس أمرا يتصل بالسياسة الخارجية وحسب، بل وارد الاسترشاد به داخل المجتمع ذاته.. وفعلا، فإن الانطلاق من فرضية أن "الطبقة الوسطى" كفيلة باحتلال مقدمة المسرح، إنما تجد فى فكرة "عدم الانحياز" رمزا لهذا الواقع الاجتماعى، ولهذه "التشكيلة الاجتماعية"، والأيديولوجية ترفض معا أيديولوجية الرأسمالية وأيديولوجية الشيوعية ، وإن تبنت



"الاشتراكية"، فإنها "اشتراكية" سوف تتسم بخواص تميزها - وبحسم - عن الأيديولوجيتين العالميتين المعاصرتين.. أنها "اشتراكية" كفيلة بأن تسفر فى النهاية عن لون ما من الليبرالية، ولون ما من السلفية، دون أن يكون هناك تعارض ظاهرى!..

الأيديولوجية الدينية الراديكالية

وقد أبرزت مقالات سابقة نشرت فى "الهلال"، وبالذات مقال الدكتور جلال أمين فى هذا الصدد (عدد نوفمبر ١٩٩١)، أن الأيديولوجية السلفية إنما أصبحت جزءا من أيديولوجيات الطبقة الوسطى بحكم أن ما تحقق من ثروة لقطاعات واسعة من هذه الطبقة، بفضل الهجرة الكثيفة إلى بلدان النفط الخليجية، قد إصطحبها العمل داخل مجتمع سادت فيه القيم الدينية المحافظة، وأصبحت هذه القيم فى نظر المهاجرين إليها رمزا للخروج من مآزق "العوز" و"الحاجة" التى تعرضت لها من قبل فى موطنها الأصلى.. كما أن الأيديولوجية الدينية الراديكالية قد عبرت عن الإحساس بالإحباط إزاء استمرار وتجدد وتعمق هوة التباينات الاقتصادية والاجتماعية. وأصبح التطلع الى "مجتمع إسلامى فاضل"، نموذجه فى ماض بعيد، ويقوم على الزهد والتقشف، شكل من أشكال الاحتجاج على ظاهرتى الفساد والافساد اللتين انتشرتا مع نمو فئات اجتماعية ذات صفة طفيلية من جراء تفشى ما يمكن وصفه بـ"الريع النفطى"..

وعلى نحو ما، بوسعنا القول بأن التيار السلفى الراديكالى قد يعبر عن "سخط" و"تمرد" الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى ازاء فئاتها العليا التى أصبحت تحتل فعلا مقدمة المسرح، تماما كما أن أيديولوجيات "متمردة" كثيرة، منها الأيديولوجية الوطنية، ومنها "الاشتراكية"، تبنتها الطبقة الوسطى فى صراعاتها ضد الطبقات العليا فى مجتمع ما قبل الثورة..

ولكن السؤال الجدير بالطرح فى النهاية هو ما احتمال اكتساب هيمنة قيم الطبقة الوسطى على المجتمع صفة الدوام؟.. هل من الممكن تصور استمرار هذه "الهيمنة" فى ظل الظروف الدولية الجديدة، ظروف عالم ما بعد "النظام

الدولى الثنائى القطبية"؟.. ولطرح سؤالنا على نحو آخر، نقول: إذا صح أن "هيمنة الطبقة الوسطى" كانت ، على نحو ما، تعبيرا ـ على الساحة الداخلية ـ عن موقف له "وجه تماثل" مع موقف "عدم الانحياز" على الساحة الدولية، فهل هناك ما يبرر القول بأن زوال المواجهة بين عالمى الاشتراكية والامبريالية دوليا سوف يستتبعه زوال هيمنة قيم وأيديولوجية الطبقة الوسطى على المجتمع داخليا ؟

الخصخصة وظهور طبقة جديدة

فإن هناك ما يبرر القول بأن ظاهرة "الخصخصة" وآلياتها انما لابد أن تنتهى إلى بروز "طبقة عليا" جديدة، بسمات قد تختلف كثيرا عن "الطبقة العليا" القديمة، ولكن لايجادل أحد فى أنها ذات صفات رأسمالية صميمة، ومعنى ذلك تخلص "الطبقة العليا الجديدة" من كثير من صفات "التلفيقية" التى ميزت "أيديولوجية" الطبقة الوسطى طوال الحقبة الماضية.. إذ كان من الممكن للطبقة الوسطى أن تطرح نفسها كطبقة تنطوى على حد أدنى من التجانس طالما انتسبت إلى قيم "اشتراكية"، ولكن لم يعد هذا واردا فى عالم أصبح لا يعتبر الاشتراكية أيديولوجية ذات مصداقية..

معنى ذلك أن الفئات العليا من الطبقة الوسطى سوف تندمج ـ عبر عملية "الخصخصة"، ومن خلال "آليات السوق" ـ فى "النظام الرأسمالى العالمى الجديد"، بينما فئاتها الدنيا سوف تتجه لتصبح قوى يتعذر استمرار "احتوائها" اجتماعيا بدعوى أن "الشعب" مازال هو "المهيمن على الحكم"!.. سوف تصبح هذه الفئات الدنيا ـ مع تخلى المجتمع عن أوجه شتى "للتأمين الاجتماعى" وتعاظم انتشار البطالة ـ مرتعا خصبا لتفشى أيديولوجيات متطرفة يتخذ الكثير منها صورا "منفلتة".. ولابد، فى غياب قوى تزاول المعارضة من موقع أيديولوجيات تنسب نفسها إلى العلم والعقلانية، من أن يتعاظم شأن التطرف باسم الدين.. ولذلك جاز القول بأن "هيمنة قيم الطبقة الوسطى" كضمانة ضد "الصراع الطبقى" هو ادعاء ينطوى على مغالطة، ويحمل فى طياته أخطارا جسيمة.. وربما كان لهذه "الهيمنة" دور مخفف للصراع الاجتماعى طوال حقبة تاريخية محددة، حكمتها ملابسات تاريخية معينة، ولكنها ليست بالظاهرة المكتوب لها الدوام .

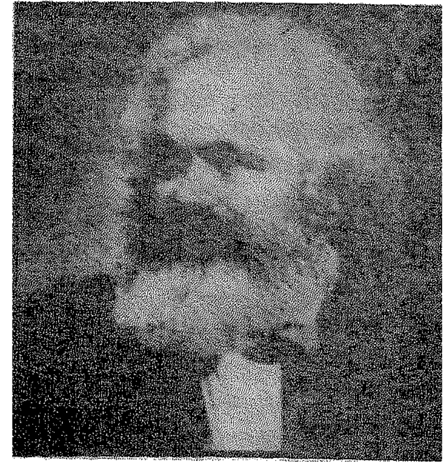
خمسة قرون من فكر التنمية

التنمية الرأسمالية كشرط للاشتراكية

بقلم : د . جلال أمين

ربما وجد أبناء العالم الثالث اليوم فى كتابات الإقتصادي الألمانى « فردريك ليست » - الذى كان يكتب منذ نحو قرن ونصف - ماهو أقرب الى مشاكلهم مما يجدون فى كتابات آدم سميث البريطانى ، لمجرد أن « ليست » كان يكتب فى دولة كانت « متخلفة » فى ذلك الوقت ، بالمقارنة ببريطانيا . ولكن لا فردريك ليست ولا آدم سميث كانا يبديان أدنى اهتمام بهذا الجزء من العالم الذى نسميه اليوم « العالم الثالث » .

ولم يكن هذا الإهمال غريباً . لم تكن أوربا تعرف الكثير بعد عن تلك المناطق الغريبة من العالم التى كثيرا ما كان يشار اليها بذلك اللفظ الغامض « الشرق » دون تمييز كاف بين الصين وجيرانها ، أو بين العرب والفرس . لم تكن دراسات علماء الأنثرو بولوجيا قد بدأت على أى نحو جدّى بعد ، وإنما كانت هناك فقط كتب لبعض الرحالة المغامرين ، التى يختلط فيها حب المبالغة فى تصوير غرائب هذا الجزء غير المعروف من العالم ، بالنزعة الأدبية ، على حساب الوصف الدقيق للواقع ، ومختلطة



كارل ماركس



آدم سميث

أيضا بالشعور بالتعالي والرغبة في تحقير ما لم يلحق بالحضارة الأوربية .

الأكثر غرابة ، وإن لم يكن من الصعب تفسيره ، هو موقف الفكر الماركسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، من قضية تنمية العالم الثالث ولحاقه بركب الحضارة . فالفكر الماركسي مقترن دائما في أذهاننا بالانتصار للمستضعفين في الأرض ، وكراهية الاستعمار ، واعتبار الاستعمار عاملا معطلا لتنمية العالم الثالث ونهضته ، ولكن الحقيقة مع ذلك ، هي أن الفكر الماركسي ، قبل لينين ، كان أقرب إلى اعتبار الاستعمار الأوربي للعالم الثالث « خطوة الى الأمام » أكثر منه عاملا معطلا للنهضة والتنمية .

إن ماركس كان ينتقد أعمال الانجليز في الهند والفرنسيين في الجزائر ويشجب استغلال هؤلاء وأولئك للشعوب المقهورة هنا وهناك ، ولكن منطقه العام ، ونظريته في المادية التاريخية كانتا تدفعانه إلى النظر إلى وجود الانجليز في الهند أو الفرنسيين في الجزائر على أنه عامل مساعد على وصول الطبقات العاملة في الدولتين إلى التحرر النهائي من أغلالها . تفسير ذلك هو نظرة ماركس إلى التاريخ على أنه انتقال حتمي من مرحلة إلى أخرى يفرضه التطور في قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج . وهو قانون حديدى لا فرار منه ومن العبث تصور أن من الممكن تغييره . فالشيوعية البدائية يعقبها الرق ، والرق يعقبه الإقطاع ، والإقطاع تعقبه الرأسمالية ، ولا مفر بعد ذلك من قيام الثورة الاشتراكية التي تضع حداً لآلام البشر . والذى يفرض هذا التحول من نظام إلى نظام ، التطور

فى قوى الإنتاج ، أى فى أساليب الإنتاج ومستوى المعرفة التكنولوجية السائدة ونوع السلع المنتجة ، فإذا تغيرت هذه القوى فلابد أن تتغير علاقات الإنتاج ، أى العلاقات الاجتماعية المتعلقة بملكية وسائل الإنتاج وتوزيع الدخل والثروة . « الطاحونة الهوائية تعطيك النظام الإقطاعى ، والمصنع الآلى يعطيك الرأسمالية » ، هكذا يلخص ماركس فى جملة واحدة جوهر المادية التاريخية . فإذا كان الأمر كذلك حقا ، وكانت الاشتراكية هى الأمل النهائى للطبقات العاملة المستغلة ، وإذا كان مجىء الانجليز إلى الهند أو الفرنسيين إلى الجزائر يعجّل بانتقال الهند والجزائر من الإقطاع إلى الرأسمالية ألا يقربهما ذلك من النهاية السعيدة وهى الإشتراكية ؟ أى أنه إذا كان من المستحيل أن تقفز أمة من الإقطاع إلى الإشتراكية مرة واحدة ، وإذا كان الإستعمار هو الذى يدخل هذه الأمة عهد الرأسمالية ، ألا يكون هذا الاستعمار، مع كل شروره وفظائعه ، نعمة على هذه الأمة ؟

إذا تجاوزنا قليلا عن قضية توزيع الدخل والاستغلال ألا نرى فى هذا الموقف الماركسى المبكّر ، موقفا قريبا جدا من موقف الاستعلاء الأوروبى على الشعوب غير الأوربية ؟ وإذا استبدلنا بكلمة « الرأسمالية » ، عبارة « الحضارة الأوربية » أفلا يبدو ماركس وكأنه يلقى درسا على شعوب العالم الثالث يحاول فيه إقناعها بأن انتشار الحضارة الأوربية فى العالم بأسره شئ لامفر منه، والأجدر به قبوله كحتمية تاريخية ، وأن دخول هذه الحضارة أراضيها ، مهما كان ما اقترن به من شرور، هو أفضل لها من أن تظل إلى الأبد فى حالة من الركود والتخلف المقيتين ؟

إن الماركسية التقليدية لم تكن تبدى فى الواقع (فى حدود علمى) أى تعاطف حقيقى مع قضية الاستقلال الثقافى ، أو المحافظة على الهوية أو الذاتية الحضارية للشعوب غير الأوربية . وكان هذا الموقف بدوره ، نتيجة طبيعية لمنطق المادية التاريخية . فكل الخصائص الثقافية ، من عادات وتقاليد وقيم أخلاقية وعقائد دينية وسمات خاصة للفنون ونمط الحياة .. الخ ، هى فى نظر ماركس من قبيل « البناء العلوى » الذى يقوم على أساس اقتصادى هو « البناء السفلى » ، والذى يتكون بدوره من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج . فالبناء العلوى يتشكل بشكل البناء السفلى ويعكس أي تغيرات جوهرية فيه . الناس تفكر على النحو الذى يمليه عليهم اقتصادهم ، والحياة الثقافية هى فى الأساس انعكاس لحياة الناس الإقتصادية . قل لى كيف يشبع الناس حاجاتهم ، وما الذى ينتجونه، وكيف ينتجونه (قوى الإنتاج) ، وما هو نظام الملكية عندهم ، ومن الذى يستغل من وكيف يستغله (علاقات الإنتاج) ، أخبرك بنوع الثقافة السائدة فى هذا المجتمع ونوع القيم السائدة فيه . يترتب على هذا بالضرورة ، حتى اذا لم يقله ماركس بهذا الشكل ، أنه إذا كان الأساس الاقتصادى متخلفا ، كانت الثقافة « متخلفة » كذلك ، وكأن من الممكن إذن أن نصف نظاما ما

للقيم والأخلاق والفنون بأنه نظام أرقى أو أكثر تخلفا من غيره ، تماما كما أن من الممكن أن نصف مستوى معينا من التكنولوجيا بإنه أكثر تقدما أو أكثر كفاءة من غيره .

إن هذا الموقف يصعب علينا جدا قبوله اليوم ، والحقيقة أن ماركس وإنجلز كانا بذلك الموقف ، مع كل نقدهما للرأسمالية ومع كل إدراكهما لشرور الثورة الصناعية ، يعكسان نفس الانبهار بإنجازات الثورة التكنولوجية ونفس التمركز على الذات الأوربية اللذين سادا القرن التاسع عشر . كما أنه باستثناء إشارات جدّ قليلة إلى مجتمعات غير أوربية، كانت قضية النمو الاقتصادى ومشاكله ، فى نظرهما ، هى قضية النمو الإقتصادى ومشاكله فى أوربا ومشاكل التاريخ والحاضر والمستقبل ، هى مشاكل التاريخ الأوروبى وحاضره ، ومستقبله .

● إهمال التنمية

المدهش حقا أنه خلال مايزيد على سبعين عاما تلت ظهور كتاب رأس المال لكارل ماركس (١٨٦٧) توارت قضية النمو الاقتصادى والتنمية تواريا يكاد يكون تاما من الكتابات الاقتصادية ، وكأن قضية النمو لم تعد تهمّ أحدا ، ليس فقط فيما يتعلق بالتنمية فى خارج أوروبا بل وحتى فيما يتعلق بأوربا والعالم الغربى نفسه . بدا وكأن الاقتصاديين قد حولّوا اهتماماتهم الى أشياء مختلفة تماما ، وكان هذا هو ما حدث بالفعل . فالمدرسة الحدّية النمساوية ، وممثلوها فى بريطانيا والولايات المتحدة ، منصرفون منذ ١٨٧٠ إلى الحديث عن أشياء غريبة ، لا تتعلق بالاقتصاد القومى أو تراكم رأس المال أو علاقة السكان بالأرض الزراعية أو التقدم التكنولوجى بل بأشياء أصغر كثيرا وأقل اثارة لاهتمام القارىء غير المتخصص ، كنظرية الاستهلاك وتوازن المستهلك ، والمنفعة الحدية وتناقصها ، والعوامل المحدّده لسعر سلعة ، ولماذا كانت هذه السلعة أغلى أو أرخص من تلك . انصرف الاقتصاديون عن قضية زيادة الموارد المادية والبشرية المتاحة للمجتمع ، إلى قضية توزيع هذه الموارد بين الإستخدامات المختلفة ، ومن ثم لم تعد زيادة « ثروة الأمم » هى مثار الاهتمام بل محدّدات العرض والطلب ودور جهاز الثمن فى توجيه هذه الثروة إلى إنتاج هذه السلعة أو تلك .

استمرّ هذا الإهمال لقضية التنمية مع استثناءات قليلة للغاية ، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ولأسباب تتعلق بالواقع والتاريخ الاقتصادى أكثر مما تتعلق بعوامل فكرية فمن ناحية ، كان قد اتضح مع مرور الزمن أن الثورة الصناعية التى انتصرت فى البداية على بريطانيا قد امتدت مع انتصاف القرن التاسع عشر لتشمل فرنسا والمانيا، ثم سرعان ما امتدت إلى الولايات المتحدة فى أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية فى الستينات من ذلك القرن ، ثم امتدت إلى دولة بعد أخرى من دول أوروبا الغربية ، حتى ساد الشعور ،

وبحق ، بأن النمو الاقتصادى فى الغرب أصبح شيئا مضمونا وتلقائيا ولا يحتاج إلاّ لمرور الوقت للاكتمال والنضوج . أصبح النمو الأقتصادى السريع فى الغرب من قبيل الأمور الواقعة بالفعل ، والذى هو حادث بالفعل لا يحتاج لإعمال الفكر للتساؤل عن كيفية إحداثه ، ومن ثم لم تعد قضية التنمية فى الغرب تشغل الاقتصاديين كما شغلتهم ، قبل ذلك بقرن أو قرنين من الزمان .

أما ذلك الجزء من العالم ، سيىء الحظ، الذى لم تصبه شرارة التنمية ، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، فقد كانت هذه السبعون عاما بالنسبة له ، هى عصر الإستعمار التقليدى ، تقاسمت فيه حفنة من الدول الأوروبية ، ثم أنضمت اليها الولايات المتحدة ، استغلال موارده الطبيعية والبشرية ،وخضعت معظم شعوبه للاحتلال العسكرى المباشر ، لم يكن يتُصوّر إذن أن يهتم اقتصاديو الغرب، فى ذلك العصر ، بقضية تنمية هذا الجزء البائس من العالم ، بل كان أقصى ما يمكن أن يحظى به هذا الجزء من العالم من اقتصاديى وسياسيى الغرب هو بحث أحكم الأساليب « لإدارة المستعمرات » ، وهذا شيء والتنمية شيء أخر .

لم يعد من الممكن تفسير إهمال قضية التنمية ، لهذا الجزء المستعمر من العالم ، بالقول بأن مفكرى الغرب لم يكن لديهم دراية كافية بأحوال إفريقيا وآسيا ، كما كان الحال قبل قرن من الزمان ، فقد شهدت هذه السبعون عاما ظهور دراسات متعمقة لأحوال هذه الشعوب وخضعت لغاتها للبحث المتأنى والمستفيض ، ونشط علماء الأنثروبولوچى فى دراسة ثقافاتها وتقاليدها . لم يكن الجهل إذن هو سبب إهمال التنمية ، بل مجرد أن تنمية هذه البلاد، بالمعنى الذى نفهمه الأن ، لم يكن يتفق بأية حال مع مصالح الدول المستعمرة. فزيادة درجة التصنيع تتعارض مع مصلحة الدولة المستعمرة فى تصريف سلعها أو فى استغلال المواد الأولية المتاحة فى المستعمرات أو فى كلا الأمرين ، والتصنيع إذ يرفع مستوى الأجور يتعارض مع مصلحتها فى استغلال القوة البشرية ، ولا مصلحة للدولة المستعمرة فى النهوض بالتعليم إلا فى أضيق الحدود ، وبقدر ما تفرضه حاجة المستعمر إلى موظفين محليين يقومون بما يأبى أو لا يستطيع المستعمر القيام به من أعمال . وزيادة الدخل غير مطلوبة إلا فى حدود خلق طبقة محلّية من ذوى الدخل المرتفع ، يشعر أفرادها ، بسبب إمتيازاتهم، بالولاء للدولة المستعمرة ومن ثم يعملون فى خدمة مصالحها ، ويسمح لهم دخلهم المرتفع نسبيا باستهلاك ماتوّد هذه الدولة تصديره اليهم من سلع . لا مانع بالطبع من تطوير الموانىء والطرق والسكك الحديدية وإنشاء بعض البنوك الحديثة ، وكل ما يساعد على خدمة التجارة الخارجية مع الدولة المستعمرة ، تصديرا واستيرادا ، ولا مانع أيضا من إقامة بعض السدود والخزانات ، وتحسين شبكة الطرق والاتصالات ، لزيادة

إنتاج سلع التصدير ، الزراعية أو المعدنية، ومن تطوير وتحسين نوعية الحياة في بعض الأحياء العصرية من مدن البلاد المستعمرة ، وتزويدها بالمياه النقية والكهرباء ، لخدمة السكان الأجانب أو لخدمة تلك الطبقة من السكان المحليين المرتبطة مصالحهم بالأجانب. ولكن كل هذا لا يرقى إلى «تنمية» المجتمع بأسره ، ولا يثير من القضايا ما يكفي أساساً لقيام نظرية عن التنمية أو النهضة أو التحديث .

كان الحديث ، إذا تطرق لمشكلات شعوب البلاد المستعمرة ، يجري على نحو يؤدى إلى القول باستحالة النهضة أصلا ، فهى ابتداء تسمّى شعوبا «بدائية أو متأخرة» (primitive backward). وهى تسميات تفرض بأن سوء أحوالها هو من قبيل القدر الذي يكاد يستحيل ردّه ، وتأخرها كثيرا مايُردّ إلى ظروف مناخية تدعو إلى الاسترخاء وهبوط الهمة ، والظروف المناخية هى من قبيل القضاء والقدر اللذين لا حيلة للمرء معهما ، وكثيرا مايربط التقدم والتأخر الإقتصاديين بلون البشرة ، فيفترض أن تقدم الأوروبيين له علاقة ببياض البشرة ، وتأخر غيرهم له علاقة بسوادها أو اصفرارها . وشعوب هذه البلاد ، على أية حال ، لايتقبلون التغيير بسهولة (هكذا يقال) ، أو لا يتقبلون التغيير على الإطلاق ، فإذا أردت تمدينهم فأنت تمدّنهم على الرغم منهم ، وسيظل نجاح «الرجل الأبيض» فى القيام بمهمة التمدين هذه ، على أية حال ، مقصورا على دائرة ضيقة للغاية تتكون من شريحة غير عادية من أهل هذه البلاد يصعب أن تتصور أن تتسع فتشمل أكثر من نسبة ضئيلة للغاية من هذه الشعوب .

أيا كان الأمر ، فطوال هذه السبعين عاما الممتدة من سبعينات القرن الماضى إلى أربعينات القرن العشرين ، لا نكاد نجد أى إقتصادى غربى يبدى أهتماماً يذكر بقضية التنمية . الاستثناء الهام الوحيد هو جوزيف شومبيتر الذى نشر كتابه عن نظرية النمو الإقتصادى فى سنة ١٩١٢ (Schumpeter , j. : the theory of Economic Development) ولكنه أولا كان يتكلم على التنمية فى العالم الصناعى ولم يتطرق قط للحديث عن التنمية خارج هذا العالم ، كما أن ذلك الجزء من الكتاب الذى يناقش التنمية فى المدى الطويل لم يحظ باهتمام كبير من جانب الاقتصاديين إلا بعد انتهاء الفترة التى نتكلم عنها ، وانحصر اهتمامهم بالكتاب خلال هذه الفترة فى مناقشة شومبيتر لمشكلة الدورات الاقتصادية ، أى تقلب النشاط الاقتصادى فى المدى القصير ، وهى مشكلة متميزة عن مشكلة التنمية كما نفهمها الآن .

كان علينا إذن لكي نشهد عودة الاهتمام بقضية التنمية ، وبزوغ الإهتمام لأول مرة بمشاكل العالم غير الصناعى ، أن ننتظر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حينما فرض تغير المصالح مدة أخرى ، تغيّرا فى الاهتمامات الفكرية .

الانسان ذلك المجهول
التعليم والتدريب واللذة والألم

بقلم : د. محمد بهائى السكرى

يعتبر وضع التعاريف للأشياء وإطلاق الأسماء على المسميات مهمة من أصعب المهام . وبالرغم من صعوبة المهمة فإنها ضرورية من أجل التقدم والإرتقاء. وقد يحدث إختلاف فى التعاريف ولكن فى نهاية الأمر تتبلور الآراء وتنضج ، وتتفتح معالم الصورة ، وتستقر النقاط فوق الحروف .

ويتساءل المرء هل هناك فرق بين التعليم والتدريب ؟ . إن التعليم يعنى إكتساب معلومات وأفكار جديدة ومهارات خاصة بقصد إحداث تغيير فى سلوك الكائن الحى . أما التدريب فيقصد به المران على أداء أفعال معينة أو القيام باستجابات محددة بصورة تدل على المهارة وبقدر كبير من الكفاءة .

وقد ينضوى التدريب تحت التعليم فيصبح التدريب المتصل وسيلة لتعلم حرفة جديدة أو مهارة مكتسبة .

أما الوراثة فهى كل الصفات والخصائص والاستعدادات التى تنتقل للأجيال التالية من الأسلاف السابقة عن طريق الجينات الوراثية أو الشفرة المكتوبة فى الخلايا الجنسية التى تتولد منها الأجنة .

ومن الخصائص الأساسية للكائن الحى القدرة على الاستجابة للمؤثرات . واستجابته تندرج بصورة محددة تحت نمطين أساسيين . نمط غريزى موروث تتماثل فيه كل الكائنات الحية من نفس النوع مثل النأى بالنفس من مواطن الخطر، ونمط مكتسب تتباين فيه ردود

الفعل من كائن لآخر حسب طبيعة التجارب التى مر بها ، والخبرة التى اكتسبها . وبمعنى آخر حسب تعليمه وتدريبه .

وبالرغم من أهمية التعليم والتدريب والوراثة فى حياة البشر وتقدم الحضارة فى مختلف المجتمعات فإن الأمر لم يخضع للدراسة العلمية التجريبية المنظمة إلا فى مطلع هذا القرن . وبدأ الأمر بدراسة سلوكيات الحيوان ثم عممت التجارب لتشمل الإنسان .

ففى عام ١٩٠٣ قدم العالم الروسى «باقلوف» تجاربه على ردود الفعل الموروثة والمكتسبة فى الكلاب أمام المؤتمر الطبى الدولى في مدريد ، وحصل فى عام ١٩٠٤ على جائزة نوبل تقديرا لجهود ، واكتشافاته .

وقد أجرى باقلوف تجاربه على حيوانات وضعها فى برج خاص أقامه أسماه «برج الصمت» وفى هذا البرج يتم عزل الحيوان تماما عن جميع المؤثرات الخارجية عدا مؤثر واحد يتم إختياره من أجل التدريب عليه . ويراعى فى إختيار ذلك المؤثر ألا يحدث أساسا استجابة غريزية فى الحيوان . وتستهدف التجربة جعل هذا المؤثر بالتدرج ذا فعالية وتأثير بحيث يحدث إستجابة معينة فى الجسم .

من أجل ذلك يتم قران أو ربط هذا المؤثر بمؤثر آخر له فعاليته قادر على أن يحدث استجابة غريزية موروثة . وبمرور الوقت يصبح للمؤثر المختار فعالية المؤثر الآخر ويحدث فى الجسم نفس الاستجابة الغريزية حتى فى غياب الأخير .

فعلى سبيل المثال : يحدث سقوط الضوء على شبكية العين انقباضا فى حدقة العين عن طريق رد فعل منعكس موروث يستهدف تقليل كمية الضوء الساقط على الشبكية وحمايتها . ويتم ذلك عن طريق إشارات عصبية حسية تسرى فى العصب البصرى إلى مراكز خاصة فى جذع المخ تنشط الأعصاب الحركية الخاصة بإنقباض حدقة العين .

فإذا تم ربط المؤثر الضوئى بمؤثر سمعى مثل رنين جرس بحيث يدق الجرس بإنتظام فى كل مرة يسقط فيها ضوء على شبكية العين يصبح بمرور الوقت للجرس نفس فعالية سقوط الضوء على العين . وبمعنى آخر يؤدى رنين الجرس وحده إلى انقباض حدقة العين . ويصبح هذا رد فعل منعكس مكتسب نشأ عن طريق التدريب . وتختزن هذه القدرة الجديدة فى قشرة المخ الرمادية التى تهيمن على المراكز الأدنى منها . فإذا تلفت قشرة المخ إختفت معها

هذه القدرة الجديدة المكتسبة على الأستجابة لرنين الجرس ، وبقيت القدرة القديمة الموروثة على الاستجابة للضوء فقط .

ومثال آخر يتعلق بالجهاز الهضمى : فمن ردود الفعل الموروثة أن يحدث وجود الطعام فى الفم إفراز اللّعاب . فإذا اقترن تقديم الطعام بوميض ضوئى مرات عديدة يصبح لوميض الضوء وحده فعالية وجود الطعام فى الفم فى تنشيط إفراز اللعاب . وبمعنى آخر يصبح تنشيط العصب البصرى وحده كافيا لإفراز اللعاب حتى لو لم تنشط أعصاب التذوق فى الفم .

أمثلة أخرى عديدة وتجارب أخرى متنوعة أجريت منذ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا لترسى دعائم ما يعرف بالطريقة الكلاسيكية لإضفاء ردود الفعل المنعكسة الشرطية المرتبطة بمؤثر معين يتم التدريب عليه .

وفى جانب آخر من العالم فى الولايات المتحدة فى منتصف هذا القرن كان هناك عالم أخر يدعى «سكينر» يجرى تجارب على الحيوانات وتدريبها وسلوكها فى صندوق خاص عرف باسمه وهو «صندوق سكينر» . وفى ذلك الصندوق يوضع حيوان جائع وأمامه رافعة يحدث الضغط عليها سقوط قطعة من الطعام فى طبق أمامه . ويراقب سلوك الحيوان واكتسابه للخبرة الجديدة وهى تحريك الرافعة من أجل الحصول على الغذاء تحت الظروف المختلفة .

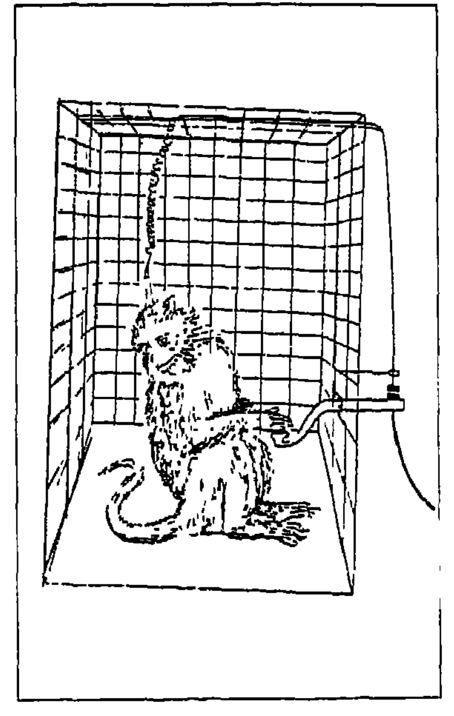
وطورت هذه التجارب ودرست بعمق ليتضح بمرور الوقت أن عملية التدريب تتم بسهولة إذا كانت تؤدى إلى حدوث رد فعل مسار مثل الحصول على الطعام أو لتجنب رد فعل مؤلم مثل التعرض لصدمة كهربائية غير قاتلة .

وأرست هذه التجارب دعائم ما يعرف بالطريقة الأدائية لإكتساب ردود الفعل المنعكسة الشرطية المقترنة بمؤثر معين ، وبمعنى آخر الطريقة التى تعتمد على دفع الكائن الحى إلى أداء أفعال معينة من أجل التوصيل إلى إستجابة محمودة أو تجنب حدوث شىء مكروه .

ثم حدثت طفرة جديدة فى التجارب العلمية على المخ حيث أمكن زرع أقطاب كهربائية فى مناطق محددة من الدماغ فى حيوانات التجارب عن طريق إجراء جراحات دقيقة . وبعد أن يفيق الحيوان ، ويشفى من آثار الجراحة تبدأ تجارب لتنشيط هذه الأقطاب أثناء يقظة الحيوان ودراسة ردود فعله المختلفة .

وأمكن التوصل فى السنوات الأخيرة إلى أن تنشيط مراكز محددة فى المخ يثير إحساسا بالنشوة أو اللذة ، وأن تنشيط مراكز أخرى يؤدى إلى الإحساس بالإستياء أو الغضب .

ومن أجل التأكد من ذلك صممت صناديق أو أقفاص لحيوانات التجارب (شكل «أ») بها رافعة متصلة بمفتاح كهربائى ينظم سريان الكهرباء فى أسلاك



شكل « ١ » : طريقة تحديد مناطق اللذة والاستياء أو الثواب والعقاب فى مخ القرد .

متصلة بالأقطاب المغروسة فى مخ الحيوان تحت التجربة فى مناطق اللذة أو مناطق الاستياء .

مراكز اللذة والغضب

ومن المثير للعجب أن البحث عن اللذة يدفع الحيوان للضغط على الرافعة بمعدل قد يصل إلى ١٠٠٠٠ مرة فى الساعة ، وأنه يفضل ذلك على تناول الطعام وقد يموت من الجوع والإرهاق باحثا عن اللذة!

وفى نفس الوقت فإن الحيوان يتجنب تماما تنشيط مراكز الاستياء ، وإذا تم تنشيط تلك المراكز ضد إرادته فإن الغضب ينتابه ، وإذا استمر ذلك لفترة طويلة فإنه يمرض ويموت .

وقد بينت بعض التجارب التى أجريت أثناء جراحات المخ على الإنسان أن هناك أيضا في مخ الإنسان مراكز يحدث تنشيطها إحساسا باللذة ، ومراكز أخرى يتسبب تنشيطها فى الإحساس بالغضب والاستياء .

ومن الاكتشافات البالغة الأهمية المتعلقة بهذه المراكز فى الإنسان والحيوان أن عمليات التعليم والتدريب لا تتم بدونها . فإن أى تجربة أو معلومة أو خبرة لا تعلق فى الذهن ولا تبقى فى الذاكرة إلا إذا

كانت مرتبطة بإثارة مراكز اللذة التى أسميت مراكز المكافأة أو الثواب أو تجنب إثارة مراكز الاستياء التى أطلق عليها مراكز العقاب ! .

ومن هنا إتضح المغزى العميق لوجود هذه المراكز فى المخ . فهى ضرورية للذاكرة والتعليم والتدريب . ووجود مراكز المكافأة يحفز الكائن الحى على القيام بكل أنواع النشاط المؤدى إلى إثارتها ، ووجود مراكز العقاب يجعله يتجنب كل ما يتسبب فى تنشيطها . هذا من الناحية العلمية التجريبية البحتة ، وهو يؤكد بصورة قاطعة مبدأ الثواب والعقاب فى الأديان وأخلاقيات الإنسان .

وللتجارب السابق ذكرها وما شابهها أهمية تطبيقية بالغة فى حياة الرنسان ، وتدريب الأفراد والجماعات ، وفى السيطرة على الحيوان .

الدوافع الداخلية نوعان . دوافع أولية وهى دوافع غريزية مثل الرغبة فى إشباع الجوع والعطش واللذة والجنس والمحافظة على النوع ، ودوافع ثانوية وهى دوافع مكتسبة يختلف من شخص لآخر مثل الرغبة فى تحقيق الذات أو الظهور مثل الرغبة فى تحقيق الذات أو الظهور أو الحصول على الحب واحترام الغير . ولا تقل الدوافع الثانوية قوة عن الدوافع الأولية فى كثير من الأحيان . بل قد تطغى الدوافع الثانوية على الأولية ، ويفضل الإنسان إشباع دافع مكتسب على دافع غريزى . ونضرب لذلك مثلا الرياضى الذى يسعى للفوز بميدالية ذهبية فيلزم نفسه بتدريبات شاقة ، ويتخلى عن أصناف يحبها من الطعام من أجل إتباع نظام غذائى معين ، ويحدد علاقاته الجنسية لفترة حتى يمر وقت المسابقات .

ولابد للمدرب الممتاز من أن يأخذ فى اعتباره الدوافع الكامنة فيمن يقوم بتدريبه، وأنه ينمى فيه رغبة إتباع التدريب والوصول إلى أعلى مستويات الأداء ، وأن يساعده على السيطرة على الدوافع ذات التأثير السلبى .

وتبقى بعد ذلك عوامل الوراثة والاستعداد الشخصى . فمما لاشك فيه أن هناك فروقا أساسية بين الأفراد ترجع إلى أسباب وراثية ، وأن الله سبحانه قد حبا كل كائن حى بقدرات وملكات ومواهب يختلف فيها عن غيره حتى ولو كان من نفس نوعه وجنسه .

فهناك من حباه الله بملكات عقلية خاصة أو بميزات جسمانية ، وينبغى أولا

دراسة أمكانيات كل فرد وإختبار قدراته الكامنة حتى يوضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب .

تفاوت بين الأفراد

فإذا تناولنا الملكات العقلية يمكننا أن نشبه الجهاز العصبى بالحاسب الآلى «الكومبيوتر» . وكما نجد تباينا بين أجهزة الكومبيوتر المختلفة فى القدرة على الاستيعاب ، وإختزان المعلومات فى الذاكرة، وسرعة الأداء ومعدلاته نجد تفاوتا بين الأفراد فى قدراتهم العقلية . بل إن التباين بين البشر أعم وأشمل .

وقد أمكن للباحثين تقسيم الجهاز العصبى فى الإنسان من ناحية الاداء الوظيفى لأنواع عديدة ترجع إلى أسباب وراثية . وأفضل هذه الأنواع صنف يتميز بكفاءة عالية لخلايا قشرة المخ الرمادية التى تكمن فيها الوظائف العليا مثل التفكير والإرادة والذكاء والذاكرة . ويتميز هذا الصنف بوجود توازن بين عمليات التنشيط والتثبيط فى المخ ، وبمرونة فى الأداء أى بالقدرة على تغير الاستجابات بسرعة حسب الظروف المختلفة .

والنوع الثانى أقل درجة حيث أنه يفتقد المرونة في الاداء بالرغم من كفاءة الجهاز العصبى وتوازنه . ✯ ✯ ✯

والنوع الثالث تغلب فيه عمليات التنشيط على التثبيط وبالتالى فإن من ملامحه فقد التوازن والتهور والاندفاع .

والنوع الرابع أسوأها جميعا ، ويتميز بضعف كفاءة الخلايا العصبية ، وبغلبة عمليات التثبيط على التنشيط وبالميل إلى الجبن .

وهناك درجات متفاوتة من كل نوع ، وكذلك أيضا أصناف أخرى يمكن إدراجها فى مناطق متوسطة بين الأنواع الأربعة السابق ذكرها .

ومن حسن الحظ أن بعض الصفات السلبية فى الأنواع المذكورة من الممكن تحسينها أو التخلص منها كلية عن طريق التدريب الواعى القائم على تفهم طبيعة الجهاز العصبى وإمكانياته .

وإن الجهود المبذولة من أجل دراسة العوامل المؤثرة فى التعليم والتدريب لها ما يبررها . فإرتقاء المجتمعات يتوقف بدرجة كبيرة على تقدم وسائل التعليم والتدريب .

ولا غنى للمدرس فى المدرسة ، وقائد الكتيبة فى الجيش ، ومعلم الحرفة فى المصنع ، ومدرب الألعاب الرياضية فى الملعب ، وموجه الفرق الموسيقية فى المحافل ، ومدرب الحيوانات فى السيرك من الاستيعاب التام لأساسيات ردود الفعل المكتسبة الشرطية ولمبدأ الثواب والعقاب .

مجدى نصيف

صحف الكترونية للعميان

جـاءت لحظة الصـدق أخيراً . يولية ١٩٨٥ انتقلت إلى جـدول العميان ، بعد أن أبلغنى الدكتور بيتر هاملتون ان بقعة على الشبكية قد تخلفت عن النزيف الذى كان يعالجه على مدى عامين كاملين . وكانت هناك بقعة كبيرة أخرى على شبكية العين اليسرى .

جلست صامتاً أفكر . كيف سأعمل الآن . صحفى وكاتب ماذا يفعل بغير عينين ؟ لاحظ صمتى وخزيى فقد جاءت هذه اللحظة بعد علاج دام ما لا يقل عن ثمانى سنوات تنقلت فيها بين القاهرة ولندن وبون وموسكو ومدريد وفيينا . كان الاطباء يقولون نفس الشىء .

قال الدكتور هاملتون : الدنيـا ليست مظلمة لازال ٢٥٪ من نظرك سليماً ، ومازلت تمتلك عقلك وذاكـرتك . وسـأكتب لك خطـاباً « للمعهد الملكى الوطنى للعميان » Rnlb. ستستفيد من خبرتهم الواسعة ، وستجد نفسك وكأنك لم تفقد هـذا الجزء من بصرك ، وستعمل ربما اكثر من سنوات عمرك السابقة .

هزت رأسى . كان الدكتـور هاملتون قد تحول من معالج إلى صديق . نتزاور ونتحاور ونتناقش ، خفيف الدم قال فى النهاية :

- ستحمد الله انك لن ترى وجهى بعد ذلك !

ابتسمت بمرارة قائلاً :

- ليتنى « زراه » !

مرت أيام خريفة قضيتها وحيداً بالمنزل . ماذا سأفعل الآن ؟ أنا فى التاسعة والأربعين من عمرى ، ولا أعرف مهنة غير الكتابة لا اكتب مقالات رأى كثيراً . اكتب معلومات وتحليلها فى السياسة الخارجية . ولو ركزت على العلوم والتقنية فهو يتطلب مراجعة ومتابعة . فكل

مجال لابد له من متابعة وقراءة .

بعد أسبوع ، دق جرس التليفون وجاء صوت رقيق عبر الاسلاك : مستر نصيف : نحب ان نراك غداً .

ماذا يمكن أن يفعل خبراء « معهد العميان » ؟

كانت السيدة ايرفين فى انتظارى على باب المعهد . ذهبنا إلى مكتبها مباشرة . قالت بطريقة عملية :

– مستر نصيف ... المعهد يقدم خدمات واسعة حسب إمكانياته .

أولاً : انت تصنف عندنا فى قائمة ضعاف البصر . وينبغى أن تستخدم ما تبقى من نظرك استخداماً كاملاً بالاعتماد على نفسك ، وبهذا تحتاج إلى نظارات سميكة من نوع خاص للقراءة والكتابة . هـــذا بالإضافة إلى عدســة يمكن أن تساعدك . حاول أن تفعل بنفسك ما يمكنك أن تفعله دون مساعدة أحد .

ثانيا : لأنك تريد ملاحقة الأحداث اليومية كصحفى وكاتب ، فسنعين لك فتاة من الحى تقرأ لك الصحف اليومية . ساعة ونصف ساعة يومياً باستثناء عطلة نهاية الاسبوع (السبت والأحد) وسنعطيها نحن أجرها .

ثالثا : هناك قسم تابع للمعهد اسمه «الصحف المسموعة » ، ولك أن تختار ما يعجبك من بين حـوالى ١٢٠ مجلة ، يسجل كل منها على كاسيت تسعين دقيقة تصلك فى البريد مجاناً وبعد أن تنتهى منها – لا تبقى معك اكثر من ثلاثة أيام – نساد مرة آخرى إلى المعهد بالبريد مجاناً . وهناك ثمن رمزى لكل مجلة لا يزيد عن سبعة جنيهات فى السنة .

اخترت : الايكونوميست ، والنيوزويك ، والقايم ، والنيوستيتسمان ، والجارديان الاسبوعية ، والفاينتشيال تايمز الاسبوعية (باختيار عدة مقالات من الصحيفة على مدى الاسبوع) .

رابعاً : هناك مكتبة شاملة بها ما لا يقل عن عشرين الف كتاب مسجلة على كاسيت من نوع خاص (٤ تراك بدلاً من اثنين) ويتطلب ذلك إمتدادك بجهاز ريكوردر من نوع خاص . تصلك قائمة كاملة للكتب تتكون من سبعة مجلدات لتختار منها . وهى متنوعة فى كافة الفروع . تصلك الكاسيتات بالبريد وكل كتاب تستطيع الاحتفاظ به ثلاثة أشهر ، ثم ترسله بالبريد مجاناً .

خامسا : بطبيعة الحال لن تلبى المكتبة احتياجاتك كصحفى . فى هذه الحالة يمكنك أن ترسل الكتاب الذى تريد قراءته إلى « القراءة السريعة » . وفى هذه الحالة ترسل عدداً من الكاسيتات . وسنحاول أن يتم هذا بسرعة لمساعدتك فى عملك .

انتهت المقابلة . وقالت السيدة ايرفيه : يبقى « المحل » فى أسفل المعهد وبه كل ما يمكن أن يساعدك فى عملك : عدسات ، قرص تليفونى بحروف كبيرة ، ألعاب مسلية للعميان وضعاف البصر . كان عالماً آخر يتطلب حديثاً آخر .

فتح أمامى عالم جديد . كأننى لم أفقد بصرى . من يصدق أننى أقرأ اكثر وبشكل اكثر كثافة .

لكن كل هذا شىء وما حدث عام ١٩٩٢ كان شيئا آخر .

الصحف الالكترونية :

طور المعهد الملكى الوطنى للعميان Rnlb نظاماً جديداً بالاشتراك مع صحيفة الجارديان اليومية البريطانية وشركة « إيركول تيليتيكت – وهى شركة تقديم النصوص تليفزيونياً – طور الثلاثة نظاماً جديدا يمكن أن نطلق عليه الصحف الالكترونية . وهو نظام يمكن العميان وضعاف البصر من قراءة الصحف اليومية على شاشة تليفزيونية .

ويعنى هذا النظام الجديد ببساطة أن تبث الصحيفة فى شكل رقمى وتخزن على أسطوانة صلب للكومبيوتر . ثم تقرأ على شاشة تليفزيونية بحروف كبيرة لضعاف البصر ، أو بطريقة بريل الكترونية للعميان . ويمكن زيضا أن تُسمع عبر مخلّق صوتى .

وهناك ثلاث خطوات لعمل النظام :

١ – إعداد النص من المصدر وهو الصحيفة .

٢ – البث أو الإرسال .

٣ – الاستقبال والقراءة .

أولا : إعداد المعلومات وبثها

يعمل الصحفيون فى العالم الصناعى المتقدم على حاسوب يكتبون عليه مقالاتهم . وهكذا يخلق نص الصحيفة على كمبيوتر . وتعد النصوص للطبع باستخدام تقنية Wysiwyg أو تقنية « ما تقرؤه هو ما تحصل عليه » . ويخلق هذا تمثيلا خريطياً – أى صورة طبق الأصل لشكل الصحيفة – يتضمن كل سمات المادة المطبوعة . وليس المعلومات بهذه الصورة مناسبة للنظام الرقمى ، حيث لا يمكن قراءته عن طريق مخلق .

يحول نص الصحيفة إلى ملف « أسكى Ascii فى نفس يوم الصدور . وتنظم هذه الملفات على نفس نمط الصحيفة المطبوعة . وتوضع إشارات خاصة تشير إلى العناوين ونهاية الفقرات الخ ، ويضاف إلى ذلك عدد من إشارات البث عند بداية الملفات وعند نهايتها ، قبل نقلها على الشبكة العامة إلى محطة البث . وفى « محطة البث » تشكل المعلومات على الهيئة المطلوبة للبث . وتخزن حتى وقت محدد ، ثم تدخل إلى الإرسال التليفزيونى ، وتبث باستخدام نظام الاشتراكات أى إلى عدد محدد من الراغبين .

– وهم العميان وضعاف البصر فى هذه الحالة . وتوفر هذه الطريقة البث من

نقطة إلى نقاط متعددة ، واستقبال الصحيفة ايضاً فى نفس الوقت تقريباً - فى جميع أنحاء بريطانيا .

ثانيا : استقبال المعلومات :
وتستقبل المعلومات باستخدام حاسوب شخصى . وتفك شفرة المعلومات وتخزن على اسطوانة صلب لملف « أسكى » ثم تعالج تلك الأراشيف لإزالة إشارات البث ، ثم توضع فى صورة صالحة للاستخدام مع برامج القراءة - « السوفت وير » .

ثالثا : قراءة الصحيفة .. تتلخص الأهداف الأساسية للنظام فى تمكين العميان وضعاف البصر من قراءة الصحيفة اليومية فى نفس يوم صدورها وبنفس الطريقة التى يقرأها بها البصير .

ولقد طور « المعهد الملكى الوطنى للعميان » برامج « سوفت وير » توفر نظاما بيئيا وسيطا ملائما للغاية للاختراع الجديد ويُسيّر هذا النظام البيئى الوسيط بطريقة « قائمة الاختيار » فتظهر كل المعلومات على الشاشة أو تذاع صوتيا عبر مخلق صوتى أو تعرض على عارض بطريقة بريل . وتمكّن « قائمة الاختيارات الشخصى من اختيار عدد الجريدة التى يقرأها (عدد اليوم أو عدد سابق) ، وأن يضبط الجهاز لتلقى الصحيفة بنفس ترتيب صفحاتها ، أو أن يبحث عن مقالات بعينها تهمه . فمتى تم اختيار الشخص لعدد الصحيفة الذى يريده ، تقدم له قائمة تضم أقسامها المختلفة : الأخبار المحلية ، الأخبار الأوربية ، الأخبار الخارجية ، أخبار المال والاقتصاد ، الرياضة ، الموضة ، ومقالات الرأى والتعليقات الخ .

. يختار الشخص القسم الذى قراءته ، ثم يقرأ له العنوان الأول .. فلو كان الموضوع يهمه ، فإنه يضغط على مفتاح (زرار) فتبدأ قراءة المقال . واذا لم يكن يريد هذا الموضوع ، يضغط على « زرار » آخر ، فيظهر العنوان التالى وهكذا .

هناك مفاتيح أخرى فى الجهاز لمساعدة القارىء وتقديم تسهيلات أخرى له مثل .

- البحث عن الكلمات المفتاحية (داخل مقال)
- أو للتوقف عن القراءة ثم العودة إليها
- أو للحصول على مساعدة ما

التطورات المستقبلية

يجرى « معهد العميان » حاليا تجربة إرشادية ناجحة للنظام ، دخل فيها : عدد من العميان وضعاف البصر الذين يقرأون الصحيفة (الجارديان) بمنازلهم ، ومعهدان أكاديميان ، وست مكتبات عامة . والغرض من هذه التجربة الإرشادية تقييم جدوى هذا النمط من النظم ، واختيار كل من برامج القراءة وإجراءات البث .

وأظهرت التجربة إمكانية تنفيذ المشروع تقنيا . وبهذا تتم الاستعدادات لإقامة خدمة مستديمة يستفيد منها الألاف

وهناك تطورات إضافية يمكن أن تحسّن النظام ، وتتضمن هذه .

● إدخال صحف أخرى فى النظام (وأساسا الفاينتشيال تايمز والتايمز والإنديبندانت الخ) وكذا مجلات اسبوعية وشهرية .

● إمكانية استخدام حواسب أخرى ، ذلك انه فى الوقت الحالى ، فإن « السوفت وير » مهيأ للاستخدام على الحواسب الشخصية المناسبة لنظام آى . بى .إم IBM .

● تطوير برامج « سوفت وير » للوهل المبسط إلى التيليبنكيت المفتوح العادى ، الذى يمكن متابعته على قناتى التليفزيون البريطانى (نظام أوراكل ونظام سيفاكس) .

توفير النظام لمعوقين غير العميان وضعاف البصر ، باستخدام مفاتيح تشغيل خاصة .

التقنية المستخدمة

أولا : المعدات :

تتكون المعدات والأجهزة المستخدمة من :

● حاسوب شخصى : يتوام مع نظام اى . بى . إم IBM باسطوانة صلب ، إلى جانب رام RAM مقياس ٢٥٦ ك .(وإضافة إلى الذاكرة التى يحتاج إليها فى نظام التشغيل ، وأى تسهيلات اخرى للذاكرة مثل برنامج قراءة الشاشة) ومن النادر اليوم شراء حاسوب له رام أقل من ٥٢٠ ك وعلى ذلك لا يعتبر الشرط المطلوب قيداً . وهناك حاجة إلى فتحة حرة بطول كامل من أجل « كارت فك الشفرة » . لذلك هناك حاجة إلى فتحة بطول كامل أو باب حر للمخلق الصوتى ومرة اخرى لا يعتبر ذلك قيداً على الحاسوب الشخصى .

● فخلق صوتى ، أو برنامج سوفت وير بحروف كبيرة ، أو عارض على نظام بريل . والمطلوب واحد فقط من تلك المعدات حسب الحاجة .

وقد يكون المخلق الصوتى إما الدولفين أبوللو Dol phina Apollo أو الإنفوفوكسInfovox . وهذان النظامان هما الوحيدان المفضلان حاليا . لكن من الممكن طلب مجموعة أخرى من المخلقات إذا كان هناك طلب عليها . ويمكن الحصول على تسهيلات العرض بحروف من أى مجموعة سوفت وير تجارية ذات حروف كبيرة . ومن المتوقع استخدام آى سوفت وير يملكها الشخص .

وعرض بريل الوحيد المعقل حاليا هو الفيرسا بريل psd ومرة أخرى يمكن استخدام أجهزة أخرى إذا كان عليها طلب.

● « كارت فك شفرة يوصل بهوائى تليفزيونى من نوع قوى جيد ويوجد داخل الحاسوب الشخصى .

وأحد الأهداف عند اختيار المعدات ، هى ان يكون أمام القارىء اختيارات عديدة . والحواسب والحاسوبا الشخصية

التي تتوام مع أي . بي . إم شائعة للغاية . وبالمثل هناك عدد كبير من تسهيلات المعدات والبرامج المعدة لتلك الحواسب وبالاضافة إلى ذلك هناك عدد كبير من الموديه لنظم الحواسب . وحيث ان النظام مازال تحت التطوير ، فإن مدى المعدات سيتسع كثيراً بمرور الوقت . وسيكون من الممكن تركيب برامج السوفت وير على حاسوبات أخرى ، أحدها حاسوب أبل ماكنتوش الذي يستخدمه - في بريطانيا - عدد من المصابين بالشلل الرباعي ، والذي ليس لديهم الفرصة لقراءة المطبوعات بأنفسهم .

ثانيا : البث

البث المستخدم هو « النص التليفزيوني بطريقة الاشتراكات » ، وهو البث الذي يستخدم خطوط في . بي . أي VBI اشارات التليفزيون لإذاعة معلومات رقمية . والملامح الرئيسية لهذا البث ، والتي تجعله مثاليا لهذه النوعية من التطبيق هي :

- بث واحد يغطي البلاد - بريطانيا - بأكملها .
- ولا تفك الشفرة إلا بأسلوب تحكم لذا فهو آمن .
- طريقة اختبرت جيدا لبث المعلومات .
- طريقة اقتصادية .

وأخيراً ..

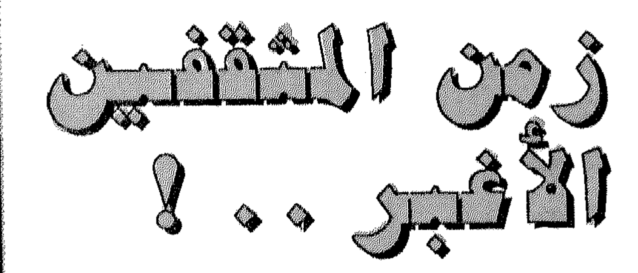
هناك إمكانات كبيرة لمشروع الصحيفة الرقمية الالكترونية لخدمة العميان وضعاف البصر ، وهناك فرصة كبيرة لتطوير المشروع فتزيد بهذه الطريقة المعلومات المتوفرة لهم . وسيحسن هذا المشروع من حياتهم . ولاشك أيضاً أن هذه الخدمة ستمتد إلى معوقين آخرين غير العميان وضعاف البصر . وعلى قدر علمي ، لا أعرف أن هناك إحصائيات عن أعداد المعوقين في مصر وفي البلاد العربية ، وهل يمكن أن تمتد إليهم مثل هذه الخدمات المتقدمة . لكن الأمر يحتاج إلى دراسة ، على أية حال .

هوامش

(١) أدين لمعهد العميان بحياتي العملية الثانية التي بدأت عام ١٩٨٥ بعد تلفي نظر عيني الاثنين . وأشكر رؤساء اقسامه على كل التسهيلات والمساعدات التي قدمت لي والتي لولاها ، لما استمر عملي كصحفي وكاتب .

(٢) وأوجه شكري للدكتورة باولا فابريري مديرة بحوث التقنية بقسم تطوير التقنية بالمعهد الملكي الوطني للعميان .. التي قدمت لي المادة العلمية لهذا المقال حول « صحف الكترونية للعميان » . وكذا على الرسم الذي يبين كيف تعمل والذي أهدته لمجلة الهلال عندما علمت بانها طلبت الموضوع .

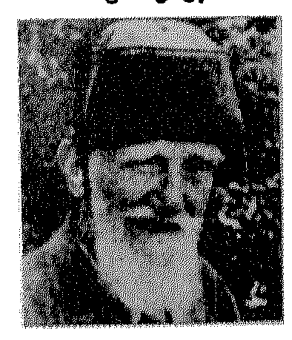
رسالة لندن



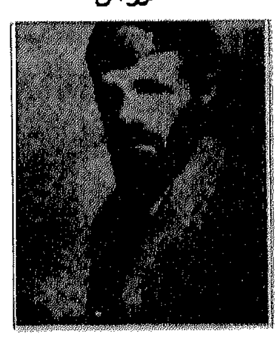
د . على شلش

يبدو أن العالم الأول يظلم المثقفين كما نظلمهم فى العالم الثالث . فنحن نعتقد أن المثقف شخص غير عادى ، أو سوبر مان ، بطل، لا يضعف ، ولا يقبل الحلول الوسط ، ولا يخطئ أيضا ، وهذه كلها من بقايا نظرة المجتمعات المتخلفة إلى أبنائها المتعلمين أو الملمين بالمعارف ، ويبدو أيضا أن هذه النظرة الرومانتيكية التى تفترض أن المثقف بطل على طول الخط مازالت موجودة فى العالم الأول ، حتى بعد خروجه من محنة التخلف وتسلحه بالنظرة الواقعية .

برنارد شو



د . هـ لورنس



أقول هذا الكلام لنفسي بعد مطالعة كتاب جديد ظهر هنا لأستاذ جامعي في أكثر من ٢٠٠ صفحة وعنوانه : « المثقفون والجماهير» ولكن هذا عنوان خطابي ضخم ، يخفف وقعه عنوان آخر فرعي هو «الكبرياء والهوى بين المثقفين الأدباء : ١٨٨٠ - ١٩٣٩» أما مؤلفه فاسمه جون كاري ، ومن العنوان الفرعي الأخير تتبين أن المؤلف مشغول بقطاع معين من المثقفين ، هو قطاع الأدباء ، بل هو مشغول بفئة معينة في هذا القطاع ، هي فئة الحداثيين الذين رفعوا لواء الحداثة في بريطانيا بالذات خلال الفترة موضوع البحث وشغلوا الدنيا والناس ، ولا سيما خارج بريطانيا في عالمنا الثالث بصفة خاصة ، وعلى رأس هؤلاء الحداثيين د . هـ . لورنس ، و . ت . س . إليوت ، هـ . ج . ويلز ، ج . ب . شو ، و . ب . ييتس . جيمس جويس ، جورج أورول ، ومعظم هؤلاء - كما نعرف - شعراء وقصاصون عاطفيون مزاجيون من الذين تتغير أمزجتهم بتغير الطقس أحيانا ، ومع ذلك

نيتشه



لم يرحم كاري ضحايا الطقس المتقلب في بلده ، ونزل بهراوة وضراوة فوق رؤوس هؤلاء وغيرهم .

● هكذا تكلم نيتشه

يقوم الكتاب على فكرة مؤداها أن الحداثيين البريطانيين والأيرلنديين لم يكونوا من أنصار الجماهير ، بل لم يهتموا بمخاطبتها أو التقرب إليها في كتاباتهم بمقدار ما كرهوها وربطوها بالغوغائية وأحلوا ذبحها إلى درجة أن نغمة حديثهم عن الجماهير صارت مثل نغمة خطب هتلر ضد الغجر والمجانين واليهود ، وإذا كان هتلر نفسه تأثر بفيلسوف بلاده نيتشه فهم أيضا شاركوه في هذا التأثر .

ماذا قال نيتشه عن الجماهير ؟

اقتبس المؤلف كثيرا مما قاله نيتشه ، ولا سيما في كتابه المشهور « هكذا تكلم زرادشت» وفي هذا الكتاب تمنى نيتشه لو أن عاصفة هوجاء هبت على البشر فاقتلعتهم من على الأرض ، وفي كتابه الآخر المشهور أيضا «إرادة القوة» طالب بإعلان الحرب على الجماهير من جانب المتفوقين الأقوياء ، ولكن الأهم من هذا وذاك أن نيتشه وجد لنفسه أتباعا مخلصين بين مؤسسي الثقافة الأوروبية الحديثة وأعمدتها ، كما وجد صدى واسعا عند الحداثيين والمجددين في الأدب داخل أنجلترا وأيرلندا خلال الربع الأول من هذا القرن ونتيجة لهذا الصدى الواسع تعالى الحداثيون الأوروبيون عموما على الجماهير

زمن المثقفين الأغبر .. !

المسكينة ووصفوها بالغوغائية والسوقية ، واتهموها بتلويث البيئة وتكدير النسل ، وازداد نكيرهم عندما اتسع جمهور القراءة بعد ظهور الصحف الشعبية (التابلويد) ابتداء من عام ١٨٩٦ ، ففى ذلك العام أنشأ بارون الصحافة الراحل اللورد نورثكليف جريدة «ديلى ميل» الموجودة حتي اليوم ، وقال إن شعارها هو «صحيفة الرجل المشغول» ولكن الحداثيين والنخبويين حاربوها مثلما حاربوا الجماهير عموما ، وبينما كان مبدأ نورثكليف هو «إعطاء الجمهور مايريده» كان هؤلاء وأولئك يعتقدون فى « إعطاء الجمهور مايريدونه هم » وكان ذلك الذى يريدونه يعنى «التعليم» ، أى أن التخطيط للتعليم والقيام به من عمل النخبة المثقفة !

وظل موقف الحداثيين على هذه الحال حتى آخر الفترة موضوع الكتاب ، أى إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

قبل عام من اشتعال تلك الحرب كتب الشاعر الناقد ت . س . إليوت فى إحدى إفتتاحيات مجلته «كرايتيريون» ينعى على الصحف اليومية والأسبوعية إجرامها فى حق القراء ، فهى « تبقى عليهم فى صورة جماهير راضية عن نفسها ومتعصبة ومعدومة التفكير » وشاركه فى هذا الهجوم زميله الناقد ف . ر . ليفز الذى شدد النكير على الصحف ووسائل الإعلام فى افتتاحيات مجلته «سكروتنى» ، بل ربط الإعلان بالشر ، وقال « إن وسائل الإعلام تنشر أرخص العواطف ، والأفلام والجرائد والدعاية بأسرها تقدم الناس زاداً من أحط مستوى » وكانت مجلة إليوت توزع فى ذلك الوقت مالا يزيد على ٨٠٠ نسخة فى حين كانت مجلة ليفز لا تطبع أكثر من ٧٥٠ نسخة !

يأتى المؤلف أيضا بمثل آخر على كراهية إليوت للجماهير ، وهو من شعره هذه المرة ، بل من أهم قصائده « الأرض الخراب » ، وفيها يربط إليوت بين جماهير موظفى المكاتب الذين يعبرون جسر لندن والموتى فى جحيم دانتى ، قائلا :

راح الزحام يتدفق
على جسر لندن
بكثرة شديدة
إلى حد أننى تصورت
أن الموت لم يقرب العابرين

ويضيف كارى بأن المعنى الضمنى فى أبيات إليوت هذه يعنى أن زحام لندن كله موتى ، وهذا - فى رأيه - يتفق مع زعم نيتشه بأن الحياة فى الدولة الحديثة ماهى إلا انتحار بطئ !

● زمن أغبر !

هكذا أيضا كان موقف د . هـ لورنس . وجورج أوروِل وإذا كان لورنس أبدى

امتعاضه وقرفه من أهالى سيلان والمكسيك عقب زيارة للبلدين ، وتمنى أن ينزل الله طوفانا آخر لإغراق العالم فقد شاطره أورول أحزانه على السوبر مان الذى يعيش وسط قطيع من الجماهير الدنية ! وهكذا أيضا – كما يقول المؤلف – دار الأدب الحداثى والثقافة الحديثة حول مبادئ خلاصتها استبعاد الجماهير ، والقضاء على سلطتها وطاقاتها المعرفية ، وإنكار انسانيتها ، ولكن هذا كله باء بالفشل ، فالجمهور تعبير مجازى عما لا يمكن معرفته أو رؤيته ، وهو يعني الزحام فى مظهـره الميتافيزيقى ، ولا يمكن له أن يتخذ شكلا معرفيا إلا بصفته مجازا . «ومع ذلك فهو مجاز يخدم أغراض الغرور عند الفرد ، لأنه يحول الغير إلى كتلة مختلطة غير منظورة ، وهو ينكر على الغير الفردية التى ننسبها إلى أنفسنا وإلى الذين نعرفهم » .

أليس هذا تفسيرا فلسفيا نفسانيا ؟

هذا مايريده المؤلف على أى حال . أما مايريده السياق الاجتماعى والثقافى العام، أو ما يسمى الظروف المحيطة ، فشىء آخر غير هذا . فالمثقف ، أو الأديب أيضا ، ليس سوبرمان ولا مقطوعا من شجرة . والمجتمع الذى عاش فيه أولـئك الحداثيون الذين ذكرنا أسماءهم كان يربى فيهم – منذ حداثتهم – الشعور بالتفوق على عباد الله الاخرين المنتشرين فى الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس (سابقا) . كما كان يربى فيهم العنصرية والتعالى على الشعب العامل . وإذا كان هؤلاء الحداثيون أو غيرهم تعالوا على الناس البسطاء وانفصل أكثرهم عن جذوره الشعبية باستثناء اليوت الذى ولد وفى فمه ملعقة من الفضة ، فهم جميعا لم يدعوا أنهم قادة الجماهير ، ولا زعموا أنهم مخلصو الشعب من خراب عصرهم بل كانوا هم أنفسهم ضحية غرور الثقافة الأوربية ، ودورانها حول ذاتها ، وتناقضها بين النظر والعمل ، أو بين الفكر والسلوك . ومن حق المثقف الذى لايدعى القيادة ولا يزعم المهدية أن يكون ضعيفا ، وأن يتناقض مع نفسه أحيانا ، وأن يغير جلده أحيانا أخرى .

وحتى لانذهب بعيدا ، أو يجرفنا تيار الانفعال إلى شواطئنا ، نذكر مقالاً ذكيا فى نقد هذا الكتاب ، نشرته صحيفة «صنداى تايمز» فى ملحق «الكتب» للكاتب بول جونسون ، وهو مؤلف كتاب آخر ظهر عام ١٩٨٩ بعنوان «المثقفون» . وقد استهل مقاله بقوله :

«هذا زمن أغبر على المثقفين . فقبل هذا الجيل كان رجلان مثل جان بول

سارتر وبرتراند رسل يستطيعان تكتيل الجماهير فى الغرب ، وكان برتولت برخت يستطيع تصريف أمور امبراطورية ثقافية فى الشرق . أما اليوم فمن الصعب أن نفكر فى شخصية مشابهة تجتذب بآرائها أدنى درجات الانتباه . فالمثقفون لا يجدون الاحترام ، وعمداء الكليات لايثق بهم أحد ، والطلاب ككيان مكروهون ، وأعداد الجامعات لاتزدهر إلا على حساب الكساد العالمى . بل صار ضرب المثقفين رياضة مفضلة بين القراء»

ومن هذا المنطلق بدأ جونسون هجومه على كارى ، وقال إن كتابه لون من ألوان ضرب المثقفين ، وإطلاق النار عليهم من خلال الذوق أو المعتقد . فهدف كارى مزدوج : أدبى وأخلاقى . فهؤلاء الأدباء الذين أطلق عليهم النار لهم أعمال ، مثل رواية «يوليسيس» لجويس ، لم تكتب إلا للمثقفين ، وبذلك امتنع فهمها وقراءتها على من هم أقل . وهذا هو الجانب الأدبى . كما أن هؤلاء احتقروا الناس العاديين وترفعوا عليهم ، ثم دمروا شرعيتهم بأيديهم ، بل شاركوا هتلر فى جريرته وهذا هو الجانب الأخلاقى . ولكن كارى - كما يقول جونسون - لم يلحظ أن كره البشر عند الأدباء الإنجليز وغيرهم لم يبدأ فى ثمانينيات القرن ١٩ وحدها ، بل يتردد صداه منذ جوناثان سويفت فى القرن ١٨ ، ولا علاقة له بالحداثية وحدها أو اليمين السياسى وحده . فكارل ماركس - مثلا - له أفكار وآراء عنصرية وهتلرية ، منها كرهه للطبقات والأسر الحاكمة والشعوب التى دمغها بالرجعية . واتخذ ولاؤه المعلن للجماهير شكل التحيز للبروليتاريا وحدها . وكانت معاملته لأبويه وزوجته وبنتيه وأصدقائه فظة ، توحى بأن قلقه على البشرية لم يكن أصيلاً . بل إن عقليته وتعاليمه أنتجت سياسات الإبادة التى اتبعها لينين وماو وستالين أكثر مما أنتج نيتشه سياسات هتلر . ثم أخذ جونسون على كارى أيضا هجومه على المسيحية وأفكارها التى أنتجت كتابات القديس أوغسطين عن جهنم والجحيم . وبرأ القديس من تهمة التأثير على هتلر التى ألصقها به كارى . وأضاف أن الأدباء المسيحيين فكرا مثل ج . ك . تشسترتون هم الذين وقفوا فى وجه برامج الإبادة وتغيير الهندسة الوراثية التى ناصرها أدباء من أمثال ولز وشو . ولم يقف المثقفون المسيحيون الأتقياء وحدهم فى معارضة الأفكار المعادية للبشر ، وإنما شاركهم اليهود الأصوليون كما يقول جونسون . وهؤلاء وأولئك سيقفون - كما يقول أيضا - فى وجه أية مخططات ترمى

إلى السيطرة على النسل وتوجيهه بعد مؤتمر قمة الأرض فى ريو دى جانيرو .

ظلم ذوى القربى

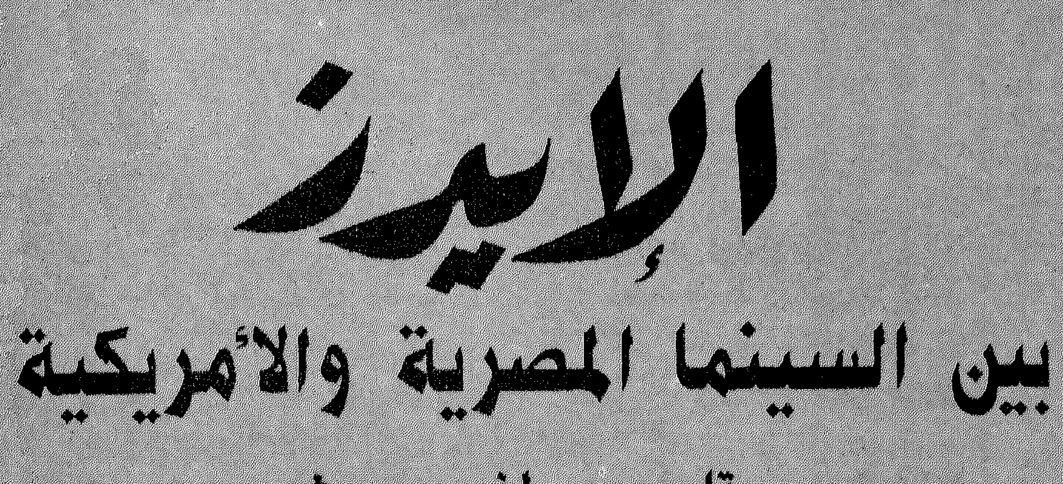
شئ واحد فقط وافق جونسون زميله كارى عليه حول أصحابنا المثقفين ، هو أنهم فى مجموعهم – كما يقول أخيرا – فظيعون جدا !

ولعلنا نقول لجونسون وكارى معا : لقد ظلمتما أبناء طائفتكما أو فئتكما ، أيا كان المصطلح . وأقسى أنواع الظلم هو ظلم ذوى القربى . ولكن ماذا نفعل مع المثقفين وهم فى نقار مستمر مثل نقار الديكة منذ سقراط حتى اليوم ؟ سوف يستمر النقار على أى حال ، وسوف يستمر أيضا ذلك الاهتمام المتبادل بين الخاصة والعامة ، أو بين المثقفين والجماهير إذا شئنا المصطلح الحديث . أما الظلم الواقع على المثقفين فيهمنا ما يأتى منه من جانب الجماهير . وأساس هذا الظلم أن الجماهير تضع المثقف فى وضع غير إنسانى حين تعامله على أنه بطل وقائد ومرشد وهاد ، دون أن تتقبل فكرة أنه – أيضا – بشر وإنسان ، وأن الإنسان خلق ضعيفا ، وليس معصوما ولا فوق المساءلة . وأما ظلم كارى بصفة خاصة فأساسه أنه لم يفرق بين المثقف الأديب والمثقف الفيلسوف أو المؤرخ . فالأول متقلب المزاج مثل طقس لندن ، يحب العامة فى لحظة ويكرهها فى لحظة تالية ، وطوال اللحظتين لايحب إلا نفسه . أما الآخر فأكثر تماسكا . ولابد من محاسبته إذا تطوع للدعوة إلى سفاح مثل هتلر أو دكتاتور مثل ستالين.

شىء واحد فقط ، أيضا سيظل مصدر إزعاج لعقل العامة وعقل الخاصة معا ، وهو شىء لايصلح معه التعجل فى البحث أو التفسير . لذلك يحسن أن نضعه فى صورة أسئلة :

لماذا انحاز بعض المثقفين إلى عمليات اغتيال العقل منذ سقراط ، وإبادة البشر منذ الإسكندر الأكبر ؟ ألم يكن الإسكندر نفسه ، ثم يوليوس قيصر وستالين وهتلر وغيرهم من السفاحين والطغاة ، مثقفين ، ولبعضهم إنتاج مطبوع ومعروف ؟ كيف جرى فى جسم المثقفين – فى العالم ومنذ سقراط على الأقل – شريان دكتاتورى وإرهابى مازال يلتهب ويتورم حتى اليوم ، ويظهر طفحه من وقت لآخر فى صورة غير إنسانية كما حدث مع إخواننا الحداثيين فى بريطانيا وغيرها ، أو كما يحدث اليوم مع السكوت عن مجاعات الصومال ومذابح البوسنة ؟

يبدو أن جواب هذه الأسئلة يحتاج إلى كتاب ثالث غير كتابى كارى وجونسون . ولكن الذى لايحتاج إلى كتاب هو أن زمن المثقفين فى عالمنا المعاصر أغبر !



الإيدز

بين السينما المصرية والأمريكية

بقلم : مصطفى درويش

شريهان مريضة بالايدز فى حب ورعب

حتى عهد قريب لم اكن قد شاهدت أى فيلم يعرض لمرض فقدان المناعة المكتسبة «الايدز» ، ذلك المرض المسمى بطاعون القرن العشرين .

وعلى كل ، ففى اثناء مهرجان الاسماعيلية الدولى الثانى للأفلام التسجيلية والقصيرة الأخير ، رأيت ضمن الأفلام المشاركة فى المسابقة فيلما من بين أفلام التخرج فى معهد السينما اسموه « الموت كالآخرين » لصاحبه المخرج « محمد الرشيدى » .

فاذا بى افاجــأ بانه يعــرض بصراحة لهــذا المرض اللعين .



مخرج عبد العليم أحد المصابين بالايدز توفي العام و طلا

ونظرا الى ان تناوله لمأساة مرضى الايدز اتسم باسلوب قوامه الاستخفاف والاستهتار ، فقد اثار ذلك سخرية ثم غضب ، ولا اقول رعب ، جميع أعضاء لجنة التحكيم الدولية ، بمن فيهم كاتب هذه السطور .

فكان ان شجبوه فى بيانهم الآخير ، حيث وصفوا طريقة عرضه للمرضى بعدم الدقة ، وعدم الانسانية ، مع التحذير من انها طريقة محفوفة بالمخاطر .

ولا غرابة فى رد الفعل هذا من جانب اعضاء تلك اللجنة ، فالفيلم من تلك الأعمال السينمائية التى لابد أن تثير برداءتها غضب أى حليم .

● نوم العقل

وسبب الغضب هو موضوعه الذى يقال من خلاله على امتداد عشرين دقيقة لاتزيد ، ان صحفية شابة كلفها رئيس التحرير بعمل تحقيق عن أحوال المرضى فى أحد المستشفيات .

وبينما هى تقوم بعملها على خير وجه، اذا بها ترى مريضا يسقط ، وهو يحاول الهرب ، صريع وابل من رصاص الحراس .

واذا بها تسمع من داخل المستشفى نواح انسان يبكى حظه العاثر .

وهاهى ذى تتوجه فى حذر الى مصدر الصوت ، حيث تكتشف ان صاحبه فتى فى عنفوان الشباب ، يبكى صديقه الذى مات مقتولا قبل لحظات .

وما ان تبدأ فى التعاطف معه ، ويخاصة بعد ان تبين لها أنه حلو اللسان والبيان ، حتى يعترف لها انه وصديقه معزولان فى المستشفى عن سائر المرضى لانهما مصابان بمرض الايدز اللعين .

وهنا تفقد الصحفية الشابة صوابها تماما ، وتهرب منه فزعة ، كما يهرب السليم من المجزوم .

ولسبب غير مفهوم يطاردها الشاب الذى كان وديعا كالحمل قبل حين ، فى ممرات المستشفى حتى يلحق بها ، ثم يلقيها ارضا فى احد الأركان حيث يقوم باغتصابها دون رادع من ضمير .

وطبعا ينتهى بها الأمر حاملاً ، وفى نفس الوقت مصابة هى والجنين المسكين بالايدز اللعين !!

ولا يكتفى صاحب الفيلم القصير بكل ذلك ، بل انه ينهى فيلمه بمشهد أخير نرى فيه الصحفية الشابة فى نفس المستشفى معزولة عن الناس ، تنتظر الموت كالآخرين

● داء الاستسهال

ولم تمر على محنتى مع هذا الهراء سوى أيام ، الا وكنت أمر بمحنة أخرى ، الا وهى مشاهدة فيلم « الحب فى طابا » لصاحبه المخرج « أحمد فؤاد » .

فهو بدوره عرض لاخطر مرض يتهدد بنى الانسان الآن ، بنفس طريقة « الموت كالآخرين » ، أى باستخفاف واستسهال يندر أن يكون لهما نظير .

و « الحب فى طابا » ليس له ، والحق

يقال ، علاقة بالحب الذى يملك القلوب ، لا من قريب ، ولا من بعيد .

فهو باختصار يحكى قصة ثلاثة شبان « ممدوح عبد العليم » و « نجاح الموجى » و « هشام عبد الحميد » ذهبوا إلى سيناء مصطافين .

وعلى رمال الشاطيء الساخنة ، استباحوا لانفسهم مغازلة ثلاث سائحات أجنبيات غزلا فاضحا .

وبطبيعة الحال انتهى الأمر باشباع رغباتهم الجامحة مع السائحات الهائمات حبا .

وفى طابا وبعد وداع حار ، تركت السائحات الثلاث لكل عاشق ولهان رسالة تعترف فيها بانها مريضة بالايدز .

وما أريد ان اعرضه لردود الفعل البلهاء من قبل عشاق طابا ، بعد انتهاء كل واحد من قراءة الرسالة النذير .

ولا لجهل الطبيب من بين هؤلاء العشاق « هشام عبد الحميد » بان الإيدز مـرض لايصـاب به الإنسـان بمجـرد التماس .

ولا لادعاء الفيلم بان مرضى الايدز فى مصر يجرى عزلهم فى مكان أمين مخافة العدوى اسوة بمرضى الطاعون فى سالف الزمان .

وأنما اكتفى بان أقول بان « الحب فى طابا » اشد خطرا ، وبالتالى أكثر اضرارا من « الموت كالآخرين » لماذا ؟

لأن الفيلم الأخير ليس له أى تأثير ، وذلك لأنه فيلم تخرج قصير ، لن يشاهده الا نفر قليل فى حين أن « الحب فى طابا » فيلم تجارى ، لاقى فى الشباك نجاحا كبيراً .

● عود غريب

ومن عجب أنه ما أن انتهى عرضه فى دور السينما حتى بدأ عرض فيلم ثالث يتناول مرض الايدز بنفس الطريقة التى لا تقيم وزنا لأى اعتبار .

وهذا الفيلم هو « حب ورعب » أول عمل سينمـائى للمخرج « كريم ضـيـاء الدين » .

وأعجب العجب ان يكون هو الفيلم الذى تعود به شريهان إلى الجمهور الذى انبهـر بتميز ادائهـا فـى « الطـوق والاسـورة » أيما انبهار .

ومهما يكن من الأمر ، فالفيلم يبدأ بها عائدة من الولايات المتحدة مستصحبة نعشا به جثة زوجها ، وطفلا رضيعا وفيروس الايدز المميت .

وبعد التخلص من الجثة فى المقابر ، والطفل فى دار للحضانة ، تتجول شريهان فى أنحاء المدينة البدينة ، حاملة الفيروس الذى ليس لهارب منه نجاة .

فهى مثلا تنام مع ابن عمها « محمود الجندى » فتصيبه به فورا .

ويغتصبها أحد فتوات الكاباريهات ، فيصاب به فى التو واللحظة .. وهكذا وهكذا وإلى هنا والأمر مقبول إلى حدّ ما .

فساد الرؤية

ولكن سرعان ما يبدأ الفيلم فى التدهور بنسبة متوالية هندسية عندما يفتعل كاتب السيناريو « نبيل غلام » كوميديا من الأخطاء مدارها زعيم عصابة منشقة « حسين الشربينى » ، يريد قتل زعيمه « حسن كامى » قبل الانشقاق فيستغل ، تحقيقا لذلك فيروسات شريهان

ولأمر ما تلتقط « شروق » الفيروس من عشيقها « كامى » فور التقاط الأخير له من شريهان ، ثم تنقله فى نفس الليلة الليلاء إلى زوجها « الشربينى » ولامر ما آخر ، كل ذلك كان يجرى تسجيله على شريط فيديو وضعه « الشربينى » خلسة فى حجرة نوم « كامى » كى يصور « شريهان » مع الأخير ، حتى يطمئن قلبه إلى نجاح التدبير .

فاذا بالكاميرا تلتقط بعد تصوير «شريهان» مشهدا للزوجة الخائنة « شروق » وهى نفس فى الاحضان .

وهنا ، لابد من القول بان كل هذا قد تحول بالفيلم الذى اراد له أصحابه أن يكون عملا جادا هادفا ، إلى فيلم لايثير فى أشد المواقف مأساوية الا الاضحاك ، ولاشيء الا الاضحاك .

اما قصة السينما الأمريكية مع مرض الايدز ، فعلى العكس من ذلك تماما .

فحتى الآن لم تنتج استوديوهات هوليوود الكبرى أى فيلم يعرض له لا تصريحا ، ولا تلميحا .



اندى جارسيا .. مرشح لدور مريض الايدز

● بيان للناس

وقبل أيام فقط أعلن مصنع الأحلام فى عاصمة السينما أن أصحاب الأمر والنهى فى استوديوهاته الكبرى اعطوا اشارة البدء بعمل افلام تعرض لمشاكل ، ولا اقول مآسى ، المصابين بمرض الايدز .

وما ان مرّت بضع ساعات على الاعلان ، حتى كانت اسماء المخرجين والممثلين المرشحين للمشاركة فى ابداع هذه الأفلام تتردد على كل لسان .

ومما اثار الدهشة ان يكون من بين الاسماء المرشحين للاخراج « جون شلسنجر » و « فرانسيس فورد كوبولا » و « جوناثان ديم » .

والثلاثة قد سبق لهم الفوز بجائزة أوسكار أفضل مخرج ، الاول « شلسنجر» عن فيلمة « راعى بقر منتصف الليل » (١٩٦٩) ، والثانى « كوبولا » عن فيلمه « الاب الروحى - جزء ثان » (١٩٧٤) ،

● القضية الكبرى

ويجئ إعلان الاستديوهات عن إنتاج أفلام مدارها مأساة الإيدز فى وقت تحول انتشار الإصابة به ، والعجز عن علاجه إلى قضية سياسية طرحت قبل أسابيع أمام الحضور فى المؤتمر العام للحزب الجمهورى الذى انعقد أصلا لتجديد ترشيح الرئيس « چورچ بوش » لفترة ولاية ثانية .

وقبل ذلك المؤتمر بخمسة أسابيع ، طرحت نفس القضية أمام الحضور فى المؤتمر العام للحزب الديموقراطى ، حيث وقفت سيدة من أعضاء الحزب اسمها « اليزابيث جليسر » ورجل اسمه « بوب هاتوى » .

وروى كل منهما مأساته مع المرض العضال ، وكيف أنه يعيش ما تبقى له من أيام منبوذا من المجتمع حتى انهارت دموع الحاضرين .

واستغل الديمقراطيون هذه الواقعة الحزينة انتخابيا ، فجعلوا منها سببا للتنديد بإدارة الرئيس بوش ، والاتهام لها بالتهاون فى التصدى لمأساة الإيدز التى تهدد المجتمع بالدمار والفناء .

وأخذ « بيل كلينتون » مرشحهم للرئاسة يطرح الوعود الانتخابية بأن يكون مرضى الإيدز موضع عنايته ورعايته فى حالة الفوز المبين .

ديم .. مخرج صمت الحملان مرشح لأول فيلم عن الايدز

والاخير « ديم » عن فيلمه « صمت الحملان » (١٩٩٢) .

أما الممثلون المرشحون فمن بينهم « بيل موراى » بطل « مطاردو الاشباح » و« اندى جارسيا » ابن « آل باشينو » فى « الأب الروحى - جزء ثالث » و « دانييل داى لويس » الفائز باوسكار أفضل ممثل رئيسى قبل سنتين عن ادائه المذهل فى فيلم « قدمى اليسرى » لدور رجل ولد معوقا ، لايستطيع ان يحرك من جسمه الا اصابع قدمه اليسرى ، بها يكتب ويرسم معبرا عن الذات .

وقيل - من بين ما قيل - ان « بيل موراى » سيسند اليه فى فيلم « سبب محتمل » « لجوناثان ديم » دور محام معاد للمنحرفين ، يكرههم كراهة التحريم .

وإن « أندى جارسيا » و « دانى داى لويس » يتنافسان على أداء دور المحامى العام المريض الطريد .

زمن اللامبالاة

والغريب من أمر مصنع الأحلام فى هوليوود أنه لم يهتم بالمأساة إلا أخيرا ، وقبل أيام .

فى حين أنه يعرف عنه أنه سباق إلى عمل أفلام عن أية مشكلة تثير اهتمام الرأى العام .

والسؤال هو لماذا هذا الإهمال من جانب استديوهات هوليوود لقضية ، بل قل ، لكارثة أودت بحياة مائة وثمانية وعشرين ألف مواطن أمريكى ، وازدادوا مائتين وتسعة وثمانين حتى نوفمبر الماضى ، وهو عدد يزيد عمن لاقوا حتفهم بسبب حرب ڤيتنام .

ومن بين هؤلاء الموتى ثلاثمائة وواحد وأربعون فنانا كانوا يعملون فى مصنع الأحلام ، لعل أشهرهم « روك هدسون » النجم الذائع الصيت و «تونى ريتشارد سون » زوج « ڤانيسا ردجرف » السابق ، والفائز قبل ثلاثين سنة بأوسكار أفضـــل مخـــرج عن فيلمه « توم جونز » و « براد ديڤير » الذى قام بأداء دورين فى أثناء حياته القصيرة ، أحدهما فى فيلم « قطار منتصف الليل السريع » (١٩٧٨) للمخرج «الان باركر» حيث تقمص شخصية مهرب أمريكى يذوق فى أحد السجون التركية ألوان العذاب .

والآخر دور بحار شاب جذاب فى فيلم « كويريل » المأخوذ عن قصة للأديب الفرنسى الراحل « چان چينيه » ، ترجمها إلى لغة السينما « راينر ڤيرنر فاسبندر » قبل رحيله بقليل (١٩٨٢) .

الصدمة الأولى

ولعلى لست بعيدا عن الصواب ، إذا ماجنحت إلى القول بأن العالم لم يع الأبعاد الحقيقية لكارثة الإيدز إلا بفضل واحد من نجوم هوليوود ، ألا وهو « روك هدسون » .

فلقد كان طولا بعرض ، يرمز إلى الصحة والعافية والفتوة والجمال .

اسمه الأول يعنى لغويا « الصخرة » أما « هدسن » فليس إلا اسم النهر الأمريكى الفائر بالأمواج المتلاطمة تنحدر صاخبة من أقصى الشمال فى كندا حتى نيويورك ، حيث تصب فى المحيط الهادر .

وفجأة ، إذا به أمام عدسات الكاميرات غائر العينين والوجنتين ، يلتقط أنفاسه بالكاد .

وإذا به إلى باريس يسافر للعلاج من المرض اللعين .

ولكنه يعود منها إلى هوليوود مجهدا ، ليس بينه وبين الموت سوى خطوات .

وكان الإعلان عن مرضه بالإيدز ، ثم موته قبل سبع سنوات ، وبالتحديد فى الثانى من أكتوبر لسنة ١٩٨٥ ، صدمة للرأى العام ، لا فى أمريكا وحدها ، بل فى العالم شرقا وغربا .

المستجيرات

ولم يمر على اختفاء « هدسون » سوى

أسابيع معدودة ، حتى كانت « اليزابيث تايلور » ترأس مؤسسة أنشئت تحت اسم المؤسسة الأمريكية لأبحاث الإيدز ، استطاعت من خلالها أن تجمع أربعين مليون دولار أو يزيد .

وحتى كانت « بت ميدلر » و « مادونا » و « شيرلى ماكلين » ، وغيرهن من فاتنات هوليوود ، يسرن على نفس الدرب ، داعيات إلى الوقوف صفا واحدا بالتبرعات والحفلات الخيرية ضد المرض اللعين .

ومع ذلك ، ورغم أن المرض جرى اكتشافه قبل اثنتي عشرة سنة بفضل الدكتور « مايكيل جوتليب » أحد أخصائيي المناعة فى جامعة لوس أنجلوس .

فلقد كان أول من لاحظ عجز بعض مرضاه عن مقاومة العدوى بأى مرض ، حتى ولو كان خفيفا ، واستسلامهم للموت بانهيار مقاومتهم نهائيا .

رغم كل ذلك لم تحاول الاستديوهات الكبرى أن تنتج فيلما واحدا يعرض لأكبر مأساة تتهدد الإنسانية ، وهى على مشارف القرن الواحد والعشرين .

وغنى عن البيان أن هذا التصرف كان تصرفا غريبا من قبل سينما وقود صناعتها الأشجان .

● حقائق وأكاذيب

وكانت حجة أولى الأمر فى تبرير الامتناع عن صنع أفلام تعرض للمأساة ، تتلخص فى أن فيلما يدور حول مرض الإيدز وضحاياه لن يحقق نجاحا جماهيريا .

فلا أحد يرغب فى أن يذهب إلى السينما ليخرج منها بعد مشاهدة الفيلم مصابا بحالة اكتئاب .

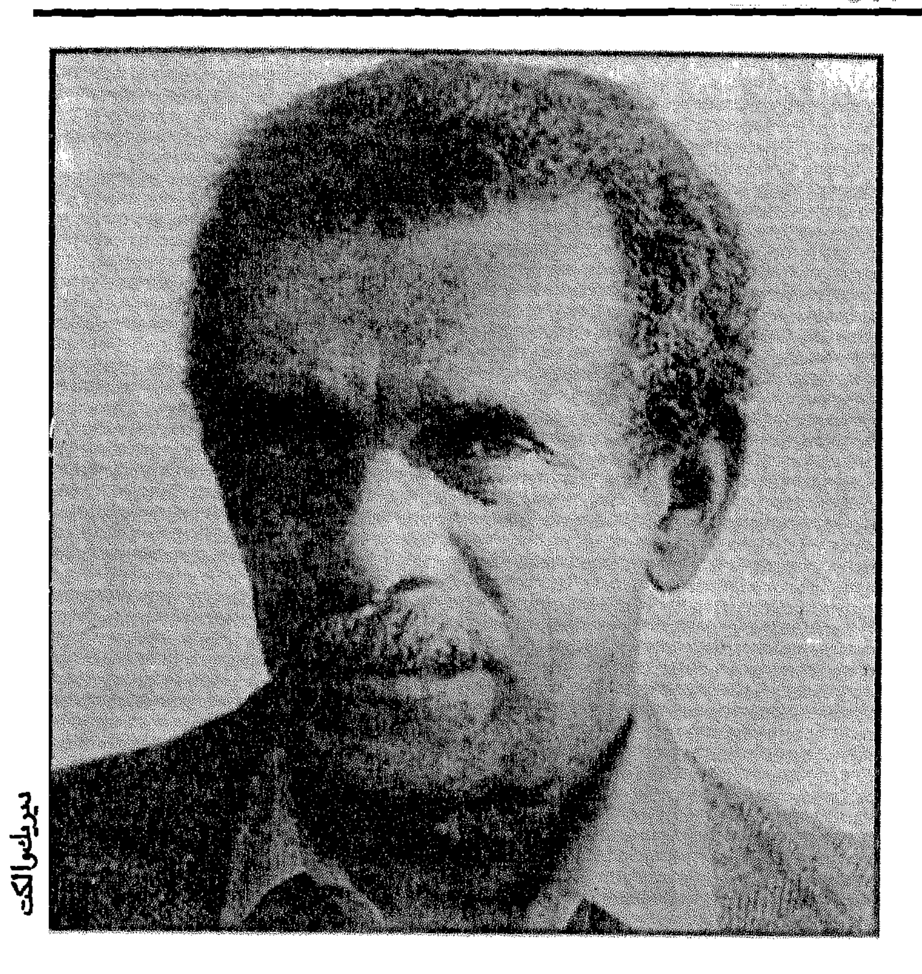
وهذه الحجة مردود عليها بأن هوليوود قد دأبت على ركوب المخاطر بخوض تجارب إنتاج أفلام ، كانت تعلم مسبقا أنها قد لا تحقق نجاحا كبيرا ، بل ربما لا تحقق أى نجاح فى الشباك ، وآية ذلك أخيرا « اعمل الصح » للمخرج الأسود « سبايك لى » ، وفيلم « مارتين سكور سيزى » عن السيد المسيح « الاغراء الأخير » .

غير أن هوليوود امتنعت عن فعل ذلك بالنسبة لمأساة الإيدز .

كان فى إمكانها بميزانية صغيرة ، وبصفقات مع التليفزيون والفيديو أن تنتج أفلاما تعرض لتلك المأساة ، دون أن تنجم عن ذلك أية خسائر على المدى الطويل .

ولكنها أحجمت ، مفضلة أن تنفق مئات الملايين من الدولارات على أفلام كالغريزة الأساسية ، لا تقول شيئا .

فلما تبين أنه مرض يتهدد الجميع ، ولو أهمل شأنه لا تسع الخرق على الراتق ، كما كان يقول أهل زمان ، لما تبين ذلك سقط حاجز الخوف على السمعة، وتهيأ مصنع الأحلام لإنتاج أفلام مدارها مأساة الإصابة بالمرض اللعين ، يبدعها أعظم المخرجين مع أشهر الممثلين .


ديريك والكت

حين تصبح الجائزة تكريما لذكرى اكتشاف أمريكا !!

بقلم : محمود قاسم

أول بادرة يمكن للمرء أن يحس بها بشأن منح الشاعر ديريك والكوت جائزة نوبل هذا العام هى ان أكاديمية ستكهولم قد تنبهت للثقافات البعيدة عن أوروبا والولايات المتحدة . وان الذين يسكنون المناطق البعيدة ، جغرافيا ، وثقافيا يكتبون أدبا متميزاً . حتى وان كانوا لايزالون يكتبون باللغة الإنجليزية . اللغة الأم لأغلب من فازوا بالجائزة طوال قرن من الزمان .

فبعد نيجيريا عام ١٩٨٦ ، ومصر فى عام ١٩٨٨ ، ثم جنوب أفريقيا عام ١٩٩١، ها هو ذا كاتب من ترينداد فى جزر الهند الغربية يحصل على الجائزة كشاعر . وقد ظل ديريك والكوت غريبا ، مثل الثقافة التى يمثلهـا ، عن القارئ خارج الدائرة التى يمثلها .

فإذا كان إبداع والكوت كشـاعر ومسرحى معروف فى المملكة المتحـدة ، باعتبارها زعيمة دول الكومنولث الغربية ، فإن أيا من الأعمال الكثيرة التى كتبها طوال نيف واربعين عاما من الزمن قد ظلت مجهولة خارج هذه الدائرة . وعلى سبيل المثال فإن دور النشر الفرنسية التى تتبنى أغلب المبدعين المميزين فى العالم ، ومنهم العرب بالطبع ، لم تنشر كلمـة واحـدة لوالكوت قبـل فوزه بجائزة نوبل . وأغلب المعلـومات التى نشـرت فى الصـحف والمجلات فى الأسابيع التى تلت اعلان الجائزة مأخوذة عن مركز المعلومات الرئيسى بواشنطن .

ومثلما كان سوينكا أول أفريقى يحصل على الجائزة . ومثلما كان نجيب محفوظ أول عربى يحصل على نفس الجائزة . فان ديريك والكوت أيضا هو أول رجل من البحر الكاريبى يحصل على الجائزة . وكل منهم يمثل ثقافة بكرا لم يكتشفها العالم بما تسـتحق . ولكن الذى لا شك فيه ان والكوت هو أسعد الفائزين بالجائزة حقا . فبلاده كانت قريبة من المنطقة التى نزلت عندها سفن كرستوفر كولمبس قبل خمسة قرون من الزمان . وبهذه المناسبة رأت الأكاديمية أن تكرم هذه المنطقة وثقافتها . فاعطت الجائزة لوالكوت الذى حصل على مبلغ يقدر بـ ١٫٢ مليون دولار . وهو مبلغ يعادل ثلاثة أضعاف ما حصل عليه أديبنا نجيب محفوظ .

★ لماذا .. أنا ؟

وقد جاءت جائزة نوبل بمثـابة تحية لثلاث ثقـافات يمثلها والكوت الأولى ثقافة

الكاريبى التى يعيش فيها الشاعر . ثم الثقافة الأفريقية التى جاء منها أجداده . والثقافة المكتوبة باللغة الإنجليزية . وذلك مثلما جاء فى حيثيات منح الجائزة لوالكوت . « ثقافة جزر الهند الغربية التى أسست شاعراً عملاقاً » .

وقد اشارت جريدة هيرالد تريبيون فى ٩ أكتوبر الماضى ان ثمانية عشر عضوا من أكاديمية ستكهولم قد اتفقوا على اختيار ديريك والكوت من بين مائتين وخمسين اسما رشحوا للحصول على الجائزة . ورغم ان الأكاديمية لا تعلن أبداً اسماء هؤلاء المرشحين . فإنه فى بعض الأحيان تتسرب الاسماء ومن أجل بعث الرضا والأمل فى قلوب البعض من أدباء العالم بأنهم المنتظرون ومع هذا فإن والكوت لم يكن مرشحا بالمرة . والسبب فى غاية البساطة . فالمسرحية الشعرية التى حصل على الجائزة من أجلها قد نشرت لأول مرة فى أواخر عام ١٩٩٠ . وحصلت فى العام التالى على جائزة أدب الكومنولث . وقد قال والكوت ابان نشرها مداعبا : « هذه المسرحية تستحق ان تحصل على جائزة نوبل . فالمال الذى يدفعونه كثيرا » . وقد أضاف والكوت يومها : « الطريف ان كل فائز بالجائزة يردد عقب حصوله عليها : ولماذا أنا ؟ » .

وإذا كان والكوت قد سأل هذا السؤال بدوره . فان جيمس آرنولد قد أجاب عليه بكل بساطة . وجيمس أرنولد هو مدير دراسات العالم الجديد فى جامعة فرچينيا ومنظم مؤتمر « قصص الهوية الأمريكية : ٥٠٠ عام بعد اكتشاف كولومبيا » . فقال : « يبدو اختيار والكوت كأنه بمثابة تكريم لذكرى اكتشاف القارة الأمريكية . ففى مسرحية « اومپروس » بين لنا والكوت كافة التقاليد الأمريكية فى نص درامى . بدءا من المولودين فى أمريكا وعبر الاوروبيين . واخلاق الأفارقة . لقد حرك المياه الساكنة بشكل فنى راق فى جزيرته الصغيرة عبر الفضاء والزمن » .

* هوميرس فى الكاريبى

والكوت المولود فى عائلة مسرحية ، فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٩٣٠ وضع كل خبرته وماضيه . وتراثه فى هذه المسرحية . فهو ابن لرجل يعمل فى الإدارة المسرحية . وامرأة مارست التأليف المسرحى . وشقيق لتوأم يعمل أيضا فى المسرح . ورغم ان أكاديمية ستكهولم قد منحت والكوت جائزتها له كشاعر . فإن ابداعه المسرحى أكثر بكثير من قصائده المتناثرة التى جمعها فى مجموعة قليلة من الدواوين . إلا ان هذا لم يمنعه ان يكرس موهبته كشاعر فى خدمة المسرح . فكتب العديد من المسرحيات الشعرية من بينها :

« هنرى كريستوف » عام ١٩٥٠ . و«هنرى درينر» عام ١٩٥٤ . و «القلعة الساحرة» عام ١٩٧٠ . ثم « رجل مشعوذ » عام ١٩٧٤ . و« مملكة التفاح » عام ١٩٧٨ . ثم « آه يا بابليون » عام ١٩٧٨ . ثم «اوميروس» عام ١٩٩٠ .

والمسرحية الشعرية « اوميروس » هى أضخم أعماله ، وكما هو ملاحظ فإن الكاتب يحاول أن يصيغ اوديسا معاصرة من خلال تأثره الشديد واعجابه بهوميروس الشاعر اليونانى . وملحمتيه « الاوديسا » و « الالياذة » . وإذا كان اودسيوس فى الجزء الثانى من الملحمتين يعود من حرب طروادة بعد ان حقق الانتصار كى يبحث عن أسرته التى تنتظره أكثر من عشرين عاما . فإن اورسيوس فى ملحمة والكوت هما اثنان من الصيادين يقرران أن يقوما برحلة عبر المحيط الاطلنطى نحو بلادهما الأصلية التى جاء منها الأجداد نحو أفريقيا . والراوية فى هذه الملحمة العصرية يدعى هوميريس - لاحظ اختلاف الحروف فقط فى المسميات .

والمسرحية بمثابة رحلة زمنية غريبة الشكل . فهى تنتقل بين عصور عديدة . بداية من زمن هوميروس إلى أيام « فريق الخنافس » وذلك من خلال تاريخ بحر الكاريبى . وذلك فى إطار تحولى ، كما كتبت جريدة ليبراسيون فى ٩ أكتوبر ١٩٩٢ ، والذى ظل يرزح طويلا تحت وطأة الاستعمار .

* صرخة بعيدة من افريقيا

وطالما أننا نتحدث عن والكوت كشاعر . فمن المهم ان نترجم له بعض القصائد التى نشرها فى السنوات الأخيرة . ففى أعماله الكاملة . والمنشورة عام ١٩٨٤ . وفى قصيدته « صرخة بعيدة من أفريقيا » . يقول :

عندما سألتفت نحو عروقى
فانى التقى بالضابط البريطانى الحاكم الذى يختار
بين أفريقيا هذه . واللسان الأفريقى
هل أحب نفسى ؟
أتساءل عن قوتها . أو اتراجع القهقرى .

وفى قصيدة له منشورة عام ١٩٨٤ فى ديوانه « منتصف صيف » يقول :

كل شئ ينحدر كأنه حجر
ينسلخ إلى حضن البحر . وكأنه يكذب
دع الأحجار تغوص فى الأعماق . فى ذاكرة البحر .
واتركها فى المياه . مثلما كان أبى يفعل بالألوان المائية
يمارس عمله . ويستجلب شبحه
يتماوج ويتمايل فى ضوء الشمس فى منتصف الصيف .

العالم فى سطور

سيوة

مصر .. هبة الواحات

إذا كان القول المأثور يؤكد ان من شرب من مياه النيل مرة واحدة ، فلابد أن يعود من جديد ليرتوى منه . فإن الكاتب الفرنسى ألان بلوتيير يؤكد ان من عاش فى صحراء مصر وعرف ايقاع الحياة فيها لابد أن يعود إليها مرات ومرات .. ولابد أن يكتب عنها الكتب والروايات .

هكذا تحدث الكاتب فى روايته الأولى « نقطة ماء » المنشورة عام ١٩٨٥ عن مظاهر الحياة فى واحة سيوة . ثم فى روايته الثانية « سعد » التى يصف فيها نفس الواحة بأنها أرض الله التى يذهب البشر إليها للبحث عن كنوز المطلق . وفى هذه الرواية التقى مجموعة من الغرباء لأول مرة فى القرن التاسع عشر . لقد جاءوا جميعا بدافع البحث عن العلم والمعرفة . فوجدوا أنفسهم ان عليهم ان يكتشفوا سحر هذا المكان وروعته .

والرواية مأخوذة عن قصة حقيقية . وقد سعى ألان بلوتيير إلى تمجيد الاثنين معا . المكان والاشخاص الذين جاءوا إليه . فقد اكتشف هؤلاء العلماء ان مصر عالم عاطفى رائع لكل من يأتى إليه . خاصة الغربيين . وان للواحات سحراً خاصاً لايعرفه سوى من يعيش فيه .

آخر كتاب صدر فى الصيف الماضى لألان بلوتيير يحمل عنوان « واحة سيوة » . أو « عدن الطبيعة » . ويرى فيه ان هذه الواحة ليست غنية بحدائقها . ولكن بنخيلها العالى . وبزيتها وشمسها التى لا تغرب طيلة النهار الا عند الليل . انها شمس تتمتع بحرية خاصة تنعكس سماتها على هؤلاء الذين يعيشون أسفلها .

ويرى الكاتب ان هيرودت لم يأت إلى الصحراء البعيدة التى تقترب من الحدود الليبية ، ولذا فهو لم يعرف طعم الحياة فيها . والا ردد ان مصر هبة الصحراء . مثلما أكد انها هبة النيل . وقد راح الكاتب يفسر ان الفراعنة قد اتجهوا إلى الصحراء للتعبد لما عرفوه من صفاء الحياة هناك ولعل هذا السبب هو الذى دفع الاسكندر الأكبر ان يبنى مدينته قريبا من البحر والصحراء . بدلا من وادى النيل نفسه .

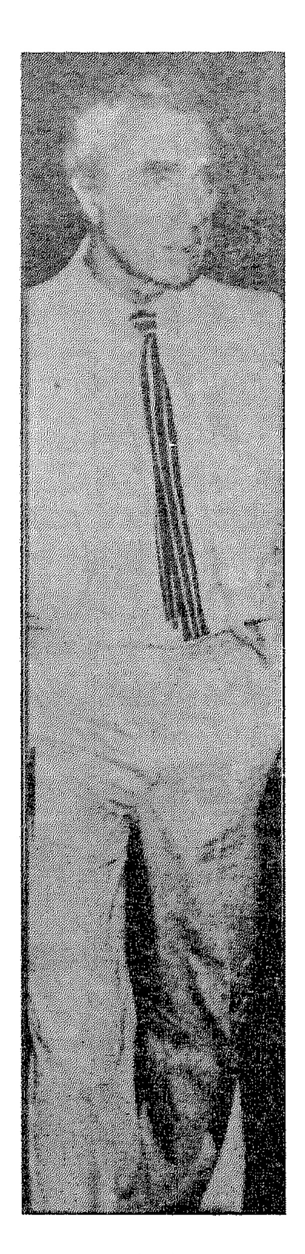
الجدير بالـــذكر ان المؤلف ألان بلوتيير قد عمـل طـويلا فى واحة سـيوة كخبير عسكرى . ولكنه تحول إلى أديب - مثلما تقول مجلة ماجزان ليترير - تحت سـطوة الصحراء .

رومـا

المحنة : انطونيونى

احتفلت ايطـاليا فى اوائل الشـهر المـاضى بعيـد الميـلاد الثمـانين للمخرج المعروف مايكل انجلو انطونيونى صاحب أهـم أفـلام السـينما الايطالية فى الخمسـينات والسـتينات . وهـو بالاضـافة إلى كـونه مخـرجا فهو أديب وفنان تشكيلى متميز .

انطونيـونى المولود فى عـام ١٩١٢ درس الهندسـة والرسـم فى



جامعة بولونيا . واتجه فى بداية حياته نحو المسرح والأدب . حيث كتب عدة روايات كوميدية اخرجها بنفسـه على خشـبة المسرح . ثم مارس النقد المسرحى والسـينمائى . وقد بدأ يمـارس كتابة السيناريو عقب حصوله على شهادة فى التقنيات السينمائية . فكتب قصة فيلم « عودة الطيار » التى اخرجها روسـيلينى . ثم عمل مترجما حيث ترجم العـديد من الروايات الفرنسـية إلى اللغـة الايطـالية . وفى عـام ١٩٥٠ أخرج فيلمه الأول « يوميات حب » ثم توالت أفلامه البارزة والتى منها «المغامرة» الذى صور حالة عدم الاستقرار بين البشر وتشعب العواطف الإنسانية . ثم هناك أفلام أخرى من طراز «الليل» .

و«الصحراء الحمراء» . و « تكبير الصورة » المعروف تحت اسم انفجار . ثم « المهنة صحفى » .

وانطونيونى لم يتوقف قط عن الابداع السينمائى . لكن أفلامه الأخيرة بدت تائهة قياساً إلى أفلامه الأولى . وخاصة فيلمه الشهير «انفجار» . الا انه فى عام ١٩٨٥ نشر كتابا يحمل عنوان « لا شئ سوى الكذبات » حاول ان يقدم فيه عصير حياته عبر الرحيل . والنساء . والابداع الفنى . ويبدا هنا أشبه بالمصور فى فيلمه السابق الاشارة إليه . فهو يلتقط الصور العابرة من لحظات البشر . لتكون شاهدة عليهم .

ويقول انطونيونى فى هذا الكتاب ان المؤلف يجد نفسه مهتما بالتفاصيل فى الكتابة أكثر من المخرج . وذلك كى يساعد القارئ أن يتخيل أكثر . اما المتفرج فعليه ان يرى « فقط » .

والجدير بالذكر ان انطونيونى لم يترك عالم الفن التشكيلى . فمنذ عامين فقط اقيم معرض ضخم ضم مجموعة من لوحاته . ويقول ان علاقته بالرسم تختلف . فهو كثيرا ما يمزق لوحاته . كى يعيد تركيبها مرة أخرى لتكون لوحة جديدة مثلما حدث مع لوحته المشهورة « الجبل السحرى » .

والرسام انطونيونى يعترف أنه لا ينتمى إلى مدرسة فنية بعينها . فهو يرسم دون ان يمنهج نفسه لانه لا يحب أن يضع نفسه فى إطار بعينه . ولعل انطونيونى المخرج أكثر قربا من هذا الرسام . فهو لا يمكن تصنيفه فى مدارس السينما الايطالية واتجاهاتها . فلم ينتم إلى الواقعية . ولا إلى التجريدية والعبثية المعروفة عن فيللينى .

نيبودلهى

سيرة .. وطن

« الهند . بلد المليون ثائر »

عنوان الكتاب الذى صدر باللغة الإنجليزية للروائى المعروف ف . س . نايبول . والذى يعيش فى بريطانيا منذ سنوات طويلة .

هذا هو الكتاب الثالث الذى يخصصه نايبول للحديث عن وطنه الأصلى الذى هاجر عنه وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . وهو اقرب إلى كتاب رحلات . يتناول فيه الهند سياسيا واجتماعياً وحضاريا . كان قد نشر كتابه الأول « الهند المحطمة » عام ١٩٧٧ . والذى أكد فيه ان الهند الحقيقية لم تعد موجودة . وان الهنود قد تركوها للاقامة فى ترنيناد منذ



ثلاثة أجيال . ومن هؤلاء الهنود كان نايبول الذين يسميهم بهنود الشتات الذين كانوا مهددين دوما بالتشريد والفراغ . وقد عاشوا حياة متواضعة .

من المعروف ان ترنيناد مستعمرة بريطانية يسكنها الهنود . وفى روايته « منعطف النهر » عبر نايبول عن حالة عدم التأصل الذى يحياه هؤلاء الهنود . ورغبتهم فى الهجرة إلى اماكن أخري . خاصة بريطانيا .

وفى بريطانيا يعيش هؤلاء الجنود بلا هوية محددة . فلا هم بالبريطانيين ، رغم الجنسية التى حصلوا عليها ولا هم بالهنود . ولذا فإن كاتبا مثل نايبول مصاب بداء الرحيل . كثيرا ما تحط به الطائرة فى عواصم الشرق من أجل أن يعيش إنسانه الشرقى . ولذا جاء كتابه «الهند . بلد المليون ثائر» بمثابة سيرة ذاتية لنايبول يتحدث فيها بصوت عال عما يعجبه فى بلاده ، وعما لا يعجبه . ويعيد إلى الحياة أشخاص ماتت ذكراهم منذ أمد طويل .

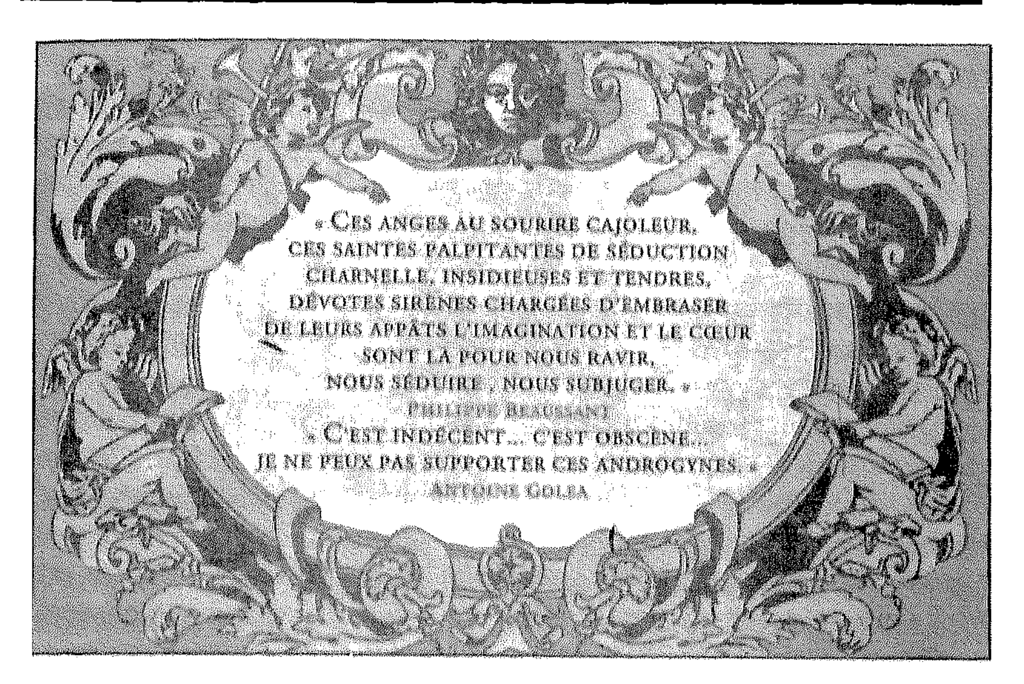
ويقول نايبول انه كان أشبه بقط له عين واحدة يقف فى ركن صغير يرقب كل ما يدور حوله ويسمع الهمس قبل الاصوات العالية . ويتمنى ان يظل الناس يتكلمون كى يعبروا عن مكنون قلوبهم ومشاعرهم .

ويعتبر نايبول كتابه اشبه بحوار داخلى يتحدث به إلى ذاته . ورغم ذلك فهو كتاب ساخن أقرب إلى سيرة وطن . منه إلي سيرة أديب .

باريس

عودة عصر الباروك

احتفلت مجلة أدبية هامة فى الشهر الماضى بصدور عددها رقم «٣٠٠» . وهى مجلة «ماجزان ليترير» التى تصدر منذ خمسة وثلاثين عاما . وهى تعتبر أهم مجلة أدبية تصدر باللغة الفرنسية .

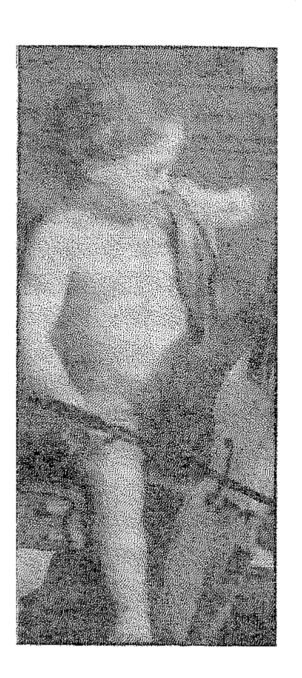


نماذج من فنون عصر الباروك

وتقوم سياسة هذه المجلة على الاهتمام بالكتب الجديدة، والصورة، والادباء، وقضايا الثقافة مع التركيز على قضية أدبية فى كل عدد. ولذا اختارت فى عددها الاخير ان يكون حول عصر الباروك بالاضافة إلى الأبواب الثابتة.

وتقول المجلة ان نجاح فيلم « كل صباحات العالم » الذى حقق أعلى قدر من جوائز سيزار هذا العام قد أكد عودة عصر فن الباروك مرة أخرى. ورغم ان المجلة قد اعترفت ان كلمة «الباروك» لم تعد تعنى شيئا عند تفسيرها. فإن الفنانين فى القرن السابع عشر الذين تميزوا من عصر الباروك قد اهتموا بالشكل والصياغة. ويرى الناقد جان جاك بروشيه ان تفسير «الباروك» يعنى تفسير العصر الذى كان ينتمى إليه هذا الفن. كأن تقول إنه راسين والقوطية والجمالية واشياء عديدة. لذا فإن الباروك كلمة قد تكون بلا معنى وفى نفس الوقت لها عشرات المعانى.

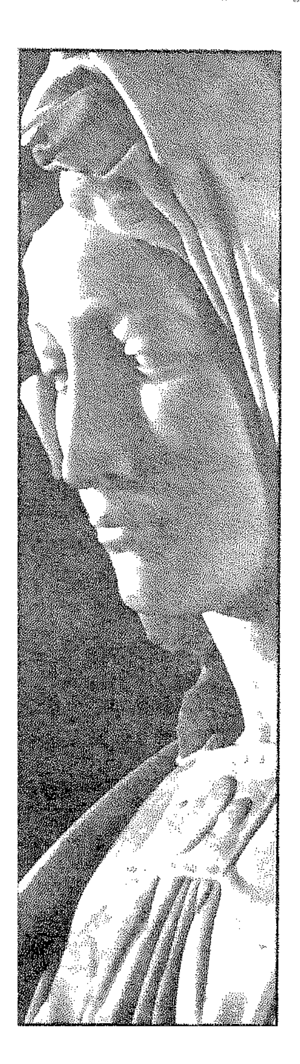
وفى مقال للكاتب الكوبى اليهو كار بنتير ان الباروك لم يتوقف قط منذ القرن السابع عشر. فقد عهدناه أيضا فى عهد نابليون. وفى روايات



دون كيشوت . و« أحدب نوتردام» ثم فى أعمال بروست .

وتؤكد المجلة ان عصر الباروك قد ازدهر فى أواخر القرن العشرين فى أمريكا اللاتينية فقد اهتم بها الكوبى خوسيه ليما . الذى ربط بين الوهم وانعكاس الواقع . ولم يقتصر الباروك على الأدب والفن التشكيلى وحدهما . بل وصل إلى عالم السياسة .

كان من مظاهر احتفال المجلة بعددها رقم ٣٠٠ نشر مجموعة من الصور النادرة لادباء معروفين قام بتصويرهم واحد من ابرع المصورين هو رايمون موريتى . اما محور العدد فقد كان عبارة عن مقابلة طويلة مع الكاتب الالمانى - ٩٧ سنة - ارنست يونجر الذين يطلقون عليه اسم بطريرك الأدب الالمانى . والذى اثارت روايته « مهمة صخور المرمر » ضجة فى عام ١٩٣٩ لوقوفها ضد النازية بكل حزم . ومن أهم أعماله الأخرى « مشاكل علاء الدين » . وتجئ أهمية يونجر أنه الكاتب الشاهد على قرن كامل من الزمن . فقد كان ضابطا متميزا فى الحرب العظمى . وحصل على وسام الشرف لما ابداه من شجاعة فى معركة سيدى ابن عباس عام ١٩١٣ .



تفصيل من تمثال العذراء والطفل للفنان مايكل انجلو

أنت والهلال

● فى العيد المئوى للهلال ●

عيدُك العيدُ ياسميَّ الهلالِ .·. يزرع النور فى قلوب الرجالِ
ما رأينا لمثله من شبيه .·. عرفته شوامخ الأجيالِ
يصل الأمسَ بالذى سوف يجرى .·. ويمدّ الجسور دون اختيالِ
وهو سرٌّ لكل فن جميل .·. ومدارٌ مداه رحب المجالِ
منذ عهد الصّبا سميرٌ ، خدينٌ .·. ونديمٌ ، وخيرُ صحبى الغوالى
ياهلالاً له روافدُ شتى .·. من أفانينَ رُصّعت بالجمالِ
مذ حملت الذى حمّلت وليداً .·. وصبيّاً ويافعاً ذا نوالِ
وعطاياك للثقافةِ نهْرٌ .·. وعيونٌ تفيض دون سؤالِ
يبصرُ الشرق فيك خير رسولٍ .·. لا يُدارِى سناهُ كرُّ الليّالى
وهَوَى الضّاد فى مراياك يبقى .·. أبد الدّهر مِنْ تمامِ الكمالِ ..
عشت «دار الهلالِ» صرحَ شموخٍ .·. يتبنّى روائع الأعمالِ ..
هكذا النيل من قديم كِتَابٌ .·. فيه ما فيه من صِبا وجلالِ ،
كم كرامٍ إليه جَاءُوا غراماً .·. خشّعاً يبتغون دَرْك المعالى
فأقاموا صَلاتهُمْ ، واستقلوا .·. بِفعالٍ تغنى عن الأقوالِ

محمد عبدالفتاح إبراهيم
٩٣ شارع أحمد عرابى بالمهندسين

● مدرسة الاستنارة .. أين ؟! ●

● والدولة تحتفى بالهلال نوراً ونبراساً للتنوير فى مائة عام مضت ولمائة عام قادمة بإذن الله .. أين «المدرسة المصرية» من التنوير والعلم والمستقبل بعد أن

ران عليها التخلف الفكرى وسيطرت عليها أفكار قلة من المعلمين المبرمجين الذين يرددون شعارات لها موسيقاها وليس لها مدلولها ؟! أين المدرسة المستنيرة التى عرفناها منذ سنين حيث تلقينا الأدب والنغم والمسرح والصحيفة تربية مستقبلية هيأتنا لأن نفهم بعقولنا ونردد بقلوبنا وندرك بوعينا ما يجرى حولنا دون بوصلة توجهنا إلى الصحيح أو مرشد أو أمير ؟!

كيف تستعيد المدرسة أم الإصلاح وأم المشاكل دورها لتكون هلالاً لعصر جديد منير وقد انتهى منها الملعب والمسرح والمكتبة والصحيفة وجماعات المناظرات والرسم والتربية الزراعية والتربية الموسيقية وحفلات العام الدراسى والمسابقات الأدبية والفرق المسرحية ؟!

كيف تقوم المدرسة بدورها فى (التربية) دون تربية الحواس بالسمع للألحان وتذوق جمال الشعر وترديده وتدريب الجسم السليم ليحوى الفكر السليم ؟

كيف نعتبر تخريج الآلاف والآلاف من آلات التسجيل والتلقى والترديد تعليماً ؟! ثم أين التربية التى تعين على ملاقاة الحياة بوعى وإدراك ؟!

أرجو أن يهتم هلال التنوير بمدرسة مصرية يعمها الظلام حتى نبدأ بحق قرن التنوير الثانى .. أطال الله عمر الهلال ليصبح بدراً وبدر البدور فى أيام كلها نور واستنارة .

زغلول توفيق – بنى سويف

● فى سماء الهلال ●

أنت بدر وإن دُعيت هلالا .·. هكذا البدر حين يزهو اكتمالا

كنت مذ ضحوة الشباب أراه .·. فائقا سامقا ينال المحالا

رغبة القلب ، دعوة الفكر ، روحى .·. تنتشى رقة وتصفو جمالا

رمضان أبو غالية

● الهلال للأجيال●

● كان لإصداركم الأعداد الأولى من مجلة الهلال الأثر الكبير في نفسي وفي نفوس الكثير من قراء الهلال . وتحقق الأمل الذى كنت فى غاية الشوق إليه ، وإلى ما كان يكتب فى الهلال من مائة عام . فأنا واحد من بين الملايين من عشاق الهلال ، وأعداده موجودة فى مكتبتى منذ خمسة وثلاثين عاما بفضل مواظبة المرحوم والدى على شرائها والاحتفاظ بها لأولاده . فكانت الهلال أولى المجلات التى أمسكتها بيدى وقرأت منها حتى نهاية دراستى الجامعية بكلية الحقوق وها أنا الآن أحتفظ بها لأولادى كما أحتفظ بها والدى - عليه رحمة الله - لى . فأرجو قبولى صديقا لمجلة الهلال من خلال باب أنت والهلال .

فايز أحمد البنا
أبو الجهور - مركز السنطة

● على عبد الرازق وشفيق منصور●

● نشرت مجلة «الهلال» فى عدد أغسطس الماضى مقالا بعنوان «الجامعة الأهلية بين تكافؤ الفرص وإصلاح التعليم» للدكتور شبل بدران .

وقد استوقفنى فى هذا المقال الذى تناول فيه كاتبه تناولا مستنيرا قضية من أهم قضايانا التعليمية هنة صغيرة ، أو بالأحرى «فلتة قلم» ، رأيت لفت النظر إليها إثباتا للحقيقة وحتى لا تختلط الأمور فى ذهن بعض القراء ، وبخاصة من الشباب الذين بعد العهد بينهم وبين الأحداث التى أشار إليها الكاتب .

قال كاتب المقال «.. والدليل على ذلك المعارك الوطنية الى خاضتها الجامعة المصرية بعد دمجها فى الجامعة الحكومية عام ١٩٢٥ متمثلة فى معارك طه حسين ومصطفى عبد الرازق..» . وأكدت المجلة هذه «المعلومة» بنشر صورة الشيخ مصطفى عبد الرازق مع غيرها من صور الذين وردت أسماؤهم فى المقال .

وغير خاف أن المقصود هو الشيخ على عبدالرازق شقيق الشيخ مصطفى وصاحب الكتاب المعروف «الإسلام وأصول الحكم» .

● وفى عدد سبتمبر الماضى كتب الصديق الدكتور على شلش «رسالة لندن» بعنوان «الرجل الذى أحب مصر» عن «البكباشى ماكفرسون» البريطانى الذى عاش فى مصر ما يقرب من نصف قرن .

وقرب نهاية المقال ذكر الكاتب أن ماكفرسون حضر ذات يوم محاكمة بعض الوطنيين المصريين فى أثناء ثورة ١٩١٩ «وكان منهم الدكتور منصور»، ثم أضاف بين قوسين معلقا (لا ندرى بقية اسمه) .

وأود أن أوضح للصديق الدكتور شلش وللقراء أن ذلك الوطنى هو الثائر الشهير الدكتور شفيق منصور الذى حمل مع نخبة من شباب مصر الاطهار عبء محاربة المحتل الانجليزى بكل الطرق من خلال تنظيمات سرية ثورية لعل أبرزها «جمعية اليد السوداء» .

وقد حوكم شفيق منصور أكثر من مرة ثم جاءت نهايته على حبل المشنقة بعد حادث اغتيال السردار السير لى ستاك عام ١٩٢٤ .

د . أحمد حسين الصاوى

● القدس عربية ●

● قرأت بعدد يوليو ١٩٩٢ من «الهلال» موضوعا بعنوان «القدس عربية» للأستاذ محمد هيكل ، ولكن لما كان الكمال لله وحده فقد لاحظت قليلاً من الاخطاء الصغيرة التى لن تغير من دسامة الموضوع أو تقلل من أهميته .

ولحرصى على كل ما يذكر عن القدس وذلك لمكانتها الكبيرة لدى العرب جميعاً ، فقد رأيت أن لا تمر مثل هذه الاخطاء الصغيرة على قلتها أو تفوت على بعض القراء .

● فقد جاء فى صفحة ٨١ : «وعندما زحف اليهود على يبوس (القدس) إثر خروجهم من مصر بقيادة يهوذا الخ ...»

- والحقيقة التاريخية تقول أن العبرانيين كانوا بقيادة (يوشع بن نون) أو يشوع كما يسميه اليهود فى توراتهم ، عندما هاجموا القدس واحرقوها كما فعلوا فى كل مدينة احتلوها ، حيث كانوا قد احرقوا أريحا أقدم مدن التاريخ .

● وجاء على نفس الصحفة ٨١ أن اسم الدويلتين العبرانيتين كان : «إسرائيل» و«اليهودية» ...

- والحقيقة ان اسم المملكة الثانية (الدويلة) العبرية كان مملكة «يهوذا» وليس «اليهودية» وذلك نسبة إلى اسم يهوذا الابن الرابع ليعقوب كما تقول توراتهم . وقد عاشت هذه المملكة «يهوذا» مائة وثلاثين سنة وزالت فى العام ٥٨٦ ق . م . حين غزاها نبوخذ نصر ودمر هيكل سليمان وطهر فلسطين من العبرانيين وآثامهم . وكانت القدس مركزا لهذه المملكة الهزيلة .

اما مملكتهم «إسرائيل» فلم تكن قد عاشت سوى ثمانين سنة حيث كانت مقاومة الكنعانيين العرب من فلسطين والفينيقيين العرب من سوريا ولبنان قد مهدت لزوالها حين هاجمها الأشوريون من العراق ودمروها فى العام ٧٢٢ ق . م . .

وكانت «السامرة» قرب مدينة نابلس الآن مركزاً لهذه المملكة .

اما باقى أجزاء فلسطين خاصة الساحل الممتد من غزة جنوبا إلى صيدا فى لبنان شمالاً ، فقد بقى محرراً ، مرتبطاً بثقافته وحضارته وتجارته من مصر من الجنوب ومع سوريا ولبنان من الشمال .

ومن هذا نلاحظ أن العبرانيين أو اليهود لم يحكموا أو يسيطروا إلا على أجزاء من فلسطين ولفترة محدودة جداً لا تذكر فى عمر الزمن وعمر الأمم ، حيث لم تزد هذه المدة على ١٣٠ سنة فى أطول فترة لها . وأين هذا من آلاف السنين التى عمّر بها الكنعانيون العرب فلسطين ، هم وبطونهم المختلفة .

● جاء بالموضوع صفحة ٨٢ - أن الناس كانوا يتكلمون الآرامية وأن المفكرين كانوا يكتبون بالاغريقية ، وأن الحضارة تلك هى التى انبثقت عنها الحضارة العربية اللاحقة .

- والحقيقة أن الحضارة الكنعانية كانت قبل الحضارة الإغريقية ، وأن اللغة الكنعانية هى اللغة الأصل أو - الأم - وهى التى كانت مستعملة فى القدس وباقى أنحاء فلسطين .

ويذكر علماء اللغات أن الكنعانيين العرب هم أول من اخترع الحروف الابجدية فى العالم ، ويقسم علماء اللغات اللغة الكنعانية - وهى لغة العرب البائدة - إلى قسمين ، ومن القسم الأول انبثقت العربية ، والآرامية والعبرية، ومن القسم الثانى انبثقت الاثيوبية .

● جاء بالموضوع صفحة ٨٥ - أن الجنرال «اللنبى» قائد الجيش البريطانى الذى احتل فلسطين فى ديسمبر ١٩١٧ م فى الحرب الـ الأولى ، وقف أمام باب الخليل فى القدس وأذاع على الناس بيانا الخ ..

- واضيف هنا أن الجنرال «اللنبى» هذا كان قد قال شيئاً آخر عدا بيان العسكرى عبّر به عن حقده على العرب ، إذ قال وهو يقف متغطرساً متطلعاً

إلى المسجد الأقصى المبارك : «الآن انتهت الحروب الصليبية» ! ..

● جاء بالموضوع صفحة ٨٤ – نص جزء مختصر من الوثيقة التى اعطاها الخليفة عمر بن الخطاب إلى المسيحيين العرب من أهل القدس ، وهذا الاختصار بنص الوثيقة هذه والمسماة «بالعهدة العمرية» افقدها الكثير من معانى الرحمة والتسامح والإنسانية التى اتصفت بها الفتوحات الإسلامية ، فليراجع القارىء نص هذه الوثيقة العظيمة فى مراجعها التاريخية .

مرة أخرى اقول إن الأستاذ محمد هيكل أحسن فى موضوعه فبارك الله فيه .

وبارك لكم جهودكم فى تذكير العرب إينما كانوا بمدينتهم المقدسة «القدس الشريف» العربية إلى الأبد بإذن الله .

سعد يوسف الدجانى

الزرقاء – الأردن

● التباس واستدراك ●

● نشرت «الهلال» فى عدد شهر سبتمبر ١٩٩٢ مقالا تحت عنوان «رؤية لمستقبل مصر» وتذكرون ولاشك أننا حين تحدثنا عن موضوع العدد قلت أن المركز انشغل لفترة منذ ثلاثة أعوام بإعداد مشروع لدراسة عن مستقبل مصر ، وشكل فريقا يضم الدكتور حازم الببلاوى والدكتور على الدين هلال وكاتب هذه السطور ، وأنه من خلال اجتماعات عمل متعددة وأوراق معدة خصيصا لهذه الاجتماعات أمكن اعداد مسودة للمشروع . وقد طلبتم إعداد ملخص لهذا المشروع فى شكل مقال ينشر فى الهلال باسم المركز أو باسم المشاركين الثلاثة فى إعداد المشروع . وبالفعل قام المركز بإعداد المقال معتمدا على محاضر الاجتماعات وأوراقها . وكتبت بخطى على مخطوطة المقال التى سلمت لكم البديلين الذين اتفقنا عليهما . كتبت المركز العربى لبحوث التنمية والمستقبل وكتبت أيضا جميل مطر ود. حازم الببلاوى ود. على الدين هلال .

وقد فوجئنا ثلاثتنا بنشر المقال باسمي وحدى . ولذلك أرجو نشر التنويه اللازم فى العدد القادم من الهلال ، والكتابة للزميلين الدكتور حازم الببلاوى والدكتور على الدين هلال لتوضيح الأمر وإزالة أى أثر لسوء الفهم .

جميل مطر – مدير المركز

● رؤية لمستقبل مصر ●

● يسعدنى أن اهنئكم بالعيد المئوى لمجلة الهلال العتيدة ، كما انتهز هذه المناسبة لأعبر لكم عن تقديرى عن العدد الممتاز لشهر سبتمبر بهذه المناسبة الهامة . ولست فى حاجة إلى الاشارة إلى الدور التنويرى الهام الذى قامت به هذه المجلة عبر تاريخها الطويل ، وانها - فى ثوبها الحديث مع اشرافكم - تستمر فى اداء دور يعتز به كافة ابناء الوطن .

واجد بعض الصعوبة فى الانتقال من هذا المقام الجميل لأشير إلى واقعة جانبية ليست على نفس القدر من الخطورة ، ولكنها - مع ذلك - تبدو غريبة بل ومقلقة . فقد اطلعت على مقال الاخ والصديق الاستاذ جميل مطر المنشور فى عدد سبتمبر ١٩٩٢ الاخير بعنوان «رؤية لمستقبل مصر» فى الصفحات ٥٨ - ٦٤ ، وقد استرعى انتباهى أن نصف المقال المتعلق بمعطيات المستقبل ، (ص ٦٢ وما بعدها) تنطوى على تطابق تام - ليس فى المعنى فقط وإنما فى العبارات - مع كتابات سابقة لى (فى مؤلفى «محنة الاقتصاد والاقتصاديين» ، ١٩٨٩ ، دار الشروق - القاهرة ، واعيد نشر بعضها فى مؤلفى «بعد أن يهدأ الغبار» ، ١٩٩١) .

وقد رأيت أن أرسل لكم مع هذا نسخة من صفحات ذلك المؤلف ، لتقفوا بأنفسكم على التقابل المذهل - مع بعض الاختصار . وإذا كان من الطبيعى أن تتلاقى الأفكار وتتوارد الخواطر عن ظواهر عامة ، فإن تطابق العبارات والالفاظ - وبدون تغيير باستثناء بعض الحذف - لما يدعو إلى بعض الدهشة . وبقدر سعادتى بأن تتلاقى نفس أفكارى - بل وعباراتى - مع مقال الزميل العزيز الكاتب ، فقد رأيت أن من حق القارىء أيضا أن يشاركنى هذه السعادة بملاحظة هذا التطابق الخلاق !

دكتور حازم الببلاوى

● استدراك ●

● وقع خطأ مطبعى فى رقم العدد الثانى من «الهلال» للسنة ١٠١ الصادر فى أكتوبر الماضى - وهو العدد التذكارى الممتاز - فبدلا من كلمة «الثانى» ظهرت كلمة «الأول» . فنعتذر إلى القراء الأعزاء ، ونرجو تصحيح ذلك الخطأ فى كل نسخة .. وعلى هذا يكون عدد نوفمبر سنة ١٩٩٢ هو العدد الثالث من السنة الواحدة بعد المائة للهلال ..

مصر والعالم يوم صدور الهلال

الاعداد الخمسة الأولى من مجلة الهلال

من سبتمبر ١٨٩٢ إلى يناير ١٨٩٣

الثمن ٤ جنيهات

الاعداد السبعة الأخيرة من السنة الأولى

لمجلة الهلال

من فبراير ١٨٩٢ - إلى أغسطس ١٨٩٢

الثمن ٦ جنيهات

تطلب من مكتبة دار الهلال والمكتبات الكبرى



مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا...



ديسمبر ١٩٩٢ • الثمن ١٠٠ قرش

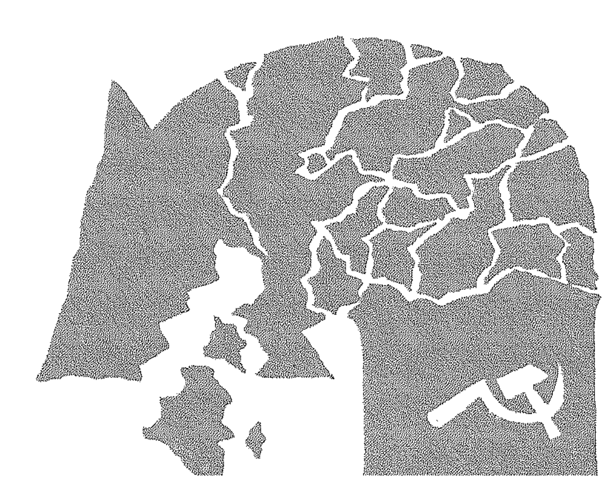
الزلزال على أرض مصر

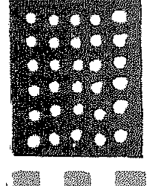
إخناتون ومزامير داود

أمريكا والحلم الجريح

جزء خاص





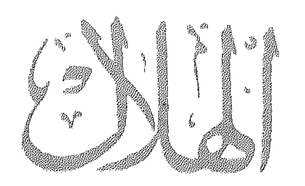


كتاب
الهلال يقدم

الأدب والحياة المصرية

بقلم
د. محمد حسين هيكل

يصدر ٥ ديسمبر ١٩٩٢



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

General Org… -Alexan-

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج . م . ع . مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : 3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المشرف الفنى

عيسى دياب سكرتير التحرير التنفيذى

ثمن النسخة : سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٢٩٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١,٥٠٠ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٥٠٠ ج . س .

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا

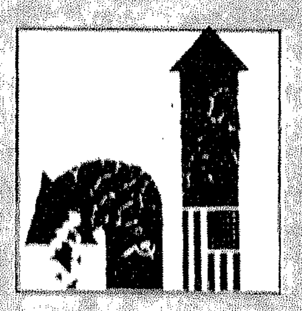
والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

فى هذا العدد

فكر وثقافة :



جزء خاص عن أمريكا



دائرة حوار :

قصة وشعر :

بريسترويكا أمريكية !

أثبتت نتائج الانتخابات الأمريكية أن المواطن الأمريكى يهمه بالدرجة الأولى رفاهيته وحريته ، ولايعطى نفس الاهتمام لدور أمريكا الدولى ، هذا نفسه هو الذى ظهر أمام البريسترويكا فى الاتحاد السوفييتى .

إن أمريكا التى تعد الآن زعيمة للعالم الحديث بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ، لم تحقق جديدا بعد هذا الانهيار ، فقد انكمش اقتصادها ، وازدادت البطالة ، وهبط مستوى المعيشة ، وظهرت أرقام مخيفة ، تضمنتها الحملة الانتخابية الشرسة وانتهت بالفوز الساحق للرئيس بيل كلينتون والسؤال الذى يطرح نفسه ، لماذا تدهورت أوضاع الشعب الأمريكى وساءت أحواله منذ أصبح يتربع وحده على قمة العالم؟

إنها ظاهرة تستحق الدراسة ، كما أنه مأزق يواجه الحاكم الأمريكى .

وعلى الرئيس الجديد سد هذه الفجوة خاصة أن أمريكا هى الآن الدولة الأعظم ، ولديها هذا الكم الكبير من المصاعب !

عزيزى القارىء

الأحلام على

كانت سنة حافلة ، أتم فيها « الهلال » السنة المائة من مسيرته التى بدأت عام ١٨٩٢ ، وجمعت احتفالات « الهلال» فى سبتمبر واكتوبر الماضيين بهذا العيد المئوى رموز مصر كلها ، وفى مقدمتها الرئيس حسنى مبارك ، وكانت احتفالات الدولة بعيد « الهلال » ودار الهلال أول احتفالات من نوعها ومستواها فى تاريخ الصحافة المصرية ، ودخلت تلك الاحتفالات بدلالتها المضيئة تاريخ الصحافة المصرية والعربية والعالمية ..

وفى العام الأول من القرن الثانى فى مسيرة « الهلال » يضع الهلال تحت أنظاره عدة أفكار ومشروعات للتطوير والتغيير فيما يحتويه بين دفتيه من شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام .. فالعالم كله الآن يهتف بكلمة « التغيير » .. أى الانعطاف إلى الأصح والأجمل والأكمل .. ونحن نتطلع بأحلامنا إلى العام الجديد الذى تبزغ شمسه فى الأفق القريب ، إلا أننا ندرك أن بداية كل عام جديد مثل نهاية كل عام منصرم ، فالشمس فى شروق وغروب مدى الدهر ، والمهم دائما هو ما يعمله الإنسان بين شروق كل شمس وغروبها ، متنقلا معها من عام إلى عام، سابحا فى ضوء الشمس ونور القمر مع اليقظة والأحلام ..

وما أقصر اليوم فوق أرضنا بالحسابات الفلكية فإنه ينقضى كلمح البرق .. وهو أقل من لمح البرق إذا قيس بما يذكره الفلكيون من أن اليوم فى بعض الأجرام السماوية يساوى مائة ألف يوم من أيام كرتنا الأرضية الصغيرة الجميلة ! ..

ومع ذلك فإن الحياة فوق أرضنا صارت الآن تتحرك وتندفع وتعدو ، كأن يومها لا يقل عن مائة ألف يوم ، وكأنما صارت الأرض التى تحت أقدامنا تدور بين الأفلاك البعيدة الموغلة فى الفضاء السحيق ! ..

ذلك أن عالمنا القديم قد انتهى بخيره وشره ، وبكل ما تحمله قلوبنا من الإعزاز لذكرياته وأمسياته الشعرية الآسرة .. وصار القرن الواحد والعشرون على مرمى سبع سنوات فقط من حياة أهل زماننا ، ولا يدرى أحد أتكون سبع سنوات عجاف ، تعقبهن سبعٌ سمان ، أو سبعون أو سبعمائة ، إلا أن الجميع يتطلعون إلى طريق جديد للنوع الإنسانى كله ، بلا أزمة طعام ، وبلا أزمة مياه ، وبلا أزمة مساكن ، وبلا بطالة ، وبلا اضطهاد عنصرى ، وبلا افتئات من الأقوياء على الضعفاء .. ولكن القرن الواحد والعشرين لن يكون قرن الميعاد أو المعاد ، ولا

أجراس ديسمبر

قرن العسل واللبن لكل الأمم بلا قيد ولا شرط ، فإن قانون الأقوى والأضعف ، أو قانون الغابة بجوهره الوحشى الصريح ، لايمكن إلغاؤه ، لأنه - كما تعلمنا من دروس النشوء والارتقاء - قانون للحياة والمجتمع والكون ، ولكن الإنسان استطاع فى تطوره الصعب ، وكفاحه العسير الطويل ، أن ينتزع من شدقى هذا القانون الكثير من أنيابه ، ويقلّم الكثير من مخالبه ، وغاية الحضارة الإنسانية المثلى أن تتحكم مستقبلا فى هذا القانون وتجعل عمله خفياً كأنه لم يوجد أصلا ..

ولكن هذه الأحلام التى تملأ الرءوس فى نهاية عام مضى وبداية عام يجىء ، سوف تتلاشى فى الفضاء كما تتلاشى دقات أجراس أعياد الميلاد الغربية فى نهايات ديسمبر ، ودقات أجراس أعياد الميلاد الشرقية فى بدايات يناير ، إذا لم تهتد البشرية إلى الحلول الجذرية العادلة للمشكلات والمظالم التى تجعل قوما يذرعون الأرض بحثا عن لقمة يتبلّغون بها، وتجعل قوما آخرين يجوبون الفضاء الأعلى بحثا عن أسرار الكون ليزدادوا بمعرفتها قوة على قوة ! ..

عزيزى القارىء

إن قانون الغابة لن يخلع بيديه أنيابه من فكّيه ، ولن يقصّ أظافره تطوعا واحتسابا ، ولهذا سوف تبقى أحلام نهاية ديسمبر ، وأحلام بداية يناير ، مجرد تهويمات ساذجة ، إذا لم ينهض الضعفاء ليلحقوا بركب الأقوياء ، فإن ضعف الضعفاء لا يقل فتكاً بنظام الحياة عن فتك قوة الأقوياء بذلك النظام ! ..

عزيزى القارىء

مع أحلام ديسمبر بثلوجه ورياحه القطبية ، نلوّح بأيدينا وداعاً لعام ١٩٩٢ الذى كان من أحفل أعوام القرن العشرين بكبريات الأحداث ، فى مصر والبلاد العربية والعالم ..

لقد كان عام الزلازل الأرضية ، والزلازل السياسية ، والزلازل الاجتماعية ، وكان مع ذلك عام انجازات فى كل مكان ! .. وليت العام القادم الجديد يضرب بعصاه الأرض فتهدأ ، وتبتلع أثقالها وتُخرج لأبنائها رزقا من كل الثمرات ! ..

المحـــرر

تجربتى مع الإبداع

الإبداع عندى وصل ووصال

بقلم : د . لطيفة الزيات

لكل كاتب شعوره الإنسانى المهيمن على بقية مشاعره ، وهذا المعين هو الذى يشكل الحافز على الإبداع ، وهو الذى يلقى التعبير فى الكتابة الإبداعية ، وهذا الشعور المهيمن قد لا يتغير على مسار العمر ، وإن تغير فمرة أو مرتين على طيلة العمر ، وفى العمل الأول للكاتب يواتينا هذا الشعور المهيمن بكل طزاجته حيا دفاقا يمس أفئدتنا .

مؤتمر رابطة فتيات الجامعة وبينهم د . لطيفة الزيات (على اليسار)



وإذا ما استمر هذا الشعور المهيمن قائما تبدأ المشكلة مع العمل الثانى للكاتب وخطورة التكرار تهدده ، إذ يبقى ذات الشعور مشكلا الحافز على الكتابة ومطالبا بالتعبير ، ويتأتى على الكاتب إن أراد ألا يكرر نفسه أن يجد أقنعة جديدة يتخفى خلفها شعوره المهيمن ، وإيجاد هذه الأقنعة الجديدة ليس بالأمر السهل ، فقد يتوصل الكاتب لهذه الأقنعة فتنفرج أزمته ، وقد لا يتوصل ، فيتوقف رافضا تكرار نفسه ، ولعل هذا ما حدث لفلوبير القصاص الفرنسى الكبير الذى كتب على طيلة حياته عملين روائيين فحسب ، وإذا ما وجد الكاتب أقنعته التى يتخفى خلفها توالت أعماله ، وإنتقل فى الإبداع من مجال الهواية إلى مجال الإحتراف ، يقول الكاتب الألمانى الكبير توماس مان : كدت أتوقف عن الكتابة بعد روايتى الأولى ، غير أنى لحسن الحظ وجدت أقنعة جديدة أتخفى خلفها ، وكان ذلك بعد أن انتهى من رائعته الواقعية بودنبروكس ، والتى تعتمدإعتمادا كليا على تاريخه الشخصى وتاريخ عائلته .

ولم أجد أنا أقنعتى بعد صدور عملى الأول الباب المفتوح سنة ١٩٦٠ ، وكان أن بقيت فى مجال الكتابة الإبداعية هاوية ، ولم أقترب من الإحتراف إلا فى عمل واحد جاء متأخرا ١٩٩١ ، وبعد الباب المفتوح فضلت التوقف على تكرار قولى ، وفصلت مدة زمانية تجاوز العشرين عاما مابين عملى الأول ، وعملى الثانى الشيخوخة وقصص أخرى ١٩٨٦ ، وخلال هذه الفترة كنت قد تقدمت فى السن ، وفى التجربة وتغير منظورى للحقيقة ونما داخلى شعور مهيمن جديد يطالب بدوره بالتعبير وتختلف قصص الشيخوخة عن الباب المفتوح إختلافاً يكاد أن يكون كليا بمدى ما تغيرت الرؤية وتبدلت ، وتغير المنظور والشعور المهيمن على الكتابة ، وبمدى ما اقتضى هذا التغير بالطبع من متغيرات تقنية فى أسلوب التناول واستخدام اللغة ومن متغيرات فكرية ضخمة .

وجاءت روايتى القصيرة الرجل الذى عرف تهمته (مجلة أدب ونقد ، عدد سبتمبر ١٩٩١) مختلفة تمام الإختلاف عن كل ما كتبت فى مجال الإبداع ، خفيفة ناقدة ساخرة تستدر الضحكات من أقسى المواقف التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان من مصادرة لحريته بالسجن ، ومصادرة لحريته فى البيت بإملاء أجهزة الرقابة بالصوت

والصورة لسنين عديدة على البيت ، ومصادرة لحقوقه الإنسانية بتوجيه تهم باطلة إليه وبتزييف أشرطة التسجيل بغية إثبات هذه التهم المختلفة ، وما إلى ذلك من أوجه إنتهاك الحريات الخاصة والعامة التى إنفضحت إثر حملة الإعتقال التى قام بها السادات ١٩٨١ فى حق ألف وخمسمائة من معارضيه وأنا منهم ، ولكى أعبر عن تجربة عصفت بحريتى وحقوقى كإنسان ، كان لابد من التجاوز النفسى لمرارة هذه التجربة أولا ، وكان لابد ثانيا أن أجد القناع الذى أتخفى خلفه فى عملية التعبير لأفضح عمليات المصادرة والتزييف ، ولأضحك الناس من أوضاع هى بطبيعتها أوضاع مأساوية (فى أعماق المأساة ترقد الكوميديا أحيانا) وفى هذا العمل المختلف تماما عن بقية أعمالى ، إقتربت ما أمكن من وضع الإحتراف .

وضمت حملة تفتيش أوراق شخصية التى هى أشبه بالرواية منها بالسيرة الذاتية جماع مشاعرى التى هيمنت علىّ طيلة حياتى ، وفى حملة تفتيش الكثير من الباب المفتوح ، وفيها من الشيخوخة ، وفيها من الرجل الذى عرف تهمته .

ولأنى لم أحترف الإبداع وبقيت فى مجاله هاوية ، تبقى تجربة الإبداع عندى تجربة صميمية تتساوى فى الأهمية والوجود ذاته ، وأعنى الوجود لامجرد التواجد ، بما يتضمنه هذا الوجود من تفاعل حي ، ومن وصل وتواصل مع الآخرين ، وفى كل مرة أشعر فيها أن رؤية جديدة ما للحياة تتبلور داخلى ، أشعر بالرغبة فى إستكشاف هذه الرؤية على الورق بهدف إيصال أبعادها مكتملة للآخرين .

وهذه الرؤية الجديدة للحقيقة عادة ما تؤرقنى ، ما تنثينى وتعزلنى وتجعلنى أشعر بالتفرد والإختلاف ، وبالإغتراب نتيجة لهذا التفرد والاختلاف ، إذ تبدو كما لو كانت رؤيتى أنا الخاصة دون رؤية الآخرين ، وتشكل الرغبة فى إيصال رؤيتى هذه للآخرين ، وفى مشاركة الآخرين لى فى هذه الرؤية الحافز على الكتابة ، والعامل الرئيسى الذى يتحكم فى نوعية هذه الكتابة ، فأنا لا أسعى فحسب إلى التعبير عن رؤيتى ، بل أسعى فى المقام الأول إلى اقناع الآخرين إقناعا فنيا بالطبع ، بصحة هذه الرؤية وبسلامتها ، ومحاولة التأثير فيهم بهدف تبنيها ومشاركتى فيها .

وعندما يصلنى بعد النشر إقرار الآخرين ، تصبح رؤيتى رؤية الآخرين تسقط





من أعمال د . لطيفة وصورة شخصية لها عام ١٩٦٤

عنى عزلى وما توهمت أنه تفردى ، وأنتمى من جديد للكل ، ويتحقق ما أردت لنفسى دائما ومازلت أريد .

ولأن الإبداع عندى وصل ووصال ، ولأنى أخشى دائما ألا يتحقق هذا الوصل والوصال نتيجة لقصور تعبيرى عن بلوغ غايته ، تبقى عملية النشر بالنسبة لى عملية تكتنفها المخاوف والهواجس ، وأنا أؤجل ما أمكن عملية النشر وتبقى المخطوطات مركونة فى أدراجى تهيبا من نشرها أحيانا لسنوات ، وأظل للحظة الأخيرة متهيبة وعاجزة عن التنبؤ برد الفعل ، ويكفى أن أقول أنى أحببت أعمالى من خلال حب الناس لها .

يفتخر بعض الكتاب بأنهم لا يكتبون لأحد وإنما لذواتهم ، وبصرف النظر عن

صحة هذا الإدعاء ، فأنا لا أكتب لنفسى ، بل أكتب وعينى على دائرة معينة من القـراء ، قد تضيق وقد تتسع ، وأتمنى دائما أن تتسع أكثر فأكثر ، والقارئ لا يغيب عن عينى وأنا أكتب ، ومن ثم هذا الوضوح الذى أتوخاه ، وهذا التوازن الصعب فى التجريب بين جديد الكتابة وقديمها حرصا على ايصال الرسالة الوجدانية وعدم الوقوع فى الإبهام ، ومن ثم هذا الحرص على إبقاء أرضية مشتركة بينى وبين القارئ والبدء بالقيم الأخلاقية التى يتبناها وصولا إلى القيم التى أسعى إلى تغييرها للأفضل .

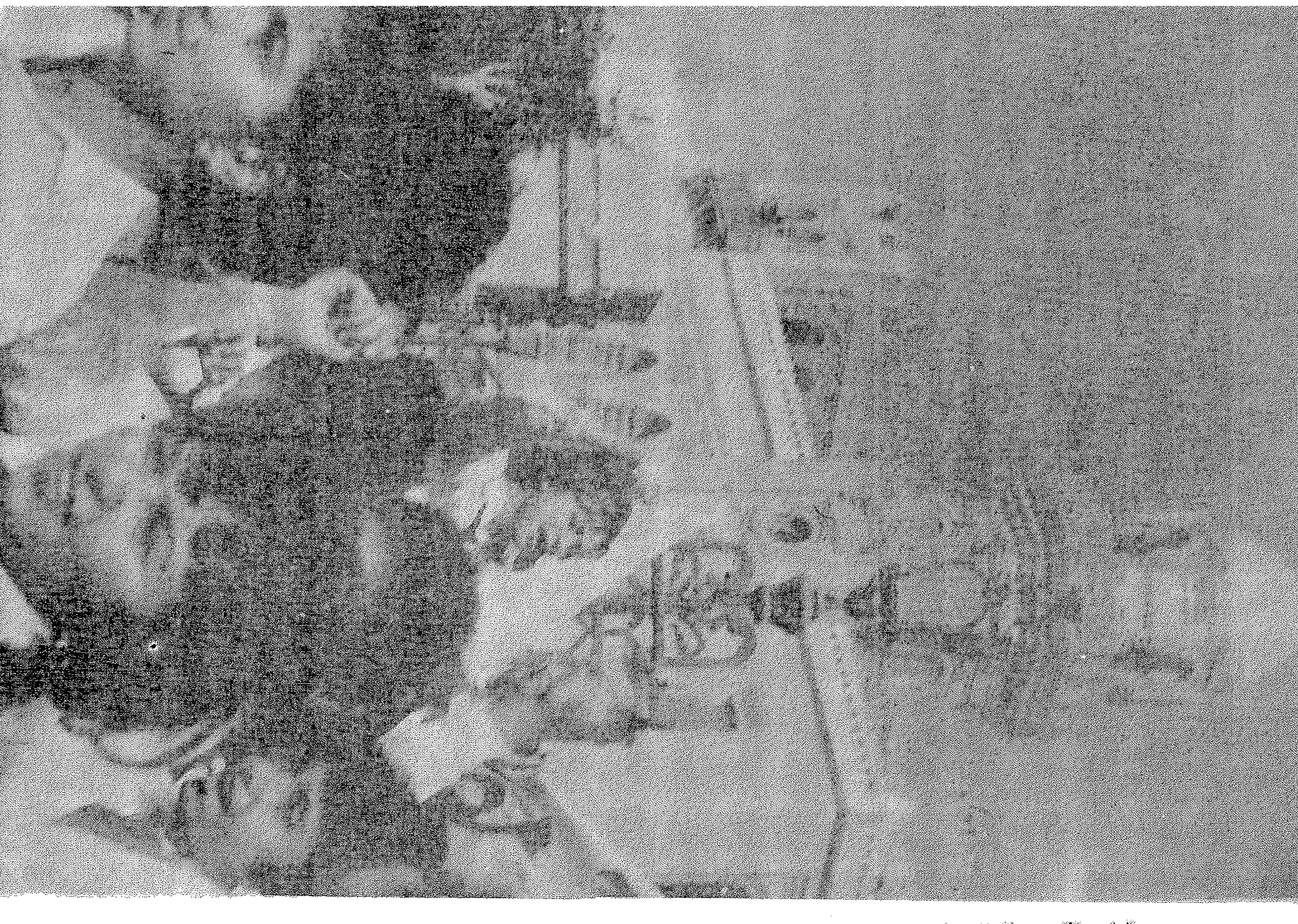
ويرسم النقاد حدودا فاصلة ما بين تقنيات البلاغة التى تستهدف التأثير فى المتلقى ، وتقنيات الأدب الذى يعيد إنتاج الحياة بصورة جديدة ، غير أن حافزى على الكتابة وهدفى منها يجعل اللونين من التقنيات يلتقيان فى كتابتى .

ولأن الإبداع عندى وصل ووصال تنشغل فيه كل حواسى الإنسانية مكتملة ومجتمعة العقلى منها والوجدانى والحسى ، تبقى العملية الإبداعية عندى أبعد ما تكون عن السهولة ، فأنا أكتب وأشطب وأعدل وأبدل ، وأتمنى لو استطال هذا التعديل والتبديل إلا مالا نهاية ، وتشوقى إلى الكمال يحثنى فى هذا الطريق .

إن الإلهام لا يسقط علىّ من عل ، وإن واتانى ما يشبه الإلهام فمن خلال التعديل والتبديل وأنا أكتشف طبيعة المادة ، وأتبين فيما بين جزئياتها علاقات إستغلقت علىّ فى البداية .

وأنااستهدف التأثير الوجدانى فى القارئ ، وكسبه إلى صفى وإقناعه بسلامة رؤيتى ومن ثم أشحذ كل قدراتى التقنية واللغوية لبلوغ هذا الهدف ، يساعدنى فى هذا الاتجاه حس نقدى مكتسب ، ومعرفة تقنية وطيدة بأساليب السرد ، مكتسبة بدورها ، وحس لغوى يجعل لغتى تبدو جياشة وتلقائية ومنسابة فى محاولة لتكثيف اللحظة الشعورية ، والتأثير فى القارئ من خلال هذا التكثيف .

وبعد فقد قلت ولم أقل ، وبداخلى ما زال مخزون من المشاعر ، أتساءل هل يلقى التعبير ؟



الباب المفتوح للطيفة الزيات عام ١٩٦٠ جسدتها على الشاشة فاتن حمامة

القفز على الأشواك

بقلم : د . شكرى محمد عياد



يسمى إدوار الخراط كتابه الجديد «أمواج الليالى» متتالية قصصية – هذه التسمية – أو هذا التصنيف – يطالب القارئ بشيئين :

أولهما ألا ينظر إلى الكتاب كمجرد مجموعة قصصية ، أى مجموعة من القصص ليس بينها اشتراك إلا فى وحدة المؤلف ، والثانية أن يعاملها على أنها نوع من التأليف شبيه بالتأليف الموسيقى . الوحدة يمكن اكتشافها بسهولة : هناك شخصيتان محوريتان فى أجزاء هذه المتتالية التسعة ، رجل وامرأة ، إذا كنا قد قرأنا «رامة والتنين» فسنعرف أن الشخصيتين هما هما ، لم يفقدا شيئا سوى الاسم : الرجل لم يعد يسمى ميخائيل ، لا فى عنوان ولا فى إشارة ، والمرأة لم تعد تسمى رامة ، بل أصبح اسمها الآن كيمى ، أى الأرض بالمصرية القديمة . ربما كان فى هذا إشعار بأن الرجل نوى على مزيد من البوح – هو الراوى كما فى الرواية السابقة – إنه يتحدث إلى نفسه عن نفسه ، كان كذلك فى الرواية ، ولكن أصبح الآن أقل انشغالاً بالعمل ، وأكثر انشغالاً بالتعبير . إنه يطرح مشكلة الكتابة فى الحلقة السادسة من هذه المتتالية (ص ص ٨٥ – ٨٦) والحلقة السادسة هى – تخيلا أو وهماً أو حقيقة (داخل القصة بالطبع!) رسائل متبادلة بينه وبين صاحبته ، فيها ، كما يصرح الكاتب ، قدر لا بأس به من الرومنتيكية ، وأضيف أنا ، كإعلان مجانى عن الكتاب ، يمكن أن يبيع أكثر مما يبيعه الفن ، أنها تصلح لأن ينقلها العشاق الصغار ، إن كانوا يتبادلون الرسائل فى هذه الأيام كما كان يحدث كثيراً فى أيامنا – يقول الكاتب فى إحدى هذه الرسائل :

«الكتابة جمجمة ، والحياة غموض


ويليام فوكنر

واختلاط » .

وأيا كانت كتابة جسد الحلم ، كتابة الحلم الذى هو جسد ، ومهما كانت الكتابة مريحة أو حتى ضرورية ، فالصدق – إن كان ثمة – فى هذا الخلط المروّع الجمال ، والبشع ، فى هذا الشوّه متصل الأشلاء ، بلا انقطاع ، الذى هو ما حدث . ما يحدث

«وفى رسائلى إليك أجد أنى لا أصنع الدائرة بل ألقاها أجد أن إصرار هذا الاتساق التلقائى والمتدبّر معا محتمل ، بل هو ممكن ، ولعله – لا غيره – هو الذى يحدث حقا . هو الصدق ، لا غيره »

هو إذن – وباختصار مخل – يكتب بمزيد من التلقائية ، «لا يصنع الدائرة بل يلقاها» . ولذلك لا يعرض نفسه ، كما لو كان ينظر إليها من الخارج – هذا الوضع المستحيل ، غير الصادق – فالاسم يسقط عنه بكل بساطة ، كما تسقط ورقة التوت (وكلمة «العرى» ترد أيضاً فى هذه الرسائل) .

ومادمنا قد تحدثنا عن التلقائية النسبية للكتابة فى هذا العمل بالذات ، فقد أجبنا – وإنْ جزئيا – عن المسألة الثانية : النسبة بين هذا العمل ، والتأليف الموسيقى . فهذا العمل ليست تأليفا محكوماً . قصديا ، تام البناء ، مثل السمفونية ، بل هو عمل أكثر حرية ، له «تيمة» أساسية نعم ، ولكنه يأخذ تيمة جديدة فى كل جزء ، يسير معها قليلاً ، على هواها ، ويعود إلى التيمة الأساسية من حين إلى حين ، ثم ينتقل إلى تيمة جديدة ، وهكذا يمضى ، بمزيج من التلقائية والتدبير ، ينتج عنه نوع من الاتساق (لا التساوق) .

تراجع التسلسل الزمنى

ولكن هذا الجواب الجزئى لا يفيدنا شيئا عن الشبه بين هذين النوعين من التأليف – مع اختلافهما – وبين التأليف الموسيقى . كان يقال منذ أيام لسنج

القفز على الأشواك



جيمس جويس

وكتابه الشهير «لاوكون» إن الشعر والموسيقى كليهما فنان زمنيان ، أى أنهما يعتمدان على التتابع الزمنى ، ولكن الكتب التى عالجت تكنيك الرواية ، والتى توالى ظهورها منذ أواسط هذا القرن ، طرحت مشكلة أخرى : مشكلة العلاقة بين الزمن الروائى والزمن الخارجى ، أو : إلى أى حد يلتزم الكاتب الروائى بمراعاة التتابع الزمنى الواقعى ، أى تسلسل الأحداث وكيف يتحرك بالحدث أحيانا نحو الماضى، وأحيانا نحو المستقبل . ولم يزل احترام التسلسل الزمنى للحدث يخف مع تراجع الحدث نفسه كعنصر أساسى فى الرواية ، إلى أن أصبح معنى الزمن الروائى ، عند أصحاب الرواية الجديدة ، هو «الزمن الذى يكفى لقراءة الرواية» ، ومن ثم تحقق التوازى الكامل بين العمل الروائى والموسيقى .

وهكذا لا يبقى فى متتالية إدوار الخراط أى أثر لتوالى الأحداث إنما هى متتالية بالمعنى الذى ذكرناه من تتابع التيمات . وهو تكنيك مال إليه منذ أعماله القصصية الأولى ، واكتمل له فى «رامة والتنين» ، وقد وصفته الدكتورة فريال غزول وصفا دقيقا مستفيضا . ولعل أهم ما فى الوصف هو تمييز لغة إدوار القصصية . فهى ليست لغة سردية كما أنها ليست لغة «تيار الوعى» التى نجد ألواناً منها عند فرجينيا وولف وجيمس جويس ووليم فوكنر، وجميعها تعتمد بطريقة أو أخرى على محاكاة الحركة شبه الواعية - وأحيانا اللاواعية - للفكر . إنما لغة إدوار قصدية ، منحوتة نحتا (ما أشبهه فى الناشرين العرب إلا بمصطفى صادق الرافعى ، على بعد ما بينهما ، ولكنك تستطيع ، إن شككت فى هذا التشبيه ، أن تراجع شيئا من «أوراق الورد» أو «السحاب الأحمر» مثلا) . ومعنى ذلك أن إدوار صاحب أسلوب كلاسيكى فى القص ، وإذا أمكنك أن تجمع الرافعى على هوميروس ، وتضيف إليهما شيئا من ملارميه ، حصلت على أهم العناصر التى تدخل فى تركيب أسلوب إدوار الخراط . وملارميه فى هذا الخليط - الذى يبدو متنافراً للوهلة الأولى - معناه الحداثة . فمع الإكثار من الصفات والكنايات والجمل الوصفية إلى جانب طول النفس غالبا (هوميروس) ، ومع التأنق فى

تحت الجملة العربية (الرافعى) هناك ذلك الإحساس ، المسيطر بأهمية الكتابة ، أهمية ذلك الفعل العجيب الذى يفرض ، أو يحاول أن يفرض، المعنى على فوضى الزمن ، كما رأينا فى الفقرة التى اقتبسناها من الرسالة الأخيرة فى «رسائل لن تصل» . وأهمية الكتابة ، وصعوبتها إلى حد الاستحالة أحيانا ، شىء حداثى جدا . على أن هذا كله لايعطينا «روح» أسلوب إدوار . وروحه - كما أتصور - هى اقتناص اللحظة من الزمن . فالزمن ، من ماض وحاضر ومستقبل ، لا معنى له . الزمن لحظة عشق ، والكتابة عشق . يقول إدوار فى إحدى هذه الرسائل أيضاً :

«زمنى الآخر . حلمى الآخر . جسمى الآخر» .

«كل شىء عندى آخر» .

«لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، شىء هنا ، والآن» .

بل كل شىء إما منقض ، ولكنه - على دثوره - ماثل غير بائد ؛ وإما مسوَّف ، مؤجل ، ولكنه - وإن لم يأت بعد - قائم ، يصارعنى ويشغل حيزى ، الآن ، وكأنه مع ذلك وفى الآن نفسه قد مضى وانقضى .

«إلا لحظة العشق.

«هذه لا زمن فيها ، لا زمن لها ، لا انقضاء ولا مآب ولاهناك مقدمُ آت .»

ونستطيع أن نقول ، ولانخشى المبالغة، إن «رامة والتنين» ، هذه الرواية الطويلة ، إن هى إلا لحظة تمكنت وتبحبحت .

خطورة اللعب مع الزمن

ولكن اللعب مع الزمن خطر . لايمكنك أن تفر من الزمن إلا إلى المطلق ، وأنت لن تطبقه . إن لمحته مرة لم يبق لك وجود . هذا هو قدر «مجانين الله» . أما أنت أيها الرومنتيكى القديم ، أيها المراهق الأبدى ، فستجد نفسك ، فى آخر المطاف ، تقول لنفسك :

«مازالت الأسئلة غير مجابة ، ومازالت «مراهقة الكهولة» - كم أتسلى بأن أسميها - مستحكمة . مازالت التهويمات أكثر بكثير مما تحتمله الطاقة - لكنها تحتملها - ومازالت موسيقى أن تحيا عاصفة ومرة، ومازلت لا أعرف كيف أقاوم الوحدة مهما فعلت ومهما كانت الحياة تحيطنى بالزحام - الذى ظللت أدبره وأسعى إليه طول الوقت - وبالبهجات - التى لا أنكرها ومازال هذا الشجو يمكن أن يبث - مهما كان مضحكا قليلا - ومازالت الوحدة فى حضنك يمكن أن تنكسر فيما تظل معها قرينتها غربة وغرابة دائمة .

«وطبعا هذه حلقة لا يمكن النفاذ من طوقها والأفضل أن أرى هذا وأن أسلم به، وطبعا أنا لا أريد أن أراه ، ولا أريد أن أسلم به أبدا ، وهكذا إلى غير نهاية .

«كأنما لا أقبل أن تجدب روحى

«أو أن يجدب الجسم الذى يتهدم ، بينما تدرّ الروح .»

ليست معنى إنكار الزمن إلا الدخول عميقا فى الذات . والذات فى وحدتها وغربتها تبحث عن سند ما ، عن يقين ما .

القفز على الأشواك

يقول إدوار : «أبحث روحي ليقين الجسد» (ص٩٧) . بالطبع هذا هو اليقين الأنسب للحداثة غير أنه ، فيما يبدو ، لايكفى لكاتب شرقى . إن «يقين الجسد» يختلط باليقين الصوفى فى «مجانين الله» ، ولكن ينتهى بأن تكون معرفة الله تجديفا ، ويقين الجسد إلهيا . وإذن فما المخرج ؟ مزيداً من الغوص فى أعماق الذات ، حيث عالم الأساطير : دين بغير إله ، أو بآلهة كثيرة ذات وجوه كثيرة ، وحادياها الشهوة والرعب . إن أسطورة القديس والتنين ، أو الملاك والتنين ، تلك التى تتردد كثيراً فى «رامة والتنين» تصبح الآن مجرد نبوءة ، لايمكن أن تتحقق إلا «بعد تمام الأيام» ، بعد انقضاء الزمن ، أما الحقيقة الراسخة عبر الزمن كله ، الحقيقة المرعبة والساحرة، المختفية تحت جبال الثلج ، فهى التنين نفسه ! (ص٦١) .

وأما المرأة (رامة)، فإنها حين أصبحت كيمى قد رجعت أيضاً إلى الزمن الأول ، وإن لم تفقد شيئا من سحر أنوثتها ، ولا من روغانها الدائم . إنما هى فى هذا الدور الأقدم أكثر تعرضا للانتهاك والتمزيق، تشترى بهما دهريتها التى لاتبيد، «أوزير المؤنثة ، قائمة من بين الأموات ، ملمومة بعد تمزق ، دهرية وحية إلى أبد الآباد» (ص٩١) .

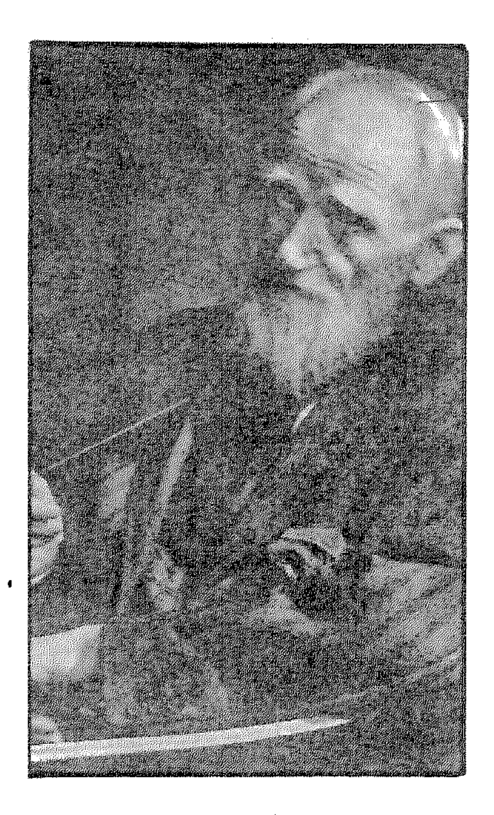
البناء الأسطورى

ماذا ينتظر البطل ، ميخائيل الذى لم يعد ميخائيل : بعث أوزير المؤنثة (كيمى ، مصر) ، أم انطلاق التنين ، نافضا أغلاله عند حلول الربيع ، «مطلق السراح فى الجبل والسفوح ، يحرق كل شىء بناره الأكالة الهائلة» ؟ أم أن التنين ينطلق فعلاً ، ويخرج منه حابى «القضيب العظيم المخصب» (ص ٤٥) ، وبذلك تتحد الأسطورتان ، وتصبح للبطل صورتان : صورة أوزيريس الممزق ، وصورة حابى الذى يشق كيمى فيعيد الحياة إلى أوصالها الممزقة ؟

لعل هذه الخطوط العامة تصور البناء الأسطورى الذى بدأ بـ «رامة والتنين» وانتهى بـ «أمواج الليالى» . ولكن هذا البناء الأسطورى - ويجب ألا ننسى أنه بناء فكرى ، يهيىء نوعاً من الإيمان للكاتب أو للبطل - يبدو غريباً حين يدخل فى بناء رواية معاصرة . والذى يصنعه إدوار الخراط هنا جديد كل الجدة ، ولكنى أشك فى مدى نجاحه . فالمرأة المسماة كيمى تتصرف كامرأة عادية (أو لنقل : فوق العادية !) ولكنها تخاطب ، فى الواقع أو فى الخيال ، كتجسيد لآلهة أسطورية . وهذا التنقل الدائم ، غير المألوف ، يكلف القارىء عنتا فى قبول كل منهما ، فضلا عن أنه لا يترك لخياله مجالاً كبيراً لربط الحاضر بالأسطورة ، وعوضا عن ذلك

يكون عليه فقط أن يتقبل خيال الكاتب ، وأن يتأمل تكنيكه ، ويستطلع فكره ، إن بقاء الأسطورة في خلفية العمل - وهو ماصنعه شو فى «بجماليون» ، وجويس فى «يوليسيس» ، ويوجين أونيل فى الحداد يليق بإلكترا إلى أمثلة لا تحصى - لا يظهر سوى خطوطها العامة ، التى تنسجم بسهولة مع الشخصيات المعاصرة والأحداث المعاصرة. ولكن الجمع بين الطرفين على صعيد واحد يبقيهما فى حالة شد وجذب مستمرين ؛ حتى ليشعر القارىء بأن واحدا منهما مقحم على الآخر . وإن محو الفوارق بين الأسطورة والواقع مترتب على موقف الكاتب من الزمن ، موقف الإنكار أو الإلغاء، وهذا هو انتقام الزمن . ولا يبعد أيضا أن يكون الكاتب قد تأثر بالتفسير الكنائى للكتاب المقدس ، ولا سيما أسفار العهد القديم (مثلا : تُفسَّر الأبيات التى تعبر فيها امرأة عن غرامها - مطلع نشيد الأناشيد - على أنها تعنى : حب الكنيسة للمسيح) ولكنه حوّل الكنايات من التفسير إلى النص . وإذا كان الأول صعب القبول ، فإن هذا أصعب قبولاً .

وفى هذا السياق الذى يمزج الطبيعى بالكنائى ، أو الزمنى باللازمنى ، يبدو الوصف الشديد الواقعية لحوادث معينة ، كتلك التى تقدَّم على أنها مأخوذة من أخبار الحوادث أو شكاوى القراء فى



برنارد شو

الصحف والمجلات ، أو كالوصف البالغ التفصيل والدقة لإنسحاب الجيش من سيناء سنة ٦٧ ، نوعاً من النشاز المقصود، أكاد أقول نوعاً من السخرية . وكأن الكاتب الذى يعطى ، على المستوى اللازمنى (أى المستوى الفكرى المحض) أملاً فى البعث بعد التمزيق ، حريص على أن يقدم الواقع الزمنى فى صورة حاضر ممزق ، بلا أمل فى البعث !

أحدث مدارس النقد الأدبى

بقلم : د . على شلش


إيهاب حسن

إيهاب حسن وألوان من النقد

ويقدم " عملا تجريبيا عالى الجدية " كما قال عنه الناقد رايموند أولدرمان وقد أضاف هذا الناقد : " وداخل ما فيه من ألوان التعقيد والمصاعب وومضات نفاذ البصيرة نستطيع أن نتعقب تطور ناقد استجاب بذكاء ونزاهة للمطالب المتغيرة فى الأدب المعاصر " . كما قال عنه مايكل هوفمان : " لا غنى عن المتأملين من أمثال حسن ، ويلزم لنا جميعا أن نقرأ كتبا من أمثال : ألوان من النقد المخالف " .

يقول حسن موضحا محتويات الكتاب:

" هذه التأملات تصنع – فيما أرجو – علاقة نشطة فيما بينها ، إذ تشكل سياقا متسلسلا ، فأولها يتعلق بقضايا عريضة فى النقد الأدبى ، وآخرها يتصل بمسائل عامة فى الثقافة والوعى ، أما فى الوسط فتضيق البؤرة وتركز على الأدب ، على جويس وبيكيت – بوجه خاص – اللذين يحملان أكثر توترات الخيال المعاصر تطرفا ، بل يزداد التركيز مرة أخرى على رواية « مأتم فينجاتر » التى تثير ذات الاسئلة التى يبدأ بها الكتاب وينتهى .

وبعد أن يروى طرفا من قصة تطور النظر إلى الأدب والنقد الأوربيين فى أمريكا يطرح عددا محيرا وصعبا من الاسئلة حول النقد .

« هل كل النقد استجابة معقلنة إلى صوت » يدعى الناقد أنه يسمعه ولا يسمعه أبدا بذات الطريقة مرتين ؟ إن الناقد بصفته مستمعا ، يضيع وقته . فهل الوقت النقدى مختلف عن أنواع الوقت البشرى

● ظهر كتاب " ألوان من النقد المخالف " بعد ظهور كتاب " تقطيع أوصال أورفيوس " كما أشرنا من قبل ، أو على التحديد عام ١٩٧٥ . ثم طبع بعد ذلك أكثر من مرة . ولكن هذا الكتاب يختلف عن سلفه كثيرا ، فهو لا يتناول موضوعا واحداً ، ولا يخوض فى تاريخ الأدب وسير الأدباء ، ولا يقتنص من التراث الاغريقى استعارة أو رمزا يسقطها ، أو يسقطه ، على المشهد المعاصر للأدب ، مع أنه يفعل هذا كله بشكل أو بآخر ، وانما يطرح موضوع النقد بطريقة جيدة ، مخالفا لما هو سائد فى الكتابات النقدية شكلا ومضمونا . ●

الأخرى ؟ وكيف ؟ ما أنواع الفشل الكبرى للنقد ؟ هل هى متصلة بالذوق أو المنهج أو التمييز كما يحب النقاد أن يتصوروها ؟ أم هى أنواع فشل قديمة تتصل بالحكمة ، أى نوعية حياة الناقد داخل الأدب وخارجه ، بل ما المبدأ أو الادراك القابل للاستخدام الذى يستمده الناقد من جميع معارك النقد ، ومعارك الكتب قديما وحديثا؟ هل يوجد - باختصار - علم للخصومات النقدية ؟ وإلى أى حد من الطواعية والانقياد للتعلم يجب أن يبقى النقد ؟ إلى أى حد يكون واجبه ، مثل واجب " الادب " فى المخالفة والانتهاك ؟ بل - مرة أخرى - كيف يتكيف الخطاب النقدى مع التكنولوجيات الجديدة ووسائل الاتصال المختلطة ، واللغات الجديدة للعقل المتصل به والعقل الفورى ؟ أن الاسئلة تتكاثر ، فسؤالى الأخير ليس فى الحقيقة آخر سؤال . فهناك على الاقل سؤال آخر أحب أن اطرحه : متى سيواجه النقد المحتويات التى تتضمنها تساؤلاته هو ذاته وماذا سيصير عند ذاك !

وبعد هذه الاسئلة الكثيرة مباشرة يقول حسن :

ليس عندى جواب ، ولكنى أعتقد أن الجواب يجب أن يتجاوز حدود مصطلحاتنا الخاصة الراهنة مثل : التشكيك ، الوأد ، التوضيح ، التفكيك ، التوسيع ، التخطئة ، التخالف ، وغيرها .

إنه يريد الوحدة الروحية للبشر أجمعين كما نفهم من كلامه . ولكن هذا الحلم المستحيل تقريبا جزء من عمل الناقد فى رأيه ، فنحن - باختصار - كما يقول - بشر . وسنظل بشرا ، إى « جنسا قاسيا ، غريب النزوات ، قادرا على الابداع الذاتى ، وهذا أيضا هو عمل النقد ، على طريقة المذهب الإنسانى أو ما بعد المذهب الانسانى ، أيهما شئت » ولكن ، ما الإنسانى ؟ لا يمكن الجواب بطريقة شافية على سؤاله هذا كما يتضح من توسيعه قلة

الخلاف والتخالف حول بحثه عن جواب . وفى النهاية يعود إلى ذاته ، وينهى تقديمه بقوله أنه من أنصار التغيير . والتغيير عنده موسيقى ، ولكن الموسيقى جميعها ليست من صنعنا . « فكيف إذن يكتسب الزمن قيمة دائمة ؟ » وبهذا التساؤل الجديد يتوقف مؤقتا ليعود إلى المزيد من التساؤل فى فصوله السبعة أو قطعه السبع كما سماها .

ثلاث مراحل

من الصعب تلخيص هذه القطع السبع فى الحقيقة ، لا لأنها كثيرة التساؤل وحسب ، ولا لأنها مركبة تركيبا موسيقيا معقدا وحسب ، وإنما أيضا كثيرة الاقتباس من الغير فى شتى فروع المعرفة، وشديدة التلاعب بالألفاظ واختراع المفردات والمصطلحات . فضلا عن أن كاتبها يجبرك على مرافقة أكبر قواميس اللغة الانجليزية ، حتى لو كنت انجليزيا .

وتبدأ هذه القطع السبع بقطعة ، أو فصل مطول من ثلاث قطع ، وتبدأ كل قطعة من هذه الثلاث الفرعية بتاريخ محدد، ويحدد كل تاريخ بداية مرحلة .

تبين له أن النقد استجابة متميزة لنشاط انسانى متميز أيضا هو الأدب ، وأن الناقد يشعر بحاجته إلى الإلتزام وأداة الشهادة على الحالة الأدبية ، ولما كان عمل الناقد أن يتكلم عن الأدب فلابد أن يتخذ هذا الكلام - فى النهاية - شكل التجليات الذاتية . وليست الحاجة إلى التجليات الذاتية - هذه - خاصة أو وجودية وحسب، وإنما هى وظيفة اجتماعية أيضا من وظائف الناقد . ولكن الحوار بين الناقد والنص لا يتصف بالموضوعية التامة ولا الجمالية الخالصة . ويبدأ هذا الحوار عادة بالتأمل الذى يثيره النص فى الناقد ، لأن التجربة التى يقدمها النص لا تترك الناقد وشأنه وأنما تغيره . وهذا ما عناه سارتر حين قال فى كتابه " ما الأدب ؟ " إن العمل الفنى قيمة لأنه يدخل اللذة . وهذا عمل ذاتى مبنى على الحرية ، وإذا كان البيركامى كتب أن الإبداع يعنى تعريض المبدع للخطر فإن النقد عمل يعرض الناقد للخطر أيضا .

وكان من أبرز الاتجاهات الاتجاه الأمريكى إلى إعلاء شأن شكل الأدب ونظريته عند رينيه ويليك ونورثروب فراى اللذين يعدان من أكبر منظرى الأدب . وقد رأى الأول أن الخلاص فى البنيوية كما ظهرت عند حلقة براغ فى علم اللغة ولكنه شجب تيارات النقد الأوربية بعد الحرب الثانية مثل تيار الاعتداد بالأسطورة فى تفسير الأدب والتيار الوجودى على أساس أنهما تياران غير عقلانيين ، ثم ناصر النظرية الشكلانية فى النهاية . أما نورثروب فراى فميز بين المزاجين الكلاسيكى والرومانتيكى فى النقد وقال أن الأول جمالى والآخر نفسى ، وأن احدهما

يرى الفن صنعة والآخر يراه تعبيرا ولا خلاف على هذا التمييز . وإنما الخلاف على أن فراى لا يرى النقد تجربة أو معايشة للأدب ، انما يراه منطقة من مناطق المعرفة وينتهى إلى أن معرفة الأدب هى التى يمكن تعليمها وليس القيم ، فهو يقول : « أن العمل الأساسى للنقد يقوم على الاستجابة غير المتحيزة للعمل الأدبى. وخلال عملية الاستجابة هذه يقوم الناقد باسكات جميع معتقداته ، وارتباطاته ، والتزاماته ، وتحيزاته ، وصور التشتت الخالصة لديه ، عن طريق التعاطف والأرهاب » وهذا أمر غريب لا يفيد النقد الأمريكى المعاصر فى شىء . على العكس من النقد الفرنسى الذى يعد أدب المستقبل صمتا وغيابا وتنازلا عن اللغة ولكن هل هذا الصمت الكامن فى قلب الأدب الحديث تعريف للفظاعة ومعادل ذاتى للأرهاب عندنا ؟ .

وهكذا يعانى النقد الأمريكى أزمة ، ولكنها ليست أزمة منهج وحسب ، وأنما أزمة أدب أيضا ، أى أزمة ثقافة ووعى .

فانتازيا الثقافة

مازال النقد يشتغل بالتأويل ، ولكن متى سيشفى علم التأويل الثقافة ويجعلها - من خلال التوضيح - كلية متماسكة ؟ لقد أصبحت الثقافة المعاصرة بصرية ، لا سطرية وأصبحت التكنولوجيا الكهربائية تستطيع الاستغناء عن الألفاظ ، كما قال مارشال ماكلوهان ، وتنبأ نورمان براون بأن « البقية للصمت » ، فالصمت مصيرنا. ويجب على النقد أن يتعلم الاعتراف بقوة الصمت التى ضغطت على اللغة طوال قرن من الزمان حتى اقصتها إلى حافة الوعى. ولكن كيف يتكلم النقد عندما تتوقف الانسانية عن التنفس ؟ كيف سيعيش النقد ويستمر ؟ إن أدب ما بعد الحداثة يعرف ألوان الصمت ، ولكن النقد يمشى ببطء فى الوقت الذى يسرع الأدب فى خطاه ، ومن الصعب الفصل بين الفن والحياة ، ولكن خطاب الناقد جزئى ، لا تصل كلماته إلى أبعد من هوامش الأدب وأطرافه ولذلك يجب على النقد أن يتيح للقارىء مسافات خالية ، وألوانا من الصمت ، حتى يلتقى نفسه فى حضور الأدب ، وهذا هو النقد المخالف ، أى محاولة أنقاذ النص من تعدد الوظيفة والرسالة ، وهو لا يعنى بالنص وحروفه وإنما بالاستعارات التى يستمدها منه .

ما بعد الحداثية

فى فصل تال بعنوان « ما بعد الحداثية : ببليوجرافيا عامة » نصل إلى مصطلح اثير من مصطلحات المؤلف والحداثية modernism تختلف عن الحداثة modernity كما سبق أن أشرنا فالأولى مظلة تجمع عددا من المذاهب الحديثة فى الأدب والفن ، والأخرى حالة تاريخية تشمل التاريخ

والفكر والفن وسائر مظاهر النشاط الانساني . وللمؤلف نفسه باع طويل في تأسيس مصطلح " ما بعد الحداثية " وتوثيقه وتوضيحه . فكأننا هنا في حضرة مؤسس من مؤسسيه وثقة من ثقاته . وإذا كان جوهر الحداثية هو التجديد « فسر التجديد هو الحركة » كما يقول : وإذا كانت الحداثية تغيرت كثيرا منذ ظهورها في ثمانينات القرن الماضي فهذا التغير هو نفسه ما بعد الحداثية كما يقول أيضا . ويعد كتاب « قلعة اكسل » للناقد الأمريكي إدموند ولسون نصا كلاسيكيا للحداثية ، لأن مؤلفه درس الأدب الغربي في الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٩٣٠ . وبعد ٤٠ سنة من ظهور هذا الكتاب ظهر كتاب " تقطيع أوصال أورفيوس » لحسن نفسه الذي درس فيه جذور ما بعد الحداثية وطلقاتها الأولى . وهو يقارن بين الكتابين ، ويعتقد أن وجود حركة مراجعة للحداثية في الفترة الأخيرة دليل آخر على وجود ما بعد الحداثية ، حتى لو كانت هذه المراجعة بطيئة كما هي حاليا بالفعل . ومع ذلك فالحركتان - الحداثية وما بعدها - تتعيشان حالها ، ولم تقض أحداهما على الاخرى ، وإذا كانت الحداثية نافذة على جنون الانسان - كما يقول - فقد اتخذت صورا وأشكالا عديدة في المدن التي دخلتها والتكنولوجيا التي تعلقت بها ، ثم ثارت ما بعد الحداثية على أعمدة الحداثية السبعة ، فبدأ العالم يسعى إلى التوحد ، والناس يطلبون الأكل الصحي ، والسجون تنشد التمرد ، والجرائم تشرع في خطوها ، حتى أصبحت المدينة معسكر اعتقال . وهذا هو عصر الفضاء !

يأتي بعد ذلك فصل أكثر أهمية ودلالة فيما يتعلق بما بعد الحداثية بعنوان "الادرية الجديدة : تأملات في أحد جوانب عقل ما بعد الحداثية " . وكلمة " الأدرية " Gnosticism ربما لا تفي بالمعنى المقصود . فالغنوصية في الفلسفة حركة ذات جذور يونانية ووثنية قديمة ازدهرت في بداية العهد المسيحي عندما تأسست الكنيسة في القرن الثاني . وتلفعت بالأساطير والشعائر السحرية مع بعض المصطلحات المسيحية ، وأكد أصحابها على قوة الغنوص ، أو المعرفة التي يكشفها الله للإنسان من أجل تخليص العنصر الروحي فيه .

أخذ حسن المصطلح بمعناه الفلسفي واللغوي من حيث هو صوفية باطنية تعتمد على الاشراقات . وعنده أن ما بعد الحداثية غنوصية ، أو أدرية ، جديدة تقوم على الوعي ، مع أن الاسطورة والتكنولوجيا يختلطان اليوم بسهولة في عقولنا ، حتى صار العلم فوق الحلم .

يشير حسن بعد ذلك إلى أن الوعي صار من أسس عالمنا الراهن ، مثله مثل الإيمان أو العقل أو الحساسية ، ومع ذلك

فجذور الالات فى هذا العالم أكثر صوفية وروحية مما نفترض ، لأن الاسطورة لم تفارق العلم ، ولأن الاسطورة والعلم والتكنولوجيا لا يمكن أن تتحرر من الخيال، وإذا كان بروميثيوس سرق النار من الالهة فى الأسطورة القديمة ، واستل الوعى من عرينه المقدس ، فالوعى مثل النار شرير ، يسعى إلى ضده ، ويلتهم أمله ، وإذا أطلق على العالم فسوف يهدد المادة وكل شىء . فما الجواب البروميثوسى؟أن البروميثوسية مركز يتلاقى فيه الحلم والمشروع الغنوصى أو العرفانى ، وهو مركز ينشأ فيه الوعى الإنسانى ، ويخلص فيه الوعى الإنسانى نفسه بالمعرفة الكاملة ، ولذلك يتضمن الارادة والطموح والنبوءة والخيال .

الأدب والتغيير

ولكن ما صلة هذا بالأدب ؟

لقد صور أدب الخيال العلمى كثيرا من أحلام الوعى هذه قبل وقوعها . وكان بليك الانجليزى ودى ساد الفرنسى يقفان على هذه التجربة فى القرن الماضى . بل أن رحلة الرومانتيكيين إلى نواتهم فى ذلك القرن كانت رحلة نحو الوعى ، وهى رحلة غنوصية عرفانية بأوسع معنى ، بل صارت الفلسفة ذاتية منذ هيجل . كما صار النقد ذاتيا ضد بوليه وبلانشو وبارت وفلوكو ودريدا ، بحيث ترك هؤلاء " النص " وراءهم فراح يتصعلك بذكاء من خلال اللغة، ويختفى داخل الوعى فى النهاية .

لن نناقش ما جاء فى هذا الكتاب الطريف المخالف على أى حال ، لأن الاسئلة التى طرحها أكثر من أن تحصى . ولكننا نعود الآن إلى ما أشرنا إليه فى البداية من خصائص تفكير إيهاب حسن ومنهجه فنقول إن كتابه " تقطيع أوصال أورفيوس " كان نافذة على الأدب الفرنسى لحساب المذاهب الحداثية ، ولكن كتابه المخالف هذا نافذة أخرى على التراث الإنسانى لحساب مذاهب ما بعد الحداثية. وفى كلتا الحالتين نجده من القلائل فى أمريكا الذين يضعون عينا على الأدب الأمريكى وأخرى على الأدب الأوربى بصفة خاصة والأدب الفرنسى بصفة أخص ، وإذا كان منهجه سقراطيا. يتساءل أكثر مما يجيب ، ويثير أكثر مما يهدىء ، فهو يولج الموضوعى فى الذاتى ، والكلى فى النسبى ، ويتفنن - بطريقة غير تقليدية - فى صياغة أفكاره ورسمها وطبعها على الورق، وإذا كان يبدو هنا متأثرا بالوجودية أو البنيوية فلم تطبع عليه أحداهما علامة التبعية ، ولا كفت يده عن الاقتباس من جميع المعارف المتاحة ، أو قيدته فى توليد المصطلحات واشتقاق الالفاظ . ومن هذه الزاوية الأخيرة يجبر قارئه - حتى لو كان انجليزى اللغة تخصصى المعرفة - على استشارة أكبر قواميس اللغة فى كثير من مصطلحاته .

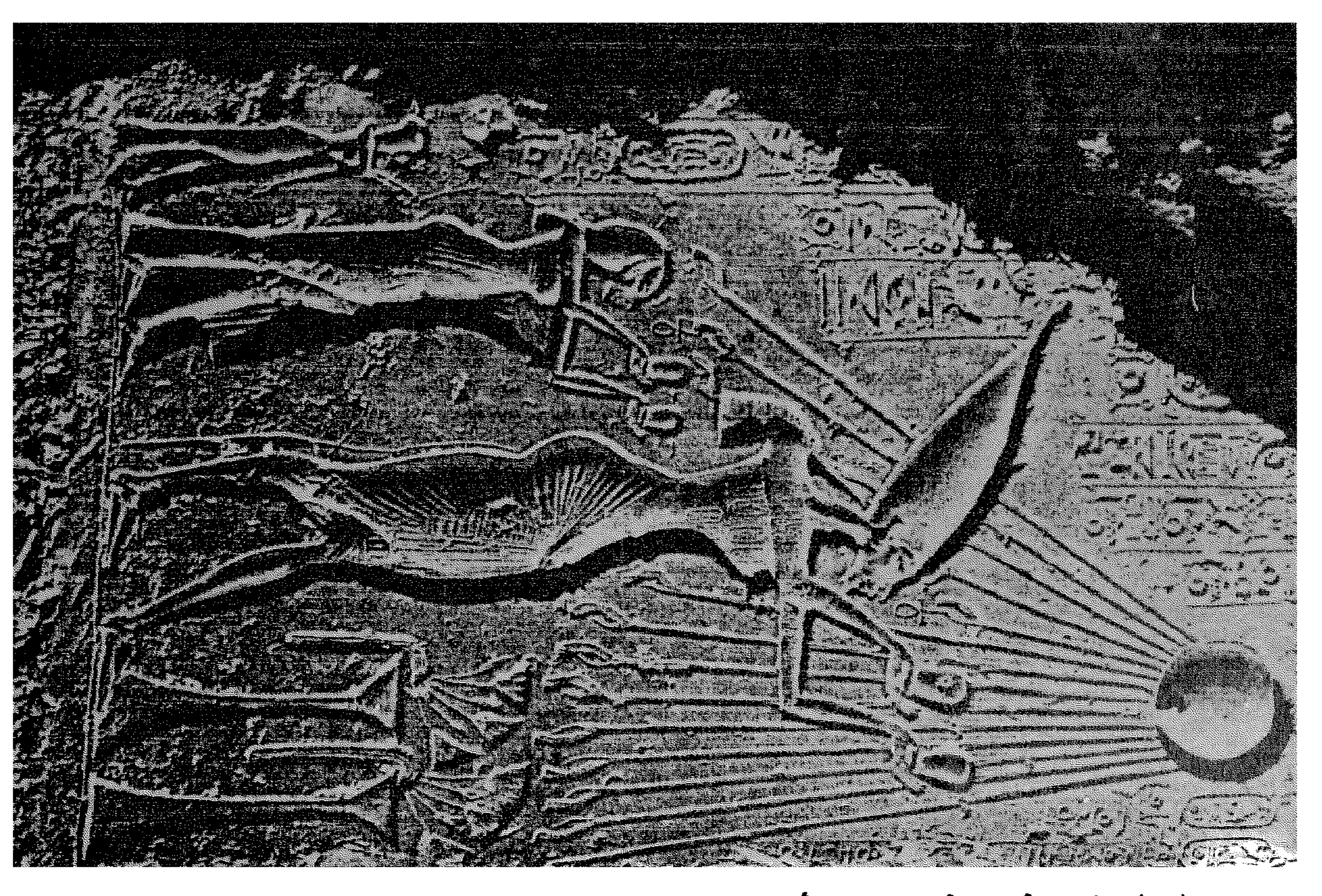
اخناتون
ومزامير داود

بقلم : د. سيد كريم

المزامير أناشيد وتسابيح حملتها كتب التوراة إلى العبرانيين لتصبح عنصرا من عناصر العقيدة ، وتصور ركنا من شعائرها خصت بها النبى داود الذى كان يرددها بجمال الصوت الذى وهبه إليه الاله ، فنسبها مؤرخو الأديان إلى النبى داود الذى ارتبطت باسمه على مر الأجيال خاصة وأنه لم يرد لها ذكر بالنسبة لمن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل .

كان مصدر المزامير موضع شك عند كثير من مؤرخى العقيدة وكتاب الحضارات حيث نسب البعض مصدرها إلى كتب التوراة نفسها وذلك اسلوب كتابتها بالشعر الغنائى الذى اشتهر به المصريون القدماء فى أدب العقيدة وترتيل الأناشيد الدينية فى المعابد بمصاحبة الالات الموسيقية وهو ما نقلته جميع الاديان التى خرجت من مصر لتصاحب الموسيقى طقوس العبادة فى دور العبادة المسيحية واليهودية . لقد تميز عصر اخناتون بصفة خاصة بالأناشيد والتسابيح المنظومة بالشعر الغنائى المرتل . كما تحوى المزامير كثيرا لخطوط بردية جولو نشيف التى وصفت بانها الحلقة المفقودة التى تربط التسابيح بالمزامير .

أثمرت الحملة العالمية فى بدايتها على النص الفرعونى للمزمور رقم ١٠٤ من مزامير داود ضمن مجموعة برديات حفريات تل العمارنة وبعض المقطوعات من المزامير ١٢٥ ، ١٢٦ ضمن برديات (بريس دافن) المشهورة ، وتتوالى بلاغات الاكتشافات من مختلف المتاحف حتى وصل عدد المزامير التى اكتشفت اصولها المصرية ما يزيد عن عشر برديات جديدة موزعة على كل من متاحف اللوفر وتورين وبرلين .



كان اخناتون فيلسوفا وحكيما وأديبا وفنانا وموسيقيا



الملكة نفرتارى
معبد أبو سمبل الصغير

يكشف المؤرخ والعالم المصرى الكبير سليم حسن فى أبحاثه الخاصة بالأدب المصرى القديم أن مقدمة المزامير العبرانية لا تختلف صيغة نصوصها عن النشيد الكبير الذى يبدأ به اخناتون تسابيحه المشهورة .

لم يغفل معظم دارسى اخناتون عن هذا التماثل الواضح بين كثير من اجزاء النشيد المصرى الذى قاله اخناتون فى تسبيح الهه الأوحد «اتون» .

فالنشيد المصرى يسبق مجىء اشعيا بسبعة قرون كاملة الأمر الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن العبرانيين قد أخذوا من النشيد المصرى كثيرا من أفكارهم فى التوحيد :

سؤال يفرض نفسه متى ؟ وكيف انتقلت الاناشيد من اخناتون .. إلى النبى داود ؟ .

داود والمزامير

● النبى داود (فى التوراة وكتاب صمويل والملوك) نادى صمويل عام ١٠٢٥ ق . م شاؤول ليكون أول ملك لإسرائيل . وصف بانه كان فارسا يحب الحرب والملذات وابتعد عن الدين والعقيدة فنزلت عليه لعنة الاله ليختم حياته بيده . ولم يخلفه ابنه يوناثان بل تولى الحكم داود الذى كان أول من انشأ مدينة القدس .

وكان محاربا انتصر على البلاد المحيطة به وجمع بين محاسن البشر ومساوئه وتزوج من «بيت شيبا» زوجة قائده أوريا الذى ارسله إلى الحرب للاستيلاء على زوجته التى اغراه جمالها ومحاسنها عملا بقولهم كل ما تمتلكه تضع عليه يدك فهو ملك لك .

● وتصف قصص الانبياء للنيسابورى مزامير داود بقولها أنعم الاله على داود الصوت الطيب ونعمة الترجيع والالحان ولم يعط احد من خلقه مثل صوته فكان يقرأ المزامير بستين لحنا حتى اذا غنى تستمع إليه الانس والجن وتقف له الوحوش وتظله الطيور وتسكن الريح ويقف خرير المياه فى النهر وكانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج الأ على صوته .

قال الله تعالى فى سبأ والانبياء «ولقد أتينا داود فضلا منا ياجبال أوبى معه والطير والنـّا له الحديد»

«وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين»

ويقول كتاب الانبياء ، «عندما عصى

داود الاله وارتكب الخطيئة نقصت نعمته وفقدت تأثيرها على ما حوله وعلى من يسمعه وغيرت صوته وحاله فتوقف عن ترديد المزامير .

أما الخطيئة التى ارتكبها هى عندما اخرجه الشيطان من محرابه اثناء صلاته ويغريه ليتبعه إلى الحديقة ليطلعه على كنز مدفون فمازال يتبعه حتى اشرف على امرأة تغتسل فى بحيرة القصر . فاعجبه حسنها وخلقها فلما رأت ظله على الارض جللت جسدها بشعرها فزاده ذلك اعجابا بها ولما سأل عنها قيل له أنها زوجة اوريا قائد جيشه فعمل على ارساله فى مهمة حربية فى مكان بعيد إذا بلغه قتل ولن يرجع . فخطبها داود لنفسه وتزوجها . وكان لداود عندما تزوجها تسع وتسعون امرأة وزوجة .

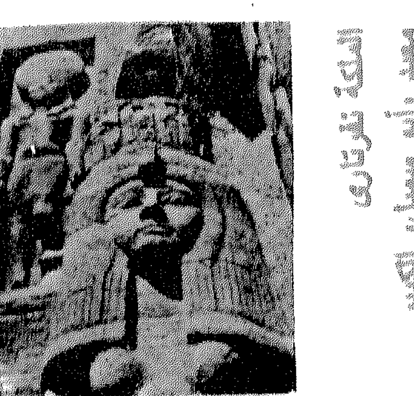
ودخل عليه جبريل فى محرابه وهو يتغنى بالمزامير وقال له كيف تتغنى بالمزامير وخطيئتك قائمة فاوريا لم يمت فى الحرب بل مات كمدا عندما تزوجت زوجته وهى فى عصمته ، فامر الاله بحرمانه من نعمة الصوت الذى يرتل به المزامير ونعمة الفن التى تعزف به اصابعه على القيثار .

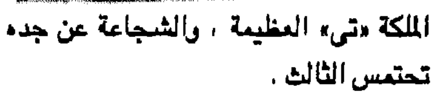
أخناتون والتسابيح

لم يكن اخناتون فيلسوفا متعبدا فقط كما وصفه المؤرخون بل كان حكيما وأديبا وفنانا وموسيقيا محبا للنحت والتصوير الذى أوحى للفنانين بتجسيد الطبيعة الحية فى فنون النحت والتصوير والتعبير بالالوان المستوحاة من الطبيعة .

وقد ورث اخناتون فلسفة الفن عن أبيه امنحتب الثالث . كان اخناتون محبا للموسيقى والرقص فقام بتطويرهما والخروج بهما من المعبد إلى مسرح الحياة العامة وانتقل بالتمثيل من تمثيل الاساطير الدينية فى المعابد وفى المناسبات الدينية إلى تمثيل طبيعة الحياة فى الأعياد والمناسبات الاجتماعية . خرج بالفنون بأنواعها من القيود الدينية إلى التحرر الاجتماعى فوضع مبدأ «الفن الحر» فى جميع فنون الحياة ابتداءً من التصوير والزخرفة والازياء والادوات المنزلية والاثاث امتدادا إلى التعبير عن متون العقيدة وتشاريع السماء التى برزت كمقطوعات أدبية وفنية على شكل تسابيح منظومة بالشعر ومصحوبة بالنغم والموسيقى .

يقول المؤرخ برستد فى «فجر الضمير» اعلن اخناتون أنه رسول الاله الواحد إلى الناس كافة ليظهرهم على جماله ويشعرون بقوة خالقهم وسلطانه . جاء لينقل للناس جمال كلام الاله وتعاليمه التى تنطق بها التسابيح الشعرية المنظومة التى تصاحبها انغام الموسيقى .. لغة السماء . يقول المؤرخ ايرمان «كنوز الحضارة» ان شخصية اخناتون كانت مثلثة القوى ، فقد ورث فلسفة الفن عن أبيه امنحتب الثالث . والعقيدة عن امه




الملكة «تى» العظيمة ، والشجاعة عن جده تحتمس الثالث .

فجمعت شخصيته الحساسة الحالمة بين القوة والاحترام الكافيين لان يقف أمام أقوى نفوذ فى البلاد فى ذلك الوقت وهو نفوذ كهنة آمون . فهو أول حاكم عرفه التاريخ يقوم بثورة دينية واجتماعية وفنية بعد أن تمكن من تحقيق فكرته فى الدعوة لعقيدته وتحدى كهنة آمون ، فينقل مقر الحكم من طيبة معقل عبادة أمون إلى عاصمة جديدة للعقيدة والحكم اطلق عليها اسم (اخت اتون) أى افق الاله .

وقد اختار لمدينته الجديدة موقعا استراتيجيا بين كل من أون (هيليوبوليس) وطيبة مركزى عبادة كل من «رع» و«آمون» وجعل ذلك الموقع الجديد مقراً للحكم .

لم يكن الانقلاب الذى أحدثه اخناتون قاصرا على احياء عقيدة التوحيد باسم اتون بل قد تخطت حركة الانقلاب إلى انقلاب أعظم فى الفن المصرى وطرائقه ، الذى كان جزءا من منهاجه والذى امتد إلى التصوير الادبى للعقيدة بالتعبير عنها بالشعر المنظوم والاناشيد والتسابيح التى ترتل فى المعابد وتتردد فى المناسبات والندوات وتنتقل منها إلى اسفار التوراة لتصل إلى بيت المقدس ليتغنى بها داود فى مزاميره .

● بعد سقوط ثورة اخناتون لم يترك اعداؤه حجرا واحدا لم يقلبوه لازالة كل شىء باق يدل على مدة حكمه الممقوت عندهم فاتلفوا بطبيعة الحال مخطوطات اخناتون وكل ما يختص بكتاب عقيدته وما ارتبط بها من شرائع وتعاليم سماوية عبر عنها بأناشيده وتسابيحه المعروفة التى لا تدخل تحت حصر وما وصل منها إلينا من نصوص ما كان يزين بها أشراف رجاله جدران مقابرهم أو بقايا بعض البرديات ولفائفها التى وجدت ضمن موميات بعض مقابر مدينته المقدسة .

لازال باطن ارض مصر يلفظ من آن لأخر بعض تلك البرديات الاثرية المثيرة التي تلقى ضوءا على العلاقة بين اسفار التوراة ومزامير داود وعقيدة اخناتون المصرية . وهو ما حدى بكثير من المؤرخين والباحثين فى محاولة ترجمة الكثير من البرديات والنقوش التى كشفتها حفريات تل العمارنة (مدينة اخت اتون) والمكدسة فى مخازن كثير من متاحف العالم .

كان من المفاجأة التى كشفتها بعض لفائف البرديات أنها تحوى نصوصا كاملة لاكثر من مزمور من مزامير داود المدونة

باللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفى والتى سبقت مزامير داود المدونة باللغة والخط العبرانى بأكثر من ثلاثمائة عام . ومن أخطر المفاجآت التى كشفها العالم المصرى . بالاشتراك مع علماء متحف برلين وجود ثلاث صفحات من كتاب اخناتون مطابقة لمثيلاتها فى اسفار التوراة .

اخناتون وموسى .. والمزامير

● تبدأ علاقة اخناتون بموسى كما وصفتها كتب العقيدة وقصص الانبياء بزواج يوسف عليه السلام واسمه المصرى (يويا) من اسنات ابنة «فوتيفارع» كبير كهنة معبد اون معقل عقيدة التوحيد واسمها المصرى (تويا) فانجب منها ابنته الجميلة طاى (تى) التى تربت فى قصر تحتمس الرابع . فاحبها ابنه امنحتب الثالث وتزوجها بعد توليه العرش بعام وجعل منها ملكة على مصر .

نسب المؤرخون إلى الملكة (تى) مسئولية النزاع والنفور الذى قام بين كهنة معبد امون والاسرة المالكة خاصة وانها كانت تنتمى إلى عقيدة اله الشمس «رع» التى يرعاها معبد اون الذى تربت فيه ويرأسه جدها «فوتيفا رع» لذا فانها ارسلت «اخناتون» منذ طفولته للالتحاق بمعبد اون بعيدا عن كهنة معبد آمون بطيبة وفى معبد آمون بهيليوبوليس تشبع بعقيدة توحيد رع التى كان يؤمن بها جده النبى يوسف .

أما علاقة اخناتون بموسى عليه السلام فتفسرها علاقة موسى عليه السلام بالنبى يوسف جد اخناتون فيذكر كتاب الانبياء فى التوراة تلك العلاقة بقوله : «ذهب رجل من بيت لاوى واخذ بنت لاوى اخى يوسف فحبلت وولدت ابنا وهذا الابن هو كليم الله موسى وبيت لاوى هم احفاد يوسف (سفر الخروج اصحاح ٢ نص ١).

● يقول العالم «فرويد» عن كتابه «اليهود فى مصر» ان موسى قد تلقى علومه فى معبد اون الذى تخرج منه اخناتون وأنه كان يؤمن بعقيدة التوحيد التى نادى بها اخناتون وحاربها المصريون ارضاء لكهنة معبد آمون . وكان موسى ينشر سرا عقيدة التوحيد بين طوائف اليهود بعد أن انحرف عنها المصريون بعد ثورة كهنة امون عليها .

كان اليهود يرتلون تسابيح اخناتون فى معابدهم ويتغنون بأناشيده بمصاحبة الموسيقى فى مختلف مناسباتهم الدينية والاجتماعية وهى التسابيح التى نقلها مع التوراة ليحملها معه إلى بيت المقدس لتصبح من شعائر الدين التى يرتلها اليهود فى معابدهم والطقوس التى يمارسونها بمصاحبة الموسيقى التى نقلوها عن المعابد المصرية ولازالت تمارس وتتردد إلى اليوم فى انحاء العالم . بانتقال تلك التسابيح والاناشيد وما ارتبط بها من شعائر وتقاليد .. بانتقالها إلى مدينة القدس التى نزلوا بها وتوالى ظهور الانبياء على ارضها تعلق بها النبى داود



الذى اشتهر بجمال صوته واتقان عزفه علي «القيثار» احد الآلات الموسيقية الفرعونية المعروفة التى نقلها اليهود من مصر ، مع غيرها من الالات الأخرى التى نقلوها إلى العالم ولازالت تحتفظ باشكالها وتتردد انغامها إلى اليوم داخل المعابد وخارجها .

ذلك القيثار المصرى الذى احتفظ به النبى داود ليعزف عليه تسابيح اخناتون المصرية بعد مرور فسحة من الزمن .

● يصف كتاب الانبياء مزامير داود بانها نزلت بالعبرانية فى مائة وخمسين عامودا ، خمسون منها فى ذكر الله وآيات خلقه وخمسون فى التسابيح بحمده وخصائص نعمه وخمسون منها فى الحكم والمواعظ وهو ما يتفق إلى حد بعيد فى نصوصها وتتابعها مع أناشيد اخناتون وتسابيحه .

فمطلع مزامير داود يتشابه مع فاتحة «النشيد الكبير» الذى بدأ به اخناتون تسابيحه فى مناجاة الاله الخالق الذى لا شريك له ، والذى رمز له بقرص الشمس «اتون» (القوى الخفية التى تهب الحياة والحركة) وصورها بقرص الشمس الذى تمتد اذرعه واياديه حاملة هبات العطاء الالهى ومنحه مع مفتاح الحياة إلى البشر.

يبدأ النشيد الكبير أو فاتحة تسابيح اخناتون بقوله :

● انت الاله الاحد الذى وجد منذ الازل

انت آية الحياة وموهب الحياة ولاحياة الا بك .

ايها المشرق البهى القريب البعيد .

يامن يشرق بجماله فى آفاق السماء تعاليت فامتد نورك ليضىء الكون كله .

أنت تدرك آخر الارض رغم ارتفاعك عنها .

لا تكاد تقذف باشعتك حتى يتمزق رداء الليل .

فإذا الارض تتهلل وإذا الناس أيقاظ.

لانك بعثتهم وكل ما حولهم من رقاد.

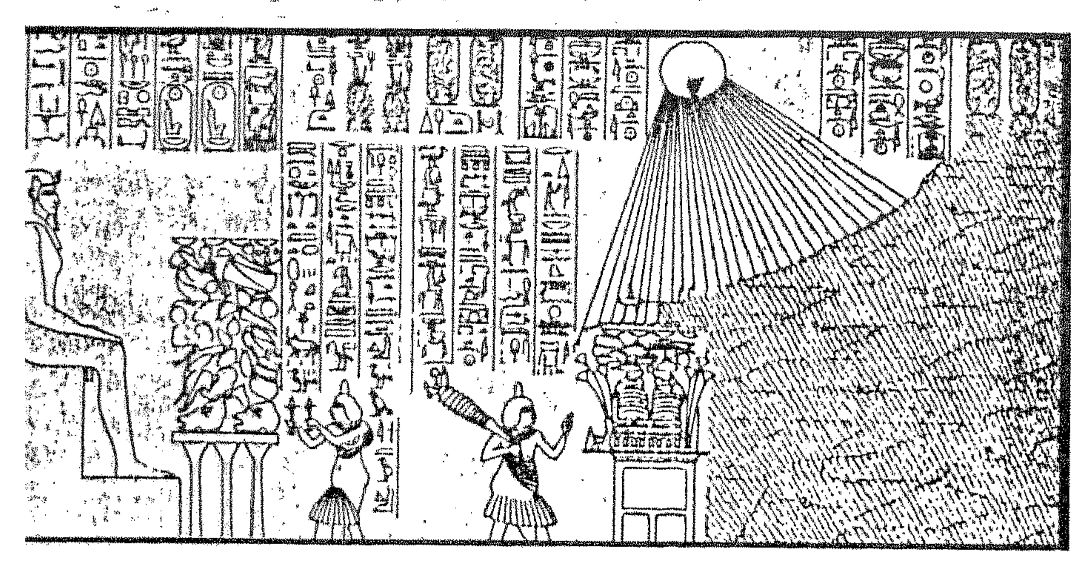
وتتحرك الخلائق من كل دابة . وإذا الماشية ترتع كيف تشاء لانك أضأت لها الكون .

ونشرت أشعتك التى تحيط بكل ما خلقت .

فإذا بنورك ينضر ما فى الأرض من نبات وشجر .

وتغادر الطير أوكارها لتضرب باجنحتها مسبحة بحمدك .

عندما يشرق نورك على الكون تعود إليه الحياة ويذهب كل إلى عمله ويسبح الكل بحمدك



أمنحتب الثالث (والد اخناتون) ورمز عبادة اتون





والاسماك تسبح في الماء تحت نور طلعتك .

وينفذ نورك إلى أعماق الماء ليهب الحياة لما بها من كائنات .

وتمتد تسابيح النشيد الكبير لتغطى عدة برديات متفرقة ولويحات الاوستراكا والنقوش الزخرفية التى تزين بعض مقابر العمارنة وبقايا احجار معابد ابيدوس واخميم والتى تحتل مكانها حاليا فى معظم المتاحف العالمية .

من بين أناشيد الخلق التى انتقلت بغير تبديل من تسابيح اخناتون إلى مزامير داود :

● ياباریء الفرخ فى البيضة تعطيه النفس .

ليحفظه حيا فى وسطها ويتحرك فيها بامرك .

وقدرت له ميقاتا ليخرج منها .

ولا يخرج منها إلا فى ميقاته .

فترزقه القوة على كسرها فيمشى ساعيا على قدميه .

ليخرج منها إلى الدنيا .

يامن خلقت الحياة من الجماد فاخرجت الفرخ من البيضة .

● يامبدع الاجنة فى الارحام .

وخالق النطفه فى اصلاب الرجال .

يامطعم الجنين فى بطن أمه مهدأ اياه حتى لايبكى .

ونافخا الحياة من انفاسك فى اديمه .

فإذا ما خرج إلى الحياة فتحت له فمه وحركت لسانه .

ووهبته الحواس ليحس بوجوده ووجودك .

● ياخالق الحياة من الماء ومن الماء اخرجت بيضة الكائن الحى .

خلقت فى الماء ومن الماء ما يسبح ويغوص .

ومن الماء ما يمشى ويطير .

ومن الماء ما يخرج إلى الارض ليزحف على بطنه أو يسير على اقدامه .

ومن الماء بعثت الحياة فى الارض بما يسقط منه من السماء أو يخرج من الأرض أو ينساب على سطحها أو يحيط باركانها .

● كان الفضل لاكتشاف العلاقة بين أناشيد اخناتون وتسابيحه ومزامير داود للعالم الاثرى الشهير «جولونشف» فى أوائل القرن الحالى عندما كان يقوم

بترجمة بعض البرديات الفرعونية التى يحتفظ بها متحف بتروجراد حيث فوجىء عند قيامه بترجمة احدى البرديات التى حصل عليها المتحف من حفريات مقابر العمارنة والمدونة بالخطين الهيروغليفى والهيراطيقى . وبمقارنتها بنصوص مزامير داود التى كان يحتفظ بها فى مكتبته الخاصة فوجىء بانها صورة طبق الأصل من ناحية اللهجة والنص والاسلوب الشعرى من المزمور الثامن من مزامير داود .

كان لاعلان ذلك الاكتشاف المثير الحافز للفت انظار علماء الاثار فى مختلف المتاحف العالمية فحاولوا البحث والتنقيب بين أكوام البرديات التى تحتفظ بها مخازنهم .

فيعلن المتحف البريطانى اكتشاف نص فرعونى للمزمور ١٠٤ ضمن برديات «بريس» المشهورة ثم تتوالى الاكتشافات التى تعلنها كل من متاحف اللوفر وتورين ليصل عدد المزامير التى تمكنوا من اثباتها أكثر من عشرين بردية .

عند ذكر المزامير لا يمكننا أن نذكر فضل العالم الأثرى المصرى الكبير سليم حسن والبحوث التى قام بها والخاصة بعقيدة اخناتون وعلاقة كل من التوراة والمزامير بها وترجمات البرديات التى أعلنها متحف برلين عام ١٩٣٥ وكان له الفضل فى اكتشاف بعض صفحات من التوراة لا يقبل الشك فى اتفاق نصوصها وتصيغتها مع وثائق عقيدة اخناتون ، ولازال كثير من علماء الآثار والباحثون يوالون البحث والتنقيب بين برديات المتاحف التى لم تترجم بعد أو ضمن حفريات الاثار خاصة فى المناطق التى كانت تهتم بعقيدة اخناتون وتمارس شعائرها وفى مقدمتها منطقة اخميم وأبيدوس التى أقيم لاخناتون بها أكثر من معبد ومزار لازالت بعثات الآثار المصرية والأجنبية تعثر عن العديد من أحجار تلك المعابد والمنشآت التى خربها كهنة آمون فى ثورتهم المعروفة ضد عقيدة اخناتون .

من آخر الاكتشافات ما قام به علماء مصر عام ١٩٨٣ فى منطقة المضل ببنى سويف عندما اكتشفوا مخطوطا كاملا للمزامير وجد على شكل كتلة متماسكة تتكون صفحاتها من الرق . عثر عليها الاثرى إبراهيم جاد والمخطوط مكتوب باللغة البهنسية المصرية القديمة التى يطلق عليها لهجة مصر الوسطى والتى يدخل بها كثير من الكَلمات اليونانية ويعتبر ذلك المخطوط اقرب للمزامير من الاصل . وقد وجد المخطوط تحت رأس أحد المومياوات وهو ما يعد استمرارية لبعض العادات المصرية القديمة حيث كانوا يضعون «كتاب الموتى» تحت رأس المومياء ويوالى باحثو المصريات فك رموز المخطوط والذى سيكون فصل الخطاب فى حقيقة العلاقة بين تسابيح اخناتون ومزامير داود .

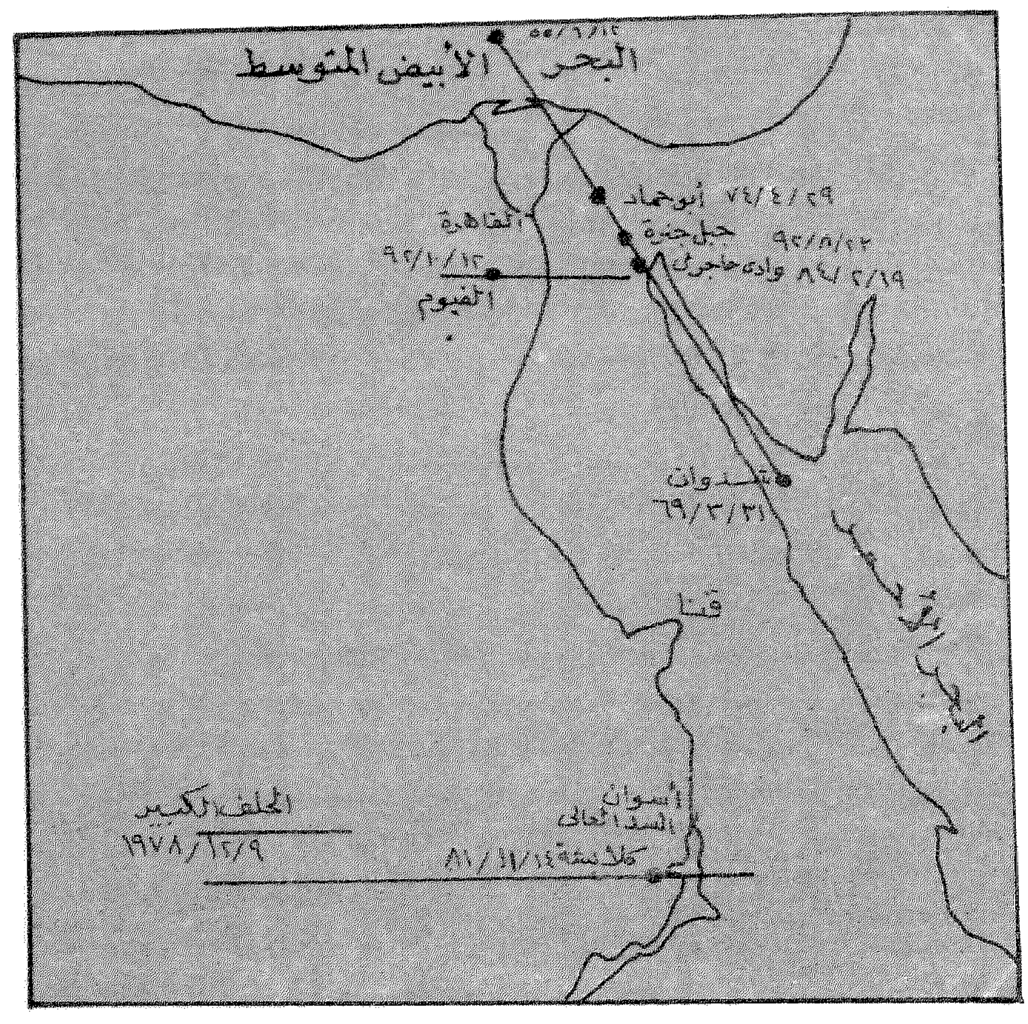
الزلزال على أرض مصر!

بقلم : د . رشدى سعيد

أكتب هذا المقال لكى ألخص عمل وملاحظات سنوات طويلة من البحث العلمى على أرض مصر ولكى أضع بين يدى القارىء فكرة عن الزلازل والهزات الأرضية التى شهدتها

ولكى أضع للمشتغلين بالعلم فى هذا المجال إطارا جامعا يربط بين الظواهر والمعلومات المتناثرة المسجلة عن زلزالية مصر ، وحتى تصبح مهمة وضع خطط عملهم على أساس دقيق ، وحتى يكون لنتائج أبحاثهم فى المستقبل مغزى ..

فوجىء المصريون فى يوم ١٢ أكتوبر بزلزال مدمر لم يكن ينتظروه فقد دخل فى يقينهم أن بلادهم بعيدة عن هذه الكوارث التى يسمعون عنها فى بلاد بعيدة - والحقيقة أن الزلزال الذى حدث بمصر زلزال ضعيف فقد بلغت درجته على مقياس رختر ٩ر٥ وهى أقل بكثير من درجة الزلزال التى توصف بأنها شديدة والتى تبلغ ٥ر٧ أو أكثر على نفس المقياس ولابد أن نبين هنا أن درجات مقياس رختر تتزايد لوغاريتميا أى أن زيادة درجة واحدة على المقياس تعنى زيادة شدة الزلزال بعشر مرات . فالفرق بين درجة ٦ ودرجة ٧ على المقياس مثلا هو الفرق بين زلزالين تزيد فيه شدة الزلزال الذى يسجل ٧ درجات عشر مرات من الزلزال الذى يسجل ٦ درجات . وقد جاءت خسائر زلزال أكتوبر سنة ١٩٩٢ بسبب تهالك المبانى واكتظاظها بالسكان وليس بسبب شدة الزلزال .



تواريخ الزلازل التى مرت بمصر وأماكنها

وكان لهدوء مصر الذى عهدناه أثره على دراساتي العلمية ، فلم يكن موضوع زلزالية مصر مثيرا لى ولم تكن له أية أسبقية فى أعمالى حتى أوائل السبعينيات عندما بدأ اهتمامى به فى ظروف تستحق تسجيلها - ففى ذلك التاريخ كنت مشغولا بأبحاث عن نهر النيل فى محاولة لاستقصاء تاريخه ونشأته والعوامل التى حددت مجراه وجعلته قادرا على الوصول إلى أرض مصر والبحر المتوسط رغم مروره عبر القفار دون أن تصله قطرة ماء لأكثر من ألفى كيلو متر .

الزلزال على أرض مصر

وكانت أكثر النظريات قبولا لتفسير هذه الظاهرة الفريدة وهو أن النيل يقع فى أحد صدوع قشرة الأرض على أن هذه النظرية كانت غير محققة، لأن أحدا لم يكن قد تتبع الصدع على طول مجرى النهر – وقد خطر لى أنه ربما كان من الممكن التحقق من هذه النظرية لو عرفنا شيئا عن زلزالية وادى النيل وسجلنا الهزات الأرضية، فإن وجدنا أن ترددها كان كبيرا كان هذا دليلا على وجود مجرى النهر فى نطاق صدع لم يستقر بعد – ولم يثننى عن القيام بهذه الدراسة أن الزلازل التى رصدت أو تحدث عنها الرواة فى ماضى الزمان فى وادى النيل كانت قليلة ومتباعدة فقد كانت هذه هى الزلازل القوية التى يحس بها الانسان أو التى كانت الأجهزة المركبة فى ذلك الوقت قادرة على رصدها – كان الغرض من الدراسة هو معرفة مقدار تردد هزات الأرض الصغيرة والتى لا يحس بها الانسان فقد كانت هذه الهزات بالنسبة لدراستى دليلا على مدى استقرار الأرض فى وادى النيل – ولما لم يكن بمصر فى ذلك التاريخ أجهزة رصد حساسة تستطيع أن تميز هذه الهزات الأرضية الخفيفة ، فقد سعيت لشراء هذه الأجهزة للبدء فى القيام بهذه الأبحاث .. فكللت جهودى بالنجاح ووصلت الأجهزة إلى مصر وأزمعت تركيبها فى شمال الفيوم حيث يوجد هناك صدع معروف يمتد عبر النيل . إلا أن وصول الأجهزة جاء وقت أن كانت أعمال موسم الأبحاث الميدانية لعام ١٩٧٦ توشك على الانتهاء ، ولذلك فقد قررت تأجيل استخدام الأجهزة بوادى النيل حتى بدء الموسم التالى والقيام بضبط الأجهزة وتجربتها خلال فترة الصيف . واحتاج أمر هذا الضبط إلى إيجاد مكان بارد لا ترتفع فيه درجة الحرارة ولذلك فقد قمنا بتركيبها وتجربتها فى أحد الأنفاق التى كنا قد حفرناها فى «جبل أبو دباب» المطل على البحر الأحمر بجوار مدينة مرسى علم – وتركنا الأجهزة لقرابة الشهرين وعندما عدنا إليها وجدنا لدهشتنا أنها سجلت نشاطا زلزاليا فائقا للمنطقة فقد بلغ عدد الزلازل التى سجلتها الأجهزة بين ٥٠ و ٦٠ فى اليوم الواحد وفاق المائة زلزال فى أحد الأيام – كانت مفاجأة تبينا على أثرها السبب الذى دفع بالبدو إلى تسمية الجبل بـ «أبو دباب» فقد كانوا يسمعون دبيبه وهو يهتز – كانت النتائج مثيرة حقا مما دفعنى إلى الاستمرار فى دراسة هذه المنطقة وتأجيل مشروع دراسة النيل إلى وقت لاحق .

وقد جاء هذا الوقت بعد ذلك بسنوات

عندما حدث زلزال ١٤ نوفمبر ١٩٨١ فى منطقة السد العالى مما دفع بمرصد حلوان أن يقوم بنشر أجهزة رصد الزلازل الحساسة حول بحيرة ناصر لرصد هزاتها الأرضية .

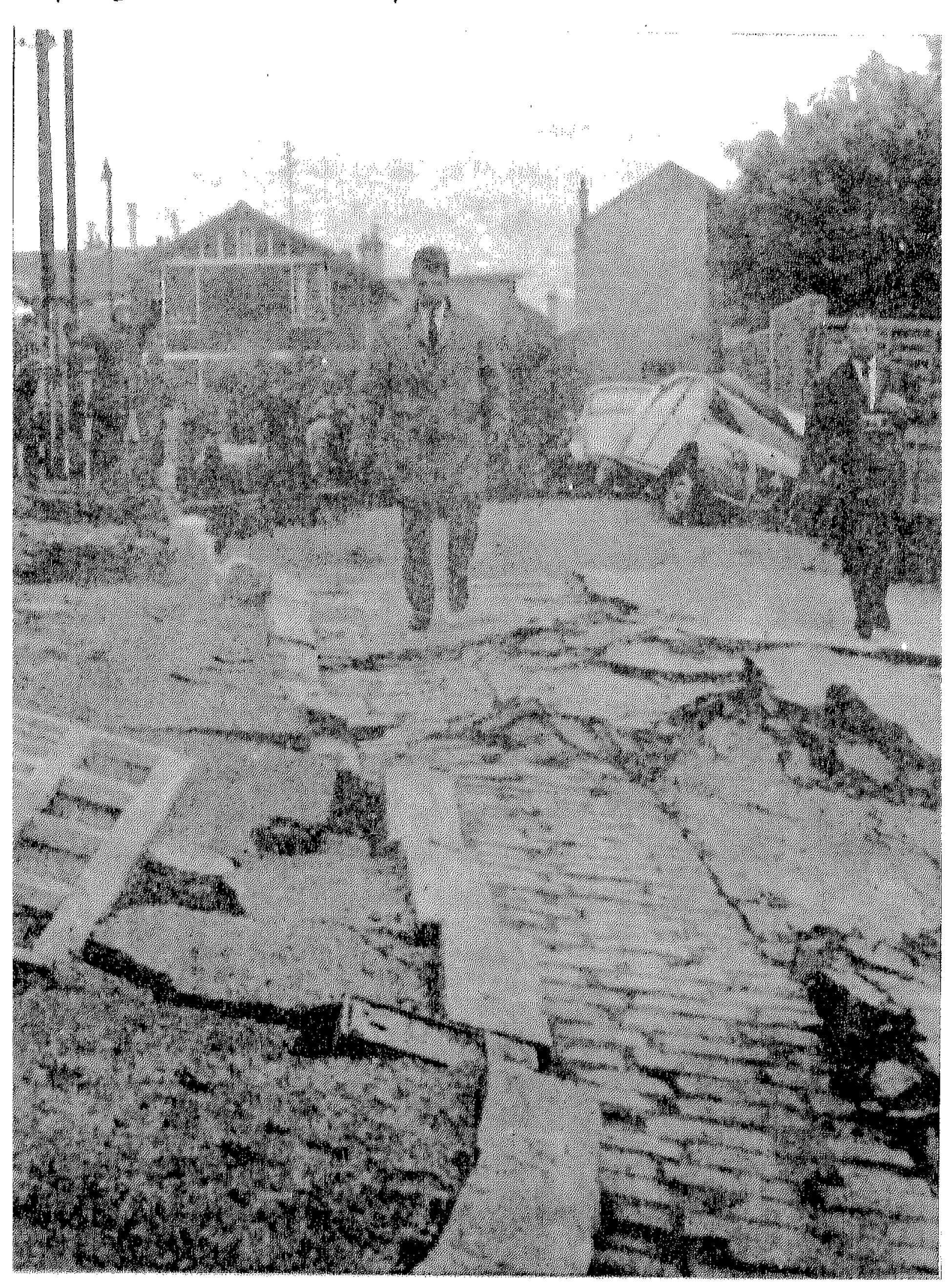
أهم أحزمة الزلازل

وكل مكان على الأرض معرض للهزات الأرضية إلا أن هناك أمكنة بذاتها تزداد فيها هذه الهزات . وتقع هذه الأمكنة فى أحزمة ضيقة الاتساع يحاذى أهم اثنين منهما أراضى القارات التى تحد المحيط الهادى - ويمتد أحدهما من شبه جزيرة ألاسكا إلى نيوزيلندة مارا باليابان واندونسيا والجزر المحيطة بها ، ويمتد الآخر بمحاذاة ساحل الأمريكتين من كندا إلى شيلى وللأخير ذراع يمتد عبر أمريكا الوسطى إلى جزر البهاما - كما تتزايد الزلازل أيضا فى حزام ثالث يمتد فى اتجاه شرقى - غربى من جبال أطلس بشمال أفريقيا عبر البحر الأبيض المتوسط إلى ايطاليا فاليونان فتركيا .. حيث يخترق جبال القوقاز وايران فمنتصف آسيا إلى الصين - وقد وقعت فى نطاق حزامى المحيط الهادى أكثر من ٨٠٪ من جملة الهزات الأرضية التى نشأت عن عمق ضحل وكل الهزات الأرضية التى نشأت عن عمق ضمل وكل الهزات الأرضية التى نشأت عن أعماق كبيرة والتى حدثت فى خلال القرن العشرين .

وتقل الهزات الأرضية خارج نطاق حزامى المحيط الهادى والبحر الأبيض المتوسط وتحدث فقط عندما تنشط صدوع قديمة فى قشرة الأرض . وفى حالة مصر التى تقع فى ظل حزام البحر المتوسط وخارجه فإن هناك ثلاثة صدوع أساسية تسببت فى معظم الزلازل الحديثة التى سجلت فى القرنين الأخيرين. ويبين الشكل المرفق موقع هذه الصدوع- والصدع الأول هو جزء من مركب كبير من مختلف الصدوع التى تشكل منطقة البحر الأحمر وهو يمتد من مدخل خليج السويس حتى البحر الأبيض المتوسط فى اتجاه شمالى غربى مارا بالسويس ومخترقا الدلتا - وقد حدثت على طول هذا الصدع زلازل فى مواقع مختلفة . وكانت مراكز هذه الزلازل هى : مدخل خليج السويس عند جزيرة شدوان فى ٣١ مارس سنة ١٩٦٩ حين بلغت شدة الزلزال ٣ر٦ على مقياس رختر وقد سبقت هذه الهزة عدة هزات صغيرة حدثت خلال النصف الثانى من شهر مارس سنة ١٩٦٩ . كما تلتها هزات أخرى وقد صاحبت الهزة فرقعة شديدة وارتفاع فى منسوب البحر وتساقط الصخور من الجبال المحيطة .

كما حدثت هزة أرضية فى وادى حاجول الذى يقع إلى الجنوب من مدينة السويس فى ١٩ مارس سنة ١٩٨٤ بقوة ٧ر٤ على مقياس رختر وأحس بهذا الزلزال سكان القناة والقاهرة - كما حدثت هزة أخرى فى جبل جفرة (بطريق القاهرة - السويس) فى ٢٣ مايو سنة ١٩٩٢ بقوة ٥ر٤ على مقياس رختر وهـزة رابعة فى

معالم الدمار الذي تحدثه الزلازل في العالم



أبو حماد بمحافظة الشرقية فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٧٤ بقوة ٤٫٩ على مقياس رختر وهزة خامسة فى أقصى شمال الصدع تحت مياه البحر الأبيض المتوسط بقوة ٦٫١ على مقياس رختر فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٥٥ . وكانت هذه الهزة الأرضية الأخيرة من القوة بحيث أنها أثرت فى فلسطين وقبرص واليونان وتهدم فى أثرها أكثر من ٣٠٠ منزل فى مدن رشيد وادكو والاسكندرية .

وبالاضافة إلى هذا الصدع الأساسى النشيط فهناك صدع أخر يقع فى الجزء الجنوبى من مركب صدوع البحر الأحمر حول منطقة أبو دباب الفائقة النشاط الزلزالى كما سبق أن وضحنا والتى تسجل فيها زلزالين بشدة ٥٫٥ و ٥٫١ على مقياس رختر يومى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ و ٢ يولية سنة ١٩٨٤ على التوالى وقد أحس سكان الصعيد بهذين الزلزالين .

صدعان فى وادى النيل

أما فى وادى النيل فعلى الرغم من وجود عدد كبير من الصدوع التى تعترض مجراه إلا أن معظمها كان خاملا خلال القرنين الماضيين ولم ينشط منها إلا صدعان إثنان يتجهان من الشرق إلى الغرب ويمتدان لمسافات طويلة ويقع أولهما فى النوبة عند وادى كلابشة على بعد ٦٠ كيلو مترا إلى الجنوب من السد العالى ويمتد الصدع من عند النيل ناحية الغرب لأكثر من ٤٠٠ كيلو متر وحتى حدود مصر الغربية - وقد نشط هذا الفالق يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٨١ وسبب زلزالا بقوة ٥٫٥ على مقياس رختر - وقد أثار هذا الزلزال اهتماما خاصا نظرا لوقوعه فى منطقة السد العالى وتم فى أثره توزيع شبكة من آلات الرصد الزلزالى الحساسة التى أثبتت أن الصدع تنتابه هزات خفيفة ومستمرة يتراوح عـددها بين العشرين والثلاثين هزة (والتى تبلغ درجاتها أقل من ٣ على مقياس رختر) فى الشهر الواحد وقد زادت هذه الهزات إلى اكثر من ٣٠٠ هزة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٨٢ - ومن الجدير بالذكر أن فالق كلابشة كان نشيطا منذ العصر الرومانى على الأقل فقد سجل كاتب هذه السطور زلزالا أثر فى بقايا مساكن الحامية الرومانية بالمنطقة .

أما الصدع الآخر الذى يعترض وادى النيل ونشط خلال القرنين الماضيين فهو الصدع الذى يمر بشمال الفيوم فى اتجاه شرقى - غربى ممتدا من هناك إلى البحر الأحمر عند العين السخنة ومارا بالنيل فى محافظة بنى سويف - وهذا الصدع قديم كان نشيطا فى الماضى السحيق ثم خمد وبدأ نشاطه من جديد فقد كان تحركه سبب زلزال اكتوبر الماضى وسبب زلزال آخر حدث فى سنة ١٨٤٧ وكان اكثر شدة من الزلزال الحديث وكان تاثيره على أشد ما يكون فى منطقة الفيوم وشمال الصعيد .

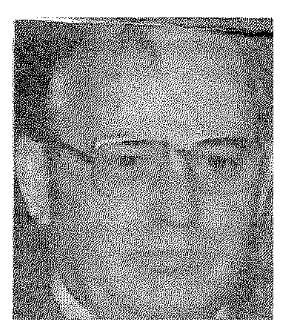
ـرة حوار

الديمقـــــراطيـــة
والجـدل الدائر حولها

بقلم : جميل مطر

أتابع منذ مدة الجدل الدائر فى منطقتنا حول موضوع الديمقراطية ، أتابعه منذ غزو الولايات المتحدة لبنما إذ كانت إحدى ذرائعها فى التدخل القضاء على الحكم الدكتاتورى الذى يقوده نورييجا ، وإحلال نظام ديمقراطى محله . الغزو فى حد ذاته لم يثر جدلا مهما فى منطقتنا ، ولكن أثار الجدل المهم تفاؤل بعض المفكرين العرب من إمكانية أن تفعل الولايات المتحدة فى هذه المنطقة من أجل الديمقراطية ما تفعله فى دول أمريكا اللاتينية . حينذاك شعرت أننا على بوابات جدل عظيم . ويبدو لى الآن أن الشعور لم يكن فى حجم الحدث . فنحن الآن لسنا فى خضم جدل عظيم وحسب ، ولكننا أيضا فى خضم أنشطة أقل ما يمكن أن نصفها به هو أنها جريئة وخطيرة . والاثنان يتبادلان التأثير ويكملان بعضهما بعضا فالجدل يثير الأنشطة ، والأنشطة تدفع إلى مزيد من الجدل .

لن أناقش هنا كل نقاط الجدل . انتقى منها القليل المفيد فى توضيح حجم وجوهر الجدل . فقد جرت فى عدد متزايد من الدول العربية خلال العامين المنصرمين وتجرى الآن انتخابات لمجالس نيابية أو تشكل مجالس شورى ، وهو ما يعنى نشاطا ملموسا نحو تحقيق درجة من المشاركة السياسية الجماهير فى صنع السياسة وقراراتها . حول هذا النوع من النشاط يدور جدل . طرف يقول إن هذا النشاط يجب النظر إليه كانجاز ، ويجب تشجيعه . إنها بداية طريق شاق سعينا حثيثا نحو خوض غماره ، وكأى بداية يجوز أن تكون ضعيفة أو ناقصة . وأيا



جورباتشوف





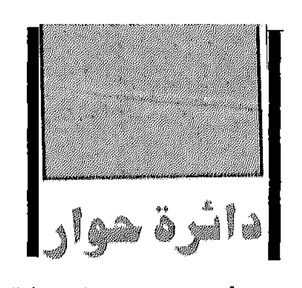
نورييجا

كانت نقائصها فنحن سعداء بها ، ونقدر أسباب النقص ونفهمها .

الطرف الآخر لا يقبل بهذا المنطق . يطلب أن تكون البداية أقوى ، فالشعوب العربية ليست أقل استحقاقا من شعوب أخرى حصلت على حق المشاركة الكاملة . يقول أيضا إنه يخشى الارتداد عن هذه البداية إلى ما قبلها . فالبداية المتواضعة لا تقوى على تشكيل دفاعات شعبية ضد الارتداد ، بينما البداية الـ[illegible] [illegible] قوية تصنع [صناعة] وتضع الأساس .

يقول الطرف الأول ، ولكننا [illegible] أن الحكام [illegible] بلادنا من [illegible] ليسوا ضد الديمقراطية . انهم حذرون وهذا واجبهم ، بل ومسئوليتهم . انظروا إلى الصومال وإلى الجزائر وإلى الصين وإلى يوغوسلافيا وإلى جورجيا وطاجكستان وافغانستان . انها دروس قاسية يجب أن نستوعبها ، ما حدث في معظم هذه الدول وغيرها هو أن حكامها تسرعوا وقفزوا فوق البداية المتواضعة المتعقلة ، وكانت العواقب مأساوية دفعت الشعوب ثمنها قبل أن تدفعه الحكومات . ان الغالبية العظمى من شعوبنا العربية في حاجة ماسة إلى تأمين غذائها وسبل عيشها . تنسون ان الدول المتقدمة لم تمارس الديمقراطية الا بعد أن وضعت أسس البناء الاقتصادى ، وحققت الاستقرار السياسي . الشعوب الجائعة تبحث عن اللقمة قبل أن تسعى إلى حرية الكلمة . وأنتم بالتحديد تتحدثون عن حق الإنسان في حرية الكلمة [illegible] [illegible] في اجتماعات [illegible] [جوهر] مؤتمرات تتخللها مآدب فاخرة تقدم فيها أفخر الأطعمة ، وتناقشون الديمقراطية جالسين في صالات مكيفة وأمامكم صفوف من زجاجات المياه المعدنية وكئوس من الكريستال أو الزجاج الفاخر . الشعوب تحلم بفتات ما تأكلون . وأنتم تزعمون أنها تحلم بالكلمة الحرة والمشاركة السياسية .

يرد الطرف الثاني قائلا ، ان بيننا وبينكم ، أي بين هذا الطرف وذلك الطرف ، نقطة تستوجب التوضيح . أنتم تنطلقون من واقع أن السلطة القائمة تقترح على



الشعب نوعا أو درجة من المشاركة . ولن نناقش هنا الأسباب التى تدفعها أو دفعتها للتقدم بهذا الاقتراح - وهى تقترح وتنفذ وتعتبرون الاقتراح والتنفيذ بداية . هذه السلطة - كما نراها - لا يمكن أن تكون قد تحولت بين يوم وليلة إلى الاعتقاد بسلامة الحل الديمقراطى وبحق الشعوب فى المشاركة . حقيقة ما حدث فى دول كثيرة طرحتوها كأمثلة هو أن حكاما تمتعوا بكل السلطة اقترحوا نوعا من الديمقراطية ، وشرعوا لها . وفى رأينا أن التحول نحو الحرية والديمقراطية لا يمكن أن يتحقق من خلال أجهزة لم تتعود على التعامل مع من يختلف معها فى الرأى أو فى غيره . لذلك حدثت الفوضى التى تتحدثون عنها .

دعونا نحن أيضا نضرب أمثله ، فى روسيا تحديدا ، وفى حفنة أخرى من الدول التى كان يتشكل منها العقد السوفييتى قبل أن ينفرط ، يوجد حكام كانوا أعضاء فى الحزب الشيوعى . وكانوا قادة فى الحزب . هؤلاء تمرسوا على أبشع صور الاستبداد والقمع وازهاق الرأى الآخر . هؤلاء أنفسهم يقودون اليوم بلادهم نحو الديمقراطية . انسان مارس عمله السياسى وأتقنه فى إطار الرأى الواحد أو الحزب الواحد ، مطلوب منه الآن أن يمارس عمله ويتقنه فى إطار مختلف تماما ، نحن نتابع الجدل الناشب هذه الأيام بين الرئيس الروسى يلتسين والرئيس السوفييتى السابق جورباتشوف ، وهو الرجل الذى وضع بلاده على بداية الطريق نحو الديمقراطية . تابعوا معنا من فضلكم هذا الجدل حول الممارسة الديمقراطية بين قائدين روسيين لم يمارساها طوال حياتهما .

من ناحية أخرى ، تتعمدون الفصل بين تأمين الغذاء وتأمين الحرية والديمقراطية . نحن لا ننكر أهمية وأولوية تأمين الغذاء ، ولكننا متأكدون أن تأمين الحرية والديمقراطية هو الإطار الأمثل الذى يتحقق من خلاله تأمين الغذاء والتقدم المادى .

وينقل الطرف الأول الجدل إلى موضوع آخر فيقول أنتم تطالبون بأحزاب سياسية . فلنكن صرحاء ، ولنتحدث بدون حساسية عن قضيتين فقط من بين قضايا متعددة تتعلق بالأحزاب . نحن - وكثيرون غيرنا من علماء السياسة والاجتماع فى الغرب - نحذر من أن تتحول الأحزاب إلى تنظيمات طائفية أو عرقية أو إلى تحالفات قبلية تعيدنا إلى عصر ما قبل قيام الدولة الحديثة ، أو تعرض دولنا الناشئة إلى مخاطر التقسيم والحروب الأهلية . القضية الثانية ، هى قضية ديمقراطية الأحزاب. إن خبرتنا مع الأحزاب السياسية فى العالم العربى تؤكد أن الأحزاب التى قامت

وانفضت ، أو القائمة حتى الآن ، لم يوجد ولا يوجد بينها حزب واحد التزم الديمقراطية فى هياكله واختيار قياداته وتجنيد اعضائه .

ويستطرد هذا الطرف قائلا ، وعلى كل حال مشكلتنا أعقد من أن تكون مجرد مشكلة أحزاب لا تمارس الديمقراطية . المشكلة الأهم هى أن ثقافتنا السياسية فى كل أرجاء العالم العربى لا تتضمن تراثا ديمقراطيا ، ولا تشجع على ممارسة الديمقراطية . فالأسرة لا تمارسها ، والمدرسة لا تلقنها ، والصحف وأجهزة الاعلام لا تحث عليها ، والنقابات ومختلف قطاعات المجتمع المدنى لا تعرفها. فى هذه الحالة تكون مطالبتكم بتسريع التحول نحو الديمقراطية كالمطالبة بتشييد بناء ضخم فوق أساس من القش .

ويرد الطرف الثانى بأن كل ما يطرحه الطرف الأول حول هذه القضايا صحيح ، ولكن المسئول عن هذه القضايا والمتسبب فى تعقيدها هو الحكومات التى رفضت الانفتاح منذ البداية على الديمقراطية . لم تنشر الوعى بالديمقراطية وحقوق الانسان وحرية الرأى . ولم تدرب مدرسيها واساتذتها على تشجيع حرية النقد وابداء الرأى بين الطلاب . لم تشجع صحافييها وأعلامييها على عرض مختلف الآراء . لم تفرض احترام حقوق الانسان فى الحقل وفى المصنع وفى الدوائر الحكومية . ثم أنها أحكمت الحصار حول حركة وأنشطة ومؤسسات المجتمع المدنى . لم تترك جمعية أو رابطة أو هيئة تقوم الا وكبلتها بالقيود والقوانين ، وأخضعتها لرقابة الدولة ، وتعاملت معها كتنظيمات مشكوك فى ولائها وانضباطها . تريد الحكومات أن تتقدم الشعوب تحت اشرافها . تريدها أن تتقدم ولكن لا تريدها أن تنهض أو تتغير . نحن لا نشكك فى حجم الانجاز على صعيد التقدم المادى . فكثير من دولنا تقدمت فى مجالات الصناعة والتجارة والزراعة والأنظمة المصرفية والمالية . ولكن هذا التقدم لم ترافقه نهضة . والنهضة لن تتحقق من دون مشاركة قطاعات المجتمع المدنى . وفى هذا المجال نقولها صراحة إن الحكومات تواصل تقييد حرية الشعوب فى تكوين الجمعيات الأهلية . بمعنى آخر لم يبذل أى جهد لاعداد التربة الصالحة لاستقبال وتغذية شجرة الديمقراطية . ولا نرى ما يمنع من الاستعانة بالخبرة الأجنبية فى هذا المجال كما نستعين بها فى كل مجال آخر .

ويتواصل الجدل حول الديمقراطية فى العالم العربى بين الطرفين . طرف يدعو للتقدم بحذر على طريق التحول نحو الديمقراطية وطرف يطالب بالقفز فوق مراحل متعددة وتحقيق التحول فورا وشاملا .

ويلتقط الطرف الأول حجج الطرف الثانى واقتراحه الاستعانة بالخبرة الأجنبية لنشر الوعى بالديمقراطية وكأنه



كان ينتظرها فيقول إن الطرف الثانى لا يجد غضاضة فى التعاون مع جهات أجنبية ضد وطنه حين يتعلق الأمر بقضية الديمقراطية والمجتمع المدنى . ومن دون التشكيك فى وطنية هؤلاء المتعاونين ، فإننا نريد أن يكون واضحا أن التدخل الأجنبى فى شئوننا مرفوض . فالدولة لها سيادة ، هذه السيادة يجب أن يحترمها المواطن والأجنبى على حد سواء . اختياراتنا ملك لنا . ونحن أدرى بمصالح شعوبنا . يقول الأجانب إنهم أدرى بمصالح شعوبنا حين يضغطون علينا مباشرة أو بواسطتكم فى موضوع الديمقراطية . قولهم هذا زعم باطل وافتراء على الحقيقة والواقع . فالدول الأجنبية لها مصالحها التى توليها الأولوية على مصالح شعوبنا . وإذا تعارضت المصالح فهى لن تتأخر عن أبادة الشعوب أو تشجيع قمعها أو فرض الحصار عليها . الخيار الديمقراطيه مقبول ومعقول ، ولكن نحن الذين نختار الوقت المناسب والاسلوب المناسب .

حكوماتنا ليست غافلة عن الأنشطة الأجنبية والعناصر المحلية المتعاونة معها . وليست غافلة عن حجم المبالغ التى تدفع لترويج أفكار ، ونشر مبادىء ، وتشكيل هيئات وجمعيات ليست غافلة عن الجهات والأجهزة الرسمية الأجنبية التى تعقد الاجتماعات وتخطط لاختراق مجتمعاتنا بهدف اضعاف سلطة الدولة ، وتشجيع تيارات معينة أو متنوعة لضرب السلام الاجتماعى والسيطرة على قطاعات المجتمع المدنى . وليست غافلة عن السذج وغير السذج من المفكرين والناشطين سياسيا الذين تستخدمهم هذه الجهات والأجهزة الأجنبية للضغط علينا . ندرك جيدا أننا لا نستطيع الآن المجاهرة برفض هذه التحركات لأن دولنا تمر فى مأزق متعددة ، ولا تريد أن تضيف إلى هذه المآزق مأزقا جديدا أو الاساءة إلى علاقاتها بدول أجنبية . نحن ساكتون على مضض وإلى حين . تقولون إن كلينتون بعد أن وصل إلى منصب الرئاسة الأمريكية سيضاعف من الجهود المبذولة لفرض الديمقراطية . ونحن نقول لكل حادث حديث . ولكن فى كل الأحوال لن نقبل طويلا بخرق سيادة دولنا ، ولن نسمح باحلال الفوضى محل الاستقرار . لن نقبل أن تصبح المنطقة العربية صومالات متعددة .

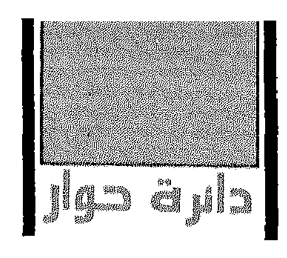
أما الطرف الثانى فيستخف بهذا المنطق ، وبالأساس الذى تنبنى عليه . السيادة التى يتحدث عنها الطرف الأول فى ذمة التاريخ . نحن نعيش عصرا مختلفا ونظاما عالميا جديدا . لم تعد الحدود السياسية تعنى نفس الشىء الذى كانت تعنيه فى الماضى . المال - عصب العصر الجديد - لا يعرف وطنا أو

صاحبا . وهذه الوطنية التى تتحدثون عنها تبدل تعريفها . لم تعد تعنى النضال للمحافظة على أراضى الوطن ضد الغرباء بقدر ما تعنى الحصول على حقوق المواطن السياسية . الوطنية بمعناها الرومانسى عفا عليها الزمن . عالم اليوم قرية واحدة كبيرة ، أى وطن واحد . لقد دخلنا حروبا مريرة ، ونشبت حروب عالمية مدمرة ، بسبب الوطنية . فماذا جنينا وماذا جنى العالم سوى الخراب والدمار ؟ . قارنوا بين عصرين : عصر الحروب التى تسببت فيها الوطنية الضيقة والرومانسية الحالمة ، وعصرنا الراهن ، عصر السلام والمحبة والذوبان فى نظام عالمى جديد ، مبادئه هى الحق والعدل والديمقراطية . إنه الوطن الجديد الذى يدعونا لتأمينه وحمايته من انفعالات الأوطان الصغرى والوطنيات المتشنجة .

ثم انكم تعيبون علينا التعاون مع جهات وأجهزة رسمية أجنبية من أجل نشر الوعى بالديمقراطية . إننا نتعامل مع جهات وأجهزة أجنبية تتعامل معها أجهزة حكوماتنا . نحن لا نذهب إلى دول معادية لنعاونها أو تعاوننا . نذهب فقط إلى الجهات التى تتعامل معها حكوماتنا . إنها جهات وأجهزة صديقة وحريصة على استقرار دولنا ، فهى تقدم لدولنا مختلف أنواع المساعدات لحماية أمننا وتنشيط اقتصادياتنا . وبالتاكيد لن يكون من مصلحتها التسبب فى عدم استقرار يهدد أمن واقتصاديات دولنا .

كثيرون – فى طرفكم – يلمحون أحيانا ويصرحون أحيانا أخرى بأن فى طرفنا عملاء يعملون لحساب جهات أجنبية . إنه أحد التعبيرات الموروثة عن حكومات لم تكن تثق فى نفسها أو فى مواطنيها . إن العملاء والوكلاء يقودون فى هذه الأيام عملية تحول اقتصادى كبير فى معظم الدول العربية . ولا يمكن تحقيق التقدم المنشود إذا تخلت حكوماتنا عن نظام العملاء والوكلاء . فلكل الشركات والمؤسسات العالمية الكبرى عملاء ووكلاء ، هم الذين يروجون لسلعها وخدماتها ، وهم الذين يعقدون الصفقات بين مؤسساتهم وحكوماتهم ، وهم الذين يحددون المواصفات المناسبة للسوق المحلية . ونحن نعتبر الديمقراطية مؤسسة عالمية – ككل هذه المؤسسات – ويشرفنا أن نكون وكلاء وعملاء نخدم مبادىء ومصالح هذه المؤسسة ، ونخدم فى نفس الوقت اسواقنا المحلية المتعطشة لهذه السلعة .

نحن نحاول تنشيط المجتمع المدنى لكى يتحمل بعض الأعباء ، ويخفف معاناة المؤسسات الحكومية . لا نهدف إلى إضعاف الدولة وإن كنا نتمنى أن تتخلى الدولة عن بعض المسئوليات وتقلل من حجم تدخلها فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للشعوب . فمن أهداف العصر الجديد الذى رحبتم به تماما كما رحبنا ، تشجيع المبادرات الفردية والاستثمارات الخاصة



وحرية الناس فى اختيار ما يحلو ويروق لهم أداؤه من أنشطة . نريد أن تقوم الشعوب بتنظيم حياتها وأسلوب معيشتها دون تدخل من السلطة السياسية . وشعوبنا قادرة على تنظيم شئونها وراغبة فى أن تثبت أنها متمدينة ومتحضرة تماما كشعوب غرب أوربا وكالشعب الأمريكى .

نعرف أن الحكومات غير غافلة عن جهودنا واتصالاتنا ، والفضل يعود إلينا . فنحن لا نعمل فى الخفاء ، نستأذن المختصين فى حكوماتنا قبل القيام بأى نشاط صغير أو كبير . ونجتمع ونحاور ونناقش ونروج بتراخيص منها ، وندعوها للمشاركة وتستجيب . نعمل من أجل هدف جليل . ونعمل فى إطار وفى حماية مبادىء سامية ، هى مبادىء العصر الجديد . ونتعامل وفق قواعد وأساليب حديثة ، وهى أيضا من الأساليب التى استحدثها العصر الجديد ، نحن حملة مشاعل هذا العصر الجديد . وهو عصر يعلم الجميع أنه لن يتوقف فى انتظار من يتخلف عن مبادئه ولا يطبق أساليبه . لقد اخترنا أن نكون فى منطقتنا رمحا من رماح العصر الجديد ، ودرعا تحميه .

تضربون بتكرار مثال الصومال . ونحن نضرب بتكرار مثال العراق . لو أن الديمقراطية وجدت فى العراق لما فعل حكامه الديمقراطيون ما فعله حكامه غير الديموقراطيين ، ولما حصل لشعبه ما حصل . ونحن - وأصدقاؤنا الأجانب - حريصون ألا يتكرر مثال العراق فى دولة عربية أخرى .

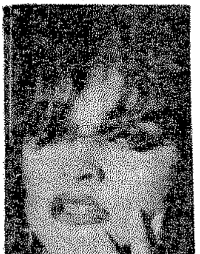
ومن الطرف الأول جاء الرد خافتا ، يقول هذا اختياركم ولنا اختيارنا . نعم رحبنا بالعصر الجديد ومبادئه ولكن اكتشفنا بعد قليل أنه شىء مختلف عن الشىء الذى قدموه لنا . لكم مصالح نعرفها ولنا مصالح تعرفونها . نحن ننتقى ما نشاء ويتناسب مع ظروف شعوبنا ومجتمعاتنا ، وأنتم تنتقون من الأفكار والمبادىء والأساليب ما تشاءون ويتناسب مع ظروفكم ومصالحكم وأهداف أصدقائكم . تتحدثون عن انتهاء عصر الوطنية والسيادة ، ولكنكم لا تقرأون ولا تتابعون الجدل الدائر فى أوربا الغربية حول معاهدة ما ستريخت ، وخطاب جون ماجور فى برايتون عن الوطنية والسيادة ، وتصريحات وخطب بوش وكلينتون عن فهمهما للوطنية وضرورة ايقاظها فى أمريكا . أى أنه فى أوربا كما فى أمريكا الوطنية كمفهوم رومانسى تنتعش . فأما أنكم لا تقرأون ولا تتابعون ، أو كما قلنا تنتقون ما يناسب ظروفكم ومصالحكم وأهداف أصدقائكم عندنا . كل ما نأمل فيه أن تكون شعوبنا ومصالحها واستقرارها ونهضتها المصدر الرئيسي والمرجع الوحيد لابداعاتكم وابداعاتنا على الطريق نحو الديمقراطية .

ويستمر الجدل ....

أقـــوال معـــاصرة


يلتسين


مارلون براندو


مادونا

● «القاهرة تنتحر معماريا لأننا نبنى أقبح ما يمكن»

د . عبد الحليم ابراهيم
الحائز على جائزة الاغاخان فى المعمار

● «الخروج عن القطيع عزاء الحداثيين الوحيد»

الشاعر العماني سيف الرحبى

● «البحث العلمى عشقى الوحيد»

د . فوزى حسين حماد
رئيس هيئة الطاقة الذرية

● «ليس لدى وطن غير الخيال»

ديريك والكوت
الفائز بجائزة نوبل للأدب (١٩٩٢)

● «النظام العالمى الجديد .. قديم جدا»

رينيه دومور
مؤسس تيار حماية البيئة فى فرنسا

● «التمثيل مهنة فارغة ، غير مفيدة»

مارلون براندو
الفائز بأوسكار أفضل ممثل مرتين

● «انقسام الأمة العربية يجعل من صياغة حضارة جديدة ذات بعد عالمى أمرا صعبا»

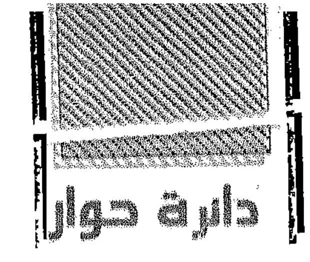
المستشرقة الالمانية ليزلى ترامو فيتنى

● «علينا ألا نلعن الآخر أو نحاكمه لمجرد أنه مختلف عنا»

المغنية مادونا

● «يمكنك أن تبنى عرشا بواسطة الحراب ، ولكن لا يمكنك الجلوس عليها طويلا»

رئيس جمهورية روسيا بوريس يلتسين



تعقيب على مقال

مستقبل الثقافة في مصر تفاؤل .. أم تحد ؟

بقلم : د. محمد رجب البيومي

أحسنت مجلة الهلال حين أصدرت عدد أكتوبر الماضي حافلا بمختارات جيدة تمثل وجهات النظر المختلفة في شتى أمور الثقافة والفكر والفن ، وكنت قرأت أكثر هذه المقالات في أزمنتها المختلفة ، ولكن قراءتها مجتمعة في هذا العدد الممتاز كانت ذات مذاق حلو هنيء ، غير أني توقفت عند مقال الدكتور عبد العظيم أنيس تحت عنوان (مستقبل الثقافة في مصر ، تفاؤل أم تحد) يحتمل أن يكون موضع نقاش هادف ، ولم أكن قرأته حين صدر سنة ١٩٨٢ في أحد أعداد الهلال ، ولكن تكرار نشره ، ضمن له ذيوعا جديدا فوق ذيوعه السـالـف ، وفيه من الآراء ما يتعلق بإنصاف إمام كبير من أئمة المسلمين في هذا العصر الحديث، تحدث عنه الأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس بما أراه مخالفاً وجه الحقيقة السافرة، ولن يكون نقاشي معه في قضايا فكرية تحتمل وجهات النظر المختلفة بحيث يكون لكل فكرة توجيهها المعقول ، ولكنه سينحصر في وثائق ملموسة لا سبيل إلى إنكارها وهي وحدها التي تفصل بين الصحيح المعقول ، والخطأ المرفوض .

الشيخ مصطفى المراغى



د . عبد العظيم أنيس

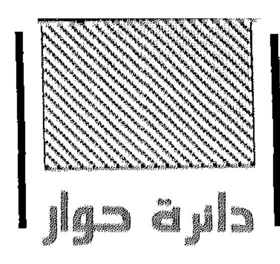


لقد تحدث الدكتور الفاضل عن الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ثلاث مرات فى مقاله فقال عنه أولا :

« وعادت وزارة الأقليات السياسية بزعامة محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين بانتخابات زائفة ، قاطعها الوفد ، وشنت على الوفد آنذاك حملة باسم الدين ، قادها الشيخ المراغى فى أحاديثه الدينية التى كان يحضرها الملك فى المساجد » .

والذين حاربوا الوفد حينئذ لم يحاربوه باسم الدين ، كما توهم كاتب المقال ، لأن زعيم الوفد صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا كان من صفوة المسلمين الذين لا تتطرق أدنى شبهة فى غيرتهم الإسلامية ، وتمسكهم بالرفيع الأعلى من مثل الإسلام ، يعرف ذلك عنه عامة الشعب، وخاصته ، فمحاربة الوفد باسم الدين لغو صبيانى لم يطرأ على ذهن عاقل ، وإنما حورب الوفد باسم السياسة التى تنحو منحى يخالف اتجاه الوفد ، وإذن فما دخل الدين فى هذا الموقف ؟

أما أن الإمام المراغى قد قاد الحملة فى أحاديثه الدينية التى كان يحضرها الملك فى المساجد ، فهذا ما ينكره الواقع الصريح ، لأن أحاديث المراغى الدينية مسجلة بمجلات الأزهر ، وقد جمعتها دار الهلال فى سلسلة كتاب الهلال بالعدد



الصادر تحت رقم ١٤ بالسنة الثانية من صدور سلسلة كتاب الهلال ولا يقول أحد إن الأحاديث قد هذبت ، لأنها نشرت حرفيا بمجلات الأزهر فى السنوات :

١٣٥٦ هـ ، ١٣٥٧ هـ ، ١٣٥٩ هـ ، ١٣٦٠ هـ ، ١٣٦١ هـ ، ١٣٦٢ هـ ، ١٣٦٣ هـ ، ١٣٦٤ هـ على التوالى إذ كان شهر رمضان المبارك خاصا بهذه الأحاديث ، وقد جمعها الأستاذ رشاد المراغى نجل الإمام دون تصرّف ، وأنا أتحدى من يذكر أن سطرا واحدا من هذه الأحاديث تضمن هجوما على الوفد ، والإمام المراغى أول من يعرف معنى قول الله عز وجل « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » فكيف تكون أحاديث إمام المسلمين فى أطهر بقاع الأرض ، مجالا لمحاربة حزب سياسى ، وتأييد حزب آخر ! وممن ؟ من إمام المسلمين !

وأنا أعرف أن الدكتور عبد العظيم أنيس لم يقرأ ، هذه الأحاديث ، ولو قرأها لعرف أن بعضها قد أحدث دويا هائلا فى القصر الملكى استنكارا ولوماً ، فقد تعرّض الإمام فى الدرس الذى ألقاه فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ إلى تفسير قول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فقال فى تفسير معنى أولى الأمر «أنهم أهل البيئة من العلماء والفقهاء والأمراء الذين يمثلون الأمة الإسلامية تمثيلا صحيحا بعيدا عن الهوى والغرض ، وعن سائر المؤثرات ويمثلون طوائفها المختلفة فهم أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع وأهل الدرية بمصالح الأمة وما يوافقها» هذا ماقاله المراغى بلفظه هى تفسير معنى ولى الأمر ، وبحضور الملك وحاشيته ووزرائه وسيجده الدكتور أنيس منشورا بكتاب الهلال ! فهل كان المراغى بمثل هذه الآراء الصائبة يدعو إلي تأييد الملك فى مساجد الله ! إننا ننقل عن وثائق مكررة ، ولسنا نلقى الكلام كما اتفق ، وبدون أدنى دليل !

على أن التاريخ لا ينسى موقف الإمام المراغى أثناء الحرب العالمية الثانية حين قال فى خطبته الرنانة بمسجد الحسين ، إننا نصطلى حربا لا ناقة لنا فيها ولا جمل ! وقد هاج السفير البريطانى اللورد كليرن ، وطلب من رئيس الوزراء حسين سرى أن يصلح المراغى خطأه فيعلن أن مصر مع انجلترا ، ومصلحتها هى مصلحتها ، واتصل كبير الأمناء بالقصر مؤيداً طلب رئيس الوزراء ، ولكن المراغى صرخ فى وجه سرى ، وقال له : أنا شيخ الاسلام ، وأعرف ما أقول ، ورفع السماعة دون انتظار ، فهل يكون هذا الموقف الرنان تأييدا للقصر ودعوة لحزب الأحرار ؟!

ثم يقول الدكتور عبد العظيم أنيس فى مقاله : « وعندما طرح الشيخ المراغى فكرة تتويج الملك فاروق بالقلعة ، وأن يأخذ سيف جده محمد على ثم يؤم الحاضرين للصلاة كإمام للمسلمين ، عارضت حكومة الوفد بشدّة هذا الاقتراح » .

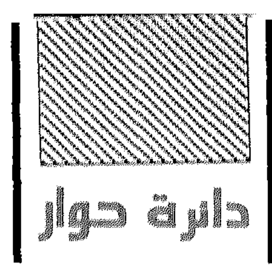
وهذا كلام لا أصل له إطلاقا ، فالإمام المراغى لا شأن له بالقلعة حتى يدعو إلى تتويج فاروق بها ، كما أنه لا يفكر فى سيف محمد على حتى يحرص على أن يتقلده فاروق ، ثم إنه كان يؤم فاروقاً فى كل مرة يصلى بها فى الأزهر ، وما رآه أهلا للإمامة فى مرة من المرات ! فكيف يقترح هذا ؟ .

إن الذى دعا إلى التتويج بالقلعة ، وحمل سيف محمد على هو ولى العهد حينئذ الأمير محمد على حفيد مؤسس العائلة ، وهى حقيقة تاريخية ، قررها الأستاذ محمد التابعى فى كتابه (من أسرار السياسة المصرية) الذى صدر فى سلسلة كتاب الهلال بتاريخ فبراير سنة ١٩٧٠ فقال ما نصه ص ٦٧ :

«وكانت حكاية القلعة ، وسيف محمد على الذى يقدمه شيخ الأزهر إلى فاروق ، ووقوف أمراء أسرة محمد على فى صفين يرتدون ثياب الإمارة .. كانت هذه تقليعة من تقاليع الأمير محمد على رئيس مجلس الوصاية ، وقد أفضى بها إلي صحفى يعمل فى جريدة الأهرام ، فنشرها وغذاها ، وقوى الدعاية لها ، وكبرت الفكرة فى رأس الأمير محمد على وبقية الأمراء ، ولا أعرف هل كان الأمير محمد على كتب إلى فاروق بهذا الموضوع، أم أن فاروقاً قرأ الموضوع بجريدة الأهرام فطابت له الفكرة ، وكانت الصحف والمجلات ترسل من مصر بالطائرة وبانتظام لفاروق وكان سكرتيره الخاص دكتور حسنى يقرؤها ويعرض عليه مايرى وجوب عرضه ! أما أنا فقد كان ذهنى خاليا تماما من الموضوع لأنى لم أطلع على صحف مصر ! حتى صحيفة المصرى التى كنت يومئذ أحد أصحابها »

فإذا كان الأمير محمد على فى حاجة إلى إثبات رئاسة أسرته ، وتأكيد تاريخها منذ تولىّ جده الأكبر حكم مصر فاقترح ما اقترح ! فما دَخْل المراغى حتى يزج به زجاً فى أمر لم يشهده ! نعم إن الأمير قد اقترح أن يقوم شيخ الأزهر بتقديم السيف إلى الملك ، أيكون هذا الاقتراح دليلا على أن المراغى هو صاحب الرأى ! وأنّه يتمنى حدوث ما زعم الأمير ! ؟

لقد اقيمت حفلات التتويج فى الجمعيات والهيئات المختلفة من علمّية وسياسية وأدبيّة ، وكان على الأزهر أن يحتفل بما احتفلت به الهيئات جميعها ، فألقى الإمام خطبة مناسبة ، ثم دُعى مع كبار رجال الدولة وفى طليعتهم الرئيس الجليل مصطفى النحاس زعيم الأمة



الحقيقى إلى تناول الطعام بعابدين ، فانتهز الامام المراغى هذه المناسبة وألقى خطبة قال فيها ، والملك يسمع ، ووزاؤه صامتون «مولاى ، أذكركم بحقوق الله سبحانه ، وبحقوق عباده ، فللّه حق الطاعة فيما أمر ونهى، وحق العمل بما بيّن وهدى، وللرعية حق العدل بينها ، وتوفير الخير لها وإسعادها ، وفى الحديث الصحيح «مَن ولاّهُ اللّه عز وجل شيئا من أمر المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب اللّه عنه، ومن حقوق الله يامولاى حمل الرعّية على الاعتصام بالكتاب والسنة ، وإرشاردها إلى الأعمال النافعة الموصلة إلى عزة الأمة ورفعة شأنها ، فقد حرص الإسلام أشد الحرص على العزة ، ولا يوجد فى تعاليمه ماهو أشد من هذه التعاليم ، ولايوجد فى غيره من المذاهب ما يقرب منه فى الحرص على هذه التعاليم »

هذا بعض ما قاله الإمام فى حفلة الترحيب بعابدين ، بمسمع من الملك والوزراء والأمراء ، وقد نشرته مجلة الأزهر فى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ ، وقدم الأستاذ محمد فريد وجدى رئيس تحرير المجلة لخطبة الإمام المراغى بقوله ص ٣١٤ .

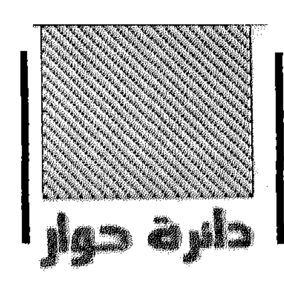
« تقدم فضيلة الأستاذ الإمام ، وألقى بين يدى جلالة الملك كلمة جمعت على إيجازها من أصول ولاية الأمر فى الإسلام وحقوق الرعية على راعيها ما يجب على قيمّ الدين أن يجهر به ، وهذا تجديد وفق الله إليه الأستاذ الإمام تنويها بمكان الدين من مقومات الملك ، وقد ابتكر لهذا التنويه أسلوبا يلائم كل الأذواق ، ويتفق مع جميع التقاليد الدستورية » .

أفبعد هذا كله ! تلصق بالرجل الكريم ما هو براء منه ! وقد قال فى مناسبة التتويج أجرأ ما يمكن أن يقال ؟!

أما حفلة القلعة التاريخية ، فلم يكن شيوخ الأزهر بها إلا زعماء الشعب وقادته ، لأنهم الذين قاوموا سطوة المماليك فى أحداث مشهورة تحدث عنها الجبرتى بإفاضة ، فذكر ما فعله الصعيدى والدردير وسليمان المنصورى وعبد الله الشرقاوى فى ردع الطغاة ، ورد المظالم إلى أصحابها ، ثم أنهم كانوا زعماء مصر فى مقاومة الحملة الفرنسية ولاقوا من الاضطهاد ما عرّضهم للقتل حينا ، وللسجن والضرب والمصادرة حينا آخر ، حتى كشف الله البلاء ، وذهب الفرنسيون ، وأستأسد الوالى والمماليك بعد خنوغ ، فرأى هؤلاء الزعماء أن ينتخبوا أكفأ من رأوه صالحا للولاية ، وبايعوه بالقلعة بيعة دستورية لأنهم زعماء الشعب وترجمان عواطفه ، والمنصفون من المؤرخين كالرافعى وفريد أبو حديد وشفيق



الملك فاروق .. في صحن الجامع الأزهر



غربال قد عرفوا لشيوخ الأزهر والسيد عمر مكرم بلاءهم المشكور ، فليست هذه الحقلة مظلة تآمر من العلماء ، ولكنها اجتهاد صائب فى إنقاذ البلاد ، وقد سجل التاريخ أن محمد على - على رغم جبروته - كان مؤسس مصر الحديثة ، وأنها انتقلت على يده من هبوط إلى صعود فالذين يكتبون التمثيليات التافهة ليضائلوا من كفاح العلماء فى القرن الثامن عشر خادعون أو مخدوعون .

لنرجع ثانية إلى حديث الإمام المراغى، فنقول إنه كان صديقا حميما لرئيس الأحرار الدستوريين محمد محمود باشا ، كما كان مجاهرا بخصومة مصطفى النحاس باشا ، وقد دعاء الأزهريين إلى مناصرة زعيم الأحرار ، وقد يكون مخالفا للأغلبية فى اتجاهه، وهو ما أخذه به بعض الكاتبين أنفة من أن يكون شيخ الأزهر لفريق دون فريق ، ولكن هذا التحيز لزعيم الأحرار الدستوريين شئ ، والقول بأنه كان يتخذ الأحاديث الدينية فى المساجد وسيلة لمحاربة الوفد باسم الدين شئ آخر، والفرق بينهما فرق ما بين السماء والأرض .

ونأتى إلى الزعم الثالث وهو قول الدكتور عبد العظيم أنيس «إن المراغى كان يتحدث أمام الملك فى أحاديثه الدينية عن الثعالب الذين ركن الإسلام إلى مودتهم وهم يدعون إلى غير هذه المودة ، وكان يقصد الأقباط بهذا ، نأتى إلى هذا الزعم فنقول إن من حسن حظ المراغى وسوء حظ خصومه أن أحاديثه الدينية مسجلة من ألفها إلى يائها ، وقد نشرتها دار الهلال فى سلسلة (كتاب الهلال) وليس بها هذا الافتئات الصارخ ، وإذا كان الدكتور أنيس لا يستطيع العثور على مجلات الأزهر ، لأنه لا يحب أن يزور مكتبة المجلة ، فليقرأ هذه الأحاديث فى كتاب الهلال ، وليحضر لنا هذه العبارة التى لا يعقل أن تصدر من عالم مسلم فضلا عن إمام العلماء !! إن حديث مودة الأعداء قد جاء فى سورة الممتحنة التى ابتدأها الله بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » وقد نزلت الآية فى حاطب بن بلتعة حين راسل المشركين بمكة يخبرهم بزحف المسلمين إليهم ، وهو صحابى شهد بدرا ، وكان عليه ألا يلقى بالمودة لقوم حاربوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، وكفروا بما جاءهم من الحق ، بهذا قال جميع المفسرين ، وربما قاله الإمام المراغى فى حديث دينى غير

أحاديث رمضان إن صحت رواية الدكتور أنيس ، وإذن فالمراد بالأعداء هم المشركون بمكة ، ففى أى تصور يعقل أن يكون الأقباط هم المعنيين !! وإذا عقل بطريق التحكم المنبعث عن الغرض ، فليكن هذا أيضا تصور أعلام المفسرين من أمثال الطبرى والنيسابورى والزمخشرى والقرطبى الذين لم يزد المراغى فى قوله عما قالوه ! ولنحاول أن نلصق بهم عداءهم للأقباط ليصح استنباط الدكتور أنيس ..

على أن مقالات المراغى عن التسامح الدينى فى المجلات المختلفة تنبئ عن شعوره القوى بضروره الإخاء العالمى بين معتنقى الأديان جميعا ، وفى العدد الممتاز من مجلة الهلال الذى صدر فى يناير ١٩٣٩ خاصا بقضايا العروبة والاسلام ، كلمة رائعة للإمام المراغى تحت عنوان «الإسلام والإخاء الإنسانى» تحدث فيها عن غريزة التدين لدى الإنسان ، ودعا رجال الدين فى كل ملة أن يعملوا على الوفاق ، وأكد أن القرآن الكريم قد طلب إلى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان ، كما أباح الإصهار إلى أهل الكتاب ، وقد صدر لى فى سلسلة كتاب الهلال بتاريخ مارس سنة ١٩٨٣ كتاب بعنوان «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» تحدثت فيه عن بعض جهود المراغى فى الإخاء العالمى تحت عنوان (الأزهر والسلام الدينى) ولست فى حاجة إلى أن أعيد ما قلت ، ليرجع إليه من أراد .

وكانت خاتمة المطاف لدى الدكتور أنيس حديثه عن «الإخوان المسلمين» فقال إنهم رجال الملك فحسب ! وقد طالبوا بوقف الدستور وحل الأحزاب وتقييد الصحافة باسم الاسلام !! أما أنهم رجال الملك فإن الناس جميعا يعرفون أن الملك هو الذى حل جماعة الإخوان في المرة الأولى ، وأنه الذى قتل الإمام الشهيد حسن البنا رئيس الجماعة ! فكيف يحل الملك جماعة رجاله ، ثم يثنى بقتل إمامها !! أليس هذا تفكيرا مدهشا ! وإذا كانت جماعة الأخوان قد طالبت بوقف الدستور، فهذا من صميم رسالتها لأنها تدعو إلى حكم القرآن ، وقد جعلت شعارها « القرآن دستورنا » وإذن فقد حاربت دستور الأرض حرصا على دستور السماء ، و قد عمت دعوتها الآن بين الخاصة والعامة ، بين الخاصة لدى أساتذة الجامعات ، جميعها – لا جامعة الأزهر فحسب – وبين أعضاء النقابات المرموقة فى مصر ، وبين العامة من العمال والفلاحين والتجار ، والأحزاب السياسية الآن تتقرب إلى الشعب بحمد الشريعة الإسلامية – صدقا كان أو كذبا – فهل يكون إلغاء الدستور الأرضى جريمة ، ولا يكون لجماعة مستنيرة أن تشرئب إلى دستور عادل لا شك فيه ! أما دعوة الإخوان إلى تقييد الصحافة فهذا مالم أسمع به إلا من الدكتور أنيس ، ولن يملك عليه أى دليل .

كان .. ياما كان :

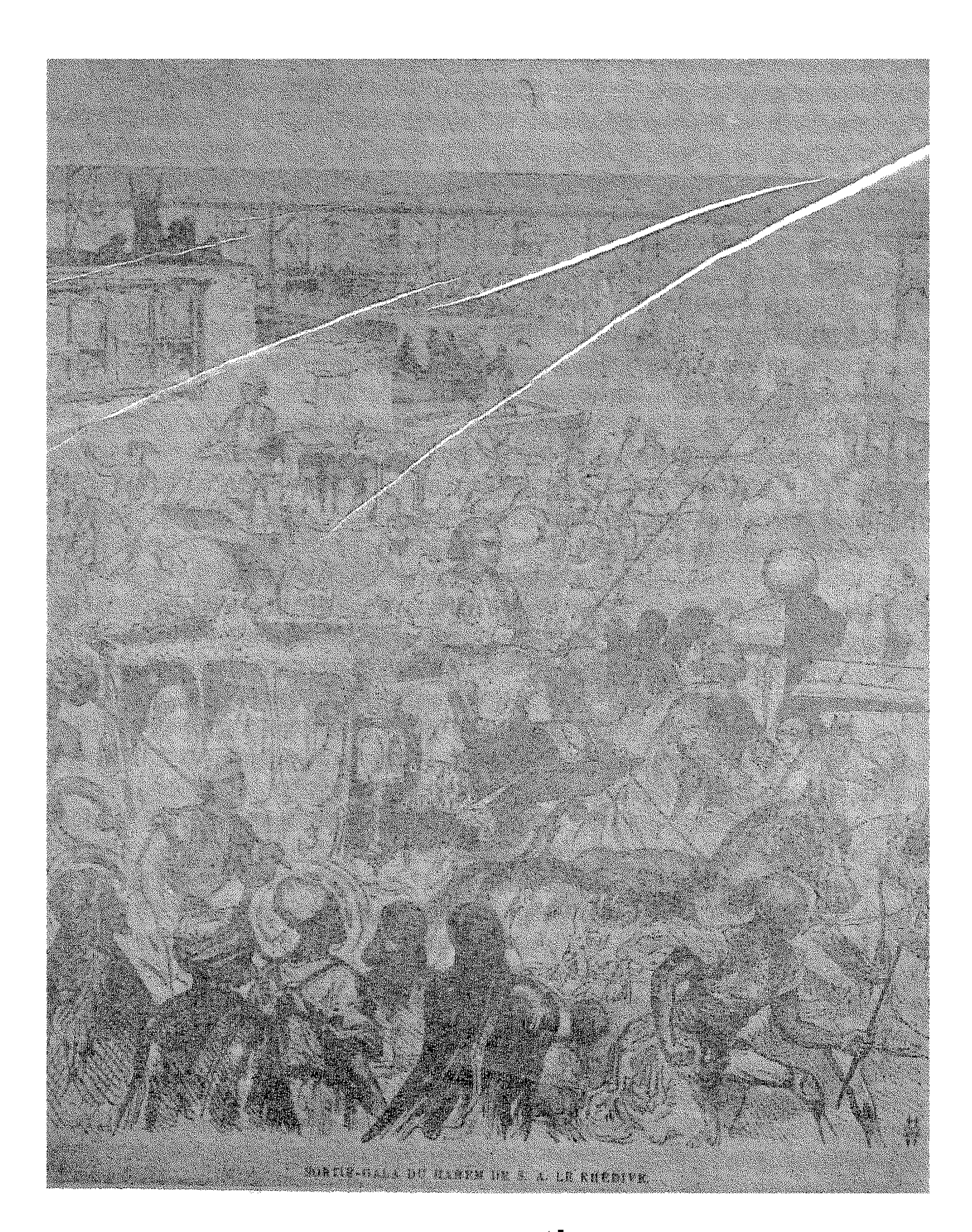
العلاقات المصرية - الأمريكية فى القرن «١٩»

إسماعيل باشا يهدد مبدأ «مونرو» ثم يستعين ببعثة عسكرية أمريكية !!

بقلم : د. حسن بكر ★

تعود جذور العلاقات المصرية - الامريكية الي ثلاثينات القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك التاريخ وحتي اليوم جرت مياه كثيرة تحت جسر هذه العلاقات، بعضها كان ثائرا هادرا، وبعضها الآخر كان لينا وديعا. ويمثل الربع الأخير من القرن الماضي حلقة غنية بالوقائع النادرة التي لم يكشف عنها الستار بعد، لعل أشهرها علي الاطلاق زيارة الجنرال جرانت (١٨٢٢ - ١٨٨٥) بطل الحرب الأهلية الامريكية والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الي مدينة اسيوط في صعيد مصر، والي القنصلية الا... كانت موجودة فيها ... الامريكية التي ... علي وجه التحديد - في ... طويلة عبر النيل.

★ قسم العلوم السياسية - جامعة اسيوط



SORTIE-GALA DU HAREM DE S. A. LE KHEDIVE

بريطانى يمثل أمريكا

تعود العلاقات الدبلوماسية بين مصر وامريكا الى توقيع المعاهدة الامريكية التركية التجارية فى ٧ مايو ١٨٣٠، وقد اصبح بمقتضى هذه المعاهدة الحق للولايات المتحدة فى انشاء قنصليات فى عموم أرجاء الامبراطورية التركية ومنها مصر. وقد عينت الولايات المتحدة اول قائم للاعمال لها لدى الباب العالى فى ١٥ ابريل ١٨٣١ واصبح لديفيد بورتر الحق فى تعيين وكلاء له فى المدن الهامة الخاضعة للحكم العثمانى.

ومن غرائب الوقائع ان يجيء تعيين أول وكيل قنصلى لبورتر فى مدينة الاسكندرية حاضرة الدولة العثمانية واهم مدينة مصرية على شاطىء البحر الابيض المتوسط فى عصر ولاية محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة وذلك فى يوم ١٢ يناير ١٨٣٢ وكان الوكيل القنصلى فى الحقيقة تاجرا بريطانيا يدعى جون جليدون John Gliddon ، ومع ازدياد اهمية مصر الاقتصادية وتصديها للباب العالى ووقوف الولايات المتحدة على الحياد فى هذا الصراع ارسلت امريكا عام ١٨٣٤ «ويليام هودجسون» لاستطلاع الموقف الاقتصادى والسياسى فى بلاد النيل. وجاءت توصيات هودجسون مؤكدة لشيء واحد وهو ضرورة رفع التمثيل مع مصر فى الاسكندرية من منصب الوكيل القنصلى الى منصب القنصل الامريكى عام ١٨٣٥ وتم تعيين جون جليدون مرة اخرى قنصلا لامريكا ولما توفى عام ١٨٤٤ قامت الولايات المتحدة بتعيين زوج ابنته الكسندر تود Alexander Tod البريطانى الجنسية ايضا محله عام ١٨٤٨.

قنصل عام أمريكى

تعتبر وظيفة القنصل العام أعلى رتبة من وظيفة القنصل ولذا لم يكن للقنصل الممثل لأمريكا القدرة على خدمة الحكومة الامريكية فى نفس مستوى القناصل العموم للدول الاخرى ذات النفوذ فى مصر. ولما كان المواطنان الممثلان للولايات المتحدة بريطانيين، فان القنصل البريطانى العام وضعهما تحت وصايته من الناحية الفعلية وفى ١٠ اغسطس ١٨٤٦ كتب وزير الخارجية الامريكية رسالة مطولة الى الكونجرس يحث فيها على رفع درجة القناصل الدبلوماسية الى قناصل عامين وقال فى ختام رسالته: ان قنصلنا فى الاسكندرية محروم من الحصول على اية امتيازات لسبب بسيط هو انه لا يحمل لقب

القنصل العام، وبالفعل قبل الكونجرس الامريكي توصيات وزير خارجيتها، لذا بدأت الولايات المتحدة بعد عام ١٨٤٨ مرحلة اكثر نشاطا وفاعلية في تمثيلها الدبلوماسي في مصر اذ رفعت مرتبة قنصلها في الاسكندرية الي قنصلية عامة وعينت في منصب القنصل العام خلال الفترة من ١٨٤٨ - ١٨٦٠ امريكيين هما دانيل ماكولى Daniel S. Macaully وادوين دى ليون Edwin De Leon

سعيد يهدد مبدأ مونرو

بعد استقرار العلاقات الدبلوماسية التى اخذت شكلا معينا خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر وبالذات فيما يتعلق بموضوع الشرف الوطنى كان لكل من ماكولى ودى ليون اساليبهما الحادة فى الربط بين الاعتداء على اى مواطن امريكى بل واحيانا غربى واهانة «الشرف الوطنى» الامريكي، ولم يكن ذلك باى حال من الاحوال ليشير الى تمزق العلاقات المصرية - الامريكية بقدر ماكان ذلك يعكس دبلوماسية القرن التاسع عشر التى كانت تستخدم تعبيرات مبالغا فيها بين جميع الدول فى كل ما يتعلق بالشرف الوطنى والتهديد باستخدام القوة لتحقيق ذلك والدفاع عنه.

تلي ذلك وقوع الحرب الاهلية الامريكية بين الشمال والجنوب، لتعكس الثورة الثانية في التاريخ الامريكي بعد حرب الاستقلال. وبالرغم من ضآلة العلاقات التجارية المصرية - الامريكية فإن العلاقات السياسية تحسنت بشكل كبير بسبب موقف الحياد الذى وقفته مصر بل واحيانا المساندة للولايات المتحدة فى مواجهة القوات الكونفيدرالية (الجنوبية). ولكن عكر صفو هذه العلاقات مانمي الى علم الولايات المتحدة بقيام مصر بارسال قوة مصرية - سودانية مشتركة قوامها ٥٠٠ جندى في شهر مايو ١٨٦٣ الى المكسيك (المجاورة للولايات المتحدة) بناء على طلب نابليون الثالث وللمشاركة فى الخدمة العسكرية مع القوات الفرنسية ســـرا.

وقد غضبت الولايات المتحدة لهذا التصرف من خديو مصر لانه يعد انتهاكا صريحا لمبدأ «مونرو»، خصوصا ان القوة المصرية ذهبت الى المكسيك في اطار تدخل اوروبى عام يهدد النفوذ الامريكى فى هذه المنطقة شاركت فيه بريطانيا واسبانيا وفرنسا، ثم انتهى الامر الى بقاء فرنسا وحدها فى المواجهة، ويقوم مبدأ مونرو (الذى ظهر الى العلاقات الدولية عام

١٨٢٣ عندما وجه الرئيس الامريكى مونرو رسالته الى الكونجرس بشأن القارتين الامريكيتين)، يقوم هذا المبدأ على منع الاستعمار الأوروبى من السيطرة على امريكا الشمالية أو الجنوبية، وفى نفس الوقت اعتبار اية محاولة اوروبية عدوانية على ايهما مجافاة للصداقة مع الولايات المتحدة.

على انه وبسبب ظروف الحرب الاهلية الامريكية لم يتقدم الامريكيون باحتجاج رسمى، ولكن الباب العالى وبريطانيا اعتقدا بوجود صفقة سرية ربما يكون قد عقدها الخديو سعيد مع نابليون الثالث ليعاون الاخير الاول فى حصول مصر على استقلالها وان ارسال القوات المصرية كان جزءا من هذه الصفقة. وقد تم حل الازمة وديا آنذاك عندما قدم سعيد باشا اعتذارا رسميا وعد فيه بعدم تكرار ذلك مستقبلا.

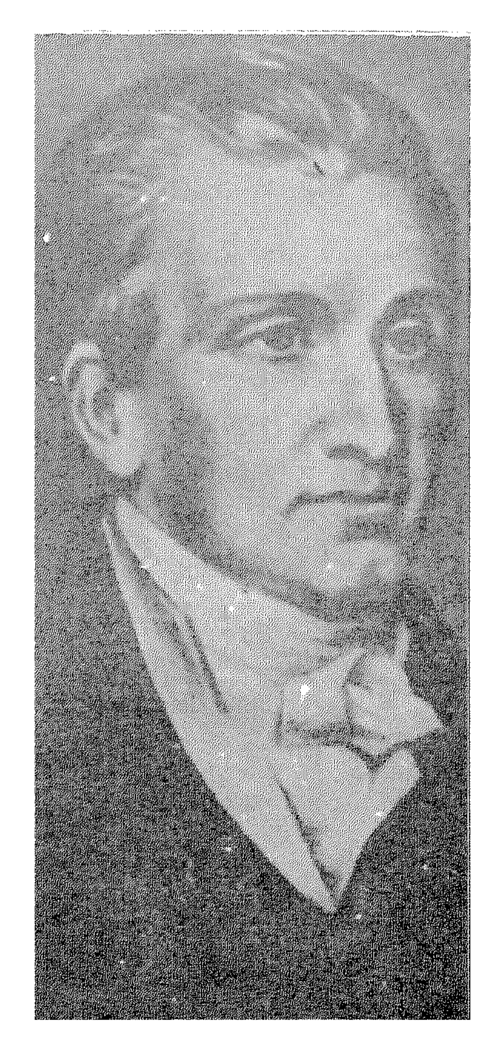
حقيقة ان اسماعيل باشا - بعد ذلك - ارسل ٩٠٠ جندى الى المكسيك فى اغسطس ١٨٦٥، ولكن هذه العملية جرت بصفة علنية اذ ابلغ وكيل وقنصل عام الولايات المتحدة في الاسكندرية بها مقدما وكانت حجة الحكومة المصرية ان هذه القوات لا تتعدى كونها استبدالا للقوات الموجودة فعلا في المكسيك، ولذا فهى تعتبر جزءا من الاتفاق الاصلى مع الفرنسيين. الا ان الولايات المتحدة احتجت هذه المرة وبشدة على اساس قانون محاربة الرق فيها والذى كان من نتــــاج الحــــرب

الامبراطور نابليون الثالث



الاهلية، وقد استمرت المشكلة قائمة حتى انسحبت فرنسا من المكسيك عام ١٨٦٧، وعادت القوة المصرية - السودانية الى مصـر فى مايو فى نفس العـــام وانتهت

جيمس مونرو رئيس امريكا سابقا



المشكلة وديا دون توتر كبير فى العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر.

أول بعثة عسكرية

كان ضمن انجازات اسماعيل باشا السعى لبناء جيش مصرى قوى وحديث وقد خالف فى ذلك المفاهيم التقليدية الجيش المصرى آنذاك فبدلا من الاستعانة بالخبرة العسكرية الفرنسية فانه اتجه الى الامريكيين واستخدم ضباطا امريكيين هم نتاج الحرب الاهلية سواء كانوا فيدراليين او كونفيدراليين. ومن الواضح انه كان للخديو اسماعيل اسبابه فى ذلك منها تأثره بشجاعة ومهارة واستراتيجية ذلك المارد الغربى الصغير الصاعد فى العالم، اضف الى ذلك ان انسحاب نابليون الثالث السريع من المكسيك عام ١٨٦٧ اظهر الاحترام الجديد للقوة الامريكية، ثم ان الخديو كان ميالا الى الامريكيين لغياب اية ادلة او نوايا اقليمية تستهدف مصر من قبل الولايات المتحدة. وفى كلمة الترحيب التى قابل بها اسماعيل باشا مجموعة الضباط الامريكيين الاولى تحدث بعبارات حذرة عن طموحه نحو الاستقلال عن

تركيا، «اننى ارحب بكم ايها السادة فى بلدى.. واقول لكم بثقة تامة ان خبرتكم فى الحرب الاخيرة مع الولايات فى امريكا وعدم وجود مطامع امريكية فى مصر كانت الدوافع التى اوحت لى باستخدام الامريكيين لتلك الخدمة المقترحة».

وقد بلغ عدد من خدم من الضباط الامريكيين فى مصر ٥٥ ضابطا خلال الفترة من ١٨٦٩- ١٨٨٢ ما بين فيدرالى وكونفيدرالى وكان الغرض من استخدامهم بالاضافة الى اعادة تنظيم الجيش المصرى على اسس حديثة، التجهيز للقيام بضربة قوية ضد الدولة العثمانية للحصول على استقلال مصر. وقد حلف هؤلاء الضباط جميعا يمين الولاء للخديو قبل الدخول فى خدمة الجيش المصرى واعتبروا خارجين عن خدمة الجيش الامريكى.

وقد ادى هذا التصرف الى غضب واستياء القوى العظمى الاخرى على الساحة الدولية آنذاك. وظهر ذلك واضحا فى ردود افعال تركيا وبريطانيا وفرنسا. وسعت الاخيرتان بكل الطرق والوسائل لطرد الضباط الامريكيين من خدمة الخديو دون تقديم اية احتجاجات رسمية لواشنطن، دون جدوى حتى واتتهما فرصة القيام بالمراقبة الثنائية على احوال الجيش المصرى فقامتا بتسريحهم جميعا عدا الجنرال «ستون» والكولونيل «ماسون» بحجة خفض نفقات الحكومة المصرية وذلك فى يونيو ١٨٧٨. ولقد كان الخديو الطموح ينفق اكثر من امكانياته واصبح فى آخر الأمر مفلسا عام ١٨٧٦ مما كان له اكبر الاثر فى انشاء الرقابة المالية الانجليزية- الفرنسية على احوال الحكومة المصرية.

اليانكى فى جيش الخديو

من الواضح انه لافى مصر ولا خارجها حظيت البعثة الامريكية غير الرسمية بالترحيب فقد انذر الخديو اسماعيل بنفسه خبراءه الجدد بأنهم قد يواجهون غيرة كبيرة بين ضباط الجيش المصرى، وثبتت صحة هذا الانذار عندما وجد هؤلاء

الامريكيون مقيدين نتيجة هذا العداء فقط باداء اعمال اركان الحرب والاعمال الفنية الى حد كبير. كما نتج عن احتكاكات الامريكيين ببعضهم كفيدراليين وكونفيدراليين خارجين من الحرب الاهلية، احداث جمة منها تآمر الجنوبيين على طرد الجنرال «موت Mott» الشمالى مما دفع الخديو الى اعفائه من الخدمة كقائد ميدانى فقدم استقالته من الخدمة علاوة على تنزيل رتب اربعة جنرالات كونفيدراليين الى رتبة الكولونيل.

ويعدد البروفيسور «لينوار رايت» فى كتابه الشهير عن العلاقات المصرية - الامريكية (ومذكرات من خدموا فى تلك البعثة وسجلات الخارجية والدفاع الامريكية) مزايا وجود هؤلاء الضباط الامريكيين فى خدمة الجيش المصرى بأنهم قاموا بتنظيم الجيش المصرى من خلال الجنرال «موت» والجنرال «ستون» وقد عين الأخير رئيسا لاركان حرب الجيش المصرى. كذلك شاركوا فى انشاء هيئة اركان الحرب وكلية الاركان وشعبة رسم الخرائط ومصنع الذخيرة والاسلحة الصغيرة واصدار مجموعة القوانين العسكرية والقيام بتعزيز دفاعات مصر بقيامهم بتقوية الشواطىء بالطوربيدات والمدافع وشراء كميات هائلة من الذخيرة من الولايات المتحدة. وقد ادى ذلك الى تعميق الشك لدى الباب العالى وبقية القوى الاوروبية الاستعمارية الاخرى فى نوايا الخديو اسماعيل فتآمروا على اسقاطه ووضع مصر تحت الرقابة المباشرة. كذلك شارك ستون وزملاؤه من الامريكيين فى الاستكشافات العلمية المذهلة والاستطلاع الذى تم فى السودان وشرق افريقيا الوسطى ومنابع النيل والحبشة عام ١٨٧٤، وهكذا رسخ فى ذهن تلك القوى الاوروبية ان الهدف من تلك البعثات العلمية هو انجاز خطة مدروسة للتوسع الاقليمى المصرى، ولذا سعت بكل الطرق والوسائل الى تحطيمها وتشويهها وايقافها والسعى اخيرا لاحتلال مصر.



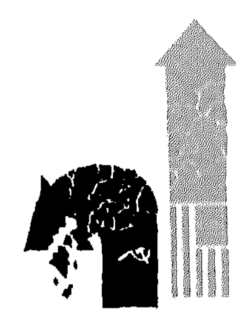
الولايات المتحدة الأمريكية من العــزلة إلى الهيمنــة

بقلم : د . رءوف عباس

حرصت الولايات المتحدة الأمريكية منذ استقلالها عن بريطانيا على ان تنأى بنفسها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، وأن يظل العالم الجديد بعيداً عن تداخلات السياسة الأوربية ، فقد كانت أمامها مهمة طويلة شاقة تتمثل فى بناء اقتصادها القومى والتوسع غربا فى اتجاه المحيط الهادى . واستطاعت أن تحقق ذلك كله مع منتصف القرن التاسع عشر ، حيث بلغت قامة الاقتصاد الأمريكى قامة اقتصاد بلاد أوربا الغربية بفضل وفرة الموارد الطبيعية والمواد الخام ، ونقل التكنولوجيا وتطويرها محليا على أيدى المهاجرين الأوربيين الذين قصدوا العالم الجديد بحثا عن حياة أفضل .

وجاء مشروع قناة بنما ليحقق الاتصال البحرى بين شرق البلاد وغربها ، وبين قوتها البحرية فى المحيطين الأطلنطى والهادى ، مما مكن الولايات المتحدة من أن تمد نطاق نشاطها التجارى إلى عالم المحيط الهادى ، فأجبرت اليابان على فتح موانيها للتجارة (١٨٥٤) ، وأجبرت الصين على أن تمنحها نصيبها من

الحروب الامريكية لم تتوقف فى الهند الصينية



الامتيـازات التى حصـلت عليهـا الدول الأوربية فى موانئ وتجـارة الصين ، كما بدأت تجارتها واستثماراتها تزحف على أمريكا الجنوبية تسحب البساط من تحت أقـدام القـوى الأوربية ذات الوجـود التاريخى هناك ، حتى استطاعت أن تبرز كقوة اقتصادية ضخمة مع مشارف القرن العشرين .

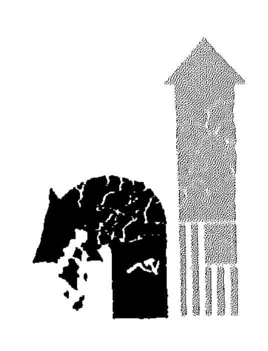
كل ذلك وعـلاقات الولايات المتحـدة بالعالم القديم علاقات تجارية وثقافية محضـة فى إطار الحـرص على إقامة علاقات ودية مع الجميع ، وعدم التورط فى نزاعات العالم القديم . ووضع «مبدأ مونرو» فى مطلع عشرينيات القرن التاسع عشر أسس سياسة العزلة على أساس أن تظل أمريكا (العالم الجديد) للأمريكيين ، أو بعبارة أخرى تظل الأمريكتان مجالا حيويا للولايات المتحدة لا تسمح لأوربا بالتدخل فيه ، فى مقابل أن تظل الولايات المتحدة بعيدة عن التدخل فى صراعات أوربا . وقد ساعدت تلك العزلة الولايات المتحدة على بناء اقتصادها القومى مستفيدة من موارد العالم الجديد ، معتمدة على سوقها ذات الامكانات الهائلة دون أن تواجه بإنفاق عسكرى كبير تتطلبه السياسة العالمية النشطة فيما لو فكرت فى مثل تلك السياسة .

ورغم أن الرئيس ودرو ولسون فكر فى كسر جدار العزلة عندما مد يد العون للحلفاء فى الحـرب العالمية الأولى ، وأطلق مبادئه الشهيرة التى تضمنت حق تقرير المصير للشعوب الخاضعة للدولة العثمانية ، كما تضمنت الدعوة لإقامة هيئة دولية تضم الأمم جميعا ، تسعى إلى حل الصراعات التى تنشب بينها بالطرق السلمية تحت اسم « عصبة الأمم » ، إلا أن الرئيس الأمريكى لم يحظ بتأييد الكونجرس الذى فضل التمسك بسياسة العزلة ، ولم يوافق على انضمام الولايات المتحدة للعصبة التى ساهم رئيسها بفكره وجهده فى إنشائها .

فقد وجدت جماعات الضغط الأمريكية من ممثلى الرأسمالية أن مصالحها التجارية واستثماراتها فى العالم القديم تحتاج إلى سياسة تقوم على عدم التوسط فى مشاكله السياسية حتى يستطيع الاستفادة من جميع الأطراف ، فتتغلغل فى نسيج النظام الرأسمالى العالمى دون أن يستثير ضدها ردود أفعال غير مواتية قد تجلبهـا سـياسة التورط فى مشـاكل العالم القـديم والاضطرار إلى تحـديد مواقف معينة قد تغضـب أطرافا بعينهـا وتعود بالنتـائج السلبية على المصـالح الاقتصادية الأمريكية .

وهكذا تبنت الولايات المتحدة فى فترة ما بين الحربين العالميتين سياسة « الباب المفتوح » التى تتيح لمصالحها الاقتصادية وخاصة الاستثمارات والتجارة فرصة الحركة فى العالم القديم دون عائق . وفى إطار تلك السياسة الحذرة استطاعت الولايات المتحدة أن تفتح الطريق أمام استثماراتها فى بلاد كانت مناطق نفوذ لبلاد غرب أوربا ، من ذلك مثلا الاستثمارات البترولية الأمريكية فى العراق والسعودية كما ضمنت لتجارتها حرية الحركة دون التعرض إلا لمضايقات غير ذات بال من جانب بريطانيا وفرنسا . وقد حققت هذه السياسة بعدا استراتيجيا جديدا اكتسبته المصالح الأمريكية المتشعبة فى العالم القديم : فى أوربا والشرقين الأقصى والأوسط ، أملى على صناع السياسة الأمريكية توجهات جديدة بدأت تتبلور بخطى سريعة عند قيام الحرب العالمية الثانية ، جذبت الولايات المتحدة إلى الساحة الدولية لتصبح اللاعب الرئيسى الذى يتصدى للدفاع عن مصالح العالم الغربى الرأسمالى فى مواجهة العالم الشرقى الاشتراكى الذى برز بعد الحرب بزعامة الاتحاد السوفييتى فيما عرف « بالحرب الباردة » والتى انتهت عمليا عام ١٩٨٩ بالتغيرات الجذرية التى شهدتها أوربا الشرقية ، ثم بتفكك الاتحاد السوفييتى نفسه .

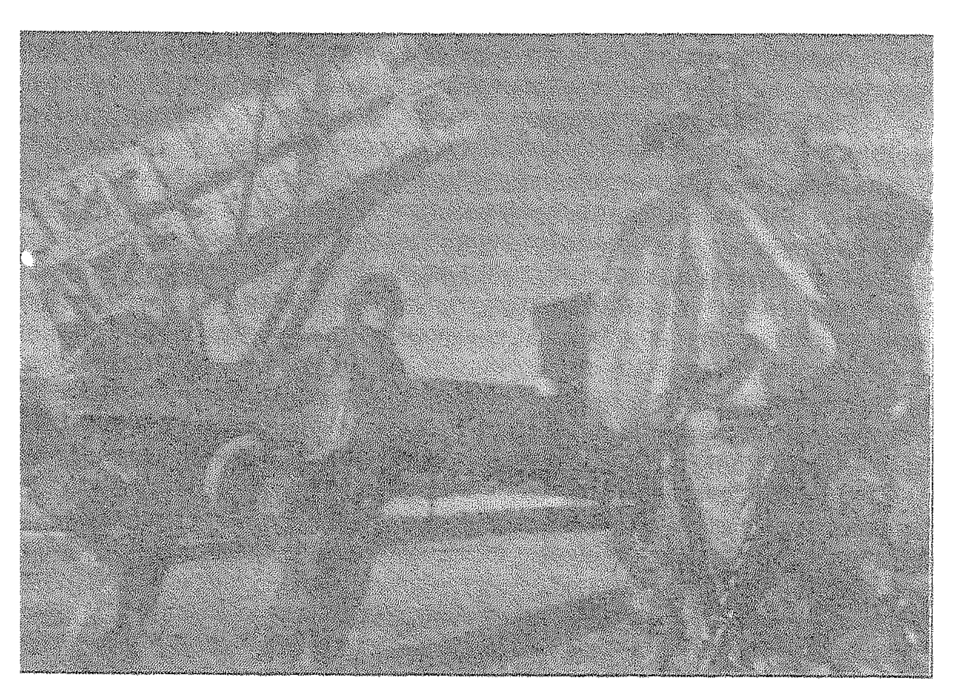
وهذه الرحلة القصيرة (بمعيار الزمن) التى نقلت الولايات المتحدة من موقف المتفرج القابع فى جانب قصى من الساحة السياسية الدولية يرقب ما يدور عليها إلى لاعب رئيسى على الساحة الدولية ، تمثلت فى الحرب العالمية الثانية ، ولم تجر الولايات المتحدة جرا للعب دور رئيسى ، وانما أعدت نفسها خلال فترة ما بين الحربين للقيام بهذا الدور بعد تشعب مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية ، ولم يغب عن ذهن صناع السياسة الأمريكية تهيئة بلادهم للعب هذا الدور منذ بدأت آفاق الموقف الدولى تتلبد بغيوم الحرب مع مطلع الثلاثينات ، فكان على الولايات المتحدة أن تتأهب للدفاع عن مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية وخاصة أن اليابان - القوة الصاعدة فى عالم المحيط الهادى - كانت تمثل تهديدا لتلك المصالح ، وكانت سياسة الولايات المتحدة فى المحيط الهادى ترمى إلى مقاومة الأطماع اليابانية، ففرضت حكومة الرئيس روزفلت عقوبات اقتصادية على اليابان (يوليو ١٩٤٠) وتدهورت نتيجة لذلك العلاقات اليابانية الأمريكية ، وخاصة عندما قام الرئيس الأمريكى بتجميد الأموال اليابانية فى البنوك الأمريكية ردا على غزو اليابان للهند الصينية ، ثم ما لبثت اليابان أن شنت هجومها المفاجئ على قاعدة بيرل هاربور (٧ ديسمبر ١٩٤١) ، فأعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا الحرب على اليابان فى



اليوم التالى ، مما دعا ألمانيا وايطاليا (حليفتى اليابان) إلى إعلان الحرب على الولايات المتحدة (فى ١١ ديسمبر ١٩٤١) ، وبذلك أصبحت الولايات المتحدة طرفا أصيلا فى الحرب العالمية الثانية ، وقع عليها معظم عبء المجهود الحربى فى المحيط الهادى حتى نهاية الحرب ، كما وقع عليها عبء دعم جبهة الحلفاء فى أوربا وشمال أفريقيا ، فضلا عن دعمهم اقتصاديا من خلال «قانون الإعارة والتأجير» الذى أصدره الرئيس الأمريكى ليتيح للحلفاء فرصة الحصول على ما يحتاجونه من مؤن وعتاد .

وهكذا أصبحت الولايات المتحدة حليفا أساسيا ضد المعسكر الفاشى بزعامة ألمانيا ، وأدت أسلحة ترساناتها ومواردها أجل الخدمات للحلفاء فى أحلك الأوقات . وأتاح لها ذلك فرصة الاشتراك الكامل فى الجهود الدبلوماسية للحلفاء لتنسيق المواقف قبيل نهاية الحرب ، فاتيح لها حق الاشتراك فى صياغة عالم مابعد الحرب . بل سعت بريطانيا فى العامين الأخيرين للحرب إلى التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة حول تقسيم مناطق النفوذ فى الاقاليم ذات الأهمية الاستراتيجية الخاصة مثل الشرق الأوسط ، فاستفادت الولايات المتحدة من المباحثات التى دارت بهذا الصدد فى التعرف على أفكار حليفتها دون أن تلتزم بشئ محدد . فقد أصبح واضحا فى أواخر الحرب أن الاتحاد السوفييتى سوف يبرز كقوة كبرى ، وأن ثمة كتلة تتشكل فى أوربا الشرقية مشايعة له ، كما أثبتت المراحل الأخيرة للحرب أن بريطانيا التى تزعمت غرب أوربا قد أصبحت مثخنة بالجراح ، وأنها لن تستطيع قيادة الغرب فى عالم مابعد الحرب لافتقارها إلى مؤهلات تلك القيادة التى توفرت - فى نفس الوقت - للولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم بدأت الأخيرة تتهيأ للعب دورها الجديد .

وكان الأمر يحتاج إلى إصدار شهادة ميلاد للقوة الجديدة تقنع الأصدقاء قبل الخصوم بأهلية الولايات المتحدة لتلك الزعامة ، فجاء ضرب هيروشيما ثم نجازاكى بالقنبلة الذرية (٦ - ٨ أغسطس ١٩٤٥) رغم أن اليابان كانت على شفا الاستسلام ، وكانت تتصل بالاتحاد السوفييتى ليقنع الحلفاء بشروط استسلام معقولة ، فقد جاء استخدام القنبلة الذرية إعلانا عن مولد القوة الجديدة قصد به توجيه رسالة مزدوجة إلى الحليف اللدود (الاتحاد السوفييتى) وإلى الحليف الودود (بريطانيا) مفادها أن لكل زمان دولة ورجالا .

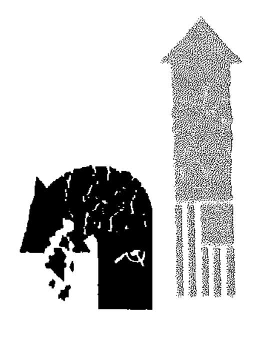


السلاح الامريكى .. صاغ تسويات المعركة

دور خطير لأمريكا

وهكذا لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورا رئيسيا فى صياغة تسويات ما بعد الحرب ، وتقسيم ألمانيا ، واقامة هيئة الأمم المتحدة التى اتخذت من نيويورك مقرا لها ، وأصبحت واحدة من القوى الخمس الكبرى التى تمتعت بحق الفيتو فى مجلس الأمن ، ولعبت الدور الأكبر فى صياغة ميثاق شمال الأطلنطى الذى أوجد تحالفا غربيا بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية . وفى نهاية عام ١٩٤٧ صدر « قانون معونة أوربا » (الشهير بمشروع مارشال) الذى قدمت الولايات المتحدة بمقتضاه معونات اقتصادية لإعادة تعمير بلاد الحلفاء ، فدعم ذلك موقف الولايات المتحدة كزعيمة للعالم الغربى أمام شعوب تلك البلاد .

وتبنت الولايات المتحدة سياسة تصفية الاستعمار التقليدى القديم لتكسب ود شعوب المستعمرات من ناحية وتجتذبهم إلى سياسة الأحلاف التى تزعمتها لمواجهة الاتحاد السوفييتى وحماية المصالح الاستراتيجية والاقتصادية الأمريكية ، وخاصة أن الامبريالية طورت من نفسها وأصبحت قادرة على الهيمنة على شعوب العالم الثالث دون حاجة إلى الاحتلال العسكرى من خلال روابط التبعية الاقتصادية التى تربط

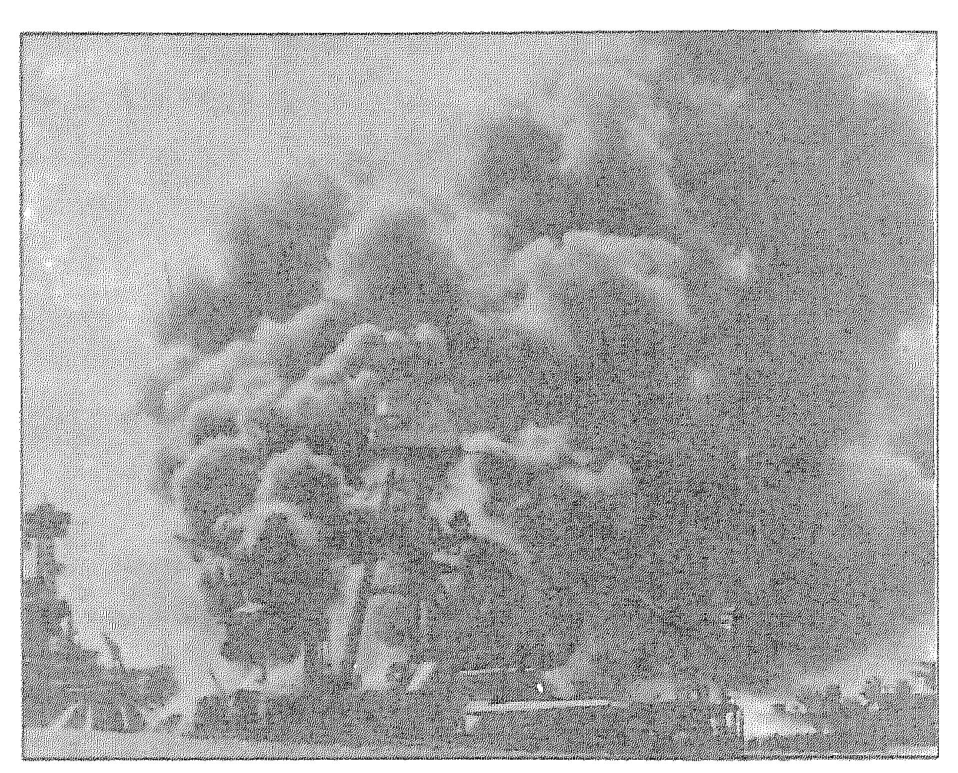


منتجى المواد الأولية ومستهلكى السلع المصنعة بالعالم الصناعى الرأسمالى الغربى ، والتى تستند إلى تأييد ودعم القوى المحلية المتعاونة مع الامبريالية .

كما تبنت الولايات المتحدة سياسة الأحلاف العسكرية الموجهة ضد الاتحاد السوفييتى والرامية إلى الهيمنة على المناطق الاستراتيجية الهامة والسيطرة على بلادها وتوجيه سياستها بما يخدم المصالح الأمريكية باسم التحالف ، فراحت مشروعات الأحلاف تترى . من حلف يحمل اسم « منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط » إلى حلف يحمل اسم « الحزام الشمالى » قصد به أن يضم تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وبلاد المشرق العربى ، إلى حلف أطلق عليه اسم « الحزام المحمدى » قصد به أن يضم البلاد الإسلامية الآسيوية بما فى ذلك اندونيسيا ثم ما لبث أن استبدل به حلف جنوب شرقى آسيا .

ورغم الجهود التى بذلتها بعض الحركات الوطنية لمقاومة سياسة الأحلاف وخاصة دور مصر بزعامة عبد الناصر فى مقاومة حلف الحزام الشمالى الذى أصبح يعرف باسم « حلف بغداد » ، وقيام حركة عدم الانحياز بجهود بعض زعماء العالم الثالث لمقاومة سياسة الأحلاف استطاعت الولايات المتحدة أن تقيم بعض تلك الأحلاف التى أعطتها مزايا استراتيجية هامة ، وأتاحت لها فرصة الحلول محل القوى الاستعمارية التقليدية باسم الأحلاف وما تتطلبه من اشراف على القوات المسلحة للدول المشتركة فيها ، والمعونات الاقتصادية التى تقدم فى إطار الحلف وما تتطلبه من توجيه لاقتصاد تلك الدول وهى سياسة ووجهت بالرفض والمقاومة من جانب شعوب تلك الدول .

واقتضت استراتيجية الهيمنة على الساحة الدولية باسم مواجهة الشيوعية قيام الولايات المتحدة بالمساهمة الرئيسية فى شن حربين محليتين فى آسيا هما حرب كوريا وحرب فيتنام بما ترتب عليهما من نتائج سلبية عانت منها شعوب الشرق الأقصى وجنوب شرقى آسيا ، غير أنها استخدمت أداة لتسويق نظام الأحلاف الذى رعته الولايات المتحدة الأمريكية ، والذى أتاح لها الاحتفاظ بالعديد من القواعد العسكرية فى المحيط الهادى فى اليابان وكوريا والفلبين وبعض بلاد الهند الصينية ، فضلا عن الأساطيل الأمريكية التى تجوب بصفة مستمرة أعالى البحار ، وتظهر فى مناطق معينة عند وقوع أزمات سياسية ، لتفرض دور الشرطى الأمريكى الذى تقمصته الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .



معركة بيرل هاربور

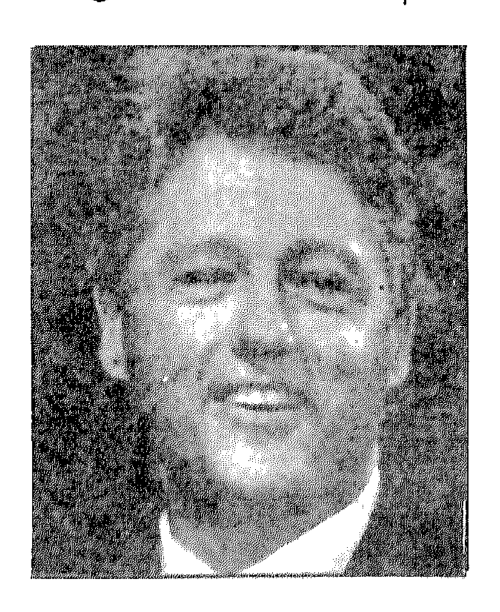
كذلك اقتضت استراتيجية الهيمنة على الساحة الدولية ضرب الحركات الوطنية التى تهدف إلى تحقيق استقلال وطنى لا تشوبه شائبة التبعية ، وذلك فى المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية للمصالح الأمريكية ، ولا أدل على ذلك من ضرب حركة القومية العربية وتأييد إسرائيل ، وهو أسلوب تكرر حدوثه فى مواقع أخرى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عندما تشعر الولايات المتحدة أن ثمة خطراً يتهدد مخططات السيطرة والاحتواء التى تضعها لتلك البلاد .

وإذا كانت أوربا قد استشعرت خطر الهيمنة الأمريكية الذى ازداد بعد سقوط الاتحاد السوفييتى فراحت تسعى إلى درب الوحدة السياسية والاقتصادية لحماية مصالحها وايجاد قطب مقابل للولايات المتحدة على الساحة الدولية ، وهو ما أخذ شكل صراع مصالح ينذر بحرب تجارية ما لم تستجب الولايات المتحدة لمتطلبات الاقتصاد الأوربى ، فما أحوجنا فى العالم النامى إلى ايجاد منظمة ترعى مصالح البلاد النامية ، بل ما أحوجنا فى العالم العربى إلى صيغة ما تضمن ألا نتحول إلى مجرد أدوات فى أيدى قوى الهيمنة الأجنبية .

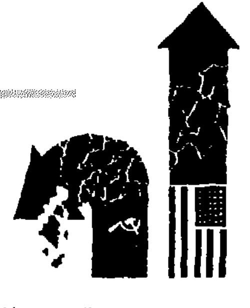
إدارة كلينتـــــون ...

وإعادة ترتيب الأولويات

بقلم : منار الشوربجى



انتخـابات الرئاسـة الامـريكيـة هذا العـام هـى أول انتخابات رئاسيــة تجرى فى الولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ، وانتهاء الحرب الباردة ، وهـو الأمر الذى انعكس بوضـوح على الحملة الانتخابية ، إذ اختفت منظومة القضايا المرتبطة بتلك البيئة الدولية لتحل محلها منظومة أخرى .



وبناء على ذلك سوف يكون على الإدارة الامريكية الجديدة إعادة تعريف العدو ، ومن ثم المصالح الأمريكية فى العالم ، ومن المتصور ان يكون هذا التعريف على أساس معطيات السياسة الامريكية الداخلية بعبارة أخرى ، فإن العدو الجديد سوف يكون هو ذلك الذى تعرقل سياساته عجلة النمو الاقتصادى داخل الولايات المتحدة ذاتها ، وهو الامر الذى يعنى اختلاف شكل العدو الجديد عما سبق ، ولا مجال للايديولوچية فى هذا التعريف الجديد.

إن نتائج انتخابات الرئاسة هذا العام لم تعبر فى الواقع عن خيار ايديولوچى وإنما كانت بمثابة استفتاء على فعالية ادارة « بوش » فيما يتعلق بالسياسة الداخلية . وكان السبب الرئيسى وراء فوز « بيل كلينتون » أنه أدار حملة اتسمت بدرجة عالية من المهارة السياسية وركزت فى الأساس على ما يحتاج المواطن الامريكي أن يسمعه ، فجعل « كلينتون » القضايا الداخلية وفى مقدمتها الاوضاع الاقتصادية العمود الفقرى لحملته الانتخابية ، وقام بتعريف الهدف من حملته للناخبين بأنه « التغيير »، هذا فى حين اتسمت حملة « بوش » فى الواقع بالتشوش وعدم وضوح المفاهيم ، بل إن الفشل الحقيقى لحملة « بوش » هو أنه لم يفلح فى تقديم حجة قوية تقنع الناخبين بإعادة انتخابه ، فقد تراوحت حملته بين النظرة المتفائلة لأحوال الاقتصاد الامريكى والتى اعتبرها الامريكيون دليلا على فقدان الاحساس بنبض الجماهير وبين التشكيك فى قدرات خصمه

إلا أن التغيير الأساسى الذى قصده « كلينتون » طوال حملته الانتخابية هو التغيير الداخلى وليس الخارجى ، وهو ماعبر عنه كلينتون بوضوح فى أول كلمة أدلى بها فى اليوم التالى لفوزه إذ أكد أن السياسة الخارجية الامريكية سوف تتسم بالاستمرارية وركز فى ذلك على ثبات المصالح الامريكية رغم تغير القيادات

وسيلة وليست غاية

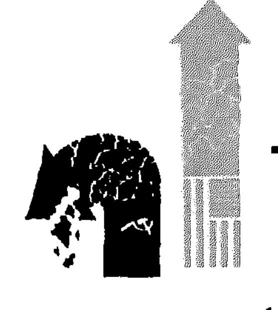
إن الاستمرارية فى السياسة الخارجية – كما عبر عنها كلينتون – لها مايبررها : أولا :– لان بيل كلينتون لا ينتمى إلى التيار اليسارى فى الحزب الديمقراطى وهو التيار الذى يختلف جوهريا فى توجهات السياسة الخارجية عن الحزب الجمهورى بل ان هناك الكثير من المواقف التى يتفق فيها تيار كلينتون مع مواقف الحزب الجمهورى على المستوى الدولى ، حتى أن مواقف كلينتون التى أعلنها أثناء الحملة قد جاءت متفقة كثيرا مع مواقف بوش إلا فى بعض التفاصيل .

ثانيا إن الاستمرارية فى السياسة الخارجية سوف تكون وسيلة وليست غاية بالنسبة للادارة الجديدة ، بعبارة أخرى ، وحيث إن هناك اتفاقا على أن ادارة بوش قد حققت الكثير من الانجازات على المستوى الخارجى فسوف تبنى ادارة كلينتون على ماتم انجازه فى عهد بوش ، ومن ثم تتجنب استنزاف الجهد والوقت فى المجال الخارجى وذلك من أجل التركيز على القضايا الداخلية .

إلا أن هذه الاستمرارية لن تكون على الارجح استمرارية مطلقة ، فلما كانت أولويات الادارة الجديدة مختلفة (حيث تضع الاقتصاد على قمة جدول اعمالها) فانه من المتصور ان تكون هناك استمرارية بالقدر الذى يسمح بالتفرغ للقضايا الداخلية وان يحدث التغيير فى السياسة الخارجية بالقدر الذى يخدم الاولويات الامريكية الجديدة . ومن هذا المنطلق سوف تحظى قضايا العلاقات الاقتصادية الدولية على الارجح باهتمام كبير لدى الادارة الامريكية الجديدة وذلك لارتباطها مباشرة بالاقتصاد الداخلى . وقد تكون ساحة العلاقات الاقتصادية الدولية هى احد الاستثناءات من قاعدة الاستمرارية التى أكد عليها كلينتون فيما يتعلق بعلاقات أمريكا الخارجية . ويبقى السؤال إلى أى مدى سوف تفرض الاوضاع الداخلية على الرئيس الجديد احداث التغير أو الاحتفاظ بالاستمرارية ؟ وقد اتخذ كلينتون اثناء الحملة الانتخابية بعض المواقف فى هذا الشأن فعلى حين أنه لا يتبنى مواقف انعزالية ، فإنه طالب بأسس جديدة لتجارة عادلة مع اليابان ، وأكد على أنه سوف يوافق على معاهدة التجارة الحرة مع كندا والمكسيك ولكن بعد استئناف المفاوضات بما يضمن عدم فقدان مزيد من الوظائف داخل الولايات المتحدة

وقد يحدث التغيير فى السياسة الخارجية بناء على ما تفرضه الظروف الدولية أو بمعنى أخر حين تتطور قضية خارجية ما على نحو يشكل تهديدا للمصالح الأمريكية . إذ ليس من المتصور ان تقف الادارة الامريكية الجديدة مكتوفة الايدى بحجة الاهتمام بشئونها الداخلية ازاء حدوث تصعيد فى منطقة الخليج مثلا ولكن يبقى السؤال هنا مرتبطا بالشكل الجديد الذى سوف تتصرف به الادارة الجديدة فى منطقة الخليج بعد سقوط الاتحاد السوفييتى ونهاية الحرب الباردة . وهل تكون الاولوية للحفاظ على استقرار امدادات النفط ام احداث توازن فى المنطقة بين إيران والعراق خاصة مع تنامى النفوذ الايرانى .

ومن المتوقع ان يكون مجال حقوق

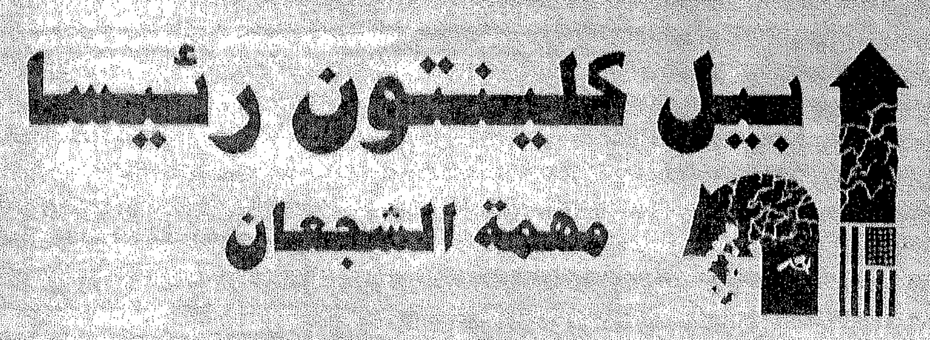


الانسان ودعم الديمقراطية احد المجالات التى تشهد تغيرا نسبيا فى تعامل الادارة الامريكية معها على المستوى الدولى . وينبغى القول هنا ان الاهتمام بتلك القضايا لن يأتى فى اطار المبدأ الأخلاقى ، وانما سوف يرتبط مباشرة بالمصالح الامريكية . فدعم الولايات المتحدة للديمقراطية فى روسيا - كما أشار كلينتون فى العديد من المناسبات - لا ينبع فى الواقع من مبدأ اخلاقى ، وانما يضرب بجذوره فى عمق المصالح الامريكية ، إذ ان انهيار الجهود الديمقراطية فى روسيا يشكل تهديدا مباشرا للامن القومى الامريكى . ويكفى للدلالة على ذلك تحليل مضمون الخطاب السياسى لكلينتون اثناء الحملة الانتخابية ، فقد ربط كلينتون ربطا مباشرا بين قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وبين امتلاك اسلحة الدمار الشامل ، لذلك من المتصور ان تثار قضايا حقوق الانسان ضد الدول التى ترى الولايات المتحدة ان امتلاكها لأسلحة الدمار الشامل يشكل تهديدا لمصالحها .

وأخيراً ..

إذا كانت أولويات الادارة الامريكية الجديدة فى المرحلة القادمة تضع الاوضاع الاقتصادية فى المقدمة ، فانه ينبغى للجانب العربى أن يعيد تعريف نفسه وموارده ومصالحه لصانع القرار الامريكى على نحو يرتبط مباشرة بتلك الاولوية الامريكية ، ويبلور نقاطا مشتركة للمصالح بمعنى أخر ، سوف يكون على صانع القرار العربى ان يربط المصالح العربية بقضايا داخلية تمس الحياة اليومية للمواطن العادى فعلى سبيل المثال ، حصلت المملكة السعودية على صفقة طائرات اف - ١٥ فى خضم المعركة الانتخابية ، ومع ذلك حظيت الصفقة بموافقة كافة الاطراف على الساحة السياسية ويرجع ذلك فى الواقع إلى انها طرحت على انها قضية داخلية وليست قضية سياسية خارجية . ففى بيئة سياسية تضع قضية البطالة على قمة الاولويات جاءت صفقة الاسلحة السعودية مرتبطة بمئات الالاف من الوظائف فى مصنع ماكدونال المنتج لتلك الطائرات .

وخلاصة القول ، ان الكثير ومما سوف تشهده الساحة العربية فى المرحلة المقبلة يتوقف على قدرة صانع القرار العربى على تعريف مصالحه وموارده وقدراته على نحو يجعل الادارة الامريكية الجديدة تدرك ان لها مصلحة حيوية ترتبط بأولوياتها الجديدة فى دعم هذا الموقف العربى .



بيل كلينتون رئيسا

مهمة الشجعان

بقلم : مصطفى الحسينى

ربما كان ويليام (بيل) كلينتون هو أول رئيس أمريكى ، يفوز فى الانتخابات لا حسب التوقعات ولا خلافا لها . فحتى إعلان النتائج ، لم يكن أى مراقب ، ومهما كانت درجة معرفته ومتابعته ، قادرا على التنبؤ - بأى قدر من اليقين - أى من المرشحين سيرأس الولايات المتحدة الأمريكية للسنوات الأربع التالية : الرئيس المقيم جورج بوش ، أم مرشح الحزب الديمقراطى الشاب المستجد « بيل كلينتون » . كان اليقين الوحيد أن المرشح الثالث ، روس بيرو ، قد أصبح خارج السباق .

ومع ذلك لم يكن وجـــود بيرو بين المتسابقين أمرا عديم المغزى ، بل إن وجوده كان من مصادر ارتباك التوقعات ، فهذا المرشح الذى جاء من خارج الحياة السياسية الأمريكية ، قد اشغل خيال الناخبين وتوقعاتهم فى البداية ، فهو وإن كان مستجدا على الحياة السياسية ، إلا أنه يأتى من قلب هيكل السلطة الحقيقية فى تلك البلاد ، سلطة الاقتصاد والأعمال حيث هو من أكبر رجالها ، فى وقت تعتبر فيه البلاد أن مسألتها بل مشكلتها الأولى هى الاقتصاد .

لكن ما أخرج بيرو من السباق ، ربما كان تردده ، فقد انسحب فى المنتصف ثم عاد قرب النهاية ، على نحو ترك الناخبين، حتى المتعاطفين معه منهم ، يضربون أخماسا فى اسداس حول هدفه من ترشيح نفسه للرئاسة ، وحول مدى امكانية الاعتماد عليه كرئيس لبلاد تلعب سلطة الرئيس فى نظمها دورا يتطلب القدرة على الحسم ، بل وحول مدى جدية تطلعه إلى رئاسة تلك البلاد .

ومع ذلك - مرة أخرى - لم يكن وجود بيرو فى السباق عديم الأثر ، فقد جمع وراءه ١٩ ٪ من الناخبين ، وإن لم يفز فى أى من الولايات ، وبالتالى لم تنعكس هذه الكتلة غير القليلة من الأصوات فى «الجمع الانتخابى » الذى يقرر فى النهاية اسم الرئيس . وكأنه أراد فى الحقيقة من حملته الانتخابية هدفا غير هدفها - أى الفوز - كأنه أراد أن يكون الرئيس ، أيا كان ضعيفا على مستوى القاعدة الانتخابية ، وكأنه أراد من حيث المضمون أن يكون هو الذى يقرر الموضوع الذى يدور حوله الاختيار .

وربما تحقق له ما أراد ، فقد دارت الحملة الانتخابية حول الاقتصاد وحسمت لصالح كلينتون الذى أولاه معظم عنايته ، ومع ذلك ، لم يحصل إلا على ٤٣ ٪ من أصوات المقترعين ، الذين هم أقل من ٦٠٪ من المسجلين فى جداول الانتخاب ، الذين هم - بدورهم - أقل من ٧٠ ٪ ممن هم فى سن الاقتراع .

أى أن الرئيس الفائز ، قد وصل فى الحقيقة إلى سدة الرئاسة مستندا إلى أقل من ٣٠ ٪ من الناخبين المسجلين ، وحوالى الخمس من الذين وصـــلوا إلى سن الاقتراع .

ولعل هذا يقول لنا شيئا عن الفعل الحقيقى للاجراء الديمقراطى فى كبرى الديمقراطيات » .

على أن حقيقة فوز كلينتون « لا طبقا للتوقعات ولا خلافا لها » تستحق البحث عن مغزاها فيما هو أبعد وأعمق من الدور الذى لعبه روس بيرو فى تحديد الموضوعات وتشتيت الأصوات .

فالفرق فى حساب الأصوات بين المرشح الذى فاز وبين منافسه ليس كبيرا ، إذ فاز چورج بوش بـ ٣٨ ٪ من الأصوات فى مقابل ٤٣ ٪ لبيل كلينتون ، وهذا تعبير



بيل كلنتون ومجموعته .. الحصول على ٤٣٪ من المجموع

عن حيرة المقترعين ، وهى حيرة مفهومة .

فالمرشح الخاسر ، بوش ، يقود حزبا كان يحكم البلاد على مدى السنوات الاثنتى عشرة السابقة على الانتخابات ، وحكمها لمعظم سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية (٢٨ سنة من ٤٧ سنة) .

وما يجمع هذين العنصرين أنه يمكن وصفهما بأنهما يضمان زمن « العظمة الأمريكية » (ففترة حكم دوايت ايزنهاور (١٩٥٢ - ١٩٦٠) أول رئيس جمهورى بعد الحرب العالمية الثانية ، بل ومنذ ما قبل منتصف الثلاثينات ، شهدت بلورة مركز الولايات المتحدة كدولة عظمى وتأكيدها ، ووضع استراتيجية محاصرة الخصم الدولى الكبير - الاتحاد السوفييتى - واحتوائه ، ووراثة الولايات المتحدة للامبراطوريتين الاستعماريتين القديمتين ، بريطانيا وفرنسا .

وفترة حكم الرئيس الجمهورى ريتشارد نيكسون وامتدادها فى رئاسة جيرالد فورد (١٩٦٨ - ١٩٧٦) شهدت انهاء حرب فيتنام (التى تورط فيها الحزب الديمقراطى) وفتح باب العلاقة مع الصين ، وهو ما أدخل إلى أسلحة الصراع ضد السوفيات سلاح الورقة الصينية الضاغطة على موسكو ، كما شهدت تأكيد قوة الولايات المتحدة وسلطانها فى العالم عن طريق سياسة نشيطة للمعونات الأمنية الأمريكية وبيع السلاح وتشجيع قيام قوى كبرى إقليمية موالية لها .

وحققت رئاسة رونالد ريجان - الجمهورى أيضا - حسم الصراعات



جورج بوش .. وداعاً للبيت الأبيض رغم اشارة النصر

الداخلية فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية لصالح الأطراف الموالية للولايات المتحدة ، كما نجحت فى دفع سباق التسلح إلى ما يفوق طاقة العدو الرئيسى - الاتحاد السوفييتى - على المسايرة فضلا عن المنافسة وانتقال هذا السباق إلى الفضاء الخارجى عن طريق « مبادرة الدفاع الاستراتيجى » التى عرفت باسم «حرب النجوم » . واكتشفت رئاسة ريجان الثانية معالم ضعف هذا العدو التى كشفت عنها قيادة ميخائيل جورباتشوف وبدأت فى استثمارها . وأدخلت إلى ترسانة الأسلحة السياسية الأمريكية استراتيجية جديدة للتدخل على نطاق العالم باسم «مكافحة الارهاب الدولى » .

أكبر تحالف دولى

وشهدت رئاسة چورچ بوش - الجمهورى - انهيار الاتحاد السوفييتى ونهاية الحرب الباردة ، ونجحت فى إقامة أكبر تحالف دولى شهده التاريخ الحديث وتولت قيادته فى حرب الخليج الثانية ، وساعدها ذلك على أن تدعى لنفسها الفضل فى انهيار النظام السياسى المناوىء وفى نهاية الحرب الباردة ، وعلى محاولة أن « تأخذ القانون الدولى بيدها » وتقيم على هذا الأساس نظاما دوليا متفردة فيه بالقيادة أو سلطة القرار ، ونجحت فى الاستيلاء على الأمم المتحدة وتحويلها إلى اداة طيعة للسياسة الخارجية الأمريكية .

وإذا كانت السياسة بطبيعتها اتصالا

لا انقطاعا ، فما حققه الجمهوريون أو أدعـوا الفضـل فيه أسـهم فيه الديمقراطيون ، فـإن الاعتمـاد فى الانتخابات يكون عادة على ضحالة ذاكرة الناخب وضعفها .

وفى عهود الجمهوريين أيضا بنيت شبكة الطرق العظمى التى ربطت بين الولايات فوفرت للاقتصاد قوة دافعة ولدت أكبر موجة من النمو عرفها فى تاريخه ، كما أنه فى تلك العهود أقرت قوانين الحقوق المدنية وتدخلت الحكومة الفيدرالية بقواتها لفرض الالتزام بها على الولايات وحكامها .

فأى رصيد لدى هذا الشاب المستجد - بيل كلينتون - فى مواجهة مرشح عن الحزب الذى له أن يدعى فضل بناء «عظمة أمريكا» إلى أعلى قممها بعد الحرب العالمية الثانية ؟

ربما لذلك ، لا يجـد المتابع لحملة كلينتون الانتخابية اعتمادا على رصيد حزبه ، وربما لذلك أيضا كان يقصر تحديه للمرشح المنافس وحزبه على السنوات الاثنتى عشرة الأخيرة ، أى عهد رونالد ريجان وجورج بوش .

ففى زمن هذين الرئيسين استغرقت السياسة الخارجية من الموارد ما ترك المطالب الداخلية والمتطلبات تعانى الحاجة والعوز ، بما أنتجه هذا من تدهور فى نوع الحياة ، فالولايات المتحدة التى مازالت صاحبة أكبر اقتصاد فى العالم ، تقول أرقامها الرسمية أن ٣٥ مليوناً من سكانها يعيشون دون حد الفقر وأن ٣ ملايين منهم (الأرقام غير الرسمية ١٤ مليوناً) يعيشون بلا مأوى ، وأن ملايين من سكانها لا تشملهم الرعاية الصحية من أى مستوى، وأن ملايين الاسر ذات الدخل المتوسط لا تقدر على تكاليف الحد الضرورى من هذه الرعاية ، بكل ما تؤدى اليه هذه العوامل من تدهور فى مستوى التعليم ، ومن زيادة مساحة الشقاق بين الفئات الاجتماعية ، كما بين الجماعات القومية - العرقية التى يتمايز فيما بينها السكان .

وإذا جاز إرجاع هذه العناصر إلى الجانب الاجتماعى من الاقتصاد ، فإن «كلينتون » يرصد مؤشرات أخرى تتصل بصلب الوجه الاقتصادى البحت للاقتصاد، فهو يرصد مثلا ، أنه منذ عشر سنوات كان معدل الاستثمار بالنسبة للفرد من السكان فى الاقتصاد الأمريكى يزيد على المعدل المقابل فى اليابان بـ ٤٠٠ مليون دولار ، وقد أصبح المعدل اليابانى الآن ضعف المعدل الأمريكى ، وأنه فى نهاية عقد الثمانينات أصبحت اليابان وألمانيا تنفقان على البيئة الاساسية للاقتصاد وعلى شبكات المعلومات وعلى تكنولوجيا المستقبل ١٢ ضعف ما تنفقه الولايات المتحدة ، وأن معدل الأجور الأمريكية - قبل حكم رونالد ريجان - هو الأعلى فى العالم ، فأصبح الآن فى الترتيب العاشر ، ويتراجع .

وربما يشير هذا إلى أن « كلينتون » الذى يتمسك بأن الولايات المتحدة هى أعظم دول العالم ويجب أن تبقى كذلك ، أدرك أنك لا تستطيع أن تبنى واجهة جميلة لبيت خرب ، ولا تستطيع أن تكون قويا فى الداخل ضعيفا فى الخارج .

بناء الاقتصاد الأمريكى

لكنه يريد أن يحافظ على قوة بلاده فى العالم ، على احتفاظها بمركز الصدارة ، بإعادة بنائها من الداخل ، وهو ما عبر عنه ببناء اقتصاد مبنى على التجارة بدلا من اقتصـــــاد مبنى على الدفاع .

يقول الدبلوماسى الأمريكى المخضرم چورچ كينان ، إن الولايات المتحدة - كغيرها من الدول التى تبدأ عظمتها من الانتصار فى حرب كبرى - أخذت فى الغرق فى هذا الانتصار .

فالحرب العالمية الثانية التى كانت الولايات المتحدة فيها هى أكبر المتضررين أورثتها هيمنة الصناعة العسكرية على الاقتصـــــاد . فأصبحت المهمـــة الأولى للسياسة الخارجية هى تسويق السلاح وهو ما أدى إلى تشتيت جهودها الدولية وافقادها القدرة على التركيز على البؤرة الحقيقية ، فمطالب تسويق السلاح أدت بالسياسة الخارجية الأمريكية إلى تشجيع التهاب مناطق التوتر فى العالم ، بل واختلاقها . وإذا كان ضعف العدو السوفييتى يقع فى هيكل النظام ، فإن هذا التشتت فى السياسة الخارجية الأمريكية لم يستفد منه هذا العدو ، بل إنه أيضا تورط فيه ، إنما جاءت السلبية فى انتعاش حلفاء الولايات المتحدة ، الذين كانوا أقل تورطا فى مناطق التوتر أو أدركوا خطر هذا التورط فى وقت مبكر ، فتحولوا من حلفاء إلى منافسين .

وأهمية چورچ كينان وأقواله فى سياق تقدير حكمة السياسة الخارجية لبلاده ترجع إلى أنه من صقور الحرب الباردة ، بل من دعاتها قبل أن تبدأ ، وهو الذى صاغ نظرية احتواء الاتحاد السوفييتى .

ويبدو أن « كلينتون » الذى تربى سياسيا فى رعاية السناتور الديمقراطى السابق والمخضرم وليام فولبرايت ، لم يكن بعيدا عن بعض آراء چورچ كينان ، فقد كان إطار أفكار فولبرايت يعتبر نقيضا لإطار أفكار كينان . لم يكن فولبرايت من أنصار الحرب الباردة فضلا عن أن يكون من صقورها وكان يقف ضد سياسات التدخل الأمريكية فى العالم ، وهنا نقطة التقائه مع نقيضه كينان . ويبدو أن هذا العنصر هو الذى تسرب إلى كلينتون .

لذلك ، فإنه يتجه إلى خفض الوجود العسكرى الأمريكى فى العالم ، بادئا من أوروبا التى وعد بتخفيض القوات الأمريكية فيها بمقدار الثلث ، وقد أذهله أن يعلم أن

لبلاده مليونى جندى منتشرين خارج أراضيها .

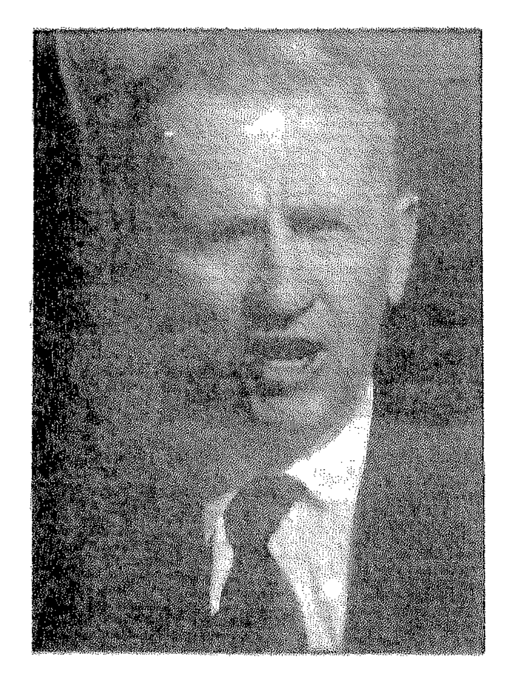
كما يبدو أنه أدرك ما أدركه كينان : لا يجب أن يكون مركز أمريكا فى العالم أسيرا لمصالح الصناعة العسكرية ، فوضع فى مقدمة أهداف سياسته الاقتصادية تشجيع تحويل المصانع العسكرية إلى الصناعة المدنية ، وتشجيع انتقال أفراد القوات المسلحة إلى وظائف مدنية ، وانشاء « مجمع مدنى للابحاث والتطوير » ينهى احتكار الصناعة العسكرية لهذه المهمة الحيوية ، بينما يمولها دافع الضرائب .

وربما استمد رؤيته من نشأته ، فهو يحدد « القيم الأمريكية » التى خانها الحزب الجمهورى فى رئاستيه الأخيرتين بأنها : توفير الفرصة ، وحمل المسئولية ، ومكافأة العمل .

فهو ابن أسرة ممزقة وبائسة : مات ابوه وهو فى الثانية ، وتزوجت أمه من سكير ، منحه اسمه ، كان يعامل الأم والابن بقسوة . لكن الابن الذين التحق بالمدارس المحلية المجانية ، اغتنم الفرصة التى كانت متوافرة ، فحصل على منحة للدراسة فى اكسفورد ، واحدة من أهم جامعتين فى بريطانيا .

وعندما بلغ الثالثة والثلاثين ، كان قد أصبح حاكما للولاية التى نشأ فيها .

إنما : أى ولاية ..



واحدة من أصغر الولايات وأفقرها : فترتيبها بين الولايات الأمريكية الخمسين هى السابعة والعشرون من حيث المساحة ، والثالثة والثلاثون من حيث عدد السكان والتاسعة والأربعون بحساب حصة الفرد من الناتج الاجمالى للولاية ، وهى الثالثة من ولايات أربع تقل حصة الفرد فيها من الناتج الإجمالى عن المعدل الأمريكى العام.

إلى هذا فإن علاقتها بالثورة العلمية التكنولوجية تكاد تكون معدومة ، بل إن علاقتها بالثورة الصناعية ضعيفة ، إذ يكاد يقتصر ما بها من صناعات على الأحذية والملابس الجاهزة ، والنشاط

الاقتصادى الرئيسى فيها هو تربية الدواجن .

وهى ولاية لم يسبق أن خرج من بين ابنائها رئيس أو وزير على مدى عمر الولايات المتحدة الذى يزيد على قرنين من الزمان . وابنها الوحيد المرموق - قبل الرئيس المنتخب - هو الجنرال دوجلاس ماك آرثر .

فالفقر شامل ، فالولاية ليست موطنا لأى من الجامعات أو المعاهد الأمريكية المهمة .

وقد كان مرتب كلينتون - كحاكم للولاية - هو الأقل بين حكام الولايات .

فهو ابن اسرة فقيرة وممزقة من ولاية فقيرة ومتخلفة عن بقية الولايات اقتصاديا وعلميا وتكنولوجيا ... وعنصريا أيضا .

فعاصمتها - ليتل روك - وعندما كان بيل كلينتون فى الحادية عشرة ، شهدت واحدة من الشرارات الأولى لموجة العنف العنصرى التى اجتاحت الولايات المتحدة من منتصف الخمسينات إلى أواخر الستينات . وكان هذا هو مدخلها الوحيد إلى التاريخ .

ولعل فى ذاكرته مشهد القوات الفيدرالية التى ذهبت إلى ليتل روك عام ١٩٥٧ لتفرض على سلطاتها تنفيذ حكم المحكمة العليا بإلحاق تسعة من التلاميذ السود بمدرسة ثانوية . وربما تعلم من هذا شيئا .

وهو ينتمى إلى الجيل الذى كان يتظاهر ضد حرب فيتنام ، ولا شك أن عديدا من اترابه كانوا ضمن تجمعات «الهيبيز » التى كانت حركة احتجاج على المجتمع الأمريكى ونفيا اختياريا منه .

وربما أخطأ جورج بوش عندما حاول أن يستخدم ضده أنه راوغ قانون التجنيد الاجبارى الذين كان من مستلزمات حرب فيتنام . فثلث الناخبين الحاليين من أبناء ذلك الجيل .

فإذا تصورنا أن رؤية بيل كلينتون هى حصيلة النشأة والبيئة والتربية السياسية والجيل ، فهل لنا أن نقرأ ما يقوله عن تأكيد عظمة الولايات المتحدة وقيادتها بالعالم ، « انما باقتصاد يقوم على التجارة بدلا من الدفاع » (أى العسكرية) على أن رئاسته ستكون بداية الاعتراف بالحقائق وأن أمريكا لم تعد تقدر على الهيمنة .

أى أنها ستكون الخطوة الأولى فى أتجاه طى بساط الهيمنة الأمريكية .

فإذا كان قد أخذ على عاتقه هذه المسئولية ، يكون قد تصدى لمهمة لا يقدر عليها الا الشجعان . وهم فى تاريخ نهايات الامبراطوريات قليلون .

وربما لم يسبقه على هذا المضمار سوى شارل دى جول وميخائيل جورباتشوف .



رئيس يهرب إلى مانهاتن ورئيس تغتاله المؤسسة العسكرية

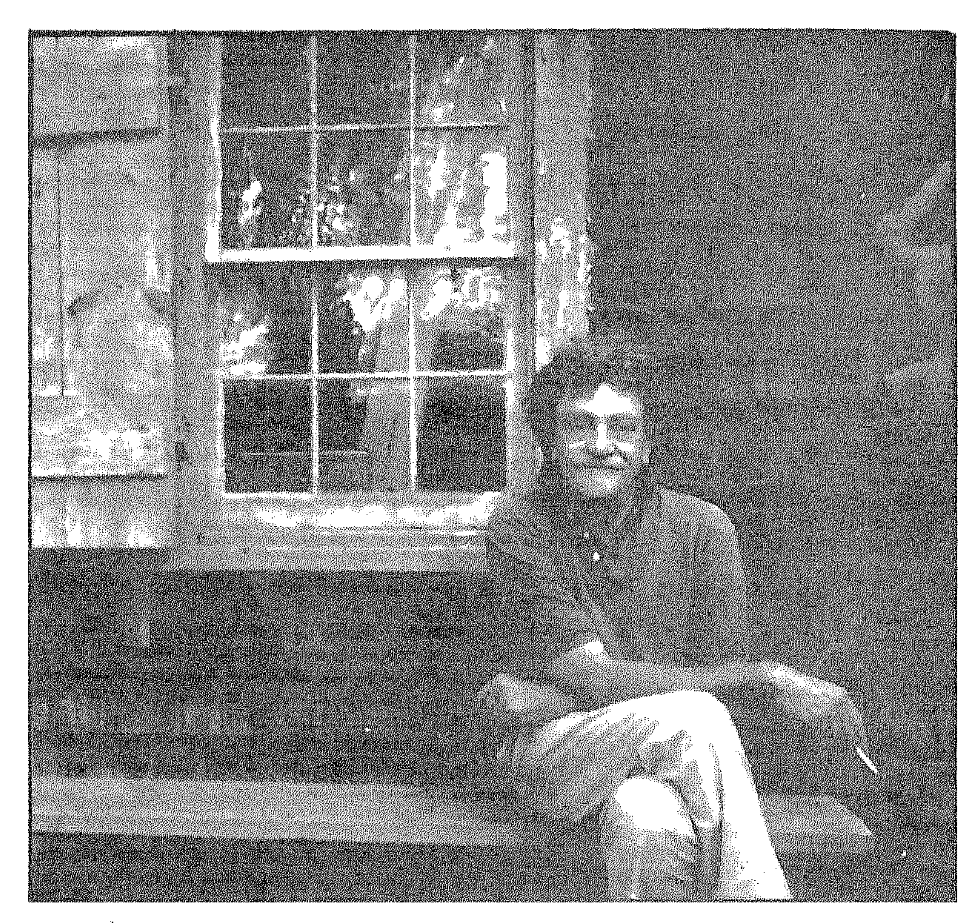
بقلم :محمود قاسم

هناك جاذبية خاصة يتمتع بها منصب الرئيس فى أى بقعة من العالم وتزداد جاذبية هذا المنصب ، كلما كان الرجل الجالس فيه يتمتع بسمات خاصة ، تجعله قريبا من قلوب الناس ، ومشاعرهم . وخاصة إذا كان هذا الرئيس يحكم بلداً قويا مثلما يحدث فى الولايات المتحدة على سبيل المثال .

ولأن الرجل الذى يمكنه الجلوس على مقعد الرئاسة فى مثل هذا البلد لابد أن يكون شخصا غير عادى ، يمتلك من السمات مالا يمتلكه آخرون ، منها على سبيل المثال الطموح اللامتناهى . والذكاء الخارق . واللياقة البدنية والوسامة ، إن أمكن ، وأحيانا الشباب والحكمة .

لذا فإن مثل هذا الرجل السوبر لابد أن يقدح أذهان الادباء ، ويحفر فى قرائحهم من أجل الكتابة عن عالمه ليس فقط عن شخصه الجذاب ، بل أيضا عن منصبه الحساس ، والمليىء بأجواء من المراسيم ، والسرية والغموض .

لذا ، فإن الكثير من الادباء قد راحوا يكتبون عن كيف يكون الرئيس ، وعلاقة شخص ما بالمنصب الذى يستحقه . وفى النظم الشمولية ، غالبا ما يكون الرئيس نصف آله . وهو غالبا فى نظر المبدعين من أبناء وطنه المنزه والخارق ، وعلى الأديب ، إذا إقترب منه ألا يخترق الحاجز الزجاجى



كيرت فونجوت

المقدس الذي يضعه منصبه حوله ..

لكن ، في الدول الأكثر ديمقراطية ، فإن «المنصب» هو الأهم . وكل شخص استطاع أن يصل إلى هذا المقعد ، يجب أن تسقط عليه هالات من الضوء لكشف محل جوانبه . السلبي منها والايجابي على السواء خاصة في عالم الابداع .

● المؤسسة قبل الرئيس ..

وإذا كانت نتائج الانتخابات الامريكية الاخيرة ، قد ساعدت على تحطيم الهالة التي تحوطها وسائل الاعلام بمؤسسة الرئاسة . فإن الدور الآن على المبدعين أن يرووا ما كان يحدث حقيقة وراء الكواليس . فلاشك أن صعود شاب في الاربعينات إلي البيت الأبيض ، وتوارى الرئيس الذى بدا أقوى رجل في العالم قبل عامين بهذه الكيفية يذكرنا بالصورة التي كتبها الروائي الامريكي والتر فاجنر في روايته «فيبر٣» المنشورة عام ١٩٧٧ . والتي تعمد فيها تصوير شخصية الرئيس كأنه الرجل

الأضعف دوما ..

ففى هذه الرواية صور فاجنر نهاية واحد من رؤساء البلاد على أيدى رجال مؤسسته السياسية والعسكرية . وقبل أن يتم ذلك الاغتيال . كان على رجلين خارجين عن المؤسسة العسكرية الامريكية أن يتخذا من رئيس الدولة رهينة ، وهو الذى سلم نفسه طواعية لهذين الرجلين حتى لا تتصاعد حدة المواجهة النووية، فراحا يلفان به فى دوائر محدودة وهم يتجهان به نحو الطائرة التى ستقلهما إلى الخارج . وفجاة تنهال الرصاصات لتتخلص من الثلاثة معا ..

فى هذه الرواية كشف فاجنر أن الذى يحكم الولايات المتحدة ليس هو الرئيس بل هى المؤسسات التى تقرر حتى لو كان القرار نفسه هو اغتيال الرئيس نفسه ، وهـو الذى جاء عن طريق الانتخاب الشرعى ..

وتجىء أهمية هذه الرواية ، أنها تنتمى إلى أدب الخيال السياسى بمعنى انها تقرأ ما يمكن أن يحدث فى المستقبل خاصة فى عالم السياسة . ولأن الرئيس هو صاحب السياسة العليا . والقرار الأول . فإن اغتيال الرئيس هنا لايعنى نهاية نظام . بل استمرار دولة المؤسسات ، خاصة أن فاجنر قد صور هذا الرئيس ، فى روايته ، رجلا طيبا ، يتمتع باخلاق حميدة ، وهو يقف بكل ما لديه ضد إراقة الدماء . ولايتصور أبداً أن مؤسسته هى خصمه الأول ، لذا فهو يدفع حياته ثمنا لموقفه .

اخترنا أن نبدأ مقالنا بذكر هذه الرواية ، حيث أنها تمثل نموذجا هاما لأدب الخيال السياسى ، خاصة الذى يتناول الجانب الوظيفى والشخصى للرئيس فى الولايات المتحدة ..

من الذى يسيطر ؟

والروايات التى يكون الرئيس بطلاً أساسيا فيها يمكن أن تتسم بمجموعة من السمات يمكن أن نوجزها فى النقاط التالية :

اختار الأدباء الذين يكتبون هذه الروايات الخيال السياسى فى المقام الأول . حيث كما أشرنا أن زمن أحداثها هو المستقبل . ولذا فإننا نجد أنفسنا أمام رئيس «وهمى» لم يعرفه العالم بعد وهو قادم إلى مقعد الحكم أجلا أم عاجلا . ومثل هذا الرئيس لم يتخذ بعد القرار السياسى الخطير الذى نجده قد اتخذه فى الرواية . ومن أهم هذه القرارات على سبيل المثال ، إصدار قرار بتفجير قنبلة نووية باليابان إبان الحرب الباردة ، ليجعل بذلك نهاية العالم .

الرئيس فى أغلب هذه الروايات هو السياسى صاحب قراره . وهو الذى بيده دمار العالم أو اندلاع الحروب ، أو الابقاء على السلام . أحيانا هو فوق المؤسسات الدستورية . ولا يراجعه أحد . كأنه

ديكتاتور فى بلاد شمولية . ونتيجة لمثل هذا الموقف المتساهل من المؤسسات فإن النتيجة تكون وخيمة مثلما حدث فى رواية دكتور ستربخلاف .. لكنه فى أحيان أخرى مجرد دمية بين هذه المؤسسات .

الرئيس فى هذه الروايات يعنى المؤسسة الرئاسية التى ينتمى إليها . وليس مجرد شخص عادى . وقليلة هى الروايات ، إن لم تكن غير موجودة ، التى تتناول سيرة حياة الرئيس بعد أن يترك منصبه الرسمى حين يصبح مجرد مواطن عادى لايهتم الناس بأمره . لأنه لن يكون صاحب قرار بالمرة ولذا فإن المكان الذى تدور فيه أحداث روايات من طراز صرخة مدوية فى صحراء مانهاتن .. لكيرت فونجوت . ومحلل نفسى للرئيس ... و .. النذير لدافيد سلتزر هو البيت الابيض . باعتبار أن من يسيطر على هذا البيت يسيطر على العالم . وكأنه مركز الارض ، وقلب الكون .

ماذا يمكن أن يحدث لو أن البلاد ، على سبيل المثال ، قد حكمها رئيس يتردد عليه طبيب نفسى بصفة دورية . هل يمكن للحكم أن يستقيم ، وهل يمكن للرئيس ان يصدر أوامره سليمة ؟

هذا هو ما تخيله الكاتب الامريكى جون . ك فليكر فى روايته «محلل نفسى للرئيس» والرئيس هنا فى حاجة إلى المحلل النفسى كى يروى له متاعبه مع وظيفته . وهذا الطبيب عليه أن يسمع كل الاسرار العسكرية والشخصية للرئيس . ويمكن أن نتخيل لو أن الطبيب النفسى يمتلك نفساً شريرة . فماذا به يمكن أن يفعل بهذه الاسرار ؟ . لاشك أن مثل هذا الشخص يمكن أن يوجه شخص الرئيس .. وبالتالى البلاد كلها إلى مايريده هو ..

وإلى بيت الرئيس الابيض جاء داميان فى رواية «النذير» التى كتبها دافيد سلتزر عام ١٩٧٥ . وقد تصور الكاتب داميان باعتباره ابنا للشيطان الذى جاء به إلى العالم كى تسود مملكته الشريرة على كافة الممالك الاخرى .. ولم يجد الشيطان مكانا أفضل يدفع اليه ابنه خير من البيت الابيض .. وتصور الرواية هنا شخصية الرئيس مليئة بالطيبة ، والاريحية . داميان فى الرواية بعد أن يفقد والديه بالتبنى ، عقب أحداث مليئة بالشر ، يلجأ إلى رئيس البلاد كى يتولى تربيته .

ورغم أن شخصية الرئيس هنا هامشية فى رواية سلتزر . فإن وجودها فى البيت الابيض يعكس مدى خطورة هذا المكان لو دخل اليه شخص شرير ، يمكنه أن يؤثر على القرار السياسى ، ليس فى الولايات المتحدة وحدها بل فى العالم أجمع .

● مسيح عصرى

ورواية «فيبر٣» التى أشرنا إليها تدور فى فترة زمنية معينة . فهى تختار أن تكون

أحداثها فى عام ١٩٨١ وهو نفس العام الذى فاز فيه رونالد ريجان فى الانتخابات . وخرج الديمقراطيون من الحكم كي يدخل أبناء الحزب الجمهورى لمدة أثنى عشر عاما ، تخيل المؤلف أن أحد رجال الجيش الامريكي قد استولى على قاعدة عسكرية ، ويهدد باشعال حرب عالمية ثالثة اذا لم تستجب الحكومة لمطالبه.

والغريب أن مطالب لورانس دل فى هذه الرواية شخصية ، لكنها لا تلبث أن تتحول إلى مطالب عامة حيث يطلب أن يذيع الرئيس عبر التلفزيون وثيقة سرية حول حرب فيتنام ، وهى الحرب التى كان لورانس أسيراً فيها ، ومفاد الوثيقة أن الولايات المتحدة قد خاضت الحرب بهدف بالغ التفاهة ، الا وهو أن تثبت للإتحاد السوفييتى أنها لا يمكن أن تخضع لتهديد أو تستسلم لضغوط ، ومقابل هذه الفكرة ضحت البلاد بآلاف الشباب وبسنوات تسع من تاريخ امريكا ، وبأموال طائلة .

ورئيس الدولة فى هذه الرواية ، كما صوره والتر فاجنر رجل ضعيف ، متسامح، لايميل إلى استخدام العنف ، لذا يرى أن عليه التضحية بنفسه كمسيح عصرى لإنقاذ البشر ، فيستقل الطائرة وينزل إلى القاعدة ويقدم نفسه كرهينة للورانس ورفيقه كي يثبت حسن نواياه .

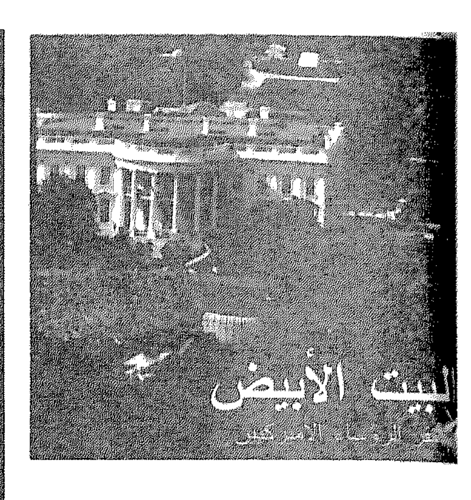
وكما سبقت الاشارة فإن الرئيس ستيفز يدفع حياته ، بعد أن اثبت أنه لعبة بين طرفين متنازعين ، أحدهما المؤسسة العسكرية أما الطرف الآخر فهم رجال الجيش المنشقين على ما يحدث فيه .

● الرئيس الاخير

وإذا كان فاجنر متصوراً نهاية رئيس أمريكى فى روايته هذه فإن الكاتب الامريكى المشهور كيرت فونجوت قد راح يؤرخ لحياة آخر رئيس امريكى فى روايته «صرخة مدوية فى صحراء مانهاتن» .

الرئيس الاخير فى الولايات المتحدة سوف يدعى «اوبو» كما يسميه الكاتب ، أنه يتجه مع بقية اتباعه إلي جزيرة مانهاتن ، بعد أن دمرت إحدى القنابل النووية مدينة نيويورك ، ولم يعد هناك مكان آمن .

لقد انكسرت جميع الالات التى صنعتها الحضارة ، والتى يستخدمها الموظفون ، وفى مانهاتن يجد الرئيس الاخير نفسه خاضعا لحكم بعض الاشخاص البدائيين الذين عرف التاريخ أمثالهم أبان العصور الوسطى ، وهؤلاء الحكام الجدد يؤمنون أن على العالم أن يظل متخلفا ، وبلا تقدم ، هؤلاء الاشخاص هم ملك الميشمان ، ودوق اوكلاهوما ، وقرصان البحيرات .. كما يظهر فى مانهاتن فى شخص أقرب إلى المسيخ الدجال يردد بنبرات مهووسة : «إنها نهاية الأمة الامريكية ، حيث لم تعد هناك أسر ، أو بشر » .



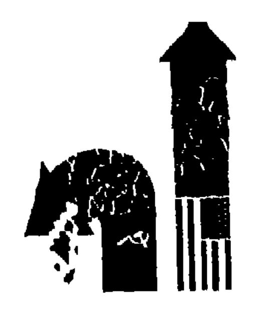
البيت الأبيض

النــــذيـــر

ويرى فونجوت أن روايته ليست فقط عن رئيس أخير فى تاريخ الولايات المتحدة ولكنها أيضا عن الغباء البشرى .

● الحقائق .. والخيال

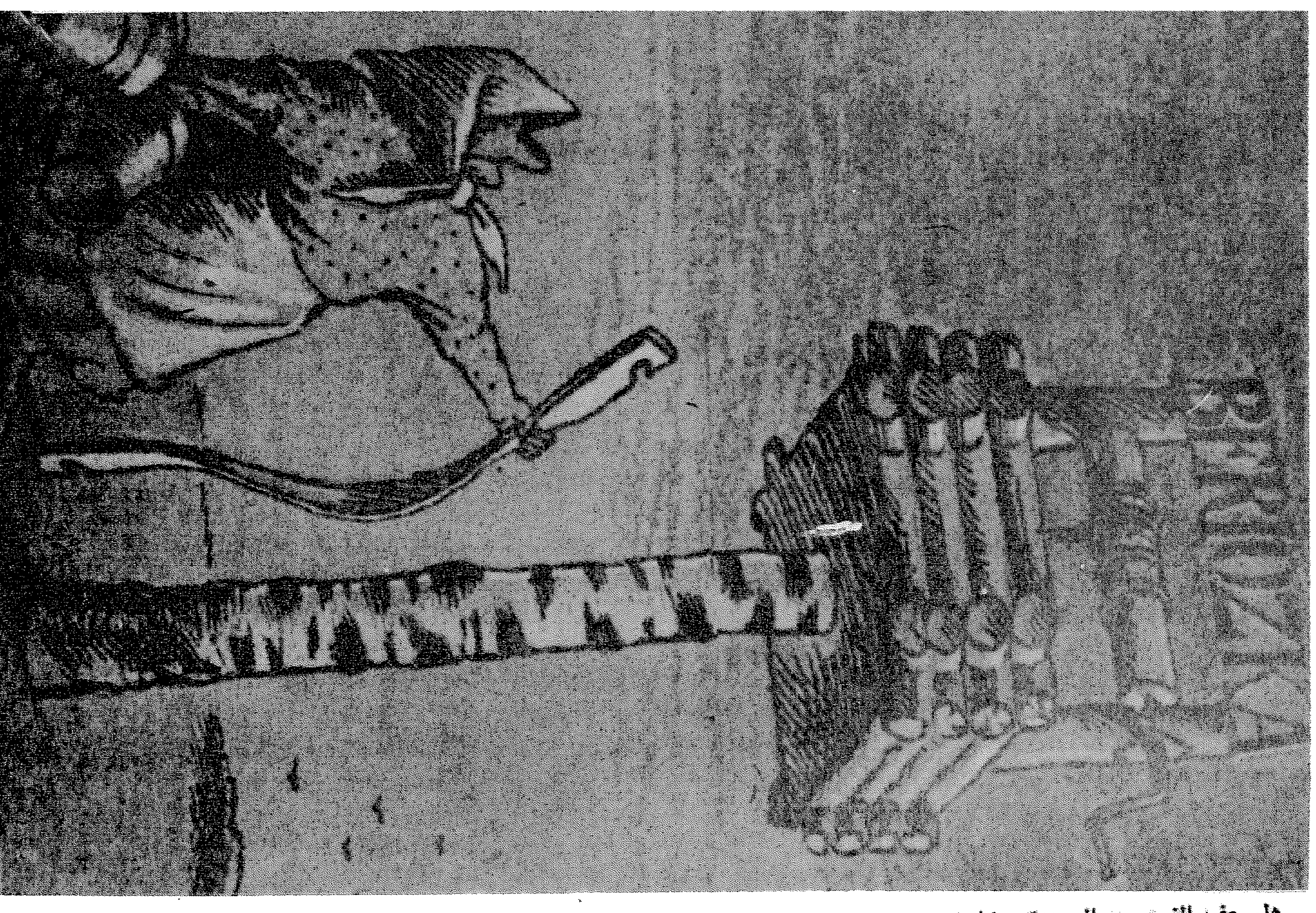
حاولنا فى هذا العدد أن نلقى بعض الضوء على روايات الخيال السياسى ، دون غيرها من الروايات ، التى اقتربت من جدران البيت الابيض . وكما سبقت الاشارة . فإن الخيال هو عمادها . ولكن هذا لايلغى أن الكاتب الذى يحذر من حدوث أى خطر لساكن البيت الأبيض قد يأتى ببعض الحقائق التى يعرفها الناس مثلما فعل فونجوت فى روايات أخرى عن الرئيس نيكسون . ومن المهم الاشارة إلى أنه بعيدا عن الخيال السياسى ، كانت أغلب الروايات المكتوبة عن البيت الأبيض مليئة بالتقديس لأشخاص عاشوا هناك مثلما حدث فى روايات عديدة عن رزوفلت ، ولينكولن ، وكيندى ، وتوماس جيفرسون ..



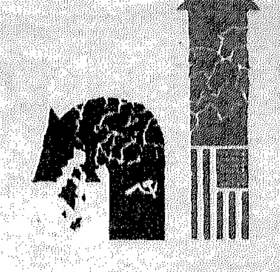
هل كسبت أمريكا الحرب الباردة ؟

بقلم : د . فؤاد زكريا

كانت أسخف نكتة أطلقت فى العقد الأخير من القرن العشرين هى نكتة « نهاية التاريخ » ، التى قام فيها يابانى متأمرك ، يعمل لحساب وكالات أمريكية ليست فوق مستوى الشبهات ، بتحويل الوضع المفاجىء والمؤقت والمضطرب ، المترتب على انهيار المعسكر الشيوعى فى عام ١٩٨٩ ، إلى وضع دائم ونهائى سيظل يسود العالم ، مع تغيرات هنا وهناك فى التفاصيل ، حتى أبد الآبدين . وعلى الرغم من الطابع الفلسفى الذى أضفاه « فوكوياما » على فكرته هذه ، حين « رشّ » عليها طبقة كثيفة من التوابل الهيجلية الدسمة ، فقد كانت الفكرة فى صميمها دعائية فجة ، بل ربما كانت آخر الأفكار الدعائية الفجة فى عصر الحرب الباردة ، على الرغم من ادعائها تجاوز ذلك العصر واستشراف المستقبل البعيد .



هل جف النبع مع البريسترويكا ؟!



كان الهدف منها ، ببساطة ، طَرْق الحديد وهو ساخن ، وانتهاز فرصة انهيار الأيديولوچية المنافسة للغرب ، من أجل إقناع العالم بأن أيديولوچية الغرب هى التى ستظل وحدها فى الميدان إلى آخر الزمان ، بل بأن فرص ظهور أية أيديولوچية أخرى تتجاسر على تقديم بديل للرأسمالية الليبرالية قد انتهت إلى غير رجعة ، وهكذا كانت الرسالة الموجهة إلى العالم كله ، شماله وجنوبه ، غنيه وفقيره ، هى : لقد أصبحت الرأسمالية الليبرالية قَدَركم المكتوب ، ولم يعد أمامكم إلا أن تكيفوا أموركم معها ، لأن أية محاولة للمقاومة ماهى إلا جهد يائس للوقوف فى وجه المسار التاريخى المحتوم .

حتمية جديدة للتاريخ

كانت الفكرة ، فى حقيقتها نقلا لمبدأ « حتمية التاريخ » من ميدانه الأصلى ، أعنى من الفكر الماركسى ، إلى الفكر الرأسمالى فبعد تاريخ طويل من استخدام هذا المبدأ فى الايديولوچيات الماركسية التى تؤكد وجود مسار حتمي للتاريخ يؤدى آخر الأمر إلى الانتصار النهائى للطبقة العاملة ، انهارت تلك الأيديولوچيات فى لمح البصر ، وأصبحت فكرة « حتمية التاريخ » ملقاة على قارعة الطريق ، بلا صاحب ، فتلقفها ذلك اليابانى - الأمريكى الماكر ، وزرعها فى أرض المعسكر المضاد ، وتقدَّم إلى العالم بحتمية جديدة للتاريخ ، هى حتمية سيادة الأيديولوچية الليبرالية الرأسمالية بلا منافس طوال المستقبل المنظور للبشرية .

ولكن ، مثلما أن مبدأ « حتمية التاريخ » كان يشكّل نقطة ضعف قاتلة فى الأيديولوچيا الماركسية فلابد أنه سيتحول إلى ثغرة خطيرة فى صميم الفكر الرأسمالى الليبرالى حين يطبق عليه . ذلك لأنك حتى لو تحكمت تحكما كاملا فى ممارسات المعسكر الذى تنتمى إليه ، على نحو يؤدى إلى مسايرة « حتمية التاريخ » التى تؤمن بها ، فإنك لن تستطيع أبداً أن تتحكم فى مسار القوى الأخرى التى تقاومك والتى تعمل على تحطيم « حتميتك » أو تغيير مسارها ، ومن هنا كان الخطأ القاتل الذى ارتكبه الفكر الماركسى هو أنه عمل حسابا لما يقوم به معتنقوه من ممارسات تستهدف تحقيق « الحتمية التاريخية » كما يراها هو - ومن أمثلة هذه الممارسات : كفاح الطبقة العاملة وحركات التحرر من الاستعمار، الخ .... ولكنه لم يعمل حسابا لممارسات القوى المضادة التى تستهدف كسر هذه الحتمية وإثبات خوائها ، كقيام المعسكر الرأسمالى برفع مستوى طبقته العاملة إلى الحد الذى يقضى على ثوريتها والوصول بالتكنولوچيا العسكرية والسلمية إلى مستويات ترهق المعسكر الاشتراكى وتكشف ضعفه الإنتاجى .

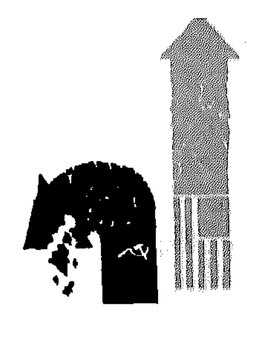


من وقائع حرب الخليج

هكذا أثبت التاريخ ، بالنسبة إلى الإيديولوچيات الماركسية ، أن من المستحيل فرض حتيمة مرسومة مقدما عليه ، وأنه يظل مسارا مفتوح الأطراف على الدوام . ويبقى أمامنا ، في الجزء المتبقى من هذا المقال ، أن نثبت استحالة فرض حتمية التاريخ المضادة أو المقلوبة ، التى تجعل الرأسمالية الليبرالية كلمة التاريخ النهائية فى المغامرة البشرية بأسرها .

★ ★ ★

لنعد إلى الوراء قليلا ، كيما نسترجع تلك المرحلة الانتقالية التى تمت فيها هزيمة الأيديولوچية الشيوعية ، وإعلان انتصار الرأسمالية الغربية . كانت البداية الحقيقية هى بولندا ، وكان الدور الذى قام به البابا الحالى (يوحنا بولس الثانى ، وهو بولندى) بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، حاسما فى دق أول مسمار فى نعش المعسكر الشيوعى ، إذ كان انفصال بولندا عن الايديولوچية الشيوعية هو الخطوة الأولى ، الحاسمة والأكثر صعوبة ، ضمن مجموعة الخطوات التى أدت إلى انهيار هذه الايديولوچية وزوال المعسكر المرتكز عليها . ويمكن القول إن الدور الذى لعبته الأجهزة الأمريكية فى بولندا كان أصعب وأكثر تعقيدا وأطول مدى من أى دور لعبته فى البلاد الأخرى المنتمية إلى المعسكر الاشتراكى : فالحجر



الأول تصعب زحزحته ، ولكنه ما إن يسقط حتى يصبح سقوط بقية الأحجار أمرا هينا ، لاسيما أن العوامل الداخلية ، المنتمية إلى صميم النظام نفسه ، كانت تجعل من هذا السقوط أمرا لا مفر منه . ولنضف إلى ذلك الدور الذى قام به ميخائيل جورباتشوف ، وهو دور أصبح فى ضوء التطورات التالية يبدو مثيرا للكثير من التساؤلات ، مما يدفع كاتب هذه السطور إلى مراجعة الكثير من تقويماته السابقة لهذا الرجل ، وهى التقويمات التى عُرضت فى وقت لم يكن فيه العالم كله قد عرف مدى فداحة النتائج المترتبة على «ثورته التصحيحية» التى ربما كانت تمثل أكبر حركة هدم ذاتى عرفها التاريخ .

المهم فى الأمر أن المعسكر الشيوعى قد سقط ، وكان دور العوامل الداخلية فى سقوطه أكبر قطعا من دور العوامل الخارجية . ومن المؤكد أن تراكم الأخطاء وتراكم السخط وتراكم الرغبة فى التغيير بأى ثمن وفى أى اتجاه ، كان أعظم بكثير مما قدّره أولئك الذين كانوا يخططون ليل نهار من أجل هدم هذا المعسكر . وفى مدى شهور قلائل ، من أواخر عام ١٩٨٩ وأوائل عام ١٩٩٠ ، وجد المعسكر الرأسمالى نفسه وحيدا على رأس العالم ، بلا غريم ولا منافس . ولم يحدث فى تاريخ الصراع بين الامبراطوريات العظمى ، منذ أقدم العصور ، أن حُسم صراع حياة أو موت بين عملاقين يملك كل منهما أشد مظاهر القوة جبروتا ، بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذه السهولة وربما كان صانعو الخطط والسيناريوهات فى البنتاجون والمخابرات المركزية أشد الجميع دهشة : فقد قضى هؤلاء عشرات السنين يرسمون آلاف الخطط لمواجهة الخصم وقهره ، وكان الثمن يبدو فادحا حتى فى أشد هذه الخطط تفاؤلا . ومع ذلك فقد فاجأهم الخصم الجبار وانهار من تلقاء ذاته بصورة لم تكن تستطيع تحقيقها أعظم الحروب المكلفة نجاحا ، وبدلا من حساب عدد الصواريخ والقنابل النووية والنيوترونية والكيميائية والبيولوجية اللازمة لدحر العدو ، سحق العدو نفسه بنفسه بأكمل صورة ممكنة ، ودون إراقة نقطة دم واحدة .

الانفراد بقمة العالم !

أعود مرة أخرى فأقول إن المعسكر الرأسمالى ، وعلى رأسه أمريكا وجد نفسه فجأة جالسا وحده على قمة العالم ، بعد أن أحرز أسرع وأرخص نصر فى تاريخ الصراعات البشرية الكبرى . والمفروض أن يُترجم هذا الانتصار الحاسم إلى مكاسب فورية ، وأخرى آجلة . والمفروض أيضا أن تتغير معالم الحياة فى المعسكر المنتصر بعد أن انزاح عنه ذلك الكابوس الذى ظل يقض مضاجعه عشرات السنين .

ولكننى أتلفت حــولى ، وأبحث عن مكسب واحد حاسم أحرزته أمريكا بعد أن أصبحت تتربع وحدها على عرش العالم ، فلا أجد .

اتركوا حرب الخليج فهذه قصة أخرى، ولا أظن أن نتيجتها كانت ستتغير كثيرا لو حدثت فى عصر الحرب الباردة ، فما كان من الممكن أن يخاطر المعسكر الشيوعى بنفسه من أجل مغامر أحمق يرتكب فى حساباته أفدح الأخطاء ، ولم يكن على أية حال صديقا حقيقيا ، فى أية لحظة من لحظات حكمه ، لذلك المعسكر ، بل كانت ارتباطاته الخفية بالمعسكر الغربى الرأسمالى أقوى بكثير . فإذا تركنا هذه الحرب جانبا ، وتأملنا جيدا . فيما يمكن أن يكون المعسكر المنتصر قد أحرزه من مكاسب ، فإن الصورة تبدو لنا على عكس جميع التوقعات فالانكماش الاقتصادى ، وما يترتب عليه من نسب عالية للبطالة وهبوط متزايد فى مستوى المعيشة ، ينهش جسد الرأسماليات الكبرى ، وعلى رأسها أمريكا وانجلترا . والخلافات الداخلية بين أطراف المعسكر المنتصر تكاد تصل فى بعض الأحيان إلى حد إعلان حرب اقتصادية كاملة . والرخاء والازدهار الذى كان يتوقعه الجميع من جراء الاندحار الحاسم ، لم يظهر له أى أثر .

ولعل أحداث الانتخابات الأمريكية الأخيرة تكون أبلغ الأمور دلالة على الخيبة التى منى بها المنتصرون . فقد خذل الناخبون الأمريكيون رئيسهم الذى تحقق فى عهده أكبر انتصار كان يحلم به الأمريكيون ، كأمة وكنظام سياسى واجتماعى ، منذ سبعين عاما . فعلام يدل هذا الخذلان ؟ إنه يعنى - من بين ما يعنى - أن الشعب الذى قيل له إنه أحرز أعظم انتصار سياسى وايديولوجى ، لم يذق شيئا من طعم هذا الانتصار ، ولم يشعر بأن حياته قد تغيرت من بعده . وحين يسود هذا الشعور ، فمن الطبيعى أن يتساءل الناس : لماذا إذن كانت المعركة أصلا ، إذا كان الانتصار فيها عاجزا عن أن يجلب لنا أية مكاسب ؟ بل إن المحور الذى تركزت فيه دعاية المرشح المنافس للرئيس، والذى أحرز فى النهاية انتصارا مدويا ، هو أن الشعب الأمريكى قد تدهورت أوضاعه ، وساءت أحواله ، منذ أن أصبح يتربع وحده على قمة العالم ، ومنذ أن اختفى المعسكر المنافس الذى كان ينغص عليه حياته .

هذه ظاهرة تستدعى تأملا عميقا . ذلك لأن المعيار الحقيقى الذى يقاس به النصر أو الهزيمة ، لدى الشعوب الحديثة ، هو مدى تأثيره على الأوضاع المعيشية للإنسان . ومن المستبعد جدا أن الحرب الباردة كانت قائمة لأن المعسكرين كانا يتنافسان على « شرف » قيادة العالم ، أو على « أمجاد » النصر والتفوق ، فهذه الحرب كانت مستعرة لأن هناك نظاما جديدا يهدد النظام الرأسمالى القائم



باقتطاع دولة بعد أخرى ، وإدخالها ضمن منظومة أخرى تحاول تحقيق نمو يستقل ، بقدر ما يستطيع ، عن تلك السوق العالمية التى تسيطر عليها الرأسمالية . كانت وراء هذه الحرب مصالح حقيقية ، ومن ثم فالمفروض أن انتهاءها يعنى تحقيقا أعظم لمصالح الطرف المنتصر ، ولكن هذا لم يحدث ، بل إن الشكوى التى ترددت ، طوال الحملة الانتخابية الأمريكية ، كانت تنصبّ على تدهور الأوضاع وانتشار البطالة وثورة الفقراء فى لوس أنجيليس ، إلخ . وبعبارة أخرى فإن أمريكا ، ومعها الرأسمالية العالمية ، لم تكسب شيئا من انتصارها فى الحرب الباردة ، إذا قسنا الكسب والخسارة هنا بمعاييرهما الحقيقية

بل إننى أكاد أتخيل أن هناك ، فى أوساط صانعى القرار الأمريكى ، من هم نادمون فى صمت على انتهاء الحرب الباردة على النحو الذى انتهت عليه . صحيح أن هؤلاء ، كما قلنا كانوا يخططون منذ عقود عديدة من أجل هدم المعسكر الآخر ، ولكن يبدو أن زمام الأمور قد أفلت من أيديهم لحظة الانهيار : فقد حدث هذا الانهيار بأسرع مما تصور الجميع ، وعلى نطاق شامل ، بحيث اختفى « العدو » من المسرح فى لمح البصر ولعل « السيناريو » الذى كان يفضله هؤلاء المخططون هو أن يحدث الانهيار ببطء أشد ، وعلى نطاق أضيق ، بحيث ينكسر المعسكر الاشتراكى وينقصم ظهره ، ولكنه، أو جزء منه ، يظل باقيا بوصفه « عدوا » ذلك لأن بقاء « العدو » حتى لو كان عدوا مثخنا بالجراح ، عاجزا عن المنافسة ، كفيل بالإبقاء على القوات المسلحة بأعدادها الهائلة ، وبكل ما يرتبط بها من صناعات ومصالح اقتصادية وعمالة منتظمة . وبعبارة أخرى ، فإن الانهيار المفاجىء والتام للعدو وتحوله إلى حالة الركوع والاستجداء أحدث انهيارا مناظرا لدى المنتصر ، فكانت النتيجة شعورا عاما بالإحباط ، فى الوقت الذى كان يُفترض فيه أن تكون معنويات المنتصر ومادياته فى السماء ، ومن الشعور بالاحباط تولدت الحاجة إلى إحداث تغيير شامل ، ومن هنا انتصر كلينتون .

أسوأ نهاية !

لقد انتهت الحرب الباردة أسوأ نهاية يمكن أن يفضى إليها صراع على هذا القدر من الضخامة والاتساع . انتهت بتفكك ، بل تفسخ المعسكر الاشتراكى إلى درجة تدعو إلى السخرية المريرة . فالمعسكر الذى كان شعاره « الأممية » ، وكان ينظر إلى التمسك بالشعارات الوطنية والقومية على أنه تعبير عن ضيق الأفق



وقائع أخرى من حرب الخليج

والأنانية ، ويرى فى الخلافات القائمة على أسس دينية أو عنصرية ، بقايا من عصور التخلف والتعصب – هذا المعسكر قد انتهى به الأمر إلى التفكك إلى وحدات وطنية ، ثم تفككت الوحدات الوطنية إلى وحدات عرقية وطائفية ، ووصل الأمر إلى أن أصبحت كل مجموعة من الشوارع والأزقة تطالب لنفسها بدولة مستقلة لها جيشها وسفراؤها فى الخارج . أما المعسكر الرأسمالى الذى ارتكزت عقائدته على الرخاء ، والذى أجج نيران الحرب الباردة من أجل ألا يخرج ركن فى الأرض عن نطاق أسواقه ، فقد استبدت به الأزمات بمجرد أن تحقق له ما أراد ، وأعلنت شعوبه بأعلى صوت أنها سحبت ثقتها من أولئك الذين هزموا منافسيهم شر هزيمة ، ولكى تكتمل السخرية المريرة ، فقد أخرجوا لنا ، وسط طوابير العاطلين الطويلة ، وجموع الأقليات العرقية الساخطة ، ووسط دوى رصاص الجريمة التى ترتفع معدلاتها ارتفاعا صاروخيا عاما بعد عام ، شابا من أصل يابانى ، يحدثنا عن شعور هيجل حين رأى نابليون ممتطيا حصانه الأبيض وهو يقتحم المدن غازيا ، ويؤكد لنا أن التاريخ قد اختار الوضع الذى أصبح عليه عالم اليوم لكى يستريح من صراعاته ، وينام !

لقد كانت الحرب الباردة أضخم وأشرس صراع بين عمالقة التاريخ ، ولكن نهايتها كانت « أبرد » وأسخف نهاية لمثل هذا الصراع الجبار : كانت نهاية بلا أمجاد للمنتصر ، وبلا كرامة للمهزوم !



عصر الهيمنة الأمريكية

بقلم : مصطفى نبيل

من نتائج معركة الرئاسة الأمريكية ، ما بدا من حدة الأزمة التى تعيشها الولايات المتحدة ، وقد فاجأت هذه الأزمة الكثيرين ، فالولايات المتحدة تعيش أوج إنتصاراتها كقوة أولى فى العالم .

وتأتى المفاجأة من عدم إستقبال الإشارات التى أخذ يتوالى إرسالها من واشنطن ، وعدم متابعة المناقشات التى دارت حول المستقبل منذ أوائل الثمانينات ، والتى تدور حول دخول أمريكا القرن الحادى والعشرين .



فتابع العالم كله إنهيار الاتحاد السوفييتى ، واختفى وراء دوى السقوط وخلف الغبار ما يجرى فى الولايات المتحدة ، رغم أنه ظهر فى أمريكا من يقول فى منتصف الثمانينات أن الذى ينهار ليس الاتحاد السوفييتى وحده ، بل النظام العالمى الذى استقر منذ الحرب العالمية الثانية .

وظهر كتاب هام لمؤلفه بول كنيدى « قيام وسقوط القوة العظمى » والذى كان بمثابة صيحة تحذير وانذار ونبوءة بالكثير من التغيرات التى شهدها العالم ، تأمل قوله بالحرف الواحد .. « بقيت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى المقدمة مع إنسلاخ الستينيات وحلول السبعينات والثمانينات ، وقادهما تنافسهما إلى سباق التسلح .... وغدت معدلات النمو الأمريكية والروسية أكثر تباطؤا ، وتقلص نصيب الدولتين فى ثروة وإنتاج العالم » .

وصدر هذا الكتاب قبل إنهيار الاتحاد السوفييتى ، ولكن تلمح بين سطوره نبوءة الإنهيار ، عندما يتحدث عن أثر الإنفاق الضخم على التسليح فى الاقتصاد السوفييتى وفى الاقتصاد الأمريكى بعد الذى كشف أخيراً فقد خرجت أمريكا من هذا السباق مدينة بما قيمته أربعة آلاف مليون دولار ، تحولت من أكبر دولة دائنة إلى أكبر دولة مدينة فى العالم .

وتتابعت الإشارات والكتابات التى تعالج بعض أبعاد الأزمة :

● التقرير الذى أصدرته أكاديمية العلوم الأمريكية سنة ١٩٨٥ ، والذى رصد ظاهرتين فى الحياة الأمريكية ، أولاهما النقص الكبير فى أبحاث العلوم البحتة مثل الطبيعة والرياضيات لحساب الأبحاث التطبيقية ، فتنفق على هذه الأخيرة المؤسسات الاقتصادية الكبرى ، فهى أكثر ربحية ، أما الرياضيات والطبيعة فلا تجد من ينفق عليها فهى أقل ربحية فى الزمن الكثير ، وهى التى تمد الأبحاث التطبيقية بالحياة !

والثانية .. أن الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء لم تعد قادرة على إمداد المجتمع بحاجته من التكنوقراط وعناصر الأداة الحكومية ، بعد أن أخذ يحل محلها بالتدريج فئات جديدة من الأقليات غير البيضاء والمهاجرين الجدد .

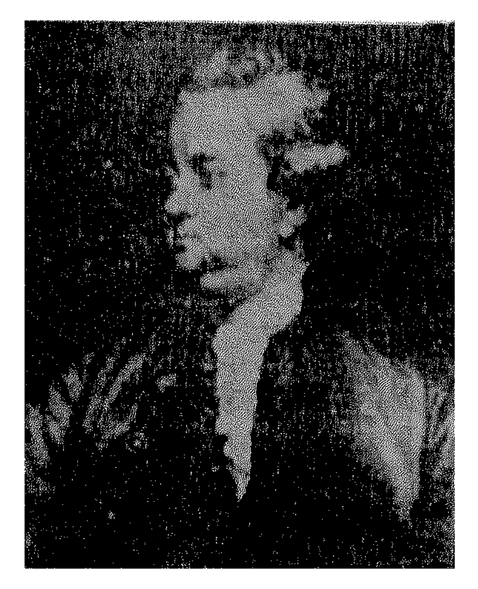
● ومن الاشارات أيضا ، الحديث عن تدهور نظام التعليم ، عند مقارنته بنظام التعليم فى اليابان وبعض الدول الأوربية ، والذى تركز فى تقرير بعنوان : « أمة فى خطر » !

● ومن هذه الاشارات أيضا كتاب صدر سنة ١٩٨٧ بعنوان : « إغلاق العقل الأمريكى » لمؤلفه آلان بلوم ، والذى يدور حول إستقرار معنى الليبرالية عند فكرة بسيطة هى أن الآراء المختلفة تتمتع بشرعية متساوية ، مما أصاب العقل الأمريكى باحد إحتمالين ، إما القبول بالأفكار والنظريات دون تمحيص ، وإما معالجتها بعدم إكتراث أو حالة غياب اليقين ! ..

القيام والقعود

لذا برز على السطح موضوع كثيراً ماشغل المفكرين والمؤرخين ، وخاصة فى مراحل التحول والانتقال ، وهو « قيام وإنهيار القوى العظمى » ، أحيانا يشغلهم بهدف السعى للنهضة وأحيانا تجنبا للسقوط .

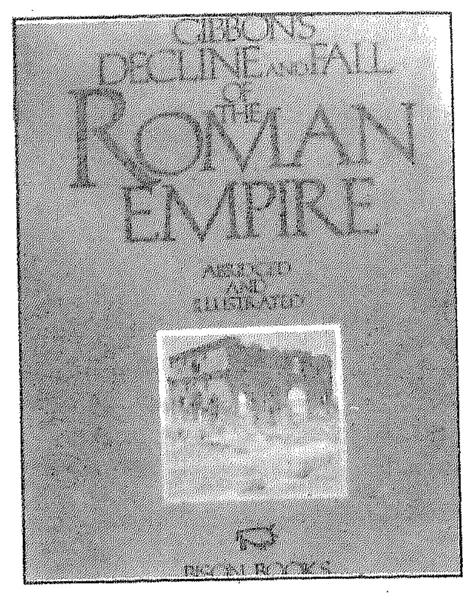
ومن أبرز الكتب الكلاسيكية التى عالجت هذا الموضوع ، كتاب « قيام وإنهيار الامبراطورية الرومانية » ، لكاتبه الإنجليزى إدوارد جيبون والذى صدر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، ويلاحظ أنه كتب خلال حرب الامبراطورية البريطانية مع مستعمرتها الأمريكية ، أى



ادوارد جيبون

وبريطانيا تتعرض للتهديد وخوفا من أن يكون إيذانا بانهيارها ! ..

ولم يكتفِ جيبون بالتأريخ لروما وحدها بل إمتدت دراسته لتعم الامبراطوريات التى تحيط بها ، واهتم إهتماما واضحا بالفتح الإسلامى والحروب الصليبية وقيام الامبراطورية العثمانية على أطلال القسطنطينية ، وبهذا عالج خلال سفره الضخم تاريخ الغرب وعلاقته بالشرق من القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس عشر .



سقوط الامبراطورية الرومانية

وجاء كتاب بول كنيدى ليكمله سواء من الناحية الزمنية أو الموضوعية . ويرى جيبون أن سقوط وإنهيار الدول يأتى من وصولها إلى درجة كبيرة من الرفاهية ، التى تؤدى بدورها إلى التحلل ، وتتعرض الامبراطورية المتسعة الأرجاء إلى الطغيان وتفشى الصراعات الداخلية ، ويعتبر جيبون أن غياب الحرية هو أحد أسباب إنهيار الامبراطوريات ، ويرسم صورة لسقوط الامبراطورية الرومانية بقوله : «كان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التى فرضوها على شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبى يضعف كل ملكات العقل ويورثها الانحطاط ... فكانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم أقل بأسا فى نظر أعدائها ، وأكثر ظلما ومقتا فى نظر رعاياها ، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم الضيق العام ، وكلما ألحت الحاجة إلى الاقتصاد زاد الإسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم ، وألقوه على كواهل الناس ، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التى تخفف من بؤسهم ، وعمدت الحكومة إلى التحقيق والتفتيش ثم إلى مصادرة أملاكهم وتعذيب أشخاصهم ، هذا ما أرغم الرعايا على إيثار الأعداء وطغيانهم الأيسر إحتمالاً ، أو على الفرار إلى الغابات والجبال أو الهبوط إلى مراتب الخدم والمرتزقة حتى وصل بهم الحال إلى التبرم من لقب المواطن الرومانى، والذى كان يوما مطمح الجميع .... وظلت روما طويلاً قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة » .

وهو كتاب بحق ملحمة إنسانية ينقل عبرة التاريخ ومأساته معاً .

باب الفناء

وهناك حلقة تالية لبحث ذات المسألة ،

عصر الهيمنة الامريكية

وتساءل فى العصر الحديث أرنولد توينبى – وريث ابن خلدون – ما هو باب « الفناء » الذى تدلف إليه العديد من الحضارات بعد إزدهارها ؟ ..

ويجيب قائلا . « ينبئنا تاريخ أى مجتمع أنه عندما تتحلل أقلية مبدعة وتستمر مسيطرة تسعى إلى الإحتفاظ بمركز لم تعد جديرة به ، وأداتها القوة والقهر ، ويحدث هذا التغير فى النخبة الحاكمة مما يعزلها عن مجموع المواطنين ، الذين لا يعودون يعجبون بحكامهم ولا يقلدونهم ، وتنتهى هذه الحالة بالتمرد عليهم » .. (مختصر دراسة التاريخ) .

ويرى أن أسباب إنهيار الحضارات تتمثل فى نفاد الطاقة الإبداعية فى النخبة المسيطرة ، مما يستتبعه رد مجموع المواطنين على طغيان الأقلية ، بسحب ولائها ، والعدول عن محاكاتها ، ولفقدان الثقة بين الأقلية الحاكمة والأغلبية المحكومة الذى ينتهى بضياع وحدة المجتمع ثم إنهياره .

نهاية التاريخ !

ومن توينبى إلى بول كنيدى ، نعود إلى صيحة التحذير التى صدرت عام ١٩٨٨ ، الذى يعلن أن الفجوة بين التزامات الدول العظمى وبين قدرتها هى سبب إنهيارها ، ويرى أن الدولة تصعد وتمتد عندما تغريها إمكانياتها بالتوسع حتى تصل إلى لحظة من التاريخ تكتشف عندها – بعد فوات الأوان – أنها توسعت أكثر مما تقدر ، وهنا تبدأ فى التراجع ! ..

ويدور الكتاب حول الولايات المتحدة ، ومحاولة تطبيق نظريته عليها .

ولم يكن غريبا أن تتباين ردود الفعل على صدور هذا الكتاب .

إعتبره البعض عملاً قدرياً متعسفاً يستعجل النهاية ، وسلم البعض بأهميته وبالجهد الكبير المبذول فى جمع مادته وتصنيفها ووضع الحقائق جنباً إلى جنب ، وأثره الكبير على الفكر السياسى داخل أمريكا ، وصدور مثل هذا الكتاب أحد التقاليد الأمريكية ، فعندما إستاء وليم ليدرر أحد الكتاب الأمريكيين من أداء الدبلوماسية الأمريكية كتب « الأمريكى القبيح » والذى كان صيحة تنبيه سرعان ما غيرت من أداء الدبلوماسية الأمريكية ، ثم أعقبه بكتاب « أمة من غنم » ! .

ويشير بول كنيدى إلى إحتمالات إنهيار القوة الأمريكية بعد مرحلة أفول

القطبية الثنائية ، وقد صدر كتاب آخر هو بمثــابة « معكوس » كتــاب كنيدى لمؤلفه فوكوياما تحت عنوان « نهاية التاريخ » ، والذى يرى أن التاريخ وصل إلى محطته الأخيرة بعد الانتصار الكبير الذى حققته الديمقراطية وانتشــار طريقة الحيــاة الأمريكية ، والعالم يمر بمرحلة إنتصار الولايات المتحدة وشيوع أفكارها .

وتنبه الكونجرس لهذا الجدل ، وعقدت جلســات إستماع لمناقشــة كتاب كنيدى وما ينبغى عمله حتى لا تترك الأمور دون تصحيح .

وقام الكاتب بمسح شامل « لمراكز القوة » فى العالم منذ عام ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠ ، وكيف ظهرت هذه المراكز ثم كيف تبدلت ، ويؤكد : « أن مواطن القوة النسبية للأمم لاتبقى ثابتة نتيجة للمعدل المتفاوت للنمو بين المجتمعات المختلفة ومدى التطور التكنولوجى ، وكفاءة النظم التى تحقق للمجتمع ميزة أكبر من مجتمع آخر » .

ويشير الكتاب إلى زوال ما كان يعتبر لأكثر من ثلاثة قرون ، نظاماً عالميا يتمركز حول أوروبا ، بعد دخول قوى قارية كبرى كالولايات المتحدة وروسيا .

ويتحدث عن التحديات المختلفة التى تواجه الهيمنة الأمريكية ، ويضع الصين فى مكانة عالمية كمرشحة لمركز القوة الأعظم ، ولكن بمعاييرها وطريقتها الخاصة وليس تقليداً لأحد . ولا يستبعد وقوع أحد صور التقارب بين الصين واليابان .

كما يعتبر الكاتب أن القدرة على إتباع النظام الاجتماعى اليابانى المتميز أكثر التحديات صعوبة ، وهى سباق أشد من المنافسة السياسية والعسكرية مع الاتحاد السوفييتى ، فالتحدى الذى تمثله اليابان لايقتصر على إعفائها من الإنفاق العسكرى الضخم الذى فرض عليها بعد الحرب العالمية الثانية .

ولا يتصور الكاتب أوروبا الموحدة أكثر من مجرد تحد تجارى ، وليس تحديا إستراتيجيا للخلافات القائمة بين الدول الأوربية التى تمثل قوميات ولغات مختلفة وعقائد عسكرية متباينة . وسيصل سكان أوروبا الموحدة إلى ٣٢٠ مليونا أى يزيدون ٥٠ مليونا عن سكان الاتحاد السوفييتى وحوالى ١٠٠ مليون عن سكان الولايات المتحدة ، وبعض دولها تفوق - من حيث دخل الفرد - الولايات المتحدة ، وهى أكبر كتلة تجارية فى العالم .

ثم يذكر المشاكل التى يواجهها

الاتحاد السوفييتى وعلى رأسها المسألة الزراعية ، والذى يحتاج لاستثمارات زراعية تصل إلى ٧٨ بليون دولار سنويا للحفاظ على مستوى المعيشة ، كما يحتاج إلى ٥٠ بليون دولار لدعم أسعار المواد الغذائية ، أما الصناعة فتعانى من التخلف والركود بعد أن اقتربت مراحل التوسع السهل من نهايتها ، كما تعانى الصناعة من نقص فى التكنولوجيا المتقدمة مثل الروموت والكمبيوتر والليزر ووسائط الاتصال الحديثة .

ومشكلة التكنولوجيا الجديدة ليست مرتبطة فقط بضخامة الاستثمارات بل إنها تتحدى أيضا النظام السوفييتى القائم على السرية والبيروقراطية .

ويضرب مثلاً مأساويا على ما يمكن أن تحدثه الفجوة التكنولوجية ، ويذكر معركة أم درمان عام ١٨٩٨ ، عندما إستطاعت البنادق لى أنفيلد ومكسيم مع قوات كيتشنر أن تحصد أرواح « ألف مقاتل من الدراويش » ، فى مقابل ٤٨ رجلاً من قوات كيتشنر .

أمريكا القرن ٢١

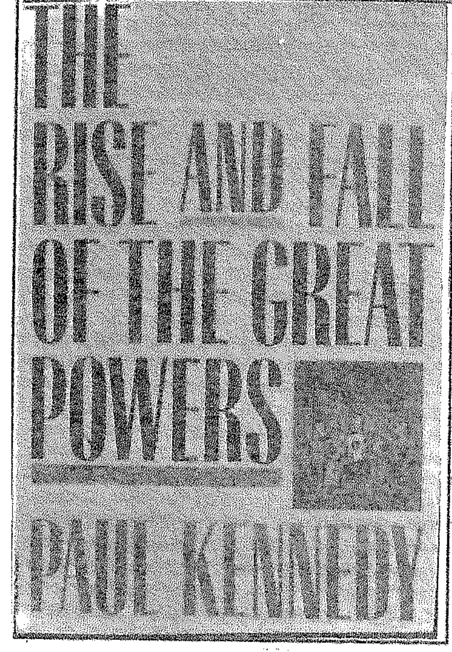
نصل إلى الولايات المتحدة القوة العظمى الأولى فى العالم ، والتى يقع عليها عبء توفير ظروف معينة تتمكن خلالها من تحقيق التوازن بين قدرتها الإنتاجية وبين تجدد مواردها وبين قدرتها العسكرية .

ويرى كنيدى أن نصيب الولايات المتحدة من القوة العالمية يتراجع نسبيا بشكل أسرع رغم بقاء القوة المطلقة للولايات المتحدة ، وعلى الرغم من أن أمريكا مازالت تمثل قوة متميزة اقتصاديا وعسكريا فإنها لا تستطيع أن تتفادى مواجهة أحد مصيرين :

- أن تكون قادرة على الإستمرار ، وأن تحافظ على توازن معقول بين متطلبات الدفاع والدور العالمى وبين الوسائل الفعلية للابقاء على هذه الإلتزامات .

- أن تحافظ على قدرتها على التطور التكنولوجى وحماية ثروتها الاقتصادية من التفتت النسبى فى مواجهة الأنماط المستمرة التغير للإنتاج العالمى .

أى عليها أن تتجنب التوسع الإمبريالى الذى يفوق الامكانيات والقدرات الفعلية ، وأن تجد حلا للمعضلة المتمثلة فى أن مجموع المصالح والالتزامات الأمريكية العالمية القائمة أوسع بكثير من قوة الولايات المتحدة وقدرتها على الدفاع عنها جميعا فى وقت واحد . ويرتبط بتلك العلاقة بين القدرة والرغبة ذلك التراجع النسبى



صعود وهبوط القوى الكبرى

فى الصناعة وحجمها فى الإنتاج العالمى ، والتى لم تتأثر فقط الصناعات التقليدية مثل المنسوجات والحديد والصلب وبناء السفن بل وتأثرت أيضا الصناعات الدقيقة ذات التقنية العالية ، مثل الروموت والكمبيوتر ومعدات صناعة الفضاء .

وهى معضلة ليس لها حل فإما الخارج وإما الداخل .

ويورد الكاتب دراسة للكونجرس الأمريكى تؤكد أن الفائض التجارى الأمريكى فى المنتجات ذات التكنولوجيا العالية قد إنحدر من ٢٧ بليون دولار عام ١٩٨٠ إلى أربعة بلايين دولار عام ١٩٨٥ ، ويشير إلى إضطرابات غير مسبوقة فى الأوضاع المالية الأمريكية .

ويصل الكاتب إلى السؤال الجوهرى .. هل تستطيع أمريكا أن تحافظ على مركزها العالمى الراهن ، كقوة أولى فى العالم ؟ .. ويجيب بالنفى ، فلم يتح لأى مجتمع عبر التاريخ أن يظل متقدما على غيره من المجتمعات ، ولا يعنى هذا – فى رأيه – أنه محكوم على أمريكا بالانهيار مثلما حدث مع قوى عظمى سابقة ، فهى تملك أن تتجنب هذا المصير ، إذا أدركت حقيقة ما يجرى فى العالم ! ..

وأختم هذا المقال ، بما ذكره جورج كينان السياسى الأمريكى الشهير ، وهو يلقى حزمة ضوء أخرى على الجدل الدائر فى أمريكا .. يقول :

« كان شعار إنتصار أمريكا فى الحرب الباردة شعاراً غير صحيح ومؤسفاً ، فإدعاء أن هذه الحرب قد إنتهت هو مجرد وهم ، فالحرب الباردة لم تنته وأمريكا لم تنتصر .

اللاعبون تغيروا ، نعم ، واسلوب المواجهة إختلف .

فى ذكرى ثورة غابرة

بقلم : عبد الرحمن شاكر

مر شهر أكتوبر من هذا العام ، وقد احتفلنا فيه بذكرى حرب أكتوبر المجيدة من عام ١٩٧٣ ، ولكن ذكرى «أكتوبرية» أخرى لم يلتفت إليها أحد ، أو يعتنى بالاحتفال بها . ومرت كأن لم تكن وتلك هى الثورة البلشفية من عام ١٩١٧ ، والتى كان يجرى الاحتفال بها كل عام أيام كانت هناك دولة كبرى تسمى إتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، وتدعى اختصارا باسم الاتحاد السوفييتى ، فقد اقتصر الاحتفال بالثورة البلشفية هذا العام ، على بعض المظاهرات الصاخبة فى موسكو وكييف ، ترفع صور لينين وتطالب بعودة الاشتراكية .

يمر هذا العام ، وقد مضى على «ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى» . كما كانوا يسمونها خمسة وسبعون عاما ، أى «اليوبيل الماسى» لتلك الثورة لو وجدت من يحتفل بها ، ولكن منذ بداية هذا العام بالتحديد لم يعد هناك كيان دولى يحمل اسم الاتحاد السوفييتى ! لم يتول أحد من خارجه تدميره كما حاول هتلر فى الحرب العالمية الثانية ، أو كما ظلت الدول الامبريالية فى الغرب متهمة بذلك طوال التاريخ القصير نسبيا لذلك الاتحاد . ولكن نهايته كانت لأن أبناءه أرادوا ذلك ، وكان حله على أيديهم وبقرار منهم ، وتحولت بلادهم إلى جمهوريات مستقلة يضمها كومنولث واهى العرى ، بعد أن كانت دولة عظمى موحدة .

الثورة والثورة المضادة

ولكن : هل تخرج ثورة من التاريخ ، لمجرد أن أبناءها فى مرحلة تاريخية محددة وظرف تاريخى معين ، قد أداروا ظهورهم لها ، وشرعوا يدمرون معظم ما أنجزته أو توهمت أنها أنجزته ؟

ما أظن ذلك ، وكل الثورات تتعرض



الثورة البلشفية ١٩١٧

للردة ، أو للانقلاب عليها ، أو حتى للثورة المضادة لها ، ولكن الثورة تبقى بعد ذلك فى التاريخ حدثا رئيسيا لا سبيل إلى حذفها منه أو استبعاد تأثيرها فيه .

وبديهى أن يدخل فى تحليل دوافع الثورة ، التركيبة الخاصة ، للمجتمع الذى ثار ، أو وقعت فيه الثورة ، وكما تحمل تلك التركيبة بذور الثورة التى انطلقت منها فالأرجح أيضا أنها تحمل بذور الثورة المضادة ، أو الثورة على الثورة ، بحيث تفرغ بعد حين منها ، أو من الضرورة التى أنشأتها بعد أن زالت ، وتتخلص من كثير من الأوضاع التى ترتبت مباشرة عليها - تطبيقا - غير مقصود فى الغالب - لفكرة أن التطور لا يأخذ خطا مستقيما ، وإنما يسير فى دوائر حلزونية متصاعدة ، تقع فيها العودة إلى نقطة انطلاق سابقة ، ولكن على مستوى أعلى ، ودونما ارتداد جوهرى إلى ما تم تجاوزه .

سجن الشعوب

وتصبح المسألة أشد تعقيدا ، حينما يكون المجتمع الذى أنطلقت منه الثورة ، هو فى حد ذاته مجتمعا مركبا وليس مجتمعا بسيطا متجانسا ، كما كان الحال بالنسبة للامبراطورية الروسية التى انطلقت مثل ثورة أكتوبر الاشتراكية فى عام ١٩١٧ . فقد كان ثوار ذلك التاريخ يطلقون على تلك الامبراطورية الضخمة اسم «سجن الشعوب» ، لأن الاضطهاد

السياسى والاستغلال الاقتصادى لم يكونا واقعين على الشعب الروسى وحده ، ولكن أيضا على مجموعة أخرى من الشعوب تعيش معه فى أسر تلك الامبراطورية وتمثل نصف سكانها ، وتعانى كما يعانى الشعب الروسى من القهر والاستغلال ، مضافا إليه قمع شخصيتها الوطنية وإنكار ثقافتها الخاصة واغتيال تطلعها إلى الوجود المستقل .

حقا ، لم تكن الثورة البلشفية فى أكتوبر عام ١٩١٧ ، هى التى قضت على القيصرية ، رمز الاستبداد السياسى والقهر الوطنى للشعوب التالية ، وإنما كان ذلك فى ثورة فبراير من نفس العام ، الثورة التى اشتركت فيها مختلف القوى الديمقراطية ، بما فيها الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى ، بجناحيه البلشفى بزعامة «لينين»، والمنشفيك بزعامة مارتوف، وأتت هذه الثورة بحكومة كيرنسكى المؤقتة إلى السلطة .

مفاهيم ثورة أكتوبر

لا يستطيع يلتسين الرئيس الحالى للجمهورية الروسية ، والذى أعاد علم القياصرة بدلا من علم البلاشفة ذى المنجل والمطرقة ، أن ينسب نفسه وحكومته إلى القيصرية بل ولا إلى حكومة كيرنسكى «الديمقراطية» لأن تلك كانت حكومة لكل الامبراطورية الروسية ، أما يلتسين فيحكم واحدة من الجمهوريات « السوفييتية » السابقة فحسب ، لأن تحرير «التوابع» ولو من الناحية الرسمية ، ورفعها إلى مستوى جمهوريات ، تتساوى نظريا مع الجمهورية الروسية فى إطار الاتحاد السوفييتى السابق ، وبعد زواله ، هو بالتأكيد أحد إنجازات ثورة أكتوبر الاشتراكية ، دون سواها .

ذلك لأن ثورة أكتوبر كانت تنطلق من مفاهيم ومدركات ثورية ، لاتلحق بها الأحزاب الأخرى التى شاركت معها فى ثورة فبراير الديمقراطية ، كانت تنطلق من فكرة المساواة الكاملة فى كل شىء ، ما بين الطبقات الاجتماعية من ناحية ، كانت الدول الصناعية المتقدمة فى غرب أوربا مثل ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، تعج بالحركات العمالية والاشتراكية ، وفى ألمانيا بالذات طور ماركس ، انجلز فلسفة الاشتراكية ، وأعطياها لقبا فخما هو «الاشتراكية العلمية» ! وذهب ماركس فى تحليله للنظام الصناعى الرأسمالى ، فى كتابه الشهير « رأس المال » ، إلى تأكيد أن استمرار النمو الرأسمالى لابد أن يفضى فى النهاية إلى تحول رئيسى فى المجتمع الصناعى الذى أنشأه بأن تستولى الطبقة العاملة المتزايدة عددا ووعيا وتنظيما فى ظله على مقاليد الأمور فى المجتمع ، بما فى ذلك السلطة السياسية ، وتحقق الاشتراكية عن طريق تأميم الصناعات الرئيسية ، ومختلف وسائل

الإنتاج . وبالرغم من أن روسيا لم تبلغ فى تطورها الصناعى المدى الذى بلغته الدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة ، فإن لينين زعيم الثورة البلشفية ذهب إلى تأكيد أن البروليتاريا الروسية يمكنها أن تكون بحكم التناقضات التى تسود المجتمع الروسى وتجعل روسيا حبلى بالثورة – على حد تعبيره – هى طليعة الطبقة العاملة العالمية . كان يظن أن استيلاء البلاشفة الاشتراكيين على السلطة فى روسيا ، سوف يفتح الطريق للطبقات العادلة فى غرب أوربا لمحاكاتها واسقاط النظم الامبريالية الرأسمالية فيها .. ولما لم يتحقق هذا التوقع ، قرر أن تكون استراتيجية حزبه هى « تدعيم ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد واحد واتخاذها قاعدة لاسقاط الامبريالية فى جميع البلدان» .

وإزاء هذا التهديد من البلد الذى حكمه الاشتراكيون لأول مرة ، حاولت الدول الرأسمالية الامبريالية من جانبها القضاء على الثورة فى مهدها ، وذلك بشن حروب التدخل ضدها ، ولكن هذه الحروب لم تفلح فى إسقاط الثورة ، بفضل تعاطف عمال العالم الصناعى المتقدم معها ، حتى ولو لم يسلكوا طريقها .

فى سبيل البروليتاريا

وفى سبيل تدعيم «ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد واحد ، قضى لينين على الحريات الديمقراطية المكتسبة فى ثورة فبراير ١٩١٧ ، وحل الجمعية التأسيسية التى انتخبت لتصنع دستورا لحكم البلاد ديمقراطيا ، كما قضى على سائر الأحزاب السياسية الأخرى معلنا أن ديكتاتورية البروليتاريا تعنى ديكتاتورية حزبها ، أى الحزب البلشفى ، الذى لم يكن فى الواقع عماليا تماما فى تركيبه العضوى بل كانت قيادته ومعظم الكوادر الرئيسية فيه من المثقفين وذوى الأفكار الثورية وعلى رأسهم لينين ذاته . وكانوا يزعمون لأنفسهم تمثيل المصالح العليا ليس للعمال الروس وحدهم ، بل للطبقة العاملة العالمية أيضا !

وبعد انتهاء حروب التدخل، تخلى لينين عن « شيوعية الحزب » التى فرضت المساواة شبه الكاملة ما بين الجميع ، وسمح بقدر من الارتداد إلى الرأسمالية تحت اسم « السياسة الاقتصادية الجديدة » لكى يسمح بزيادة النشاط التجارى ، وبالتالى استخدام قوى السوق فى تنمية اقتصاد البلاد المنهار .

ولكن ما لبثت أن تحولت الدولة السوفييتية عن هذا الطريق ، بعد أن أدى دوره فى إنعاش الاقتصاد ، وخاصة بعد وفاة لينين . وأكثر من ذلك فإن خليفته ستالين ، من أجل تحقيق النهوض السريع للصناعة المؤممة ، فرض سياسة المزارع الجماعية على الفلاحين ، الذين سبق للثورة فى بدايتها أن وزعت عليهم الأرض ، وأوجد بذلك أول تناقض صارخ ما بين

القوى الثورية ، وقضى عمليا على تحالف العمال والفلاحين ، الذى هو أساس السلطة السياسية ، كما يدل عليها علم الدولة السوفييتية ذى المنجل والمطرقة ، وأصبح حكم البلاد فى عهده استبداديا مطلقا ، السلطة العليا فيه للمكتب السياسى للحزب البلشفى بزعامته ، وأداة الحكم فيه قوى القمع البوليسية ورجال الكى .. جى . بى أى المخابرات العامة .

أما من الناحية القومية فبالرغم من المساواة التى أعلنتها الثورة ما بين مختلف الجمهوريات التى تشكل الاتحاد السوفييتى فإن ضرورة الاحتفاظ بالدولة الاشتراكية موحدة ، قد اقتضى أشكالا من التحكم المركزى لا تقل عسفا عن ممارسات القيصرية .

ولقد ساعد التهديد الخارجى على زيادة العسف الاستبدادى فى أرجاء الدولة السوفييتية ، حتى أصبحت أشبه بالقلعة العسكرية المحاصرة ، وسخر اقتصادها الصناعى والزراعى لصنع الأسلحة ترقبا للصدام المرتقب مع الدول الامبريالية المتربصة بها ، وحرمت الشعوب السوفييتية بذلك من كثير من ثمار عملها . وقد وقع الصدام المرتقب بالفعل بنشوب الحرب العالمية الثانية ، وقيام الحكم النازى فى ألمانيا باجتياح روسيا ، بهدف اسقاط الشيوعية فى مهدها . وتحويلها إلى سوق واسعة للصناعة الألمانية . ولكن الاتحاد السوفيتى خرج منتصرا من تلك الحرب ، ودالت دولة النازى فى ألمانيا ، وبدأت مواجهة جديدة مع حلفاء الأمس ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبح كل منهما ، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية على رأس معسكر دولى كبير معاد للآخر ، واستعرت بينهما «الحرب الباردة» وسباق التسلح ، بما فى ذلك صنع الأسلحة النووية والصواريخ التى تحملها .

تحول تاريخى

ثم بدأ التحول التاريخى بعد وفاة ستالين فى عام ١٩٥٣ ، وتولى نيكيتا خروشوف ، منصب الأمين العام للحزب البلشفى ، حيث أعلن فى المؤتمر العشرين لهذا الحزب المنعقد فى عام ١٩٥٦ ، أن الاشتراكية قد أصبحت نظاما عالميا لايمكن قهره ، وأن التعايش السلمى بين النظامين قد أصبح ممكنا ، وأدان سياسة عبادة الفرد التى كانت تمارس فى عهد ستالين ، كما كشف عن الكثير من مظالمه ، التى لم يسلم منها حتى رفاقه الشيوعيون.

وبعد فترة من التردد استعر فيها سباق التسلح والسعى لاقتسام مناطق النفوذ بين المعسكرين ، جاء جورباتشوف فى عام ١٩٨٥ ، ليستأنف عمل خروشوف فى التحول الديمقراطى والسعى إلى إنهاء الحرب الباردة .

ولكن الموجة العارمة التى أطلقها جورباتشوف بسياسته فى إعادة البناء أو البرويسترويكا ، والجلاسنوست (أى

المكاشفة والمصارحة) ، ودعوته إلى إدخال اقتصاد السوق - على نحو ما فعل لينين فى سياسته الاقتصادية الجديدة - من أجل استدخال التكنولوجيا المتطورة فى الغرب الرأسمالى ، لم تقف عند حد ، وكنست فى طريقها فكرة المجتمع الاشتراكى كلها ، بما فى ذلك وحدة الجمهوريات السوفييتية ، وفى أواخر عام ١٩٩١ ، تم حل الاتحاد السوفيتى ، وفقد جورباتشوف منصبه كرئيس لهذا الاتحاد، وكأمين عام للحزب البلشفى الذى جرى حله بعد محاولة الانقلاب فى أغسطس .

تفسيرات متعددة

وتختلف التعليلات فى تفسير هذا التحول بالذات ، حيث كان من الممكن نظريا أن تسود الديمقراطية ، بل أن يتم التحول إلى اقتصاد السوق دون أن يفقد الاتحاد السوفييتى وحدته . ولكن حكام روسيا وعلى رأسهم يلتسين يذهبون إلى أن جمهورية روسيا كانت تحمل على كاهلها عبء الاقتصاد المتخلف فى الجمهوريات الآسيوية ، ولكن هناك تفسيرا آخر قدمه الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون فى كتابه بعنوان « لننتهز الفرصة » . حيث يقول إن الاتحاد السوفييتى لو بقى موحدا حتى القرن القادم لأصبح المسلمون أغلبية فيه ، لأن شأنهم شأن المسلمين فى كل أنحاء العالم كثيرو التوالد !

أما المسألة القومية فالاضطرابات العرقية تسود كل مكان من الاتحاد السوفييتى السابق ، والاتحاد الروسى ذاته مهدد بالانحلال مثل سابقه الاتحاد السوفييتى ، فقد استقلت بالفعل جمهورية شيش والانجوش ، وتسعى تتارستان وغيرها للاستقلال ، ورغم القيادة العسكرية الموحدة فلا تزال الجمهوريات التى تملك أسلحة نووية مثل كازاخستان ترفض تسليم سلاحها لروسيا التى قيل مؤخرا إنها قد باعت سلاحا نوويا لإيران ، وتشير دلائل كثيرة إلى أن الروس يساعدون أبناء جلدتهم السلاف من الصرب فى ضرب أبناء البوسنة والهرسك من المسلمين ، مما يعنى فشلا كاملا لكل ما حاولته الثورة الروسية من تثبيت فكرة الأخوة الإنسانية والمساواة بين الشعوب ، وفى ظل موجة من التعصب العنصرى تجتاح ألمانيا من جديد على غرار النازية التى حاولت تدمير الاتحاد السوفييتى والقضاء على مبادىء ثورته التى يتنكر لها أبناؤها الآن .

فهل تستسلم البشرية ، والشعوب السوفييتية من بينها لنزعات التعصب العرقى والعنصرى بإعتبار ذلك ضربا من ممارسة «الديمقراطية الوليدة» فى تلك البلاد ، إن ذلك يعد من سخرية التاريخ ، ولابد من أن تكون هناك صيغة أكثر رقيا للجمع ما بين مبدأى الحرية والمساواة على نحو صحيح .

قصة قصيرة : بقلم فريدة مرعى

أرى .. وأسمع .. وأتكلم

اللوحة (١)

- لا .

قلتها عالية هادرة غاضبة وحاسمة .

(٢)

كنت هذه المرة قد اتفقت مع نفسى أن ألزم حدودى وأن أكف عن دس أنفى فيما لايعنينى بعد أن هجرنى الناس ، حتى الأصدقاء قد باتوا يخشون سلاطة لسانى وأصبحوا يعملون ألف حساب لما أجره عليهم من مشاكل .

(٣)

سمعت السائق يحدث أحد الركاب متحسراً « لما كانوا هنا كانت البلد زى الفل لا زبالة ولا ديان» تشاغلت بالنظر إلى الطلاء الأحمر فى أظافرى وإلى الحذاء الجديد . تذكرت قول صديقتى أننى يجب أن أهتم بمظهرى لأكون على مستوى زميلاتها فى الرحلة .

(٤)

«أما الخضار والفاكهة فقد كانوا على قفا من يشيل . دلوقتى مافيش إلا البطيخ وإن لحقته » . سليت نفسى بمتابعة عادل إمام على الشاشة الصغيرة . أدرت محطات الراديو الترانزستور الذى أضعه على أذنى وسمعت «الحكم بالسجن عشرين عاماً على كل من يقذف سيارة اسرائيلية بالطوب» .

(٥)

«كنا بنلعب بالفلوس لعب والشغل كان زى الرز» . أخذت أجرب الزراير الكثيرة على جانبى الكرسى الفخم المبطن بالقطيفة ، اكتشفت أن أحدها للتكييف ، وآخر للإضاءة ، وثالث لإمالة ظهر المقعد إلى الخلف حتى يستريح الراكب . فكرت فجأة فى سياسة الانفتاح الاقتصادى وتبين لى أنها ليست بالسوء الذى يدعيه بعضهم . شكرتها فى سرى على كل هذه النعم والا فكيف يستطيع المواطن أن يسافر ساعة أو ساعتين دون زر للتكييف وآخر للإضاءة وثالث لتحريك ظهر المقعد!. حزنت جدا على أبى وأمى اللذين ماتا قبل أن يلحقا بركب التقدم والمدنية .

(٦)

قاطعه الراكب فجأة : وماذا كنت تفعل بكل هذه الفلوس ؟ . أجاب السائق



بريشة الفنانة : سميحة حسنين

أنه كان يذهب إلى اسرائيل فى عطلة الاسبوع لكى يشرب وينبسط . تململ لسانى فى حلقى ... ، وقبل أن أمنعه سمعته يقول : يعنى كانوا بياخدوا منك بالشمال ما يعطونه لك باليمين !

(٧)

لمت نفسى كثيرا على تدخلى .

(٨)

هرش السائق رأسه متفكرا تأملنى فى غباء ، ثم هز كتفيه وقال إنه لم ينظر للأمر بهذه الصورة .

(٩)

أوقف السائق الاتوبيس السياحى الفاخر . أعلن المشرف أننا وصلنا إلى مدينة رفح المصرية . قال أننا المفروض أن نتوقف ساعة واحدة فقط حسب البرنامج ولكنه يسمح بساعتين «لأن البضايع هنا جميلة ورخيصة ولافيش زحمة ولا طوابير جمعية » .

(١٠)

أعربت المرأة البيضاء الضخمة ذات الشعر المصبوغ التى كانت تجلس خلف السائق عن سعادتها البالغة لوجود المكسرات بوفرة فى هذه المدينة ، وأنها أتت خصيصا لأن رمضان على الأبواب وهى لاتستطيع أن تأكل الكنافة بدون مكسرات و«الله يجازيك ياللى فى بالى ، حرمتنا من المكسرات رمضان اللى فات . هىء هىء هىء » .

(١١)

نزلنا جميعا من السيارة فى همة ونشاط وقد شمر الجميع عن سواعدهم استعدادا لمعركة الشراء من الأسواق .

(١٢)

تجولت فى المحلات اقلب فى البضائع . أعجبتنى حقيبة يد مصنوعة من البلاستيك تصلح لجميع الاغراض . فتحت حقيبتى وأعطيت البائع النقود .

(١٣)

تفحصت الحقيبة فى إعجاب . وقع بصرى على كتابة بالخط الصغير جدا . تبين أنها كتابة باللغة العبرية . خطفت النقود التى كانت لاتزال فى يد البائع وأعدت إليه الحقيبة فى غضب لم يفهمه .

(١٤)

ذهبت إلى محل آخر، وآخر ، وآخر . وجدت أن كل البضائع عليها كتابة بالخط الصغير جدا . تمشيت إلى نهاية السوق حيث توجد منطقة الحدود . نظرت إلى العلم المصرى ثم إلى العلم ذى النجمة السداسية المعلق على الجانب الآخر . سمعت الصبى الصغير يسأل العسكرى المصرى وهو يشير على الناحية الأخرى : هى دى باه

اسرائيل ؟ . أجاب العسكرى النحيل الأسمر وكأنه يسلم الامانة لمن سيحملها بعده : دى فلسطين المحتلة .

(١٥)

هاهو ذا واحد يعرف أصل الأشياء .

(١٦)

عدت بمفردى إلى الأتوبيس الخالى من الركاب .

(١٧)

بعد ساعة بدأ الركاب يتوافدون إلى الاتوبيس وكلهم محملون بكثير من اللفائف .

(١٨)

حملق فىّ الجميع بدهشة . سألتنى إحداهن : اشتريت شاى؟ قلت فى أدب : لا . قالت: مش معقول ! ده الشاى يجنن ورخص التراب . سألتنى أخرى : اشتريتى كاكاو ؟ قلت : لا. قالت : ده كاكاو أصلى ، مش مخلوط زى بتاعنا . سألت أخرى : اشتريتى صابون ؟ لا . اشتريتى جوز الهند ؟ لا . قالت المرأة الضخمة : يبقى اشتريتى مكسرات . قلت بقلة أدب : لا . قالت فى استنكار وهى ترفع حاجبيها إلى أعلى : أمال حتاكلى الكنافة بإيه ؟

(١٩)

نفد صبرى . انفقعت مرارتى . وقفت فى وسط الاتوبيس وصحت بأعلى صوتى : لا خرجت اللا من قلبى .. من عقلى .. من غضبى .. من هزيمتى .. من مهانتى أعلنت أننى ساكل كنافة محشوة بالسودانى .. ساكل كنافة بدون حشو .. لن آكل كنافة مطلقا ، ولكننى لن آكل كنافة محشوة بدماء أطفال ذُبحت ، معجونة ومخلوطة ببطون نساء بُقرت ، ومطهية على رائحة جلود شباب احترقت بالنابالم .

(٢٠)

ساد الصمت . خيم الوجوم على الجميع . أعلن المشرف - الذى كان الشر يتطاير من عينيه قطع برنامج الرحلة والعودة فورا إلى القاهرة «لأننا جايين ننبسط مش جايين نتنكد» .

(٢١)

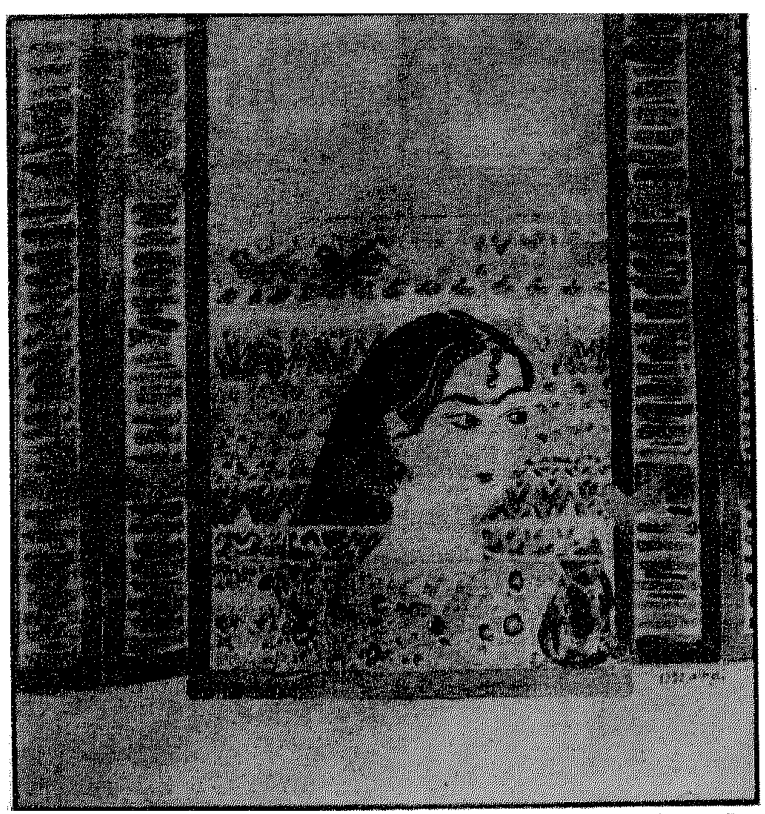
انحنت علىّ صديقتى وقالت بغيظ أن دى آخر مرة تاخدنى معاها فى أى حتة لأنى «دايما كاسفها ومجرساها ومخلية رقبتها قد السمسمة » قالت إنها بصراحة لا ترى أى علاقة بين الكنافة وبين كل الكلام الفارغ اللى أنا قلته ثم اشاحت بوجهها غاضبة .

(٢٢)

فتحت كتابى وقرأت

«سأحمل روحى على راحتى
وألقى بها فى مهاوى الردى
فأما حياة تسر الصديق
وأما ممات يغيظ العدى»

معرض الفنانة نجاح طاهر



مقدر ومكتوب

أغنيــة للمــاضى الذى كــان !

بقلم : عز الدين نجيب

فن الرسم بالألوان المائية عالم خاص للغاية، هو السهل الممتنع، هو أداة الطفل اللاهى فى جدية الكبار ، وأداة الفنان المحنك فى لهو الأطفال ، ومن ثم نجد أنه لا يدرس فى أكاديميات الفنون، ولا يقبل على التعامل معه من الفنانين إلا ندرة

فتاة مخيم « صبرا »

معرض الفنانة نجاح طاهر

بالرغم من أن أى مصور - أو حتى نحات - لا تكاد تخلو أوراقه الخاصة وتجاربه المعملية من رسوم بالألوان المائية، لكنه لا يعرضها على الناس فى الغالب، لأنها انطباعاته العفوية أو مكابداته البحثية وراء الشكل الهلامى واللون المراوغ، إنه فن ينطوى على سحر غريب، فيه شىء غامض يسلب لب الفنان، فهو قد يعرف النقطة التى يبدأ منها لوحته على سطح الورق الجاف أو المبلل، لكنه لا يعرف إلى أين تقوده هذه النقطة ومتى يتوقف .. إن اللون يسرى على السطح مسرى الحلم غير المنطقى، أو مسرى المياه الجوفية اللامرئية، وينشع متشعبا فى تعرجات لها قانونها الذاتى، ويومض بتجليات ذات إبهار لونى وضوئى يصعب التكهن به، لأنها وليدة تداخلات وامتزاجات الصدفة والشفافية اللدنية .. وهكذا حتى يكتشف الفنان فجأة أنه وصل إلى لحظة الاقتناص، أو اقتناص اللحظة، وسعيد هو الفنان الذى يتمكن من السيطرة على هذه السيولة السرابية وتوجيهها إلى غاية نصف محسوبة، بحيث لا تفقد تلقائيتها وطزاجتها، مما يجعل هذا الفن جديرا باسم « فن الصدفة الموجهة » ويجعل من يمتلك من الفنانين ناصيته ويكتشف أسراره، يتخصص فيه ويهبه حياته .

من هؤلاء الفنانين، رسامة عربية من لبنان الشقيق، أقامت معرضها بأتيليه القاهرة فى الشهر الماضى، هى نجاح طاهر، ونجاح ليست وجها جديدا على الحركة الفنية فى مصر، فلا يكاد عام يمر دون أن تأتى لزيارة القاهرة والتعرف على ابداعات الفنانين فيها، إضافة إلى اهتماماتها بالحركة الثقافية عامة، بحكم اشتغالها فى بيروت فى مجال تصميم أغلفة الكتب، مما أتاح لها التعرف على نخبة من الكتاب والمثقفين المصريين قبل أن تراهم . ومنذ عامين حملت لوحاتها إلى مصر وعرضتها بأتيليه القاهرة، فتركت صدى عميقا كان له دور هام فى الإقبال على معرضها الأخير .

وكعادتها، قدمت نجاح معرضها الجديد تحت عنوان شعرى هو « كان المكان » وقدمته فى الدليل المطبوع بكلمة أقرب إلى الشعر تقول : « نذهب إليه، لنكتشف أنه ينتظرنا، وننتظره فنرى أنه سبق أن جاء، نشهد له، نتعرف إليه، فنعرف أنه كان ! ... »

إن المكان فى لوحاتها - سواء فى معرضها الجديد أو السابق - يمثل دور البطولة غالبا، وهو مكان داخلى، منزلى :

حجرة ، قاعة عتيقة ذات أعمدة وعقود ، نافذة ذات طراز قديم مغطاة بستائر أو بحديد مزخرف ، والأشخاص فيه يقفون ثابتين بغير حراك وقد تجمدت فى عيونهم النظرات ، أو تجمدت فوق شفاههم البسمات ودون أن تحمل معنى ، وقد تباغتنا بمشاهد لا تخلو من طرافة مستمدة من صور الزفاف التذكارية القديمة فى أوضاع للعروسين مواجهة للكاميرا ، والعريس يختال بطربوشه المائل وشواربه المفتولة ، وربما كان هذا هو الرجل الوحيد الذى عثرت عليه فى لوحات المعرض كله ، فيما نجد المرأة أو الفتاة أو الطفلة يتخذن أوضاعا ثابتة فى أكثر من لوحة ، فنرى إحداهن تقف متمايلة متباهية بفستانها المزركش مثل عارضة أزياء ، وخلفها مبنى عتيق تبدو عليه آثار حريق ، مما يحدث مفارقة غريبة ، ونرى أخرى شاخصة بنظراتها فى ذهول ، وثالثة مستسلمة فى حزن تحت جذع نخلة ، ورابعة أمام نافذة أو جدار كمن تبكى الأطلال أو تطل على عالم غير مرئى ، لكنها فى لوحات أخرى تبدو وكأنها جزء من زخرفة المكان أكثر مما تمثل حضوراً إنسانيا .

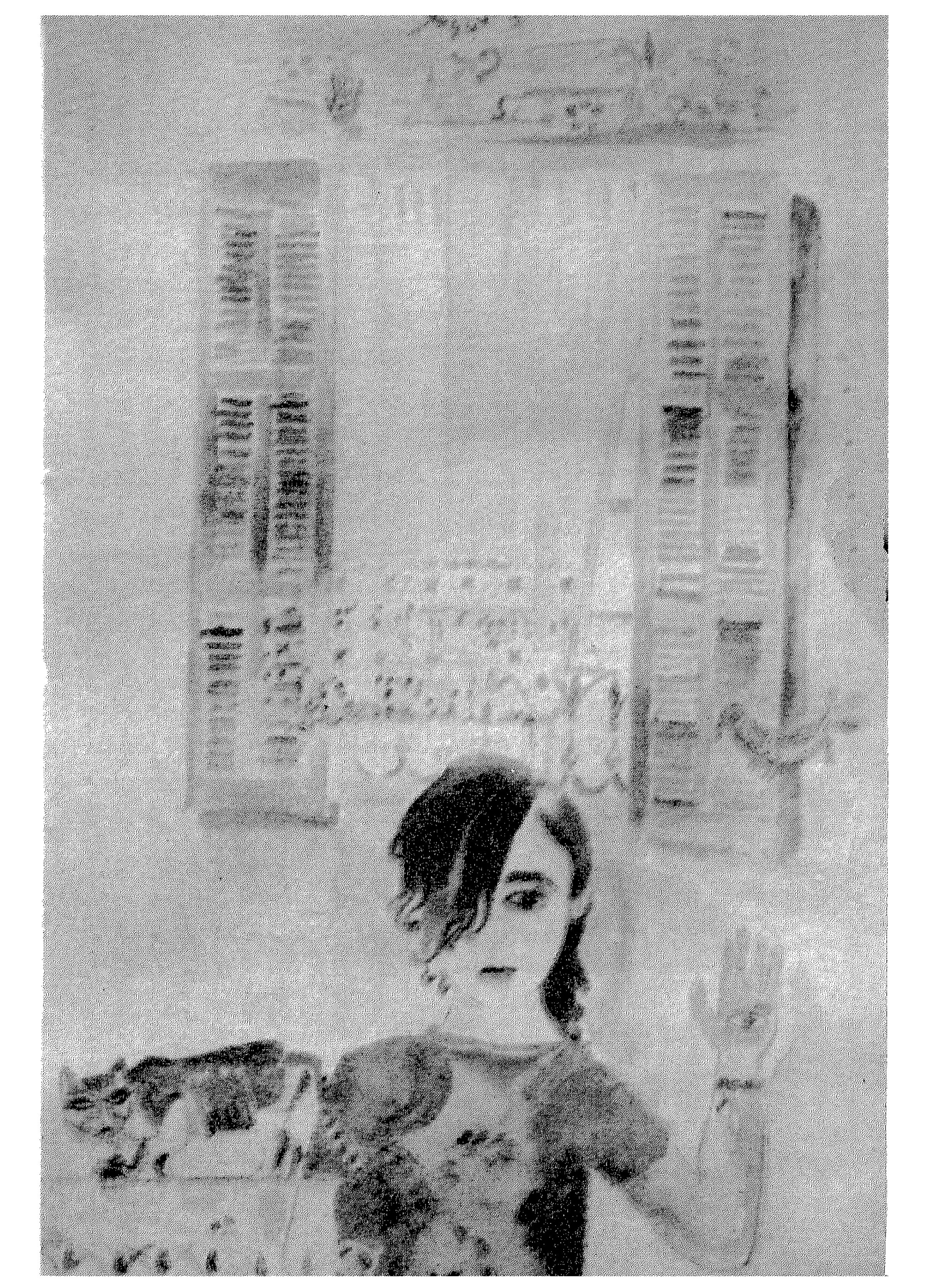
إن الفنانة لا تفصح عن طبيعة الأماكن التى تصورها ، ولا عن معان معينة أو مشاعر واضحة ، إننا إزاء حالة من الحياد واللا مبالاة الظاهرية للأشخاص أمام كل



الفنانة نجاح طاهر

ما يحدث ، وهى لا تحاول أن توحى لنا بأنها تبعد عن بيروت أو لبنان أو عن بلد معين ، لكن شيئا ما وسط هذا كله يشرعنا بأنها ترسم وفى مخيلتها أو عقلها الباطن كل ما حدث فى لبنان من حروب ودمار خلال السنوات الماضية ، إلا أنها ترفض وتهرب منه كما تهرب من كابوس ، وتعود إلى الزمن الماضى (الجميل) قبل هذا الكابوس ... هل استجابة لقانون الحياة التى لن تتوقف مهما حلت الكوارث ؟ .. هل سخرية من سلبية البشر أمام ما حدث وارتدادهم إلى ماضيهم وانغماسهم فى عوالمهم الذاتية ؟ .. أم أنها تعنى بيروت ذات الشخصية المزدوجة - من الحياة والموت - فى وئام أو قدرية ؟ ! .

لكن فى أسلوبها للتعبير عن هذا العالم (الموجود / اللاموجود) أو (الحقيقى / الوهمى) شيئا يعارض ويعاند طبيعة خامة





معرض الفنانة نجاح طاهر

الألوان المائية التى تستخدمها .. إنها لا تترك شيئا للعفوية والصدفة كما هو معتاد فى تقنية هذه الخامة ، بل تتحكم فى خطوطها وألوانها بدقة حسابية لافتة ، وتقتفى أثر التفاصيل الدقيقة فى صبر ، وتنسجها على مهل ، خطا بجوار خط ولمسة لصق لمسة ، وتتوالد الخطوط والأشكال من بعضها البعض وتتوالى إلى ما لا نهاية مثل « وَنْوَدة » هامسة بين عاشقين ، حتى يتكون فى النهاية بناء تماسك متكامل يثبّت الزمن عند لحظة مفاجئة ، فيبدو المكان وما بداخله من أشخاص وأثاث مثل لقطة فوتوغرافية قديمة ولما كانت ترسم بدرجة عالية من النعومة والرهافة ، وتلون بدرجات باهتة شفافة حتى التلاشى ، فإننا لا نشعر بالزحام أو الضوضاء ، بل بالهدوء حتى الغموض ، ويتولد لدينا دائما الحس بالتوقع أمام لوحاتها ، كأن شيئا ما على وشك الحدوث ، أو الانبثاق من وسط عالمها الغريب ، أو كأننا نستعيد فجأة ذكرى غامضة من الزمن السحيق .

وفى لوحات نجاح طاهر المغلّفة بحزن أنثوى رقيق ، بذرة فرح إنسانى محبط ، وإقبال على الحياة يجهض الظروف ، نستطيع أن نلمس ذلك فى المفارقة الواضحة بين ولعها الشديد باستخدام الوحدات الزخرفية (هندسية ونباتية) ، وفى إسرافها فى رسم الورود ، وتجنبها ترك فراغات بيضاء على سطح اللوحة ، بما يوحى بتأثير لحن موسيقى منتظم على تخت عربى ، وبين حرصها على إسدال غلالة باهتة على جميع الألوان تكاد تكتم بداخلها بهجة الحياة .

وثمة وشائج قوية بين هذه الرسوم والرسوم الجدارية الكالحة الألوان فى الفنون الشعبية ليس فقط فى الألوان التى خضعت لعوامل التعرية والزمن ، بل كذلك فى الحس الفطرى الساذج والروح الطفولية ، وقد أفسحت للطفولة مكانا مهما فى هذا المعرض ، لكن طفلتها الواقفة دوما فى دهشة وبلا حراك أمام نافذة مغلقة أو سور حديدى تبدو أكبر من سنها وكأنما سرقت منها طفولتها .

وإذا كانت مسحة الحزن قد طغت على لوحات نجاح طاهر ، فإن اللحن الغنائى الطروب مازال يسرى فى أوصالها ، ويمتعنا بإيقاعه الشرقى ، ملامسا آثار الحزن الكائن فى وجداننا منذ آلاف السنين ، متغنيا بالماضى الذى كان !

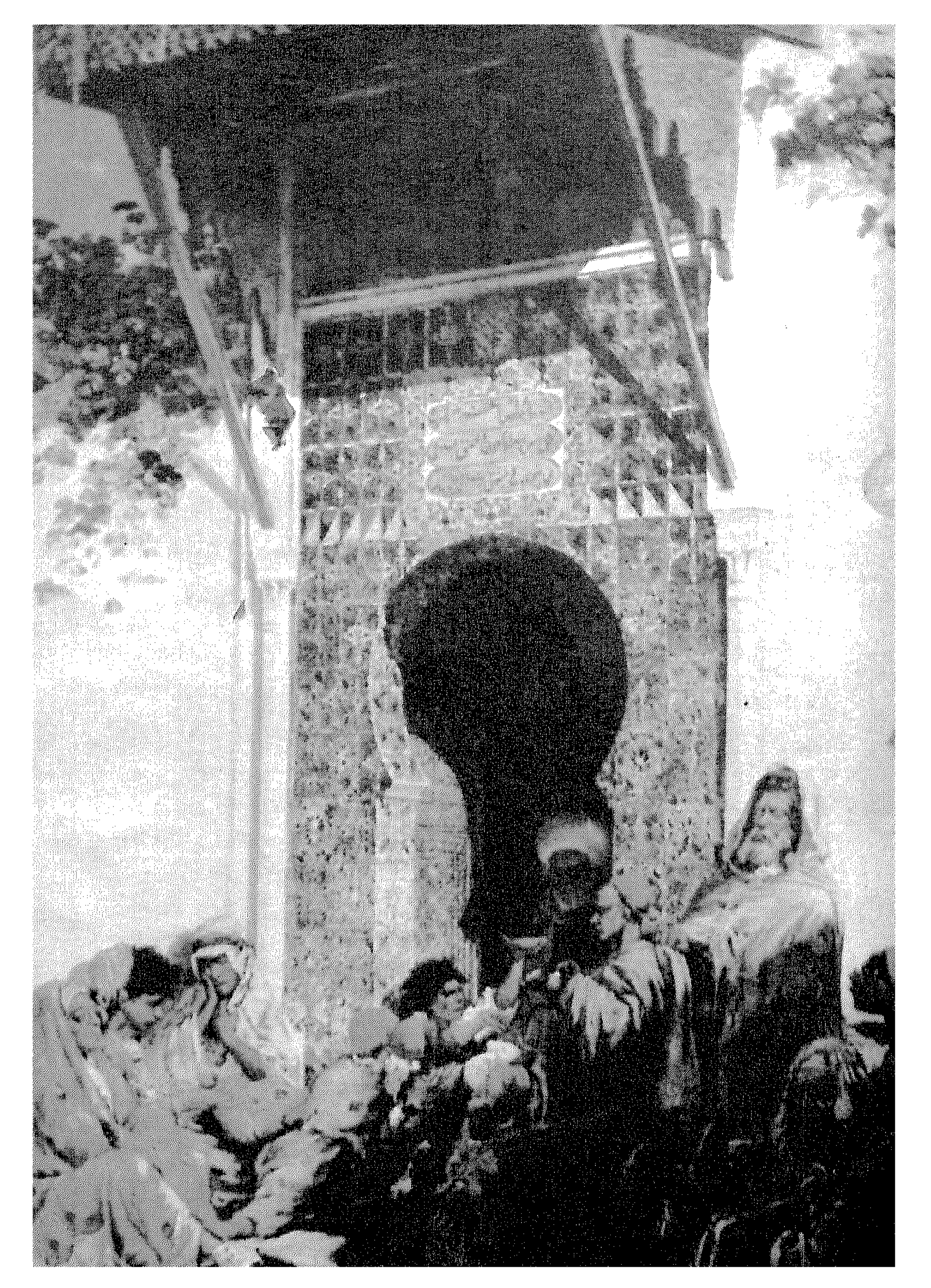


صورة ذاتية

الشرق

سليم الرافعي . لبنان

بقيت منه لحى .. ياللْعَجَبْ . ونقابٌ وسواكٌ مُسْتحبْ
وأحافظُ الشَزْرِ من جمجمةٍ . أكل الدهر عليها وشربْ
أنكر المشرقُ فجراً ساطعاً . ويكى ليلاً ونجماً قد غَرَبْ
فلمنْ شمسُ الضحى فى زرقٍ . ما جت الفضة فيه والذهبْ ؟
عانق الكونُ صباياه .. وقد . شعشع العُرْسُ بأكواب اللهبْ
وتغنى كل حقل عاشقٍ . بقواريرَ احتساها من طرب
إنْ يكنْ ليلٌ مضى .. ماذا جنى . واهبُ النور لنا .. ماذا ارتكبْ ؟
قالت الأوتار : ما نام الهوى . قالت الأكؤس : ما غاض الحَبَبْ ؟
هذه الآفاقُ فى موكبها . تتهادى فى حريرٍ أو قَصَبْ
عالم الأمس بدا اليوم كما . كان .. ما احتال علينا أو كذبْ
إنه الإنسانُ فى قدرته . مزّق الكونَ المعمّى .. واقتربْ
لم يغبْ عنه سوى مفترسٍ . غابَ عنه النابُ والظُفْر احتجبْ
هذه الأجسادُ فى معتركٍ . كتب العقلُ لها حقّ الغَلَبْ
لا تلوموا العقل فى حدّته . لا تلوموا النار تقتاتُ الحطبْ
كم وطاويط اختفتْ فى غابةٍ . لقيتْ بالجهل سوء المنقلبْ
فبكاها الليلُ فى أوكاره . ورثاها من رثاها وانتحبْ
مَنْ يكن نسراً يطرْ مُسْتكشفاً . بالسماوات ففيها مضطرب
غاب عنا عبقرىٌّ واحدٌ . ينقذ الأمة من داء الخُطَبْ
نحن لا نغلب فى الفجر إذا . طلعتْ شمسُ نهارٍ بالعَجَبْ
نحن للعلم وللفتح على . صَهْوة التاريخ .. إنْ صحّ النَسَبْ





د . محسن خضر *

« الحرية شرط لازم لكل تعليم حقيقى »

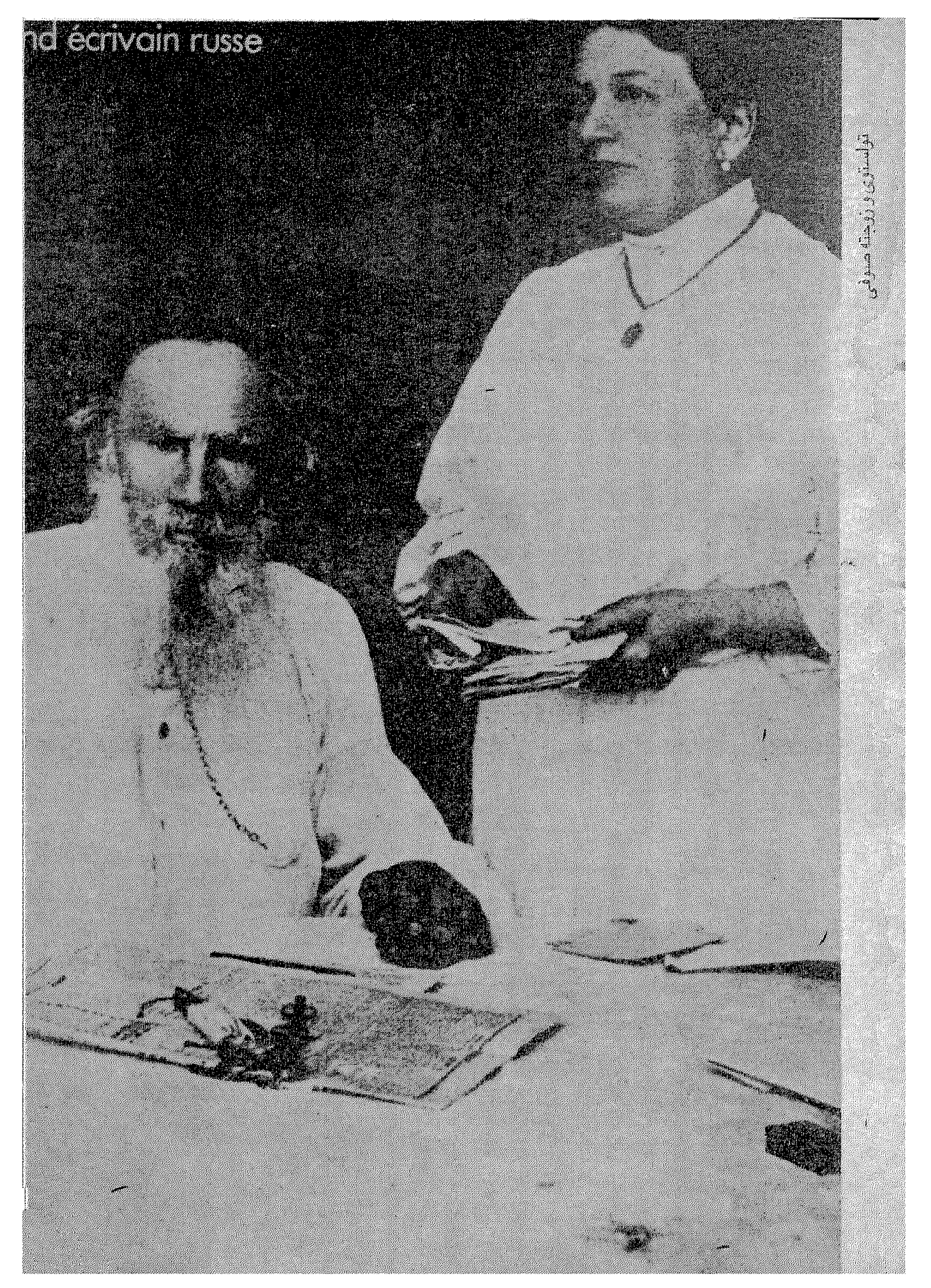
لم يكن تولستوى آخرهم ، فأغلب مفكرى وأدباء البشرية مارسوا التدريس وانخرطوا فى مهنة التعليم بشكل أو آخر .

ألا نتذكر سقراط وأفلاطون وأرسطو والسوفسطائيين ؟

ألم يمتهن التعليم على مبارك ومحمد عبده والطهطاوى ولطفى السيد وفريد أبو حديد وطه حسين ومحمد فريد وزكى مبارك والمنفلوطى ولويس عوض وسلامة موسى والسياب والبياتى ، بشكل أو آخر ، فى فترة أو أخرى ؟

وأليست الرسالة الفكرية تستدعى اذابة الحدود بينها وبين المتلقين ، والتعليم هو الصيغة الأمثل للتواصل بين المرسل والمستقبل ، بين المبدع والمتلقى ، بين الايمان بالتغيير وتحقيق هذا التغيير على أرض الواقع ؟ فى هذه الحالة تتماهى الكلمة والمهنة ، وموقف الكاتب وموقف المحاور والمناقش .. وبالنسبة للروائى الروسى الكبير نيقولا يفنيتشى تولستوى (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) فقد طغت جوانبه الأدبية والاجتماعية على الجانب التربوى فيه . ولعل الكثيرين لا يعرفون الوجه الآخر لتولستوى الروائى والقاص الفذ ، وهو وجه المفكر التربوى المهموم بقضايا التربية ، والمربى والمعلم فى نفس الوقت .

* كلية التربية جامعة عين شمس



تولستوي وزوجته صوفي

ولعل تولستوى من المفكرين والأدباء القلائل الذى أسس مدرسة ليجسد فيها أفكاره ويجعلها مختبرا لتلك الأفكار أيضا . أسس تولستوى مدرسة قروية نائية وجرب مع أبناء الفلاحين فى ياسنايا بوليانا طرقا جديدة فى التدريس ، وحملت المدرسة إسم تلك القرية المجهولة .

ومن المدهش ان الأفكار التى طرحها تولستوى قبل قرن ونصف من الزمان تتفق إلى حد كبير مع الاتجاهات التربوية المعاصرة مما يشير إلى عمق فكره وسعة تحليله ونتائجه .

كان السؤال الأساسى الذى يشغل تولستوى هو : ما المعيار الذى نحدد به ما الذى يدرس وكيف ينبغى أن يدرس ؟

ومن المهم الإشارة إلى ان تولستوى كان يضع أعماله وكتاباته التربية قبل أدبه الروائى . وقد انفق تولستوى سنوات طويلة من حياته فى دراسة وممارسة التربية والتعليم .

ولعلنا نلاحظ التكامل الخلاق بين ابداعه التربوى والأدبى ، وجمع الجانبين تمحيص واستيعاب فى شخصية الفرد ونفسيته . وتكشف قصة مبكرة لتولستوى وهى قصة « صباح ملاك عقارى » عن اهتمامه المبكر بالتربية . تدور القصة حول طالب جامعى قرر أن يقطع دراسته الجامعية ويتجه إلى توعية أبناء الفلاحين وتنشئتهم خلقيا هى القضية الأولى عند كل فرد متعلم ، ولذا قرر الطالب تكريس حياته لمساعدة فقراء الشعب عن طريق التعليم ، واكسابهم شخصيات أكثر خلقاً وسمواً وكمالاً .

ألم يجسد تولستوى قصة بطله فى حياته الشخصية فيما بعد ، ، عندما أقدم فى عمر التسعة عشرة على تنظيم مدرسة فى قريته ياسنايا بوليانا ، وهى المحاولة التى أنهاها التحاقه بالخدمة العسكرية فى القفقاس ثم سيباستوبول ، وهى التجربة التى سجلها فى مجموعته القصصية « قصص سيباستوبول » لتكون ايذانا بميلاده الأدبى ، ليعود بعد استقالته من العسكرية ويستأنف العمل فى مدرسة قريته ياسنايا بوليانا .

واستفاد تولستوى من رحلته الطويلة إلى المانيا وفرنسا وسويسرا وايطاليا فى دراسة المؤسسات التربوية فيها إلى جانب دراسته لأدبها وفنونها .

التعليم لكل الشعب

كانت فكرة توفير التعليم العام لكل أفراد الشعب تشكل ركيزة الفكر التربوى عند تولستوى . كانت روسيا تشهد تباينا اجتماعيا واسعا انعكس على الاوضاع الاجتماعية فى عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى وهى الفكرة التى تكونت فيها آراؤه التربوية .

لم تتجاوز نسبة التعليم ٦٪ من مجموع السكان ، ولم يكن المحظوظون من أبناء الفقراء يلتحقون الا بالمدارس الفقيرة المستوى . اعتبر تولستوى ان التعليم حاجة أساسية لكل الشعب الروسى (قارن هذه النظرة بنظرة غاندى فى الهند ونظرة طه حسين فى مصر) ودافع عن حق التعليم للشعب كافة ، وتعززت قناعته بأن نشر التعليم من شأنه ترقية مستوى المواطنين ومجابهة الأدران الاجتماعية التى خلقها الفقر والجهل والمرض .

وصف لينين الدور الذى لعبه تولستوى فى الثورة الروسية بأنه « مرآة الثورة الروسية » .

انتقد تولستوى تناقضات المجتمع الاقطاعى وان كان لم يتوصل إلى نظرية علمية لتغيير المجتمع .

يصف تولستوى أهمية تعليم الشـعب ، باعتبـاره أداة التحرر والتقدم ، فيقول « عندما أدخل المدرسة وأرى هذه الجمهرة من الأطفال النحفاء القذرين ذوى العيون الصافية والسحنات الملائكية يعترينى قلق ورعب أشبه بما يعترى المرء حين يرى بشرا يغرقون . والذى يغرق فى هذه الحالة هو أعلى ما فى الوجود ، وبالتحديد هو تلك القيمة الروحية التى تتجلى بأسطع وجه فى الأطفال . إننى أنشد تعليم الشعب لا لشئ إلا لانقاذ من يشرف على الغرق من انجال بوشكين وأوستر جراد سكر وفيلاريب ولومونوسف ، وهم كثرة فى كل مدرسة ، وتجرى الأمور بشكل طيب .

أشعر بأننى أؤدى عملا مجديا ، وأتقدم فيه أسرع كثيرا مما كنت أتوقع » .

مدرسة ياسنايا بوليانا

يمكننا تقسيم نشاط تولستوى التربوى إلى ثلاث مراحل : الأولى من ١٨٥٩ - ١٨٦٢ ، والثانية من ١٨٧٠ - ١٨٧٦ ، والثالثة من ١٨٨٠ - ١٩١٠ .

افتتح تولستوى مدرسته فى خريف ١٨٥٩ لتعليم أبناء الفلاحين .. إلتحق فى اليوم الأول ٢٢ تلميذا ازدادوا إلى ٧٠ تلميذا بعد ثلاثة أشهر ، قسم تولستوى تلاميذه إلى ثلاث مجموعات عمرية : الأولى صغرى ، الثانية وسطى ، والثالثة كبرى ، يعطى كل معلم خمسة دروس (حصص) فى اليوم ، ويبدأ اليوم الدراسى من التاسعة صباحا حتى العصر يتخلله ثلاث ساعات للغذاء واللهو .

لقد استخدم تولستوى طريقة للتدريس لعله استقاها من حكماء الأغريق والشرق الآسيوى وهى طريقة الحوار والمناقشة الحرة بين المعلم والتلاميذ . اما طبيعة الدروس فدارت حول قواعد النحو ودروس التاريخ والجغرافيا والطبيعة ، وتعلموا القراءة والكتابة والانشاد ومارسوا الرسم .

اما تولستوى فكان يقوم بتدريس مواد الحساب والطبيعة والتاريخ . كان شكل الدراسة جديدا على التعليم الروسى ، فكان التلاميذ يجلسون فى أى مكان . لا عقاب أو زجر . لا واجبات منزلية وهو ما يعكس الفلسفة التربوية التى آمن بها تولستوى أى إحترام شخصية الطفل وتنمية قدراته الإبداعية واطلاق مناخ الحرية .

يقول تولستوى حول أسلوبه التربوى : « ان التلاميذ بشر وان كانوا صغاراً ، شأنهم شأننا ، لهم نفس الاحتياجات ونفس طرق التفكير» .

« قارن هذه النظرة بفلسفة التربوى الأمريكى الكبير جون ديوى التربوية » .

كان العمل فى تلك المدرسة قائما على تحقيق الإبداع التربوى واطلاق ملكات وقدرات واستعدادات التلاميذ الفردية لهم .

ومن ثم أصبحت مدرسة ياسنايا بوليانا مقصد زيارات التربويين الروس والأجانب ، وحاول تولستوى تطوير تجربته التربوية الأجنبية خلال رحلته الثانوية الطويلة سنة ١٨٦٠ والتى زار فيها المانيا وفرنسا وايطاليا وبلجيكا وإنجلترا محاولا الاستفادة من الاتجاهات والنظم التربوية الحديثة .

« نلاحظ ان تعليمنا المصرى شهد مرحلة التجريب تلك على يد إسماعيل القبانى وعبد العزيز القوصى فى مرحلة مبكرة من القرن العشرين والتى شهدت محاولات للمزج بين التعليم والعمل مثل مشروع المدرسة العاملة (١٩٢٥) أو مرحلة التجريب والقياس المستفيدة من انجازات علم النفس ، كما شهد تطبيق تجريب طرق



ولستوي . حوار المشيب والطفولة

التدريس المطورة مثل المشروعات والوحدات والنشاط » وترتب على نجاح تجربة مدرسة تولستوى افتتاح حوالى عشرين مدرسة شعبية أخرى فى محافظة تولا وبجهود تولستوى نفسه .

مجلة ياسنايا بوليانا .. والأبجدية

طور تولستوى تجربته التربوية باصدار مجلة « ياسنايا بوليانا » التربوية عام ١٨٦٢ لتعبر عن الفكر التربوى والاتجاه التربوى الجديد الذى استقاه من تجربته ، أى تأصيل ممارساته التربوية من خلال الواقع .

اثارت المجلة ردود فعل قوية بسبب انتقاده للمسألة الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم الشعبى وخاصة ان تولستوى دعا أنصار كل الاتجاهات التربوية المختلفة للكتابة فيها وبلا قيود .

استشعرت السلطة العنصرية خطورة أفكار تولستوى على مصالح النظام ، فحرضت الشرطة على اقتحام المدرسة فى صيف عام ١٨٦٢ لتفتيشها وهو ما اثار تولستوى فكتب إلى القيصر معترضا . تصدى وزير الداخلية للخطورة التى تمثلها حركة تولستوى التربوية واتهمها بالحط من اصول الدين والأخلاق ، واتهم المجلة بأنها تشوه قضية التعليم الشعبى واتهمها بالتحريض .

وكانت الخطوة التالية اغلاق المجلة فى ديسمبر من العام نفسه . استمر تولستوى فى نضاله من أجل تعليم أفضل للفلاحين ، فألف كتابا للمطالعة فى المدرسة الشعبية ، كما ألف كتابا مدرسيا مطورا وسماه « الأبجدية » حيث وصفه بأنه « بذلت فيه روحى بأكملها » . وأصبحت أبجدية الكونت تولستوى (صدرت عام ١٨٧٢) حدثا تربويا كبيرا فى المدرسة الروسية .

وتضم الأبجدية نصوصا للمدرسة الإبتدائية ، ونصوصا سلافيانية ، ومواد لتعليم الحساب ، وارشادات للمعلم إلى جانب الأبجدية ذاتها وتشبه الأبجدية الموسوعة العلمية المبسطة للصغار حيث تبسط لهم أهم الظواهر العلمية والبيولوجية المختلفة .

وفى أواخر العام ١٨٧٤ شرع تولستوى فى انجاز الأبجدية الجديدة التى صدرت فى العام التالى واثارت اهتماما وطنيا واسعا لقد طور « أبجديته » الأولى

واستفاد من الملاحظات والانتقادات التى وجهت لها ، وأقرت « الأبجدية الجديدة » من قبل وزارة التربية الروسية لاعتمادها فى جميع مدارس الدولة .

وطبع من « الابجدية الجديدة » فى حياته حوالى ثلاثين طبعة . واعتبرت نموذجا للبساطة المثلى والحقيقة الحياتية ووصفت بـ « قمة الكمال سواء من الناحية السيكولوجية أو الفنية » . استهدف تولستوى من أبجديته الجديدة أن تكون وسيلة فعالة يتطور من خلالها الاهتمام بالمعرفة لدى الطفل ، وبالتالى تساعد الأطفال على ارساء مبدأ « التعليم الذاتى » بعد التخرج من المدرسة (وهو المبدأ الذى تقوم عليه فكرة التربية المستمرة فى العقدين الأخيرين فى الفكر التربوى المعاصر) .

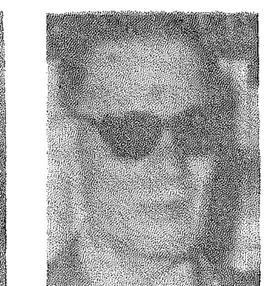
كما حاول تولستوى تأسيس مدرسة لإعداد المعلمين فى باسنايا بوليانا لتكمل مشروعه التربوى الكبير ، ولإعداد معلمين من بين الفلاحين باعتبارهم الأقرب تفهماً لأطفال الفلاحين وبالتالى ضمان نجاح التفاعل بينهم .

وكان تصوره أن تكون مدة إعداد المعلم سنتين ، ويرافق افتتاح مدرسة إعداد المعلمين مدرسة أخرى لتطبيقات المعلمين وتستغرق ستة أشهر ، الا أن السلطات المحلية حاربتها خوفا من تأثير أفكار تولستوى .

ومن الطريف ان انهماك تولستوى فى التدريس فى مدرسته وإدارة شئونها أدى إلى ان تشكوه زوجته صوفيا فى رسائلها إلى أهلها واتهمته باهمالها ، ومن كُتب تولستوى الأخرى التى ألفها « محاورات مع الأطفال » و« أفكار تربوية » وقد وصف البروفسور الجامعى رانشينسكى جهود تولستوى التربوية بقوله « ان كُتب الكونت تولستوى المخصصة للأطفال يجب أن يلم بها كل فرد روسى متعلم ، فهذه الكُتب لا نظير لها فى أى أدب أوروبى » .

وقد حذا رانشينسكى حذو تولستوى ، فهجر التدريس بالجامعة واتجه إلى الريف لينشئ مدرسة ريفية لتعليم أطفال الفلاحين . كان الروائى الروسى الأعظم تولستوى نموذجا « للمثقف العضوى » بتعبير انطونيو جرامشى ، والذى توحد عنده الفكر والممارسة ، والتنظير وتغيير الواقع ، ورصد الإنسان الابداعى فى كتاباته ومحاولة تحسين وضع هذا الإنسان فى الواقع .

طه حسين







أحمد عبد المعطى حجازى

النحو والشعراء

بقلم : د . محمود الطناحى

● عرضتُ فى عدد الهلال الماضى لكلمة الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى المنشورة بجريدة الأهرام ١٩٩٢/٨/٢٦م ، والتى قدّم فيها كتاب الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف « صوت الشاعر القديم » .

وقد وقفت عند قول الأستاذ حجازى إنه مدين لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين « بهذا المنهج الذى أخرج به الشعر الجاهلىّ من سلطان النحاة والشرّاح وسدنة الكتب الصفراء » .

ثم ناقشته فى «سدنة الكتب الصفراء» ولم يبق لى من كلامه إلاّ قوله . إن الدكتور طه حسين « قد أخرج بمنهجه الشعر الجاهلى من سلطان النحاة » .

وعوداً على بدء : فهذا أيضاً من الكلام الذى يُرسَل إرسالا ، وكأنه من الحقائق المؤكدة التى استقرت عند الناس ، ولم يبق لأحد فيها مقال .

فأىّ « سلطان » ياسيدى الشاعر ، وأى « نحاة » ؟ لابد من تحديد هذا السلطان (الجائر) وبيان مداه الذى ينتهى إليه ، وغايته التى يقف عندها . ولابد أيضاً من تعيين هؤلاء « النحاة » بأسمائهم وأزمانهم ، فإن هناك كثرة من النحاة الأوائل قد وقفوا مع الإبداع الشعرى - كما يقال - ووجهوا تراكيب الشاعر التى خرجت فى الظاهر عن سنن كلام العرب ، فالتمسوا لها وجها ، وطلبوا لها تأويلاً من لغات العرب التى تسمى الآن « لهجات » . والقضية أقدم من عميد الأدب العربى بأكثر من ألف عام . وإليك يُساق

الحديث : قال أبو محمد بن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ : إن أبا حاتم السجستانى قال : ليس الفرزدق أهلا لأن يستشهد بشعره على كتاب الله ، لما فيه من التعجرف . وقال ابن الخشاب أيضا : لم يَجْرِ فى سَنَن الفرزدق من تعجرفه فى شعره ، بالتقديم والتأخير المخل بمعانيه ، والتقدير المشكل إلا المتنبى ، ولذلك مال إليه أبو علىّ وابن جنى ، لأنه مما يوافق صناعتهما ، ولا ينفع المتنبى شهادة أبى على له بالشعر ، لأن أبا على معرب لا نقّاد ، وإنما تنفعه شهادة العسكريين (يعنى أبا أحمد صاحب المصون ، وأبا هلال صاحب الصناعتين وديوان المعانى) وأبى القاسم الآمدى ، فإنهم أئمة يقتدى بهم فى نقد الإعراب » .

فى قلب الحركة الشعرية

أرأيت يا سيدى الشاعر ! هذا أبو على الفارسى شيخ النحاة فى القرن الرابع وتلميذه العظيم ابن جنى ، كلاهما مع الإبداع الشعرى ، ولعلى أذكر شيئا من تخريج أبى على لشعر الفرزدق الذى عابه عليه النحاة .

فذكر « النحاة » هكذا بصيغة التعميم غير صحيح . وأيضا فإن وضع القضية على هذا الشكل يجعل النحاة – وبخاصة عند من لا يعرف تاريخ العلم والعلماء – بمعزل عن الشعر ، بل فى موقف المتربص به ، الكاره له ، البعيد عنه . وهذا غير صحيح أيضا ، فإن كثيراً من نحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بعد ، بل كانوا فى قلب الحركة الشعرية ، وفى الصميم منها : فهذا أبو عمرو بن العلاء الإمام النحوى اللغوى ، وأحد القراء السبعة كان راوية لذى الرمة الذى يقال : إن شعره يمثل ثلث لغة العرب . وعناية أبى عمرو بالشعر الجاهلى معروفة ، وقد كان يعول مع السماع والرواية على الكتابة والتقييد . وكان يونس بن حبيب شيخ سيبويه شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج . وكان نِفْطويه يحفظ نقائض جرير والفرزدق وشعر ذى الرّمة .

أما أبو العباس ثعلب – وهو مع الكسائى والفراء ، زعماء مدرسة الكوفة النحوية – فإن له علقة شديدة بالشعر والشعراء : فقد صنع دواوين الأعشى وزهير وابنه كعب وعُروة بن حزام والنابغة الذبيانى والجعدى والطرماح وطفيل الغنوى ، وشرح لاميّة الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم
فإنى إلى قوم سواكم لأميل

كما روى شعر ذى الرمة عن أبى نصر الباهلى صاحب الأصمعى ، وعن هذه الرواية كانت نشرة الدكتور عبد القدوس أبو صالح العظيمة لديوان ذى الرمة بمجمع اللغة العربية بدمشق . وفضلا عن ذلك كله فإن لثعلب فى علم الشعر كتابا شهيرا هو «قواعد الشعر » وهو على وجازته مفيد فى بداية هذا العلم .

أما مسألة « سلطان النحاة على الشعر » ووقوفهم فى وجه الإبداع

الشعرى فهى من المسائل التى يتابع الناس بعضهم بعضا فيها دون أن يعطوها حظها من النظر والتأمل .

تقعيد القواعد

إن النحو علم وصناعة ، وقد قعد النحاة القواعد بناء على الجمهور الأعظم الذى انتهى إليهم من كلام العرب شعرا ونثرا . فهو نظام مستتب ، مبنى على الأكثر والشائع ، ولذلك يقول ابن عصفور : « إن أئمة النحويين كانوا يستدلون على ما يجوز فى الكلام بما يوجد فى النظام » .

والنحوى حريص على هذا للنظام ، متشبث به ، فما خرج عنه رفضه أو ضعفه أو شذّذه . ولا يبالى النحوى أى نص كان هذا الذى خرج عن النظام ، ولذلك يضعف النحوى - بناءً على نظامه - بعض القراءات القرآنية الآتية من طريق التواتر . فقد تكلم النحاة على قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائى : « إنّ هذان لساحران » بتشديد نون « إن » مع رفع « هذان » بعدها ، وحقه النصب . وتكلموا على حذف الفاء فى جواب « أما » من قوله صلى الله عليه وسلم « أما بعد ، ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله » وحقه : «فما بال ...» وتكلموا على حديث : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا ، وصلى وراءه رجال قياما » لمجىء « قياما » حالا ، وقبله نكرة « رجال » ، وحق صاحب الحال فى النظام النحوى أن يكون معرفة . وتكلموا أيضا على قول العرب : « مكره أخاك لابطل » ، وحقه «أخوك » . فالنحوى يعرض كل ما يرد عليه من كلام ونصوص على نظامه ، فما وافقه قبله ، وما خالفه رفضه ، فلئن كانت عداوة بين النحاة والشعراء لهذه العلة ، وجب أن تكون هذه العداوة أيضا بين النحاة وكل من تكلم بكلام خالف فيه النظام واتبع هواه .

علم التوجيه النحوى ودوره

ومع كل هذه الصرامة النحوية ، فقد قام نحاة آخرون بتوجيه هذا الكلام الخارج عن النظام ، ورده إليه من طريق موافقته لبعض لغات العرب - أى لهجاتهم - أو من طريق الحذف والتقدير ، والحذف من خصائص العربية ، وهو سمة من سمات فصاحتها وبلاغتها ، ويجعله ابن جنى من « باب شجاعة العربية » . وعلم التوجيه النحوى هذا علم ضخم جدا ، وبخاصة توجيه القراءات السبع .

ولما كان الشعر كلاما من الكلام فقد عرضوه أيضا على نظامهم ، فقبلوا منه ورفضوا ، لكنهم قد وقفوا منه موقفا آخر غير موقفهم من النصوص النثرية - وهذا يدل على احتفالهم به ، وإجلالهم له - فهم قد نظروا إليه من أول الأمر على أنه كلام ذو طبيعة خاصة ونسق متميز ، وحيث كانت هذه حاله عومل معاملة مباينة لمعاملة منثور الكلام ، فأجازوا فيه مالا يجوز فى النثر .

وكان صنيع إمام النحاة سيبويه فى ذلك دليلا ومرشدا : فقد عقد بابا فى أول الكتاب سماه « باب ما يحتمل الشعر » قال فى أوله : « اعلم أنه يجوز فى الشعر مالا يجـــوز فى غيره » . ويقول ابن عصفور : « اعلم أن الشعر لما كان كلاما موزونا يخرجه الزيادة فيه والنقص منه عن صحة الوزن ، ويحيله عن طريق الشعر ، أجازت العرب فيه مالا يجوز فى الكلام ، اضطروا إلى ذلك أولم يضطروا إليه . لأنه موضع أُلِفَتْ فيه الضرائر » .

وتأمل جيدا قوله « اضطروا إلى ذلك أولم يضطروا إليه » فهو كلام صريح فى الاعتراف بأن للشعر لغة خاصة ، وأن الضرورة الشعرية ليست كما يفهمها بعض الناس : أنها الذى لا يجد الشاعر عنها محيصا . وهذا ما عليه المحققون من العلماء ، فإن الشاعر الذى قال :

تمرّون الديارَ ولم تَعُوجوا
كلامكم علىّ إذن حرامُ

كان يستطيع أن يقول :

* مررتم بالدّيار ولم تعوجوا *

فيسلم له الوزن مع رعاية النظام النحوى فى تعدية الفعل « مرّ » بالباء ، ولكنها لغة الشّعر ، فيابُعْدَ ما بين « تمرون » و « مررتم » فى المذهب الشعرى ! ومع التسليم بهذه الضرائر الشعرية وتصنيف العلماء فيها : فإنك لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعا فى كل عصور الاستشهاد والاحتجاج ، وما بعدها ، عن النظام النحوى ، لوجدته قطرة فى بحر ، وأن جهود شعرهم جار على هذا النظام ، وما كان ذلك كذلك إلا لأن ذلك النظام النحوىّ فطرةٌ وسليقة عند العرب ، ألم يقل الشاعر القديم :

ولست بنحوىٍّ يلوك لسانَه
ولكنْ سليقىٌّ أقول فأعربُ

الضيق بالنحو

أما ما تراه فى كتب الأدب والتراجم من ضيق بعض الشعراء بالنحو والنحاة ، وقولهم فى ذلك الشعر الساخر المستهزىء فهو عندى من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء ، وكأنهم يريدون أن يقولوا : إن نحوكم أيها النحاة صنعة ، ونحوَنا فِطرة ، وآية ذلك أن شعرهم الذى حمل سخريتهم من النحاة ليس فيـه شىء خارج عن النظام ، أو خارق لقواعده ، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو . ولا يتسع المقام لذكر شىء من شعرهم الساخر هذا وتحليله ، ولكنى أشير إلى مقطوعة من تسعة أبيات ، أوردها أبو حيان فى الإمتاع والمؤانسة ١٤٠/٢ ، يقول الشـاعر السـاخر فى أولها .

ماذا لقيتُ من المستعرِبين ومِن
تأسيس نحوهمُ هذا الذى ابتدعوا

وفى هذه المقطوعة يقول :

ما كلّ قولىَ معروفٌ لكم فخذوا
ما تعرفون ومالم تعرفـوا فَدَعُوا

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم
وآخـرين على إعـرابهم طُبِعُوا

فهذان البيتان شاهدان على ما قلته من نحو الصنعة ونحو الفطرة . والشاعر بطبعه مختالُ تيّاه . وحُقّ له !

وما أظن الذين تكلموا عن « سلطان النحاة » على الشعراء قد أخذوا كلامهم إلاّ من قصة الفرزدق مع عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى : فقد سمع الفرزدق يقول :

وعَضّ زمانٍ يابن مروان لم يدع
من المال إلاّ مسحتا أو مُجلّفُ

فقال له : بِمَ رفعْتَ « أو مجلّفُ » ؟ فقال : « بما يسوءك وينوءك . علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » . وهذا البيت مما استفاضت به كتب العربية ، وأطال النحاة فيـه الكـلام . قال البغـدادى صاحب الخِزانة : « وهذا البيت صعب الإعراب » . وقال الزمخشرى : « هذا بيت لا تزال الرُكبُ تصطَكُّ فى تسوية إعرابه » وقال ابن قتيبة : « رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة ، وأتعب أهل الإعراب فى طلب الحِيلة ، فقالوا وأكثروا ، ولم يأتوا فيه بشىء يُرْتَضىَ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كلّ ما أتوا به احتيالُ وتمويه » . وقال أبو فِهْر محمود محمد شاكر : « وبيت الفرزدق ممّا اشتجرت عليه ألسنةُ النحاة ، ولكنه بقى مرفوعا حيث هو » . ومِن أقرب تخريجات النحاة وأولاها بالقبول ما ذكره الخليل بن أحمد ، عبقرىّ العربية ، قال : هو على المعنى ، كأنه قال : لم يبق من المال إلاّ مسحت ، لأن معنى لم يبق ولم يَدَعْ واحد . ومثل ذلك قال أبو على الفارسى ، واستشهد للحمل على المعنى بشواهد أخرى .

وقد حكوا حكايات أخرى عن مخالفة الفرزدق لبعض قواعد النظام النحوىّ ، ومع هذا المأثور عن الفرزدق فقد بقى جمهور شعره على الجادّة النحوية ، وظل مدداً ثرّيا للنحاة ، ينتزعون منه شواهدهم فى الدرس النحوى واللغوى بمستوياته الأربعة : المستوى النحوى (التراكيب) ، والمستوى الصرفى (الأبنية) ، والمستوى الصوتى ، والمستوى الدّلالى .

الضرورة الشعرية لا تبرر الخروج عن السنن العربية

على أنه مما ينبغى التنّبه له والحذر منه أن الضرورة الشعرية – أو إن شئت لغة الشعر – لا تبيح للشاعر أن يخرج عن سنَن العربية . قال أبو سعيد السِّيرافى ، وهو يشرح كلام سيبويه فى الضرورة الشعرية : « وليس فى شىء من ذلك رفعُ منصوب ، ولا نصب مخفوض ، ولا لفظ يكون المتكلم فيه لاحناً ، ومتى وُجِد هذا فى شعر كان ساقطا مطّرحاً ، ولم يدخل فى ضرورة الشعر » .

والعميد الدكتور طه حسين ، الذى قال عنه الأستاذ حجازى إنه أخرج الشعر الجاهلي من سلطان النحاة ، يعيب على بعض الشعراء المتحدثين خروجهم على قواعد النحو ، فيقول عن الشاعر إيليا أبى ماضى إنه اتخذ ضعفه فى النحو مذهباً ، وقد ردّد هذا الرأىَ الناقدُ اللبنانى صلاح لبكي ، فى كتابه « لبنان الشاعر » فرأى أن شعراء المهجر أنُسوا ضعفهم فى اللغة ، ويأسَهم من إصلاحها ، فلم يجدوا بُدًا من أن يتخذوا هذا الضعف مذهبا ، وآية ذلك فصل للأستاذ ميخائيل نعيمة فى «الغربال» عنوانه ضفادع الأدب .

فليست لغة الشعر ، أو الإبداع الشعرى ، مجازاً إلى الفوضى اللغوية ، أو رخصة ليقول بعضهم « قد فوق وقد تحت » . ولعل ذلك يذكرنا بمقالة أخرى للأستاذ حجازى ، نشرها بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤م ، بعنوان « حدّ الصواب وحدّ الخطأ » وذكر فيها كلاماً عجيبا حول اللغة الاعتباطية ، وأن القاعدة اللغوية ليست نموذجا مثاليا لا يتغير ولا يتبدّل ، وأن اللغة اذا لم تكن تنزيلا فكلّ شيء فيها مباح .. إلى كلام آخر كثير مما يقال فيه « وآخر من شكله أزواج » وهو كلام منقوض من جهاته كلها ، لكن الذى يعنينى منه هنا استشهادُه على تجاوز القواعد النحوية بالقراءة المنسوبة للإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، وذلك قوله تعالى . « إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ » – سورة فاطر ٢٨ – برفع لفظ الجلالة ونصب « العلماء » وعندى فى هذه القراءة كلام كثير لا يتسع له هذا الموضوع ، لكنى أوجزه فيما يلى :

أولا : هذه قراءة منكرة ، لاشاذة ، كما ذكر الأستاذ حجازى ، وفرق كبير فى علم القراءات بين القراءة المنكرة والقراءة الشاذة ، فالقراءة المنكرة مرفوضة ، أما القراءة الشاذّة فإن لها حدوداً ومعالم ، وليس وصفُ القراءة بالشاذّة غضّبا منها أو تهمة لها ، وإنما وصفت القراءة بالشذوذ لخروجها عن قراءة القراء العشرة المعتبرين . ولذلك يقول ابن جنى فى مقدمة كتاب المحتسب ، عن هذا الشاذ : « إلاّ أنه مع خروجه عنها – أى عن القراءات العشر – نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه وورائه ، ولعله ، أو كثيراً منه ، مساوٍ فى الفصاحة للمجتمع عليه . ونعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته ، وتعنُف بغيره فصاحتُه .. » .

القراءات الشاذة

وقراء القراءات الشاذة أربعة من كبار علماء العربية، وهم : ابن محيصن ، ويحيى اليزيدى ، والحسن البصرى ، وسليمان الأعمش . وقد ألّفت كتب فى ذكر قراءتهم وتوجيهها ، وعندى من كتب توجيه القراءات

الشاذة هذه ثلاثة كتب ، أولها : المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ومختصر فى شواذ القراءات لابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . والقراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضى ، وهو عالم قراءات مصرى كبير ، توفى منذ عشر سنوات ، سنة ١٤٠٣ هـ . ولا ذِكرَ لهذه القراءة المنسوبة لأبى حنيفة وللخليفة عمر بن عبد العزيز ، فى هذه الكتب الثلاثة ، وكذلك لم أجد لها ذكرا فى كتاب الدّمياطى : إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر .

ثانيا : ذكر الآلوسِىّ فى كتابه روح المعانى ١٩١/٢٢ : أن صاحب النّشر - وهو ابن الجَزَرىّ - طعن فى هذه القراءة . وقال أبو حيان فى البحر المحيط ٣١٢/٢٧ بعد أن ذكر نِسبة هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز وأبى حنيفة . « ولعل ذلك لا يصحّ عنهما ، وقد رأينا كتباً فى الشواذّ ولم يذكروا هذه القراءة ، وإنما ذكرها الزمخشرى » .

قلتُ : نعم ذكرها الزمخشرى فى الكشاف ٣٠٨/٣ ، وعبارته : « فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ : - إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ - وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبى حنيفة ؟ قلتُ : الخشيةُ فى هذه القراء استعارة . والمعنى : إنما يُجلّهم ويُعظمهم ، كما يُجَلُّ المهيبُ المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده » .

انتهى كلام الزمخشرى . وتأمل قــــوله : « ويحكى عن أبى حنيفة » فهو أسلوب غير قاطع بنسبة هذه القراءة إلي الإمام الأعظم . وأيضاً فإن انفراد الزمخشرى بذكر هذه القراءة وتوجيهه لها على أسلوب الاستعارة يتفق مع منهجه الذى غلب عليه فى تفسيره ، وهو العناية بالمجاز والاستعارة وتنزيل الكلام عليهما ، وواضح أن تفسير الآية الكريمة على نصب لفظ الجلالة « الله » ورفع « العلماء » إنما هو على الخشية الحقيقية ، وتفسيرها على العكس ، بالرفع والنصب إنما هو على المجاز ، كما سبق . فليس معنى الآية واحداً فى القراءتين ، كما فهم الأستاذ حجازى !

ثالثا : لم يلتفت إلى هذه القراءة المنكَرة أئمة المفسّرين الثقات : من أمثال أبى جعفر الطبرى ، وأبى الفرج بن الجوزى ، وأبى الفداء بن كثير ، فلم يأت فى تفاسيرهم شىء عنها ألبته .

رابعا : هذه القراءة المنكرة المنسوبة لأبى حنيفة ليست أول حكاية عن مخالفته لقواعداللغة والنحو ، فقد رُوِى عنه غيرها ، كما تراه فى ترجمة الخطيب البغدادى له فى تاريخ بغداد ١٣ /٣٣٢ ، ويرى المحققون أن الحامل للخطيب على ذلك هو عصبية المذهب ، وهى آكلةُ القلب ، ومغمضة العين ، ومطلقة اللسان ، لأن

الخطيب كان شافعيّ المذهب ، ولذلك عاب عليه ابن خلكان فى وفيات الأعيان ٥/٤١٣ مَسْلَكَه هذا فى ترجمة أبى حنيفة ، وقال إنه كان الأليق به تركه والإضراب عنه .

ومن وراء ذلك كله : فإن الكلام فى القراءات القرآنية طريق مخوف العواقب ، ليس من باب الدّيانة فقط – وهى عزيزة علينا – ولكن من باب اللغة أيضا وضُروبها المتشعبة الشائكة . ولعل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى يريح نفسه من الحديث فى قضايا اللغة والنحو ، فإنها مجلبة للهم ، تكد الذهن وتصدع الرأس ، والسالك فيها لا يأمن العثرة بعد العثرة ، والزلة إثر الزلة . والسعيد من وفقه الله .

رجاء صادق

ثم أختم برجاء صادق إلى الشاعر الأستاذ حجازى – وأنا أخاطبه بالشاعر قبل أى صفة – ألاّ يحرم قراءه ومحبيه من حديث الشعر والشعراء ، وأن يخصص ذلك المكان المتاح له فى « الأهرام » للشعر ، فيمتعنا بشعره هو ، أو يقدم لنا ما يختاره من شعر قديم أو محدث ، بالتحليل والدرس والتذوق ، فليس أقدر من الشاعر على شرح الشعر . وللشعر بهاء ، وللنفس إليه نزوع ، وللقلب به علّقة . وقد قال الأول :

الشعر نار بلا دخـــان
وللقوافى رُقَى لطيفـــة
كم مِن ثقيل المحل سام
هَوَتْ به أحـرفٌ خفيفهْ

وكان أبو على الفارسى إمام النحاة فى القرن الرابع ، يقول وقد جرى ذكرُ الشّعر بحضرته : « إنى لأغبطكم على قول الشعر ! فإن خاطرى لا يوافقنى على قوله ، مع تحقُّقى بالعلوم التى هى من موادّه » .

ولم نر شاعراً اشتغل بقضايا اللغة والنحو والصرف ، إلاّ أن يكون أبا العلاء ، ومَن مثلُ أبى العلاء ؟ ولقد أسعدنى زمانى بمعرفة الشاعر العظيم محمود حسن إسماعيل ، وكان يؤثرنى بكلام حلو عال عن الشعر ، وكيف يُكتب ، وعن إحساسه بالحرف العربى . وقد أكثر معى من الكلام حول معانى الشعر ، وبخاصة عقب إصدار الشاعر العوضى الوكيل الجـزء الثالث من « الديوان » – يعنى ديوان العقاد والمازنى – وعرّض فيه تعريضا شديدا بالشاعر محمود حسن اسماعيل . ويومها قلت له : لماذا لا تكتب يا أستاذ محمود هذا الكلام النفيس عن الشعر وحياتك معه وفهمك له ؟ فقال : « إني شاعر » ولم يزد . رحم الله الشاعر العظيم محمود حسن اسماعيل ، وأطال فى عمر الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، وللنّحو والنّحاة كلُّ الحب والإجلال .

القصة القصيرة المصرية

فى الستينات

بقلم : د. سيد حامد النساج

لكنا ننظر اليها من خلال ما قدمته فكريا وأدبيا وفنيا ونقديا . وفى ضوء النتاج الأدبى والمحصول الثقافى الذى ظهر إبانهـا . ونظرة فاحصة فى اتجاهات الكتاب ، وفى مضمون ما قدموه، وفى عدد المنتجين ثقافيا ، وحجم ما قدم ، سوف تؤكد وجود ما نعتز به : فى الرواية، والقصة القصيرة ، والمسرح ، والسينما ، والتليفزيون ، والفنون التشكيلية والشعبية ، والصحافة ، والنقد الأدبى . بل إن عددا ممن يتصدرون حياتنا الأدبية والفنية - الآن - نشأ معظمهم فى حضن الستينات ، وتأثر بالمناخ الذى كان سائدا ، وبما أحاط به من ظروف وملابسات .

ولما كانت القصة القصيرة هى نبض الواقع ، وهى التعبير الآنى عن حركته ، فانها كانت لونا من ألوان الإبداع الأدبى الذى شهد تطورا ملحوظًا طوال فترة





جمال الغيطانى — عبد الحكيم قاسم

الستينات ، بل إنا نزعم أن هذه الفترة تشبه تماما تلك التى مرت بها القصة القصيرة المصرية بدءًا من ١٩٢٥ ، حين شاعت مبادىء المدرسة الحديثة ، وغلبت القصة القصيرة على الانتاج الأدبى ، وأقبلت الصحافة على نشرها ، واهتدى اليها كبار الكتاب الذين لم يكونوا ينظرون اليها بعين التقدير .

ونحن نعتقد أن دراسة ما كتب من قصص قصار طوال الستينات قد

ظلمت فترة الستينات طويلا . فما أن يبدأ الحديث عنها ، حتى يتصدى لها من ينطلقون فى الحكم عليها من وجهة نظر سياسية معينة ، أو ممن كانوا قد حددوا مواقفهم المسبقة من هذه الفترة المهمة فى تاريخنا المصرى المعاصر . وبخاصة مما احتفلت به من قرارات وقوانين واجراءات اقتصادية واجتماعية وسياسية وتنظيمية . أثرت فى البنية الطبقية ، والعلاقات الاجتماعية ، وفى تنظيم العمل ، وعلاقات الانتاج . وهم يستهدفون إلغاء هذه الفترة من تاريخنا الغاء تاما .




بهاء طاهر — مجيد طوبيا

أصبحت ضرورة لازمة بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على كتابتها . وبعد استمرار بعض كتابها فى الإبداع القصصى ، وبعد أن أصبحوا رواداً لهم اتجاهاتهم ومناهجهم الفكرية والفنية . ولم يكن ذلك سهلاً عندما بدأوا يكتبون لأول مرة .

لذا فان قصصهم القصيرة ينبغى ألا تقف عند حد الذى نشروه فى الستينات وحدها . بل يلزم أن تمتد لتشمل ما نشر لهم من قصص فى السبعينات والثمانينات أيضا . لأن قصص بعضهم لم تجمع إلا فى العقود المتأخرة . وقد يدل هذا من بعض الوجوه على أن ما نشر بعد الستينات يعد امتدادا لدور هؤلاء الكتاب . كذلك فإننا لانستطيع تجزئة الكاتب الواحد ، أو دراسته بشكل منجم . إذ إن رؤيته واحدة ، وثقافته تعود به الى أول عهده بالكتابة . بمعنى بلورة الرؤية ، والثقافة ، والمنهاج ، والفكر . فما كتبوه يعتبر كلاً واحداً ، لا يمكن فصل بعضه عن بعض ، ولا يزعم أحد أن ما يكتبونه لم تعد له صلة برؤيتهم الأولى . اللهم إلا إذا أثبت «النص» القصصى انحرافاً ملحوظاً ؛ نتيجة تغيير فى المنحى الفكرى أو فى الأدوات المتوسل بها . وهذا يفرض موقفاً نقدياً خاصاً .

واللافت للنظر أننا ونحن بصدد حركة واعية صاعدة مؤثرة لفن القصة القصيرة ، وفى ظل ازدهارها الكيفى ، وتنوع أساليب كتابها ؛ نفاجأ بأقوال غير مدروسة تحاول

تقليص دورها ، وطمس معالمها ، وإلغاء قدرتها الفنية على تصوير حركة المجتمع ، بل والتماس أسباب غير حقيقية لذلك يفضحها الواقع الأدبى والصحفى والتطبيقى . فقد كتب الدكتور أحمد كمال زكى فى مجلة (الفكر المعاصر) العدد ٢٨ - يونيو ١٩٦٧ : (إن القصة القصيرة لم تعد قادرة على مواجهة الفنون الأخرى - ولا أقول الشعر الذى هزت عرشه يوما - مع أنها بطبيعة تكوينها تقوم بسهولة بدور خطير فى التعبير عن طموح الفرد وصراعه وضياعه لا سيما فى هذا العصر الذرى الذى يوشك الفضاء أن يخضع له . وكان عجيباً حقاً أن تطرد الصحافة القصة مع أنها هى خالقتها منذ البدء على أساس أن حجمها الذى قد يستغرق صفحة أو نصف صفحة وموضوعها الذى يتفق عادة مع أحداث الصحيفة - وقوامه الإنسان العادى بمشكلاته اليومية - يتفقان - وطبيعة الصحافة الى حد يفرض علاقة لا يمكن أن تنفصم . إن هذا فى حد ذاته يعمل على أن يتدهور فن القصة ، فما بالنا إذا رأينا المجلات الأدبية بدورها تحذو الحذو نفسه فلا تجعل للقصة القصيرة الحيز الذى يتسع لرسالتها الرفيعة) (ص ٥٦) .. لا يستلزم هذا الكلام المرسل كبير عناء فى دحضه . فهو يدل على أن كاتبه لم يتابع ، ولم يعايش ما أقحم نفسه فى إطلاق الأحكام عليه ، مما قد يكشف عن أنه لا علاقة له بحركة القصة القصيرة فى الستينات ، إبداعا ونقدا . بل إنه أسرف فى اتهام الصحافة بأنها اتخذت موقف الطارد للقصة القصيرة ، وبأن المجلات الأدبية قد التزمت نفس الموقف . وهذه جميعاً لا يمكن تصورها فى ذات العام ١٩٦٧ الذى يقف عنده كثير من النقاد والدارسين ؛ من حيث إنهم يعتبرونه مرحلة مهمة فى تطور فن القصة القصيرة فى مصر . وقد سبق لنا أن حددنا دور الصحافة بعامة ، والمجلات الأدبية بخاصة ، فيما يتصل بنمو حركة القصة القصيرة ، وتنوع اتجاهاتها . والمتابع لما كانت تنشره الصحافة اليومية والأسبوعية ، والمجلات الأدبية ، من قصص قصار ، فى تلك الفترة - سوف يخرج بنتائج مخالفة لما يقول به الدكتور أحمد كمال زكى ، لأن الواقع الفعلى يشهد بأنه لم يتحر الدقة والصدق والأمانة .

ظاهرة فنية

وشهادات الذين عاصروا حركة القصة القصيرة ، وتتبعوا خطواتها ، تؤكد أن الأدب العربى الحديث فى مصر ، قد عرف إبان الستينات ظاهرة فنية لا سبيل الى تصنيفها إلا فى إطارها التاريخى ، الذى يضيف اليها بعداً مهماً ، هو ارتباطها العميق بكثير من سمات هذا العقد . كما أن الظاهرة بدورها تضيف الى مرحلتها الزمنية بعضاً من خصائصها فى الفكر والتعبير . تتمثل هذه الظاهرة فى التجديد الذى أحدثه كتاب القصة القصيرة ، أو فيما يمكن تسميته بالقصة القصيرة الجديدة . يقول غالى شكرى فى مقال له بعنوان « البصمة الأخيرة فى أدب

تقليص دورها ، وطمس معالمها ، وإلغاء قدرتها الفنية على تصوير حركة المجتمع ، بل والتماس أسباب غير حقيقية لذلك يفضحها الواقع الأدبى والصحفى والتطبيقى . فقد كتب الدكتور أحمد كمال زكى فى مجلة (الفكر المعاصر) العدد ٢٨ - يونيو ١٩٦٧ : (إن القصة القصيرة لم تعد قادرة على مواجهة الفنون الأخرى - ولا أقول الشعر الذى هزت عرشه يوما - مع أنها بطبيعة تكوينها تقوم بسهولة بدور خطير فى التعبير عن طموح الفرد وصراعه وضياعه لا سيما فى هذا العصر الذرى الذى يوشك الفضاء أن يخضع له . وكان عجيباً حقاً أن تطرد الصحافة القصة مع أنها هى خالقتها منذ البدء على أساس أن حجمها الذى قد يستغرق صفحة أو نصف صفحة وموضوعها الذى يتفق عادة مع أحداث الصحيفة - وقوامه الإنسان العادى بمشكلاته اليومية - يتفقان - وطبيعة الصحافة الى حد يفرض علاقة لا يمكن أن تنفصم . إن هذا فى حد ذاته يعمل على أن يتدهور فن القصة ، فما بالنا إذا رأينا المجلات الأدبية بدورها تحذو الحذو نفسه فلا تجعل للقصة القصيرة الحيز الذى يتسع لرسالتها الرفيعة) (ص ٥٦) .. لا يستلزم هذا الكلام المرسل كبير عناء فى دحضه . فهو يدل على أن كاتبه لم يتابع ، ولم يعايش ما أقحم نفسه فى إطلاق الأحكام عليه ، مما قد يكشف عن أنه لا علاقة له بحركة القصة القصيرة فى الستينات ، إبداعا ونقدا . بل إنه أسرف فى اتهام الصحافة بأنها اتخذت موقف الطارد للقصة القصيرة ، وبأن المجلات الأدبية قد التزمت نفس الموقف . وهذه جميعاً لا يمكن تصورها فى ذات العام ١٩٦٧ الذى يقف عنده كثير من النقاد والدارسين ؛ من حيث إنهم يعتبرونه مرحلة مهمة فى تطور فن القصة القصيرة فى مصر . وقد سبق لنا أن حددنا دور الصحافة بعامة ، والمجلات الأدبية بخاصة ، فيما يتصل بنمو حركة القصة القصيرة ، وتنوع اتجاهاتها . والمتابع لما كانت تنشره الصحافة اليومية والأسبوعية ، والمجلات الأدبية ، من قصص قصار ، فى تلك الفترة - سوف يخرج بنتائج مخالفة لما يقول به الدكتور أحمد كمال زكى ، لأن الواقع الفعلى يشهد بأنه لم يتحر الدقة والصدق والأمانة .

ظاهرة فنية

وشهادات الذين عاصروا حركة القصة القصيرة ، وتتبعوا خطواتها ، تؤكد أن الأدب العربى الحديث فى مصر ، قد عرف إبان الستينات ظاهرة فنية لا سبيل الى تصنيفها إلا فى إطارها التاريخى ، الذى يضيف اليها بعداً مهماً ، هو ارتباطها العميق بكثير من سمات هذا العقد . كما أن الظاهرة بدورها تضيف الى مرحلتها الزمنية بعضاً من خصائصها فى الفكر والتعبير . تتمثل هذه الظاهرة فى التجديد الذى أحدثه كتاب القصة القصيرة ، أو فيما يمكن تسميته بالقصة القصيرة الجديدة . يقول غالى شكرى فى مقال له بعنوان « البصمة الأخيرة فى أدب




أسامة أنور عكاشه — عز الدين نجيب

الفنية . ونحن نعتقد أن صيحات التجديد ، وتجاربه الفنية فى القصة القصيرة ؛ لا يمكن ربطها - فقط - بما حدث فى يونيو ١٩٦٧ ؛ باعتباره القشة التى قصمت ظهر البعير . كما أن الأسماء التى تذكر فى هذا الصدد لا تمثل الحقيقة بأى حال من الأحوال . إن ملامح التجديد بدأت تظهر مع بداية التحول الاجتماعى والاقتصادى فى يوليو ١٩٦١ . وإذا كانت القصة القصيرة - فيما قبل - قد صورت المجتمع المصرى ، والتغير الذى أصاب العلاقات الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية ، بوسائل متباينة ؛ شارك فيها كتاب لم يؤمنوا بالثورة ، ولم يعتنقوا أفكارها ، وإنما اتخذوا منها موقفًا مضادًا ؛ فإنه بدءًا من ١٩٦١ أخذت القصة القصيرة تلتمس أشكالاً ومضامين جد مختلفة . وطفقت ملامح الثورة الفنية الجديدة تكشف عن نفسها لدى عدد من الكتاب الذين نشروا قصصهم اعتبارًا من ١٩٦٤ . مما يمكن معه القول بأنه إذا كانت محاولات التجديد قد اتخذت بعدًا فرديًا بين لحظة وأخرى اعتبارًا من ١٩٦١ ؛ فإنها ضمت عددًا من الكتاب شكلوا تيارًا فى ١٩٦٤ . اتخذوا من ضرورة التغيير الفنى فى الشكل والمضمون منطلقًا وهدفًا فى كتاباتهم القصصية .

ولعل هذا هو الذى ميَّز قصصهم القصيرة منذ اللحظة الأولى التى طالعوا فيها الجمهور القارىء ، وزملاءهم من الكتاب ، وفاجأوا نقاد هذا الفن من المتخصصين . حتى كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ وما أشيع من أنها أحدثت تغييرًا جذريًا فى النفس ، والفكر ، والفن ، والأدب ؛ مما حدا بمن لا يعرفون أصول التجديد ، ومبرراته ، وأشكاله ؛ أن ينتحلوه ، وأن يختلقوا السير فى ركابه ، دون أن يتسلحوا بأسلحته الموضوعية والفكرية والفنية . ومنهم من وجد ضجيجًا يمجِّد ويسبِّح بما يفعل ، وصياحًا يعلن ريادته للاتجاه الثورى المتمرد ، دون وجه حق موضوعى أو تاريخى أو فنى .

فى حين أن الذين مارسوا التجديد - بالفعل لا بالقوة - لم يجدوا - آنذاك - من يساندهم ، أو يبارك خطواتهم ، أو ينير لهم طريق المستقبل . مادامت النكسة قد أضحت مظلة يحتمى بها كل خلْوٍ من الموهبة والابتكار . بل إن ممَّن كانوا يكتبون القصة القصيرة قبل النكسة من راحوا يزعمون لأنفسهم أو لقرائهم ، أو يزعم لهم نقادهم الذين تخصصوا فى

الدعاية لهم : أن كتاباتهم قد استجابت لدواعي المرحلة : فعبرت عن إنسان ما بعد الهزيمة : مما استلزم تطوراً في الأدوات الفنية . الى غير ذلك مما لا يتفق والنصوص القصصية التى بين أيدينا .

رؤية فنية واعية

ولا يخفى أن بعضاً ممَّن أقدموا على كتابة القصة القصيرة في مسار التجديد ، كانوا هم الذين يبررون محاولاتهم وتجاربهم . بمعنى أنهم كانوا يدافعون عما أقبلوا عليه ، وهو ما يدل على أنهم كانوا يستندون الى رؤية فنية واعية ، وثقافة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، جعلتهم يعيشون واقعهم ويدركون حاجاته ، ويفهمون تناقضاته . وبخاصة أن أغلبهم ينتمون الى جذور اجتماعية ، والى طبقات مطحونة ، تنتسب الى العمال أو الفلاحين . لم يجدوا في أصولهم ما يدعم مواقفهم أو ما يتمسكون به . كما لم يجدوا في الثورة ما يؤهلهم كي يصبحوا في المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذى يحلمون به . ولم يلحظوا فيما يقدم أدبياً وفنياً «صدقا» يغريهم بتقليده ومحاكاته . ولسوا في القصص التى تتناول المطحونين سذاجة ، وسطحية ، وشعارات لا أول لها ولا آخر . فأخذوا يتمردون أو يجربون التمرد والثورة - في القصة القصيرة - لأنهم لا يملكون ما يساعدهم على التمرد والثورة خارج الفن . ومن ثم جاءت قصصهم القصيرة مختلفة عما كان يصدر عن أبناء جلدتهم ، وعن الأجيال السابقة عليهم في أن معاً .

ويلاحظ أن من كتاب القصة القصيرة في الستينات ، من ينتمون الى ذات الطبقة الاجتماعية المطحونة اقتصاديا ونفسيا . أعلنوا ايمانهم بالثورة . واعتناقهم مبادئها وشعاراتها . وهللوا - ظاهريا - لعدالتها الاجتماعية . لكنهم وجدوا أنهم لم يفيدوا - ماديا - بشكل مباشر وشخصي ؛ فالتمسوا لأنفسهم وسائل وأساليب قد يفيدون منها ذاتيا . أخذوا يقلدون كتابات بعض ذوى الانتماءات القديمة . ويعلنون إيمانهم بقدرة هؤلاء على الاستمرار والبقاء والتأثير . وإن كانوا يقفون ضد الثورة ومبادئها . وهكذا اصطنعوا التناقض الذى مازالوا يعيشون فيه ، وينعكس في كتاباتهم القصصية . فهي صدى لكتابات الآخرين . قدماء ومحدثين . كلاسيين وواقعيين . رومانسيين وتجريديين . تلهث مرة وراء الواقعية الساذجة بدعوى الدفاع عن الفقراء . وتحاكي مرة الواقعية الاشتراكية تحت وهم مسايرة المطلوب سياسيا ونقديا . وثالثة تدعو الى الأخلاق الحميدة الرشيدة مغازلة لأصحاب النفوذ القديم . ورابعة تستعين بالفانتازيا والحلم تحت شعار الرمز الناقد الرافض . وخامسة تقع في أسر الخطابية والمباشرة .

على هذا النحو ضاعت ملامحهم الذاتية ، وذابت شخصيتهم الأدبية ، وتبعثرت هنا وهناك ؛ فلم تصمد أمام التجارب الجادة ، ولم تلفت نظر أى مدرسة نقدية . رغم أن قصصهم نشرت قبل وأثناء وبعد النكسة . وهذا يعنى أنه لا الشعارات الزاعقة ، ولا الطبقة الفقيرة ، ولا المرحلة ، ولا المحاكاة ، ولا اللهاث المحموم وراء منطق السادة ، ولا تقل صفحات كاملة من روايات روسية شهيرة ، يمكن أن تُشَكِّلَ تياراً متميزاً فى القصة القصيرة . ففى دائرة بحثنا نجد - مثلا - أن الكاتب حمدى أبو الشيخ نشر قصة « الكابوس » فى مجلة (المجلة) نوفمبر ١٩٦٢ . ثم تابع النشر فيها - مايو ١٩٦٤ قصة (الطريق الى أثينا) . وأصدر مجموعة قصصية حرص كاتبنا الكبير يحيى حقى على كتابة مقدمة لها . لكنه لم يلفت النظر اليه من الناحية الفنية . واستكان الى كلمات التشجيع التى أطلقت دون أن تكون له قسمات مميزة . وبلا استمرار جاد فى حقل الإبداع القصصى.

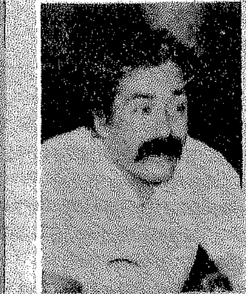
ومنذ الأعداد الأولى لمجلة (القصة) وهى تقدم قصصاً قصيرة لأسماء لم يواصل أصحابها الكتابة : أحمد عبد الحميد (مارس ١٩٦٤) ، كمال جمعة (مايو ١٩٦٤) ، على حسين خلف (يونيو ١٩٦٤) رضا المنياوى وأحمد عثمان بهلول (يوليو ١٩٦٤) حسين كبة (سبتمبر ١٩٦٤) ، رجاء الدرينى (أكتوبر ١٩٦٤) محمد خزيك (أغسطس ١٩٦٤) . وفى مجلة (المجلة) كذلك : اسماعيل البنهاوى (سبتمبر ١٩٦٣) ، دانيال عبد الله رزق (أبريل ١٩٦٦) ، سميح عباس (ديسمبر ١٩٦٦) وقد عقب على قصته يحيى حقى، وكانت بعنوان (الكتل السوداء) العدد ١٢٠ ص ١٠٣ . وهناك من أصدروا مجموعات قصصية فى هذا العقد دون أن يكون لهم تأثير أو استمرار . مثال ذلك : أحمد لطفى (الصبر طيب) ١٩٦٢ ، مواهب صدقى ربيع (الزجاجة الفارغة) ١٩٦٤ ، مصطفى أبو النصر (واحدة تكفى) ١٩٦٥ ، فتحى زكى (أزمة ثقة) ١٩٦٦ ، أمير سلامة (الدوافع الخفية) ١٩٦٦ .

وفى ذات الوقت كنا نقرأ لكتاب مارسوا الكتابة القصصية قبل ١٩٦٧ ، ومنهم من لم ينقطع عن كتابتها حتى الآن، دون أن يقدموا جديداً مؤثراً فى الرؤية أو فى الأداة ، ودون التفات الى أن تكون قصصهم ذات شخصية متميزة ومستقلة وقوية . عزت نجم فى مجلة (الشهر) مارس ١٩٦١ ، قصة (القشاش) ، محمود حسن العزب فى مجلة (الآداب البيروتية) ، قصة (الاتجاه الآخر) مايو ١٩٦١ ، ثم (المرآة الصاخبة) مجلة (الرسالة) أكتوبر ١٩٦٤ . أمين ريان .

قصة (ضحكة) مجلة (القصة) أكتوبر ١٩٦٤ . بكر رشوان فى قصة (الناس والمولد) مجلة (القصة) مايو ١٩٦٥ . سيد سعيد (تلغراف) مجلة (صباح الخير) ٢٩ سبتمبر ١٩٦٦ . رستم كيلانى (المفكرة) مجلة (القوات المسلحة) ١٦ سبتمبر ١٩٦٦ . عباس الأسوانى فى (الكاتب) يناير ١٩٦٢ . عباس محمد عباس (القصة) سبتمبر ١٩٦٤ . سيد جاد (المجلة) يونيو ١٩٦٤ . عبد المنعم شلبى (القصة) يناير ١٩٦٤ . زهير البيومى (القصة) مايو ١٩٦٤ . عبد العال الحمامصى (القصة) نوفمبر ١٩٦٤ .

بل إنا وجدنا عشرات من الذين فازوا فى مسابقات القصة القصيرة التى تعقد كل عام ، وكانت مجلة (القصة) تنشر قصصهم الفائزة ، لكنَّا - بعدئذ - لم نكن نظفر بأحدهم . يبدو أن محترفين متخصصين ، ليسوا مبدعين ، توفروا على الاشتراك فى هذه المسابقات ، وقد فطنوا لشروطها جيدا ، وحرصوا على توفيرها ، فقدموها جواز مرور للفوز ، وليكن بعدها ما يكون . وربما يكون الفاحصون ممَّن لا يملكون الوقت والصبر ، وممَّن لا يحرصون على استغلال المسابقات لاكتشاف المواهب الخلاقة المبدعة . وحتى لا يكون حكمنا مطلقا فإنى أذكر بعض أسماء من فازوا فى مسابقتى عام ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ لنادى القصة : محمد زكى الأجهورى ، جمال الدين محمد عشماوى ، أحمد دسوقى مرسى ، محمد عبد المنعم الطنبولى ، السيد وليد عبد الحميد حجازى ، أحمد رءوف محمد الشافعى (١٩٧٤) . إبراهيم حلمى حسن ، وليم ميخائيل شحاتة ، محمد أحمد الغنَّام ، محمد فؤاد محمود ، مؤنس ابراهيم هنداوى ، حمدى نصر عباس ، السيد عبد العزيز الجندى ، محمد أحمد سيد أحمد ، أحمد أحمد مريود (١٩٧٥) . أين هم الآن من كتاب القصة القصيرة ؟!

أمَّا من تفردت قصصهم القصار فى هذا العقد ؛ فإنَّا نذكر منهم : عز الدين نجيب (المساء) مايو ١٩٦١ . محفوظ عبد الرحمن (الكاتب) نوفمبر ١٩٦٢ . أحمد هاشم الشريف (القصة) مارس ١٩٦٤ . ضياء الشرقاوى (القصة) يونيو ١٩٦٤ . محمد حافظ رجب (القصة) يوليو ١٩٦٤ . بهاء طاهر (الكاتب) مارس ١٩٦٤ . ابراهيم أصلان (القصة) سبتمبر ١٩٦٤ . محمد البساطى (القصة) يناير ١٩٦٤ . أسامة أنور عكاشة (القصة) سبتمبر ١٩٦٤ . أحمد الخميسى (القصة) أبريل ١٩٦٥ . جميل عطية ابراهيم (المجلة) يوليو ١٩٦٥ . جمال الغيطانى (القصة) أبريل ١٩٦٥ . يحيى الطاهر عبد الله (الكاتب) أغسطس ١٩٦٥ . عبد الحكيم قاسم (صباح الخير) ٢٧ أكتوبر ١٩٦٦ . مجيد طوبيا (المجلة) مايو ١٩٦٥ . أما محمد ابراهيم مبروك فإنه نشر قصته المعروفة (نزف صوت صمت نصف طائر) فى مجلة (المجلة) أكتوبر ١٩٦٦ .







ابراهيم اصلان — عبد العال الحمامصي

وجدير بالملاحظة ، أنه فى ميدان الشعر ، وفى يناير ١٩٦٤ صدر العدد الأول من مجلة (الشعر) برئاسة تحرير الدكتور عبد القادر القط ، قدمت عدداً من الشباب الجدد ، وآزرت الشعر الجديد ، ونشرت بحوثًا ومقالات نقدية حول ظاهرة التجديد فى الشعر المعاصر .

تعدد الأصوات

إزاء هذا النتاج المتنوع فى القصة القصيرة ؛ فإننا لن نقف عند كل ما كتب ، ولا عند كل من كتبوا . وإنما سنقوم بعملية « انتخاب » و « اختيار » . ذلك أنهم — جميعا — لم يتخذوا مساراً واحداً . إذ تعددت مناحيهم . تفرد فيها بعضهم ؛ بينما انزوى آخرون . ولا يعنينا هنا — بطبيعة الحال — من لم يضف جديداً ، معتمداً على محاكاة الأسلوب الذى كان شهيراً وجاذباً . وتكشف النصوص القصصية أن الفترة سمحت بتعدد الأصوات ، وهو الأمر الذى يجب أن نشير اليه . فلم تعد القصص تجرى فى قناة واحدة ؛ لأنها لم تعد تصدر عن صوت واحد أصبحت نغمته محفوظة ومكررة .

ونحن نرى أن قصص محمد حافظ رجب ، وأحمد هاشم الشريف ، وعز الدين نجيب ، وضياء الشرقاوى ، ومحمد ابراهيم مبروك ، تمثل معًا صوت الثورة والتجديد ، إنهم أصروا على تطوير الصورة ، والموقف ، والكلمة ، والمعنى ، والرؤية ، والشخصية . وقد أكدوا فى كتاباتهم ؛ وبأقوالهم ، وقصصهم ، تشبثهم بالتجديد ، وحرصهم عليه . ولعل محمد حافظ رجب هو الذى تعرض الهجوم — طويلا — بسبب تجاربه الجديدة ؛ ولمواجهته الواقع القصصى غير المتطور ، ولأنه أعلن صيحته الشهيرة « نحن جيل بلا أساتذة » أثناء مناقشة المجموعة القصصية (عيش وملح) التى شارك فيها بالكتابة عز الدين نجيب وغيره . ويبدو أن معارضة قصصه القصيرة ؛ ورفض أسلوبه الفنى ، قد اتخذا وسيلة للهجوم على كل المجددين من الشباب ذوى الطموح الفنى والفكرى .

وقد اتخذت معارضة قصصه شكلا حادا بعد أن أصدر مجموعته الأولى (الكرة ورأس الرجل) التى قدمت نمطًا غير مألوف ، وبناء غير موروث ، ولغة لم تكن متداولة . وإذا انصبت عليه اللعنات باعتباره ممثلا التجربة الجديدة ، ولأنه أعلن رأيه الواضح فيما يكتب من قصص تقليدية ، وفيمن يكتبون . كتب محمد حافظ رجب عدداً من المقالات يدافع فيها عن التجربة الجديدة ، ويفند الآراء المضادة ، ويدافع عن حق أصحاب التجربة فى التعبير عنها ، من خلال كل ما يصدر من مجلات أدبية . وجاءت مقالاته تلك فى شكل

يقترب من أسلوب كتابته القصة القصيرة ومتحديا بذلك كل معارضيه (إنكم غرباء علينا بالفعل . فلنترك للناس الحكم . ولتسمحوا لنا بأن نقف معكم فوق المنصة . ومن يصفق له الناس يستمر في الإنشاد) .

ويوجه حديثه الى محمد فريد أبو حديد ، بعد صدور العدد الأول من مجلة (الثقافة) ١٩٦٣ قائلا : (لو لم تمنحنا جواز الإقامة ، فسنقف على البوابة ، لن نتحرك ، لن نمشي ، سننام في منتصف الطريق ، معنى ذلك أن الكل متفقون ، معنى ذلك أن الكل رفعوا شعار الطرد ، أين نقيم ؟ أين نلجأ ؟ « الثقافة » آخر ملجأ) . لكن الرد كان صادما من قبل محمد فريد أبو حديد : (لقد حاولت بكل إخلاص أن أدرك شيئا وراء هذا الكلام الذي يبدو أنه لا يفيد معنى ، ولقد صدمني الكلام وشعرت بالصدمة باخلاص ، وفاء بوعدي للسيد الكاتب ، ولكني وجدت آخر الأمر أنني عاجز عن تقدير هذه القصة ، فأنا أقر للسيد الكاتب بعجزي وقصوري عن إدراك ما يختفي وراء ألفاظ هذه القصة ، لعله فلسفة عليا ، كما أنه من الممكن أن يختفي وراءها سر مخيف) .

هذا هو الذي جعل محمد حافظ رجب يصرح مؤخرا بأن (التقليدية المصرية اتهمتني بالجنون ، مجلة الثقافة والرسالة ، والتقدمية المصرية اتهمتني بالخروج على واقع الناس البسطاء) - مجلة « نادى القصة » بالاسكندرية - العدد ٣٦ - ١٩٨٨ ص ٩ . ونراه يفسر الدوافع الى التجربة الجديدة بقوله : (كانت الحاجة الى التجديد ملحة وواجبة . إنها انبثاق من صخور الواقع الوحشي الذي صبغته ظروف وملابسات تلك الفترة ، لقد كنت مضغوطا وضائعا في غابات القاهرة . وكنت أرى وأسمع لعق الذئاب لدماء الانسان في مصر . كانت الحيوانية هي ممارسة كل لحظة وكل يوم ، من هنا خرجت كلماتي في وجه البوم الخفافيش ، لم يكن في هذا الوقت بالإمكان سوى التلميح بالإشارات والرمز . كان الكتاب في مصر يلعبون لعبة السير في طوابير الاستسلام الى أقصى الحدود فأعلنت خروجي على طاعتهم . ونَحَّيْتُ جانبا ثدى الأم المزيفة ، وهكذا قلت « نحن جيل بلا أساتذة » .) مجلة « الثقافة الجديدة » - العدد العاشر - أبريل ١٩٨٦ - ص ٧٩ .

إنه يصور كلمات غاضبة حادة الواقع المصري ككل ، ويسلط الضوء - قويا - على الأسباب الذاتية والموضوعية الكامنة وراء رفضه الاستسلام والرضوخ للنمطية والسطحية والتقليدية ، كما يكشف عن الوسيلة التي أتيح له استخدامها - فنيًا - في ذلك الحين ، أراد أن يطلق البخار المكتوم في صدره . ورغب في ممارسة حريته الفكرية والفنية كاملة ، في ظل اصطراع الأيديولوجيات ، وانتشار وسائل الإعلام ، والأحكام الصارمة للنقد الأدبي التي تطلق من فوق منصة عالية ، في هذا الجو المشحون بالرغبة ، والخوف ، والارشادات ، والقواعد ، لم يجد الكاتب

الشاب نفسه حراً مع عالمه الخاص وتجاربه التى لم يعشها أحد غيره، بالاضافة الى سيطرة آخرين على منافذ النشر.

من هنا كان لظهور كتاباته وقع الدهشة والذهول (وكنت مصراً على فرض نتاج نفسى على الجميع فى الساحة الدموية، وأفسحت كتاباتى المكان لجيل الستينات لكى يقول كل ما يعرفه. وهكذا جاء رجال هذا الجيل الذى أسميه رجال الحرس القديم. لقد كنا جيل الشباب كما يقولون عنا، لقد كنا أبناء البخار المكتوم، وكانت الانفجارات تتتابع فى كتاباتها دون أن نجد من الناس العون، لقد تفوقنا فى الستينات على الألم والحزن والسير قدماً الى الخلق المبدع، كنا نكتب باستشهاد، كنا شهود ما يحدث)، مجلة «الثقافة الجديدة» - العدد العاشر - أبريل ١٩٨٨ - ص ٨٠. ويحدد أحمد هاشم الشريف علاقة الجيل الجديد - الذى أخذت تجاربه ومحاولاته فى تغيير شكل القصة القصيرة وبنائها الفنى - بالجيل السابق عليه؛ والموقف الرافض الذى اتخذه ضده، قائلا: (الجيل الماضى لا يفهمنا بطبيعة الحال. ولكن بعض أفراده يحاولون ذلك بصورة مضحكة ومنفرة سرعان ما تكشف نفسها. إن الزمن لا يرحم والتغيرات الكثيرة التى طرأت على المجتمع؛ جعلت من الجيل الماضى أشباحا هزيلة). مجلة «الطليعة» سبتمبر ١٩٦٩ - ص ١٥. وفى الكتاب الذى أصدره محمد الراوى عن أدباء الجيل، الصادر عن مطبوعات الكلمة الجديدة بالسويس؛ يقول: (... ونتيجة لمواقف الأجيال القديمة التى لم يستطع الجيل الجديد أن يستمد منه الكثير فتقدم برؤية جديدة) ص ٣٢ ثم يقول: (لمّا بدأ الجيل الجديد يصرخ فى الستينات مطالباً بحقه فى التعبير عن وجوده تصدّى له هؤلاء الأدباء الرسميون وأتباعهم وحاصروا الجيل الجديد بشتى الاتهامات: الإغراب، الغموض، الذاتية، الجهل باللغة. وهكذا بدأت محاولات الجيل الجديد للنشر فى بيروت أو النشر فى مصر على حسابه الخاص. وهكذا أيضا ظهرت الى حيز الوجود أشكال جديدة للتعبير نابعة من هذه الظروف) ص ٣٣.

وينفى أحمد هاشم الشريف عن التجربة الفنية الجديدة أنها تكمن فى نطاق الشكل وحده: (إنها اكتشاف الحقيقة، واقتحام للمجهول، ومحاولة لحل الألغاز التى تحيط بنا فى هذا الكون، إن الكاتب الجديد هو من يحاول الوصول الى الحقيقة بأسلوبه الجديد، بعد أن رأى أن القصور فى الأساليب القديمة الحقيقية هو الهدف وأساليب الأدباء للوصول اليها لا تتوقف، لذلك فمن الطبيعى أن تكون هناك أشكال جديدة فى القصة) ص ٣٤.

ولا يعترف ضياء الشرقاوى بأى دور للأجيال السابقة، ويذهب الى أنهم لم يقوموا بدورهم لرعاية الجيل الجديد، وتهيئة الطريق له، أو إتاحة الفرصة لتجاربه، بل إنه يعتقد فى أن رعاية الجيل الجديد شىء لا قيمة له، وينبغى ألا

تكون (حتى تنمو أظافر الجيل الجديد يشق بها طريقه في الصخر ، وكلما كانت العقبات أكثر والمصاعب وافرة كلما أفاده ذلك خبرة وأصالة) ، أدباء الجيل – محمد الراوى – ص ٣٢ .

إنهم يجمعون على أن الأجيال الفنية تعمل في دوائر مغلقة ، ليس هناك التحام حقيقى بينها ، مما يجعل لكل جيل ذاتيته المغلقة وتجاربه المنفصلة ، بحيث لايكاد الجيل الجديد يستفيد من تجارب الأجيال السابقة استفادة حية ، وهذا قد لا يعطى التجربة الأدبية والثقافية صفة الاتصال والتقدم المستمر الى الأمام . ويعترف ضياء الشرقاوى بأن العلاقة بينه وبين الأجيال السابقة (علاقة فاقدة للتأثر والتأثير ؛ زاد من حدتها أن الجيل الجديد يواجه تغيرات جذرية حاسمة يواجهها ويعيشها ويحمل نصيبا أكبر من الأجيال السابقة عليه للتعبير عنها . لذا فإن المناخ الذى نعيشه مغاير تماما لمناخ الأجيال السابقة مما يزيد من حدة الانفصام) مجلة « الطليعة » العدد ٩ – سبتمبر ١٩٦٩ ص ٥٢ .

وينتقل ضياء الشرقاوى الى تعيين الفروق المميزة لكتاب العقد الأول من الستينات في اختلاف الرؤية ، والحساسية الجمالية والفنية ، وما استتبع ذلك من فروق في بناء القصة القصيرة ، وفي معنى المكونات الأساسية للعمل الفنى ؛ كعنصر الزمن ، والمكان ، ومفهوم الشخصية ، والحدث ، والخيال ، ودور اللغة (وكلا الرؤية والشكل هما اللذان يشكلان معمار القصة القصيرة عندى وعند زملائى) . أدباء الجيل – ص ١٣ – ص ٢١ ، تدل هذه النماذج من أقوال بعض كتاب القصة القصيرة في الستينات ، على أنهم أعلنوا موقفهم بوضوح من كبار الكتاب الذين كانوا يمثلون الريادة والتأثير في مجال القصة القصيرة ، أو من الذين كانوا يشرفون على وسائل النشر ، كما رفضوا تلك القواعد والقرارات التى أصدرها بعض النقاد ، تطبيقا لتعاليم ومبادىء غير فنية . وثاروا على المذاهب الأدبية السابقة ، وسلبيات من يؤمنون بها ، وأشاروا الى موقفهم الجديد من الشكل الفنى الذى ينبغى أن تكون عليه القصة القصيرة ، الى غير ذلك من الفكر والآراء التى اعتبرت – آنذاك – ثائرة ومجددة ومتمردة .

وطبيعة الدراسة قد تستلزم أن نخصص لكل تيار فصلا أو لكل كاتب جزءاً ؛ نعتمد فيه على تحليل النصوص القصصية ؛ لبيان دوره – كاتباً أو تياراً – وإسهامه ، والملامح الفنية التى تميزه ، أو التى لو أضيفت الى ملامح الآخرين ؛ فإنها قد تحدد أبعاد الصورة الكلية ، وتستكمل قواعد البناء الجديد ، وقبل هذا وذاك ، فإنه ربما يكون ملائما الإحاطة بالمناخ الثقافى والنفسى الذى أحاط بكتاباتهم ودفع الى اتجاههم ، وأسهم في رسم القسمات الفنية المشتركة ؛ تلك التى جاءت استجابة لذلك المناخ .

رسالة قرطاج

مولد سينما أخرى في المغرب العربي

بقلم : مصطفى درويش

موعدنا مع أيام قرطاج السينمائية مرة واحدة كل سنتين .. وأين ؟

فى قلب تونس العاصمة ، وبالتحديد فى مثلث يقف على رأسه ابو التاريخ « ابن خلدون » شامخا بتمثاله المهيب ، يذكرنا بماض ثقافى مجيد .

وبعد التمثال ، وعلى امتداد البصر ، ينساب نهج الحبيب ابو رقيبة ، وهو شارع معبق بعطر الماضى التليد ، يسر بأشجاره وأطياره الناظرين .

ولعله واحد من أجمل شوارع العاصمة التونسية ، ولا اقول شوارع من الوطن العربى من الخليج إلى المحيط .

فداخل هذا المثلث الذى لا تزيد مساحته كثيرا عن مساحة نهج الحبيب ، تركز عدد من دور العرض على وجه ليس له مثيل على امتداد هذا الوطن الفسيح .

وقد لا أكون بعيدا عن الصواب ، إذا ما جنحت إلى القول بان عدد دور السينما فى هذا المثلث ، إنما يفوق عددها فى وسط القاهرة هوليوود الوطن العربى ، بل قد يفوقها بكثير .

ومما يزيد الأمر غرابة ان تونس بلد

لقطة من فيلم اكتوبر في الجزائر



صغير ، لا ينتج إلا ثلاثة أفلام على مدار السنة ، فى حين ان ما تنتجه استوديوهات القاهرة سنويا ، لا يقل عن ستين فيلما ، بل قد يزيد .

سر الاستمرار

ومثل ذلك الحشد للدور فى بقعة واحدة وسط عاصمة خضراء ، يتيح للمشاهد فرص الانتقال فيما بينها فى بضع ثوان ، ودون كبير عناء .

وهذا شرط لابدّ منه لقيام أى مهرجان سينمائى جاد ، ولا اقول لنجاحه ، ودوام استمراره ما دام ثمة أفلام .

ولعل توافره فى قلب مدينة غير بدينة مثل تونس العاصمة ، هو الذى أهل تلك المدينة العريقة لان تكون مركزاً لايام قرطاج ، واتاح لهذه الايام ان تستمر قرابة ثلث قرن من عمر الزمان .

ومن بين الاسباب الاخرى لنجاح الايام ، ذلك الجمع الغفير من عشاق الفن السابع الذى كنت آراه فى أثناء تلك الايام يحتشد داخل دور العروض ، وأمامه تمر مناظر العرى والفراش ، دون أن تثير صرخة من حلق ، أو دبدبة من أقدام .

واغلب الظن ان وجود جمهور بمثل هذا الذوق المصفى المهذب ، انما يرجع أولا إلى فهم ما يجرى على الشاشات من احداث ، لا لسبب سوى أن جميع المثقفين يجيدون التحدث باللغة الفرنسية ، علاوة على لغة الآباء .

وثانيا الدور الذى لعبه النقاد ، فهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مفهوم السينما باعتبارها فنا له أصوله وقواعده ، وعن ضرورة التوعية بها بوصفها لغة العصر .

ولقد اسهم دورهم هذا فى فتح النوافذ على كل ما له قيمة ودوام فى انتاج السينما العالمية ، كما ساعد على انطلاق أيام قرطاج من عقال الجدل العقيم فى مهرجانات مفتعلة ، بلا هوية ، كمهرجان الاسكندرية إلى طريق وحب لا ينتهى إلى سراب .

ولولا هذا الدور لما أصبحت قرطاج بايامها أقدم مهرجان لفن السينما فى جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفى الأقطار العربية كلها بلا استثناء . ولما استمرت ملتقى للمبدعين ، ومنارا للسينما العربية والافريقية ، حتى يومنا هذا .

لـــزوم الهـــوية

وثمة مزايا أخرى للايام ، أذكر من بينها أنه منذ البداية (١٩٦٣) ، وله هويةٌ أفريقية عربية ، لم يحد عنها أبدا .

فحسب قواعده الصارمة ، ليس لأى فيلم لم يبدعه مخرج أفريقى أو عربى الدخول فى مضمار التنافس على جوائزه التى تمنح فى ليلة الختام .

كما أن التيار السينمائى السائد عالميا ، وهو تيار هوليوود بطبيعة الحال ، ليس له مركز مرموق فى أيامه ، مثل ذلك المركز الذى يشغله فى مهرجانات القاهرة ، وفينيسيا وكان .

وفضلا عن ميزة الهوية تلك ، هناك حسن الاختيار ، فلا اهتمام بالكم يتولد عنه زحام أفلام ، يضيع فى صخبه ما ينفع الناس .

قصة وعظة

ومن هنا قصر العروض الخاصة بالسينما العالمية فيه على روائع مثل « اللاعب » للمخرج الأمريكى « روبرت اكتمان » و« حمى الأدغال » للمخرج الأمريكى الأفريقى « سبايك لى » و « العاشق » للمخرج الفرنسى « جان جاك انو » و « تستمر الحياة » للمخرج الإيرانى «عباس تخيا روستامى» و « كعب عال » للمخرج الاسبانى « بدرو المودوڤار » وفوق كل هذا « الفهد » (١٩٦٣) أول فيلم يبدعه المخرج الايطالى الراحل « لوكينو ڤيسكونتى » لاحدى شركات هوليوود الكبرى « فوكس للقرن العشرين » ومعروف عن « الفهد » ، وهو تحفة بين الأفلام قلّ ان يجود الزمان بمثلها ، ان ڤيسكونتى أخرجه قبل تسع وعشرين سنة وبفضله فاز بجائزة كان المسماة بالسعفة الذهبية . هذا ، وقد ارتأت « فوكس » ألا يعرض « الفهد » كاملا ، لأنه فى تصورها لو عرض كذلك ، لكان فيلما طويلا ، شديد الأملال .

وبعد كل هذه السنين جرى عرضه فى أيام قرطاج كاملا . بحيث استمر الاستمتاع بمشاهده الاخاذة مدة ثلاث ساعات ، وازدادت عشر دقائق ، لم نشعر خلالها بملل ، ولو قليلاً .

وافتتحت العروض الرسمية بفيلم « ضباع » للمخرج السنغالى « جبريل ديوب ممبيتى » ، وهو مأخوذ عن مسرحية للأديب السويسرى « دروئمات » .

ولن أقف عنده ، ولا عند أى فيلم أفريقى آخر لأن الحديث عن أزمة السينما الأفريقية يطول ، وفى نفس الوقت حزين .

وحدة ونهضة

ولا يفوتنى ان أشير . بمناسبة مجىء كلمة أزمة فى أثناء الحديث ، ان اشير إلى ظاهرة أراها جديدة كل الجدة وجديرة

بالوقوف عندها ، ولو قليلا .

فلقد لوحظ ان الكثير من الترقب والتلهف لم يتركز على الأفلام القادمة من مصر ، كما كان يحدث فى سالف الأيام ، وإنما تركز على الأفلام التى أبدعها مخرجون من أبناء المغرب العربى .

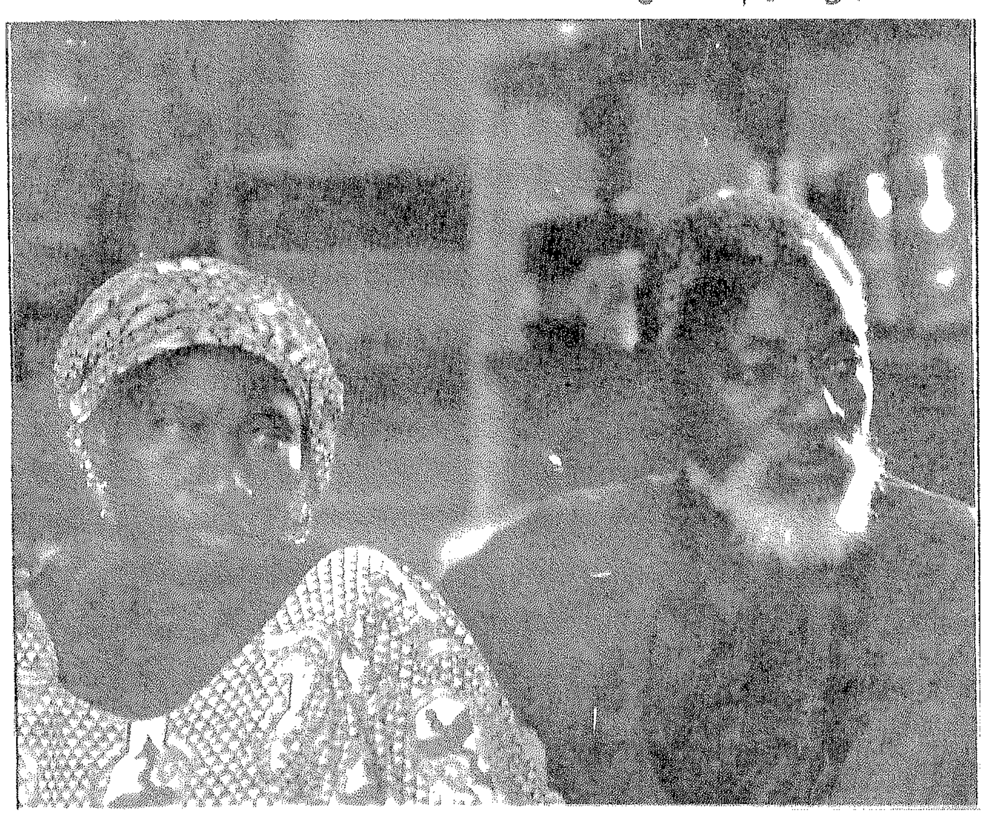
وفى الحق ، فالافلام التونسية والجزائرية والمغربية كانت أعجوبة بين الأفلام العربية ، بفضل جرأتها فى تناول قضايا الساعة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو حتى دينية .

وهى جرأة ، ولا شك منقطعة النظير ، وتبشر بالخير الكثير .

الحدث الجليل

وفى رأيى أن هذه الجرأة ، أو بمعنى أصح النهضة ، بدأت تباشيرها قبل

« الضباع » فيلم الافتتاح



سنوات ، وفى تونس بالذات .

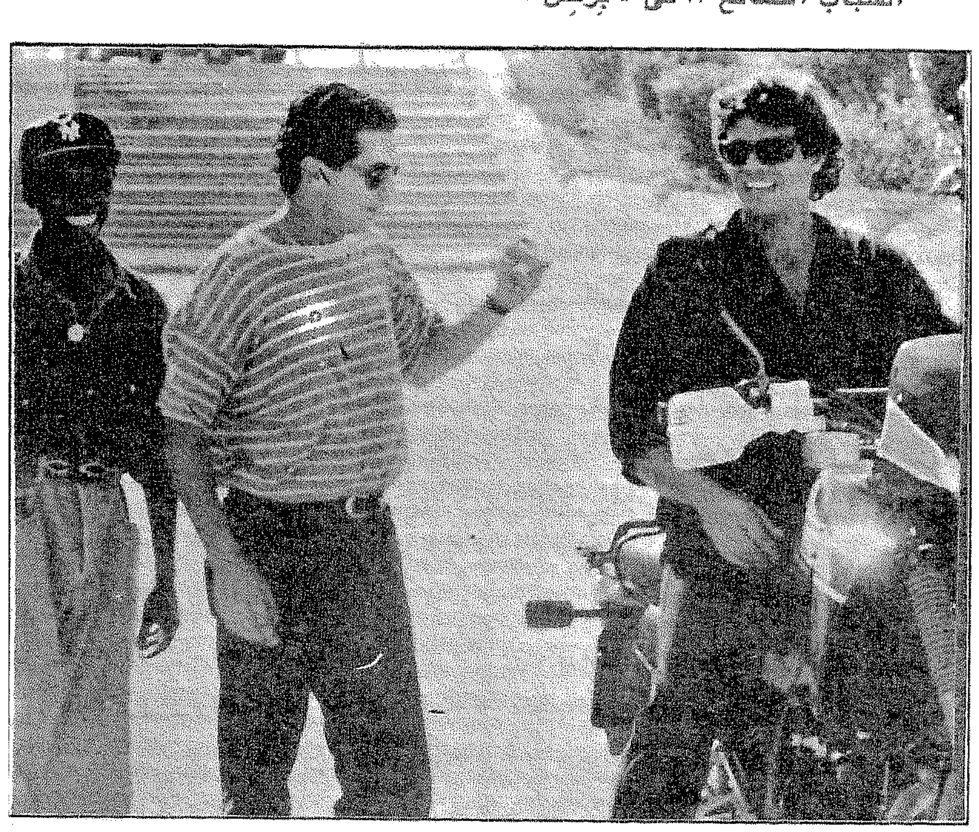
والفضل فى ذلك كان لكوكبة من المبدعين الموهوبين ، اذكر من بينهم على سبيـــل المثــال « محمود بن محمــود » ، « نورى بوزيد » ، « ناصر خمير » و « فريد بو غدير » .

وجــرى تتويج هذه النهضـــة ، قبـل سنتين ، بالحلفاويين رائعة الأخير .

وهى رائعة أراها حدثا جليلا فى الانتاج السينمائى العربى ، لأنها فتحت بابا بقى موصدا ، حتى يوم عرضها فى تونس بنجاح فى الشباك ، فاق كل التوقعات .

ومن ارهاصات تلك النهضة الغاء الرقابة على فن السينما فى المغرب قبل خمس عشرة سنة ، وتطويعها لخدمة هذا الفن فى كل من الجزائر وتونس .

الشباب الضائع .. فى « بزنس »



مولد سينما

ومنذ قديم كان السؤال .. أين السينما المغربية ؟

وجاءت الأجابة فى أيام قرطاج قاطعة بوجود هذه السينما قوية ، قادرة على التعبير بحرية ، متحررة من أكثر القيود التى تكبل السينما العربية لاسيما ما كان منها مصريا .

والسينما المغربية استوقفت الأنتباه بفيلمين أولهما شاطىء الأطفال الضائعين لصاحبه المخرج « جيلالى فرحاتى » الذى قام بإسناد الدور الرئيسى فيه لشقيقته « سعاد فرحاتى » .

وهى فى فيلمه تؤدى دور فتاة شبه بلهاء يخفيها أبوها عن عيون الجيران فى قرية صيادين تطل على المحيط ، لأنها حامل والمسئول عن ذلك سائق لم يعد بامكانه إنقاذها ، لا لسبب سوى أنها قتلته دون قصد ثم أخفت جثته فى أحد كثبان الملح المنتشرة على سطح الشاطىء الكئيب.

ومع مرّ الأيام ، ينمو الجنين ، وتساعدها زوجة أبيها العاقر بادعاء أنها هى الحامل .

والفيلم بموضوعه الفريد ، وبأسلوبه الساحر وبلغته السينمائية الهادئة الرصينة ، إنما يذكرنا بروائع « بازولينى » و « باراد جانون » و « مومياء شادى عبد السلام » .

ومن عجب ابتعاد صاحبه فى تناوله لمأساة تلك الفتاة عن مرجعية السينما العربية السائدة ، فلا تعامل مع المشاهد باعتباره كائنا ساذجا ، تستغل عواطفه ، وتستدر دموعه بالصراخ والعويل .

فاذا ما أنتقلنا إلى الفيلم الآخر « حب فى الدار البيضاء » فسنجد مخرجه « عبد القادر لقطع » يطرح فيه مشكلة صراع الإجيال من خلال قصة فتاة تعمل مدرسة، تسقط فى حب عشيقين ، نكتشف والفيلم يقترب من نهايته الفاجعة ، إن أولهما الأكبر سنا ان هو إلا والد العشيق الشاب.

ومخرج الفيلم يعرض لهذه العلاقات الخطرة بجرأة غير مألوفة فى السينما المتكلمة بلغة الضاد .

والأكيد أن هذه الجرأة ، لعبت دوراً كبيرا فى نجاح الفيلم جماهيريا داخل المغرب ، وذلك رغم ضعف اخراجه اذا ما قورن باخراج « شاطىء الأطفال الضائعين » .

أرهاب الفساد

أما السينما الجزائرية ، فقد أدهشتنا بفيلم « خريف أكتوبر فى الجزائر » لصاحبه المخرج والممثل وكاتب السيناريو

« مالك لخضر حمينه » ابن أول مخرج عربي يفوز بجائزة مهرجان كان الكبرى عن فيلم « سنوات الحمر » .

و « خريف أكتوبر » أول فيلم يخرجه « مالك » وفيه يحكى صفحة من تاريخ الجزائر الحديث ، وبالتحديد الفترة السابقة بأيام على أحداث أكتوبر ١٩٨٨ ، تلك الأحداث الدامية التي أنتهت بسقوط حكم الشاذلي بن جديد الشديد الفساد .

وهو يحكيها من خلال أسرة جزائرية متوسطة الحال ، محورها ثلاثة أشقاء ، احدهم فنان متحرر والثاني سلفي متحجر، والآخير متخلف عقليا .

والشقيق الفنان يتعرض طوال الفيلم لالوان من الضرب والإهانة على أيدى المتعصبين وجلادى السلطة على السواء ، وكلاهما في أهانته وتعذيبه لايقيم وزنا لأية حرمة من الحرمات .

بيع الأجساد

يبقى أن اقول ان السينما التونسية ساهمت هى الأخرى فى هذه الموجة من الأعمال السينمائية الجريئة بفيلم المخرج « نورى بوزيد » اسماه « بِزْنِسْ » .

وفيه يعرض لمأساة الشباب التونسى الذى يتربح من بيع جسده للسائحات ، وكأن هذا الجسد ليس إلا سلعة تباع وتشترى وفقا لقوانين العرض والطلب .



الحلفاويين .. فتح الابواب

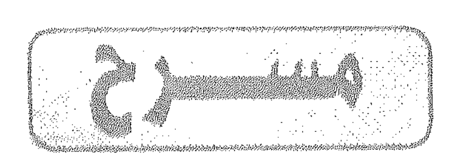
و « روفا » بطل فيلم « بوزيد » واحد من هذا الشباب الضائع .

أنه يعيش ازدواجية أخلاقية مقيتة .

فهو مع أهل بيته وشريكة حياته مستقل ، محافظ متمسك بالتقاليد إلى أقصى الحدود .

أما خارج البيت ، ومع النساء السائحات بالذات ، فهو لا يتورع عن بيع فحولته ، ويبيعها بلا حياء ، مستحلا كل المحرمات .

وختاما ، نستطيع بعد كل هذا ، ان نتنفس الصعداء ، ونقول متفائلين أصبح للمغرب العربى سينما يعمل لها حساب .



٢ تحت الأرض

الاكتشاف فى العمق

بقلم : فوزية مهران

منذ أكثر من ثلاثين عاما كنت أحدث كاتبنا الكبير نجيب محفوظ عن ذلك المسرح العبثى التجريدى الجديد .

وكيف حول يوچين يونسكو قصة قصيرة له « السيد أو القائد » إلى مسرحية من فصل واحد . والمشهد فى ميدان كبير حيث يتقدم موكب السيد أو الزعيم .. القائد - من نوعية هتلر ربما - تحتشد الجماهير على جانبى الطريق لرؤيته - ومذيع ينغم صوته ويطوعه ليصف تفاصيل الركب - مع هتاف الجماهير .

فتى وفتاة يحاول كل منهما رؤية ما يجرى .. يقف الفتى على مرتفع صخرى ويفسح لها مكانا تقف على أطراف أصابعها فيه ..

تشهق الفتاة : إنه بلا رأس ..

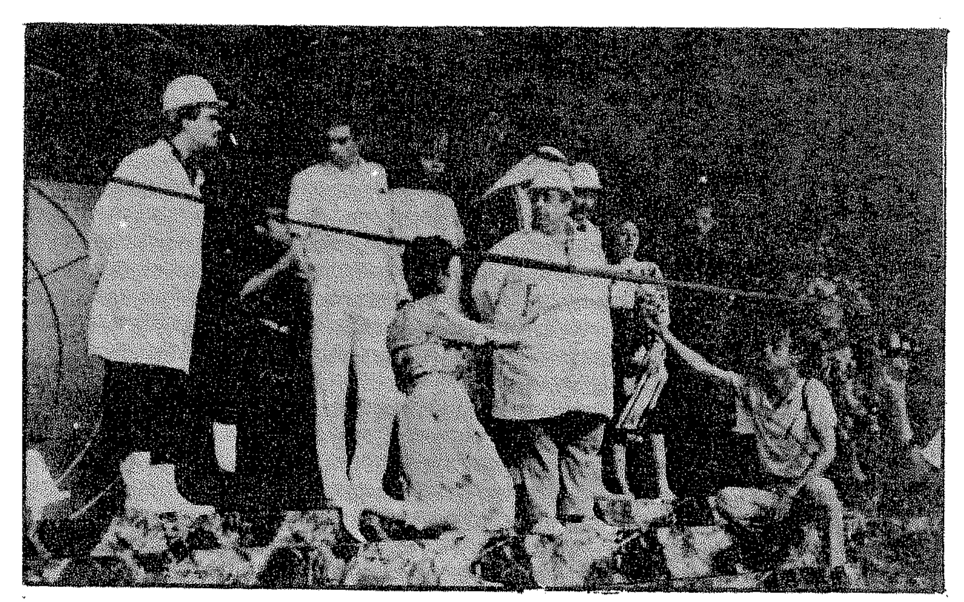
ينهرها رجل كبير : اصمتى ما حاجته لرأس !

تلتصق بالفتى - يسندها كى لا تقع .. صوت المذيع وهوسه .. يتعانقان يسألها :

- ما اسمك ياحبيبتى ..

سألنى نجيب محفوظ : ما جنسية يونسكو؟ .

- من رومانيا ويكتب ويقيم بباريس.



لقطة من « ٢ تحت الارض »

قال - كأنه مصرى - والمشهد بين أيدينا وعلى أعيننا - ماذا ترك لى لأكتب ! وضحك ضحكته الشهيرة - المجلجلة من الأعماق .. الساخرة المرحة التى تسع جموع « وعموم المصريين » .

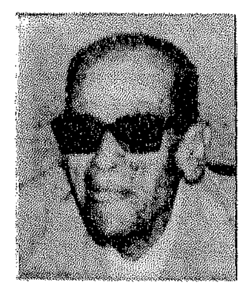
(بعدها انطلق فى مرحلته الرمزية والعبثية .. وأطلق سخريته اللاذعة .. وصوره الشعبية التى تضج بالمفارقة .. وجسد لوحات عبثية ومشاهد واقعية هزتنا من الأعماق - وعبر عما يجرى من تناقض وأحداث كأنها كوابيس - انطلق يعبر بمصريته الأصيلة ووصل إلى آفاق التحدى والكشف المثير) .

عن المؤلف :

وهكذا فعل « محمد سلماوى »

إنه فى دراسته للمسرح الحديث داخله هذا التحدى الجميل .. إن الواقع لدينا حافل بالمتناقضات .. بالمفارقات وبمظاهر العبث والضحك والبكاء معا .

لديه على الساحة لقطات ولحظات ومواقف درامية عميقة المعنى باللغة الإثارة والتأثير موحية وناطقة . شخوصه مثل بيكيت ويونسكو وأداموف فى مواجهة المجتمع .. أمام لعنة الانتظار ومحاولة الفهم والبحث عن معنى .. عن الدفء والتواصل .


نجيب محفوظ


محمد سلماوى

لحظة واقعية .. سياسيّة .. اجتماعية والإنسان يعانى من التمزق من الانفصام والعزلة من القهر من التحكم .. توالت أعمال سلماوى المسرحية - اللى بعده - فوت علينا بكرة - القاتل خارج السجن - وأخيرا أنضج الأعمال وأكثرها سخرية ومرارة ٢ تحت الأرض .

عن المسرحية :

بقدر ما أفاد محمد سلماوى من دراسته المسرحية استفاد أيضا من موقعه ككاتب صحفى له حس متميز ورؤية واضحة . اقتطع موقفه المسرحى من قلب الواقع - المسرح يخلق المواطنة الجيدة - كما يقولون لم يكن فى حاجة إلى الابتكار أو إعمال الخيال.. المشاهد من حوله .والأحداث الصغيرة يمكن أن تلقى بوهج الحقيقة .. وتكشف عن عمق درامى وتضىء أمامنا الأضواء الكاشفة وتمد إلى حالة مضحكة ومبكية معا .

كل يوم نسمع عن طفح شبكات المجارى - اختلاطها بمياه الشرب سقوط أحدهم داخلها - فوهة فاغرة تبتلع أطفالا يلعبون الكرة .. أو فى طريق عودتهم من المدرسة حادثة مؤسفة ومتكررة حتى تبلد منا الحس وأصبحنا نلتقى بالأخبار المفجعة .. مع حوادث القتل والاغتيال - وسقوط الدول والنظم - نقرأ الأحداث وكأنها بعيدة عنا - تدور فى كوكب آخر ونحن نحتسى الشاى ونفكر فى الصلاة ونتصل بأحبائنا لنطمئن عليهم !

لكن الإنسان لا يستطيع أن يحيل نفسه إلى قطعة صخر .. لابد أن يتوقف يوما تدمى إنسانيته - توجعه آدميته .

الفنان عمله أن يهتم .. أن يعيد الإنسان إلى مجتمعه .. إلى كلية إنسانية واسعة وإلى جوهر إنسانيته .

دبر المؤلف أن يسقط فى إحدى البالوعات المهجورة فتى وفتاة « منى وحسن » بعد يوم عمل ورغبة فى العودة إلى البيت والأهل ومسئولياتهما .. كانا يسيران فى الطريق العام تحت وهج الشمس .. كل فى حال سبيله .. وفجأة وجد كل منهما نفسه فى قاع الجب العميق .

وتبدأ رحلة الإنسان فى قلب الحوت.

لم يذهب أى منهما مغاضبا .. ولم يفر أحد من عمله أو مهمته .. إنما سارا فى صبر ومعاناة وملل - تمشيا مع القطيع العام وتبعا مصيرهما بلا غضب أو ندم - ومع ذلك قذف بهما الخطاة إلى قلب الحوت .

(وليته من نوع الحوت السابح فى بحر الظلمات .. حوت عصرى وحشى وهوان رهيب) مشهد واقعى تماما - ومأزق يمكن ببساطة أن يحدث لأى منا - ومفارقة مضنية تكشف عن الجانب اللامعقول من حياتنا .

وأقام حول الموقف بناء دائريا - كى يدلى بشهادته ويصل برسالته - ويتمكن من إيجاد فصل ثان يبدأ وينتهى فى البالوعة أيضا والحلم بالخلاص والخروج وإعادة صياغة الحيـــاة من جديد .

يبدأ النقاش والجدل واللقاء الغريب والهدف المشترك . يدور كل منهما أحيانا فى منولوج داخلى بصوت مرتفع - يحكى عن حياته « فوق » معاناته .. جانبا من سيرته الشخصية والاجتماعية .

- نفس الموقف التعس الذى يجد فيه المشردان فى مسرحية بيكيت « فى انتظار جودو » .

- لا أحـــد يأتى .. لا أحـــد يذهب .. ولا خروج

وفجأة يأتى عاملا زراعة .. معهما أصص الزهور - ورغم أنهما يمثلان شارة الأمل ولمسة التواصل والدفء الإنسانى .. فإنها فى طليعة موكب التزييف وقلب الحقائق والهدف المعد تجميل المكان لافتتاح توصيلة شبكة المجارى الجديدة والتخفيف من السخط العام على حوادث غرق البالوعات ، والعمل يجرى على قدم وساق والمشاكل فى طريقها إلى الحل .. وحلول الرخاء كما تشير الدعايات وأجهزة البث والإعلان .

يبدو جليا أنه قد سقط معهما فى البئر العميقة الكذب أيضا والزيف . الشخصيات التى جعلها المؤلف تدور حول الموقف بلا أسماء - لأنها فى الحقيقة بلا ملامح أو وجوه .. مجرد أنماط لمناصب أو ألقاب .

- يدورون حول الحدث ولا يقربون الحقيقة .

مجرد أداء تمثيلى ساذج أو تهريج والايهام من أن دولاب العمل لا يتوقف وكل شىء على ما يرام .. وجار الاصلاح والترميم .

- رجل الأمن .. المحقق .. المتحدث الرسمى - مذيعة التليفزيون .

منى وحسن - بطلان واسمان - والأمل مرهون بجهودهما .

أيضا عليش وحبيش - عاملا الزراعة والنظافة - ومحبا الخضرة والشهامة.

رغم غرابة إسمهما - فهما رمز البسطاء العاملين .. أصل الحضارة - ومبعث الدفء الإنساني وصلات الود رغم جفاف الواقع وقسوته من حولهما .

أستاذ الجامعة د . لبيب . له اسم للتنبيه لنوعية من المثقفين يقعون فى التناقض بين التقدم العلمى وأسر التخلف والتقاليد البالية والأساطير .

- كشف هذا النوع لأنه يعيق التقدم والتطوير .

البالوعة المهجورة التى زينوها واختاروا موقعها للاحتفال والتصوير بدلا من تلك التى حدث انفجار بها وشقت بطن العاصمة وقذفت بالمخلفات والعفن فى وجوهنا .

منى وحسن شاهدان لنا .

- وكأن لا يكفى مالقياه من عذاب وترويع من أثر السقوط .. ولكن يحاط بهما اتهام بالتآمر والتخريب .

- وتجد الصحافة مادة للكتابة والإثارة وشغل الجماهير .

منى وحسن آخر زوجين على سفينة نوح - وصل طوفان العذاب المدى . وكتبت عليهما المواجهة وإقامة حياة جديدة وإدارة دفة النجاة إلى مشرق جديد .

على المسرح القومى

عرضت المسرحية للمرة الأولى على المسرح القومى منذ خمس سنوات (١٩٨٧) .

- كانت من إخراج فهمى الخولى - بطولة فاطمة التابعى ومحمود مسعود - كمنى وحسن - يعيشان الدور تماما . ملابس البطلة لم تكن مناسبة .

حسن العدل وسعيد الصالح - حبيش وعليش - كانا يعرفان مغزى دوريهما وأنهما يمثلان قيمة العمل وسط ركام التراخى والاهمال - ورمز إنسان مصر البسيط - كما كتبنا فى ذلك الحين - مذيعة التليفزيون « نهير أمين » سحرت أعين الناس وأضحكتهم وسط المأساة .

موسيقى عمر خيرت كانت منسجمة مع الموقف المسرحى .

أشرف نعيم فنان الديكور المبدع واجهنا بفوهة بالوعة فاغرة وجسد لنا الحدث بكل أبعاده - وجسد الموقف .. جعله « حاضرا » .

فهمى الخولى جعل حركة الرسميين والموظفين تأتى من القاعة .. من بيننا - نحن أيضا مدانون إذ نسمح لهم بالكذب

علينا والافتراء وهم ينفذون من بين عيوبنا .

جعلنا داخل الموقف - واحتفظت المسرحية بروح الكوميديا السوداء .. وارتفعت الضحكات وتوالت طلقات الحوار الذكى .

على مسرح الجامعة الامريكية

أخذت المسرحية على مستوى أكبر من الخفة والمرح .. انطلق بها شباب قسم المسرح إلى آفاق الكوميديا العبثية - وضجت المفارقة بالضحك . وأعانهم على ذلك كثيرا **المخرج أحمد زكى** .

تقلصت الأدوار وتم حذف بعض الشخصيات - وغاب عنها البعد السياسى ولذعة النقد الاجتماعى .. ورموز الحكمة والتاريخ وإن تأججت بمرح الشباب وخفة تناولهم للمشاكل وأخذ الأمور ببساطة .

غاب العمق وحرقة الموقف واحتفظوا ببراءة نظراتهم وإشاعة الأمل . الموقف الدرامى نفسه تحول من الترويع وحدة المواجهة .. إلى عبثية الوضع واشتعال النكتة فيه وإبراز جوانب اللهو والمرح .

قصة الحب هى المفارقة - لحظات عاطفية شاعرية تجرى فى بالوعة مهجورة !! ديكور المسرح - د . محمد حامد على - كأنه خلفية منزل قديم .. والمواسير ظاهرة - لا حفرة ولا هوة - جعلنا ندرك فقط أننا تحت بعدة سلمات تمتد بين السطح وإلى الداخل .

- السطح لا يفضى إلى شيء .. ولكن يأتى منه الآخرون .

اللمسة المرحة الذكية التى أضافها أحمد زكى هو أنه وضع المذيعين المبرمجين الرسميين فى صفيحة قمامة على جانبى المكان وجعلهما يطلان كل حين - مثل الإنسان الآلى - ويذيعان الكلمات المعدة لهما . (هو الذى أخرجهما على هذه الصورة وأضاف إليهما عنصر البرمجة - فى النص نجد المذيع العادى أو صورة كاريكاتيرية له - هم ومن ينطقون باسمهم فى صفيحة قمامة بالفعل - ولا يعيرهم الشباب انتباها يضحكون منهم ويسقطون كلماتهم .

فعلها بيكيت من قبل ..

الكاتب المسرحي الذى حصل على جائزة نويل وضع الأم والأب فى مسرحية « نهـاية اللعبة » فى علبة قمامة . وهاجت الدنيا عليه - قبل حصوله على الجائزة - لقد جرح مشاعر الرأى العام . ونال من قدسية الأبوين - ولم يهتم بيكيت قال إن الناس لاتقوى على مواجهة الحقيقة أو الواقع

الصارخ - مهمة المسرح ان يضع أمامهم الحقيقة سافرة - يصدمهم بها - كثير من الشباب لا يقيمون وزنا لآبائهم لا يبدون احتراما عميقا لهم - بعد الجهد والعناية والتربية يعتبرون أن دورهم انتهى - يلقون بهم إلى سلة المهملات - ويعجبون لطول بقائهم ! - أحمد زكى انتقم لنا من مزيفى النشرات والدعاية والاعلان وضعهم فى صناديق القمامة هم ودعاياتهم المغرضة .

وكان متوافقا تماما بين عبث الشباب ومرحهم وأخفى مكره بين طيات ضحكاتهم .

منى التونس بطلة العرض بدت مبهرة مدهشة .

تنتقل بخفة ونعومة من فتاة تشعر بالأسى ووجل طفولى .. إلى أنوثة ناضجة تشعر بالحب فى موقف عسير حقا .

وأحالت صوتها الجميل إلى أداة موسيقية تصنع من المشهد لحنا عذبا مؤثرا .

إبراهيم صالح فى دور حسن - كان صغيرا بريئا يأخذ الأمور بظاهرها وعفويتها ويبدو غير واع تماما بأبعاد دوره أو بحقيقة الموقف الذى هو فيه .

مفاجأة العرض حقا « **خالد أبو النجا** » نجح فى أداء الدورين معا - المأذون ومدرس اللغة الفرنسية .

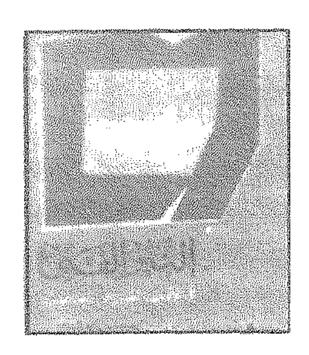
- يستطيع أن يستحضر مشاعره الكامنة لدى أى دور يقوم به - إحساسه متقد وبوسعه النفاذ إلى الآخرين والإمساك بجوهر الشخصية التى يؤديها كأنها حقيقته .

لقد شاهدته فى أدوار عدة ومعظم المسرحيات التى تقدم على مسرح الجامعة الأمريكية - خصوصا فى « محفوظيات » عن شخصيات فى قصص نجيب محفوظ ومازالت طريقة أدائه مشعة ومتوهجة .

عليش وحبيش - أى **أحمد عابدين ومحيى العرابى** كأنهما حقيقة الرمز لدوريهما محبا الزرع ، وشراع الأمل ليقضى على الركود والبوار والعفن .

عبير الشرقاوى فى دور مذيعة التليفزيون منطلقة عنيفة صاخبة مليئة بالحماسة وجموح العاصفة .

كلمات **شوقى خميس** أضافت الكثير وأعادت التوازن والعمق للكوميديا الساخرة . أما الجوقة الموسيقية ألحان « **علاء مصطفى** » وأورج « **ايهاب عبد السلام** » وإيقاع « هشام الزقازيقى » فقد أحاطت العرض بخلفية موسيقية نابضة .. وجعلت معزوفة الكلمات تدور حلقاتها داخلنا ومن حولنا وتشدنا إلى قوى الشباب وإمكانية الوعد وتحقيق الأمل .



● النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر.
تأليف : حسن كشاد .
ترجمة : د. إبراهيم الدسوقى شتا .
الهيئة المصرية العامة للكتاب .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٦ عن جامعة كمبردج البريطانية ، ونال مؤلفه به درجة الدكتوراه ويقدم الكتاب نشأة الفن القصصى وتطوره فى الأدب الفارسى ، مع عرض للتاريخ السياسى لإيران فى المائة سنة الأخيرة والظروف الاجتماعية التى صاحبتها ، الأمر الذى أثر بدوره على الحياة الأدبية وإلى جانب اهتمام المؤلف بالفن القصصى فقد أشار إلى بعض المقالات الصحفية والدراسات النقدية والترجمات التى قام بها الكتاب ، ويأخذ المؤلف جانب الإنسان وآماله الفكرية والاجتماعية والسياسية ، لدرجة أن اعتبر البعض كتابه صرخة مدوية ضد الإرهاب الفكرى والسياسى كما اهتم المؤلف بالنقد الأدبى والفنى وعرض للمشكلات الفنية التى يواجهها أدب فى طور النمو مثل مشكلة التعبير وهل يكون فى لغة أدبية أو عامية أو فى لغة خليط منهما معا ، وكذلك مشكلة التعبير الرمزى الساخر فى مجتمع استبدادى تسيطر عليه الفاشية ، ورسالة الأدب فى مجتمع دائم التطور والغليان .

وتناول الكتاب الفترة الزمنية من عام ١٩٠٥ - ١٩٦٥ وقسمها ثلاث فترات رئيسية أنتجت كل واحدة منها أدباً مرتبطا بطبيعتها إلى حد بعيد :

١ - فترة الثورة الدستورية (حدثت الثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٥ - ١٩٠٩) وما بعد الثورة الدستورية حتى انقلاب رضا خان العسكرى من ١٩٠٥ - ١٩٢١ .

٢ - عهد رضا شاه من ١٩٢١ - ١٩٤١ .

٣ - فترة تبدأ من اعتزال رضا شاه من ١٩٤١ حتى عام ١٩٦٥

وفى مقدماته التاريخية أشار المؤلف إلى أن الطباعة دخلت إيران عام ١٨١٢ ، كما أن أول صحيفة صدرت فى إيران عام ١٨٣٧ ، ويشير المؤلف إلى صحيفتين كان يصدرهما فى القاهرة ميرزا محمد على خان الشيبانى وهما : «الثريا» ١٨٩٩ - ١٩٠٠ ، «بروش : التربية» ١٩٠٠ - ١٩٠١ ، وبرغم أنهما كانتا قصيرتى العمر إلا أنهما اكتسبتا شهرة واسعة ، كلتاهما أحدثت ثورة عقلية عظيمة فى الشباب الإيرانى وأشعلت الرأى العام وملأت رجال البلاط بالرعب .

ويسجل المؤلف أن كتاب «سياحة إبراهيم بك» تمثل المحاولة الأولى فى كتابة رواية على النمط الأوربى ، والكتاب من ثلاثة أجزاء وقد أحدث ضجة عظيمة فى إيران ، وقد ظهر الجزء الأول بدون تاريخ وبدون اسم المؤلف وصدر فى القاهرة ، وصدر الثانى فى كلكتا عام ١٩٠٧ ، والثالث فى استامبول عام ١٩٠٩ وعليه اسم المؤلف الحاج زين العابدين المراغى وهو تاجر إيرانى كان يقيم في استامبول ، وتدور فكرة الكتاب حول ابن تاجر تبريزى جاء بعد مولده إلى مصر ، وهناك نشأ وتشرب من والده تربية وطنية وحبا زائدا لموطنه وحضارة موطنه القديمة ، وبناء على ما ورد من وصية والده ، قام إبراهيم بك برحلة إلى إيران ، وعلى عكس ما كان يتوقع وجد المكان الذى كان أبوه يصفه دائما بانه جنة ، مليئا بالفقر والبؤس والظلم ، والكتاب يحتوى على نقد مر للأحوال التى كانت سائدة .

وأفرد المؤلف عدة فصول عن كاتب إيران الأول صادق هدايت الذى انتحر فى باريس عام ١٩٥٠ ، وقدم أعماله ورأى النقاد الاوروبيين فى هذه الأعمال .

ويتحمس المؤلف إلى رواية قصيرة : تسمى «يكليا ووحدتها» كانت باكورة أعمال الكاتب الشاب تقى مدرسى وصدرت عام ١٩٥٦ وكما يقول المؤلف: تعتمد على موضوع توراتى ممتزج مع نظرة كنظرة ميلتون في مناقشة البحث عن تحقيق الطرق إلى الله ، ويعلق المترجم على هذه الرواية بقوله : «الرواية تجرى فى إسرائيل القديمة ويكليا هى ابنة ملك أورشليم .. وقد تجاهل المؤلف وضع الرواية فى إطارها السياسى والاجتماعى فى سنوات الخمسينات الوسطى وبعد سقوط مصدق وتوارى الجناح

الديني والتقارب الشاهنشاهي الإسرائيلي

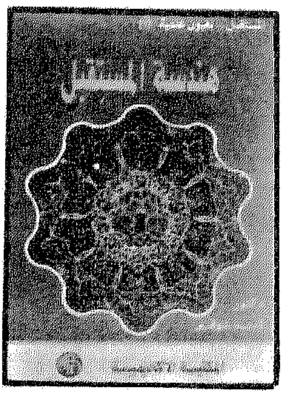
أما أخطر ما جاء بالكتاب فكان الهجوم على العرب عموما من خلال الأعمال الأدبية وخاصة أعمال كاتبهم الكبير صادق هدايت ، الذى يقول على لسان أحد أبطاله :

«كانت غلطتنا أننا علمنا العرب الإدارة الحكومية ووضعنا نحوا للغتهم ، وفلسفنا دينهم وحملنا السيوف وضحينا بشبابنا من أجلهم ، وسلمناهم بأيدينا أفكارنا وأنفسنا وفنوننا وصناعتنا وعلمنا وأدبنا ، وذلك من أجل أن نمدين أرواحهم الجاهلة الشموس.. لكن وا أسفاه . هناك فرق شاسع بيننا وبينهم ، بين جنسهم وأفكارنا .. وهذا ما ينبغى أن يكون» .

ويعلق المترجم بقوله :

«كان تعظيمه إيران القديمة والهجوم على العرب ملمحا من ملامح الفترة البهلوية ولا يعبر هدايت إلا عن الروح السائدة فى كتابات مفكرى الشاهنشاهية وكان الاتجاه محمودا ومستحسنا من قبل الشاهنشاهية».

وهنا يثار تساؤل ، لماذا لا يكون من خطة الترجمة الأدبية ، الأعمال الأدبية الإيرانية ، وكذلك الأعمال الأدبية التركية لنقف على آرائهم ولا يكون فقط فى المتابعات السياسية ونحن نعرف أنه منذ الثلاثينات ترجمت أعمال أدبية وفنية فارسية هامة ، ولكننا نحتاج اليوم إلى معرفة الأجيال الجديدة من الأدباء والكتاب . وقد قام المترجم الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا - أستاذ ورئيس قسم الدراسات الشرقية وآدابها بجامعة القاهرة بجهد مشكور فى هذا المجال ، فإلى جانب ترجمته لهذا الكتاب الذى نحن بصدده وتعليقاته الهامة التوضيحية ، وإن كان بعض هذه التعليقات جاء نتيجة الاختلاف الفكرى بين المؤلف والمترجم وقد قدم الدكتور شتا : قصصا من الأدب الفارسى ، ومطالعات فى الرواية الفارسية المعاصرة ، كما قام بترجمة العودة إلى الذات - لعلى شريعتى ، وكتبه عن الثورة الإيرانية.



هندسة المستقبل
الدكتور أحمد شوقى
المكتبة الأكاديمية

هو الكتاب الأول من سلسلة «المستقبل بعيون علمية» وهى سلسلة مفتوحة - كما يقول مقدمها ومؤلف الكتاب فيها المؤلف والمترجم والمشترك ، بحيث تصبح نوعا جديدا من المشروعات التى ترتكز على دعامتين من حصاد التقدم العلمى والفكر المستقبلى المتفتح ويشترك فى حوارات الغد، مع الحرص على التفكير العلمى والموضوعية والرؤية النقدية .

ويقدم الكتاب رؤية بانورامية لدور العلم والثورة العلمية التكنولوجية عموما ، والبيولوجيا باعتبارها أقرب العلوم الطبيعية إلى العلوم الإنسانية خصوصا ، فى تشكيل وهندسة المستقبل ، وانطلاقا من «ثقافة البيولوجيا» يلتحم فى حوار واسع من مجالات الفكر المستقبلى فى التعليم والسياسة والاقتصاد والتنمية ، طارحا اجتهاداته عن صورة المستقبل كما تبدو لنا ، بشكل يستهدف الالتقاء والمشاركة فى الحوار حول الصورة التى يقدمها غيرنا ، وبذلك يمكن أن نضع على المستقبل المتحقق بصماتنا .

والكتاب لا يقف عند رصد الإنجازات العلمية الهائلة على مدى ربع القرن الأخير (٦٤ - ١٩٨٩) من استكشاف الفضاء ، إلى استخدام الأقمار الصناعية فى مراقبة العواصف والاتصالات والبث المباشر واستكشاف المناطق غير المطروقة إلى جانب التقدم الكبير فى تشخيص الامراض باستخدام المسح بالأشعة المقطعية والتقدم فى تخليق المواد الجديدة الموجهة للتوصل إلى كفاءة أعلى فى الأداء فى مختلف الأغراض ، هذا مع استخدام أشعة الليزر ، ليس فى إجراء العمليات الجراحية فقط ، بل فى تسوية الأراضى الزراعية ولعب الموسيقى وقراءة أسعار البضائع، يتعدى ذلك لمناقشة علاقتنا بالآخر ، ويحاول المؤلف من خلال الإنجازات العلمية التى تمت والتى هى متوقعة على قضايا مازالت محل الجدل والنقاش ، حول الأصالة والمعاصرة ، وحول الوافد والموروث ، ومن خلال ما يحدث فى العالم يطرح المؤلف تساؤله عن دورنا فى هذا العالم المتطور دائما ، وهنا يناقش فكرة التابع والمتبوع ، ويدعو أن نبدع

فكرنا المستقبلى النابع من ثقافتنا والذى يتوامم مع التوجهات العظمى التى تحدث فى العالم ولكن لا يتطابق مع الفكر المستقبلى لأصحاب الثقافات الأخرى ، فالمستقبل للتكيف والتنوع فى ظل الاقتناع الكامل بحق الوجود المشترك .

ويركز الكاتب بشكل أساسى على التعليم ودوره ، فإن إدراك عوامل القصور فى واقعنا التعليمى ورفع عناصر الأمن فى منظومته والاتفاق المجتمعى حول استراتيجية قومية لتطويره ، يتم التوصل اليها بناء على دراسة مستقبلية جادة ولا شك أن التواصل مع تجارب الشعوب الأخرى فى هذا الشأن يعد أمرا حيويا ، على أن يتم ذلك بالاستفادة من العام دون إهمال للخاص .

والكتاب يتناول العديد من القضايا الحيوية الهامة ولا نستطيع طرحها أو عرضها لاننا فى هذه الحالة سنحتاج إلى مساحة توازى مساحة الكتاب فنحن نكتفى بالإشارة إلى أهمية الكتاب وخطورته ، ويكفى أن يدفعك للتأمل والتفكير ويغضبك بما نحن فيه ، لكنه يأخذ بيدك إلي الأمل ، إلى المشاركة فى صنع المستقبل ، وذلك طبقا للشروط الموضوعية والعلمية والنظرة المستقبلية ، ويتميز الكاتب بنظرته الشمولية وثقافته السياسية والأدبية ووعيه بقضايا الوطن العربى وبدور العروبة .



مصر والحركة العربية

د . محمد عبد الرحمن برج

سلسلة مصر النهضة - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مع بداية هذا القرن كان ميلاد الحركة العربية من خلال الجمعيات والتنظيمات السرية داخل الدولة العثمانية ، ثم أخذت أشكالا علنية كمؤتمر باريس عام ١٩١٣ وكتابات المثقفين القوميين فى الشام ، فى البداية لم تكن مصر ضمن هذه الحركة ، لظروف سياسية ولاختلاف التوجهات من أجل الاستقلال ، وقد صدرت عشرات الكتب التى تناولت موقف مصر من الحركة العربية ، كان منها كتاب «الفكرة العربية فى مصر» للدكتور أنيس

صايغ - ١٩٥٩ - وتطور الفكرة العربية في مصر - لذوقان قرقوط ، وفي البداية لجأ زعماء الحركة العربية إلى مصر، وعلى أرضها تحركوا ، وكانت كتاباتهم وصحفهم وأحزابهم السياسية، ومنذ بداية الثلاثينات، أصبحت فكرة الوحدة العربية في برامج بعض الأحزاب المصرية ، وفي الأربعينات أنشئت الجامعة العربية ومقرها القاهرة ، حتى أصبحت مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هي قلب الحركة العربية وعقلها ، وتجسدت آمال رواد الحركة في أول وحدة عربية في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ومرت الحركة العربية بأزمات ، وحققت نجاحات ، وأصيبت بنكسات وخفت صوت المنادين بها ، من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب ، وإن كان يتناول الموقف حتى بداية الحرب العالمية الأولى فقط ، ليوضح ويؤكد دور مصر في الحركة العربية وإسهامها الواضح ، حتى في البدايات ، من خلال إشعاع حركة التحديث في العالم العربي والتي بدأت مصر ، ومن خلال متابعة تاريخية لدور الشوام في مصر ، وموقف مصر من قضية احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب عام ١٩١١ ، وبعد استعراضه لأحداث هذا الحدث وموقف الدولة العثمانية وبريطانيا والحكومة المصرية والخديو عباس حلمي وموقف الصحف المصرية يرى المؤلف أن موقف مصر وما قدمته من مساعدات لأهالي طرابلس كان كسبا للحركة العربية ، ونتوقف طويلا عند تقديم مركز الوثائق لهذا الكتاب ، لما جاء من كلمات واعية معبرة عن آمال وطموح أصحاب الفكرة العربية وإعلان انحياز سلسلة مصر النهضة للفكرة العربية التي أصدرت بعض الكتب تأكيدا لموقفها ، وجاء في التقديم : «بينما تبدو الفكرة العربية وهي تتراجع باستمرار منذ السبعينات لتحل محلها الروح القطرية ، فإن مصر النهضة منذ أن صدرت تقف في صفوف أصحاب الفكرة ، رغم ما يتعرض له هؤلاء من استهزاء من بعض غلاة القطريين من جانب ومن اتهام العلمانية ، بعد أن أصبحت العلمانية تهمة ! من غلاة المتدينين من جانب أخر .

ويصدر هذا الانحياز لدى القائمين على مصر النهضة من اعتقاد راسخ بأن لاماضي لمصر بدون أمتها العربية ولا مستقبل لها دون القيام بدورها الطليعي داخل هذه الأمة،

ومن اقتناع يصل إلى حد اليقين بأن تراجع الفكرة العربية فى مصر أو فى غيرها إنما هو تراجع مؤقت وبفعل فاعل

طبعات جديدة

صدرت الطبعة الثانية من كتاب «القبائل العربية فى مصر - فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة» للدكتور عبد الله خورشيد البرى - عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - هذا الشهر - دون أى إشارة إلى الطبعة .

ولقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، والتى أصبحت فيما بعد الهيئة المصرية العامة للكتاب .

والفرق بين الطبعتين أن الطبعة الثانية اختصرت صفحات فهرس الكتاب فى الطبعة الأولى من ١٢ صفحة إلى صفحة واحدة ، أما سعر الكتاب فقد تضاعف حوالى ١٥ مرة - على مدى ربع قرن - فكان سعره فى الطبعة الأولى ٥٠ قرشا ، وأصبح فى الطبعة الثانية ٧٢٥ قرشا .

ومؤلف الكتاب من جماعة الأمناء ، وصدر له من قبل « القرآن وعلومه فى مصر» - من ٢٠ هـ - ٣٥٨ هـ ، قدم الكتاب المرحوم الدكتور عبد العزيز الاهوانى - صدر عن دار المعارف عام ١٩٧٠ . كما صدر له فى سلسلة كتاب الهلال «أوراق مصرية» - أغسطس ١٩٨٥ ، وكان الدكتور عبد الله أستاذاً للأدب العربى فى كلية الألسن ، كما كان وكيلا للكلية وقد توفى فى ١٧ يوليو عام ١٩٩٠ .

وفى سلسلة «إقرأ» - دار المعارف ، صدرت طبعة جديدة من كتاب «العشاق الثلاثة» (جميل بن معمر - كثير بن عبد الرحمن - العباس بن الأحنف) للدكتور زكى مبارك ، دون الإشارة إلى الطبعة التى صدرت فى الشهر الماضى - وقد صدرت عدة طبعات لهذا الكتاب ، فى الاربعينات فى نفس السلسلة ، وفى السبعينات فى المكتبة العصرية بصيدا - لبنان.

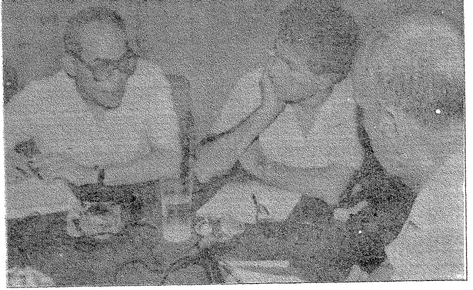
وعن الطبعات الجديدة التى صدرت عن دار المعارف صدرت الطبعة التاسعة لكتاب «المعذبون فى الأرض» للدكتور طه حسين ، والطبعة السادسة لرواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى ، والطبعة الثانية لمسرحية «الإنسان والظل» لمصطفى محمود .

سنوات التكوين

بقلم : د. أمين العيوطى

حين طرح علىّ الصديق مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال أن أكتب هذا المقال ضمن سلسلة من أقلام كتّاب «الهلال» فى هذا الموضوع، راقت لى الفكرة كثيرا . لكننى ترددت . قلت له ، «أنا لا أحب الكتابة عن نفسى ، كما أننى لا أظن أن تجربتى الشخصية فى الحياة تستحق التناول أو تستحق اهتمام القارىء» قال لى ضاحكا ، «دع عنك هذا التواضع.» فكرت قليلا محاولا أن أجد مخرجا من هذه الورطة . قلت : «أكتب عن تجربة جيلى وتكوينه.» قال :«حل رائعا» ، وأردف متحديا ، «هذا إن استطعت أن تحيط بكل هذه التجربة» وكان على حق .

فحين جلست إلى مكتبى الصغير لأكتب المقال وجدتنى أتخبط بين تجربة أبناء جيلى فى شتى النواحى الأسرية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والتاريخية ، من مرور بمرحلة نظام ملكى وحرب عالمية وكفاح طلابى وحزبى ضد الاحتلال البريطانى والاقطاع ، وقيام ثورة غيرت النظام السياسى والاقتصادى وحروب مع إسرائيل ، ودعم لانتفاضات وطنية من الجزائر شمالا إلى اليمن جنوبا وحروب باردة ، وانتفاضات تجتاح العالم كله ، وتفتح أذهان الجيل على كل ما يجرى فى كل ركن من أركان العالم من فيتنام فى أقصى جنوب شرق آسيا مرورا بتجارب الشرق الأوسط المريرة ووصولا إلى أمريكا فى أقصى الشمال الغربى ، بحيث أصبح عقله يتجاوز مجرد الاحتلال البريطانى لمصر إلى الانفتاح على خريطة العالم الجغرافى والسياسى والاقتصادى ، و ..... و ..... و ..... ! تجربة من الصعب أن أحتويها فى مقال . اقتنعت أخيرا . وقنعت بالانزواء فى حدود سنوات تكوينى . وليعذر القارىء العزيز نغمة «الأنا» فى هذا المقال .



أمين العيوطى فى ندوة الهلال مع الكاتب المسرحى السورى سعدالله ونوس

سنوات التكوين لا تنتهى

يقولون فيما يقولون إن سنوات تكوين الفرد هى السنوات السبع الأولى من حياته التى تحدد ملامح شخصيته واتجاهاته . وإذا جاز لى أن أضيف إلى هذا شيئا فهو أنه ، وإن كان هذا صحيحا كل الصحة ، إلا أنه ليس الصحة كلها . ذلك أننى أعتقد أن سنوات التكوين لا تنتهى أبدا إلا بنهاية حياة الفرد . ففى كل مرحلة من مراحل حياته ، بل فى كل عام ، وأكاد أقول فى كل يوم ، هناك إضافة جديدة إلى وعيه وإلى إدراكه للحياة حتى أن تشكيله لا ينتهى إلا بنهاية حياته ، بل وربما حتى بعد ذلك . هى تجربة أبدية لن تنتهى أبدا . فهى فى نهاية الأمر ليست تجربة فرد أو جيل . هى تجربة أبدية ، ليست تجربة فرد أو جيل ، بل أجيال تتلاحق إلى ما شاء الله. فحياة الفرد وحياة الجيل ليست إلا حلقة فى سلسلة طويلة طويلة ، متصلة الحلقات ، لايعلم أحد مداها .

وبداية ، لابد لى أن أقول إن سنوات تكوينى بدأت ، بطبيعة الحال ، فى أسرتى .

وحين أذكر الأسرة فإننى أعنى فى المقام الأول تأثير الوالدين ، وإن لم يكن هذا يلغى التأثير المتبادل بين الأخوة والأخوات . فقد كنا أسرة من ثلاثة أخوة وخمس أخوات ، هذا عدا ما فقدته أمى من أطفال بعد أو قبل الولادة فى زمن لم يكن هناك شيء أسمه تنظيم، فى زمن كانت الاحتياجات فيه قليلة و«اللقمة الهنية اللى تكفى مية!» كان زمنا يمضى هادئا هنيئا حتى وإن اشتدت الضائقات فيه بين الحين والحين خاصة أيام الحرب الثانية وبطاقات التموين ! .

الطريق إلى الله

كان أبى موظفا بسيطا شديد الإخلاص لعمله ، شديد الولاء لأسرته شديد التدين . كان يصلى الفرض فى وقته . فى عز الشتاء كان يقوم فى الفجر ليأخذ «دشا باردا» ، ونحن ننتفض له تحت الاغطية الدافئة ، ويتوضأ ويصلى الفجر قبل أن يعود للنوم بضع ساعات ليبدأ عمل اليوم . كان أول مدرسة ندخل منها إلى معنى الخشوع بين يدى الله والشكر له وطلب رضائه . فى أيام الجمع كان يسعى مشيا من شبرا إلى مسجد السيدة زينب ليؤدى صلاة الجمعة ويعود مشيا أيضا ، ففى كل خطوة يخطوها تباركه الملائكة . هكذا كان يقول لنا . لم يكن يفعل هذا من أجل خلاص روحه وحده ، بل ومن أجل أن يبارك الله أسرته . من خلاله ، ومن خلال أمنا أيضا ، عرفنا جميعا فى سن مبكرة طريقنا إلى الله ، حتى أننى وأنا طفل صغير كنت أنظر إلى السماء وأتعجب كيف رفعت بلا عمد ولم أكن وقتها أعرف الآية الكريمة.

كان حى شبرا يجمع بين المسلمين والأقباط . وكان الكثير من زملائى فى العمل وأصدقائى فى الحى من الأقباط . كانت بيوتهم مفتوحة لنا وبيوتنا مفتوحة لهم . نتبادل أطباق الطعام فى المناسبات والأعياد وفى الأيام العادية . بل أذكر تماما أن والدتى ذات الأصل الريفى والعريق قامت بتوليد ابنة جارة لنا حين تأخرت «الداية» وكانت تلك الطفلة الوليدة عزيزة علينا جميعا كأنها أخت لم تلدها أمنا . ولم يكن أبى يشير من بعيد أو قريب إلى هذا الزميل أو ذلك الصديق أو ذلك الجار على أنه قبطى أو مسيحى أبدا . علمنا ، دون أن ندرى ، سماحة الأديان . علمنا ، دون أن ندرى ، أن الإنسان مهما كانت ملته إنسان فى المقام الأول ، وأن الصلات الإنسانية هى التى تجمع الكل فى زورق واحد إن غرق غرق الجميع وإن نجا نجا الكل .

وبطبيعة الحال كانت شلة الأطفال فى الشارع تجمع بين مسلمين وأقباط . لم نكن نعى فرقا . كانت الصداقة تجمعنا وكفى . كانوا يحتفلون معنا بأعيادنا ، وكنا نحتفل معهم بأعيادهم . كنا ندعوهم إلى حضور الدرس الدينى فى الجامع قبل صلاة العشاء والتراويح فى رمضان . وكنا نشاركهم طقوسهم الدينية فى البطريركية القديمة ، التى كانت تقع قرب حديقة الأزبكية . كانت محاولات اقتراب وفهم من كلا الجانبين باحترام وتقدير كاملين . بل إننى وأنا

طفل صغير حين كنت ألتقى فى الطريق بقس كنت أقبل يده فيمسح على شعرى ويدعو لى بالبركة وهو لايدرى إن كنت مسلما أو مسيحيا . وأذكر فى هذا المجال حادثا طريفا لأحد أصدقائنا الأقباط كان اسمه فيما أذكر بديع . اصطحبناه معنا إلى الجامع فى رمضان وأدى معنا الصلوات كما نؤديها . لكنه ذات مرة ما كاد يخلع نعليه عند مدخل الجامع حتى رأيناه يولى الادبار هاربا . ضحكنا . لم نفهم . ودخلنا المسجد وأدينا الفروض قبل أن نعود إلى اللعب والمسامرة حتى يحين موعد السحور . ضحكنا أكثر حين قال لنا إنه ما أن خلع نعليه حتى رأى بواب العمارة التى يسكن فيها جالسا فى المسجد يتطلع فيه باستغراب فولى الإدبار . أغرقنا فى الضحك حتى أغرورقت عيوننا .

كان هذا ، ياصديقى القارىء ، تأثير أب متوسط التعليم ، وأم ولدت فى فترة لم تكن الفتاة فيها تتلقى أى قدر من التعليم . وسبحان مغير الأحوال !

ورغم أن أبى لم يكن قد تلقى قدرا وافرا من التعليم ، فإنه كان جميل الخط ، وكان حريصا على قيمة تعليم البنات قبل الصبيان كل الحرص ، وإلى أعلى مراحل التعليم . لم يكن يبالى كم ساعة قضيت فى اللعب خارج البيت ، ولا أى ساعة عدت . كل ما يهمه أن أعود إليه فى آخر العام ، أو أن أذهب إليه فى مكتبه لأخبره أننى نجحت . وعندما كنت طالبا فى الجامعة فى قسم الأدب الإنجليزى كنت أذهب إليه لأخبره أننى نجحت . لم يكن يبتهج أو يتهلل أو حتى يبتسم . لكننى فى قرارة نفسى أعلم علم اليقين أن قلبه قد استراح ، إن نجاحى كان نجاحا له ، لكل ما يبذله من أجل بيته وأولاده ، وأن البيت والأولاد يسيرون فى الطريق الذى اختطه لهم فى عقله . لم يكن يزيد على أن يقول لى ، «هل حافظت على الامتياز ؟» أجيبه بالايجاب فيقول ، «عد الآن إلى البيت !» كانت هذه كل سعادته .

الإحساس بالمسئولية

كان البيت هو المدرسة الأولى ، جاءت بعدها المدرسة الأولية والإبتدائية والثانوية . كان المدرس فى ذلك الزمان مدرسا بحق . إحساسه بمسئوليته ينبع من إيمان بحق وطنه عليه فى مرحلة كان الوطن هو الآخر فى مرحلة تكوين جديدة ، بقدر ما كان ينبع من علم غزير لا يضن به ، بل يريد أن ينفع به طلبته . مازلت أذكر فى المدرسة الإبتدائية مدرسا للغة العربية ، هادىء الملامح ، بشوش الوجه ، رحب الصدر أجمع كل تلاميذ المدرسة على حبه . كان ما أن يهل عند بوابة مدرسة «السيدة حنيفة السلحدار » حتى يتوقف الجميع عن ألعابهم وألاعيبهم ولغطهم وثرثراتهم وضجتهم ويندفعوا صوبه فى حشد هائل ، فيلقاهم بابتسامة ودودة هادئة حانية ، ويمد كفيه الرحبتين ليتحفن أكف التلاميذ كومة بعد كومة بعد كومة بين كفيه . وفى الفصل كان صبورا هادئا فى شرحه لقواعد اللغة أو فى مناقشته لموضوع انشاء . ولم يكن

كل هذا ، على أهميته ، أهم مما كان يتبعه معنا . كان يختار من بين تلاميذه من يتوسم فهم استعدادا طيبا للغة فيعطيه كتابا . قد يكون كتابا فى التاريخ أو الأدب ليقرأه ويكتب مجرد تلخيص له . ولأن التلاميذ كانوا يحبونه أو يحبون فيه أبوته فإنهم كانوا حريصين على أن يقرأوا بعناية وأن يكتبوا ما يعن لهم بعناية . كان الحب هو معلمنا الأول متمثلا فى هذا المعلم .

ولم يكن هذا الأستاذ متفردا فى هذا الحرص . كان ناظر المدرسة استاذاً ، للغة الإنجليزية ، حريصاً كل الحرص على نسبة النجاح فى مدرسته وخاصة فى الشهادة الإبتدائية. كان تلاميذ السنة الرابعة مقسمين إلى فصلين لا يزيد عددهم فى الفصل الواحد على ثلاثين طالبا . بلغ من حب الرجل لمدرسته ومادته أنه خصص لكل من الفصلين حصة واحدة فى الأسبوع . لم يكن يتناول فيها المقرر الدراسى من قريب أو بعيد ، بل كان يخرج علينا بتدريبات فى اللغة لا علاقة لها بالمقرر اطلاقا ، الهدف الأول منها أن يزيد من حصيلتنا اللغوية وأن يعمق حسنا اللغوى . وكانت الحصة ، حين يدخل ، مباراة بين الجميع ، وقدح ذهن بين الجميع ، حبا للرجل وأسلوبه فى التعليم .

كان التعليم آنذاك تعليما يجمع بين الكتاب الذى يعمق عقل الطفل ولا يسطحه والذى أعده متخصصون على قدر عال من العلم والدقة فى جميع المواد ، وبين المدرس الجيد الذى يعمل بضمير ، وبين منهج علمى يهدف إلى تكوين عقلية التلميذ . لم نكن نعرف آنذاك ما هو الدرس الخصوصى . ومازلت أذكر بعض الكتب التى كان لها أكبر الأثر فى تكوينى . أذكر منها مثلا كتاب «القراءة الرشيدة» الذى كان مقررا علينا فى الإبتدائى . كان يجمع نماذج للشعر من أمهات الكتب ونماذج من الشعر من عيون الشعر الجاهلى والمعلقات . حدث منذ سنوات أن عثرت على نسخة منه لدى صديق ، فرحت أقلب فيها وأتعجب كيف كان بامكاننا أن نفهم وأن نستوعب تلك النماذج العميقة الصعبة . وفى الثانوى كان لدينا كتاب مطالعة إنجليزية بالغ الصعوبة يمثل حجر عثرة فى سبيل كثير من الطلاب . لكنك ما أن تتبع شروح المعانى حتى تجد نفسك قد تمكنت إلى حد بعيد من اللغة فيفتح أمامك الباب إلى مزيد من المعرفة . وهكذا كانت كتب الجغرافيا والتاريخ وغيرها وغيرها . وكان تعليما يقوم على تدريب عقل الطالب وتكوينه ، وتوجيهه فى حدود قدراته ومهاراته .

دور هام للأم

فى البيت كانت هناك مدرسة أخرى . فى أمسيات الشتاء كانت أمى تجمعنا حولها وهى تشوى لنا «أبو فروة» وتحكى لنا الحواديت التى تعلمتها عن أمها فى احدى قرى الشرقية. كانت حواديت عن الذئب والعنزات الصغيرات أو عن الجنيات وأمنا الغولة وابنة السلطان وما إلى ذلك . كانت قصاصة بارعة وهى تغير من ايقاعات صوتها لتخلق الجو المناسب وتحلق بنا

فى آفاق الخيال ، ونحن نجلس أمامها مبهورين كلما انتهت من حدوتة نطلب منها أن تعيدها مرة ثانية . أصبحت الحواديت من أحب الأشياء إلى قلوبنا .

وكان بالحى مكتبات صغيرة كثيرة بها قصص للأطفال لايزيد حجمها على حجم الكف تباع بقرش . لكننا ما أن نفرغ من واحدة حتى نعيدها لنأخذ قصة أخرى ندفع فيها نصف قرش . أدمنت قراءة هذه القصص وأنا فى المدرسة الإبتدائية حتى أننى حاولت ذات مرة أن أكتب قصة على غرارها . رحت أكتب صفحات وصفحات قبل أن أكتشف أننى فى الحقيقة أعيد كتابة قصة من تلك القصص التى قرأتها وأعجبت بها أشد الإعجاب . بل إننى لاأزال أذكر إلى اليوم عنوانها ، «الطيور البيضاء» وإن كنت قد نسيت أحداثها .

فتحت لى الحواديت التى كانت تحكيها لنا أمى والقصص الصغيرة التى ولعت بها باب حب القراءة . وكان متاحا لنا فى تلك الأيام سلسلة «روايات الجيب»، «ومسامرات الجيب» التى كانت تقصص مغامرات الفرسان ومغامرات اللص الشريف أرسين لوبين وروكامبول وجون سنكلير والروايات البوليسية تعرفنا منها رغم ذلك على اسماء كتاب مشاهير مثل رافايل سباتينى وفيكتور هيجو وغيرهما . وحين تجاوزت تلك المرحلة وجدت أمامى «زينب» هيكل ، «أيام» طه حسين ، و «أهل كهف» الحكيم . ومن الشعر ، فيما عدا الشعر الذى كنا ندرسه فى المدرسة لشوقى وحافظ والبارودى والجارم وغيرهم ، كان أول ديوان أقرؤه هو ديوان محمود حسن إسماعيل «أغانى الكوخ» وتمسنى مسا عميقا ايقاعات قصائده وبساطة لغته وتعبيره عن تجارب البسطاء .

فتح لى هذا كله بابا واسعا إلى الأدب . وربما شجعنى على هذا اللون من القراءة ، بالإضافة إلى استعداد طبيعى فيما أعتقد ، أخى الأكبر – رحمه الله – حين كنت لاأزال أصبو فى المدرسة الإبتدائية كان هو قد التحق بقسم الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة . كانت القراءة عشقه هو الآخر منذ نعومة أظافره حتى أنه كان حين يشارك أصدقاءه لعب الكرة «الشراب» فى الشارع يقف حارسا للمرمى بين قالبى الطوب اللذين يشكلان حدود المرمى ، وهو يقرأ فى كتاب ولك أن تتخيل عدد الأهداف التى لم تكن تهز له شباكا وان اخترقت مرماه عن يمينه ويساره وبين قدميه !

كانت كل هذه التأثيرات وغيرها من التجارب العاطفية البريئة المبكرة ما جعلت من الأدب فى عينى أفقا متراميا مثيرا لا حدود له ، عالما آخر يحوى كل عوالم الأرض والنجوم والكواكب والكون الغريب . كان هو فى حد ذاته كونا متراميا غريبا حتى أننى حين حصلت على شهادة الثقافة فى السنة الرابعة الثانوية ، وكان علىّ أن أحدد مجال تخصصى فى السنة الخامسة لأحصل على شهادة «البكالوريا» فضلت القسم الأدبى على العلمى رغم كل ما يطرحه

عالم العلوم عليّ في مجالات الفلك والنبات والكيمياء والحيوان والإنسان . ورغم رغبة أبي الشديدة في أن يكون له من بين أبنائه من يلتحق بكلية الطب ، فإنه لم يعترض مطلقا على اختياري . قال لي برنة أسى ، «أنت حر ، يابني ، في اختيارك !» .

أنا والسياسة

في المدرسة الثانوية بدأ تفتحي على عالم السياسة . كانت البلد تموج في أوائل الأربعينيات بتيارات سياسية شتى : الوفد . الأحرار الدستوريون . الأخوان المسلمون . الشيوعيون . مصر الفتاة ، الحزب الوطني . كانت معظم برامجها تدور حول الاحتلال الإنجليزي ومعاهدة ١٩٣٦ ومعاهدة صدقي - بيفن اللتين لم تثمرا عن الاستقلال بعد أن كابدنا في تاريخنا الحديث الاحتلال الفرنسي والعثماني والمملوكي . حاول بعض الزملاء اجتذابي ، دعوني إلى حفل شاي في مدرسة في شارع جزيرة بدران . ذهبت وأنا غافل عن مقصدهم ، فإذا بنا نجلس في غرفة يضيئها مصباح أصفر على «دكك» صفت على جوانب الغرفة . وتكلم فينا شخص . ألقى علينا موعظة لم تكن مما كنت أسمعه حين أتردد على الجامع . ثم دخل علينا شخص ما يحمل على يديه فوق رأسه طاولة تحمل قطع «الجاتوه» وهو يصيح ، «الله أكبر ولله الحمد» لم أستطع لحظتها أن أفهم العلاقة بين اغراء قطع الجاتوه التي كان من الواضح أن الجميع ينتظرونها بفروغ صبر وبين ذكر اسم الله . لم أعد إلى هذه الحفلات بعد ذلك .

وذات يوم آخر أسر لي زميل آخر أنه قد قدم اسمي إلى الحزب بصفتي متعاطفا . سألته ، «أي حزب ؟» قال همسا «الحزب الشيوعي» غير أنني من بين كل تلك التيارات السياسية كنت أميل إلى «الحزب الوطني» وإن لم أنضم إليه . كانت شخصية محمد فريد تأسرني ، بقدر ما كانت تأسرني أحاديثنا الجانبية في أركان مدرسة شبرا الثانوية مع الصديق القديم الجديد أبدا د. يحيى الجمل وصديق آخر لا أذكر من اسمه الآن إلا «الصوفاني» لكنني في نهاية الأمر اكتشفت ، رغم اشتراكي في اضرابات الاربعينيات والتي كان شعارها «الجلاء بالدماء» واشتراكي في تبادل التراشق بين طلبة مدرسة شبرا الثانوية ، وروض الفرج (فاروق الأول حينذاك) ، ومدرسة التوفيقية ، ومدرسة الصنايع من ناحية ، وبين الشرطة بالحجارة والرصاص ، إن السياسة لم تكن مجالي ، بقدر ما كان مجالي الفكر الإنساني . وإذا كانت الفلسفة قديما تعني كل مجالات الفكر الميتافيزيقي والتاريخ والاجتماع والأخلاق والفلك والطب والسياسة إلى غير ذلك في كل ما يتعلق بحياة الإنسان على كوكب وفي مجتمع ، فقد أثبت الأدب أنه الوريث الوحيد لكل هذا ، وأنه فلسفة العصر .

لهذا كان اتجاهى إلى دراسة الأدب . اخترت الأدب الإنجليزى لأنه نافذة على آداب الغرب وكان الأدب العربى متاحا لى بصفة العربية هى لغتى الأم . كانت الجامعة شيئا جديدا مثيرا . مهيبة فى مبانيها وأساتذتها وعمدائها ، مهيبة فى مداخلها إلى العلم . كانت شيئا يدعوك إلى أن تأخذ كل ما فيها بجدية ، بصفتها رمزا لاحترام العلم والفكر . وكان عليك أن تأخذها بجدية . فأنت تدخل على مناهج فكر مختلفة أكثر تطورا من كل ما عرفته وأكثر تعقيدا ، تطلب منك أن تعطيها كل ذرة فى كيانك إذا كنت تحترم هذا الصرح وتحترم ذاتك .

رغم أننى كنت أتيه بمعرفتى باللغة الإنجليزية من خلال ما تعلمته فى المدرسة الإبتدائية والثانوية على مدى تسع سنوات ، فإن أول رواية كان علىّ أن أقرأها كانت رواية «جولد سميث» قس ويكفيلد . أذكر تماما أن الصفحة الأولى كان بها عشرون كلمة جديدة لا أعرفها . حاولت أن أستنبط منهجا . أدركت أن تعلم اللغة ليس لعبة . عملت لنفسى قاموسا موجزا . كنت أرجع إلى القواميس لأعرف المعنى . أخط الكلمة والتعبير والمصطلح وتفسيرها فى دفتر صغير . كان هذا قاموسى الصغير الذى أعود إليه فى لحظات فراغى ، سبيلى إلى تكوين حصيلتى اللغوية .

لكن الأدب ليس لغة فحسب ، فليست اللغة إلا مدخلا إلى الفكر وفنيات العمل الأدبى ، ولحسن الحظ أن قسم الأدب الإنجليزى يقع أمام المكتبة العامة للجامعة . وكان الممر بين المبنيين خلية نحل من طلبة وطالبات يستغلون الدقائق العشر بين المحاضرة والمحاضرة لكى يسارعوا إلى إعادة مرجع أو طلب آخر ليلحقوا بالمحاضرة التالية .

لم تكن الدفعة تزيد على خمسين طالبا وطالبة . ولهذا كان من الممكن أن يكلفنا الأساتذة بخمسة أبحاث فى كل سنة بحيث لا يتخرج الطالب إلا وقد عمل عشرين بحثا على امتداد السنوات الأربع . وكانت المكتبة معدة لهذا اعدادا جيدا وفهرسة جيدة . ولما كنت طالب امتياز فقد كان علىّ فوق كل هذا أن أدرس فى السنة الثالثة والرابعة مقررين اضافيين وأن أقدم فى كل منهما بحثا . تعلمنا أساليب البحث العلمى، وأصابتنا حرفة الأدب . ورغم هذا كانت لنا ساعات وأيام فرح ومرح ولهو ولعب وتسلية تزيد من بهجة الدراسة وتعيننا عليها .

حين حصلت على الدرجة العلمية الجامعية ذهبت إلى أبى فى مكتبه . نظر فى وجهى . قلت ، «الحمد لله نجحت» قال ، «هل حافظت على الامتياز ؟» قلت ، «الحمد لله» لم تبد على وجهه إلا ابتسامة صغيرة . قال ، «الآن عُد إلى البيت !» .

ولم يكن الحصول على الدرجة العلمية إلا مقدمة لسنى تكوين أخرى لم أنته منها إلى ليوم .

• مصر الوفاء •

عاشق مصر .. رافع راية العشق بلطف المريد سرا وجهرا
هذه مصر .. والخلود فخار الدهر .. من ذا الذى يفاخر مصرا ؟
فإذا ما القضاء سدد سهما .. كان رب القضاء منه أبرا
كلما أذن المؤذن عصرا .. جاوبت صوته الكنيسة عصرا
وتلاقى الجميع ، بين يدى رب رحيم .. يثيب دنيا وأخرى
فالمسيح المبعوث نورا وخيرا .. حب طه المبعوث نورا وخيرا
أتيا للأمان ، للحق ، وارتادا طريق الخلاص شبرا فشبرا
رحمة الله حيث تدنو لمن أصفى المعالى شمسا ، وفجر فجرا
.. تلك مصر الوفاء .. سلم وحرب واعتزاز بكل من عاش حرا
يا بلادى : وأنت نبض فؤادى .. كنت طول الزمان فخرا وذخرا
فيك تسرى الصبا على زورق المجد ، فتنساب للصبابة نهرا
وتغنى الطيور أغنية العشاق .. لا تنثنى فتغرى وتغرى
ولدى الأفق بهجة بشعاع راح قبل الظلام ينسج بدرا
روعة ، تجعل الذى يتملاها .. يحيى ربيع الكلام نثرا وشعرا
هذه مصر ، كعبة الطائف الشادى ، وقدس لمن تسامى ومسرى
مثل ياقوتة أفاض عليها النيلُ .. فازينت بهاء ، وسحرا

أحمد عبد اللطيف حسب الله
موجه التربية الاسلامية
إدارة دمنهور التعليمية

• بعد الزلزال •

قاهرة المعز يا قاهرتى
لا تتركى الكون رضيعاً باكيا
يبحث عن صدرك
ولتضمدى جرحك بالحب الذى
يرسله الأحباب غيثا وافيا !!!

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج

• العدد التذكارى •

شكرا للهلال على العدد التذكارى الذى أصدرته فى شهر «أكتوبر» فقد كان حقا عيداً زاخراً بالعديد من المقالات الجميلة والشيقة التى تضمنتها أعداد الهلال طوال الأعوام المائة الماضية ، وأعنى من الهلال أن تختار لنا فى كل شهر مقالا من المقالات القيمة التى تضمنتها أعداد الأعوام المائة الماضية حتى يواصل الحاضر بالماضى ، وتمنياتى للهلال بالتقدم الدائم .

إبراهيم عبد المعطى متولى
كلية الآداب بقنا

• ذكرى الزعيم غاندى •

فى ذكرى مرور ١٢٣ عاماً على ميلاد زعيم الهند المهاتما غاندى نهتف له وللسلام الذى دعا إليه وعاش له وقتل من أجله ! إن لم نبرز سيرته للأجيال الشابة . وإن لم ترفع لواء السلام والوحدة والحب فكأنما نطلق الرصاص من جديد على هذه الروح العظيمة التى ستظل إلى الأبد متوهجة لأن الرصاص لا ينال من الأرواح .

زغلول توفيق - بنى سويف

• بيع النفس •

أتيت إلى الحياة برغم أنفى . ' . ولو خيرت لاخترت الرجوعـا
فإنى ما لقيت العيش إلا . ' . شقـاء دائماً وظمئاً وجُوعا
ولو تبتاع نفس بعت نفسى . ' . ولكن لا تسـاوى كى أبيعـا

بشير رفعت سعيد محمد
الخادمية - كفر الشيخ

• ملكة .. جمال •

قـد طـاف فى كـل الدنـا يتـألـق
رسـم بـه الحسنـاء كم تتـأنـق
فـازت بجـائـزة الجمـال سـنيـة
فتضئ بسمتـهـا بـذاك وتـشرق
والكـل يطـمع أن يفـوز بـلـفـتـة
ممنهـا - على بعـد - فلا تتحقـق
فيعـود مكتـفيا بـرؤيـة رسـمـهـا
وإلـيـه ينظـر قـانعـا ويحـملـق
شـقـراء أو سـمـراء قـد عقدوا لـهـا
تـاجـا بمفـرق رأسـهـا يتـألـق
فـتـربعـى فـوق القـلـوب مليـكـة
عـرش الجمـال بـهـا أحـق وأخلق
حسـنـاء كـوخ ضـمـهـا .. ولـربـمـا
بـزت سـواهـا بالجمـال وتسبق
سبحـان من قسم الحظـوظ على الورى
يهب الجمـال لمـن يشـاء ويـرزق

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع - منوفية

• أقصوصة :

• قطرة موت •

لن آتى إلى هذا العمل المهين بعد اليوم ..

هكذا قررت وأنا جالس بين الرجال الذين يعملون معى لتناول وجبة الغذاء فى ظل شجرة النبق الضخمة التى تقف على رأس الغيط .

أنا لم أخلق لكى تكون حياتى شقاء هكذا .. أخرج من البيت قبل مطلع الفجر حاملاً فأسى الثقيلة فوق كتف هزيل نحيل ، وأظل أعمل في الأرض تحت شمس الصيف الحارقة مع حفنة من غلاظ الطباع قليلى الحياء ، حتى يأتينا صاحب الأرض فيما بين الظهر والعصر - بعد أن يكون الجوع قد التهم أمعاءنا وأنهك قوانا- يأتينا بصحن كبير من « المش » القديم وملء «منديل محلاوى» من البصل وقليل من الخبز ، وبعض حبات من الطماطم ..

فى أقل من نصف الساعة ننهى مهمة الأكل .. ونقوم إلى عملنا القاسى حتى أنغماس الشمس الواهنة فى لجة المساء ، فنعود إلى بيوتنا جثثاً متحركة ..

لا لم أخلق لهذا العمل .. إننى رجل متعلم حاصل على شهادة «الليسانس» فى الأدب الإنجليزى .. ذو سعة فى الثقافة .. نهم بالاطلاع والكتابة الأدبية لن آتى إلى هنا بعد اليوم .. إننى أتآكل من الداخل .

فى آخر النهار قصدت صاحب الأرض فى بيته لأخبره أننى لن أعمل معه بعد اليـوم ليتفق مع أجير غيرى .. فى الطريـق سمـعت من ينـادى : « يا ولد يا .. » إنه هو صاحب الأرض التى أعمل فيها .. اتجهت إليه .. لم ينبس بكلمة واحدة .. ولكنه وضع يده فى جيب جلبابه الداخلى وأخرج حافظة جلدية منتفخة وسحب منها عشرة جنيهات :

- خذ أجر غد وبعد غد .

تذكرت أبى المريض وأخوتى الصغار الذين يطالبونه بزى المدارس الجدد .. مددت يدى أخذت الجنيهات العشرة ، ومشيت نحو البيت لأنام مبكراً .

رمضان عبد اللطيف حامد
البحر الأحمر - الغردقة

● أقصوصة :

● العجوز والحقل ●

ننتفض من شدة البرد تلبد أجسامنا داخل أجسامنا ، تحتوينا ملابسنا الثقيلة بين أحضانها ، نهرع خارج قريتنا حيث الجدار الطينى القابع بجوار الحقول ننتظرفى لهفة أشعة شمس الشتاء الدافئة التى تتلقفها أجسامنا الغارقة فى البرودة فيتسرب لها الدفء شيئا فشيئا ويقبع البرد فى ركن قصى .

نلعب نمرح نملأ الخلاء المحيط بنا صحيحاً ولكن أعيننا دائما معلقة علي الطريق الترابى الطويل المتصل بقريتنا ، تتهلل وجوهنا بالبشر عندما يظهر لنا عن بعد بظهره المقوس مرتديا البالطو الصوفى الذى لا نراه على جسده إلا فى أيام الشتاء ، وتعلو قمة رأسه عمامته البيضاء ، وقد قبض بقوة على عصاه الخشبية العتيقة التى يدق بها الأرض دقا فتثير حوله مسحة من غبار تكدر صفاء الجو فى ساعات الصباح الأولى .

يرمى علينا السلام بصوته القوى الذى لم تفلح السنون بطولها فى أن تخفف من حدته ، يتكئ بظهره على الجدار القديم الذى تصدعت أركانه وصار ينذر بالانقضاض فى أى لحظة ، يعقد حاجبيه الأبيضين ويزم شفتيه فتظهر بوضوح التجاعيد التى تملأ صفحة وجهه ، عندما يكون الكلام على أهبة الانطلاق من لسانه ، يخم علينا الصمت نرهف السماع إليه فتصبح قطعة منه ، يتحدث بقوة عن النيل وتسابق الفلاحين فى جمع محصولهم قبل أن يغمر أرضهم بالماء الكثيف .

يصمت قليلا وهو يحدق في الأرض الزراعية وقد اختفى منها الزرع وقامت فوقها البيوت المشيدة بالخرسانة ، ثم يقول : كانت هذه أرضا يزرعها الفلاحون .. أما الآن . فكما ترون !

وانتظرنا أن يأتى فى اليوم التالى ، ولكنه لم يأت فقد مضى يبحث عن أرض بعيدة ما زالت تعيش فوقها الحقول الخضراء ..

خلف أحمد محمود
عوامر المسيرات - سوهاج

● مع أصدقائنا ●

رشا فراج – كلية الآداب – جامعة القاهرة :

– قصائدك التى أرسلتها إلينا تقل فيها الأوزان ويكثر فيها النثر .. حاولى أن تتفهمى الأوزان .

فارس عبد الشافى عطية – كلية الآداب – جامعة الأسكندرية :

– قصيدة « أمنية » التى تلقيناها منك ذات أوزان صحيحة ، ولكن ينقصها النسج المتين ، والمعنى الجيد ، فليس الشعر مجرد أوزان ..

رمضان الهجرسى – السنبلاوين :

– أشعاركم تختلط فيها الأوزان الصحيحة والأوزان المكسورة ، كما تختلط اللغة الصحيحة واللغة غير الصحيحة ...

عصام راسم فهمى – أسوان :

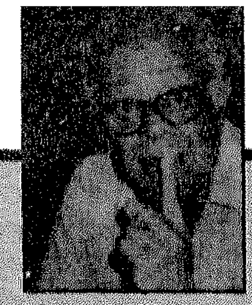
– قد تكون قصتك المسماة « تفاصيل من الليل » جيدة فنيا ، ولكن رائحة «الطائفية» تفوح منها لغير داع فكرى أو سبب فنى ..

فيصل أحمد حجاج – كلية حقوق الاسكندرية :

– قصيدتك «حكمة الأقدار» صحيحة الأوزان .. ولكن قولك « أنا طالما راض على إلهى » تعبير غير عربى ، فإن استعمال « طالما » هنا خطأ فاحش، ولكن من الأخطاء الشائعة على الأقلام فى هذه الأيام ، بما فيها أقلام كبار الكتاب ! وكذلك قولك : « وتطيبى بالصبر علك تهتدى » .. والصواب «تهتدين» ولكن الوزن ينكسر ، فابحث عن صياغة جديدة لهذه الشطرة .

مجدى حسن الشافعى – المحلة الكبرى – سامول :

– قصيدتك عن الزلزال فيها بيت واحد يصلح للنشر وهو قولك : «قدرالله وما شاء فعل .. وقع الزلزال والخطب الجلل» .. أما بقية الأبيات فشتائم وإهانات توجهها إلى مواطنيك الذين روعهم الزلزال كقولك : « لا ترى فيهم شجاعا يدّعى .. أنه العملاق والرجل البطل » فهذه تشبه الشماتة ، ثم إن استخدامك كلمة «الرجل» هنا تخل بالوزن إذ ينبغى أن يكون حرف الجيم ساكنا وهو شئ ردئ ، وثمة كلمات كثيرة كنت تستطيع استعمالها لا تخل بالوزن ، فابحث عنها ..



فى غيبة العرب

بقلم : محمد عوده

احتدم طوال هذا العام أطول حوار فى هذا القرن شارك فيه العالم كله الأوربيون والأمريكيون والأسيويون والأفريقيون وبصفة خاصة وبعنف الأمريكيون اللاتينيون ، والهنود الحمر والسكان الأصليون فى الأمريكتين !

وكان محوره شخص كريستوفر كولومبس الذى مرت خمسمائة عام على أكتشافه لأمريكا فى ١٢ اكتوبر سنة ١٤٩٢ ، وهل ذهب مغامرا قرصانا يبحث عن الذهب وكنوز الشرق أم مكتشفا يحقق حلما ويحمل شعلة .. وبلغ الاحتفال ذروته فى محاكمة دولية كبرى عقدت فى جمهورية الدومينيكان أول أرض وطأتها قدماه ، وعددت الجرائم والفظائع التى ارتكبها ولا تزال آثارها ممتدة حتى الآن ..

وعلى الجانب الآخر كان « البابا » ورئيس الجمهورية يزيحان الستار عن أكبر تمثال فى «أمريكا اللاتينية » تكلف سبعين مليون دولار تمجيدا لمن حمل الحضارة .. وكلمة المسيح إلى الدنيا الجديدة !!

وسارت جموع المظاهرات وعقدت الاجتماعات الحاشدة فى جمهورية الدومينيكان وفى بيرو وبوليفيا ، وكولومبيا المسماة باسمه تنديدا بالتاريخ « المشئوم » واحتفلت المكسيك فى نفس اليوم بذكرى استشهاد الزعيم « برومينا هوى » الذى قاد المقاومة وحينما أسر أحرقه الاسبان حيا .. على طريقة محاكم التفتيش .

وسارت مظاهرة من عشرة آلاف من الهنود الحمر تهتف ضد خمسمائة عام من « القهر والنهب » بدأت بوصول كولومبس إلى الأرض الجديدة !

وانقسم الرأى فى الولايات المتحدة نفسها ولم يحسم بعد إذا ما كان الاكتشاف نعمة أم نقمة ، ولم تفت الاسرائيليين الفرصة وشاركوا بكتاب عن كولومبس يثبت أنه كان يهوديا ورمزا لعبقرية الشعب ولولاه لما كانت أمريكا !

طرف واحد رئيسى لم يشارك ولم يسمع بالحوار فيما يبدو ، ولم تنعكس لديه أصداؤه .. وهم العرب .

وبدوا وكأنهم لا يعرفون ولا يتذكرون أن ما يسمى عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى كان

موجها أساسا إليهم واستمرارا للحرب الضارية عليهم وبعد طرد العرب من الاندلس ، قررت اسبانيا والبرتغال ، استئناف الحرب الصليبية وتعقب اعداء الله والمسيح حتى آخر الأرض وتطهيرها منهم ، ولن ينالوا بركة « البابا » والثواب من عند الله فحسب ، ولكن سوف يسترنون أثمن ثروة فى العصر ، وهى تجارة الشرق والتى يسيطر عليها « الكفرة » العرب حتى ذلك الوقت .

وقد حاولت أوربا خلال مائتى عام من الحروب الصليبية المباشرة الاستيلاء عليها ولكنها باءت بالفشل الذريع وبأحد أكبر الهزائم فى التاريخ فى « حطين » ثم الهزيمة النهائية بأسر الملك القديس لويس التاسع آخر الصليبيين فى مصر .

وانتهى التفكير والتدبير إلى استراتيجية جديدة أطلق عليها الالتفاف حول ظهر الاسلام والوصول إلى الشرق عبر بحار الجنوب أو الغرب مفاجأة العرب هناك والقضاء عليهم .. ونشر كلمة المسيح والاستيلاء على الذهب والتوابل ..

وكانت تجارة الشرق حتى ذلك الحين فى يد مصر والبندقية ولهذا كانت مصر هدفا أساسيا ، وقرر البرتغاليون الاعتماد على مملكة الحبشة فى منع مياه النيل عن مصر ، حتى تجف أرضها وينقرض أهلها جوعا وعطشا !!

ووصل كريستوفر كولومبس إلى أمريكا فى ١٢ اكتوبر سنة ١٤٩٢ ، ولم يخطر بباله أنها عالم جديد ، « ولكن الهند ، وسميت جزر الهند الغربية » وبعد ست سنوات وصل فاسكودى جاما البرتغالى سنة ١٤٩٨ إلى الهند حقيقة وفعلا .

وكان ذلك بداية العصر الحديث والنظام العالمى الجديد ، وعصر السيادة الغربية على العالم وانقسام الدول إلى امبراطوريات تسود فى الشمال ، وشعوب تقهر وتستعبد فى الجنوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

ولابد أن يذكر للسلطان الغورى آخر سلاطين المماليك أنه كان أول من أدرك مدى الخطر الداهم الذى لم يدركه العثمانيون ، وسارع بعقد حلف دفاعى مع حاكم مالابار فى الهند ، وسار الاسطولان الهندى والمصرى تحت قيادة ابرع أمراء البحر المصريين « المير حسين » وكاد النصر ان يتحقق لولا خيانة حاكم جزيرة هندى غيرت التاريخ !!

وألهبت الثروة الفاحشة التى تدفقت على اسبانيا والبرتغال ، حقد وغيرة أوربا كلها وبدأ الصراع الدامى على المستعمرات ، واقتسام القارات الثلاث وبلغ ذروته فى الحربين العالميتين ومازال على أشده فى صور أخرى .

وكان غريبا ألا يشترك العرب فى الحوار الذى استغرق العام بأكمله ألا يتذكروا الفصل الأول من مأساتهم المعاصرة !!

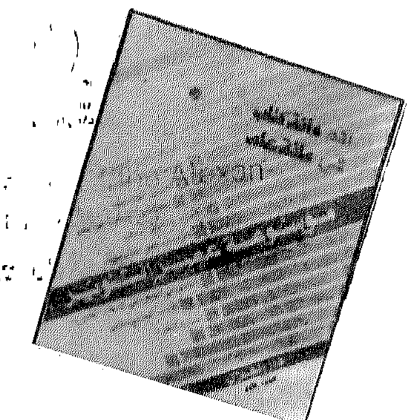
سجل الهلال المصور

١٨٩٢ - ١٩٩٢

٣٤٧٠ صورة فى ١٤٥٠ صفحة

تعبير صادق عن الحياة السياسية والاجتماعية والفنية والأدبية فى « مصر » فى ١٠٠ عام
يصدر فى جزءين - ثمن الجزء ٥٠ جنيهاً

موسوعة عصر التنوير



أهم كتاب فى ١٠٠ عام

الجزء الأول - الثمن ٣٠ جنيهاً

تطلب من مكتبة دار الهلال والمكتبات الكبرى

القيمة فى البلاد العربية	القيمة فى باقى دول العالم
السجل ٦٠ دولاراً	٧٥ دولاراً
الموسوعة ٢٥ دولاراً	٣٥ دولاراً

والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وترسل النسخة بالبريد السريع الدولى فى خلال ٤ أيام من استلام الشيك .

روايات الهلال

تقدم

سراج

بقلم

رضوى عاشور

تصدر ١٥ ديسمبر ١٩٩٢



مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا ...